مذكرات

يوكيم غارف

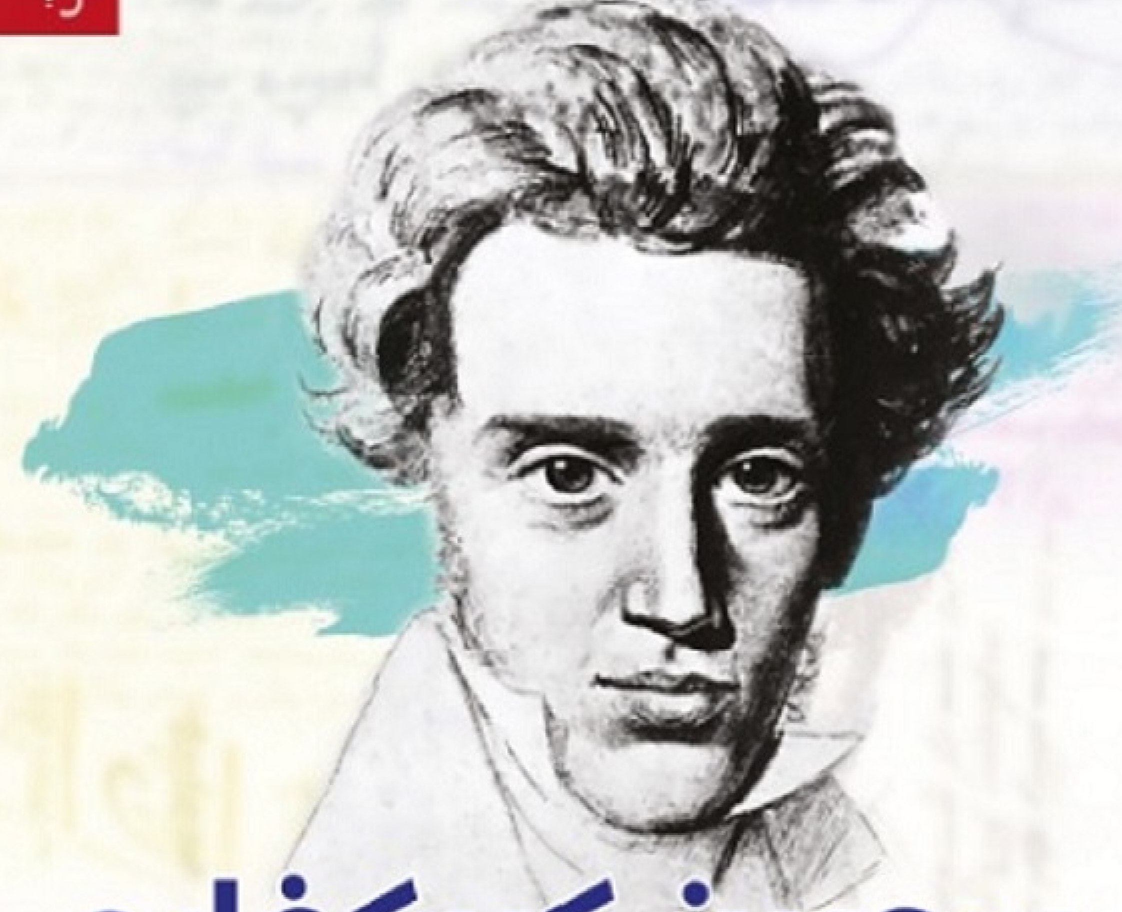

سورين كيركغارد

سيرة حياة

ترجمة: عبد الإله النعيمي

سورين كيركغارد

سيرة حياة

سيرة

Author: **Joakim Garff** — اسم المؤلف: يوكيم غارف

Title: **Søren Kierkegaard** — عنوان الكتاب: سورين كيركغارد «سيرة حياة»

Translated by: **Abdul Ilah Al-Nuaimi** — ترجمة: عبد الإله النعيمي

Cover Designed by: **Majed Al–Majedy** — تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al–Mada** — الناشر: دار المدى

First Edition: **2019** — الطبعة الأولى: 2019

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Joakim Garff 2000

Published by agreement with GEC Gads Forlag, Copenhagen,

and Copenhagen Literary Agency ApS, Copenhagen

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.
هذا الكتاب مسؤولية الكاتب، والآراء الواردة فيه لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.
This book is the writer's responsibility, and the opinions contained therein do not necessarily reflect the opinion of the publisher.

يوكيم غارف

سورين كيركغارد

سيرة حياة

ترجمة: عبد الإله النعيمي

الخريطة 1

كوبنهاغن عام 1844

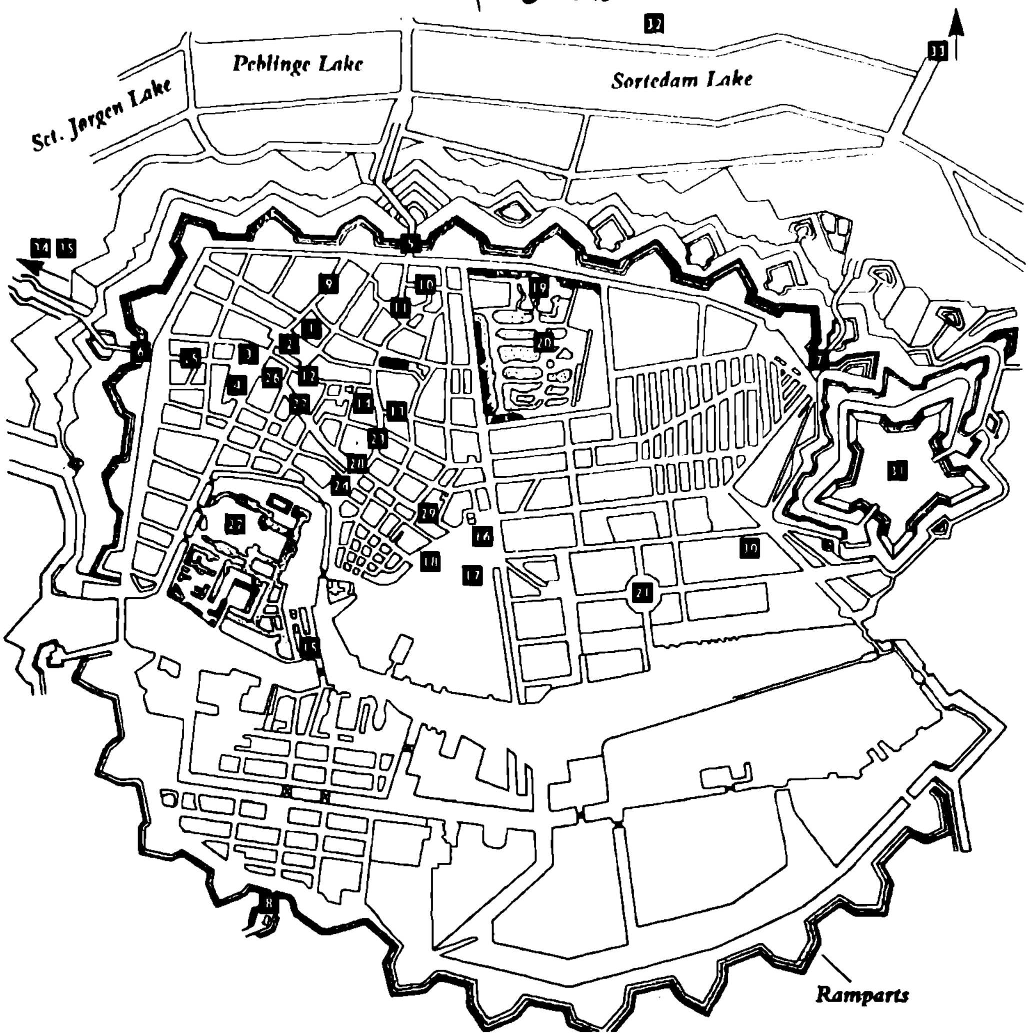

1ـ جامعة كوبنهاغن

2 - كنيسة سيدتنا

3 - غامِلتورف

4 - نيتورف [عاش كيركغارد في مبنى نيتروف 2 المهدَّم الآن، حتى أيلول/ سبتمبر 1837، ومن تشرين الأول/ أكتوبر 1844 إلى نيسان/ أبريل 1848].

5 - نوربورت

6 - فيستربورت

7 - أوستربورت

8 - أماغيربورت

9، نوريغاده [عاش كيركغارد في نوريغاده 230 أي، الآن رقم 38، من نيسان/ أبريل - تشرين الأول/ أكتوبر 1840 إلى تشرين الأول/ أكتوبر 1844، وفي نوريغاده 43، الآن رقم 35، من نيسان/ أبريل 1850 إلى نيسان/ أبريل 1851].

10 - روزنبورغاده [عاش كيركغارد في روزنبورغاده 156 أي، الآن رقم 9، من نيسان/ أبريل 1848 إلى نيسان، أبريل [1850

11 - كولتورفرت [عاش كيركغارد في كولتورفرت 132، الآن رقم 11، من أواخر 1839/ أوائل 1840 إلى نيسان/ أبريل - تشرين الأول/ أكتوبر 1840]

12 - كلاديبوديرني [عاش كيركغارد في كلاديبوديرني 5 - 6، الآن سكنديرغاده 38/ ديركوب 5 (عاش على جانب ديركوب الذي يطل على كنيسة سيدتنا) من نيسان/ أبريل - تشرين الأول/ أكتوبر 1852 إلى تشرين الأول/ أكتوبر 1855]

13 - مدرسة بورغرديد

14 - لوفستراده [عاش كيركغارد في لوفستراده 7 (الموقع المرجح، وهو مهدم الآن) من أيلول/ سبتمبر 1837 إلى حوالي حزيران/ يونيو 1838)15 - منزل عائلة أولسن].

16 - كونغنس نيتروف

17 - شارلوتنبورغ

18 - المسرح الملكي

19 - قلعة روزنبورغ

20 - الحدائق الملكية

21 - قلعة أمالينبورغ

22 - قلعة كريستيانسبورغ

23 - كوبماغيرغاده

24 - هوبيرو بلادس

25 - فريدريكسبيرغاده

26، نيغاده

27 - فيملكافتيت

28 - أماغرتورف

29 - أوسترغاده

30 - مستشفى فريدريك

31 - القلعة

32 - بليغدامسفيه

33 - أوستربرو [عاش كيركغارد في أوستربرو 108 أي (حيث يرتبط شارع فيليموسغاده بشارع أوستربروغاده) من نيسان/ أبريل 1851 إلى نيسان/ أبريل - تشرين الأول/ أكتوبر 1852)].

34 - هيل هاوس [باكيهوس]

35 - حدائق فريدريكسبيرغ

الخريطة 2

زيلاند الشمالية

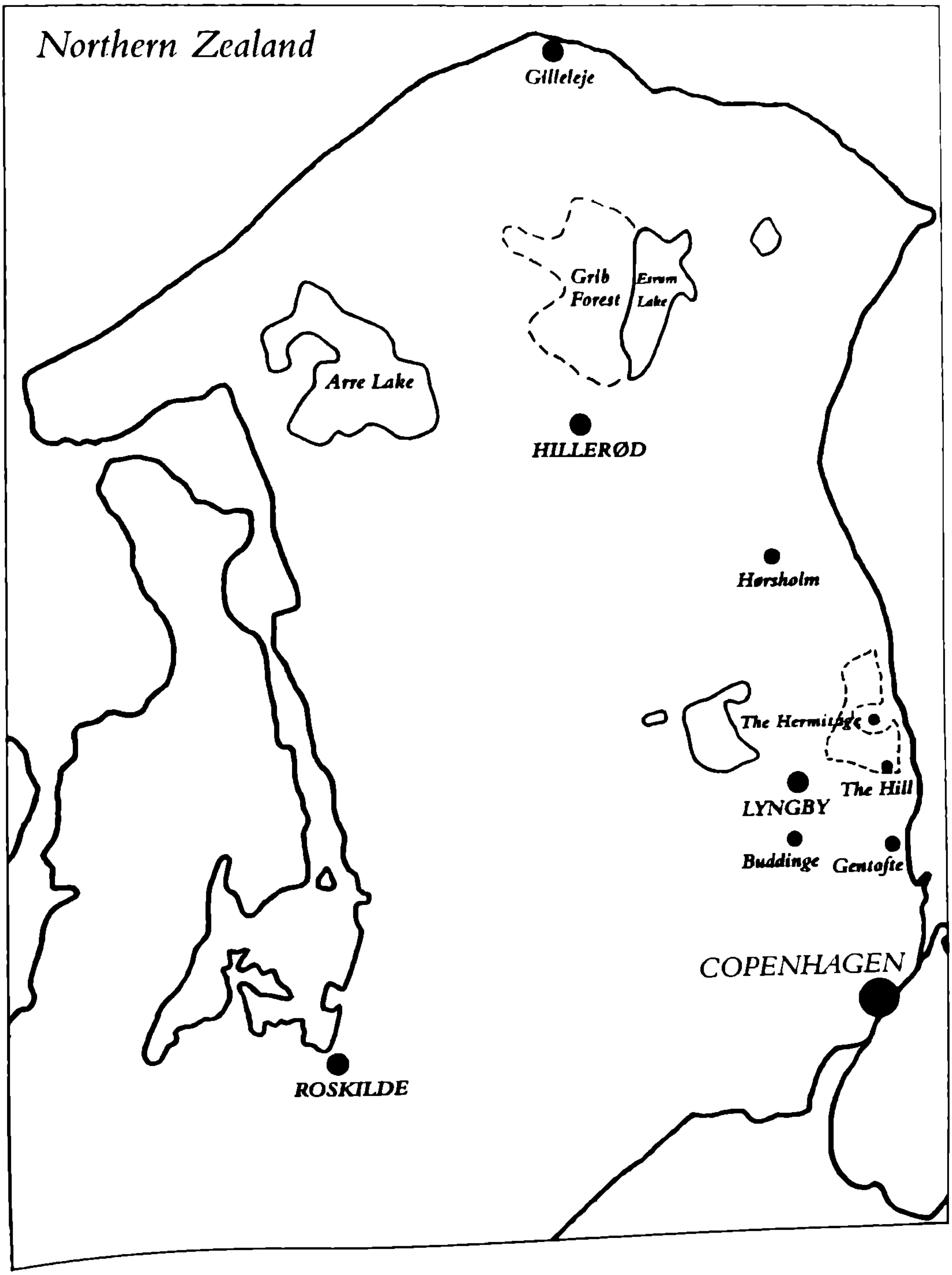

الخريطة 3

الدنمارك

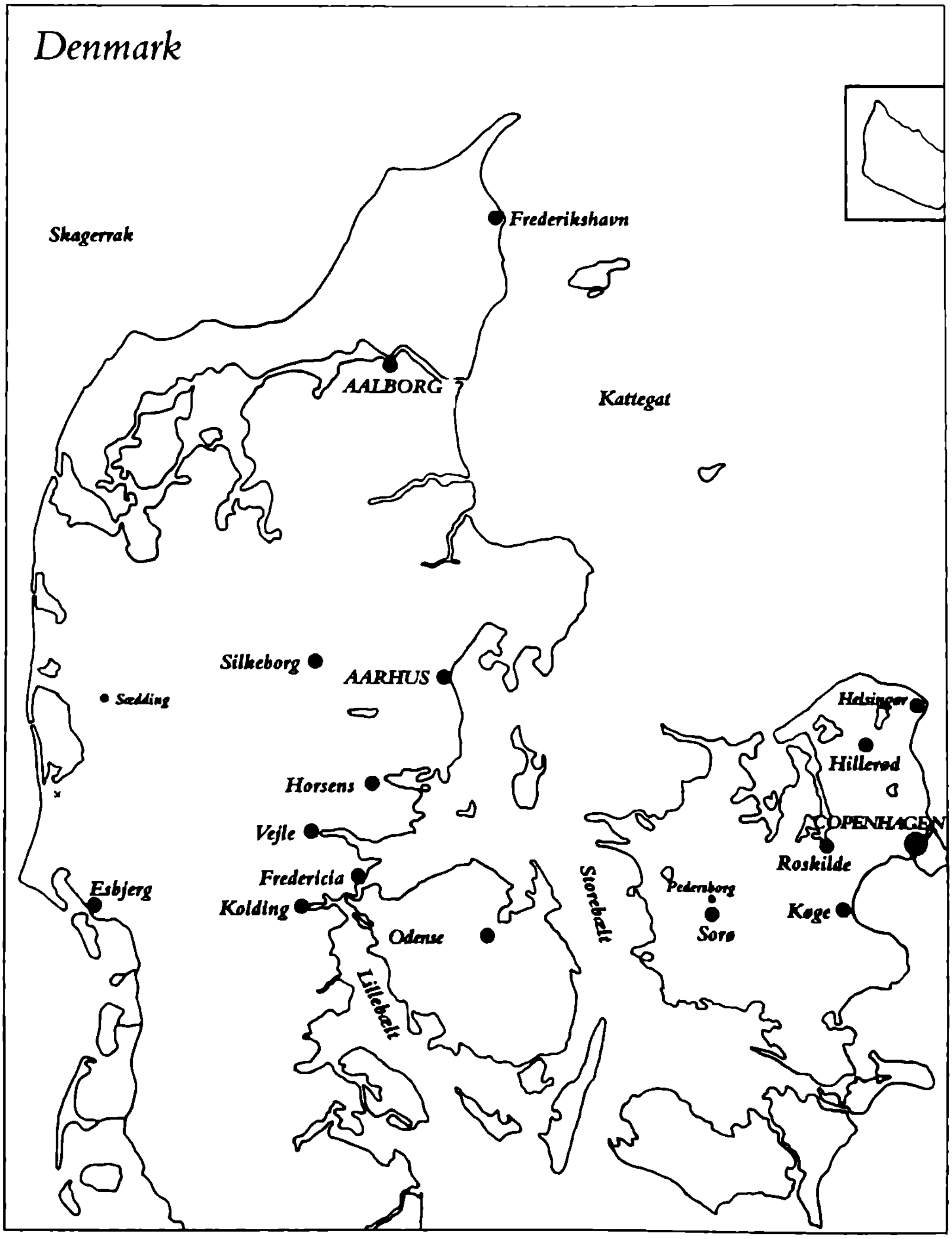

توطئة

كان الأسقف مارتنسن في مقره الرسمي، يقف مخفيًّاً بعض الشيء وراء ستارة. وكانت فتحة النافذة تطل على مشهد رائع عبر الميدان المجاور لـ «كنسية سيدتنا» مع وجود المدرسة المتروبوليتانية في الخلفية وجامعة كوبنهاغن على اليسار و«كنيسة سيدتنا» نفسها على اليمين. كان يوم أحد، 18 تشرين الثاني/ نوفمبر 1855 قبيل الساعة الثانية بعد الظهر. وفجأة اندفع عملياً حشد من الأشخاص المتلفعين بالسواد خارج الكنيسة متجمعين أولاً في حلقات صغيرة قبل أن يختفوا في كل الاتجاهات.

بعد ساعتين شق القلم الأسقفي المتفجر غضباً طريقه على صفحات رسالة إلى تلميذ مارتنسن وصديقه القديم منذ سنوات عديدة لودفيغ غودي الذي كان راعي أبرشية في هوسيبي في جزيرة لولاند قائلاً فيها: «اليوم بعد قداس أُقيم في كنيسة سيدتنا العذراء دُفن كيركغارد. وكان هناك موكب كبير من المشيعين (بطريقة مهيبة، يا لها من مفارقة!) فنحن نادراً ما شهدنا فظاظة تضاهي فظاظة العائلة بدفنه يوم أحد بين صلاتين دينيتين أُقيمتا في أهم كنيسة في البلاد. ولكن منع ذلك بقوة القانون كان متعذراً رغم أن منعه كان ممكناً بالسلوك المناسب الذي يفتقر إليه ترايدي هنا كما في كل مناسبة يكون مطلوباً فيها. تحدث شقيق كيركغارد في الكنيسة (بوصفه شقيقاً وليس راعي أبرشية). وهنا لا أعرف أي شيء بالمرة عما قاله وكيف قاله. وستصدر الصحف قريباً بسيل من قصص الدفن. أفهم أن الموكب كان يتألف بالدرجة الرئيسية من الشباب وعدد كبير من الأشخاص الغامضين. وفي حدود ما هو معروف، لم تحضر شخصيات مرموقة».

داخل التابوت – تردد أنه صغير تماماً – الذي نُقل بعربة إلى مدفن العائلة

في ذلك اليوم من أيام تشرين الثاني/ نوفمبر، سُجّي جثمان رجل أصبح بمرور السنين شخصاً صعباً بحيث الآن، بعد وفاته، لم يكن ممكناً في الحقيقة وضعه في أي مكان. فأين في العالم يمكن التخلّص من ميت صنع بمفرده ثورة لاهوتية خلال السنوات الأخيرة من حياته واصفاً القساوسة بأنهم من آكلي لحوم البشر، وقردة وأغبياء وغير ذلك من النعوت الجنونية؟ وأين المنطق في دفن شخص كهذا بمراسم مسيحية في أرض مقدَّسة؟ وأن يكون هذا الشخص نفسه خلَّف وراءه كمّاً من الكتابات التي لا تدانيها كتابات في سعتها وأصالتها وأهميتها في عصره، فإن هذا، بالطبع، لم يجعل الوضع أقل إيلاماً.

حين كاد مارتنسن ينتهي من كتابة رسالته إلى غودي، سمع بحدوث هرج في مقبرة أسيستنز، فواصَلَ رسالته بغضب شديد وكأنه صحافي يرسل تقريراً على الهواء: «علمتُ تواً بحدوث فضيحة كبيرة عند القبر. فبعد أن أهال ترايدي التراب على القبر تقدم أحد أبناء شقيقة كيركغارد، وهو طالب اسمه لوند، حاملاً بيده مطبوع «اللحظة» The Moment ونسخة من «العهد الجديد»، شاهداً على الحقيقة ضد الكنيسة التي دفنت كيركغارد «من أجل المال»، إلخ. ما زلتُ غير مبلَّغ بذلك عن طريق القنوات الرسمية ولكنه تسبب في إساءة كبيرة يجب برأيي أن تُقابَل بإجراءات جادة».

الشائعة التي بلغت أسماع المقر الأسقفي بهذه السرعة كانت صحيحة، وبعد أقل من يوم نُشرت الواقعة الفضائحية في جميع صحف كوبنهاغن اليومية تقريباً. وهكذا نقلت صحيفة برلينغسكة تيدندة Berlingske Tidende في طبعتها الصباحية مجرى الأحداث نقطة فنقطة، ونشرت في طبعتها المسائية ملخصاً لكلمة الرثاء التي ألقاها شقيق المتوفى الأكبر بيتر كريستيان كيركغارد في الكنيسة. وفي ذلك الإثنين نفسه صدرت صحيفة فلايِفه بوستن Flyve – Posten وصحيفة فادرَلانديت Faedrelandet أيضاً بتقارير إخبارية ومساهمات في الجِدال حول ما قد ارتكبه الموظف المسؤول من مخالفات، وبعد يومين صدرت مورغن بوستن Morgenposten مزمّرة: «لم يكد الرجل الذي أعلن أنه ليس مسيحياً رسمياً يسلم الروح حتى وضعت الكنيسة الرسمية يدها على جثمانه الأعزل من كل دفاع، وسرقته».

مارتنسن، بوصفه رئيس الكنيسة، لم يستطع، بالطبع، أن يجلس مكتوف

الأيدي متفرجاً على المعركة. ولكنه لم يتمكن من الكلام جهاراً - كان ذلك شديد الخطورة. وبصفته الرسمية تحرك على الفور ليطالب رئيس الشمامسة ترايدي بأن يقدم تقريراً تحريرياً عما حدث. ونعلم من هذا التقرير أن مراسم الدفن بدأت بالترنيمة الجنائزية المعهودة «مَنْ يعرف إلى أي حد قد يكون موتي قريباً مني» بعدها تحدث بيتر كريستيان كيركغارد «ببلاغة وبلياقة بالغة». وبعد ترنيمة أخرى أُخرج النعش من الكنيسة ونُقل بعربة إلى مقبرة أسيستنز حيث تولى ترايدي إهالة التراب. وما إن كاد ينتهي ذلك حتى تقدم هنريك لوند، وهو طبيب شاب، وبدأ يتحدث رغم اعتراضات ترايدي ووجود أفراد من الشرطة نُشروا في المقبرة تحسباً لأحداث اليوم. وبحسب ترايدي فإن لوند خاطب «الجمع الذي يتألف بالدرجة الرئيسية من أشخاص ينتمون إلى الطبقة الوسطى» ويقرب عددهم من 1000 شخص. وبدأ بالتشديد على علاقته الوثيقة بخاله الراحل ثم أوضح عداء خاله للمسيحية الرسمية، وفي النهاية قرأ عدة مقاطع من كتابات كيركغارد الأخيرة ومن رؤيا القديس يوحنا.

نصح ترايدي في تقريره بعدم إيلاء القضية مزيداً من الاهتمام ولكن مارتنسن كان له رأي آخر وطلب على الفور أن تقوم وزارة الشؤون الكنسية والثقافية بمتابعة القضية داعياً إلى اتخاذ إجراءات «تأديبية صارمة». في هذه الأثناء كتب لوند كلمته من الذاكرة ونُشرت في صحيفة فادريلانديت يوم الخميس 22 تشرين الثاني/ نوفمبر تحت عنوان «احتجاجي: ما قلته وما لم أقله». وبعناد وثورة بركانية أطلق لوند حممه اللفظية في كل اتجاه. ولكن بعد يومين، عندما حاول نشر متابعة بعنوان «في اللحظة التالية، ماذا حينذاك»، تجمد انسياب كلماته في كليشيهات متجلطة. وفي الوقت نفسه حل محل مزاج لوند الحاد قنوط عميق مؤدياً في أوائل كانون الأول/ ديسمبر إلى محاولة انتحار لم يجهضها في اللحظة الأخيرة إلا والده يوهان كريستيان لوند، وهو محام بارع وميسور اتصل بعد فترة وجيزة على ذلك بوزير الشؤون الكنسية والثقافية سي. سي. هال ملتمساً الرأفة وتخفيف حكم العدالة. فإن نجله لم يكن مسؤولاً، لا أخلاقياً ولا جنائياً. ولكن مارتنسن لم يتهاون وغمره القلق على مستقبل كنيسة الشعب وحس المجتمع بالحشمة وصفاقة الصحافة الشرسة.

وهكذا انتهى مآل القضية في النهاية أمام الدائرة الخامسة لمحكمة كوبنهاغن الجزائية في مقر البلدية القديم ومبنى المحكمة في ميدان نيتورف بجوار البيت

الذي عاش كيركغارد سنوات طفولته فيه. وطلب المدعي العام الحكم على لوند بالسجن، فيما طالب محامي الدفاع بالإفراج عنه. وكان الشهود يشتبكون في شجارات مع بعضهم الآخر، وطالت القضية إلى 5 تموز/ يوليو 1856 قبل أن يصدر الحكم فيها: غُرِّم لوند 100 ريكسدولار [وحدة النقد الدنماركية في زمن كيركغارد: 1 ريكسدولار = 1 مارك، 1 مارك = 16 شلن] على أن تُدفع إلى مكتب إغاثة الفقراء. واستمع الطبيب الشاب إلى الحكم دون أن تظهر عليه أي عواطف. وكان قبل أشهر على ذلك قام بجولة مقدماً آيات الاحترام للسلطات التي انطلق لمحاربتها. وكتب في رسالة إلى بيتر كريستيان كيركغارد «أدرك الآن أن الخطوة الصحيحة الوحيدة أمامي هي التخلي بالكامل عن المعركة التي أقحمتُ نفسي فيها، دون أن يدفعني أحد إليها، ونشدان كنيسة المسيح». ويُفترض أن أحد العوامل التي ساهمت في هذا الاستسلام الكبير أن لوند خضع خلال مطالع ربيع 1856، للعلاج الطبي بسبب «اضطراب عصبي» غير محدَّد.

يبين الهرج الذي حدث خلال دفن كيركغارد أنه حتى الموت لم يكن كافياً معه لفصل حياته عن أعماله. ومع ذلك فإن سِيَر حياة كيركغارد التي صدرت بالدنماركية منذ الصورة النقدية التي نشرها جورج براندیز George Brandes في عام 1877، يمكن أن تُعَدَّ على أصابع اليد، وإن السيرة التي كتبها يوهانس هوهلينبرغ Johannes Hohlenberg عام 1940 هي أحدث الأعمال الأصلية عهداً في هذا المجال. كما لم ينل الذين تعاطوا مع كيركغارد من زاوية سيرته قدراً يُذكر من الاحترام (أي شيء على الإطلاق إلا هذا رجاءً!)، وعلى امتداد عقود كان هناك ما يشبه فصم الرجل عن عمله فصماً منهجياً. ويقدم التعريف المعهود بكيركغارد ما يفضل الكتّاب أن يسمّوه، باستعلاء لا تخطئه العين «الشخص المنفرد كيركغارد» بوصفه مُلحَقاً غريباً من نوع ما بنتاج فكري فَذّ. وسبب ذلك ليس الظرف المتمثّل في نأي كيركغارد عن كتاباته المنشورة بأسماء مستعارة وإنه، أكثر من ذلك، طلب ألّا يوجّه القرّاء فضولهم نحو شخصه فحسب، بل من الواضح أن عاملاً إضافياً أسهم في ذلك هو خوف الأجيال اللاحقة من أن يؤدي تقديم كيركغارد بيوغرافياً إلى اختزالية مبتذلة تُربَط فيها القضايا اللاهوتية والفلسفية بعُقَد الكبت عند المؤلف أو تناقضاته الأوديبية أو بجلسات مصيرية على قعّادات باردة في منتصف الليل.

في هذا النفور من سيرة الحياة مفارقة لدى تطبيقه على مؤلف لم يفكر في

نفسه – ويكتب عنها – في أعماله فحسب بل كان على قناعة تامة أيضاً بأن «وجوده» هو «الوجود الأشد إثارة من أي وجود آخر في الدنمارك»، وإن هذا هو السبب في أنه «سيُقرأ ويُدرَس في المستقبل». وعلى الغرار نفسه (وبذاتية واعية ليست من طبع الدنماركيين قطعاً) كتب الكلمات التالية في تشرين الثاني/ نوفمبر 1847: «لذا سيأتي اليوم الذي لن تكون كتاباتي فحسب بل حياتي على وجه التحديد – السر المثير لكل المنظومة – موضع دراسة بعد أخرى». ولكن هذه الرؤية التنبؤية لم تُترجم إلى واقع يُعتَدُّ به في البداية، كما نستطيع أن نرى من مثال هانز بروشنر الذي شاء سوء طالعه أن يعد أحد معارفه بكتابة بضعة أسطر عن حياة كيركغارد وشخصيته لكنه أُصيب بعد ذلك بذعر بيوغرافي كاتباً «حين يقصر المرء نفسه على أحداث خارجية يكون هناك القليل، بالطبع، مما يمكن أن يُقال عن حياته. فهو مولود في 5 أيار/ مايو 1813 وأصبح طالباً جامعياً في عام 1830 ونال شهادته باللاهوت في عام 1840، وقدم رسالة الدكتوراه في عام 1841 وتوفي في عام 1855. وبالطبع فإن هذه هي، بهذا القدر أو ذاك، كل الحقائق الخارجية ذات الطبيعة البيوغرافية التي يمكن توفيرها، وهي ليست شيقة. وكانت حياته الداخلية، تطوره الشخصي، أغنى بكثير بكل تأكيد ولكنها تركت بصمتها في كتاباته، والمؤكَّد أن خيرة مضامين هذه الحياة الداخلية موجودة في كتاباته». هكذا يكتب المرء سيرة حياة بتقشف بالغ.

إسرائيل ليفن الذي عمل سكرتير كيركغارد سنوات طويلة، نظر إلى القضية من الجانب المعاكس – من الداخل قطعاً، إذا جاز التعبير – ولكن ليفن أيضاً وجد أنّ إمكانية أن تُكتب سيرة لحياة كيركغارد إمكانيةٌ مشكوكٌ فيها بقدر لا يقل عمّا وجده بروشنر. وكتب «إن كل من يريد التعامل مع حياة سورين كيركغارد يجب أن يحذر من حرق أصابعه: هذه الحياة زاخرة بالتناقضات بحيث سيكون من الصعب أن تُسبر أغوار شخصيته. فهو كثيراً ما يشير إلى أفكار مزدوجة وكلماته كلها كانت تفكيراً مضاعفاً سبع مرات. كافح من أجل تحقيق الوضوح لنفسه ولكنه كان مسكوناً بأمزجة من كل صنف وكان شخصاً متقلِّب المزاج حتى إنه كان في أحيان كثيرة يقول أشياء ليست صحيحة خادعاً نفسه بحيث يتوهَّم أنها حقيقة».

هذا التذكير من ليفن مهم لأنه يؤكِّد الطبيعة المتقلِّبة لمواد المصدر ويكشف بصورة غير مباشرة الدقة المتناهية التي خطَّط بها كيركغارد مولده مجدداً بعد

الموت. لذا، إذا أراد أحد أن يكتب سيرة حياة كيركغارد فإنه يجب أن يُسلِّم بحقيقة أنه، في كثير من المساحة الواسعة التي يغطيها، يشق طريقه عبر سيرة حياة موجودة أصلاً. وبالتالي فإن خطر التواطؤ بغير قصد مع كتابة «أسطورة» كيركغارد يكون متربصاً في كل زاوية من المادة لأنها توفر ظروفاً مثلى لإطراء هذا العبقري بعيداً عن أي نقد. مهمتي أنا نقدية وتأريخية أكثر منها تكريمية. وأنا لا أعتزم أن أروي القصص الكبيرة في حياة كيركغارد فحسب بل وأن أضع تحت المجهر التفاصيل الصغيرة والظروف العابرة، التصدعات في غرانيت العبقرية، الجنون القابع تحت السطح مباشرة، الحدَّة، الأثمان الاقتصادية والنفسية لنوبات الكتابة فضلاً عن اللغز العميق والمتغير لشخصية لا يفرغ منها المرء أبداً في الحقيقة. وهكذا أعتزم أن يقدم هذا الكتاب وصفاً شاملاً لـ «مركَّب» كيركغارد.

في الوقت نفسه أُريد أن أُعيد وضع كيركغارد في زمنه، أن أضعه في سياقه بحيث لا يعود «ذلك الفرد الأوحد» الذي ينظر إليه المرء من ثقب مفتاح في بوابة من بوابات مدينة كوبنهاغن بل يتحرك من جديد بين بشر هم «أيضاً» عاشوا في المدينة أيامذاك ولم يكونوا صعبين كما نظرنا إليهم لاحقاً (لأسباب منها أن كيركغارد ضلَّلنا). لذلك لم أسمح لنظرة كيركغارد أن تلاحق آخرين فحسب بل سمحتُ لأنظار آخرين أن تقع على كيركغارد. بكلمات أخرى، حاولتُ أن أعيد إقامة الحوار النشيط بين الحياة والكتابة الذي انبثق منه كيركغارد. والحق إن المرء عندما يأخذ هذا الرجل خارج عمله فإنه يأخذ منه الحياة أيضاً. وإذا أُريد لقصتي أن توثّق شيئاً خلال الرحلة فإنه سيكون هذا التشابك المعقد بين أعمال كيركغارد وزمانه.

مقدمة للطبعة الإنكليزية

أُنجز هذا الكتاب من أجل المتعة لا الربح، بدأ وانتهى في ساعات المساء الأخيرة، ولكن الأجواء في مركز أبحاث سورين كيركغارد الذي لي امتياز العمل فيه، كانت ملهِمة إلى حد بالغ. وأفدتُ من تعليقات على النص وملاحظات توضيحية كثيرة قُدمت بالارتباط مع الاستمرار في نشر Soren Kierkgaard Skrifter [كتابات سورين كيركغارد].

بودي أن أشكر سلسلة من الأصدقاء والزملاء وخبراء آخرين استمعوا إلى مآزقي خلال العمل وقرؤوا هذا القدر أو ذاك من المخطوطة وأعطوا نصيحة وتلميحات ثمينة. وسيكون من المتعذر أن أخص بالذكر مساهمة كل فرد، ولهذا السبب سيتعين عليهم الاكتفاء بظهور أسمائهم حسب الترتيب الأبجدي لا أكثر: سورين برون Soren Brunn، نيلس يورغن كابيلرون Niels Jorgen Cappelorn، أُولريك هوي Ulrik Hoy، يتّي كنودسن Jette Knudsen، كلاوس بي. مورتنسن Klaus P. Mortensen، بول أيريك توينر Poul Erik Tojner، بيتر تودفاد Peter Tudvad، باربرا فيبايك Barbara Vibaek وبوديل فامبيرغ Bodil Wamberg. وأخيراً شكري من صميم القلب لزوجتي العزيزة سينة Synne التي لولاها لما أُنجز هذا الكتاب.

بودي أن أغتنم هذه الفرصة على الأخص لأتقدم بالشكر إلى مطبعة جامعة برنستون والمحرر إيان مالكولم Ian Malcolm على تعاونهما المرن دون أي مشكلات. ولكني يجب أن أشكر قبل الجميع بروس أتش. كرمس Bruce H. Kirmmse الذي كانت ترجمته لمخطوطة طويلة وشديدة التطلب عند حسن ظني إلى أدق التفاصيل. ولا يمتلك كرمس معرفة تثير الإعجاب بكيركغارد نفسه وسياقه التاريخي فحسب بل هو متضلع أيضاً باللغة الدنماركية

ونجح في نقل النص الدنماركي إلى لغة إنكليزية جزلة ومفهومة. وإن مثابرته وفطنته واهتمامه بالتفاصيل - وليس آخراً مرحه المنعش - كلها جعلت عملنا مع أحدنا الآخر ممتعاً بحق.

أي أخطاء وهنّات، معلوماتية أو أخلاقية، لعلها أخفت نفسها مع ذلك، أكون أنا وحدي المسؤول عنها.

يوكيم غارف **Joakim Garff**

مقدمة وشكر من المترجم

حاولتُ في ترجمة هذا الكتاب إلى الإنكليزية أن أُحافظ على الأسلوب غير الشكلي والنبرة الحوارية للأصل وفي الوقت نفسه البقاء أميناً لجدية غرضه. وعملاً بهذه النية لا توجد «ملاحظات من المترجم» في شكل هوامش أو حواشٍ. وحيث كان يبدو ضرورياً شرح مفردة أو مصطلح فإني أُضيف الشرح إلى المتن داخل أقواس مربعة. وأُبقيتُ عناوين الصحف بالدنماركية فيما نُقلت عناوين الكتب والمجلات إلى الإنكليزية. وفي عدد من الحالات أُشير إلى الانقطاعات في السطور أو الفقرات في مادة الأصل بعلامة (/) في النص.

إن مشروعاً بهذا الحجم ما كان ليمكن إنجازه من دون دعم عدد من الأفراد والمؤسسات. وأمضينا أنا ويوكيم غارف ساعات طويلة نناقش الترجمة، ومنّي له جزيل الشكر على اهتمامه وتعاونه. أُنجز الكثير من هذا العمل في مركز أبحاث سورين كيركغارد، وأُعبر عن امتناني للضيافة وبيئة العمل بروح الزمالة التي تمتعت بها أثناء وجودي هناك في إجازة من كلية كونيكتيكات. وبودي التقدم بالشكر على الأخص إلى ديانا تيبورسكي برمنغهام Diane Tyburski Birmingham ومارغريت راين هيلمان Margaret Ryan Hellman اللتين قرأتا المخطوطة وعلّقتا على أقسام كبيرة منها.

بروس أتش. كيرمس

Bruce H. Kirmmse

1813 - 1834

KIRKKEGAARD, Kirkegaard, Kiersgaard, Kjerkegaard, Kirckegaard, Kerkegaard, Kierckegaard, Kierkegaard

توفر سجلات الأبرشية الكثير من الشهادات على أن الاسم اسم صعب

ومتقلب المعاني. ويعود السبب، بالطبع، إلى باحة الكنيسة [في اللغة الدنماركية kirkegaard «باحة الكنيسة» بمعنى «المقبرة» عادة] ولكن ليس بمعنى باحة الكنيسة المتعارف عليها. ويأتي الاسم في الحقيقة من مزرعتين مجاورتين للكنيسة في قرية سادينغ وسط مرتفعات يوتلاند من الأراضي البور على بعد 12 ميلاً جنوب شرق رينغكوبنغ. وكانت المزرعتان تسميان باللغة الدارجة «باحات الكنيسة» بسبب قربهما من الكنيسة. وفي إحدى هاتين المزرعتين وُلد مايكل في 12 كانون الأول/ ديسمبر 1756، ابن المزارع المستأجر بيتر كريستنسن كيركغارد الذي اتخذ من اسم مزرعته كنية له ليؤكد أن هذا هو أصله وأصل عائلته. وفي البداية كانت تهجئة الاسم الاعتيادية هي بكل بساطة Kirkegaard ولكنه تطور بعد زمن إلى Kierkegaard ولعل في هذه التهجئة صدى خافتاً للفظة الاسم بلهجة يوتلاند المحلية.

كان مايكل الابن الرابع في العائلة التي أصبحت بعد 14 سنة تضم تسعة أطفال. وكانت الأرض البور شحيحة بغلّتها والفقر ينهش العائلة. لذا، بعد سنوات صعبة عمل فيها مايكل ابن الإحدى عشرة سنة راعياً، غادر مزرعة أجداده. وفي تلك المنطقة كانت الريح الغربية ترغم الأشجار على أن تميل بلهفة نحو الشرق، وجارى مايكل اتجاه الريح. فانطلق يرافقه تاجر أغنام من بلدة ليم صوب كوبنهاغن في عهد الملك كريستيان السابع حيث أخذه خاله نيلس أندرسن سيدنغ، الذي كان صاحب متجر للبيع بالجملة في قبو في شارع أوسترغادة، متدرباً عنده. في البداية عمل مايكل صبي مأموريات ثم بائعاً في المتجر، وقبل الكرسمس في عام 1780 مُنح رخصة لمزاولة العمل الحر، فتمكن حينذاك من تأسيس شركة مستقلة. وكانت تشكيلة التاجر مايكل كيركغارد من البضائع تضم جوارب مغزولة من القطن وطاقيات محاكة وقفازات جلدية من بلدة يولاند في راندرز، وبضائع مختلفة من أيسلندا، كلها كان يبيعها في رحلات برية قصيرة إلى مدينتي هيلرود واليسنور في جزيرة زيلاند الشمالية. ولا بد أن يكون رجل الأعمال المثابر تعلّم كيف يصنع ذهباً من هذه البضائع المنسوجة لأنه حين بلغ سن التاسعة والعشرين تمكن مع شريكه مادس روين من شراء المبنى رقم 31 شارع كومباغيرادة. انتقل روين إلى المبنى في حين استقر كيركغارد نفسه في رقم 43 حيث فتح متجره الخاص في «قبو غلاتسير كلاوسن».

لم يكن متجره يقع في قسم منه تحت الأرض فحسب بل إن أساليبه أيضاً كانت مشبوهة. إذ لم يكد المشروع يبدأ عمله حتى أبلغ تجار الحرير والألبسة رئيس اتحادهم المهني عن كيركغارد وتجار صوف آخرين من يوتلاند. وإثر الإبلاغ كشف دهم هذه المتاجر عن وجود أقمشة من الكتان الفرنسي وأشرطة حريرية. ولم يكن مسموحاً لتجار الصوف من يوتلاند أن يتعاملوا بمثل هذه البضائع الفاخرة ولذلك فرض رئيس الاتحاد غرامات قاسية على مستورديها غير القانونيين. وشكا المستوردون بدورهم إلى السلطات قائلين إن الأنظمة القانونية التي تحكم التجارة أصبحت معقدة بحيث لا يستطيع أحد أن يفهمها. وأصابت الشكوى هدفها، وبناء على قرار صادر في 30 تموز/ يوليو 1787 سُمح لتجار الجوارب المنسوجة ببيع كل أصناف البضائع الصوفية والكتانية التي تنتجها الصناعة الحرفية المنزلية زائد منسوجات اللباد وجلد البجعة (فانيلا سميكة مغزولة بإحكام، ممشوطة من وجه واحد فقط). وفي العام التالي نال كيركغارد أيضاً رخصة للتعامل بالسلع الصينية والبضائع المستوردة من جزر الهند الغربية: السكر وعصير قصب السكر المركز وحبوب القهوة. ومع ذلك أصر كيركغارد على رفع قضيته إلى المحكمة العليا التي أصدرت قراراً لصالحه، ولذلك سُمح له بالتعامل بسلع فاخرة مثل القطنيات والحريريات. وكسب تجار الصوف من يوتلاند المعركة ضد تجار الحرير الكوبنهاغيين.

كان الاقتصاد في انتعاش ومايكل كيركغارد لم يكن ممن يفوِّتون فرصة. فاستثمر ماله في عقارات مختلفة في شوارع كوبماغيرادة وبيتر هفيتفيلدسترادة وكالفَبوديرنة وسانكت بيدرستراده وكنابروستراده وهيلسنغوراده. ونجا بأعجوبة من تكبد أي خسائر في الحريق الكبير الذي دمر كوبنهاغن في عام 1795. وفي العام التالي ورث تركة خاله الميسور واشترى قطعة ارض في سادينغ بنى عليها بيتاً نصف خشبي لطيف لوالديه الطاعنين في السن وثلاثة من شقيقاته وأشقائه الأصغر كارين وسيدسل ماري وبيدر. وكان المنزل مبنياً من خشب البلوط ومطلياً بالأحمر فكان بمقدور الجميع أن يروا إن مايكل توفق في حياته هناك في العاصمة. مايكل نفسه لم ير سادينغ مرة أخرى ولكنه كان يتراسل مع شقيقته أيلسة التي ولدت في السنة التي رحل فيها عن الأهل.

خلال سنوات مايكل كيركغارد الأولى في كوبنهاغن كانت دائرة أصدقائه ومعارفه تتكون بالدرجة الرئيسية من مهاجرين مثله من يوتلاند اشتغلوا في

المجال نفسه. لذا لم يستغرب أحد عندما تزوج مايكل من كريستينا نيلسداتر شقيقة روين في 2 أيار/ مايو 794. وظن الناس أن مايكل تأخر في الزواج لأنه كان حينذاك في الثامنة والثلاثين من العمر وكريستينا لا تصغره إلا عاماً واحداً. وإذ كانت لدى كريستينا 568 ريكسدولاراً ملكها هي فإن الاقتران بها كان زيجة ملائمة ولكننا لا نعرف مشاعر الاثنين تجاه أحدهما الآخر - سجل الزواج لم يتضمن إلا الحقائق المجردة: «مايكل بيتر كيركغارد، تاجر جوارب، عقد قرانه على كريستينا روين في 2 أيار/ مايو في كنيسة الروح القدس». لم يسفر الزواج عن إنجاب أطفال واستمر أقل من عامين. توفيت كريستينا بعد أصابتها بذات الرئة في 23 آذار/ مارس 1796 ودُفنت في مقبرة أسيستنس بعد ثلاثة أيام.

بعد أقل من عام وضع مايكل تجارته المزدهرة بعهدة ابن عمه مايكل أندرسن كيركغارد وكريستن آغرسكوف ابن شقيق والد زوجته الراحلة. وأثار هذا القرار استغراباً عاماً بين زملائه ومعارفه لأن الناس، رغم شكوى مايكل بين حين وآخر من أمراض مختلفة، كانوا يعتقدون إنه مُراقي (مصاب بوسواس المرض) لكونه سليم الجسم. ولكن حتى إذا كانت دوافعه وراء نقل تجارته مجهولة فإن الخطوة كانت ترتبط بحدث بالغ الأهمية في حياة رجل الأعمال الشاطر. ذلك أن خادمته آنة سورينسداتر لوند حملت منه بعد أن نام معها بلا تخطيط أو وازع، فوجد لزاماً عليه أن يتزوجها. ورغم أن النظام المعمول به منذ عام 1724 كان يشترط مرور عام من الحداد قبل أن يجوز للأرملة أن تتزوج مرة أخرى (الأرمل ينتظر ثلاثة أشهر فقط) فإن حماقة كيركغارد كانت أكبر من غلطة محرِجة، وكان من الجائز أن تكلفه غالياً كذلك. وجعل عقد الزواج الذي قدمه إلى محاميه أندريس هيلستيد في 10 آذار/ مارس 1797 من الواضح أن الزوجين «لن» يتعاشرا. وفي حالة وفاة الزوج فإن الأرملة سترث محتويات البيت و200 ريكسدولار في السنة وتتسلم ميراثاً قدره 2000 ريكسدولار يُخصص لأي أطفال من المحتمل إنجابهم أيضاً. كما جاء في الوثيقة: «إذا حدث، على غير المتوقع، وأظهرت طباع الزوجين أنهما غير منسجمين، وسُمح لنا بالعيش منفصلين فإن زوجتي المقبلة ستحصل على الملابس التي ترتديها وكتاناتها، وبالإضافة إلى ذلك سأعطيها دفعة مقطوعة قدرها 300 ريكسدولار لشراء الضروريات المنزلية وكذلك دفعة سنوية قدرها 100 ريكسدولار ما دامت على قيد الحياة». وجرى التشديد أيضاً على أنه إذا حدث ذلك فإن الأطفال يعيشون مع والدهم بعد بلوغ السنة الثالثة من العمر.

رفض المحامي هيلستيد تأييد عقد الزواج. فإن إمكانات الزوج الاقتصادية لم تكن فائقة بشكل صارخ على البنود المعروضة للزوجة والأطفال فحسب بل كان من غير المعتاد أن يتضمن عقدُ زواجٍ هذا العدد الكبير من الأحكام التفصيلية عن الطلاق «قبل» عقد القران بحيث طُلب من كيركغارد أن يقدم نسخة جديدة أقل بُخلاً. وانصاع كيركغارد لمحاميه، وجرى التوقيع على الأوراق الجديدة التي أتاحت للخادمة الحائرة، التي كانت في الشهر الرابع من الحمل، أن تتعهد لسيدها بالإخلاص الأبدي في زفاف منزلي هادئ سُجل في دفتر مكتب الزواج بالكلمات الرقيقة التالية: «عُقد قران الأرمل مايكل كيركغارد، تاجر الجوارب، على مس آنا سورينسد لوند بتاريخ 26 نيسان/ أبريل في كيوبماغرغادة الكبرى».

ولدت آنا في 18 حزيران/ يونيو 1768، البنت الأصغر لكل من مارين لارسداتر وزوجها سورين ينسن لوند الذي قيل إنه كان رجلاً «مرحاً وظريفاً» من براندلوند في يوتلاند الوسطى. وكانت العائلة تملك بقرة وأربعة أغنام ورُزقت ولدين وأربع بنات سُميت الأولى متَّا وسميت الثلاث المتبقيات آنا وآنا وآنا. وكان من الجائز أن يتسبب اختيار هذه الأسماء في بعض البلبلة فكانت الأصغر تُسمى ببساطة «آنا الصغرى». وبعد أن أُقيم لها سر الميرون (أو سر التثبيت أو المسحة المقدسة والميرون كلمة يونانية معناها دهن أو طيب) رحلت إلى كوبنهاغن للعمل خادمة في بيت شقيقها لارس سورينسن لوند الذي تزوج من أرملة كان زوجها يعمل في إنتاج المشروبات الروحية وبالتالي تزوج أيضاً من معمل تقطير يقع في لانديماركيت في كوبنهاغن. ولكن الظروف كانت مزرية حتى إن آنا سرعان ما غادرت للعمل بدلاً من ذلك في بيت مادس روين الذي أنهت خدمتها له في عام 1794 لتعمل في منزل مايكل كيركغارد المتزوج حديثاً. بعد هذه المرحلة لا يبدو أن آنا كانت على اتصال يُذكر بعائلتها. ورغم أن شقيقها لارس كان أحد العرابين حين عُمدت ابنتها الأولى فإن الذين حضروا تعميد ابنتها الثانية بعد عامين كانوا من طبقة أرقى، ولم يكن بينهم شقيقها صاحب معمل الكحول. وقياساً على الموارد الشحيحة المتاحة فإنها كانت امرأة لطيفة مكتنزة ذات طبع معتدل وحبور. ويبدو أنّها لم تكن قادرة على الكتابة وحين توقع وثائق رسمية كان على أحد ما أن يوجّه يدَها. ربما كانت تعرف القراءة بعض الشيء ولكن مواد القراءة التي تمتلكها لم تكن صعبة بصفة خاصة. وكان اثنان من الكتب القليلة جداً التي بحوزتها

هما عمل هاغن «ترانيم تاريخية وأناشيد مقفاة لتعليم الأطفال» وعمل لندبرغ «قيثارة صهيون: هدية كرسمس للجماعة المسيحية» الذي يتضمن ترانيم لكل من كينغو وبروسون وأنغمان وغروندفيغ ولندبرغ نفسه وآخرين. ولم تكن روحها البسيطة مصدر إلهام لأي تصويرات أدبية أو شعرية ولعلنا لا نلمحها إلا هنا وهناك في كتابات سورين كيركغارد حيث توصف ربة البيت بأنها عاملة هادئة نافعة في منزل زوجها. ولم يأت سورين آبي على ذكرها بالاسم ولا حتى مرة واحدة في يومياته، ولم يكن هناك إهداء لها في أي شيء كتبه - ولا حتى خطاب تثقيفي.

لذا كانت آنا ومايكل زوجين غريبين من نواحي عديدة ولكن الأرجح إنهما بمرور الوقت تعلما أن يحب أحدهما الآخر. وعلى أية حال فإنهما كانا يتصرفان كسائر المتزوجين الاعتياديين. ورُزقا ثلاث بنات خلال السنوات الخمس الأولى من زواجهما: مارين كيرستين في 7 أيلول/ سبتمبر 1797 ونيكولين كريستين في 25 تشرين الأول/ أكتوبر 1799 وبتريا سيفرين (تشترك بيوم ميلاد واحد مع شقيقتها الكبرى) في 7 أيلول/ سبتمبر 1801. وحين كتب رب العائلة وصيته في عام 1802 كان أكثر سخاء بكثير منه وقت كتب عقد الزواج. صحيح إن هناك ذكراً لعواقب الطلاق («لا سمح الله») ولكن لو حدث ذلك لضمنت آنا الآن ضعف ما كان مكتوباً لها سنوياً في السابق في حين إذا توفي الزوج يؤول لها الآن ثلث ثروته مع توزيع الباقي على الأطفال. وفي تلك السنة نفسها ابتاع كيركغارد منزلين في هيلرود مع شقيق زوجته الراحلة مادس روين. ويعطي اسما العقارين فكرة عن حجمهما: اتخذ روين من «قلعة بيتر» مسكناً له في حين انتقلت عائلة كيركغارد إلى «نزل القصر» الذي كان في حديقة غناء تعانق بحيرة. وحين ولد الصبي الأول بيتر كريستيان في 6 تموز/ يوليو 1805 انتقلت العائلة عائدة إلى كوبنهاغن واستقرت في شقة في شارع أوسترغاده حيث حملت آنا بصبي آخر هو سورين مايكل الذي ولد في 23 آذار/ مارس 1807. وبعد مولد نيلس أندريس في 30 نيسان/ أبريل 1809 انتقلت العائلة في أواخر صيف ذلك العام إلى منزل في نيتورف بين البيت الركني في شارع فريدريكسبيرغاده والمبنى الذي ضم المحكمة ومقر البلدية على السواء. وكان البيت المرقم 2 نيتورف مأوى عائلة كيركغارد نحو 40 عاماً. وفيه عاشوا وماتوا.

وهنا كانت واحدة من البدايات العديدة في حياة سورين آبي كيركغارد.

الجزء الأول

1813 – 1834

الشوكة الصغيرة

كان مايكل كيركغارد في السادسة والخمسين وآنا في الخامسة والأربعين حين رأى طفلهما السابع النور يوم الأربعاء، 5 أيار/ مايو 1813 فكان زوجان متمرسان في الإنجاب هما اللذان رفعا طفلهما المولود متأخراً فوق نافورة المعمودية يوم الخميس، 3 حزيران/ يونيو، في طقوس تعميد خاصة أقامتها كنيسة روح القدس. وبارك راعي أبرشية العائلة القس جَي. إي. جي. بول أصغر أبناء الخادمة السابقة وعمَّده باسم سورين آبي كيركغارد – سورين على غرار والد أمه المرح تماماً، وآبي كناية بشخص متوفى تربطه بالعائلة صلة قربى بعيدة كانت أرملته أبيلوني آبي بين الذين حضروا طقوس المعمودية.

كان بمقدور مايكل، التاجر، أن يعود بأنظاره إلى سنوات مضطربة. فالملك فريدريك السادس انضم إلى نابليون في تحالف فاشل ضد الإنكليز الذين قصفوا كوبنهاغن بلا رحمة في أيلول/ سبتمبر 1807 وأحالوا مناطق واسعة قرب نيتروف مدنَ أشباح. وفي تشرين الأول/ أكتوبر من العام نفسه أقلع الإنكليز من الميناء ومعهم سفن الأسطول الدنماركي بعد أن سيطروا عليه، لتنتهي حقبة في تاريخ التجارة والملاحة الدنماركية. وكان البلد في أزمة مالية فلجأ وزير المالية أيرنست شيمَلمان إلى تشغيل آلات الطباعة بسرعة قصوى ليطرح أوراقاً نقدية أكثر فأكثر قيد التداول دون غطاء. وقبل أربعة أشهر بالتمام على ميلاد سورين آبي قررت الحكومة إن ما يُسمى الأوراق النقدية التي يمكن مبادلتها بفضة صلبة ستحل محلها نقود ورقية صادرة عن البنك الوطني لا تساوي إلا سدس القيمة الاسمية للعملات السابقة. فوصلت الدولة إلى حالة الإفلاس. ولم تكن الأسهم والقروض العقارية والكمبيالات وغيرها من الأوراق المالية

سوى دليل على إفلاس أصحابها. وخلال الفترة الواقعة بين عام 1814 (حين أُجبرت الدنمارك على التنازل عن النرويج) وعام 1820 أشهرت 248 شركة في كوبنهاغن إفلاسها أو ما متوسطه نحو شركة كل أسبوع.

ما يُسمى «الالتزامات الملكية» كانت الأوراق المالية الوحيدة التي أفلتت من تخفيض قيمتها بدرجة حادة، وفيها على وجه التحديد وظف مايكل كيركغارد ماله. وأناط إدارة مصالحه بعهدة آخرين ولكنه لم يدر ظهره لعالم المال. وفي عام 1808 دفع كيركغارد وأقاربه، في إطار حملة تمويل وطنية، من جيوبهم الخاصة لبناء زورق حربي، وحين أفلست شركة ابن أخيه أندريس أندرسن كيركغارد للحرير والنسيج، «كيركغارد وآبي وشركاؤهما»، في عام 1820، قام مايكل بعملية واسعة للحد من الخسائر متنازلاً عن ديون لا تقل عن 11 ألف ريكسدولار كانت له على الشركة.

ورغم أن مايكل كان لم يزل يُسمى بائع جوارب أو مجرد صاحب متجر (أحياناً مع إضافة صفة «السابق» بعد اسم المهنة) في سجلات الأبرشية الخاصة بسر المعمودية وسر الميرون، فإنه حين شارك هو نفسه في طقوس التناول كان قد ارتقى اجتماعياً وسمى نفسه «تاجراً». وبفضل الكارثة الاقتصادية أصبح مايكل من أغنى الرجال في البلد. وبعد جيل على ذلك الزمن وجد أصغر أبنائه سلوى هزلية ومتحرّجة في هذه المفارقة فكتب: «ولدتُ في 1813، عام الإفلاس، حين طُرح الكثير من الأوراق النقدية الأخرى عديمة القيمة قيد التداول. ثمة شيء من العَظَمة عن نفسي، ولكن بسبب الأوضاع الاقتصادية المتردية، لا قيمة تُذكَر لي. إن ورقة نقدية من هذا النوع تصبح أحياناً مصيبة على العائلة».

حين ولد سورين آبي كانت له ثلاث شقيقات في السادسة عشرة والثالثة عشرة والحادية عشرة وثلاثة أشقاء في السابعة والخامسة والرابعة من العمر. وكان ثلاثة مواليد من كل جنس يشكلون تناظراً لطيفاً وأضافت أسماؤهم المزدوجة نوعاً هادئاً من التناغم. سورين آبي كيركغارد كسر التوازن: بوصفه الأخير بين سبعة أشقاء وشقيقات يبدو أنه جاء عن غير قصد مثلما كانت الطريقة التي بدأت بها حياة العائلة كلها. كما أنه كان طفلاً ليس من السهل التعامل معه بل، بحسب ابن عمه الثاني وابن عمه الثالث، كان صبياً مشاكساً من الأفضل الابتعاد عن رفقته. وهكذا وصفه أحد أبناء عمومته بأنه «صبي مدلل وشقي

إلى حد مخيف كان دائماً يتشبث بأذيال مئزر والدته» فيما لاحظ آخر باقتضاب «إن سورين، كعادته، كان يجلس في زاوية ويحرد». وفي البيت كان يُطلق عليه لقب «الشوكة» لأن أداة الأكل هذه هي التي ذكر اسمها حين سُئل ماذا يتمنى أن يكون: «شوكة»، أجاب الولد المنمَّش. وعندما سُئل «لماذا؟» كان رده: «حسناً، حينذاك أستطيع أن أطعن أي شيء أُريد على مائدة العشاء». «ولكن ماذا ستفعل إذا طاردناك؟» وهنا أجاب الصبي «حينئذ سأطعنكم». ولازمه لقب «الشوكة» بسبب «ميله الواعد إلى إطلاق تعليقات ساخرة».

تعرضت عائلة كيركغارد إلى مصابين كانت لهما نتيجة غير مقصودة على الأرجح هي التشجيع على إبداء معاملة خاصة لطفلها الأصغر الذي مُنح عدداً من نوع الامتيازات التي نادراً ما يتأخر الأطفال في تسخيرها لمصلحتهم. ففي 14 أيلول/ سبتمبر 1819 توفي سورين مايكل، الذي لم يتجاوز عمره الثانية عشرة، في مستشفى فارتوف من جراء أصابته بنزيف في الدماغ سببه تصادم مع صبي آخر في ساحة المدرسة. وفي 15 آذار/ مارس 1822 توفيت مارين كريستين عن أربعة وعشرين عاماً. ولكن يبدو من نعي الوالدين المنكوبين الذي نُشر في صحيفة أدريسيفسن Adresseavisen إن وفاتها لم تكن غير متوقعة تماماً: «نعلن لأهلنا وأصدقائنا إن ابنتنا البكر مارين كريستين انتقلت بهدوء وسلام في الخامس عشر من هذا الشهر إلى جوار ربها الذي دعاها إلى ملكوته السماوي في العام الخامس والعشرين من حياتها بعد أربعة عشر عاماً من المرض». وهكذا كانت مارين كريستين التي ولدت نتيجة حماقة فادحة ارتكبها التاجر كيركغارد، مريضة فترة لا تقل عن أربعة عشر عاماً قبل أن ترحل «بهدوء وسلام» - وبالمناسبة لم يكن موتها بسلام تماماً لأن سبب الوفاة الذي أُعطي في شهادة الدفن كان «تشنجات».

دُفنت مارين كريستين في 21 آذار/ مارس في الرقعة التي تملكها العائلة خارج المدينة في مقبرة أسيستنس حيث يرقد شقيقها الأصغر منها. وأُقيم للطفلين شاهد مشترك من الحجر الرملي المسطح الضارب للحمرة وُضع أمام النصب العمودي الذي بناه كيركغارد على قبر زوجته الأولى كريستين نيلسداتر روين وقد نُقش عليه تاريخ ولادتها وتاريخ وفاتها في كانون الأول/ ديسمبر 1798. ولكن على شاهد الطفلين لم يُكتب إلا تاريخ ميلاد كريستين وتاريخ وفاتها. ولم يكن هذا نتيجة سهو بل الأرجح أن مايكل كيركغارد أراد أن تكون

قبور العائلة بمثابة اعتراف علني بأن الجميع يستطيعون أن يروا أن ابنة التاجر الورعة ولدت بعد أقل من عام ونصف العام على رحيل كريستين نيلسداتر روين وأنه بذلك رُزق طفلاً بعد تسعة أشهر فقط على وفاة زوجته الأولى.

كان المرض والموت شديدي الوطأة على معنويات عائلة أسباب اللهو فيها قليلة في كل الأحوال. فلُعَب الأطفال كانت تُعد غير ضرورية، وكان على سورين آبي أن يرضى بمغزل والدته لعبةً وحيدة عنده. من جهة أخرى، خارج البيت في ساحة السوق، كان هناك الكثير من النشاط. وفي أيام عمل السوق كانت نوافذ بيت العائلة تطل على المزارعين مع عرباتهم المليئة بالحبوب ولحوم الأبقار المذبوحة حديثاً، وهم يتخذون أماكنهم بين النساء القادمات من فالبي القريبة ليبعَنَّ بأصوات غليظة دواجنهن الحية والمرفرفة. وفي عيد ميلاد الملك كانت تفاحات ذهبية ترقص في نفاثات مياه النافورة في ميدان غاميلتورف، ومن المؤكد أن هذا كان يستحق نظرة من نوع مختلف. ففي أول خميس من آذار/ مارس كان الملك يأتي بعربته الذهبية ليرعى افتتاح المحكمة العليا بحضور كبار الحقوقيين في البلد. وكان المهرجان كله أشبه بالقصة الخيالية. وبعد انتهاء الاحتفالات كانت مجموعة معدمين رثين من بيت الفقراء تنظف الساحة والشوارع المجاورة بمكانسهم المصنوعة من عيدان بُنيّة غامقة.

كان الأحد يوم عطلة يذهب فيه المرء إلى الكنيسة. وحتى عام 1820 كان قس العائلة وكاهن اعترافاتها جَي. إي. جي. بول من كنيسة الروح القدس الذي عمَّد غالبية أطفال كيركغارد وأقام طقوس سر الميرون لبنات العائلة الثلاث. وكان المرسوم الليتورجي لعام 1685 يقتضي أن يوقع كل من يريد التناول في «الكتاب المتوفر لهذا الغرض» قبل يوم أو يومين ليتمكن القس من إبعاد غير الجديرين وليتمكن الشماس من الحصول على الكمية الكافية من الخبز والنبيذ. وتكشف سجلات التناول هذه للفترة من 1805 إلى 1820 متى كان مايكل كيركغارد وزوجته يذهبان للاعتراف ويتقدمان للتناول. وعموماً كان الناس لا يأتون للتناول إلا ثلاث أو أربع مرات في السنة، وكانت عائلة كيركغارد دائماً تختار لذلك يوم أيام الجمعة. كما كان الزوجان يتبعان العادة التَقَويّة في الإقدام على التناول خلال الصوم الكبير وبالارتباط مع أيام ذات أهمية خاصة للعائلة - كأن تكون قريبة قدر الإمكان من عيدة ميلاد آنا أو مايكل في 18 حزيران/ يونيو و12 كانون الأول/ ديسمبر على التوالي.

كان بول يلقي مواعظه عن الإنجيل بلغة بسيطة مشدداً بصفة خاصة على الجانب الأخلاقي في المسيحية حتى أن الشاعر الكبير آدم أولينشليغر نفسه وصف بول بأنه «شخص فاضل وطيب». ولكن ذات يوم في أوائل صيف 1820 تخلى مايكل كيركغارد عن بول واختار ياكوب بيتر مينستر الذي عُين في البداية مساعد كاهن مقيم في «كنيسة سيدتنا» في عام 1811 ولكن عليه أن يلقي مواعظه في «كنيسة الثالوث المقدس» لأن كنيسة سيدتنا أُحيلت أنقاضاً منذ القصف الإنكليزي ولم يُعَدْ بناؤها إلا في عيد العنصرة عام 1829. والتفسير الأرجح لسبب انتقال مايكل المفاجئ إلى القس مينستر أن مينستر أصبح الواعظ الذي يفضله المثقفون والطبقات العليا في تلك الأيام. وبقي مينستر كاهن اعترافات كيركغارد حتى نهاية عام 1828 حين نُقل مينستر إلى كنيسة القصر ولم يعد يخدم بوصفه كاهن اعتراف في كنيسة الثالوث المقدس. ولكن مينستر ظل قس العائلة المفضل، وكانت كتاباته الدينية ومواعظه المنشورة تُقرأ في بيت العائلة. وفي الحقيقة إن مايكل وعد سورين آبي ذات مرة بإعطائه ريكسدولار إذا قرأ إحدى مواعظ مينسر بصوتٍ عالٍ، وأربعة ريكسدولارات إذا كتب من الذاكرة الموعظة التي سمعها في الكنيسة ذلك الصباح، ولكن سورين آبي وجد ذلك معيباً ورفض بشدة.

كانت عائلة كيركغارد مشبعة بالخرافات الدينية السائدة بين البسطاء عادة، ولم تكن مواعظ مينستر قادرة على طردها من عقولهم. وكان من بين هذه الأوهام الاعتقاد بأن اختيار إصحاح من الكتاب المقدس لا على التعيين يمكن «حقاً» أن يعطي المرء إشارة ليست عشوائية قطعاً من العناية الإلهية عن أحداث قادمة والتزامات ملحة. وعلى الغرار نفسه ترتبط مناسبات الاحتفال بعيد الميلاد وإحياء ذكرى الوفاة بكوارث من هذا الصنف أو ذاك. وذات مرة عندما قلب سورين آبي بطريق الخطأ مملحة على مائدة العشاء استشاط الأب غضباً وسماه ابناً عاقاً وغير ذلك من النعوت المخيفة. وعمل سورين آبي ما بوسعه للدفاع عن نفسه مشيراً إلى أن كلمة واحدة لم تُسمع عندما هشمت نيكولين كريستين سلطانية ثمينة. ولكن والده رد قائلاً إنه لم تكن هناك حاجة لقول شيء لأن السلطانية ثمينة جداً بحيث إن جدية الوضع المؤسف كانت بديهية. قَبَلَ سورين آبي بهذا التفسير، وبعد سنوات عديدة ختم العودة بذاكرته إلى الحادث بالكلمات التالية: «ثمة شيء من عَظَمة التاريخ القديم في هذه القصة الصغيرة».

ولكن في الحقيقة إن تأويل القصة على هذا النحو ليس دراماتيكياً إلى درجة مبالغ بها فحسب بل يقوم على افتراض خاطئ. فإن والد سورين آبي ثار وغضب على قلب المملحة لأن سكب الملح يعني في الخرافة الشعبية إن نقوداً ستُفقَد!

وكانت بعيدة على نحو مماثل عن المسيحية التي يمثلها مينستر، جماعة الإخوان الموراڤية التي كان بيت اجتماعاتها في شارع ستورمغاده الذي تتردد عليه عائلة كيركغارد بانتظام بعد الظهر في أيام الأحاد. وأُنشأت هذه الجماعة الدينية في عام 1739 مستوحية العبقري التنظيمي المبدع الكونت زينزندورف الذي أقام مستوطنة هيرنهوت في ضيعته في بيرتهيلسدورف في سكسونيا. وكان يُفترض بالجماعة أن تطبق المسيحية بوصفها «دين قلب» وان يكون أفرادها مبشرين بهذا الفهم للعقيدة. فالقلب يجب ألا يُسحق تحت وعي الخطيئة الذي أيقظه القانون، كلا بل إن القلب يجب أن يذوب وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال التبشير بكتاب المسيح، المنقذ والمخلّص. ولم تكن الجماعة الموراڤية جزءاً من كنيسة الدولة وإنما كان لها فهمها لما تكون عليه الجماعة وفق العهد الجديد. وهذا جعل السياسة الكنسية للجماعة سياسة معقدة نوعاً ما وأدى أيضاً إلى تعرضها للملاحقة من جانب الحكومة ورجال الدين. ومنذ عام 1773 أقامت جماعة كوبنهاغن مركزها الروحي في قرية كريستيانفيلد الصغيرة جنوبي يوتلاند التي كانت منتوجاتها ذات النوعية العالية (بما في ذلك الكعكات العسلية التي ما زالت شهيرة) تُباع في كوبنهاغن. وخلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر شهدت الجماعة الموراڤية في كوبنهاغن زيادة في عدد الذين يحضرون اجتماعاتها بحيث كان من الضروري إعادة بناء القاعة لاستيعاب ما لا يقل عن 600 نفس. وأُنيط بمايكل كيركغارد دور قيادي في إنجاز هذه المهمة، وتمكّن بتنفيذها من إقامة نصب تذكاري ملموس تماماً لعلاقته بالموراڤية التي استمرت حتى مماته.

قراءة موعظة عن آلام المسيح ألقاها القس بيتر ساكستورب تعطينا فكرة عن الأجواء في تلك القاعة ذات الأثاث البسيط حيث كان خصوم العقلانية اللاهوتية السائدة في تلك الفترة يلتقون مع مؤمنين يشاركونهم تفكيرهم، لعبادة الله بحميّة عاطفية متقدة. وكان ساكستورب، قس مايكل كيركغارد حتى عام 1795، وثيق الارتباط بالجماعة الموراڤية، وكان انشغال موعظته بدم المسيح وجروحه يجسد الموراڤية بهذا القدر أو ذاك: «بصقوا في وجه المسيح، أوه، يا

لها من إهانة فظيعة! نحن ديدان الأرض البؤساء نرى إنها مهانة كبرى ومعاملة سيئة إذا بصق أحد «علينا» وها هم لا يبصقون على المسيح وعلى ملابسه فحسب بل وفي وجهه أيضاً. أوه، يا لها من إهانة كبيرة! كم بدا وجه المسيح المبارك مدعاة للرثاء! ولا سيّما وانه كان موثوق اليدين لا يستطيع أن يمسح هذه الوساخة. حقاً أمامنا هنا مشهد مدهش: ابن الله نفسه، روعة مجد أبيه والمعبر عن صورة كينونته، يقف بوجه يقطر بصاقاً، ذلك الوجه الذي كان في سالف الأيام يشع كالشمس على جبل طابور». صور كئيبة كهذه من الجماعة المورافية استحوذت على مخيلة الطفل الحساسة في وقت مبكر تماماً وتركت بصمتها على نظرته إلى الحياة.

في وقت الصيف وقعت المعجزة الكبرى: أُرسل الأطفال إلى الشمال للتمتع بعطلة يقضونها في بيت مادس روين حيث أقاموا في «قلعة بيتر»، وكانوا يلعبون من الصباح حتى الليل. وفي 26 تموز/ يوليو 1829 كتب الأب إلى ابنه البكر: «كالعادة، سورين يقضي مواسمه الصيفية في فريدريكسبورغ». وبعد سنوات عديدة، في تموز/ يوليو 1838، وقف سورين كيركغارد مرة أخرى بجانب ذلك البيت الكبير والغابة وراءه، ليتذكر بصورة مفاجئة كيف كان يركض جيئةً وذهاباً، بسترة خضراء وسروال رمادي - وكيف أنه لم يعد قادراً على اللحاق بذلك الطفل المتحرر من الهموم والمسؤوليات. وتابع: «إن النظر إلى طفولة المرء كالنظر إلى مشهد طبيعي خلاب حين يمر به المرء ووجهه في الاتجاه المعاكس: لا يدرك جماله حقاً إلا في تلك اللحظة، إلا في ذات البرهة التي يبدأ بالاختفاء فيها».

التواء

حين كان كيركغارد، الرجل البالغ، يعود بأنظاره إلى سورين آبي، الطفل الصغير، لكي يفهم نفسه ومجرى حياته، كانت القصة الفعلية والظروف الملموسة نادراً ما تثير اهتمامه، بل كان السرد الدراماتيكي أو السرد الأصلي يهمين على رؤيته - السينوغرافيا، الوقائع الرمزية. وكانت ذاكرته ذاكرة أدبية، ذاتية بقدر ما كانت انتقائية، ذاكرة تقرر بدقة ما تستعيده وكيف تستعيده. لذا كان من المتعذر عملياً أن نحدِّد أين تنتهي القصة الفعلية ويبدأ السرد الروائي. وتقدم الطريقة التي يُصوَّر بها والد كيركغارد مثالاً له مغزاه على ذلك: أحياناً يظهر صاحب سطوة

يصعب على بطاركة العهد القديم أن يباروه فيها، وأحياناً أخرى نراه صاحب مخيلة خارقة تقريباً تبدو كل قصص العالم الخيالية باهتة ومملة بالمقارنة معها، وتضمحل وتتلاشى أجمل الغابات أمامها. ولكن أيهما مايكل بيدرسن كيركغارد الحقيقي؟ رغم أن يوميات كيركغارد وكتاباته المنشورة تبدو وكأنها تقول لنا أكثر من المطلوب تقريباً، فإننا لا نملك فكرة عن حقيقة شخصيته.

إذا قصرنا أنفسنا على المجموعة المتواضعة نسبياً من المواد التي لها مصادرها، تتكون لدينا صورة رجل صارم ومتسلط يطالب الذين حوله بقدر من الطاعة والتقتير، يهتم بالتفاصيل إلى درجة تكاد لا تُطاق. ويقول لنا أحد خدمه «إن السيد العجوز كان شديد التطلب بشأن تلميع أحذيته وجزَمَه: يجب ألا تكون هناك أي بقعة باهتة وألا تكون هناك ذرة تراب واحدة». وإذ يستمر الخادم في سرده نستطيع تقريباً أن نتحسس ارتجافه: يجب الحذر منه حين يكون غاضباً. لم يكن يصرخ أو يستخدم لغة جارحة ولكن الجدية التي ينطق بها توبيخاته تجعلها أبلغ أثراً مما لو ثارت ثائرته. وفي أقصى الأحوال، حتى عندما تكون كلماته أقسى الكلمات فإن ضفيرة الشعر المتدلية خلف رقبته قد تهتز بطريقة غريبة. وعلق الشاب سورين آبي ذات مرة بالقول «إن أبي وُلد في موعده» مشيراً إلى رغبة والده في أن يكون دقيقاً في مواعيده ومستعداً من كل النواحي حتى إنه كان يشتري الخبز لوليمة عشاء قبل أربعة عشر يوماً على وصول الضيوف! ورغم ثروته ذائعة الصيت فإنه كان متمسكاً بأمثولة منطقة يوتلاند في البساطة. وكان الأطفال يُكسَون بتواضع بل بتقتير - ولا سيّما البنات اللواتي تعين عليهن في وقت مبكر أن يعوّدن أنفسهن على خدمة أشقائهن الأصغر، الأكثر تعليماً. وكان مايكل كيركغارد نفسه يملك معطفاً فاخراً (معطف «بورسلين»). وكان يقلب ياقة المعطف على الوجه الآخر حين تهترئ ولكنه لا يقلبها إلا حين تهترئ وليس لحظة واحدة قبل ذلك. وقادته نظرته المحافظة إلى أن يبدي احتراماً استثنائياً لكل ما يرتبط بالمرتبة والمكانة المتميزة، وقيل إنه كان يكنُّ احتراماً مضاعفاً لصديقه بويسن «للرجل وللمستشار القضائي» على حد سواء. وانغمر لفترات طويلة في دراسة الفيلسوف الألماني كريستيان وولف وخاصة عمله «أفكار معقولة عن القدرات والاستخدام الصحيح للفهم البشري من أجل معرفة الحقيقة، منقولة إلى محبي الحقيقة». ورغم افتقار مايكل كيركغارد إلى التعليم النظامي فإنه كان يستطيع أن يكون حاداً كشفرة الموسى عندما يداخل

بطريقة ثاقبة في النقاشات الأكاديمية لأبنائه ذوي التعليم الحسن. واعتبره بيتر كريستيان لاحقاً «أكثر الأشخاص الذين التقيتهم موهبة» في حين أن اللاهوتي فريدريك هامريك سمَّاه «موهوباً بشكل رائع»، وقدم الوصف التالي: «كان تاجر الجوارب العجوز من يوتلاند رجلاً دائم القراءة. كان يستطيع أن يشق طريقه عبر منظومات فلسفية ومع ذلك كان يتولى مشتريات العائلة من السوق بنفسه. ما زلتُ أستطيع أن أراه في الطريق إلى البيت من السوق حاملاً وزة سمينة لطيفة». وكانت حفيدته هنريته لوند تتذكر بوضوح «شخصية جدي الوقور، العجوز في معطف بيج طويل سرواله مدسوس في قمة جزمته الضيقة، وبيده عصا متينة ذات رأس ذهبي، والأكثر مدعاة لاهتمامنا نحن الأطفال جيوبه المحشية ببسكويت فيفرموسة pfeffermusse. كان قوي البنيان، ملامحه صارمة وحازمة. كان رأسه ينحني قليلاً إلى الأمام في حين كان تعبير عينيه وكأنه يحلم، ما زال يرنو بأنظاره عبر مرتفعات يوتلاند البور». وحين يخرج إلى الشارع كان عادة يرتدي «معطفاً رمادياً، وصديرياً أو سترة وبنطالاً يصل إلى الركبة من المخمل أو من قماش مانشستر القطني، يكون أسود أو أبيض، وجوارب صوفية خشنة أو حريرية وحذاء بمشبك كبير أو جزمة مجرية ذات شراشيب في المقدمة». وهنا، كما في غالبية الحالات، تتكون لدينا صورة التاجر كيركغارد منظوراً إليه «من الخارج» جداً بلا أي قدر من العمق النفسي. ولكن اهتمامنا بمايكل كيركغارد هو بالطبع لتكوين فكرة عن الإمكانات الذهنية وأنماط السلوك والأمزجة التي ربما كانت تكمن في ابنه أيضاً.

لا مراء في أن الأب يدين لابنه الأصغر بما ناله من سمعة ذائعة بعد مماته. وعلى سبيل المثال، لدينا من الفترة التي كان كتاب «إما/ أو» يقرب من الانتهاء، صورة سيرة ذاتية في جانب منها بعنوان est De omnibus dubitandum «كل شيء يجب أن يكون موضع شك»، يرسم فيها جنتلمان اسمه يوهانس كليماكوس لوحة تطوره الفكري بفرشاة عريضة وأسلوب لا مكان فيه للتواضع. وعند نقطة من هذا «السرد»، كما يُسمى النقاش الملحق بالكتاب، يقدم صورة لبيت طفولته مرسومة بدقة ووضوح حتى إن المقطع أصبح نصاً لا بد من إدراجه في كل سيرة لحياة صاحبه: «بيته لم يكن فيه الكثير من وسائل اللهو ولأنه لم يكن يبارح البيت بالمرة تقريباً فإنه اعتاد في وقت مبكر على أن يشغل نفسه بنفسه وبأفكاره. كان والده رجلاً صارماً للغاية يبدو جافاً وباهتاً في الظاهر

لكن معطفه البسيط كان يخفي مخيلة متوهجة لم يتمكن حتى عمره المتقدم من إخمادها. وعندما كان يوهانس يطلب أحياناً السماح له بالخروج من البيت كان طلبه يُقابَل بالرفض في الغالب رغم أن والده عوضه عن ذلك ذات مرة حين عرض عليه أن يأخذ يده ويمشي معه ذارعاً طابق البيت في نزهة خيالية. وكان هذا من الوهلة الأولى تعويضاً هزيلاً ولكنه، مثل المعطف البسيط، كان يخفي شيئاً مغايراً تماماً تحته. قَبِل يوهانس العرض وكان له وحده أن يقرر أين يتنزهان. فقرر أن يذهبا خارج أبواب المدينة إلى قصر ريفي قريب، أو الشاطئ، أو هنا وهناك في شوارع المدينة، أينما شاء يوهانس، لأن والده كان قادراً على أي شيء. وفيما كان الاثنان يتنزهان جيئة وذهاباً في طابق البيت كان والده يصف كل ما يشاهدانه: يلقيان التحية على المارة، العربات تقعقع أثناء المرور بهما لتغرق صوت والده، الفواكه التي تعرضها بائعات الفطائر الحلوة مغرية أكثر من أي وقت مضى. كان يروي كل شيء بدقة وبوضوح وآنية، حتى أصغر التفاصيل. وبالنسبة ليوهانس كان هذا وكأن العالم يُخلَق خلال حديثهما، كأن والده «ربّنا» وهو نفسه المفضل عند الرب، الذي سُمح له بالاستغراق في نزواته الحمقاء كما يحلو له من المرح - لأنه لم يُنهر قط، والده لم ينزعج قط، وكل شيء حاضر وعلى الدوام، بما يُرضي يوهانس.

هناك رقة من الحنان تكاد تكون غنائية في هذا الإنشاء الأدبي الذي تمكن فيه كيركغارد - لأول مرة - من وضع مسافة بينه وبين خبرات طفولته المؤلمة عاطفياً. وإن يداً خفية محت كلَّ المكدرات وأسكتت كل الأصوات ما عد صوت الأب والابن. وينسى المرء بسرعة إن هذه الواقعة لم تحدث إلا «ذات مرة» ما أن يماهي بسرعة بين يوهانس وسورين آبي نفسه بحيث يتسلل المشهد بصمت إلى صالون البيت رقم 2 نيتروف. وبعد ذلك لا يبقى الكثير لاعتبار الواقعة حقيقة بيوغرافية - «ليس» إلا بقدر ما يروي أي سرد شيئاً عن الراوي. ويلمح المرء وراء صورة الأب يمشي مراوحاً في الصالون داخل البيت، رجلاً قوي العزيمة يريد أن يحقق ابنه «فكرياً» النجاح الذي حققه هو «مالياً»، بل إن سورين آبي كان يتذكر - ويتفق مع! - إصرار والده، المتكرر «آلاف المرات» على أن مَنْ يريد حقاً أن يصنع من نفسه كاتباً ذا شأن أن «يكتب بإحدى اللغات الأوروبية» وليس بلسان مغمور يُعرف على أنه اللغة الدنماركية.

لا نعرف إن هذه النسخة الرعوية ذات الألوان الزاهية من بيت كيركغارد

خيال شعري إلا حين يأخذنا كيركغارد، الذي بلغ سن الرشد، خطوة فخطوة على سلّم طويل ضيق إلى باحة طفولته الداخلية. وكتب في خريف 1848: «وا أسفاه، من المخيف أن أفكر حتى للحظة واحدة في خلفية حياتي المعتمة، من بداياتها الأولى ذاتها. القلق الذي غمرني به والدي، مالنخوليته السوداء [بالدنماركية tungsind أو «ثقل الروح»]، الأشياء الكثيرة من هذا الصنف التي لا أستطيع حتى أن أكتبها. كنتُ أشعر بمثل هذا القلق من المسيحية ومع ذلك كنتُ أشعر بقوة كبيرة تجرني إليها». وإذ يبدي كيركغارد ذلك النوع من التضارب العاطفي والولاء المُساء فهمه الذي يستحضر في الذهن الإخلاص المتناقض لضحايا سِفاح القربى فإنه عادة لا يضع ثقته فينا إلا بوصفنا جملة استدراكية في مقاطع تؤكد أن والده أفضل الآباء وأكثرهم حناناً - كما في الفقرة التي كتبها في يومياته بتاريخ 9 حزيران/ يونيو 1847 حيث الاستدراكات حاضرة بالمعنى الحرفي للكلمة:

(«واه، رحمتك يا رب، كم ظلمني والدي بفظاعة، في اغتمامه - رجل عجوز يلقي عبء اغتمامه برمته على كاهل طفل مسكين، ناهيكم عما كان حتى أكثر بشاعة، ولكنه، رغم كل ذلك، كان أحسن أب»). وفي فقرة غفل من التاريخ بعد فترة وجيزة، في اليوميات نفسها: «ها هنا تكمن صعوب حياتي الخاصة. إذ رباني رجل عجوز بمسيحية صارمة إلى أقصى الحدود ولهذا تبدو حياتي ملتَبسة عليّ بفظاعة، ولهذا أُقحمتُ في صدامات لا يفكر فيها أحد، وأقل من ذلك الحديث عنها». وفي العام التالي، حين كتب الابن مخطوطة «وجهة نظر لعملي كاتباً»، أُعطيت العلاقة شكلها الأدبي الرسمي: «كطفل تربيتُ تربية صارمة وجادة بالمسيحية - إنسانياً، تربيتُ تربية جنونية. حتى في طفولتي الأولى جِرْتُ على نفسي بأفكار تلقيتها من الرجل العجوز المغتم، الذي كان هو نفسه مسحوقاً بها - طفل مموَّه بصورة جنونية تماماً على أنه رجل عجوز مغتم. شيء مخيف! لا غرو، إذاً، أن تمر أوقات بدت فيها المسيحية لي أشد صنوف القسوة لا إنسانية، رغم إني لم أتخل قط عن تبجيلي لها، حتى عندما كنتُ في ذروة بُعدي عنها. كنتُ على قناعة راسخة - ولا سيّما وإني نفسي لم أختر أن أصبح مسيحياً - بألا أُوقع أحداً في المصاعب التي كنتُ أعرفها ولم أرها قط تُناقَش في حديث أو في كتابة». وفي العام التالي تتضمن اليوميات ما توقعه فرويد: «من الصعب أن نرى الحمق واللامبالاة والثقة بالنفس التي يُربى بها الأطفال. ومع ذلك فإن كل

شخص هو من حيث الجوهر ما سيصبح حين يبلغ العاشرة من العمر، ومع ذلك سنجد إن الجميع تقريباً يحملون عَطَباً من طفولتهم لا يستطيعون تجاوزه حتى حين يبلغون السبعين من العمر. وكل خصوصية منحوسة تميل إلى الانبثاق من انطباع خاطئ تتكوَّن في الطفولة. أوه، يا لها من نكتة حزينة على الجنس البشري - الحاكمية الإلهية جهزت كل طفل تقريباً بسخاء لأن الحاكمية الإلهية كانت تستطيع أن تتوقع ما ينتظر الطفل: أن يربيه «والدان»، أي أن يكون مشوهاً ومشوشاً إلى أقصى الحدود الممكنة إنسانياً».

من المؤكد أن كيركغارد كان يعرف عم يتكلم ولكنه في ذلك الوقت لم يتحدث عما يعرفه. ونحن نفتش عبثاً في يومياته باحثين عن تفاصيل ملموسة بشأن هجمات والده النابعة من اغترار بالنفس، ولكن هذا لا يعني إنها اختفت ببساطة من القصة، بل العكس هو الصحيح: فالأب، بهجماته الصادمة، منح الصبي رصيداً من رأس المال الفني أداره الابن ببراعة موظفاً إياه في «كتاباته بأسماء مستعارة». ولهذا السبب فإننا إذا أردناه أن يفشي أسراره - الأسرار المروعة والأقل ترويعاً - نوجِّه بذلك إلى دراسة هذه الكتابات، بارتياب ومثابرة، مرة أخرى.

جورب سورين

«وصلتُ إلى المدرسة حيث قُدِّمت إلى المعلم ثم تسلمتُ واجبي لليوم التالي وهو السطور العشرة الأولى من تلخيص بال Balle للمبادئ المسيحية، التي كان مطلوباً مني أن أحفظها على ظهر غيب. طُرد الآن من ذهني كل انطباع آخر. وحده هذا الواجب انتصب أمامي بوضوح. كطفل كانت عندي ذاكرة قوية، وأنجزتُ الواجب بسرعة. شقيقتي سمعتني أُردده عدة مرات وأكدت لي إني تعلمته. آويت إلى الفراش وقبل النوم ردَّدته مع نفسي مرة أخرى. نمتُ وأنا أعتزم بثبات أن أقرأه مرة أخرى في الصباح. استيقظتُ في الساعة الخامسة صباحاً، ارتديتُ ملابسي ثم أخذت النص المكلَّف بحفظه وقرأته مرة أخرى. كله ما زال حياً عندي الآن وكأنه حدث البارحة. بدا لي أن السماء ستنطبق على الأرض إذا لم أنجز واجبي البيتي، وبدا لي في الوقت نفسه أنه حتى إذا أُطبقت السماء على الأرض فإن هذه الكارثة لن تعفيني بأي حال مما كُلفتُ به - واجبي البيتي... وبسبب حرص والدي ترك هذا الحادث مثل هذا الأثر في نفسي،

وحتى إذا كنتُ لا أُدين له بأي شيء آخر فإن هذا سيكفي لإبقائي مديناً له إلى الأبد. هذا هو المهم في تربية طفل، ليس أن يتعلم الطفل هذا الشيء المحدَّد أو ذاك بل أن تُنضَج الروح، وان تُستنهض الطاقة».

قصة هذا التلميذ الصغير النجيب الذي يتعلم الأسطر العشرة الأولى من تلخيص الأسقف بال لمبادئ المسيحية على ظهر غيب، مستلة من القسم الثاني من «إما/ أو» الذي يستخدم فيه القاضي وليام هذا المثال لتعليم متذوق الجمال الساهم أهمية الواجب. ولأن كيركغارد كان قليل الكلام عن سنواته في المدرسة بقدر ما كان القاضي ثرثاراً فلا غرو أن يُستدرج الناس – مرة أخرى – إلى إغراء إغماض عيونهم عن الحقائق التاريخية وحولوا سورين آبي إلى الشخصية الرئيسية في قصة وليام الشعرية. ولكن الواقع كان عادياً أكثر من ذلك بكثير.

في عام 1821، عندما أنهى سورين آبي التعليم الابتدائي اللازم وسُجل في مدرسة بورغرديد Borgerdyd [بالدنماركية: «الفضيلة المدنية»]، كان نيلس أندريس تلميذاً في المدرسة أيضاً ولكن في صف أعلى بكثير، وكان بيتر كريستيان على وشك أن يصبح طالباً جامعياً. وهكذا كان المعلمون يعرفون الاسم كيركغارد، وبفضل أداء بيتر كريستيان المتميز فالأرجح أن توقعاتهم كانت كبيرة. أسست المدرسة، الواقعة في الطابق الثاني للمبنى العريق الذي يضم دار سورين غيلدندال للنشر في كلاريبوديرنة، جمعية «الفضيلة المدنية» في عام 1787 لمنح البورجوازية العليا بديلاً أكثر توجهاً نحو التطبيق العملي من «مدرسة سيدتنا» اللاتينية للمتميزين التي كانت معروفة على نطاق أوسع باسم «المدرسة المتروبوليتانية». ولكن مدرسة «الفضيلة المدنية» سرعان ما تطورت إلى مدرسة لاتينية نظامية وبفضل الأرستوقراطي مايكل نيسلن الذي كان مديرها من 1813 إلى 1844، نالت المدرسة سمعة بأنها من أفضل المدارس في البلاد. وكانت هذه السمعة ناجمة، إلى حد بعيد، عن الانضباط الحديدي، بل إن شعار المدير كان «كل صبي يمشي في مدرسة البورغيرديد يجب أن ترتعد فرائصه».

كان المدير نيلسن، مثله مثل التاجر كيركغارد، من منطقة يوتلاند، وكان رجلاً ينتمي إلى المدرسة القديمة من كل النواحي. وعلى غرار الكثير من زملائه كان يحمل لقب بروفيسور في مجاله، ولا يتطرق الشك في مؤهلاته أستاذاً مختصاً باللغة اللاتينية. ولكن الآراء بشأن مواهبه التربوية كانت أقل

إطراء، ويبدو أنّ زملاء كيركغارد في المدرسة كانوا متفقين على ذلك بهذا القدر أو ذاك. وعلى سبيل المثال إن أف. آي. ليبنبيرغ الذي أصبح فيما بعد باحثاً أدبياً ومحرراً، يتذكر «صرامة» المدير نيلسن «الهمجية»، وان. سي. إيل. أبراهامز الذي أصبح أستاذاً في الأدب الفرنسي، سماه «طاغية ومتحجراً» في حين أن القس أدفارد آنغر وصفه بـ«المستبد» مضيفاً أن نيلسن «لم يعلمنا إلا الطاعة والبقاء صامتين بوجه أبشع ظلم، وكتابة قطع إنشائية باللاتينية». وبنظر أورلا ليمان الذي دخل الجامعة قبل ثلاث سنوات على دخول كيركغارد وأصبح فيما بعد سياسياً ليبرالياً شعبياً، فإن المدير لم يكن إلا «صبياً فلاحاً شق طريقه إلى الجامعة وبلغ موقعاً محترماً بحكم عمله الكدود أكثر منه نتيجة أي مواهب فكرية استثنائية. وكان يحمل بصمة الماضي التي لا تُخطئها العين ليس في شخصيته الفجة فحسب بل في أفكاره التربوية أيضاً التي كانت تُعنى بالتوبيخ أكثر من التشجيع وتهتم بفرض الاحترام أكثر من اهتمامها بإلهامنا».

حين كان التلاميذ يحضرون في الساعة التاسعة صباحاً كان نيلسن يمر على كل صف، يعاقب المتأخر باختصاصه الذي يُسمى «صفعة مزدوجة على الرأس» (أولاً بقفا اليد ثم براحتها المفتوحة) ويردف ذلك بكلمات جارحة مثل «وغد» و«حمار». وكان الالتزام بأوقات الدوام يُطرَق في أذهان الأطفال بالمعنى الحرفي لكلمة الطرْق. وكانت التجاوزات تُسجل في دفتر «المعايب» في الصف ويُعاقَب عليها بالاحتجاز، وكان الضرب بالعصا العقوبة التي ينزلها نيلسن بمن يرتكب مخالفات أكبر. وفي الأحوال الاعتيادية كان يُبقي التلاميذ تحت سيطرته بترديد كلمة sinde, sinde التي تعني بلهجة منطقة يولاند «لا تتحرك، لا تتحرك». وكان الوقت الوحيد الذي يُرخى فيه هذه الانضباط هو خلال العواصف الرعدية لأن نيلسن نفسه كان يخاف في مثل هذه المناسبات فيقف مكتوف الأيدي ويقول «عندما يتكلم الله أسكتْ»، بيد أنه بعد ذلك مباشرة يضيف «ولكن حين أتكلم أنا تصمتون». إلى جانب التمارين اللاتينية كان نيلسن يتمتع أيضاً بتمارين أخرى من النوع البدني، بينها ثني الركبة بعمق، ويُقال إنه كان يجيد بقدر معقول لعبة العصا والكرة التي يلعبها مع التلاميذ في ساحة مكشوفة داخل متنزه قريب. كما كان نيلسن يحضر حين يتعلم التلاميذ دروس السباحة في حمامات ريسنستين على شاطئ كالفِيبود.

كتب كيركغارد لاحقاً: «مديري السابق كان نصف إله، رجلاً من حديد! والويل، الويل للصبي الذي لا يتمكن من الإجابة بنعم أو لا عن سؤال مباشر». ولكن كيركغارد اكتشف وجود حساسية معينة أيضاً في أعماق المدير الحديدي، وفي عام 1843 أرسل إلى نيلسن نسخة من كتابه «ثلاثة خطابات تثقيفية» مع الإهداء التالي: «إلى القائد الممتاز لمدرسة بورغرديد، ومعلم شبابي الذي لا يُنسى، والنموذج المحترم لسنواتي اللاحقة». وعلى الغرار نفسه ذُيلت رسالة إلى نيلسن تاريخها 6 أيار/ مايو 1844 بعبارة «مع الامتنان والمحبة من محسوبكم المخلص بالكامل أس. كيركغارد». ولكن حتى في وقت مبكر منذ الرسالة الأولى من رسائل كيركغارد – مؤرخة في 8 آذار/ مارس 1829 ومعنونة إلى بيتر كريستيان، الذي كان في برلين وقتذاك – وصف سورين آبي بقلق مؤثّر كيف كان نيلسن يعاني من ساق مريضة تمنعه من أداء واجباته التدريسية اليومية. وكان على التلاميذ المثول أمامه في المكتب لقراءة دروسهم، وبعدها كان نيلسن يعطيهم من الواجبات «كتابة قطع إنشائية كثيرة باللاتينية حتى أنه نفسه لم يكن في النهاية قادراً على تصحيحها». وبعد إصابة في القدم أثناء إطفاء حريق شب في إحدى مدافئ المدرسة التي تعمل بالحطب ازدادت حالة نيلسن تفاقماً ولكنه في النهاية تمكن من العودة إلى تدريس صف سورين آبي، الذي كان يدخله وهو يعرج كل يوم مرتدياً «فردة شبشب وفردة حذاء».

لدينا شهادة قيّمة تماماً عن أي طراز من التلاميذ كان سورين آبي. ففي سبعينات القرن التاسع عشر اتصل أتش. بي. بارفورد H. P. Barfod، أول محرر لأوراق كيركغارد بعد وفاته، بالعديد من زملاء سورين آبي السابقين في المدرسة، الذين أصبحوا مشهورين بعدئذٍ، وطلب منهم أن يكتبوا ذكرياتهم عنه. وبالطبع يجب أن ننظر إلى ذكرياتهم بعد زهاء نصف قرن وقتذاك، بالكثير من التحفظ ولكن صفات معينة تتكرر في أحيان كثيرة حتى إنها تبدأ بالتماثل مع ما يمكن تسميته بحذر على أنه حقائق. ومع استثناءات قليلة فإن الجميع عملياً أكدوا أن سورين آبي كان موضوعاً للتندر. وربط الذين كانت معارفهم في علم النفس أوسع، ممازحة الآخرين له بضآلة جسمه وغرابه ملبسه، الأمر الذي تركه مكشوفاً وضعيفاً يستنزل على نفسه المزاح الذي حاول الدفاع عن نفسه ضده بأن يتندر هو نفسه على الآخرين. فإن سورين آبي، مجاراة لذوق والده، كان يرتدي سروالاً من التويد الصوفي الأسود الخشن وسترة ذات مؤخرة

قصيرة. ولكن لا بد إن خزانته كانت تحوي ألبسة أخرى لأن إحدى بنات أخيه كانت تتذكر إن عمها حين كان صبياً «كان يركض مرتدياً سترة بلون الملفوف الأحمر». وكانت سراويله قصيرة بشكل غير مألوف مؤدية إلى نكات رخيصة من كل صنف. وكتب كيركغارد بعد جيل: «أتذكر جيداً من طفولتي فلاحقاً كم كان يحزنني أن يتعين علي ارتداء مثل هذه السراويل القصيرة، وأتذكر طرائف زوج شقيقتي [يوهان] كريستيان التي لا تنتهي». وحين سُمح للصبيان الآخرين أن يرتدوا جزَماً تعين على سورين آبي أن يرضى بزوج أحذية وجوارب صوفية سميكة من متجر والده. وأدى هذا إلى إطلاق لقب «سورين جورب» عليه ولكنهم كانوا يسمونه «فتى الكورال» لأن مظهره يذكّر بفتيان فرقة الكورال الملفعين بالسواد الذين كانوا ينشدون في مدارس الكنيسة.

لم يكن سورين آبي صاحب نكتة فحسب بل كان مغروراً كذلك. وذات مرة عندما وبخ أيل. سي. مولر L. C. Müller، الذي كان يدرّس الدين واللغة العبرية، سورين آبي، انفجر ضاحكاً بصوتٍ عالٍ. زرَّر مولر سترته وهتف بغضب «إما تغادر أو أنا سأغادر». وبعد لحظة تفكير رد سورين آبي «حسناً، إذاً، الأفضل أن أُغادر أنا» وعندها ترك الصف. ولم يكن سورين آبي أقل مشاكسة مع جي. أف. ستورك G. F. Storck الذي كان يدرس اللغة الدنماركية والأدب الدنماركي. إذ كتب سورين آبي إلى ستورك الذي كان مخطوباً لشابة اسمها شارلوت لوند، موضوعاً إنشائياً عنوانه «شارلوتينلوند: الرحلة إلى هناك والملاهي المتاحة هناك» [شارلوتينلوند متنزه شعبي مشجَّر ومدينة ملاهي شمال كوبنهاغن مباشرة]. وكان اختيار الموضوع حراً لاختبار درجة النضج. ومع البرفيسور بوي ماتيسن Boy Mathiessen، الذي كان شخصية ضعيفة رغم الحقيقة الماثلة في أنه يدرس اللغة الألمانية، خرجت الحماقات حقاً عن السيطرة. فعندما دخل ماتيسن الصف صُعق برؤية الطلاب جالسين حول مائدة عامرة بالسندويشات والبيرة! شهية طيبة! ولكن عندما كان ماتيسن على وشك إبلاغ المدير بهذا السلوك الفضائحي تحلق الجميع حوله معتذرين واعدين بحسن السلوك - باستثناء طالب واحد. إذ اكتفى سورين آبي بالقول «ألن تخبر البروفيسور [نيلسن] فنحن دائماً هكذا في صفك؟» وهنا صرف ماتيسن النظر تماماً عن نيته في الإبلاغ عنهم وعاد إلى مكتبه مستسلماً.

هادئ، غريب، كئيب، خانع، منعزل، نحيف، وشاحب - هذه هي بعض

صفات الانطوائية التي تتكرر في ذكريات تلاميذ سابقين وتنقضها (ولكن تدعمها نفسياً كذلك) مفردات انفتاح مثل صاحب نكتة، ظريف، وقح، مزعج، واستفزازي.

سورين آبي قطعاً لم يكن طفلاً نابغاً. وكتب بي. إي. ليند P. E. Lind لا أحد كان يعرف شيئاً عن مواهبه «غير الاعتيادية». فردوده في درس التربية الدينية كانت مثل ردود العديد من الطلاب الآخرين وكتاباته الإنشائية باللغة الدنماركية كانت مسروقة من مواعظ مينستر. وكان هذا صحيحاً على الأرجح. والمؤكد أنه كان دائماً الثاني أو الثالث على الصف، ولكنه لم يكن الأول ذات يوم بل كان هذا الشرف حكراً على آنغر الذي تذكّر تعليق بينديسبول من سنتهم الأخيرة في المدرسة: «كيركغارد حقاً مزعج لأن جوابه حاضر قبل أن يسمع السؤال». وبتفاهة طالب متفوق تذكر آنغر أيضاً كيف أبدى سورين آبي، في وقت مبكر، موهبة خاصة للغش - أو «اختلاس النظر» كما كانوا يسمون الغش - ولا سيّما في دروس التاريخ والجغرافية.

هذا الغش تذكَّره أيضاً أف. بي. فيلدنغ F. P. Welding (ابن خباز والصبي البدين في الصف)، الذي كان، بحسب ما يروي المدير، بارداً ومتوسط الذكاء على نحو استثنائي. ومن بين كل التلاميذ كانت لدى فيلدنغ الذي أصبح لاحقاً رئيس الشماسة في كاتدرائية فيبورغ، أقوى ذاكرة ويقدم أكثر التقارير استفاضة بالتفاصيل. ويتذكر فيلدنغ أن سورين آبي كان صبياً يختلف عن الآخرين، من بيت صارم، غريب يلفه ظلام خانق. ويتابع فيلدنغ: «كان صبياً نحيفاً، في هروب دائم، لم يتمكن قط من كبح جماح فكاهته العابثة ومداعبة الآخرين باستخدام ألقاب سمعها، أو القهقهة أو قلب ملامح وجهه لتكون مضحكة رغم إن هذا كثيراً ما كان يستنزل عليه ضرباً مبرحاً. لا أتذكر أن لغته كانت ظريفة حقاً ذات يوم أو لاذعة لكنها كانت مزعجة واستفزازية، وكان يدرك إن لها هذا التأثير رغم أنه في أحيان كثيرة كان هو الذي يدفع الثمن. وكانت هذه النوبات من الرغبة في المزاح تبدو مقطوعة تماماً عن بقية وجوده الصامت بيننا، إزاء الشخصية المنكفئة والانطوائية التي كان يبديها في بقية الوقت. وخلال هذه النوبات كانت موهبته الأبرز هي القدرة على جعل هدفه يبدو مثيراً للسخرية، وكان الصبيان المربوعون، طوال القامة، أقوياء البنيان على الأخص هم الذين يختارهم هدفاً لسخريته... كصبي لم يكن فيه أدنى أثر للمواهب الشعرية الكبيرة التي

اكتسبها لاحقاً. بين حين وآخر، عندما كان زميلنا في الصف إتش. بي. هولست H. P. Holst يقرأ لنا محاولاته في كتابة الشعر أو إنشاء باللغة الدنماركية، كان سورين كيركغارد من أوائل الذين يقاطعون إلقاءه برمي كتاب على رأسه».

يوم المدرسة لم يكن يوماً يستحضر قصائد عظيمة تماماً. كان يبدأ في الساعة التاسعة صباحاً ويستمر حتى السابعة مساء مع فترة استراحة من الساعة الواحدة إلى الثالثة ليتمكن التلاميذ من العودة إلى البيت وتناول طبق من عصيدة الحنطة السوداء أو ما شابه ذلك. لم يكن هناك دوام بعد الظهر أيام الأربعاء. وبعد السنة التحضيرية هناك ست مراحل مدرسية تُحسب تنازلياً فتبدأ من المرحلة السادسة وتنتهي بالمرحلة الأولى. وكانت كل من المرحلتين الأعلى تستمر سنتين وعندما ينضج الطلاب بما فيه الكفاية يسجلون في الجامعة خلال شهر أيلول/ سبتمبر ويخضعون لامتحانات قبول يجريها أساتذة هناك. وكانت المراحل العليا تضم 45 ساعة من الدروس في الأسبوع، منها ساعتان لتدريس اللغة الدنماركية وساعتان للفرنسية وساعتان للألمانية وثلاث ساعات للتربية الدينية وثلاث ساعات للغة العبرية وثلاث ساعات للرياضيات وخمس ساعات للتاريخ وست ساعات لليونانية وست ساعات للإنشاء وثلاث عشرة ساعة للأثينية. وعندما حضر سورين آبي لامتحانات القبول باللاتينية كان مطلوباً منه 11 ألف بيت شعر و1250 صفحة نثر. وغني عن القول إن حجم العمل المطلوب كان كبيراً ولأن سورين آبي كان مجتهداً فإنه كوفئ، مع مرور السنين، بشرف مساعدة المدير نيلسن في تصحيح مواضيع الإنشاء باللاتينية التي يكتبها الطلاب الآخرون. المنهج المطلوب باليونانية لم يكن بالقدر نفسه من السعة، ولكنه كان واسعاً تماماً رغم ذلك: نحو 10 آلاف بيت شعر وأكثر من 300 صفحة نثر - زائد إنجيل يوحنا! كان معلم سورين آبي للغة اليونانية بيتر كريستيان، ويتذكر فيلدنغ كيف كان سورين آبي «يجعل الأمور صعبة في مناسبات مختلفة بإقحام علاقته مع شقيقه في وضع الصف». وكان المنهج المطلوب بالعبرية يشمل سفر التكوين كله و15 فصلاً من سفر الخروج. وليس لدينا تفاصيل عن أي موضوع من المواضيع الأخرى سوى عناوين الكتب المدرسية المقررة، الأمر الذي نخلص منه بكل تأكيد أن على الطلاب حفظها على ظهر غيب. وبساعتين فقط للفرنسية كل أسبوع كان ما يستطيع التلاميذ إنجازه بالكاد يتعدى اكتساب درجة معقولة من المقدرة على القراءة. وكان أداء

كيركغارد جيداً تماماً رغم أنه قرأ باسكال لاحقاً في ترجمة ألمانية. لم تكن اللغة الإنكليزية والأدب الإنكليزي أصبحا موضوعاً مقرراً بعد، رغم أن «رجلاً اسمه آسب» له كتاب بعنوان «تشديد شروط امتحانات القبول» كان منشغلاً بخطط لإدخال دروس إلزامية بالإنكليزية المنطوقة والمكتوبة، وذلك «سيكون بغيضاً إلى أقصى الحدود بالنسبة لي»، كما كتب سورين آبي، الذي تملكه الخوف، إلى بيتر كريستيان في رسالة بتاريخ 25 آذار/ مارس 1829. ولكنه أفلت بفزعة فقط، وبذلك كان عليه أن يقرأ شكسبير في السنوات اللاحقة بالألمانية «لأني أنا نفسي لا أقرأ بالإنكليزية».

حفلتا زفاف وحريق

فيما كان سورين آبي يشق طريقه عبر جبل الكتب كانت شقيقتاه نيكولين كريستين وبتريا سيفرين تقضيان وقتهما في الغرام. وكان الصديقان اللذان اختارتهما الشقيقتان الأخوين يوهان كريستيان وهنريك فرديناند لوند، تاجر منسوجات وموظف بنك على التوالي. ولا بد أن مايكل كيركغارد كان سعيداً برؤية ابنتيه تختاران زوجين تعكس مهنتاهما اهتماماته هو، وهي تجارة النسيج والمال. ولكن بنظر بيتر كريستيان وبيتر فيلهلم وسورين آبي فإن بيتر فيلهلم لوند، الشقيق الأوسط بين الأخوة لوند، كان موضع اهتمامهم الأكبر. وكان هو أيضاً تلقى تعليمه في مدرسة بورغرديد ودخل الجامعة قبل بيتر كريستيان بأربع سنوات ودرس الطب والتاريخ الطبيعي، وكتب مبحثين أكاديميين نال عليهما الجائزة الأولى في ظرف عام واحد، المبحث الأول عن الدورة الدموية للقشريات ذات العشر سيقان، والآخر عن نتائج آخر البحوث في حقل تشريح الحيوانات الحية. كان هذا في عام 1824 حين كان بيتر فيلهلم في الثالثة والعشرين فقط. وفي العام التالي سافر إلى البرازيل حيث أمضى ثلاث سنوات يبحث للجمعية العلمية في مجالات الأنواء الجوية والبيولوجيا وعلم الحيوان، وكان يرسل بانتظام إلى بلده مجموعات من الحشرات الغريبة والطيور غير المألوفة من أجل حفظها في المتحف الملكي للتاريخ الطبيعي. وبحلول نيسان/ أبريل 1829، حين وجد هذا الجوال حول العالم نفسه أخيراً داخل أسوار كوبنهاغن من جديد، لم يكتسب خبرة هائلة بالعالم فحسب بل كدَّس كماً فريداً من المادة لأبحاث التاريخ الطبيعي أيضاً، وصفها في سلسلة

من الدراسات غطت النطاق الممتد من بيولوجيا النملة البرازيلية العملاقة إلى المراحل الأولى لنمو الحلزونيات الغلصمية إلى فيزيولوجيا أمعاء طائر الفينش من النوع المغرد.

وقع حادث في الفترة الفاصلة بين الزفافين - زفاف نيكولين كريستين في عام 1824 وزفاف بتريا سيفرين في عام 1828 - كان بمثابة تذكير دراماتيكي بعدم ديمومة الأشياء كلها. وكتب بيتر كريستيان تفاصيل الحدث في يومياته: «2 نيسان/ أبريل 1826، اندلع حريق في منزل كاليش - منزلنا أُصيب بأضرار جسيمة». وكان حريق شب تلك الليلة في مختبر كيمياوي تابع لصيدلية في فريدريكسبيرغاده تشترك بباحة واحدة مع منزل كيركغارد. وأُطلق جرس الإنذار في الساعة الواحدة وربع بعد منتصف الليل ولكن حين وصلت فرقة الإطفاء كانت ألسنة اللهب التهمت الصيدلية بالكامل، وخاف الناس من أن تكون بداية حريق هائل آخر في المدينة. وهرب سكان البيوت المجاورة، بما فيها منزل عائلة كيركغارد، إلى الشوارع نصف عراة فيما توافد المتفرجون الفضوليون على المكان - بل إن الملك فريدريك نفسه شعر ملزَماً بالنهوض من فراشه الملكي ومشاهدة الأحداث. وخرجت المدينة سالمة إلا من فزعة قوية رغم أن منزل كيركغارد تضرر وبعض أوراق بيتر كريستيان فُقدت. ولا يوجد ما يسجل كيف كان رد فعل سورين آبي ولكن من الجائز إن هذا الحادث كان مصدر رهابه اللاحق والمعروف من النار.

بعد أسبوعين على الحريق أدى بيتر كريستيان الامتحانات الجامعية لنيل شهادته في اللاهوت بامتياز كان استثنائياً لأن فترة دراسته كلها كانت لا تزيد على ثلاث سنوات ونصف السنة. وفي رسالة التوصية ببيتر كريستيان التي كتبها البروفيسور ينس مولر، سمّاه «واحداً من خيرة العقول في جامعتنا» بل إنه، كما جَزَم البروفيسور، لم يعرف قط شاباً يستطيع «النقاش بمثل هذه الفطنة والحضور الذهني والبراعة، كما فعل في مناسبات عديدة». وأمضى بيتر كريستيان عطلة صيفية استحقها عن جدارة في فيستربورغ في جزيرة لولاند حيث أقام في منزل الأسقف بي. أو. بويسن P. O. Boisen، الذي ينتمي إلى كنيسة غروندتفيغ. وكانت علاقة صداقة متينة تربط بيتر كريستيان بأبناء بويسن، اللاهوتيين أيضاً. كما إن ابنة بويسن البالغة من العمر عشرون عاماً أليسا ماري لم تفلت من انتباه الخريج الشاب. ولاحظت أيلين بويسن التي كانت تصغرها سبعة أعوام تقرُّب

ضيفهم الصيفي واصفة بدقة مترددة على نحو خاص المفارقة التي كان المثقف يحاول دائماً أن يحمي نفسه بها عندما يواجَه بالكثير من الحسية السافرة: «كان هائماً بها ولكن لم يكن يمر يوم دون أن يجرحها بفظاظة كأنما لتحدِّيها أو لاختبارها أو أياً يكن السبب».

ولكن إقامة بيتر كريستيان قُطعت بصورة مفاجئة في منتصف تموز/ يوليو حين اشتد به المرض بعد إصابته بالتيفوس. وارتفعت حرارته إلى درجات خطيرة، واقترب من الموت، لكنه في أواخر الصيف تماثل للشفاء بما يكفي للبدء بدراسة الفلسفة. وتبلغنا يومياته أنه كان «غارقاً في الكانطية». وخلال السنة التالية واصل دراسته مع أعمال هيوم وسبينوزا ضمن المنهج ولكنه كان يجد الوقت ليخرج في «كثير من الرحلات مشياً على الأقدام»، وفي صيف 1827 قام برحلته الأولى إلى يوتلاند حيث تسلق جبل هيميلبيرغيت، وزار آرتوس.

بعد عودة بيتر كريستيان إلى أهله طلب أن يكون زميلاً مقيماً في كلية بورخ ولكن طلبه رُفض، وتُعلِمنا فقرة مفاجِئة في اليوميات من أواخر كانون الأول/ ديسمبر أنه «بدأ يتعلم المبارزة». كان شقيقه الصغير ذو الأربعة عشر عاماً منهمكاً في تحضير دروسه لمراسم سر الميرون (أو سر التثبيت). وكان اليوم الكبير يوم الأحد، 20 نيسان/ أبريل 1828 حين كان سورين آبي رقم 20 في مجموعة من 48 صبياً باركهم القس مينستر في كنيسة الثالوث المقدس. ونال سورين آبي بفضل براعته درجة «جيد جداً» لم تكن شيئاً يستحق التبجح به ولكن بيتر كريستيان رغم ذلك أهداه ساعة جيبه فيما أُهدي هو ساعة والده. وبعد إدراج اسم آخر صبي في سجل الأبرشية الخاص بمراسم سر الميرون كتب الشماس على كل الصفحة «هنا تنتهي فترة خدمة الدكتور مينستر في كنيسة سيدتنا». وجعلت الأحداث التي وقعت بعد أقل من جيل بقليل هذه الكلمات نبوئية على نحو غريب.

بعد أن شارك بيتر كريستيان في مناقشة الرسالة الأكاديمية التي دافع عنها صديقه يوهانس فرديناند فينغر في أيار/ مايو 1828 سافر مع صديقه يوهانس فرديناند في رحلة طويلة أخذتهم إلى برلين حيث حضرا محاضرات لكل من هيغل وشلايرماخر من بين آخرين. وفي العام التالي واصل بيتر كريستيان رحلته إلى الجامعة في غوتنغين حيث دافع عن رسالة في الفلسفة موضوعها

الكذب – De notione atqua turpitudine mendacii [باللاتينية: عن فكرة الكذب وخستها الأخلاقية] – وأكسبته رباطة جأشه الديالكتيكية التي أبداها في تلك المناسبة لقب Der Disputierteufel aus Norden [بالألمانية: السجالي الشيطاني من اسكندنافيا].

ولكن كان هناك شخص لم يتمكن السجاليّ الشيطاني من الانتصار عليه وهو والده، هناك في بيت العائلة الذي كانت رسائله تقوم بدور الرقيب عن بُعد على ابنه الذي كان الأب يفرض عليه إرادته بلا هوادة. وهذه الرسائل هي من القلة الباقية بيد والده، وينبشها المرء بلا جدوى بحثاً عن دلائل المخيلة الخصبة التي أُمتُدح عليها. ولكن اللافت هو صرامته في المسائل المتعلقة بالمال. فحين كان بيتر كريستيان في برلين تسلّم رسالة مرفقة برسالة اعتماد إلى «الهير إتش. أف. كلتفيغ» H. F. Klettwig، من والده يوجه له فيها تعليمات مفصلة عن كيف يجب أن يتصرف في استيفاء رسالة الاعتماد. وكان عليه أن يبعث برسالة الاعتماد «في أول بريد» وأن يرفق بها «رسالة مؤدبة جداً» يبلغ فيها كلتفيغ أنه سيصل إلى غوتنغين في منتصف تشرين الأول/ أكتوبر، ويعني ذلك في حسابات والده أن بيتر كريستيان يجب أن يغادر برلين «في نهاية آب/ أغسطس» وأن ينطلق «في رحلة على الأقدام»، يجب أن يتذكر قبل موعدها أن يشحن «أمتعته، بعد حزمها وتأمينها، ببريد الطرود». ولا شيء يجب أن يُترك للصدفة، وأقل من ذلك أن يُترك لتقدير بيتر كريستيان نفسه. «وأخيراً، أن تلتمس منه تأكيد استلامه رسالتك في البريد التالي، وأن تطلب عفوه مراراً على إزعاجه، وتكتب اسمك وعنوانك بوضوح في أسفل الرسالة». ومن باب المكافأة نال بيتر وعداً بإعطائه «ورقة نقدية من فئة 20 أو 25 لويس دور» ولكن، هنا أيضاً، تلقى بيتر تحذيراً بألا ينفق أكثر من نصف هذا المبلغ قبل وصوله إلى غوتنغين. وبعد كل هذه القضايا العملية توجه الأب عند ذاك إلى القضية غير المنتهية لتقييم رسالة ابنه الأكاديمية. وسمع الأب إن أندريس غوتلوب رودلباخ Andreas Gottlob Rudelbach وجد نفسه في موقف «مستحيل تماماً». وكان رودلباخ، من نواحي أخرى، مقتدراً بشكل استثنائي، من أوسع مجايليه علماً، ولكن كانت لديه ميول مع الكنيسة الغروندتفيغية ولهذا كان مغضوباً عليه في الدوائر المحافظة. وبالتالي إذا كان على بيتر كريستيان أن يترك الحكم على أطروحته إلى رودلباخ فالمؤكد أن هذا يمكن أن يضر بحياته الأكاديمية لاحقاً، واقترح والده بدلاً من رودلباخ اللاهوتي

الألماني أف. أي. جي. تولوك F. A. G. Tholuck، «إذا كان هذا لا يبدو طلباً ثقيلاً عليه، وفي هذه الحالة تستطيع أن تختصر رحلتك، وبعد إقامة مناسبة في هالة يمكنك أن تتوجه مباشرة إلى غوتنغين».

أطاع بيتر كريستيان المراسيم الأبوية وسافر إلى غوتنغين ولكنه ما كاد يصل حتى تسلم رسالة آمرة أخرى من والده. بدأت الرسالة بشكوى من إن ابنه أصاب العائلة «بقدر لا يُستهان به من الذهول» حين أغفل أن يهنئ شقيقته بتريا سيفرين بعيد ميلادها. ومضت الرسالة للحديث بإسهاب عن مرور «فترة ممطرة» طويلة وتأثيرها السلبي في الحصاد وتداعياتها المحتملة على «أسعار الحبوب». وسأل الأب مرة أخرى عن الرسالة الأكاديمية بعد أن سمع من شقيقات رودلباخ ما يفيد بأن بيتر كريستيان زار شقيقهن ولكنه لم يتمكن من أن يعرف ما إذا تسنى لرودلباخ أن يقرأ الرسالة، وتمنى على بيتر كريستيان أن يُطلعه على ذلك دون تأخير.

عندما انتهى الأب من كتابة هذه الرسالة أوعز لسورين آبي أن يعد نسخة منها في «كتاب النسخ». وفيما كان هذا يجري قاطعهما زائر غير منتَظر، واغتنم سورين آبي الفرصة ليكتب في قعر الرسالة «أنا (سورين) سأكتب إليك قريباً لدحض الوالد، من بين أشياء أخرى». لم يتمكن سورين آبي من الكتابة فوراً ولكن من السهل أن نرى ماذا كان يريد أن يحتج عليه. ففي الرسالة التي كُلف باستنساخها بكل دقة، قرأ شيئاً يعنيه: «لا أدري كيف هي الأمور مع سورين. لا أستطيع أن أحثه على الكتابة إليك. هل هو فقر فكري؟ ألا يستطيع التفكير في أي شيء يكتبه؟ أم أنه غرور طفولي بحيث لا يكون مستعداً لكتابة أي شيء لا يستطيع أن ينتظر ثناء عليه، وبما أنه ليس واثقاً من نفسه من هذه الناحية فإنه يفضل ألا يكتب شيئاً على الإطلاق؟» لم يكن سهلاً على سورين آبي أن يكتب هذه السطور في «كتاب النسخ» ولكن بيتر كريستيان أيضاً كان في الحقيقة يعتقد أن سورين آبي كان يتصرف تصرفاً «طفولياً» في تلك الفترة بل إن بيتر كريستيان كتب إلى زوج شقيقته هنريك فرديناند لوند: «حقيقة إن سورين لا يكبر حقيقة لا استوعبها مثلما لا استوعب حقيقة أنه لا يكتب – أو بالأحرى أن الثانية تفسر الأولى».

يبدو أن تكتب يعني أن تكبر.

الصارم المجتهد
Studioisus Severinus

وصل بيتر كريستيان إلى باريس في صيف 1830. وكان الوضع السياسي متوتراً على وشك الانفجار، وفجأة أصبحت الثورة واقعاً دموياً. وتتحدث يومياته عن معركة بالأسلحة النارية في 28 تموز/ يوليو عندما «وضع أحد المارة ارتسمت على وجهه ابتسامة عارفة، طلقتي بندقية في قبضتي» لاستخدامهما خلال المعركة المقبلة. وفي الوطن كانت العائلة تخشى الأسوأ ولكن بيتر كريستيان هرب من البلد وعاد إلى الوطن سالماً يحمل في أمتعته شهادة الدكتوراه الألمانية التي نالها.

وفيما كان سقوط نظام آل بوربون يفجر عصيانات في عموم أوروبا، كانت أيام سورين آبي في المدرسة تشارف على نهايتها. وكانت والدته قلقة بشأن ما ستؤول إليه الأوضاع: «الفتى اليافع حر أكثر مما ينبغي بعض الشيء وينظر إلى ذلك بخفة»، على حد تعبيرها. ولكنه عندما أصبح طالباً جامعياً في تشرين الأول/ أكتوبر 1830 حصل على أعلى الدرجات (laudabilis) [باللاتينية: يستحق الثناء] في كل المواضيع وكان أداؤه ممتازاً (laudibilis prae ceteris) [باللاتينية: امتياز] في الإنشاء باللغة الدنماركية، واللغة اليونانية، والتاريخ، واللغة الفرنسية. وكتب المدير نيلسن «التقرير المدرسي» التالي: «عقل جيد، منفتح على كل شيء يتطلب انتباهاً من الدرجة الأولى، ولكنه لفترة طويلة كان طفولياً ويفتقد تماماً إلى الجدية. كانت لديه رغبة في الحرية والاستقلال وجدت تعبيرها في سلوكه على شكل تحرر لطيف وأحياناً ظريف من القيود، كان يمنعه من الارتباط بأي شيء أو إبداء أي اهتمام كبير بأمور لا تتيح له الانكفاء على نفسه من جديد. كان شعوره باللامسؤولية نادراً ما يسمح له بتحقيق نياته الطيبة أو السعي إلى هدف محدَّد بدأب. وعندما تضمحل هذه الصفة بمرور الوقت لتمكّن شخصيته من اكتساب جدية أكبر – وقد أُحرِز تقدم ملحوظ في هذا الاتجاه خلال العام الماضي – وتكون إمكاناته الفكرية الرفيعة قادرة على التطور بحرية أكبر ومن دون قيود في الجامعة، سيكون بكل تأكيد من الطلاب الأكثر اقتداراً ويصبح شبيهاً بأخيه الأكبر من نواحي عديدة». وكان يُراد بالمقارنة مع بيتر كريستيان أن تكون إطراء ولكنها كانت بكل تأكيد مبعث إزعاج أيضاً لسورين آبي.

في «الشهادة المدرسية» اللاتينية التي رافقت الطالب الموهوب إلى الجامعة كرر نيلسن المقارنة وقدم صورة الأب المحترم أيضاً: «حكمة هذا الرجل وتقواه يمكن أن نراهما في كل أحواله، وخاصة في تربية الأطفال، التي استمد [الوالد] نفسه منها فائدة كبيرة في تنمية ذهنه ومتعته الفكرية. ولأن بيت الأب نموذج كهذا للكد والصبر والاعتدال، ومنظَّم على المبادئ التي يُدرب بها الأطفال على الفضيلة المدنية والحكمة الموهوبة من الله، فأنه أمر ابنه أن ينظر إلى كل الأمور في ضوء مخافة الله والإحساس بالواجب وأن يبحث عن مصدر كل الأشياء في الله بوصفه منهل كل الحكمة. علَّمه، من جهة، إن الله لا يسمع صلوات المتقاعسين، ومن الجهة، أن الفطنة من دون صلاة لا يمكن أن تحقق شيئاً سوى إيقاع العقل فبي شِباك الخطأ». ثم يوجه نيسلن، أخيراً، اهتمامه نحو الابن: «إن هذا الشاب الذي تربى هذا التربية وتعلم بهذه الطريقة، وفق عادات أجدادنا وبالانضباط الذي ينمّي رخاء الدولة والأخلاق الحسنة - وليس بروح العصر الطائشة والمتمردة - ويمتلك صفات عديدة تجعله محبوباً وتكسبه أصدقاء، أُوصي به لعنايتكم، يا أصحاب العلم، بأرقى الأشكال».

إذا وضعنا الشهادتين بجانب إحداهما الأخرى نظن تقريباً إنهما لا تصفان شخصاً واحداً. فإحدى الوثيقتين تشدد على الفكر، على عدم الجدية، واللامسؤولية والهزل، والذكاء، في حين إن الوثيقة الأخرى لا تتحدث إلا عن التربية والورع الذي يخاف الله، والمسؤولية والإحساس بالواجب. ولكن المؤكد أن نيلسن كان لديه حدس بما يكمن في نفس تلميذه. أُرفقت بشهادة الامتحان «شهادة قبول في الجامعة» صادرة إلى سيفرينوس آبي كيركغارد Severinus Aabye Kierkegaard كُتبت باللاتينية وموقَّعة شخصياً من رئيس الجامعة جي. دبليو. هورنمان J. W. Hornemann. وبعد أربعة أيام، في 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 1830، وصلت وثيقة أخرى، هذه المرة مذيَّلة بختم أحمر بلون الدم. كانت هذه «شهادة تسريح بسبب عدم الأهلية» يشهد فيها قائد حرس الإنقاذ الملكي يوهان هاينريش هيغرمان - لندنكرونه إن كيركغارد بعد ثلاثة أيام في صفوف الحرس واستناداً إلى تقييم بدني وبناء على طلبه هو، أُعلِنَ غير مؤهل للخدمة ولذلك رُقّن قيده في «سجل الحرس». يبدو أنّ ثلاثة أيام في السرية السابعة لحرس إنقاذ صاحب الجلالة الملك كانت كثيرة على سورين

آبي الذي رفض على الغرار نفسه، في سنوات لاحقة، أن يُجبر على الالتحاق بالصفوف والسير متساوقاً مع الآخرين.

نستطيع أن نلقي نظرة عابرة على الحياة المنزلية لعائلة كيركغارد خلال هذه الفترة بقراءة الرسائل التي بعثت بها شقيقتا رودلباخ، يوليانة وكريستيانة، إلى شقيقهما أندريس الذي قَبِلَ في عام 1828 وظيفة مكتبية في مدينة غلاوخاو الصناعية الصغيرة في سكسونيا. وكانت يوليانية وكريستيانة تعيلان نفسيهما بالتدريس في مدرسة للسيدات الشابات، ولكنهما كانتا ثنائياً عجيباً من العوانس النشيطات في القيل وقال، مكانهما الملائم صحافة التابلويد اليوم التي تمتهن الإثارة. كانت الشقيقتان زائرتين مواظبتين للدار رقم 2 في شارع نيتورف التي منها كانتا تنقلان الأحداث الكبيرة والصغيرة في الحياة اليومية. «عجوزان مبروكان مسيحيان بروحهما، شريفان، ومستقيمان»، كما كان تقييم الشقيقتين للسيد والسيدة كيركغارد اللذين امتدحت الشقيقتان بصوت عالٍ تماماً «طيبتهما وإحسانهما» وكذلك مائدتهما العامرة بـ«النبيذ والكعك». وبعد يومين على عيد ميلاد سورين آبي الثامن عشر بعثت يوليانة، التي تتولى عادة القسم الأكبر من الكتابة، إلى شقيقها بالصورة التالية للأجواء العامة، التي تكشف أيضاً إعجاباً رومانسياً على النحو المعهود بـالدكتور المتخرج حديثاً: «أمضينا المساء بصحبتهم، وضمت الشلة ابنتهم وصهرهم. وجدتُ الدكتور أكثر وسامة بكثير من المرة الأولى التي رأيته فيها، وهو بكل تأكيد شاب جدير ومؤمن. سرني على المائدة أن أسمعه يحجّم شقيقه المغرور بعض الشيء - وأسمح لنفسي القول - صهره الغبي بسبب تعليقاتهما المتعجرفة والمملة. ولكنه فعل ذلك بطيبة ورِقَّة بحيث إن صهره، على الأقل، حتى لم يفهمه بالمرة».

كان الصهر الغبي، بلا شك، يوهان كريستيان لوند. وبمرور الوقت أخذ الشقيق المغرور يكتسب شيئاً يجيز له الغرور به.

الجامعة

بعد امتحانات القبول التي أُجريت في الجامعة باسم «الامتحان الأول» كان بانتظار الطلاب «الامتحان الثاني» ذو العنوان المخيف examen philologico-philosophicum «امتحان الفيلولوجيا - الفلسفة». وكان هذا الامتحان ينقسم إلى فرعين: الفرع الألسني الذي اجتازه سورين آبي في 25 نيسان/ أبريل 831

بدرجة laudabilis (يستحق الثناء) في اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية والتاريخ، وبدرجة laudabilis praes ceteris (امتياز) في الرياضيات الأساسية، والفرع الفلسفي الذي أدى سورين آبي الامتحان فيه يوم 27 تشرين الأول/ أكتوبر من ذلك العام لينال أربع درجات امتياز بالفلسفة النظرية والتطبيقية والفيزياء والرياضيات العليا. ولم يكن مكتوباً في النجوم أن سورين آبي سيدرس اللاهوت ولكن إذا تذكَّر المرء موقع الدين المهم في بيت العائلة فإن ذلك سيكون متوقعاً.

خلال هذه الفترة كان قسم اللاهوت أدنى بكثير من المستوى المطلوب وقريباً من أن ينال درجة الرسوب. وكانت الهيئة التدريسية تضم المتقاعد ينس مولر Jens Moller الذي كان يُقال عنه، على نحو يليق به، أنه ليس «منتج أعمال أصيلة بقدر ما يعيد إنتاج أعمال الآخرين، ولكنه في هذا لا يُضارَع»، والمغمور بعض الشيء أم. إتش. هوهلنبرغ M. H. Hohlenberg، الذي كان مسؤولاً عن التدريس بالعبرية، وأخيراً إتش. إن. كلاوسن H. N. Clausen، نقطة الضوء الفكري الوحيدة، وهو إداري كفء عمل عدداً من السنوات رئيساً للجامعة، وكان محبوباً جداً من الطلاب. وكان كلاوسن، مثله مثل غالبية زملائه، عقلانياً ولكنه كان يتابع محاضرات شلايرماخر Scleiermacher في برلين ويحاول الآن أن يوحد مفهوم شلايرماخر ذي المسحة العاطفية للعقيدة بالنظرة النقدية إلى التقليد الكنسي.

خلال السنوات الأولى كان سورين آبي طالباً مجتهداً إلى حد معقول، ونظرة على ما تبقى من قوائم الحضور لمحاضرات اللاهوت والفلسفة تتيح لنا أن نقتفي تقدم دراسته. لا نعرف ما هي المحاضرات التي حضرها خلال الفصلين الأولين من دراسته ولكن في الفصل الشتوي (1 تشرين الثاني/ نوفمبر – 31 آذار/ مارس) للسنة الدراسية 1832 – 1833 يظهر اسمُه على قوائم الحضور لمحاضرات كلاوسن عن الأناجيل المتشابهة. وخلال الفصل الصيفي (1 أيار/ مايو – 30 أيلول/ سبتمبر) عام 1833 حضر محاضرات كلاوسن عن تفسيرات العهد الجديد وسلسلة محاضرات هوهلينبرغ عن سفر التكوين وسفر أشعيا. قائمة الحضور للفصل الشتوي سنة 1833 – 1834 مفقودة لكننا يمكن أن نرى من ملاحظات سورين آبي أنه كان يتابع تأويل كلاوسن لـ «أفعال الحواريين» ومحاضرات البروفيسور سي. تي. إنغلستوفت C. T. Engelstoft المعيَّن حديثاً

عن إنجيل يوحنا. والمرجح أن سورين آبي كان، خلال هذا الفصل والفصل التالي، يتابع شرح كلاوسن للقسمين الأول والثاني من عقائده. وخلال الفصول اللاحقة انصرف إلى قراءة عدد من كتب العهد الجديد كاتباً تعليقات عليها ومترجماً إياها إلى اللاتينية، اللغة التي كان الطلاب يُمتَحَنون بها في المواضيع النقدية للنصوص الدينية. ولكن يبدو أنه في مرحلة ما خلال الفصل الشتوي سنة 1835 - 1836 بلغ حد التخمة. وتبقى ترجمته لرسالة جيمس مجرد نتفة، وصفحات الدفاتر التي من المفترض بهذا الطالب الجامعي أن يكتب فيها تعليقاته فارغة بالكامل. وفي فقرة من يومياته بتاريخ 1 أيار/ مايو 1835 سأل كيركغارد نفسه إن كان «ضرر الجمهرة الهائلة من المفسرين أكثر من نفعهم لفهم العهد الجديد».

وكان من الأمثلة النموذجية على علاقته مع الجامعة الحادث الصغير التالي الذي نقله صديقه الجامعي بيتر روردام إلى شقيقه هانز في رسالة بتاريخ 4 كانون الأول/ ديسمبر 1834. فعندما حان الوقت للبدء باستخدام القاعة الجامعية الجديدة، طلب أعضاء قسم اللاهوت أن يجلس الطلاب في مقاعد مرقَّمة لكل منهم طيلة الفصل كي يتمكنوا من أن يتابعوا بسهولة حضور كل طالب يدرس المنهج المقرر. وكما هو متوقع فإن هذا المقترح أثار احتجاجات بين الطلاب الذين كانوا أقل مواظبة (على ما يُفترض) في الحضور ولا يريدون بالطبع أن يسكتوا على مثل هذا الترتيب المهين. وكتب بيتر روردام إلى شقيقه الذي كان يعيش في الريف في هاربور «إن كيركغارد الشاب» تميز على نحو خاص في هذا الشأن بـ «معارضته الرصينة لكنها جادة» حتى جاءت النتيجة «ألا يُتخذ إجراء وأن يستمر الترتيب القديم». فكان بمقدور أي أحد أن يغيب عن الدروس بضمير مرتاح!

لا يبدو أن سلوك سورين آبي خارج الجامعة كان بالقدر نفسه من الرصانة. صحيح أنه كان يدفع مقابل تلقيه دروساً خاصة على يد إتش. إيل. مارتنسن H. L. Martensen الذي نجح في الامتحانات اللاهوتية عام 1832 بدرجة عالية جداً هي laudabilis & quidem egregie [باللاتينية: يستحق الثناء بل وبامتياز] وقام بتدريس كيركغارد النقاط الرئيسية لعقائديات. شلايرماخر ولكن لا يبدو أنّ الدروس الخصوصية كان لها التأثير المنشود لأن سورين آبي، كما تذكَّر مارتنسن بعد جيل «كانت لديه طريقته الخاصة في تنظيم دروسه، ولم يتَّبع أي

منهج محدَّد بل لم يطلب سوى تدريسه والتحادث معه. فاخترتُ تدريسه النقاط الرئيسية لعقائديات شلايرماخر ثم مناقشتها. وأدركتُ فوراً أن عقله ليس عقلاً اعتيادياً بل كانت لديه رغبة لا تُقاوَم في السفسطة والألعاب التي تنبش في أدق التفاصيل، تتبدى في كل فرصة وكثيراً ما كانت متعِبة. وأتذكَّر بصفة خاصة أنها ظهرت عندما درسنا عقيدة الانتخاب الإلهي حيث يوجد، إذا جاز التعبير، باب مفتوح للسفسطائيين. ومن نواحي أخرى كان مخلصاً لي تماماً في ذلك الوقت». وسيكون لاحقاً من الصعب تلمس هذا الإخلاص ولكن يبدو أنّه كان في بداية العلاقة إخلاصاً إيجابياً بدرجة معقولة للطرفين. وفي رسالة بتاريخ 15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1836 كتب اميل بويسن صديق كيركغارد إلى مارتن هامريخ أن كيركغارد زار مارتنسن «وهو يقدّره» رغم أنه لم يكن راضياً باضطراره على ما يبدو، إلى «السماح لنفسه بتعلُّم كل ما يرغب مارتنسن في الحديث عنه معه». والمستبعد أيضاً أن الطالب صاحب الإرادة القوية كان راضياً عن الصفة التي نسبها بويسن إلى أستاذه مارتنسن في الرسالة نفسها، بأنه «وقور».

إذا كان هذا التدريس غير ناجح وتضمنت الدفاتر عدداً أقل فأقل من الملاحظات فالسبب ليس الكسل بل إحساس أشد حدة بطبيعة المسيحية الراديكالية بعمق. «المسيحية أو اعتناق المسيحية هو مثل كل علاج جذري: يؤجله المرء أطول فترة ممكنة»، كما كتب كيركغارد في فقرة من يومياته بتاريخ 9 تشرين الأول/ أكتوبر 1835. ومن هذه الملاحظة لا تكون المسافة بعيدة من إحساس عنيف بالغضب حتى إن الجملة المكتوبة للتعبير عنه تكاد تتفكك في الوسط: «حين أنظر إلى الأمثلة الكثيرة والمتنوعة على الحياة المسيحية يبدو لي إن المسيحية، بدلاً من أن تمنحهم القوة – بل إن المسيحية حرمت مثل هؤلاء من رجولتهم، وهم بالمقارنة مع الوثنيين مثل مخصي أمام فحل». ونضبط أنفسنا واقعين في مفارقة تاريخية متسائلين إن كان كيركغارد قرأ نيتشة الذي بعد نصف قرن وجه هذه التهمة تحديداً إلى المسيحية لأنها أخصت أقوى أفراد الجنس البشري وكبلت إرادة الحياة بقيود الأخلاق. ويواصل كيركغارد غضبه في فقرة أخرى من يومياته، أيضاً بتاريخ تشرين الأول/ أكتوبر 1835: «يضاف إلى ذلك، هناك أيضاً جو غريب خانق نجده في المسيحية... فنحن ما أن نقبل على هذه الحياة الدنيوية حتى يأتون ويعلنون إن كل شيء آثم، الإنسان والطبيعة على السواء، ويتحدثون عن الطريق العريض مقابل السراط المستقيم... وفي

كل مكان تقريباً يهتم المسيحي بما سيأتي، أنه عقاب، دمار، خراب، عذاب أبدي ومعاناة ذلك الذي يوضع أمامه. وبقدر ما تكون المخيَّلة المسيحية شهوانية وفاجرة من هذه الناحية عندما يكون هناك حديث عن نعيم المؤمنين والمختارين فإن القضية تكون ضعيفة، تُصوَّر على أنها النظرة ذات الابتهاج الشديد لأعين خابية تبصر بحدقات كبيرة ثابتة أو بنظرة يغمرها البلل حتى أنه يغشي كل رؤية واضحة».

بالنسبة لطالب لاهوت من المفترض أن يتقدم قريباً لأداء الامتحانات النهائية كانت هذه السطور أكثر من خارجة عن اللياقة. ومن السهل أن نفهم كيف كان مارتنسن ذو اللسان البليغ يلاقي مصاعب مع الطالب المتمرد كيركغارد. ونحن نتحسس بل أكثر من نتحسس الحاجة إلى التمرد واليأس من الإثم في كل شيء والقرف من إنزال عقوبات بلا نهاية في بيت والده ومن فكرة الآخرة والنعيم كمنطقة لا يُسمح بدخولها إلا للمخصيين المتأنقين ببدلات سر الميرون.

كوبنهاغن العمل السري

لم يكن كيركغارد وحده الذي ابتعد بشدة عن الورع المتجهم والتقليد الميت بل يمكن أن نجد رد فعل مماثلاً إلى حد ما في العديد من الأماكن الأخرى في إطار حركات الصحوة الدينية المختلفة التي شهدتها تلك الفترة، وكانت ترتبط بظواهر متباينة مثل الإصلاحات الفلاحية الدنماركية ومُثُل المساواة والحرية المنبثقة من الثورة الفرنسية وفكرة الحقبة الرومانسية عن حق الفرد الطبيعي في تقرير مصيره. وإذ كانت الصحوات الدينية تتألف من أقسام متساوية تقريباً من رد الفعل (العودة إلى اللوثرية الحق) والثورة (على سلطة رجال الدين بوصفهم طبقة حاكمة في المجتمع) فإنها كانت تشكل تهديداً لكنيسة الدولة. لذا بُذلت محاولات لخنق الحركة بفرض غرامات وأحكام بالسجن ولكن هذا لم يفعل سوى تعزيز تضامنها. وبالنظر إلى الصحوات الدينية من زاوية سياسية فإنها لم تكن بلا أهمية في تطور الديموقراطية الحديثة.

حين نزلت الروح على عمال من العامة مثل أولي سفاني أو راسموس كلينك، أو حين استحوذت على قلوب مزارعين مثل كريستين مادسن أو بيدر لارسن سكريبنبورغ، كانت لدى السلطات الوسائل الكفيلة بقمع الحركة الدينية. وكان من الأصعب بكثير وقف السجالي الكاريزمي الشجاع ياكوب كريستيان

لندبيرغ Jakob Christian Lindberg الذي كان من أوسع رجال الدنمارك علماً، كدوداً إلى حد لا يُصدق، مشهوراً في عموم أوروبا بوصفه مستشرقاً متضلعاً بالعبرية والعربية والسريانية والقبطية، لكنه أيضاً صاحب مؤهلات متعددة مثل شهادة جامعية في اللاهوت وشهادة ماجستير في دراسة النقوش الفينيقية، ومواهب معترف بها في جمع القطع النقدية ومساعد أُستاذ في المدرسة المتروبوليتانية، وكان من مترجمي الكتاب المقدس وفي السنوات اللاحقة نائباً في البرلمان، وأخيراً (وليس آخراً) غروندتفيغيانياً متحمساً - بل يكاد يكون أكثر غروندتفيغيةً من غروندتفيغ نفسه، الذي كان أحياناً يضطر للتخفيف من غلواء تلميذه المتحمس. وكان تَقَويون ولوثريون من الطراز القديم وأعضاء حركة التجديد في يوتلاند وأتباع الأحيائي النرويجي هاوغة Hauge وأعضاء العديد من الحركات الدينية الشعبية، يسعون إلى طلب المشورة والدعم من لندبيرغ الذي كان يطوف البلاد لحمايتهم من الازدراء والملاحقة. كما إن إتش. إن. كولاوسن H. N. Clausen نفسه الذس هاجمه غروندتفيغ كان في مرمى سهام لندبيرغ، وكان من الجائز أن تترتب على ذلك عواقب قانونية، كما حدث في عام 1829 عندمل نشر لندبيرغ كراساً بعنوان «هل الدكتور إتش. إن. كلاوسن، أستاذ اللاهوت، معلم مسيحي نزيه في الكنيسة المسيحية؟» وكان العنوان ذاته، بما فيه من انفعال مجلجل، مفعماً بغضب لندبيرغ المعهود.

«من المعيب أن نكون نحن المتفقين مع لندبيرغ بشأن فحوى القضية، عاجزين عن مد يد أخوية إليه بسبب طريقته في الكفاح من أجل الحقيقة»، كما كتب الأسقف مينستر الذي كان نفسه يتخذ موقفاً نقدياً من العقلانيين وأخلاقهم النفعية وفلسفتهم اليوديمونية الضحلة [تقول الفلسفة اليوديمونية eudaemonism إن الهدف الأخلاقي الأسمى هو السعادة والرخاء الشخصي]. ولكن ما أساء إلى مينستر وأقلقه شيء أكثر من طريقة لندبيرغ في النضال من أجل الحقيقة. فإن لندبيرغ بوصفه معادياً صريحاً للعقلانية كان يريد القطيعة مع الكنيسة الرسمية، ولذلك كان يعقد اجتماعات دينية في محل إقامته الذي أُطلق عليه اسم «الهدوء الصغير» خارج كوبنهاغن مباشرة قرب فرن أوستربرو للكلس. ورغم اسم المكان فإن المشهد في منزل «الهدوء الصغير» كان لا يمت بأي صلة إلى الهدوء. وبعد حضور موعظة في اليوم التالي على الكرسمس في عام 1831 امتشقت الشقيقتان رودلباخ، وهما ترتجفان بغضب الفضيلة،

قلمهما لتكتبا: «في اليوم التالي بعد الكرسمس ألقى لندبيرغ موعظة عن النص المستل من الإنجيل، وبما إنه النص الوحيد المطلوب في السنة الكنسية كلها، الذي يتناول الشهداء فقد انتهز الفرصة وألقى موعظة صارمة وصريحة بشكل استثنائي أعلن فيها بصوت عالٍ وجهوري أنه ليس هناك في الوقت الحاضر قس واحد في كنيسة الدولة الدنماركية كلها، ولا قس واحد، يتقدم، كما تقدم القديس اسطفان، ليقاتل من أجل ربه ومنقذه الآن، إذ تكون الحاجة ماسة. وكان منفعلاً للغاية وتأثر الجمع كله، بمن فيهم هو نفسه، تأثراً شديداً».

بمرور الوقت بدا أن لندبيرغ كان يريد تحريض الحركة السرية في كوبنهاغن على التمرد، وأصبح من أكثر الشخصيات تعرضاً للاستهجان في الصحف اليومية للطبقة الوسطى. وكانت كل جريدة تقريباً تنشر أُغنيات تشهيرية أو مقالات تعريضية تصور لندبيرغ على أنه مخادع، مسموم، ديماغوجي، متعصب، سفسطائي، وغير ذلك من النعوت اللطيفة. وفي الحقيقة إن صحيفة كيوبنهافنسبوستن Kjobenhavensposten كانت تنشر عموداً ثابتاً بعنوان «مساهمات في المعرفة عن الماجستير لندبيرغ» يتضمن المعلومة اللاذعة بأن لندبيرغ وأتباعه أشبه بـ «جُرح قديم في جسم عليل ينز منه قيح مسموم وعفن كثير بحيث تنتقل عدواه إلى الهواء». كما كانت الصحف كريمة بما فيه الكفاية لاطلاع الجمهور بأن «عاهرات يترددن على اجتماعاته الدينية». ولم يكن بمقدور لندبيرغ أن يظهر في الشارع دون أن يُقابَل بصيحات التهكم أو تصويره بهيئة الشيطان، وفي مدينة الملاهي المسماة «حديقة الغزلان» كان هناك عرض للصور المتحركة يُقدَّم فيه «أمير الظلام» باسم «الماجستير لندبيرغ». كما سرت شائعات بأنه سيُعتقل في كريستيانسو، وهي جزيرة تحولت إلى سجن سيئ الصيت. وكتب الأسقف الهرِم مينستر الذي شهد عدداً من المشاغبين الذين لا علاقة لهم بالدين خلال ولايته «إن لا أحد من أعداء المسيحية أساء كما أساء لندبيرغ».

دان غروندتفيغ ملاحقة أتباع حركة الصحوة الدينية، وبوصفه معادياً للعقلانية أراد هو أيضاً القطيعة مع كنيسة الدولة وتشكيل جماعته الدينية الخاصة. وبمرور الوقت انتقل عدد لا يُستهان به من الذين كانوا يحضرون في السابق اجتماعات الجماعة المورافية في ستورمغادة، إلى حضور الصلوات المسائية التي كان غروندتفيغ يقيمها في كنيسة فريدريك الألمانية ثم أصبحوا لاحقاً من أتباع جماعة غرونتفيغ في كنيسة فارتوف. وشعر التاجر كيركغارد

لبعض الوقت بإغراء المضي في هذا الاتجاه واشترك في «المجلة اللاهوتية الشهرية» التي كان أتباع غروندتفيغ ينشرون فيها نقدهم للعقلانية. ولعل هانز بروشنر مصيب في قناعته بأن ذلك كان «خبرته الداخلية للحياة الدينية» التي دفعت كيركغارد الشيخ («الذي كان انتماؤه الديني تَقَوياً من الطراز القديم بدرجة كبيرة») إلى التعاطف مع لوندتفيغ ولندبيرغ.

كان مينستر يقرب من تجسيد كنيسة الدولة وكان يدفع في الاتجاه المعاكس فوقع الصدام في صيف 1831: جمع لوندتفيغ تواقيع 80 رب عائلة وحين يصل العدد إلى 100 توقيع كان يريد الذهاب إلى الملك ويطلب موافقته على الانسحاب من كنيسة الدولة وتشكيل جماعة دينية مستقلة. وطُلب من كيركغارد الذي كان تاجراً ثرياً، أن يضيف اسمه إلى القائمة لكنه تردد وفي النهاية رفض. وكان قبل فترة على ذلك أعطى رفضاً مماثلاً لجماعة من المتعصبين يجمعون التبرعات باسم لندبيرغ الذي أصبح يتورط في قضية قانونية تلو الأخرى، وطُرد من المدرسة المتروبوليتانية في عام 1830 وبالتالي كان بالكاد يملك قرشاً باسمه. وما كان لرفض كيركغارد الأب دعم قضية المعادين للعقلانية في مناسبتين منفصلتين أن يمر دون أن ينتبه إليه أحد، وأرسلت جوليانا رودلباخ، وهي مريدة متعصبة من مريدي لوندتفيغ ونمَّامة، تقريرها مباشرة من مركز الحدث في كوبنهاغن: «أذهلني وعدداً من الآخرين إن كيركغارد العجوز رفض تماماً إعلان تأييده لهذه الجماعة مدعياً أنه لا يستطيع أو لا يجرؤ، لأن لديه ولدين طالبين في الجامعة ويجب أن يحصلا على وظائف [في كنيسة الدولة]. ويعتقد غروندتفيغ إن آل كيركغارد ليسوا خارجين عن المسيحية بكل تأكيد ولكنهم من أولئك الذين يأتون إلى الرب ليلاً. وهذا ما يعتقده بشأن كيركغارد الابن [بيتر كريستيان] أيضاً ولا سيّما بسبب الحقيقة الماثلة في أنه لم يستأنف تعارفه مع غروندتفيغ... ولا يحضر لرؤية لندبيرغ».

كانت جوليانا، كعهدها دائماً، حسنة الاطلاع ولكنها أخطأت حين افترضت إن كيركغارد الأب تعلل بقلقه على مستقبل ولديه، الكنسي أو الأكاديمي، بوصفه ذريعة فقط لرفضه لأن هذا القلق كان بلا شك دافعاً أساسياً وملحاً وراء الخطوات الدينية التي اتخذها التاجر كيركغارد. فأن يكون «مع» غروندتفيغ (دعكم عن أن يكون مع لندبيرغ) كان مرادفاً للوقوف ضد مينستر الذي بوصفه قس الاعتراف الملكي وعضو مجلس أُمناء الجامعة، له كلمة مسموعة بشأن

تعيين خريجي اللاهوت. كما يبدو أن بيتر كريستيان خفف من قوة تعاطفه مع غروندتفيغ ولكن لبعض القوت فقط. ثم نشر مقالاً في جريدة «اسكندنافيان تشرتش تايمز» Scandinavian Church Times التي كان لندبيرغ رئيس تحريرها. وعلم مينستر بتراجع بيتر كريستيان وأسمعه كلاماً خشناً لأن المقال كان مغالياً بتأييد غروندتفيغ في نبرته. ورغم ذلك حافظ بيتر كريستيان على انتمائه للجماعة الهرطيقية وشرع يعمل على رسالة أكاديمية عن اللاهوت الغروندفيتغي De theologia christiana [باللاتينية: «في اللاهوت المسيحي الحق»] نال عليها في النهاية (وإن بعد عذاب لا يوصف) ليسانس في اللاهوت عام 1836. وكتب بيتر روردام في رسالة إلى شقيقه بتاريخ 23 شباط/ فبراير 1836 إن رسالة بيتر كريستيان الأكاديمية «بالكاد قُبلت» للدفاع عنها ولكن، من الجهة الأخرى، عندما بدأت النقاشات الشفهية، التي استمرت «من الساعة العاشرة صباحاً حتى التاسعة مساء»، أظهر بيتر كريستيان أنه «قادر على المواجهة» - بل أنه في الحقيقة مارس لعبة «التلاقف بالبطانية مع أساتذة القسم» - وجرى الدفاع عن الرسالة الذي يبدو أنه اجتذب حشداً كبيراً، في الكنيسة الصغيرة لكلية ريغينسن الواقعة في جناح ريغينسن مقابل البرج الدائري. وفي رسالة بتاريخ 2 شباط/ فبراير 1836 إلى القس غوني بوسك أعرب غروندتفيغ عن غبطته لأن أهل العلم في «كنيسة ريغينسن» التي كانت «غاصَّة من الصباح حتى المساء»، لم يُجبَروا على قبول «رسالة أكاديمية عن بناء اللاهوت كله على [نظرية غرونتفيغ] في الكلمة الكنسية فحسب بل تعين عليهم أن يتفرجوا فيما كان يُقتبَس عمل غروندتفيغ الملعون رد الكنيسة». وكان بيتر كريستيان حقق مأثرة في ذلك اليوم ولكن علينا أن نفتش في يومياته حتى عام 1840 قبل أن نصل إلى اختراقه النهائي بوصفه من أتباع غروندتفيغ، ويبدو كأنه زفرة تقريباً: 28 أيار/ مايو، عيد الصعود، التناول في فارتوف.

ليس هناك دليل على أن سورين آبي سمع ذات يوم لندبيرغ يخطب ولكن من الجائز أن نفترض إن بيتر كريستيان - الذي بحسب الشقيقتين رودلباخ كان «حاضراً في بيت الهدوء [الصغير] وقت إلقاء الموعظة التي ذكرتُها» - ناقش الموعظة والقضايا اللاهوتية ذات الصلة مع شقيقه الأصغر الذي يبدو أن حماسته لغروندتفيغ بدأت تفتر في وقت مبكر جداً. ويتذكر القس فيلهلم بيركيدال الذي كان من أتباع غروندتفيغ إنه التقى خلال سنواته في الجامعة سورين آبي حين

زار بيتر كريستيان الذي كان يعمل مدرّسه الخاص في الفلسفة الأخلاقية. وكان [سورين آبي] «يحب أن يجلس في الغرفة المجاورة ويقرأ»، كما كتب بيركيدال الذي يتذكر أيضاً أنه مشى بالصدفة إلى مكتب الجمارك مع الشقيق الأصغر الذي أبدى عدم موافقته على افتتان بيتر كريستيان بالغروندتفيغية التي من المرجح، برأيه، أن تقوّي بدلاً من أن تكافح «كل هذا الهراء عن المسيحية الذي يحيط بنا». ويتذكر بيركيدال أن هذا التعليق أُطلق في «الثلاثينات» وبالتالي فإن هذا النقد يأتي من فترة مبكرة جداً. ويؤكد هذا الأقوالَ السلبية التي نجدها في يوميات سورين خلال هذه الفترة. وأول هذه الفقرات، بتاريخ 28 أيار/ مايو 1835، تحمل العنوان المكتوب بأناقة «بعض الملاحظات عن نظرية الكنيسة عند غروندتفيغ». وتحوي صفحاتها العديدة نقاشات مستفيضة للمحاجّات المطروحة في «رد الكنيسة» الذي نشره غروندتفيغ في عام 1825 احتجاجاً على العقلاني إتش. إن. كلاوسن و«بابويته التأويلية». كما قرأ كيركغارد وعلق على عمل غروندتفيغ «مواعظ مسيحية أو كتاب الأحد» ولكن هنا أيضاً تأتي تعليقاته نقدية، وفي فقرة كُتبت يوم الأحد، 26 آب/ أغسطس 1839، يعبر عن انزعاجه: «مواعظ غروندتفيغ كلها ليست في الحقيقة إلا طوافاً متكرراً بلا نهاية للمخيلة حتى أن ساقَي المرء لا تستطيعان اللحاق أبداً، أنها تفريغ أسبوعي». وكان غروندتفيغ ألقى في ذلك الأحد موعظة في كنيسة فارتوف حيث منحه مينستر منصباً في وقت سابق من ذلك العام رغم خلافاتهما العميقة. وأوضح مينستر لدى الحديث عن تكتيكاته في مذكراته: «كان رأيي الذي لم يكن بلا أساس أنه، من دون منصب، سيثير حتى مزيداً من الاضطرابات». وكان مينستر محقاً بكل تأكيد في ذلك.

بعد أن رُفضت إغراءات غروندتفيغ ولندبيرغ بلا تردد لم يستمرا في زيارة المنزل الكائن في نيتروف ولكن سورين آبي بقي على صلة بلندبيرغ لفترة طويلة بشكل لافت. وهكذا، في أيلول/ سبتمبر 1841، بعد انتقال لندبيرغ إلى 5 شارع اليغاده في فريدريكسبيرغ، دُعي سورين آبي هناك لحضور حفلة توديع على شرف بيتر روردام. وتذكرت أليسا ابنة لندبيرغ لاحقاً كيف في تلك الأمسية كان «سورين آبي حيوياً جداً، كثير الكلام». ويبدو أن معنوياته كانت عالية. وبعد أربع سنوات ونصف حياة في الكتابة عاد إلى أفكار لندبيرغ في كتابه «حاشية ختامية غير علمية». وهنا، وسط نقاش نصف نقدي ونصف ساخر لرأي غروندتفيغ

بالكنيسة والكتاب المقدس، يخرج لندبيرغ من هاوية اللغو بوصفه الاستثناء المنعش في الحركة الغروندتفيغية. ويُمدَح لندبيرغ الذي عُين في عام 1844 قس أبرشية في تنغستيد في جزيرة فالستر بوصفه «الماجستير لندبيرغ الديالكتيكي الحصيف»، ويُكرَّم على وضعه «اكتشاف» غروندتفيغ «الذي لا يُضاهى» في الشكل المطلوب حتى أنه أصبح «أقل تفككاً وأقل لا مضاهاة وأقرب إلى الحس السليم». المؤكد أن كيركغارد لم يكن عازفاً عن نقد لندبيرغ ولكن حتى اختياره للصفات يبين بوضوح إن الرجل كسب احترامه. إذ يوصف لندبيرغ بأنه «ديالكتيكي متمرس» و«رأس حصيف» يستطيع «أن يدفع قضية ما إلى نهايتها المنطقية» بل إن لندبيرغ «رجل ذو مهارات استثنائية متعددة» وهو «كحليف يكون أفضلية كبيرة، وكخصم يستطيع دائماً أن يجعل المعركة صعبة – لكنه ممتع أيضاً لأنه مبارز في غاية التمرس». لم يكن كيركغارد ممن يستخدمون صيغ التفضيل بخفة وبالتالي فإن المديح الذي أغدقه على لندبيرغ لم يكن ثرثرة فارغة بل كلاماً من صميم القلب كلف كيركغارد نفسه ثمناً. ولا بد أن قراءة هذا السطر على الأخص كانت مزعجة بشدة لمينستر: «لم أتمكن قط من إيجاد أي شيء سفسطائي في الطريقة التي يجادل بها لندبيرغ». وبرأي مينستر فإن طريقة لندبيرغ تحديداً في صراعه من أجل الحقيقة هي التي جعلته صعب المراس إلى هذا الحد – كانت على العموم طريقة جامحة أكثر مما ينبغي، ومباشرة أكثر مما ينبغي، وراديكالية أكثر مما ينبغي.

ومن هذه الناحية كانت لا تختلف تقريباً عن الثورة التي أشعلها سورين آبي كيركغارد بمفرده في 1854 – 1855.

الخروف الأسود

«يبدو أن سورين لا يدرس لامتحاناته بالمرة الآن. الله يعينه على إيجاد مخرج صالح من كل هذا الهياج الداخلي وعلى خلاص روحه». أودع بيتر كريستيان هذه الفكرة في يومياته بتاريخ آذار/ مارس 1835، ولأول مرة كانت توجساته مبرَّرة تماماً. وغني عن القول إن سبب تلكؤ شقيقه الأصغر في الدراسة كان المحاضرات الجامعية المملة إلى حد قاتلٍ ولكن النبش في يوميات بيتر كريستيان من تلك الفترة يجعل من الواضح أيضاً أن وضع العائلة لم يكن يشجع بصفة خاصة على العمل الأكاديمي.

بدأ الأمر مع نيلس أندريس. فهو، مثله مثل أشقائه، أراد أن يدرس في الجامعة ولكن والده كانت لديه مشاريع أخرى. إذ أوقف التاجر دوام نيلس أندريس في مدرسة بورغرديد وأرسله يتدرب عند صهره تاجر الحرير والمنسوجات يوهان كريستيان لوند، الذي تزوج من نيكولين كريستين في عام 1824 وكان يُفترَض به أن يعلّم نيلس أندريس دواخل عالم الأعمال. وكان نيلس أندريس على الأرجح ضد هذا التدخل الجذري في حياته ولكن والده كان عنيداً، وهذا قراره بقدر تعلق الأمر بمستقبل الشاب. فغادر نيلس أندريس بيت العائلة في نيتروف بعد عيد ميلاده الخامس عشر مباشرة وسافر إلى هامبورغ مرتين مع كريستيان آغرسكوف لإقامة بعض العلاقات التجارية هناك، ولكنه كان منكود الحظ بقدر ما كان والده محظوظاً أيام زمانه. وبعد العودة إلى البيت عمل في شركة آغرسكوف «للأزياء والستائر» في ركن كوبماغرغادة وكلاريبوديرنة ولكنه وجد الوضع لا يطاق، وكانت هناك نزاعات جدية مع بقية أفراد العائلة، وخاصة مع والده. والأرجح إن سمعته بوصفه «رجل حفلات مرحاً» لم تجعل الوضع مع عائلته أحسن. «أجبره والده على الوقوف وراء منضدة في دكان»، كما كتب صديقه بيتر مونتة برون بغضب مضيفاً إن العائلة بكل بساطة عاملته معاملة «خروف أسود».

كما أن نيلس أندريس لم يكن مع العائلة في «كنيسة سيدتنا» عندما تقدم مستر ومسز كيركغارد مع ولديهما بيتر كريستيان وسورين آبي للتناول في 6 تموز/ يوليو 1832. وبعد شهر على وجه الدقة، يوم الإثنين، 6 آب/ أغسطس، طلب نسخة من شهادة ميلاده التي كانت وثيقة مطلوبة إذا أراد الحصول على جواز سفر. وفي يوم الجمعة، 17 آب/ أغسطس تقدم نيلس أندريس للتناول بمفرده. وكتب الشماس في سجل التناول «السيد نيلس أندريس كيركغارد. موظف كتابي». وفي يوم الأربعاء التالي، 22 آب/ أغسطس، قرأ إعلاناً في صحيفة «أدريسيفسن» يبلغ الجمهور أن القبطان آيزاك أس. غيبس يعتزم الإبحار خلال الأسبوع المقبل من كوبنهاغن «إلى بوسطن في أميركا الشمالية برحلة يقبل فيها شحن بضاعة ومسافرين». ولم يعد لدى نيلس أندريس ابن الثلاثة وعشرين عاماً أي شك. إذ أراد السفر إلى أميركا اليوم، وكلما أسرع بالسفر كان ذلك أفضل. وكانت الرواية الرسمية أنه أراد البحث عن حظه، والأرجح – كما في رواية بيتر مونتة برون – إن الحقيقة هي إنه «لم يكن قادراً على تحمل وضعه العائلي».

ليس هناك دليل كيف كان رد فعل التاجر كيركغارد على قرار ولده ولكن إغراء المجهول والإمكانية اللامحدودة لم يكونا غريبين عليه بل أنه في زمنه غادر أراضي يوتلاند البور إلى حياة المدينة المزدهرة. ومع ذلك كانت الاختلافات لافتة. فإن ثمن التذكرة باتجاه واحد عبر الأطلسي كان وحده في حدود 100 ريكسدولار إلى 150 ريكسدولاراً، وكان هذا مبلغاً يزيد كثيراً على المتوفر بحوزة نيلس أندريس وبالتالي فإنه لم يستطع الهروب إلى أميركا باقتراض المال من الرجل الذي كان هارباً منه. وفي يوم السبت، 18 آب/ أغسطس 1832 وقَّع عقدين، الأول وثيقة تتضمن تفاصيل صيغة جافة بلا عاطفة تتعلق بحقوق نيلس أندريس بالميراث إذا توفيت آنا كيركغارد قبل زوجها. وأدرج العقد الثاني المبالغ التي دفعها له والده بشأن رحلته القادمة، فقرة بعد أخرى: 312 ريكسدولاراً و50 شلن للكتب والملابس ومستلزمات أخرى، 300 ريكسدولار للشحن والمرور، 400 ريكسدولار نقداً ورسائل اعتماد، فيكون المجموع الكلي 1012 ريكسدولاراً و50 شلن. كما وقع العقدين شاهدان قانونيان هما بيتر كريستيان الذي كان يكبر نيلس أندريس أربع سنوات، وسورين آبي الذي كان يصغره أربع سنوات.

في يوم الأربعاء، 29 آب/ أغسطس 1832، ركب نيلس أندريس السفينة «ماساسويت أوف بليموث». ولكن السفينة لم تبحر إلى بوسطن مباشرة لأن القبطان غيبس قرر الإبحار إلى غوتنبورغ بأمل أخذ مسافرين إضافيين. وفي نذير رمزي بشأن مصير نيلس أندريس، ولدت نيكولين كريستين في اليوم التالي، 30 آب/ أغسطس، طفلاً ميتاً. وبعد أقل من أسبوع كانت حالتها حرجة بحيث أرسلوا في طلب بيتر كريستيان من مدرسة بورغرديد. وعندما وصل كانت أهدأ رغم إنها سرعان ما أصبحت مرة أخرى في حالة هذيان، وتعين على الطبيبين إيل. إيل. ياكوبسن ويواخيم باليسيغ اللذين يعتنيان بها أن يسحبا دمها ويستخدما العَلَق ويضعا كيساً من الثلج على صدغيها الخافقين على مدار الساعة. وفي اليوم التالي تحسن وضعها قليلاً واستطاعت أن تستحم ولكن مساء الإثنين من 10 أيلول/ سبتمبر أحكم الموت قبضته النهائية على المرأة المحمومة. وبعد أربعة أيام ألقى مينستر ما تصفه يوميات بيتر كريستيان بأنها «موعظة صغيرة لا تُقدَّر بثمن»، توجه على أثرها المشيعون إلى مقبرة أسيستنس حيث واروا جثمانها التراب في مدفن عائلة لوند. وتُرِكَ يوهان كريستيان لوند

البالغ من العمر 34 عاماً مع هنريك ابن السبعة أعوام ومايكل ابن الستة أعوام وصوفي ابنة الخمسة أعوام وكارل الصغير ابن العامين.

وكالعادة كانت الشقيقتان رودلباخ حاضرتين تستطيعان نقل آخر أخبار عائلة كيركغارد إلى شقيقهما الأكبر: «تعرضت العائلة المسكينة إلى مصاب جلل مؤخراً. فإن ابنتهم البكر، المتزوجة من لوند البكر، توفيت بعد إنجاب طفلهما الخامس. كانت الولادة على أحسن ما يُرام والمرأة بحال جيدة بعدها ولكن الطفل مات والقابلة لم تفعل ما يكفي للتخلص من الحليب الذي صعد إلى دماغ الأم فأُصيبت المرأة المسكينة بالجنون وفارقت الحياة بعد عشرة أيام. ومؤخراً غادر ولدهم الذي كان يعمل في متجر إلى أميركا الشمالية ليبحث عن حظه هناك. ولهذا فإن والديه العجوزين لا يستطيعان أن يتوقعا رؤيته مرة أخرى. كما سيغادر الدكتور [بيتر كريستيان] المدينة في وقت قريب وهكذا فإن لدى الوالدين المسكينين ما يكفي من الحزن لمعاناتهما الآن». هناك نبرة دراما في تقرير الآنستين ولكن فيه كذلك شيئاً من عدم الإحساس المثير للاشمئزاز، كما هو معهود من الغارقين في النميمة.

الرسالة الموجوعة والمؤثرة التي كتبتها بتريا سيفرين ذات الإحدى وثلاثين سنة إلى نيلس أندريس في أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر 1832 سُطرت بروح مختلفة تماماً. لم تكن بتريا سيفرين معتادة على الكتابة. وكانت ترتكب أخطاء متكررة في استخدام الحروف الكبيرة والصغيرة في بداية الجمل، وكان تنقيطها بحاجة إلى تحسين، ولكن هذه الصفة على وجه التحديد - غياب النقاط في نهاية الجمل - هو ما يعطي رسالتها النبرة اللاهثة التي من المؤكد أنها كانت تعكس حالتها هي. ويبدو أن أفكارها كانت تخرج من القلم إلى الورق مباشرة في نوع من تيار الوعي. «أخي العزيز/ أردتُ أن أكتب إليك منذ فترة طويلة ولكني كنتُ حزينة ومغتمة بحيث كنتُ عاجزة عن حمل نفسي على الكتابة أفترض إنك علمت بالسبب المحزن لوفاة نيكولين الذي حدث بعد رحيلك بفترة وجيزة، من رسائل [يوهان] كريستيان أشاع موتها خسارة في العائلة أعتقد أن لا أحد يشعر بها أكثر مني وكريستيان كما ستقول بكل تأكيد ولكن بناء على المظاهر فإنه يتعامل معها أفضل مني مضى الآن شهرين وأعتقد بأني أفتقدها أكثر من البداية كان موتها هجمة عنيفة على مزاجي الذي كان في كل الأحوال عكراً بما فيه الكفاية قبل ذلك العالم مظلم وحزين عندي وكدتُ أقول إن لا شيء

يبهجني ولكن ذلك ليس صحيحاً فأنا عندي زوجي وأطفالي وآمل بأن الوقت سيشفي هذا الجرح أيضاً وأتلهف على بعض الأخبار السارة منك بحرقة ستفعل الكثير ولكني أفتقد إلى امرأة أأتمنها عندي بالطبع «ترينة» ولكن رغم الحقيقة الماثلة في أني أُحبها كثيراً أشعر أنها بعد كل شيء ليست شقيقتي وحين أنظر إلى الأطفال الأعزاء وأُفكر ما خسروه تستطيع عندئذ أن تصدق إن المرء يمكن بكل تأكيد أن يكون حزيناً». هنا، في منتصف الرسالة تقريباً، تضع بتريا سيفرين النقطة الوحيدة في الرسالة كلها. وتتناول بقية الرسالة آخر الأحداث في كوبنهاغن ولكنها عديمة الاكتراث بهذا القدر أو ذاك إزاء كل ذلك. فهي كتبت الجزء الأهم ولهذا تختتم الرسالة بصورة مفاجئة دون أن تكلف نفسها حتى وضع نقطة في النهاية. كما إنها لم ترسل الرسالة قط بل دفنتها في أحد الأدراج وبذلك تركت للأجيال القادمة القطعة الوحيدة المعروفة لشهادة مكتوبة عن نفسها.

في الأشهر التالية كان بيتر كريستيان يزور بانتظام الأطفال الميتَّمين بأُمهم. وكان يدرّسهم بعض الشيء ولكن مقترحه الانتقال للعيش مع أهلهم لاقى اعتراض كيركغارد الأب الذي أوضح إن منعه ذلك كان «من أجل سورين». ويبدو أن بيتر كريستيان كان الوحيد القادر على إدارة القضايا العملية المختلفة ذات العلاقة، ولكن بمشقة لأنه بطبيعته لم يكن حاسماً ولا نشيطاً. كان متردداً على الدوام إزاء الأشياء، وكان سورين آبي يسميه «رعديداً» pusillanimous وهي صفة غريبة تعني في الحقيقة أن له «روح طفل أو رضيع»، وإنه «جبان»، «قلق بطريقة غير رجولية»، «متذبذب»، أو حتى «ضيق الأفق». وعندما أصبح منصب بروفيسور بالفلسفة في جامعة كريستيانا [الآن جامعة أوسلو] شاغراً، أغرى ذلك بيتر كريستيان لبعض الوقت بالتقدم عليه ولكنه صرف النظر عن خططه هذه بعد أن لمَّح مينستر إلى أن إرسال رجل مثله إلى النرويج سيكون هدراً لموارد فكرية! فبقي في كوبنهاغن وهدر موارده الفكرية في إعطاء دروس خصوصية لطلاب لاهوت متوسطي الذكاء والعمل معلماً في مدرسة بورغرديد. وكتبت الشقيقتان رودلباخ في رسالة بتاريخ 21 كانون الثاني/ يناير 1833 «إنه يدرِّس 24 ساعة كل أسبوع في مدرسة بورغرديد: اللاتينية واليونانية والدين. ويناقش مرتين أسبوعياً في جمعية مناظرات غرضها تدريب أعضائها على فن السجال». وظهر تردده مرة أخرى عندما أصبحت وظيفة إكليركية شاغرة في شبه جزيرة أولاند في يوتلاند. إذ كان بيتر كريستيان يريد الابتعاد

عن «العاصمة، وإغراءات العاصمة» ولكنه عندما حسم قراره بالتقدم على الوظيفة أخذها شخص آخر، وتعين عليه أن يتقدم على وظيفة قس في جزيرة مورس شمال يوتلاند - «نزولاً عند رغبات الوالد، وما إذا كان ذلك يتماشى مع رغباتي فأنا نفسي لا أعرف ذلك». وفي نهاية شباط/ فبراير 1833 علم أنه قُبل في الوظيفة ولكنه وقع حينذاك في حالة من اللايقين وأخذ يبحث عن إشارة بفتح الكتاب المقدس لا على التعيين. كانت الإشارات إيجابية ولكن حين تقدم للرَسامة في 6 آذار/ مارس شعر إنه غير جدير على الإطلاق بهذا المنصب، وبعد التشاور مع والده الذي وصف الأمر كله بأنه «ضعف ووسواس مرضي»، عاد إلى غروندتفيغ الذي نصحه بالانسحاب من المنصب، الأمر الذي - «نحمد الله» - إن والده لم يعترض عليه. ولكن هذه لم تكن نهاية القضية. ففي حين إن أصدقاء ومعارف كانوا مستمرين في تهنأته على تعيينه، كان عليه أن يطلب مقابلة الملك لأخذ موافقة ملكية على تقديمه طلب الاستقالة من المنصب. لم يكن الملك ليناً ولكنه اكتفى بتوبيخ خفيف وأعطاه الموافقة. وأثارت القضية الانتباه. وبقبقت إحدى الدجاجتين الشقيقتين رودلباخ اللتين سودتا الصفحة تلو الأخرى بالنميمة في رسالتهما إلى الأخ أندريس: «هذه الأيام لا يتحدث الناس عن أي شيء آخر». ولاحظ القس كولتهوف الذي لا تسجل يومياته إلا الأحداث ذات الأهمية الكبيرة - مثل مَنْ هم الأساتذة الذين حضروا للاستماع إلى مواعظه - باقتضاب في الفقرة التي كتبها بتاريخ 16 آذار/ مارس 1833 «كيركغارد يطلب السماح له بالاستقالة من منصب الواعظ».

بعد يومين، في 18 آذار/ مـارس 1833، وصلت أخيراً رسالة من نيلس أندريس، تقول إن سفينته انتظرت في ميناء غوتنبورغ شهراً كاملاً قبل أن تبحر عبر الأطلسي، ولذلك كان لديه كثير من الوقت للتفكير في نياته والعودة إلى الأهل. لم ينجح القبطان غيبس في إيجاد مزيد من المسافرين للرحلة وعليه فإنه بالإضافة إلى القبطان نفسه ومساعده وستة بحارة وشخصين لخدمة الركاب وأفراد الطاقم كان نيلس أندريس الشخص الوحيد على متن السفينة ماساسويت أوف بليموث حين أقلعت إلى بوسطن في 29 أيلول/ سبتمبر 1832 بحمولة كاملة من الحديد والخشب السويديين. وبعد 50 يوماً، صباح يوم السبت 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1832، وصل إلى البر في بوسطن. والرسالة التي وصلت إلى كوبنهاغن في 18 آذار/ مارس 1833 كُتبت في 8 كانون الثاني/ يناير، قبل أكثر

من شهرين، ولكنها ظلت قابعة طويلاً في دائرة البريد العام في لندن لأن رسوم البريد الأميركي التي تعادل ثلاثة جنيهات استرلينية لم تُدفع.

الآن رسالة السفينة المرقمة 6310 وصلت أخيراً إلى التاجر القلق كيركغارد، وعلى الهامش العلوي للصفحة الأولى لاحظ تاريخ الاستلام فيما كتب بيتر كريستيان في يومياته: «في هذا اليوم تسلم الوالد أول رسالة من نيلس في بروفيدنس». بدأت الرسالة بأعذار كثيرة ومن الواضح أنها كُتبت بإحساس ثقيل بواجب البنوة: «أردتُ أن أكتب إليكم في مناسبات عديدة ولكني كنتُ أُرجئ الكتابة المرة تلو الأخرى لأنه لم تكن عندي أي أخبار طيبة أنقلها وكنتُ خائفاً من إقلاقكم. أدرك كم كان هذا حماقة لأنه ما من قلق، بالطبع، يمكن أن يكون أكبر من قلق عدم سماع أخباري». بعد عدة أسابيع من الرحلات المكوكية بين بوسطن ونيويورك ومعه رسائل التوصية الدنماركية التي لم يكن أحد يريد أن يقرأها، كان الآن في بروفيدنس مع تاجر اسمه جيمس سي. ريتشموند، حاول دون نجاح حتى الآن، أن يجد له عملاً. وأُجبر نيلس أندريس، مثله مثل آلاف المهاجرين الآخرين المفعمين بالأمل، على أن يدرك إن البلد الذي تجري فيه أنهار الحليب والعسل على ما يُفترض، مأهول بباحثين لا يعرفون الراحة عن الثروة، لا يلتزمون بكلمتهم بل يمارسون الغش بصدور منشرحة لتدبير أوضاعهم قدر الإمكان. وانعكس تدني احترام كاتب الرسالة لنفسه في خط يده الذي كان منتظماً بل يكاد أن يكون أنيقاً ولكن من دون أي بصمة شخصية، إلا حين يوقع بعبارة «ابنكم البار أن. أي. كيركغارد»، وحينذاك يصبح خط يده ثابتاً مثل خط والده.

في رسالة نيلس أندريس التالية بتاريخ 26 شباط/ فبراير إلى بيتر كريستيان الذي أبلغه بوفاة نيكولين كريستين، كتب أنه غادر بروفيدنس وعاد مرة أخرى إلى بوسطن. ولم يُوفّق حتى الآن في «إيجاد عمل في مجالي» بل إنه لو فقط يتمكن من إيجاد وظيفة في «مكتب جيد» لعمل بلا أجور. وليس مستغرباً إنه وجد كل شيء في «العالم الجديد» غالياً جداً. وأعلن بأسلوب مؤثر تماماً إن أميركا «بلد كل حِرَفي وكل شغيل اعتيادي وكل شريحة من المجتمع باستثناء التجار الذي ليس لديهم رأس مال وموظفي المكاتب الذين لا يتكلمون اللغات الحديثة بطلاقة خاصة». وكان يمضي الساعات الكثيرة من الفراغ بدراسة الإنكليزية، وأحرز تقدماً فيها: ظنوه أميركياً مرة أو مرتين. كما بدأ يتعلم الإسبانية للاستعمال في العمل التجاري. ولكنه أراد أن يبقى مواكباً للغته الأم ولذلك كان يأمل بأن تكون

رسالته بداية «مراسلات حيوية» مع بيتر كريستيان الذي يجب قطعاً أن يصححه كلما يرتكب «أخطاء، سواء باللغة أو الأسلوب». وإذا طلب بيتر كريستيان من سورين آبي أن يفعل الشيء نفسه فإن ذلك سيجعل نيلس أندريس سعيداً جداً فإن «له عقلاً جيداً واستثمر مواهبه أفضل مما استثمرتُ أنا مواهبي حتى الآن».

بعد فترة وجيزة على وصول هذه الرسالة الأولى دبج بيتر كريستيان رسالة بناء على إملاء والده. وبُعثت الرسالة بالبريد في 23 آذار/ مارس، ثم فُقدت منذ ذلك الوقت وفُقدت أيضاً رسالة بيتر كريستيان التي كتبها في 6 أيار/ مايو ولكن من التلخيص الموجز لمضمونها في يوميات بيتر كريستيان نستطيع أن نستنتج إنه لم ينتقد جدوى دراسات شقيقه «اللغوية والتاريخية، إلخ» فحسب بل أبدى باستفاضة شكوكه في المشاريع التجارية الخطيرة التي حاكها شقيقه. إذ كان نيلس أندريس يريد استيراد الستائر إلى بوسطن واقترح، واضعاً هذه الفكرة نصب عينيه، على زوج شقيقته يوهان كريستيان لوند أن يتعاون معه عبر الأطلسي. وجد تاجر الجملة الشاب لوند هذه الفكرة مغرية حتى أنه بدأ، رغم تحفظات بيتر كريستيان، يشحن بضائع من كوبنهاغن إلى بوسطن حيث يكون نيلس أندريس موزّعها.

ولكن حين وصلت السفينة «إينفوي» إلى وجهتها لم يكن هناك أحد لاستلام البضاعة، كما لو أن الأرض انشقت وابتلعت نيلس أندريس. وكتب بيتر كريستيان في يومياته من تموز/ يوليو، معبراً عن القلق والانزعاج بقدر متساوٍ، «إن غياب الرسائل ولهفتي عليها يسببان لي الكثير من اللحظات البغيضة هذه الأيام». وإذ مرت الأسابيع أصبح الشقيقان يوهان كريستيان وهنريك فرديناند لوند قلقين أيضاً على نسيبهما المغترب الذي سردا مشكلاته في رسالة إلى شقيقهما بيتر فيلهلم في البرازيل فرد هذا في 2 آب/ أغسطس معرباً عن الأمل بأن تتخذ القضية «منحى نحو الأفضل». وعندما مر شهر آب/ أغسطس كله دون أي بادرة حياة من نيلس أندريس أكد بيتر كريستيان مجدداً في رسالة بتاريخ 9 أيلول/ سبتمبر فحوى الرسالة التي أملاها والده عليه في 23 آذار/ مارس. وكانت النبرة فظة واستنهاضية ولكن لم يكن هناك قط رد على الرسالة.

في تشرين الأول/ أكتوبر وصل التفسير: خلال الشطر الأعظم من الصيف كان نيلس أندريس طريح الفراش بسبب المرض في غرفة فندق في باترسون

بولاية نيو جرسي، على بعد نحو ثلاثين ميلاً شمال غرب مدينة نيويورك. وفي هذه الأثناء أُفرغت شحنة الستائر المرسلة من يوهان كريستيان في بوسطن ولكن لأن أحداً لم يظهر للمطالبة بالبالات الست من المنسوجات الخشنة والناعمة فإنها حُفظت في مخزن الجمارك بانتظار اليوم الذي تُنقل فيه من الرفوف نزولاً عند مشيئة مغامر آخر قد يصادف مجيئه. وهكذا خسر يوهان كريستيان لوند نحو ألف ريكسدولار في مغامرته عبر الأطلسي. ولا يُعرف ما الذي حمل نيلس أندريس على السفر إلى باترسون من نيويورك حيث أمضى، على ما يُفترض، ثلاثة أو أربعة أشهر، ولكن المرجح إنه انتقل إلى نيو جرسي بأمل العثور على فرصة عمل. وفي 25 تشرين الأول/ أكتوبر 1833 تسلم بيتر كريستيان رسالة من القس الأسقفي رالف ويلستون. كانت الرسالة مؤرخة 15 أيلول/ سبتمبر وفيها طلب ويلستون من زميله الدنماركي أن يهيّئ والدته لموت ابنها الوشيك. وبعد أقل من أسبوع علمت العائلة بوفاة نيلس أندريس في 21 أيلول/ سبتمبر ودفنه في اليوم التالي، الأحد، في مقبرة القديس بولس في ساندي هيل. وبعد يوم على وصول الخبر المحزن نشرت العائلة نعياً في صحيفة «أدرسيفسن»: «يعلن والدا نيلس أندريس كيركغارد، اللذان يغمرهما الحزن، باسمهما وبالأصالة عن أشقائه وشقيقاته، إن ابننا الحبيب انتقل إلى جوار بارئه في 21 أيلول/ سبتمبر في مدينة باترسون في أميركا الشمالية، عن أربعة وعشرين عاماً ونصف العام. كوبنهاغن، 31 تشرين الأول/ أكتوبر 1833. أي. كيركغارد المولودة لوند، وأم. بي. كيركغارد». كانت تلك نهاية نيلس أندريس «تغمده الله برحمته يوم القيامة»، كما كتب بيتر كريستيان حين سجل فيما بعد يوم الوفاة في يومياته.

لاحقاً، في 3 كانون الأول/ ديسمبر، بعد تسلم غالبية كلمات التعزية، وصلت رسالة تقع في عدة صفحات من رالف ويلستون، القس الأسقفي. كانت الرسالة مؤرخة بيوم 14 تشرين الأول/ أكتوبر 1833 وموجهة إلى «السيدة آنا كيركغارد» التي بذلك تكون المستلمة - للمرة الأولى والوحيدة في حياتها على ما يُفترض - لرسالة موجهة إليها وحدها. ويتذكر ويلستون كيف جلس بجانب نيلس أندريس نهاراً وليلاً خلال أيامه الأخيرة وسمعه يتحدث بمشاعر جميلة عن أمه وشقيقاته وأشقائه. وتختتم الرسالة: «سعيد هو الابن الذي لديه أم كهذه - وسعيدة الأم التي لديها ابن كهذا».

كانت الرسالة مؤثرة ولكنها مخيفة أيضاً لأن ويلستون رغم كل ما أبداه من اهتمام بالأم المثكولة نسى تماماً على ما يبدو أن نيلس أندريس كان له أب أيضاً! هل كان نسياناً أو مجرد سوء فهم أم أن هذا كان تغافلاً واعياً - نوعاً من الانتقام؟ كان التاجر كيركغارد معذباً بهذه الأفكار حتى إنه طلب من بيتر كريستيان أن يكتب إلى ويلستون ويلتمس منه توضيحاً. وهذا على وجه التحديد ما فعله بيتر كريستيان. وبُعثت الرسالة - التي نسخها بيتر كريستيان على غير عادته بالمرة في يومياته - بالبريد في 22 كانون الأول/ ديسمبر 1833 بنسختين، كل نسخة بسفينة مختلفة لأن القضية كانت من الأهمية للأب حتى إنه لم يتمكن أن يخاطر باحتمال ألا يصل استفساره إلى وجهته. وطلب بيتر كريستيان من ويلستون أن يوضح - «إذا أمكنك التوضيح» - لماذا لم يأت نيلس أندريس على أي ذكر لوالده «الذي كانت هذه الحال مبعث غم كبير له وأرَّقته ليالي عديدة». وكما هو ديدن بيتر كريستيان فإنه أضاف الإشارة إلى أنه نفسه ربما كان مسؤولاً بصورة غير مباشرة عن صمت شقيقه حول القضية لأن واحدة من رسائله الأخيرة إلى نيلس أندريس تحدثت عن والدهما بطريقة لعل شقيقه خلص منها إلى أن والدهما مصاب بمرض لا شفاء منه أو حتى أن المنية وافته ودُفن منذ بعض الوقت.

نال بيتر كريستيان شهادة الماجستير في أطروحة عن الكذب، وكان يعرف كيف يقول كذبة بيضاء في حالات الطوارئ. وفي حدود ما هو معروف فإن ويلستون لم يرد قط ولكن في وقت لاحق من العام قدمت عائلة روجزر التي استضافت نيلس أندريس في باترسون تأكيدات أنه لم يقل ذات يوم أن والده متوفى. وان خوفاً كذلك الذي أعرب عنه بيتر كريستيان من إمكانية حدوث سوء فهم، كان بلا أساس على الإطلاق - وكذلك، كما يمكن أن يضيف المرء، الأمل الذي حاول بيتر كريستيان أن يبقيه حياً في والده المهموم. واضطر كيركغارد الأب على مضض إلى أن يدرك إن صمت ولده لم يكن ناجماً عن أي سوء فهم بل سببه حقيقة إنه أُسقط كأب. وكتب ويلستون في رسالته إلى «السيدة آنا كيركغارد، إنه اعترف، بفضلك الكبير أنتِ يا سيدتي في تربيته الدينية». عبارة لا ترحم بقدر ما كانت لا تقبل اللبس.

خلال شتاء 1833 - 1834 لا بد إن بيت عائلة كيركغارد كان جحيماً من الحزن وملامة النفس. وبرمزية خرقاء على نحو خاص انهمر المطر بلا انقطاع تقريباً طيلة شهرين. ولم يتمكن بيتر كريستيان من أن يقرر إن كان سيتقدم على

وظيفة شاغرة في الجامعة، وفي النهاية تقدم عليها، ولكنه ما أن عُين فيها حتى بدت وظيفة في أكاديمية سورو أشد إغراء له، وتعين عليه مرة أخرى أن يتحمل «تعنيفاً قاسياً» من مينستر. وفي أشهر الربيع يبدو أنّ علاقاته مع شقيقه الأصغر أصبحت أكثر توتراً، وسجل مراراً في يومياته محاولاته «للتصالح حقاً مع سورين». ولكن رغم حقيقة أن الشقيقين كانا يعيشان في غرفتين متجاورتين فإن المسافة بينهما كانت شاسعة على ما يبدو.

بعد الشتاء الممطر حل الجو الحار وخلال أشهر الصيف أصبحت المدينة فرناً من الناحية العملية، لا يطيقها أحد، بما في ذلك طير العائلة الصغير الذي أحيا بيتر كريستيان ذكراه بصليب صغير لطيف في الفقرة التي كتبها في يومياته بتاريخ 23 تموز/ يوليو 1834. وكان على اقتناع بأن هلاك الطير نذير شؤم. فإن والدته وقعت طريحة الفراش مريضة بالحمى طيلة عدد من الأسابيع وكانت لم تزل عليلة. وكان كل شيء متهالكاً بسبب الحر وكل من عنده مال يغادر المدينة. وكان من هذه الفئة سورين آبي الذي شد الرحال في 26 تموز/ يوليو إلى غيليلية، وهي قرية صيادين صغيرة على ساحل زيلاند الشمالية «لقضاء أسبوعين هناك من أجل صحته»، كما كتب شقيقه الأكبر، العالق في المدينة، بلغة لاذعة في يومياته. وبعد أربعة أيام تقول اليوميات نفسها: «في صباح يوم الأربعاء، 30 من الشهر، ساء وضع الوالدة كثيراً ولذلك كنتُ أخشى إصابتها بجلطة. وأُرسل أحد الموظفين في مكتب يوهان كريستيان لوند إلى غيليلية لإحضار سورين آبي، ولكنه لم يتمكن من المجيء إلا في صباح اليوم التالي». وكان ذلك بعد فوات الأوان. فخلال الليل فارقت آنا الحياة بعد صراع طويل وصامت في الغالب مع الموت. ولكنها ذكرت مرة سورين مايكل الذي توفي قبل 15 سنة بيد أنها لم تذكر نيلس أندريس رغم حقيقة أنه كان قريباً منها تماماً على ما يبدو. تذكر شهادة الدفن سبب الوفاة بأنه «حمى عصبية» ربما ناجمة عن مرض التيفوس الذي تحدث عنه طبيب العائلة دي. أي. فون نوتسهورن قبل أسابيع. وفي يوم السبت، 2 آب/ أغسطس نشرت صحيفة «أدرسيفسن» الإشعار التالي بتوقيع أم. بي. كيركغارد تحت باب «الوفيات»: «باسمي وبالأصالة عن أطفالنا نُخطر الأقارب الغائبين والأصدقاء بأن زوجتي العزيزة آنا كيركغارد المولودة باسم لوند، رحلت بسلام عن 67 عاماً في ليلة 30 على 31 تموز/ يوليو، بعد قرابة 38 عاماً من الزواج».

يوم الإثنين، 4 آب/ أغسطس دفنها مينستر في مقبرة أسيستنس وفيما بعد

أعرب بطريقة مؤثرة عن تعازيه لمايكل كيركغارد الذي استمع إلى كلمات مينستر ثم رد: «صاحب النيافة، ألا ينبغي أن ننتقل إلى الغرفة المجاورة ونأخذ كأساً من النبيذ؟» ويشرح هانز بروشنر أن هذا قد يبدو عدم حساسية ولكن مينستر الذي كان يعرف كيركغارد بالطبع، فهم الكلام على أنه تعبير عن رقة عاطفية. وتحوي يوميات بيتر كريستيان وقفة استرجاعية عند الفترة التي أعقبت الدفن: «أصبح مزاجي كئيباً بصورة متزايدة، ولكن، الحمد لله، بعد بعض التردد أقدمتُ على التناول مع الوالد وسورين في الخامس عشر [من آب/ أغسطس]... إن كان ممكناً فحَسَبَ طاقتِكم سالموا جميع الناس! [رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 12: 18]» وكانت العلاقات متوترة بين الشقيقين اللذين رغم الكثير من الإرادة الطيبة اللاهوتية لم يتمكنا بكل بساطة من تحمل أحدهما الآخر.

في 12 كانون الأول/ ديسمبر 1834 احتفل التاجر كيركغارد بعيد ميلاده الثامن والسبعين. ولم يكن هناك الكثير للاحتفال به ولكن ابنته الصغرى بتريا سيفرين التي كانت في الأسابيع الأخيرة من الحمل حضرت لتهنأته. وكانت ذات شعر أشقر فراولي ملتهب، وشقيقة سورين المفضلة. وفي اليوم التالي أنجبت صبياً متعافياً قوياً ولكنها مرضت بصورة مفاجئة بعد ثلاثة أيام. ورغم الحقيقة الماثلة في قدرتها على إرضاع طفلها كان يُخشى أن يصعد الحليب إلى دماغها ويصيبها بالجنون. ولكن دملة في إحدى ساقيها كانت علامة تشير إلى أن الدواء المُقيِّئ الذي وصفه لها الطبيب لدفع الحليب بعيداً عن دماغها يؤدي مفعوله. لكنهم كانوا مخطئين، وقبل يومين على نهاية السنة توفيت في غمرة تشنجات عنيفة. كانت في الثالثة والثلاثين من العمر، ودفنها مينستر في 4 كانون الثاني/ يناير 1835. وخلفت وراءها في الغرف الهادئة في ميدان بليغدامسفاي زوجها هنريك فرديناند لوند الذي يصغرها بعامين، زائد هنريته ابنة الخمس سنوات وفيلهلم ابن الثلاث سنوات وبيتر البالغ من العمر سنة واحدة، ورضيع في يومه السادس عشر، سُمي بيتر سيفرين إحياء لذكرى الأم التي لم يعرفها قط.

في اليوم السابق على دفن بتريا سيفرين دفع التاجر كيركغارد 46 ريكسدولاراً ثمن شاهد لقبر نيلس أندريس. وفقد الآن خمسة من أطفاله السبعة، وآنا الصغيرة أيضاً.

1835

أصوات الموتى الهامدة

يبدو أن مصائب العائلة التي كانت دورياً تُوقع بيتر كريستيان في خمول تام، لم تكن ذات تأثير أو ربما كانت ذات تأثير عكسي في شقيقه الأصغر. فإن يوميات سورين آبي التي أخذ يوليها اهتماماً أكثر فأكثر بمرور الوقت صامتة صمت القبور بشأن الوفيات، حتى من دون صليب صغير لتأشيرها. ولذلك يكون من اللافت حتى أكثر حين يقرأ المرء فجأة الآتي: «أصابني الحزن منذ كتبتُ إليك آخر مرة. ومن الإشارات التي ستَفهَم بها ذلك هو ختم الشمع الأسود الذي تعين عليَّ أن أستخدمه – رغم الحقيقة الماثلة في أني عموماً أمقت هذا النوع من المؤشرات الخارجية – لأن لا شيء آخر متاح في عائلتنا المنكوبة. نعم، شقيقي مات. ولكن الغريب بما فيه الكفاية إني لا أبكيه حقاً بل على العكس يغلبني الحزن على شقيقي [الآخر] الذي مات منذ سنوات عديدة. عموماً ألحظ إن حزني ليس عابراً بل يزداد بمرور الزمن».

هذه دراسة صغيرة أُعدت بعناية لإزاحة الحزن وتأجيله ونموه. وهي ذات طابع وأسلوب أدبي نوعي يتوقف عنده كاتب السيرة. ذلك أن القطعة تبدو واحدة من عدة رسائل إلى أحد المعارف لإبلاغه بموت شقيق لم يُذكر اسمه، قد يكون نيلس أندريس، مثلما إن الشقيق الآخر قد يكون سورين مايكل. ولكن الكلمات، دون أن تكون غريبة على شخصيته، تحوم فوق الأحداث الفعلية بنوع خاص من الرثاء والروح المتفائلة، سائرة باتجاه قصة قصيرة أو أياً يكن القصد مما يتطلب ختماً بالشمع الأسود وغير ذلك من الملحقات الرومانسية لتحقيقه. وتتذبذب يوميات كيركغارد بين الواقع وإعادة إنتاج الواقع فنياً. وهكذا فإنه بحركة واحدة يتعاطى مع حزنه ويصقل قلمه.

بالمناسبة، كل المصادر الأخرى صامتة بشأن حالته العقلية في هذا الوقت - حتى الشقيقتان رودلباخ! ولكن مارتنسن يروي في مذكراته إنه نفسه كان خارج البلد وقتذاك، ولهذا كان كيركغارد يزور والدته [والدة مارتنسن] أحياناً لسماع أخباره. وخلال إحدى هذه الزيارات أبلغ كيركغارد «بحزن عميق» والدة مارتنسن بموت والدته هو. مارتنسن: «أكدتْ والدتي مراراً أنها لم تر في حياتها (وهي ذات خبرة حياتية ليست بالقليلة) إنساناً مكروباً كل هذا الكرب». ويمضي مارتنسن يقول إن والدته خلصت على هذا الأساس إلى «أنه لا بد كان ذا حساسية مرهفة بشكل استثنائي. وهي لم تكن مخطئة في ذلك. ولا أحد يستطيع أن ينكر عليه ذلك».

اقترن صدق كيركغارد العميق في روحه بإحساس بالتواضع، وإذا كان آخرون يعانون بشكل ظاهر أو يبدون مشاعرهم بالطريقة التقليدية إياها فإنه كان سريع الانكفاء داخل قوقعته ولف نفسه بالصمت. وهكذا يمعن سورين آبي، في فقرة من يومياته عن شقيقه الراحل، التفكير في الفارق بين الحزن نفسه والرموز الخارجية الفارغة التي تبتذله. وبواقعية شديدة الغرابة يصف الهرج في البيت خلال اليوم الذي سبق الدفن: إذ كان النسيب مبتلى بالمواساة التي تنضح كليشيهات وبإعلانات الحانوتي عن الوجبة المقبلة من «الجنبون والمقانق وجبنة الغاودا»، فإنه وقف هناك يتطلع إلى صورته في المرآة ويزيل شعرات رمادية وحمراء ليست مرغوبة بـ «ملقط» صغير. وفجأة يقف منتصباً - وبصوت له صرير من الرثاء الفارغ ويحاكي الجنتلمان الذي يحاول التشبُّه به - يهتف: «نعم، ما هو الإنسان؟» فأجبتُ «إنه مزمار» وعندها أُسقط بيده حقاً. ويقول لنا محررو يوميات كيركغارد مخلصين إن المفترض أن يُنظَر إلى هذا المشهد الغريب على أنه «خيال»، وهذا صحيح بما فيه الكفاية ولا سيّما إذا كان ما يقصدونه بـ «الخيال» هو الوسط الذي تتلمس الخبرات الشخصية والأحداث المكبوتة طريقها فيه إلى الأمام حيث تجد شكلها. ولكن في هذه الحالة فإن هذه التوجيهات التحريرية للمستهلك يجب أن تُدرج بهذا القدر أو ذاك في كل ملاحظة مرفقة بالفقرات المكتوبة في يوميات كيركغارد من هذه الفترة.

إذا كانت اليوميات صامتة بشأن الحزن الذي بمقدور والدة مارتنسن أن تشهد عليه فإن الظروف الخارجية، من الجهة الأخرى، تتحدث مجلدات عن طريقة كيركغارد في إيجاد مخرج من حزنه بواسطة الفكر. وقبل ذلك، في ربيع 1833،

أعلن يوهان لودفيغ هايبرغ Johan Ludvig Heiberg، صانع الصرعات الموسمية الأول في زمنه، سلسلة من المحاضرات الفلسفية في الكلية العسكرية الملكية، وأذاع في كراسه المطبوع إن الرجل وإن كان «عادة صاحب فهم أقوى وأكثر منطقاً، وموهبة أكبر للديالكتيك، فإن المرأة، من الجهة الأخرى، ذات لمسة أكثر ثقة ويقيناً بصفة عامة حين يتعلق الأمر باستيعاب الحقيقة على الفور». وكان هذا رأياً مهماً في كل الأحوال ولهذا كانت المرأة المتعلمة موضع ترحيب «للمشاركة في البحوث الجادة التي تشكل موضوع هذه المحاضرات» بل أنها موضع ترحيب أكبر لأن «الجماعة ستتشرف بحضورها». لم تسجل للحضور إلا سيدتان متعلمتان ولهذا أُلغيت المحاضرات ولكن بما إن تحرير المرأة كان مطروحاً في الساحة فإن اللاهوتي بي. إي. لند P. E. Lind كتب مقالاً بعنوان «دفاعاً عن الأصل الأرقى للمرأة» نُشر يوم 4 كانون الأول/ ديسمبر 1834 في صحيفة كيوبنهافنس فليفندة بوست Kjobenhavens Flyvende Post [معروفة باسم فليفندة بوستن التي كان جي. إيل. هايبرغ، يصدرها في الفترة 1827 – 1837، وينبغي ألا يُخلط بينها وبين فلايفِه بوستن Flyve–Posten، فهي صحيفة لا تمت إليها بصلة كانت تصدر في الفترة 1845 – 1870]. وبعد أسبوعين، في 17 كانون الأول/ ديسمبر، واصل كيركغارد النقاش حول هذه المسألة كاتباً بالاسم المستعار A مقالاً بعنوان «دفاع آخر عن قدرات المرأة الكبيرة» اعترض فيه بشدة على التهكم الرخيص الذي اتسم به هجوم بي. إي لند على حدود المرأة الفكرية. وهكذا رفعت قطعة كيركغارد ممارسة التهكم بتفوق المرأة إلى قوة أعلى. وكتب، منقضّاً على الخصم بتلك الثقة الخاصة التي كانت السمة المعهودة في أسلوب ذلك الزمن، أي أسلوب هايبرغ: «بالكاد خُلق الرجل قبل أن نجد حواء تعمل مدققة لمحاضرات الأفعى الفلسفية». ولكن في جوانب أخرى لم يكن مقال كيركغارد يزيد كثيراً عن كونه مراناً أدبياً مضحكاً لطالب جامعي شاب أراد أن يمرح، وبدون شك أن يصنع لنفسه اسماً. ولا تستحق هذه الخفة اهتماماً إلا لأنها باكورة كيركغارد الأدبية – وأيضاً لأنها نُشرت فيما كانت بتريا سيفرين طريحة الفراش إثر الولادة حيث لم يتبق من حياتها إلا أسبوعان قبل أن تموت.

وسواء عُزي الأمر إلى السينيكة (أو الكلبية) التي دائماً ترافق الاستغراق في الذات أو ينبغي تأشيرها على أنها آلية كبتْ هوجاء فاللافت في كل الأحوال إن سورين آبي لم يسمح لنفسه، على ما يبدو، بالتأثر على نحو ظاهر بالمصائب

التي كانت تتوالى من حوله. وهكذا، في 12 أيلول/ سبتمبر 1834، بعد أكثر من شهر بقليل على وفاة والدته، كتب تقريراً مؤقتاً عن نتائج دراسة غريبة بعض الشيء كانت على ما يبدو قيد الإعداد منذ فترة: «أنا مستغرب من إن لا أحد قط (في حدود علمي) عالج «فكرة كبير اللصوص»، وهي فكرة مناسبة تماماً بكل تأكيد للمعالجة الدراماتيكية. ويوضح أن دراسته ليست «عن هذا اللص الحقيقي أو ذاك»، ويبدو أن سكن سورين آبي بجوار المحكمة كان له تأثيره فيه، ونعلم أنه اطلع على مواد مبهمة للقراءة مثل «أرشيف قصص الجريمة الدنماركية والنرويجية» ومقال اللافت فيه تماماً عنوانه «ملاحظات نفسية عن القاتل سورين أندرسن كاغروب الذي أُعدم مع بوليكس». كما ضمت مكتبته الأجزاء السبعة كلها لعمل أف. أم. لانغة F. M. Lange قضايا جنائية دنماركية وأجنبية مختارة وإجراءات قضائية جديرة بالملاحظة تتعلق بقضايا جنائية. ولكن هذه التقارير عن سرقات صغيرة مرتكبوها من الصُم - البُكم وعن جرائم قتل بالسم ارتكبتها أرامل طحانين، كانت أقل إثارة للاهتمام من مسألة التكوين النفسي للمجرم، ومن الواضح من عشر فقرات في اليوميات تتضمن صوراً وصفية تتعلق بفكرة «كبير اللصوص»، إن مثل هذا اللص سيكون مجبَراً على استخدام كل ذكائه ودهائه لتحقيق التوازن المنشود بين النشاط الإجرامي والسخاء الواسع، فيما هو يعيش طيلة هذا الوقت من أجل «فكرة». ويشعر كبير اللصوص أن معاصريه لا يفهمونه، وهو «ناقم على النظام القائم» حتى إنه يريد أن يعتدي على «حقوق الآخرين»، فينتهي المآل بالطبع إلى وضعه في صراع «مع السلطات العامة». ونلتقط مدفونة عميقاً في هذه التصويرات الوصفية لمحة عابرة لمعالم نبوءة ذاتية التحقيق غير واعية.

كتبت الشقيقتان رودلباخ وقت نجح سورين آبي في امتحانات القبول «إن الأمور تسير بصورة حسنة على ما يبدو مع سورين، وبعون الله سيُدخِل الفرحة في قلب والديه. ولكن في هذه الأثناء لم تكن الأمور تسير بصورة حسنة، ولم يُدخل الكثير من الفرح في قلب والديه. فخلال فصل الصيف عام 1833 حضر محاضرات البروفيسور أف. سي. سيبِّرن F. C. Sibbern عن الجماليات والشعرية ثم أمضى فصل الشتاء 1833 - 1834 في الاستماع إلى الرجل نفسه يحاضر عن «فلسفة المسيحية». وكان هذا أفضل من لا شيء ولكنه بعيد عن كونه كافياً لعبور الامتحانات المطلوبة ونيل شهادة في اللاهوت».

كان الجميع يستطيعون أن يروا إن سورين آبي يحتاج إلى تغيير الجو عقلياً وبدنياً. وكان عليه أن يغادر المدينة.

صيف 1835 في غيليلية

وهكذا سافر سورين آبي يوم الأربعاء، 17 تموز/ يوليو 1835، شمالاً إلى غيليلية حيث أقام في فندق غيليلية الذي يملكه كريستوفر جي. جَي. مينتس وزوجته بريجيت ميرغريتا. وأقام هناك أكثر من شهرين، وهي فترة طويلة ما كان ليبقى خلالها دون أن ينتبه أحد إلى وجوده، وبالفعل سرعان ما أخذ أهل المنطقة يسمونه «الطالب المجنون». وبحسب إسرائيل ليفن الذي كانت أُذنه المفتوحة لا يضاهيها إلا لسانه النمام، فإن السكان المحليين كانوا يتذكرون كيف كانت «الخادمات يرتبكن ويخفن من طريقة سورين آبي في النظر إليهن حين يدخلن غرفته». يبدو أنه كان قادراً على أن يفعل شيئاً ما بعينيه.

بقي سورين آبي على اتصال مع بيت العائلة برسائل صغيرة مختلفة، مفقودة الآن، كان بيتر كريستيان يسجل استلامها في يومياته. ويُفترَض إن بيتر كريستيان كان مسؤولاً عن إيصال رسائل فيها نقود وطرود من لفائف التبغ وسلال من الملابس المغسولة حديثاً، في فترات منتظمة، إلى الطالب الجامعي في خلوته الرائعة. وفي 4 تموز/ يوليو ذكر والده - في الرسالة الوحيدة الباقية من يده إلى سورين آبي - إن كل شيء كالمعتاد، الأمر الذي كان، لسوء الحظ، يشمل مغصه واستمرار «صعوبة الكتابة بصورة متزايدة». وإذ أبدى الوالد اهتماماً يزيد كثيراً على أي شيء أظهره تجاه نيلس أندريس، فإنه وقَّع رسالته القصيرة بخط اليد المرتجفة لرجل عجوز: «والدك الذي يحبك من الصميم والمتفاني من أجلك بشكل مطلق، أم. بي. كيركغارد».

وسط جمال الطبيعة الخلابة من حوله وبعيداً عن مغريات المدينة الكبيرة كان المفترض بالطالب الجامعي شارد الذهن أن يستقر ويشرع بالعمل على دراساته اللاهوتية. وكتب بيتر كريستيان في يومياته بتاريخ 7 تموز/ يوليو «إن سورين، بناء على رسائله، في حال جيدة الآن ومشغول بدراسته». وفي كل الأحوال لم يكن هناك غياب لاحترام الذات، وفي 6 تموز/ يوليو كتب سورين آبي إلى صديقه بي. إي. لند، الذي كان في كوبنهاغن وقتذاك، «حين كنتُ في المدينة كنتُ معتاداً على التمتع بقدر معين من الاهتمام من عدد من الطلاب،

وهو أمر كان يسرَّني حقاً وكانت شخصيتي بحاجة إليه». ومع ذلك كان متأكداً الآن إن عزلته الحالية ستكون نافعة أيضاً لأنها، بحسب تعبيره «تعلمني تركيز أنظاري على ما في داخلي، وتشجعني على إمساك نفسي، نفسي أنا، على إمساكها بقوة وسط تغيرات الحياة التي لا تتوقف، وأن أُصوب نحو نفسي المرآة المقعرة التي حاولتُ، حتى الآن، أن أقتنص الحياة من حولي فيها».

لم تكن مسألة سهلة أن توضع هذه «المرآة المقعرة» بحيث تنتج انعكاساً غير مشوه للطالب الذي يراجع نفسه. ويتضح هذا من رسالة طويلة بدأ الشاب البالغ من العمر 22 عاماً يكتبها قبيل مغادرته، رسالة موجهة إلى العالم الطبيعياتي بيتر فيلهلم لوند Peter Wilhelm Lund على الجانب الآخر من العالم، في مكان ما من أعماق عالم البرازيل الطبيعي الساحر والمخيف. الرسالة مؤرخة بيوم 1 تموز/ يوليو 1835، وتبدأ: «أنت تعرف كم سرَّني الاستماع إليك تتحدث في تلك الأيام، كم كنتُ متحمساً لما قدمتَه من وصف لإقامتك في البرازيل». وبعد إقامة لوند الأولى في البرازيل التي استمرت ثلاث سنوات، كان في كوبنهاغن خلال الفترة الممتدة من نيسان/ أبريل إلى كانون الأول/ ديسمبر 1829 ومرة أخرى من تموز/ يوليو 1831 إلى تشرين الأول/ أكتوبر 1832 وبالتالي لا بد أن يكون كيركغارد استمع إلى قصص لوند خلال واحدة من هذه الفترات. الآن عادة لوند مرة أخرى إلى البرازيل حيث انتقل، بعد رحلات إلى ريو دي جانيرو بصحبة عالم النبات الألماني ريدل، إلى مدينة كورفيلو في المحافظة التي تحمل الاسم نفسه، وبناء على نصيحة مواطنه بيدر كلاوسن («بيدرو كلوديو ديناماركيز» كما كان البرازيليون يسمونه) بدأ ينصرف إلى أبحاثه لدراسة الكهوف الكلسية المحلية التي تحوي كميات كبيرة من عظام الحيوانات وبقايا الهياكل العظمية. وفي تشرين الأول/ أكتوبر 1835 استقر لوند في قرية لاغوا سانتا الريفية حيث أجرى حفريات دقيقة في الكهوف الكلسية منكباً على دراسة مكامن متحجرة لحيوانات جرابية وحيوانات بلا أسنان وقوارض وحيوانات ذات حوافر ووطاويط - متحجرات تعود إلى حقبة «ما قبل الطوفان» على ما يُفترض - ولكن عمرها الحقيقي دحض شيئاً فشيئاً رواية الخلق التوراتية مختزلاً إياها إلى بلبلة كارثية في التسلسل الزمني.

احتفاء بقريبه البعيد - بمعنيين - زيَّن كيركغارد الجزء الأول من رسالته بإنشاء معسول ولكنه أصبح بعد ذلك أكثر ملموسية وانتقل إلى تأملات في

خيار عمل حياته: «كل شخص، بطبيعة الحال، يريد أن يكون فاعلاً في العالم حسب قدرته، ولكن هذا بدوره يعني أنه يريد أن يطور قدراته في اتجاه محدَّد، أي الاتجاه الأنسب لشخصيته. ولكن أي اتجاه هذا؟ هنا أُواجه علامة استفهام كبيرة. هنا أقف مثل هرقل ولكن ليس على مفترق طرق. كلا، هنا توجد طرق كثيرة للغاية، وبالتالي يكون من الأصعب اختيار الطريق الصحيح. ولعل من نكَد حياتي على وجه التحديد أن أكون مهتماً بأشياء كثيرة جداً دون أن أكون مهتماً على نحو قاطع بأي شيء. اهتماماتي ليست كلها تندرج تحت عنوان واحد، ولكنها كلها منسقة».

أعـرب كيركغارد عن إعجابه العميق بالعلوم الطبيعية وكـل من يمارسونها - من أولئك الذين يحسبون «سرعة النجوم» إلى أُولئك الذين يدرسون «الديدان المعوية» - ولكنه اضطر في الوقت نفسه إلى الاعتراف بأنه يعتقد أنّهم كثيراً ما لا يفعلون إلا تحريك غيوم من «الخصوصيات» التي لعلهم يضمنون لأنفسهم بها «اسماً في الكتابات العلمية»، ولا شيء سوى ذلك. ولكن هناك، لحسن الحظ، استثناءات فردية لهؤلاء العلماء الذي يفتنون العالم بمثل هذه الكفاءة التي لا خطة لها. وهناك أيضاً «علماء طبيعيون اكتشفوا بتأملاتهم، أو حاولوا أن يكتشفوا إن النقطة الأرخميدية الموجودة في مكان ما من العالم، ومن هذه النقطة لاحظوا العام ورأوا الخصوصيات على حقيقتها. وفي هذه الناحية لا أنكر أنهم تركوا فيَّ انطباعاً إيجابياً إلى أقصى الحدود. فالسلام والتناغم والفرح الذي يجده المرء عندهم نادراً ما يجده في غيرهم». وكأمثلة على هذا النوع من العلماء الطبيعيين ذكر كيركغارد أسماء الفيزيائي هانز كريستيان أورستيد Hans Christian Orsted وعالمي النبات جَي. أف. شووف J. F. Schouw وجَي. دبليو. هورنمان J. W. Hornemann زائد بي. دبليو. لوند P. W. Lund نفسه بيد إنه وجد نفسه ملزَماً مع ذلك بأن يختتم قائلاً «ألهمتني العلوم الطبيعية وما زالت تلهمني ولكن يبدو لي إني لن أجعلها حقل دراستي الرئيسي. وبحكم العقل والحرية فإن الحياة هي التي كانت دائماً الأكثر استئثاراً باهتمامي، وكانت أُمنيتي دائماً استجلاء لغز الحياة وحله».

ومهما كان الإعلان عن هذه الرغبة في حل لغز الحياة بعيداً عن التواضع، فيبدو أنّها جعلت اختيار دراسة اللاهوت اختياراً طبيعياً. ولكن الأمر لم يكن كذلك. وبدا الدين التقليدي عملاقاً بساقين من طين في حين إن العقلانية ليست

سمكة ولا هي طير بل أقرب إلى نوع من «سفينة نوح» تنام فيها الحيوانات النظيفة وغير النظيفة جنباً إلى جنب، على حد تعبير هايبرغ ذات مرة في صحيفة «فلايفه بوستن». وتنتهي الرسالة بالقول: «فيما يتعلق بالإزعاجات الثانوية لن أكتب سوى إني أدرس لامتحاناتي باللاهوت، وهو موضوع لتزجية الوقت ليس لديَّ أي رغبة فيه ولذلك لا يتقدم بسرعة. وكنتُ دائماً أفضل الدراسات الحرة - وبالتالي ربما الدراسات غير المحدَّدة بعض الشيء... لأنه يبدو لي أن العالَم اللاهوتي العليم هو مثل شارع ستراند بعد الظهر يوم الأحد خلال ذروة الموسم في حديقة الغزلان: الناس يتسابقون مروراً ببعضهم البعض، يهتفون، يضحكون، يتمازحون، يركبون خيولهم حتى الموت، يتعثرون ببعضهم البعض ويُدهَسون، وعندما يصلون أخيراً إلى مدينة الملاهي، معفرين بالغبار، لاهثين - حسناً، حينذاك ينظرون إلى أحدهم الآخر ويذهبون إلى بيوتهم». وإذا واصل كيركغارد دراسته الثقيلة رغم ذلك كله فلأنه بعمله هذا «يُفرِح الوالد فرحاً غامراً»، ذلك أن والده - كما كتب الابن بلمسة من عدم الحياء غير المستور - يعتقد أنّ «أرض كنعان» الحقيقية «تقع على الضفة البعيدة لامتحانات اللاهوت».

هذا ما يتعلق بالنقاط الرئيسية في الرسالة الموجهة إلى بي. دبليو. لوند. ولا نعرف إن كانت أُرسلت فعلاً، ولعلها لم تكن حتى رسالة حقيقية بل موجهة من كيركغارد إلى نفسه. على أية حال، نجد هنا اهتماماً واضحاً بالعلوم الطبيعية التي توضع عالياً فوق اللاهوت ولكنها لا تكتسب معنى إلا حين تخضع تأملياً إلى «تلك النقطة الأرخميدية الموجودة في مكان ما من العالم» لأن هذه النقطة لا يمكن البحث عنها إلا في الفرد الذي لا يستطيع أن يجد ذاته إلا بالتخلي عن مشاغل العالم الموضوعي لصالح التركيز الوجودي.

مع ذلك كان كيركغارد مصمماً على دراسة العالم الطبيعي لزيلاند الشمالية، وخلال الأسبوعين الأولين من إقامته زار أيسروم وفريدنسبورغ وفريدريكسفارك وتسفيلدة. وفي نهاية تموز/ يوليو قام كيركغارد يرافقه ينز لينغباي، وهو من أبناء عمومة هانز كريستيان لينغباي الكبار وراعي الأبرشية المحلية، برحلته الأولى والوحيدة إلى السويد حيث زار موليلية، وهي قرية صيادين صغيرة على الجانب الغربي من كولين، وبعد ذلك زار قلعة كرابروب المهيبة ملتقياً نيلس كريستوفر غليدنستيرنا Niels Christopher Gyldenstierna نفسه الذي بالإضافة إلى كونه

لورداً وباروناً، كان عالم أسماك أيضاً وبالتالي في موقع يتيح له أن يتباهى بما لديه من «مجموعة أسماك» مثيرة للإعجاب. وفي اليوم التالي زار «أوسترا هوغكول وفيسترا هوغكول» اللتين تقعان على ارتفاع 618 قدماً فوق سطح البحر زائد «سفرة نباتية» صغيرة في المنطقة نفسها جامعاً نباتات كان القس لينغباي «من لطفه أن يقدمها لي مجففة ومغلفة بورق». وبعد أقل من أسبوع، في 4 آب/ أغسطس، كان كيركغارد يجلس مع هذا القس لينغباي نفسه في قارب في بحيرة سوبورغ الضحلة، التي طغى عليها النبت وامتلأت بالوحل تدريجياً حتى أنهما لم يتمكنا من دفع القارب إلى الأمام إلا بشق الأنفس. ولكن إذا «تجاهلنا هذا فإن البيئة المحيطة بنا كانت مثيرة جداً للاهتمام: أحراش الأسل الكثيفة التي تعلو ست أقدام والخضرة المترفة من كل صنوف النباتات أتاحت لنا حقاً أن نتخيل أننا في مناخ مختلف تماماً»، المناخ البرازيلي مثلاً. وحين وصل الرَّجُلان إلى البحيرة المفتوحة تقاسما الواجبات ليتمكن راعي الأبرشية الذي كان عالم نبات وحيوان متحمساً أيضاً، من جمع نباتات لدراسة حياة الرخويات فيما يتكئ الطالب الجامعي رومانسياً في مؤخرة القارب ليستمتع بـ «زعيق البط البري والنوارس والغربان، إلخ»، التي كلها تركت «انطباعاً لذيذاً جداً». وفي جزيرة صغيرة وسط البحيرة زار الاثنان خرائب قلعة سوبورغ حيث ولدت ملكة الدنمارك مارغريت الأولى - «لكني لم أرَ أي شيء جديد»، كما لاحظ كيركغارد. (بعد سفرة كيركغارد قارن ما شاهده مع النص المكتوب في دليله السياحي «معلومات عن قلاع الدنمارك القديمة ودوقياتها» تأليف جَي. جي. بورمان بيكر J. G. Burman-Becker - فكتب ببساطة «إن كل شيء هو، بهذا القدر وذاك، كما في وصف بيكر للقلاع الدنماركية»).

ترك كيركغارد المدينة ليرى شيئاً مختلفاً وغريباً ولكنه أُجبر على الاعتراف لنفسه بأن آخرين شاهدوا ومشوا وكتبوا عن المناظر الطبيعية التي كان بدائيتها النقية المفترضة أكبر ما جذبهم إليها. ولو كان أحد رسامي تلك الفترة الكُثر - مثل فيلهلم بيندز أو مارتينوس روربي - في الجوار لوجد في كيركغارد نموذجاً أمثل لتصوير مثقف من كوبنهاغن في مشهد طبيعي تصويراً تهكمياً بعض الشيء. وكما هو معهود فإن في هذه البيئة المحيطة أنتج كيركغارد تصويره الوصفي الأول لنفسه كما قد يبدو للمراقب، وهو «رجل بملابس حديثة يرتدي نظارات ولفافة تبغ في فمه».

هذه الصورة الذاتية هي من إقامته في تِسفيلدة التي يؤمُّها المرضى والمشلولون في ليلة منتصف الصيف ليشربوا من نبع القديسة هيلينا. وتذهب الأسطورة إلى أن اسم النبع مشتق من اسم ناسكة سودية قتلها مجرمون ورموها في البحر ولكن قوى الطبيعة ثأرت لها بإعجاز لاحقاً. وكانت الحكاية كلها ذات طابع غرائبي قليلاً ولكن بما أن كيركغارد كان يريد أن يعرف ما سيراه قبل أن يراه بمتعة الشوق التي لا تخطأ أبداً عند السائح، فإنه كان يعود إلى الكتابات ذات الصلة وهي في هذه الحالة عمل جَي. أم. تيلة J. M. Thiele «أساطير شعبية دنماركية». وفي نهاية جادة تحفها أشجار الكستناء على أطراف تسفيلدة هناك نصب من الحجر الرملي ثلاثي الأضلاع يرتفع عشر أقدام بُني على طراز الروكوكو، تتحدث الكتابات المنقوشة عليه بالدنماركية والألمانية واللاتينية عن يوم كانت كثبان الرمل تتحرك على الأرض وتدفن البشر والحيوانات في قرية تيبريكة الريفية. ولكن عندما نظر كيركغارد إلى الأبنية اللطيفة الصغيرة التي كانت مرئية وقتذاك لم تجد توقعاته ما يركز عليه أنظاره. من جهة أخرى يستطيع الأدب أن يوفر ما تعجز الطبيعة شديدة الهدوء عن توفيره. لذا شعر كيركغارد فجأة - أو لعل من الأدق القول إن يومياته ذكرت - إن القضية كلها «رواية خيالية، رواية خيالية غريبة: أن في هذه البقعة على وجه التحديد التي يطلب فيها الناس الشفاء، و«هنا» على وجه الدقة وجد كثيرون قبورهم. ويبدو المكان كله سابحاً بضوء الغسق كأنه أسطورة جُعلت مرئية، نوع من قصة أيوب تقوم فيها كنيسة تيبريكة بدور البطولة». وهكذا فإن المنظر الطبيعي كان بلا أهمية تُذكر واكتسب أهميته من المُشاهد الذي تذكَّر شيئاً يمكن أن يستحضره المنظر الطبيعي في الذهن، وهو هنا قصة أيوب. ومن دون «أسطورة جُعلت مرئية» كهذه فإن المشهد المنداح تحت أقدام كيركغارد سيكون مجرد مشهد ممل وهو مجرد سائح أُصيب بخيبة أمل.

لم تكن الأمور أفضل حين وصل إلى تسفيلدة التي لم تكن تفيض هدوء ريفياً كما كان متوقعاً بل يتردد في أرجائها ضجيج نساء ألمانيات يبيعن بضاعتهن من دكاكينهن الصغيرة. ولاذ كيركغارد بالحقل الذي يقع فيه قبر هيلينا على ربوة صغيرة تحيطه أحجار صوانية كبيرة. ولكن مقابل القبر مباشرة أقام بعض المسافرين مخيماً وكانوا يسخرون بأصوات عالية من الزوار الورعين الذين يقتربون من القبر مبددين بذلك كل «ما يوحي بحرمة المكان». وكأن الخبرة

الرومانسية الكبرى لمعايشة الطبيعة لم تُجهَض بالكامل فإن «مفتشاً» ظهر فجأة من لا مكان وبدأ يقوم بدور المرشد السياحي كاشفاً دون إبطاء عن شكه في قصة المعجزة كلها. ولكن كيركغارد توجه إلى القبر وسرعان ما وجد نفسه وسط نذور بدائية من كل صنف – خصل شعر وخرق وعكازات. وللحظة تحسس «صرخات» المعذبين وابتهالاتهم للسماء، ولكن لم يكن هناك شيء يُسمع في الحقيقة باستثناء الجَلَبة والصياح من المخيم على الجانب الآخر من الطريق.

قُهرت الطبيعة، إذا جاز التعبير، بالتوقعات التي وضعها كيركغارد في وجهها. وتبدى هذا مرة أخرى حين زار، وبيده دليل تيلة الوفي للأساطير الشعبية، قلعة غوري التي يُقال إن فالديمار أتيرداغ هو الذي بناها، وكانت خرائبها قيد الحفر منذ عام 1817. نظر كيركغارد عبر بحيرة غوري الطويلة والضيقة التي تحفها أحراش شجر الزان على الضفتين ولكنه لم ير أكثر من ذلك وسجله في يومياته: «من السمات الخاصة لهذا المنظر أحراش الأسل التي تتموج على امتداد الشاطئ. وفي حين إن تنهد الأشجار يتيح لنا أن نسمع الملك فالديمار يصيد الطرائد وصدى الأبواق ونباح كلاب القنص، يبدو أن أحراش الأسل تستنشق التهليل – العذراوات الشقراوات المعجبات بالفارس يمرق على صهوته بمحياه النبيل... ثم هناك البحر في حراك دائم كأنه روح جبارة، يشي حتى في هدوئه الأعظم بعذابات روحية عنيفة. يرين حزن هادئ على المنطقة المحيطة ببحيرة غوري... الأول (البحر) كأنه سرد موسيقي من تأليف موزارت والثانية كأنها نغمة من تلحين فيبر». وعندما غادر كيركغارد بحيرة غوري مواصلاً رحلته صوب هيليباك عبر غابة جميلة بلا ممرات أكد إن «آثار العجلات» هي الآن علاقته الوحيدة «بعالم البشر».

ولكنه بقي على صلة بعالم البشر الذي ترك بصماته وآثاره في كل مكان ليس بطريقة ملموسة تماماً فحسب، كما في الحالة آنفة الذكر، وإنما بالمعنى الأعم للارتباطات التي ظلت تلاحق الطالب الجوال وطبعت خبرته في معايشة الطبيعة بسلسلة كاملة من العلامات الثقافية: تنهد الأشجار يرتبط بصيد فالديمار أترداغ للطرائد، وأحراش الأسل تذكّر بالعذراوات الشقراوات – بل يُستحضَر حتى موزارت وفيبر للمساعدة في الوصف. وليس بعيداً عن هيليباك تسلق كيركغارد تل أودن الذي يطل على منظر خلاب عبر الساوند فيما تلوح كولين من مسافة ولكنه ما أن وصل إلى القمة حتى كتب: «نال المنظر نصيباً كبيراً من

المديح والنقاش، الأمر الذي، للأسف، يتسبب في اختفاء الكثير من الانطباع». ويواصل بلهجة غاضبة بعض الشيء: «لو فقط يتعب الناس من الركض بهذه الصلافة مشيرين إلى أجواء رومانسية (مثل «ك – في فريدنسبورغ»).

هل من الجائز أن يكون «ك ـــــــــ» المحصور بين هلالين هو كيركغارد نفسه نائياً بنفسه، في مفارقة منهَكة، عن بحثه الدؤوب هو نفسه عن أوضاع رومانسية في فريدنسبورغ والمناطق المحيطة بها؟

«أن أجد الفكرة التي أكون مستعداً للحياة والموت من أجلها»

غالبية الفقرات العشرين تقريباً التي كتبها كيركغارد في دفتر يومياته الأخضر المجلَّد بالقماش خلال إقامته هي فقرات مؤرَّخة وتقول لنا شيئاً عن هذا الموقع الجغرافي المحدَّد أو ذاك. وهناك فقرة طولها ثلاث صفحات بتاريخ 29 تموز/ يوليو تعطي صورة انطباعية حيوية لرحلة كيركغارد على الأقدام من فندق غيليلية عن طريق «الجسر الأسود» ثم عبر حقول جرداء على الشاطئ إلى غيلبيرغ هيد وهو منحدر ارتفاعه 100 قدم يمثل أبعد نقطة شمال زيلاند: «هذه البقعة كانت دائماً من الأماكن الأثيرة عندي. ولهذا حين وقفتُ هنا ذات مساء هادئ، وقت كان البحر ينشد أغنيته بمهابة، ولم تقع عيني على شراع واحد فوق سطحه الشاسع فيما كان البحر يعانق السماء والسماء تعانق البحر، وفي الوقت نفسه عندما صَمَتَ ضجيج الحياة وغردت الطيور صلوات المساء – حينذاك كان الأحبة الراحلون القلة كثيراً ما ينهضون قبلي من القبر، أو بالأحرى بدا لي وكأنهم لم يموتوا. شعرتُ باسترخاء عميق معهم وأرحتُ نفسي في أحضانهم، كما لو إني خارج جسدي، أطفو معهم في أثير أسمى. ثم ذكَّرني زعيق النوارس بأني واقف هناك وحدي. اختفى كل شيء أمام أنظاري وبقلق حزين عدتُ إلى دخول العالم الصاخب ولكن دون أن أنسى مثل هذه اللحظات المباركة».

ولكن لدى إمعان النظر، يكون تسلسل العديد من فقرات اليوميات تسلسلاً لا يمكن الركون إليه، وتواريخ كتابتها غير مؤكَّدة بالقدر نفسه. بيد إن اللافت هو إن المرء لا يقع على الفقرة التي قد يتوقعها في يوميات مسافر. ففي 8 تموز/ يوليو تحدّثنا اليوميات عن رحلة على الأقدام من أيسروم وعبر نوديبو إلى فريدريسبورغ. وهذا بحد ذاته يبدو بسيطاً، ولكن الكاتب، إذ أجبرته عاصفة مفاجئة على اللوذ بكوخ فلاحي بائس، يكتب قطعة أدبية بشكل واضح: «ملفعاً

بعباءتي، دخلتُ الصالون حيث وجدتُ نفسي بحضور مجموعة من ثلاثة أشخاص كانوا يتناولون وجبة العشاء. وبين الأثاث كانت هناك، بالطبع، منضدة طويلة كبيرة كان فلاحونا سعداء بالأكل عليها... كانت الغرفة المجاورة ذات الباب الموارب مخزناً للكتان وقماش الجنفاص والقطنيات الخشنة وما إلى ذلك، في أكوام مبعثرة يمكن بسهولة أن توحي للمرء بأنه في وكر لصوص صغار، بدا موقع المكان... وكذلك ملامح الأشخاص الخارجية، مناسبةً له. سنلقي الآن نظرة سريعة عليهم. في النهاية البعيدة من المنضدة الطويلة آنفة الذكر جلس الرجل نفسه مع سندويشاته وقنينة من الخمرة أمامه. استَمعَ دون أي تعبير على وجهه إلى قصة مصيري الحزين مكتفياً بأخذ رشفة من كأسه بين حين وآخر، ثم حدث شيء بدا إن حجم أنفه المكعب يشهد على أنه كان يفعله في أحيان كثيرة تماماً... سرعان ما بلَّلنا المطر فلم يكن لدينا سبب للاستعجال من جراء ذلك ولكن الصبي الصغير (رودولف) الذي كان معي، تملَّكه خوف شديد. هناك جلستُ مبللاً حتى النخاع، والماء ينهمر، مبتلياً بالرعد والبرق وسط غابة «غْرِيب»، وبجانبي صبي يرتجف حين تبرق السماء. وإذ مشينا بخطى متشنجة وصلنا إلى بيت أوينا إليه».

هنا توقفت يوميات السفر عن كونها يوميات سفر وأصبحت لوحة تصوير يجرب عليها كيركغارد فن القصة القصيرة وهو بعمله هذا يتنازل عن مكانه لشخصية روائية تحكي «قصة مصيري الحزين» لفلاح مخمور ذي أنف مكعب. ويحمل عنوان «وكر اللصوص» بصمة الكاتب ستين ستينسن بليشر الذي اشترى كيركغارد عمله «القصص القصيرة الكاملة» حين بدأت أجزاؤه المختلفة تُنشر في عام 1833. ورغم توصيف البروفيسور مادفيغ للكاتب بليشر بأنه «موهبة وسيمة جداً وإن كانت محدودة في دائرة معينة» فإن كيركغارد استمر في قراءة قصصه بشوق، وحاول هنا أن يحاكي جنس بليشر الأدبي في تصويره عامة الناس. ويبدو المشهد مع الفلاحين كأنه مُستَل من قصة «تاجر الجوارب» التي كانت في كل الأحوال ستجذب كيركغارد بعنوانها وحده.

كما تتسم فقرات عديدة أخرى من اليوميات بطابع أدبي شفاف، ويصح هذا بصفة خاصة على أشهَر هذه الفقرات التي اختار كيركغارد لها عنوان «غيليلية، 1 آب/ أغسطس 1835»، ونقرأ فيها الآتي: «الطريقة التي حاولتُ أن أصف الأشياء بها في الصفحات السابقة هي ما كانت الأشياء تبدو لي حقاً. من جهة أخرى،

الآن عندما أحاول إلقاء نظرة واضحة على حياتي فإنها تبدو لي خلاف ذلك».

ولا نعرف على وجه التأكيد ما هي الصفحات «السابقة»، والأرجح أن هذا يشير إلى الصفحات الموجهة إلى بي. دبليو. لوند ولكن المؤكد في كل الأحوال أن المشكلات التي تُناقش في هذه الصفحات السابقة ظلت بلا حل: «ما أحتاج إليه حقاً هو أن أعرف بوضوح ما ينبغي أن أفعله وليس ما يجب أن أعرفه إلا بقدر ما يجب أن تأتي المعرفة قبل كل فعل. وهي مسألة تتعلق بفهم قَدَري ورؤية ما يريد الإله مني أن أفعله في الحقيقة. إنها مسألة إيجاد حقيقة تكون حقيقة لي أنا، إيجاد الفكرة التي أكون مستعداً للحياة والموت من أجلها. وماذا أجني إذا اكتشفت ما يُسمى حقيقة موضوعية»، إذا درستُ منظومات الفلاسفة وتمكنتُ من استعراضها عند الطلب، وإذا تمكنتُ من أن أُبين التناقضات داخل كل دائرة منفردة... – أي فائدة أجني إذا كنتُ قادراً على شرح أهمية المسيحية، قادراً على تفسير العديد من النقاط المنفردة إذا لم يكن في ذلك مغزى أعمق لي ولحياتي؟... أي فائدة أجني إذا وقفتْ الحقيقة أمامي، باردة وعارية، غير عابئة إن اعترفتُ بها أو لم أعترف، تستثير رعشة معذَّبة بدلاً من خضوع واثق؟ أنا بكل تأكيد لن أنكر إني ما زالتُ أُؤمن بصلاحية أن توجد فريضة معرفة تؤثر في البشر لكنها مع ذلك يجب أن تصبح جزءاً حياً مني وهذا ما أفهم الآن إنه جوهر القضية. وإلى هذا تتعطش نفسي مثلما تتعطش صحارى أفريقيا إلى الماء».

هذه التساؤلات الخطابية اللاهثة اكتسبت فيما بعد موقعاً دائماً في كل مدخل تقريباً إلى الوجودية بوصفه شهادة أصالة. ومن وجهة النظر البيوغرافية فإن هذه الفقرة مثيرة لقدر كبير من الاهتمام لأنها تشبه «النصوص الاختراقية» الكبرى التي يجدها المرء عند أوغسطين أو لوثر مثلاً. وأخيراً (يكاد المرء أن يطلق زفرة) فإن الشاب غريب الأطوار حقق الوضوح بشأن مهمته وقَدَره، ولا يبقى عليه سوى أن ينفذ هذه الرؤى القوية. ولكن القسم الأخير من الفقرة لا يُقتَبس عادة، ومن الجائز تماماً أن يكون السبب عدم رضا عما يقوله كيركغارد تالياً: «ولكن لكي أجد هذه الفكرة أو بالأحرى لكي أجد نفسي، لن يجديني الانغمار حتى أعمق في العالم. وهذا على وجه التحديد ما فعلته في السابق. لذا ظننتُ أنها ستكون فكرة جيدة أن أنكَبَّ على «الفقه» للتبصر في تعقيدات الحياة المتعددة. والحق أن كماً كبيراً من التفاصيل لاح هنا ويمكن أن أُغرق نفسي فيه، وهنا ربما أستطيع أن أبني كُلّية من الحقائق المتاحة – حياة إجرامية في

كليّتها العضوية - وأن أُتابعها بكل ظلامها... وهكذا يمكن أن أتمنى أن أصبح «ممثلاً» كي أستطيع، من خلال تقمص دور شخص آخر، أن أحصل على بديل ينوب عن حياتي أنا، إذا جاز التعبير».

وهكذا، شيئاً فشيئاً، تحل محل العاطفة الوجودية في بداية الفقرة نظرة استرجاعية رخوة التركيز إلى أحداث سابقة والرغبة، بالارتباط مع ذلك، في دراسة علم القانون أو فن التمثيل. ومن المؤكد أن كيركغارد هو الكاتب ولكن النص يحرر نفسه من وضعه الحياتي الفعلي ويصبح حكاية روائية صغيرة تكون هي «نفسها» بطريقة ما «بديلاً» ينوب عن حياته. وليس هناك إيضاح وجودي يُذكَر في الحكاية ولكن من الواضح إن كيركغارد نفسه دخل في حوار مع النصوص، الروائية أو الأقل روائية، التي صبها على الورق. وفي الحقيقة إن هذه النصوص هي التي شكلت «مرآته المقعرة» الخاصة. وإذا امتلكنا الجرأة فإننا قد نجد حتى أنفسنا متأثرين بالفكرة القائلة أن هذا التأمل المزدوج النصي يسبق ممارسة كيركغارد اللاحقة بأسماء مستعارة. فهو هنا أيضاً يوازن بين الحضور سيِّئي الصيت والغياب الذي لا يتطرق إليه الشك.

وهكذا فإن الشاب الذي عاد إلى المدينة في 24 آب/ أغسطس لم يكن مشابهاً للرجل الأكثر شباباً بعض الشيء الذي غادر المدينة في 17 حزيران/ يونيو. إذ اغتنى بسلسلة من التصورات الوامضة، ولخصها في مكان ما من أعماق يومياته الخضراء المجلدة بالقماش بهذه الكلمات المتناقضة: «ماذا وجدتُ؟ ليس «أنا» ي». فهو توصل إلى الإدراك السلبي بأن هويته لن تظهر بدراسة العلوم الطبيعية لأن هذه الفروع لا تضيّق نطاق المشكلة بل توسّعه، مثلما أصبح يفهم إن الطبيعة بحد ذاتها لا شيء وإن الطبيعة دائماً تحيل المراقب إلى ذاته وإلى إطاره الثقافي. وتوصل إلى الإدراك الإيجابي بأن لا أحد يبدأ بامتلاك «أناه» الحقيقية امتلاكاً معطى أو قبْلياً بل إن هذا لا يُكتسب إلا بالسفر عبر طرق التفافية ونهايات مسدودة، ثقافياً وشخصياً، لأن كيركغارد في هذه المرحلة لم يحقق أي شيء سوى إرهاق نفسه بمحاولته أن يرفع وزنه الخفيف ذاته والتفوق على نفسه في محاولة اللحاق بهذه «الأنا». ومن هذه الناحية يذكرنا كيركغارد على الفور بأحد المخلوقات التي ناقشها في فقرة من يومياته يعود تاريخها إلى العام نفسه. فهذه المخلوقات «عندما تريد حقاً أن تنجز شيئاً تتخذ خطوات كبرى حتى إنها تفشل فشلاً ذريعاً في مشروعها. وهي مثل القزم في الحكاية الخيالية

الذي عندما أراد مطاردة الأمير والأميرة الهاربين ارتدى حذاء للركض سبعة فراسخ فوصل إلى تركيا قبل أن يتذكر إن الهاربَيْن على الأرجح لم يستخدما وسيلة النقل هذه».

الأمر يستغرق وقتاً وبالنسبة لكيركغارد فإن الوقت هو الكتابة. والفكرة التي كان مستعداً للحياة والموت من أجلها كانت في الحقيقة نتاج عمل أدبي لامع.

ولكنه لم يتمكن، بالطبع، من أن يعرف ذلك بعد وهو طالب جامعي.

1836

«شقلبة في سيبيريا حرية الصحافة»

بعد الثورة الفرنسية والاضطرابات التي حدثت في أعقابها أصدر العاهل المستبد الملك فريدريك السادس سلسة طويلة من الأوامر والمراسيم أراد بها أن يثبط مسبقاً مَن تراودهم أفكار ليبرالية أو ثورية. وفي 27 أيلول/ سبتمبر 1799 رسم الملك بالآتي: «كلُ مَنْ ينتقص أو يسخر أو ينشر الكراهية والتذمر بشأن الدستور الحالي والحكومة القائمة، أو بمجرد أن ينتقص من شكل الحكم الملكي عموماً أو يُضعف الإيمان بوجود الله وخلود الروح البشرية – هذا الشخص يُعاقَب بالنفي مدى الحياة أو عدداً محدَّداً من السنوات. ويكون الحكم بالإعدام مصير كل مَنْ يحرض على إحداث تغييرات في شكل الحكم القائم أو على العصيان الشعبي».

كان هذا المرسوم الملكي رديفاً للرقابة، ومن بين الذين لاحقهم إلى أن وجدوا أنفسهم منفيين مدى الحياة بي. أي. هايبرغ الذي كان له قلم ذهب بعيداً بعض الشيء في جرأته. وإذا قضت محكمة بأن شخصاً ما خرق المرسوم حتى في مناسبة واحدة فإن كتاباته كانت تخضع للرقابة المسبقة مدى الحياة بقرار من قائد الشرطة. وهكذا لم يشعر أحد من الأسماء الكبيرة في ذلك الزمن بما يغريهم بإشهار مشاريع ثورية في حين إن العامة لم يقولوا شيئاً بالمرة لأن غالبيتهم كانوا بالكاد يعرفون القراءة. وكان محرض راديكالي واحد هو الدكتور جي. جي. دامبي J. J. Dampe يريد دستوراً حراً، وفي عام 1820 أسس ما يُسمى «مؤامرة الخاتم الحديدي»، وهي حركة كان المطلوب من أعضائها أن يرتدوا خاتماً من حديد في أحد أصابعهم. ولكن ما لاقته الحركة من تأييد كان محدوداً تماماً، وفي الحقيقة عندما تمكن قائد الشرطة كيرولف من اختراق الحركة فإن

الأشخاص الوحيدين الذين تعرضوا للاعتقال، إلى جانب دامبي نفسه، كانوا مالك البيت الذي يسكنه دامبي وحداد اسمه يورغنسن لم يفهم في الواقع ما هو الهدف من المؤامرة. وحُكم على دامبي بالإعدام ولكن الحكم خُفف لاحقاً إلى السجن مدى الحياة، أولاً في قلعة كوبنهاغن وبعد عام 1826 في جزيرة كريستيانسو حين تعين على دستور دامبي نفسه أن يتحمل السنوات العشرين التالية في ظروف من انعدام الحرية إلى حد ما.

كان هذا الشهيد السياسي مصدر تسلية وخاصة بين المثقفين الذين اتخذوا منذ زمن طويل موقفاً معتدلاً من الإصلاحات الاجتماعية والسياسية. ولكن، أخيراً، في إطار حملة الملك لسحق ما سماها «كتابات وقحة»، أصدر مرسوماً بتاريخ 14 كانون الأول/ ديسمبر 1834، وكان هذا إمعاناً في التمادي بنظر الكثير من رجالات البلد أيامذاك. ولاحقاً، في شباط/ فبراير 1835، قُدم إلى الملك «نداء من أجل حرية الصحافة» حمل تواقيع ما لا يقل عن 575 شخصية مرموقة بينهم البروفيسور إتش. إن. كلاوسن والبروفيسور جَي. أف. شوف اللذان كانا كاتبي النداء أيضاً. جاء رد الملك بعد أربعة أيام فقط، وكانت غطرسة الرد الاستبدادية ازدرائية في نبرتها إذا أردنا وصفها بصيغة ملطَّفة، وترجمت الأجيال اللاحقة كلمات الملك في مستهل رده إلى شعار معروف: «نحن وحدنا العارفون». ولفترة طويلة بعد ذلك بقي الوضع على حاله. وحتى في وقت متأخر مثل عام 1842 كانت اثنتان وعشرون صحيفة من صحف البلاد اليومية الأربع والعشرين تخضع للرقابة. ولم تَنجُ من الملاحقة إلا صحيفتان هما كيوبنهافنس بوستن وفادريلانديت.

يوهان أوسترمان لم يكن ثائراً. كان يدْرُس الألسنيات ويكتب بقلم ذي ريشة من الطراز القديم، وكان قيادياً في جمعية طلبة جامعة كوبنهاغن أيضاً. وفي اجتماع عقدته الجمعية الطلابية في 14 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1835 ألقى أوسترمان محاضرة عن «كتاباتنا الصحفية الأخيرة» نُشرت في صحيفة فادريلانديت بعد أسبوع. وكانت «الكتابات الصحفية» تعني عند أوسترمان المطبوعات الدورية المختلفة بصفة خاصة، التي كانت تصدر في تلك الفترة، وغالبيتها مطبوعات أدبية في طابعها، ولكنها تشمل أيضاً «مجمل الصحافة الصفراء» المتداولة في كوبنهاغن، وكان عليه، بالطبع، أن يُدين طبيعتها الفجة والمبتذلة. وكان بمقدور أوسترمان، مع ذلك، أن يذكر صحيفة رخيصة مثل

«راكيتن» Raketten [بالدنماركية: الصاروخ] ليبين طابع الصحافة النافع من حيث الأساس. فالصحيفة كانت، بطبيعة الحال، بعيدة عن «اللياقة في أسلوب التعبير» الذي تعتمده ولكنها كانت تتحلى بالشجاعة: كانت لديها الجرأة على أن تتحدث عما يتحاشى الآخرون التطرق إليه. وكانت توفر قناة يعبر المواطنون من خلالها عن «شكاواهم ومظالمهم» وبذلك تشجيعهم على القراءة والكتابة، الأمر الذي لم تكن «الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى» معتادة عليه. الأكثر منذ ذلك أن الصحافة النقدية يمكن أن «تكون عوناً للمظلومين» وأن يكون لها في الوقت نفسه تأثير رادع بحيث إنها عموماً يمكن أن تعزز حكم القانون شريطة «أن يشارك الجمهور أيضاً في القضية» وليس النظام القضائي وحده. ولاحظ أوسترمان (الذي يبدو أنه حينذاك أوصل نفسه إلى حالة من الانفعال) إن ما يصح على المواطن الفرد يصح على الحكومة أيضاً «لأننا يجب ألا ننسى أبداً إن الخير حين ينتصر فإنه لا ينتصر إلا نتيجة صراع، ويجب ألا ننسى أبداً إن الحكومة يمكن أن تخطأ كما المواطنين تماماً». وكان على المرء أن يتوخى الحذر لدى الخوض في هذه القضية الثانية بوجود ملك مستبد، فعمد أوسترمان إلى تخفيف تصريحه بإضافته «إن حكومة عادلة مثل الحكومة الدنماركية عموماً ليس لديها ما تخافه في الحقيقة من بعض النقمة في صحيفة يومية». اليوم نستطيع أن نرى إن المستقبل كان مع أوسترمان في تقديره الواقعي للجانب الديموقراطي من الصحافة اليومية. ولكن بعد أسبوعين وجد كيركغارد يقف ضده.

كيركغارد أيضاً اختار «القراءة بصوت عالٍ» (كما سُميت في جمعية الطلبة). طلب كيركغارد نسخة من مخطوطة أوسترمان، وفي 28 تشرين الثاني/ نوفمبر 1835 قدم رداً موسوماً «كتاباتنا الصحفية» مع العنوان الفرعي «دراسة من الطبيعة في ضوء الظهيرة». وقرأ مداخلته أمام جمهور كبير صفق له بحرارة حين انتهى من الكلام. أحسن كيركغارد التحضير، وأبدى معرفة تثير الإعجاب بتاريخ الصحافة «الليبرالية الوطنية»، وخاصة كما كانت تمثلها صحيفة «كيوبنهافنسبوستن». وكان مقصده إن الصحافة الليبرالية قطعاً لم تكن قريبة من النشاط الذي ادعاه أوسترمان وأنها في الحقيقة لم تفعل سوى الانتقال من بناء «قلاع في الهواء - إلى مصائد فئران - ثم العودة إلى مكانها ثانية». كيركغارد لا يقول ذلك بصورة مباشرة ولكن لِمَنْ يقرأ بين السطور يبدو أنه يلمّح إلى أهم مبادرة لتحسين الوضع في ذلك الوقت اتخذها فريدريك السادس نفسه.

باختصار، إن كيركغارد لم يكن يريد المشاركة فيما سماه «شقلبة في سيبيريا حرية الحصافة».

استمع أوسترمان إلى كيركغارد يقدم مبحثه ولكن لم تكن لديه رغبة في الاشتباك مع «خصم كنتُ أعرف أنه ليس لديه إلا اهتمام طفيف بالقضية». وهكذا كان أوسترمان يعرف كيركغارد معرفة جيدة ليس من جمعية الطلبة فحسب بل ومن مقاهي كوبنهاغن التي كثيراً ما كان الاثنان يلتقيان فيها ومنها كانا يخرجان في نزهة مشي على الأقدام حول بحيرات المدينة. وأوضح أوسترمان أن «فكر» كيركغارد المتوقد «كان يمتلك ناصية أي قضية مطروحة في تلك الأيام ويطبق مهارته الديالكتيكية وفطنته عليها. وحقيقة أن دفاعي [عن حرية الصحافة] لاقت استقبالاً إيجابياً دفعته إلى المعسكر الآخر الذي تحالف معه كمسألة عدم مبالاة بهذا القدر أو ذاك».

كان أوسترمان على صواب. فإن مساهمة كيركغارد في النقاش حول حرية الصحافة كان في الحقيقة مراناً استعراضياً على إثارة زوبعة في فنجان. ومع ذلك (أو ربما بسبب ذلك على وجه التحديد) واصل سجالاته غير هيَّاب عندما نشر أورلا ليمان Orla Lehmann، كبير المتحدثين باسم الليبراليين، مقاله الخامس الذي كان «مرافعة دفاعاً عن حرية الصحافة» في صحيفة كيوبنهافينسبوستن. وجادل ليمان، الذي أصبح لاحقاً أحد عرابي الدستور الدنماركي، في هذا المقال بأن الأوقات العصيبة التي شهدتها السنوات الأخيرة - «حرب، هزيمة، إذلال، إفلاس، انهيار المحاصيل الزراعية» - أدت إلى غمّ شعبي واسع الانتشار قُمع باستحضار موضوعات وطنية وعاطفية:

كانت الحياة العامة مبرقعة بسواد الحداد، لذا لم يكن مستغرباً إن الناس لاذوا بحياتهم العائلية باحثين عن السلوى والدفء وراء أبواب مغلقة ومرفهين عن أنفسهم قدر الإمكان. ونشأ نوع من «الحياة الجامدة» أخذ الناس يمارسون فيها هوايات جمالية، لاعبين لعبة «الدنمارك العجوز» و«العَلَم القديم العظيم».

لم يكن ليمان عدو الشعب ولكنه أدرك أن هذا التعظيم الذاتي الوطني وهذه «المهرجانية عن الهوية الدنماركية» ترتبط بشعور قومي عام بالدونية، النقيض الساخر للوطنية الحق. كان الناس بحاجة إلى هواء منعش للتحرر من الجهل والكبت المرير، وهذا ما كان وجود صحافة نقدية يساعد على تحقيقه. ورغم

التخفي الحذر الذي كان مطلوباً وقتذاك فإن ليمان أطلق الادعاء المتفائل بـ «أننا نرى فجر حقبة جديدة في حياة الشعب وحريته».

بعد ستة أيام، في 18 شباط/ فبراير 1836 واصل كيركغارد حيث توقف ليمان. وظهر مقاله «ملاحظات الصباح في صحيفة كيوبنهافنسبوستن، العدد 43» في مجلة فيلفة بوسن التي كان جي. إيل. هايبرغ رئيس تحريرها. وكانت هذه أرقى مطبوع جمالي في زمنه، وبصرف النظر عن توزيعها المتواضع بعض الشيء فإنها كانت تقوم بدور مهم جداً في تشكيل الرأي العام. ومن البداية كانت رسالة فليفه بوستن تشجيع الاهتمام بفن الدراما، ولهذا كان هايبرغ كثيراً ما يناقش نتاجات المسرح الملكي ويكتب مراجعات عنها. ورغم أن هذا كان من الجائز أن يضفي على مجلة فيلفة بوستن طابعاً تقنياً فإن إثقال كاهل قرائه بأطروحات متبحرة كان بعيداً عن هواجس هايبرغ الصحفية، بل على العكس، كان قصد هايبرغ الترفيه بأمل أن تصبح كوبنهاغن عاصمة حية مثل باريس. وكان بين المشتركين المئة وأربعين أو نحو ذلك على قائمة الاشتراكات لعام 1834، ولي العهد الشاب كريستيان، وكاهن الاعترافات الملكية ياكوب بيتر مينستر، والطبيب هانز كريستيان أوريستد وشقيقه أندريس ساندو أوريستد، وهو حقوقي تولى رئاسة الحكومة لاحقاً، وأوغست بورنونفيل الذي كان يسمي نفسه راقصاً وأصبح في النهاية أعظم مصممي العروض المسرحية في الدنمارك ومستشار قضائي اسمه تركيلد أولسن كان لديه بنت اسمها ريجينة. بالإضافة إلى جميع هؤلاء المثقفين ضمت قائمة المشتركين رجال أعمال وأصحاب مصالح وتجار حرير من كوبنهاغن ومقاهي مختلفة ومالك معمل الشوكولاته الدنماركي الشهير كيهليت الذي كان يحتفظ بالمجلة في محلاته لإمتاع زبائنه من محبي الحلويات. كانت فيلفة بوستن، على غرار مجلة الكورسان بعد سنوات، من تلك المجلات التي يريد الجميع أن يكونوا قادرين على الحديث عنها. كانت لاذعة وشيقة، وكان كتابها الفصحاء يمارسون لعبة التجفيل مع بعضهم البعض، ويعشقون إرباك القراء الفضوليين بتوقيع مساهماتهم بأسماء مستعارة أو رموز مشفرة. وكان هايبر نفسه يوقع ما يكتبه بالرمز «ـــ.» ولكن هذا المرح اكتسب أبعاداً حتى إن الكتاب الذين يريدون البقاء مجهولي الهوية استنفدوا في النهاية كل الحروف الصغيرة والكبيرة في الأبجدية اللاتينية واليونانية، وفي النهاية تعين عليهم اللجوء إلى استخدام الأرقام.

ويبدو أنّ حرف B لم يكن محجوزاً وقتذاك فسُمح لكيركغارد باستخدامه. وإذ بدأ كيركغارد باختيار عنوان مادته الذي كان فيه لعب بكلمة «الصباح» على استخدام ليمان لمفردة «الفجر»، فإنه نقل الأسلوب الوقح والخفيف الذي سيكون سمة مقاله. وباستخدامه كميات متساوية تقريباً من الدقة الديالكتيكية والاعتباطية التهكمية تناول كيركغارد تفاصيل مختلفة في قطعة ليمان ومزجها في صيغة مشوهة طريفة، لا معقولة لم تكن معنية على الإطلاق بالموضوعية. ولم تتأخر ردود الأفعال على مقال كيركغارد في الوصول. ففي 4 آذار/ مارس نشر يوهانس هاغة Johannes Hage رئيس التحرير الشاب لصحيفة فادريلانديت مقالاً «عن سجالات فلايِفِه بوستن» أعرب فيه عن امتعاضه من الطرائف العدوانية التي لم تخدم في حالة كاتبها B أي غرض سوى «تمجيد ذاته الصغيرة نفسها». ولكن ما أزعج هاغة بصفة خاصة كان «الهجوم المعيب على لونغة» الذي ارتكبه B آنف الذكر. وكان كيركغارد زعم إن أي. بي. لونغة A. P. Liunge، رئيس تحرير كيوبنهافنسبوستن، «أكثر طيبة من أن يكون رئيس تحرير كيوبنهافنسبوستن»، الصحيفة الفظيعة بحيث إن الحل الأكثر عقلانية هو إجلاس «صفر كامل» على كرسي رئيس التحرير، بل إن كيركغارد لم يكن لديه شك بأنه «مثلما يبيع المرء جثته إلى كليات التشريح في إنكلترا» فإنها في الدنمارك ليست إلا مسألة وقت قبل «أن يبيع المرء جسده ليُستخدم كرئيس تحرير كيوبنهافنسبوستن».

لم يكن هذا كلاماً مؤدباً بل كان تشهيراً من الناحية العملية ولكنه مع ذلك حاذق تكتيكياً لأن لونغة كان من مصادر إزعاج هايبرغ: كان دائماً يسميه «الناسخ». وهكذا جرت الأمور على ما يُرام، وفي اليوم التالي تلقى كيركغارد تأييداً من جهة غير متوقعة. فإن مجلة ستاتسفينين Statsvennen الأسبوعية [بالدنماركية: صديق الدولة] - ذات الاتجاه المحافظ كما يشير اسمها بكل وضوح - نسبت إلى هايبرغ مقال كيركغارد الذي نشره بالاسم المستعار «B»! وكتبت مجلة ستاتسفينين بنشوة من الإعجاب «إن هايبرغ كتب عدداً من المواد الطريفة لكنه لم يكتب شيئاً أفضل مما نشره في فلايِفِه بوستن» بل لو «إن راهبيك كان حياً وبيننا، لسماه درة لا تُقدر بثمن». كاد كيركغارد أن يُصابَ بالدوار من شدة الفرح. ونسخ كلمات مجلة ستاتسفينين في يومياته وإن لم ينسخها حرفياً، الأمر الذي يبين إنه لا بد أن يكون قد درسها بعناية فائقة بحيث (كاد) أن يحفظها عن غيب! ولاستكمال النصر أضاف كيركغارد إن بول مارتني مولر Poul Martin Moller الذي هو أيضاً لم يكن

يعرف هوية الكاتب الحقيقية، كان على وشك أن يركض وراء هايبرغ في الشارع ليشكره على المقال - «لأنه أفضل قطعة ظهرت منذ أصبحت صحيفة فلايِفِه بوستن جريدة سياسية» - حين أوقفه اميل بويسن في اللحظة الأخيرة وأخبره مَنْ في الحقيقة كتب المقال.

لا شيء يمكن أن يكون أكثر إطراء من أن يُخلط بين المرء وهايبرغ الذي كان لفت انتباهه حلماً يراود كل كاتب جديد.

من الواضح أن كيركغارد لم يفطن إلى أن مثل هذا الخلط ما كان ليحدث لولا تمكنه من محاكاة هايبرغ إلى أدق التفاصيل بحيث إن فهم مقاله فهماً صحيحاً كان مجرد تقليد ماهر، استنساخ، نقل. وهكذا كتب زميل كيركغارد القديم من أيام الدراسة المؤلف إتش. بي. هولست: «في أول أيامه كطالب جامعي كان مأخوذاً على نحو خاص بمفهوم هايبرغ للظرافة، وسيكون عجبي كبيراً إذا لم تكن رغبته في تقديم نفسه كمؤلف مدفوعة في البداية بمقالات طريفة وممتعة في صحيفة فيلفة بوستن. وأذكر كيف أنه في تلك الأيام كان في أحيان كثيرة يدَبّج مقالات بتلك الروح عن قضايا مختلفة، وبإبداء قدرة تستحق الثناء على الحفظ، كان يسردها لي في الشارع».

بهذا التشجيع استطاع كيركغارد أن يشق طريقه باسم «B»، واثقاً من الفوز، وأرسل إلى صحيفة فلايِفِه بوستن مقالاً بطول مضاعَف عنوانه «حول مساجلة فادريلانديت» ظهر في عددي 12 و15 آذار/ مارس. وبمرور الوقت أصبحت القضية كلها معقدة حتى أن مقال كيركغارد كان أشبه بتقرير عن نزاع عائلي من أي شيء آخر حيث لم يستطع أحد بعد مرور بعض الوقت أن يتذكر مَنْ قال ماذا عن ماذا ولمن قاله - وبالتأكيد لماذا قاله. ولكن لونغة تلقى بضع لكمات أخرى وهاغة كان هدفه ضربات موجعة لأنه كان وقحاً إلى حد الكتابة بأن كيركغارد لم يكن يكتب، بالطبع، إلا «لتمجيد ذاته الصغيرة». ولكن هايبرغ كان مسروراً بالمعركة الشفهية، وفي 16 آذار/ مارس، حين أرسل إلى كيركغارد «ست نسخ خاصة» من المقال ذي الطول المضاعَف، شكره على مساهماته وطمأنه إلى أنها تغبطه «حتى أكثر حين يعيد قراءتها». والعجب العجاب أنه وقع بعد ذلك بعبارة «مع خالص الاحترام، جي. إيل. هايبرغ».

ولكن هذا لم يكن نهاية السجال. ففي عدد 31 آذار/ مارس من صحيفة

كيوبنهافنسبوستن نشر أورلا ليمان رداً على السيد B من «فلايفِه بوستن» وصف فيه B بأنه كاتب «ذو موهبة حقيقية لا تخطئها العين لاستخدام لغة متينة وتصوير حي» لكننا نبحث بلا جدوى عن نيته، بل بدا له في الحقيقة «إن اللب مخفي داخل قشرة سميكة جداً» وإن القضية كلها لا تعدو كونها «مراناً أسلوبياً على الشكل الفكاهي». وظهر رد كيركغارد «إلى السيد أورلا ليمان» في فلايفِه بوستن بتاريخ 10 نيسان/ أبريل، وكان في منتهى الاستعلاء، كما هو متوقع. ولأول مرة في غمار المعركة أسقط كيركغارد اسمه المستعار «B» واختار التوقيع باسم «أس. كيركغارد» لأنه، على ما يُفترض، كان سعيداً للاعتراف في هذه المناوشات العابثة باسمه الحقيقي.

قبل يوم على عيد ميلاد كيركغارد الثالث والعشرين، في 4 أيار/ مايو 1836، اتخذت القضية منحى مفاجئاً ومؤسفاً حين نشر كاتب مجهول الاسم ثلاثة مقالات في مطبوع دوري سماه «هيومريستيسكة انتلجينسبلادة» Humoristiske Intelligensblade.

في المقال الأول حيث يشرح الكاتب بطريقة الدردشة الفكرة من وراء مجلته، نستطيع أن نستشف بوضوح إنه يستهدف كيركغارد، وفي المقال التالي يطلق سهامه. ويُبدي الكاتب الذي يوقع باسم X قدرة متميزة في هجماته الديالكتيكية حتى إنه يغرينا لبرهة بأن نظن إنه في الحقيقة كيركغارد الذي اتخذ اسماً مستعاراً آخر ليواصل المعركة ضد نفسه. ولكن السخرية أشنع من أن يكون هذا هو الحاصل. وهكذا يعلن المقال قريباً من الخاتمة: «بعد قراءة كاتب يهمنا نميل عموماً إلى تكوين صورة عن شخصيته حسب الشكل الذي تظهر به ملامحه مما كتبه... وبهذه الطريقة نرى على نحو ليس بعيداً عن المألوف إن مفستوفيليس يقفز من الكتب والمجلات رغم إنه في أحيان أكثر يكون هذه الشخصية الكاريكاتيرية أو تلك، ألبستها الغطرسة المبالغ بها، أو الادعاء المتحذلق، أو صفات أخرى كهذه، طاقية المغفل». ويمضي المقال منوهاً بأن ضيق المجال لا يسمح للأسف بتوضيح معالم الصورة ولكن هذا يمكن أن يتحقق في مناسبة أخرى، «وخاصة إذا وفر لنا الكاتب، من خلال نشاطه الأدبي المتواصل، مزيداً من سمات ملامحه الفريدة».

لا بد إن قراءة كيركغارد لهذه التلميحات الفظة إلى جسده كانت مؤلمة،

وساءه بصفة خاصة أن يكتشف أن لديه في مكان ما من المدينة شبيهاً أدبياً تذهب سجالاته خطوة أبعد مما يمكن أن يحلم كيركغارد نفسه ببلوغه. ونظراً للحقيقة الماثلة في أن ما حرك النقاش حول «الأدب الصحفي» في ذلك الزمن هو موقف كيركغارد الاستعلائي بعض الشيء من الحاجة إلى أي زيادة في حرية التعبير، فإن من مفارقات القَدَر إن كيركغارد نفسه تعرض على حين غرة إلى التهديد بأعمال ثأرية ضده - إلباسه «طاقية المغفلين» - إذا استمر في النشر. ولكن في المقال التالي زال الخطر، على ما يبدو، بقدر ما إن الكاتب لم ينسب آراءه إلى كيركغارد. ولكن ظهرت حينذاك قطعة أخرى من الكاتب الغامض X، ورُفعت الستارة عن مسرحية «مجمع فلايِفه بوستن السياسي Collegium Politicum: كوميديا مؤثرة في ستة مشاهد». وبأسلوب أعمال لودفيغ هولبيرغ Ludvig Holberg الكوميدية ظهرت شخصيات المسرحية بأسماء مستعارة ولكن من الممكن التعرف عليها بسهولة وهي المأخوذة من مقالات نُشرت في صحيفة فلايِفه بوستن. وكثير من المقاطع في نص المسرحية مستعارة من هذا المصدر نفسه، بحيث إن مقتطفات من كتّاب فلايِفه بوستن توضع على لسان أصحابها أو لسان شخصيات أخرى. وكيركغارد الذي يظهر في المسرحية بدور K (سابقاً B)، بوصفه خصماً ونابغة بعض الشيء أيضاً»، يُصوَّر على أنه تلميذ وفيٌّ من تلاميذ هايبرغ ويُسمى «سكرتيره». وعندما يظهر على المسرح - يغني! - يلتفت هايبرغ إلى الحاضرين ويهتف «صدّقوني، هذا رأس ماكر يستطيع السجال مع خصمه ويوهمه بأنه يمشي على رأسه». كيركغارد يهم بمغادرة مكاتب صحيفة كيوبنهافنسبوستن التي «أسمَعَها كلاماً قاسياً»، وهو يعبر عن ذلك باختيار ذكي لمقتطفات من مقالاته ذاتها: «قلتُ: بيرة رخيصة. قُلتُ: كرنب أخلاقي بالقشدة. قلتُ: عصيدة الحنطة السوداء أيضاً. قلتُ: بقدونس. قلتُ: شوربة كونسوميه لحم البقر. قلتُ: شلالات نياغارا. وقلتُ: أي مرفأ إذا كانت هناك عاصفة». الآن كتب كيركغارد مقالاً جديداً يسلمه إلى هايبرغ الذي يفحصه بحماسة ثم يسأل كيف بحق السماء يمكن أن توجد «زوبعة أفكار» كهذه في شخص واحد. ويرد كيركغارد على ذلك بالقول: «أنا حقاً أُعاني منها كثيراً ما دامت باقية في داخلي. وإذا لم أطردها بين حين وآخر بحمَّام من العَرَق - هكذا أصف نشاطي استعارياً ككاتب - فإنها لا شك ستهاجم الأجزاء الداخلية الأكثر نبلاً».

هنا نصل إلى القعر، بالمعنى الحرفي تماماً. وباستثناء ملاحظة توديعية

صغيرة يُعطى كيركغارد سطوراً إضافية يكتبها. ولكن هذا كان أكثر من كافٍ لأن نشاطه الأدبي خلال أشهر الصيف هذه شُرح بهذه اللكمة تحت الحزام على أنه تسامٍ لطاقةٍ داخلية - جنسية ضمناً - كان ينبغي أن تجد تفريغاً بيولوجياً مباشراً. فلا غرو في أن رده - الذي لم ينشره قط - اتسم بغضب رمادي بعض الشيء. ولا أحد يعرف هوية الشخص الذي اختفى وراء X هذا الذي لا قلب له، ولا كيركغارد عرفه ولكنه افترض أنه لا بد أن يكون أحد «الشعراء من الفترة الجمالية لصحيفة كيوبنهافنسبوستن». ولكن دلائل مختلفة، ولا سيّما في قضايا الأسلوب، تشير إلى اتجاه مغاير قليلاً، وبالتحديد لا تشير إلى أحد سوى بي. إيل. مولر. وبالفعل فلعل مولر هو الشخص الوحيد الذي لديه موهبة التقليد المطلوبة لتجريد أسلوب كيركغارد المضخَّم من قوته وبذلك توظيف تهكمه «هو» لثقب بالون «شخص آخر» في تهكمه.

بعد نحو عقد من الزمن حين تقاطع طريق مولر مرة أخرى مع طريق كيركغارد ستكون هذه الموهبة على وجه التحديد هي التي يوظفها - وبتأثير بالغ حتى إنها غيَّرت مسار حياة كيركغارد بالكامل.

داخل حلقة هايبرغ المسحورة

رغم إن سجالات كيركغارد الصحفية أعقبها مقطع ختامي كوميدي لم يلق ترحيبه تماماً فإنه اعتُبر المنتصر في المعركة. وبعد أيام قليلة فقط على ظهور مقال كيركغارد الأول كتب بيتر روردام إن تغييراً حدث في جمعية الطلبة. فإن زعيمهم وقائدهم ليمان سقط مهزوماً هزيمة منكرة... ومعه سقطت صحيفة كيوبنهافنسبوستن... والمنتصر هو كيركغارد الشاب الذي يكتب الآن في صحيفة فلايِفه بوستن بتوقيع الرمزB. وفي 17 أيار/ مايو كتب القس يوهان هان إلى بيتر كريستيان يقول «أسمع من أوساط عديدة إن شقيقك سورين ظهر ظهوراً طريفاً وقوياً في صحيفة فلايِفه بوستن».

كانت هذه البداية الأدبية الناجحة تعني قبول كيركغارد في الحلقة المسحورة لعائلة هايبرغ. وكان يوهان لودفيغ هايبرغ شاعراً وناقداً أدبياً ومترجماً ومحرراً صحفياً وكاتباً مسرحياً وفيما بعد مدير المسرح الملكي، الذي كان هايبرغ يمده بأعمال الفودفيل - مسرحيات هزلية ترفيهيه في حياكة المكائد تتخللها أغانٍ وتعقيدات رومانسية لا تكون أبداً عصية على الحل - كانت تسلي جمهور

تلك الأيام. باختصار، كان هايبرغ نصير الكياسة والظرافة، التهكم واللباقة، الأخلاق الحميدة، والأرستوقراطية الفكرية بقضها وقضيضها. وهكذا كان هايبرغ مؤسسة بحد ذاته، محكمة عليا جمالية، أحاكمها وإن لم تكن دائماً عادلة فهي قطعية لا تقبل الاستئناف، وبالتالي ذات أهمية مصيرية. والأكثر منذ ذلك أن هايبرغ كان مسؤول سلالة أدبية نبيلة النسب. وحين نُفي من البلاد في عام 1800 كان والده بي. أي. هايبرغ P. A. Heiberg أشهر كاتب في البلد بلا أدنى شك. وفي الفترة الممتدة من 1827 إلى 1845 نشرت والدته توماسين بونتسين المعروفة باسم مسز غيليمبورغ، كنية زوجها الثاني، ما لا يقل عن 24 رواية وقصة قصيرة دون أن تكشف عن هويتها. وأخيراً، تزوج هايبرغ من يوهانة لويس بايتغيس، وهي إلهة من بنات البروليتاريا، أصبحت في الثالثة عشرة من العمر موضوع شهوته الإيروتيكية المتميزة والآن سيدة المسرح الدنماركي الأولى بلا منازع، ربة الوحي الباهرة، المتألقة في عصرها. كان الجميع معجبين بها، يعبدونها ويعشقونها عشقاً مدوياً مشبوب العاطفة حتى أنهم كانوا يُصابون بكآبة شديدة أو حتى يقدمون على الانتحار - عملاً بروح العصر التراجيدية. وحين قامت بدور دينا بطلة مسرحية أوهلينشلاغر كان جمهور كوبنهاغن مأخوذاً بها حتى أنهم نزعوا الأرسان عن خيول عربتها وجروها بأنفسهم من المسرح الملكي إلى منزلها، في مبايعة لم تُعرف في السابق إلا للملك فريدريك السادس والنحات بيرتل تورفالدسن! فإن مسز هايبرغ كانت ببساطة إلهة بنظر معجبيها الذين كانوا يشترون صورتها محفورة أو مطرزة على المناديل أو منقوشة على قبعاتهم. وإذا لم يكن هذا كافياً كان بمقدورهم أن يختاروا أيضاً من جملة منتوجات شتى تحمل اسم مسز هايبرغ بينها اسم سيجار ونبتة منزلية ونوع من الصابون وقرطاسيات ومعجنات تُقدم في المقاهي وشوكولاته أو رقصة فالس يكتب موسيقاها ملك الفالس الدنماركي إتش. سي. لومبي H. C. Lumbye.

على امتداد ربع قرن عاشت مسز غيليمبورغ مع ابنها وكنّتها، الأمر الذي لم يكن يتطلب الكثير من الصبر والتفهم (عاشت الحماة حتى سن الثالثة والثمانين!) بل يسّر بناء شراكة عمل سماها المهرجون الحاقدون «معمل هايبرغ». وفي حين إن الابن كان ينشر قصص والدته القصيرة ومسرحياتها، كانت هي تكتب لمجلات ابنها، وفي الأمسيات كانت يوهانة لويس تظهر على المسرح بأدوار كتبها زوجها وحماتها خصيصاً لها.

للأكبر سناً كان تلقي دعوة لزيارة عائلة هايبرغ في منزلها رقم 3 شارع بروغاده في قاطع كريستيانسهافن من المدينة، بمثابة شرف، وللشباب كانت الدعوة تنم عن وعد بالنعيم على نسخة كوبنهاغن من «جبل بارناسوس» [في اليونان]. إذ كان هذا ملتقى للمسرحيين والممثلين والممثلات الذين ينظرون، مثلهم مثل هايبرغ، إلى إحياء المسرح الملكي وبناء دراما دنماركية مستقلة على أنهما من أكبر التحديات التي كانت تواجه الحياة الثقافية يومذاك. وكان من أوائل الضيوف المواظبين الممثلان اللامعان كارل فينسلوف Carl Winslow وسي. إن. روزينكليدة C. N. Rosenklide اللذان رفعهما كيركغارد لاحقاً إلى السماء بمديحه لهما. وانضم إلى الشلة المؤلف والكاتب المسرحي هنريك هيرتز Henrik Hertz في نيسان/ أبريل 1832 وسرعان ما أقام علاقة ودية مع الزوجين هايبرغ، وبعد فترة وجيزة على ذلك ترجم مقاطع من «فاوست»، عمل غوته، بالتعاون مع سيد البيت. وفي حزيران/ يونيو من العام نفسه رافق هيرتز الزوجين في إجازتهما في زيلاند الشمالية وهام بحب زوجة هايبرغ، التي خلبت لبه بأغان من تأليف كارل بيلمان كلما كان لودفيغ يدير ظهره. ولكن هيرتز كان يعرف فن ضبط النفس وبقي شاعر البيت وصديق العائلة 25 عاماً مستقدماً معه شلته الصغيرة بي. في. ياكوبسن P. V. Jacobson وسي. أي. تورتسن C. A. Thortsen، وكان الأول حقوقياً والثاني مربياً، وكلاهما حالمان جماليان استثنائيان لهما قدرة طبيعية على كبت كل نزعة بحذر قاتل كان يمر على أنه ذوق سليم. كان ذوقهما نيقاً يكاد أن يكون محترقاً. كانا يكرهان أي تعبير عن العاطفة ويحتضنان الشكلية الشعرية بتعصب، ويمرضان جسدياً إذا وقعا على زحاف في الوزن أو عجز في القافية. وكانت طرفة ستين ستينسن بليشر Steen Steensen Blicher الشهيرة عن «نقابة قاطعي الكعك في كوبنهاغن» تصح تماماً على هذين المريدين أكثر منها على هايبرغ نفسه. وكان من بين النجوم الشبابية الصاعدة فريدريك بالودان مولر واتش. بي. هولست وبي. إي. ليند في حين ضم الجيل الأكبر يومذاك شعراء مثل كريستيان فينتر وكارل باغر، وليس آخراً بول مارتن مولر، أستاذ الفلسفة آنذاك في جامعة كوبنهاغن الذي يشاركه هايبرغ ذكريات سعيدة عن جمعية «ليسيوم» للمناظرات التي انتميا إليها أيام شبابهما. وأخيراً كان هناك سورين آبي كيركغارد، ابن تاجر الجوارب، الذي كان، والحمد لله، يعرف على ما يبدو أكثر بعض الشيء مما تعلمه من

اللاهوتيين. وإذا قال أحد حينذاك أنه بسبب كيركغارد وبسبب الطويل النحيف هانز كريستيان أندرسن، اهتمت الأجيال اللاحقة بعائلة هايبرغ ورهط أتباعها، فإن ذلك كان سيُعد نكتة سمجة بشكل استثنائي.

لا يُعرف متى دخل كيركغارد أول مرة بيت هايبرغ. وذكرت مسز هايبرغ في مذكراتها إن كيركغارد كان يأتي مساء بين حين وآخر دون أن يكون مدعواً. وتجعل يوميات هنريك هيرتز من الواضح أن كيركغارد كان حاضراً في أمسية 4 حزيران/ يونيو 1836 بمناسبة مغادرة الزوجين هايبرغ في رحلة خارج البلد. (بعد محطات في برلين وفايمار ولايبزغ انتهى بهما المطاف في باريس حيث قدم الابن زوجته إلى الأب المنفي الذي لم يره منذ 14 عاماً). لم يذكر هيرتز ما الذي تحدث فيه الحاضرون خلال تلك الأمسية ولكننا نستطيع أن نتخيل بسهولة إن الرحلة الوشيكة ركزت الحديث على أوروبا ووجهت الانتباه إلى الوضع الفكري في أعقاب رحيل العملاقين هيغل وغوته اللذين توفيا في 1831 و1832 على التوالي.

كان هايبرغ نشر لتوه «عن أهمية الفلسفة للعصر الحاضر» الذي حدَّد فيه العصر على أنه عصر أزمة عميقة لا يمكن حلها إلا بالفلسفة - ليس أي فلسفة نوعية بل الفلسفة بحد ذاتها «لأن الفلسفة ما هي إلا معرفة الفكرة الداخلية أو التأملية، العقل، الحقيقة». ورغم إن الدين والشعر والفن أيضاً «تحقيق للّامتناهي» فإن الفلسفة تتبوأ مع ذلك الموقع الأسمى على قمة الهرم لأنها تحوي الحقيقة بوصفها «مفهوماً». وكان هايبرغ رجلاً عصرياً، يحترم المسيحية لكن الحركات الدينية، ناهيكم عن مشاعر الورع، كانت غريبة على طبعه الهادئ. وعنده فإن «المؤمنين الصادقين هم الذين لا يكذبون إلا على أنفسهم وليس على الآخرين». وهكذا كانت مقاربته للمسيحية مقاربة تأملية محضة، ولم تكن لديه أوهام عن مستقبل الدين: «لا يجدينا نفعاً أن نخفي أو نموِّه الحقيقة بل يجب أن نعترف لأنفسنا بأن الدين في زمننا ليس ذا أهمية من حيث الأساس إلا لغير المتعلمين في حين أنه للعالَم المتثقف شيء من الماضي، شيء جرى تجاوزه». أو باستخدام استعارة استفزازية للنمو، «أن معرفة البشرية... نمت نمواً فاق كثيراً معرفة العناية الإلهية».

بهذا الإعلان عن دعم الأرستوقراطية الفكرية كان هايبرغ ينتمي إلى تقليد

أوروبي عريق في التربية Bildung بالألمانية تعني التهذيب أو الإعداد، وتُستخدم هنا رديفاً لمفردة Dannelse الدنماركية غير المعروفة بالقدر نفسه، التي بلغت ذروتها في الرومانسية والمثالية الفلسفية المرتبطة بها. لذا ليس مستغرباً إن هايبرغ كان يذكر غوته وهيغل بوصفهما أعظم «ممثلي عصرنا» بلا أدنى شك. غوته لأنه كان شاعراً تأملياً بلغ عمله غاية الوضوح في القصيدة التعليمية الفلسفية التي «موضوعها معرفة اللانهائي – المعرفة الفلسفية». وهيغل لأن «منهجه» كان أنقى وأكثر المحاولات طموحاً لصوغ كلّية «علم مركزي». وكان هدف العملية الديالكتيكية معرفة مطلقة يُلغى فيها الفارق بين الذات والموضوع، بين المعرفة وموضوع المعرفة. وفي هذه العملية الديالكتيكية فإن الدين الذي لم يكن إلا مرحلة ثانوية، سيُصهر أيضاً في الفلسفة.

إصرار هايبرغ على ضرورة التربية Bildung كان أولاً وقبل كل شيء، إعلاناً برنامجياً عن فلسفة ضامنها النهائي روح العصر نفسه، وهذه الروح هي بالطبع شيء لا يمكن المراء فيه. وهكذا فإن التربية لم تكن مجرد الإتيكيت واللياقة والأخلاق الحميدة والحديث الشيق والآداب العامة – رغم إن هذه الأشياء كانت تشكل تسع نقاط في القانون. ومنذ العدد الأول لصحيفة فلايفه بوستن كتب هايبرغ سلسلة من المقالات عن أهمية التربية للفرد والحياة الاجتماعية، ومما له مغزاه أن هذه المقالات جُمعت لاحقاً وأُعيد نشرها في عمله «كتابات نثرية»، حيث سماها «مساهمات في أخلاق جمالية». وكانت أولى هذه القطع من عام 1828 بعنوان «عن المزاج السائد في الحياة العامة». وكتبها هايبرغ باسم مستعار أحسن اختياره هو «يوربانوس»، وكانت رسالته أن ينقل إلى زمنه الذي لا شكل له مفهوماً محدَّداً بوضوح للسلوك المؤدب بوصفه شيئاً أكثر من المعايير التقليدية التي تمليها موضة اليوم: «يُنظر إلى الشهامة والتعامل الاجتماعي المؤدب على أنهما أشكال خارجية من لا يمتلكها حقاً في قلبه كمن يضع عباءة ديكورية على لباس قذر».

بالمقارنة مع هايبرغ كانت طائفة المستشارين المختصين بالإتيكيت الذين ظهروا في الأجيال اللاحقة أشبه بجمهرة من السيدات المشردات في العصر الحديث. وبدا أنه يقوم بمحاولة محسوبة لإتقان فن ضبط النفس الذي يتّبع الوصفة الهيغلية بالتوسط بين نقائض وتهدئة العواطف لتبريدها إلى مستوى غياب معين للانفعال. ومن هناك لا تكون المسافة بعيدة عن الإشارة إلى

الأخلاق الحميدة التي تصبح سلوكيات معتادة وغياب العاطفة يصبح ادعاء ونفوجاً مصطنعاً. ولكن المسألة إن التربية يمكن ويجب أن تكون بالتلقين، بالحفظ، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بالانكباب على دراسة السلوك المهذب. وفي الحقيقة أن هذا النوع من الممارسة تربوي بحد ذاته وبالتالي يسبغ على الفرد صفات أخلاقية، بل أن هايبرغ أكد «إن الأخلاق والتربية لا تنفصمان عن إحداهما الأخرى، وأنَّ الواحدة تزداد طردياً مع الأخرى».

لم تكن معايير السلوك مقصورة على الحياة الاجتماعية الراقية بل كان يجري التمسك بها في الشؤون العامة وفي الفضاءات الاجتماعية، على سبيل المثال، لدى التردد على غرف القراءة في المكتبات والمقاهي والمطاعم (حيث كان هايبرغ يجد في أحيان كثيرة أفراداً صاخبين)، وأيضاً، بالطبع في المسرح حيث أصبح إفساد الذوق بمرور الوقت واسع الانتشار حتى إن مسرح المستقبل سيضم على الأرجح فعاليات همجية مثل «الرقص على حبال مشدودة ومعارك الديكة، وفي أحسن الأحوال مشاهد تكون مركز الاهتمام فيها معارك فرسان ورشقات مدفعية وصيد غزلان أو أرانب». هنا يبدي هايبرغ تشابهاً واضحاً برعب غوته من انتصار البرانية في المسرح - استقال غوته من منصب مدير مسرح فايمار حين سُمح لكلب على المسرح.

سرعان ما اتسعت حملة هايبرغ ضد الذوق الهابط - والمعروف أنه أكثر أنواع الذوق انتشاراً - إلى كل مستوى حتى في الدوائر الشعبية التي كان يأمل بتهذيبها. ويمكن أن نرى ذلك في مقال «عن هواياتنا الوطنية» التي أولاها اهتماماً خاصاً من إصبعه الاتهامي بلباقة. فإن فكرة وسائل النقل التي كان العامة يفضلونها لنزهاتهم يوم الأحد وحدها كانت تثير نفوره الجمالي: «ما الذي يمكن أن يكون عديم الذوق أكثر من مشهد عربات هولشتاين الضخمة الخرقاء ذات المقاعد الأربعة مع ثلاثة أو أربعة أشخاص جالسين على كل جانب، كثير منهم لديهم أطفال صغار في أحضانهم؟ العربة بحمولتها الثقيلة لا يمكن أن تتحرك إلا بصعوبة بالغة، يجرها على طريق ريفي ترابي حصانان هزيلان... وما هو الغرض من كل هذا العناء؟ للوصول إلى مكان الملاهي الذي عليه إقبال شديد، وهو حديقة الغزلان حيث يجدون مرة أخرى كوبنهاغن التي لعل المرء يظن إنه كان يريد الهروب منها، وحيث يُحشرون في زحمة أسوأ من أي زحمة في العاصمة، وحيث يدهس أحدهم الآخر عملياً مبتلعين كميات كبيرة

من الغبار والتراب، ناظرين ببلاهة إلى أحدهم الآخر ومطلقين تعليقات بائخة على ملابس كل منهم وأزيائهم». تأثر كيركغارد بهذه الكلمات، وكما رأينا في الفصل السابق فإن المشهد يكاد يطابق خاتمة رسالته إلى بي. دبليو. لوند التي وصف فيها حالة الفوضى في الفروع اللاهوتية.

لتجنب «قلة ذوق وابتذال» كهذا أوصى هايبرغ بأن يكتفي المرء بمجموعة اجتماعية محدودة ذات مستوى متجانس بهذا القدر أو ذاك من التربية، هو أيضاً الشرط اللازم لـ «الحديث» اللائق. وبما أن الأطفال لا يجيدون الحديث فمن الطبيعي ألا يجري اصطحابهم في هذه الرحلات بالعربة، والنزهة في الحدائق الملكية مع مربيتهم قد تكون طريقة أنسب لهم في قضاء الوقت. وإذا أُريد للرحلة أن تكون رحلة ممتعة فيجب ألا تُكرَّر في أحيان كثيرة، وحين تقوم برحلة كهذه فالمهم ليس بلوغ مقصدك فحسب بل التمتع بالرحلة نفسها بصفة خاصة، ولهذا السبب يجب أن تتوفر لها كل أسباب النجاح: «الرجال يمكن أن يسافروا على الأقدام أو على ظهور الخيل أو بعربات صغيرة خفيفة من كل صنف. والمجموعات التي تضم سيدات ينبغي ألا تستخدم إلا عربات من طراز أوفنباخ أو غيرها من العربات الخفيفة لكنها فسيحة مجهزة بمظلة تحمي من الريح والمطر عند الحاجة». يبدو أن هايبرغ كان من المتمسكين بنوع من الرومانسية الفروسية مكيفة لظروف المدينة. وكان مواكباً تماماً من الجهة الأخرى حين يتعلق الأمر بالصيغة الفلسفية الهيغلية التي كانت القضية كلها مغروسة فيها: «في تكوين الذوق من المهم ألا يكون اهتمامنا بـ «ماذا» المادية وحدها بل أن نهتم حتى أكثر بـ «كيف» النظامية».

كانت هذه الصيغة تسري أيضاً على الشؤون المنزلية التي تشكل فصلاً بحد ذاتها في أخلاق هايبرغ الجمالية. وفي هذا الشأن كان هايبرغ شديد الغضب من أن تكون أحسن غرفة في البيت، وهي الصالون، فارغة معظم الوقت في حين تتجمع العائلة في غرفة صغيرة وحتى الخادمة عليها أن تجلس في هذه الغرفة مع العائلة التي أصبحت تعيش «حياة بهيمية» مطلقة. وكان هناك شيء بهيمي أيضاً في الغذاء الذي كان الناس يحترمونه بتسميته «العشاء» ويتجرعونه مع الأجلاف الآخرين في الدنمارك: «صحيح أن لدينا أكلات وطنية قليلة لا يُستهان بها ولكن القسم الأعظم من الأكلات التي يشكل الحليب أساسها، والشوربات الحلوة والسَلَطات الحلوة والصلصات الدقيقية، إلخ أشياء تتجنب

غالبية البلدان المتحضرة وضعها على مائدة العشاء... كما أن هناك الكثير من الأحكام المسبقة سائدة، على سبيل المثال أن كل صحن يُوضع على مائدة العشاء يجب أن يكون ساخناً، وإن الناس يفضلون أن يأكلوا بقايا مختلطة بعد تسخينها على أن يأكلوا بعض اللحوم الباردة لكنها طرية ومغذية. كما نرى كماً أكثر من النوع. ويفضل الناس أن يأكلوا صحنين أو ثلاثة صحون من شوربة يوم الأحد المائية الشهيرة على إشباع أنفسهم بصحن واحد من المرق الغني والثخين».

تفضيل هايبرغ للأكلات الفرنسية ليس وحده الذي دفعه إلى ازدراء نوعية المطبخ الاعتيادي بأكلاته التي لا شكل لها والأقرب إلى الحساء بل كان لديه أيضاً إحساس بالجانب الطقوسي والاجتماعي للوجبة الغذائية، الذي يختفي تماماً إذا ارتبطت الوجبة بالغذاء وحده والإقبال عليه بنهم. وهو يكتب عن ذلك بأسلوب استفزازي وتنبؤي على السواء: «وقت العشاء ذو أهمية بالغة في الحياة المنزلية للعائلة. وقد نزعم بأنه حين يجري التعامل مع هذه القضية بطريقة تفتقر إلى اللياقة والنظام والحس الجمالي فإن هذه الصفات نفسها سنجدها مفقودة في جوانب أخرى من حياة العائلة. مَنْ لم يشهد أوقات الوجبات العائلية التي كثيراً ما تكون أقرب إلى إشباع حاجة حيوانية منها إلى ملتقى ممتع؟... ويسفر الاقتصاد الكاذب في تشغيل خدم ليسوا بالعدد الكافي أو غير مؤهلين للمهمة عن إجبار ربة البيت والبنات الكبيرات على النهوض بقسط كبير من عبء تقديم الوجبة. وعليهن باستمرار أن ينهضن من المائدة ويركضن جيئة وذهاباً من غرفة الطعام، الأمر الذي يفسد الحديث، ويختفي الهدوء المريح. يجلس أطفال صغار إلى مائدة العشاء مع الكبار يأكلون ويشربون بطريقة تُفقد الكبار شهيتهم، وتميل ثرثرتهم إلى تعكير الهدوء فضلاً عن قطع الحديث. وأخيراً ينهض المرء من مائدة العشاء بإحساس بالخواء والبلبلة من النمط الذي يلقاه في طاحونة لسحق المواد الأولية أو في الطَرق المتواصل لصفَّار نحاس، وكما لو أن الروح أُصيبت بالصمم».

ظل زواج هايبرغ بلا أطفال وبالتالي فإن الخوف من ثرثرة الأطفال المؤسفة حول مائدة العشاء كان بلا أساس في حالتهما. والخيار بين تفسير محاولة هايبرغ لتهذيب السلوك الذي يعيش به الناس على أنه تعبير عن شموليته الجمالية أو تصحيحه المفيد لاستبداد اللاشكل إنما هو مسألة ذوق بالمعنى

الحرفي للكلمة. ولكن من الصعب في كل الأحوال وصف هايبرغ بالنفاق لأنه كان يطبق نظرياته الجمالية على ممارسته هو في البيت والحياة العامة، ويكون بذلك صاحب الفكرة ذاتها التي اتهمه كيركغارد فيما بعد بعدم امتلاكها.

فاوست المجتهد

لم يقل لنا كيركغارد في أي موضع شيئاً عن انتمائه إلى حلقة هايبرغ ولكن لا بد إن التعارض بين الاعتدال الموراڤي الورع وبساطة حياته العائلية والرقة الاجتماعية البلورية لعائلة هايبرغ، كان تعارضاً صارخاً بحيث سيتطلب جهداً استثنائياً منه ليبقى واقفاً على قدميه. وهناك فقرة في يومياته تاريخها قريب من وقت حفلة توديع عائلة هايبرغ في عام 1836، تقدم وصفاً موسعاً بصفة خاصة لوضع كيركغارد ومزاجه بعد أمسية ممتعة للغاية: «جئتُ لتوي من ملتقى حيث كنتُ أنا حياة الحفلة. كانت الطرائف تقفز من لساني وكان الجميع يضحكون ويبدون إعجابهم بي ـــ لكني غادرت (نعم هذه الشارحة يجب أن تكون طويلة بطول أنصاف قطر مدار الأرض ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ ـــ) وأردتُ أن أقتل نفسي رمياً بالرصاص».

اكتفى كيركغارد بالعلامة الشارحة، ونشكر الله على ذلك. كان في الحقيقة مسحوراً بعبادة هايبرغ حتى أنه صادر طقوسها وجعل آلهتها العائلية آلهته هو. وبدأ دراسة مكثفة لأعمال غوته الذي احتفت به نخبة كوبنهاغن الثقافية احتفاءً جليلاً بعد وفاته: رئيس الجامعة آدم أوهلينشلايغر ألقى كلمة عاطفية في رثاء المبدع الألماني، وخلال الفصول الدراسية التالية تناول في محاضراته أعمال غوته الرئيسية، وفي نيسان/ أبريل 1834 رُفعت الستارة عن بالية بورنونفيل ذات الفصول الثلاثة «فاوست»، وبعد ثلاثة أسابيع جاء تقديم مشاهد دراماتيكية من العمل نفسه ترجمة هايبرغ وهيرتز.

إجمالاً كان غوته «صرعة» في تلك الفترة، وكيركغارد أراد أنه يكون مواكباً لها. في البداية استعار كتباً من مكتبات خاصة مختلفة، ولكن هذا أثبت كونه عملاً ثقيلاً، وفي 10 شباط/ فبراير 1835 ذهب إلى متجر رايتسل لبيع الكتب واشترى أعمال غوته الكاملة في 55 جزءاً. كان أول ما قرأه الرواية التربوية «فيلهلم مايستر» التي سماها «رائعة» بسبب «الحاكمية الإلهية الشاملة التي

تسود العمل كله»، بل كما لاحظ في يومياته فإنها «كانت في الحقيقة العالم كله معكوساً في مرآة، عالماً مصغراً حقيقياً». بدت يوميات كيركغارد وكأن عقل هايبرغ هو الذي يتكلم.

ولكن من بين جميع أعمال غوته كانت مسرحية «فاوست» هي التي افتتن بها كيركغارد أشد الافتتان ولأطول فترة من الوقت. وفي وقت مبكر لا يتعدى منتصف آذار/ مارس 1835 أنجز تخطيطاته الأولى لبورتريه شخصية فاوست، التي كان يدرسها على أساس عمل شتيغليتز «قصة الدكتور فاوست الملحمية». كما اختار كيركغارد أهم الأعمال المدرجة في الببيلوغرافيا الواسعة التي تضمنها ذلك الكتاب في استكمال ما سماه مشروعه. الآن، بعد عام، عاد إلى الببيلوغرافيا ونسخ كل العناوين البالغ عددها 107 عناوين منها 14 عنواناً تتناول معالجة غوته لموضوعة فاوست.

سرعان ما أصبح واضحاً لكيركغارد أن فاوست فكرة أزلية رغم تأويلها تأويلات مختلفة في حقبة مختلفة. ففي الأيام الأولى اعتُمدت وجهة نظر «أخلاقية»، وكان من الضروري لاحقاً إلغاء شخصية فاوست بوصفه كائناً منحرفاً من حيث الأساس تعاسته من صنع يده هو. وفي زمن كيركغارد كانت شخصية فاوست تُعايَن من وجهة نظر «نفسية» بصورة متزايدة أدت إلى تقييم أعقد بكثير. وحدث شيء مشابه مع شخصية دون جوان وشخصية اليهودي التائه اللتين فكر فيهما كيركغارد في وقت مبكر تماماً بالارتباط مع فاوست. فالشخصيات الثلاث كلها كانت تمثل حالات إنسانية عامة - المتعة (دون جوان) والشك (فاوست) واليأس (اليهودي التائه) - وبالتالي كانت حاضرة على النحو المعهود في كل عصر، وثنياً كان أو مسيحياً: «تمثل الأفكار الثلاث الكبرى، إذا جاز التعبير، أشكال الحياة الثلاثة في غياب الدين، ولا تظهر الأخلاق والدين أول مرة إلا عندما تصبح هذه الأفكار موضع وساطة وتدخل حياة الفرد». لذا يكون الشك لا مفر منه ومنتجاً على السواء. وهكذا فإنه كما كتب كيركغارد في رسالته إلى بي. دبليو. لوند: «إن العنصر الفاوستي هو الذي يفرض نفسه بقدر يزيد أو يقل في كل تطور فكري... ومثلما كانت لدى أسلافنا إلهة للحنين كذلك فاوست، على ما أظن، يقف بوصفه تجسيداً للشك».

لاستجلاء شخصية فاوست في شكلها الحالي كان على كيركغارد أن يحدد

العصر الحاضر، وفعل ذلك بواسطة هرمية ثلاثية كلاسيكية. في قاعدة الهرم وضع الثمالة، أشكال البؤس التي سماها أرسطو praktikoi (براكتيكوي)، من الكادحين والفلاحين الذين ضيَّعوا أنفسهم في نشاطات مادية محضة - بما في ذلك تربية أطفالهم ليكونوا «مستهلكين أشداء» - فكانوا يعيشون حياتهم في عدم مبالاة لا يعرف الهموم. وخلص كيركغارد إلى «إن من النادر أن يظهر أي شيء فاوستي بين هؤلاء الأشخاص»، وكان محقاً في ذلك بكل تأكيد. وكان الوضع أفضل في منتصف الهرم، المأهول بمثقفين اعتياديين ومؤرخين وعلماء طبيعيين لكنهم مشغولون بحيث لم يظهر العنصر الفاوستي في الحقيقة - بل لو حدث ذلك مع هؤلاء فإن «طاقتهم يجب أن تُشل أولاً بطريقة أو أخرى». وتتربع على قمة الهرم مجموعة خاصة «تحاول حدسياً أن تفهم التعدد اللانهائي للطبيعة، للحياة، للتاريخ، بنظرة جامعة». وبما أن المعرفة تنمو نمواً انفجارياً في العالم الحديث بحيث لا أحد، ولا حتى الأقوى عزيمة، يعود قادراً على مواكبتها فإن «العنصر الفاوستي يظهر كيأس سببه العجز عن فهم التطور بأكمله في رؤية شاملة للعالم».

تراتبية كيركغارد ليست قوية بصفة خاصة في ظلالها، ولكنها مثيرة للاهتمام لأنها تبين كيف ينحرف الشك الفكري باتجاه نفسي ليرتبط باليأس الذي هو في الحقيقة مضمار «اليهودي التائه»، بل إن كيركغارد كتب في فقرة من يومياته أواخر آذار/ مارس 1835: «كثيراً ما تسمع أشخاصاً يقولون إن فلاناً دون جوان أو فاوست ولكنه في أحيان كثيرة لا يكون «اليهودي التائه». ولكن ألا يجب أن يوجد أيضاً أفراد على وجه التحديد من النمط الذي يكون لديهم هم أنفسهم الشيء الكثير للغاية من جوهر اليهودي التائه؟» كان السؤال خطابياً. فإن مثل هؤلاء الأفراد موجودون في الحقيقة، ومن الواضح أن كيركغارد كان يماهي نفسه مع هذه الشخصية. فشخصية مثل اليهودي التائه لا تنسجم مع النظام، وكان هذا يناسب كيركغارد على أحسن وجه لأن اهتمامه بفاوست ينبع بدرجة كبيرة من «عدم التوافق» الذي يتسم به المثقف في العالم الحديث. ومن هذه الناحية يكون كيركغارد القريب الفكري للتهكمي الرومانسي الناجمة معاناته عن تَعَبه من العالم - حالة ميؤوس منها بقدر ما هي مستعصية على الانتقال، وهذا عموماً يقود إلى الكارثة والموت المفاجئ. وفاوست من هذا النمط يجب أن يصر على حقوقه بوصفه فرداً استثنائياً، وبالتالي يجب أن يعارض

المنظومة الفلسفية الهائلة التي ألغت التناقضات بكل أشكالها، مثلما يجب عليه أن يضمر كراهية تكاد أن تكون مهووسة للسذاجة التي يتآلف بها شبه المثقف البورجوازي مع العالم وكأنه مكان وديع، معقول، ومعنى الحياة يمكن أن نجده في حضن الحياة العائلية المنجَّد تنجيداً حسناً.

بمرور الوقت أخذ فاوست الذي يتسم بهذا اللاتصالح الكبير يلوح أكبر فأكبر في يوميات كيركغارد دافعاً نسخة غوته الأكثر تصالحية لهذه الشخصية إلى الظل. وهكذا فإن كيركغارد حتى في وقت مبكر مثل تاريخ رسالته إلى بي. دبليو. لوند لاحظ «أنها خطيئة بكل تأكيد ضد الفكرة [فكرة فاوست] حين يسمح غوته لفاوست بالهداية». وعلى الغرار نفسه، بعد خمسة أشهر على وجه الدقة، في 1 تشرين الثاني/ نوفمبر 1835، كتب كيركغارد: «كان سيغبطني كثيراً لو أن غوته لم يواصل فاوست قط. وكنتُ سأعتبر ذلك أعجوبة. ولكن الضعف البشري خذله هنا... والهداية تحديداً هي ما يجره للهبوط إلى المستوى الأكثر ابتذالاً». فاوست الذي لم يعد يائساً بشأن شكه ليس فاوست بل مهتدٍ هرطوقي، مرتد يتخيل إنه متصالح مع عدم تصالحه.

وهكذا كان هناك جوهر أعمق في النسخة القروسطية من فاوست التي عرفها كيركغارد أول مرة في تشرين الأول/ أكتوبر 1836. وفي متجر، رقم 107 شارع أولكيغاده، الذي تملكه أرملة ورَّاق اسمها تريبلر اشترى كيركغارد كتاب جيب دنماركي عن فاوست. وكان الكتاب طبعة مختصرة جداً من كتب أقدم عن فاوست، كلها مستقاة من الطبعة الألمانية الأصلية لعام 1587. ولكن نظرة واحدة على صفحة العنوان مع صورة نصفية لفاوست كانت كافية لإقناع كيركغارد بأنه بكل بساطة «يجب» أن يمتلك الكتاب:

كبير ممارسي الفنون السوداء الشهير عالمياً

الساحر الدكتور يوهان فاوست والحلف الذي

عقده مع الشيطان وحياته المدهشة وهلاكه المخيف

حُفظت نسخة كيركغارد من الكتاب، ويمكن أن نرى من التشديدات الكثيرة والملاحظات الهامشية إنه قرأ الكتاب بعناية فائقة. وفي إحدى نزهاته مشياً على الأقدام في المدينة خلال الربيع التالي وقع على الكتاب في واحد «من أدنى متاجر الكتب مستوى» حيث وجد من «المؤثر» جداً أن «تُعرض أعمق

الأشياء للبيع إلى أبسط طبقات الشعب» بهذه الطريقة المتواضعة. فإن فاوست كان للأرستوقراطيين، وكيركغارد كان على وشك أن يصبح واحداً منهم. وبعد ست سنوات، حين كان كيركغارد يشتغل على مخطوطة «المراحل الآنية للإيروتيكي» (من عمله إما/ أو، الجزء الأول)، الذي يجسد فيه فاوست ودون جوان الشيطاني في شكليه الفكري والحسي على التوالي، تذكَّر كتاب الجيب عن فاوست: «هناك كتاب جيب عنوانه معروف حتى إذا كان الكتاب نفسه يُستخدم قليلاً، الأمر الغريب بصفة خاصة في أزمنتنا حين نكون منشغلين كل هذا الانشغال بفكرة فاوست... والحق أن كتاب الجيب هذا يستحق الاهتمام. ففيه، أكثر من أي شيء آخر، أمر يُمتدح على أنه صفة نبيلة في نبيذ: له عبير، معتَّق، قروسطوي ممتاز، وحين يُفتح يواجِه المرء بأريج لاذع، لذيذ ومتميز حتى إن المرء يشعر إنه غريب تماماً».

ولكن كيركغارد، إلى جانب اللغة الاستعارية المنتشية، يسمح لنفسه ببضع ملاحظات قاسية عن «مرشح لمنصب مساعد بروفيسور أو بروفيسور» يحاول «أن يقدم أوراق اعتماده في بلاط الجمهور القارئ بنشر كتاب عن فاوست يكرر فيه بأمانة ما قاله جميع حملة الليسانس والمقبلين على سر الميرون». قد تبدو النبرة المريرة غير مبرَّرة ولكنها لا شك تُعزا إلى الظرف المتمثل في أن كيركغارد لم يكن الشخص الوحيد الجالس وراء مكتبه يشتغل على موضوعة فاوست بل إن مارتنسن نشر في عام 1836 عمله «عن فاوست ليناو» [إشارة إلى ما كتبه ليناو عن فاوست] في شتوتغارت بالاسم المستعار «يوهانز م – ن». وعلم به كيركغارد بعد فترة ليست طويلة، وفي ملاحظة غفل من التاريخ سماه «مقالاً صغيراً بقلم يوهانز م – (مارتنسن) عن فاوست ليناو». ويبدو أنه كان قادراً على معرفة الاسم المستعار: «م» الحرف الأول من مارتنسن. ولكن الظاهر أن كيركغارد في الحقيقة لم يدرس عمل مارتنسن لأنه كانت لديه، على ما يُفترض، مادة غنية يشتغل عليها بالارتباط مع دراساته هو عن فاوست، التي كانت جارية حينذاك. ولاحقاً، على قصاصة أخرى غفل من التاريخ، كتب: «أوه، كم أنا سعيد – مارتنسن كتب مقالاً عن فاوست ليناو!» واقترن هذا الهيجان اليائس باعتراف مرير: نعم، صحيح! كل شيء ألمسه يتحول عندي كما تتحول الأشياء في قصيدة اسمها «مزمار الصبي السحري»

صياد نفخ بقوة في مزماره

نفخ بقوة في مزماره
وكل ما نفخه ضاع

تغير مزاج كيركغارد بصورة مفاجئة. وفي حزيران/ يونيو 1837 نشر مارتنسن مقاله باللغة الألمانية في نص أُعيد اشتغاله بالدنماركية تحت عنوان «ملاحظات عن فكرة فاوست، مع إشارة إلى فاوست ليناو». وبقي تحليل عمل ليناو مركز الاهتمام ولكن مارتنسن أخضع في مدخل عمله فكرة فاوست كلها لمعاينة دقيقة واضعاً إياها في سياق فكري - تاريخي أوسع تضمن - للأسف! - أهم نقاط كيركغارد، وهي أن فاوست القروسطي فاوست حقيقي في حين أن فاوست غوته تزوير يقلل الرهانات حاملاً بصمة مذهب وحدة الوجود في ذلك العصر، إلخ.

نشر مارتنسن مقاله في مجلة بيرسوس Persus التي كان يصدرها هايبرغ، وكتب سيبَّرن مراجعة مستفيضة وتكاد أن تكون أنيسة في المجلة الأدبية الشهيرة ذات السمعة الرفيعة. وكان هذا بحد ذاته هزيمة مني بها كيركغارد الطموح ولكن كان هناك تطور آخر، تقريباً لا يُطاق: أقام مارتنسن خلال إجازته الدراسية في أوروبا التي استمرت سنوات، في فيينا حيث أصبح صديق الكاتب ليناو (الذي كان اسمه الحقيقي نيكولاوس فرانتس نيمبيش أيلدر فون شتريلناو Nikolaus Franz Niembsch Edler von Strehlenau). بعد ذلك سافر مارتنسن إلى باريس حيث التقى الزوجين هايبرغ، وفي مذكراته يُعطي وصفاً مفتوناً للقائهم الحقيقي الأول حتى إن القارئ تذهب به الظنون إلى أن مارتنسن الذي كان خلاف ذلك وصولياً يخطط بحساب، يمتلك قدرة معينة على العفوية والانفتاح أيضاً. وحين التقوا أول مرة في الفندق الذي يقيم فيه الزوجان هايبرغ لاقى مارتنسن استقبالاً حاراً، وبعد ذلك بفترة وجيزة كانا يتبادلان الآراء عن هيغيل الذي «قدمه هايبرغ إلى الدنمارك، كما هو معروف» (على حد قول مارتنسن). وكانت لويزة ابنة الأربعة وعشرين عاماً تستمع بانتباه طارحة بين حين وآخر أسئلة أبقت الحديث حياً وجعلت روح زوجها المرهفة تتألق متوهجة. مر الوقت سريعاً ونال منهم الجوع فغادروا إلى باليه رويال Palais Royal واتخذوا أماكنهم في مطعم فيفور Vefours أكلنا ببهجة ولم يبخل هايبرغ بالشمبانيا. واستمر النقاش الفلسفي على العشاء لكنهم تطرقوا إلى مواضيع

جمالية أيضاً، بينها شعر شكسبير، الذي كان مارتنسن معجباً به رغم إن هايبرغ وجده مزوقاً. بعد العشاء البهيج تنزه الثلاثة في حدائق باليه رويال حيث ناقشوا لأول مرة المسرح المعاصر ثم تحدثوا عن الشعر الدنماركي، وهو موضوع أثير بصفة خاصة عند هؤلاء المغتربين. وفيما كانوا يتنزهون حول إحدى النافورات غنت لويزة «ذات يوم في الصيف خرجتُ أسمع». مارتنسن لم يسمع الأغنية قط من قبل ولكنه حفظها بمساعدة لويزة. وحين عادوا إلى الفندق انتقل النقاش إلى أغاني بيلمان Bellman التي تتألف من الجمع بعبقرية بين الفرح الغامر والحزن العميق. وكانت معرفة مارتنسن بعمل بيلمان ابتدائية لذا أخذ هايبرغ «غيتاره» وعزف بعض الأنغام عسى أن يسمع مارتنسن ما يُفترض أن يفهمه فيما يتحدثون عنه. وبالفعل أنشدت لويزة تلك الغنوة الصيفية مرة أخرى وبجمال حتى إن مارتنسن أُجبر على الاستسلام والاعتراف قائلاً «نُقِلتُ إلى عالم آخر».

ذلك اليوم الذي لا يُنسى في باريس كان بداية صداقة دامت سنوات طويلة وكانت عند مارتنسن ذات «أهمية بالغة لتربيتي الإنسانية بأكملها وخاصة تربيتي الجمالية»، حتى أنه كان عاجزاً تماماً عن تقدير مدى أهميتها ولذلك قال إنها «لا تُقدَّر». وكانت هذه مفردة حسنة الاختيار رغم إبهامها لأن التأثير كان في الحقيقة والواقع تأثيراً متبادلاً، بل كان لمارتنسن تأثير عميق ومديد في هايبرغ الذي كان في الأصل ليبرالياً تماماً بآرائه ولكنه أخذ يميل إلى اليمين الهيغيلي وباتجاه النزعة السياسية المحافظة التي تنتمي إلى هذا الموقف الفلسفي. ولاقت هذه النزعة المحافظة هوى عند ياكوب بيتر مينستر ويوست بولي صهر مينستر الذي أصبح منذ أوائل أربعينات القرن التاسع عشر من المترددين بانتظام على بيت هايبرغ. وجعل تحالف هايبرغ – مارتنسن الأجواء الفكرية حتى أضيق، إذا أمكن ذلك، مما كانت، بل أشبه بالمافيا. وهكذا، بعد فترة قصيرة على عودة مارتنسن إلى الدنمارك، نشر في المجلة الأدبية الشهرية مراجعة إيجابية جداً لعمل هايبرغ «محاضرة تمهيدية لمنهج تدريس المنطق الذي بدأ في تشرين الثاني/ نوفمبر 1834 في الكلية العسكرية الملكية»، فيما قام هايبرغ في 12 تموز/ يوليو 1837 بدور الخصم الخارجي حين دافع مارتنسن عن رسالته الأكاديمية في اللاهوت لنيل الليسانس بعنوان «استقلال الوعي الذاتي البشري في اللاهوت العقائدي المعاصر». وفي 21 نيسان/ أبريل 1838 عُين مارتنسن الذي كان عمره بالكاد ثلاثين عاماً بمنصب مساعد بروفيسور في قسم اللاهوت. وهكذا بدأ حياته

الأكاديمية محاضراً محبوباً بشكل غير اعتيادي، وصفها باعتزاز لا يهتز بنفسه على النحو الآتي: «من دون مبالغة، يمكن وصف تأثير محاضراتي بأنه كبير واستثنائي» بل، كما يواصل، إن من بين «الذين أصبحوا أتباعي في ذلك الوقت» يمكن تعداد «كثيرين» من الذين هم اليوم «أبدع الرجال في الكنيسة الدنماركية».

في عام 1838 كان كيركغارد لم يزل طالب لاهوت ولُفظت تعليقاته على مراجعة مارتنسن لعمل هايبرغ من خلال الأسنان المصرورة لشخص جرى تجاهله: «مقال مارتنسن في المجلة الشهرية مقال غريب تماماً. فهو بعد أن قفز على جميع سابقيه تقدم والجاً لانهاية غير محدَّدة». وكان موقف كيركغارد غير محدَّد بقدر لا يقل عن موقف مارتنسن ولكن، في كل الأحوال، كانت محاولته للإتيان بنظرية عامة عن فكرة فاوست، محاولة فاشلة. وكانت هذه أول انتكاسة أكاديمية تعرض لها وساعدت في إرساء الأساس لكره زمرة هايبرغ، وهو شعور تنامى بمرور الوقت حتى إنه اكتسب أبعاداً تكاد تكون بشعة.

هكذا، إذاً، كان ابن قبطان السفينة مارتنسن وليس ابن تاجر الجوارب كيركغارد مَنْ كافأه هايبرغ بأكاليل الغار، وكان الألم ممضاً للمهزوم، وعلى الطريقة الفاوستية إياها، كان ذلك سبباً للشعور باليأس! وكان من دواعي النقمة بحق بل يكفي لجعل الدم يغلي في العروق، إن مارتنسن وجميع نماذج الفضيلة المهذبين الآخرين الذين درسوا فاوست وكانوا يعبدونه، لم يشكوا قط شخصياً، بطبيعة الحال، أو يشعروا باليأس إزاء أي شيء يُذكَر بل كانوا يتأملون ويحاضرون ويعلنون أفكارهم المغسولة والمكويّة حديثاً في رسائل أكاديمية يقدمونها إلى بعضهم البعض بهدف واحد هو ارتقاء السلَّم الوظيفي. وبخلاف كيركغارد لم يتأثروا وجودياً قط ببصائرهم الفاوستية المخيفة بل كانوا مجرد يقفون هناك في القسم الكائن في المبنى رقم 3 شارع بروغاده، يغرسون الذوق الرفيع والسلوك اللطيف في نفوس بعضهم بعضاً حتى انتهى بهم المآل ناسين إنهم هم أيضاً جزء من الطبيعة، مصنوعون من فطرة وأخلاق وتراب.

معركة أقبية الصابون القديمة والجديدة

أسوأ ما في مارتنسن أنه كان على درجة عالية من الاقتدار، لا بوصفه أكاديمياً فحسب بل في حركاته التكتيكية أيضاً. وخلال إجازته الدراسية التي شملت إقامات مديدة في برلين وهايدلبيرغ وميونيخ وفيينا وباريس تمكن من

وضع قدمه عملياً في باب كل شخصية لاهوتية وفلسفية مرموقة. وبموهبته حسنة التطور على نحو خاص في صيانة وظيفته، حرص على العودة إلى كوبنهاغن مع افتتاح «مهرجان الإصلاح الديني» في عام 1836 حين كان يستطيع أن يرى مرة أخرى - وأن يُشاهَد مع - اللاهوتي الكبير فيليب مارهاينيكة Philipp Marheneke الذي تعرَّف عليه في برلين.

كان رد فعل كيركغارد على مارتنسن بوصفه تابع معلم متسلط، تماماً كما هو ديدنه. فهو لم يشن هجوماً أكاديمياً على مارتنسن المزعج بل لجأ بدلاً من ذلك إلى جنس من الكتابة يعرف حق المعرفة إن مارتنسن لا يملك دفاعاً ضده، وهو السخرية. فكتب عشر صفحات أو نحو ذلك في مجلته وكانت النتيجة أشبه بذلك النوع من المسرحيات الهزلية التي يكتبها الطلاب ويمثلونها لتسلية بعضهم البعض. وكانت المسرحية في ثلاثة فصول وصفها كيركغارد بأنها «دراما بطولية - وطنية - كوزموبوليتانية - خيرية - جبرية - في عدة حلقات». وأوضح أن المسرحية «في البداية مرحة بصورة جادة ومع تقدمها تصبح حزينة جداً لكنها تنتهي نهاية سعيدة جداً». وكتب العمل كله بعنوان «معركة أقبية الصابون القديمة والجديدة».

لا نعرف متى على وجه الدقة كُتبت المسرحية ولكن ليس هناك أي شك في لماذا كُتبت. وكانت مناسبة كتابتها الامتعاض من استخدام بعض المثقفين تعابير هيغيلية بطريقة ميكانيكية وتأليه الفلسفة الذي بلغ، كما سبقت الملاحظة، نوعاً من الذروة المثيرة للغثيان في مراجعة مارتنسن لعمل هايبرغ «محاضرة تمهيدية»، الذي قرأه كيركغارد على ما يُفترض فور نشره في كانون الثاني/ يناير 1837. ويبدو أن فقرة في اليوميات بتاريخ 4 شباط/ فبراير 1837 تشير إلى أن كيركغارد كان يشتغل على عمله الساخر عن أقبية الصابون، وإن الكاتب المسرحي الذي تنقصه الخبرة كان يفكر في فن «كتابة سطور مسرحية بحق»، الشيء الذي يتطلب على ما يبدو «أن يكون الشخص بلغ قدراً كبيراً من الوضوح وتخطى العموميات والإبهام الضبابي». وتضمنت المسرحية مؤشرات صورة قلمية عفوية والأرجح أنها لم تشغله طويلاً. ومن الجائز إنه أنجز كتابتها في وقت مبكر لا يتعدى نهاية آذار/ مارس، ولكنه في كل الأحوال فرغ منها بحلول 29 آذار/ مارس 1837 حين فتح يومياته للشروع في الكتابة على الأوجه المقلوبة للصفحات، من الأخيرة إلى الأولى (كما كانت عادته)، وبدأ سلسلة من الفقرات التي لا تمت بصلة إلى المسرحية الساخرة.

في الحقيقة إن مسلسل كيركغارد المسرحي ذو علاقة بالصابون. إذ كانت توجد في ميدان غرابرودريتورف (الذي كان يُسمى أولفيلدز بلادز حتى عام 1842 وتشوَّه بنصبٍ للعار أُقيم إحياءً لذكرى خيانة كورفيتز أولفيلدت Corfitz Ulfeldt) أكشاكٌ صغيرة ودكاكين متخصصة بينها عدد من المصالح تقع في أقبية حيث كان أشخاص يغلون الصابون ويبيعونه. وكان تجار الصابون هؤلاء يحاولون التفوق على بعضهم البعض بيافطات قوية. فكان أحدهم يسمي دكانه «قبو الصابون القديم» وآخر «قبو الصابون القديم حقاً» وتاجر صابون ثالث وضع يافطة تحمل الرسالة التالية: «هنا قبو الصابون القديم حقاً حيث يعيش أهل الصابون القدماء حقاً». ورفع منافس شديد في الدكان المجاور، وإن لم يكن يجيد التهجئة، يافطة تحمل رسالة ما بعدها رسالة، مع إعلان فوق درجات السُلَّم المؤدية إلى قبوه، يقول الآتي: «هنا يوجد قبو الصَبون الجديد اللي انتقال إليه أهل الصبون القدماء». وكان الناس يضحكون على هذه الحماقات الجشعة، وكانت لبعض الوقت موضوعاً شعبياً للحديث، بل إن تعبير «معركة أقبية الصابون القديمة والجديدة» ذاته أصبح تعبيراً شائعاً. واستخدم كيركغارد هذا التعبير لأول مرة في فقرة من يومياته بتاريخ 10 آب/ أغسطس 1836 ذهب فيها إلى «أن المعركة بين التقليديين والعقلانيين يُمكن أن تُفسَّر على أنها معركة بين أقبية الصابون القديمة والجديدة» لأن هناك في الحالتين على السواء «كماً كبيراً من المصطلحات».

كان الحديث عن أقبية الصابون يشير إلى مواقف لا تختلف اختلافاً حقيقياً بينها بل جدالات ومساومات من النوع الذي لا معنى له. كما إن القطعة التي كتبها كيركغارد لا تصف معركة بين مدارس متنافسة بل تقدم مشهداً للامعقول الذي دائماً يصاحب الفلسفة حين تفقد الفلسفة صلتها بالواقع.

رغم إن العنوان مناسب على النحو الأمثل للسخرية من الاحتكاكات الفلسفية الكاذبة بين مثقفي ذلك الزمن فإن الشكوك ظلت تساور كيركغارد لبعض الوقت بشأنه لأن عنوان أقبية الصابون «يحوي شيئاً من المغازلة»، كما بد له. لذا فكر في إعطاء عمله الساخر اسماً يحوي قدراً أقل من الغزل على ما يبدو: «المناظرة الشاملة حول كل شيء ضد كل شيء أو كلما زاد الجنون كان ذلك أفضل». وهنا أيضاً يتبدى الهراء المجرد واضحاً في العنوان، ولكن هذا ربما بدا تهريجياً أكثر مما ينبغي بعض الشيء لأن كيركغارد بعد فترة قصيرة على

ذلك اقترح تغيير العنوان (مرة أخرى) إلى «من أوراق واحد ما زال على قيد الحياة، نشرها أس. كيركغارد ضد إرادته» - وهو عنوان صُرف النظر عنه أيضاً ولكنه زيَّن (بشكل منقح قليلاً) صفحة العنوان في أول مطبوع مستقل ينشره كيركغارد، وهو كتابه عن هانز كريستيان أندرسن، الذي صدر بعد ما يربو قليلاً على عام.

بالإضافة إلى عدد غير محدَّد من «الطلاب البوليتكنيكيين» و«تجار الجملة» و«أحد المارة» و«فنان يتكلم من بطنه» وأخيراً «بوق» يقوم بمهمة «الناطق باسم الرأي العام» فإن شخصيات المسرحية هم:

- فيليبالد، شاب
- إيخو، صديقه
- مستر فون جامبنغ جاك، فيلسوف
- مستر هاريسون، عبقري في الوقت الحاضر
- مستر فريز، مغامر، عضو عدة جمعيات لأهل العلم، ومساهم في مجلات كثيرة
- مستر أولي فادت، مستشار عسكري نشيط ومعلم كتابة سابق

ذبابة كانت ذكية بما فيه الكفاية للنوم شتاء مع الراحل هيغل، وخلال كتابة عمله «فينومينولوجيا الروح» كانت محظوظة بما فيه الكفاية للجلوس على أنفه اللا أخلاقي في مناسبات متعددة.

يجب، بالطبع، أن نتوخى الحذر في محاولاتنا مماهاة هذه الشخصيات الخيالية بأشخاص حقيقيين ولكن لا يجوز أن ننسى أيضاً إن العمل الساخر يفقد قوته الهزلية إذا لم يتمكن المرء من التعرف على الأشخاص، لذا من المؤكد أن كيركغارد كان يتقصد أن يجعل التعرف عليهم ممكناً قدر الإمكان. فالأرجح إن مستر فون جامبنغ جاك هو هايبرغ، ومستر فريز، تلميذ فون جامبنغ جاك الوفي الذي يُسمى «مغامراً» (أي، جندي مرتزق) هو مارتنسن. واستل كيركغارد العديد من التعابير والمصطلحات من مراجعة مارتنسن لعمل هايبرغ وأدخلها في القسم الأخير من مسرحيته. ولمستر هاريسون اسم أول هو «هولا» الذي يشبه بصورة الكلمة وصوتها اسم «أورلا»، كما في «أورلا ليمان» في حين أن أولي فادت قد يكون جَي. أف. غيودفاد. وليس مؤكداً إن كان المفترض بأن

يمثل إيخو شخصية هنريك هيرتز ولكن ذلك جائز، مثلما لا نستطيع أن نستبعد تماماً وجود شبه معين بين فيليباد وكيركغارد.

المسرحية نفسها طلابية على نحو مُغتَفر، بلا تطور درامي من فصل إلى الفصل التالي. وفي الفصل الأول الذي لا علاقة سردية له ببقية المسرحية، يترك فيليباد ملتقى اجتماعياً وهو حاقد لأن صديقه إيخو أضحك الحاضرين بإمطارهم بطرائف مسروقة من فيليباد نفسه. وإذ تعب فيليباد من إيخو وممن يُسمَّون أصدقاء عموماً، يختار الرحيل عن سطح الكرة الأرضية، وبناء على التوجيهات المسرحية سرعان ما يجد نفسه في «منطقة الفانتازيا»، وهي نوع من اليوتوبيا الفلسفية تُسمى «بريتانيوم» Prytanium كل شيء فيها «منَظّم ثلاثياً» وبذلك توفير تمثيلات بصرية للمثلثات في فلسفة هيغل. يتجادل أولي فادت وهولا هاريسون بحدة حول «قضايا وطنية» ولكنهما سرعان ما يغرقان في مصطلحات أنيقة – أو غير أنيقة. ويفكر مستر فون جامبنغ جاك ومستر فريز في إقامة شراكة مع هاريسون لجعل نتائج العمل الأكاديمي في متناول الجمهور العام. وعلى حد تعبير فريز فإن «التطورات في زمننا يجب أن تكسب في السعة ما تفقده في الكثافة». ولكن فون جامبنغ جاك ينظر بعين الريبة إلى ذلك رغم أن شكوكه، كما يصر بأبهة، «ليست شعبية بأي حال من الأحوال»: «إنه ليس شكاً في هذا أو ذاك، في هذا الشيء أو ذاك – كلا، إنه شك لا نهائي». وللتأكد من ألا تكون لدى أحد شكوك من نوع الشك الذي يدور الكلام حوله فإنه يشرح مقاطع من مراجعة مارتنسن لعمل هايبرغ «محاضرات تمهيدية»، خابطاً في لغتها الفلسفية خبط عشواء. والأسوأ حظاً هو المصطلح الشهير de omnibus dubitandum كل شيء يجب أن يكون موضع شك، الذي يصبح على لسان فون جامبنغ جاك، بزلة لسان فرويدية، de omnibus disputandum كل شيء يجب أن يكون موضع جدل. وبحسب فون جامبنغ جاك، المرتبك بصورة متزايدة، فإن هذه العبارة بدورها هي الأطروحة التي اقترحها ديكارت بديلاً عن الأطروحة القائلة de gustibus non est disputandum لا مراء في الذوق. وهذا لغو مُبين ولكن فريز المهتم برد فعل فون جامبنغ جاك يسارع إلى التوضيح بأنه قطعاً لا يعتقد أنّ على المرء، بكل بساطة، أن يكتب «للفلاحين» بل «للطبقات الوسطى المثقفة وتجار الجملة والطلاب البوليتكنيكيين». ويؤيد وجهة النظر هذه فادت الذي أهم شيء عنده هو «الأسلوب» و«شكل الكتابة» في حين إن

فون جامبنغ جاك، من الجهة الأخرى، يتخذ موقفا برغماتياً بالكامل: «فلسفة أكون فيها فوق من جانب وفلسفة أكون فيها تحت من الجانب الآخر. المسألة لا تتعلق بالفلسفة بل بقضايا عملية، بقضايا حياتية - باختصار، الحياة نفسها». وبما إن هذا موضوع شامل، يعقب ذلك حديث طويل عن كيف ينبغي حقاً أن نُعرّف الحياة. ثم يعلن فريز «إن الحياة انطلاق من ذاتها وعودة إلى ذاتها» مقتبساً بعض المقاطع الشهيرة من تعريف البروفيسور أف. سي. سيبَّرن الذي طوله ميل - وبلا أي حياة على الإطلاق - وعلى طلاب الجامعة حفظه على ظهر غيب إذا كانت حياتهم منكودة بحيث يتعين عليهم أن يؤدوا الامتحان في علم النفس.

في غمرة هذه الحوارات يدخل فيليبالد. ينظر حوله بدهشة لكنه سرعان ما يرمي نفسه على الأرض، التي يقبلها بفرح خالص لتحريره من «النسبية البغيضة» التي اتسمت بها حياته السابقة. ويقترب بإجلال من فون جامبنغ جاك الذي يعلن بلا مزيد من المعاينة إن فيليبالد يعاني من «الفاوستية». ويعتزم فون جامبنغ جاك الاستطراد حول الموضوع فيتحلق أهل «بريتاريوم» الآخرون حول المسرح للاستماع. ويشكر فريز بتزلف فون جامبنغ جاك على السماح له بالاستماع إلى هذه المحاضرة الفلسفية للمرة المليون، ويرد فون جامبنغ جاك الجميل بأن يلوح له باحتمال أن يُعيَّن ذات يوم «محاضراً في أحد بلدان شمال أوروبا». ويستغرق فون جامبنغ جاك الآن في ثرثرته التأملية التي يحاول رئيس «بريتاريوم» مراراً وضع حد لها مستدعياً حتى اثنين من الفراشين لمساعدته. ولكن المحاضر الراضي عن نفسه يسد آذانه بوجه مناشدات الرئيس ويستمر في محاضرته بإبهام عن سبينوزا وكانط وفيخته وشلايرماخر، وبالطبع العملاق هيغل: «الآن انتهيتُ، ومع هيغل ينتهي تاريخ العالم. خذوني بعيداً لأنه لم يبق شيء الآن سوى الميثولوجيا وأنا نفسي سأصبح شخصية ميثولوجية».

هنا يجرؤ فريز، الدمث عادة، على التقدم باعتراض طفيف. فهو يجد ملاحظة فون جامبنغ جاك الأخيرة وحيدة الجانب إلى حد بعيد، وعلى غرار مارتنسن تماماً يعلن إنه نفسه تجاوز هيغل: «لا أستطيع بعد أن أقول إلى أين عليَّ أن أذهب ولكني ذهبتُ أبعد منه». ولكن رئيس بريتاريوم لا يريد «أن تتوتر الأمزجة» فيطلب من الجميع أن يغادروا. ويُرشَد فيليبالد إلى «كلية تاريخ العالم» التي لم تُنجز بعد ولكن الباحة وحدها فسيحة حتى إن أربعة بروفيسورات يستطيعون أن يقفوا هناك ويحاضروا دون أن يزعجوا أحدهم

الآخر - بل أنها كبيرة بحيث إن الحاضرين لا يستطيعون أن يسمعوا ما يشرحه الأساتذة «رغم الحقيقة الماثلة في أنهم يمسحون باستمرار العرق المتصبب من جباههم التي تَهرَّأت من شدة كدحهم».

ومن دون أي انتقالة يكون المشهد التالي مشهد اجتماع عام يناقش فيه الحاضرون، بشيء من القلق، مغزى حقيقة لاحظها فيليبالد وهي أن الشمس على ما يبدو لا تغير مكانها أبداً في «بريتانيوم». ويطلع هاريسون بسلسلة من الكليشيهات الغروندتفيغية عن «ضوء الصباح» و«السنوات الذهبية» فيما يجادل فون جامبنغ جاك بأن «ضوء المساء» الدائم سيكون أنسب في «بريتانيوم» بقدر ما تؤشر الفلسفة، بالطبع، غسق الحياة الذي لا بد أن يكون «بدأ في تاريخ العالم» مع هيغل. ويكرر فريز عبارته ويصر مرة أخرى على أنه ذهب أبعد من هيغل. «الدولة جهاز استقطابي»، كما يستفهم طالب بوليتكنيكي دون سبب ظاهر ولكن فون جامبنغ جاك يسارع إلى تصويبه: «الدولة كائن عضوي». ويصبح الجو مكهرباً بصورة متزايدة: «أنا أُناضل من أجل الحرية. لن نسمح لأنفسنا بعد الآن بأن يضطهدنا هؤلاء الفلاسفة المستبدون»، كما يهتف هاريسون، وبطريقة صائبة سياسياً يطالب بالتصويت على ما إذا كان يجب التصويت أو لا. وفي النهاية يتمكن فيليبالد من الكلام ويعلن أن النقاش يرتكز على سوء فهم: إنه لم يكن يفكر قطعاً في الشمس الفيزيائية الفعلية، ولكنه بملاحظته عن موقع الشمس الذي لا يتغير كان يشير استعارياً إلى «أبدية شعرية فلسفية كوزموبوليتانية، بدأت فعلاً - بالمعنى الروحي - في «بريتاريوم». وهكذا رغم إن إساءة فهم استعارة ما يمكن أن تكون قضية خطيرة فإن الأعصاب تهدأ والاجتماع العام يُؤجل».

في الفصل الأخير يتنزه فيليبالد في حي «بريتانيوم». وعلى النقيض من كل التوقعات فإنه اهتدى، وبعاطفة متصاعدة أبداً يتغنى صوته الشبابي بـ«الروح المطلقة» («أنتِ المقام اللانهائي لكل بَسْطٍ بشري») التي بدأ يتحسس الآن أبعادها بفضل جهود فون جامبنغ جاك. وحين تطن ذبابة لإلقاء محاضرة عن عدد من الفرضيات الهيغلية يدرك إن تاريخ العالم انتهى. لذا سيكون استحداث طريقة جديدة لحساب الزمن مناسباً ولكن بما أن الزمن يتوقف فإن من الصعب، بالطبع، التمييز بين الماضي والحاضر. وتنتظر مصاعب مماثلة كلَّ من يرغب في إحداث أي تغيير ولهذا يريد أولي فادت وفون جامبنغ جاك وفيليبالد إعطاء جمعية أهل العلم اسماً جديداً تماماً بيد إنهم لم ينجحوا إلا في قرارهم أن يطلقوا

على «بريتانيوم» اسم «بريتانيوم». وفي لحظة جرأة يقترح فون جامبنغ جاك أن يحلوا المشكلة بحذف الكتابة الأصلية لكلمة «بريتانيوم» ثم كتابة «بريتانيوم» مكانها ولكن هذا لن يكون مجدياً لأننا، كما يعلل فون جامبنغ جاك، لا نفعل سوى «العودة إلى الآني حيث لم تطور المعارضات الديالكتيكية نفسها بعد ولم تخترق بعضها البعض تأملياً». فطُرحت القضية بطبيعة الحال وعملاً بمقترح من أولي فادت يُقام نصب في ذكرى هذا اليوم الذي لا يُنسى بمصاحبة «أنخاب حماسية عديدة، ولا سيّما من فيليبالد». بعد ذلك تذكر المخطوطة: «النهاية».

كانت مسرحية أقبية الصابون الساخرة وتبقى عملاً تافهاً ما كان، بمونولوجاته اللاتينية الطويلة وتلميحاته المبهمة، لينجح على الخشبة، وربما بالكاد ينتزع ابتسامة صغيرة هادئة من قارئ أكاديمي. ومع ذلك فإن المسرحية الساخرة وثيقة جديرة بالملاحظة لأنها تبين كيف كان كيركغارد، بموهبته في الدعابة والحماقة، قادراً منذ وقت مبكر تماماً على استخدام السخرية رداً فلسفياً يجيب بضحك صادق حيث كان الآخرون يلجؤون إلى تثاقف مصطنع. وهكذا بعد عشر سنوات أوضح كيركغارد في عمله «حاشية ختامية غير علمية» إن «كل ما هو مطلوب» لتجاوز هيغل «هو فهم إنساني سليم وحس فكاهي حاد».

مسألة ما إذا كان كيركغارد درس بعناية كتابات هيغل نفسها أو عرف المفكر الألماني الكبير بصورة غير مباشرة، من مصادر هيغلية دنماركية، كانت موضع تكهن منذ زمن طويل. وفي كل الأحوال فإن مسرحية أقبية الصابون الساخرة تبين أنه إذا كان كيركغارد هيغلياً فإنه كان هيغلياً لا يعرف الاحترام على نحو غير معهود - الأمر الذي يعني أنه لم يكن في الحقيقة هيغلياً!

بول مارتن مولر

من حسن الحظ كان هناك بول مارتن مولر وهو رجل من لحم ودم ذو قلب طيب، ولم يكن من أُولئك الطلاب المتفوقين غير المتمرسين الذين لا يريدون إلا استعراض ذكائهم بمناسبة ودون مناسبة. مولر أيضاً كان من المترددين على بيت عائلة هايبرغ ولكنه بعد فترة أُصيب بتخمة من هذه الزيارات واختار طريقه الخاص. هايبرغ سماه «المرتد» لأن شكاً متنامياً كان يساوره بشأن هيغل الذي أصبح هدفاً لأعماله التخريبية بصورة متزايدة. لذا حين توجه طالب لاهوت شاب اسمه راسموس نيلسن Rsmus Nielsen إلى مولر متوخياً المزيد من

الوضوح في استيعابه المفاهيم الهيغلية، فوجئ بمولر مستلقياً على أريكة، تغطيه بطانية وينفث الدخان بكثافة من غليون طويل مليء بالتبغ. شرح الطالب نيلسن غرضه، وظل مولر دقيقتين يدخن بصمت مستغرقاً في التفكير لكنه فجأة أخرج الغليون من فمه وقال: «هيغل! نعم، أنه حقاً مجنون، يعتقد أنّ المفاهيم يمكن أن تأتي بنفسها - هكذا!»، وعندها نفخ مولر سحابة من الدخان في الغرفة.

كانت حركة جسدية لا تنم عن احترام، ولكن مولر لم يكن يأبه بالمنظومات الفلسفية وبـدلاً من «التفكير بلا إحساس» كان يشدد على «المصلحة الشخصية». وكانت لديه أسبابه اللافلسفية تماماً لذلك لأن حياته كانت مبتلاة بالمصاعب. إذ ولد مولر عام 1794 في قرية أولدوم قرب مدينة فايلة التجارية في يوتلاند ولكنه نشأ في قرية كوبيليف في جزيرة لولاند حيث كان والده راعي أبرشية. وبعد النجاح في امتحانات القبول في الجامعة درس مولر اللاهوت. وسيتيح له الحصول على وظيفة مضمونة في الكنيسة أن يتقدم للزواج من غريتة بلوخ، حبيبته من لولاند وزينة شبابه، ولكن حين طلب يدها رفضته واختارت ملازماً في الجيش بدلاً منه. وشرع مولر من شدة يأسه في رحلة إلى الشرق الأقصى دامت من 1819 إلى 1821. وعمل قساً بحرياً على متن السفينة التجارية كريستيانسهافن التي قيل إنه كان أحياناً يتسلق شراعها ويجلس القرفصاء هناك ويقرأ هوميروس وسيسيرو. وبدأ مولر أثناء وجوده على متن «ديره العائم» يكتب أقواله المأثورة (أو «أفكاراً عشوائية» كما كان يفضل أن يسميها بلغة دنماركية صريحة). وفي حرارة صيف مانيلا عام 1820 كتب قصيدة «ورود تحمرُّ خجلاً في حديقة الدنمارك» التي أصبحت من أشهر القصائد باللغة الدنماركية بعنوان «فرح فوق الدنمارك». وبعد عودته إلى الوطن في عام 1821 عمل سنوات عدة معلماً في المدرسة المتروبوليتانية ولكنه كان يبهج الناس أيضاً بما يكتبه من شعر ورواية. وفي عام 1824 ظهر مولر في اجتماع لجمعية الطلبة وألقى بصوت عالٍ مقطعاً من عمله «قصة طالب جامعي دنماركي» عن فريتز متقلب النزوات ذي الشعر الأجعد ومغامراته الغرامية. ومن 1826 إلى 1831 أمضى ست سنوات تعيسة في النرويج في جامعة كريستيانا، أولاً مساعد بروفيسور ثم بروفيسوراً.

كان مولر، مثله مثل بطله فريتز، متقلب الأهواء بعض الشيء وكانت زوجته بيتي تكافح محاولة أن يبدو زوجها غير المهندم بشعره الأشعث أستاذاً في الفلسفة كما كان فعلاً. وذات يوم حين كان واقفاً في ميدان غاميلتورف يتمعن

في ملصق، طلب منه بائع متجول أن يأخذ وزتين إلى زبون على الجانب الآخر من المدينة ولكن مولر امتنع بأدب قائلاً إنه ليس عاملاً يومياً وللأسف عليه أن يذهب ويلقي محاضرة في الجامعة! بيد إن تصرفات مولر لم تكن لائقة دائماً وفي أواخر تشرين الأول/ أكتوبر 1836 قام بدور الخصم في الدفاع عن رسالة أكاديمية لا يُعتد بها في كنيسة ريغينسن. فكتب ملاحظاته على عدد من القصاصات الورقية المتفرقة ودسها في النسخة التي أُعطيت إليه من الرسالة الأكاديمية. ولكن في غمرة النقاش سقطت الأوراق على الأرض وفي مشهد تابعه الجميع باستمتاع تعين على الأستاذ الكبير أن يزحف حول القاعة على يديه وركبتيه جامعاً القصاصات من جديد. وكان مولر يبدأ كل اعتراض بعبارة مرجعية هي graviter vituperandum أو (ينبغي الاعتراض بجدية) ولكنه ما أن يتلقى رداً على اعتراضه حتى يقول بطيبة (concede أتنازل) وينتقل إلى النقطة التالية. وبعد فترة قصيرة على غير المعتاد من المعارضة، أعرب عن أسفه مشيراً بتهكم لم يكن خافياً إلى أن اعتبارات تتعلق بالوقت تمنعه من الاستمرار في هذا الحديث الشيق. ثم نزل من المنصة وتوجه مباشرة إلى كيركغارد ليقول بهمس مسموع «هل نذهب إلى بلايش؟» فذهبا إلى بلايش، مقهى مولر المفضل في ميدان أماغيرتورف.

روى كيركغارد هذه الحادثة لهانز بروشنر الذي تذكر كيف كان كيركغارد دائماً يتحدث عن مولر «بأعمق آيات الإخلاص». وتابع بروشنر قائلاً: «إن شخصية بول مولر هي التي تركت أثراً في نفسه، أكثر بكثير من كتاباته. وإنه [كيركغارد] تأسى أن يأتي سريعاً الوقت الذي لم تعد أهمية مولر مفهومة فيه - بعد انطفاء الذكرى الحية لشخصية مولر وإطلاق الأحكام عليه بالاستناد إلى أعماله وحدها». كيركغارد لم يكن الوحيد المأخوذ بمولر بل يصح الشيء نفسه على اميل بويسن Emil Boesen الذي مر وقت قارن فيه إنجاز مولر بإنجاز مارتنسن، وخرج مولر منتصراً من المقارنة. والحق أن مولر كان في الواقع «أكثر تفوقاً بشوط بعيد» وذلك - على حد تعبير بويسن - لأن «شخصية بول، بالطبع، شخصية أقوى بكثير ولديه فكرة أشد ثباتاً عن العالم: نظرته إلى العالم كانت نتاج روحه على نحو أعمق بكثير».

ولكن قوى مولر خارت بعد أن نُكب بفقدان بيتي في عام 1845، وكان يُشاهد في أحد مقاهي المدينة يجلس ساعات محدقاً في العمود نفسه من الجريدة فيما قهوته تبرد. وتعين على الأطفال - أربعة أبناء - أن يعتمدوا على أنفسهم في

تدبير وضعهم، ولم يعد ما يشبه النظام إلى البيت إلا بعد أن تزوج مولر من إحدى صديقات بيتي. ولكن بعد فترة لم تدم طويلاً سقط مريضاً وفي عام 1837 تعين على البروفيسور ذي الصدر المنخور بمرض الربو أن يتوقف عن التدريس في الجامعة. وفي تشرين الأول/ أكتوبر من ذلك العام انتقل إلى شقة هنريك هيرتز القديمة في 17 شارع نيتوروف حيث بدأ يعمل على مبحث بعنوان «أفكار عن إمكانية تقديم براهين على خلود الإنسان». ولم يكد يُنجز المبحث حتى تُوفِّيَ صاحبه في آذار/ مارس 1838 قبل أن يبلغ الرابعة والأربعين من العمر.

لاحظ مولر في واحدة من «أفكاره العشوائية» إن «في ملكوت الفكر، يمكن تصنيف الإنسان مع الحيوانات المجترة»، وكان هذا يصح عليه بصفة خاصة. فالحق إنه كان يعمل ببطء استثنائي، لا يني يعيد كتابة ما كتبه، وينتهي إلى كتابة أشتات لا إرادياً في أحيان كثيرة. وعدا ترجمة مولر الكتب الستة الأولى من ملحمة الأوديسا فإنه كان قليل النشر في زمن حياته، ولم ينجح حتى في إنهاء «قصة طالب جامعي دنماركي». وقبل وفاته اختار أخاه غير الشقيق الشاعر كريستيان فينتر ليكون منفذ تركته الأدبية فيما كُلف أف. سي. أولسن F. C. Olsen بتولي نشر أعمال مولر الفلسفية والأكاديمية بعد وفاته. ولكن أعمال مولر الكاملة بقدر مقبول صدرت في «كتابات بعد الوفاة» في السنوات 1839 – 1842. واشترى كيركغارد الأجزاء الثلاثة حال صدورها ودرسها بعناية. وشكا لاحقاً من إن المحررين، بدافع من التوقير الخاطئ للفقيد، ميَّعوا موقف مولر النقدي من هيغل والهيغلية. وفي البداية كان مولر مفتوناً بهيغل ولكنه في النهاية كان يسلي نفسه صادقاً بالحنق عليه – بالمعنى الحرفي تماماً للكلمة.

«صور قلمية ذات طبيعة أخلاقية» – تصنُّع وخداع للنفس

يوم الأحد، 1 نيسان/ أبريل 1838، بعد أسبوعين على وفاة بول مولر استيقظ كيركغارد مبكراً، ثم غادر البيت ونظر إلى السماء. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم تذكر الانطباع الذي تكون لديه: «هذا الصباح شاهدتُ عشر وزات تحلق بعيداً في الهواء البارد المنعش. في البداية كانت فوقي مباشرة ثم طارت أبعد فأبعد. وفي النهاية انقسمت الوزات إلى سربين مقوسين كحاجبين فوق عينيَّ اللتين كانتا الآن تنظران إلى أرض الشعر». فالطبيعة تتآصر مع ما هو ليس طبيعة وتتحول إلى صور وتتبلور في فن.

ذلك المساء كان من المقرر إقامة حفل تأبيني في المسرح الملكي حيث كان الممثل إن. بي. نيلسن سيقرأ مجموعة حسنة الاختيار من قصائد مولر الدنماركية الجميلة. حضر كيركغارد الفعالية وفي اليوم التالي كتب في يومياته:

كنتُ هناك لأسمع نيلسن يلقي قصيدة «فرح فوق الدنمارك» لكنني تأثرتُ على نحو غريب بالكلمات «هل تتذكرون الرجل كثير السفر؟ نعم، إنه الآن كثير السفر - لكنني أنا، على الأقل، سأتذكره بكل تأكيد». ويشير كيركغارد إلى المقطع الثالث من القصيدة الذي يبدأ: «يا أصدقائي في الصيف الدنماركي/ هل تتذكرون الرجل كثير السفر؟» وفى كيركغارد بوعده أن يتذكر مولر فكتب بعد ست سنوات في مسودة عمله «مفهوم القلق»:

إلى الراحل

البروفيسور بول مارتن مولر

العاشق السعيد للثقافة اليونانية والمعجب بهوميروس، المتآمر مع سقراط ومفسر أرسطو - فرحة الدنمارك في «فرح فوق الدنمارك»، وإن كان كثير السفر فإنه يُذكَر دائماً في الصيف الدنماركي - حماسة شبابي، نفير صحوتي الجبار، موضوع مشاعري المنشود، المؤتَمن على بداياتي، صديقي المفقود، قارئي المفتَقد بحزن، أهدي هذا العمل.

في النص النهائي حذف كيركغارد المقطع من «حماسة شبابي» إلى «قارئي المفتَقد بحزن» واستعاض عنه بعبارة «موضوع إعجابي، خسارتي»، ولكن لا أحد يستطيع أن يشك في وفاء كيركغارد لمولر الذي، إلى جانب والده، كان الوحيد الذي ذكره في إهداء أحد أعماله. وفي مناسبة لاحقة أشاد كيركغارد مرة أخرى بمولر إشادة حارة وبلا تصنع: «فمَنْ كان يحب ب. م. ونسي فكاهته؟ مَنْ أعجب به ونسي عافيته؟ مَنْ عرفه ونسي ضحكه، الذي كان مفيداً لك حين لم تكن متأكداً ما الذي يضحك عليه - لأن نسيانه كان أحياناً مصدر بلبلة».

تعرَّف كيركغارد على مولر في عام 1831 بعد أن عاد الأخير من النرويج وبدأ محاضراته الفلسفية في كوبنهاغن. وفي السنوات اللاحقة جلس كيركغارد في القاعة التي كان مولر يحاضر فيها عن الفلسفة الأخلاقية اليونانية والمبادئ العامة للميتافيزيقيا ورسالة أرسطو «عن الروح»، ولكن باستثناء بعض الحالات

القليلة - «حوار شيق جداً» في النصف الثاني من عام 1837 عن علاقة السخرية السقراطية بالفكاهة المسيحية ودعوة مولر بظرافة أن يلتقيه كيركغارد في مقهى بلايش بعد مناقشة رسالة أكاديمية، والملاحظة المقتبسة آنفاً عن ضحك مولر - فإن كل الأدلة على علاقتهما «الشخصية» لا تزيد كثيراً عما لخصه كيركغارد بفقرة في يومياته من عام 1854: «أتذكر كلمات بول مولر المحتضِر التي كثيراً ما كان يقولها لي حين كان حياً، والتي، إذا لم تخني الذاكرة... أوعز إلى سيبِّرن أن يعيدها عليَّ المرة تلو الأخرى وهي: أنتَ سجالي حتى النخاع بحيث إن الأمر مخيف تماماً». وفي ملاحظة هامشية أرفقها كيركغارد بهذا التعليق أعرب عن شكه فيما إذا كان مولر على فراش الموت حقاً حين قال هذه الكلمات عن السجال. ولكن كيركغارد كان متأكداً تماماً من إن مولر كان على فراش الموت حين طلب من سيبِّرن:

«قل لكيركغارد الصغير أن يحذر من وضع خطة دراسية طموح أكثر مما ينبغي لأن القيام بذلك أصابني بأذى بالغ». وإذا نقل سيبِّرن رغبات مولر فلا يبدو أنّها كانت مجدية لأن «الخطة الدراسية» التي وضعها كيركغارد كانت شاملة حتى إنها بالكاد يمكن أن تُسمى خطة. وكانت خطة كيركغارد بتعقيدها الاستثنائي أساسَ إنتاج الأعمال التي قال سيبِّرن عنها بحسرة لاحقاً [بالألمانية: In vielen Worten wenige Klarheit «كلمات كثيرة، وضوح قليل»].
رغم إنه قد يبدو رمزياً أن تكون أول فقرة عن مولر في يوميات كيركغارد هي الفقرة التي تتعلق بوفاته فلا شك في أن مولر ترك أثراً عميقاً في الطالب الشاب. ولكن من الجائز أن تكون هناك، في الوقت نفسه، بعض الشكوك بطبيعة هذا الأثر ومداه الحقيقي الذي تصعب معرفته بقدر ما تصعب معرفة تأثير رصاصة تُطلق عشوائياً. فعلاقة كيركغارد بكتابات مولر واضحة، ويمكن في الحقيقة اقتفاؤها في يومياته حيث يشير إلى «مراجعة مولر الممتازة» لرواية توماسين غيليمبورغ «النهايات القصوى» ويذكر لاحقاً المبحث الموسوم «حول رواية قصص خيالية للأطفال» الذي أوحى لكيركغارد في عام 1837 بكتابة فقرات في يومياته عن الموضوع نفسه. وعلى الغرار نفسه علّق كيركغارد على مبحث مولر عن الخلود، ومثله مثل مولر، اهتم بشخصيات دون جوان وفاوست واليهودي التائه. وغني عن القول إن كيركغارد لم يسعه إلا أن يضحك على سخرية مولر من غروندتفيغ مثلما كان يستعير بين حين وآخر فكرة من أفكار مولر العشوائية أضفت حيوية

وشكلاً على «ديابسالماتا» diapsalmata [اللازمة في نهاية كل مزمور من مزامير داود] في القسم الأول من عمله إما/ أو. ولكنْ، هناك أوقاتٌ كان كيركغارد يعود فيها مرات متكررة إلى شعر مولر الغنائي وخاصة إلى قصيدة «العاشق العجوز».

هكذا ضرب مولر بعض الأوتار التي ألف كيركغارد بعض أعماله عليها لاحقاً. فالتوافقات لا تخطئها العين في القسم الثاني من إما/ أو حيث تذكِّر فكرة القاضي وليام عن «تطور الشخصية» بفلسفة مولر عن الشخصية، ولكن صدى مولر يتردد حيثما تُطرح موضوعة الشخص والفكر. وكان كيركغارد يخشى، محقاً، إن مولر حين لا يعود قادراً على تأييد أفكاره بشخصيته الحية ذاتها - وبذلك إثبات شرعيتها - فإن الأجيال المقبلة لن تكون قادرة على أن تدرك حجم مساهمته في بناء فلسفة للعيش لأن مولر مارس فلسفته بمعايشتها - أو بتعبير أدق، في الشوارع، في حوارات على طريق التبصر في نفسه تبصراً أوسع، على غرار أمثولته سقراط.

زاد هذا التصور لطبيعة الفلسفة الحوارية أيضاً اهتمام مولر بالقضايا النفسية وقاده إلى ما سماه «صور قلمية ذات طبيعة أخلاقية». والعبارة مستلة من مدخل مبحثه عن التصنع الذي طبعه في عام 1837 لكنه كان قيد التأليف لفترة طويلة، كما يتضح من دراسات وتخطيطات تمهيدية مختلفة. وبتشديد المبحث على الذاتي فإن مقصده مضاد لهيغل بوضوح، والحق إن مولر بعد سطرين - وقدْرٍ من الموقف الاستعراضي الذي يبدو في الحقيقة بالغ الشبه بالتصنع - يصبح مشغولاً بانهماك في توديع القراء التأمليين الذين يتوقعون منظومة فكرية «تُنتَج فيها كل المفاهيم من لا شيء بواسطة تطور داخلي». ولاحقاً في المبحث، عندما يعلن «إن التناظر في المنظومات الفلسفية افتعال»، لا يبقى مجال للشك في أن هذه الرشقة موجهة إلى أتباع هيغل الذين يوهمون أنفسهم والآخرين بأن منظومتهم الفلسفية الفقيرة من حيث الخبرة تعكس عالماً متماسكاً ومتوازناً.

عموماً كانت لدى مولر عين قوية في رؤية الطريقة التي توفر الدوائر الاجتماعية بها بيئة مُثلى للتصنُّع، ومن الصعب تفادي الظن بأن إحساسه بطبيعة التصنع وخواء الأشخاص المتصنعين شُحذ خلال الأمسيات الاجتماعية التي كانت تُعقد في دار الزوجين هايبرغ. كما ينتابنا شعور بأن عدداً لا يُستهان به من هذه «الصور القلمية ذات الطبيعة الأخلاقية» مكانها صالونات الشخصيات

المرموقة حيث نجح مولر في تحويل نفسه، كما حصل، إلى مراقب فينومنولوجي يستمع ويسجل ملاحظات ويولي اهتماماً خاصاً بالاختلاف بين ما يراه المرء وما يُمكن أن يُرى أيضاً: «إنه تصنع من النوع البريء جداً أن تعدّ عضلاتك في الوضعية التي تتخذها هذه العضلات عندما تضحك أو تبتسم أثناء الاستماع إلى حكاية ليست طريفة لكنها تدَّعي الطرافة». ومن الواضح إن الإحساس بالتصنع موجود في العين، في حاسة النظر، ومولر مراقب من الدرجة الأولى، كوبنهاغني يقظ: «التصنع يمكن أن يعبر عن نفسه عندما يحاكي شخص، بتعمد نصفي، السمات المميزة لخصوصيات الآخرين اللا إرادية لأنها تبدو مناسبة له».

ونجد قسماً كبيراً من السلوك المتصنع في عنصر المحاكاة هذه على وجه التحديد، في موقف التقليد، ونسخ الحركات الذي يمكن أن يؤدي إلى تخارج الفرد أو إلى التكلُّف الذي هو النتاج العرضي غير الواعي لتركيز اهتمام المرء على ردود أفعال الآخرين المتوقعة. وهكذا يكون التصنع حاداً في الفرد الذي «يتخيل إن لديه آراء أو مصالح أو ميولاً معينة لأنه يتمنى أن يمتلكها لهذا السبب أو ذاك»، كما هي الحال، على سبيل المثال، عندما «يوهم شخص نفسه بأنه يحب هذا النوع أو ذاك من الفن الذي ليس لديه إحساس به»، وإنما من باب الغرور الخالص. وهنا يرتبط التصنع بالاستعلاء والتحامل والأحكام الاعتباطية على الذوق ولكن النفاق والانحدار الأخلاقي يكمنان تحت السطح مباشرة: «ليس من المستبعد إن شخصاً يحكم على قطعة من العمل الأدبي بأنها هابطة لأن كاتبها خصمه، يجدها جيدة جداً إذا علم أنَّ كاتبها صديقه».

في هذا المبحث يحاول مولر أن يجرب معالجة ثلاثية لأشكال التصنع: الآني والدائم والمتغير. شكل التصنع الأول ليس مؤذياً. فأحياناً من الجائز بكل بساطة أن تكون رغبة نافعة وراء تبني وجهة نظر شخص آخر أو سماح المرء لنفسه بالتعاطف مع الحالة النفسية لشخص آخر. فهذا عموماً من شأنه تيسير الحياة الاجتماعية. التصنع الدائم قضية أخطر لأنه في هذه الحالة يكون في طريقه إلى أن يصبح طبيعة ثانية عند الشخص. ويكون الشخص استوعب «عنصراً كاذباً في نفسه وشوَّه شخصيته» والنتيجة إن «ما يتفوه به من أقوال لا تتواءم مع ذاته الحقيقية». ويتصلب الفرد تدريجياً إلى أن يغدو قناعاً بلا وجه وراءه. والشكل الثالث، التصنع المتغير، هو الأسوأ لأنه حتى الدور المكتَسب

في هذه الحالة يكون بلا أي ديمومة. فالفرد متغير بالكامل ولهذا «سرعان ما يرتدي شكلاً في البداية ثم يرتدي شكلاً آخر»، الأمر الذي يسفر عن «غياب مطلق للحقيقة في الحياة الشخصية». ولم يعد هناك «أي أساس دائم لتفكير الفرد ومشيئته بل إنه في كل لحظة يشكل حياته في شخصية مؤقتة لا يصنعها إلا لكي يلغيها في اللحظة التالية». ويختار مولر لتمثيل هذه القدرة على التغير تمثيلاً صورياً الحرباء: «في غالبية الحالات يكون هؤلاء الأشخاص حقاً مثل تلك الأنواع من الحيوانات التي تغير لونها حسب بيئتها المحيطة وبذلك تكون النتاج السلبي لظروفها».

كان التصنع عند مولر أكثر من سلوك شفهي مفتَعَل، وكان أكثر من مسألة عيب وجودي: «للتصنع دائماً أصله في حقيقة إغواء شخص ما بنزعة من نوع ما دون أن يكون هو نفسه واعياً بذلك». والتصنع إجمالاً مطابق لخداع الفرد نفسه، وبذلك يؤدي إلى مفارقة فلسفية ونفسية - فمَنْ يخدع المرء في الحقيقة حين يخدع نفسه؟ هذا السؤال يشكل بهذا القدر أو ذاك الخلفية الصريحة لتحليلات مولر للتصنع، وليس من المبالغة القول إن مولر بتحسسه التصنع اقتفى آثار أهمية اللاوعي التي لا تنضب للفرد والمجتمع على السواء.

دخل علم النفس عروق الأجيال اللاحقة ولغتها ولذا قد يكون من الصعب أن نفهم إلى أي مدى كانت تحليلات مولر في الحقيقة جهوداً رائدة وأن نرى حجم فائدتها بوصفها بديلاً نفسياً حصيفاً للهيام الفلسفي بهيغل، الذي كان معهوداً في الحلقات الفكرية. ولكن تحليلات مولر كانت (وما زالت) مثيرة للقلق لأنها تشدد تشديداً قوياً على الجانب المظلم من الذاتية، على المخاتلة والكبت، بحيث يكون كل شخص قادراً على الإحساس بأن التحليلات موجهة نحو نفسه: «فكروا كم من الكذب نجده في مشاهد من الحياة اليومية».

وهكذا صاغ مولر، كخطوة مضادة راديكالية للفهم الذاتي ذي البعد الواحد الذي اتسمت به حقبة بيدرماير Biedermeier، نوعاً من علم تفسير الشك. ومن المؤكد أن مولر في بعض المراحل يستمتع، على ما يبدو، بشكه في البراءة الطبيعية للعفوية - «الفتاة تلاطف القطة لكي تبدو رقيقة القلب» - ولكن هذا يضعه بمصاف الراديكاليين الحقيقيين شوبنهاور ونيتشة وفرويد الذين بدؤوا جادين بعملية تفكيك اليقينيات الموثوقة التي ورثوها.

«أنا Janus bifrons» [باللاتينية: أنا يانوس ذو الوجهين]: بوجه أضحك وبالآخر أبكي، كما كتب كيركغارد على قصاصة ورق في 1837، العام نفسه الذي كتب مولر مبحثه عن التصنع. ولا بد إن الطالب المنقسم على نفسه فهم ذلك المبحث على أنه موجه إليه شخصياً، ولكن موضوعته كانت في الوقت نفسه بمثابة دفعة كبيرة. كما إن من الواضح تماماً إن مفهوم مولر للتصنع كان له فضل كبير على كيركغارد في سنوات لاحقة حين شرع ينتج بورتريهات للسخرية (خداع الآخرين بوعي) وللشيطاني (خداع النفس بلا وعي).

ولكن، في الوقت نفسه، لم يكن كيركغارد مهتماً بالجانب النفسي وحده بل أولى اهتمامه بالبُعد الجمالي أيضاً لأنه يؤشر قطيعة واضحة مع التخطيط الأكاديمي تاركاً الحياة تتحدث عن نفسها. وكتب كيركغارد في فقرة من يومياته أوائل شباط/ فبراير 1837: «إن الواقعة التي أدخلها بول مولر في مبحثه عن خلود الروح في العدد الأخير من المجلة الأدبية الشهرية، واقعة شيقة للغاية. ولعل هذا سيصبح واسع الانتشار وتحل محل النبرة الأكاديمية حصراً مقاطع أخف لكنها تتيح للحياة أن تظهر في شكل أغنى بكثير».

الواقعة ذات العلاقة كانت حكاية ساخرة عن ماسك دفاتر أعزب أراد أن يعرف ما هو الخلود حقاً. وعندما ابتاع أحد أصدقائه اللاهوتيين كتاباً عن هذا الموضوع تحديداً أراد ماسك الدفاتر أن يستعيره. ولكن اللاهوتي لم يكن مستعداً لإعارته لأنه يعرف الإهمال الذي يتعامل به ماسك الدفاتر مع الكتب التي يستعيرها بل إنه ضبط ماسك الدفاتر ذات مرة متلبساً بـ«قطع لفة من التبغ الهولندي على غلاف دفتر حسابات». انزعج ماسك الدفاتر من رفض اللاهوتي واحتج قائلاً «أنا من حيث الأساس رجل متدين وأعترف من كل قلبي بأن تسوية هذه القضية تستحق العناء، وعقدتُ النية منذ سنوات عديدة على أن أجلس ذات يوم، عندما تسنح لي الفرصة، وأقرأ هذا الكتاب الجيد أو ذاك عن هذا الموضوع. واليوم شاءت الصدفة أن يكون لدي الوقت لأني جالس بانتظار صديقين عزيزين سأستقل العربة معهما إلى بيلفيو في الساعة الواحدة لأتناولَ شيئاً من سمك القد». كان لدى ماسك الدفاتر نصف ساعة بالضبط ولأنه ما زال ممنوعاً من الحصول على الكتاب، طلب من صديقه «أن تلقي عليَّ محاضرة باختصار شديد عن أفضل البراهين على خلود الروح فيما أنا أشحذ شفرتي لحلاقة ذقني». وهذا كله يجب أن يحدث قبل وصول العربة. وافق اللاهوتي

على مضض ولكنه ما أن بدأ حتى قاطعه ماسك الدفاتر بملاحظة خشنة قائلاً، بالله عليك يجب ألا يكون البرهان مصاغاً بلغة تقنية للغاية. وأعلن بنبوءة «إن العلم يجب أن يكون شعبياً وهذا ما تتطلبه روح العصر»، واستمر يتحدث بهذا الأسلوب التربوي. «يجب أن تحاذر من استخدام اللغة التقنية التي يستخدمها أهل العلم لإخفاء أفكارهم عن الجمهور الاعتيادي، وأن تقول لي المعنى البسيط لهذه الأشياء بلغة دنماركية فصيحة واضحة. ولكن أسرِع قليلاً، فأنا أخشى أن تكون العربة هنا في أي دقيقة». تمكن ماسك الدفاتر من تناول سمكته القد في بيلفيو ولكنه لم يتوصل إلى فهم أعمق لمسألة خلود الروح بل إنه لم يفهم قط إن «الطريقة ذاتها التي» تناول بها القضية على هذا النحو المنهمك والمضطرب هي التي منعته من التوصل إلى مثل هذا الفهم لأن الخلود لا يعتمد على أدلة موضوعية بل على يقين ذاتي.

ما لفت انتباه كيركغارد كان طريقة مولر في «إضفاء طابع الدراما الأدبية على القضايا الفلسفية» – النص كمسرح أو خشبة مسرح – وبعد أقل من عشر سنوات كان هو نفسه سيد هذا الفن. «أوه، أيها الإله الصيني العظيم، هل هذا هو الخلود؟»، كما يكتب في عمله «حاشية ختامية غير علمية» الذي يُبعث ماسك الدفاتر في حكاية مولر من بعض النواحي في شخص «مدرّس جامعي حسن الإعداد» كان يفضل الكلام عن الخلود بتجريد وموضوعية بدلاً من الكلام عنه بملموسية وذاتية. وهذا كان بالمقلوب تماماً، ولهذا كان يستدعي درساً تربوياً مع بضعة توجيهات: «انظر، هناك أشياء عديدة تستطيع أن تشكل منها مجموعة للقيام بعمل ما. وعلى سبيل المثال إن عدداً من العائلات تستطيع أن تشكل مجموعة لحجز مقصورة في المسرح، وإن ثلاثة رجال عزاب يستطيعون أن يشتركوا بحصان بحيث يتمكن كل واحد من ركوبه في اليوم الثالث. ولكن الأمر ليس على هذا النحو مع الخلود. فإن وعي خلودي يعود إليَّ أنا وحدي. وفي اللحظة التي أكون واعياً بخلودي أكون ذاتياً بصورة مطلقة، ولا أستطيع أن أصبح خالداً بالتناوب مع سيدين أعزبين». وبدلاً من «البحث عن مزيد من البراهين» ينبغي «أن يسعى كل فرد إلى أن يصبح ذاتياً بعض الشيء» ولا سيّما وإن «الخلود هو مصلحة الذاتية الأشد التهاباً، وفي المصلحة على وجه التحديد يكمن البرهان».

«ممارسة وراء الكواليس»

لو قرأ مولر هذه السطور لضحك بالتأكيد بطريقته الصميمة وإن كانت عصية على الفهم، لأنها مكتوبه بروح مولر تماماً، ولكن على نحو أفضل وأكثر أناقة، وهي نفسها تكاد تكون خالدة بالمعنى الأدبي. كما إنها كلفت كيركغارد قدراً متساوياً إلى هذا الحد أو ذاك من الحبر والدم. ففي عام 1837 اشتغل على أسلوبه بمثابرة يوماً بعد آخر. ولم تجد أفكاره بعد شكلها التعبيري المناسب بل ما كان يكتبه كان في أحيان كثيرة ثقيلاً يكشف عن نتوءات خطيرة غير متوقعة في الوسط. وكثيراً ما كانت كتابته تنوء تحت عبء الصواب النحوي أو تتبدد في زقاق مسدود. ولم يكن تعلّم بعد براعة الخفة أو اكتسب الفهم الأكيد الذي توفره الخبرة، وكانت الأفكار تتدفق عليه من كل الجهات كأنها وابل من الشُهب. «الفكرة تلو الأخرى، ما أن أُفكر فيها وأُريد كتابتها حتى تأتي فكرة جديدة – أتمسك بها، أستوعبها، جنون، خبل».

لاحقاً، لا تتضمن الفقرات التي كتبها كيركغارد في يومياته إلا علاقات ثيماتية (موضوعاتية) هي في أغلب الأحيان بين بعضها البعض - أو بلا أي علاقة تربط بينها على الإطلاق: بائعة جمبري تستطيع بكل سهولة أن تتخذ مكانها بجانب عقيدة التناسخ. والفقرة المؤرخة «14 أيلول/ سبتمبر 35» نموذج على ذلك: «المصاعب لا تجمع بين الناس فحسب بل تنتج تواصلاً داخلياً جميلاً، كما يحدث تماماً حين ينتج زمهرير الشتاء على زجاج النوافذ أشكالاً يمحوها دفء الشمس». وهذه موضوعة استدعت تنويعات عليها، وبعد خمسة أشهر، في «كانون الثاني/ يناير 36»، قام كيركغارد بمحاولة أخرى: «المصاعب تجمع بين الناس وتنتج جمالاً وتناغماً في العلاقات الحياتية مثلما يحدث عندما يرسم سحر البرد في الشتاء على زجاج النوافذ زهوراً تختفي مع مجيء الدفء». وتشترك فقرات عديدة في اليوميات بميلها إلى القفشة المسبوكة، اللاذعة، وتفضيلها المثير للمفارقة الإضافية في المقطع الأخير. ويمكن أن نجد مثالاً نموذجياً على ذلك في قصاصة ورقية غفل من التاريخ: «أحدهم يموت في اللحظة ذاتها التي أثبت فيها إن عقاب جهنم عقاب أبدي، متلبساً بنظريته نفسها. انتقالة لافتة من النظرية إلى الممارسة». هناك تذهب الظنون بالقارئ إلى أن كيركغارد استوحى نمط مولر المفضل في التعبير، «الفكرة العشوائية» التي

سماها مولر «نوعاً من الخنثى» لأنها «نصف شعر ونصف نثر». وفي وقت ما من عام 1838 وجدت خنثى كهذه من النوع اللاهوتي طريقها إلى الورق. «أن يكون بمقدور الله أن يخلق كائنات حرة في العلاقة به نفسه إنما هو الصليب الذي لم تستطع الفلسفة أن تحمله وظلت معلقة عليه». فقرة أخرى في اليوميات تتوجه بقدر أكبر بعض الشيء إلى الحواس لكنها لا تقل تثقيفاً: «نباح الكلب البعيد، منادياً أماكن نائية، صديقة، أليفة، يقدِّم أجمل برهان على خلود الروح».

نجد مدسوسةً بين هذه الجمل المصاغة بعناية أقوالاً موجزة أيضاً يمكن أن تحشر نفسها في تلافيف الدماغ وتولّد الكثير من التفكير إجمالاً، وعلى وجه التحديد لأن ما يُقال لا معنى له: «القمر هو ضمير الأرض». وهناك بالطبع أقوال صغيرة عابرة قفزت بكل بساطة على الورق مصادفة: «ملاحظة: بين حين وآخر تنتابني رغبة غريبة في الرقص على قدمي وطق أصابعي ثم أموت». أو تلميحات غرائبية، غير ضرورية، مفيدة: «طريقة للوقاية من سرقة ساعتك: دع الشَعَر الأقرب إلى رقبتك ينمو ثم اجدله في ضفيرتين تلتفان حول عنقك وعلِّقْ ساعتك منه».

هذه التأملات اللفظية لا تمتثل للفكرة المتعارف عليها عن اليوميات بوصفها حافظة أسرار أو مرويات حميمة بل تضفي على هذا الجنس من الكتابة إبهاماً متلألئاً من نوع ما. ويكون استثناء عن القاعدة أن تتحدث فقرة في يوميات عن كاتبها بصورة مباشرة ودون انقطاع، رغم إن ذلك يمكن أن يحدث، كما في هذا المثال بتاريخ 29 تشرين الأول/ أكتوبر 1837: «السبب في أني أحب موسم الخريف أكثر بكثير من الربيع إن المرء ينظر إلى السماء في الخريف - في الربيع المرء ينظر إلى الأرض». هنا يبدو أنّنا نقف بالمعنى الحرفي للكلمة على أرض صلبة ولكن بعد قليل من الوقت نُرفع 70 فرسخاً في الهواء، وفي فقرة مثل الفقرة التالية لا تكون لدينا أي فكرة مَنْ الذي لا يستطيع أن يتجرد من أي نفس: «الموت واللعنة، أستطيع التجرد من كل شيء ولكن ليس من نفسي: لا أستطيع حتى أن أنسى نفسي حين أنام».

من نكد كاتب السيرة إن كيركغارد لا يمكن أن يُتابع تاريخياً. فهو لم يترك إلا أشطاراً وآثاراً متناثرة، بل يبدو وكأنه، من اللحظة الأولى التي بدأ فيها الكتابة، اعتمد إنتاجاً حراً متخيَّلاً بوصفه الأسلوب المفضل عنده. ولاستخدام

تمييز صاغه هو نفسه (وشدد عليه بوصفه ركيزة حاسمة لكل عمل فني) فإن كيركغارد كان لا يتذكر بل يستذكر. وهكذا يمكن وصف يومياته أو مفكرته ربما أحسن وصف بالكلمات التي اختارها محرر «يوميات الغاوي» حين تعين عليه أن ينسب العمل إلى جنس محدَّد من الكتابة. وبحسب هذا المحرر صاحب المخيلة الخصبة فإن «يوميات كيركغارد ليست دقيقة تاريخياً أو سرداً مباشراً. إنها ليست دلالية بل شَرطية». وهو كذلك. بيتر كريستيان كان يستطيع أن يتذكر، ويومياته سرد مباشر وبالتالي كان دقيقاً تاريخياً. وكانت الأحداث الخارجية والمشاعر الداخلية تخضع لعرض متسلسل بقدر معقول، تعزز موثوقيته إحالات إلى تواريخ وأماكن يمكن التحقق منها فضلاً عن رصانة سردية بلغة واضحة. مع بيتر كريستيان نعرف عموماً أين تقف الأشياء. وتكون الأشياء مختلفة تماماً مع شقيقه الأصغر الذي كانت يومياته شَرطية وبالتالي تدور وتتقلب باستمرار تقريباً بين أحداث فعلية واستنساخ فني لهذه الأحداث.

فيما يُسمى قراراً كتبه كيركغارد خلال دراسته بتاريخ دقيق هو الساعة السادسة مساءً من يوم 13 تموز/ يوليو 1837، شرَحَ وضعه الراهن بوصفه كاتباً. «كنتُ في أحيان كثيرة أتساءل لماذا لدي مثل هذه الممانعة الكبيرة لكتابة ملاحظات مختلفة على الورق»، كما اعترف الشاب من البداية. وحين أعاد قراءة الفقرات المكتوبة في يومياته بدت له «بَرْقية تماماً» حتى تكاد تكون بلا معنى، أو «عشوائية بالكامل» لأنها تراكمت على ما يُفترض خلال فترة طويلة من الزمن وكُتبت فجأة كما لو إنه «نوع من يوم الحساب، ولكن هذا خطأ». ولدى قراءة كيركغارد بعض نماذجه الرومانسيين – على سبيل المثال أسلوبيون كبار من أضراب جان بول Jean Paul وإي. تي. أي. هوفمان E. T. A. Hoffmann وجي. سي. ليشتنبيرغ G. C. Lichtenberg – وجد بالفعل أسلوب كتابة سهلة غير شكلية من النوع الاستطرادي، وظن الآن أنه قادر على أن يفسر لماذا بدا له «من البغيض بل المقرف تقريباً» أن يضع أفكاره على الورق: «كان السبب، على ما يبدو واضحاً، هو إني في كل مرة كنتُ أُفكر في إمكانية نشر هذه الأفكار، الأمر الذي ربما يتطلب إخضاعها لمعالجة أكثر استفاضة، وهو عناء لم تكن عندي رغبة في تجشمه. وفيما كنتُ أُعاني من الإرهاق الناجم عن إمكانات مجردة (غثيان أدبي معين)، تبخر عطر الفكرة والمزاج. أعتقد أنّ الأفضل، بدلاً من ذلك، كتابة ملاحظات في أحيان أكثر، بما يسمح للأفكار أن تظهر وهي ما

زالت تحمل حبل السرة الذي يربطها بمزاجها الأصلي». وكان بعمله هذا يأمل في بلوغ «الطلاقة في الكتابة، في الترابط المكتوب، الذي أمتلكه في الكلام». الأكثر من ذلك، كانت هناك، كما قرأ في هامان Hamann، «أفكار لا تأتي إلى الشخص إلا مرة في حياته». وخلص الشاب إلى «إن هذا النوع من الممارسة وراء الكواليس ضروري بكل تأكيد لكل من ليس موهوباً بحيث يكون تطوره حدثاً عاماً من نوع ما».

تطور كيركغارد نفسه لم يصبح «عاماً» بعد ولكن من الواضح إن الطالب الجامعي ابن الأربعة وعشرين عاماً كان يفكر في كتابته بالارتباط مع منبر عام. وكان هذا على وجه التحديد سبب شعوره بأن الفقرات المنفردة في يومياته يجب أن تُعطى طابع القِطَع المكتملة، بقدر أكبر مما استطاع أن يحققه – وكانت النتيجة إن الأفكار تبخرت فيما كان هو ينتظر ويقلق على شكلها. من الآن فلاحقاً ستكون الأشياء مختلفة. سيكتب في أحيان أكثر، بطريقة شكلية وحساسة، بحيث يستطيع أن يقتنص الأفكار وهي طائرة، أن يلتقط اللحظة العطرية، مشهد الحياة وصوتها.

مورست هذه التمارين في 26 دفتراً شديدة الاختلاف، كبيرة وصغيرة، استخدمها من 1833 حتى 1846 قالباً عشرة دفاتر منها حسب الحروف الأبجدية بحروف مزدوجة كبيرة: AA, BB, CC, DD, EE, FF, GG, HH, JJ & KK. وأعطى عناوين للدفاتر «بعد» أن بدأ يستخدمها، على الأرجح في الشطر الأخير من عام 1842 وبناء على ذلك فإنها لا تعكس أي تسلسل زمني بسيط، بل إنه كان يستخدم عدة دفاتر في وقت واحد، ويكتب في دفاتر أخرى على الصفحات اليمنى (recto) من الأمام إلى الوراء ثم يقلبها ويكتب على الصفحات اليسرى (verso) من الوراء إلى الأمام. وتحوي الدفاتر الستة عشر الأخرى يوميات سفر وملاحظات عن محاضرات في الجامعة، ومقاطع من قراءات كيركغارد التي كانت في أحيان كثيرة شديدة التنوع. فاليوميات مركَّب واسع وزاخر بالمتفرقات، مختبر تجريبي وجودي بقدر ما هو إبداع – بمرور الوقت اكتسب هذا المختبر أهمية حيوية في عملية كيركغارد المستمرة لفهم نفسه. كما كان كيركغارد يعود إلى فقرات يومياته لتهذيبها أو يعيد الاشتغال عليها أو لمجرد الاستمتاع بإعادة الوصل مع شيء من الألق الذي نسِيَهُ تماماً. وهكذا، في أواخر صيف 1847، انكب كيركغارد على يوميات الدفتر EE من 1839، وفي غمرة مادة

غزيرة وجدها كيركغارد «لا موفقة ولا مُنجَزة» عثر على «ملاحظة جيدة بصفة خاصة». إذ قرأ في يوميات الدفتر EE مقطعاً كتب فيه «إن الزواج ليس حباً في الحقيقة» ولهذا السبب «يُقال إن الاثنين يصبحان «جسداً واحداً» - وليس روحاً واحدة - لأن من المحال أن تصبح روحان روحاً واحدة. وكان من الممكن توظيف هذه الملاحظة توظيفاً حسناً في كتاب «عمال الحب».

«ترك كيركغارد بعد وفاته كمية كبيرة من الأوراق المكتوبة بخط اليد، جُمعت وفي بعض الحالات رُتبت بقدر من العناية كانت دليلاً على حماسة الكاتب لحمايتها ضد التشتت والتلف»، كما كتب إتش. بي. بارفود H. P. Barfod في مقدمة مجموعة من الأعمال المختارة في عدة أجزاء بعنوان «من أوراق سورين كيركغارد بعد وفاته» From Soren Kierkgaard's Posthumous Papers. وتابع بارفود بنثر بيروقراطي محكم: «ولكن لم يمض وقت طويل حتى استطعنا أن نرى إن هذه الأجزاء - مثلها مثل «اليوميات» اللاحقة الأكثر استفاضة وترابطاً داخلياً بكثير - كانت ذات أهمية للكاتب تختلف اختلافاً كاملاً عن الدور الذي تقوم به عادة اليوميات. فعلاوة على عدد من الفقرات (وإن لم تكن كثيرة جداً من هذا النوع) التي تُناقَش فيها ظروف خارجية جنباً إلى جنب مع دفقات مفككة من العاطفة، تحوي اليوميات مباحث في مواضيع كانت تهم الكاتب في هذا الوقت أو ذاك: مشاريع لكتابة مقالات ومحاضرات، ونصوص مواعظ وأخيراً وفرة من الأفكار الفردية والملاحظات والاقتباسات، إلخ. إجمالاً، يبدو، بموازاة جزئية مع الكتابات المنشورة، إن «اليوميات» خدمت الناسك الراحل بوصفها قناة كبيرة للتفريغ الفكري».

وصفُ بارفود لكتابات كيركغارد بعد وفاته رغم كل إبهامه، وصف رائق تماماً. وبارفود مثله مثل المحررين اللاحقين بعده وجد إن إرادة الإصرار التي نلحظها وراء جبل كيركغارد من الورق تكاد ألا تكون إرادة طبيعية. وقاوم بارفود، بكل صواب، تسمية الأوراق التي تركها كيركغارد بعد وفاته «يوميات» ليشدد بدلاً من ذلك على علاقتها بالأعمال المنشورة التي - بالمناسبة - تجعل من الطبيعي أيضاً تتبع المؤلف بالعودة إلى كتاباته. ورغم هذه النظرة الواضحة فإن بارفود نفسه ساهم في البلبلة بقسط كبير تماماً بحكم ممارساته التحريرية التي أطلق المحرران اللاحقان لـ «أوراق سورين كيركغارد»، بي. أي. هايبرغ P. A. Heiberg وفي. كور V. Kuhr تعليقات لاذعة بشأنها: «بمبادئ متغيرة على

الدوام في الترتيب وتغيير نقاط التحرير - وبطريقة القطع واللصق، وإضافة أرقام فهرسية وكتابة ملاحظات إلى المطبعة عن المخطوطات نفسها - تحول جزء من القسم الأول من الأوراق إلى مخطوطة الطبَّاع لطبعة بارفود». وكقاعدة كانت المخطوطة الأصلية تُرسل إلى الطبَّاع، وفي كثير من الحالات حين ينتهي الطبَّاع من تنضيد الحروف، كانت المخطوطة تختفي بلا أثر أو تُرمى في أقرب سلة مهملات.

لكن بارفود كان سيئ الصيت على نحو خاص بتقطيعه المخطوطات ولصقها لاحقاً، الأمر الذي كان يسفر عن كل جديدٍ بالكامل - تفكيك قبل أوانه. وكان هذا يحدث بأحسن النيات. فإن بارفود لم يكن مخرباً بل حقوقياً صاحب ضمير حي له مشاعر جمالية. وهكذا عندما كانت بين يديه مخطوطة ذات خط لطيف بصفة خاصة كان يقطعها بذوق ويلصقها على قطعة من الورق المقوى، يضع عليها بطاقة بريدية يستطيع أن يمتّع بها أصدقاءه ومعارفه في مناسبات خاصة. وكتب هايبرغ وكور: «النتيجة إن جزءاً كبيراً تماماً من المخطوطات المذكورة في قائمة بارفود، من الأوراق الأولى حتى عام 1847، مفقود من المجموعة المحفوظة في مكتبة الجامعة».

عمل هايبرغ وكور بطريقة أكثر منهجية بكثير وقسَّما المادة إلى ثلاث فئات أساسية، الفئة A جمعت ما يمكن تسميته من وجهة نظر تقليدية فقرات معهودة في يوميات، والفئة B مسودات كتابات بأسماء مستعارة وبأسماء غير مستعارة، تلك التي نشرها كيركغارد في زمن حياته وتلك التي لم ينشرها فضلاً عن مواد مخطوطة حُذفت من النصوص النهائية لمثل هذه الأعمال. وخُصصت الفئة C لملاحظات من قراءات كيركغارد ودراساته الأخرى. وكانت هذه المنهجية التي قُسّمت حتى أكثر إلى فئات فرعية للمواد الجمالية والفلسفية واللاهوتية، جديرة بالثناء مبدئياً لكنها غير موفقة في الممارسة لأنها تُطمس نطاق الفقرات التي كتبها كيركغارد في يومياته وتُعطي القارئ انطباعاً كاذباً بوجود وحدة منتظمة واتساق في توزيع النصوص. وحين انتهى المحرران من العمل أعادا تغليف المخطوطات حسب مبادئهما التحريرية مواصلين بذلك إلغاء ترتيب الوحدات الأرشيفية الأصلية.

بفضل هؤلاء الرجال ذوي النية الحسنة الذين تقريباً يبدو أنّهم كانوا

يحاكون مكائد محرري كيركغارد ذوي الأسماء المستعارة، لم يعد المصدر الأولي لسيرة حياة كيركغارد مصدراً موثوقاً. ولكننا يجب أن نضع نصب أعيننا أيضاً إن المحرر الأول لأوراق كيركغارد كان كيركغارد نفسه وإنه كان دائماً يكتب مدرِكاً إن قراء لاحقين يقفون هناك، إذا جاز التعبير، وينظرون من فوق كتفه. وهكذا نقرأ «صفحات محذوفة من اليوميات» حيث تدخل كيركغارد تدخلاً جراحياً في يومياته وأزال صفحة أو أكثر لأنها، على ما يُفترض، لم تخدم كيركغارد الأسطورة بل لم تفعل سوى عرض الرجل الذي يحمل الاسم نفسه. كما إن طرقاً مباشرة أكثر للحذف مثل شطب سطور أو محو كلمات أو تظليل صفحات كاملة تظليلاً مكثفاً تكشف عن الدقة التي خطط بها كيركغارد تقديم نفسه للمستقبل. وكتب في فقرة شهيرة من يومياته، «بعد موتي هذه هي خلاصتي: لن يتمكن أحد من أن يجد في أوراقي نتفة واحدة من المعلومات عما ملأ حياتي حقاً، ولن يجد الكتابة المحفورة عميقاً في داخلي، التي تفسر كل شيء، التي تجعل مما يسميه العالم تفاهات أحداثاً جساماً عندي، ولكن أنا أيضاً أراها غير ذات أهمية حين أحذف الملاحظة التي تفسر كل شيء».

سيكون من الرائع الوقوع على هذه الملاحظة التي كتب فيها كيركغارد ما استهلك حياته «حقاً»، ولكنها ليست موجودة – ليس لأن كيركغارد حذفها بل لأن من المستبعد أن يكون كتبها ذات يوم. ولعل هذا هو السر: إنه لم يكن هناك في الحقيقة سر بالمرة، ولهذا السبب كان التدخل الأدبي مطلوباً. وتبدو هذه الفقرة من اليوميات كأنها مثال مصغر على فن الغاوي لأنه، كما قرأنا في «يوميات الغاوي»، «ليس هناك شيء في الحقيقة غارق في الغواية... مثل السر».

في البحث عن كيركغارد الحقيقي كثيراً ما تُغفَل حقيقة إن التعمية والحركات الإيمائية والخيال كلها سمات تكوينية في إنتاج كيركغارد لنفسه – وإن هذا على وجه التحديد هو السبب في أن هذه الأشياء تساعد على الكشف عن كيركغارد الحقيقي.

1837

عاصفة وإجهاد؟

كانت الفترة الفاوستية التي عاشها كيركغارد باهظة الثمن، وجودياً ومالياً على السواء. وخلال هذه السنوات، خرج الزميل الذي كان أقرانه في المدرسة يسمونه «سورين الجورب»، من شرنقته الصوفية ونما إلى غندور متأنق على مقاس العصر الرومانسي المتأخر. وإذ كان كيركغارد يعيش بالاستدانة واقتراض المال بطريقة غريبة تماماً عن التقتير الموارفي في بيت عائلته فإنه اكتسب عادات باذخة إلى حد مذهل. وكان ينفق بإسراف على المسرح وشراء مجلدات في الفلسفة والأدب، والمقاهي والمعاطف الفاخرة - المعطف الذي بلون الملفوف الأحمر حل محه معطف أصفر - ليموني. وكان يبذخ المال على شراء القبعات والتنقل بالعربات والطعام والنبيذ وصناديق (أو بلغة العصر التوعوية «نعوش») من لفافات التبغ ذات العلامات التجارية مثل لاس تريس كوروناس ولا بالوما إلى جانب علب بالحجم المناسب للجيب. وكان يستهلك كل شهر 500 غرام من تبغ الغليون من النوع الفنزويلي المعروف باسم فاريناس، وهو منتوج نقي غير مخلوط ذو نوعية عالية يُباع في ست لفات مصفوفة في سلال محاكة من أغصان الشجر. وهناك أيضاً فواتير لعصي المشي وشالات الحرير والقفازات وغيرها من ضروريات الحياة، بينها الكثير من قناني ماء الكولونيا. وفي الشطر الأخير من تشرين الأول/ أكتوبر 1836 تعين على المدعو مستر ساغر أن يقدم إلى الطالب المبذّر قرضاً لمدة أسبوع قدره 60 ريكسدولاراً، وفي نهاية العام أعلن مجلس إدارة الجمعية الطلابية إن على كيركغارد الآن متأخرات أربعة أشهر من رسوم العضوية، وأنه سيُحرَم من الحصول على التسهيلات التي توفرها الجمعية ما لم يدفع المستحقات عليه

فوراً. وبمرور الوقت ازدادت الشكوك في الجدارة الائتمانية لرجل المجتمع الذي ينفق بلا حساب، وأصبح اقتراض المال عملية محرِجة. ففي حزيران/ يونيو 1836 مثلاً، تحدثت يومياته بخجل عن «موقفي حين كنتُ أقترض المال من راسك ثم ظهر مونارد». وكان من سوء حظ كيركغارد أن يجد نفسه في مواجهة اثنين من دائنيه في وقت واحد. وفي 5 أيلول/ سبتمبر 1837 تعين على طالب اللاهوت أن يذل نفسه ويطلب من والده النجدة. ففي عام 1836 وحده بلغت ديونه 1262 ريكسدولاراً منها 381 ريكسدولاراً لبائع الكتب رايتزل في شارع كوبماغيراده و280 للخياط كونيتسر في فيميلسكافتيت و235 لأماكن شاي ومقاهٍ مختلفة، و44 لبائع التبغ أم. سي. فرايس في شارع أوسترغاده زائد مبالغ أقل هنا وهناك. والمؤكد أن الشيخوخة لم تكن السبب الوحيد للارتجاف في خط يد والده حين كتب الرجل العجوز الاسم «سورين» على غلاف الدفتر الصغير الذي أصبح خلال العام التالي سجل الحسابات حين كان كيركغارد يسدد ديونه. فمن الواضح إن الرجل العجوز ارتاع مما كان بمقدور أي أحد أن يراه وهو أن الـ1262 ريكسدولاراً التي هدرها ابنه في المدينة كانت تزيد على الراتب السنوي لأستاذ جامعي.

كانت هناك إغـراءات كثيرة بكل تأكيد. في تلك الأيام كانت منطقة ستروغيت تُسمى «الجادة»، وإليها كان الناس يذهبون ليروا ويكونوا مرئيين، لإلقاء التحية على الأصدقاء بمرح صاخب وفي الوقت نفسه الحرص الظاهر على تفادي لقاء الأعداء. وجرى تحديث الفنادق والمقاصف القديمة على طراز نماذج أجنبية. وكانت تُسمى الآن «كونديتوريير» Conditorier [بالدنماركية: «محلات الحلوانية» أو «أماكن الشاي»] وكانت ذات أسماء أجنبية غريبة مثل أبيتز وكابوزي وكابريتس وفريني ولارديللي ومونيغاتي وبيدرين وسيكي. وكان من أنجح هؤلاء المهاجرين جوستي الذي في عام 1817 فتح مقهاه السويسري في 53 شارع أوسترغاده أعقبه في عام 1824 فتح فرع في حدائق فريدريكسبيرغ، ما زال باقياً حتى اليوم. عند دخول شارع أوسترغاده يجد المرء محل جيانيللي للشاي بنوافذه العالية. وكان مقهى بلايش في أماغرتورف يطل على هويبرو. وكان مقهى ميني يقع في كونغينز نيتورف على قارعة شارع ليلي كونغينسغاده في موقع كافيه أبورتا. وكان مقهى ميني أحسن مقهى في المدينة، «مقهى للأرستوقراطيين مؤثث

على الطريقة الفرنسية أو الإيطالية، حيث كل شخص محترم أو حسن الهندام يستطيع أن يتناول الشاي والقهوة والكاكاو وكل أنواع الليكيور الفاخرة في أي ساعة من ساعات اليوم». وفي الأماسي، إذا أراد المرء أن يخرج لممارسة لعبة البلياردو ذات الدبابيس الخشبية، والتدخين، فما عليه إلا أن يذهب إلى فندق كنيرش حيث يوجد فندق دانغليتير اليوم.

رغم إن حجم الفواتير والإيصالات يُطلعنا، كما يُطلعنا الكثير من الوشاة، على سلوك كيركغارد الشاب فإن المصروفات ليست كلها، بالطبع، تترك أثراً من الأوراق وراءها. إذ لا تُحرَّر إيصالات في الأماكن سيئة الصيت والسمعة، والسيدات الشابات المتجاوبات أبداً في زقاق بيدر مادسن الذي كان يرتبط في تلك الأيام بمنطقة «الجادة» لم يكنَّ معنيات قطعاً بالعمل الورقي بل كانت خدماتهن تُقدم عيناً، وكان الدفع نقداً، وينتهي الأمر عند هذا الحد. وتبقى هناك أماكن بإمكان المرء أن يرتادها إذا كان في حالة ذهنية غير لائقة. إذ كان هناك شارع ستور بروندستراده وشارع ليلي بروندستراده وكان هناك أولكيغاده حيث كانت سيدات الليل يَجُبْنَ نهاية الشارع الأقرب إلى ليلي كونغينسغاده. وكان بحارة وطلاب فاسدون وسادة من الطبقة الوسطى لا يجدون في الزواج ما يشبع حاجتهم يترددون على هذه المناطق المشبوهة ولكن حتى الملك فريدريك السادس كان على علم بهذه الملاهي، وفي ساعات ما بعد الظهر أيام الآحاد، بعد الوصول بعربة مفتوحة، كان يمضي ساعات حافلة مع عشيقته الكونتيسة دانيماند فيما كانت زوجته الشرعية وأهل كوبنهاغن يوافقون على غض الطرف.

ولكن على مبعدة قرب لانغيرو، في السجن الكائن في منطقة البرج الأزرق، حيث كان الرجال والنساء يُحبسون معاً، كان من الجائز أن تصبح الأمور خشنة بعض الشيء. إذ لم تكن مراقبة الحراس شديدة، ورسم القاتل الموهوب أولي كوليرود صورة تخطف الأنفاس للوضع في ذلك البرج ذي الشكل القضيبي: «إيه، كان الأصحاب يخرجون في الأروقة ويفتحون الباب المؤدي إلى سجن النساء، ثم كانوا يلقون أنفسهم وينكحونهن، وكانوا ينكحون حتى الإنهاك وينكحون الفتيات حتى الموت. إيه، الفتيات اللواتي لا يقبلن أن يُستخدَمن كانوا يأخذونهن بالإكراه، بلا كلام. إيه، كانت هناك زوجة صباغ بيوت وكانوا يستخدمونها بكثرة حتى أني حين كنتُ مستلقياً في فراشي، كنتُ

أستطيع أن أسمعها، كنتُ أسمع كيف كانت تستسلم للرجل الذي يستخدمها. إيه، كان ذلك على الأرجح بموافقتها لأن برون، لص الخيول الضخم هو الذي كان يستخدمها. ولكن كفى ذلك».

كفى حقاً. إن كان كيركغارد، إذا كان فعلاً يتردد وكم من المرات كان يتردد وبأي نتائج كان تردده على السيدات في زقاق بيدر مادسن فإن هذا مدفون في ظلال التاريخ. والأساس الفعلي لإعادة تصوير هذه الأحداث أساس واه إلى حد محرِج ويتألف أساساً من بضع فقرات ممزقة ومهلهلة في اليوميات، تقول الأولى منها المكتوبة على ما يبدو في حزيزان/ يونيو 1836 بنصها الكامل: «قلقٌ غريب - كل مرة أستيقظ في الصباح بعد الإفراط في عَبّ الكحول، يكون ناجزاً في النهاية». ويلاحظ المرء الصياغة الغريبة للقلق الناجز ويتساءل إن كان ربما يصف فرحاً ممزوجاً بالخوف مع فقدان براءته أخيراً. لا أحد يعرف. هناك فقرة متشظية من اليوميات كُتبت في السنة نفسها بتاريخ 8 تشرين الثاني/ نوفمبر: «يا إلهي، يا إلهي [...] تليها فقرة لا تقل تشظياً: القهقهة البهيمية [...]» أدخل القوسين المربعين إتش. بي. بارفود محرر أوراق كيركغارد الذي استخدم الكلمات التمهيدية لهذه الفقرات معجماً في فهرسته للأوراق ولكنه للأسف فقد بعد ذلك المخطوطات الأصلية.

إذا كانت الفقرات المكتوبة في يوميات كيركغارد تكشف الكثير وإذا كانت نية بارفود أن يضمن لنفسه سمعة محترمة بعد وفاة كيركغارد بتغييب هذه الفقرات فإن ما حققه هو العكس تماماً. فشطر واحد يكون الدعوة المثلى للقيام بمحاولات هدفها إعادة بناء المادة المفقودة في شكلها الأصلي المفترض، وبمرور السنين غامر جيش صغير من الباحثين المبدعين بالذهاب بعيداً على أرض رخوة من التخمينات ليقدموا إلى العالم نظريات من أشد الأصناف استفزازاً. إذ نُسبت القهقهة البهيمية إلى ماخور حيث لم يكن كيركغارد، المخمور إلى حد فقدان الحواس، قادراً على praestere ptaestanda - كما يقولون بلغة مهذبة - [بالدنماركية/ اللاتينية: «أن يفعلها»] ولذلك كان مرغَماً على دس ذيله بخجل بين ساقيه ومغادرة المكان. من جهة أخرى يعتقد منظرون آخرون أن كيركغارد تمكن من أن يفعلها ولكنه أُصيب بعد أن فعلها بالسفلس أو بشيء بغيض آخر دون أن يستبعدوا إنجاب طفل ضد رغبته. ويقبض فريق ثالث من الباحثين بقوة على جذر القضية نفسه متكهنين بحجم عضو كيركغارد

التناسلي وشكله، بما في ذلك إمكانية أن يكون مسلحاً بقضيب معقوف ستكون مناورته الفرجية على الأرجح محدودة بعض الشيء نتيجة ذلك.

ولكن إذا تمسكنا بمصدر المواد يتضح أن قصة الماخور ليس لها أساس يسندها. فأولاً، لم يكن من الغريب بصفة خاصة على بارفود أن يفقد الفقرات المكتوبة في اليوميات. وكما سبقت الإشارة فإن هذا كان يحدث في أحيان كثيرة ولهذا فإن اختفاء فقرات اليوميات ذات العلاقة يُفسَّر تفسيراً أدق على الأرجح بالإهمال الاعتيادي وليس بأي حرص على سمعة كيركغارد بعد وفاته. ثانياً، استخدم بارفود في فهرسه علامة هلالين واضحة لربط الفقرة المكتوبة عن القهقهة البهيمية بالفقرتين التاليتين - كلاهما تتعلقان بمشاهد من إحدى الطبعات الدنماركية لكتاب «دون جوان» - ولتأكيد العلاقة بين الفقرات الثلاث كتب بارفود «دون جوان» خارج الهلالين. وكدليل ثالث وأخير ينبغي أن نلاحظ إن بارفود كتب في مدخل فهرسه إنه استخدم التشديد المزدوج بخطين تحت كل شيء «يمكن القول إنه يمس بأدنى الطرق أو حتى يلمّح تلميحاً إلى الجوانب الشخصية من حياة الراحل أو سيرته بالمعنى الأضيق للكلمة». الفقرات ذات العلاقة في اليوميات لم تكن مشددة بخطين تحتها. ويبدو أنّ الأساس النصي غائب للفرضيات المتعلقة بالقدرة على «أن يفعلها» والتسلح بأداة معقوفة وما إلى ذلك.

الأكثر من ذلك سيكون على غير عادة كيركغارد إلى حد بعيد أن يتحدث في يومياته عن ليلة في ماخور. فإن كيركغارد، لا في شبابه فحسب بل طيلة حياته، كان شديد التكتم بشأن ميوله الجنسية. وبخلاف هانز كريستيان أندرسن ما كان كيركغارد ليحلم قط بأن يُثقل على الأجيال اللاحقة بفقرات في يومياته عن التهاب خصيتيه، وما كان ليؤشر تقويمه بعلامة X على كل يوم استمنى فيه. وحتى أبعد من ذلك أن يكون كيركغارد حاكى سترندبرغ الذي كان يقيس طول عضوه الذكري المنتصب بمسطرة ثم يستشير طبيبه إن كانت ست بوصات وربع البوصة فوق الطول المتوسط أو دونه. وأقرب ما نصله إلى هذه المواضيع الحساسة فقرة في اليوميات من عام 1843 اعترف فيها كيركغارد بأن الشخص الوحيد الذي أجرى معه «حديثاً خليعاً هو قبطان من سفن التجارة مع الصين» في الرابعة والسبعين من العمر كان يتردد بانتظام على مقهى «ميني» حيث كان يجلس ويتبجح بشأن كل النساء اللواتي ضاجعهن خلال سنوات على طول الطريق من

مانيلا إلى لندن. وكان يعطيهن «مشروباً مُسكراً من الروم والماء المغلي» لأنهن يحببن هذا المشروب. لم يصدقه كيركغارد في الحقيقة «لأن لديه نوعاً من الفطنة تشهد لصالحه» ولذلك «كانت كلماته فكاهية أكثر منها داعرة». ومن غير الواضح بالقدر نفسه إن كان هناك أي كلام خليع في نيسان/ أبريل 1836 حين أجرى كيركغارد حواراً مع يورغن يورغنسن، ضابط الشرطة الذي كان سُكره مرئياً بجلاء «على طرفي فمه». وعبر بحر من القناني أطلق يورغنسن الإعلان العاطفي المرير بأن المرء يمضي نصف حياته «في عيشها والنصف الثاني في الندم عليها». ويراودنا إحساس بأن طالب اللاهوت الشاب كان مراقِباً أكثر منه مشاركاً وإنه نفسه لم يكن لديه الكثير مما يندم عليه. ونحسب إنه فيما كان والده يجلس ويعض أصابع الندم على خطايا «شبابه» الآسف عنها، كان الابن يجلس متأسفاً لأنه لم يفعل شيئاً يستحق الندم عليه. ولا العصر الدنماركي الذهبي (الذي كان يوزع الأوسمة الذهبية على أكبر الوشاة) قدَّم شاهداً واحداً ذَكَرَ أي شيء يمكن أن يلمح حتى تلميحاً إلى أن كيركغارد كان فاسقاً.

الحقيقة العارية تبدو أنّ كيركغارد وإن كان في كتابه «مفهوم القلق» يقدم لنا على لسان فيغيليوس هاوفنينيس معاينة مستفيضة للعلاقة بين الجنسوية والتاريخ فإنه نفسه ظل صامتاً بشأن الدور الذي قامت به الجنسوية في تاريخه. ولكنه كان أحياناً ينساق وراء استعراضية كثيراً ما تموِّه نفسها عميقاً في ثنايا التواضع. واستسلم كيركغارد لإغراء إدخال ثقوب مفاتيح في نصوصه، المنشورة وغير المنشورة، يستطيع القارئ أن يسترق النظر منها ويخرج باستنتاجاته الخاصة. وفي غالب الأحيان كان كيركغارد يُقدّم مثل هذه الرؤى بعبارة افتراضية هي «لو كانت تلك هي الحال» أو «إذا» أو «لنفترض» ثم ينتقل إلى صيغة الشخص الثالث لزيادة المسافة بحيث تكون حتى أبعد عن نفسه. أو إنه كان يستطيع تشفير نصه ويضع مفتاحاً لفكها، كما هي الحال مع فقرة طويلة في يومياته من عام 1837 ينظر فيها كيركغارد عائداً إلى واقعة تركت فيه أثراً بالغاً: خلال تولعه الشبابي بـ«كبير اللصوص» انتابه الحزن بعد أن ذكر بحضور والده إن لصاً كهذا حقاً يهدر قدراته وإنه «يستطيع بكل تأكيد أن يصلح أحواله». فرد والده على ذلك قائلاً «بجدية كبيرة» إن هناك «جرائم لا يستطيع المرء أن يكافحها إلا بمعونة الله المستمرة». كما اغتنم والده الفرصة ليهز إصبعه في توبيخ أخلاقي، فلم يتأخر الابن في فهم الإشارة: «هرعتُ إلى

غرفتي ونظرتُ إلى نفسي في المرآة (راجع شليغل Schlegel، الأعمال الكاملة، الجزء 7، أسفل ص 15)».

يكمن بين هلالين في فقرة اليوميات المقتبسة آنفاً مفتاح شفرة، هو إشارة دقيقة بصورة لافتة إلى الجزء السابع من أعمال شليغل الكاملة. والإشارة هي إلى رواية خيالية من عام 1825، عن الساحر ميرلن الذي هام بحب خادمة مليحة وأيقظ رغبتها الجنسية. وفي الصفحة التي يشير كيركغارد إليها (أسفل ص 15) فإنها نزعت ملابسها للتو وكانت تقف أمام مرآة مسرورة بمنظر شبابها، شكلها العاري، وطوال الوقت تسبب التفكير في إغراءات ميرلن بتصاعد رغبتها إلى الحد الذي أصبحت معه على اقتناع في النهاية بأنه من دون الاستمتاع برجل – ohne den Genus seines Mannes – ستكون ضائعة ضياعاً مطلقاً.

ما فعلته الخادمة تالياً لا يقوله شليغل ولكن من الواضح إن رد فعل كيركغارد على توبيخ والده في موقف مماثل كان أن يأخذ الأمور بيده هو. والحق إنه ركض مسرعاً إلى غرفته ليرى نفسه في المرآة لأنه كان يُعتقد أنّ الاستمناء يكشف عن صاحبه بسحنة شاحبة وعينين منطفئتين تحيطهما دوائر سوداء. وكان الاعتقاد السائد إن الاستمناء يقترن بطائفة من الأعراض المخيفة. وأكد أولوف لوندت بانغ طبيب عائلة كيركغارد، بلغة واثقة في القسم 124 من كتابه «دليل العلاج»، تحت عنوان «النز المنوي»، إن الاستمناء يمكن أن يسبب وسواس المرض والشلل والعقم والصداع وتساقط الشعر والإرهاق والخمول وفقدان الوزن وضعف النظر والدوار والمالنخوليا السوداء، وفي الحالات القصوى، الانتحار. وأوضح بانغ أنه بالإضافة إلى «الكلام الفاسق والقراءة الفاسقة فإن الرغبة في الاستمناء» قد تكون نابعة من «تملق السيدات والتبطل (الذي يتيح مجالاً واسعاً للخيال، ويرتبط في أغلب الأحيان بالإكثار من بقاء الشخص يقظاً في فراش دافئ)، والأطعمة والمشروبات ذات التوابل الحارة، والملابس الضيقة التي تستثير الأعضاء التناسلية». ويتبدى عادة هذا الميل إلى الاستمناء – الذي يجب ألا يُخلط بينه وبين الرغبة الجنسية التي لا يمكن السيطرة عليها عند الرجل، وهي مرض عقلي – في «تعبير خامل ونظرة حانقة وحلقات سوداء تحت العينين والرغبة في الاعتكاف ورفض المشاركة في ألعاب الطفولة». وفور توصل الطبيب إلى «التيقن من الخطيئة» فإنه يجب أن يأمر «المستمني» بتجنب كل «احتكاك نفسي أو جسدي بالجنس الآخر» بل

«من الخطورة» في الحقيقة «أن يُشار على المستمني التواصل مع السيدات، ولا يكون هذا مفيداً إلا في البداية». وبدلاً من ذلك أوصى بانغ بـ «الاستيقاظ مبكراً في الصباح وأحياناً في الليل، كلما يكون هناك إحساس بحدوث انتصاب، وأداء أعمال شاقة ومتعبة في الهواء الطلق، وفي الصيف الاستحمام بماء بارد على الشاطئ، وفي الشتاء بدش بارد». كما يجب أن يتأكد المرء من أن الملابس «ليست دافئة جداً أو ضيقة جداً» وأن يتجنب قطعاً «النوم على ظهره». وإذا هذا الأخير تعذر «تحقيقه باستخدام قوة الإرادة فإن بالإمكان تحقيقه بوسائل اصطناعية مثل استخدام حزام له شيء صلب أو مدبب في ذلك الجزء الذي يمر بالظهر بحيث يكون الاستلقاء على الظهر غير مريح، ويجب أن يُغمر العضو الذكري والخصيتان في ماء بارد عدة دقائق، ثلاث أو أربع مرات في اليوم». وعلى افتراض أن الشخص ذو عقل سليم فإن هذا يمنحه إمكانية كاملة لأن يكون بلا عقل سليم في جسم سليم بدرجة معقولة.

كان كيركغارد يهتم في أحيان كثيرة بالخطيئة كفعل يُمارَس المرة تلو الأخرى في الخفاء - «الخطيئة تُرتكب في السر» - ويستمر تكرارها رغم احتجاجات الذات الأعلى والأفضل. وكما كتب في عام 1835: «عندما يفرح شخص بالانتصار على قوة الإغراء، في تلك اللحظة ذاتها تقريباً، بعد أكمل الانتصارات مباشرة، يمكن أن يقع حدث خارجي يبدو تافهاً فيقذفه، مثل سيزيف، من قمة التل». ولا تكون الأمور أفضل بحقيقة وجود جين استمنائي في العائلة: في الأيام التي فكر مايكل كيركغارد في التقاعد من عمله في التجارة كانت أول فكرة راودته أن يسلِّم العمل إلى شقيقه بيدر بيدرسن كيركغارد. ولكن بيدر كان مريضاً، وفي عام 1786 تعين عليه أن يقضي عدة أشهر في مشفى فريدريك حيث شُخص بأنه «مختل». ولكن لم يكن بالمستطاع وصف مرضه بدقة، وفي ملف بيدر الطبي رُبطت اضطراباته النفسية بالإمساك، بيد إنه في النهاية قيل إن سبب مرضه هو الاستمناء. وروى سورين آبي فيما بعد إنه في إحدى المناسبات، حين كان عمه يزور كوبنهاغن، ارتدى ثلاثة معاطف رغم حقيقة إن اليوم كان يوماً صيفياً قائظاً. وبحسب بيتر مونتي برون فإن والد كيركغارد قال ذات مرة: «عندما لا أستطيع النوم أستلقي على ظهري وأتحدث مع أبنائي، وليست هناك أحاديث أفضل من ذلك هنا في كوبنهاغن». ونحن بودنا أن نصدِّق الرجل العجوز ولكننا نسأل أنفسنا أيضاً إن لم تكن قصة بيدر والمعاطف الثلاثة ربما من المحاضرات

الليلية التي كان التاجر كيركغارد يشدد بها على أبنائه غير البالغين ضرورة التحرك في الوقت المناسب لكبح جماح الرغبة.

بالطبع إن والد كيركغارد بإدراجه الاستمناء في عداد «الجرائم التي لا يستطيع المرء أن يكافحها إلا بمعونة الله المستمرة»، أسهم في تشويه حياة ابنه الجنسية تشويهاً شديداً بحق ولكنه ساعد أيضاً على تركيز اهتمام سورين آبي بأشكال وإزاحات مختلفة من الغريزة الجنسية. وهكذا أرفق كيركغارد بفقرته في اليوميات عن الشابة ذات الرغبات الجنسية، فكرة عن الإحساس بالحتمية الذي يقترن بالرغبة الجنسية حين تدخل العقل الباطن. إذ كتب «إن كل ما يحدث يميل إلى أن يكون مسبوقاً بنذير معين. ولكن مثلما إن هذا يمكن أن يكون له تأثير رادع فإنه يمكن أن يكون إغراءً أيضاً لأن الشخص يمكن أن تخطر له فكرة إن مصيره مقدَّر سلفاً، كما لو إنه يستطيع أن يرى نفسه منقولاً بواسطة منطق معين إلى خاتمة ما، بل كما لو إنه بلا تأثير في هذا المنطق». خَبِرَ كيركغارد كيف أن القوى الجنسية يمكن أن تعبر عن نفسها فجأة رغم المواضعات والحواجز التي يأخذ نور الوعي الواضح تعاليمه منها، وكان يستخدم تعبيراً لاهوتياً لشرح الموقف: «مصير مكتوب سلفاً». وفي الوقت نفسه كان كيركغارد يدرك إن التحريم يمكن أن يستحضر ما كان يريد منعه على وجه التحديد لأنه يمنح شكلاً وجلاءً لمواضيع الرغبة التي لولاهما تكون معتمة. «لذلك يجب أن يكون المرء شديد الحذر مع الأطفال. ويجب ألا يفترض الأسوأ أبداً أو، بظنون سابقة الأوان أو ملاحظة عابرة... يستدعي وعياً معذباً يمكن أن تُغرى فيه أرواح بريئة لكنها ضعيفة بأن تظن نفسها مذنبة، أن تيأس وبذلك تتخذ الخطوة الأولى نحو الوجهة التي سبقها نذير مثقل بالقلق... ومن هذه الناحية أيضاً يمكن القول: «الويل لمن تأتيه الغواية»».

هذه الفقرة من اليوميات هي من عام 1837، حين كان عمر كيركغارد لا يتجاوز الرابعة والعشرين. ومع ذلك أدرك خطأ والده الصارخ وسد له أذنه بشكل مفهوم تماماً حين كان رب الأسرة يُبلِغ ابنه في فترات منتظمة «إن من الجيد أن يكون للشخص قس اعتراف شيخ محترم كهذا يستطيع أن يأتمنه». لم يشعر الابن على الإطلاق بما يغريه بالاعتراف، ولا سيّما وإن والده وضع علامة مصيرية على رغبة ابنه قالباً ما هو طبيعي وغير طبيعي، وبهذه الحدود ظَلَم ابنه جنسياً. إذ كتب كيركغارد في عام 1845، إذا قيل لطفل إن كسر ساقه خطيئة فأي

قلق سيعيش فيه الطفل، وكم مرة من المرجح أن يكسرها، بل إنه سينظر حتى إلى الاقتراب من كسر الساق على أنه خطيئة... كما على سبيل المثال في حالة رجل كان غارقاً في الفسق ولردع ابنه عن الانغماس في السلوك نفسه على وجه التحديد أصبح ينظر إلى الغريزة الجنسية نفسها على أنها خطيئة - ناسياً إن هناك اختلافاً بينه وبين الطفل».

كيركغارد بربط والده بالتحريم وربط التحريم بالرغبة، رفع الغطاء عن مكونات منطق في الليبيدو سيلعب دوراً حاسماً في تحليلاته للخطيئة الموروثة [بالدنماركية arvesynden، وتعني حرفياً «الخطيئة الموروثة» لكنها كثيراً ما تُترجم على أنها «الخطيئة الأصلية»] في عمله «مفهوم القلق» حيث استخدم أيضاً فقرته السابقة في اليوميات عن «النذير» الذي يسبق الحتمية التي تظهر الغريزة معها: «منطق الخطيئة يتقدم، يجر الفرد معه كامرأة يجرها جلاد من شعرها فيما هي تصرخ هلعاً. القلق يأتي أولاً، يكتشف المنطق قبل وصوله، مثلما يستطيع المرء أن يحس في عظامه بدنو العاصفة. إنها تقترب، والفرد يرتجف كحصان يقف ويصهل في البقعة التي جفل فيها ذات مرة. الخطيئة تقهر». استخدام الاستعارات هنا يجعل من الواضح بجلاء كيف يكون «مصير الفرد مقدَّراً سلفاً»، سامحاً بأن تُجر نفسه ضد إرادتها إلى المشنقة حيث سيقع ما تخافه. وهناك في كتابات كيركغارد كلها الكثير من هذه الصور ذات التوتر العالي لصراع الفرد البطولي ضد الغواية - وتكون الغواية عادة هي المنتصر فتحكم على المرء بالخطيئة، ويمكن أن نجد تصويراً كهذا في عمله «المرض حتى الموت»: «إذا كان شخص ما مدمناً على هذه الخطيئة أو تلك لكنه نجح في مقاومة الغواية زمناً طويلاً - إذا انتكس واستسلم مرة أخرى للغواية فإن القنوط الذي يعقب ذلك لا يكون بأي حال دائماً من باب الأسى بسبب الخطيئة. وهو قد يكون عدة أشياء أخرى أيضاً بل يمكن أن يكون سخطاً على الحاكمية الإلهية وكأن هذه الحاكمية هي التي تسببت في استسلامه للغواية، كما لو إنها فعلت ذلك نظراً للحقيقة الماثلة في أنه قاوم الغواية بنجاح كل ذلك الوقت. وينبغي ألا تكون الحاكمية الإلهية قاسية عليه». رغم إن هذه السطور يمكن، مبدئياً، أن تكون عن أي شيء غير الفشل في مقاومة غواية جنسية فإن من الصعب الإفلات من الانطباع بأن المناسبة الرئيسية والخلفية الأساسية لهذا النص هي على وجه التحديد هذه «الغواية». ذلك «إن الجنسوي بحد ذاته ليس هو الآثم»، كما يكرر

في «مفهوم القلق» المرة تلو الأخرى، كأنها لازمة تقريباً، ولكن حين نقرأ هذا يجب أن نسأل أنفسنا إن كان الكاتب حقاً يعني ما كتبه أو إنه ربما يبدو أكثر صدقية حين يبلغنا «إن التحريم يوقظ الرغبة».

لكن هناك أيضاً مقاطع تصوُّر التسامي. ويهتم كيركغارد في عمله «من أجل معاينة الذات» الصادر عام 1851، بنسيان الشخص الذي غالباً ما يكون نسياناً لا رجاء فيه بشأن وعوده بالإصلاح، ويعطي المثال التالي للتوضيح: «تخيلوا شخصاً كان وما زال مدمناً على عاطفة. ثم تأتي لحظة - ولحظات كهذه تأتي لكل واحد، ربما عدة مرات، وللأسف عدة مرات بلا جدوى! - ثم تأتي لحظة حين يتوقف، على نحو ما. ويستيقظ قرار بأن يتحسن. ثم تخيلوا إنه قال لنفسه ذات صباح (لنفترض أنه مقامر مثلاً) «أتعهد بمهابة وقدسية ألا تكون لي أي علاقة بالمقامرة، أبداً مرة أخرى - الليلة ستكون المرة الأخيرة». أوه، يا صديقي، إنه ضائع! ولن أتردد في المغامرة بالحفاظ على الموقف المعاكس، مهما قد يبدو ذلك غريباً وهو: إذا كان هناك مقامر قال لنفسه في لحظة كهذه، «حسناً، يُسمح لك بالمقامرة كل يوم لما تبقى من حياتك ولكن الليلة يجب أن تمتنع عنها» - إذا فعل ذلك، يا صديقي، فإنه سيُنقَذ بكل تأكيد! لأن القرار الذي اتخذه المقامر الأول كان خدعة مارستها عليه الرغبة، والقرار الذي اتخذه المقامر الثاني يخدع الرغبة. الواحد يُخدع بالرغبة والآخر يَخدع الرغبة... لأن الرغبة إذا أُجبرت على الانتظار تفقد الرغبة». الجدير بالملاحظة هنا ليس إن كيركغارد تمكن من تصوير التسامي بطريقة أساسها راسخ في الخبرة فحسب بل اللافت أيضاً أن هذا التصوير يوضع وسط خطاب تثقيفي يمكن القول إن عنوانه «من أجل معاينة الذات» عنوان أُحسن اختياره بأكثر من المعنى اللاهوتي!

ما إذا تمكَّن كيركغارد نفسه (وإذا تمكن فإلى أي مدى) من خداع الرغبة بحيث إنها فقدت الرغبة في أن تكون رغبة فإن هذا يبقى سؤالاً مفتوحاً ولكن النظرية التي قدمها باحث معروف بأن كيركغارد «كان يعاني تحت وطأة التواصل الذاتي للاستمناء» طيلة الشطر الأكبر من حياته تبقى مجرد ادعاء. ورغم وجود تقارير مبعثرة عن انتكاسات إلى خطايا الماضي فإن بالإمكان النظر إلى كتابات كيركغارد - أيضاً - على أنها عملية تسام كبيرة واحدة كانت فيها الغرائز تُجسَّد في عمل إثر آخر. ومن هذه الناحية لم يكن كيركغارد يختلف اختلافاً ملحوظاً عن كثرة من الآخرين في زمنه. فهم أيضاً كانوا يدفعون أنفسهم إلى الإنتاج، وهم

أيضاً كانوا يُجبرون الرغبة على اكتساب أشكال من التعبير غير الآنية، صانعين بذلك الفن السامي للعصر الذهبي الدنماركي، وهم أيضاً كانوا يعانون دورياً من كل الأمراض النفسية - الجسدية التي يمكن أن تؤدي إليها الرغبة المجهَضة.

هكذا تعج يوميات بيتر كريستيان بتعليقات على التهيج والاضطراب والقلق والدوار والأفكار النجسة والحمى العصبية وكذلك أحلام مقلقة غريبة لا يصفها إلا برقياً. ومن السمات المعهودة تماماً في صراع بيتر كريستيان بين الطاقة الإيروتيكية والانضباط الذاتي القاسي، بين النزوع والواجب، فقرة في يومياته من 16 تشرين الأول/ أكتوبر 1835 شكا فيها من إنه ليس قادراً على حمل نفسه للقيام بسر التناول المقدس مع والده رغم تعهده المهيب لوالده بأن يفعل ذلك - ثم بعد ذلك مباشرة كتب بيتر كريستيان: «الاستحمام بدش كل يوم».

ماريا

بعد بضعة أشهر، كان بمقدور بيتر كريستيان أن يبدأ تخفيض المرات التي تتواتر بها هذه الفترات التبريدية. وفوجئ كثيرون - ليس آخرهم هو نفسه - حين وجد نفسه يريد الزواج. وقع اختياره على أليسا ماريا، وهي شابة دافئة وحيوية كانت ابنة الأسقف الراحل بي. أو. بويسن وزوجته آنا بويسن (سابقاً نانيستاد، التي تُسمى عادة «نانا»). وبعد نقاشات عديدة مع والده خلال الربيع نال بيتر كريستيان أخيراً الموافقة المطلوبة على علاقته بأليسا ماري (أو «ماريا» كما كان يسميها) مع عهد بمؤازرة اقتصادية، وفي 5 حزيران/ يونيو 1836 أعلنا خطوبتهما.

هكذا أُرفقت صفحة ناصعة لم تُكتب بعد بالحكاية الكئيبة للثلاثي الرجالي الذي شكل الباقين من عائلة كيركغارد. وبعد عدة سنوات تعيسة سيتذكر بيتر كريستيان إن ماريا شخص «كان يجعل فجراً رقيقاً يبرغ على والدنا العجوز»، وأضاف «إن سورين تأثر بذلك تأثراً ليس قليلاً بكل تأكيد». فإنَّ ماريا أدخلت نغمة جديدة تماماً، بالمعنى الحرفي للكلمة، إلى البيت: كانت تستطيع العزف على البيانو وتغني أثناء العزف. ويكشف دفتر حسابات بيتر كريسيتان إنه في عيد الميلاد أنفق ريكسدولاراً كاملاً على «15 أغنية راقصة من تأليف أنغمان».

مع ذلك لم يكن بيتر كريستيان شخصاً من النمط الذي يغير حياته بالكامل بين ليلة وضحاها لأنه وقع في الحب. وحين غادرت ماريا وعائلتها إلى يوتلاند

لقضاء إجازتهم الصيفية كان بيتر كريستيان منهمكاً في عمله بحيث لم يكن لديه وقت للرد على رسائلها المشبوبة بالعواطف. ولكن ذات ليلة انسلّت والدتها نانا من الفراش ونزلت لكتاب رسالة إلى بيتر كريستيان ناشدته فيها أن يزور ماريا زيارة قصيرة على أقل تقدير. وتنتهي الرسالة بالقول: «انتبه إلى نفسك وتعال قريباً إلى حبيبتك ماريا التي كلها شوق». حتى بيتر كريستيان نفسه لم يتمكن من مقاومة طلب كهذا، وفي أوائل تموز/ يوليو حزم حقيبته وغادر في إجازة صيفية متأخرة. صفحات يومياته للفترة اللاحقة فارغة بهذا القدر أو ذاك، ويكون هذا عادة دليلَ سعادة.

لكنه سرعان ما عاد إلى كوبنهاغن واستأنف قلقه وانشغاله بنفسه. كانت الحرارة في المدينة خانقة، ولم يتمكن من إنجاز أي عمل، وعندما استعاد في النهاية شيئاً من إيقاع عمله تعين عليه أن يمضي شهر أيلول/ سبتمبر كله في مساعدة القس غيورغ هولغر فاغة على تحسين اللغة اللاتينية الابتدائية التي كتب القس رسالته الأكاديمية بها عن «الهبوط إلى مملكة الأموات». ولكن في 21 تشرين الأول/ أكتوبر 1836 زار بيتر كريستيان وماريا أخيراً كنيسة هولمنز حيث أعلن هذا القس نفسه، من بين كل الآخرين، مستجمعاً كل ما لديه من صلاحية، أنهما متزوجان بصورة شرعية. وحين استقر الزوجان في الطابق الأرضي لبيت العائلة في شارع نيتورف، كانت الفقرة التي كتبها بيتر في يومياته تشي بإحساس بنفاد الصبر: «الأيام الثلاثة [بعد الزفاف] أُنفقت على استقبال الزوار الذين يريدون تقديم تهانيهم، وأُنفقت عدة أيام أُخرى على إنهاء عملية الانتقال، وترتيب الكتب، إلخ». الآن حان الوقت لممارسة فن الرجل الذي له عائلة، ولكن بيتر كريستيان فضل ألا يفعل ذلك. وخلال ربيع 1837، حين كانت هناك فوضى كبيرة بالارتباط مع زيارة قامت بها حماة بيتر كريستيان ومرافقوها، كتب هذه الفقرة الكئيبة في يومياته: «بالطبع، شيء من الاضطراب في عملي وفي ترتيباتي المنزلية كان لا مفر منه، ولكني حتى الآن تعاطيتُ مع الموقف أفضل مما كنتُ أتوقع». وفي أيار/ مايو، كانت «تصليحات واسعة» مصدراً إضافياً للاضطراب في عائلة كيركغارد كلها، بمن فيهم أصغر أفرادها وأكبرهم، اللذان كلاهما كانا يعيشان في الطابق الثاني.

في حوالي وقت الزفاف، جرت ترتيبات لإقامة حفلة في منزل ابن أخ التاجر كيركغارد، أم. أي. كيركغارد وهو تاجر جملة كان يسكن في شقة كبيرة في 45

شارع كوبماغيراده. وكان هانز بروشنر طالب لاهوت يقيم في كلية ريغينسن عام 1836، وفي سنوات لاحقة انتقل للسكن مع أم. أي. كيركغارد هذا نفسه، ولكن في الوقت نفسه لم يكن بروشنر ابن السبعة عشر عاماً إلا مستكشفاً لديه حب استطلاعٍ في هذا العالم، وبالتالي كان قوي الملاحظة. وبعد سنوات تذكَّر بروشنر تلك الحفلة المسائية: «رأيتُ سورين كيركغارد هناك دون أن أعرف مَنْ يكون، قيل لي فقط إنه شقيق الدكتور كيركغارد. كان قليل الكلام في تلك الأمسية، وقام بدور المراقب أساساً. انطباعي الأكيد الوحيد كان عن مظهره الذي وجدتُ إنه يكاد أن يكون هزلياً. كان حينذاك في الثالثة والعشرين من العمر، وكان ثمة شيء غير اعتيادي في كامل هيئته، وكانت له تسريحة غريبة. إذ كان شعره يرتفع زهاء ست بوصات فوق جبهته في عِرْف أشعث أضفى عليه مظهراً غريباً حائراً. ودون أن أعرف كيف تماماً تكوَّنَ عندي انطباع بأنه بائع في متجر - ربما لأن العائلة كانت عائلة تجار - وأضفتُ فوراً إلى ذلك، من انطباعي عن مظهره الغريب، إنه لا ريب يعمل في متجر لبيع البضائع الجافة. لاحقاً كنتُ كثيراً ما أضحك من كل قلبي على فطنتي».

لما تبقى من عام 1836 كان بيتر كريستيان شديد الانشغال بالكثير الكثير من الإمكانات التعليمية. وفي عشية السنة الجديدة كتبت مسز كيركغارد إلى حبيبتها نانا إن الكرسمس في محيطها الجديد «مر بهدوء وسكون كبيرين» وإن عشية الكرسمس نفسها أُمضِيت مع حماها. «اليوم التالي على الكرسمس حضرنا للتناول. كان ذلك في الساعة التاسعة صباحاً، وكان الجو بارداً وعاصفاً بشدة. مرت ثلاث ساعات قبل أن نصل إلى البيت رغم إن الله كان في عوننا هنا أيضاً لأن أحداً لم يُصب بالزكام». ولكن لعل الكنيسة كانت شديدة البرودة لأن ماريا بدأت السنة الجديدة مصابة بالإنفلونزا التي أبقتها حبيسة البيت حتى بداية شباط/ فبراير. وكانت تزجّي الوقت بكتابة الرسائل إلى والدتها عن زوجها المشغول الذي كان عليه إعطاء الكثير من الدروس والمحاضرات في الجامعة حتى إنها كانت في غالب الأحيان تقضي اليوم كله وحيدة. هو لم ينسها بأي حال من الأحوال: كما أشارت أعطاها مصباحاً ليلياً وكرسياً تريح عليه قدميها وكتاباً من القصص الرومانسية. «كانت ماري حقاً تحب الخروج وتدع نورها يشع بين الآخرين»، كما أوضحت شقيقة زوجها إيلين بويسن ولكن للأسف، كما تابعت، فإن زوجها «يفضل أن تغني له وحده - رغم إنه لم يكن لديه أي حس بالغناء أو الموسيقى».

مع اقتراب الذكرى الأولى لذلك الصيف المشهود في يوتلاند، يكتب بيتر كريستيان في يومياته: «في اليوم الأول [من تموز/ يوليو 1837] تعين على ماري أن تلازم الفراش». ففي المساء السابق خرج الزوجان في نزهة على أسوار المدينة ولكن حين دخلا وسط البلدة عن طريق الحدائق الملكية وكانا على وشك السير باتجاه نيتورف فاجأهما وابل عنيف من المطر. تبللت ماريا وتعين عليها أن تلازم الفراش خلال اليومين التاليين. وجرى حديث عن استدعاء نوتسهورن طبيب العائلة ولكن بيتر كريستيان ونانا، التي كانت تقوم بزيارة صيفية قصيرة، اتفقا على أن ماريا كانت على الأرجح تعاني من «الدلال المفرط».

حمو ماريا نظر إلى الوضع نظرة مغايرة بالكامل، ودونٍ إبلاغ بيتر كريستيان اتصل بمحامي العائلة باير. وفي صباح 5 تموز/ يوليو وقّع الزوجان، باقتراح من باير، وصيتين يعيّنان فيهما أحدهما الوريث الشرعي الوحيد للآخر. وإذ تذكّر بيتر كريستيان المرتاع برودة أعصاب والده في قضايا المال لاحظ لاحقاً: «أتمنى لو لم يحدث ذلك قط». اليوم التالي كان عيد ميلاده الثاني والثلاثين، وأهدته ماريا المحمومة نسخة من كتاب غروندتفيغ Lays، اشترتها مسبقاً قبل فترة طويلة. وفي ساعة متأخرة من وقت العصر تحولت «الحمى المِعَدِية» إلى «تيفوس عصبي مع نوبات تشنجية عنيفة» استمرت خلال اليومين التاليين. أرسلوا في طلب الطبيب الذي لم ير سبباً للقلق، ولكن سرعان ما فقدت ماريا الوعي مرتجفة بتشنجات في الصدر. وفي الليل، حين كانت تهذي بسبب الحمى، غنّت بقمة صوتها، وكانت الأغاني غريبة بطريقة تثير الرهبة «وفي منتهى الروعة» حتى إن أشخاصاً كانوا أحياناً يقفون بهدوء في ميدان غاميلتروف للاستماع فيما كان آخرون على دَرَجات السلم يخططون «لكتابة هذه الموسيقى الغريبة». وفي حوالي الساعة الرابعة صباح أحد الأيام استعادت وعيها بصورة مفاجئة وسألت عن زوجها ووالدتها قائلة «الآن انكسر الجليد. الآن يجب أن أنتقل إلى ملكوت الله».

بيتر كريسيتان سمع ذلك من الحارس الليلي. فخلال الأسبوع السابق كان هو نفسه يقضي الليل في غرفة بشارع فيسترغاده فيما كان شقيقا ماريا، لارس وبيتر، ينامان في غرفته. «للأسف» - تلك هي الكلمة التي تُقدِّم ما كتبه في يومياته حيث يشرح الاتفاق على هذا الترتيب، الذي حاول أن يبرره بالإشارة إلى ظروف عملية خارجية في حين إن السبب في الواقع كان خوفه من الاقتراب

من ماريا. وحين جاء لزيارتها زيارة قصيرة في 13 تموز/ يوليو ترجَّتْهُ «متوسلة» أن يقبّلها، قبلة واحدة - وكما يكتب بتحفظ كاشف - كان هذا شيئاً لم يستطع «أن يهمل القيام به».

«يهمل القيام به»! كانت القبلة آخر قبلة في حياته. وتوفيت ماريا صباح 18 تموز/ يوليو ودُفنت بعد أربعة أيام في مقبرة أسيستنس، في رقعة خاصة بالعائلة كانت تمتلئ أكثر فأكثر بالموتى في مقتبل العمر.

بعد أسبوع، يوم الثلاثاء 25 تموز/ يوليو، نشرت صحيفة «أدريسيفسن» تحت باب «الوفيات» الرسالة التالية: «في يوم الثلاثاء، المصادف 18 تموز/ يوليو من هذا الشهر، انتقلت إلى جوار ربها زوجتي الحبيبة أليسا ماريا، سابقاً بويسن، التي أسلمت الروح برقة وهدوء بعد ثمانية عشر يوماً من الصراع مع التيفوس، عن 32 عاماً وفي السنة الأولى من زواجنا... بي. كريس. كيركغارد».

استقدام الكآبة إلى غرف مؤجَّرة

«إنه الطريق الذي علينا جميعاً أن نسير فيه، فوق جسر الحَسرات إلى الأبدية». تبرز هذه الجملة بوصفها من أول الفقرات في يوميات سورين كيركغارد لعام 1837. وبعد دفن ماريا بفترة قصيرة كرر الكلمات على قصاصة ورق صغيرة. فالموت طَرَق باب الحلقة العائلية الداخلية للمرة السابعة، وكيركغارد نفسه لم يبلغ الخامسة والعشرين بعد، وبالتالي لم يكن غريباً أن يشعر كأنه «عبد في سفينة مقيد بالموت، كلما تتحرك الحياة تخشخش السلسلة ويجعل الموت كل شيء يتلاشى - وذلك يحدث في كل لحظة».

كما مع الوفيات الأسبق، كان كيركغارد ساخطاً على ضحالة الأقارب الذين حضروا مع تعازيهم كأنهم «آلات بشرية تتحرك»، يتلفظون عبارات ورعة. وفي اليوم الذي أعقب وفاة ماريا كتب بلوعة كاملة: «يجب أن تحبَّ جارك كما تحب نفسك، مثلما يقول أشباه المثقفين البورجوازيين، وما يعنيه هؤلاء الأطفال ذوو التربية الحسنة، المواطنون النافعون الآن، هو... أولاً، إن الشخص حين تُطلَب منه مطفأة شموع، حتى إذا كان يجلس بعيداً عن الشخص الذي طلبها منه، فإنه يقول «بكل تأكيد» ثم ينهض و«بسرور بالغ» لكي يعطيه إياها، وثانياً، إن ما يعنونه هو إن الشخص يجب أن يتذكر القيام بكل زيارات التعزية الواجبة. لكنهم لم يشعروا قط بمعنى أن يدير العالم أجمع ظهره لهم لأن مدرسة القيادة

كلها التي ينتمون إليها – مجموعة دائمة الترحال – لن تسمح أبداً، بالطبع، بنشوء وضع كهذا».

كان الوضع لا يُطاق، ومباشرة بعد دفن ماريا تعين على سورين آبي أن يهرب إلى هليرود لبضعة أيام. وبيتر كريستيان نفسه هرب في النهاية إلى سوليرود في بداية آب/ أغسطس ولكن الإجازة لم تدم طويلاً قبل أن يأمره والده بالعودة إلى المدينة: «كان سورين مكتئباً في الآونة الأخيرة ربما أكثر من أي وقت مضى بالتفكير في صحته على الأرجح، ولكن ذلك يجعله مغتماً ومضعضعاً، ويكاد أن يصيبه بالجنون. وقياساً على هذه الأيام الأخيرة، حين بدأت الأمور حقاً تسوء، فإن الرحلة الترويحية التي قام بها لم تنفعه بالمرة». ولا بيتر كريستيان جنى أي فائدة خاصة من إجازته هو، وفي 3 تشرين الأول/ أكتوبر كتب والده إلى شقيقته إيلسا عن حالة بيتر كريستيان بعد أن نُكب بوفاة ماريا: «حزنه بهذه الوفاة لا يُوصف وله تأثير مقلق على صحته، التي كانت هزيلة قبل ذلك». لم يتمكن حتى من حمل نفسه على أن يطلب حفر اسمها على شاهد القبر هناك في المقبرة، رغم أن حماته نانا ناشدته مراراً أن يفعل ذلك: «لا أتمنى سوى أن يوضع اسمُها بطريقة أو أخرى على شاهد القبر مثل الآخرين الذين دُفنوا هناك».

تُرك الرجال الثلاثة مرة أخرى بصحبة أحدهم الآخر وسرعان ما استأنفوا أدوارهم المعهودة في الدراما الثلاثية المرهقة. ونستطيع أن نلقي نظرة على وضعهم بتنقيب السجلات الباقية لمشاركتهم في «التناول المقدس». إذ يُفترض بشماس كل كنيسة أن يُدخل اسم كل من يحضر للتناول في هذه السجلات وبذلك ترك سجلات محدَّدة توثّق الورع – أو عدم الورع – في حياة أشخاص رحلوا عن العالم منذ زمن طويل. «التاجر كيركغارد مع زوجته وابنته وأبنائه الثلاثة منهم سورين آبي (قارن)»، كما كتب شماس «كنيسة سيدتنا» قبل سنوات، يوم الجمعة، 25 نيسان/ أبريل 1828، حين شارك في التناول لأول مرة سورين آبي، الذي تلقى سر الميرون يوم الأحد السابق. وكان ذلك كما يُفترَض أن يكون. فهو، مثله مثل والده، اختار الجمعة يوماً لتناوله، وفي الفترة الواقعة بين 1828 و1836 شارك الرجلان في التناول معاً في 18 مناسبة إجمالاً. فالتقدم للتناول معاً يقوّي العلاقة المتبادلة ولكنه يَفترض مسبقاً وجود تسامح متبادل كان الولدان يلاقيان صعوبة أحياناً في استحضاره. وهكذا كان اسم بيتر كريستيان يُضاف أحياناً إلى سجل التناول تحت الخط الذي يشير عادة إلى عدد

التناولات الإجمالي. وأضاف كيركغارد اسمه إلى قائمة المرشحين للتناول في اللحظة الأخيرة بعد صراع روحي مرهق: «مع ذلك، الحمد لله، في السادس عشر تقدمتُ للتناول مع والدي بعد أن حاولتُ التصالح مع سورين، الذي كنتُ متفاهماً معه إلى حد معقول في الآونة الأخيرة، بقدر ما بقينا مهتمين كل بشؤونه. كما كنتُ متفاهماً إلى حد معقول مع الوالد الذي يجب أن يتحمل في أحيان كثيرة مزاجي الكئيب والنزق، الذي تفاقم هذا الشهر بسبب المرض». في ذلك اليوم، 16 كانون الثاني/ يناير 1835، تقدم سورين آبي وبيتر كريستيان للتناول معاً لأول مرة في حياتهما.

في النهاية سَئِمَ سورين آبي من الأمر كله في الحقيقة. اكتفى من ذلك العجوز القمعي الملازم للبيت، الذي يسعل ويتنحنح، وعليه أن يغادر الغرفة في فترات منتظمة للتقيؤ حين كان الدواء المُقَيِّئ (الذي وصفه الطبيب علاجاً لمغصه) يؤدي مفعوله بصوت مرتفع. وضاق ذرعاً بوالده الذي يجوس الغرف الفارغة مُتنصِّتاً، مسترقاً السمع، ومدبراً مكائد صغيرة مع بيتر كريستيان. بيتر الطيب، بيتر الخوَّاف، ذلك الشخص صاحب الضمير الحي الناكر للذات، لكنه أساساً عصابي وغير مؤهَّل للحياة، ومنذ وفاة ماريا كان لديه في الحقيقة سبب للإشفاق على نفسه. وسئم كيركغارد من الأسئلة التي لا أحد في الحقيقة يجرؤ على طرحها، وربما الإجابة عنها. ممَّ ماتت ماريا؟ لماذا لم يكن بيتر كريستيان يريد تقبيلها؟ ولماذا لم يتمكن بيتر من تمالك نفسه ويوعز بإقامة شاهد تذكاري على قبر ماريا في المقبرة؟ هل لأنه كان يعتقد أنّه نفسه سيكون هناك أيضاً عما قريب؟ هل أنزل الله لعنة على آل كيركغارد؟ أم إن الوفيات التي لا تُحصى ربما كانت بسبب مرضٍ معدٍ يقفز من جسد إلى آخر إذا استسلم المرء للحياة والحسية ونسى التحريم الكبير؟

أراد سورين آبي أن ينأى بنفسه عن كل ذلك، ويومياته تنطق بلغتها الواضحة: «سأبتعد عن أولئك الذين لا يفعلون سوى التربص ليعلموا إن المرء ارتكب خطيئة بهذه الطريقة أو تلك - وأتجه إليه [إلى الخالق] الذي يفرح بآثم يتوب أكثر مما يفرح بالتسعة وتسعين حكيماً الذين لا يحتاجون إلى توبة». وهكذا في 28 تموز/ يوليو، حين كتب في دفتر حسابات والده معترفاً بتسلم عشرين ريكسدولاراً، أرفق الجملة الآتية التي لم تكن ودية تماماً: «في اليوم الأول من أيلول/ سبتمبر المقبل هذا عام 1837، حين أنتقلُ من بيت والدي وأكفُ عن أن

أكون جزءاً من عائلته، وعدني الوالد، حتى إشعار آخر، بخمسمئة ريكسدولار في السنة لتوفير مستلزمات معيشتي». الانطباع الذي يتكون لدى المرء إن هذا لم يأت تماماً من دون إشكالية. ولاحقاً، كشف بيتر كريستيان لفيلهلم بيركيدال كيف «كان سورين كثيراً ما يدخل في صدامات حامية مع الوالد، وإنه، من طرف سورين، كانت العلاقة بينهما بعيدة عن كونها طافحة بالتفاني الورع كما قد يظن المرء قياساً على الطريقة التي يتكلم بها عن والده في كتاباته». العاطفي وحده يمكن أن يشكك في صحة هذا القول.

في 1 أيلول/ سبتمبر 1837 نقل سورين آبي متعلقاته القليلة وكتبه الكثيرة إلى شقة في 7 شارع لوفستراده. وفي إطار ترتيباته الاقتصادية وافق على تدريس اللغة اللاتينية في مدرسة بورغرديد حيث كان مسؤولاً عن تعليم الصفوف التي تأتي بعد الصفوف العليا. ولا يُعرف إلى متى استمر في ذلك العمل، وظيفته الحقيقية الأولى والوحيدة، ولكن يومياته تضم طيلة الشطر الأعظم من عام كامل فقرات عن علاقات نَحْوية يبدو أنّ معلّم اللاتينية اليائس تعرف على وضعه فيها – مثل هذه الفقرة من 7 تشرين الأول/ أكتوبر: «للأسف إن حياتي شرطية للغاية. ربي، يا ليت عندي قوة دلالية». هذه القوة الدلالية أبقته ينتظر. صحيح إنه حضر سلسلة محاضرات مارتنسن الموسومة «مقدمات نقدية لعقائديات تأملية»، ولكن من 15 تشرين الثاني/ نوفمبر إلى 23 كانون الأول/ ديسمبر فقط، بعدها لم يعد يرغب في الاستمرار. وعموماً فإنه كان فاتراً: «لا أشعر بالرغبة في عمل أي شيء، لا أشعر بالرغبة في المشي، فهو مرهق. لا أشعر بالرغبة في الاستلقاء لأني حينذاك سأبقى مستلقياً فترة طويلة، وأنا لا أشعر بالرغبة في ذلك، أو سأنهض من جديد، ولا أشعر بالرغبة في ذلك أيضاً. لا أشعر بالرغبة في ركوب الخيل فهو يتضمن حركة مرهقة لا يتحملها خمولي. لا أُريد سوى الخروج في عربة وأترك أشياء كثيرة تمر فيما أكون أنا في حركة هزازة مريحة منتظمة، أتوقف عند كل رقعة جميلة لا لشيء سوى الإحساس بكسلي. أفكاري ونوازعي عديمة الجدوى مثل شهوة خصي. عبثاً أبحث عن شيء قد يستثيرني. ولا حتى لغة القرون الوسطى البليغة قادرة على تبديد الخواء الذي يستحكم بي... باختصار، لا أشعر حتى بالرغبة في كتابة ما كتبته الآن، ولا بالرغبة في محوه».

هذه الحالة نفسها من الخمول استمرت ما تبقى من العام، وتناقصت

الفقرات المكتوبة في يومياته. وفي اليوم ذاته الذي شكا من افتقاره إلى القوة الدلالية كتب عن وجود تفسير محتمل للركود: «كم هو مخيف عندما يُستعاض عن التاريخ كله باجترار سقيم لتاريخ المرء البائس نفسه!» قبيل الكرسمس في 1837 كان خاملاً حتى إن الدليل الوحيد على وجوده الدنيوي هو قصاصات ورقية متفرقة. واعترف في إحدى القصاصات: «أعتقد بأني إذا أصبحتُ ذات يوم مسيحياً جاداً فإن ما سيُخجلني أشد الخجل هو إني لم أصبح مسيحياً كهذا قبل ذلك، وإني أردتُ أن أُجرب كل شيء آخر أولاً». وهذا واحد من الاعترافات التي سمح سورين آبي - بعد أن أصبح مسيحياً جاداً - بانبثاقها من نسخته الرسمية والصوانية بعض الشي لـ: سورين كيركغارد.

لا يُعرف إلى متى استمر طالب اللاهوت الشاب في السكن في شارع لوفستراده. وفي فقرة من اليوميات بتاريخ 1 نيسان/أبريل 1838 يكتب: «جلستُ وكارل الصغير في حضني، وقلتُ له إن في الشقة الجديدة التي أعتزم الانتقال إليها هناك أريكة عتيقة أتطلع إليها حقاً». وهكذا كانت لدى كيركغارد خطط لتغيير مكان سكنه. وكارل هو كارل فرديناند لوند ابن شقيقته البالغ من العمر ثماني سنوات. هذا ما هو مؤكد ولكننا لا نسمع المزيد أبداً عن العنوان الجديد والأريكة العتيقة لأن كيركغارد، على ما يُفترض، عَدِل عن قراره في اللحظة الأخيرة.

«عزيزي أميل! أنت، يا صديقي، الصديق الوحيد»

خلال سنوات التيه هذه تطور التعرف على أميل بويسن إلى صداقة حقيقية. كان بويسن من عائلة مثقفة وابن المستشار القضائي يوهانس بويسن الذي حضر مجمع الأخوة المورافي، حيث تعرف الصبيان المتقاربان في السن على أحدهما الآخر. وبعد أن تلقى أميل دروساً خصوصية دخل الجامعة في عام 1829، وأنهى الفترة الدراسية المتعارف، عليها نال شهادته في اللاهوت عام 1834. وبقي بويسن يعيش في بيت والده الكائن في «زقاق الفيلسوف»، في شقة في العليَّة حيث كان يقف وقت الغسق وينظر حالماً من النافذة وفوق الأسوار، كان يميز بعض الأحيان معالم هضاب الشِعر الزرقاء. ومثله مثل سورين آبي كانت تراوده أحلام بالشهرة الأدبية دارساً هايبرغ الموهوب وبول مارتن مولر المحبوب الذي يمكن العثور على مفرداته الحية («وأن تكون أرواحنا ذات

وجنات متوردة حقاً») متناثرة هنا وهناك في رسائل بويسن. كما حاول بويسن أن يكتسب موهبة مولر في «الفكر العشوائي»، التي كانت تتعامل بهذا القدر الكبير من المهارة والدقة مع قضايا الحياة الفلسفية: «ليس بالإنجاز العظيم أن تصبح أصغر البُرك صافية بحيث يستطيع المرء أن يرى الرواسب في القعر ولكن أرواحنا ينبغي أن تكون أقرب إلى المحيط العميق». هناك التزامات معينة تقع على عاتق من يعيشون في «زقاق الفيلسوف»!

نظر سورين آبي طيلة حياته إلى أميل على أنه صديقه الحميم ولكن قد يكون من الصعب أن نفهم جوهر صداقتهما لأنها لم تترك وراءها أثراً ورقياً، إن جاز التعبير. وخلال سنوات شبابهما لم يكن عليهما إلا المشي مئات قليلة من الأمتار ليكونا برفقة أحدهما الآخر، وبالتالي لم تكن هناك حاجة لكتابة رسائل – خسارة للأجيال اللاحقة. وفي الحقيقة إن الرسائل الوحيدة الباقية من أميل إلى سورين آبي، وكلها ثلاث رسائل، يعود تاريخها إلى خمسينيات القرن التاسع عشر، وحينذاك كانت حميميةُ علاقتهما ضعفت بدرجة كبيرة لعدد من الأسباب. وتَذَكَّر بويسن عن كيركغارد «إنه عموماً لم يكن يكتب رسائل، أو في كل الأحوال لا يكتب إلا ملاحظات صغيرة مضامينها مدروسة بعناية. وكان الأسلوب يبدو سهلاً ولكنه أُخضع لتمحيص دقيق، وكان عادة يستطيع أن يتذكرها لفترة طويلة». كما كان بمقدور بويسن أن يتذكر كيف أن صديقه عادة يحرق الرسائل فور الانتهاء من قراءتها. «وحين يتلفها كان يهتز حتى النخاع». ونكاد أن نراه يفعل ذلك.

أميل لم يكن يحرق رسائله بل على العكس قدَّم خدمة للأجيال اللاحقة بالحفاظ عليها. وبالإضافة إلى الكثير من الملاحظات القصيرة التي كتبها سورين آبي إلى أميل، جرى الحفاظ على ثماني عشرة رسالة حقيقية أولها، بتاريخ 17 تموز/ يوليو 1838، تقع في أربع صفحات. وهي تبدأ بعاطفة جياشة حتى إنها تقف على حافة الانهيار إلى سمة أدبية متميزة ولكن لا يمكن الشك في الوفاء وصدق المشاعر المعبَّر عنها في الرسائل: «عزيزي أميل!! أنت يا صديقي، الصديق الوحيد، الذي من خلال شفاعاته تحملتُ عالماً كان يبدو لي عالماً لا يُطاق من نَواحٍ كثيرة، الوحيد الذي بقي عندما سمحتُ للشك والريبة أن يكتسحا ويدمرا كل شيء آخر كعاصفة هوجاء». أميل كان يفعل أكثر من الاستماع بصبر إلى مونولوجات صديقه الطويلة: يبدو أنّ «شفاعاته» التي كانت

توبيخية بقدر ما كانت تثقيفية، تمكنت أيضاً من تخليص صديقه من تشاؤم عميق أراد القطيعة مع العالم. ومع ذلك فإن لهفة عميقة على «إيروس» eros وليس لوغوس logos كانت لم تزل تمور في نفس سورين آبي الذي أراد التنفيس عن عواطفه بالكلمات: «ما أحتاجه هو صوت ثاقب مثل نظرة لينسيوس [ملك آرغة اليوناني]، مخيف مثل تأوهات عمالقة، خارقة مثل صوت من أصوات الطبيعة، يمتد من أعمق الأصوات الجهيرة إلى أسرع النغمات الهوائية زوالاً، التي يمكن تعديلها من أنعم الهمسات وأكثرها سماوية إلى طاقة بركانية ثائرة. هذا ما أحتاجه للتنفس، للتعبير عما في ذهني كي أهز أحشاء الغضب والعطف على السواء... كلامي ليس مناسباً لذلك. إنه ليس مختوناً وليس إيفانجليكانياً، بل غليظ ليلياً مثل صياح نورس، أو يتلاشى مثل بركة على شفتي أبكم». نادراً ما جرى التعبير عن فقر اللغة بمثل هذا الثراء اللغوي، وهذه الفقرة من اليوميات ترتبط في أصلها بإحدى الديابسالماتا [لازمة في نهاية كل مزمور من مزامير داود] التي ظهرت لاحقاً في القسم الأول من كتاب «إما/ أو» ونسبها كيركغارد إلى «متذوق الجمال A».

نستطيع أن نلقي نظرة على ما كان يفعله الصديقان خلال هذه الفترة بمعاينة رسائل أميل إلى ابن عمه مارتن هامريخ الذي كان أول شخص في تاريخ جامعة كوبنهاغن الذين يمتد 357 عاماً سُمح له بالدفاع عن رسالته الأكاديمية لنيل شهادة الماجستير (عن أسطورة راغناروك Ragnarok الاسكندنافية، غسق الآلهة) باللغة الدنماركية، وكان الآن في بون يدرس السنسكريتية مع أي. دبليو. شليغل A. W. Schlegel. وكان Hميل دؤوباً على مراسلة مارتن، وفي 20 آب/ أغسطس 1836 كتب: «إن اهتمامات سورين آبي الأكاديمية ما زالت تسري في عروقه، نصف مرعوبة من بعضها البعض لأنه ليس لاهتمام منها تسيد كاف على الاهتمامات الأخرى، وحتى إذا اتخذ موقفاً أشد حزماً فإنه يبقى بلا فكرة - إلا فكرة مجردة ربما - عن سبب مجيئه إلى العالم. لذلك من المحتم أن تكون حياته مفككة بعض الشيء». ويُفترَض إن هذا الإحساس المتبادل بالشك والحيرة هو الذي نجد فيه الأرضية المشتركة التي يقف عليها الصديقان لأن حياة أميل لم تكن متماسكة بصفة خاصة هي الأخرى. «كل يوم تقريباً تسمم أفكار متضاربة إحداها الأخرى في رأسي المريض بالتفكير». كان بويسن يشكو بأسلوب كيركغاردي، وليس من دون سبب أن يتخذ الصديقان شعاراً

لهما سطرين من عمل أولينشلايغر Oehlenschlaeger مسرحية حواء منتصف الصيف: «انظروا، وقت يأتي ووقت يمر، هناك كنيسة على مبعدة».

كانت الكنيسة احتمالاً بعيداً ولكن في الوقت الحاضر لم يعتبر سورين آبي نفسه «أكثر من مستمع». كان أميل في الوضع نفسه ولكنه نال شهادته في اللاهوت، وبمعنى ما فإن الكنيسة البعيدة كانت احتمالاً ملموساً تماماً وحاضراً في متناول اليد: كان يفكر («الآن أنا حقاً مسكون بالفكرة») في طلب تعيينه قساً في كنيسة صهيون في ترانكويبار [تارانغامبادي]، في الهند، ولكنه لم يجد ما يغريه لا في الراتب السنوي البالغ «600 روبية مدراس» ولا بالموقف التبشيري المرتبط بالدعوة. كان بويسن شديد اللهفة على السفر إلى أماكن غريبة. ولاحقاً راودته أيضاً فكرة السفر إلى أميركا الجنوبية بصفة قس بحري على متن الفرقاطة «روتا». ولكنه بدلاً من ذلك اختار تقريباً نقيض مثل هذه الإغراءات الجميلة لرؤية العالم تماماً ونذر نفسه «للمجمع الأعوج الصغير البديع في ستراندفاين»، وهو منزل ممول تمويلاً خاصاً للبنات المعاقات حيث مارس شيئاً من التدريس بالإضافة إلى الوعظ بين كل أحد وآخر وفي العُطل. وكانت الرقة التي نظر بها إلى هؤلاء الآنسات المعاقات معهودة منه، وكتب إلى ابن عمه مارتن «إن رأساً جميلاً يمكن أن يجلس على جسد محدَّب». والحق إن الحظ حالفه «بالوقوع قليلاً في الحب» مع إحدى السيدات الشابات. ولكن بعد ستة أشهر فتنته سيدة شابة في كريستيانسهافن ولكنها كانت تحت مراقبة عمة مريضة متجهمة تقبع في غرفة جانبية مظلمة تتأوه بجَمْجَمَة وترصد كل حركات بويسن بعينيها الخرزيَّتَين. بيد إنه ذات يوم ارتدى «صدريته الحرير» وانطلق بعزيمة قوية، ولكن شجاعته خذلته مع ذلك، ومرة أخرى وجد نفسه في عليّة منزل والده، وحيداً مع أحلام يقظته الإيروتيكية.

في تلك العليّة أيضاً اشتغل بويسن على كتابة قصص قصيرة مختلفة كلها سببت له صعوبة وكانت لا تريد أن تذهب إلى حيث يريدها الكاتب أن تذهب. وفي رسالة بتاريخ 3 حزيران/ يونيو 1837 كشف لمارتن إنه «يعمل على قصة قصيرة باسم مجهول» لكنها قصة لا يبدو أبداً إن لها نهاية. وقياساً على الصورة العامة التي أعطاها إلى مارتن فإن اللافت هو الشخصيات التي يشتغل بها بويسن وليس صفات القصة الأدبية. وفي إطار حكاية رمزية نرى «ناسكاً» يجلس ويفكر داخل كوخه «ليلاً ونهاراً، سبعة أيام في الأسبوع» فيما تتقافز ابنتاه الجميلتان من

صخرة إلى أُخرى تجمعان التوت الأرضي. ويقود الناسك على الفور المرء إلى التفكير مسبقاً في اسم كيركغارد المستعار فكتور إريميتا Victor Eremita، «المتوحد الظافر»، ولكن حين يعرف المرء اسمي البنتين عليه أن يسأل نفسه إن لم يكن بويسن مصدر المادة الأولية الأدبية لمشروع كيركغارد الأدبي اللاحق لأن إحداهما اسمها «قلقة» Anxiety والأخرى «مرتجفة» Trembling. أو يا تُرى العكس تماماً - إن كيركغارد زود بويسن بالموتيفات الموحية التي استمر بويسن في التطريز عليها؟

لا أحد يعرف. ولا أحد يعرف ماذا غير ذلك كان الصديقان يفعلانه معاً لأننا نبحث بلا جدوى عن أدلة على رحلات وزيارات للمسرح ومغامرات ليلية في أماكن مشبوهة أو أي شيء آخر، يكون بقضه وقضيضه جزءاً من حياة الشباب. وليس هناك دليل حتى على زيارة مشتركة للمسرح الملكي، هناك الكثير من المعلومات التي تتعلق بها من نواحي أخرى. وكان سورين آبي عملياً لا يفارق المسرح كلما يتضمن البرنامج أوبرا موزارت، «دون جيفاني»، وبحسب أتش. بي. هولست فإنه «لم يفوِّت عرضاً واحداً من عروض دون جيفاني». ولكن سورين آبي لم يتمكن من مضاهاة معجب متمرس بـ «دون جيفاني» دخل في حوار معه في المسرح في منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر 1836 «ويشاهد أوبرا دون جيفاني منذ ثلاثين عاماً». قد يبدو هذا الإعلان تبجحاً فارغاً ولكن من الجائز إنه كان قريباً من الحقيقة لأن أوبرا «دون جيفاني» قُدمت على المسرح الملكي لأول مرة في 5 أيار/ مايو 1807، ست سنوات بالضبط قبل أن يأتي سورين آبي إلى العالم، ومن 1829 حتى 1839 عُرضت 81 مرة، خمسة من هذه العروض بين 1835 و1838. ورغم إن أعمالاً أخرى من تأليف موزارت تنافست على الفوز باهتمام كيركغارد - سمع «الناي السحري» لأول مرة في 26 كانون الثاني/ يناير 1837 - فإن «دون جيفاني» هي التي حقاً استحوذت على مخيلته، ومن منتصف ثلاثينيات القرن التاسع عشر حتى إنجاز «إما/ أو»، تعج اليوميات بفقرات عن الغاوي الكبير.

لكن كيركغارد لم يكن وحده في هذه العواطف. إذ كان الزمن يسير على إيقاع موزارت وكان الطالب الجامعي الشاب يواكب نغمة العصر لا أكثر. وفي فقرة من يومياته بتاريخ 10 حزيران/ يونيو 1836 - حين كتب عن صيدلي يطحن دواءه، وفتاة تفرك أرض الباحة حيث كان هناك أيضاً صبي إسطبل

يعتني بحصانه وينظف مشطه بطَرْقِه على الحجارة - لم تكن الصدفة وحدها السبب في أن الموسيقي المتجول الذي يعزف على نايه القصبي في باحة قريبة «كان يعزف رقصة المينويت من أوبرا دون جيفاني». كان اليوم يوم صيف في كوبنهاغن، في ساعة متأخرة من الصباح، وكل شيء في منتهى البساطة، «وكنتُ أشعر بهناء بالغ».

في تقرير عام 1839، من جهة أخرى، كان الوضع متناشزاً تماماً: من بعض النواحي أستطيع أن أقول عن دون جيفاني ما تقوله له أيلفيرا «أنتَ قاتل سعادتي». فهذه حقاً هي المسرحية التي استحوذت عليّ بطريقة شيطانية حتى إني لا أستطيع أبداً أن أنساها مرة أخرى - هذه المسرحية هي التي طردتني، مثل أيلفيرا، من ليل الصومعة الهادئ. وكانت هذه هي المسرحية التي أخضعها كيركغارد لتشريح فكري - تاريخي في القسم الأول من كتابه «إما/ أو» مضفياً عليها عمقاً دراماتيكياً ونفسياً ما كان موزارت وكاتب كلمات الأوبرا دا بونتي ليضفيانه على عملهما. وحاكى كيركغارد في تحليله موسيقى موزارت بعبقرية لغوية حتى إن دون جيفاني نفسه يطل علينا منبثقاً من الخطابية: اسمعوا حياته تبدأ. حين ينطلق البرق من ظلام السحابة الرعدية، يندفع هو من أعماق الجدية أسرع من سرعة البرق، أقل ثباتاً لكنه لا يقل ثقة. اسمعوا كيف يهوي في تعدد الحياة، كيف يرمي نفسه على حواجزها الصلبة. اسمعوا أنغام الكمان الراقصة بخفة. اسمعوا تلميح الفرح. اسمعوا بهجة اللذة. اسمعوا نعيم الاستمتاع الاحتفالي. اسمعوا معركته الضارية. أنه يتجاوز نفسه، أسرَع دائماً، لا يتوقف أبداً. اسمعوا رغبة العاطفة الجامحة، اسمعوا زفرة الحب، اسمعوا همس الإغراء، اسمعوا زوبعة الغواية، اسمعوا سكون اللحظة: اسمعوا، اسمعوا، اسمعوا «دون جيفاني» موزارت!

نوبة قراءة

في منتصف ثلاثينيات القرن التاسع عشر انغمس كيركغارد في فترة من الإفراط في السُكر أو معاقرة الخمرة قادته بعيداً عن متطلبات الانضباط اللاهوتي وعن السراط المستقيم للفضيلة. هذه عموماً هي الرواية الشائعة عن الوضع، وهي ليست مفبركة. ولكن أولاً وقبل كل شيء، إن فترة الانغماس آنفة الذكر كانت وقت قراءة مكثفة جمع كيركغارد خلالها الرصيد الهائل من المعرفة

الأدبية واللاهوتية والفلسفية الذي سينهل منه لاحقاً بإسراف ودون استحياء في كتاباته. ومن بين فواتير 1836 التي ارتجفت لها يدا والده كان أكبر الحسابات عن كتب اشتراها من مكتبة رايتزل التي كان ابنه الذي لا يكل فكرياً يتردد عليها عدة مرات في الأسبوع كل شهر من أشهر السنة ما عدا شهر آب/ أغسطس، حتى إن مجموعة كتبه أصبحت بمرور الوقت مكتبة كبيرة تماماً. بالطبع ما كانت لتصمد أمام المقارنة مع مكتبة الحقوقي جَي. إيل. أي. كولدروب - روزنفينغه J. L. A. Kolderup Rosenvinge التي ضمت عشرة آلاف كتاب، أو مكتب المؤرخ الكنسي أي. جي. رودلباخ A. G. Rudelbach التي كانت تضم عشرين ألف كتاب، وأقل من ذلك أن تتنافس مع الأربعين ألف كتاب التي يملكها المؤرخ سي. أف. فيغينر C. F. Wegener الذي أجبره الاستغراق في ملذات حب الكتب على العيش على حساء لحم البقر وأذناب سمك القد. ويبدو أن مكتبة كيركغارد كانت في ذروة حجمها تضم ألفي كتاب ولكن حتى في وقت مبكر هو عام 1837 زاره هانز بروشنر في منزله في شارع لوفستراده لاستعارة أحد كتب المؤلف الرومانسي الألماني آيخندورف. وكانت مجموعة كيركغارد من الكتب كبيرة بما فيه الكفاية لأن تخطف أنفاس بروشنر.

هكذا أُصيب كيركغارد بعدوى دودة الكتب في سن مبكرة، وكان معرَّضاً لإغراء كتب لم يكن يحتاجها بالمعنى الدقيق للكلمة: «نتيجة دافع غريب لا يُقاوم اشتريتُ كتباً عديدة تركتها مركونة على الرف». وفي 7 شباط/ فبراير 1839 قدَّم كيركغارد الاعتراف الذي يعلن فيه توبته على نحو ممتع، بأنه يرى إن عمل أنتون غونتر Die Juste-Milieu in der deutschen Philosophie gegenuwartiger Zeit [بالألمانية: الوسط السعيد في الفلسفة الألمانية المعاصرة] «ذو عنوان ممتاز حتى إني فُتنتُ وانشغلت به بحيث إني على الأرجح لن اقرأ الكتاب أبداً». ولكنه تمكن من قراءة كتب كثيرة، وفي الحقيقة، كما نستطيع أن نرى، قرأها بتمعن كبير. وكان بين حين وآخر يثني جزءاً كبير من زاوية الصفحة، أحياناً في قمة الصفحة وأحياناً أخرى أسفلها، واستحدث نظاماً معقداً للتهميش يستخدم فيه رموزاً، مثل N. B. [باللاتينية nota bene: لاحظ بعناية] وعلامات مختلفة، وغيرها من التأشيرات الأخرى. وعلى الغرار نفسه كان يتناوب بين الحبر الأزرق والأحمر والأسود أو يغيّر حجم خط يده أو ينتقل إلى قلم الرصاص كلما وأينما أراد أن يترك علامة في الهامش. وكان يفعل ذلك «بدقة». إذ كان

لدى كيركغارد حس ظاهر بالجوانب الجمالية للكتب. وبما إن بائع الكتب نادراً ما يبيع كتباً مجلدة أصلاً فإن كيركغارد كان يحب تجليد كتبه بنصف غلاف جلدي أو غلاف جلدي كامل، وأحياناً بورق مصقول. ولكن الكتب المزخرفة كانت استثناءات. وكان الديكور على ظهر الكتب المجلدة يقتصر على العنوان وبضعة سطور أفقية مذهَّبة. وكان ذلك نوعاً معتدلاً من الأناقة.

كانت مجموعة كيركغارد من الكتب تغلب عليها الأعمال المعاصرة مع خمسين كتاباً فقط أو نحو ذلك تعود إلى قبل عام 1750 وما يزيد قليلاً على مئة كتاب من الفترة الواقعة بين 1750 و1800. وكان زهاء نصف المجموعة يتألف من كتابات لاهوتية وتعبدية. بالإضافة إلى ذلك كانت المجموعة تضم الأعمال الأساسية للأدب الكلاسيكي، إما باليونانية أو اللاتينية أو مترجمة، عادة بالألمانية. كما كانت أعمال غالبية الكتاب الأوروبيين الكبار متوفرة بترجمات ألمانية تتراوح من عمل دانتي «الكوميديا الإلهية» وكتاب بترارك «الشعر الإيطالي» إلى «الأعمال الدرامية» لشكسبير وكتاب باسكال «خواطر» و«الأعمال الكاملة» لبايرون وهيغل وغوته، وكان رومانسيون ألمان مثل شليغل وجان بول ونوفاليس وتيك وهوفمان وهاينة ممثَّلين بسخاء في مجموعة كتبه. وكان اختيار الأدب الحديث متنوعاً بحق رغم إن الكتاب الدنماركيين كانوا ممثلين تمثيلاً حسناً بقدر معقول في حين كان الأدب السويدي ممثلاً بالكاتب بيلمان فقط. وبالإضافة إلى مجموعة متنوعة من الأعمال البيبلوغرافية وغيرها من المراجع فإن مكتبة كيركغارد كانت تضم الكثير من كتب الحكايات الشعبية والأساطير والأغاني من بلدان مختلفة، بينها بالطبع أعمال كلاسيكية مثل «ألف ليلة وليلة» و«حكايات إيرلندية» للأخوين غريم وأيضاً كتاب سفيند غروندتفيغ Svend Grundtvig ثلاثمئة قصة جديدة مختارة ومرحة أو «نكات وجد: هوايات مفيدة وجيدة جداً» زائد كتاب الألغاز والنكات الغفل من اسم المؤلف بعنوان «أسئلة غريبة، من الممتع الاستماع إليها وقراءتها، زائد واحدة من حكايات أيسوب وفأر المدينة والبلد». ونقرأ في يوميات كيركغارد ليوم 26 كانون الأول/ ديسمبر 1837، «حين أكون متعَباً من كل شيء و«مليئاً بالأيام» تكون الحكايات الخيالية على الدوام حماماً منعشاً يثبت فائدته لي. فهناك تختفي كل الهموم الدنيوية، كل الهموم المحدودة، ويكون الفرح - بل حتى الحزن نفسه - بلا حدود».

في أي محاولة لفرز وتحديد الظروف المادية لأصل عبقرية كيركغارد يكون اقتفاء قراءاته خلال سنوات شبابه العطشى، منطلقاً بديهياً ولكن المحاولة تعتورها صعوبتان على الأقل. فأولاً، إنه، كما هو معروف حق المعرفة، قرأ أكثر بكثير من الكتب الموجودة في مكتبته، وليس حين كان شاباً فحسب بل طيلة حياته كلها كان يتردد بانتظام على «جمعية أثينيوم للمطالعة» وكذلك مكتبات جمعية الطلبة وجامعة كوبنهاغن. وكان له صيت لا يقل سوءاً لتخلصه من كتب بمرور السنين إما لأنه لم يعد يحتاجها أو لأنها كانت عبئاً على النوع اللائق من السمعة التي كان يسعى إلى تأمينها لنفسه بعد مماته بصورة منهجية أكثر فأكثر. وإذا قارنا كاتلوغ المزاد الذي عُرضت فيه مكتبته للبيع مع الفواتير الباقية من باعة الكتب سنعلم فوراً أن الكاتالوغ يعكس مجموعة تقلصت: من عام 1836 وحده لا تُدرج في كاتالوغ المزاد إلا ستة عشر كتاباً من أصل اثنين وأربعين كتاباً تظهر في فواتير. ويظهر شعر بليشر في فواتير من عام 1836 ولكن ليس في الكاتالوغ، ولا «بيدر بارس» عمل هولبيرغ أو «مآسي» هاينة. وثانياً، إن قراءات كيركغارد كانت متنوعة وغير مترابطة بصورة استثنائية. وكان يقرأ بطريقة متعرجة يبحر ويحلق من نقطة إلى أخرى، واعترف بأمانة بميوله الانتقائية. إذ كتب في فقرة من يومياته بتاريخ 3 كانون الثاني/ يناير 1838، «حين أقرأ كتاباً فإن الكتاب ليس هو الذي يُمْتِعُني بقدر ما يُمْتِعُني هو الاحتمالات اللامتناهية التي لا بد إنها كانت موجودة في كل مرحلة، القصة الشائكة التي تكمن جذورها في شخصية الكاتب الفردية، في دراساته، إلخ». وكان كيركغارد قارئاً نهماً لا يكتفي بفتح كتاب بل يَدخل في الكتاب نفسه بكل شخصيته، إذا جاز التعبير، ليغمر نفسه انغماراً كاملاً في العمل. وحتى نصوص تُهضَم بجرعات صغيرة تماماً كانت كافية لإطلاق اهتزازات قوية في مخيلته المنتجة، وهذا ساعد في تأكيد «أطروحته» التي قدمها في آذار/ مارس 1837 بما يفيد «إن العباقرة العظام» لا يستطيعون في الحقيقة أن يقرؤوا كتاباً لأنهم «حين يقرؤون فإنهم دائماً يطورون أنفسهم أكثر مما يفهمون الكاتب».

وهكذا فعل كيركغارد: طور نفسه أثناء القراءة. وبصرف النظر عما إذا كان يمسك بيده شِعراً متسامياً أو قصصاً ملفقة أو أدباً جاداً أو هابطاً، أو أعمالاً أكاديمية أو هراء فإنه كان يطور نفسه - ككاتب. وتمكن من بناء مكتبة متنوعة بصورة متميزة في رأسه، في الصدارة من وعيه، قرب الفص الصدغي، حيث

أمكن لذاكرته الرائعة أن تستحضر تشكيلة أعمال في منتهى التنوع، واضعاً بعضها بجوار بعض بسرعة البرق. وموهبة المحاكاة والنغمة المثلى والقدرة على استيعاب التفاصيل - كل هذه ساهمت في صنع كيركغارد ليكون كيركغارد، دون أي شك في ذلك.

ولكن لهذا السبب يحق لنا في الوقت نفسه أن تساورنا شكوك تتساءل إلى أي مدى كان كيركغارد في الحقيقة كيركغاردياً.

1838

«هناك فرح لا يُوصف»

في أواخر 1837 جلس كيركغارد يقرأ إحدى الأغاني الشعبية التي كان يسترخي بها. كان منكفئاً على نفسه بصورة غريبة يشعر كأنه خراب قديم تقريباً. كانت أُغنية مؤثرة بهدوء عن فتاة جلست تنتظر حبيبها مساء يوم من أيام السبت، باكية «بحرقة». وفجأة ينداح مشهد أمام ناظريه ويرى أراضي يوتلاند البور، خلاءها الذي لا يوصف وقُبَّرة وحيدة تحلق في الجو: «ثم نهض جيل إثر آخر أمامي، وغنَّتْ جميع الفتيات لي، وبكَيْنَ بحرقة، وغرِقْنَ في قبورهن مرة أخرى. وأنا نفسي بكيتُ معهن».

بعد أربعة عشر يوماً، حين دفع كيركغارد الستة وعشرين ريكسدولاراً الأخيرة من دينه الضخم البالغ 1262 ريكسدولاراً، كتب في دفتر حسابات والده: «بما إن الوالد ساعدني في الخروج من هذا الإحراج أشهد هنا بامتناني له». تلك الكلمة، «الإحراج»، تصرخ عملياً إلى السماء لأنه إذا كانت هناك طريقة ساعده والده بها فهي ليست مساعدته على «الخروج من الإحراج» بل على دخوله في «إحراج» من كل نوع. كما إن المرء لا يُغمَر متأثراً بصدق الامتنان المعبَّر عنه في الشطر الأخير من الجملة. وعلى امتداد الأشهر الثلاثة التالية ليست هناك إلا فقرات موجزة في اليوميات كُتبت على صفحات سائبة. وهناك أقل بقليل من عشرين فقرة كهذه لشهر كانون الثاني/ يناير، وثماني فقرات لشهر شباط/ فبراير زائد خمس فقرات غفل من التواريخ، لذا يقفز قارئ اليوميات بصورة مباشرة تقريباً من 30 كانون الأول/ ديسمبر 1837 إلى نقطة في منتصف نيسان/ أبريل 1838: «نيسان/ أبريل. مرة أخرى مر وقت طويل لم أكن قادراً فيه على استجماع قواي لعمل أبسط الأشياء. والآن يجب أن أقوم بمحاولة صغيرة أخرى. بول

مولر مات». الأرجح إن كيركغارد كان أقرب إلى الكآبة من أي وقت مضى، وفي شباط/ فبراير أدرك بيتر كريستيان إلى أي حد كانت الأمور سيئة: «أصبح سورين في الآونة الأخيرة سقيماً أكثر فأكثر، متذبذباً ومغتمًا. وأحاديثي معه التي عليّ أنا أن أُبادر إليها عموماً لا تُحدث أي فارق محسوس». ولكن بعد أسابيع كتب بيتر كريستيان بروح أكثر تفاؤلاً: «سورين، والحمد لله، بدأ الآن يصبح أقرب ليس إلى مسيحيين أفراد فحسب (مثل ليندبيرغ) بل إلى المسيحية أيضاً». وتنقل أليسا ابنة ليندبيرغ في مذكراتها إن كيركغارد، مع عدد من أتباع غروندتفيغ الشباب - الأخوة يوهانس وفرديناند وبيتر أندريس فينغر، والأخوة مارتن وفريدريك هامَريخ، وبيتر روردام - كانوا يزورون والدها بانتظام. ولكن لا يبدو أنّ هذا التآخي كانت له أي نتائج مفيدة أخرى. وفي يوم الجمعة، 16 كانون الأول/ ديسمبر 1836، أخذ سورين آبي سر التناول لآخر مرة في حياته مع والده الذي احتفل بعيد ميلاده الثمانين قبل أربعة أيام. ويَذكر سجل التناول: «مستر كيركغارد، تاجر، وابن واحد، أس. أي». ولكن خلال سنة 1837 بأكملها والنصف الأول من 1838 لم يأخذ سورين آبي التناول، ولا يقول سجل التناول في كنيسة سيدتنا إلا: «مستر كيركغارد، تاجر» ولا أحد آخر. كما إن بيتر كريستيان لم يرافق الوالد إلى التناول لأن بيتر كريستيان لم يأخذ التناول قط منذ وفاة ماريا.

لذا تعين على التاجر الهرِم أن يذهب إلى التناول بمفرده، وفي الرحلة إلى الكنيسة والعودة منها كان يستطيع أن يتذكر بحنين أيام كان أفراد عائلته يذهبون إلى سر الاعتراف وسر التناول معاً كما في يوم زفاف نيكولين كريستين، الجمعة، 24 أيلول/ سبتمبر 1824. وفي عام 1838 حين عُين جي. أتش. فاغي

G. H. Wagge، الذي كان قس اعترافات العائلة لعشر سنوات، رئيس أكاديمية سورو، فاضطرت العائلة إلى اختيار قس اعتراف جديد، أصبح الخلاف واضحاً لا تخطئه العين: اختار كيركغارد الأب أي. أن. سي. سمث N. C. Smith، القس الأول في «كنيسة سيدتنا» واختاره بيتر كريستيان أيضاً ولو بعد شيء من التردد ودون أن يعلم على ما يبدو بما اختاره والده. من جهة أخرى اختار سورين آبي، الذي بلغ الخامسة والعشرين في 5 أيار/ مايو 1838 وبالتالي كان في سن الرشد من الناحية القانونية، إي. في. كولتهوف E. V. Kolthoff، القس الذي يأتي بالمركز الثاني في «كنيسة سيدتنا». وفي 6 حزيران/ يونيو 1838

حين أخذ سورين آبي التناول بمفرده لأول مرة في حياته أدرج الشماس اسم [الطالب الجامعي] Cand. Philosophiae المدعو كيركغارد في سجل التناول وبذلك تم توثيق الخلاف في سجل. ولم ينته الخلاف. ففي منتصف نيسان/ أبريل تعين على الأب أن يأخذ التناول مرة أخرى بمفرده، والفقرة المكتوبة في يوميات ابنه الأصغر بعد أسبوع على ذلك لم تكن مفعمة تماماً بالإيمان المسيحي: «لو جاء المسيح وسكن روحي لتعيَّن أن يكون ذلك بالطريقة الموصوفة في العنوان الذي يعطيه التقويم لقراءة الإنجيل هذا اليوم: يأتي المسيح عبر أبواب مغلقة». كان اليوم يوم أحد، 22 نيسان/ أبريل 1838. وفي كنيسة هولمنز كان يوم أحد مهماً لسر الميرون. وكانت مرشحة بين المرشحين اتخذت مكانها في المجموعة تُدعى ريجينة أولسن ابنة الستة عشر ربيعاً. وهي نفسها دخلت لاحقاً عن طريق أبواب مغلقة أيضاً، وخرجت مرة أخرى.

من بين الفقرات المكتوبة في اليوميات من ربيع 1838 فقرة بتاريخ 19 أيار/ مايو تختلف اختلافاً كاملاً في نبرتها عن الفقرات الأخرى: هناك فرح لا يُوصف يتوهج فينا، ليس له تفسير مثل فورة الرسول بلا دافع: «افرحوا في الرب كل حين، وأقول أيضاً، افرحوا» (رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي، الإصحاح الرابع، 4). هذا ليس فرحاً بشيء أو آخر بل صرخة الروح القوية «باللسان والفم من صميم القلب»: «أفرح لفرحي - من فرحي، مع فرحي، بفرحي، على فرحي، من أجل فرحي وبه» لازمة سماوية تقاطِع فجأة كل الأغاني الأخرى، فرح يُرطّب ويُنعش مثل نفحة ريح، دفقة من الرياح التجارية تهب «من أخدود مَمْرَا إلى المساكن الأبدية. 19 أيار/ مايو، 30: 10 قبل الظهر». يبدو هذا عرضاً موجزاً لهداية، وعملاً بالممارسة التقوية فإن وقت كتابته حُفظ في سجل ليتمكن كيركغارد من التشبث باللحظة التي حل فيها الخلاص المتجلي محل العذاب الدنيوي. ولكن الكلمات «باللسان والفم من صميم القلب» (التي وضعها كيركغارد بين علامات اقتباس) لم تأت من الرسول بولس بل هي مأخوذة من أبيات ينشدها الحراس الليليون في كوبنهاغن. ولا شك في أن هذا بعيد جداً عن أخدود مَمْرَا، الواحة القريبة من الخليل، التي كانت، بحسب العهد القديم، مكاناً يمكن للمرء أن يرى الرب ويتلقى عهوده النبوية فيها.

وهكذا فإننا لا نعرف ما حدث حقاً ذلك الصباح في منتصف أيار/ مايو 1838. فإن الفقرات المكتوبة في اليوميات قبله وبعده لا تعطي أي مفتاح. لعل

الفقرة مجرد صورة شعرية ولكن أياً تكن مناسبتها فإن الفرح، الفرح الذي لا يُوصف، كان يرتبط بالمسيح. وأصبح سورين آبي يفهم، كما في ومضة باهرة من التبصر، إن الله - كيفما قد تكون الأشياء مع العالم أو مع حياته - إنما هو محبة، وبالتالي إن الله هو أيضاً إله الفرح. وكان سورين آبي مغموراً بالفرح حتى إن اللغة لم تكن قادرة على قول أي شيء ولا مطلوب منها أن تقول أي شيء. وليس للمرء أن يشكر نفسه على مثل هذا الفرح. فهو مُعطى. الفرح هبة لا أكثر ولا أقل، خبرة تنطلق بلا تفسير من «رب النور» وبالتالي خبرة لا توصف إلى حدٍ يعشي العين.

هذه هي المسيحية في أفضل صورها.

موت تاجر

كتب مايكل بيدرسن كيركغارد العجوز إلى شقيقته إيلسا أواخر حزيران/ يونيو 1838 «أنا، رغم إني لست مريضاً في الحقيقة، ضعيف جداً في الروح والجسد، ويجب أن أقول الشيء نفسه عن أبنائي. والأرجح أن هذه الرسالة ستكون آخر رسالة تتسلمينها من يدي لأني لم أعد قادراً على التفكير أو الكتابة، وآمل إن رحلتي إلى الدار قريبة - صلِّ لي يا شقيقتي العزيزة مثلما سأصلي لك أن يمنحنا الله رحيلاً مباركاً عن هذا العالم الآثم - حين ينتهي الحصاد تبيِّني إذا كان بإمكانك أن ترسلي إليَّ كلمتين عما أسفر عنه».

كان رجلاً عملياً حتى النهاية. ولكن إيلسا لم تكتب قط عن الحصاد، والحصاد لم يكن جيداً ذلك العام. إذ كان المطر أكثر من المطلوب وخاصة في النصف الثاني من تموز/ يوليو. والماء لم يتلف الحبوب فحسب بل دخل البيت العتيق في نيتورف وتسرب عن طريق المداخن وأنابيب المدفئة وبدأ فجأة يجري على الأرض في غرفة بيتر كريستيان. وأزعج ذلك الأب العجوز حتى إنه أراد أن يبيع البيت. ولكن بيتر كريستيان أثناه عن ذلك، وفي 5 آب/ أغسطس ذهبا إلى الكنيسة معاً، ولأول مرة منذ وفاة ماريا، أخذ بيتر سر التناول. سورين آبي انتقل عائداً إلى بيت الأهل. ولا يُعرف متى على وجه التأكيد ولكن لا بد إن ذلك كان قبل 10 تموز/ يوليو لأن الفقرة المكتوبة في اليوميات لذلك اليوم تقول: «آمل بأن يكون رضاي عن العيش هنا في البيت سيكون رضا رجل قرأت عنه ذات مرة. فهو أيضاً سئم من بيته - وأراد أن يركب حصانه ويرحل

بعيداً عنه. وحين قطع مسافة قصيرة كبا حصانه وسقط هو منه. وحين وقف على قدميه وقعت أنظاره بالصدفة على بيته الذي بدا له في غاية الجمال حتى إنه ركب حصانه من جديد وسار إلى بيته وبقي هناك. يا ليت المرء ينظر إلى الأمر من الزاوية الصحيحة». وفي يوم الإثنين، 6 آب/ أغسطس، جلس سورين آبي إلى مائدة الطعام مع والده وشقيقه. وكان اشتبك مع والده في مشادة كلامية في وقت سابق من اليوم – سمع بيتر كريستيان الأصوات العالية وسجَّل ذلك في يومياته – ولكن الخلاف سُوّي على ما يبدو وكان الرجل العجوز منشرح الأسارير بصورة مفاجئة. من جهة أخرى شعر بيتر كريستيان ببعض الانقباض بعد العشاء وحاول إلهاء نفسه بمغادرة البيت لزيارة عائلة هان.

في صباح اليوم التالي، بعد فترة قصيرة على تقديم مدبرة المنزل القهوة إلى سيد البيت، قرع الجرس في طلبها مرة أُخرى شاكياً من الدوار. بعد ذلك بفترة وجيزة «شعر بغثيان وإسهال حاد» ولبرهة خاف بيتر كريستيان من إن والده ربما أُصيب بالكوليرا التي كانت موجودة في الدنمارك وقتذاك. وشاء الحظ إن طبيب العائلة كان خارج المدينة فأرسلوا بدلاً منه في طلب نوتسهورن الذي وصف لدى وصوله دواء مقيِّئاً. وحين بدأ هذا يؤدي مفعوله أصبح الرجل العجوز ضعيفاً بشكل لافت، ورفض أن يشرب أي شيء، وبين نوبات التقيؤ كان يغلبه نعاس غريب يصاحبه شخير. ولكن مدبرة المنزل ظنت إن ذلك طبيعي تماماً فتوجه الآخرون إلى مائدة الطعام لتناول القهوة.

ولكن قبل الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم بقليل بدأ المريض يسعل بحدة لا سابق لها. هرعوا إليه ليجدوه على الأرض فاقد الوعي، فمه مليء بالقيء. صب بيتر كريستيان ماءً بارداً على رأس والده دون جدوى، ورغم أن نوتسهورن كان من المقرر أن يعود في الساعة الثالثة فإن بيتر كريستيان قرر أن يرسل في طلب الدكتور دورغي الذي وصل بعد نصف ساعة. وكان دورغي، مثله مثل نوتسهورن الذي هرع عائداً إلى غمار الموقف، رجلاً حاسماً أدرك إن المطلوب علاج قوي. «وَصَفَ ديدان عَلَق للرأس ولصقات من العجين للكاحلين. وضاعف نوتسهورن الذي قفل عائداً، عدد ديدان العلق ووصف لصقات لتحت القدمين وكذلك الذبابة الإسبانية على رقبته رغم إن لا شيء من هذا كان له مفعول محسوس. استمر ممداً هناك يقطع المخاط تنفسه بين حين وآخر لكنه عدا ذلك كان يسعل بشدة، وزاد تنفسه أكثر فأكثر كأنه في صراع حقيقي مع

الموت. وتبددت بالكامل آمالنا في أن يستعيد شيئاً من الوعي على الأقل لمدة يوم واحد، أو ربما أكثر قليلاً، كما توقع نوتسهورن من البداية. وحتى في لحظة الموت فإنه أطلق زفرتين قويتين فقط ثم أسلم الروح. كان ذلك في اليوم التاسع الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وإلى جانب سورين دُعيتُ إلى تحت على الفور، ولكن ذلك كان بلا جدوى لأن الأمر قضى».

كان هناك جانب مأساوي - كوميدي في هذا المشهد: تاجر يحتضر غطاه أطباء يائسون بديدان العَلَق على رأسه ولصقات العجين حول كاحليه - وفي مهانة غريبة ونهائية - بذبابه إسبانية على عنقه! وكانت ذبابة مجففة من هذا النوع ستوضع في حقيبة طبيب مجهزة على أفضل وجه، حيث تكون محفوظة بأمان في قنينة ذات سدادة فلينية محكمة لأن الذبابة - تقريباً بحجم ذبابة البيت الاعتيادية لكنها ذات لون معدني أصفر ضارب للخضرة - كانت ذات رائحة كريهة على الأرجح بسبب ما تحويه من أمونيا عالية التركيز هي السبب في اعتبارها مفيدة. توفي الأب في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وبعد ظهر ذلك اليوم نفسه ظهر موظفون من محكمة الإرث والوصايا. وفي يوم الثلاثاء، 14 آب/ أغسطس، دُفن في مقبرة أسيستنس. ونزولاً عند رغبات الرجل العجوز دُفن بجوار ابنته البكر مارين كريستين. وفي ذلك اليوم نشرت صحيفة أدرسيفيسن الخبر التالي في عمود الوفيات: «يوم الخميس، 9 آب/ أغسطس، بعد يومين من الصراع مع المرض انتقل إلى رحمة الله والدنا وحمونا العزيز أم. بي. كيركغارد، تاجر الجوارب السابق هنا في المدينة، عن عمر يناهز الثانية والثمانين. هذا ما يعلنه هنا أبناؤه وأصهاره للأقارب والأصدقاء المنكوبين». ونلاحظ صفة «تاجر الجوارب السابق هنا في المدينة»، التي بمرور السنين، سيستخدمها الابن الأصغر في كل مرة تقريباً يهدي مباحثه التثقيفية إلى المتوفى. وهكذا فإن هذه الصياغة قد تشير إلى أنه كاتب النعي وليس بيتر كريستيان.

ولكن مايكل كيركغارد نفسه مَنْ ترك تعليمات تتعلق بمظهر اللوح الرخامي الذي أراد وضعه في موقع القبر فوق زوجته وفوقه. وباستثناء بعض المفردات المكتوبة بلهجة يوتلاند فإنه نال ما أراد وحُفر على شاهد القبر الحجري الذي ما زال باقياً حتى اليوم: «آنا كيركغارد/ مولودة باسم لوند/ انتقلت إلى جوار ربها/ 31 تموز/ يوليو 1834/ في السنة السابعة والستين من عمرها/ محبوها الذين يفتقدونها/ أطفالها الباقون على قيد الحياة/ الأقارب والأصدقاء/ ولكن

على الأخص زوجها العجوز مايكل بيدرسن كيركغارد/ الذي في 9 آب/ أغسطس 1838/ لحق بها/ في حياة أبدية/ في عامه الثاني والثمانين».

«الزلزال الكبير»

انهال سيل من رسائل التعزية. وتذكرتْ الشيخ الرائع نانا حماة بيتر كريستيان، وفكرت بحزن إنها لن تحظى بمصافحته الودية المخلصة مرة أخرى أبداً فيما كتب ابنها هارلد «إن قلة من الرجال سحروني من التعارف الأول كما سحرني». وكان يوهان هان، صديق العائلة، الوحيد الذي لاحظ إن الأمر قد يكون صعباً على أصغر الأبناء أيضاً. وفي رسالة إلى بيتر كريستيان تحسَّر قائلاً «مسكين سورين» وتابع بكلمات مؤثرة «عسى ألا تحطمه هذه الضربة، وأن تنفض عنه خدره كي لا يحن إلى مباذل هذا العالم بل تكون لديه الرغبة والقوة للبحث عما هو ضروري ويُخجل بذلك الذين يشكّون – ربما الآن بصفة خاصة – في جديته ونزاهته، الذين يشكون في جهوده لتحقيق السلام والتصالح مع الله».

في هذه الأثناء كان سورين آبي يجلس في غرفته ويسجل وفاة والده في يومياته. وتحت علامة صليب بتاريخ 11 آب/ أغسطس كتب: «تُوفّيَ والدي يوم الأربعاء – الثامن من الشهر، في الساعة الثانية بعد منتصف الليل. كنتُ أتمنى من الصميم أن يعيش بضع سنين أخرى، وأعتبر موته التضحية النهائية التي قدمها حبه لي، لأنه لم يمت مني بل مات من أجلي، عسى أن أصبح شيئاً، إذا أمكن ذلك. من كل ما ورثته منه، فإن ذكراه، صورته المتجلية هي أثمن ما عندي (متجلية ليس بمخيلتي الشعرية – فذلك ليس ضرورياً – بل متجلية بالعديد من السمات الفردية التي أعلم بها الآن) وسأحرص على إخفائها تماماً عن العالم لأني أعرف حق المعرفة إن هناك في الوقت الحاضر شخصاً واحداً فقط في العالم (إي. بويسن) أستطيع أن أتحدث معه حقاً عنه. فهو «صديق جدير بالثقة».

من الصعب تخيل الفارق بين الشقيقين ظاهراً بشكل أوضح منه في تصوير كل منهما لموت والدهما. وفي حين إن بيتر كريستيان يتمسك في يومياته بمجرى الأحداث على نحو ملموس بدقة فائقة واصفاً مشهد الساعات المحمومة الأخيرة فإن الفقرة التي كتبها سورين آبي في يومياته متألقة في خطابيتها، سامية، حساسة، بل ترنيمة من الناحية الفعلية. ولكن هذه العواطف المتوهجة التي بها يجعل رحيل والده موتاً تكفيرياً، تضحية نهائية، عواطف يتخللها إبهام غريب.

فإن ذكرى الوالد تحولت لا بمخيلة الابن الشعرية وإنما بـ «السمات العديدة» التي يعلم بها الابن الآن. ولكن أين كانت هذه السمات؟ هل ذهب الوالد إلى قبره لغزاً أم إن الابن في الحقيقة نجح في انتزاع سره منه في اللحظة الأخيرة. النص لا يقول لنا. وفي الفقرة التالية من اليوميات، مؤرخة باليوم نفسه، توقف سورين آبي عند نقيضين: في «الوثنية كانت ضريبة تُفرض على العزوبية» في حين «كانت المسيحية توصي بالتبتل». ويبدو هذا مقصوداً - أم إنها مجرد مصادفة أن يكون التفكير في نبذ الجنس أول شيء يحدث بعد وفاة الأب؟

قبل أن نتمكن من تحديد معالم الوضع تبدأ أسئلة تنهال علينا من كل الاتجاهات جارَّة في أثرها فقرة في يوميات كيركغارد من أشد الفقرات إثارة للخلاف، الفقرة التي تتحدث عن «الزلزال الكبير»، وهي قطعة قوية من الكتابة:

«حينذاك وقع الزلزال الكبير، الهزة المخيفة التي فرضت عليَّ قانوناً جديداً لا يُخَطَّأ لتفسير كل الظواهر. ثم شعرتُ بأن تقدم والدي في السن لم يكن نعمة إلهية بل لعنة، وأنَّ قدرات عائلتنا الفكرية المتميزة لم تمكننا إلا من تمزيق أحدنا الآخر إرباً. ثم رأيتُ في والدي رجلاً تعيساً سيبقى بعدنا جميعاً، صليباً تذكارياً على قبر كل آماله، وشعرتُ بهمود الموت يزداد من حولي. العائلة كلها يجب أن تحمل عبء ذنب لا بد أن يكون موضع عقاب من الله: كان سيختفي، سيُمحى بيد الله الجبارة، يُحذف كتجربة فاشلة. لم أتمكن إلا من حين إلى آخر أن أجد السلوى في الفكرة القائلة إن والدي نهض بالمسؤولية الثقيلة للتخفيف عنا بسلوان الدين، بإعطائنا كل سر القدس ليكون في انتظارنا عالم أفضل، حتى إذا خسرنا كل شيء في هذا العالم، حتى إذا طغى علينا العقاب الذي كان اليهود دائماً يستنزلونه على أعدائهم: أن تُنسى ذكرانا تماماً، وألا يبقى أثر منا».

هذه الفقرة من اليوميات جزء من مجموعة فقرات صغيرة لها طابع السيرة الذاتية بوضوح. ويسبقها اقتباسان وجيزان تماماً أراد كيركغارد أن يلخص بهما الموضوعات الرئيسية لطفولته وشبابه. في الاقتباس الأول تحت عنوان «الطفولة» ينقل عن غوته: Halb Kinderspiele, /Halb Gott im Herzen [بالألمانية: نصفٌ ألعاب أطفال، نصفٌ الله في القلب]. وفي الاقتباس الثاني تحت عنوان «الشباب» ينقل عن الشاعر الدنماركي كريستيان فينتر: «نتوسل؟ لن نتوسل / الشباب على طريق الحياة / يخطف الكنز بقوة». يلي هذين

الاقتباسين مقطع بعنوان «25 عاماً من العمر» يتألف من اثني عشر سطراً من الفصل الثالث، المشهد الخامس من مسرحية شكسبير «الملك لير». وبعد ذلك مباشرة تأتي الفقرة التي تتحدث عن الزلزال الكبير.

أتش. بي. بارفود سُحر بهذه الفقرات من اليوميات حتى إنه خرج بالكامل عن مبدأ الاستمرارية في التسلسل الزمني ليضعها في بداية المختارات متعددة الأجزاء التي أعطى لها العنوان «من أوراق سورين كيركغارد بعد وفاته». وبافورد بعمله هذا أعطى هذه الفقرات مكاناً بارزاً في وعي القارئ أيضاً، وأصبحت عبارات تمهيدية تفوح أهمية مصيرية. ولا يمكن أن نحدد بسهولة أين كُتبت هذه الفقرات في اليوميات قبل أن يبدأ بارفود تقطيعه وتلصيقه، بل إن بارفود نفسه لم يكن متأكداً على ما يبدو لأنه ذَكَر: «خلال صيف 1838، بعد عيد ميلاد الفقيد في أيار/ مايو ولكن قبل وفاة والده في آب/ أغسطس يبدو أنّه أراد أن يلخّص في صور موجزة قصة حياته حتى سن البلوغ [الذي كان في تلك الأيام سن الخامسة والعشرين] على ثلاث صفحات من القرطاسية الفاخرة، ذات الحواشي المذهبة من قطع الثُمن».

الفقرات الثلاث الأولى وبداية الفقرة الرابعة (عن الزلزال الكبير) مكتوبة على ثلاث صفحات من الورق ذي الحواشي المذهبة. وأُلصقت هذه الصفحات التي لم يُكتب على وجهها الآخر، ببعضها الآخر في نقطة ما: الورقة الأولى، بعنوان الطفولة، ملصقة بالورقة الثانية التي تحمل عنوان الشباب، وهذه بدورها أُلصقت بالورقة الثالثة التي تضم الاقتباس من شكسبير زائد السطرين الأولين من فقرة الزلزال الكبير التي قُطعت مباشرة تحت السطر المنتهي بكلمتي «جديد، معصوم من الخطأ». وفي الفقرة الأولى من اليوميات كُتبت كلمة «الطفولة» المشددة بخط متموج تحتها، بحجم مماثل لحجم كلمة «الشباب» في الفقرة الثانية من اليوميات و«25 عاماً من العمر» في الفقرة الثالثة. وبما إن الكتابة واحدة والفقرات مكتوبة على نوع واحد من الورق فإنها على الأرجح كُتبت في وقت واحد. ولا يُعرف مَنْ ألصقها ببعضها البعض ولكن كل المؤشرات تقول إنه بارفود الذي ربما وجد الأوراق الثلاث معاً. وفي الحقيقة إن كيركغارد كان يخطط في كانون الثاني/ يناير 1838 لكتابة «قصة قصيرة بعناوين من تأليفي أنا»، وبقليل من الخيال قد تكون هذه «العناوين» هي الفقرات ذات العلاقة في اليوميات.

يجب أن تُضاف إلى هذه الحزمة من النهايات السائبة الحقيقة المزعجة لاختفاء مخطوطة هذه الفقرات من اليوميات بعد تنضيد الحروف لطبعة بارفود. لذا تعين على الفريق التالي من المحررين، هايبرغ وكور، أن يكتفي بإعادة طبع الفقرة التي تتحدث عن الزلزال الكبير من طبعة بارفود بوضعها في المجموعة المرنة من «الأوراق السائبة» للفترة السابقة على عام 1838. ولكن في شباط/ فبراير 1911 ظهرت المخطوطات الأصلية المختفية للفقرات الثلاث الأولى من اليوميات والسطرين الأولين من فقرة الزلزال الكبير. وكانت هذه في مكتبة رايتزل التي سلمتها الآن إلى مكتبة الجامعة. ولكن من دواعي شعور رايتزل بالغم إنه اضطر إلى الإبلاغ بأنه لم يتمكن من العثور على بقية الفقرة التي تتحدث عن الزلزال أو الفقرتين التاليتين بعدها، التي ربطها بارفود (ومعه الأجيال التالية) بالزلزال الكبير.

تتسم هذه الجوانب التقنية بأهمية حاسمة لتفسير فقرة الزلزال الكبير التي تعتمد أهميتها المحدَّدة على وقت كتابتها. وفي الحقيقة ما هي الأحداث التي قدَّمها كيركغارد بكلماته الدراماتيكية «ثم كان...»؟ كما رأينا، افترض بارفود إن الفقرات التي تضمها اليوميات كُتبت بعد عيد ميلاد كيركغارد الخامس والعشرين في 5 أيار/ مايو 1838، ولكن قبل وفاة والده في 8 آب/ أغسطس من ذلك العام، ويبرر بارفود افتراضه بالإشارة إلى حقيقة إن كيركغارد كتب «25 عاماً من العمر» فوق الاقتباس من شكسبير. ولكن الافتراض لا يصمد. إذ لا بد إن الاقتباس كُتب بعد ما يدعيه بارفود بزمن طويل لأن ترجمة أيرنست أورتليب الألمانية لأعمال شكسبير التي يقتبس منها كيركغارد لم تُنشر إلا في 10 أيار/ مايو 1839، وبالتالي بعد ما لا يقل عن عام على وقوع الأحداث التي يذكرها بارفود. لذا يجب ألا تؤخذ عبارة «25 عاماً من العمر» بالمعنى الحرفي بل الأرجح إنها كانت طريقة للإشارة إلى سن البلوغ نفسه. وهكذا عندما يُزعَم إن الكاتب وجد نفسه، على ما يُفترض، في حالة صدمة من نوع ما وقت كتابته السطور التي يتحدث فيها عن الزلزال الكبير فإن هذا ليس استنتاجاً خاطئاً بشكل صارخ فحسب بل غير جائز نفسياً كذلك لأنه حين يكون شخص ما في حالة صدمة فإنه من المستبعَد أن يجلس ويكتب بكل ما في خط يده من عناية على أفخر ورق ذي حواشٍ مذهبة لديه، أو أن يعبر عن نفسه بأسلوب أدبي، كما هي الحال هنا.

فـي منتصـف سـبعينات القـرن التاسـع عشـر حيـن كان غيـورغ برانديـس Georg Brandes يعمـل علـى كتابـة سـيرة حيـاة كيركغـارد، كان أول مَـنْ حاول أن يكتشف ما هي الأحداث أو المعلومات الخاصة التي تركت مثل هذا الأثر في نفس كيركغـارد بحيث يصفها بالزلزال. وتحدث برانديـس ذات مرة عن القضية مع هانز بروشـنر لكنه لم يعد قادراً على أن يتذكر ما قاله بروشـنر لـه، وفي هذه الأثناء توفي بروشـنر. لذا اتصـل برانديس بفريدريك ترويلـس لونـد Frederik Toels Lund ابن أخـت كيركغارد، وفي رسـالة إليه بتاريـخ 20 أيلول/ سـبتمبر 1876 كتب برانديس: «لدي ذكرى ضبابية بأنه كان أمراً عن علاقة تاجر الجوارب العجوز بوالدة كيركغارد (التـي من الغريب بما فيـه الكفاية إن كيركغارد لا يذكرها أبـداً بكلمة واحدة)، أمراً عـن علاقات غير لائقة قبل الزواج أو عن كونه ظلمها بطريقة مالية ما». ولم يتمكن ترويلس لوند الذي رد بعد ثلاثة أيام من تأكيد هذا الافتراض أو نفيه، ولكن للحقيقة والتاريخ، إنـه قابل «العديد من أفراد العائلة - صحيـح إنهم أقارب بعيدون - دون أن يعرف أحد منهم أي شـيء سـوى إن الرجل العجوز كان على العموم بخيلاً وإنه في أيام شـبابه «ربما» كان طائشـاً بعض الشـيء». كانت هذه حصيلة هزيلة، ولكن برانديـس لم يتمكن من المضي أبعد في القضية، وفي سـيرة الحياة التي كتبها تعين عليـه أن يقصر نفسـه على الملاحظة التاليـة: «أي نوع من الإسـاءة كانت هذه، غيرُ معـروف بالطبع ولكن كل المؤشـرات تقول إنها كانت تمـت بصلة إلى العلاقة بين الوالديـن». ويُفترض إن طفلهما الأصغر علم بهـا، وهذا - كما لمح برانديس - ما أحدث الزلزال الكبير في حياته.

بعد فترة ليست طويلة على نشر برانديس سيرة الحياة التي كتبها، توجه البروفيسور النرويجي فريدريك بيترسن Fredfrik Petersen إلى بيتر كريستيان كيركغارد وسأله عن رأيه بتفسير برانديس للزلزال الكبير. طلب البروفيسور بالتحديد توضيحاً عما إذا كانت الإساءة ذات العلاقة تتضمن «خيانة زوجية». وفي هذا الشأن لم تكن لدى الابن الأكبر أي شكوك. إذ كتب بيتر كريستيان بلغة لاذعة في شهادة ملأت عدة صفحات بتاريخ كانون الثاني/ يناير 1877 «إن الدكتور برانديس كان منكود الحظ إلى أقصى حد ممكن عندما سمح لنفسه أن يتكهن بأن «خيانة زوجية» كانت سبب الوساوس الحزينة التي يلمح إليها سورين بشأن والده ووالدي». وتابع: «أملي أن تعترف حتى أحدث الفلسفات باستحالة تقديم دليل على أن شيئاً لم يحدث (لا حقيقة)». وكان بيتر كريستيان - الذي،

كما كتب، عثر في وقت سابق «على الأوراق الثلاث الصغيرة ذات الحواشي المذهبة مع أقوالها النبوئية»، ودرسها - يعتقد من ناحيته، إن سبب الزلزال الكبير نجده في الوفيات الكثيرة التي فُجعت بها العائلة بصورة مفاجئة. وكانت وفاة الشقيقتين نيكولين كريستين وبيتريا سيفرين بصفة خاصة شديدة الوطأة، ولا سيّما وإن زواجهما من الأخوين لوند ترك على البيت «بصمة ابتهاج ومرح كنا أحياناً نفتقر إليها قليلاً بسبب شيخوخة أبوينا وألمهما، وطريقة حياتهما من الطراز القديم». ولكن الوفاة التالية لم تكن أخف وطأة، كما تابع بيتر كريستيان، وحدثت عندما اقترب هو نفسه «من الإيمان إيماناً حياً بالمسيحية» ونجا من «ضربة تيفوس خطيرة». وبدأت أوضاع العائلة تنفرج بعض الشيء. «ولكن في هذا الوقت تُوفِّيَتْ ماريا... ثم لا يمكن الشك في أن سورين وقع صريع النظرة السوداوية... بأن العائلة ستموت تباعاً وإن الوالد سيبقى بعدنا جميعاً». بالطبع، لم يحدث هذا في النهاية، وتُوفِّيَ الوالد قبل وَلَدَيه، وهذا، بحسب رواية بيتر كريستيان، هو ما فرض على شقيقه الأصغر أن يعيد النظر برأيه السابق ويطلع بتفسير جديد «كان، كما ينبغي أن يُلاحَظ، مطابقاً من نواحي عديدة مع الرأي السابق، سوى إنه حتى أشد صرامة».

أراد بيتر كريستيان في رسالته إلى البروفيسور بيترسن أن يجعل من الواضح إنه هو أيضاً كان موضع ثقة الوالد، ومن المستبعد إن الرجل العجوز كان خلال الأشهر الأخيرة من حياته «سيطلع سورين على إثم كان يثقل كاهله». وطُرح التوكيدان لصالح الموضوعية التاريخية لكنهما يتضمنان أيضاً أصداء تنافسه القديم مع شقيقه الأصغر الذي كانت علاقته مع والدهما ذات حميمية يفضل بيتر كريستيان ألا يتذكرها، وأقل من ذلك أن يعلنها على الملأ. وإذا قرأنا رواية بيتر كريستيان في ضوء ما نعرفه اليوم فإن ما يلفت انتباهنا هو ما «لم» يرد في روايته: رفض رفضاً قاطعاً تكهن برانديس بشأن حدوث خيانة زوجية ولكنه في الوقت نفسه التزم جانب الصمت بشأن علاقة والده قبل الزواج مع آنا رغم إنه سيكون من الطبيعي جداً أن تُذكَر في هذا السياق. اللافت أيضاً حقيقة إنه لم يشر ولا حتى تلميحاً إلى الحدث الذي طغى على كل شيء في فهم العائلة المتخَيَّل بهذا القدر أو ذاك لنفسها - والده حين لعن الله - الذي كان بيتر كريستيان على دراية به بشكل واضح منذ ما يربو على جيل. والحق إن ذاكرته بشأن هذ الحادث المؤلم أُنعشت قبل نحو عقد على ذلك. وذات صباح في

شباط/ فبراير 1865 حين كان بارفود في مقر سكن الأسقف يعمل على يوميات سورين آبي قرأ يوميات JJ من شباط/ فبراير 1846 فوقع على فقرة كانت ذات طابع شخصي حتى إنه فكَّر إن من المناسب تقديمها إلى الأسقف. وجاء في الفقرة: «يا للفظاعة على الرجل الذي ذات مرة، يوم كان طفلاً يراقب الأغنام على مرتفعات يوتلاند البور، ويعاني معاناة ممضة، جائعاً واهناً من البرد، وقف على قمة التل ولَعَن الله - ولم يستطع الرجل أن ينسى ذلك حين كان في الثانية والثمانين». عندما انتهى بيتر كريستيان من قراءة الفقرة انفجر باكياً. «هذه قصة والدنا - وقصتنا نحن أيضاً»، كما أخبر بارفود، وهنا (ما زال الكلام بحسب ما قاله بارفود) «سرد تفاصيل القضية التي ينبغي ألا أُعيدها هنا».

كانت صداعات لا تُحصى ستُوفَّر على الأجيال اللاحقة من الباحثين لو خرج بارفود قليلاً عن طوره ليعيد «تفاصيل القضية» - مع تجنب الكثير من الغيظ لو امتنع على الأقل عن ذكر الخطيئة التي ارتكبها بإغفاله ذلك. ولا يجدي إن بارفود اعترف بأنه، حرصاً على الأسقف العجوز «لم يطاوعه قلبه» لنشر «ثورة شقيقه المؤلمة» - أي الفقرة المقتبسة آنفاً من يوميات سورين آبي عن لعن الله - ولذلك أسقطها من طبعته الموسومة «من أوراق سورين كيركغارد بعد وفاته». وقَمْعُ بارفود لفقرة ذات أهمية حاسمة كهذه من اليوميات أمر مفهوم نفسياً، ولكنه مبدئياً لم يكن مبرراً بقدر ما لم يكن مبرراً إنكار بيتر كريستيان اللاحق لوجودها. وكان بمقدوره أن يسوق أسباباً كثيرة لهذا الإنكار ولكن رد فعله على فقرة اليوميات وقت اكتشافها، يشهد بحد ذاته على الأهمية البالغة التي أعطاها للعن والده اللّهَ، الذي كان على ما يبدو الزلزال الكبير في حياة بيتر كريستيان. وافترَضَ إن هذه هي الحال في حياة سورين آبي أيضاً، ولكنه من هذه الناحية كان مخطئاً على الأرجح لأن الشقيق الأصغر، بمجرد ذكره الحادث في يومياته، أضفى عليه طابعاً علنياً من نوع ما. من جهة أخرى، ليس هناك سبب للشك في أن لعن الوالد لله قام فعلاً بدور هائل في فهم سورين آبي لنفسه وإنه كان بمثابة تفسير يفي بكل الأغراض لوفاة الأطفال قبل الأوان. إذ لم يَعِشْ أي منهم بعد سن الثالثة والثلاثين - أي ليس أطول من عمر المسيح - وهو حد عمري من المؤكد أن جذره يكمن في ميل العائلة إلى الروحانية العددية. وهكذا كتب سورين آبي، الذي أُطلع على منطق المصادفات العصي على الفهم، في يومياته بتاريخ 22 كانون الثاني/ يناير 1837: «من اللافت تماماً إن المسيح عاش إلى عمر ثلاثة وثلاثين عاماً بالتمام».

في ذلك الوقت كان بيتر كريستيان في الثانية والثلاثين، شاحباً وسقيماً بعد إصابته بالتيفوس، وبذا كان الدور على بيتر كريستيان ليكون التالي في موكب موتى العائلة، على ما يُفترَض. ولكنه تماثل للشفاء بأعجوبة، وفي 3 تموز/ يوليو 1838 عندما بلغ الثالثة والثلاثين من العمر وذهب إلى سر التناول مع والده، لاحظ سورين آبي: «الانهجاس بفكرة مثل التشنجات اللا إرادية – تشنج القدم مثلاً – التي أفضل علاج لها هو الدوس عليها».

بعد أكثر من شهر بقليل اصطدمت النظرية السقيمة عن الموت في الوقت غير المناسب بوفاة الأب، ولا بد إن موته كان مبعث ارتياح لا يُوصف لولديه. وفي الوقت نفسه كانت الوفاة، بالطبع، حدثاً مفجعاً، ولا سيّما للابن الأصغر الذي سيتحدث لاحقاً عن وفاة والده بوصفه «حدثاً مدمّراً بصورة مخيفة». ومع ذلك تمسك ببقايا النظرية الأصلية وهي إن أحداً من الأطفال لن يعيش أطول من عمر الثالثة والثلاثين. لذا، حين بلغ بيتر كريستيان الرابعة والثلاثين في 6 تموز/ يوليو 1839، أُجبر على رؤية «قانون التأويل» الذي اعتمده يُدحض مرة أُخرى. هذا، إذاً، كان الوضع عندما كتب كيركغارد في يومياته الفقرة التي يتحدث فيها عن الزلزال الكبير، في أيلول/ سبتمبر من ذلك العام على ما يُفترَض. وقبل ثلاث سنوات، في وقت ما من كانون الثاني/ يناير 1836، قدم تشريحاً متناقضاً للموقف: «الخرافات شيء غريب. إذ من الجائز أن يظن المرء إن الشخص حين يرى خيالاته السقيمة لا تتحقق، سيتخلى عن الاستمرار في الإيمان بها، ولكنها على العكس من ذلك تزداد قوة مثلما إن الرغبة في المقامرة تزداد عند الشخص بعد خسارته في اليانصيب».

وكما هو معهود من الحركات المسرحية المرتعشة التي كان كيركغارد يفسر بها حياته فإنه كتب الآتي في يومياته ليوم الأربعاء، 5 أيار/ مايو 1847: «يا للغرابة أن أبلغ الرابعة والثلاثين من العمر. إنه أمر لا يُصدق على الإطلاق بالنسبة لي. إذ كنتُ متأكداً بأني سأموت قبل يوم الميلاد هذا أو فيه بحيث كان من الممكن إغرائي في الحقيقة بأن أفترض إن تاريخ ميلادي سُجل خطأ وإني سأموت في السنة الرابعة والثلاثين من عمري». ويقول هانز بروشنر الذي لا بد أن يكون كيركغارد شاركه أفكاره المخيفة، بوضوح إن كيركغارد كان مقتنعاً بصوابها بحيث إنه «حين بلغ هذا العمر تحقق حتى من سجلات الكنيسة ليرى إن كان حقاً تعدى الحد المرسوم».

في يوم عيد ميلاده ذاته وصلت رسالة من بيتر كريستيان. وأحرقها الشقيق الأصغر كعادته، ولكن لا بد أن يكون بيتر كريستيان تطرق بكل تأكيد إلى الأهمية الخاصة للسنوات الأربع والثلاثين، لأنه بعد أسبوعين رد سورين آبي على الرسالة مشيراً إلى أن عيد الميلاد ذا العلاقة كان يلاحق أفكاره بوصفه مستحيلاً إعجازياً: «وقت حدوثه أذهلني بقدر ليس قليلاً - بل أستطيع أن أقول الآن دون خوف من إزعاجك - إنك بلغتَ الرابعة والثلاثين. أنا والوالد على السواء كانت لدينا الفكرة القائلة بأن لا أحد في عائلتنا سيعيش أطول من أربعة وثلاثين سنة. ولكن مهما كان اتفاقي مع الوالد نادراً من نواحي أخرى فإن أرضية مشتركة مهمة كانت تجمعنا في بضع أفكار غريبة، وفي مثل هذه الأحاديث كان الوالد على الدوام تقريباً راضياً عني لأني كنتُ قادراً على تصوير الفكرة بمخيلة حية ومتابعة دلالاتها بدأب جريء. وفي الحقيقة إن من الأمور الغريبة في الوالد هو غناه بشيء لم نعترف له بامتلاكه على الإطلاق - المخيلة، وإن كانت مخيلة حزينة. وهكذا كان المفترَض أن تكون السنة الرابعة والثلاثون هي الحد المرسوم، وكان المفترَض أن يعيش الوالد بعدنا جميعاً. وهذا ليس كما اتضح - ها أنا أدخل العام الخامس والثلاثين».

هكذا استنبط الأب والابن معاً فكرة موت الأطفال قبل «سنتهم الرابعة والثلاثين»، وينبغي أن نفهم إن سورين آبي هو الذي رعى الفكرة، مع والده، بطريقتهما السوداوية فيما استُبعد بيتر كريستيان، والآن فقط أُطلع على النظرية. والمفترَض إنه لم تكن لديه أدنى فكرة عن المصير الرهيب الذي تصور كيركغارد الأب وكيركغارد الشقيق الأصغر إنه كان ينتظره. والجدير بالملاحظة إن سورين آبي في رسالته إلى بيتر كريستيان لم يأت بالمرة على ذكر ما تلفظ به والده حين قال اللعنة التي كانت بالطبع أساس نظرية الحد المرسوم للعمر بأربعة وثلاثين عاماً. ولكنه ربما افترض ضمناً إن بيتر كريستيان يستطيع أن يستقرئ النظرية المتعلقة بلعن الله، التي كان يعرف بها على ما يُفترض من وقت مبكر رسمياً.

بيد إن الأرجح ولكن المخيف أكثر بكثير إن ما فعله الوالد حين لعن الله لم يكن التفسير الوحيد لأصل النظرية! لأن ظروفاً ليست قليلة تشير على ما يبدو إلى أن لعن الله لم يكن إلا جانباً واحداً، وإن اللعنة لا يكون لها معنى إلا عند النظر إليها بالارتباط مع خطيئة من نمط - جسدي - مختلف تماماً. لذا فإن الزلزال الكبير كان نظرة مفاجئة إلى هذا الأمر الآخر، وليس لعن الله بحد ذاته،

تلك الخطيئة من خطايا الطفولة التي ما كان سورين آبي لينسب إليها مثل هذه العواقب بالغة الأثر رغم كل ميوله العصابية.

لم يقدم كيركغارد صورة شعرية لهذه العلاقة بين السبب والنتيجة إلا في عام 1845. إلى هذا الحد انتظر، ونحن أيضاً سيتعين علينا أن ننتظر إلى هذا الحد.

من أوراق شخص ما زال على قيد الحياة

كان يوم 5 أيار/ مايو 1847 يمثل عند سورين آبي الموعد النهائي بشأن تلك الاستنتاجات التي صادف أن توصل إليها الأب والابن بمثل هذه «المخيلة السوداوية». وفي عام 1838 كان لم يزل لديه تسعة أعوام باقية. كان لم يزل على قيد الحياة، والصدمة لم تشل قدرته على العمل بل على العكس تماماً. وفي الحقيقة إن كيركغارد في غمرة كل شيء - كما نقل أميل بويسن بشكل خاص إلى مارتن هامريخ في رسالة بتاريخ 20 تموز/ يوليو 1838 - «كتب قطعة عن أندرسن لنشرها في بيرسوس Perseus التي يصدرها هايبرغ، أسلوبها ثقيل بعض الشيء لكنها قطعة مكتوبة بشكل جيد من نَواح أخرى».

وافق هايبرغ على النشر ولكنه معه ذلك أرسل إلى كيركغارد بعض التعليقات النقدية عن المقال لأن المقال الذي يُنشر في «بيرسوس» يجب أن يكون متميزاً بأسلوبه. إذ كانت «بيرسوس مجلة الفكرة التأملية» تتوجه إلى القادرين على «التعبير عن أفكار إيجابية ومستقلة» في الفن والدين والفلسفة. وكانت المجلة تحسب من بين المشتركين فيها البالغ عددهم 133 مشتركاً أتش. إن. كلاوسن ومينستر وأوهلنشلاغر وسيبِّرن وهانز كريستيان أورستيد وبالتالي فإنها كانت المنبر المناسب قطعاً لنشر الأفكار الإيجابية والمستقلة. لَمْ تَبْقَ رسالة هايبرغ إلى كيركغارد ولكننا يمكن أن نستقرِئ من ردّ كيركغارد الذليل في رسالة إلى هايبرغ بتاريخ 28 تموز/ يوليو 1838 إن هايبرغ لم يكن راضياً عن أسلوب المقال وطلب من الشاب أن يكتب بدنماركية مقروءة بدرجة معقولة. لذا توجه كيركغارد إلى زميل الدراسة القديم أتش. بي. هولست وطلب منه أن يفعل شيئاً ما باللغة. ويروي هولست إنه كانت هناك أيام المدرسة حركة منتظمة بينهما: كيركغارد كان يكتب مواضيع في الإنشاء باللاتينية فيما كان هولست يكتب مواضيع في الإنشاء بالدنماركية لكيركغارد الذي كان يعبر عما يريد أن يقوله بدنماركية لاتينية إلى حد ميؤوس منه، تعج بالمصطلحات المكتوبة بصيغة اسم

الفاعل والمفعول والجمل المعقدة بصورة استثنائية. وهكذا كان هولست على علم بالمشكلة، بل يصر على أنه خلال أشهر الصيف ترجم في الحقيقة قطعة كيركغارد إلى الدنماركية. وكان كيركغارد نال في امتحاناته المدرسية النهائية أعلى العلامات بالدنماركية، laudabilis prae ceteris [يستحق الثناء بامتياز] وبالتالي فإن رواية هولست التي كُتبت في عام 1869 - نحو أربعين عاماً بعد أيامهما في المدرسة وثلاثين عاماً بعد الكتاب الذي صدر عن أندرسن - ينبغي أن يُنظر إليها على أن فيها قدراً من المبالغة. على أية حال، ما أن كانت المخطوطة جاهزة حتى أفلست مجلة بيرسوس وأُغلقت فتعين على كيركغارد أن يتصل برايتزل ويتكفل بنشر «مقاله عن أندرسن» في شكل كتاب صغير بحد ذاته. وأُنجز المشروع كله في 7 أيلول/ سبتمبر 1838، وفي ذلك التاريخ، أقل من شهر بعد وفاة والد كيركغارد، كان بمقدوره أن يسمي نفسه كاتباً، كاتب العمل الموسوم «من أوراق شخص ما زال على قيد الحياة، نشرها ضد إرادة أس. كيركغارد». وكان العمل ذو العنوان المموَّه تحليلاً في 79 صفحة، مكثفاً وفي الوقت نفسه جارحاً بقدر لا يُستهان به ضد هانز كريستيان أندرسن كروائي مع إشارة متواصلة إلى روايته الثالثة «ليس إلا عازف كمان» التي نُشرت في 22 تشرين الثاني/ نوفمبر 1837.

يروي أندرسن في سيرة حياته، «قصة حياتي الخيالية»، التي نُشرت في 1855، إنه بعد فترة وجيزة على نشر روايته «عازف الكمان» التقى كيركغارد الذي أبلغه بنقد مقبل يعامل الكتاب معاملة أكثر إنصافاً بكثير من المراجعات السابقة «لأن» كيركغارد قال «أسيء فهمي تماماً»، كما أوضح أندرسن. لذا كان أندرسن يتوقع ثناءً صادقاً على كتابه، لكن الوقت فات، وفي الفقرة التي كتبها في تقويمه بتاريخ 30 آب/ أغسطس 1838، شكا أندرسن بنفاد صبر قائلاً «عانيتُ عذاباً ذهنياً بسبب نقد كيركغارد الذي لم يُنشر بعد». وبعد أكثر من أسبوع بقليل نُشر النقد الذي طال انتظاره، وتلقى أندرسن صدمة: «رسالة بشعة من [كريستيان] فولف وبعدها مباشرة النقد الذي كتبه كيركغارد. إدوارد [كولن] أعطاني مساحيق مهدئة. كنتُ أمشي وكأني في غيبوبة». مسكين أندرسن! ولم ينفع في التهوين عليه حين كتب بي. أس. إنغيمان B. S. Ingemann الطيب، الذي كان بنظر أندرسن صديق العمر، مواسياً إياه في 9 كانون الأول/ ديسمبر 1838: «كانت مراجعة كيركغارد شديدة الوطأة على معنوياتك، على ما أظن. لكني

لا أرى فيها أي حقد أو رغبة للنيل منك. لعل نياته تجاهك أفضل بكثير مما أشار. فالخلاصة تحوي تلميحات إلى موقف ودي وإن كانت مكبوتة بطريقة غريبة». وكان إنغيمان وجد «من الأحادية واللامعقول» أن يعرب كيركغارد عن «استهجانه بحبر الطباعة» وفي الوقت نفسه يصوغ «شكره واستحسانه بحبر غير مرئي» – ولكن هذه لم تكن إلا طريقة كيركغارد في الكتابة. وإذ كان إنغيمان يعرف مزاج أندرسن الحساس فإنه أضاف للحيلولة دون مزيد من المعاناة: «يجب قطعاً ألا تسمح لهذه المعارضة بتثبيطك».

بالطبع سمح أندرسن بتثبيطه في كل الأحوال ولكنه بحلول عام 1855 استجمع قواه بما فيه الكفاية لأن ينسى رد فعله الآني، وبدلاً من ذلك وصف كتاب كيركغارد بطريقة تقنية موضوعية قائلاً إنه صعب «القراءة بأسلوبه الهيغلي الثقيل. وقيل من باب المزاح إن كيركغارد وأندرسن وحدهما اللذان قرأا الكتاب بأكمله... وهذا ما خرجت به في حينه: إني لست كاتباً بل شخصية خيالية انزلقت خارج خانتي». وبلطف أضاف أندرسن الذي كان لا يحب أن يكون على علاقة سيئة مع أحد، وخاصة مع شخص مشهور: «لاحقاً فهمتُ بصورة أفضل هذا الكاتب الذي جاراني بكرم وفطنة».

لا شيء يُعرف عملياً عن العلاقة بين هذين العبقريين، أندرسن وكيركغارد، قبل عام 1838. كلاهما كانا عضوين في جمعية الطلبة في الجامعة، وكان من الجائز أن يلتقيا في جمعية الموسيقى أيضاً. وقبل أن يكتب كيركغارد باكورة أعماله عن أندرسن كان مطلعاً على عمل أندرسن الصغير «رحلة على الأقدام من قناة هولمنز إلى نقطة أماغر الشرقية»، وروايتي «المرتجلون» و«أو. تي»، ومسرحية «أنغيتي وعريس البحر» وبعض القصص الأخرى. وكتب ذات مرة في عام 1837 إن رواية «المرتجلون» التي صدرت في طبعة ثانية ذلك العام لم تكن عملاً يُعتد به – باستثناء الملاحظة اليتيمة: «يستأذن الإيطالي للمغادرة بالقول felicissima note «ليلة سعيدة»، ويقول أندرسن «إن الاسكندنافي يتمنى للآخر» ليلة طيبة، ونوماً هانئاً فيما يتمنى له الإيطالي «أسعد الليالي!» فإن ليالي الجنوب تمتلك أكثر من – الأحلام».

لدى النظر تاريخياً إلى الوراء فإن الحقيقة الماثلة في أن أول كتاب «يؤلفه» كيركغارد وأول كتاب «عن» أندرسن ينتهي بهما المآل إلى أن يكونا كتاباً

واحداً، تبدو مصادفة تقرب من الأعجوبة. ولكن هناك ثلاثة أسباب على الأقل لعدم الاستغراب من إن أندرسن على وجه التحديد هو الذي اختاره كيركغارد موضوعاً لباكورة أعماله كناقد. فأولاً، إن أندرسن كان روائياً ناجحاً له جمهور واسع وصيت ذائع ليس في الدنمارك وحدها. وإن روايته «ليس إلا عازف كمان» المرفقة بسيرة حياة طويلة للمؤلف (وفر أندرسن نفسه الكثير من مادتها) صدرت مترجمة إلى الألمانية في عام 1838 أعقبتها في خريف ذلك العام ترجمة هولندية، وقبيل عيد الميلاد صدر الكتاب بالسويدية تحت عنوان «عازف الكمان من سفيندبورغ». وهكذا فإن الرجل الذي انطلق كيركغارد لنقده كان بعيداً عن كونه نكرة أدبية، بل على العكس كان رجلاً في ذروة شهرته الأدبية، رجلاً جرى تكريمه بمعاش تقاعدي قدره 400 ريكسدولار في السنة. وحين عاد بيرتل تورفالدسن Bertel Thorvaldsen، النحات الدنماركي الأسطوري المغترب، إلى الدنمارك في 17 أيلول/ سبتمبر 1838 لاقى استقبالاً من النوع الذي لا يلقاه إلا الآلهة التي تعود إلى الأرض. وإلى جانب أوهلينشلايغر وهايبرغ وغروندتفيغ وفينتر وهيرتس وهولست وتوماس أوفيرسكو كان أندرسن في المركب الذي أبحر لاستقبال تورفالدسن على متن الفرقاطة «روتا» التي كانت راسية قبالة الشاطئ حيث استُقبل النحات بالموسيقى والغناء والتهليل. والسبب الثاني إن أندرسن كان له وضع إشكالي في الوسط الأدبي وخاصة إزاء حلقة هايبرغ. وفي حين إن عدداً من قصائده نُشرت في صحيفة فلايِفه بوستن فإن محاولاته في المسرح لم ترتق قط إلى ذوق هايبرغ، وأندرسن نفسه كان بالطبع جلفاً وغريب الأطوار حتى إن واحداً من الفخاخ التي لا تُحصى التي نُصبت له (بالمعنى المجازي) في بيت هايبرغ المسرحي سرعان ما اصطاده وأوقع به «في الهاوية». وكتب كيركغارد الذي شحذ قلمه استعداداً للمعركة، في يومياته «إن أندرسن ليس بتلك الخطورة حسبما تسنى لي معرفته، وإن قوته الرئيسية تتألف من جوقة مساعِدة من المتطوعين وبضعة جوالين من متذوقي الجمال الذين لا يتوقفون عن إعطاء تأكيدات بشأن استقامتهم». وأخيراً، فإن رواية «ليس إلا عازف كمان»، خرقت مواضعات تلك الفترة وتوقعاتها بشأن الرواية كجنس أدبي. ولم يستطع الناس القبول بأن تكون لها نهاية سلبية. وكانت مهمة الكاتب أن يقدم دفاعاً عن التناغم المتأصل للوجود، لكن أندرسن لم يفعل ذلك، وكانت روايته زاخرة بالصراع وحمَّلت المجتمع مسؤولية كبيرة عن حقيقة إن بطلها كريستيان ينتهي نهاية غير سعيدة.

هكذا يبدأ النقد الذي كتبه كيركغارد بالتشديد على النظرة الإيجابية إلى الحياة التي نجدها عند مسز غيليمبورغ (التي مع كل الاحترام لقرارها بإبقاء هويتها مجهولة، كان يشار إليها فقط بوصفها كاتبة «قصة من الحياة اليومية») وعند ستين ستينسن بليشر صاحب الأعمال المتسمة بنظرة بهيجة إلى الحياة وثقة بالعالم. وعلى افتراض بقاء كل الأشياء الأخرى دون تغيير فإن القصة، رغم المصاعب، تنتهي نهاية سعيدة. مع أندرسن تحدث الأشياء بطريقة معاكسة تماماً، وبحسب كيركغارد فإن السبب هو إن أندرسن ليس لديه نظرة إلى الحياة. ويعلن كيركغارد: «في الرواية يجب أن تكون هناك روح خالدة تبقى بعد زوال الكل». ولا تكتسب هذه الروح خلودها اللازم إلا من نظرة الكاتب إلى الحياة التي بهذا القدر تعمل على أن تكون «في الرواية عناية إلهية». وعلى المرء ألا يكتفي بكتابة أفضل ما يستطيع أن يكتبه بل يجب أن يسمح لخبراته وانطباعاته بالمرور متكسرة عبر موشور مصفى صفاءً شعرياً. وإذا كان الكاتب بلا نظرة إلى الحياة فإن روايته لا تصبح فوضوية فحسب بل تصبح خاصة على نحو بغيض أيضاً. ورغم إن كيركغارد لاحظ في يومياته خلال هذا العام «إن الكاتب ينبغي دائماً أن يعطي شيئاً من شخصيته مثلما يطعمنا المسيح من جسده ودمه»، فإن أندرسن ذهب بعيداً لأنه لم ينجح في الحفاظ على المسافة اللازمة بينه وبين عمله الأدبي، وبالتالي أصبح بالتدريج متواشجاً معه، بل إن «روايته ذات علاقة ملموسة به هو نفسه بحيث يمكن النظر إلى أصلهما على أنه ليس نتاجه بقدر ما هو أشطار من نفسه». وهكذا فإن مرام كيركغارد ومشكلة أندرسن «إن شخص أندرسن نفسه يتطاير إلى رواية حتى إن المرء في الحقيقة يجد من المغري أحياناً أن يظن إن أندرسن شخصية خيالية هربت من مجموعة شخصيات كهذه صنعها كاتب لكنه لم يُكمل صناعتها».

هذه كانت الكلمات التي (بحسب أندرسن نفسه) تلقفها أندرسن ولكنه إذا احتاج إلى مساحيق تبريد لاستعادة حرارته الطبيعية حين انتهى من قراءة عمل كيركغارد فلأنه شعر إنه كان هدفاً لمحاولة اغتيال، ليلة الأقلام الطويلة. وهكذا هاجم كيركغارد افتقار أندرسن إلى اليقين بوصفه فناناً - «ارتجاف اليد الذي لا يجعل قلمه يشخبط فحسب بل ويثرثر أيضاً». ومضى كيركغارد في انتقاد أندرسن لعدم اختيار أمثلته ورموزه بحس موسيقي بما فيه الكفاية: إذ كان أندرسن يفتقر إلى الروح والإحساس فإنه لم ينقل إلا عن «شعراء من

الدرجة الثانية والدرجة الثالثة، إلخ»، ولهذا السبب تصبح رواياته أشبه ما تكون بـ«منتجات خارجة من معمل». كما كان أندرس دون إحساس بعلم النفس، وكان يفتقر إلى الوضوح. وبالارتباط مع ملاحظة تقنية محضة عن القدرات الحسابية يُحال القارئ إلى هذا الهامش الخنثوي: «من الأحسن أن تُقارن قوة أندرسن الأولى بتلك الزهور التي يكون الذكر والأنثى موجودين على ساق واحدة فيها» - وهنا من المؤكد أن تكون الرسالة وصلت إلى أندرسن الذي ميوله الجنسية لم تكن دائماً واضحة لا تقبل اللبس.

أسوأ ما في الأمر، بطبيعة الحال، أن أندرسن لم يكن قادراً بالمرة على إدارة بطله، وإن كريستيان، نصف البيوغرافي، الذي جرى تصويره عبقرياً يُساء فهمه لكنه في المقام الأول «بكّاء» وأخرق معتد بنفسه عاني الأمرين في السابق، هلك - أخيراً والحمد لله! وفي سيرة حياة أندرسن التي أُرفقت بالطبعة الألمانية لرواية «ليس إلا عازف كمان» - ولُخصت أواخر تموز/ يوليو 1838 في مجلة كوبنهافينس مورغنبلاد - كُشف إن أندرسن كلما يواجَه بقرار مهم كان ينفجر باكياً. ولعل هذا هو مصدر صفة «البكّاء» التي أطلقها كيركغارد. إذ كان أندرسن يريد أن يقول إن العبقري حساس لا يتحمل هذا العالم. وكان هذا قولاً حساساً للغاية بنظر كيركغارد الذي رفض عبقري أندرسن الأخرق بهذا الرد الناري: «إن العبقري ليس شمعة صغيرة تنطفئ في الريح بل نار هائجة لا تفعل العاصفة سوى تأجيجها». العباقرة لا ينطفئون وهم ليسوا مجرد حفنات من أعواد الثقاب بأيدي قدر أزرق من شدة البرد يحتاج إلى شيء يدفئ به نفسه.

احتفظ كيركغارد إلى مناسبة لاحقة بتعريف إيجابي للنظرة إلى الحياة من النوع الذي كان بمقدوره أن يرشد كريستيان إلى شاطئ السلامة عبر رواية أندرسن - كان غياب هذه النظرة السبب الحقيقي لفشل الرواية. ولكن كيركغارد يكتب في مرحلة من المراحل إن النظرة إلى الحياة تفترض مسبقاً إن المرء «لا يسمح لحياته بالذهاب بعيداً في التلاشي» بل إنه عموماً يشدد على نوع من الرقابة الذاتية بوصفها شرطاً لازماً لتمكن المرء من «كسب شخصية كفء لنفسه» لأن «مثل هذه الشخصية الميتة والمتجلية - وليس الشخصية متعددة الأوجه، الدنيوية، الملموسة - وحدها القادرة وينبغي أن تكون قادرة على إنتاج أي شيء». لذا ليس كلاً واحداً قادراً على الإنتاج فهذا شيء محفوظ للقلة القليلة. وهنا يُطلب من القراء أن يربطوا أحزمتهم ويمسكوا قبعاتهم

ويثبِّتوا نظاراتهم الخاصة بالقراءة: «النظرة إلى الحياة هي في الحقيقة شيء أكثر من تجسيد أو مجموع فرضيات محفوظة في حيادها المجرد. وهي أكثر من خبرة تكون بحد ذاتها متشظية دائماً. إنها في الحقيقة استحالة الخبرة، إنها يقين بالنفس لا يتزعزع اكتُسب في معركة ضد العالم التجريبي بأكمله، سواء وجَّه نفسه إزاء العلاقات الدنيوية كلها فقط (وجهة نظر بشرية بحتة، مثل الرواقية) وبذلك إبقاء نفسه متحرراً من الاتصال بعالم تجريبي أعمق - أو اكتشف ما هو مركزي لوجوده السماوي والدنيوي بتوجيه نفسه صوب السماء (الديني) وبذلك الوصول إلى الإيمان المسيحي الحقيقي».

وهذا ليس بالقليل، ولا سيّما إذا تذكَّرنا أن هذا الشرط بأن يموت الكاتب تدريجياً للابتعاد عن العالم، طرحه طالب جامعي في الخامسة والعشرين من العمر هو نفسه ما زال في بداية حياته لكنه مع ذلك ينقل لكاتب ناجح يكبره ثماني سنوات، النبأ القاسي بأن الشخصيات الميتة والمتحولة وحدها التي من حقها أن تكون منتجة.

وضع هذا الشرط في كتاب بعنوان «من أوراق شخص ما زال على قيد الحياة»، وهو عنوان كان محيراً على الدوام، وسُمي عنواناً غامضاً، غير معقول، غريباً، مفتعلاً، متصنعاً، والعديد من المرادفات الأخرى. ونُظر إليه على أنه عنوان يرتبط بالوفاتين اللتين حدثتا قبل صدور الكتاب مباشرة - وفاة بول مارتن مولر في آذار/ مارس ووفاة والد كيركغارد في آب/ أغسطس - وكذلك بفكرة كيركغارد القائلة إنه هو نفسه سيموت قبل أن يبلغ سن الرابعة والثلاثين. وأخيراً، جرى التكهن بأن العنوان بعكس نقد كيركغارد لفكرة أندرسن المتخاذلة عن العبقري وبذلك يمثل انتصاراً يتسم بالتحدي: هنا لدينا صوت عبقري لم تُكسر شوكته رغم إن الوجود عامله معاملة أسوأ بكثير من ذلك معاملة ذلك البكّاء ذي العبقرية المفترضة التي نراها في أندرسن.

لكن الناس كانوا في أغلب الأحيان يتجاهلون الحقيقة الماثلة في أن العنوان أُعطي في الأصل إلى المهزلة التي لم تُنجَز قط «معركة أقبية الصابون القديمة والجديدة» التي كانت ستحمل في نصها النهائي العنوان الفرعي «من أوراق شخص ما زال على قيد الحياة، نشرها أس. كيركغارد ضد إرادته». ولكن هذا ليس مسألة تتعلق بإعادة تعليب أدبية لعنوان شبه ميت فحسب بل إن جذور

إعادة التعليب تكمن عميقاً في موضوعة الكتاب، وهي أن الكاتب مات (أو لم يمت) مبتعداً عن العالم. وهكذا سجل كيركغارد في يومياته بتاريخ 9 كانون الثاني/ يناير 1838 أنه وقع على تسمية لتلك «الطبقة الخاصة من الأشخاص» الذين سيكونون قراءه في المستقبل. وعثر على الفكرة عند لوسيان، الشاعر اليوناني الذي يناقش في إحدى المراحل بعض البارانكروي paranekroi (كلمة تعني بعض الزملاء في الموت)، ترجمها كيركغارد إلى صيغة المفرد بمعنى «الشخص الميت، مثلي». هكذا تخيل كيركغارد قارئه، ورغم وجود مخيلة رومانسية سوداء هنا فقد كان هناك شيء آخر أيضاً. فأن يموت المرء يعني أن يموت تدريجياً، أن يذوي مختفياً من هذا العالم، من آنيته، لكي ينبعث من جديد في عالم الروح، إلى آنية ثانية.

من هذا المنظور يمكن أن نقرأ العنوان على أنه إعلان كيركغارد غير المباشر بأنه هو أيضاً لم يكن قادراً على القول إنه مات تدريجياً، وإنه هو أيضاً شخص ما زال على قيد الحياة، ومثله مثل أندرسن، لم يملك النظرة المنشودة إلى الحياة. وهكذا فإن نقده عمل أندرسن الأقرب إلى السيرة الذاتية، يكون هو نفسه له طابع السيرة الذاتية إلى حد ما. ولم يكن العنوان عنوان انتصار يتسم بروح التحدي بل أقرب إلى التعبير عن نوع من التضامن، عن زمالة الناقص. وفي نهايات الكتاب يعلن كيركغارد إنه، كقارئ، يقيّم أندرسن تقييماً مختلفاً تماماً عن تقييمه له كناقد. ويتذكر كيركغارد بابتسامة متفكرة انطباعه الأول عن الكتاب ثم يمتلئ بمشاعر الامتنان للكاتب الذي يدين له بكل ذلك، مشاعر لا يريد كيركغارد أن يكتبها لكنه يهمس بها في أُذن أندرسن حين تسنح الفرصة. بكلمات أخرى، إن إنغيمان كان في الطريق الصحيح حين ظن إنه يستطيع أن يستشف في القسم الأخير من قطعة كيركغارد «موقفاً ودياً ولو إنه مكبوت بغرابة».

لم يتحقق شيء من نية كيركغارد أن يهمس سراً في أُذن أندرسن. ومن الجهة الأخرى استطاع أندرسن أن يثأر من كيركغارد بعمله «كوميديا في الهواء الطلق»، مسرحية هزلية من فصل واحد، تستوحي الكوميديا القديمة «ممثل ضد إرادته». وعُرضت مسرحية أندرسن لأول مرة على المسرح الملكي في 13 أيار/ مايو 1840 بطولة لودفيغ فيستر بدور مدير مسرح جوال ينتحل شخصيات عامل زراعي ومصمم ديكورات وملقن مسرحي وأدواراً مسلية أخرى، بينها حلاق فلسفي - يبحث عن أدق التفاصيل - يتحدث لغواً ويحمل، بانفعال

شديد، على البعض من أشد المقاطع إبهاماً في كتاب كيركغارد، مقاطع تزيد من إبهامها بعض الأخطاء المطبعية من جانب أندرسن نفسه. كيركغارد لم يشاهد المسرحية على الخشبة ولكن عندما نُشرت في 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1840 ابتاعها على الفور، وبعد ذلك بفترة قصيرة كتب المقال الموسوم «لحظة واحدة يا مستر أندرسن!» - تعنيفاً فظّاً سخر فيه أولاً من أندرسن لأنه احتاج «إلى عامين كاملين» ليأتي «مقتحماً عالم الأدب بسجالات قيمتها 4 شلنات» - ثم أعرب عن انزعاجه الشديد من رؤية نفسه ممسوخاً على أنه «هيغلي يهرف». وكان أمراً جيداً - لشعور أندرسن بالراحة ولسمعة كيركغارد - أن كيركغارد ترك مخطوطة المقال في دُرج مكتبه، واختفى منذ ذلك الحين دون أثر.

يبدو أنّ أندرسن وكيركغارد بعد اصطدامهما في عام 1838 - اختفيا من تفكير أحدهما الآخر فترات طويلة من الزمن ولكن بحلول عام 1843، عندما كتب أندرسن قصته المشهورة عالمياً «فرخ البط القبيح»، يُفترَض إن البيضة تعلمت درسها من كيركغارد وتمكنت من تدبير وضعها على أحسن ما يُرام دون أي دفء من محيطها. إذ ليس هناك مشكلة في أن تفقس البيضة على ضفة بركة للبط - شريطة أن تخرج الفرخة من بيضة بجعة. وعمد أندرسن في سيرة حياته الأولى بتاريخ 1847، إلى تنزيل الشخصية الرئيسية في «لم يكن إلا عازف كمان» من عبقري إلى شخص موهوب يتخيل إنه عبقري لا أكثر. وفي العام التالي أرسل إلى كيركغارد نسخة من كتابه «حكايات خيالية جديدة»، وهو طبعة كبيرة ذات جزئين، كتب فيها هذا الإهداء: «إما تحب أعمالي الصغيرة أو لا تحبها. وهي مع ذلك تُرسل دون «خوف وارتجاف» وهذا شيء على أية حال».

كان تأثير أندرسن في كيركغارد أقل وضوحاً ولكن في مسودة «يوميات الغاوي» قارن كيركغارد الضابط العسكري الشاب، غريم الغاوي، بجندي الصفيح الصامد لأن الضابط العسكري أيضاً «سيسقط إلى الحضيض». وعلى الغرار نفسه فإن كيركغارد في مسودة In vino veritas «الحقيقة في النبيذ»، يجعل فكتور إريميتا يقول «ليلة سعيدة وي ويلي وينكي» لكل العالم المثالي، فكشف كيركغارد بذلك إنه مطلع على حكاية أندرسن «وي ويلي وينكي». ولكن هذين التلميحين على السواء اختفيا من النصوص النهائية للأعمال ذات العلاقة، فكان ذلك إشارة رمزية إلى موقف كيركغارد اللاحق من كتابه الأول ذاته. وهكذا

اختفى العمل بكل بساطة من المحصلة النهائية حين قام كيركغارد بجردة لكامل إنتاجه في كتابه «وجهة نظر لعملي مؤلفاً».

يمكن أن نماري في أي من الاثنتين - «النار الهائجة» أو «الشمعة الصغيرة» - كانت أقل فهماً للأخرى، ولكن في كل الأحوال لم يكن لدى كيركغارد حس التورية المزدوجة، المفارقة الخفية، التهكم، سخرية العصر، أو البساطة المصاغة بسذاجة التي يجدها المرء في حكايات أندرسن الخيالية، تلك المصغَّرات الفنية الرائعة. وفي عام 1837، عندما كان كيركغارد ينهي مقالاً عن قص حكايات خيالية للأطفال، نظر بازدراء إلى «تلك الدمى الطفولية المهلهلة التي تتقافز على الأرض وتركب الخيول الخشبية مع الصغار الحلوين» راويةً حكايات خيالية «للأطفال ولأرواح كالأطفال». ويبدو أكثر من واضح إن أندرسن وعمله «حكايات خيالية للأطفال» كانا النموذج وراء الكاريكاتير. وذات مساء في حدائق فريدريكسبيرغ لاحظ كيركغارد قائلاً لإسرائيل ليفن على ما يُفترَض «إن أندرسن ليس لديه فكرة ما هي الحكايات الخيالية. يكفي أن يكون طيب القلب فلماذا يُجرّب الشعر أيضاً؟» ثم طلع كيركغارد نفسه مستحضراً قدراته الشيطانية في التصوير، بـ«ست أو سبع حكايات خيالية» حتى إن ليفن «شعر بعدم ارتياح» تقريباً. ويتذكر ليفن أن كيركغارد لاحظ أيضاً في ذات المساء «إن الأدب ليس لرعاية الأطفال أو لبنات نصف ناضجات بل لبشر ناضجين».

هذان الرجلان جعَلا الأدب الدنماركي لاحقاً ذا شهرة عالمية ويسرنا أن نذكر الاثنين في وقت واحد ولكنهما حين كانا على قيد الحياة كانا يتجنبان صحبة أحدهما الآخر لأنهما، على ما يُفترَض، يعكسان مواطن ضعف أحدهما الآخر. وفي وقت ما من عام 1847 كتب كيركغارد (مبدياً ثقافة استعارية راقية ولكن مع سذاجة نفسية): «الآن يستطيع أندرسن أن يروي القصة الخيالية عن كالوشات الحظ السعيد، لكني أستطيع أن أروي قصة خيالية عن الحذاء الذي يقرص». كان كيركغارد يحاول شق طريقه بالكتابة نحو الآنية التي كان أندرسن يحاول الخروج منها بالكتابة، وكلاهما كانا بدائيَين بأفضل وأبسط معنى للكلمة. فكل منهما كان نفسه، بقضها وقضيضها.

1839

الشاب الثري

ورث سورين آبي ما هو أكثر من صورة والده «المتحولة». وبعد تسوية الإرث في آذار/ مارس 1839 حُسبت أرصدة التاجر الإجمالية بقيمة 125341 ريكسدولاراً و2 مارك و8 شلن. وكان نصيب كل من الشقيقين ربع المجموع وهو رقم محترم قدره 31335 ريكسدولاراً و2 مارك و2 شلن. وفي كانون الأول/ ديسمبر 1838 بيع المنزل الكائن في 2 نيتورف في المزاد للشقيقين بسعر 19 ألف ريكسدولار. واستُثمرت الأرصدة الأخرى في سندات وأسهم وغيرها من الأوراق المالية. وهكذا لم يكن على أي من الشقيقين أن يقلق نفسه بشأن مستلزمات العيش في المستقبل أو أي جانب آخر من وضعه الاقتصادي. وبمردود سنوي قدره 4 في المئة كان الشقيقان يستطيعان أن يعيشا بيسر من عائد أرصدتهما، البالغ نحو 1200 ريكسدولار في السنة.

وفي حين أن بيتر كريستيان استحوذ على جناح الوالد في المنزل فإن سورين آبي انتقل من البيت وسكن لمدة عامين في شقة في 11 كولترفيت مع بيتر هانسن، وهو طالب جامعي من جنوب يوتلاند. ولكن الشاب الثري لم يكن يفكر في الاستقرار بوصفه جنتلماناً ميسوراً لديه موارده المستقلة. أراد أن ينهي دراسته الجامعية بشهادة في اللاهوت، وحين علق صديق قائلاً إن سورين آبي، بعد أن تُوفِّيَ والده، لم يعد عليه أن يدرس للامتحانات رد باقتضاب: «كلا، أو لا ترى يا صديقي إني الآن لم أعد قادراً على مماطلة الرجل العجوز بالكلام». واستخدم كيركغارد في يومياته استعارة النهر غوادالكيفير الذي كان يحب أن يقارن نفسه به: «الآن، لسنة، لميل في الزمن، سأندفع في جوف الأرض مثل نهر غوادالكيفير، وسأظهر من جديد بكل تأكيد!» وفي أواخر صيف 1839، قبل أن

يرمي نفسه في جوف الأرض بحميَّة، ودع بحرارة لحظاته السعيدة، أو lucida intervalla (لحظات رائقة) كما سماها: «أنتِ أيضاً يا لحظاتي الرائقة، يجب أن أهجرك، وأنتِ يا أفكاري المحبوسة داخل رأسي - لم يعد بالإمكان السماح لك بالتنزه في عذوبة المساء، ولكن لا تيأسي. تعرَّفي على بعضك البعض بصورة أفضل، رافقي بعضك بعضاً، وبين حين وآخر سأتسلل قطعاً لزيارتك. إلى اللقاء!» توقيع: «أس. كي.، سابقاً الدكتور إكستاتيكوس».

لن يسمح الوقت بالزيارة. وشق كيركغارد طريقه عبر فروع اللاهوت، وكان يحضر دروس البروفيسور كلاوسن، التي كما هو ديدنه، سرعان ما تركها. وقبل عامين على ذلك شارك كيركغارد في تمارين مماثلة بعض الشيء، وأغضب كلاوسن غضباً عَقَد لسانه برفضه أن يكتب مبحثاً عن موضوع مقرَّر، وبدلاً من ذلك قدم تحليلاً لصياغة المبحث نفسه وجد كيركغارد إنها بكل بساطة صياغة لا معنى لها. وكانت لديه الآن الموارد المالية الكافية لتشغيل أساتذة خصوصيين كانوا يقدمون له أفضل الدروس الخاصة، ويرسم مقطع غفل من التاريخ كُتب في تلك الفترة صورة غريبة عن الوضع: «أتعلم العبرية مع أحدهم بعد الظهر وسأتفق مع آخر للصباح وثالث للخروج في نزهات معي مشياً على الأقدام وبذلك أصنع معرفة العبرية داخل آلة مغلقة، مثلما تنتج شركة دايكمان الشوكولاته». وأدت دراسة قواعد العبرية إلى أفكار عن الوضع الصعب الذي كان يواجه «الفاعل». وكتب في منتصف كانون الثاني/ يناير 1839: «مشكلتي إن حياتي - وضع روحي - دائماً يتبع تصريفات لا تكون النهايات وحدها مختلفة فيها بل الكلمة كلها تتغير». وفي وقت لاحق من العام أعلن أنه يشعر «مثل حرفٍ طُبع بالمقلوب في السطر». وطالب كيركغارد بأن تكون لدى أندرسن «نظرة إلى الحياة» تكون بمثابة «عناية إلهية في الرواية» وبذلك تكون كلية «الحضور في العمل الفني»، والآن لم يتمكن هو نفسه من تحديد الفاعل على مستوى الجملة! ولم يكن مستغرَباً إن إيل. سي. مولر الذي كان مدرسه الخصوصي في اللغة العبرية لبعض الوقت سأل بصراحة: «ولكن ماذا بحق السماء سنفعل مع سورين هذا؟»

كادت العزلة تدفع كيركغارد إلى الجنون، وتذكَّر قصة كورنيليوس نيبوس Cornelius Nepos عن الجنرال المحاصَر في حصن مع فرقة كبيرة من الفرسان، وكان يأمر بضرب الخيل بالسوط كل يوم لكيلا تمرض من البقاء ساكنة طيلة

الوقت: «أنا أيضاً أعيش في غرفتي كأني تحت الحصار، لا أُريد أن أرى أحداً، ودائم الخوف من أن يهاجم الأعداء - أي، أن يأتي أحد ويزورني. أُفضّل ألا أخرج، ولتفادي الإصابة من حياة خاملة كهذه، أبكي إلى أن يهدني التعب». وذات مرة في أوائل الربيع هتف وهو لم يزل مبتلياً بهذا الألم: «الوجود كله يقلقني، من أصغر ذبابة إلى ألغازِ تجسد المسيح».

يُعْزى تجاوز سورين آبي هذه المحنة لا إلى الحقيقة الماثلة في أنه لم يعد قادراً على المماطلة مع والده بالكلام فحسب بل لأن شابة أيضاً بدأت تصبح متشابكة مع أفكاره بشكل واعد تماماً. وهكذا في فقرة من يومياته بتاريخ 2 شباط/ فبراير 1839، كُتبت في معرض كيل المديح للسيدة الشابة (كنيتها كانت «أولسن» لا أكثر لكنها، والحمد لله، كانت ذات اسم شعري غير معهود)، ترنيمة تُرجمت منذ ذلك الحين إلى كل لغات العالم الرئيسية عملياً: «أوه، أنتِ عشيقة قلبي - ريجينة - مخفية في أعمق تلافيف صدري، في فكرتي الأكثر بهاءً عن الحياة، في مكان يبعد مسافة متساوية عن الجنة والنار - إلوهية مجهولة! أوه، أستطيع حقاً أن أُصدّق الشعراء الذين يقولون لنا إننا حين نرى موضوع حبنا لأول مرة نظن إننا رأيناه قبل ذلك بزمن طويل، يقولون لنا إن الحب كله، مثله مثل المعرفة كلها، استذكار - إنه حتى في حالة فرد واحد تكون للحب نبوءاته، شخصياته النموذجية، أساطيره، عهده القديم. أرى آثار جمالك في كل مكان، في وجه كل فتاة، لكني أعتقد بأنه سيكون عليَّ أن أمتلك كل فتاة عسى أن أتمكن، من جمالهن كله، أن أجمع جمالك أنتِ. سيكون علي أن أطوف العالم كله لأجد الأرض التي أفتقر إليها، لكنها، كالقطب، يشير إليها أعمق سر في كياني كله. وفي اللحظة التالية تكونين قربي كل هذا القرب، حاضرة كل هذا الحضور، وتحققين روحي بقوة حتى أبدو متحولاً إلى نفسي وأشعر إن خيراً لي أن أبقى حيث أنا. أنتِ يا إله الحب الأعمى! أنتِ يا من ترين المخفي، هل تكشفينه لي؟ هل سأجد هنا في هذا العالم ما أبحث عنه؟ هل سأعيش خاتمة كل المقدمات الغريبة لحياتي؟ هل أضمكِ في أحضاني؟ أم هل من أوامر أخرى؟

هل ذهبتِ قبلي؟ أنتِ، يا لهفتي، هل أنتِ، متحولةً، تومئين لي من عالم آخر؟ أوه، سأتخلى عن كل شيء كي أصبح خفيفاً بما فيه الكفاية لأن أتبعكِ».

هناك بهجة منقطعة النظير في هذه الكلمات ولكن هناك إحساساً حزيناً

بالفراق أيضاً وكأن هناك في الحقيقة أوامر أخرى وان «ريجينة» لن تصبح أي شيء سوى المادة الزائلة التي يُصنع منها فنٌ عظيم. وهكذا فإن ما يتوافق مع الهجران الذي حدث بالفعل - منحّياً الفتاة الملموسة الحقيقية لصالح الشيء المشحون شعرياً - إن الاسم «ريجينة» في النص الأصلي لم يُذكَر في الفقرة على الإطلاق ولم يُضَف إلا لاحقاً، وحتى عند ذاك كان بالصيغة اللاتينية وليس الصيغة اللاشخصية «ريجينة».

بعد هذه الأنشودة للإلوهية المجهولة تتدافع الفقرات المكتوبة في اليوميات بكل اتجاه ممكن. وفي اليوم نفسه، أي 2 شباط/ فبراير 1839، كتب كيركغارد فقرتين إضافيتين في يومياته ولكن لم يكن لأي منهما علاقة مباشرة بريجينة. إحدى الفقرتين شذرة شعرية عن قارئة تسيء فهم نص في حين تحتفي الفقرة الأخرى بما ينتاب المرء من شعور لا مثيل له حين «يتمكن من نفخ الفكرة في جسد المفهوم» ويستطيع الآن أن يجلس ويراقب كيف تبدأ الفكرة بالنمو، «ليس نمواً متشنجاً بل نمواً عذرياً». وحين يتشكل شيء ما بهذه الطريقة فإنها بهجة المثقف بل بهجة الفنان والكاتب أيضاً. وأقر كيركغارد بأن من الصحيح قطعاً أن يتعين على المرء أن يعزل فكرة ما بعض الأحيان في «كوخ عذراء» إلى أن يُعثر على عريس جدير بها ولكن «بحق السماء، إن كوخ العذراء ليس دير راهبات».

صحيح بلا ريب. وعلى الغرار نفسه فإن العاطفة الإيروتيكية ليس مكتوباً عليها بالضرورة أن تنتهي بالزواج بل يمكن أن تفرغ نفسها بطريقة مختلفة تماماً - كأدب على سبيل المثال.

المترجم

في 21 تموز/ يوليو 1839 اقتحم عالم كوبنهاغن الخارجي فجأة عزلةَ كيركغارد في اعتكافه: «الآن أستطيع أن أفهم لماذا كان أتش. هيرتز H. Hertz متلهفاً على الحديث معي، الآن إذ أقرأ آخر أعماله بنزواته وهبّاته السياسية». وترك كيركغارد حفظ قوائم أسماء البابوات ليقرأ عمل هيرتز «أمزجة ومواقف: مشاهد وصور من زيارة إلى كوبنهاغن»، الذي صدر قبل فترة وجيزة. ومثل كثيرين كان لهم الشرف المشكوك فيه للظهور في رواية بأسماء أخرى، فإن كيركغارد لم يعتقد أنّ شخصيته رُسمت بصورة وافية، وافتقد نزوته الساخرة ولكنه تعرَّف على نفسه في الشخصية التي سماها هيرتز «المترجم». «المترجم

يحمل هذا الاسم لأنه قاموس حي للآخرين»، كما يوضح هيرتز في واحد من دفاتره. ولعل كيركغارد تعرَّف على شخصيات أُخرى في الكتاب أيضاً، مثل تومسين، الذي هو هيرتز نفسه. ثم هناك المدعو أماديس وهو روح مرهفة مليئة بالغرائب والمثالب. وهذا هو هانز كريستيان أندرسن الذي يدخل ذات مرة في جدال مع المترجم حول ما إذا كان العبقري يحتاج إلى دفء ليكون قادراً على الازدهار – إشارة واضحة إلى كتاب كيركغارد الذي كان لم يزل حياً عن أندرسن.

بدأ هيرتز يجمع مادة الكتاب منذ عشرينات القرن التاسع عشر، وبدأ كتابته في عام 1831، وبعد عامين قرأ مقاطع من المخطوطة في جمعية الطلبة. وهكذا كان يشتغل على المادة منذ بعض الوقت قبل أن يلتقي كيركغارد. التقى الاثنان أول مرة في وقت ما عام 1836 في جمعية الطلبة حيث كان طالب اللاهوت مستلقياً باسترخاء على أريكة، وخاطب هيرتز بلهجة خاصة كأنهما يعرفان أحدهما الآخر منذ قديم الزمان. ويروي هيرتز: «بعد ذلك كنا نلتقي في أحيان كثيرة وإن كان ذلك فقط في الشارع، في أماكن عامة، إلخ، وكنتُ مأخوذاً بحديثه الذكي المرح». ومن تشرين الأول/ أكتوبر 1835 إلى تشرين الأول/ أكتوبر 1837 عاش هيرتز في 17 نيتورف، في طابق واحد مع بول مارتن مولر الذي يُرجح إنه ساعد هيرتز على رسم صورته النفسية والفكرية عن كيركغارد. كما كان هيرتز يتابع محاولات كيركغارد الأدبية ويقرأ باستحسان مقالاته عن الصحافة الليبرالية، التي كانت من المواضيع الأساسية في عمله «أمزجة ومواقف» أيضاً. وفي 6 أيلول/ سبتمبر 1838، حين كان هيرتز يمضي صباح اليوم مع هايبرغ، انتقل الحديث إلى عمل كيركغارد الصادر حديثاً «من أوراق شخص ما زال على قيد الحياة»، الذي، بأسلوبه غير التقليدي وأحياناً لغته المفخَّمة، كان على ما يُفترَض مصدر تسلية للرفيقين الأدبيين. والحق أن هيرتز كتب في يومياته بعد اللقاء «إن لغة بلاد الرافدين لغة غريبة»، وهي جملة مستلة من عمل هولبيرغ المسرحي «يوليسيس الأثاسي»، لا شك في أنها وفرت شيئاً من الارتياح الهزلي حين تناول هيرتز وهايبرغ كتاب كيركغارد الأول. فإن هيرتز الذي كان قلقاً من تأثير الثقافة الألمانية الذي كانت تتسم به لغة الكتاب الدنماركيين الشباب، نظر إلى كيركغارد على أنه من رموز هذه الظاهرة المؤسفة: «إن الذين التقطوا الفلسفة الألمانية عاجزون تماماً عن ممارستها باللغة الدنماركية. فنصهم يعج

بكلمات ما من دنماركي يعرف معناها. وما كتبه كيركغارد عن أندرسن يبين ما هي اللغة التي يمكن أن نتوقعها من هذه الفلسفة». كما ظن هيرتز إنه يستطيع أن يكتشف نموذج كيركغارد الأسلوبي في الألماني الغريب هامان Hamann، ولكن خلال نزهة في 18 آذار/ مارس 1839، حين أبلغ كيركغارد إنه يرى تأثير هامان، كان الجواب «كلا» واضحة. ورد كيركغارد على ما يُفترض قائلاً «أنا لم أقرأ شيئاً بقلمه». وإذا صح استذكار هيرتز للحادثة فإن رد كيركغارد كان رداً غريباً، أو بالأحرى كان كذبة سافرة لأن هامان هذا على وجه التحديد هو مَنْ كان كيركغارد يقتبس منه ويعلق عليه في يومياته منذ 10 أيلول/ سبتمبر 1836، بإسهاب كبير في الحقيقة بعض الأحيان، بل إن فقرة طويلة في اليوميات من ذلك العام بعنوان «شيء عن هامان» يمكن في الحقيقة أن تُقرأ على أنها صورة أولية لما سيصبح القسم التمهيدي لكتاب «من أوراق شخص ما زال على قيد الحياة».

كما الأسلوب، كان الرجل محيراً أيضاً، ويتابع هيرتز: «يا له من كركيغارد Kirkegaard غريب! [بالدنماركية: كلمة Kirkegaard، خطأ هيرتز الإملائي المعهود في كتابة اسم كيركغارد Kierkegaad، تعني مقبرة أو باحة كنيسة]. وبناء على إشارات مختلفة يبدو أنّ الأبواق نُفخت إيذاناً بالانبعاث من القبر – ولكن إذا كانت تلك هي الحال فإن الموتى لم يستعيدوا عظامهم بعد بل ما زالوا هناك يتخاصمون عليها. لأن البلبلة كبيرة. (لغة بلاد الرافدين لغة غريبة)». هنا يلمح هيرتز إلى الساعة التي يُنفخ فيها بوق يوم القيامة فوق المقبرة وتُجمع العظام المبعثرة – مثل تلك الغرابة المسماة كيركغارد الذي لم يجد حتى الآن ساقَيْه لكنه يختفي أبداً في ديالكتيك شاذ وطرائف خالصة.

في 8 آب/ أغسطس 1839 صادف أن التقى هيرتز وكيركغارد الذي، كما يقول هيرتز، أعرب عن ارتياحه لنقد الصحافة الليبرالية الذي وجده في «أمزجة ومواقف» ولكن كانت لديه اعتراضات أيضاً، وكان سيكتب الكثير منه بصورة مختلفة تماماً. وختم هيرتز الفقرة التي كتبها في يومياته بملاحظة «حبه لذاته». وفي اليوم نفسه كتب كيركغارد في يومياته: «إذا كانت طرائفي متصنعة كما يذهب البعض حقاً فإن طرائفهم لا يمكن أن تُتهم بذلك لأنها معطوبة». وهذه بحد ذاتها طرفة صغيرة متصنعة ولكن كيركغارد كان يريد أن يشن هجوماً معاكساً، وكتب على قصاصة ورق سائبة بتاريخ اليوم نفسه: «لو فقط تسنى لي قريباً أن أنتهي من امتحاناتي الجامعية لأصبح quodlibetarius من جديد». و

quodlibetarius هو الشخص الذي يفعل تماماً ما يشاء. ثم يكرر كيركغارد سطراً استخدمه ضد أندرسن: «مثل عاصفة رعدية يسير العبقري ضد اتجاه الريح».

لكن كيركغارد لم ينشر قط رداً على هيرتز في حين كانت لدى هيرتز خطط لاستخدام كيركغارد نموذجاً في سياقات أدبية أخرى. وهكذا يكتب هيرتز في واحد من كراريسه أواخر عام 1844: «عندما يتحدث «كغ» مع شباب في الجمعية الطلابية فإنه يتحدث ببطء شديد ويسألهم كل لحظة إن كانوا يفهمونه». لم تتمخض هذه الفكرة أو فكرة مماثلة عن شيء بالمرة، وكانت قدرة هيرتز تضعف أكثر فأكثر على فهم كيركغارد الذي بدا له مجرد «كاتب روايات مسلسَلة ترك قلمه يكتب عن أشياء من كل صنف» صانعاً من الحبة قبة. ولم يكن هيرتز مأخوذاً بالاستخدام الدائم للأسماء المستعارة وكان يرى أعمال كيركغارد أضخم مما ينبغي واصفاً إياها بأنها «حبات بندق» عصية على الكسر «ذات نويات صغيرة نسبياً». ولم يفهم هيرتز لماذا تحدث أيل آرستروب بدفء عن «إما/ أو» لكنه مع ذلك قَبِلَ من كيركغارد نسخة مهداة من هذا الكتاب في عام 1849 حين صدر بطبعته الثانية مثلما تسلم نسخة من كتابه الآخر «عن عملي مؤلفاً» في عام 1851. وكان الرجلان يلتقيان أحياناً بالصدفة في خانات في زيلاند الشمالية، وتذكَّر هيرتز لاحقاً كيف كان كيركغارد يصل بعربة «مع البريد الإضافي نازلاً من العربة في المطر المنهمر، الذي كان يحبه» ومعه زوج من طيور الحجل أو الشنقب، طير لصاحب الخان وطير لنفسه. وشاءت الأقدار أن الرجلين مكثا صدفة في خان هفيدبيرغ في هورسهولم أواخر تموز/ يوليو 1851 خلال كسوف الشمس. ولم يتكلما مع أحدهما الآخر لأنه فيما كان هيرتز مشغولاً بالحدث الفلكي غير المعهود كان كيركغارد يتناول طعامه بسلام وهدوء في غرفته.

«قراءتي للامتحانات أطول جملة اعتراضية»

خلال صيف 1839 طاف بيتر كريستيان في أنحاء البلاد متوقفاً في قرية سادينغ لزيارة عمته أيلسا. وفي منتصف أيلول/ سبتمبر كتبت أيلسا رسالة مؤثرة إلى بيتر كريستيان شكرته فيها وأبلغته مدى تقديرها لقيام رجل مهم مثله بزيارتها. وتعبيراً عن شكرها أرسلت له بيد أحد السعاة «ست قطع من الجبنة معتدلة المذاق». وفي الشطر الأخير من مارس/ آذار 1840 كتبت مرة أخرى

إلى الشقيقين كيركغارد: «السيدان، ولَدَي أخي العزيزَين، كنا نعتزم الكتابة منذ زمن طويل ولكن بسبب ظروف طارئة وملحة كنا نُرجِئُ ذلك، ولكني أرى من رسالتك العزيزة أنّ رحلتك كانت ممتعة ولطيفة وأنك عدت سالماً إلى أهلك وأصدقائك الأعزاء في كوبنهاغن. كنتُ معتلة طيلة الشتاء وكان زوجي طريح الفراش لكثيرٍ من الوقت. كلمات سيدنا المسيح لم تكن مخطئة حين يقول هو نفسه «أوَلا ترون أنا معكم دائماً...» وكان هناك الكثير مما كنتُ أود الحديث عنه معك ولكن الوقت كأنه قصير عليك وعلي. ولكن هل يمكن أن يسعدنا شقيقك العزيز بالسفر هنا إلى بيتنا، ليس من أجل نمط معيشتنا المترَف بل من باب المحبة المسيحية لنتحدث مع أحدنا الآخر كأصدقاء وأهل. تحية حب لكما وكل العائلة والأصدقاء الأعزاء. نلتمس منكم أن تتكرموا بالإجابة بكلمتين حين تتوفر لكم الفرصة. ونلتمس منكم أيضاً ألّا تسخروا من هذه الرسالة الهزيلة لأنها هزيلة ورديئة جداً».

لا يسع المرء إلا أن يتكهن بالتعبير الذي ارتسم على وجه ولدَي الأخ صاحب البديهة السريعة لدى قراءتهما هذه السطور الركيكة ولكن لا يبدو أنّ أحداً منهما ردّ على المناشدة. إذ كانا مشغولين جداً، من بين أشياء أُخرى. وأمضى بيتر كريستيان الخريف في إعطاء دروس خصوصية وإصدار مجلة لاهوتية جديدة فيما كان سورين كيركغارد يواصل الدراسة لامتحاناته باجتهاد فائق. وفي 2 حزيران/ يونيو 1840 عندما قدم طلبه أداء الامتحانات أوضح باللغة اللاتينية أن اهتمامه باللاهوت يتراجع منذ زمن طويل أمام دراساته الفلسفية: «أعترف بإرادتي بأني في مثل هذه الظروف ما كنتُ لأستطيع قط أن أحمل نفسي على الاستمرار في اتجاهٍ تخلَّيتُ عنه منذ زمن بعيد، لولا وفاة والدي التي شعرتُ إثرها بأني مرتبط بوعد بمعنى ما».

لُبي الطلب وفي 3 تموز/ يوليو بدأت الامتحانات التي كانت، وفق الأعراف المتبعة وقتذاك، تتطلب قدرة تكاد تفوق قدرة البشر على إبداء معرفة واسعة. وبدأ البروفيسور شارلنغ طارحاً أسئلة عن تاريخ العقيدة، بما في ذلك قراءة اعتراف آوسبورغ عن ظهر غيب إلزامياً. واستمر البروفيسور أنغلستوفت، باللاتينية الآن، في سؤال كيركغارد عن العهد القديم. وكانت أول قضية أُثيرت ترجمة سفر التكوين 9: 16 – 29 (قصة نوح) تلتها أسئلة تتعلق بمفهوم العهد مع اهتمام خاص بالنبي إبراهيم، وجرى ذلك بصورة ممتازة. ومع استمرار

الامتحانات، بالدنماركية الآن، اختُبر المرشح في القضايا الأخلاقية وخاصة ما يتعلق بوجهة نظر كانط وفيختة عن أسس الأخلاق. وأخيراً جاء دور البروفيسور هولينبرغ الذي سأل المرشح، أولاً باللاتينية ثم بالدنماركية، عن العهد الجديد. ومن وجهة نظر الرسالة إلى أهل رومية 1: 1 – 13، سأل البروفيسور عن الأصول اللاهوتية والتاريخية للرسالة ونتائجها: ماذا كانت المناسبة لرحلة بولس إلى روما؟ هل كان المسيحيون الروميون يتألفون من وثنيين سابقين أم يهود سابقين؟ من هم الروميون المذكورون في الرسالة؟ ما هي مضامين الإصحاحات السبعة الأولى؟ لماذا يختلف مستهَل هذه الرسالة عن بدايات رسائل بولس الأخرى؟ هل كان بولس في أفسس سابقاً؟ ماذا كانت علاقة أسقف روما والطائفة الرومية ببقية العالم المسيحي؟ ماذا قال القديسان ترتليانوس وإريناوس عنها؟ ما أهمية التقليد الرسولي؟ مَنْ هم الأساقفة الذين كانوا يتمتعون باحترام خاص؟ ماذا يمثل لقب البطريرك. هل كان أسقف روما خاضعاً للإمبراطور؟ إلخ، إلخ، إلخ إلى أن انتهى الاختبار وكان بمقدور كيركغارد أن ينهض من منضدة الامتحان خريجاً في اللاهوت بدرجة laudabilis (جدير بالثناء). ومن بين 63 مرشحاً للشهادة الجامعية باللاهوت في ذلك الفصل كان أداء كيركغارد رابع أفضل أداء في الامتحان التحريري لم يتفوق عليه إلا كريستنس وفاد وفاربورغ الذين كانت إجاباتهم، بحسب الممتحنين، «تتضمن قدراً أكبر من المادة اللاهوتية تحديداً». من جهة أُخرى كانت إجابات كيركغارد تشهد على «نضج ونمو فكري أكبر بكثير من جميع الآخرين». وكتب بيتر كريستيان في يومياته حين علم بالنبأ السار «الحمد والشكر لله». وبعد أشهر من الصمت كتب سورين آبي تعليقاً استعارياً في يومياته: «أنا دائماً متهم باستخدام جمل اعتراضية طويلة. والدراسة لامتحاناتي كانت أطول جملة اعتراضية عرفتها».

بعد فترة على امتحان كيركغارد بحث الطالب الجامعي بيتر ستيلينغ عن رجل اسمه بروشنر كان يعطي كيركغارد دروساً خصوصية. وظن ستيلينغ إنه يستطيع أن يُنهي دراسته للفلسفة في عام ونصف العام. وقال ستيلينغ إن كيركغارد لم يكن يحتاج إلى فترة أطول. فقال بروشنر العجوز الذي لم يكن يجيد اللغة المهذبة «آه، نعم، لا تخدع نفسك! سورين كيركغارد كان شيئاً مغايراً. كان يستطيع أن يفعل كل شيء».

غندور يحج

انتهت الجمل الاعتراضية الطويلة، وأتاحت دعوة العمة أيلسا فرصة طيبة للجمع بين اللهو والحج إلى قرية سادينغ. فغادر خريج اللاهوت ذو السبعة وعشرين عاماً كوبنهاغن في ساعة مبكرة من صباح السبت، 18 تموز/ يوليو 1840. في الأحوال الاعتيادية كانت الرحلة على طريق كالوندبورغ – آرهوس بالسفينة البخارية «دانيا» ولكن تغييراً حدث في السفينة العاملة على هذا الطريق ولذلك صعدوا في الصباح التالي مركباً قديماً بقعر مسطح كان في السابق يُستخدم لنقل الماشية، وكان بطء المركب وحالته المزرية موضع الكثير من الشكوى. وكان مالك المركب تاجراً اسمه ساس كان من المؤكد أن يسمع كلاماً لاذعاً عن هذه الوسيلة البائسة للنقل – سجل كيركغارد العنوان: 282 نيهافن على جانب شارلوتنبورغ.

بعد ظهر يوم الأحد رسى المركب في مرفأ آرهوس في يوتلاند وذهب كيركغارد على ما يُفترض إلى أحد خانات المدينة حيث كان يعتكف، مفضلاً الوحدة، في غرفته مع دفتره الجلدي الأخضر بحجم الجيب الذي شرع يملأه بانطباعاته وأفكاره عن أول رحلة كبيرة يقوم بها في حياته. وكان الموضوع جاهزاً: «المركب. فظيع كيف يكون الحديث مملاً حين يتعين عليك أن تكون مع آخرين فترة طويلة كهذه، تماماً مثل مسنين دُرْد حين يلوكون الطعام في أفواههم المرة تلو الأخرى – في هذه الحالة أُعيدت ملاحظة منفردة في أحيان كثيرة حتى تعين بصقها في النهاية. كان هناك أربعة قساوسة في المجموعة، ورغم إن العبور دام ثماني أو تسع ساعات (بالنسبة لي كان إلى الأبد) فإن المسافرين المتمرسين وجدوا ذلك سريعاً بصورة غير اعتيادية، الأمر الذي أعطى القساوسة مناسبة للتعليق، الواحد تلو الآخر، أولاً إن الربابنة لا يحبون وجود قساوسة على متن السفينة لأن وجودهم يتسبب في هبوب الريح بالاتجاه المعاكس، وثانياً، إن حقيقة هذا القول دُحضت الآن».

الدردشة على الماء أقنعت كيركغارد بأن الدعوة التي يدور جدال محتدم حولها إلى إلغاء القاعدة التي تحدد نشاطات الشخص الدينية بأبرشية محل إقامته ستكون في الحقيقة مكسباً مشبوهاً لأن المرء وإن كان يستطيع، على متن المركب، أن يختار أي قس يشاء، يبقى عليه أن يستمع إلى المواعظ نفسها.

وصف كيركغارد وصف خيالي بعض الشيء ولكن وجود قساوسة على متن المركب لم يكن مجرد خيال. وفي الحقيقة إن التدقيق في قائمة المسافرين التي نُشرت في عدد 22 تموز/يوليو من صحيفة راندرس أمتسافيس أوغ أفير تيسيمنتستيندة Randers Amtsavis og Avertissementstidende إن المركب، بالإضافة إلى «خريج اللاهوت سورين كيركغارد»، نقل أربعة قساوسة من كالوندبورد إلى آرهوس.

بقي كيركغارد في آرهوس يومين ولكن عدا الكاتدرائية وأرغنها لم تكن هناك معالم كثيرة لمشاهدتها. كما لم يتمكن المرء من الخروج في نزهة مشياً على الأقدام، مثلما يستطيع في كوبنهاغن - تعبيد الطرق كان ببساطة دون المستوى المطلوب. ثم هناك السكان المحليون الذين كانوا ينظرون ويحملقون بأشد الطرق فظاظة كلما يرون غريباً: «الحياة في هذه البلدات الريفية بائسة، مثيرة للسخرية، وعديمة الذوق مثل طريقتهم في المشي في الشارع. لا يجدي أن تحاول المشي إلى الأمام بقدر من الوقار (لأن من المحال بكل بساطة المشي والتأمل - التأمل نفسه سيتبدد إلى تلاطمات ولا شيء غير ذلك) - ثم إذا تذكرتَ أيضاً إنك هدف فضول بلدة صغيرة بهذا الشكل الغريب». كانت الشوارع تحمل آثاراً لا تخطئها العين لوجود أبقار. وإذا كان والد كيركغارد ربما يدفئ أصابع قدميه في كومة ساخنة من روث البقر حين كان يرعى قطعانها في سادينغ فإن ولده يلاقي الآن مصاعب جمة في المراوغة لتجنب أكوام الروث التي تخلفها الأبقار وراءها كما يترك الزائر بطاقة تعريف بنفسه. وتخلص الابن أيضاً من أي أصداء للهجة يولاند في كلامه وعندما التقى أتش. أف. روردام H. F. Rordam، حين كان صبياً، كيركغارد الذي يكبره 17 عاماً في منزل جدته، كان ذلك لقاء لم يجده «ساراً تماماً» لأن الجنتلمان الغريب «هزأ من لهجتي اليولاندية».

لكن مناسبة كل هذا القدر من «فضول بلدة صغيرة» لم تكن مجرد هذا المتبطل القادم من كوبنهاغن مستطلعاً أحوال المكان المتواضعة وكأنه خرج لتوه من مسرحية «إيراسموس مونتانوس» للكاتب هولبيرغ. بل كان هناك الظرف الإضافي المتمثل بأن الملك المتوَّج حديثاً كريستيان الثامن انطلق مؤخراً في جولة على الأقاليم وإنه وصل مع الملكة كارولين آمالي إلى آرهوس في وقت واحد تقريباً مع كيركغارد. لذا كانت المدينة كلها غارقة في بهجة

يو لاندية خالصة لا تألوا جهداً لاستقبال الملك بالحفاوة اللائقة، إلى حد إقامة قوس للنصر. وفي حين إن الأهالي خرجوا للتفرج على استعراض الحرس المدني وإطلاق المدفعية 27 طلقة تحية، مكث كيركغارد في الفندق برفقة دفتر الجيب الذي سجل فيه مزاجه: «أنا هامد ومجرد من الفرح بحيث إني لستُ بلا شيء يملأ روحي فحسب بل لا أستطيع حتى أن أتصور شيئاً يمكن أن يرضيها - واحسرتاه، ولا حتى هناء السماء». وبعد قليل كتب بهذه اللهجة الخامدة نفسها: «عجزي الذهني والروحي الكامل الآن مخيف لأنه تحديداً يرتبط بصبوة غامرة، بشهوة روحية لكنها بلا شكل حتى إني لا أعرف ما أفتقده».

لكنه في اليوم التالي تمالك نفسه وغادر في رحلة إلى شبه جزيرة مولس حيث تفقد قلعة كالو وأنعش ذاكرته عن قصة مارسك ستيغ، البطل الذي قتل الملك. ومن هناك تابع رحلته إلى كنيبيل حيث كان كارل أولريك بويسن، شقيق أميل بويسن الأكبر، يعمل قس أبرشية مقيماً هناك مع زوجته أكتونيا فريديريكه. وفي اليوم التالي استمرت الرحلة إلى راندرس ثم ثمانية كيلومترات مع اتجاه التيار في جدول غودين إلى قرية البايك الريفية ودير ستوفرنغارد الذي كان يرفل بضوء المساء الجميل بصفة خاصة. ومن هناك إلى فيبورغ للمكوث يومين. وصل الملك متأخراً 24 ساعة عن الموعد المقرر في الأصل، ولذلك كانت عيون مواطني فيبورغ الذين انتظروا طوال الليل مثل عذراوات الإنجيل الحكيمات، مزغللة بعض الشيء، ولكن في فيبورغ، كما في كل بلدة ريفية، أصر الأهالي على أن الملك لم يكن سعيداً ذات يوم كما كان بزيارته بلدتهم تحديداً.

من فيبورغ توجه كيركغارد بعربة إلى هالد حيث استلقى رجل عجوز بين نبات الخنج مثيراً إعجاب كيركغارد بلا مبالاته المطلقة. انضم كيركغارد إليه حتى بلدة نون ميل، وحين مرا ببلدة كولدباك التي قيل إن ماءها أطيب ماء في المنطقة، انبطح الرجل العجوز على بطنه وشرب بسعادة من ماء الجدول. كتب كيركغارد في دفتره متخماً بغضب رومانسي: «وهذه هي الحياة التي تربينا على ازدرائها». ولكن الفراق كان مؤلماً. وعندما أراد كيركغارد أن يعطي الرجل بضع قطع نقدية صغيرة تعبيراً عن الشكر لرفقته صدرت من الرجل العجوز حركة وكأنه يريد أن يقبل يده متخذاً وضعية الخانع التي أفسدت انطباع كيركغارد عن الرجل الشعبي ذي القلب القوي. وأوضح كيركغارد قائلاً «كنتُ أُفضّل ثقة أكثر جرأة».

الأرض البور المرتفعة لم تكن مجرد أرضٍ بورٍ بل كانت قطعة روحية من الطبيعة، وعند كيركغارد كانت حية بذكرى مايكل المسكين الذي كان يرعى غنمه، وتسلق ذات مرة رابية صغيرة ليلعن إلهاً بعيداً لا يكترث. وإذ سافر الابن الميسور لرجل كان ذات يوم راعياً، على ممرات ضيقة وآثار عجلات فإنه انطلق في عربته يلاحظ الأشياء من بعيد: «لا بد أن تكون الأراضي البور مناسِبة بصفة خاصة لنشوء أرواح جبارة. فهنا كل شيء ينداح عارياً ومكشوفاً أمام الله، وهنا ليس لديهم الكثير من أسباب اللهو، ليس لديهم الزوايا والخفايا الكثيرة التي يمكن أن يختبئ فيها الضمير، وكثيراً ما تلاقي الجدّية صعوبة في جمع أفكار المرء المشتتة بسببها. هنا يجب أن يقترب الضمير من نفسه بطريقة محكَمة ودقيقة. هناك على الأرض البور يمكنك أن تقول بحق: «أين أهرب منك أيها الحاضر؟»».

وضع كيركغارد ذلك على المحك وانطلق في نزهة على الأقدام بمفرده كتب عنها فيما بعد تقريراً: «وأنا أمشي على الأرض البور... ضللتُ طريقي. لاحت من بعيد كتلة سوداء تتمايل صوب هذه الجهة تارة وتلك الجهة تارة أخرى في اضطراب دائم. حسبتُ إنها غابة. عجبتُ تماماً حين علمتُ بأنه لا توجد غابة في المنطقة سوى تلك التي خلفتها ورائي. وإذ كنتُ وحيداً على الرابية المشتعلة يحيطني التماثل المطلق من كل الجهات باستثناء جهة البحر الهائج أمامي مباشرة، أُصبتُ بدوار البحر واليأس لأني رغم كل محاولاتي للمشي لم أفلح في الاقتراب أي مسافة من الغابة. ولم أصل إلى هناك قط لأنها عندما بلغتُ طريق فيبورغ ظلت تبدو باقية هناك سوى إني إذ أقف الآن على الطريق الأبيض أستطيع أن أرى أنها تلال مكسوة بنبات الخنج على الجانب الآخر من بحيرة فيبورغ. وعلى الرابية البور، بسبب المشاهد الممتدة برحابة أمام المرء على وجه التحديد، لا يكون لدى المرء أي معيار للقياس. المرء يمشي ويمشي. الأشياء لا تتغير لأنه ليس هناك ob–ject [باللاتينية: object «مقذوف (ject) على (ob)»] (فالشيء لكي يكون شيئاً يتطلب وجود «آخر» يكون بحُكْمِه «مقذوفاً عليه» ob–ject ولكن العين لا يمكن أن تكون ذلك الآخر. فالعين هي المَلَكة الرابطة.

وهكذا لا يبدو أنّ الروابي البور ترعى، على ما يُفترض، ترعا نشوء أرواح جبارة ولكن، بين أحفاد هذه الأرواح، يبدو أنّها تنمّي شيئاً يختلف تماماً: كيركغارد فَقَدَ حسه بالاتجاهات وراح يخلط بين الغابات والبحر، وأُصيب

بدوار البحر واليأس، وكان السهل اللامتناهي يحترق تحت قدميه، وطوال الوقت كانت الأشياء تبتعد عنه كلما حاول الاقتراب منها. والعالم الطبيعي، الذي كان حتى ذلك الوقت يستمد أهميته الأسطورية من ذكرى والده، انقلب فجأة وانفجر داخل الشاب الجوال متمخضاً عن خواء مدوّخ اسمه القلق. لم يكن هناك شيء، لا شيء، لا موضوع، ولم تتمكن العين من الربط. حتى الأسطورة لم تعد قادرة على تأمين الروابي البور كأرض تحت قصة الأب. فهي الأخرى انفجرت تاركة الشاب الذي يفقد الاتجاهات بصورة متزايدة يهوي من خلال نفسه عبر كل النقاط الثابتة إلى لا شيء.

من المنطقة المحيطة بفيبورغ استمرت الرحلة إلى بلدة هولستبرو، «قدس تجار الجوارب»، حيث كان اسم مايكل بيدرسن كيركغارد ماثلاً بوضوح في الذاكرة. ولكن من نَواحٍ أخرى لم يكن هناك الكثير مما يوقظ ذكريات الماضي بل على الضد من ذلك كان العكس هو الحال. وكانت في هولستبرو مسابقة من نوع ما في الرماية يُفترض أن يصيب فيها الشخص طيراً صغيراً من الطين، الأمر الذي ظل الجميع يجدونه مسلياً للغاية رغم إنه أمتعهم طيلة الشطر الأعظم من اليوم. وفُرض على كيركغارد أن يعود إلى وضعه كسائح، ولاحظ بسخرية: «أُريد أن أنقل أطيب تمنياتي إلى أهل هولستبرو الكرام آملاً بأن تستمر هذه التسلية المتميزة ثمانية أيام على الأقل. ويبدو أنّ الطائر الصغير أيضاً شخصية قوية حقاً لأنه رغم تهشيم جناحه بالرماية – على أية حال مُنحت الجائزة على ذلك إلى الفائز المحظوظ – فإنه ظل جالساً في مكانه. وكان قاضي المدينة هناك بكل حضوره المهيب يقدم ملاحظات مجهرية بمساعدة تلسكوب صغير. وكان الشيء الوحيد المفقود أنّ المدينة ليس لديها جريدة رسمية لنشر النتائج». واستمر الاغتراب. وإذ مرت العربة بالكنيسة في بلدة أيدوم، زعم الحوذي أنّ اسم القس غيدا. وكان كيركغارد يعرف الرجل لكنه عندما نزل من العربة لملاقاته استُقبل ببرود: لم يكن اسم القس غيدا بل غيدنغ – ولكن بلهجة يولاند لا يستطيع أحد أن يميز الاختلاف!

استمرت الرحلة باتجاه الجنوب صوب رينغكوبنغ. والغريب إن الشابات في هذه المنطقة يخرجن مرتديات «قبعات رجالية». التقى كيركغارد إحداهن وأعرب عن الأمل بأن ترفع قبعتها ليحذو هو حذوها ولكنها خجلتْ وأبقتْ القبعة على رأسها. كانت رينغكوبنغ المحطة الأخيرة قبل سادينغ، وجهَة الرحلة

الأسطورية. ولم يسبق قط أن كان كيركغارد قريباً من جذور عائلته: «أنا وحدي تماماً - صحيح إني كنتُ في غالب الأحيان وحيداً بالقدر نفسه ولكني لم أكن واعياً بذلك - أحسب الساعات حتى أرى سادينغ. لا أستطيع أن أتذكر حدوث أي تغيير ذات يوم في والدي، والآن سأرى الأماكن التي كان فيها صبياً يرعى الأغنام، الأماكن التي شعرتُ بالحنين إليها بعد وصفه لها. ماذا لو سقطتُ الآن مريضاً ودُفنتُ في مقبرة سادينغ! فكرة غريبة. تتحقق أمنيته الأخيرة لي. هل يمكن أن يكون هذا حقاً مصيري الدنيوي كله؟ باسم الله! ولكن بالمقارنة مع ما أُدين له به لم تكن المهمة صغيرة إلى هذا الحد». فكَّر كيركغارد في إمكانية أن يلقي موعظة - لأول مرة في حياته - في سادينغ، وتعجب حين رأى إن النص المعَدَّ لذلك اليوم - الآن تواً حين وجد نفسه في أفقر أبرشية على روابي يوتلاند البور - كان مقطعاً من إنجيل مرقس عن إطعام خمسة آلاف شخص في الفلاة. مصادفة غامضة ولكن فكرة إلقاء خطبة ظلت مجرد فكرة.

من رينغكوبنغ قطعت عربته الشوط الأخير من الرحلة مروراً بقرية ليم والهور القريب من لوفدروب. وأبعد من ذلك، في الأفق الضبابي، كان يستطيع أن يرى كنيسة واطئة من الغرانيت بلا أبراج. دخل سادينغ حيث جاءت عمته إيلسا إلى الباب للترحيب بالثاني من أبناء أخيها المرموقين من كوبنهاغن. وحين دخل الغرف ذات السقوف المنخفضة كان بمقدوره أن يتبين بالنظر والرائحة إن ما قالته أيلسا عن ظروف معيشتها البائسة لم يكن تواضعاً كاذباً بل حقيقة مؤسفة. واتضح إن وجهة هذه الرحلة التي امتدت أميالاً كثيرة طويلة، وموضع تخيلات مبجلة وعزيزة، كثيرة بالقدر نفسه، إنما هي زريبة تسكنها عجوز ملفَّعة بالأسمال.

رغم إنه كان في سادينغ أيام الأحد والإثنين والثلاثاء (2 - 4 آب/ أغسطس) فإن دفتر الجيب الذي يسجل فيه الأشياء عموماً بدأب شديد يكاد يكون صامتاً بالكامل، ما عدا فقرة أو فقرتين، عن إقامته عند أيلسا. وكما هو ديدنه فإنه عندما يكتب شيئاً كان يكتبه لاستيعاب المحيط الطبيعي: «واقفاً خارج باب البيت الصغير في ضياء المساء الأخير، في العطر المنبعث دائماً من القش، تتكون مقدمة المشهد من أغنام تسرح عائدة إلى حظيرتها، سحب داكنة تتخللها هنا وهناك حزم ساطعة من الضوء، سحب من النوع الذي يسبق عاصفة. الروابي البور تلوح في خلفية المشهد - يا ليتني أتذكر حقاً الانطباع عن هذا المساء».

الفقرة الأخرى المكتوبة في اليوميات أكثر اقتضاباً وأقل غنائية، وتبدو كأنها حكاية رمزية كان كيركغارد لا يريد - ولم يجرؤ - على إيصالها إلى نهايتها: «يقولون إن هناك في أبرشية سادينغ بيتاً كان يعيش فيه زمن الطاعون رجل بقي على قيد الحياة بعد أن مات الجميع ودفنهم. كان يحفر أخاديد عميقة في الرابية البور ويدفن فيها الجثث في صفوف طويلة». أليس في هذا شيء من قصة والده الملحمية الذي تعين عليه أن يدفن زوجتين وخمسة أطفال وكنّة قبل أن يرقد هو نفسه بسلام؟ انقض القنوط على المسافر الذي اقتبس الشاعر اليوناني أبيليس Apelles في دفتر الجيب الذي كان عنده: كما يقولون nulla dies sine linea. أستطيع أن أقول عن هذه الرحلة nulla dies sine lacryna. لا يوم بلا خط، لا يوم بلا دمعة.

عندما حان الوقت لمغادرة كيركغارد بلدة سادينغ أقام معلم المدرسة المحلية ينس ينسن كيركبي حفل توديع كبيراً للتعبير عن شكره على استحداث الوقف الذي وهبه التاجر الغني للمدرسة المحلية قبل سنوات: «ألقى معلم المدرسة في سادينغ كلمة عصماء في وداعي أكد لي فيها إنه يستطيع أن يرى من هبة والدي إن والدي كان بلا ريب صديقاً للتنوير، وأستطيع أن أطمَئن إلى أنه سيعمل من أجل التنوير في أبرشية سادينغ». ما لا يقوله لنا كيركغارد يرويه هانز بروشنر: إن كيركبي الذي من الواضح إنه كان صاحب روح شعرية، كتب أنشودة على شرف كيركغارد وتمرن عليها مع أطفال المدرسة الذين كان من المفترض أن يصطفوا وراء المعلم يوم رحيل كيركغارد. وحين جاء كيركغارد في العربة أمر الحوذي بالتوقف وأومأ بطريقة ودية نحو معلم المدرسة الذي أخذ الأنشودة من يده وكأنه يريد أن يدرسها بمزيد من التمعن. وفي تلك اللحظة أعطى الحوذي أمراً بالمغادرة، وانهارت الفعالية بأكملها. لم يحفظ المعلم أنشودته وبالتالي لم يعرف أين يبدأ، وعقدت الدهشة ألسن الأطفال، بالمعنى الحرفي للكلمة، إزاء المشهد. في هذه الأثناء اختفى كيركغارد في عربته ملوحاً بحرارة لجوقة الأطفال الحائرين، مستمتعين متعة بالغة بحيرة المعلم. وداعاً سادينغ!

في الطريق إلى آرهوس بات كيركغارد الليلة في فندق في قرية تيم. وكان الفندق يغص بالكونتات والبارونات. وكان التناقض صارخاً بشكل مطلق، ولم يملك كيركغارد إلا أن يكتب في دفتره: «بعد المكوث ثلاثة أيام مع عمتي المسكينة، وجدتُ، تقريباً مثل رفاق يوليسيس حين كانوا ضيوف الساحرة

سيرس، إن أول مكان جئت إليه بعد ذلك يطفح بالكونتات والبارونات بحيث أن الأمر كان مخيفاً». ولكنه لم يكن مخيفاً إلى حد منعه من قضاء تلك الليلة والصباح التالي مع الكونت آليفيلدت الذي كان كريماً بما فيه الكفاية لدعوته إلى ضيعته في جزيرة لانغلاند. ويوم غادر كيركغارد كانت سعادته إضافية برؤية «صديقي النبيل القديم روزينورن» مرة أخرى.

في يوم الأربعاء، 5 آب/ أغسطس، كان كيركغارد في آرهوس للمرة الثانية والأخيرة في حياته. وفيما كان يقترب منها من جهة الغرب شاهد بعض الدواب من بعيد وسأل حوذي عربته أي نوع من المخلوقات تسرح هناك فأجابه الحوذي بكل جدية: «إنها كل أبقار آرهوس». واقعة أخرى كانت جدية تماماً رغم كل مظاهرها الهزلية: «في الطريق إلى آرهوس رأيتُ مشهداً مسلياً جداً. بقرتان مربوطتان إحداهما بالأخرى، مرتا بنا خبباً. واحدة كانت تلهو بهزة أنيقة من ذنبها، والأخرى كانت، على ما بدا، بقرة عادية مكروبة كرباً خالصاً لأن عليها أن تشارك في هذه الحركات نفسها - أليست غالبية الزيجات تُعقد بهذا الشكل؟» الاستسلام المدفون في هذه الحكاية الرمزية الصغيرة لم يكن علامة طيبة، وهو يلمح بسوداوية إلى فقرة سابقة في اليوميات شكا كيركغارد فيها من تجاوز نفسه فيما يتعلق بالمَثَل الأعلى: «لهذا السبب أنجبتُ وحوشاً، ولهذا السبب لا يرتقي الواقع إلى مستوى رغباتي الحارقة - وندعو من الله ألا يصح هذا على الزواج أيضاً لأن، هنا كذلك، يستحوذ عليَّ قلق غامض لكوني خلطتُ بين المَثَل الأعلى والواقع. لا سمح الله! هذا لم يحدث معي حتى الآن - ولكن هذا القلق الذي يجعلني في كل هذه اللهفة على معرفة المستقبل قبل أن يصل - ومع ذلك أخشاه!»

في ساعة مبكرة من صباح 6 آب/ أغسطس أبحر كيركغارد من آرهوس إلى كالوندبورغ، والحمد لله إنه أبحر هذه المرة بسفينة بخارية حسنة التجهيز، حديثة بدرجة فائقة هي كريستيان الثامن، فلم يستغرق العبور إلا ست ساعات. وكان غائباً عن كوبنهاغن ما يزيد قليلاً على ثلاثة أسابيع. ومن مؤخرة السفينة كان يستطيع أن يرى آرهوس تتلاشى مختفية، وبعد وقت قصير غرقت جبال مولس وتلال تريهويه في البحر. وكانت سادينغ في مكان ما بعيد ويمكن أن تستعيد تدريجياً قوتها الأسطورية.

في يوم السبت، 8 آب/ أغسطس، عاد كيركغارد إلى كوبنهاغن حيث ينتمي، والآن كان بمقدوره أن يركض حراً مثل كاتب الأغاني الحر الذي كان كيركغارد دائماً يريد أن يكونه.

بعد شهر على وجه الدقة ارتكب أسعد الأخطاء حظاً في حياته.

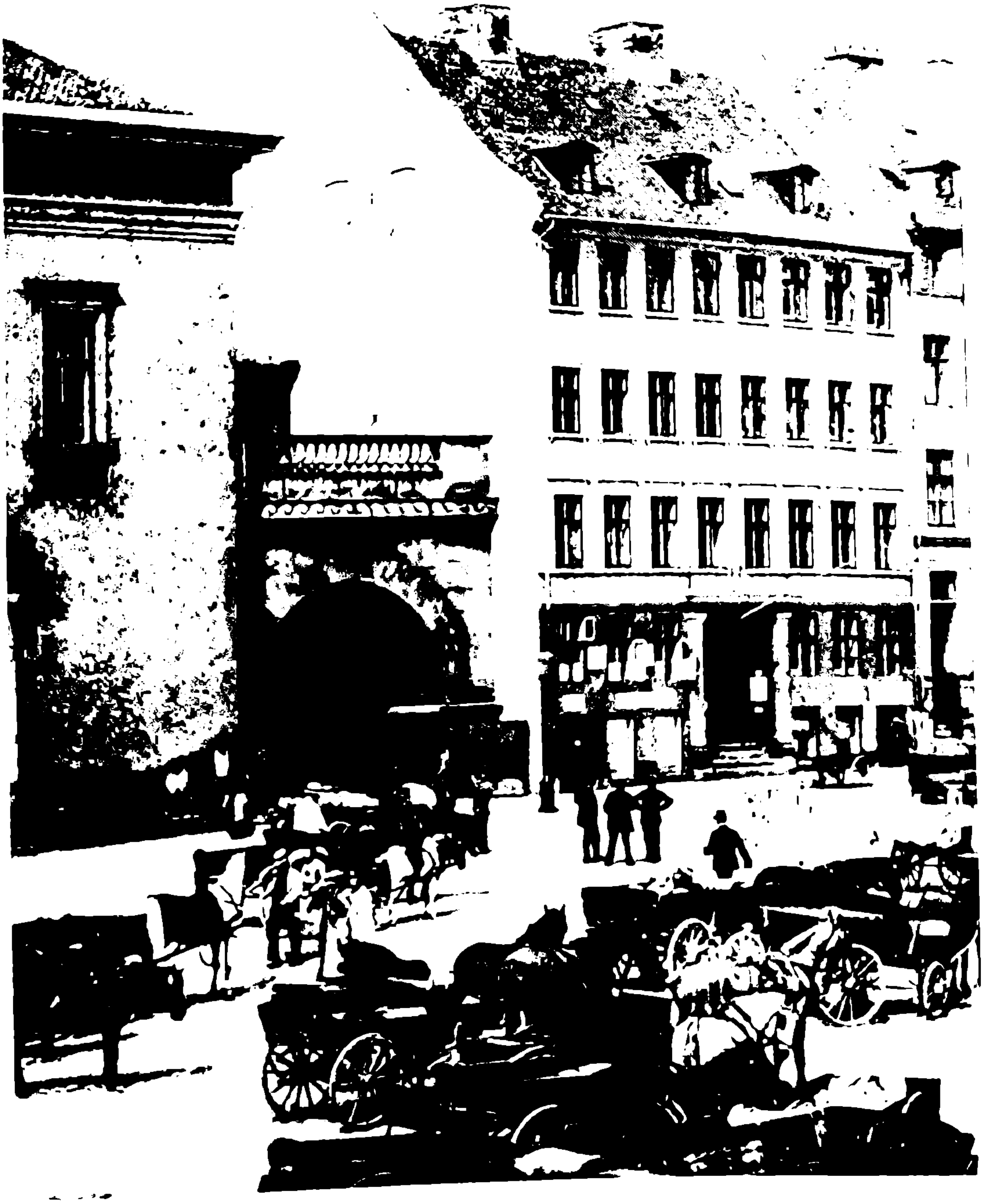

1. بيت عائلة كيركغارد في 2 نيتورف كان مبنى من أربعة طوابق مع قبو ذي سقف مرتفع. وحين كان كيركغارد طالباً جامعياً ومرة أخرى حين عاد إلى بيت العائلة في السنوات 1841 - 1848، شغل الشقة الموجودة في الطابق الثاني بجوار مدخل مبنى دار البلدية. هُدم المبنى في 1908 بهدف إفساح المجال لتشييد مبنى البنك التجاري العملاق في ركن نيتروف وفريدريكسبيرغاده لصق ما يُعرف الآن باسم ستروغيت، شارع كوبنهاغن الشهير المخصص للسابلة فقط.

2. مايكل بيدرسن كيركغارد. كتب الابن في يومياته عام 1846: «في الكبر أنجب رجل عجوز كان هو نفسه على قدر عظيم من الكآبة ابناً ورث منه كآبته كلها. حين كان مايكل بيدرسن صبياً في الحادية عشرة خلف وراءه وجوداً مبتلياً بالفقر على روابي يوتلاند البور وانتقل إلى كوبنهاغن حيث سرعان ما تعلم كيف يكسب المال من تجارة البضائع الصوفية، وبنى نفسه لاحقاً ليصبح رجل أعمال ومستثمراً ومضارباً بالعقارات. وفي حوالي سن الأربعين اعتزل عالم الأعمال لينصرف إلى اهتمامات فكرية. وإذ كان يبحث عما يشد أزره في قصة الكتاب المقدس عن النبي أيوب، طلعت مَلَكته الذهنية المعذبة ذات الخيال الواسع بالفكرة القائلة إن الله سيعاقبه بموت أطفاله قبل أن يبلغوا سن الرابعة والثلاثين. ولم يبق بعد وفاته إلا اثنان من أطفاله السبعة».

3. آنا كيركغارد. توفيت زوجة مايكل بيدرسن الأولى بعد عامين على زواجهما. وبعد عام حبلت منه خادمته آنا سورينسداتر لوند التي تزوجها على عجل. لا يُعرف شيء عنها تقريباً. وسورين آبي لم يذكرها قط، وبيتر كريستيان نادراً ما كان يذكرها. وبحسب النزر اليسير من المعلومات المتوفرة فإنها كانت سيدة صغيرة لطيفة ممتلئة ذات مزاج مرح على الدوام. لم تكن تعرف الكتابة وكانت تحتاج إلى مساعدة أحد لتوجيه يدها لدى التوقيع على وثائق رسمية.

4. سورين آبي كيركغارد. بخلاف الكثير من معاصري كيركغارد فإنه لم يجلس قط أمام كاميرا أو ألواح التصوير الفضية كما كان يُعرف الفوتوغراف وقتذاك. وصلت تكنولوجيا التصوير الفوتوغرافي إلى كوبنهاغن في أوائل العقد الخامس من القرن التاسع عشر عندما فتح رسام بورتريهات من فيينا مشغلاً في شارع بريدغاده حيث يستطيع أي شخص مقابل ثمانية ريكسدولارات أن يخلّد نفسه خلال 15 ثانية. كان نيلس كريستيان كيركغارد الذي درس في أكاديمية الفنون من أبناء عمومة سورين آبي البعيدين وبذلك أتيحت له الفرصة ليرسم هذه الصورة لقريبه الذي أصبح لاحقاً ذائع الصيت. الخطوط في هذه الصورة الجانبية التي أنجزت في كانون الثاني/ يناير 1838 مليئة بالمشاعر. وهناك ملامح حالمة ولكن أيضاً مسحة أرستوقراطية في هذا الشاب الذي من الواضح أنه جلس بوضعية من يعرف إنه أمام فنان يرسمه.

5. كان الميدان الذي يتكون من نيتروف وغاملتروف عنواناً متميزاً على نحو خاص بمنازله البورجوازية من الطراز الكلاسيكي الجديد وبيوته الحضرية الراقية. وهنا استقر التاجر كيركغارد وعائلته في عام 1809.

6. قناع الموت الذي صُنع من وجه بول مارتن مولر بعد وفاته. لاحظَ في واحدة من أفكاره «العشوائية» إن «في ملكوت الفكر يمكن أن يُصنَّف الإنسان مع الحيوانات المجترة»، وكان هذا يصح بصفة خاصة على مولر نفسه. والحق أنه كان يعمل ببطء استثنائي، دائماً يعيد كتابة ما سجله على الورق، وينتهي لا إراديا إلى أشتات في أحيان كثيرة. وبصفته أستاذاً في الفلسفة أصبح صاحب نظرة شكوكية متزايدة إلى هيغل ليشدد بدلاً من ذلك على الأهمية الفلسفية الحيوية لفكرة الشخصية. وشحذ تحليل مولر للتصنع حس كيركغارد بالأشكال العديدة التي يمكن أن يرتديها خداع النفس والتظاهر. وعدا والد كيركغارد كان مولر الشخص الوحيد الذي أهداه كيركغارد رسمياً أحد أعماله، وتحديداً «مفهوم القلق»، الذي يُمدح فيه مولر بوصفه «عاشق الثقافة اليونانية السعيد».

7. فريدريك كريستيان سيبَّرن. قال البروفيسور سيبِّرن البالغ من العمر 84 عاماً عن كيركغارد الذي تعرف عليه في أوائل ثلاثينات القرن التاسع عشر بصفته أستاذاً في الفلسفة: «كان على نحو متأصل وفي أعمق أعماق كيانه، شخصاً من النمط شديد التعقيد داخلياً... لا أعرف إن كان لديه نزوع أو طبع مسيحي صادق رغم إنه لا بد كان يملك شيئاً منذ هذا بكل تأكيد». كان سيبَّرن عضو اللجنة التي قيَّمت رسالة كيركغارد لشهادة الماجستير «عن مفهوم المفارقة». وخلال فترة خطوبة كيركغارد كان سيبِّرن أحياناً يركب العربة مع الشاب وخطيبته الشابة حين يذهبان إلى حديقة الغزان ولكنه لم يتحدث قط عن موضوع علاقتهما رغم إنه – باعترافه هو – كان يستطيع أن «يكشف أشياء قلة غيري يعرفونها». يظهر هنا بلا باروكته التي كان يملك الكثير منها وكان أحياناً يرتدي واحدة على الأخرى – من باب الغرور من جهة ونتيجة الشرود الفلسفي من جهة أخرى.

8. ذات صباح في ستورا كانيكستراده حيث بعض الطلاب الجامعيين من كلية بورخ يرتدون قبعات عالية على شرف المصور الفوتوغرافي. وكانت الكلية أصيبت خلال قصف الإنكليز للمنطقة في عام 1807، ولم يُعَد بناؤها حتى عام 1825 وفق خطة أعدها بيدري مالينغ. وتقع كلية أيلر وكلية ريغنسن على مسافة في الشارع نفسه. يمكن أن نرى في الخلفية البرج الدائري ومرصده الفلكي الذي نظر منه عدد من الأشخاص بينهم يوهان لودفيغ هايبرغ صوب الكون ليصبحوا «مخبولين بالنجوم»، على حد تعبير كيركغارد. ومقابل كلية بورخ منزل الشاعر بيتر فابر الذي كان مقر مركز سورين كيركغارد للأبحاث من 1998 إلى 2005.

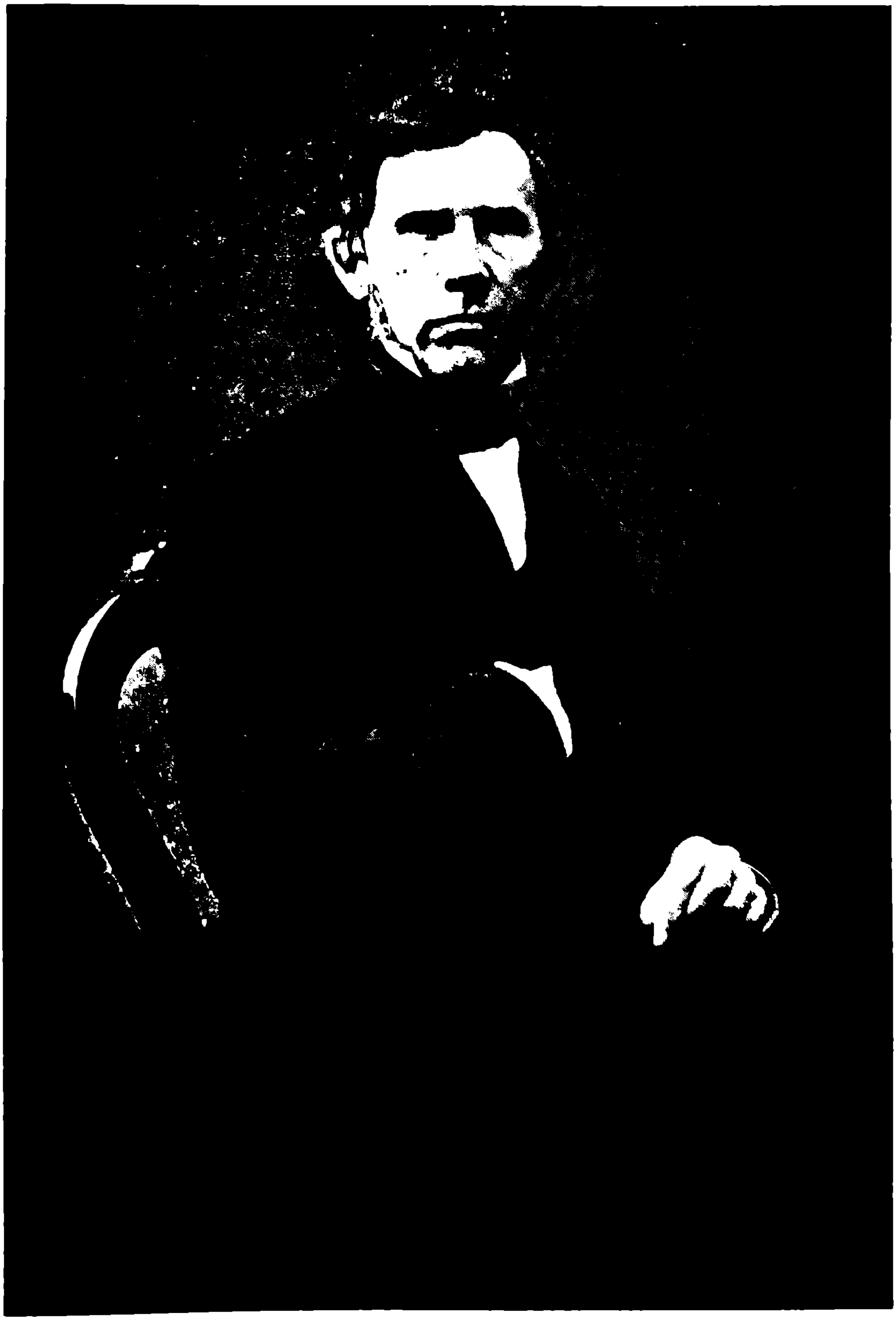

9. أميل بويسن. الوحيد الذي كان كيركغارد يأتمنه على أسراره، «صديق موثوق»، كما سماه كيركغارد. كانا يعرفان أحدهما الآخر من سنوات الصبا عندما كانا يحضران اجتماعات تجمع الإخوان المورافيّ مع آبائهما. وخلال إقامة كيركغارد الأولى في برلين بعث إلى صديقه برسالة صريحة عن إنهاء علاقته مع ريجينة وكذلك عن الأصول المُسكرة لأعمال مثل «إما/ أو» و«تكرار».

الجزء الثاني

1840

في ذكرى ريجينة

«عجوز ضئيلة بعض الشيء، شيباء، ذات تعبير ودي على محيَّاها، تفتح لي الباب بعد دقتي الأولى لجرس باب البيت الواقع في ركن نوربروغراده وستورتيدامدوسيرنغ. ترتدي ملابس سوداء من الحرير وتعتمر قبعة مشرشبة. قبل نحو عام أصبحت أرملة المستشار الخاص شليغل، وهو موظف على قدر كبير من الاحترام كان حتى الآونة الأخيرة محافظاً في كوبنهاغن وفي السابق حاكم جزر الهند الغربية الدنماركية. ترك المستشار مكتبة كبيرة جداً - مكتبة شاملة تضم كتباً من كل الأصناف - من نوع المكتبات التي وُجدت قبل حقبة المعرفة المتخصصة هذه. وطلب مني وكيل مسز شليغل تنظيم هذه المكتبة وفهرستها قبل أن تُرسل للمزاد. وهذا هو سبب وجودي هنا».

كان العام 1896. وكان الوقت أواخر الصيف، والضيف الذي فتحت الأرملة ريجينة شليغل الباب له هو المكتبي يوليوس كلاوسن Julius Clausen الذي كان مطلوباً منه أن يعدَّ فهرساً لأكثر من سبعة آلاف كتاب كانت ملك زوجها الراحل، بما في ذلك ستة أو سبعة من أعمال سورين كيركغارد المعروفة. كانت مهمة تستغرق كثيراً من الوقت ولهذا السبب كان كلاوسن ضيفاً مواظباً لبعض الوقت. وفي حوالي التاسعة مساء، حين يكون على وشك الانتهاء من فهرسة الكتب لذلك اليوم، كانت مسز شليغل تدخل عادة وتقدّم بعض المرطبات. كان لم يزل لديها خزين من روم الجوافا يعود إلى سنواتها في جزر الهند الغربية، وكانت تخلطه مع الماء المثلج وتقدمه إلى المكتبي الشاب. «لا بد أن تكون مرهقاً. تستطيع بكل تأكيد أن تستخدم شيئاً بارداً تشربه»، كما كانت تقول، وهذا على وجه التحديد ما كان كلاوسن يحتاجه. «وهكذا كنا نجلس هناك

في الغرف الكبيرة، الحارة بقيظ الصيف، فيما كان برد المساء يسري والحديث يبدأ. أنا، بالطبع، كنتُ أعرف من هي لكني بطبيعة الحال لم أُبادر إلى إطلاق أي تلميحات. ولكن العجوز كانت أقل صمتاً، وكان الكلام دائماً يبدأ بشليغل الذي كانت تمدح خصاله رافعة إياها إلى السماء، ولكن الحديث كان دائماً ينتهي بـ - كيركغارد». كانت الأرملة خفيفة الحركة والمحافظة على صحتها في منتصف السبعينات من العمر، تنظر إلى نفسها منذ زمن طويل على أنها زوجة المستشار وخطيبة كيركغارد في آن واحد - وكان واضحاً إنها تقمصت هذا الدور أكثر فأكثر مع مرور السنين. وكتب يوليوس كلاوسن بلغة دبلوماسية عن انشطار مسز شليغل بين زوجها وحبيبها أيام الشباب. «لا أستطيع القول إن كان لهذا الأمر دور في بحث شليغل عن وظيفة في جزر الهند الغربية. زوجته لم تقل شيئاً عن ذلك».

آخرون أيضاً أرادوا مقابلة مسز شليغل في الفترة التي أعقبت وفاة زوجها مباشرة. وفي وقت واحد تقريباً مع رسائل التعزية، وصلت طلبات مباشرة للموافقة على التحدث مع الأرملة المهمة عن غرامها المثير للفضول أيام شبابها. في البداية كانت متحفظة قليلاً ولكن بوصفها الوحيدة الباقية من الأشخاص الثلاثة ذوي العلاقة فإنها شعرت ملزَمة بالكلام أيضاً. وكان أحد الذين حصلوا على موافقة لمقابلتها روبرت نايندام Robert Neiiendam، وهو ممثل ومؤرخ مسرحي يصفها بأنها «سيدة صغيرة ودود ذات عينين رحيمتين لا بد إنهما كانتا تتدفقان حيوية ذات يوم». كانت طريقتها في الكلام دقيقة وسلوكها لبقاً يحمل بصمة سنوات في الأوساط الدبلوماسية، ولذلك حين سألها نايندام ذات يوم إن كانت صورة كيركغارد في كتاب عن تاريخ الأدب تشبهه تلقى بالطبع رداً دبلوماسياً: أجابت بالقول «نعم ولا. فإن مظهر كيركغارد الخارجي كان من السهل رسمه، وكان أشخاص يستغلون ذلك». قال نايندام إن كيركغارد، على ما يبدو له، كان دائماً يُصوَّر منتصب القامة تماماً ولكن مسز شليغل اكتفت بالإجابة: «نعم، كان عالي المنكبين بعض الشيء ورأسه مائلاً إلى الأمام قليلاً، على الأرجح بسبب كل تلك القراءة والكتابة على مكتبه».

انتقلت مسز شليغل بعد عام على وفاة زوجها إلى منزل في شارع الهامبرافيه بمنطقة فريدريكسبيرغ حيث عاشت مع شقيقها أولوف كريستيان الذي يكبرها

ثماني سنوات وعمل لفترة من الوقت موظف جمارك في سان كروا. وفي عام 1898 اتصلت بالمكتبي رافائيل ماير Raphael Meyer عارضة عليه أن تسرد ما تستذكره «سيدة عجوز» (على حد تعبيرها هي). وفي شتاء 1898 – 1899 وطيلة الربيع التالي كان ماير يزورها في بيتها كل أسبوع، وبعد ذلك مباشرة كتب فحوى أحاديثهما. وبعد وفاتها في عام 1904 طبع ماير ملاحظاته في كتاب وأشرف على نشرها بعنوان «أوراق كيركغاردية: الخطوبة، نُشر باسم مسز ريجينة شليغل». ويقول لنا ماير إنها كانت في منتهى السعادة بالاهتمام المتزايد، في الدنمارك والآن في الخارج، بخطيبها السابق - حتى إذا كان الفرنسيون لن يكونوا أبداً، بحسب رأيها، قادرين على فهمه! كما إنها لم تتمكن من القبول بنظرة الشك التي كان رجال الدين الدنماركيون ينظرون بها إلى كيركغارد. والحق إنها، في إحدى المناسبات، عندما اكتشفت بالصدفة أن كاهناً من كوبنهاغن لا يعرف شيئاً عن كيركغارد، شدت قبضتها الصغيرة ووضعته في مكانه قائلة: «إن هذا غير مقبول من رجل متعلم في بلد ولد وعمل فيه كيركغارد، ولا سيّما من قسم ينتمي إلى الكنيسة الشعبية الدنماركية». وكانت متأكدة من إن هذا القس المهمل انكب على القراءة بعد ذلك.

كانت مسز شليغل وفية ومحبوبة حتى النهاية، سعيدة بأن يذكرها التاريخ. ولذلك فإن السؤال المتعلق بكيف جرت الأمور حقاً خلال الأشهر الثلاثة عشر التي استغرقها انهيار الخطوبة، كان شيئاً أخذته معها إلى القبر. أو لعلها روت ما تعين أن ترويه. ولدى النظر بمنظارها هي ربما لم يكن هناك حقاً ما هو أكثر من ذلك. وفي كل الأحوال لا يبدو أنّ أحداً من الزوار كثيري التردد ومسجلي الملاحظات الدؤوبين - لا مستر ماير ومستر نايدمان ولا هانا موريير Hanne Mourier ناهيكم عن هنريته لوند Henriette Lund – عرف اللغز من لسان هذه الأرملة الغامضة. ورغم حقيقة توقفها في النهاية عن الكلام «عن شليغل والحديث فقط عن كيركغارد»، بحسب يوليوس كلاوسن، فإنها لم تُسهم بفصول جديدة في القصة.

ثم ابتلع الخرف البقايا الأخيرة. وسألت ريجينة العجوز التي التبست عليها الأمور بعض الشيء يوليوس كلاوسن ذات يوم «ألستَ مَنْ أعطيته الخاتم، الخاتم الذي حصلت عليه من سورين؟» واضطر إلى الإجابة، «للأسف لا».

تصوير ريجينة شليغل للعلاقة مع كيركغارد لا يختلف في الحقيقة اختلافاً جذرياً عن رواية كيركغارد نفسه، سوى أنه أفضل، ولهذا السبب يُباح له أن يسردها هنا. تأتي روايته من فقرة مسهبة في يومياته أو بالأحرى سلسلة صغيرة كاملة من الفقرات التي كتبها في 24 آب/ أغسطس 1849 وعَنْوَنَها «علاقتي بها». ورغم الحقيقة الماثلة في تقديم الفقرة الرئيسية مع توجيهات مسرحية تصفها بالفقرة «الشعرية بعض الشيء» فإنها تلتزم بمجرى الأحداث بأسلوب تقريري على قدر كبير من الموضوعية، يكاد أن يكون سلسلة من البرقيات حتى إن مفردة «الشعرية» لا يمكن أن تعني تبديل الحقائق شعرياً بل الأرجح إن أجزاء من الحقيقة حُذفت، جرى تجاوزها بصمت، بل قُمعت. أو ربما إن الرواية حقاً قريبة من الحقيقة بحيث كان كيركغارد خائفاً من إنه كَشفَ الكثير مما هو خاص ولذلك عمد إلى تشفير النص بتسميته على نحو مخادع «شعرياً بعض الشيء». وأياً يكن الأمر: «في الثامن من أيلول/ سبتمبر غادرتُ البيت عاقداً العزم على حسم القضية كلها. التقينا في الشارع خارج بيتهم مباشرة. قالت لا أحد في الدار. كنتُ أحمق بما فيه الكفاية لفهم هذه الكلمات على أنها الدعوة التي أحتاجها. دخلتُ البيت معها. وقفنا وحدنا في الصالون. كانت مضطربة قليلاً. طلبتُ منها أن تعزف لي شيئاً على البيانو، كما كانت تفعل عادة. عَزَفتْ، ولكن ذلك لم يساعدني. ثم فجأة أخذتُ دفتر الموسيقى، وأغلقتُه بقدر من القوة وقذفته من على البيانو ثم قلت «أوه، ما لي والموسيقى؟ أنتِ التي أرومها، أنتِ التي أبحث عنها منذ عامين». ظلتْ صامتة. ظلت ريجينة صامتة بل حتى «صامتة أساساً»، الأمر الذي قد لا يكون من الصعب فهمه. ولا كيركغارد كان لديه أكثر من ذلك يقوله عن الأمر. ولذلك فإنه بعد أن قذف دفتر الموسيقى بالطريقة المذكورة أعلاه غادر الغرفة بعجالة كبيرة و«قلق مخيف»، وذهب فوراً لرؤية والد ريجينة الذي كان على ما يبدو مصعوقاً بالجَلَبة مثلما كانت عازفة البيانو الشابة. قدَّم كيركغارد مرافعته إليه، وأدى هذا إلى مزيد من الصمت: «لم يقل الأب نعم أو لا لكنه مع ذلك كان راغباً تماماً، كما تسنى لي أن أفهم بسهولة... لم أقل كلمة واحدة لكي أسحرها - فقالت نعم».

بهذا تبدأ واحدة من قصص الحب الكبرى في عالم الأدب. وانضم سورين

وريجينة إلى مسلسل العشاق غير السعداء - بيراموس وتيسبي، دانتي وبياترس، أبيلارد وأيلويز، بيتراك ولورا، روميو وجوليت، فيرتر ولوتي - في الأبدية معاً لأنهم لم يستطيعوا قط أن يكونوا معاً في الحياة الدنيا. ويكشف الموقف الذي حدث هناك في الشقة حول البيانو في عصر ذلك الثلاثاء بحد ذاته كم كانت معرفتهما بأحدهما الآخر قليلة في الواقع. لاحقاً، كشفت ريجينة على ما يُفترض لسيبِّرن «إنها حين رأته أول مرة شعرت تجاهه بنوع من الاحترام الممزوج بالرهبة».

كل ما نعرفه عن ريجينة قبل لقائها المصيري مع سورين آبي لا يشكل في المحصلة إلا أبسط نوع من المعلومات: إنها من مواليد 23 كانون الثاني/ يناير 1822، ومثل سورين آبي، كانت الأخيرة في رهط من سبعة أطفال. قبل ريجينة ولدت ماري وأوليفيا وأولوف كريستيان ويوناس كريستيان وكورنيليا وريغنر الصغير لكنه توفي بعد فترة قصيرة على ولادته. كان تيركيلد أولسن والد ريجينة مستشار دولة ومدير مكتب في وزارة المالية، وكان اسم والدتها ريجينة فريدريكة. كانت عائلتها تعيش في 66 بورسغاده، وهو منزل في صف من ثلاثة منازل ذات جملونات مزدوجة تُسمى «الشقيقات الست». وكان آل أولسن يقضون الوقت بقراءة أعمال شعراء العصر وكتّابه وكتابات تثقيفية وبعض التطريز، ولاحقاً أخذت ريجينة تمارس رسم الأشكال المصغرة. وفي أيام الآحاد كانوا يذهبون إلى كنيسة هولمينز مقابل منزل آل أولسن مباشرة، ولكنهم كانوا يحضرون أيضاً اجتماعات تجمع الإخوان الموارفي التي كانت عائلة كيركغارد تتردد عليها أيضاً. ولكن لا هذه الاجتماعات ولا عمل توماس أي كيمبس Thomas á Kempis تقليد المسيح الذي ادعت ريجينة أنها قرأته بمثابرة، تركت آثاراً دائمة في شخصيتها المرحة. ولم تكن إلا فتاة محبوبة من البورجوازية العليا تريد أن تكون سعيدة مثل جميع الآخرين.

أول مرة رأى سورين آبي الفتاة التي أصبحت الآن خطيبته كانت في يوم ربيعي من عام 1837 في فريدريكسبيرغ حيث كان يزور صديقه اللاهوتي بيتر روردام الذي كان لم يزل يعيش في بيت والدته كاترين جورجيا، أرملة العميد الراحل توماس شات روردام، الذي بالإضافة إلى ولديه بيتر وهانز خلَّف ثلاث بنات جميلات مؤهلات للزواج هن إليزابيث وإيما وبوليتي. وعليه كان هذا بالنسبة لرجل شاب مكاناً جديراً بالزيارة. وفي ذلك اليوم

من أيار/ مايو جاء إلى بيت العائلة زائر آخر، صديقة في الرابعة عشرة اسمها ريجينة تذكَّرت لاحقاً كيف ظهر سورين آبي بصورة مفاجئة وترك «انطباعاً قوياً جداً» بالكلام «دون توقف» - بل إن «كلامه كان عملياً يتدفق وكان آسراً إلى حد بعيد».

تركت الزيارة انطباعاً لدى كيركغارد أيضاً ولكن من نوع مختلف تماماً وفي مساء ذلك اليوم نفسه كتب في يومياته: «مرة أخرى اليوم (8 أيار/ مايو) حاولتُ أن أنسى نفسي ولكن ليس بالضوضاء والصخب - هذا البديل لا يجدي نفعاً - وإنما بالمشي إلى بيت آل رووردام والحديث مع بوليتي (وإذا أمكن) ترك شيطان الدهاء في البيت، ذلك الملاك بسيفه الملتهب الذي يضع نفسه - كما أستحق - بيني وبين قلب كل فتاة بريئة. ثم أنتَ سَبَقْتَني - شكراً إلهي لعدم تركي أجن فوراً. لم يسبق قط أن شعرتُ بكل هذا القلق من الإصابة بالجنون. شكراً على فتح أُذنك مرة أخرى لتسمعني». لاحقاً حذف كيركغارد الكلمات «إلى بيت آل رووردام والحديث مع بوليتي» ولكن أتش. بي. بارفود لا يقول لنا شيئاً عن ذلك في أي مكان من طبعة كتابه وبالتالي عندما قرأت ريجينة هذه السطور اليائسة في عام 1869 ظنت إنها تعبر عن افتتان كيركغارد الأول بها. ولكن ريجينة كانت مخطئة في ذلك. فالهدف من توجه كيركغارد مشياً على الأقدام إلى فريدريكسبيرغ كان في الحقيقة ابنة العائلة الصغرى، ذات الاثنين وعشرين عاماً بوليتي، وهي «فتاة حلوة وعاقلة جداً»، كما وصفها بيتر شقيق كيركغارد في رسالة بتاريخ 23 شباط/ فبراير 1836. وبعد فترة طويلة اعترف كيركغارد أيضاً بأنه وبوليتي تركا «انطباعاً» في نفس أحدهما الآخر، ولهذا السبب شعر «مسؤولاً» عنها «ولو ببراءة كاملة ومن الناحية الفكرية المحضة»، كما كتب في عام 1849 عائداً إلى الوراء. ولكن فقرة بلا تاريخ كُتبت في اليوميات عام 1837 تجعل من الواضح إن الافتتان والمشاعر المتضاربة بالارتباط مع الفتاة التي تسكن في فريدريكسبيرغ استمرت فترة طويلة: «المشهد نفسه اليوم أيضاً. مع ذلك خرجتُ لزيارة آل رووردام. يا إلهي الحبيب، لماذا يستيقظ هذا النزوع الآن؟ أوه، كم أشعر إني وحيد - أوه، اللعنة على ذلك الارتياح المغتر بالوقوف وحيداً - الجميع سينظرون إليَّ بازدراء الآن - أوه، ولكن ربي لا ترفع يدك عني، دعني أعيش وأُحسّن أحوالي».

هذه فقرة في اليوميات كان كيركغارد لا يريد أن تعرف بها الأجيال القادمة

فحاول أن يجعلها غير مفهومة بشطبها مرات متكررة. والمرة التالية التي يظهر فيها اسم روردام في اليوميات هي يوم الأحد، 9 تموز/ يوليو 1837، حين توقف كيركغارد في حدائق فريدريكسبيرغ متوجهاً إلى وسط المدينة وبفهم ذاتي رمزي يكاد أن يكون تنبؤياً كتب الآتي: «أقف كأني شجرة تنّوب وحيدة، منكفئاً على نفسي بأنانية ومشيراً نحو ما هو أعلى، بلا ظل ألقيه، وحمامة الخشب وحدها تبني عشها في أغصاني - الأحد، 9 تموز/ يوليو، في حدائق فريدريكسبيرغ، بعد زيارة آل روردام».

ما حدث في الفترة الممتدة من ذلك الوقت إلى 8 أيلول/ سبتمبر 1840 - حين اعترض طريق ريجينة، لدى عودتها من درس لتعلم العزف على البيانو، لاهوتي شاب تقدم نحوها وطلب يدها - يبقى مبهماً، وكيركغارد في الفقرة التي كتبها في يومياته عام 1849 وصف الفترة السابقة على الخطوبة بهذه العبارات المبتسرة: «حتى قبل وفاة والدي اتخذتُ قراري بشأنها. هو توفي وأنا درستُ للامتحانات. وطيلة هذا الوقت تركتُ وجودها يتشابك مع وجودي... وفي صيف 1840 أديتُ امتحاناتي باللاهوت. ثم زرتُ البيت بلا مزيد من التردد. سافرتُ إلى يوتلاند وربما حتى وقتذاك بدأتُ ممارسة شيء من التصيد، على سبيل المثال بإعارتهم كتباً خلال غيابي وتشجيعهم على قراءة مقطع محدَّد في كتاب معين - عدتُ في آب/ أغسطس. وعلى وجه التحديد فإن الفترة الممتدة من 9 آب/ أغسطس حتى أواخر أيلول/ سبتمبر يمكن أن تُسمى الوقت الذي فاتحتُها فيه».

من جوانب القصة إن ريجينة في ذات الوقت الذي كان كيركغارد متيَّماً بحب بوليتي كانت هي مأخوذة بمعلمها الخصوصي، فريدريك يوهان شليغل الأنيق والوسيم، الذي لم يكن غافلاً بالطبع عن مفاتن ريجينة. وظن كثيرون إن خطبة الاثنين باتت قاب قوسين أو أدنى ولكن بدلاً من ذلك جاء هذا المدعو كيركغارد. وأكد كيركغارد عندما حاولت ريجينة أن تشرح له الأمر: «كان بمقدورك أن تتحدثي عن فريتز شليغل حتى يوم القيامة - وما كان ذلك ليعينك على الإطلاق لأني كنتُ أُريدك»!

ولكن كيركغارد من جانبه لم يشعر قطر بما يغريه بالكشف لريجينة إن لهما صديقة مشتركة في بوليتي.

من أوراق شخص ميت أصلاً

لمتابعة قصة الخطوبة ليس هناك أفضل من الرسائل التي بعث بها سورين آبي إلى ريجينة بيد أحد السعاة أو الخدم خلال الفترة الممتدة من أيلول/ سبتمبر 1840 إلى تشرين الأول/ أكتوبر 1841. وهناك إجمالاً 31 رسالة رغم إن خمساً منها ليست إلا ملاحظات قصيرة تشير إلى موعد للقاء ومكانه أو مرفقة بهدية: زهور أو عطر (كانت ريجينة تحب العطر إيسكريت دوبل دو موغير [بالفرنسية: مستخلص زنبقة الوادي ذو القوة المضاعفة]، أو حامل للنوتة الموسيقية أو منديل، أو نسخة من العهد الجديد، ولمناسبة عيد ميلاد ريجينة التاسع عشر شمعدانان اثنان زائد شيء راقٍ مثل «علبة ألوان» للرسم. وتبدأ الرسائل بعبارة «ريجينتي» وتختتم في الغالب بعبارة «محسوبك س. ك.» التي كانت تتبادل الخاتمة مع عبارة «المخلص إلى الأبد س. ك.» وفي نهاية العلاقة «المخلص ك». أما الرسائل القليلة التي كتبتها ريجينة فإن منفذي وصية كيركغارد أعادوها إليها في أوائل 1856، وأحرقتها. لذلك علينا أن نكتفي بنصف مراسلاتهما.

لم يضع كيركغارد التاريخ والسنة على الرسائل إلا في ثلاث مناسبات. وكتب في إحدى الرسائل، كما هو ديدنه، «إن هذه الرسالة بلا تاريخ وينبغي أن تكون بلا تاريخ لأن محتوياتها الأساسية هي الوعي بإحساس». ولكن مفاتيح مختلفة – إشارات إلى مواسم السنة وأعياد ميلاد، وإرسال كتب صادرة حديثاً، بالإضافة، طبعاً، إلى خفوت الحدة الإيروتيكية – تجعل من الممكن وضع ثلث الرسائل تقريباً في تسلسلها الأصلي. وللرسائل الأخرى يجب أن نعتمد على معايير ومؤشرات أخرى. وفي هذه الحالات نلقى معونة غير متوقعة من «يوم الأربعاء» لأن الرسائل التي تحمل تاريخاً والتي يمكن تحديد تاريخها بسهولة كانت تُكتَب في ذلك اليوم إحياءً لذكرى لقاء في قرية لينغبي البعيدة في تموز/ يوليو 1840 «عندما فاتحتُك للمرة الثانية في حياتي».

لدى قراءتنا الكومة الصغيرة من الرسائل تبدأ ازدواجية غريبة بالظهور. ومن وجهة النظر اللغوية فإن هذه الرسائل من أروع الإنجازات التي استطاع كيركغارد أن يحققها حتى ذلك الوقت. ذلك إن قلمه لم يعد ساكناً ينزف حبراً على الورق، والبناء المهزوز للجمل اللاتينية الذي فرض حتى ذلك الوقت تراكيب باهتة على لغته، تحل محله هنا جزالة ساحرة تمنح السطور أجنحة

تحلق بها. وتضفي الرسائل بشفافيتها وإيقاعها فتنة ملهَمة على موضوعها تنهل من صور واستعارات وتلميحات شعرية إلى كتاب مثل يوهانس إيفالد وينس باغيسن وآدم أوهينشلاغر وكريستيان فينتر وبول مارتن مولر. فهذه الرسائل ليست مراسلات اعتيادية بل عمل فني.

وفي هذا يكمن الانتصار والمأساة. فالرسائل بحكم سماتها الجمالية التي لا مراء فيها تجعل من الواضح إن صاحبها لن يصبح زوجاً بل كاتباً. وهكذا فإنها كانت في الحقيقة رسائل وداع وتمارين عظمى في فن التواصل غير المباشر: بقدر هائل من الحذر واستخدام كل ما في جعبة اللغة من أشد الظلال رقة، تحاول الرسائل إفهام ريجينة إن الشخص الذي يتغنى بها في رسالة تلو الأخرى اختفى من حياتها منذ زمن طويل لأنه ضيَّع نفسه في ذكراها وهو بالتالي ليس مناسباً بالمرة لحياة الزوجية. والحق إن الاستذكار الذي تستمد المخيلة حياتها منه هو أيضاً مصدر الموت الذي يفرّق بين العشاق. وادعى كيركغارد لدى العودة إلى الأحداث إنه في اليوم التالي على قول ريجينة «نعم»، أدرك إنه ارتكب «خطأ». وهذا ما تؤكده رواية ريجينة عن «القائه في الممر المقوس لحلبة الفروسية في القصر بعد فترة قصيرة على الخطوبة» كما لو إنه «تغير تماماً - ساهِم وبارد».

مع ذلك (أو بالأحرى لهذا السبب على وجه التحديد) ربط كيركغارد منذ الرسالة الأولى بتاريخ 16 أيلول/ سبتمبر، ريجينة حرفياً بالكتابة، والكتابة هي بالطبع وَسَطُ الاستذكار بامتياز.

رجينتي!

إلى

رجينتنا الصغيرة

خط كهذا تحت الكلمة يوضع لتنبيه منضد الحروف المطبعية إلى أنه يجب أن يفصل الكلمة المؤشَّرة. والفصل يعني إبعاد الكلمات عن بعضها البعض. وأعتقد بأن عليّ أن أباعد بينها حتى إن صبر منضد الحروف على الأرجح سينفد لأن من الجائز إنه لن يعود أبداً إلى تنضيد شيء في حياته بعد ذلك.

المخلص س. ك.

لم تُبعَد ريجينة إلى حد كانت معه قادرة على التمدد خارج الزمان والمكان وفي تاريخ الأدب العالمي فحسب بل أنها اكتسبت مكانة رسمية من نوع ما من البداية. فهي تُسمى «رجينتنا الصغيرة» وهكذا أُخرجت من الفضاء الحميمي الذي يتناجى فيه العشاق عادة. فإن ريجينة ملكنا نحن، ملك الأجيال، ملك القارئ.

في الأسبوع التالي، يوم الأربعاء، 23 أيلول/ سبتمبر، استمر كيركغارد في تنفيذ مناورات مترددة بقلمه. فأرسل رسماً بالحبر من صنع محلي يصور رجلاً صغيراً عنده منظار ضخم يقف على جسر كنيبلس وينظر من خلاله يميناً باتجاه كلمتي «تري كرونر» - البطارية العسكرية في مرفأ كوبنهاغن. وتبدأ الرسالة: «ريجينتي! هذا هو جسر كنيبلس. الشخص ذو المنظار هو أنا. تعرفين إن الأشخاص في المشاهد الطبيعية يبدون غريبين عادة. ولعلكِ تجدين سلوى في الفكرة القائلة إني لا أبدو بكل تلك البشاعة وإن كل انطباع فني، حتى الكاركاتير، دائماً يحوي شيئاً من المثالي». حتى الآن كل شيء على ما يُرام، ثم يأتي تلميح رمزي إلى المستقبل. إذ يدَّعي كاتب الرسالة إن الرسم الذي أنجزه بالحبر خضع لتقييم عدة «نقاد فنيين» استغربوا من إنه أغفل الطبيعة المحيطة تماماً. ويشرح أن البعض كان يعتقد أن هذا السهو يعود إلى ضعف الفنان في تصوير المنظور فيما كان البعض الآخر ميالاً إلى ما يريد كاتب الرسالة أن يقول إنه النظرية الأرجح وهي إن غياب الطبيعة المحيطة قد يكون «إشارة إلى حكاية فولكلورية عن شخص ضاع في الاستمتاع بالمنظر من جسر كنيبلس حتى إنه في النهاية لم يستطع أن يرى إلا الصورة التي رسمتها روحه، شيء كان بمقدوره أن يراه بالقدر نفسه من الوضوح في غرفة مظلمة».

ليست هناك، بالطبع، حكاية فولكلورية كهذه وكل ما في الأمر إن كيركغارد ينسج قصة خيالية. ولكن الرواية كئيبة لأنها تُبلغ ريجينة بأنها على وشك أن تختفي عن أنظاره. صحيح إنه لا يقف هناك على جسر كنيبلس ناظراً بمنظاره بل ينظر في الواقع إلى صورة رسمها بنفسه في نفسه، امرأة بوصفها أمثولة أو ربما أسطورة ولكنها في كل الأحوال ليست ريجينة أولسن ذات الثمانية عشر عاماً من اللحم والدم والرغبة. وهذا ما تؤكده تعليقات كيركغارد على التصميم الفريد للمنظار: «الزجاجة الخارجية هي في الحقيقة مرآة بحيث إنكِ عندما تصوبينه نحو تريكرونر وتقفين على الجانب الأيسر من الجسر بزاوية 35 درجة

نحو كوبنهاغن، ترين شيئاً يختلف تماماً عما يراه جميع المحيطين بكِ... وهو لا يكون برقية سماوية إلا بالأيدي المناسبة وللعين المناسبة، وعند كل الآخرين قطعة أثاث عديمة الفائدة». وهكذا يكون المنظار مرصاداً يستخدم مرآة مائلة بزاوية لعكس الواقع في داخله المظلم ذاته وإشباع العين الفضولية بصور لا يستطيع أن يراها أحد آخر. وحلت محل ريجينة الواقع ريجينة الانعكاس. ومن كل ناحية أساسية فإن هذا الشخص الثاني هو الموجهة إليه الرسالة – وليس إلى «مس آر. أولسن» التي يظهر اسمها بشكل مبتذل على مظاريف الرسائل.

على الغرار نفسه فإن البُعد الصحيح لكاتب الرسالة ليس المستقبل القريب بل الأبدية. وتتسم رسائله بدراسات للضوء والغلاف الجوي وتأملات في الأبدية واللحظة، في الحضور والاستذكار، وتضيع في التقدير الغنائي للطبيعة، في تبدل المواسم، مثلما يمكن أن تنكفئ عائدة إلى الأساطير اليونانية أو النظر إلى ريجينة في موقف معين، يفضل أن يكون نافذة تنفتح على مشهد رومانسي. «في أواخر الصيف، قرب ساعة المساء – تكون النافذة الصغيرة مفتوحة. القمر يتسع، يتفوق على نفسه تألقاً لطمس انعكاسه في البحر، الذي يبدو أسطع إشعاعاً، يكاد أن يكون مسموعاً في بهائه. يتوهج غضباً، يخفي نفسه بين السحب، البحر يرتجف – أنتِ جالسة على الأريكة، أفكارُكِ تعوم بعيداً عنكِ، عيناك مثبتتان على لا شيء. الأفكار اللانهائية لا تتلاشى إلا حين تصل إلى لا نهاية السماء العظيمة. كل شيء بينهما تبدَّد، كما لو أنكِ تبحرين في الهواء. وتستجمعين أفكارك الهاربة التي تُريك شيئاً. وإذا كانت للحسرة قوة دافعة وإذا كان الشخص خفيفاً، أثيرياً، بحيث يمكن أن يقذفه الهواء المضغوط حين تطلقه حسرة – كلما كانت الحسرة أعمق كان أسرع – حينذاك ستكونين هنا معي في برهة بكل تأكيد».

إنه يكاد أن يكون سيناريو مستلاً من شاغال مباشرة. الحسرة هي القوة الدافعة التي ترسل العشاق الأثيريين نحو أحدهم الآخر في قوس رقيق، صعوداً إلى الفضاء الهوائي الأزرق فوق أسطح المدينة – مترع بالإثارة لكنه فاقد تماماً للملموسية. وتكررت هذه المسافة عن العالم وعن الحياة اليومية في رسالة بتاريخ 9 كانون الأول/ ديسمبر وإن كانت الآن بالاتجاه المعاكس: في رسم (مفقود الآن) صوَّرت ريجينة نفسها في بيت تحت البحر تخيله لها حبيبها واصفاً إياه بهذه السطور: «فيه العديد من الغرف الصغيرة لكنها مريحة، حيث

يستطيع المرء أن يجلس بأمان فيما تهب عواصف البحر في الخارج. في بعضها يستطيع المرء أن يسمع صخب العالم البعيد أيضاً، لا يضج بشكل مزعج بل يضمحل بصورة هادئة، أساساً لا يمت بصلة إلى ساكني هذه الغرف».

تنعكس الطريقة التي ردت بها ريجينة على هذه العزلة اللحوح عن العالم بصورة غير مباشرة في أربعة سطور قصيرة بخط يدها: تتضمن احتجاجاً أنثوياً مؤثراً على الوجود الذي حُكم عليها به - على الأرض تارة وتحت البحر تارة أخرى. وأرفق كيركغارد برسالته في 4 تشرين الثاني/ نوفمبر صورة ملونة لمنظر طبيعي شرقي ذي رمزية إيروتيكية لا تخطئها العين على شكل أبراج وبوابات مفتوحة ومآذن منتصبة في الخلفية. وفي مقدمة الصورة يجلس شاب على مصطبة وفي حضنه آلة موسيقية وترية، ربما عود، بينما تمد امرأة حاسرة الذراع، مبتسمة، وردة نحوه من نافذة مفتوحة تخفق ستائرها بطريقة مغرية فوق رأسه. الأمر كله على قدر كبير من الجرأة. كيركغارد من الجهة الأخرى لم يكن جريئاً بل على العكس يتكفل تعليقه على الصورة بتبخر كل إمكانية إيروتيكية في سحابة من الديالكتيك: «تمسك زهرة في يدها. أهي التي تمد الزهرة نحوه؟ أم إنها تلقتها منه؟ هل تعيدها إليه لكي تتلقاها منه ثانية؟ لا أحد يعرف سوى هؤلاء الاثنين. العالم الواسع خلفه. أدار له ظهره. سكون يرين في كل مكان، كما في الأبدية، حيث مكان مثل هذه اللحظات. ربما كان يجلس هكذا منذ قرون، لعل اللحظة السعيدة لم تكن إلا برهة قصيرة جداً لكنها طويلة بما فيه الكفاية لأن تدوم أبدية». وهكذا دواليك. على الوجه الآخر للصورة كتب كيركغارد مقطعاً صغيراً بالألمانية من أنشودة «مزمار الصبي السحري»، في غاية العفة أيضاً، ولكن تحت المقطع الألماني مباشرة تأتي السطور الوحيدة التي تركتها ريجينة للأجيال من فترة خطوبتها على كيركغارد:

وإذا كانت ذراعي تسعدك إلى هذه الحد
بالسلوى والسلام
فأسرع يا عريس البحر الجميل! تعال وخذ ذراعيّ
خذ الاثنتين!

ريجينة أيضاً كانت قادرة على الاقتباس من الشعر. والأكثر من ذلك إن هذا المقطع الصغير من قصيدة يوهانس إيفالد Johannes Ewald الرومانسية

عن الصيادين تبين إنها قادرة على الاقتباس بدقة بل وبتشديد إيروتيكي. فهي ترفض الاستسلام، وترفض الاكتفاء برسائل مكتوبة ببراعة بل تريد أن تكون هناك، على قمة السبعين ألفاً من الفراسخ المضطربة بين أحضان عريسها ابن البحر. فلا غرو أنّ جان دارك كانت بطلتها.

كان كيركغارد يشد بالاتجاه المعاكس، وخلال الفترة الأولى من خطوبتهما حاول أن يهدئ عواطفها الغرامية بأن يقرأ لها موعظة من مينستر كل أسبوع. ولكن كما حدث سابقاً في التاريخ - أوَلا تذكرون أبيلارد وهيلويسي؟ - فإن للعاطفة الإيروتيكية جذوراً في الديني، وكان ذلك يسفر عن هياج عنيف: «أكبر سوء فهم يمكن أن يحدث بين شخص وآخر بشأن الديني هو في حالة الرجل والمرأة، عندما يصبح الرجل، فيما هو يريد نقل الدين إليها... موضوع حبها الرومانسي». كان هذا مثالاً على هذا النوع من إزاحة الموضوع، وفي إحدى الرسائل الغفل من التاريخ شرح كيركغارد لماذا اضطُر في وقت سابق من ذلك اليوم نفسه إلى قول كلمات حازمة وجادة مع ريجينة. إذ طلب منها أن تفهم إنها ليست رغبته «أن تفكري للحظة إني في مثل هذه الأوقات أشعر أفضل منكِ، ولكي أثبت لك إني أشجب نفسي بالطريقة نفسها، أرسل إليكِ في ذكرى هذا الصباح، نسخة من العهد الجديد». وراء هذا التعنيف المعبأ بالتسلط يتكون لدينا الإحساس الواضح بأن ريجينة كانت في وقت سابق من ذلك اليوم صريحة إيروتيكياً للغاية وإن خطيبها كان يشير الآن بكل حزم كم إن هذا غير لائق.

يوم الأربعاء، 11 تشرين الثاني/ نوفمبر، جلست ريجينة وانتظرت رسالة لم تصل قط. وانقطع طقسهما الغرامي أيام الأربعاء، الذي دام شهرين. وكانت ريجينة عادة تدعو خطيبها على العشاء مع والديها في المساء، ولكنه هذه المرة استقل عربة إلى فريدينسبورغ في زيلاند الشمالية، ولم يصل إلى بيتها إلا في الساعة الثامنة، التي كانت وقتاً متأخراً ومحرِجاً تماماً. وكتب فقرة تأملية في يومياته توضح كيف كانت حالته الذهنية في تلك العربة المنطلقة عائدة إلى المدينة في الغسق: «على أرضية العربة التي كانت فارغة كانت ست أو سبع بذرات من بذور الشوفان. كانت تتراقص مع الاهتزازات وتصنع أشد الأشكال غرابة. أضعتُ نفسي في مراقبتها».

لم تصل رسالة إلى ريجينة يوم الأربعاء التالي أيضاً ولكن خادم كيركغارد

حضر وسلم طرداً فيه رواية كارل بيرنهارد الجديدة «ذكريات قديمة». وفي الأسبوع التالي، يوم الأربعاء، 25 تشرين الثاني/ نوفمبر أشار كيركغارد لريجينة إن اختيار عنوان الكتاب لم يكن مصادفة بالمرة، وكان هناك هبوط مفاجئ في درجة الحرارة الرومانسية للرسائل: «ريجينتي! / ربما كنتِ تتوقعين، مع «الذكريات القديمة»، أن تتلقي ذكرى من المستقبل في شكل رسالة. لم يحدث هذا، واقبلي بهذه السطور التي - مَنْ يدري - قد تمثل زمناً مضى عما قريب. يبدو هذا نذيراً كما كان على وجه الدقة». وتابع كيركغارد بتهكم فظ: «بديع أن تنتظري مني رسائل، ولا سيّما حين لا يكون هذا الانتظار اضطراباً شديداً يجب تهدئته، بل شوقاً جامداً ومقدساً... الحرية هي رديف الحب، وأنا على اقتناع بأنكِ تحترمينني احتراماً لا ترغبين معه أن تري فيَّ لورداً مجتهداً في البلاط ينفذ مسؤوليات الحب البيروقراطية بضمير محاسب، أو تريديني أن أتنافس على وسام المثابرة في الصناعات اليدوية الصينية. وأنا على اقتناع بأنه حين لا تصل رسالة فإن ريجينتي صاحبة شعرية بحيث لا ترى في ذلك غياب «الاجتهاد اللازم»، بحسب التعبير الرسمي، وإذا لم تصل رسالة ذات يوم فإنها صاحبة شعرية بحيث لا تتلهف على العودة إلى ملذات مصر، أو ترغب في أن تكون محاطة دائماً بالتموجات الغرامية لعاشق عاطفي». في الحقيقة لم يكن هناك خطر بشأن تلك الكلمة الأخيرة، الجزء المتعلق بالعاشق العاطفي. فبعد خاتمة الرسالة المشكوك فيها «المخلص س. ك.» كانت هناك ملاحظة قصيرة: «في هذه اللحظة أمشي ماراً بنافذتك. وإذا نظرتُ إلى ساعتي يعني ذلك إني رأيتُك. وإذا لم أنظر إلى ساعتي فإني لم أرك».

يمكن، بهذا القدر أو ذاك، إعادة بناء الظروف الفعلية وراء هذه الملاحظة المبهمة. مشى كيركغارد يرافقه خادمه الذي كان من المفترَض أن يسلم الرسالة، من شقته في 38 نوريغارده عبر الميدان المقابل لكنيسة سيدتنا بمحاذاة ستروغيت على ما يُفترَض، ثم عبر هويبرو بلادس نزولاً إلى 66 بورغسغاده. وحَسَبَ بدقة الفترة الممتدة بين البرهة التي يسلم الخادم فيها الرسالة واللحظة التي تقرأ فيها ريجينة آخر جملة فيها. وإذا رآها حينذاك في النافذة سيعطي إشارة بإخراج ساعته وبخلافه ستبقى - ساعته - في جيبه بما ينطوي عليه ذلك من معنى رمزي. وبإخراج مسرحي لهذه الواقعة بأدق تفاصيلها كان من الجائز أن تحدث الواقعة بالسهولة نفسها في كتابه «يوميات الغاوي»، كما في رقم 66 شارع بورسغاده.

قبيل الكرسمس اكتسبت رسائل كيركغارد لهجة تصالحية. وأراد أن ينقل إلى ريجينة إن الواقعة المؤلمة وغياب الرسائل في تشرين الثاني/ نوفمبر كان يراد بهما اختبار وفائها. وكتب يوم الأربعاء، 16 كانون الأول/ ديسمبر مقتبساً كريستيان فينتر «لن أختبركِ بعد اليوم، الآن أعرف ما في قلبك». وكتب رسالة طويلة لمناسبة السنة الجديدة وصلت يوم الأربعاء، 30 كانون الأول/ ديسمبر، كانت رسالة حب ملموسة وغير معقدة. وتذكَّر كيركغارد يوم الأربعاء في لينغبي قبل أكثر من عام بقليل: «شعرتُ إني خفيف إلى حد لا يوصف. سافرتُ إلى لينغبي، ليس كما أُسافر عادة، كئيباً، قانطاً، هامداً في ركن من العربة بل جلستُ وسط المقعد منتصباً على غير المعتاد، ليس مطأطئ الرأس بل سعيد وكلي ثقة. نظرتُ من حولي. كنتُ في منتهى السعادة بلقاء أي أحد أُصادفه». وتنتهي الرسالة بنوع من الاستسلام: «جئتُ ورأيتُ وقهرتُ».

زمن الإرهابات

كان لدى كيركغارد الكثير مما يبقيه مشغولاً في السنة الجديدة. وفي منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر 1840 سجل في مدرسة اللاهوت الرعوي حيث كان المفترض أن يعدَّ مواعظ ويشارك في الحكم على مواعظ زملائه في المدرسة. وفي كنيسة هولمنز يوم الثلاثاء، 12 كانون الثاني/ يناير 1841، ألقى موعظته الأولى. وكان النص مقطعاً من الرسالة الموجهة إلى أهل فيلبي (1: 19 – 25) التي يتحدث فيها بولس الرسول عن حيرته بين الدنيوي والسماوي. وعند بولس فإن المسيح هو الحياة وبالتالي يكون الموت مكسباً في الواقع. الذين قيَّموا موعظة كيركغارد وجدوا أنه «أجاد حفظها» وصوته كان «واضحاً»، ولهجته لهجة «وقور ومتينة»، والمحتوى يحمل بصمة «الكثير من التفكير والمنطق القوي»، ولكنهم اعترضوا قائلين إنها «كانت صعبة بعض الشيء وبمستوى ربما كان متعالياً على الشخص الاعتيادي». وحين كان كيركغارد يشارك في تمارين مختلفة في مدرسة اللاهوت الرعوي بدأ تحضيراته لكتابة رسالة الماجستير التي أنجزها خلال شتاء 1840 – 1841 وأوائل ربيع 1841 (بسبب عطلة مدرسة اللاهوت الرعوي خلال شهر نيسان/ أبريل). وسرق العمل بعض الوقت من ريجينة التي ربما شكت لأن خطيبها يستخدم رسائل الماجستير ومدارس اللاهوت الرعوي ذريعة للتهرب من رؤيتها. وكنوع غريب

من الدليل على مدى انشغال كيركغارد أهدى ريجينة بمناسبة عيد ميلادها التاسع عشر مخطوطة أعدها بالارتباط مع تمرين في مدرسة اللاهوت الرعوي. وفي 9 آذار/ مارس حين فرغ من كتابة تقييمه لموعظة أحد زملائه الطلاب، كتب إلى ريجينة إن المؤكد «إن وجود القلم بيدي ليس هو السبب في أني أغتنم المناسبة لأكتب إليك في المناسبات»، وهو أمر يبدو أنّها انتقدته عليه، محقةً على الأرجح.

تعين على ريجينة أن تزجي الوقت بطريقة أخرى وتقدم مثالاً حسناً فتسلّم خطيبها حين بلغ الثامنة والعشرين محفظة رسائل مطرزة باللؤلؤ صنعتها يدا ريجينة بأناملها الرشيقة. شكرها كيركغارد على محفظة الرسائل في اليوم نفسه، وأرفق شكره بوردة، ولكنها ليست أي وردة: «طياً أرسل إليكِ وردة. بخلاف هديتكِ فإنها في يدي لم تتفتح بكل روعتها. ذوت الوردة في يدي. وبخلافكِ لم أكن شاهداً سعيداً على نموها بل كنتُ شاهداً حزيناً على ذبولها التدريجي. رأيتها تعاني. فَقدَت شذاها، تاجها فَقَدَ رونقه، أوراقها تهاوت في صراعها مع الموت، تورُّدها اضمحل، ساقها الطري جفت عروقه. نسيتْ مجدها وحَسبتْ نفسها منسية، ولم تعرف إنكِ حفظتِ ذكراها. لم تعرف إني أتذكرها باستمرار. لم تعرف إننا معاً نحفظ ذكراها».

الدلالة الرمزية للرسالة والفجوة التالية في مراسلاتهما تروي حكايتها المثبطة، وفي يوم الأربعاء، 11 آب/ أغسطس، أعاد كيركغارد خاتم الخطوبة ومعه رسالة وداع – وجدها من نواحٍ أخرى ناجحة أدبياً حتى أنها وردت «حرفياً» في القسم الموسوم «مراحل على الطريق» من كتابه «مذنب أو غير مذنب؟» وكانت الرسالة الأصلية فُقدت ولكنها تقول في الكتاب: «لكيلا نتمرن مرة أخرى على شيء يجب عمله في النهاية، شيء من المؤكد أنه، حين يُنجز، سيعطي القوة المطلوبة. فلنفعله إذاً. وفي المقام الأول، انسي الشخص الذي يكتب هذا. اغفري للشخص الذي أياً يكن ما كان قادراً عليه فإنه لم يكن قادراً على إسعاد فتاة. في الشرق، يكون إرسال حبل من الحرير حكماً بالموت على المستلِم، وهنا فإن إرسال خاتم يكون حكماً بالموت على الشخص الذي يرسلُه».

حين قرأت ريجينة هذه السطور صُعقتْ وهرعتْ على الفور إلى بيت كيركغارد في نوريغاده. لكنه لم يكن في البيت فدخلت غرفته وتركتْ ما وصفه

كيركغارد بأنه «رسالة يأس مطلق» ناشدته فيها «إكراماً لعيسى اليسوع وذكرى والدي الراحل ألا أتركها». وكانت ريجينة تعرف بكل تأكيد أين تكمن النقطة الحساسة في حبيبها. وتابع كيركغارد: «لذلك لم يكن يبق إلا أن أُغامر إلى الحدود القصوى، وأشد أزرها، إن أمكن ذلك، عن طريق الخداع، وأفعل كل شيء لإبعادها عني لإحياء عزتها بالنفس».

هكذا بدأ «زمن الإرهابات»، وهو المرحلة التي اضطُر كيركغارد أن يبدو خلالها «كبير الأشرار»، بحسب روايته هو، لإنهاء العلاقة، في سلوك اعتبره هو نفسه «شهامة رائعة». وتذكَّر سيبِّرن: «عندما أراد قطع العلاقة معها - بل بحملها على قطعها معه - تصرف بطريقة حتى أن مس O قالت إنه أساء معاملة روحها. هذا هو التعبير الذي استخدمته، وشعرتْ بغضب عميق إزاءه». ومع ذلك يبدو أنّ استراتيجية القيام بدور الشرير كانت مجدية، لأن ريجينة أعلنت بعد سنوات عديدة أنها هي التي فسخت الخطوبة. وحاول سيبِّرن مواساة ريجينة بالإشارة إلى أن الخير في أنها «لم تصبح مُلك كيركغارد... لأن روح كيركغارد مشغولة دائماً بنفسها، وإن الرجل حبيس التأمل في ذاته» بحيث إنه إما كان «سيعذبها بالغيرة» أو يعيش معها «كأنه غير معني بها على الإطلاق». وفيما بعد رفض سيبِّرن هذا نفسه أن يقول أي شيء عن سبب إنهاء العلاقة رغم زعمه بأنه كان يستطيع أن يروي «أشياء ربما قلة صغيرة جداً من الأشخاص يعرفونها معي، لكنني لا أجرؤ على ائتمان الورق على أهم هذه الأشياء». وبتعبير ملطَّف فإن سيبِّرن كان هنا مدعاة للحنق. من جهة أخرى كانت إيلين بويسن صريحة في البوح بمشاعرها. وكتبت بويسن معبرة عن حنان الأخت للأخت: ربما لم تكن [ريجينة] ذكية بما فيه الكفاية بالنسبة له، وربما أرادت أن تساعد قلبه في قص شيء من أجنحة طموحه الجامح. ولكن تعيَّن عليها أن تستسلم للخطيئة التي استبدت به. أو لعلها لم تكن خطيئة أن يستغل كل صراعاتها، وكل الأسى والدموع التي ابتزها منها، إطاراً يجعل به نفسه الصغيرة المغرورة جديرة بالملاحظة ومثيرة للاهتمام؟ كيف يمكن لسلوك كهذا أن يكون في خدمة الإنجيل؟

من بين رسائل كيركغارد المختلفة التي تعمد أن تكون مضللة هناك رسالة (من أواخر أيلول/ سبتمبر أو أوائل تشرين الأول/ أكتوبر) تبدو خبيثة على نحو لا يوصف. فإن صندوقاً يحوي زجاجة من عطر إيسكتريت دوبل دو موغيه أُرفق بالكلمات التالية: «لعلك تتذكرين إني قبل نحو عام أرسلتُ إليكِ زجاجة

من هذا العطر». وبعد وقفة تأمل قصيرة في بَرَكات الذكرى صب اهتمامه مرة أخرى على الزجاجة وخاصة طريقة تعليبها بكل عناية: لذا أرسل إليكِ زجاجة منه بالكثير من الأغلفة الورقية. ولكن هذه الأوراق ليست من النوع الذي يمزقه المرء بعجالة أو يرميه بامتعاض للوصول إلى المحتويات بل على العكس. فإن هذه الأوراق تحديداً هي التي تُسعد المرء، وأرى ما ستبدينه من عناية وحرص في فتح كل ورقة منفصلة متذكّرةً بذلك إني أتذكرك، يا ريجينتي، وأنتِ نفسك ستتذكرين/ المخلص/ س. ك.

وأي نوع من «الأغلفة الورقية» كانت تلك التي استُخدمت ورقاً للتعليب، ويبدو أنّها كانت من طبيعة بحيث إن ريجينة ستفتحها بعناية، ورقة تلو أخرى، متذكرةً طول الوقت كل شيء، أو عائدة إلى معايشة كل شيء؟ نعم، الحق إن «الأغلفة الورقية» التي انشغلت بها يدا ريجينة حتى وصلت إلى زجاجة العطر الصغيرة اللطيفة داخلها، كانت - رسائلها هي! وماذا غير سرائلها من الجائز أن تكون مثل هذه «الأغلفة الورقية»؟ فلا موسم السنة ولا حرارة العلاقة الغرامية كانا يجيزان إرسال باقة من الورود.

ولكن ريجينة رفضت الاستسلام. «قاتلت كاللبوة» وكانت مصممة على البقاء مع كيركغارد حتى إنها في غمرة لوعتها عرضت القبول بالعيش في خزانة صغيرة، وبهذه الفكرة في رأس كيركغارد طلب فيما بعد من نجار أن يصنع له خزانة لطيفة من خشب الماهوغاني - بلا رفوف! وأوضح كيركغارد «إن كل شيء يُحفظ هناك بعناية، كل شيء يذكّرني بها ويمكن أن يذكّرها بي. وهناك أيضاً نسخة من كل ما كُتب إليها بأسماء مستعارة، وفي كل مناسبة كانت هناك نسختان فقط مصنوعتان من ورق الرق، نسخة لها ونسخة لي».

في 11 تشرين الأول/ أكتوبر، بعد شهرين على رسالة كيركغارد فاسخاً الخطوبة، عاد إلى فسخ الخطوبة ثانية، هذه المرة شفهياً: «كانت يائسة ولأول مرة في حياتي أُوبخ أحداً. كان ذلك الخيار الوحيد». وتوجه مباشرة من 66 بورسغاده إلى المسرح الملكي لأنه أراد أن يتكلم مع أميل بويسن. «(كان هذا أساس القصة التي جرى تناقلها في المدينة وقتذاك، بما يفيد إنني على ما يُفترض أخرجتُ ساعتي وقلتُ للعائلة إذا كان لديهم شيء آخر يقولونه فليسرعوا لأني على موعد مع المسرح)». وعندما انتهى المشهد وغادر كيركغارد مقعده في

مقصورة علوية ظهر تيركيلد أولسن والد ريجينة من المقصورات الأسفل وتوجه نحو كيركغارد وطلب منه أن يتحدث معه، وعندها عاد الرجلان إلى 66 بورسغاده. «قال إن ذلك سيقتلها وإنها في يأس مطلق. قلتُ: سأحاول تهدئتها ولكن الأمر محسوم. قال: أنا رجل ذو كبرياء، وهذا صعب لكني أتوسل بك ألا تفسخ خطوبتك عليها. كان كبيراً بحق، وهزني لكني صمدتُ في موقعي وتناولت العشاء مع العائلة في ذلك المساء. تكلم معها حين غادرت». في اليوم التالي تسلم كيركغارد رسالة من تيركيلد أولسن قال فيها إن ريجينة لم تنم طيلة الليلة السابقة وطلب من كيركغارد أن يأتي ويزورها. فزارها كيركغارد: «ذهبتُ إلى هناك وجعلتها تستمع إلى صوت العقل. سألتني: «ألن تتزوج أبداً؟» أجبتُ: «حسناً، نعم، بعد عشر سنوات، عندما أبدأ بالهدوء وأكون بحاجة إلى آنسة شابة شهوانية تجدد شبابي». قسوة ضرورية. ثم قالت: «سامحني على ما فعلتُه بك». أجبتُ: «أنا في الحقيقة مَنْ ينبغي أن يطلب ذلك». قالت: «عدني بأن تفكر فيَّ». وعدتها. قالت: «قبلني». قبلتها، ولكن بلا عاطفة. رحمتك يا رب... ثم افترقنا... أمضيتُ الليالي أبكي في فراشي ولكني في النهار كنتُ نفسي الطبيعية، أكثر ظرفاً، وأكثر صلافة من أي وقت مضى. كان ذلك ضرورياً». وحين قال بيتر كريستيان إنه سيحاول أن يشرح لعائلة أولسن إن شقيقه الأصغر ليس «شريراً» كما يبدو، احتج الشقيق الأصغر على الفور: «قلتُ: افعل ذلك وسأضع رصاصة في رأسك. وذلك خير دليل على عمق انهماكي بالقضية».

في الهامش مقابل تلك النقطة من إحدى فقرات يومياته التي كتب فيها كيركغارد «رحمتك يا رب»، أضاف إن من عادة ريجينة أن تحمل «في صدرها ملاحظة فيها كلمات مني». أما هذه الكلمات فلا أحد يعرف ما هي لأن ريجينة أخرجت الملاحظة ومزقتها ببطء قصاصاتٍ صغيرة وقالت بهدوء ناظرة إليه مباشرة: «إذاً، لعبتَ لعبةً فظيعة معي». وكانت هذه الحركة الصغيرة عملاً حاسماً: تحررتْ ريجينة من الكتابة، وكفتْ عن أن تكون ريجينة كلمات على الورق، وعادت إلى الواقع. وهي نفسها تتذكر إنها قالت خلال لقائهما الأخير: «الآن لم أعد احتمل أكثر، قبلني مرة أخيرة ثم خذ حريتك!»

كتب بيتر كريستيان في يومياته بتاريخ تشرين الأول/ أكتوبر 1841: «في العاشر (؟)، بعد فترة طويلة من الصراع والاكتئاب، قطع سورين علاقته بمس أولسن (ريجينة)». وكانت علامة الاستفهام في مكانها لأن قطع العلاقة في

الحقيقة حدث في اليوم التالي، الإثنين، 11 تشرين الأول/ أكتوبر. بعد ذلك كان الشقيق الأصغر - الميال عادة إلى ربط تواريخ معينة بطقوس محدَّدة - عاجزاً بالقدر نفسه عن تذكُّر التاريخ، وبعد سنوات عديدة استخدم جرائد قديمة سبقت إنهاء العلاقة.

سرعان ما ذاع خبر الخطبة المفسوخة في المدينة وبدأ الناس يتحدثون. وأُشيع إن كيركغارد دعا ريجينة ذات مساء إلى المسرح لمشاهدة «دون جيفاني» ولكن ما أن انتهت الأوركسترا من عزف موسيقى المقدمة حتى نهض كيركغارد وقال: «الآن نغادر. نلتِ الأفضل، وهو توقع المتعة!» وبعد سنوات عديدة حين روى يوليوس كلاوسن تلك الحكاية لريجينة بتوجس، قالت: «نعم، أذكر تلك الأمسية جيداً، ولكن ذلك كان بعد الفصل الأول، وغادرنا لأنه كان يعاني من صداع شديد». وانضم هنريك هيرتز إلى جوقة التشهير وروى القصة التالية عن «مس أولسن الشابة الرائعة» التي «عذبها» كيركغارد «عملياً حتى الموت بأطواره الغريبة»: «ذات يوم أتى بها في عربة لندوا لنزهة في الريف سعدت بها سعادة لا توصف». ولكن عند المستديرة في فيستبرو عاد أدراجه وأوصلها إلى بيتها ثانية لكي تعتاد على حرمان نفسها من المسرات. كان يجب أن يُضرب على ـــــــــه بسبب ما فعله».

اغتمَّت عائلة أولسن غماً شديداً بطبيعة الحال. وكتب يوهانس كريستيان شقيق ريجينة الذي تخرج بشهادة جامعية في اللاهوت عام 1842 رسالة (مفقودة الآن) أعلن فيها مقته الحارق لكيركغارد الذي لاحظ بجهل مبين في يومياته: «إذا كان صاحبي الطيب يوهانس أولسن قادراً حقاً، كما كتب في رسالته المشهودة، على أن يكره كما لم يكره أحد من قبل، فيجب أن أعتبر نفسي محظوظاً بأن أكون من مجايليه، محظوظاً بأن أكون هدف كراهيته». وكان رد فعل كورنيليا شقيقة ريجينة بطريقة أكثر تهذيباً بكثير معبرةً بالكلمات ما أخذ كثيرون يشعرون به قطعاً في السنوات اللاحقة: «لا أفهم الماجستير كيركغارد، ولكني مع ذلك أعتقد أنّه شخص طيب!» ويبدو أنّ التفاهم بين الاثنين - هل كان إعجاباً صادقاً يا تُرى؟ - كان متبادلاً لأن كيركغارد لاحظ في عام 1844: «تحت باب الدراسات الخاصة وللحفاظ على أكبر قدر ممكن من الرقة، بودي أن أصف شخصية نسائية كانت عظيمة بحكم تسليمها المتواضع والخجول بروعة (على سبيل المثال كورنيليا أولسن المؤَمثَلة بعض الشيء، أورع شخصية

نسائية عرفتها والوحيدة التي انتزعت إعجابي). ستكون لديها خبرة أن ترى شقيقتها تتزوج الشخص الذي أحبته هي نفسها».

كيركغارد لم يصف قط مثل هذه الشخصية - امرأة متواضعة وخجول ببداعة - ولكن في كتابه «يوميات الغاوي»، بُعثت كورنيليا، بتغيير حرف واحد من اسمها، لتكون كورديليا، التي هي من أروع الشخصيات النسائية وأكثرهن حرارة، ليس في غاليري شخصيات كيركغارد فحسب وإنما في أدب «العصر الذهبي» الدنماركي بأكمله.

«هي تختار الصرخة وأنا اختار الألم»

في مكان من اليوميات يلاحظ يوهانس، الغاوي، بكياسة داعرة كما هو ديدنه، إن دخول قلب فتاة عن طريق الشعر فن، ولكن الخروج منه بواسطة الشعر تحفة فنية. وكيركغارد كان يعرف الفن ولكن التحفة الفنية كانت أصعب. ولم يتمكن قط من الابتعاد عن ريجينة بما يكفي لتحريرها من قدرها الكارثي، فاستمرت في أن تكون ما كانت - هبة من السماء حسياً، مخيفة بشكل لذيذ، محرَّمة إلى حد مذهل - لأن طبيعتها ذاتها كانت تفجر ينابيع دافئة بدرجة مغرية بحيث لم يملك كيركغارد سوى أن يدع التيار يجرفه معه - على الورق.

وهكذا فإن هذه القصة (التي في الحقيقة كان من الجائز أن تنتهي نهاية مبتذلة بسعادة) ليست عن مجرد شخصين شاءت الأقدار، لأسباب فكرية ونفسية، أن يتفاوتا مثل سفينتين في ظلام الليل، بل أصبحت دراما كبرى عن النهايات القصوى في تاريخ الغرب الفكري: آنية وتأمل، رغبة حسية وضبط نفس، حضور وغياب. ورغم أن ريجينة لا تُذكَر بالاسم مرة واحدة في كل أعمال كيركغارد المنشورة فهي متواشجة معها كما في عمل إيروتيكي من أعمال فن الأرابيسك، مليئة بالشوق، أحياناً تواجه القارئ حين لا يتوقعها بالمرة. وهذه هي الحال، على سبيل المثال، في مكان من عمله «شذرات فلسفية»: «مصدر التعاسة ليس إن العشاق لا يستطيعون الوصال بل أنهم لا يستطيعون التفاهم». وهما لم يتمكنا من التفاهم بالمرة. كانت هي عاطفية عاطفة آنية للغاية وكان هو تأملياً بشكل عاطفي للغاية. وكما سيلاحظ أحد أسماء كيركغارد المستعارة لاحقاً في «مراحل على طريق الحياة» فإنها «تختار الصرخة وأنا أختار الألم».

من المؤكد أن الفكرة القائلة إن الحب النقي يستطيع أن يذلل كل عقبة

تعترض التواصل، تعكس تفاؤلاً ساذجاً بعض الشيء ولكننا لا نستطيع أن ننكر إن كيركغارد يتخذ موقفاً عصرياً تماماً في إرساء العلاقة بين الجنسين على فهمهما المتبادل لأحدهما الآخر. وهو بطرحه هذا الشرط حقاً لا يهادن على الإطلاق لأن هذا النوع من الفهم هو بدوره أساس الثقة الحميمة التي تشكل روح الزواج. ويرد بلا لبس في إحدى مسودات «إما/ أو» إن «الزواج مستحيل من دون ثقة حميمة». وفي ملاحظة لاحقة (لكنها شُطبت) يشرح إن دخول حياة الزوجية ليس كذلك الوضع حيث «كل شيء يُباع بالحالة التي بها «كما هو» عندما تهوي مطرقة بائع المزاد»، كلا، فالمهم في هذه الحالة هو «أن تكون صادقاً بشأن الماضي». ثم يتابع بضمير المتكلم المفرد: «لو لم أُكرِّمها زوجةً لي في المستقبل، أكثر مما لو كرَّمتُ نفسي، لو لم أكن أشد تحمساً على صون شرفها من صون شرفي أنا، لالتزمتُ الصمت ونفذتُ أُمنيتها وأُمنيتي، وسمحت لنفسي بالزواج منها. وهناك زيجات كثيرة تخفي حكايات صغيرة. وأنا لم أرد أن تكون هذه حالتي، لأنها حينذاك كانت ستصبح جاريتي. وكنتُ أُفضل قتلها على أن تكون ذلك».

هذه الفقرة من اليوميات التي تتكرر بخليط من التنويعات نموذج لطريقة كيركغارد في شرح الصراع لنفسه بمرور الأيام: يوضع والده، بوصفه فارض القانون، على النقيض من ريجينة التي حسيتها ذاتها تذكير مؤلم بمثلبة والده المخيفة، وهي سقوطه الجنسي. وأصبحت التقوى تجاه والده وحبه لريجينة على قدر من التناقض بحيث تعين على كيركغارد أن يلجأ إلى تفسير ميتافيزيقي لتفادي الانفصام إلى اثنين: «يحدث أحياناً إن طفلاً يُخطَب، وهو ما زال في المهد، أو طفلة وهي ما زالت في المهد، لشخص سيصبح ذات يوم زوجته أو زوجها. وأنا كنتُ مخطوباً [بالدنماركية: for-lovet، أي «موعود من الآن [لفتاة ما]»، بالمعنى الديني، يوم كنتُ طفلاً صغيراً جداً. وا أسفاه، دفعتُ ثمناً باهظاً لأني أسئتُ ذات يوم فهم نفسي ونسيتُ - إني مخطوب!»

كيركغارد عقد قرانه على الله. والصورة تقرب من الكفر بل أنها لا تفعل الكثير للتستر على الإنساني بالعجز الذي انبثقت منه. وكتذكير مرئي لسوء فهمه المصيري، طلب كيركغارد أن يُعاد تصميم خاتم خطوبته بحيث ترُصف أحجاره الكريمة على شكل صليب. وردت ريجينة من جانبها بطريقة أكثر مباشرةً: سرعان ما وخط الشيب شعر رأسها.

كتبت كيركغارد في عام 1849: «إليها وإلى والدي الراحل ستُهدى كل الكتب: أساتذتي هم رجل عجوز بحكمته النبيلة وامرأة بعدم فهمها الحبيب». وفي سنة وفاته عاد إلى هذه الكلمات جاعلاً إياها حتى أكثر جمالاً. وهكذا ذكر تحت عنوان «ينابيعي»، بالاسم «الشخصين اللذين أحببتهما كل الحب، ولهما أُدين بما أصبحته من كاتب: رجل عجوز – أخطاء حبه الحزين، فتاة شابة جداً، تكاد تكون طفلة لا أكثر – الدموع الحبيبة لسوء فهمها».

1841

عن مفهوم المفارقة

«سهم من الألم اخترق قلبي منذ طفولتي الأولى. وطالما بقي هناك سأكون صاحب مفارقة. إذا أُخرِج سأموت». في هذا التأمل الاسترجاعي من عام 1847 اتخذ كيركغارد من المفارقة وضعاً كان وضعه هو على نحو لا مفر منه طيلة ما يتذكره من حياته. ولكن ألا تفترض المفارقة مسبقاً وجود وعي لا يملكه الطفل، ذهنية غريبة على الطفل؟ ربما. قد يكتفي طفل باستخدام شيء من المفارقة، بالتظاهر، بالتسلل إلى ملاذ أكذوبة، باستخدام اللغة استخداماً يختلف عما يظنه الناس. وفي هذه الحالة يقول المرء شيئاً غير ما يعنيه، أو يعني شيئاً غير ما قاله. وهذه مفارقة. ومن المفيد أن تكون حاضرة حين يهجرنا الآخرون، كما يفعلون بطبيعة الحال، عاجلاً أو آجلاً.

ومن بيت طفولته تعلم كيركغارد أشكال التصنع. مدرسته علّمته ضرورة وجود مسافة. ودراسة الأعمال الرومانسية الألمانية، ولا سيّما شليغل، سلّحته ببصائر في التاريخ الفكري المضطرب نوعاً ما للمفارقة. واستنشق أثير المفارقة الدمثة من مقالات هايبرغ. وخلال فترة خطوبته الكارثية طور هذا كله إلى نوع من الكمال اليائس. وهكذا ذات مرة في عام 1848 تمكن من تلخيص بعض بصائره في فقرة من يومياته لها طابع السيرة الذاتية بشكل واضح: «الفرد الذي يتمنى ويأمل ويبحث لا يستطيع أبداً أن يكون صاحب مفارقة. فالمفارقة (بوصفها تكوينية لوجود كامل) تتألف من النقيض التام، من موضَعَة ألم المرء في ذات النقطة التي يموضع آخرون رغبتهم. والعجز عن امتلاك الحبيبة ليس مفارقة على الإطلاق. ولكن القدرة على امتلاكها بسهولة بحيث تتوسل وتتضرع أن تكون ملكك – ثم تكون عاجزاً عن امتلاكها. هذه مفارقة».

وهكذا تكون المفارقة شيئاً أكثر وشيئاً يختلف عن اللعب الحي بتعبير من أجل إدخال السرور في قلب شريكتك على العشاء. المفارقة هي (أيضاً) مسافة فكرية عن الآخرين، عن العالم، وعن نفسك، شرط لتكون قادراً على التلاشي. والمفارقة بهذا المعنى مناورة في منتهى التطور لكنها على درجة كبيرة من الخطورة أيضاً يمكن أن تضع صاحب المفارقة في موقف يهدد حياته: «المفارقة تطور شاذ تنتهي، مثل الشذوذ في حياة وز شتراسبورغ، بقتل الأفراد ذوي العلاقة». كان سقراط أول صاحب مفارقة في التاريخ، أو إنه في كل الأحوال أول شخص ارتبط تاريخياً بالمفارقة. وكلفته المفارقة حياته، ولكنها في حالته لم تكن تطوراً شاذاً بل الشذوذ كان في زمن سقراط نفسه الذي لم يتقبل المفارقة بجرعات سقراطية محسوبة. ظنوا إنه يغوي الشباب وإنه خطر على الدولة فأُصيبوا بالذعر ولجؤوا إلى السم الزعاف. ولكن المفارقة لا يمكن أن تُقتل بهذه السهولة لأسباب ليس أقلها إن «العدم بما فيه من مفارقة... هو الجمود المميت الذي تسكنه المفارقة (هذه المفردة مأخوذة بمعنى ملتَبَس تماماً) [بالدنماركية: spoge وتعني «أن تسكن «و» أن تمزح»]. وأصبح هذا الوسواس واقعاً لا يُمارى في المدرسة الرومانسية لأن الرومانسية لم تكن مجرد ضوء القمر وسوناتات وصور ساحرة ذات أُطر بيضاوية مذهبة بل كانت العصر الذي تكلل فيه تطور الإنسان الحديث ابتداء من عصر النهضة، بإعلان الإنسان موت الله منتزِعاً القدرة لنفسه وبذلك اكتساب فرصة وفيرة لمعايشة عجزه البائس نفسه. كانت الرومانسية بداية الحداثة، وكان كيركغارد يعرف ذلك حين قال: «في الحقيقة يمكن التفكير في المفارقة التامة، بكل تأكيد، على أنها شيء تتسم به الحداثة».

ورغم إن شخصية كيركغارد ذاتها كانت عملياً واقفة هناك تومئ إليه مقترحة عليه موضوعاً لرسالة الماجستير فإن ثمة ما يكفي من المفارقة في أنه لم يلحظها إلا بعد وقت. وفي النصف الثاني من أيلول/ سبتمبر 1837 فكر في «مفهوم السخرية» موضوعاً ممكناً، بينما في تموز/ يوليو 1839 كشف عن رغبة سقيمة بعض الشيء هي «الرغبة في كتابة رسالة أكاديمية عن الانتحار». ولكن قبل هذه الاستطرادات كانت هناك صورة مستفيضة لأشكال مختلفة من المفارقة، تاريخها 6 تموز/ يوليو 1837، حدَّد فيها كيركغارد شكل ارتباط المفارقة السقراطية بالفكاهة المسيحية مشيراً إلى حوار «شيق للغاية» أجراه مع بول

مارتن مولر ذات مساء في الأسبوع السابق. لا يُقال لنا بشكل ملموس ما تحدث عنه الاثنان ولكن مولر كان في كل الأحوال الشخص المناسب للتوجه إليه لأنه كتب في عام 1835 مقالاً عنوانه على وجه التحديد «عن مفهوم المفارقة». ولكنه كان مقالاً في خمس صفحات فقط ولم يُنشر إلا في عام 1842.

رغم تذبذب كيركغارد بين مواضيع ممكنة لرسالته فإنه حزم أمره على ألا تُكتب باللاتينية الأكاديمية كما كانت تنص قواعد الجامعة عادة وإنما بالدنماركية كي تستطيع الظلال النغمية للغة الأم أن تضفي الرهافة المطلوبة على الشرح. وفي عام 1837 لاحظ كيركغارد «إن الكتابة عن مواضيع رومانسية بلهجة مناسبة باللاتينية غير معقولة مثلما يُطلب من شخص أن يستخدم مستطيلات ليصف بها دوائر». لذا اضطُر إلى أن يطلب إعفاء، وفي 2 حزيران/ يونيو 1841 توجه «بكل تواضع» إلى الملك كريستيان الثامن وموظفيه برسالة تعَلل فيها بسابِقَتي مارتن هامريخ وأدولف بيتر آلدر، اللذين دافعا عن رسالتيهما الأكاديميتين بالدنماركية في 1836 و1840، على التوالي. واللافت إنه لم يغتنم الفرصة ليسوق مثالاً ثالثاً ومعروفاً على نطاق أوسع لإعفاء كهذا هو رسالة أتش. إيل. مارتنسن الموسومة «مايستر أيكهارت» Meister Eckhart، التي صدرت الموافقة عليها بصيغتها الدنماركية في آذار/ مارس 1840. ولعل كيركغارد لم يذكر هذا المثال لأن مارتنسن، في هذه الحالة، لم يكن عليه أن يدافع عن رسالته الأكاديمية لأن جامعة كيل منحته في هذه الأثناء دكتوراه فخرية. ولكننا لا نستطيع أن نستبعد احتمال إن كيركغارد لم يكن يريد أن يرتبط بأستاذه السابق، وهو رجل أخذ بمرور الوقت يضمر له كراهية متزايدة: قبل أن يقدم كيركغارد رسالته الأكاديمية زار مارتنسن بشكل خاص كي يقرأ له قسماً من مخطوطته، كان سجالاً ضد شليغل. لم يستحسن مارتنسن الأسلوب الإنشائي المزوق الذي كُتبت به القطعة وبالتالي اكتفى بالإعراب عن «تقديره بفتور بعض الشيء».

أياً تكن التفاصيل شدد كيركغارد في مذكرته طالباً إعفاءه من شرط الكتابة باللاتينية، على أن موضوعه يتطلب عرضاً حراً وشخصياً، وأشار إلى العلامات الممتازة التي نالها في امتحاناته ونوه بالفترة التي عمل خلالها معلماً للغة اللاتينية، وتعهد بأن الأطروحات التي ستُرفَق بالرسالة الأكاديمية والدفاع الشفهي عنها سيكونان باللاتينية. وفي النهاية أضاف نسخة من توصية مايكل نيسلن الذي أعطى تلميذه السابق تزكية مستفيضة ومؤثرة جاء فيها، من بين

أشياء أخرى «إن مستر أس. آبي كيركغارد، الذي تخرج بشهادة في اللاهوت، كان طالباً متميزاً في هذه المدرسة بسبب عمله المثابر وذكائه وفهمه الفذ للدروس عموماً وشكل اللغات وروحها بصفة خاصة. وحتى عندما كان طالباً أعطانا سبباً لأن نتوقع أشياء عظيمة من نزاهته واعتماده على النفس وقدرته، ورؤيته الواضحة، الحادة والشاملة، وذهنه العميق، الحي، الجاد، وموهبته الممتازة عموماً في العرض، التي أثبتها لاحقاً... وفي حدود تقديري فإنه يتقن اللغة اللاتينية بصورة استثنائية، شفهياً وتحريرياً على السواء».

فيما كان الملك ينظر في طلب كيركغارد جرى تداول الدفاتر الستة التي تحوي الرسالة الأكاديمية بين أعضاء الهيئة التدريسية ذوي العلاقة في الجامعة. وهم لم يثيروا أي شكوك في نوعية العمل، ولكنهم جميعاً أبدوا تذمرهم من أسلوبها غير التقليدي. وكان كيركغارد نفسه قلقاً بعض الشيء إزاء هذه المسألة: «اشتغلتُ على هذه الرسالة الأكاديمية بخوف وارتعاد لمنع صيغتي الديالكتيكية من ابتلاع الكثير منها. سيجدون عيباً في الأسلوب المتحرر من كل قيد. وسيقول هذا اللص الهيغلي شبه المتعلم أو ذاك إن العنصر الذاتي شديد البروز». ورغم إن الذين قرؤوا الرسالة الأكاديمية لم يكونوا أشباه متعلمين أو هيغليين (باستثناء مارتنسن) فإنهم جميعاً شَكَوا، في تقييماتهم المكتوبة، من «انفلات» كيركغارد الأسلوبي تحديداً، وعدم انضباطه. ولاقوا صعوبات مختلفة في قبول الفرضية القائلة إن البحث الأكاديمي لا يمكن أن يكون فكاهياً فحسب بل إن الفكاهة نفسها يمكن أن تكون جزءاً من العِلم. وهكذا كان من حسن الحظ أن كيركغارد حذف من مقدمة الرسالة الأكاديمية مقطعاً أشار فيه للقارئ إلى «إنني» أحياناً، لتخفيف العبء الواقع على كاهلي، أُغنّي على عملي. من جهة أخرى كان من المؤسف، من وجهة نظره الاسترجاعية ذاتها، إنه كان على درجة كافية من عدم الحصافة لأن يصر في مرحلة من المراحل على أن من عيوب سقراط إنه لم ينظر إلى الكلّية وكان ينظر إلى الأفراد، عددياً، فقط. وفي فقرة كتبها كيركغارد في يومياته من خريف 1850 علق على هذه القضية بفورة مريرة: «أوه، يا لي من هيغلي هذا الذي كنتُه. فهذا على وجه الدقة ما كان يشكل الدليل الرئيسي الذي يثبت كم كان سقراط فيلسوفاً أخلاقياً عظيماً».

القسم الأول من الرسالة الأكاديمية حسنُ السلوك نسبياً وله شكل تحليل مستفيض لتفسيرات شخصية سقراط - وليس آخراً طابع المفارقة عند

سقراط - كما قدمه زينوفون وأفلاطون وأرسطوفان. وطرح كيركغارد تحليلاً ذا محورين. فهو، من جهة، حاول أن يحدد أهمية سقراط العالمية - التاريخية، أهميته لقصة التاريخ. ودرس، من الجهة الأخرى، أهمية سقراط لتاريخ الذاتية. وحرص كيركغارد على استيفاء مستلزمات رسالة أكاديمية باحترام للمنهج ودقة علمية ومعرفة بالمصادر وغيرها من المتطلبات النظامية، ولكنه لم يجد أي متعة في القيام بدور العالِم الذي لا دم له: «انتهيتُ الآن من تقديم تصوري عن سقراط كما يُعرض من منظار زينوفون، وفي الختام لن أطلب من القراء، إذا شعروا بالممل، سوى ألا يلقوا باللائمة عليَّ وحدي».

يشكل القسم الثاني من الرسالة الأكاديمية، الذي يعالج المفارقة الرومانسية، انقلاباً لافتاً من المعالجة الأكاديمية للمادة إلى نوع من العرض يقرب أحياناً من التهور. وبالطبع فإن الرغبة في الكتابة عن المفارقة - وخاصة عن مفهوم المفارقة - هي بحد ذاتها تنطوي على مفارقة. فالمفارقة لا تجيز لنفسها أبداً أن تُغمَر في مفهومها بشكل منتظم. وهي لا تريد أن يُضفى عليها طابع مفهومي بل على العكس. فإن طابعها هو التوسع خارج كل الحدود. وحتى في مدخل الرسالة الأكاديمية يوضح كيركغارد إن رسم صورة للمفارقة، كما عبر عنها سقراط، لا يقل صعوبة عن «تصوير عفريت يرتدي الطاقية التي تجعله غير مرئي». وتكاد الصورة أن تكون اعتداءً عنيفاً على قدرة المخيلة: نرغب في رؤية شيء له القدرة على منعنا من رؤية أي شيء على الإطلاق». وفي موضع لاحق من الرسالة الأكاديمية يجري توضيح قدرة المفارقة السلبية على إحداث اختفائها دون أن تترك وراءها أي أثر بالإحالة إلى «تلك الساحرة العجوز» التي قررت «أن تلتهم كل شيء ثم تلتهم نفسها أيضاً» فانتهى بها المآل إلى اتهام «معدتها هي».

وهكذا كان كيركغارد يدرك بصورة مؤلمة التوتر الموجود بين مادة الموضوع وعرضه، ولكنه اختار بطريقة فذة أن يحوِّل قضية المفارقة إلى نقطة ذات مفارقة: في رسالته الأكاديمية لا يشرح المفارقة باستفاضة فحسب بل ينسخها أيضاً. وهو يوضح إنه يفعل ذلك ليتفادى ما كان على ما يبدو خطأً شائعاً: «فهناك في الأزمنة الحديثة الكثير من الكلام عن المفارقة وعن المفهوم ذي المفارقة للواقع الفعلي. ولكن هذا التصور نادراً ما كان يتمظهر بطريقة ذات مفارقة». والمفارقة هي التي تفعل ذلك - أي أن تتمظهر بطريقة ذات مفارقة - في كيركغارد. ولكن من دواعي الأسف إنه حين يتعلق الأمر بالمفارقة

لا تكون المسافة بعيدة من التمظهر إلى الهوس الخالص. وفي كل الأحوال فإن هذا ما كان يعتقده أعضاء لجنة التقييم ذات العقل الراجح.

وهكذا لاحظ أف. سي. سيبَّرن، عميد الكلية الذي قدم كيركغارد رسالته الأكاديمية إليه شخصياً يوم 3 حزيران/ يونيو، في التعميم الذي أرفقه مع الرسالة عندما أحالها إلى جي. إن. مادفيغ J. N. Madvig، أستاذ الدراسات الكلاسيكية، إن هناك شيئاً في الرسالة ينتمي برأيه «إلى جنس من النوع الأدنى»، وقارنه بالكاتب وعالم الجماليات الألماني جان بول Jean Paul الذي، بحسب سيبَّرن، كان أيضاً صاحب «طريقة غريبة وخاصة به في السير والمشي والتسكع». وتمنى سيبَّرن، علاوة على ذلك، لو يتغير عنوان الرسالة الأكاديمية إلى الآتي: «سقراط بوصفه صاحب مفارقة، مع مساهمات في تطور مفهوم المفارقة عموماً، ولا سيّما بالإحالة إلى أحدث الأزمنة». ولكن سيبَّرن لم تساوره أي شكوك بأن الرسالة ينبغي أن تُقبل للمناقشة. صحيح إنها كانت طويلة تماماً ولكنها تُقرأ بسرعة نسبياً لأن «اللغة تنساب بسهولة» والأكثر من ذلك «إن خط اليد واضح جداً». ويمكن أن يُعزا وضوح خط اليد، على ما يُفترض، إلى حقيقة إن كيركغارد طلب نسخة واضحة من الرسالة يكتبها سي. إيل. سيمونسن الذي هاجر بعد فترة قصيرة على ذلك إلى النرويج حيث أخذ يتباهى بعض الشيء بدوره في مشروع الرسالة الأكاديمية.

مادفيغ، الذي تسلم الآن الرسالة لمعاينتها، كان هو الآخر راضياً عن محتوياتها، التي اكتشف فيها «حيوية فكرية وفكراً منعشاً» ولكنه هو أيضاً كان يعتقد أنّها كإنشاء اعتراها «قدر معين من الإهمال الحر والسهل» وإن «تطور المفاهيم يفتقد إلى الترتيب والشكل العلمي والتركيز الثابت». ولكن الأنكى من ذلك كله «إن العرض يعاني من استخدام اللاذع والطريف بقناعة ذاتية استخداماً كان في أحيان ليست قليلة ينزلق إلى المبتَذل وعديم الذوق بشكل صارخ». وفكر مادفيغ لفترة وجيزة في ربط قبول الرسالة الأكاديمية بشرط «حذف هذه الزوائد» ولكنه لم يكن مستعداً لفرض الفكرة لأن هذا النوع من التفاوض كان بالطبع صعباً ومزعجاً في كل الأحوال، وفي حالة كيركغارد سيكون على الأرجح عديم الجدوى. وبعد هذا التقريع أعاد مادفيغ النص الذي يتناول المفارقة إلى سيبَّرن الذي أحاله على الفور إلى إف. سي. بيترسن F. C. Petersen، أستاذ الدراسات الكلاسيكية وعميد كلية ريغينسن الذي

أوصى «بحذف التجاوزات المختلفة من النوع التهكمي أو الساخر بوصفها غير لائقة في قطعة من الكتابة الأكاديمية». وبعد الموافقة على التغيير الذي اقترحه سيبَّرن في العنوان أرسل بيترسن الأوراق إلى زميله (ونقيضه في المزاج) بي. أو. برونذستيد P. O. Brondsted الذي رد بعد 24 ساعة فقط بتقييم مكتوب بأناقة لاحظ فيه إن كيركغارد وجد من المتعذر، على ما يبدو، أن يقاوم «إغراءً داخلياً للقفز على الحدود التي تفصل المفارقة الحقيقية والسخرية العقلانية عن المضمار البائخ للمبالغة المبتذلة». ومع ذلك كان برونذستيد يعتقد بأنه «إذا كان تفضيل شخصي لنتفٍ من هذا النوع يمنع الكاتب من اتباع النصيحة في هذا الشأن» فإنه سيغض الطرف عن الأمر دون مزيد من التعقيد. ولكن رئيس الجامعة هانز كريستيان أوريستيد Hans Christian Orsted الذي كان عليه أن يعطي موافقته الرسمية على طلب الإعفاء من شرط كتابة الأطروحة باللغة اللاتينية، رفض بكل بساطة أن يصرف النظر عن الأمر بل إن أوريستيد، في رسالة خاصة إلى سيبَّرن، لاحظ بلغة جافة إن الرسالة الأكاديمية «تترك عندي انطباعاً بغيضاً على العموم، وخاصة بسبب شيئين، كلاهما أمقتهما هما الإطناب والتصنع». كما كان أوريستيد قلقاً بشأن التسرع في إجراءات التقييم، واقترح لاحقاً أن يقرأ الرسالة الأكاديمية مارتنسن أو أستاذ الفلسفة الجديد راسموس نيلسن Rasmus Nielsen. وبما أن راسموس نيلسن طلب في وقت سابق ألا تكون له أي علاقة بالقضية، ذهبت الرسالة إلى مارتنسن الذي كتب أربعة سطور يتفق فيها مع وجهات النظر التي جرى التعبير عنها، مصوتاً بذلك لصالح قبول الرسالة. بعد ذلك عادت القضية – التي أصبحت الآن صعبة بعض الشيء – إلى سيبَّرن الذي أعلن في 6 تموز/ يوليو باسم قسم الفلسفة إن «عن مفهوم المفارقة، مع إشارة متواصلة إلى سقراط» رسالة جديرة بالدفاع لنيل شهادة الماجستير.

نُقل هذا بدوره إلى كريستيان الثامن الذي أعلن في رسالة بتاريخ 29 تموز/ يوليو «إن سورين آبي كيركغارد، يُمنح الموافقة على نيل شهادة الماجستير عن الرسالة الفلسفية التي قدمها وكتبها باللغة الدنماركية». ولكن الملك فرض شرط أن يكون الدفاع الشفهي باللاتينية وبالتالي أن يُرفق العمل بأطروحات باللاتينية تتضمن «النقاط الرئيسية للرسالة»، وتنال موافقة الممتحنين قبل الدفاع الشفهي. وفعل كيركغارد ما اشترطه الملك، وبعد رحلة أخرى عبر الإجراءات

الإدارية للجامعة، أُعيدت الرسالة الأكاديمية و15 أطروحة باللاتينية - ثلاث أطروحات منها (رقم 1 و8 و15) كادت أن تُرفَض في مرحلة من مراحل العملية - إلى كيركغارد. وفي 16 أيلول/ سبتمبر ذكرت دار بي. جي. فيليبسنز بريس للنشر إن الرسالة الأكاديمية أُعدت في مطبعة بيانكو لونو. وبسبب الاستعجال لإنجاز كل شيء حدث خطأ مؤسف، إذ سقط مقطع باليونانية من عمل أفلاطون «الجمهورية» كان المفترض أن يزين صفحة العنوان. وفي الغرفة شبه المظلمة لتنضيد الحروف لاقى الطبّاع مصاعب مع الأعداد الرومانية أيضاً فطُبع آلان سيبِّرن باللاتينية وبعده تاريخ 1851 فيما طُبع تاريخ الدفاع الشفهي على أنه سنة 1861.

تبدو الأخطاء المطبعية وكأنها تقريباً تعبير مادي عن الفوضى التي تصدت روح الرسالة الأكاديمية ذات المفارقة بها للتعليب الأكاديمي، ولكن في 29 أيلول/ سبتمبر 1841 صدرت أخيراً الموافقة على دفاع كيركغارد عن رسالته «عن مفهوم المفارقة» التي كان يستطيع مَنْ يرغب أن يشتريها بسعر ريكسدولار وثمانية وأربعين شلن.

1842

عارٍ تماماً في برلين

رغم الحقيقة الماثلة في أن الممتحنين الأكاديميين وجدوا مثلبة في المزحات الأسلوبية لرسالة الماجستير فإن سيد المفارقة أصبح ماجستيراً بالمفارقة. القواعد الجامعية اتبعت بأدق التفاصيل، وحضر الدفاع الشفهي، باللغة اللاتينية، جمهور كان لديه من العلم بقدر ما لديه من الفضول. وحقق العرض نجاحاً ساحقاً في شباك التذاكر واستمر سبع ساعات ونصف الساعة رغم التوقف في منتصف النهار لاستراحة استمرت ساعتين. ونهض ما لا يقل عن تسعة خصوم لمناقشة كيركغارد. وحضر سيبَّرن وبروندستيد بوصفهما خصمين رسميين. وكان الخصوم من الحاضرين في القاعة إف. سي. بيترسن ويوهان لودفيغ هايبرغ نفسه، والشقيق الأكبر بيتر كريستيان، زائد حامل الليسانس باللاهوت والدكتوراه بالفلسفة فريدريك بيك، وإف. بي. جي. دال، المحاضر السابق بالفلسفة في جامعة كريستيانا، وأتش. جي. تيو، وهو نرويجي يحمل شهادة ماجستير بالفلسفة، والخريج من قسم اللاهوت سي. إف. كريستينس. واستخدم سيبَّرن وبروندستيد صيغ تفضيل في التقرير الذي أرسلاه إلى مدراء الجامعة بعد يومين على الدفاع: «الذكاء والحيوية الفكرية، البراعة والمهارة الديالكتيكية، التي كانت ظاهرة بقدر كبير في رسالة «المرشح» كيركغارد، كانت بارزة في دفاعه أيضاً، ويجب أن نعتبره جديراً تماماً بشرف شهادة الماجستير التي يطمح إليها». وكان سيبَّرن مسروراً بالرسالة حتى أنه لم يحث كيركغارد على ترجمتها إلى الألمانية فحسب بل والتقدم على وظيفة جامعية أيضاً.

بحلول يوم الثلاثاء، 26 تشرين الأول/ أكتوبر، حين قدم مدراء الجامعة

تقريراً عن إمكانية منح كيركغارد شهادة ماجستير بالفلسفة، كان صاحب الشهادة أصلاً يرتدي قبعته الجامعية، وعلى طريقة تلك العفاريت التي ترتدي طاقية الإخفاء، اختفى عن كوبنهاغن. وكان بيتر كريستيان وأميل بويسن الوحيدين اللذين يعرفان إنه على متن سفينة البريد الألمانية كونيغن إليزابيث، التي غادرت كوبنهاغن متوجهة إلى كيل يوم الإثنين، 25 تشرين الأول/ أكتوبر، في الساعة الحادية عشرة صباحاً. وكان كيركغارد متوجهاً إلى برلين التي كانت منذ زمن طويل مدينة المدن لكل لاهوتي وفيلسوف يحترم نفسه ويحترم فرعه.

ما أن وصل كيركغارد إلى محل سكنه في برلين – 61 شارع ميتل، eine Treppe hoch [بالألمانية: طابق علوي واحد] – حتى بعث بالرسالة الأولى مما ستكون سبع رسائل إلى أميل بويسن. وبعد بضع ملاحظات عن الرحلة وسلسلة المحاضرات القادمة، وأشياء أخرى من هذا القبيل، انتقلت الرسالة دون سابق إنذار إلى سلسلة من الأحكام: «التقِ بها دون أن ينتبه إليك أحد. نافذتك يمكن أن تساعدك. دروس الموسيقى أيام الإثنين والخميس من 4 إلى 5. ولكن لا تقابلها في الشارع إلا بعد الظهر أيام الإثنين في الساعة الخامسة أو الخامسة والنصف، حين ينبغي أن تكون قادراً على لقائها وهي تمشي مخترقة شارع فيسترغاده إلى كلاديبوديرنه، أو اليوم نفسه في الساعة السابعة أو السابعة والنصف، عندما تمر عموماً تحت الأقواس إلى شارع بورسغاده مع شقيقتها. ولكن خذ الحيطة. اذهب إلى دكان المعجنات هناك، ولكن خذ الحيطة. ومن أجل خاطري، مارِس فن التحكم بكل تعبير، فن إتقان المصادفات، والقدرة على نسج قصة على الفور دون خوف أو قلق. فالمرء يستطيع أن يخدع الناس بقدر ما يشاء. أعرف ذلك عن خبرة، ومن هذه الناحية على الأقل، لدي جرأة لا حد لها... لا أثق بأحد».

ليس لدينا فكرة كيف كان رد فعل بويسن على هذه الأوامر بأن يطوف أنحاء كوبنهاغن خلسة وكأنه جاسوس لأن كل رسائله إلى كيركغارد فُقدت. وكانت نية كيركغارد أن يكون هذا مصير رسائله إلى بويسن بهذا القدر أو ذاك. وكتب على ظهر العلبة التي حفظ فيها الرسائل: «بعد موتي تُحرق هذه العلبة دون أن تُفتح. ولمعلومات الأجيال المقبلة: إن محتوياتها لا تساوي 4 شلنات». ولكن في قرار لا يُضاهى رأى الذين حرروا آثار كيركغارد الأدبية ونشروها ألا يستمعوا إلى هذه النصيحة الحارقة، وبذلك حافظوا على مصدر أولي مباشر،

لم تدخل عليه فاصلة واحدة بخلاف غالبية ما سمح كيركغارد ببقائه للنشر في المستقبل. لعله كان قادراً على خداع بويسن بين حين وآخر، ولكن كان من المتعذر خداعه بشكل كامل وبالتالي لم يكن كيركغارد مخطئاً حين كتب في مرحلة من المراحل: «أنت تعرف طبعي. حين أتحدث معك أتقافز عارياً بالكامل. ومع الآخرين أكون دائماً خبيث الطوية إلى حد كبير».

يعني غياب رسائل بويسن إننا للأسف لا نملك أي فكرة عن رد فعل بويسن حين جنده كيركغارد ليكون جاسوساً. ولكننا عندما نفحص رسالة كيركغارد التالية نستطيع أن نتبين بوضوح إن بويسن جُرح بكل ذلك القدر من عدم الثقة وأبدى بعض الاستياء من الوضع كله، الذي زادته سوءاً حقيقة إن بويسن نفسه كان عاشقاً تعيساً وبالتالي لم يكن ناقص هموم. ولم يكن كيركغارد معنياً على نحو خاص بهذه المشكلة، وأرسل من محل سكنه في برلين علاجاً سحرياً للأزمات الغرامية: «والآن أنتَ نفسك. هل تتحمل أي مسؤولية، هل نكثتَ بأي التزام، وهل تقلق حقاً إذا مررتَ بنافذتها ورأيتَها تضحك؟ أسْمِعها قصائد لكي تجلسْ في الداخل حتى بمزيد من الجمال، وتضحكْ وتبكي وتفعل كل ما تتمناه أنتَ». فات المعنى على بويسن ذي الطبع البارد وبالتالي عديم المرونة. إذ كان يحب بجنون وبحزن وبالتالي لم ينظم قصائد ولا نسي الحبيبة. لذا تعين على كيركغارد أن يستخدم لغة تربوية في رسالته التالية: «إذا لم تتمكن من نسيانها ولا تستطيع إسماعها قصائد، ارفع إذاً كل الأشرعة. كن تجسيداً خالصاً للانتباه. لا تفوِّت فرصة للقائها. المرء دائماً يواجه مصادفات. فاغتنمها... موت ووباء، يا لها من جعجعة بسبب فتاة».

رغم إن كيركغارد كان بالطبع يعرف ما يقوله، وبهذه الحدود يكون بويسن لجأ إلى الشخص المناسب، فإن هناك أسباباً وجيهة للظن بأن كيركغارد كان يحاكي بشكل ساخر المصاعب التي كان هو نفسه غارقاً فيها حتى أُذنه. والحق إن بويسن تأخر «طويلاً» في الرد على هذه الرسالة حتى إن كيركغارد، مدفوعاً بنفاد صبره الخالص، أخضع صبياً مسكيناً يعمل صباغ أحذية لاستجواب مؤلم كي يتحقق مما إذا أودع بالفعل الرسالة التي ائتمنه عليها في صندوق البريد أو نساها في مكان ما لعين في برلين. ولكن بعد شهر تقريباً وصلت رسالة من بويسن، ونعلم من معاينة رد كيركغارد إن صديقه بدأ بالفعل يمارس بعض النشاط الجاسوسي في كوبنهاغن. ولكن كيركغارد ما كان ليكتفي قط وطلب

من بويسن أن يستطلع من رسام البورتريهات بارينتزين الذي كان جار ريجينة وبالتالي «مصدراً جيداً». وتابع كيركغارد: «شيء جيد أن تكرهني العائلة [عائلة أولسن]. فهذا ما كنتُ أنتويه، مثلما كنتُ أنوي أن تكون هي قادرة، إن أمكن، على كرهي. هي لا تعرف ما تدين لي به في هذا الشأن... ولا حتى هنا في برلين كان عقلي المبدع للغاية، مع شديد الأسف، قادراً على الامتناع عن تخطيط شيء أو آخر. كما لا يوجد شيء أكثر إيذاء لفتاة شابة من المواقف نصف المحسومة». وكتب لاحقاً في الرسالة، بكلبية متفهِّمة على نحو خاص: «أنت تفتقر إلى شيء أملُكُه. فأنتَ لم تتعلم أن تزدري العالم، أن ترى كم كل شيء تافه. تقصم ظهرك من أجل شلنات العالم النحاسية... وإذا ظن الناس حينذاك إني مخادع، فماذا في ذلك؟ سأبقى كما كنتُ، قادراً على دراسة الفلسفة، والكتابة، وتدخين السيجار، وأحتقر العالم كله. على أية حال، كنتُ دائماً أضحك على الناس فلماذا لا أضحك عليهم حتى النهاية؟»

كيركغارد يتحدث هنا بصراحة بكل تأكيد. قد يعني أو لا يعني ما يقول ولكن ما يقوله في الرسالة في كل الأحوال يساوي أكثر من أربعة شلنات. ومع ذلك فإن كيركغارد لن يكون كيركغارد إذا لم يعرف كيف يحقق رصيداً مباشراً من صراحته فكُتبت المعلومات التالية على ورقة منفصلة أرفقها برسالته: «لا وقت عندي للزواج. ولكن هنا في برلين توجد مغنية من فيينا، مادموزيل شولتس، تقوم بدور ألفيرا ولها شبه لافت بفتاة شابة معينة... وحين يغلبني جموح روحي أكاد أنساق إلى إغراء مفاتحتها وبنيّات ليست «شريفة تماماً»... قد يكون ذلك شيئاً من اللهو عندما أتعب من الفكر التأملي... لكني لا أُريدك أن تذكر لأي أحد أنّ هناك مغنية كهذه في برلين أو أنها تقوم بدور ألفيرا، إلخ».

قصاصة ورق ذكية بلا ريب، لأن افتتان كيركغارد بمادموزيل شولتس ما كان يُراد له أن يبقى سراً بطبيعة الحال. ولو كان كيركغارد حقاً يريد التكتم لأهمل من جانبه أن يكتب ذلك على ورقة منفصلة يمكن أن تقع بأيدي أشخاص غير مخولين، بل على العكس. إذ كان القصد أن يُستدرَج بويسن إلى ترويج المعلومات التي ائتُمن عليها. وكان كيركغارد يدرك تماماً أن بوابات الأقاويل فُتحت عندما غادر كوبنهاغن. وقبل مغادرته بوقت قصير سمع إن سيبِّرن لا يعدم وسيلة للنيل من سمعته بلا كلل، واصفاً إياه بأنه «صاحب مفارقات بالمعنى السلبي للكلمة». إشارة واحدة في الوقت المناسب والمكان المناسب

كافية لأن تدور طاحونة الشائعات المغرضة بسرعة حتى أكبر وتضخ التفاصيل المثيرة عن مادموزيل شولتس باتجاه ريجينة التي لن يسرها أن تسمع إن لها ضرة إيروتيكية في برلين، ولذلك ستكره حبيبها الخائن بشدة مضاعفة، ويكون خلاصها في متناول اليد.

وهكذا تناول بويسن الطُعُم ولا بد إنه استنطق كيركغارد عن شبيهة ريجينة في برلين، ولكن كيركغارد لم يكشف أي شيء واكتفى بالإشارة في رسالته بمناسبة السنة الجديدة إلى أنه ما زال منهمكاً في دروسه التي كان ينكب عليها في مقصورة قرب خشبة المسرح: «بالمناسبة، يجب ألا يمزح المرء بشأن قضية كهذه. فإن للعاطفة ديالكتيكها الفريد، كما هو معروف». وكانت لدى كيركغارد ثقة بمخططاته حتى إنه، عندما ذكر بويسن إن ريجينة بدت مرحة، اضطُر إلى تصحيح انطباع صديقه: «لدى آل أولسن قدرات كبيرة على التمويه، وعلاقتهم بي لم تنتقص بكل تأكيد من براعتهم هذه».

ولا علاقة كيركغارد بنفسه انتقصت من براعته في التمويه، ولكن كما يحدث في أحيان كثيرة فإن الخداع وخداع النفس يسيران يداً بيد، يرافقان كيركغارد في عالم غير موثوق بالمرة. وكان دائماً يُضطَر إلى التستر على نفسه واختيار موقفه بعناية فائقة وحساب النتائج المحتملة حتى لأبسط ما يتفوه به من كلمات عفوية ليست ذات أهمية. وعلى حد تعبيره في رسالته الخامسة إلى بويسن: «هنا في برلين عندما أتصل بدنماركيين أكون دائماً منبسط الأسارير، سعيداً، منتعشاً، أقضي أسعد الأوقات، إلخ. ورغم إن تيارات تتدفق داخلي بحيث يكون الأمر أحياناً وكأن مشاعر، مثل الماء المتدفق، ستكسر الجليد الذي أحطتُ نفسي به – ورغم إن حسرة تكون في داخلي بين حين وآخر فما أن يكون أحد ما حاضراً حتى تتحول كل حسرة إلى شيء ذي مفارقة، طرافة، إلخ... هنا [في برلين] الحسرة قد تمثل في الحقيقة شيئاً مختلفاً تماماً، يمكن أن تصل إلى أذن دنماركي، وسيكتب إلى الأهل عنها. وربما تسمع هي بها، وقد يكون لها وقعٌ مؤذٍ». وبعد أسطر قليلة من الرسالة نفسها: «كنتُ مريضاً، أي كانت عندي أوجاع رأس روماتويدية كثيرة، وكنتُ في أحيان كثيرة لا أنام الليل... وإذا طلبتُ طبيباً سيعرف الدنماركيون بذلك على الفور. ربما سيخطر ببال أحدهم أن يكتب للأهل. وسيبلغ ذلك أسماعَها، ويمكن أن يقلقها. لذلك لا أطلب طبيباً، وبعدم طلبي طبيباً أشعر بتحسن لأني أبقى وفياً لمبادئي».

بويسن لم يكن الوحيد الذي يتسلم رسائل من برلين. فإن سيبِّرن تسلم رسالة مكتوبة على الوجه المطلوب والقس بي. جي. سبانغ تسلم رسالة مرحة، وبيتر كريستيان ثلاث رسائل أخوية فُقدت اثنتان منها، وهو ظرف يقرب من التعبير الرمزي عن تطور علاقتهما. ثم هناك الرسائل - عشر رسائل في مجموعها - التي كتبها إلى بنات وأبناء العمومة والخؤولة، وأطفال شقيقته كارل وهنريك ومايكل وصوفي وهنريته (المعروفة بلقب يتّي)، وفيلهلم، الذين كنيتهم كلهم لوند، أكبرهم سناً في الخامسة عشرة وأصغرهم في العاشرة. وإذا اعتمدنا على ما تذكرته يتّي في مذكراتها قبل فترة قصيرة على وفاتها في عام 1909 فإن هذه المراسلات الكثيرة كانت ثمرة وعد قُطع في لقاء مسائي صغير في بيت العائلة الكائن في نيتورف قبل أيام على مغادرته، عندما انتابته فجأة نوبة بكاء حادة سرعان ما انتقلت إلى الأطفال الذين وعدوا، بأدب جم، عمهم وخالهم سورين أن يراسلوه بانتظام بكل تأكيد.

لم تبق أي رسالة من رسائلهم التي كتبوها كما وعدوا ولكننا نستطيع أن نرى من ردود كيركغارد إنهم في الحقيقة لم يعرفوا ما يقولونه. والرسائل التي دبجوها كانت في أحيان كثيرة ركيكة. وعلى سبيل المثال إن كارل ابن الأحد عشر عاماً علم بمزيج من المفاجأة والبلبلة إن خاله الذي كان تعيساً في ذلك المساء، تمالك نفسه الآن إلى حد لم يتمكن معه من الاقتباس بالألمانية واللاتينية فحسب بل كان قادراً ببرود على تصحيح أخطاء كارل الإملائية أيضاً عندما كتب «ماصخ» بدلاً من «مَصَح». ومع ذلك أنهى الخال سورين رسالته بالكلمات: «امضِ قدماً واكتب عن كل ما يخطر بذهنك، ولا تخجل. رسائلك دائماً موضع ترحيب». وكان دافع أناني قطعاً يختفي وراء هذه الالتفاتة الكريمة في الظاهر لأنه إذا تجشم كيركغارد عناء التراسل مع أُمي مثل كارل فلأنه كان يريد أن يعرف كيف هي الأحوال مع ريجينة! ويصبح هذا واضحاً عندما نقرأ رسالته الثانية إلى بويسن التي كُتبت قبل أكثر من ثلاثة أسابيع على الرسالة الأولى إلى أطفال شقيقته: «من بين كل الأشياء التي تكتبون عنها هناك فقرة واحدة تقلقني قليلاً، وهي أن يزورها هنريك ومايكل، إلخ. إنها ذكية، وعام تحت رعايتي لم يجعلها أكثر سذاجة بل علّمها، من بين أشياء أخرى، إني أُلاحظ حتى أتفه الأشياء التافهة. يجب تبديل خطة عملي مع الأطفال. يؤلمني ذلك ولكني لا أثق بأحد».

ليس واضحاً تماماً مم تتكون «خطة العمل» آنفة الذكر ولكن ما يبدو مؤكداً إن بنات وأبناء الأشقاء والشقيقات قاموا دون أن يدروا بدور ستة جواسيس صغار من السهل خداعهم في خدمة قضية أسمى. ومن المؤكد أن نشاطاتهم لم تكن مهمة بحد ذاتها ولكنهم، كحلقات وصل بين الثنائي المتباعدين، كانوا مهمين بما فيه الكفاية حتى إنهم، إذا دعت الضرورة، سيكونون جاهزين للخدمة بمثابة سفراء لإعادة الوصل. وهكذا كان بمقدور كيركغارد أن يعلن في رسالته قبل الأخيرة إلى بويسن: «في حالة عودتي إليها أُريد أن أضم المخلوقات الصغيرة الذين تعلمتَ أن تحبهم من خلالي، أي أبناء أشقائي وشقيقاتي الأربعة وابنتي أشقائي وشقيقاتي الاثنتين. ولهذه الغاية حافظتُ على التراسل المستمر معهم، مع قدر من التضحية بالوقت في أحيان كثيرة. وبالطبع، فإني، لصرف الانتباه، أوحيتُ بأن هذا نوع من غرابة الأطوار من جانبي».

«الجمالي فوق كل طبيعتي»

لم يكن كيركغارد كيَّاداً في رسائله إلى بويسن كما كان في رسائله إلى أبناء وبنات أشقائه وشقيقاته. ومقابل استعداد بويسن للمشي بمحاذاة جدران البيوت في كوبنهاغن والمراقبة من النوافذ واستنطاق رسام بورتريهات وترويج شائعات عن مادموزيل شولتس، منحه صديقه المغترب نوعاً من العلاقة السرية. وكتب كيركغارد في رسالته الرابعة إلى بويسن بكل صراحة: «بقدر ما أعتقد أنّي عاشق استثنائي، أعرف أيضاً إني زوج سيئ وسأكون دائماً زوجاً سيئاً. وا أسفاه! إنها الصفة الوحيدة التي دائماً أو عادة تقف في علاقة مقلوبة مع الصفات الأخرى... وأنا إذ أقول ذلك لا أستهين بنفسي ولكن حياتي الفكرية وجدارتي كزوج لا تتوافقان مع إحداهما الأخرى».

تطرق كيركغارد هنا إلى ما كان بلا ريب واحداً من الدوافع الرئيسية وراء قطع العلاقة مع ريجينة. أراد أن يكون كاتباً وليس زوجاً. وهكذا فإنه، في سبيل الجماليات، ارتكب ذنباً كان من المستحيل على الدين أو الفلسفة أن يغفراه له. وكان هذا (من بين أشياء أخرى) مكمن صراع كيركغارد. وفي رسالة لاحقة كتب بصراحة إنه سيكون «عذاباً لها مدى الحياة» وفي زلة قلم كاشفة بروعة أضاف «من بركات الله إني لم أفسخ الخطوبة من أجلها» – ولكن هذا لم يكن القصد من بركة الله لأن ضمير المؤنث في «من أجلها» حُذف واستعيض عنه

بضمير المتكلم «من أجلي»! ثم أتى الاعتراف سريعاً وعارماً، في طوفان: «أنتَ بخلافي أنا، لستَ - أحسب إنك ستتفق معي ولا تأخذ على خاطرك - لستَ معتاداً على أن تمسك حياتك شعرياً بيدك... وهكذا، كما ترى، فإن ما يوفر مناسبة لسوء الفهم أن تثير قصة حياتك الغرامية في هذا الشأن. أنا لا أعرف شيئاً عن هذه العلاقات البائسة - علاقتي بها ذات نوع من الواقع مختلف تماماً... يبدو أنّك مستجد. لديك مشاعر. وأنا لدي عاطفة. ولكن فهمي متوَّج فوق عاطفتي ومع ذلك فإن فهمي ذاته عاطفة... أميل صديقي، تعلَّم على الأقل شيئاً بسيطاً من مثالي أنا».

لا نستطيع أن نلوم بويسن على الإطلاق إذا شعر بالأذى لرؤية تصويره هاوياً كئيباً تتقاذفه عواطفه الآنية ذات اليمين وذات الشمال مع كل نسمة إيروتيكية عابرة. وأقر كيركغارد في رسالته التالية إنه ربما كان متسرعاً في اختياره للكلمات ولكنه ظل يؤكد إن بويسن، بكل بساطة، لم يستوعب «مربط الفرس». وكان هذا مفهوماً بكل تأكيد لأن دوافع كيركغارد يمكن أن تكون صعبة على الفهم: «أنا مولود للألغاز، للتعقيدات، للعلاقات الغريبة، إلخ، التي ربما لن تكون كلها بهذه الغرابة لو لم أكن بهذا التكوين الغريب، ولا سيّما لو لم أمتلك ما أُسميه البرود العاطفي الذي أُسيطر به على أمزجتي... وهذه القضية التي جرى التعامل معها في أحيان كثيرة بما فيه الكفاية الآن، قضية ذات وجهين، أخلاقي وجمالي. ولو كانت هي قادرة على الامتناع عن النظر إلى الموقف هذه النظرة الشخصية، أو لو إنه كان بمثابة دافع لتسلقها أعلى مما تسلقته، لأُلغي العامل الأخلاقي - وبقيتُ مع العامل الجمالي وحده... فالجمالي فوق كل طبيعتي. وما أن يفرض الأخلاقي نفسه حتى يكتسب بسهولة سلطة كبرى عليَّ، وأصبح شخصاً مختلفاً بالكامل، لا أعرف حدوداً لما قد تكون واجباتي، إلخ».

لاحقاً استهلك كيركغارد الكثير من الطاقة الخطابية محاولاً أن يحمل قراءه على النأي بأنفسهم عما يقوله هنا: الجمالي هو مكانه الطبيعي، وشهوة الكتابة عاطفة لا تُغتَفر. وأصبح هذا قدر ريجينة. ومما له مغزاه إن رسالة طلب فيها من بويسن أن يبعث إليه بنسخة من كتاب «الحب الأول»، كانت موقعة باسم فارينلي Farinelli. صحيح إنه شطب الاسم ولكنه موجود في كل الأحوال. وكان فارينلي أشهر المغنين المخصيين الإيطاليين، وسطع نجمه في أوروبا، وأمضى عشرين سنة في إسبانيا حيث بدد حزن العاهل المجنون الملك فيليب

الخامس بأداء أربع أغانٍ يكررها نفسها كل مساء. وهكذا كان كيركغارد بتوقيعه باسم فارينلي يعترف إنه هو أيضاً ضحى بعاطفته الإيروتيكية من أجل الفن.

من نواحٍ عديدة كان فارينلي هذا هو الذي كتب يوميات كيركغارد في تلك الفترة، عاشقٍ مخصي استخدم «السكين» لكنه مع ذلك مفعم بالشوق إلى متعة الحب المفقودة. وهكذا فإن يوميات كيركغارد من تلك الفترة، بخلاف رسائله الحازمة والحدية إلى بويسن، يمكن أن تبدو مترددة تماماً: «بذلك تكون القضية حُسمت مرة وإلى الأبد، ومع ذلك لن أفرغ منها أبداً. ليس لديها فكرة أي نمط من المحامين عندها فيَّ أنا. كانت ذكية وفي الفراق طلبت مني أن أتذكرها على الأقل بين حين وآخر. كانت تعرف حق المعرفة إني ما أن أتذكرها حتى تكون هناك متاعب عليَّ مواجهتها». وبالفعل كان كيركغارد معذباً بأفكار الانتحار وتخيلات محمومة برؤية ريجينة مرة أخرى: اقتربت منه في هيئة مزدوجة، حيوية، هادئة وشفافة لكنها شاحبة، منكفئة، وذاوية، دمرها الأسى على حبيبها غير الوفي. ولن يكون المرء مخطئاً إذا وجد هنا جرثومة تلك «الادعاءات العصبية» وسبب ذلك «السُهاد» الذي شكا منه كيركغارد في رسائله إلى بويسن.

الصراع بين التفكير الشيطاني والآنية الخفيفة موضوعة متكررة في هذه المونولوجات الحزينة. والذي لا قلب له وحده الذي يمكن أن يشك في صدقها ولكنها مونولوجات تدور بدقة أدبية حتى إن البراعة الفنية تقلل أحياناً من تعاطف المرء مع العاشق التعيس: «يقولون إن الحب يعمي. إنه يفعل أكثر من ذلك - يسبب لك الصمم ويجعلك كسيحاً. الشخص المبتلي به يكون مثل نبتة الميموزا التي تنغلق بحيث لا يستطيع خبير أقفال أن يفتحها، وكلما استُخدمت قوة أكبر زاد انغلاقها إحكاماً». وكيركغارد انغلق على نفسه ولذلك كلما زادت محاولاته الانفتاح في يومياته قلَّت الاعترافات التي وجدت طريقها إلى الورق.

لأنه حيث لا يستطيع المرء أن يتكلم يجب أن يبقى صامتاً. وإذا لم يتمكن المرء من السكوت يجب أن يلوذ بالشعر.

سائح بالصدفة

كان كيركغارد بعيداً عن كونه سائحاً بالمعنى التقليدي للكلمة: كتب بعد بضعة أسطر من رسالته إلى بويسن «إن السياحة حماقة». وعلى متن سفينة البريد البخارية كان هناك عدة مسافرين من لابلاند يعزفون على آلاتهم

الموسيقية ألحاناً حزينة تحت ضوء القمر فيما كان كيركغارد يرنو بأنظاره إلى البحر الهادئ، الأسود في ظلام الليل. ولاحقاً نزل إلى مقصورته وكتب: «لا غرو بكل تأكيد إنهم يسمون البحر «أم الجميع»، لأنه يهدهد سفينة بين أحضانه الأمومية على هذا النحو». وكانت فقرة أطول من اليوميات تدور حول ريجينة التي وضع تفانيها في مواجهة تذبذبه هو والخيالات الحزينة التي كانت تؤرقه مصحوبة بالصوت الهادر «لحركات السفينة البخارية المزدوجة».

كما إن برلين حيث مكث كيركغارد أكثر من أربعة أشهر (من 25 تشرين الأول/ أكتوبر 1841 حتى 6 آذار/ مارس 1842) لم تشغل حيزاً يُذكر من يومياته. وحتى عندما نلم ونجمع كل الأشطار المتناثرة هنا وهناك في يومياته والمذكورة في رسائله، تكون حصيلتنا صورة صغيرة هزيلة. فإن معالم ثقافية مثل دار الأوبرا والمتحف والمسرح ذات ألق يفوق بكل تأكيد ما يمكن أن تقدمه كوبنهاغن، لا تظهر إلا هامشياً بالمعنى الحرفي للكلمة - أي على الهوامش التوضيحية للقرطاسية التي استخدمها كيركغارد في الكتابة إلى ابنة شقيقته يتّي بمناسبة عيد ميلادها. وفي هذه الرسالة نفسها يُذكَر شارع كونيش شتراسة وجادة أُونتر دن ليندن، ولكن بشكل عابر فقط. وفي رسالته إلى كارل يروي الخال سورين كإحدى الغرائب حقيقة إن كلاباً تجر في برلين العربات الصغيرة التي تنقل الحليب إلى المدينة من المزارع، وإن المزارع وزوجته يركبان العربة أحياناً، الأمر الذي يزيد المشهد طرافة. وكتب كيركغارد إن هناك بالطبع حديقة الحيوانات المليئة بسناجب صاخبة وتخترقها قناة كبيرة تشبه على نحو ما القناة الموجودة في حدائق فريدريكسبيرغ ولكن بماء أنظف وأسماك زينة ذهبية لا تُحصى، تماماً مثل تلك التي يمكن أن يراها كارل في واجهة البقالية الكائنة في شارع نوريغاده، على الجانب الآخر من منزل كيركغارد القديم باتجاه مائل.

المدينة لم تستحق استكشافاً أعمق، لأسباب ليس أقلها - كما أُبلغ القس سبانغ - إنها كانت تتسم بغياب شديد الوطأة لدورات المياه العامة. لذا كان على كيركغارد أن يحسب نصف قطر الدائرة التي يتنزه فيها وفقاً للضغط الواقع على مثانته. «في الساعة العاشرة تماماً أصل إلى ركن معين لكي أتبـ[ــــبول] هناك. وهذه في الحقيقة هي البقعة الوحيدة في هذه المساحة الشاسعة التي لا توجد فيها يافطات لتذكير المرء بما يجب أن يفعله لكنه لا يستطيع أن يفعله... في هذه المدينة الأخلاقية يُجبر المرء عملياً على أن يحمل قنينة في جيبه... وأستطيع

الخوض أبعد في هذه المسألة لأنها تتدخل بطريقة مزعجة في كل ناحية من نواحي الحياة. وعندما يتنزه شخصان معاً في حديقة الحيوانات ويقول أحدهما «اسمح لي أن أغيب لحظة»، يكون ذلك نهاية النزهة لأن عليه أن يقطع الطريق كله عائداً إلى البيت. وتقريباً كل واحد في برلين يجب أن يؤدي هذه المهمات الضرورية». ولكن كانت هناك بقعة واحدة مشرقة. فإن كيركغارد نجح في العثور على متجر جيد للمعجنات هو محل شبارغاناباني الذي يقدم قهوة لا تضاهيها قهوة ومشروب الشوكولاته الساخن، وتتوفر فيها صحف ومجلات لخدمة الزبائن. وكتب سي. دبليو. سمث، الباحث المختص باللغات السلافية، إلى والدته في أواخر كانون الأول/ ديسمبر 1841 إن شخصا يُدعى كيركغارد كان يتمتع في محل شبارغاناباني هذا بـ «شرب كوب من الشوكولاته الفلسفية ويفكر في هيغل دون أن يزعجه أحد». ويتابع سمث: «إن سورين كيركغارد هذا نفسه أغرب مخلوق بين من نعرفهم، عقل لماح، لكنه شديد الغرور والاعتداد بالنفس. دائماً يريد أن يكون مختلفاً عن الآخرين، ويشير هو نفسه دائماً إلى سلوكه الغريب».

كما لم يكن من السهل التواصل في بلد أجنبي. وهكذا على سبيل المثال إن كيركغارد أُحرج عندما دخل مطعماً من الدرجة الأولى ذات مساء مع كارل فايس الخبير بتذوق الأطعمة الفاخرة ولاحقاً رئيس قسم في وزارة الشؤون الكنسية والثقافية الدنماركية: حيا كيركغارد بأدب مجموعة من السادة المتأنقين ببدلات سوداء وربطات عنق بيضاء، وبعد لحظات هرع هؤلاء السادة أنفسهم إلى مائدته لتقديم خدماتهم - بصفتهم نُدُل المطعم! ورغم تلقي كيركغارد دروساً لتعلم اللغة الألمانية ساعة كل يوم فإنه واجه مصاعب في تكلم الألمانية. ولكنها كانت منعشة تماماً في البداية: «بعد تفكيك كل غرزة إبرة في الملابس وعدم امتلاك أي شيء في العالم، ولا حتى أصغر الأشياء، ثم رمي نفسي في الماء، لا شيء يسعدني أكثر من التكلم بلغة أجنبية، ويُفضَّل أن تكون لغة حية لكي تصبح غريبة تماماً عليَّ». ولكن بعد أسبوعين لا أكثر أصبحت الغريبة لعنة: «أستطيع حقاً أن أرى كم كانت اللغة مهمة لي كي أخفي مالنخوليتي السوداء. وهذا مستحيل عليَّ هنا في برلين - لا أستطيع الخداع مع اللغة». فحتى شيء ابتدائي مثل طلب إحضار شمعدان من صاحب الفندق كان يتطلب مجهوداً خارقاً تقريباً. وحقيقة إن صاحب الفندق هذا كان مصاص دماء لا يستحي، لم تفعل شيئاً لجعل الوضع يطاق - حتى عندما عمد إلى ترقية كيركغارد من

ماجستير إلى دكتور ثم إلى بروفيسور كنوع من التعويض عن الزيادات في أجور غرفته! وفي بداية السنة الجديدة، حين لم يعد كيركغارد قادراً على تحمل مزيد من الترقيات، انتقل إلى فندق ساكسن في ركن شارع ييغر وشارع شارلوت، مرة أخرى على الطابق الأول من المبنى.

صاحب الفندق الذي مكث فيه كيركغارد لم يكن المحتال الوحيد - إذ كان الجو شديد التقلب أيضاً. فإما ريح الشرق تأتي ببرد قارص أو ريح الغرب تسبب ذوبان كل شيء واختفاءه في ضباب كثيف: «برلين تقع في مستنقع. وما عليك إلا أن تغرس إصبعك في التربة حتى ينبجس الماء». بقي كيركغارد بتعقل داخل الفندق وبعمله هذا تجنب أيضاً اللقاء دون ضرورة بمواطني بلده «الذين أعدادهم لا تُصدَّق كأعداد الجراد المصري». كان يتناول وجباته في الفندق حيث الطعام ممتاز والأسعار معقولة. ولكنه شذ عن القاعدة عشية السنة الجديدة وشارك في الاحتفالات التي أُقيمت في مكان التجمع المعروف باسم بيلفدير حيث كانت الأجواء مرحة على ما يبدو: «سعينا على الأخص لإدخال البهجة في نفوسنا واستحضار ذكريات الوطن بأكل فطائر التفاح». وقرر كيركغارد أن يقدم لنفسه هدية صغيرة بمناسبة السنة الجديدة. وكان وضع عينَه منذ فترة طويلة على عصا مشي رشيقة معروفة في واجهة متجر للمصنوعات الحرفية، ولفترة طويلة اكتفى بالمرور أمام موضوع رغبته. «أخيراً، بلغت رغبتي ذات يوم مستويات حتى إني دلفت المتجر. وحين كنتُ أهم بغلق الباب إذا بزجاج النافذة يتهشم، وبعدها قررتُ أن أدفع ثمن الزجاج ولا أشتري العصا».

تحطُّمُ زجاج النافذة يكاد يكون رمزاً لعلاقة كيركغارد بالمحاضرات التي كانت السبب الرسمي لرحلته. وفي رسالة إلى سيبِّرن بتاريخ 15 كانون الأول/ ديسمبر 1841 قدم تقريراً مستفيضاً بعض الشيء عن الفصل الدراسي الذي أمضاه في برلين. وكان هنريك شتفينز Henrik Stefens، المحاضر الذي لا يُدانى على ما يُفترض والذي اشترى كيركغارد نسخة من كتابه «كاريكاتيرات لما هو أقدس الأقداس» في منتصف كانون الثاني/ يناير 1836 وقرأه بحماسة شديدة، يحاضر الآن بلا ثقة وبتردد عن عمله «الأنثروبولوجيا» الذي كتبه قبل نحو عشرين عاماً. كان شتفينز مشتت الذهن على الدوام. والآن في سن الثامنة والستين، كان أكثر تشتتاً من أي وقت مضى، ولم يتمكن كيركغارد من متابعة الخطوط العامة لمحاجَّته: «الشوارع عريضة جداً عليَّ، وكذلك محاضرات

شتفينز. فالمرء لا يستطيع أن يرى من جانب الجانب الآخر، مثل محاضرات شتفينز تماماً». كما كتب كيركغارد إلى سيبَّرن عن خيبة أمله بشتفينز الذي سمع عنه سيبَّرن نفسه في بريسلاو قبل جيل، حين وصف تلك المحاضرات بحماسة في رسائله إلى «ريجينته» التي كان اسمها الحقيقي صوفي أورستيد، شقيقة الشاعر آدم أوهليشليغر وزوجه الحقوقي أي. أس. أورستيد.

كانت الأمور مختلفة، في البداية على الأقل، مع الهيغلي كارل فيردر Karl Werder الذي كانت محاضراته عن المنطق والميتافيزيقيا مؤثرة خطابياً حتى إن ظنوناً خبيثة وغامضة ساورت كيركغارد بأن الرجل لا بد أن يكون يهودياً «لأن اليهود المعمَّدين دائماً يميزون أنفسهم ببراعتهم». وكان فيردر يستطيع أن يرقص ويمرح، مثل بهلوان، بأكثر المقولات تجريداً، ورغم حقيقة إنه كان يتكلم كما يتكلم المهذار الآلي فإن أحداً لم يتمكن قط من ضبطه متلبساً بزلة لسان. ومع ذلك لم يمض وقت طويل حتى سأم كيركغارد من براعة فيردر التي تذكِّره بالرجل القوي في مدينة الملاهي المسماة «حديقة الغزلان»، حيث كان يلعب بـ «كرات تزن عشرين، ثلاثين، أربعين رطلاً»، كانت للأسف، مثل كرات فيردر، مصنوعة من عجينة الورق».

ثم كان هناك فريدريك شيلنغ Friedrich Schelling، وهو رجل خجول لكنه ربما أعظم فلاسفة الرومانسية، كان في عام 1841 انتدب لتوه إلى برلين لمكافحة الهيغلية الشاملة، ويحاضر الآن في قاعة غاصة بالجمهور عن «فلسفة التنزيل». كان الجمهور غفيراً، وكذلك الضجيج، وحضر كثيرون بلا جدوى فاضطروا للوقوف خارج القاعة يطرقون نوافذها أطول وقت ممكن. فكر كيركغارد في ترك محاضرة شيلنغ فور اختتام محاضرته التمهيدية في 15 تشرين الثاني/ نوفمبر ولكنه قرر البقاء رغم كل شيء. وحسناً فعل لأن معجزة صغيرة حدثت في الحقيقة خلال المحاضرة الثانية: «أنا في منتهى السعادة لاستماعي إلى محاضرة شيلنغ الثانية – سعيد إلى حد لا يُصدَّق. تأوهتُ فترة طويلة، والأفكار داخلي كانت تتأوه من شدة الألم. ثم تفوه بمفردة «الحقيقة» الفعلية، عن علاقة الفلسفة بالحقيقة، فقفزَتْ الفكرة الجنينية التي لم تولد بعد في داخلي من شدة الفرح كما في إليزابيث. تذكرتُ تقريباً كل كلمة قالها من تلك اللحظة فلاحقاً. ها هنا من الجائز أن ينبثق الوضوح. كلمة واحدة ذكرتني بكل معاناتي وعذاباتي الفلسفية... الآن علقت كل آمالي على شيلنغ».

لكن الأشهر التالية بددت هذه الآمال. وفي الرسائل المكتوبة من أوائل 1842 كان شيلنغ يُشبَّه بصانع «خل» حامض، وهو «انطباع تضخم صوتياً حين سمعناه يقول Ich werde morgen fortfahren [بالألمانية: سأواصل غداً] (بخلاف أهل برلين الذين يلفظون حرف g مخففاً جداً فإنه يلفظه مغلظاً جداً مثل حرف k في morken). ذات يوم جاء شيلنغ متأخراً نصف ساعة وبشراسة أنحى باللائمة على برلين التي لا توجد فيها ساعات عمومية. وعندما اقترح أن يحاضر أطول من الساعة المقررة كنوع من التعويض عن التأخير، أخذ الجمهور يطلق صيحات تنم عن عدم احترام». واستشاط شيلنغ غضباً وصرخ: «إذا لم يعجب سادتي الحضور أن أُحاضر أستطيع أن أتوقف بكل سرور – Ich werde morgen fortfaren [سأواصل غداً]، بحلول 3 شباط/ فبراير 1842، بعد أن تابع كيركغارد 41 محاضرة ولخصها بأناقة في دفاتره الصغيرة، بلغ نقطة الإشباع. وكان على شيلنغ أن يواصل محاضراته غداً إثر غدٍ بتفخيم حرف g في كلمة غداً الألمانية morken بحضور عدد يقل شخصاً واحداً في القاعة. ولاحظ كيركغارد برعب قبل ثلاثة أيام على قراره إن شيلنغ يحاضر الآن «لمدة ساعتين متواصلة»، أو ساعة على الأقل أطول مما ينبغي. وبعد فترة ليست طويلة على ذلك لاحظ كيركغارد في رسالة إلى بيتر كريستيان: «إن شيلنغ يتقيأ هذراً لا يُطاق إلى أقصى الحدود... والأنكى من ذلك خطرت بباله الآن فكرة أن يحاضر أطول من المعتاد، الأمر الذي أوحى لي بفكرة ألا أستمع إليه بعد الآن... أنا أكبر سناً من أن أستمع إلى محاضرات مثلما إن شيلنغ أكبر سناً من أن يلقيها. مذهبه في القوى الرجولية بأكمله يكشف عن أعلى درجات العقم».

المفارقة إن في هذه المحاضرات على وجه التحديد صاغ شيلنغ سلسلة من النقاط المضادة لهيغل مهدت الطريق للنقد الذي وجهه كيركغارد لاحقاً إلى «اللاما الكبير» كما كان الطلاب الجامعيون يسمون هيغل. ولكن لا يمكن أن نتوقع إن كيركغارد أو شيلنغ كانا يعرفان ذلك في عام 1841. وإذا كان شيلنغ في الحقيقة يتقيأ هذراً بشكل لا يُطاق كما ذهب كيركغارد فالغريب إنه طيلة الفصل الدراسي استمر في إلقاء محاضراته أمام قاعة تغص بالحاضرين. وإن آخرين قيموا إنجازات شيلنغ تقييماً مختلفاً تماماً، على سبيل المثال مارتنسن الذي استمع خلال جولته الدراسية إلى شيلنغ يحاضر في ميونيخ واستذكر الآتي في هذا الشأن: هذا الرجل يعرف كيف يحاضر. ويجب النظر إليه بكل تأكيد على أنه من أكبر المحاضرين الذين يمكن أن تتباهى الجامعات بهم...

كان انسياباً هادئاً إلى الأمام، في تطور تصاعدي منهجياً نقطة فنقطة - رغم إن العرض بأكمله كان مشفوعاً ومستنيراً كله برؤية خلاقة لامعة. هنا كان اتحاد رائع بين العبقرية والرصانة. وعلى غرار كيركغارد أخذ مارتنسن على شيلنغ تلفظه الخشن: كان هناك شيء منتفخ في صوته، وكان يتلفظ بعض الكلمات بنبرة لن ينساها مستمعوه مثل das unvordenkliche Sein [بالألمانية: وجود ضروري لا مفر منه أو «كينونة من غابر الزمان]».

ليس مستبعداً، بالطبع، إن شيلنغ مر في السنوات التالية بتحول إلى اللغو في الكلام ولكن عندما توقف كيركغارد عن متابعة محاضراته كان السبب بسيطاً: إن كيركغارد نفسه كان مخطوباً. ومنذ منتصف كانون الأول/ ديسمبر أبلغ بويسن: «أكتبُ كالمجنون. كتبتُ الآن أربعة عشر توقيعاً مطبوعاً. وبذلك أنهيتُ جزءاً من مبحث volente deo [باللاتينية إن شاء الله] سأضعه بين يديك ذات يوم». وفي هذا الوقت كان بويسن نفسه يشتغل على كتابة رواية قصيرة وقفت عقبة في طريقه، فكان من المفهوم أن يثير فضوله تباهي كيركغارد بالتواقيع الأربعة عشر - تعادل 224 صفحة: تسألني ما أشتغل عليه. الجواب: سيكون في غاية التعقيد أن أحدّثكَ عنه الآن - وأكتفي بهذا القدر، إنه مواصلة تطوير «إما/ أو». وطالب كيركغارد بأن يتكتم بويسن على ذلك ولا يفتح فمه: «بقاء الهوية مجهولة يتسم بأعظم أهمية عندي» - وقصر نفسه على أن يلاحظ بشأن عنوان الكتاب إنه عنوان «ممتاز تماماً». وفي منتصف كانون الثاني/ يناير تسلم بويسن تقريراً آخر من آلة الكتابة الموجودة في برلين: أشتغل بمثابرة. جسدي لا يستطيع أن يتحمل. تستطيع أن ترى إني لم أتغير، وأقول لك إني كتبت من جديد قسماً كبيراً من قطعة هي «إما/ أو». لم تكن الكتابة بتلك السرعة ولكن السبب إنها ليست طرحاً لوجهة نظر بل نتاج شعري محض يضع مطالب محدَّدة تماماً على الشخص بأن يكون بالمزاج المناسب... أنتَ معتاد على رؤية عملي قيد الإنتاج. هذه المرة تختلف. وحين أستخرج مخطوطاتي في النهاية وأقرأ لك أربعة عشر أو عشرين توقيعاً، فما رأيك بذلك؟ الشجاعة يا أنتونيوس. هذه بمعنى ما أوقات عصيبة، وبعض الأقسام التي أشتغل عليها تتطلب روحي كلها، فطنتي كلها، أينما أستطيع أن أجدها.

في الرسالة التالية توسع كيركغارد في قائمة مكابداته: «زكام، أرق جزئي، تصنعات متوترة، توقعات خائبة بشأن شيلنغ، تشوش أفكاري الفلسفية، عدم

وجود ملهّيات، عدم وجود معارضة تحفزني». ثم قدم تقريراً عما تحقق من تقدم: «هذا الشتاء في برلين سيكون دائماً بالغ الأهمية لي. أنجزتُ الكثير. وحين تأخذ في الاعتبار إني كنتُ أحضر ثلاث أو أربع ساعات من المحاضرات كل يوم ودروساً باللغة لمدة ساعة يومياً، ومع ذلك كتبتُ الكثير... ومارستُ شيئاً من القراءة، لا يكون لدي ما أشكو منه». ولكنه شكا مع ذلك: «أنا حقاً لا أستطيع أن أتصور كيف كنتُ قادراً على تحمل هذه العبودية هنا في برلين طيلة هذا الوقت. لا وقت لنفسي إلا أيام الآحاد، لا سفرات ولا ترفيه يُذكر. شكراً على أية حال، ولكن كلا! أنا طفل يوم الأحد، وهذا يعني أن تكون عندي ستة أيام راحة وأشتغل يوماً واحداً في الأسبوع». وهكذا يريد المليونير المغترب الآن أن يعود إلى أهله: «أفتقد حوذي عربتي، خادمي، عربتي اللنداوية المريحة، جولاتي السهلة في مناطق زيلاندتنا الجميلة، الابتسامات المرحة للفتيات الشابات التي أعرف كيف أُسخرها لصالحي دون أن أُلحق بهن أي أذى».

قبل أربعة أيام على مغادرته أرسل آخر رسائله السبع إلى بويسن: ولكن كما تفهم جيداً فإني لا أُغادر برلين مسرعاً إلى كوبنهاغن لأكون أسير ارتباطات جديدة. كلا، أنا أحتاج إلى حريتي. وأشعر بذلك الآن أكثر من أي وقت مضى. شخص بغرابة أطواري ينبغي أن يتمتع بحريته إلى أن يصادف قوة لديها القدرة على ربطه. أنا قادم إلى كوبنهاغن لإنجاز «إما/ أو». هذه أعز فكرة عندي وأنا أعيش من أجلها. سترى إن هذه الفكرة فكرة لا يُستهان بها. حياتي يجب ألا تعتبر بأي حال مكتمِلة في هذه المرحلة. أشعر بأني ما زلتُ أمتلك أرصدة داخلية كبيرة. لعل هذه كانت كلمات فخمة لشهر شباط/ فبراير ولكن كيركغارد في الحقيقة لم يغالِ في طرح قضيته بل إن الماجستير ابن التاسعة والعشرين كان قادراً، عندما رست السفينة البخارية كريستيان الثامن في كوبنهاغن يوم 6 آذار/ مارس 1842، على أن ينزل بتؤدة سُلّم السفينة حاملاً القسم الأعظم من مخطوطة «إما/ أو» في حقيبته.

كان تأليف الأقسام المختلفة مكتملاً من حيث الأساس، وبالتسلسل التالي: «الحب الأول»، «المأساوي في الدراما القديمة معكوساً في المأساوي في الدراما الحديثة»، زائد ما لا يقل عن نصف «يوميات الغاوي»، أُنجزت بحلول 14 نيسان/ أبريل 1842. وبعد شهرين، في 13 حزيران/ يونيو، أنجز القسم الموسوم «المراحل الإيروتيكية الآنية» في حين إن «ظلال» و«الأكثر تعاسة»

أُنجزا في وقت لاحق من الشهر نفسه. وكان القسم الموسوم «تدوير المحاصيل» موجوداً بخطوطه العامة حتى قبل أن يغادر إلى برلين. وهكذا كانت الحال مع «المشروعية الجمالية للزواج»، الذي كان مصدره مخطوطة بعنوان «محاولة لإنقاذ الزواج جمالياً». وكان القسم الموسوم «التوازن بين الجمالي والأخلاقي في تنمية الشخصية» أُنجز على ما يُفترض في أيلول/ سبتمبر 1842. ونجد الخطوط العريضة للقسم «إنذار نهائي» في مسودة من أيام كيركغارد في معهد اللاهوت الرعوي في حين إن غالبية «ديابسلماتا» (ديابسلماتا diapsalmata هي اللازمة في نهاية كل مزمور من مزامير داود) تنبع من يومياته هو.

حين رد كيركغارد فيما بعد على الشكوك القائلة إن عمله «إما/ أو» ليس إلا «مجموعة من الأوراق السائبة كانت مركونة في مكتبي» وأصر على أن الكتاب أُنجز «من ألفه إلى يائه في أحد عشر شهراً، وإن صفحة واحدة على الأكثر (من ديابسلماتا) كانت موجودة من قبل»، كان ذلك تبجحاً أدبياً أكثر منه حقيقة موثّقة. كما إن الأمر يتطلب شيئاً من الكرم الاستعاري للموافقة على الادعاء الذي أطلقه في المناسبة نفسها التي قال فيها الملاحظة آنفة الذكر، بأن العمل كُتب في معهد لاهوتي. ولا إن كيركغارد عمل بمفرده على إنجاز الكتاب. فالنسخة النهائية لهذه المخطوطة الضخمة أنتجها «سكرتيري الصغير مستر كريستنسن» كما كان يسمي بيتر فيلهلم كريستنسن Wilhelm Christensen، الذي بعد أن اجتاز امتحاناته باللاهوت كان عاطلاً ومتوفراً وفقير الحال مثل فأر الكنيسة. وخلال شتاء 1842-1843 صحح كريستنسن وكيركغارد العمل المطبوع بمساعدة في بعض الأحيان من جي. إف. غيودفاد J. F. Giodwad، رئيس تحرير صحيفة فادريلانديت الذي كان يلتقي في مكتبه الكثير من مثقفي تلك الأيام للدردشة في الصباح. وبحسب هوتر بلوغ Hother Ploug فإن بالإمكان القول إن بروفات كتاب «إما/ أو» قُرِئَتْ في مكاتب صحيفة فادريلانديت، التي لم تكن المكان الأنسب تماماً. وكتب بلوغ بتذمر عن وجود كيركغارد في المكتب: «يجب أن يتخيل المرء كيف يكون الوضع حين يتعين إعداد جريدة في وقت محدَّد - وفي تلك الأيام، كان ذلك الوقت في الساعة الأولى من بعد الظهر لأن مفتش الشرطة يجب أن يرى العدد قبل توزيعه - وأن يكون رجل غير عملي ومستغرق في ذاته، جالساً في المكتب لا يكف عن إلقاء المحاضرات والكلام دون أي إدراك للإزعاج الذي يسببه».

ولكن العمل كله تكلل بالنجاح: في منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر أُنجزت

مقدمة فكتور إريميتا، وبعد ثلاثة أشهر انتهت مطبعة بيانكو لونو من طباعة 838 صفحة. وبعد أقل من أسبوع، في يوم الإثنين، 20 شباط/ فبراير 1843، كان الكتاب الذي طُبعت منه 525 نسخة، موجوداً على الرف في متجر رايتزل لبيع الكتب بسعر أربعة ريكسدولارات واثنين وسبعين شلناً للنسخة.

1843

إما/ أو

«هنا أقف إذاً، وجهاً لوجه مع جمهور القراء في هذه اللحظة المهمة. أعترف باعتلالي: لم أكتب شيئاً، ولا سطراً واحداً. أعترف بضعفي، لا دور لي في الأمر كله، أو في أي منه – لا دور، ولا بأدنى طريقة. كُوني قوية يا روحي: أعترف بأن هناك الكثير مما لم أقرأه».

هذا الاعتراف الذي يعبر عن توبة صاحبه جاء في المقال «اعتراف علني» الذي شعر كيركغارد إنه ملزَم بنشره في صحيفة فادريلاندديت بتاريخ 12 حزيران/ يونيو 1842. وكانت المناسبة إحراجاً له من شرف اعتباره لبعض الوقت «كاتب عدد محترم من المقالات المهمة، الغنية بالمعلومات والطريفة». ولكن هذا التقدير كان بلا أي استحقاق ولذلك طلب كيركغارد بأدب الآن من «الطيبين الذين يبدون اهتماماً بي ألا تعتبروني أبداً كاتب أي شيء لا يحمل اسمي».

يبدو هذا أشد تواضعاً من أن يكون صحيحاً. وفي الحقيقة إنه لم يكن تواضعاً ولا صحيحاً. فإن مقاله «اعتراف علني»، إذ جمع بقدر واحد بين التضليل من جهة وسخرية لاذعة إزاء عصره من الجهة الأخرى، كان في الحقيقة جرعة من الخداع، جزءاً من حملة التسويق الضخمة التي أطلقها كيركغارد خلال الفترة التي سبقت نشر «إما/ أو». وبرؤية الأمر في ضوء وجهة نظر ارتجاعية موثوقة (على ما يُفترض) كتبها في صيف 1848، يكون واضحاً إن سبب تنصله من المسؤولية عن المقالات ذات العلاقة – «التي في الحقيقة لم ينسبها أحد إليّ» – هو زيادة البلبلة (اقرأ: «زبائن متشوقون») التي سيثيرها الاسم المستعار «فكتور إريميتا».

في خاتمة مطولة لمقال كيركغارد «اعتراف علني»، أصدر رداً على فريدريك بيك Frederik Beck الذي كان خصماً من بين الذين حضروا الدفاع عن رسالته الأكاديمية وطور موقفه في مراجعة مستفيضة لعمل كيركغارد «عن مفهوم المفارقة» نُشرت في عددين من صحيفة فادريلاندنديت يومي 29 أيار/ مايو و5 حزيران/ يونيو 1842. كانت المراجعة إيجابية ولكن بيك انتقد في الصحفة الأخيرة لغة الرسالة الأكاديمية. وجد بيك إن العمل يستحق الثناء على «خلوه من اللغة السكولاستية ضيقة الأفق» ولكنه كان يُفضل إعفاءه من «التلميحات والظلال» الكثيرة ذات المصدر الداخلي «لأن ما قد يكون لطيفاً أو مقبولاً في دردشة غير رسمية أو في محادثة أثناء المشي في الشارع، يترك انطباعاً مغايراً تماماً حين يجري التعبير عنه بادعاءات ترافق الصفحة المطبوعة. ولا ينكَر بكل تأكيد إن ذلك يمكن أن يكون مسلياً - وهو بالفعل كان مسلياً لكاتب هذه المراجعة - ولكنه ليس لصالح المؤلف»، كما أوضح بيك. وبعد رد كيركغارد الذي كان هجوماً ديالكتيكياً من نوع لا يُنسى بسهولة كانت التسلية التي وجدها كاتب المراجعة أقل بكثير على الأرجح.

اغتنم كيركغارد الفرصة للفت الانتباه إلى أعماله. وكان هناك المزيد من هذا القبيل. فهناك مخطوطة بعنوان «طلب عاجل» بتوقيع «أس. كيركغارد، magister Artium [باللاتينية: ماجستير بالآداب]، تاريخها 22 شباط/ فبراير 1843 (وبذلك يكون التخطيط لتاريخ النشر أن يأتي مباشرة بعد صدور إما/ أو)، وكتُبت بقصد النشر في جريدة برلينغسكة تيدينذة Berlingske Tidende. وكان «طلب عاجل» موجهاً إلى فكتور إريميتا الذي توسل به كيركغارد أن يتخلّى عن اسمه المستعار «لكي أستطيع مرة أخرى أن أعيش بسلام وهدوء. كما خطط كيركغارد بحيث ينشر فكتور إريميتا على الفور رداً في صحيفة فادريلاندنديت على شكل «رسالة مفتوحة إلى مستر كيركغارد، ماجستير»، يعبر فيها عن التعاطف مع وضع صاحب الماجستير الصعب الذي مع ذلك كان كيركغارد مسؤولاً عنه، بحسب فكتور إريميتا: «هل أنتَ متأكد تماماً من إنك لم تُخدع بحالتك النفسية، بذلك النوع من الوسواس المرضي الذي كثيراً ما يراه المرء في أهل العلم؟ فكلما ازداد اضطراب الشخص بشأن وضعه زادت متعة الآخرين في التمازح معه. فكتور إريميتا من جهته كان مستعداً للمساعدة بكل سرور - لم يكن ذلك مشكلة. المشكلة إن إريميتا أيضاً كان يجهل هوية مؤلفي

الكتاب الحقيقيين ولذلك لم يكن قادراً على الخلوص بيقين إلى أن كيركغارد نفسه قد «لا يكون واحداً منهم». القضية كلها كانت خيالاً محضاً وبتوقيع «خادم الماجستير مع الاحترام، فكتور إريميتا».

كيركغارد لم ينشر قط هذا الحديث الافتراضي مع نفسه. وبعد وفاته عُثر على المقالين بين أوراقه، مطويين بعناية في مظروفيهما. وكان ختم المظروف الذي يحوي «طلب عاجل» مكسوراً وفي داخله رسالة تقول إن على خادم كيركغارد أن يعود فوراً ومعه المقال إذا لم يتمكن ناتانسون Nathanson رئيس تحرير برلينغسكة تيدندة من نشره في جريدته عشية ذلك اليوم. ويبدو أن ناتانسون لم يتمكن من نشر المقال فوراً فترك كيركغارد رد فكتور إريميتا (الرسالة المفتوحة) في دُرج مكتبه، غير مقروء. ولعل ذلك كان من محاسن الصدف لأنه ما من أحد بالتأكيد كان سيجد صعوبة في الخلوص إلى أن فكتور إريميتا يدَّعي إنه محررُ عملٍ كتبه في الواقع شخص من كوبنهاغن يحمل شهادة ماجستير لم يكن، بمرور الوقت، شخصاً مغموراً بالكامل.

ذهب كيركغارد بعمله هذا إلى أقصى الحدود لكنه لم يخرق أياً من قواعد اللعبة الأدبية. إذ كان ذلك الزمن يعج عملياً بالأسماء المزيفة بل إن الكتابة باسم مستعار كادت تصبح شرطاً جمالياً غير منطوق، واستهوى هذا التمويه الأدبي كيركغارد بشدة. ولذلك، بعد أقل من أسبوع على نشر «إما/ أو»، شعر بالحاجة إلى أن يرسل إلى صحيفة فادريلانديت مقالاً طويلاً مغايراً، بل نوعاً من اللغز بعنوان «مَنْ هو مؤلف إما/ أو؟» وباستخدام نتف مختلفة من الأدلة الداخلية والخارجية يحاول المقال بدهاء - ولو من دون نجاح كما هو مفهوم - أن يتعقب أثر مؤلف «إما/ أو». وكان المقال بتوقيع «A. F.....» الذي يعني على ما يُفترَض Af Forfatteren [بالدنيماركية: «بقلم الكاتب»].

الأمر غير المعقول إن كيركغارد نفسه أخذ يشك في مَنْ يكتب في الحقيقة وبقلم مَنْ يكتب: «ثمة شيء غريب في سكرتيري الصغير مستر كريستنسن. أراهن إنه هو الذي يكتب بطرق مختلفة في الصحف وفي كراسات صغيرة لأني في أحيان ليست قليلة أجد صدى لأفكاري، ليس كما أنحو إلى كتابتها بل كما أتركها تسقط بصورة عفوية خلال الحديث». وكان في ذهن كيركغارد، على ما يُفترض، المقال الموسوم «زئبق أدبي، أو مغامرة في الجنون الأعلى، مع لوسيا

إنترفالا»، الذي نُشر باسم مجهول في صحيفة ني بورتيفويلة Ny Portefeulle بتاريخ 12 شباط/ فبراير 1843. وبعد ستة أشهر كرر كريستنسن أحابيله القذرة عندما نشر باسم مجهول قطعة تحت عنوان «بأي حق يُسمى اللاهوت أكذوبة؟» فشعر كيركغارد إنه ضحية سرقة، وأُصيب بالقنوط: «أنا الذي عاملته بمثل هذا الكرم وأجزلتُ له الأجر، وكنتُ أتحادث معه ساعات كل مرة - وكنتُ أدفع له كي لا أذله وأحط من قدره لأن ضيق ذات يده أجبره على أن يعمل ناسخاً... حقاً لم يكن ذلك لطيفاً منه. إذ كان بمقدوره أن يضع ثقته بي ويقول لي إن لديه رغبة في أن يصبح كاتباً. ولكن كتاباته بلا ضمير. وهو نفسه يلاحظ على الأرجح إني تغيرتُ قليلاً رغم إني ما زلت ذلك المؤدب والكريم معه. من جهة أخرى فطَمْتُه عن تجسسه الفضولي في أنحاء غرفتي. يجب إبقاء مسافة بيني وبينه. أكره كل السرقات الأدبية». بعد ذلك بفترة قصيرة ترك كريستنسن العمل لدى كيركغارد.

كان غالبية الذين أبدوا اهتماماً بالقضية يعرفون هوية مؤلف «إما/ أو». وفي 20 شباط/ فبراير 1843، اليوم نفسه الذي نُشر فيه الكتاب، كتبت هنريته فولف Henriette Wulff إلى هانز كريستيان أندرسن الذي كان في ألمانيا وقتذاك: «نُشر مؤخراً كتاب هنا بعنوان «إما/ أو»! يُفترض بأنه غريب تماماً، القسم الأول مليء بالدون جوانية والشك، إلخ، والقسم الثاني مخفف وتصالحي ينتهي بموعظة يُقال إنها ممتازة. الكتاب كله أثار اهتماماً واسعاً. لم يُناقشه أحد علناً حتى الآن ولكنه سيُناقَش بكل تأكيد. وفي الحقيقة يُفترَض إنه بقلم كيركغارد الذي استخدم اسماً مستعاراً: هل تعرفه؟» نعم، كان أندرسن يعرفه.

في الوقت نفسه تقريباً كتب بيتر كريستيان في يومياته: «أسمع اليوم في سورو إن عمل سورين «إما/ أو» نُشر ولكن بالاسم المستعار فكتور إريميتا». وفي 27 شباط/ فبراير وصل النبأ السار إلى البرازيل: كتب هنريك لوند إلى بيتر فيلهلم: «في أول فرصة تواتيني سأرسل لك كتاباً أثار الكثير من الاهتمام ويقرأه «تقريباً كل مثقف». عنوان الكتاب هو «إما/ أو»، ويفترض الناس إن سورين هو المؤلف». وجرى التعبير عن هذا الافتراض أيضاً في أول ذِكر علني للعمل «إما/ أو» ظهر في عدد 22 شباط/ فبراير 1843 من صحيفة داغن Dagen «داخلياً الكتاب كله يحمل بصمة ثبات لافت في الروح والنظرة، وخارجياً، بنبرته الخفيفة ومتانته اللغوية، يشبه عملاً أكاديمياً معروفاً ومقالات مختلفة خرجت من يد أحد عباقرتنا الفلاسفة الحقيقيين - بحيث لم نُفاجأ بسماع العمل يُنسب إليه».

الحيرة إزاء هوية الكاتب بكل ملابساتها الشيقة حققت نجاحاً ساحقاً. إذ كانت المبيعات كبيرة، وذاع خبر الكتاب غير الاعتيادي. وفي 7 نيسان/ أبريل تمكنت سيغني لاسو Signe Lsaesoe من اطلاع هانز كريستيان أندرسن المزاجي الذي كان الآن في باريس على آخر الأخبار من كوبنهاغن: «نجم أدبي جديد (أعتقد أنّي كتبتُ «جَمَل» على ما يبدو لكني أعني «نجم») سطعَ في السماء هنا - نذير شؤم وجالب نحس. إنه شيطاني بحيث يقرؤه المرء ويقرؤه، يضعه جانباً ببَرَم لكنه دائماً يعود إليه لأن المرء لا يستطيع أن يتركه ولا أن يبقى ماسكاً به». ولكن ما هو؟ كما أراك تسأل. إنه كتاب «إما/ أو» بقلم سورين كيركغارد. ليس لديك فكرة عما أحدثه من إثارة. أعتقد ما من كتاب أثار مثل هذه الضجة بين جمهور القراء منذ وضع روسو «اعترافاتــ»ــــــــه على المحراب. وبعد أن يقرأه المرء يشعر بالاشمئزاز من الكاتب ولكنه يدرك بعمق ذكاءه وموهبته. نحن النساء يجب أن نكون غاضبات عليه بصفة خاصة: فهو مثل المحمديين يحيلنا إلى عالم المحدودية، ولا يقدِّرنا إلا لأننا ننجب للرجال ونرفه عنهم وننقذهم. في القسم الأول (هذا عمل من 838 صفحة من قطع الثُمُن) يكون الكاتب جمالياً، أي شريراً. وفي القسم الثاني، يكون أخلاقياً، أي أقل شراً بعض الشيء. الجميع يمتدحون القسم الثاني لأن شخصيته الأخرى، نصفه الأفضل هو الذي يتكلم. القسم الثاني لا يزيدني إلا غضباً عليه - فهناك يربط المرأة بالمحدودية. وفي الحقيقة أنا لا أفهم إلا جزءاً صغيراً من الكتاب. أنه إجمالاً كتاب فلسفي للغاية.

بعد أسبوعين رد أندرسن على سيغني لاسو كاشفاً عن حَسَده: «ما أرسلتيه لي عن كتاب كيركغارد لا يثير فضولي على وجه التحديد. فإن من السهولة أن يبدو المرء عبقرياً حين يتجاهل كل الاعتبارات ويمزق روحه وكل المشاعر المقدسة إرباً إرباً! ولكن لهذا النوع من الأشياء تأثيره. ومن المعقول أن نفترض انبهار هايبرغ في هذه الأثناء بالألمعية الفلسفية!»

كان أندرسن على خطأ كبير بشأن هذه النقطة الأخيرة.

«كتاب وحش»

لا نستطيع، بالطبع، أن نستبعد احتمال أن تكون نساء حانقات مثل سيغني لاسو وهنريته وولف أوسع اطلاعاً على المشهد الأدبي من جي. إيل. هايبرغ،

ولكن ذلك ليس مرجّحاً. وكان هايبرغ، كما يُفترض، على علم بهوية المحرر ذي الاسم المستعار الذي كان يختفي وراء هذه الأعمال. وفي 1 آذار/ مارس، بعد عشرة أيام على نشر «إما/ أو»، نشر هايبرغ نقداً للكتاب بعنوان «بذرة شتاء أدبي» في عدد من مجلته إنتليجنسبلادة Intelligensblade. ودردش بكياسة عن كتب نُشرت منذ بداية السنة: «الأعمال الشعرية» لكريستيان فينتر Christian Winther، و«في الخارج والداخل» لهانز بيتر هولست Hans Peter Holst، زائد «أساطير شعبية» بقلم تيلي Thiele. ثم أخذ هايبرغ نَفَساً طويلاً وكتب: الأكثر من ذلك إن وحشاً بهيئة كتاب نزل مؤخراً على عالمنا الأدبي كصاعقة من سماء صافية. وأُشير هنا إلى «إما/ أم» بقلم فكتور إريميتا، بجزئيين ثقيلين يقعان في 838 صفحة مرصوصة. وعليه فإن الكتاب يمكن أن يُسمى وحشاً من ناحية حجمه لأن المرء يعجب بكتلته الخالصة حتى قبل أن يتعرف على روح العمل، وليس عندي شك في أن المؤلف لو كان مستعداً لعرض نفسه بسعر لكسب من ذلك العرض بقدر ما سيكسبه من السماح للناس بقراءة الكتاب مقابل سعر. وما حجم الكتاب الضخم إلا إزعاج عابر يجب أن يتجاهله المرء. ويفكر المرء: «هل لديَّ الوقت لقراءة كتاب من هذا النوع، وأي ضمانة عندي بأن هذه التضحية ستُكافأ؟ المرء يشعر بفضول على نحو غريب إزاء العنوان نفسه، لأن المرء يطبّقه على علاقته بالكتاب ويسأل نفسه: هل ينبغي «إما» أن اقرأ هذا الكتاب «أو» أمتنع عن قراءته؟ نحن لم نعد نعيش في العصر الذهبي بل نعيش، كما يعرف الجميع، في «العصر الحديدي»، أو بتعبير أدق «عصر سكك الحديد». فأي شذوذ غريب هذا الذي استحث أحداً ما على أن يَطْلع بهذا النوع من الخليط في عصر الشيء الرئيسي فيه هو قطع أطول مسافة بأقصر وقت؟».

ولكن هايبرغ تغلب على تردده وانغمر في القسم الأول من العمل. ويقول عنه الآتي: هكذا، بادئ ذي بدء يجد المرء نفسه في «إما»، وفي البداية لا يشعر المرء بالارتياح لأن المرء يلاحظ إنه لا يمضي بالمرة وقتاً ممتعاً مثل الكاتب. فالكتاب ذو وقع بغيض بلا إيقاع، حتى إن إحساساً ينتاب المرء باستمرار بأنه يريد التقدم على الشخص الذي يمسكه من ذراعه. ويصادف المرء أفكاراً لاذعة عديدة بعضها قد تكون حتى عميقة. لا يستطيع المرء أن يكون متأكداً من ذلك لأنه حين يظن إنه التقط نقطة (يسميها المؤلف باستمرار «نوقطة» [كذا]) يفقد حسه بالاتجاهات مجدداً. وينفد صبر المرء لأن ألمعية المؤلف وعلمه ورُقيّه

الأسلوبي كلها لم تُربط بقدرة تنظيمية تسمح للأفكار بالظهور متشكلة على النحو الصحيح. كل شيء يبدو كالحلم، بلا شكل، وزائل. وبأمل إيجاد أرضية صلبة إيجابياً على الأقل وسط كل هذه السلبية، يقفز المرء إلى نقد كوميديا الكاتب «الحب الأول»، لكنه يكتشف هنا إن المؤلف قام بتحويل الإيجابي بانياً قلعته هو في الهواء. هو يريد تحويل شيء تافه صغير إلى تحفة فنية وينسب إليها نزعة أساسية هي نقيض ما يدَّعيه الكاتب. ويسرع المرء نحو الفصل الموسوم «يوميات الغاوي» لأن العنوان هنا يوحي بأن هذه القطعة قد تكون إبداعية أكثر منها نقدية. وبطريقة من الطرق فإن هذه التوقعات لا تخيب. ولكن المرء يشمئز، المرء يشعر بالغثيان، المرء يقرف، والمرء يسأل نفسه ليس إن كان من الجائز أن يكون هناك كائن بشري مثل هذا الغاوي بل إن كان من الجائز أن يكون المؤلف فرداً كهذا يستطيب تخيل نفسه شخصية كهذه، وأن يتمكن من صنع شخصية كهذه في أفكاره الخاصة. ينظر المرء إلى الكتاب ويقول: كفى! سئمت من «إما»، ولن أقرأ شيئاً من «أو».

بعد هذه البذاءات اكتفى هايبرغ إلى حد التخمة. ولكنه لم يفوِّت الفرصة ليشمت بما سيحدث من ضجة وصخب عندما يصل الكتاب إلى الجمهور غير المثقف من «المتزمتين والمتأبطين شراً والأخلاقيين الأشاوس»، الذين كلهم - باستثناء هايبرغ على ما يبدو - «يستطيعون أن يجنوا فائدة كبيرة منه». ولكن هايبرغ لم يتمكن من ضبط نفسه - فبدأ يقرأ القسم الثاني الذي سحره بطريقة مختلفة تماماً. ففي هذا القسم واجه سلسلة من «الصواعق الفكرية التي أنارت فجأة دوائر كاملة من الوجود» وفي الوقت نفسه عثر على «القوة التنظيمية» التي بحث عنها بلا جدوى في القسم الأول. وهكذا كان العمل من صُنع «عقل نادر وعلى درجة عالية من الموهبة، استخرج من بئر عميق من التأمل أجمل الآراء الأخلاقية» وهو «يطعِّم محاجَّته بدفق من الظرافة والفكاهة الأشد لذعاً». وكانت المادة التأملية بالطبع من صلب اهتمامات هايبرغ، وأصبح يعتقد الآن إنه استوعب النقطة التي يريد الكتاب توصيلها: الجزء الثاني مطلق، ولا مجال هنا لـ «إما/ أو».

لم يكن ذلك مهرجاناً من الإطراء ولكن هايبرغ رغم كل قسوته كان أكثر سخاءً بإغداق المديح مما هي عادته. وإذا استشاط كيركغارد غضباً رغم ذلك وجُرح بهذه المراجعة الوقحة والمتأنقة «صفعة صغيرة» من هايبرغ - فإن من

أسباب ذلك إنه كان يعتبر نفسه جمالياً وفياً ينتمي إلى مدرسة هايبرغ. وكان هجوم كيركغارد على أندرسن، من بين أشياء أخرى، حركة تكتيكية لكسب ود هايبرغ مثل المقدمات التي وضعها في رسالته الأكاديمية عن المفارقة التي تذكر صفحاتها الأخيرة هايبرغ بالاسم واضعاً إياه بجانب قامات شامخة مثل غوته نفسه. كما أعرب كيركغارد عن توقيره هايبرغ في مجالس خاصة. وعندما نُشرت قطع صغيرة باسم مستعار تحت عنوان «يوهان لودفيغ هايبرغ بعد الوفاة» في عام 1842، أوضح كيركغارد لهانز بروشنر أنه ممتعض من أن يرى هايبرغ هدف تعليقات ساخرة، وأصر بقوة على أهمية هايبرغ بوصفه «مربي جيله الجمالي». كما لم يكن هناك إجحاف بحق هايبرغ في كتاب «إما/ أو» بل على العكس أُعطي موقعاً مرموقاً بصفة خاصة: مبحث كامل مكرَّس لتحليل مسرحية الكاتب ذات الفصل الواحد «الحب الأول»، ترجمة هايبرغ. ويجري التشديد على إعادة هايبرغ سرد «دون جوان»، قصة موليير، على حساب نص موليير نفسه. ويُمدَح هايبرغ لامتلاكه «العين الجمالية الواثقة» التي دائماً بها «يفهم مهمته، الذائقة التي يعرف كيف يميز بها»، بل إن العنصر الكوميدي عند هايبرغ «أنقى منه عند موليير»، أساساً بسبب «نثر هايبرغ الانسيابي». ولم يقصر كيركغارد نفسه على إطراء عبقرية هايبرغ وحده - بل قرينة الشاعر المتألقة والمسرح الوطني بأكمله والمفضلون لدى هايبرغ كلهم كانوا مشمولين بالمديح الذي أغدقه: «إذا أردتُ أن أُري أجنبياً مسرحنا بكل مجده سأقول اذهب وشاهد مسرحية الحب الأول». وفي مسز هايبرغ وفريدندال وستيغي وفيستر يمتلك المسرح الدنماركي رباعياً يتبدى هنا بكل بهائه.

كان سيصعب على كيركغارد أن يكيل مديحاً أكبر من هذا المديح دون أن يبدو متزلفاً إلى أقصى الحدود. ثم يكون رد فعل هايبرغ على هذا النحو، يسخر من العمل الذي جرى فيه تأليهه هو بالذات. مَنْ يظن نفسه؟

لذا بعد أربعة أيام على بذرة هايبرغ الشتوية الخبيثة نشر فكتور إريميتا رداً في صحيفة فادريلانديت بعنوان «شكراً للبروفيسور هايبرغ». شُكر هايبرغ بلهجة صاخبة بعض الشيء لأنه أظهر بصورة وافية كيف يقرأ «المرء» كتاب «إما/ أو». وهكذا بمساعدة مقولة بذرة الشتاء ساعد هايبرغ كتاب «إما/ أو» على أن يرى النور بنجاح وأن يعيش حياة مزدهرة في عالم الأدب. وكان مما يتعذر تصوره تقريباً أن يستطيع فكتور إريميتا، الناسك المتعفف، كتابة مثل هذا

الشكر الأهوج، وكان واضحاً بالقدر نفسه إن كل أمل بعلاقة تُحتمل (ناهيكم عن علاقة ودية) مع هايبرغ ودائرته لم يعد الآن وارداً على الإطلاق. وفي الواقع إن كيركغارد بدأ المعركة مع الشلة المرتبطة بمطبوع إنتليجنسبلادة الذي صدر في أربعة كراسات صغيرة بين آذار/ مارس 1842 وآذار/ مارس 1844 ونال اسمه بجدارة: كان من المساهمين فيه أسماء لامعة مثل مينستر ومارتنسن وهولتس وهيرتز وراسموس نيلسن وأي. بي. آلدر، الذين كلهم أدرجهم كيركغارد بمرور الوقت على قائمة المغضوب عليهم. وبالحدة الكلبية (السينيكية) للرؤية التي يتسم بها الحقد الدفين لاحظ كيركغارد في يومياته: «الله بارك مجيئك يا بروفيسور هايبرغ! وأنا سأتكفل قطعاً برحيلك».

وتأتي سلسلة من الفقرات التي سطرها الكاتب الناشئ في يومياته محاولاً، بدرجات متفاوتة من النجاح، أن يمهد طريق الخروج من كبريائه الجريحة، لتجعل من الواضح إن «الشكر» الذي أعرب عنه لم يكن نهاية القضية على الإطلاق، بل إنه اندفع إلى جنس جديد تماماً من الكتابة هو تأليف الأغاني الساخرة كتب فيه مقطعاً غادراً بحق يستحق إعادة نشره كاملاً:

البروفيسور هايبرغ رجل مزيف
فيتًا - فيت - فيت - بوم - بوم

وعلى ما شعر به كيركغارد من مرارة بسبب انتقادات هايبرغ فإنه قلما لاحظ، على ما يبدو، إن كتاب مراجعات آخرين يولون «إما/ أو» كل ما يستطيعون إيلاءه من اهتمام. ومنذ 10 آذار/ مارس 1843 تحدث غولدشميدت بحبور في مجلة الكورسان (القرصان) عن الاهتمام الذي ناله الكتاب - وخاصة حجمه الضخم: «الصحافة كلها، من داغن إلى افتنبلاديت، ومن برلينغسكة إلى إنتلجينسبلادينية، أطلقت صرخة تعجب، وهي لم تقل إلا كلمات قليلة عن الكتاب، بطبيعة الحال، لكنها بدأت وانتهت بالقول «يا للسماء من كتاب سميك». وغولدشميدت لم ير العمل كله. ففي خمس طبعات متتالية أيام الآحاد من 12 آذار/ مارس إلى 9 نيسان/ أبريل نشر كاتب مجهول في صحيفة فوربوستن Forposten أشطاراً من مراسلات ملأت نحو 22 عموداً كبيراً من النقاش المستفيض للكتاب. صحيح إن عمق مَنْ راجع الكتاب لا يتناسب تماماً مع الكمية الضخمة من الحبر الذي استُهلك في المراجعة ولكن كيركغارد لم

يكن لديه مبرر للشكوى من عدم الاهتمام، أو التعاطف بل إن كاتب المراجعة عمل كل ما بوسعه لرد الاعتبار إلى كيركغارد موجهاً سخريته ضد «واحد» مجهول، وهو الاسم الذي استخدمه هايبرغ في طرح آرائه. وانتقد كاتب المراجعة في صحيفة فوربوستن بصفة خاصة نقد هايبرغ لـــــ«يوميات الغاوي». فاليوميات ينبغي أن تُفهم (بحسب كاتب المراجعة المذكور) على أنها «إعادة إنتاج لنظرة جمالية إلى الحياة»، وتكون بذلك «عملاً فنياً»: لن ينكر هذا «الواحد» بكل تأكيد إن فاوست غوته هو عمل كهذا، وفي الحالة الراهنة أليست للفكرة علاقة بفكرة غوته؟ وللذين قد يغريهم الظن بأنهم يقرؤون قصة حقيقية أشير ببساطة إلى أن عنوان القطعة هو «يوميات الغاوي» وليس «يوميات غاوٍ»، وهذا بحد ذاته يكفي للقول ما معناه إن القطعة كلها قضية، تجربة فكرية. ورحب كيركغارد بهذا السطور الأخيرة. وفي نسخته من «إما/ أو» شدد على أداة التعريف في يوميات الـــ«غاوي»، وعلى الهامش أضاف التعليق الآتي: في مراجعة نشرتها فوربوستن أرى إشارة في محلها تماماً إلى أن هذه القصة ليست يوميات غاوٍ بل يوميات الـــــ«الغاوي»، الأمر الذي يفيد بالطبع إن النقطة الرئيسية هي المنهج وليس تصوير يوهانس أو كورديليا.

لكن النقد الذي نُشر في صحيفة دن فريسندَده Den Frisindede كان أقسى. وتحت عنوان حلقة من «يوميات الغاوي» كان هذا المقترح الطفولي بعض الشيء: قد يجد المرء من المغري أن يدعو الرقيب الأخلاقي في جمعية حرية الصحافة إلى عزل المؤلف، ويمكن أن يطلب من شرطة الآداب أن تصادر العمل وتحرق دمية تمثل المؤلف المجهول... ولكن في الوقت نفسه لا بد أن يعترف المرء بأن الذين يقرؤون هذا الكتاب لن يطالهم أذى منه في كل الأحوال. وشدد كيركغارد على الجملة الأخيرة، على المقطع الذي يشير إلى اليوميات بوصفها غير مؤذية، الأمر الذي أزعجه كثيراً حتى إنه كتب نص «تحذير إلى دن فريسندَده» أشار فيه منتحلاً شخصية فكتور إريميتا إلى كاتب المراجعة المجهول قائلاً إن من غير الجائز التعليق على اليوميات دون وضعها في سياق العمل بأكمله. حين يجد المرء في عمل منشور بعنوان «إما/ أو» مقالاً اسمه «يوميات الغاوي» فإنه لا يقرؤه أولاً بكل تأكيد، ولا هو يقرؤه معزولاً. وبعد قراءته معزولاً فإن المرء لا يسمح لنفسه بإبداء رأي بالعمل، أو – إذا كان لديه شبه رأي – أن يعبر عنه. أو، إذا كان لا بد من التعبير عنه قطعاً فإن المرء يفعل

ذلك بهدوء في غرفته. أو إذا كان لا بد قطعاً أن يشارك آخرين آراءه فإنه يفعل ذلك شفاهاً. ثم قدم كيركغارد توجيهات للمراجعة التي كان على دن فريسندَده أن تنشرها، وكان ينبغي، برأيه، أن تبدأ بالكلمات التالية: «نُشر عمل بالكاد سيكون القارئ الاعتيادي لهذه الجريدة قادراً على فهمه». والأرجح إن هذه الملاحظات كانت مقصودة بكل جدية وبالتالي كانت ضربة دبلوماسية حين تركها كيركغارد في دُرج مكتبه. وبدلاً من ذلك شن - في يومياته - الهجوم الكاسح التالي على جميع منتقديه: «لا مراجعات قطعاً مهما تكن رجاء لأني أجد المراجعين مبعث اشمئزاز مثل الحلاقين الذين يجوبون الشوارع، يأتون مسرعين بماء الحلاقة الذي يستخدمونه على جميع زبائنهم، ويلامسون وجهي بأصابعهم الدبقة».

استمر النقاش المستفيض حول «إما/ أو» في 7 أيار/ مايو بنشر العدد الأول من ثلاثة أعداد من صحيفة فادريلانديت كلها مكرسة لمراجعة «إما/ أو» بقلم جَي. أف. هاغن J. F. Hagen على اثنين وثلاثين عموداً. وكان هاغن طالب لاهوت في الجامعة وبعد عامين نال شهادة الليسانس برسالته الأكاديمية الموسومة «الزواج من منظور أخلاقي - تاريخي». وبالتالي فإنه لم يكن كاتباً صحفياً اعتيادياً بل باحثاً يعمل بما يمليه عليه ضميره، دقق بتمحيص كل قسم من أقسام العمل، من «ديابسلماتا» مروراً بالقسم الموسوم «طريقة التدوير» (الذي زعم هاغن إنه يتضمن شيئاً مسلياً مثل «الواقي الضروري ضد الملل») إلى «إنذار نهائي» في الجزء الثاني من الكتاب. وأبدى هاغن، مثله مثل آخرين، احترامه للمادة الرائعة واصفاً نفسه بتواضع بـ«المبتدئ» في القضايا الجمالية. ومع ذلك لاحظ بتبصر إن متذوق الجماليات A يكرر سلسلة من التناقضات التي ناقشها كيركغارد في رسالته الأكاديمية بل إن هاغن لاحظ في الحقيقة ما لم يتمكن كيركغارد من كتابته في رسالته الأكاديمية: «نتذكر قراءة مؤلف كاثوليكي قوله إن المفارقة التي يعلنها خبير متحرر بعلم الجمال هي نتيجة منطقية لكامل النظرة التي تقترحها البروتستانتية، ولذلك يمكن أن تمثل محاجَّة مقنعة ضدها: لأن البروتستانتية تبيح الشك، وهي بموقفها هذا تجيز المفارقة التي بها يطرح الشك محاجَّته».

لو فقط إن هاغن لم يكن اسمه هاغن بل هايبرغ لتمكن كيركغارد بكل تأكيد من تقييم هذا التشخيص وفق استحقاقاته. صحيح، كما ورد ذكره، إن هاغن

لم يكن ناقداً بارعاً وكان يلجأ في بعض الأحيان إلى إعادة صوغ العمل قيد المراجعة بمفردات أخرى، كما هو معهود من الناقد الهاوي، ولكن حين كان الأمر يتعلق بالحكم على «يوميات الغاوي» كان هاغن أفضل بكثير من هايبرغ، ومن عدة مفسرين لاحقين شعروا إنهم مدعوون إلى توجيه إصبع اتهام أخلاقي حتى إنهم كانوا عاجزين عن رؤية الصفات النفسية والأدبية لقصة الغواية. وإذ وضع هاغن نصب عينه استذكاره غير الودي لنقد هايبرغ المُغيظ، كتب: «طيلة وقت القراءة يهتف المرء «أنه ليس ممكناً. فممارسة المفارقة هذه ليست إلا فرضية، تجربة فكرية شيطانية...» ومع ذلك لا تحوي اليوميات إلا الممارسة التي يتعين منطقياً أن تتطور - إذا تمكنت النظرة الجمالية من تحرير نفسها تماماً من الحياة الأخلاقية وتسند نفسها على أساس نفسها كحياة مستقلة». وتابع هاغن إن يوهانس الغاوي هو في الواقع «أرقى تطوراً فكرياً من أن يكون غاوياً من النوع المبتذَل. وإن غوايته نظام. إنه يريد أن يتمتع ولكن بنفحات بطيئة فقط». وعلى غرار مماثل فإن طبيعة كورديليا «أنثوية حقيقية غير ملوثة. لكنها هي أيضاً فكرٌ وبالتالي هناك لا نهاية من المتعة. وهنا يمكن أن تنشأ علاقة شيقة. هنا فتاة تستحق إغواءها لأن لديها شيئاً تتنازل عنه. وسيكون التكتيك الآن إحاطة كيانها كله في شرنقة من الخيوط الدقيقة غير المرئية بحيث في النهاية لا ترى إلا غاية واحدة في حريتها هي أن تسلِّم نفسها - بحيث تشعر بخلاصها كله وهي تفعل ذلك».

وعلى النقيض تماماً من هايبرغ وضع هاغن الجزء الأول من «إما/ أو» بمرتبة أعلى من الجزء الثاني الذي كتب عنه: «قد نتأسف لأن غياب التركيز الفكري الذي كان تماماً سمة المبحث السابق (المشروعية الجمالية للزواج)، يترك أيضاً بصمته بكل وضوح في المبحث الحالي (التوازن بين الجمالي والأخلاقي في تكوين الشخصية). وكثيراً ما يغامر البحث بولوج مضمار شاسع، وبما إن على المؤلف أن يبدأ بداية جديدة تلو أخرى فإن المرء كثيراً ما يصطدم بتكرارات متعبة. وتختل الفكرة العامة بالمغازلات (المملة بعض الشيء على المدى البعيد) التي يرسلها الأخلاقي صوب الجمالي رغم كل معارضته له».

ما يقوله هاغن هنا، بطريقته الدمثة، إن رسالَتي القاضي وليام التشجيعيتين إلى «متذوق الجمال A» يمكن أن تكون باهتة إلى حد كبير بين حين وآخر، وبالتالي من المستبعد أن تنجحا في إقناع المتشكك أصلاً في المشروعية الجمالية

للزواج، وأقل من ذلك احتمال إقناعه بالهناء المقترن به. والأكثر من ذلك إن الجملة الأخيرة المنقولة عن هاغن تتضمن ملاحظة متبصرة. إذ من الصحيح تماماً إن الأخلاقي يغازل الجمالي الذي يدين الأخلاقي بالطبع مغامراته الإيروتيكية - حتى وهو يغدق عليها غرابة شهوانية لا تليق برجل متزوج من طراز وليام. وهكذا فإن هناك إشارات إلى أن هاغن أدرك بأن الأخلاقي، مفهوماً بصورة صحيحة، ليس إلا نتاج موقف لفظي، شيء من الكاريكاتير، لأن مكان المؤلف الطبيعي، على ما يُفترض - كما كشف هو لبويسن - كان فوق كل ما هو جمالي.

منفى أدبي

كان كيركغارد قادراً خلال نزهاته في المشي مع هانز بروشنر، على الكلام بحرية بعض الشيء عن نجاح «إما/ أو» متطرقاً بصفة خاصة إلى «العنصر الشعري في الجزء الأول» أو شارحاً بحيوية كيف «في نقاط عديدة كان هناك ما يشير إلى موضوع القصيدة ولكنه لم يُنفَّذ عن قصد». وكان بروشنر نفسه متحمساً للكتاب، وكيركغارد بكل تأكيد لم يكن غير متجاوب للملاحظات التثمينية: ذات يوم لاحظتُ إني لم اقرأ منذ عمل هيغل المنطق Logic كتاباً أطلق العنان لأفكاري مثل «إما/ أو». ومن الواضح إنه كان سعيداً بهذه الملاحظة. ومع ذلك كانت خيبته برد فعل هايبرغ كبيرة، وروى أتش. بي. هولست الذي كان كثير التردد على منزل هايبرغ خلال تلك السنوات، إن من الموضوعات المتكررة في أحاديثه مع كيركغارد كانت الشكوى من إن هايبرغ في الحقيقة ما كان ليورط نفسه قط مع كتاباته [كتابات كيركغارد] أو يعترف به فيلسوفاً. وهذا قابل تماماً للتصديق - يذكر بروشنر أيضاً امتعاظ كيركغارد في هذا الشأن - وكان الواحد الهايبرغي يسكن قهرياً يوميات خاطب وده المرفوض مستثيراً فيه غضباً حاداً كل مرة: إنه ليس بمفرده، بل معه ربات وحيه ونِعَمه - ومن باب الأمان استعان بزميل في العمل اسمه واحد، وهو زميل عمل كدود لا يطالب بأجر ويتحمل كل صنف من المعاملة.

وصْفُ هايبرغ يوميات الغاوي بأنه عمل أدبي يثير الاشمئزاز والغثيان والقرف، أسهم بطبيعة الحال في زيادة المبيعات لأن كل من لديه بصيرة يقرأ بها خرج راكضاً وابتاع الكتاب ليشعر بالغثيان على الوجه المطلوب من أقسامه المثيرة للاشمئزاز والقرف، التي نظر إليها الناس في سياق القضية الجارحة

لخطوبة صاحب الماجستير، التي كانت أصلاً تلوكها الألسن على نطاق واسع. ورغم حقيقة إن النجاح الذي يتحقق بفضيحة أفضل من لا نجاح بالمرة فإن كيركغارد كان مقتنعاً عن صواب بأنه وعمله يستحقان مصيراً أنبل، وفي وقت ما من آذار/ مارس 1843 كتب بفخر: حتى إذا لم أثبت شيئاً آخر بكتابتي «إما/ أو» فإني أثبتُ في كل الأحوال إن المرء يستطيع أن يكتب عملاً في الأدب الدنماركي وإن المرء يستطيع أن يعمل دون حاجة إلى رداء التعاطف الدافئ ودون حاجة إلى حافز التوقعات، وإن المرء يستطيع أن يعمل حين يكون التيار ضده، وإن المرء يستطيع أن يكون كدوداً دون أن يبدو كدوداً، وإن المرء يستطيع أن يركز تفكيره في ركنه الخاص فيما يفترض كل طالب تعيس مسكين أن يعدّه عاطلاً. وحتى إذا كان الكتاب نفسه بلا معنى فإن أصله سيكون مع ذلك أبلغ قول ساخر كتبتُه عن الهراء الفلسفي لهذا العصر.

ولكن إذا كان كيركغارد يصب جام غضبه على هايبرغ فالسبب ليس مجرد كبرياء أدبية مثلومة بل لأن عمله كان عملاً شخصياً بعمق رغم الاسم المستعار أيضاً. إذا اكتشفوا الدافع الحقيقي، كتب كيركغارد عن إما/ أو فإنهم على الأرجح سيتخيلون سبباً بالغ العمق... ولكن المسألة كلها تتعلق بحياتي الخاصة. والقصد؟ حقاً لو اكتشفوا ذلك سيعلنونني مجنوناً يهذي. وهكذا رغم إنه سيكون من السذاجة مماهاة كيركغارد بيوهانس الغاوي، سيكون من السذاجة بالقدر نفسه أن نفترض إن كيركغارد كان يستطيع أن يصنع شخصية كهذه من دون خبراته العاطفية مع ريجينة. كما إن من المستبعد إن الأفكار المستفيضة عن الزواج ما كانت لتخطر في ذهن كيركغارد لو لم تفشل الخطوبة. ومع ذلك من الصعب الاختلاف مع ترويلس لوند الذي كان على وشك إعلان خاله مجنوناً يهذي حين يقول: كان نشاطاً غريباً تماماً من الشرير الهارب الذي أنهى علاقته بالحبيبة في كوبنهاغن، أن يجلس في فندق في برلين رغم برد الشتاء والتهاب المفاصل والأرق ليتمكن من الكدح بمشقة وبلا راحة على عمل – في مديح الزواج. هذا الاستغراب مبرر بالكامل ويبين على أحسن وجه كيف كان العمل لا ينفصم عن مؤلفه. وهكذا كتبت هنريته هانك Henriette Hanck إلى هانز كريستيان أندرسن في منتصف أيار/ مايو 1843، بودي أن أرى كيركغارد. أراهن إنه إما – أو – أو، لأنه لا يمكن أن يكون الاثنان معاً. والأرجح إنه نفسه يقف (إذا جاز هذا التفكير فيه) في منتصف الطريق بين الضوء والظل.

رغم إن كيركغارد عاد لتوه من الخارج، فالغريب إن نقد هايبرغ لكتاب «إما/ أو»، وهو عمل أُنجز في الغربة، أسفر عن تحول كيركغارد إلى مغترب أدبي من نوع ما في بلده. ومع ذلك تسبب هجوم هايبرغ في دفع كيركغارد إلى أن يكون كيركغارد كاتباً خالداً، أدباً داخل الأدب، لا يهمه القراء المعاصرون بقدر ما يهمه قراء المستقبل. وفي وقت ما من صيف 1843 كتب سطوراً متفجرة يمكن أن تصلح بياناً أدبياً للكم الواعي مع سبق الإصرار والأصيل بعمق من الكتابات التي بدأها: شيئاً فشيئاً أصبح الكاتب هو الأكثر مدعاة للازدراء. وعموماً فإنه مرغم على تقديم نفسه مثل الأيقونة الإعلانية في صحيفة أدريسيفينسن التي تصور مساعد بستاني، قبعته بيده، ينحني ويحفر، يوصي لنا نفسه بتزكيات تثني عليه. يا للغباء. فالشخص الذي يكتب يجب أن يفهم ما يَكتب عنه أفضل من الشخص الذي يقرأه، وإلا فإنه يجب ألا يكتب - أو يجب أن يحرص المرء على أن يصبح محامياً نصاباً يعرف كيف يحتال على الناس - أنا لن أفعل ذلك، لا أُريد أن أفعل ذلك، ولن أفعله، كلا، كلا. إلى الجحيم بالأمر كله. أكتب كما أُريد، إما يعجبكم أو لا يعجبكم. ثم إن الأشخاص يستطيعون بالطبع أن يفعلوا ما يريدون، أن يمتنعوا عن الشراء، عن القراءة، عن المراجعة، إلخ.

رغم أن إنتاجية كيركغارد الهائلة من «إما/ أو» إلى حاشية ختامية غير علمية وبضمنها هذا العمل الأخير، لا يمكن أن تُفسر بأنها احتجاج مديد غاضب واحد على عدم اعتراف هايبرغ به فاللافت إنه خلال وقت قصير نسبياً غيَّر مشروعه كله الذي في استخفافه بغوته وهيغل كان الآن معارِضاً بصورة مطلقة لكل ما يعبده ويحتفي به هايبرغ وحلقته. وكان هذا، بالطبع، يتطلب موهبة استثنائية ولكن كيركغارد كان بمستوى المهمة، كما يسرُّه أن يبلغنا في يومياته. إذ كتب عام 1843 معبراً عن وعي دافق بالذات: أعرف حق المعرفة إني في اللحظة الراهنة أكثر المفكرين موهبة بين جيل الشباب بأكمله لكنه تذكّر - والحمد لله - إنه لاهوتي أيضاً فأضاف بسرعة إنه يعرف جيداً إن موهبته يمكن أن تؤخذ مني غداً بل حتى قبل أن ينهي الجملة التي كان يكتبها.

لكنه أفلح في إنهاء عدد كبير من الجمل قبل أن تنضب الموهبة التي وُهبت إليه لأن موهبته كانت واسعة النطاق وعميقة الأثر ولذلك يمكن أن توظَّف لغرض التثقيف أيضاً.

خطابان تثقيفيان كتاب صغير متواضع من 52 صفحة نُشر في 16 أيار/ مايو 1843 بسعر 32 شلناً. والخطابان مهديان إلى مايكل بيدرسن كيركغارد، تاجر جوارب سابق هنا في المدينة، ومرفقان بمقدمة تاريخها 5 أيار/ مايو 1843، عيد ميلاً المؤلف التثقيفي الثلاثون. وكان من الصعب أن تكون المقدمة أكثر احتراماً مما هي ولكن مع ذلك ساورت كيركغارد شكوك في صلاحيتها. إذ بدا له إن المقدمة تخفي داخلها إيروتيكية روحية معينة لا تليق قطعاً بهذا الجنس الأدبي لذا قرر أن يغيِّر نصه: أُسرعُ إلى المطبعة. ماذا يحدث؟ منضد الحروف دافع عن المقدمة. ضحكتُ قليلاً عليه ولكني في قرارة نفسي فكرتُ إنه حقاً قد يكون «الفرد». وإذ سررتُ بهذه الفكرة قررت في البداية أن تُطبع نسختان فقط أُقدّم إحداهما إلى منضد الحروف. كان جميلاً بحق أن أرى تأثره – منضد حروف قد تحسبون إنه سيمل من المخطوطة مثل كاتبها!

إذا كانت المقدمة القصيرة تخفي داخلها إيروتيكية روحية فإن هذه الإيروتيكية كانت مخفية بصورة جيدة جداً. وبالتفاتة من نكران الذات أرسل الخطابين إلى عالَم القراء متخيلاً بصورة شعرية مغامرات الكتاب في بلاد غريبة حيث يمضي في طرق موحشة أو يمشي وحيداً في الشارع الرئيسي ليلتقي أخيراً ذلك الفرد الذي يبحث عنه ويفتح له أحضانه إن جاز التعبير، ذلك الفرد المنفرد الطيب بما فيه الكفاية للسماح بالعثور عليه، الطيب بما فيه الكفاية لاستقباله... وعندما رأيتُ ذلك لم أرَ أكثر.

وهكذا فإن الخوف من الإيروتيكية الروحية لم يكن يتعلق بما يجري توصيله بقدر ما يتعلق بالشخص الموجَّه التواصل نحوه – لأن هذا الشخص كان ريجينة التي احتضنتها الخطابات التثقيفية بشوق متقد عاطفة: أصبحتُ أفهم قضية «ذلك الفرد المنفرد» في وقت مبكر تماماً، كما كتب كيركغارد في فقرة من يومياته عام 1849 اعترف فيها بصراحة إنه عندما استخدم عبارة ذلك الفرد المنفرد لأول مرة في مقدمة (خطابان تثقيفيان)، كان ذلك إيماءة صغيرة إليها هي، وبالتالي لم تُفهم بالمعنى الذي اكتسبته لاحقاً، معنى الإشارة إلى مقولة معينة. وبالمناسبة، في هذه الفقرة نفسها من اليوميات، يبلغنا كيركغارد إن يوميات الغاوي إيماءة صغيرة أخرى صوب ريجينة. وكان الاشمئزاز الخالص

من القصة سيحررها، على ما يُفترض، من علاقتهما في حين كان المفترض، من الجهة الأخرى، أن تريها الخطابات إن يوميات الغاوي هو في التحليل الأخير عمل ذو مقاصد دينية.

نُشرت مراجعة للخطابين في المجلة اللاهوتية جاء فيها إن الكاتب، المعروف لمن قرؤوا عمله عن مفهوم المفارقة، هو الماجستير كيركغارد الذي تتسم فرديته الروحية على الأخص بنزعة إلى ملاحقة الأوهام والتناقضات في كل مكان، وهذا وضعه أقرب إلى البحث النقدي منه إلى الفروع العقائدية. ولكن كيركغارد لم يكن فارغاً تماماً من الجوهر والعمق لأنه رغم إن الغَلَبة كانت قطعاً للعب الديالكتيكي في بعض الأحيان فإن تماديه لم يصل إلى تمادي غيره من الشباب المنذورين للعلم. وأعقب هذه التعليقات المرجعية نقاش للخطابين. فوجد كاتب المراجعة إن الخطاب الأول أنجح بكثير من الخطاب الثاني ولكن هذا لم يكن من باب الإطراء بالضرورة لأن الخطاب الثاني لا بد أن يُعد على الأرجح فاشلاً: هناك عدد من التعابير غير الموفَّقة في الخطاب، عدد كبير بصورة غير اعتيادية من الجمل الاستفهامية، واستخدام مسرف لصيغة المخاطبة المباشرة. وعلى الغرار نفسه فإن اللغة البديعة بتصنع في أحيان كثيرة لغة دنيوية أكثر منها كنسية.

كان هناك فحوى أكثر، على سبيل المثال، في عمل مستر برانر، وهو زميل من بلدة ناكسكوف الريفية نُشرت مراجعة لعمله في الصفحة نفسها ونال التقييم التالي: في هذه الموعظة المستندة إلى القسم الأخير من النص [نص الإنجيل] المعَد لليوم (إنجيل مَتَّى الإصحاح الثامن: 1 – 13) تعامل الكاتب مع علاقة رب البيت بالخدم على نحو تنويري ومعقول.

هنا شيء يستطيع المرء أن يفهمه، ومن المستبعد إن كتاب مستر برانر كان مُثقلاً بالكثير مما يدخل في باب اللغة البديعة بتصنع.

إيماءة ريجينة

بعد العودة من برلين لم يكن كيركغارد مشغولاً بإنجاز «إما/ أو» فحسب بل كانت هناك قضية لقاء ريجينة مرة أخرى أيضاً. ومن دون تخطيط لكن بمصادفة عجيبة مع ذلك كان بينهما لقاء بلا كلمات صباح كل اثنين بين التاسعة والعاشرة في مقطع قصير من الشارع الذي تتداخل فيه أشغالهما

المنتظمة في المدينة. وفي منتصف نيسان/ أبريل اتخذ هذا التعايش الطقوسي منعطفاً دراماتيكياً: في كنيسة سيدتنا خلال صلاة المساء يوم الأحد في عيد الفصح (خلال موعظة مينستر) أومأتْ لي. لا أعرف إن كانت الإيماءة توسلاً أو مغفرة ولكن بحنان كبير في كل الأحوال. كنتُ جالساً في مكان منزوٍ لكنها اكتشفتني. ويا ليتها لم تكتشفني. الآن هُدرت سنة ونصف السنة من المعاناة، كل مجهودي المضني. هي لا تعتقد أنّي كنتُ مخادعاً على الإطلاق بل ما زالت تثق بي. أي محن بانتظارها الآن! المحنة التالية ستكون إني منافق. فكلما زاد صعودك زادت الفظاعة، أن يمكن لشخص بدواخلي وتديني التصرف بهذا الشكل!

لاحقاً طمس كيركغارد هذه الفقرة من يومياته بخطوط متموجة من الحبر، وفي منتصف الطريق تقريباً تطرقت الفقرة إلى لقاءات أيام الإثنين وهكذا أصبحت خاصة على ما يبدو بحيث لم يُسمح للأجيال التالية أن تقرأها. ولكن في عام 1849 عاد إلى موضوع إيماءة ريجينة خلال صلاة المساء وقدم تفسيراً أكثر استفاضة: أومأتْ مرتين. هززتُ رأسي. كان ذلك يعني «يجب أن تتوقفي». ثم أومأتْ مرة أخرى. وأومأتُ بطريقة ودية قدر الإمكان. كان ذلك يعني: «ما زال لكِ حبي». وبعد فترة قصيرة التقيا في الشارع. حيَّته ريجينة تحية ود وعطف، والآن لم يفهم كيركغارد شيئاً على الإطلاق. نظر إليها بذهول وهز رأسه لا أكثر.

التواصل غير المباشر تواصل متردد وهو لذلك عمل خطير لأن المتلقي يمكن أن يَنسِب إليه معنى غير ما يقصده المرسِل. والأكثر من ذلك، إذا كان التواصل إيماءة بلا كلمات فإن الأمور يمكن أن تأخذ منحى آخر غير المنحى المقصود. وهذا ما حدث عندما أومأت ريجينة للمرة الثالثة في الكنيسة ورد كيركغارد بإيماءة ودية. ما كان يرومه هو الإشارة إلى ريجينة بأن تطمئِن إلى حُبِه لكنه بدلاً من ذلك أقنعها بأنه يبارك خطوبتها على فريتز شليغل. وفي الحقيقة إن العلاقة مع فريتز هي السبب وراء إشارات ريجينة المتكررة ولم تكن لدى كيركغارد أي فكرة عنها.

في تلك الحالة لعله كان سيهز رأسه بدلاً من ذلك أو كان وجهه سيُجبَر على اكتساب تعبير جامد تماماً.

برلين مرة أخرى

تكرر سوء فهم الإشارة هذا بعد ثلاثة أسابيع، يوم الإثنين، 8 أيار/ مايو 1843، عندما سافر كيركغارد إلى برلين للمرة الثانية. وأبحر (مرة أخرى) على متن السفينة كونيغين إليزابيث مسافراً عن طريق يستاد في السويد إلى شتارلوند في ألمانيا حيث بات المسافرون ليلتهم في فندق. وفي اليوم التالي واصل رحلته بعربة إلى شتَيتن (الآن شتشيتشين في بولندا) التي كان قطار يربطها ببرلين عن طريق انغرموندة. وكان هذا يعني إن الرحلة يمكن أن تُقطع الآن بوقت أقصر بكثير من المرة السابقة: بفضل خط السكة الحديد نصف المنجَز يمكن قطع الرحلة من شتَيتن إلى برلين في تسع إلى عشر ساعات، كما قال إعلان في صحيفة أدريسيفيسن.

استقل كيركغارد القطار في شتيتن وجلس مرتاحاً على مقعد بذراعين في عربة فارغة من عربات الدرجة الأولى. ولكن بعد مرور القطار بمحطتين سمع المفتش - الذي كان يجلس على مصطبة فوق رأسه مباشرة - يطلق صفارته. توقف القطار وهتف المفتش Sie haben mit der Gardine hewinckt [بالألمانية: أنتَ لوَّحت بالستارة]. للحظة شعر كيركغارد بالحَرَج لأنه حتى تلك اللحظة كان يظن إن رحلة بالقطار شيء عادي في حين كان من الشاعري تماماً في الحقيقة أن يتوقف قطار لمجرد إن أحدهم لوح لأحد المارة بستارة. وتذكر شيئاً من بيت شعر عن سيدة على أسوار قلعة تلوّح بوشاحها. وما أن تذكّر البيت حتى هتف المفتش مرة أخرى Sie haben mit der gardine gewinckt. وأحس كيركغارد الآن إن المفتش يريد أن يتكلم معه فسارع إلى امتشاق قاموسه بأمل أن يجد رداً لائقاً. ولم يتمكن من العثور على أي شيء مناسب وهتف المفتش الآن بنبرة يأس في صوته Um Gotteswillen [بالألمانية: بحق الرب]. أخرج كيركغارد رأسه من النافذة ونظر إلى المفتش فوقه وهتف بالجملة الألمانية الوحيدة التي كان يعرفها عن ظهر غيب: Bedencken Sie doch, Ihre Hochwohlgeboren, das ein Mann, der so viele universitaten... [بالألمانية: ولكن ألا تعتقد يا سيدي العزيز إن رجلاً بهذه الجامعات الكثيرة...] وعندها أعطى المفتش الإشارة وبدأ القطار يتحرك من جديد ومعه سلسلة أفكار كيركغارد. وحاول كيركغارد بلا جدوى أن يفهم المشهد كله، وارتعد قليلاً من التفكير في أنه

عندما ينزل من العربة سيرى الجميع إنه هو، شخص واحد، الذي كان سبب كل البلبلة والتأخير. ولم يتمكن المفتش من شرح حقيقة الموقف لكيركغارد إلا حين وصلا إلى المحطة في انغرموندة. فالمفتش لم يكن يوجه صراخه إليه بل كان هناك مسافر في العربة التي أمامه بدأ فجأة يلوح بستارته بقوة، وبموجب الإجراءات الأصولية للسكك الحديدية فإن هذه يعني إيقاف القطار على الفور. وفي الأحوال الاعتيادية يُفترض أن يُستخدم علم صغير ملفوف ومحفوظ تحت المقاعد في كل مقصورة ولكن في هذه الحالة كان واضحاً إن المسافر المعني قرر اللجوء إلى الستارة، أو بالأحرى إنه لم يفعل ذلك، لأن الستارة في الحقيقة أخذت تتموج عندما انفك الرابط الذي كان من المفترض أن يبقيها في مكانها. وهكذا أساء المفتش فهم الإشارة ثم أساء كيركغارد فهم المفتش، مثلما أساء هو فهم ريجينة وهي أساءت فهمه خلال صلاة المساء في كنيسة سيدتنا.

في اليوم التالي على وصول كيركغارد إلى برلين كان على وشك الانهيار من التعب. وحين بات الليلة في الفندق في شترالزوند كادت شابة في الغرفة المجاورة تدفعه إلى الجنون بعزف سخيف متنوع على البيانو. عزفت الفالس الأخير من تأليف فيبر، الذي من الغريب إنه على وجه التحديد القطعة الموسيقية التي كانت من أول الأشياء التي صادفها في رحلته السابقة إلى برلين عندما سمع أعمى يعزفها على قيثارة في حديقة الحيوانات. وحتى عندما كان كيركغارد لم يزل في شترالزوند كان يبدو وكأن كل شيء يذكّره بزيارته السابقة حين وصل إلى برلين ومكث مرة أخرى في فندق ساكسن – في ركن التقاء شارع ياغر وشارع شارلوت – الذي يطل على منظر النهر، كان كل شيء يبدو وكأنه déjà vu غريب، أو شيء رآه من قبل.

من هذه الحالات الذهنية المتباينة ومن تعب السفر انبثقت فكرة عمل جديد هو التكرار الذي أتي على ذكره في بضعة سطور نصف مهووسة في رسالته الأولى إلى بويسن: وصلتُ يوم أمس. وها أنا أعمل اليوم. شرايين جبيني منتفخة... في هذه اللحظة عادت الأفكار المزدحمة إلى العمل، والقلم يزدهر بيدي... استأنفتُ نزهاتي القديمة بالمشي أذرَع شارع أونتر دن ليندن. وكما هي العادة دائماً عندما أُسافر، فإني حرف صامت لا أحد يستطيع أن يتلفظه ولا أقول شيئاً لأي أحد. وكما في مناسبات سابقة أعقبت عبارة المخلص أس. كيركغارد حاشية تقول: بالمناسبة، يجب ألا تثقل على أحد

بأخبار عني. ليست عندي رغبة في إشباع أدنى فضول بأي طريقة. كما إن بويسن لم يعرف ما أنجزه القلم المتفتح بيد كيركغارد لأنه كما كتب المؤلف الكتوم في يومياته: التمعن الحقيقي في الفكرة ينبغي أن يبقى مخفياً عن أي نوع من المعرفة الفاحشة وعن تدخل الغرباء، مثلما إن الطير لن يستمر في الجلوس على ساقيه إذا لامسهما أحد.

لم يبعث كيركغارد بالرسالة إلى بويسن ولكنه بعد أربعة أيام كتب رسالة جديدة ذكر فيها: بمعنى معين حققتُ بالفعل ما كان بمقدوري أن أتمناه، شيء لم أعرف إن كان يستغرق ساعة أو دقيقة أو نصف سنة - فكرة، تلميح... بقدر تعلق الأمر بهذا، أستطيع العودة فوراً إلى الأهل مرة أخرى. ولكني لن أفعل ذلك بيد إن من المستبعد، من ناحية أخرى، أن أُسافر أبعد من برلين. ليس واضحاً ما تمكن كيركغارد من تحقيقه على وجه التحديد بهذه الصورة الكاملة حتى إنه بعد أسبوع واحد فقط على وصوله إلى برلين، كان يستطيع العودة إلى كوبنهاغن ولكن، بعد عشرة أيام، في 25 أيار/ مايو، عندما كتب رسالته الثالثة والأخيرة، كان واضحاً إن فكرته أصبحت واقعاً: في غضون فترة قصيرة ستراني مرة أخرى. أنهيتُ عملاً مهماً عندي، وأشتغل بطاقة قصوى على عمل جديد، وأحتاج إلى مكتبتي وكذلك إلى مطبعة. في البداية كنتُ مريضاً لكني الآن متعافٍ بدرجة معقولة - أي إن روحي تتضخم داخلي وأفترض أنها ستقتل جسدي. لم أشتغل بكد كما أشتغل الآن. أخرج للمشي فترة قصيرة في الصباح ثم أعود إلى البيت وأجلس دون مقاطعة إلى منضدتي حتى قرابة الساعة الثالثة. عيناي بالكاد تبصران. ثم آخذ عصاي التي أمشي عليها وأمضي إلى المطعم لكني ضعيف بحيث إذا نادى أحد اسمي بصوت عال سأقع ميتاً. ثم أعود إلى البيت وأبدأ من جديد. في هدأتي بنيتُ خزاناً عظيماً والآن فتحتُ البوابات وأخذتْ الأفكار تنهال عليَّ - أطفال أصحاء، سعداء، مرحون، مباركون، ولدوا بسهولة لكنهم جميعاً يحملون وحمة شخصيتي. خلاف ذلك، أنا، كما ذكرتُ، ضعيف، ساقاي ترتجفان، ركبتاي تصطكان، إلخ. وفي أسفل الصفحة كان بويسن يستطيع أن يقرأ: إذا لم أمت في الطريق أعتقد أنك ستجدني أسعد من أي وقت مضى. إنها أزمة جديدة. ويعني ذلك إما إني سأبدأ الحياة الآن أو يجب أن أموت. يمكن أن يكون هناك مخرج آخر: أستطيع أن أفقد عقلي. الله هو العالم. ولكن كيفما سقطتُ لن أنسى أبداً أن أضع عاطفة المفارقة المتقدة

في مواجهة مبرَّرة مع أشباه الفلاسفة اللا إنسانيين أولئك الذين لا يفهمون شيئاً بالمرة، وكل موهبتهم تكمن في كتابة ملخصات للفلسفة الألمانية.

يوم الثلاثاء، 30 أيار/ مايو 1843 وصلت السفينة البخارية سفينسكا ليونيت إلى مرفأ كوبنهاغن في الساعة العاشرة صباحاً. كيركغارد عاد إلى المدينة. وهذه المرة كانت أمتعته تضم مخطوطات عملين جديدين صدرا في 16 تشرين الأول/ أكتوبر وما كاد القراء أن يقلبوا الصفحة الأخيرة من كتاب «إما/ أو»، حتى أصبح بمقدورهم إغناء مكتبتهم من كتب كيركغارد بأعماله التكرار والخوف والرعدة وثلاثة خطابات تثقيفية، التي تقع في 157 و135 و62 صفحة على التوالي.

التكرار

ذات يوم في أواخر صيف 1843 حين كان كتاب التكرار في بداية استكمال شكله في مطبعة بيانكو لونو كتب كيركغارد دائخاً في يومياته: هكذا يجب أن يكون الأدب، ليس دار تمريض للمقعدين بل ساحة لعب لعابثين صغار أصحاء، سعداء، زاهرين، مبتسمين، يتفجرون حيوية، كائنات حسنة التكوين، مكتملة، راضية عن نفسها، لكل منها صورة أمه الواضحة وقوة صِلب والده، لا النتاجات المجهَضة لأُمنيات ضعيفة، ولا المشيمة التي تخرج من آلام المخاض.

التكرار هو ساحة لعب كهذه، مختبر صاحب كل مفهوم منفرد فيه يكون، بهذا القدر أو ذاك، موضوع كل صنف ممكن من البحث. وفي هذه الحدود فإن التكرار عمل سعيد، واعٍ بنفسه ومبتسم أيضاً، ولكن مدى ازدهاره أو حسن تكوينه مسألة فيها نظر لأن شكله متشظٍ، غير مستقر، زاخر بالتغيرات المفاجئة في الاتجاه. ويمكن القول، إن كان في ذلك ما يفيد، إن كتاب التكرار مثال على ممانعة المفارقة الرومانسية ضد خضوعها لأي إطار – ليس إطار الرواية فحسب بل حتى إطار الكتابة نفسها – الأمر الذي يجعل من السهل أن نفسر لماذا في حقبة ما بعد الحداثة كان التكرار، في وقت مبكر، حبيب التفكيكيين.

ولكن لكتاب التكرار حبكة، رغم أطواره الغريبة، بل له أكثر من حبكة: حبكة التكرار تدور في الحقيقة حول حبكة، أو حول أشياء تحدث إما بالصدفة الكاملة لأن الأشياء تحدث هكذا، أو لأن أحداً آخر، الله، يريدها أن تحدث بهذه الطريقة. وفي كل الأحوال فإن مصاعب معينة تعتري كتاب التكرار من الضروري استجلاؤها، وهذا يشد العمل في اتجاهين مختلفين، في اتجاه

جمالي يعبئ النص بالنوع الخاطئ من التكرار، واتجاه ديني يربط النوع الصحيح من التكرار بالله.

الاتجاهان المختلفان ممثلان بشخصيتين. التكرارات الخاطئة يمثلها رجل، التكرار في الحقيقة مكتوب في اسمه كونستانتين كونستانتيوس Constantin Constantius. وهو ليس راوي الكتاب فحسب بل شخصية له حكايته الخاصة يقوم فيها، من بين أشياء أخرى، برحلة إلى برلين في محاولة متسرعة للتحقق من مدى التكرار الفعلي. وهو، وجودياً، غائص في الجمالي لكنه، فكرياً، يحلق في الأعالي، وهو المسؤول عن اللغة النظرية التي نجدها في الكتاب. الشخصية الثانية شاب بلا اسم يُسمى ببساطة الرجل الشاب لعدم توفر ما هو أفضل. وكان أهوج بما فيه الكفاية للوقوع في حب امرأة شابة، وفي مجرى أحداث الكتاب يحاول أن يبني نفسه إلى زوج ويقترب من الديني ناجحاً على الأرجح في مسعاه (في وقت يبدو كل شيء ميؤوساً منه تماماً بالمناسبة). ويبدو أنّه يتمالك نفسه وبهذا القدر يعيش النمط الإيجابي من التكرار.

يكتب كونستانتين كونستانتيوس في وقت من الأوقات إن التكرار كلمة دنماركية جيدة، وأنا أُهنئ اللغة الدنماركية على مفردة فلسفية. ورغم إن هذا يبدو قولاً لطيفاً فإنه ليس إلا نصف الحقيقة لأن كلمة تكرار ليست مفردة فلسفية، وهي نقطة يشدد عليها التكرار - الذي هو ليس موضوعة ذات تنويعات بل في الحقيقة جعل التنويع موضوعته - بخطابيته المتضلعة في المفارقة والمواقف الاستعراضية المضحكة حتى إن المفردة لا تكتسب أبداً هويتها كمفردة تقنية ويتعين أن تكتفي بالخيالات المحمومة لكونها مقولة فلسفية لها ثقلها. وهكذا إذا حاولنا أن نقارب مفهوم التكرار بالنظر إلى ما وراء الخطابية فإننا من المرجح أن نقع على ما هو الأقل أهمية. ذلك إن التكرار، أكثر من أي عمل آخر، يجب أن يُقرأ - المرة تلو الأخرى.

مع ذلك التكرار ليس قطعة غير فلسفية في الكتابة. فنحن قرب البداية مباشرة نلتقي كونستانتين كونستانيوس المنهمك أساساً في تأملات عن إمكانات الحركة: كما يعرف كل شخص، حين أنكر أهل إيليا الحركة تقدم ديوجين بوصفه خصماً. وفي الحقيقة إنه تقدم لأنه لم يقل كلمة واحدة بل لم يفعل سوى أنه خطا إلى الوراء وإلى الأمام عدة مرات، وبعمله هذا كان

يعتقد أنّه قدم دحضاً وافياً لموقفهم. وهكذا عارض ديوجين الشك النظري بممارسة عملية، وبهذا التقابل، بهذا التعارض، يؤدي وظيفته مثالاً لكونستانتين كونستانتيوس الذي لديه طموحات معينة باسم التكرار: التكرار تعبير حاسم عما هو استذكار عند اليونانيين. ومثلما كان اليونانيون يعلّمون بأن كل معرفة إنما هي استذكار فإن الفلسفة الجديدة ستعلّمنا إن الحياة كلها تكرار... التكرار والاستذكار حركة واحدة ولكن باتجاهين متعاكسين لأن ما يُستذكَر على أنه كان، يتكرر إلى الوراء. من جهة أخرى فإن التكرار الحقيقي يُستذكر إلى الأمام. وإن اشتراطاً يُدرجه كونستانتين كونستانتيوس بصورة مفاجئة تماماً في نصه بعد بضع صفحات، يجعل من الواضح، علاوة على ذلك، إن التكرار من المستلزمات التي لا مفر منها لكل قضية في مضمار العقائديات. وبهذا تكتسب هذه التحليلات للنظرية المعرفية منظوراً وجودياً، زاوية نظره النهائية تتعدى كل حساب مفهومي. التكرار هو مفهوم ما لا يمكن فهمه ولهذا السبب لا تكون الحقيقة شيئاً يجب أن يمتلكه المرء استرجاعياً بل شيء يتعرض إليه المرء، خبرة - الحقيقة تحدث. وبالتالي فإن التكرار ليس شيئاً يأتي به المرء نفسه بل على العكس إنه شيء يأتي به أحد آخر، يأتي به آخر: الله.

بعد أن يكون كونستانتين كونستانتيوس استهلك عدة صفحات في صوغ هذه النظريات أراد أن يسافر إلى برلين لاختبارها على محك الممارسة. وعلى غرار مؤلِّفه زار برلين في السابق ولكن فيما كان يهم بالخروج من الباب طل الرجل الشاب مصراً بلغة لا تقبل اللبس على أنه عاشق تعيس. وأراد مرات متكررة أن يزور امرأة شابة ولكن شجاعته كانت تخونه في كل مرة، وهو الآن بدلاً من ذلك يزور كونستانتين كونستانتيوس الذي يريده الرجل الشاب أن يكون رفيقه في نزهة تُلهيه بالعربة. وأثناء انتظارهما مجيء العربة كان الرجل الشاب يذرع الصالون جيئة وذهاباً باضطراب يردد بشعور من الحزن بيتاً من نظم بول مارتن مولر:

ثم يأتي حلم من شبابي
إلى كرسيي المريح
كان شوقي عميقاً إليكِ
أيتها الشمس الساطعة، أيتها المرأة الجميلة

الآن يفهم كونستانتين كونستانتيوس إن الرجل الشاب بدأ يستذكر حبه وبعمله هذا ذهب أبعد من المرأة الشابة التي كانت في الأصل سبب حبه وموضوعه. وبعد أسبوعين تمكن الرجل الشاب من الإحساس أيضاً بالغاية المبهمة لهذه الرغبة المُزَاحة: أيقظت المرأة الشابة غريزة شعرية أقوى من الإيروس الذي أيقظها، وهي بعملها هذا كتبت دون أن تدري حكم إعدامها. ولكن الشاب المرتبك لا يستطيع أن يحمل نفسه على أن يشرح للمرأة الشابة عن البلبلة، عن حقيقة إنها ليست إلا الشكل المرئي في حين إن أفكاره، روحه، تبحث عن شيء آخر نَسَبَه إليها. لذا يقترح كونستانتين كونستانتيوس عليه أن يستخدم استراتيجية جذرية: دُمِّرَ كل شيء، تحول إلى إنسان حقير متعته الوحيدة تكمن في المكر والخداع... أولاً، حاول، إن أمكن، أن تجعل نفسك بغيضاً بعض الشيء بنظرها. لا تداعبها فذلك سيهيجها. كلا! كن متناقضاً، هاذراً، تفعل شيئاً هذا اليوم وشيئاً آخر في اليوم التالي، ولكن دون عاطفة، وبضجر تام... بدلاً من أي مسرة من مسرات الحب اصنع نوعاً من شبه الحب السقيم، لا هو عدم مبالاة ولا هو رغبة. ليكن سلوكك كله بغيضاً مثل منظر شخص يخرُّ لعابه. ويعترف كونستانتين كونستانتيوس بصراحة إنه نفسه يجد هذه الاستراتيجية فظة ولكن مع ذلك (أو ربما لهذا السبب على وجه التحديد) يعرض استقدام خياطة يجب أن يُشاهد الرجل الشاب معها في أحيان كثيرة بما فيه الكفاية للتشجيع على ترويج شائعات عن علاقة مشبوهة بين الاثنين. يوافق الرجل الشاب على الخطة وتُشغَّل الخياطة لمدة عام. ولكن حين كانت المسرحية على وشك أن تبدأ يختفي الرجل الشاب ولا يراه كونستانتين كونستانتيوس مرة أخرى أبداً ويكتفي بملاحظة إن الرجل الشاب يفتقر إلى مطاطية المفارقة التي هي ما يحتاج إليه المرء للتغلب على المصاعب التي تطرحها الحقيقة الواقعة. صديقي الشاب لم يكن لديه فهم للتكرار. لم يكن يؤمن به ولم يكن يريده بقوة.

كان بمقدور كونستانتين كونستانتيوس الآن أن يشرع في القيام برحلته المخطط لها منذ فترة طويلة، وقد بدأت بداية حسنة – أي، إن الرحلة بالعربة كانت مريعة كما في المرة السابقة، وهذا فَتَحَ الأُفق المشرق لمزيد من هذه التكرارات. لذا ما أن وصل كونستانتين كونستانتيوس إلى برلين حتى أخذ يبحث عن الشقة المفروشة بذوق التي أقام فيها خلال زيارته الأولى. وللأسف اتضح أن الشقة مؤجرة وتعين على كونستانتين كونستانتيوس أن يكتفي باستئجار غرفة

صغيرة. ولكن خيبته تحولت إلى أمل عندما علم أن مسرح كينيغشتايتر الواقع في ركن ألكساندر بلاتس وألكساندر شتراسة يقدم العرض نفسه (نوع من المسرح الهزلي أو الساخر) الذي أتاح له أن يعيش خبرة لا تُنسى في زيارته السابقة. كان اسم العرض التعويذة كلمات يوهان نيبوموك نيستروي وموسيقى أدولف مولر. (حقق العرض نجاحاً ساحقاً أيضاً حين كان الفقرة الافتتاحية على مسرح كازينو في كوبنهاغن يوم 26 كانون الأول/ ديسمبر 1848). ويخصص كونستانتين كونستانتيوس عدداً كبيراً من الصفحات لمناقشة الإنتاج المسرحي مع إيلاء اهتمام خاص بالثنائي الفني الرائع بيكمان وغروبيكر. كما إنه يؤكد كيف أن انفلات العرض بلا خطة يمكن أن ينقل الجمهور إلى حالة متسامية، تقرب من الانتشاء. ويتذكر كونستانتين كونستانتيوس كيف أنه خلال تلك الزيارة السابقة كان منتشياً في مقصورته الظليلة الصغيرة فيما كانت موجات الضحك تغمره من كل الجهات محررة صوراً مكبوتة من الطفولة كانت داخل كيانه فيما جلست قبالته شابة حسناء كأنها وعد مشرق بالسعادة. أرادت لفت انتباهه بغنج ولكن أيضاً بعفة حتى إنها لم تلحق بها أي أذى، كما ظن إنه يستطيع أن يتذكر.

بدت القضية كلها هبة من السماء، دون أي تخطيط بل من لا شيء تماماً. وهذا الابتهاج على وجه التحديد هو الذي كان كونستانتين كونستانتيوس يتمنى تكراره ولكن بلا جدوى. المقصورة كانت محجوزة، والثنائي بيكمان وغروبيكر لم يكونا مضحكين بالمرة، والمرأة الشابة لم تكن هناك. وإذ شعر كونستانتين كونستانتيوس باكتئاب مطلق، أمضى نصف ساعة في المسرح، خلص بعدها إلى أن لا وجود للتكرار. ومع ذلك كرر محاولاته وزار المسرح مرة أُخرى ولكن الشيء الوحيد المتكرر كان استحالة التكرار، وبعدها قرر الرحيل عن المدينة. اكتشافي لم يكن مهماً ومع ذلك كان غريباً لأني اكتشفت إن التكرار غير موجود على الإطلاق، وتوثقتُ من ذلك بتكراره بكل الطرق الممكنة.

الشيء الوحيد المتبقي كان الأمل الضئيل بأن رؤية أهله مرة أخرى ستتحول إلى نوع من التكرار. ولكن حتى هذا لم يحدث. إذ بادر الخادم في غياب سيده كونستانتين كونستانتيوس إلى القيام بعملية تنظيف كبيرة للمنزل قلبت كل شيء رأساً على عقب وإن لم تُنجز بعد: أدركتُ أن لا وجود للتكرار وإن نظرتي السابقة إلى الحياة انتصرت. كم شعرتُ بالخجل لأني، ذلك الشهم مع الشابة، وُضِعتُ الآن في الموقف نفسه بل بدا لي وكأني أنا تلك الشابة، كأن

كلماتي المعسولة، التي لن أُكررها بأي ثمن، لم تكن سوى حلم استيقظتُ منه سامحاً للحياة بأن تسترد [بالدنماركية tage igjen] كل ما أعطته بلا توقف وبلا وفاء – دون أن تعطي تكراراً [بالدنماركية Gjen–tagelse].

النتيجة بنظر كونستانتين كونستانتيوس هي المعرفة السلبية (لكنها ليست عديمة الأهمية) بأن المرء لا يستطيع أن يجري حساباته على أساس اللايقينيات. فالشيء يحدث حين يحدث ولكنه لا يحدث إذا قرر المرء إنه يجب أن يحدث. وهكذا كان كونستانتين كونستانتيوس مقتنعاً تماماً بأنه لو لم يسافر إلى برلين ليرى إلى أي مدى يكون التكرار ممكناً لقضى وقتاً ممتعاً في عمل الأشياء نفسها على وجه التحديد.

عاش بوق البريد

بما إن التكرار هو انقطاع في انتظام الأشياء الآني فإن الصدفة هي انقطاع في الإمكانية الطبيعية لتوقع الأشياء. وهكذا يكون التكرار والصدفة اسمين لحدث مفاجئ يمكن أن يتدخل ويغير مجرى الأشياء لفترة تقصر أو تطول من الوقت. وهذان الاثنان، التكرار والصدفة، يعكسان أحدهما الآخر، لكن التكرار ديني في حين إن الصدفة جمالية. والشخص بلا إرادة على أي منهما، التكرار أو الصدفة. فكلاهما يحدثان بحدوثهما ولكنهما عندما يحدثان فإنهما يمنحان الوجود اكتماله.

على سبيل المثال يجري في وقت ما تذكير كونستانتين كونستانتيوس بكيف أنه قبل ستة أعوام مكث في فندق ريفي واستمتع بوجبة لذيذة. وفيما كان يقف هناك مستمتعاً بكوب قهوة يتصاعد منه البخار نظر فجأة عبر النافذة ورأى شابة في طريقها إلى باحة الفندق مستنتجاً من ذلك إنها متجهة نحو الحديقة. المرء ما زال في شبابه. لذا ارتشفتُ القهوة وأشعلتُ سيجاراً وكنتُ على وشك السير وراء إشارة القدر وخطى الشابة حين تناهى صوت طرق على بابي، وفي الداخل دلفت – المرأة الشابة. أومأت إيماءة آسرة وسألت بحلاوة إن أمكن أن تسافر إلى كوبنهاغن مع كونستانتين كونستانتيوس في عربته، وأدهشته الثقة العفوية التي طرحت بها السؤال حتى غاب فجأة عن نظره ما هو مثير ولاذع، ودون أي مآرب خفية عرض على الشابة أن تعود إلى المدينة بعربته، بل كان على اقتناع بأنه حتى شخص أكثر مسؤولية منه كان سينسى رغباته الخبيثة: الثقة التي

ائتمنتني بها على نفسها كدفاع أفضل من كل مكر المرأة وذكائها. وهكذا كانت استراتيجيته نفسها في الإغواء مكشوفة لتعبير مفاجئ عن الثقة دمر الاستنتاج الذي كان في مجرى التوصل إليه وجعلته ينسى مراميه الاستغلالية الأصلية. لم تصبح الشابة ضحية كونستانتين كونستاتنيوس بل على العكس هو الذي أصبح ضحية ثقتها، ليخرج بعد ذلك إلى هذه الخلاصة: الشابة التي ترغب في المثير تصبح مصيدة تقع هي نفسها فيها. والشابة التي لا ترغب في المثير تؤمن بالتكرار.

لا يستطيع المرء أن يفرض الثقة بإرادته أكثر مما يستطيع أن يفرض تكراراً أو صدفة بإرادته، مثلما إن النفس لا تملك سيطرة على العوامل التي تؤدي إلى الفعل، الموقف، الظاهرة. ويروي كونستانتين كونستانتيوس قصة مؤثرة عن فتاتين صغيرتين في عربة صغيرة فجأة تجدان نفسيهما في موقف خطير حين تنطلق عربة نحوهما بسرعة خاطفة. ولكن بفضل سرعة تفكير المربية في المراوغة بالعربة الصغيرة نجت الفتاتان من كارثة محققة. وكان الجميع قلقين أقصى درجات القلق باستثناء الفتاتين لأن واحدة كانت نائمة قريرة العين فيما كانت الأخرى منهمكة في نقر أنفها دون أن ترمش لها عين. لعلها فكرت، ما شأني أنا؟ إنها مسؤولية المربية. وهنا أيضاً مقصد الحكاية هو العلاقة بين المبادرة البشرية والحتمي الذي جوهره، بالطبع، أن يحدث بحدوثه. والحق إن كونستانتين كونستانتيوس كان يستطيع أن يضيف بالإشارة إلى الفتاة الصغيرة التي كانت تنقر أنفها: أنها كانت تؤمن بالتكرار.

ارتبط بذلك (رغم إنه يختلف تماماً على نحو لا يُنكر) حادث شخصي يذكره كونستانتين كونستانتيوس كالآتي: استيقظتُ ذات صباح وكنتُ أشعر بارتياح على غير المعتاد. ومن دون تفسير ازداد هذا الإحساس بالرخاء طيلة الصباح. وفي الساعة الواحدة بالضبط كنتُ في الذرى ولمحتُ القمة المدوِّخة التي لا تجدها على أي مقياس للشعور بالرخاء، ولا حتى على محرار شِعري. جسدي فقد وزنه على الأرض، كما لو إني بلا جسد، تحديداً لأن كل وظيفة كانت وافية بالكامل، وكل عَصَب سعيد بنفسه وبالأصالة عن الكل في حين كل نبضة من اضطراب الكائن العضوي لم تفعل سوى لفت الانتباه إلى متعة اللحظة... كما لو إن الوجود كله واقع في غرامي، وكل شيء يرتجف في تقارب جليل مع كياني. كل شيء فيَّ كان مترعاً بالبُشرى، وكل شيء كان متحولاً على

نحو غامض بهنائي المجهري... وكما سبق ذكره، في الساعة الواحدة تماماً كنتُ في الذروة حيث كنتُ قادراً على الإحساس بتسام مطلق. وفجأة بدأ شيء يهيِّج إحدى عيني. وما إذا كان رمش العين أو بقعة أو ذرَّة غبار، لا أدري، ولكن ما أعرفه هو: في تلك اللحظة سقطتُ تقريباً في هاوية اليأس. وهذا سيفهمه بسهولة كل من كان في الأعالي كما كنتُ، وفيما هو هناك، اهتم أيضاً بالمسألة النظرية المتعلقة بالمدى الذي يمكن عنده تحقيق الاكتفاء أصلاً. حكاية هذا الصباح السماوي يُمكن أن تُقرأ على أنها محاكاة كاريكاتيرية لنشوة الروحاني، والتشديد المتكرر على ساعة ذروتها بالضبط - في الواحدة تماماً - ينبغي ألا يؤخذ على محمل الجد. ولكن مقصد الحكاية هو الفجاءة التي يظهر بها الهناء، دون سبب متوقع لظهوره ودون تفسير لاختفائه. ولأنه أفلت من سيطرة كونستانتين كونستانتيوس على وجه التحديد فهو يبدي أوجه شبه مع الظهور المفاجئ للشابة الواثقة ومع انعدام الإرادة المطلق للفتاة الصغيرة - باختصار، مع التكرار.

ولكن لم يكد كونستانتين كونستانتيوس يروي قصة صباحه المنتشي حتى بدأ، في نوع من النبذ لطابع التكرار المخادع، يكيل المديح لما يحدث مصادفة، الذي سيكون من الآن فلاحقاً بمثابة مبدئه: عاش بوق البريد! أنه آلتي لعدة أسباب وخاصة لأن المرء لا يستطيع أبداً أن يكون متيقناً من إقناع النغمة نفسها بالخروج من هذه الآلة، لأن لا نهاية من الإمكانات تكمن في بوق البريد، والشخص الذي يضعه على شفتيه ويودعه حكمته لن يكون مذنباً بارتكاب التكرار أبداً. والشخص الذي، بدلاً من الرد، يمنح صديقه بوق بريد، مثل هذا الشخص لا يقول شيئاً بل يفسر كل شيء. عاش بوق البريد! إنه رمزي أنا! ومثلما كان الزاهد القديم يضع على طاولته جمجمة، التأمل فيها يشكل نظرته إلى الحياة كذلك سيكون بوق البريد على طاولتي تذكيراً دائماً لي بمعنى الحياة.

وبهذا يختتم الجزء الأول من التكرار. ويمكن أن يبدأ الجزء الثاني.

أن يصبح المرء نفسه مرة أخرى هو أن يصبح شخصاً آخر

بعد عودة كونستانتين كونستانتيوس إلى شقته اللطيفة واجه صعوبة في قضاء الوقت. وإذ تسلح بـ منشة ذباب أخذ يطارد كل ذبابة ثورية تحاول أن تعكر السلام ولكن القصة لا تعود إلى الحياة إلا عندما يتلقى ذات يوم رسالة

بصورة غير متوقعة. بُعثت الرسالة من ستوكهولم من الرجل الشاب الذي يتضح إن حالته الخطيرة لم تتغير. فالصراع الإيروتيكي ترك فيه أثراً أعمق مما افترض كونستانتين كونستانتيوس في البداية ولذلك يجادل بلا تردد، لم يبق له شيء سوى الإقدام على خطوة دينية.

كونستانتين كونستانتيوس، المتعلّم من خبرة مريرة، ينبغي أن يعرف إن القول أسهل من الفعل في هذا النوع من الأمور. ولعله يعرف لأنه بعد فترة وجيزة يشرح إنه بسبب إدراك الرجل الشاب على وجه التحديد بأن حبه مستحيل من الناحية الإنسانية، يقف على تخوم العجائبي ولهذا السبب لا يمكن أن يتحقق حبه إلا بحكم اللامعول. ولكن من وجهة نظر كونستانتين كونستانتيوس فإن ما يهم الرجل الشاب ليس المرأة الشابة بأي حال - إنه ليس تملكاً بالمعنى الدقيق بل هو التكرار بمعنى شكلي محض. بكلمات أخرى إن المرأة الشابة ليست هي التي يجب أن يستعيدها الشاب المغترب بحكم اللامعقول بل نفسه هي التي يجب أن يستعيدها. ولو تمكن من العودة إليها والتصالح معها لكفَّر عن ذنبه الذي كان سيعود عنه. ومثل هذا التكرار سيكون مغفرة.

من الرسائل الثماني التي يبعث بها الرجل الشاب إلى كونستانتين كونستانتيوس الأولى هي الأطول. وفيها يعترف بانهجاسه المخيف بكونستانتين كونستانتيوس الذي أضفت معقوليته التي لا قلب لها وضوحاً بارداً على عواطفه الرومانسية. ولكن العاطفة سرعان ما أُزيحت إلى الوراء نحو شخصية معروفة ورفيق معاناة غير متوقع من العهد القديم هو أيوب المعذَّب الذي يرى الرجل الشاب في معاناته التي لا توصف ومصيره القاسي وضعه هو بمعالمه الرئيسية. وهكذا يروي كيف أنه يجد متعة في أن ينسخ، المرة تلو الأخرى، كل شيء قاله [أيوب]، أحياناً بالدنماركية وأحياناً أُخرى باللاتينية، أحياناً بهذا الشكل وأحياناً أخرى بذاك، بعدها توضع النسخة على قلبي السقيم مثل ضمادة مصنوعة من العشب الذي يُسمى «يد الله». ولكن هذا لم يكن جوانية خالصة غير مخلوطة لأنه كان يستطيع أن يجعل البيت كله منيراً بحيث يستطيع أن يتلو جزءاً من سفر أيوب - بصوت عالٍ يكاد يكون صراخاً - مثلما كان أحياناً يفتح نافذة ويهتف كلماته إلى العالم. وإذا كان حبه منذوراً ذات يوم لامرأة فإن عاطفته الآن لسفر أيوب وبالمعنى الحرفي للكلمة لأنه مثلما يتقاسم الرجل الشاب وأيوب مائدة العشاء فإنهما يتقاسمان الفراش أيضاً - هكذا آخذ الكتاب معي في الليل!

ومثلما حل الكتاب محل الرجل الشاب كذلك العاطفة الإيروتيكية حلت محلها الرغبة في القراءة: رغم إني قرأت الكتاب المرة تلو الأخرى فإن كل كلمة فيه ما زالت جديدة عندي. وكلما أقترب منه يولد من جديد أو يصبح شيئاً جديداً في روحي. مثل مخمور أرتشف شيئاً فشيئاً كل ما في العاطفة من سُكُر إلى أن يجعلني هذا الرشف البطيء غائب الوعي تقريباً بالمشروب. صبَّ الرجل الشاب حبَّه كله في الكتابة، في سفر أيوب، وزاوَجَ جنسويته مع تناص الكتاب ولكن حين يرفع نظرته الشهوانية عن الصفحة يكون كما لو إن النص يستعيد التكرار تاركاً الشاب في حالة يأس تجد أسطع تعبير عنها في الرسالة المؤرخة 11 تشرين الأول/ أكتوبر: أُوصلتْ حياتي إلى نقطتها القصوى. أنا مشمئز من الوجود، فهو بلا ذوق وبلا ملح أو معنى. وحتى إذا كنتُ أكثر جوعاً من بيرو فلن آكل من التفسير الذي يقدمه البشر. فالمرء يدس إصبعاً في التراب ليقول من الرائحة ما هو البلد الذي يوجد فيه. وأنا أدس إصبعي في الوجود فلا أشم له رائحة. أين أنا؟ ماذا يعني هذا، «العالم»؟ ماذا تعني هذه الكلمة؟ مَنْ أوقعني في هذا الأمر كله والآن يتركني واقفاً هنا؟ مَنْ أنا؟ كيف جئتُ إلى العالم؟ لماذا لم يؤخذ رأيي؟ لماذا لم يجر تعريفي على العادات والقواعد بل دُفعت بدلاً من ذلك إلى الصفوف وكأن ضابط تجنيد أجبرني على الانخراط فيها؟ كيف نلتُ حصة من المؤسسة الكبرى التي يسمونها الواقع؟ لماذا يجب أن تكون لي حصة فيها؟ أليست المسألة مسألة خيار حر؟ وإذا أُجبرت على ذلك فأين المدير لأن لدي شيئاً أقوله؟ ألا يوجد مدير؟ لمن أوجه شكواي؟ فالوجود مناظرة ولذلك ألا يجوز أن أطلب أخذ آرائي في الاعتبار؟... ألن يجيب أحد؟ أليس هذا ذا أهمية قصوى للسادة المعنيين؟ كيف حدث أن أصبحتُ مذنباً؟ أم إني لستُ مذنباً؟ لماذا، إذاً، يلصقون بي هذه اليافطة بكل اللغات؟ أي نوع من الاختراعات البائسة هي لغة الإنسان حين تقول شيئاً وتعني شيئاً آخر؟

هنا أعاد الرجل الشاب كتابة أسئلة أيوب في بيان لامعقول حديث دعوتُه الحارة إلى معنى تتبدد في الصمت. وفي حين إن الله كان محور صراع الرجل الشاب فإنه لا يتمكن حتى من إيجاد المدير الذي يستطيع أن يضمن إن هناك معنى وراء اللامعنى ويلغي المفارقة الفاعلة في اللغة التي تقول شيئاً وتعني شيئاً آخر. وتكرر المسافة بين اللغة الحقيقية واللغة الكاذبة المسافة بين الرجل الشاب وقصة أيوب لأنه في ذات اللحظة التي يماهي فيها نفسه مع أيوب يجب أن يقدم

اعترافاً مؤلماً بأن تماهيه لا يمنحه هوية جديدة. وهو يكتب، كعهدنا به، إن روح أيوب المعذَّبة تنفجر بصرخة قوية، وأنا أفهم هذه الكلمات وأتخذها كلماتي. ولكنه يتابع مبتسماً ومكابداً بقدر متساوٍ: في الوقت نفسه أشعر بالتناقض وأبتسم على نفسي مثلما يبتسم شخص على طفل صغير ارتدى ملابس والده. الرجل الشاب يدرك إنه غير قادر على تكرار قصة أيوب لأنه مهما قرأ القصة بعاطفة متقدة ويضيف إليها نفسه بالكتابة فإنها تبقى دائماً أكبر منه مقاساً!

تدريجياً، يعطي الرجل الشاب، حين يهدأ انهجاسه المحموم، تفسيراً أرصن لعَظَمة أيوب التي تكمن برأيه في إصرار أيوب إصراراً لا يعرف المهادنة على أنه محق. وكان أيوب يعرف إنه على حق ولكنه لم يعرف إلى أي مدى سينال حقوقه، ولذلك ظلت الفترة كلها، حتى تأكده النهائي، محنة له – بما إن المحنة مقولة مؤقتة، فإنها تُعرَّف بحكم ذلك بالإشارة إلى الزمن ولذلك يجب أن تُلغى في الزمن. ويشرح الرجل الشاب مقصده: إن أيوب مبارَك وتلقى كل شيء مضاعفاً – وهذا ما يُسمى تكراراً. يا سلام، أليس الشعور بالعاصفة الرعدية بهيجاً!

بما إن هذه هي المرة الأولى التي يستخدم فيها الرجل الشاب مفردة تكرار في رسائله فإن من المخيّب أن نراه يستخدمها هذا الاستخدام الحرفي حتى يكاد أن يبتذلها مُضفياً عليها معنى يختلف تماماً عن المعنى الذي أعطاه لها كونستانتين كونستانتيوس في مدخل الكتاب. ولا تتحسن الأمور حين يقول لنا الرجل الشاب بعد ذلك إنه نفسه ينتظر الآن ببساطة هبوب عاصفة رعدية – وحدوث تكرار. ورغم محاولاته العديدة لشرح استعارته التي تستوحي الأنواء الجوية فإنه يبقى ضبابياً بعض الشيء. ما الذي يُفترض أن تأتي به هذه العاصفة الرعدية؟ كما يسأل مصيباً. ويجيب عن سؤاله: أن تجعلني مؤهلاً للزواج. إنها ستمحق شخصيتي كلها. وأنا جاهز. ستحولني بحيث أكاد ألا أتعرف على نفسي... إذا لم تأت العاصفة الرعدية سأصبح خبيثاً.

والقارئ أيضاً يبدأ أن يصبح خبيثاً بعض الشيء، يساوره الظن المتسلل بأن شيئاً ما سيختل تماماً. ولذلك يهلل القارئ حين يُدخل كونستانتين كونستانتيوس احتجاجاً بين رسالة الرجل الشاب الأخيرة ورسالته قبل الأخيرة. وواضح من هذا الاحتجاج إن كونستانتين كونستانتيوس، مثله مثل القارئ، لاقى صعوبة في

أخذ هذا الأمر على محمل الجد: إنه يعاني من نُبل حزين في غير محله، لا مكان له إلا في رأس شاعر. وهو ينتظر عاصفة رعدية ستجعله زوجاً، ربما ضربة. إنه العكس تماماً. ويضيف كونستانتين كونستانتيوس إنه يجد من السخف أن يرتبط بكائن يضع عاصفة رعدية في يده بوصفها ورقته الرابحة.

يختار كونستانتين كونستانتيوس - مرة أخرى - التخلي عن الرجل الشاب لكنه ما أن يتخذ هذا القرار حتى تصل رسالة أخرى، الأخيرة في السلسلة، تعلن في سطورها الافتتاحية: إنها متزوجة. لمن، لا أعرف لأني حين قرأتُ ذلك في الصحف كأني تلقيت ضربة. فقدتُ الجريدة، ومنذ ذلك الحين لم يكن عندي صبر للتحري بمزيد من الاستفاضة. أنا نفسي مرة أخرى. وهنا لدي تكرار. أفهم كل شيء، والوجود يبدو لي أجمل من أي وقت مضى.

الرجل الشاب يفهم كل شيء. القارئ لا يفهم. الرجل الشاب تزوج امرأة أخرى. كان ذلك في الجريدة وكفى. فكل التعريفات التي كان من المفترض أن يضيف الكتاب بها ثقلاً فكرياً على مقولة التكرار، تختفي متبخرة بدفعة رقيقة من حدث يقع صدفة. كتب الشاب بطريقة متوترة حدث بالفعل كالعاصفة الرعدية. ولكن التشبيه البلاغي الصغير بالعاصفة الرعدية تشبيه أُحسن اختياره، وهو لا يتردد في إضافة فقرة نهائية مهينة، حتى إذا كان كرمها هو الذي أُدين له بحقيقة حدوثه. وهذه هي الحال على نحو لا يُنكر وبالتالي فإن المرأة تقف إزاء الرجل الشاب في المكان نفسه الذي يشغله الله إزاء أيوب. وهكذا فإن امتلاك الرجل الشاب نفسه من جديد لا يكون تكراراً بالمعنى الأصدق للكلمة. وهذه الحقيقة تؤكدها لا إرادياً أسئلته الخطابية بكل إيماءاتها المتوسلة: أنا نفسي مرة أخرى. هنا لدي تكرار... الانقسام الذي كان جزءاً من كياني انتهى وأنا موحَّد من جديد... أليس هذا تكراراً؟ ألم أسترد كل شيء مضاعفاً؟ ألم أسترد نفسي ثانية وتماماً بطريقة حتى إني كنتُ قادراً قدرة مضاعفة على الشعور بأهمية ذلك؟

العمل لا يرتقي إلى المتطلبات اللاهوتية للتكرار بوصفه مغفرة، الأمر الذي كان مقصد الكتاب في الأصل. لذا من المناسب إجمالاً أن يختم الرجل الشاب رسالته الأخيرة بتحميدة مؤثرة لكرم المرأة لأنها، كما سبق ذكره، هي، وليس الله، التي كانت مدعاة تصالح النفس مع نفسها: كأس الخمرة يُقدَّم لي مرة أخرى. أتنشق في شذاها. أشعر بموسيقاها الفوارة. ولكن أولاً لنصبُّ لها

رشفة. فهي أنقذت روحاً كانت قابعة في وحدة اليأس: الحمد لكرم المرأة! عاش هروب الفكر! عاشت مخاطرة المرء بحياته في خدمة الفكرة! عاش خطر المعركة! عاش الاحتفال المهرجاني بالنصر! عاش الرقص في عاصفة اللانهاية! عاش تلاطم الأمواج التي تخفيني في الهاوية! عاش تلاطم الأمواج التي ترميني وراء النجوم!

عاشت الهتافات! ولكن قبل أن نرفع كأسنا، حسبنا أن نلاحظ حقيقة إن التكرار ليس مشمولاً بهذه السلسلة الوقحة من الأنخاب. وحين بدأت الخمرة تدور في الرأس ويجب أن تظهر الحقيقة حسبنا أن نفكر بأنه ربما ليست هناك نزاهة في أنشودة بوق البريد التي شهد بها كونستانتين كونستانتيوس على تشاؤمه أكثر مما في تحميدة الابتهاج المضللة التي رددها الرجل الشاب.

تدخل الواقع

طُبع بزاوية قائمة على الصفحة الثانية بأكملها إطار مستطيل كُتبت في داخله الكلمات التالية: إلى الفاضل مستر X القارئ الحقيقي لهذا الكتاب. ولا يوجد شيء آخر على الصفحة ولكن هذا يكفي على ما يبدو لاستدراج القارئ إلى استراق النظر إلى الصفحة التالية حيث يجد الكلمات التالية: عزيزي القارئ! أستميحك المعذرة لمخاطبتي إياك بهذه اللهجة الأليفة، لكننا وحدنا في كل الأحوال. ورغم إنك في الحقيقة شخصية شعرية فأنت بنظري لست كياناً متعدداً بأي معنى من المعاني بل شخصاً واحداً فقط، وبالتالي نحن الاثنين نبقى أنا وأنتَ.

هذا النوع من الألفة يغري القارئ بأن يصبح مستر X، قارئ الكتاب الحقيقي القادر على تأهيل نفسه لهذه التسمية عن استحقاق. وبالفعل، قبل أن يمر وقت طويل تحل محل اللهجة الحميمة لهجة أشد توكيداً تنتهي بالشكوى من أن لا أحد يكترث هذه الأيام بأن يهدر لحظة على الفكرة الغريبة القائلة إنه لفنٌ أن يصبح المرء قارئاً جيداً، وأقل من ذلك اكتراثه بأن يصرف الوقت الذي يحتاجه لكي يصبح مثل هذا القارئ. وبالطبع فإن لمثل هذا الوضع المشين تأثيره في الكاتب الذي برأيي يفعل الصواب حين يكتب، مثل إكليمنتس الإسكندري، بطريقة بحيث إن الهراطقة لا يكونون قادرين على فهمه.

كما نعلم لاحقاً فإن كونستانتين كونستانتيوس هو المسؤول عن هذا القول

المتغطرس، وسرعان ما يثير شكوكاً فيما إذا كان القارئ فَهِمَ دواخل الكتاب. ولا تتحسن الأمور عندما يذكر كونستانتين كونستانتيوس، قبل أقل من ست صفحات على خاتمة الكتاب، إن تقدم الكتاب معكوس، أي بالمقلوب، بحيث يتعين على القارئ أن يستدير بالمعنى الحرفي بهذا القدر أو ذاك لكلمة الاستدارة ويبدأ من جديد قراءة التكرار الذي له سمة خاصة هي أن يستعيد قدراً ليس بالقليل مما أعطاه خلال القراءة الأولى. وعلى سبيل المثال إن الكتاب أوحى بأنه حلقتان منفصلتان ومستقلتان يستكملهما ويحددهما كونستانتين كونستانتيوس والرجل الشاب على التوالي. ولكن الآن يُراد منا أن نفهم إن كونستانتين كونستانتيوس اخترع الرجل الشاب لإلقاء ضوء على الأسس والعوامل النفسية التي تقود الشخص إلى أن يصبح استثناء دينياً. إذ يكتب كونستانتين كونستانتيوس دون أن يطرف له جفن على ما يُفتَرَض إن هذا الرجل الشاب الذي أوجدته شاعر، ثم يضيف هذه المعلومة التقنية الجافة: كان مشروعي نشاطاً جمالياً ونفسياً حصراً بالنسبة لي.

عند هذه النقطة ينتقل كونستانتين كونستانتيوس من كونه أحد راوِيَيْن في القصة إلى كونه كاتب القصة نفسها. وهكذا كان هو وليس الرجل الشاب مَنْ كتب الرسائل من ستوكهولم. وبالتالي لم تكن مصادفة محضة أن تقرب هذه الرسائل في بعض الأحيان من المحاكاة الساخرة عائدة بنا إلى القسم الاستهلالي الباروكي للكتاب وإلى زيارة برلين. ومع ذلك يعتقد كونستانتين كونستانتيوس إن الرجل الشاب لم يستوعب مفهوم التكرار وإنه ما زال يفتقر إلى روح أعمق ذات نَفَس ديني لـــــــ الفرح الترنيمي الذي أعرب عنه، وخاصة في رسالته الأخيرة. ولكن لو كان له أساس ديني أمتن لكانت لديه الجدية التي تجعل من الممكن ازدراء كل المقالب الطفولية للحقيقة الواقعة.

لكن كونستانتين كونستانتيوس لا يتوقف عند الكشف البسيط بأنه مخترع الرجل الشاب بل يمضي خطوة أبعد ويعترف بكل صراحة قائلاً وأنا أدخلت نفسي فيه. المعنى الكامل لهذا الاعتراف ليس واضحاً ولكن الواضح إن كونستانتين كونستانتيوس، في حاشيته، يريد أن يختم بالدم والحبر عهداً مع مخلوقه المنكود الرجل الشاب الذي كان كونستانتين كونستانتيوس - بحسب تقريره هو - دائماً يكن له مودة كبيرة. وهو يعترف راضياً بأن الأمور كانت تبدو بين حين وآخر مختلفة قليلاً ولكن هذا كان مجرد سوء فهم هو سببه لكي يصوَّرَ

الرجل الشاب على أنه من طراز خاص. كل حركة قمتُ بها كان لها غرض واحد هو أن أُضيئه. كان ماثلاً على الدوام في ذهني. وكل كلمة تلفظتها كانت تبدو وكأنها صادرة من لسان آخر أو نُطقت بالإشارة إليه... وهكذا فعلتُ ما بوسعي من أجله، مثلما أبذل الآن مجهوداً لخدمتك عزيزي القارئ بأن أكون شخصاً آخر.

عند هذه النقطة لعل الوقت حان لتقديم احتجاج أو على الأقل تسجيل شيء من الاستنكار الشكوكي. إذ مهما بلغ السحر والتهذيب اللذان يحاول كونستانتين كونستانتيوس أن يحشّدهما فإن حاشيته تخلّ بالمفهوم الأساسي للكتاب على نحو لا يبدو مجدياً بصفة خاصة. وقد نغفر له أن يكشف كونه المؤلف الشاعري لشخصية الرجل الشاب رغم إنه بعمله هذا يقف على حافة إلغاء المسافة بين الجزء الأول الساخر بشكل سافر وجزئه الثاني، الجاد على ما يُفترَض. ولكن ما هو أسوأ بكثير إنه أدخل نفسه فيه لأن هذا يجعل شخصيات العمل هلامية حتى أنها تبدأ بالذوبان في اللّاشَكْل المطلق. ولا تتحسن الأمور في الحاشية عندما يتوجه كونستانتين كونستانتيوس إلى القارئ بطريقة تنضح مساعدة عارضاً نفسه علينا عن طيب خاطر بشكل آخر لأنه ليس في الكتاب نفسه ما يستلزم هذا النوع من التغير.

التغير لازم مع ذلك. فالنسبية المنظورية للحاشية ليست نتاج رغبة لممارسة مكر جمالي بقدر ما هي نتاج حاجة إلى إخفاء الانهيار الإنشائي للكتاب - الذي يعكس على ما يبدو الانهيار العصبي لمؤلفه الحقيقي. وهذا الشخص، يا قارئي، هو بالطبع ليس كونستانتين كونستانتيوس بالمرة بل رجل يسمي نفسه كيركغارد.

تتضح غرابة الكتاب إلى حد ما لدى التدقيق في مخطوطة التكرار التي تتألف من دفترين اعتياديين بعض الشي بحجمين مختلفين وورق ملون مختلف، أحدهما ضارب إلى الزرقة والآخر ضارب إلى الصفرة. وكان هذان الدفتران اللذان يضمان في مجموعهما 160 صفحة، بمثابة المسودة ومخطوطة الطباعة. ولذلك انطلق العمل بقدر من السرعة - رغم إن هذه السرعة لا تعني إن العملية كانت بسيطة ومباشرة. فإن نظرة واحدة على التغيرات التي مرت بها صفحة العنوان تكشف عن تردد لافت. وكان التكرار عنوان العمل منذ البداية ولكن كانت هناك متاعب مع العنوان الفرعي: العنوان الفرعي مغامرة غير مثمرة

حُذف ليحل محله مغامرة في الاكتشاف وسرعان ما شُطب هذا العنوان الفرعي الذي جرب كيركغارد بعده العودة إلى مغامرة غير مثمرة. وحُذِفَ هذا العنوان الفرعي لصالح مغامرة في الفلسفة التجريبية الذي أُسقط بدوره وحل محله سيكولوجيا. وسُجل اسم المؤلف على أنه كونستانتيوس الرجاء الصالح - وهو اسم بُدّل إلى فكتورينوس - وبعده استقر كيركغارد (ولكن ليس قبل أن يجرب العنوان الفرعي فالتر) على كونستانتين كونستانتيوس بوصفه الاسم المستعار لمؤلف العمل.

أنهيتُ عملاً، كتب كيركغارد مفتخراً إلى بويسن من برلين في 25 أيار/ مايو 1843. كان كيركغارد يقصد التكرار ولكن لا يُعرف إلى أي مدى كان العمل الذي في أمتعته يشبه ما آل في النهاية إلى أن يكون الكتاب المُنجَز. فالمواد النصية الباقية لا تسمح بأي إعادة حقيقية لبناء أصل العمل ولكن من الواضح إن كيركغارد شعر ملزَماً بتنقيح حكايته وتوسيعها مُدخِلاً تعديلات جذرية على الحبكة. إذ كان يُفترَض بـ الرجل الشاب أن ينتحر في الأصل وبحالته هذه التي فارقتها الحياة كان يُفترض أن يصل إلى كوبنهاغن. ولكن خلال حزيران/ يونيو أو تموز/ يوليو بُعثت الحياة في الرجل الشاب بسلسلة من المناورات التي يمكن أن نراها في أماكن مختلفة من المخطوطة - على سبيل المثال حيث حذف كيركغارد المادة المحصورة بين أقواس في المقطع التالي: باح لي بصراحة ساحرة (لن أستغلها لأنه ميت) بأن سبب زيارته لي هو حاجته إلى شخص يأتمنه على أسراره. وعندما رفض الرجل الشاب الاستراتيجية الكلبية التي اقترحها عليه كونستانتين كونستانتيوس كان تفسير ذلك أنه لا يملك القوة على تنفيذ الخطة رغم إن كيركغارد كتب بالأصل في المخطوطة إنه أطلق النار على نفسه. وبطريقة مماثلة في مكان آخر تتغير ذكرى موته في الهامش إلى ذكرى اختفائه.

لا يمكن أن نحدد متى كان الانتحار في الأصل لأن كيركغارد، بعد رسالة الرجل الشاب قبل الأخيرة بتاريخ 17 شباط/ فبراير، استخدم مقصاً للتخلص من خمس أوراق في دفتر مخطوطته أربع أوراق منها على الأقل كُتب عليها بكل تأكيد. وقياساً على النتف الشحيحة من الكتابة الباقية إلى جانب الهوامش الداخلية بجوار غلاف الكتاب فإن هذه الأوراق الخمس (التي تشكل عشر صفحات صغيرة) تضمنت، كما يبدو، تعليقاً نقدياً على توقعات الرجل الشاب

العاصفة لحدوث تكرار وشيك، الأمر الذي يشير إلى أن للنص قدراً من الشبه بالمقطع المليء بالاحتجاج الذي أدخله كونستانتين كونستانتيوس في النص النهائي. ومع ذلك فإن هذا يترك سبع صفحات غامضة يمكن أن نفترض إنها كانت أيضاً تحتوي على مشهد دراماتيكي لأنه لا بد أن تكون هذه هي المرحلة التي أنهى فيها الشاب التعيس حياته حين كان في ريعان الصبا بدافع اليأس إزاء غياب التكرار على ما يُفترض.

صحيح أن إطلاق رصاصة على الرأس ليس حلاً أدبياً أصيلاً لأزمات الروح ولكن التدخلات المختلفة في النص لم تحدث وعينٌ مصوبة نحو الأصالة. وإذا كان بطلنا الشاب انتحر أولاً بسبب غياب التكرار - ولذلك بُعث من جديد بغية إعلان محاكاة ساخرة للتكرار - فلأن قارئ الكتاب الحقيقي، خلال الفترة التي مرت بين كتابة الأسطر الأولى في دفتر المخطوطة الأول وكتابة الأسطر الأخيرة في الدفتر الثاني، خيَّب بكل تأكيد أمل المؤلف بالتكرار: في تموز/ يوليو 1843 خُطبت ريجينة لشخص آخر وأُغلقت صفحة. ولكن في حين إن الرجل الشاب رضي في التكرار بفقدان الجريدة التي قرأ فيها نبأ خطوبة حبيبته فإن كيركغارد نفسه فقد الثقة بكتاب التكرار كطريقة غير مباشرة للتواصل مع ريجينة. وهكذا أُريد لكتاب التكرار، في الأصل، أن يكون بمثابة رفض لإمكانية تكرار علاقتهما وجرى التعبير عن ذلك رمزياً بانتحار الرجل الشاب. ولكن بعد خطوبة ريجينة أصبح هذا التواصل غير المباشر بلا معنى، ولذلك كان بالإمكان إعادة الرجل الشاب إلى الحياة ليتمكن كيركغارد من الادعاء بأن التكرار الذي اهتم به لم يكن تكراراً للعلاقة مع المرأة ريجينة بل كان تكراراً دينياً يجعل شفاء الشخص أو امتلاك نفسه من جديد أمراً ممكناً. وتنشأ إزاحة مشوِّشة الآن بين التكرار المقصود في الأصل والتكرار الذي حدث بالفعل، ويحاول كونستانتين كونستانتيوس التقليل قدر الإمكان من المشكلة بالتوجه إلى إرادة القارئ الطيبة وإهداء عمله إلى القارئ العزيز وكذلك بإرفاق حاشية يردُّ فيها الاعتبار إلى الرجل الشاب أخلاقياً ودينياً. كما إن المقطع الذي يسبق رسالة كونستانتين كونستانتيوس إلى القارئ يكشف عن آثار إعادة صياغة جذرية، والمخطوطة إعصار حقيقي من المقاصد المتضاربة بإضافات وحذوفات متتالية. وكانت هذه الطريقة الوحيدة لكي يتوثق كيركغارد من إن التكرار يستذكر ما كان رسالته إلى ريجينة.

1: 50

لا أحد يعرف متى أو ممن تلقى كيركغارد نبأ خطوبة ريجينة، ولكنه كان نبأ مؤلماً. ونوازع كراهية المرأة التي نلمسها في استدراك كونستانتين كونستانتيوس بين الرسالة قبل الأخيرة والرسالة الأخيرة في النص النهائي للعمل، تقفز واضحة بوجه من يقرأ مسودة كيركغارد، حيث أهرق الكثير من الحبر لتمويه الإشارة المقيتة إلى أن الشابة التي توظف وسائل دينية في خدمة خديعة إيروتيكية [يجب] ألا تُعرَف من ضرس أسود فيها بل إن وجهها كله يجب أن يكون أخضر رغم إن هذا قد يكون مغالاة في التمني لأنه في هذه الحالة ستكون هناك كثرة مهولة من الفتيات الخضراوات. كان هذا موجهاً إلى ريجينة، تماماً بين عينيها، حيث تطفح اليوميات بالحقد: حوار: شخص ذو حس فكاهي يلتقي فتاة أكدت له ذات مرة إنها ستموت إذا تركها. وحين يلتقيها الآن تكون مخطوبة. يحييها ويقول «اسمحي لي أن أشكركِ على ما أبديتِهِ لي من كرم. أرجو أن تسمحي لي بالتعبير عن تقديري». (يُخرج ماركين وثمانية شلنات من جيب صديريته ويعطيها إليها. الغضب يعقد لسانها لكنها تبقى واقفة هناك آملة أن تُرهبه بنظرتها. يتابع هو): «هذا لا شيء، إنه للمساعدة في شراء جهاز العروس، ويوم تتزوجين وتضعين اللمسات الأخيرة على التفاتتك الكريمة، أتعهد بكل ما هو مقدس – بالله وبخلاصك النهائي – أن أرسل إليك ماركين وثمانية شلنات أخرى». لا يُنكر إن هذه الأسطر تشع رغبةً في الانتقام، وبالفعل، فإن إيلين بويسن ارتكبت في مذكراتها زلة قلم وأعطت كتاب التكرار [بالدنماركية Gjentagelsen] عنواناً خاطئاً هو الانتقام [بالدنماركية Gjengjaeldelsen].

لو حدث التكرار فعلاً وأصبح كيركغارد رجلاً متزوجاً لما كُتب التكرار قط بكل تأكيد. الآن كُتب، وكان بمثابة تعويض عن غياب التكرار. واللافت إن الشخص الوحيد الذي نجح التكرار معه كان ريجينة التي التمّ شملها مجدداً مع فريتز واستطاعت أن تبدأ من جديد – بفضل كيركغارد الذي شغل نفسه بحكاية عن أهمية الأحداث التي تقع بطريق الصدفة. ماذا كان سيحدث لو إنه لم يرد على إيماءة ريجينة ذلك اليوم في الكنيسة مانحاً بركته دون أن يدري لعلاقتها بفريتز؟ وهكذا يبدو كونستانتين كونستانتيوس مصيباً في تأكيده إن الوجود عميق عمقاً لا نهائياً لأن قوته الحاكمة تعرف كيف تأسِر بطريقة تختلف تماماً عن طريقة كل الشعراء مجتمعين.

على أية حال، في 16 تشرين الأول/ أكتوبر 1843 كان بمقدور المرء أن يشتري بخمسة ماركات (أو ثمانين شلناً) نسخة من التكرار الذي استقر أخيراً على العنوان الفرعي مغامرة في علم النفس التجريبي. وحينذاك بدأ كل شيء يكرر نفسه حقاً، حتى هايبرغ الذي مر على الكتاب سريعاً بطريقته المعهودة في الدردشة. ونشر في يورانيا Urania الصادرة بتاريخ 19 كانون الأول/ ديسمبر 1843 مقالاً بعنوان السنة الفلكية استعرض فيه الكتاب وأثار، من بين أشياء أخرى، اعتراضات بأن التكرار لا ينتمي إلى عالم الفلسفة وإنما إلى عالم الطبيعة حيث يشكل نظيراً هادئاً لعلّات روحية مثل المالنخوليا والسوداوية وبالتالي فإنه من المفاتيح الأساسية لحكمة الحياة الحقة.

وإذ أساء هايبرغ - المعروف عادة بأنه قارئ دقيق - فهم كيركغارد شعر هذا بالحاجة إلى أن يكتب رسالة مفتوحة لطرح قضيته بكل وضوح: حين يعرِّف أحد التكرار بهذه الطريقة فإن التكرار يكون حركة دينية متسامية بحكم اللامعقول، وعندما يصل المرء إلى تخوم العجائبي، تكون الأبدية هي التكرار الحقيقي. لذلك أعتقد أنّي عبرتُ عن نفسي بشكل مفهوم لقارئ الكتاب الحقيقي. قد يظن المرء ذلك ولكن هايبرغ نظر إلى القضية نظرة مختلفة تماماً، ولذلك حمل عليه كيركغارد بتصحيحات في صفحة تلو الأخرى حتى إن النسبة بين انتقادات هايبرغ وردود كيركغارد كانت 1 إلى 50، وهي نسبة بعيدة عن التناسب تماماً، الأمر الذي أدركه كيركغارد في النهاية وأحال الأمر كله إلى علبة صغيرة وضع عليها يافطة تقول ينبغي ألا أُضيع وقتي.

وكان كيركغارد محقاً في ذلك. إذ كان هناك في الحقيقة أمر آخر ينبغي الالتفات إليه.

النص المشطوب

لو كانت عندي ثقة لبقيتُ مع ريجينة. الحمد لله إني أدركتُ هذا. ومؤخراً كدتُ أفقد عقلي. هذه الكلمات كُتبت في 17 أيار/ مايو 1843 وبالتالي هي من إقامة كيركغارد الثانية في برلين حيث أنجز النص الأول من التكرار وبدأ العمل على الخوف والرعدة. وطمس كيركغارد لاحقاً ما كتبه في اليوميات عن ريجينة بالكثير من دوائر الكورليكو (أشكال تزيينية تُستخدم في الخط والتصميم) التي رسمها على النص بالحبر. ولكن العين المدرَّبة تستطيع بمساعدة مجهر أن تعيد بناء

النص الذي شطبه: بمعنى جمالي وفروسي أحببتُها أكثر بكثير مما أحبتني وإلا ما كانت ستتعامل معي باستعلاء أو تقلقني لاحقاً بصراخها. ولذلك بدأتُ كتابة حكاية عنوانها مذنب - غير مذنب تحوي بالطبع أشياء يمكن أن تُذهل العالم - ولكن ذلك لم يذهل كيركغارد نفسه لأنه كان يضم في داخله شعراً يفوق كل الروايات مجتمعة.

القفزة من الصراخ إلى الكتابة - من الألم لفقدان ريجينة إلى الإعلان الاستعراضي عن الشروع بعمل جديد - حدثت بمباشَرة تعويضية على نحو خاص ولكن لا يُعرف إلى أين وصل صاحبنا المغترب في كتابة حكايته. وعلى أية حال ليست هناك مخطوطة باقية بل قصاصتان وضعهما في ملف برلين الأسود الذي حُفظ حينذاك في صندوق من الماهاغوني ظهرت منه الصفحات أول مرة في العام التالي حين بدأ كيركغارد يعمل بحمية على حكاية مذنب؟/ غير مذنب؟ وتحوي إحدى القصاصتين تحسراً رومانسياً لولادته عجوزاً وغريباً أبدياً في حين تصف القصاصة الأخرى بنوع من الحزن الفوار فتاة في السادسة عشرة لا تملك شيئاً على الإطلاق، ولا حتى مجموعة أدراج أو خزانة وبالتالي لا تستخدم إلا الدُرج الأسفل من خزانة والدتها حيث تحفظ الفستان الذي ارتدته حين تلقت سر الميرون وترنيمتها التي تقول فيها: محظوظ من لديه هذه القلة من الممتلكات بحيث يستطيع أن يسكن في الدُرج المجاور لدُرجها.

هناك تشديد على ألم الاغتراب وأمل الوقوف على أرض راسخة في الحياة الواقعية. وتشير هذه الهموم مباشرة إلى الموضوعة - والتنويعات - التي كان كيركغارد يشتغل عليها في مخطوطة الخوف والرعدة، وهو عمل يركز إلى حد بعيد على الظروف التي تجعل من الممكن أن يستعيد الشخص علاقة مباشرة مع نفسه ومع العالم. وكانت لدى كيركغارد أفضل المؤهلات التي يمكن تخيلها لوصف هذه المشكلة من الداخل ولكننا نفهم إنه كان يريد الحد من استخدام مواد من سيرته الذاتية قدر الإمكان. وهكذا أوضح في النص المشطوب إن العلاقة مع ريجينة يجب ألا تكون متبخرة في الشعر لأنها ذات نوع من الواقع مختلف تماماً. إذ كانت ريجينة قَدَراً مؤكداً وليست نبضة شعرية. وكان يعتقد أنّه أحسن معاملتها بأن وفر عليها ألمه وبالتالي فإنه من وجهة نظر جمالية محضة تصرف بقدر كبير من الإنسانية تشهد عليها أيضاً، في اعتقاده، حقيقة إنه لم يتكلم مع أي شابة منذ قطع علاقته مع ريجينة. وهكذا فإنه ليس الشرير الذي كان الناس يظنونه لأن من المؤكد في الحقيقة... من المؤكد ماذا؟

لن نعرف أبداً. فالمخطوطة تتابع ببضع كلمات لا يمكن فك طلاسمها سرعان ما تضمحل إلى لا شيء لأن كيركغارد انتزع الصفحات 52 – 53 من يومياته. ويُفترَض إنه كتب شيئاً حميمياً للغاية وبعد ذلك – قرر بكل برود أن يحرم الأجيال القادمة من الاطلاع على تفاصيل مهمة. ويتواصل النص بصورة مفاجئة من أعلى الصفحة التالية في اليوميات: كان سيحدث بكل تأكيد. ولكن في الزواج لا يُباع كل شيء «كما هو» ما إن تهبط مطرقة البائع في المزاد. ما يهم في الزواج أن يكون المرء صادقاً بعض الشيء بشأن الماضي. وهنا أيضاً تكون فروسيتي واضحة. لو لم أحترمها بوصفها زوجتي في المستقبل أكثر من احترامي لنفسي ولو لم أكن أكثر صوناً لشرفها من شرفي لحفظتُ لساني ونفذتُ أُمنيتها وأُمنيتي، وسمحتُ لنفسي بالزواج منها. هناك زيجات كثيرة تخفي حكايات صغيرة. وأنا لم أرد أن تكون هذه هي الحال معي لأنها حينذاك كانت ستصبح جاريتي. وكنتُ أُفضل أن أقتلها على أن تكون ذلك.

ثم يواصل النص المشطوب طارحاً تفسير كيركغارد الذي (ربما) يفسر أيضاً لماذا أراد أن يحذف كلماته السرية من الورق: ولكن لو شرحتُ موقفي لتعين علي إطلاعها على أكثر الأمور رعباً، على علاقتي بالوالد ومالنخوليته السوداء، على الليل الأبدي الذي يسكن في الأعماق، على ضلالي وشهواتي وتجاوزاتي – التي لعلها ليست بتلك الفظاعة في عيون الله لأن القلق، في كل الأحوال، هو الذي دفعني في طريق الضلال. وأين أستطيع البحث عن ملاذ حين عرفتُ أو ظننتُ بأن الرجل الوحيد الذي أُعجبتُ به لقوته وقدرته قد اهتز؟

كانت العلاقة مع ريجينة لا تنسجم مع علاقته بوالده الذي بعد زمن طويل على وفاته ظل قادراً على تشويه إيروس ولده وعرقلة قدرته على العطاء بنفسه. لم يتمكن كيركغارد من شرح ذلك لريجينة: لم يكن لديها أي أساس لفهمه، وهو نفسه كان يفتقر إلى الشجاعة أو القوة أو الثقة المطلوبة. وهذا ما أدركه في غرفة فندقه في برلين. فبعد النص المشطوب مباشرة يبدو أنّه حدَّد السمات العامة لهذه البصيرة: هكذا يعقد الإيمان أمله على هذه الحياة أيضاً – لكنه يفعل ذلك بحكم اللامعقول، بالطبع، وليس بحكم التفهم الإنساني، وإلا فإنه سيكون حساً سليماً وليس إيماناً. وبعد عدة فقرات في اليوميات يتعزز هذا الموقف: في الأشياء الصغيرة على وجه التحديد يكون من المهم أن يستطيع المرء الإيمان بالله وإلا فإنه لا يكون في علاقة صحيحة به... وهكذا يكون من المهم أيضاً

إدخال الله في واقع هذا العالم حيث يوجد في كل الأحوال بالطبع. وهكذا عندما كان بولس على متن السفينة التي كانت على وشك التحطم ابتهل ليس من أجل خلاصه الأبدي فحسب وإنما من أجل خلاصه الزمني أيضاً.

القديس بولس هو الذي أوحى لكيركغارد بعنوان الكتاب. فإن بولس في رسالته إلى أهل فيلبي يدعوهم إلى إتمام خلاصهم بخوف ورعدة (رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبي 2: 12). ويتعذر القول كم أنجز كيركغارد من مخطوطة الخوف والرعدة قبل أن يتوصل إلى هذه البصيرة الخلاصية ولكن المؤكد أن وضعه الشخصي أفضل مدخل للعمل بهذا القدر أو ذاك. وليس من المبالغة القول إن كيركغارد في الخوف والرعدة كان يشق بالكتابة الطريق إلى خلاصه هو، إلى قدْر أكبر من فهم نفسه. واتضح إن العمل من أكمل نتاجات كيركغارد، وإنه وجد كماله تثقيفياً من عدة نواحي. ففي أواخر صيف 1849 سجل بفخر في يومياته: أوه، ذات يوم بعد موتي سيكون الخوف والرعدة وحده كافياً لتخليد اسمي كاتباً. وحينذاك سيُقرأ ويُترجم إلى لغات أجنبية. وسيرتعد الناس عملياً من العاطفة المخيفة في الكتاب.

كشف كيركغارد بكتابة ذلك عن عمق ارتباطه الشخصي بعمله بل إنه اعترف بأمانة بأن العمل أعاد إنتاج حياتي نفسها. ولكن ما معنى هذا في الحقيقة؟ كيف يمكن لكتاب أن يعيد إنتاج حياة أو يصوِّرها؟ وما هو مصدر هذه الرعدة البيوغرافية؟

أول نأمة إجابة عن هذا السؤال تبدو مخفيَّة في نهاية رسالة قصيرة بعث بها كيركغارد إلى أميل بويسن في النصف الثاني من تشرين الأول/ أكتوبر 1843. كان بويسن طريح الفراش بسبب المرض وتمنى لو يستعير قصص بليشر القصيرة. لم يتمكن كيركغارد من تلبية هذا الطلب فأرسل إلى بويسن بدلاً من ذلك (أفضل ما أملك يا عزيزي إسحاق). وبهذا الالتفاتة الكيسة قُدم إلى بويسن كتاب الخوف والرعدة ولكن هذا لم يكن بأي حال نهاية التفاتة كيركغارد الرمزية لأنه وقع باسم المخلص إلى الأبد فارينيلي. وكان فعل ذلك مرة في السابق، أيضاً في رسالة إلى بويسن وبالتحديد الرسالة التي بعث بها إلى بويسن من برلين في 1841 طالباً منه أن يرسل نسخة من الحب الأول. وفي تلك المرة شطب كيركغارد الاسم لأنه، كما يُفترَض، ندم في اللحظة الأخيرة على

ما يكشفه عن نفسه ضمناً بالتوقيع باسم المغني المخصي. وهكذا بعد أقل من عامين، عندما استخدم التوقيع مرة أخرى، لا بد وأن أسباباً خاصة جداً كانت وراء ذلك لأن كيركغارد كان يستطيع، بالطبع، أن يعطي نفسه الكثير من الأسماء الأخرى - يوهانس الصامت أو كونستانتين كونستانتيوس على سبيل المثال. ولكنه لم يفعل ذلك بل أطلق على نفسه اسم فارينيلي وبذلك استخدم شفرة كان على بويسن أن يفكها. ولكن أي شفرة؟

لا يمكن استجلاء الأمر إلا بالقراءة. لذا علينا الآن أن نعود إلى العمل نفسه.

الخوف والرعدة

عموماً، إذا اهتم الشعر بالدين أو بجوَّانية الفرد فإنه سيأخذ على عاتقه مهمات أكثر معنى بكثير من تلك التي يشغل بها نفسه في الوقت الحاضر. هذا الإعلان البرنامجي مُدرج في حاشية أقل قليلاً من عشرين صفحة قبل نهاية الخوف والرعدة، ولكن كان من الممكن إدراجها بكل شطارة قبل ذلك في الكتاب، وفي النص الرئيسي. ذلك إن الخوف والرعدة يمتلك وعياً جمالياً بشكل واضح للدين وجوانيَّة الفرد. وليس مصادفة أن تكون صفحة عنوان الكتاب مزينة بالتحديد المعقد للجنس الأدبي على أنه غنائية ديالكتيكية.

إذا قام المرء بمحاولة اعتيادية أحادية الجانب لاستخراج الشكل الديالكتيكي من الغنائي أو استدراج الغنائي بعيداً عن الديالكتيكي فإنه يتجاوز على سلامة العمل. ومن هذه الناحية يكون الخوف والرعدة قريب الشبه بـ التكرار. ولكن هناك أوجه شبه حتى أكثر. فأولاً، إن العملين يستندان إلى مرويات من العهد القديم - إلى قصتي إبراهيم وأيوب على التوالي - ولكن كلا العملين مدفوعان أيضاً باهتمام معرفي قوي بتشريح العجائبي، ويؤديان باستمرار تمارين تحضيرية للطفرة، للمفارقة، للإيمان بحكم اللامعقول، الواقع خارج كل صنف من صنوف المعرفة والفكر، بل كل نوع من أنواع العقلانية. ولكن الخوف والرعدة، بخلاف التكرار، ذو بنية متماسكة جداً تُعزا لحد ما إلى حقيقة إن يوهانس الصامت (بحسب الاسم المستعار) ليس مقصوداً بصورة شخصية في عمله بقدر ما كان كونستانتين كونستانتيوس. وفي الغالب فإن يوهانس الصامت يطوف حراً حول تخوم عمله الخارجية، يطلق في أحيان كثيرة تعليقات تعلن حدوده الشخصية بشأن قصة العهد القديم التي يعيد روايتها. وهو يصر على أنه

ليس إلا موظفاً كتابياً ملحَقاً، الكتابة عنده ترف يكون لطيفاً وملحوظاً أكثر كلما قل من يشترون ويقرؤون ما يكتبه.

الصمت - باللاتينية silentium - مكتوب في اسم المؤلف المستعار نفسه. ولكنه اسمه ليس نتيجة وعيه الخجول بعض الشيء بالمصير الذي ينتظر عمله في عصر شطب على العاطفة [بالدنماركيةLidenskaben] لخدمة العِلم [بالدنماركية Videnskaben] بل يُفسَّر اسم المؤلف المستعار بحقيقة إن العمل نفسه مهووس بعقم اللغة، والتواصل غير الشفهي، والإشارات والأهمية بالغة الأثر للحركة الصامتة. وهكذا يواجه المرء لدى دخوله العمل شعاراً للفيلسوف الألماني يوهان غيورغ هامان Johann Georg Hamann يُعنى على وجه التحديد بالقدرة التواصلية للإشارات غير الناطقة: ما قاله تاركوينيوس سوبرباس Tarquinius Superbus في حديقته بواسطة الخشخاش فَهِمَه ابنه ولكن الرسول لم يفهمه. يبدو هذا نصاً غامضاً ويحتاج إلى إيضاح: كان لدى تاركوينيوس سوبرباس ابن اسمه سيكستاس تاركوينيوس Sextus Tarquinius وقتذاك في مدينة غابي التي كان يُفترض به أن يضيفها إلى سلطنات والده. بعث الابن برسالة إلى والده في روما يسأل ما ينبغي أن يفعله تالياً. ولكن والده لم يثق بالرسول ولم يقل شيئاً. وبدلاً من ذلك خرج إلى حديقته وباستخدام عصاه قطع رؤوس كل زهور الخشخاش الأطول سيقاناً. وإذ وقف الرسول حائراً نقل هذا المشهد إلى سيكستاس تراكوينيوس الذي فهم بفطنته كيف يستنتج المعنى من هذه الحركة الصامتة وسارع بعد ذلك إلى قتل أقوى الرجال في المدينة. وهكذا تواصل الأب والابن عن طريق طرف ثالث وقف فاغراً فاه لا يفقه شيئاً.

يوهانس الصامت في إعادته سرد القصة القديمة من سفر التكوين 22 عن إبراهيم الذي ذهب إلى جبل موريا ليضحي بابنه إسحاق، يكون متحمساً في نشاطه التفسيري تقريباً بقدر حماسة تراكوينيوس سوبرباس في حديقته. وأراد يوهانس الصامت أن يميط اللثام عن الديالكتيك الموجود في داخل السرد ليبين أي مفارقة هائلة هذا الإيمان، مفارقة قادرة على أن تجعل جريمة قتل تبدو عملاً مقدساً يُرضي الله. هذه التظاهرة تجري في ثلاثة أقسام منفصلة - بعنوان المشكلة 1 و2 و3 على التوالي - تُطرح فيها أسئلة عن إمكان تنحية الأخلاقي جانباً بصورة هادفة (تعليقه غائياً). ولا تتلقى هذه الأسئلة إجابات مباشرة على الإطلاق بل تُصاغ في شكل فرضيات: إذا لم يكن هناك تعليق غائي، إذا لم يكن

الإيمان مفارقة تجعل من الممكن أن ينفصل الفرد عن العام ويدخل في علاقة مع الله، عندها يكون إبراهيم مجرماً تعيساً، قاتلاً منحرفاً من أجل الإثارة يجب أن يُسجن. وبالمقابل، ولكن بقدر نفسه من الافتراض، يستتبع طبيعياً إنه إذا كان هناك استثناء مبرَّر، إذا كانت الجوَّانية غير قابلة للتواصل مع البرَّانية وبالتالي لا يمكن أن تُلاحظ بصورة مباشرة، إذا كان الخاص أعلى من العام، عندها يكون إبراهيم أبا الإيمان وأمثولة لسائر الأجيال اللاحقة.

يكتب يوهانس الصامت: لا يستطيع المرء أن يبكي على إبراهيم بل يقترب منه برعب ديني [باللاتينية: horror religious] مثلما اقترب إسرائيل من جبل سيناء. ولكنه يدرك تماماً إن هذا على وجه التحديد هو ما لا نفعله، وإننا لا نقترب من إبراهيم برعب ديني لأنه بمرور الوقت تهرّأت القصة إلى حكاية نجاة محفوفة بالمخاطر كان من الجائز بكل تأكيد أن تتخذ الأمور منحى مروعاً فيها ولكننا نحمد الله على أنها انتهت نهاية سعيدة: كلنا نعرف - إنها لم تكن إلا امتحاناً. وكترياق ضد انتصار العصر الراهن انتصاراً سهلاً وكسولاً على الأقسام التي لا تُطاق من القصة يتمنى يوهانس الصامت أن يعيد رفد القصة برعبها الأصلي ويصر على حكاية إبراهيم بوصفها قصة تأثير الغريب والمخيف، المتسامي شيطانياً.

يستخدم يوهانس الصامت باستمرار طرقاً جمالية لتحقيق مرامه، ولكن في الصفحات الأولى من الكتاب يوجِّه، بشيء من التزويق الإنشائي، النظرة غير الفاسدة إلى رواية العهد القديم. ويجري هذا تحت عنوان ضبط الإيقاع حيث يستذكر يوهانس الصامت الآتي: ذات مرة كان هناك رجل سمع في طفولته القصة الجميلة عن الله وكيف أنه أغرى إبراهيم، وكيف صمد إبراهيم بوجه الإغراء وحافظ على إيمانه وبعكس المتوقع رُزق ابناً للمرة الثانية... كلما تقدم به العمر زادت المرات التي يتوجه فيها إلى تلك القصة، وتعاظمت حماسته لها أكثر فأكثر، ولكن قدرته كانت تقل أكثر فأكثر على فهم القصة. وفي النهاية جعلته القصة ينسى كل شيء، ولم تكن في روحه إلا أُمنية واحدة هي أن يرى إبراهيم، ولهفة واحدة هي لو إنه شهد الحدث... وكانت رغبته أن يتبع رحلة الأيام الثلاثة عندما ركب إبراهيم مع الغم أمامه وابنه إسحاق بجانبه. كانت أُمنيته أن يكون حاضراً لحظة رفع إبراهيم عينيه ليرى جبل موريا عن بعد، لحظة أبقى الحمير في مكانها وصعد الجبل بمفرده مع إسحاق، لأن ما كان يهمه ليس النسيج الفني للمخيلة بل رعدة الفكرة.

بعد تثبيت نظرته غير الفاسدة، النظرة التي ينبغي أن يقرأ القارئ بها، تُقدَّم إلى القارئ أربع روايات مختلفة لقصة العهد الجديد. وبفضل هذا السرد الجديد للقصة التوراتية (والمشاركة في سردها) - فن يتقنه ببراعة كيركغارد (منتحلاً إطناب شخصية يوهانس الصامت) - تكتسب القصة حدة عاطفية وجودية عصرية، وبخطابيتها الحاذقة تعلو فوق الترجمة الرسمية المحافظة للإنجيل الدنماركي من عام 1740.

كان صباحاً باكراً: هذا هو الاستهلال الإيقاعي اللطيف لكل من الروايات الأربع التي تتألف كلها من القسم أ والقسم ب. ويتناول القسم أ كله إبراهيم وإسحاق في حين يصوُّر القسم ب كيف تسوِّد أم ثديها لتفطم طفلها. ورغم انفصال القسم ب بوضوح عن القسم أ طباعياً فإن القسمين يرتبطان لا بالأسلوب والنبرة فحسب وإنما بالموضوعة أيضاً لأن كل قسم من أقسام أ الأربعة مع القسم ب الذي يرافقه (وكذلك الثنائيات الأربعة على التوالي) يصف انتقالاً من خديعة ناجحة إلى خديعة فاشلة.

من بين الروايات الأربع، الرواية الأولى هي الأطول ومشتقة من فقرة كُتبت في اليوميات أواخر آذار/ مارس أو أوائل نيسان/ أبريل 1843 بعنوان خطة، يتوقف فيها كيركغارد للتفكير في سلوك إبراهيم واصفاً هذا السلوك بأنه شاعري بصدق، سَمِح، أكثر سماحة من كل شيء قرأتُ عنه في القصص المأساوية. ثم بجرة القلم نفسها يبحث كيركغارد عن الشاعر المعاصر الذي يتحسس صدامات كهذه. وبعد هذا البحث أنتج صورة تخطيطية للشخص المفقود، وأصبحت نسخة أُعيد اشتغالها خطابياً من هذه الصورة التخطيطية هي الرواية الأولى من الروايات الأربع التي تعيد سرد قصة العهد القديم. وإذا قارنا النسخة المنشورة مع الصورة التخطيطية يتضح على الفور إن قسوة إبراهيم اللا إنسانية صُوِّرت في الأصل بطريقة أكثر استفاضة بكثير، كما لو إن واقعة رهيبة، مشهداً بدئياً مروعاً اخترق درع القمع ونال حريته. وفي هذه الصفحة من الجزء الحالي حيث ينقسم النص إلى عمودين يُكتب الشكل النهائي للرواية الأولى التي تعيد سرد قصة العهد القديم في العمود الأيمن فيما يُعاد إنتاج الصورة التخطيطية في العمود الأيسر: كان صباحاً باكراً. استيقظ إبراهيم مبكراً. أسرج الحمير وترك خيامه، وكان إسحاق معه ولكن سارة راقبتهما من النافذة حين سارا في الوادي إلى أن غابا عن نظرها. ركبا صامتين ثلاثة أيام. وفي صباح اليوم الرابع لم يتلفظ إبراهيم بكلمة بل رفع عينيه ورأى جبل موريا من

بعيد. ترك الصبي الخادم وراءه وذهب بمفرده إلى الجبل يقود إسحاق بيده. ولكن إبراهيم قال لنفسه، لن أخفي على إسحاق إلى أين يؤدي به هذا الممر. وقف ساكناً ثم وضع يده على جبين إسحاق مبارِكاً وركع إسحاق لتلقي البركة. وكانت ملامح إبراهيم أبوية، نظرته رقيقة وكلامه توجيهياً. ولكن إسحاق لم يتمكن من فهمه. وتعذر السمو بروحه. قبض على ركبتي إبراهيم وناشده تحت قدميه، توسل من أجل حياته الشابة، من أجل آماله المتفائلة. تذكّر الفرح في بيت إبراهيم، وتذكر الحزن والوحدة. ثم أنهض إبراهيم الصبي وسار معه يداً بيد، وكانت كلماته كلها مواساة ودعاء. ولكن إسحاق لم يتمكن من فهمه. تسلق جبل موريا ولكن إسحاق لم يفهمه. ثم ابتعد إبراهيم عنه لحظة.

لكن إسحاق نظر إلى ملامح إبراهيم مرة أخرى، وكانت متغيرة.

كانت نظرته جامحة. هيئته ذاتها وملامحه مخيفة.

أمسك إسحاق من صدره وطرحه أرضاً وقال له:

أيها الولد الغبي هل ظننتَ أني والدك؟

أنا وثني. هل تعتقد أنّ هذه هي إرادة الله؟

كلا إنها رغبتي أنا.

وعندما التفت إليه مرة أُخرى لم يتعرف عليه إسحاق.

كانت عيناه جامحتين، وملامحه ترتجف رعباً.

خصلات شعره الوقورة كانت واقفة كأنها غضب فوق رأسه.

أمسك بإسحق من صدره. وسحب السكين، وقال:

هل تظن أني أفعل هذا في سبيل الله؟

كنتَ مخطئاً. فأنا وثني.

وهذه الرغبة استيقظت مرة أُخرى

في روحي. أريد أن أقتلك. إنها رغبتي.

أنا أسوأ من أي آكل لحوم البشر. فلتيأس

أيها الولد الغبي يا مَنْ ظننت إني والدك.
أنا قاتلك وهذه هي رغبتي.

ثم ارتجف إسحاق وصرخ ملتاعاً رباه في السماء ارحمني. رب إبراهيم ارحمني. إذا لم يكن عندي أب في الدنيا كن أنتَ أبي! لكن إبراهيم قال بصوت خافت لنفسه رباه في السماء، الشكر لك. من الأفضل، في كل الأحوال، أن يظن إني وحش على أن يفقد الإيمان بك.

ما له مغزى هو تكرار فشل إسحاق في فهم الموقف، الذي ينعكس في تعدد الاستعارات البصرية، في ذكر العين مرات عديدة. وهذا يُفرِغ المشهد من الكلمات ويملأه بالصمت، إذا جاز القول. ونحن نعلم إن إبراهيم يتكلم لكننا لا نعرف ما يقوله - النص مثل شاشة أو ستارة ذات صور ولكن من بدون صوت - وإذا كنا لا نسمع إبراهيم فلأن ما يمكن أن يقوله لن يكون له معنى. وبمعنى ما فإن إبراهيم لا ينطق بالمرة: إذا لم أستطع أن أجعل نفسي مفهوماً فلن أتكلم.

هكذا جرى تحويل القصة إلى أمثولة سوداء وشيطانية لكننا نُقاد في الوقت نفسه، سطراً إثر آخر، إلى لغز بيوغرافي يتضمن إشارات ذات معنى رمزي عميق. وهكذا أضاف كيركغارد في هامش صورته التخطيطية الأولى: كان بمقدور المرء أن يصور حياة إبراهيم السابقة أيضاً على أنها حياة بلا ذنوب ثم يتركه يجتر بصمت الفكرة القائلة إن هذا كان عقاب الله، وربما حتى أن يتركه مع الفكرة الحزينة بأن عليه أن يساعد الله بجعل العقاب قاسياً قدر الإمكان. ومعالم هذه الشخصية تستعير صفات يمكن التعرف عليها بسهولة من تاجر الجوارب المدعو كيركغارد الذي لم يُخضعه ماضيه المثقل بالذنوب لعقوبات من المالنخوليا السوداء في مراجعة نفسه فحسب وإنما، بتحويله إلى وحش شيطاني، وجَّه أنظار طفله إلى أب آخر - أب سماوي.

هذا الاحتيال الورع (إذا جاز التعبير) يستمر في القسم ب الأول: حين يُراد فطم الطفل تسوِّد الأم ثدييها. إذ سيكون من المؤسف أن يبدو الثدي شديد الإغراء حين يجب ألا يرضع منه الطفل. لذا يظن الطفل إن الثدي تغير ولكن الأم هي نفسها ونظرتها نظرة حب وحنان كعهدها. ومحظوظ هو الشخص الذي لم يتعين عليه إيجاد وسائل أفظع لفطم الطفل! وجادل غيورغ

براندیز Georg Brandes، من بين آخرين، بأن إبراهيم لم يكن والد كيركغارد الذي قدَّم ابنه ضحية فحسب بل إن إبراهيم هو كيركغارد نفسه الذي ضحى بريجينة. ولكن العناصر الرمزية أكثر لباقة من ذلك: الأقسام ب تناقش في الحقيقة علاقة كيركغارد مع ريجينة باستخدام صور أم يجب أن تفطم طفلها ولا يتعين عليها، في أحسن الأحوال، أن تلجأ إلى طرق قوية كتلك التي اضطر كيركغارد نفسه إلى استخدامها حين تعين عليه أن يصد ريجينة. ولإبعاد أنظار كاتب السيرة عن نصه أخضع كيركغارد نفسه إلى عملية نحْويَّة لتغيير جنسه وجعل نفسه أماً مرضعة، بسبب حرصها على ابنها تحديداً، تسوِّد ثديها وتسحب حبها.

في الرواية الثانية يُختزل إيقاع الموقف بحدة، وكل شيء يحدث بشكل من الحركة البطيئة. ويؤدي إبراهيم أعماله باستسلام ميكانيكي. فهو يوثق إسحاق ويسحب السكين لكنه حينذاك يرى الكبش الذي يضحي به بدلاً من التضحية بإسحاق: ومن ذلك اليوم فلاحقاً كان إبراهيم شيخاً عجوزاً، لم يتمكن أن ينسى إن الله طلب منه ذلك. واستمر إسحاق في النمو والنجاح لكن عين إبراهيم اسودَّت ولم يعد يعرف طعماً للفرح.

في الرواية الثالثة يمتلئ مجال الرؤية بإبراهيم الذي يركب وحيداً إلى جبل موريا، مهموماً ومتعجباً أكثر فأكثر من حقيقة إنه كان ذات مرة مستعداً للتضحية في سبيل الله بأعز ما يملك. وعندما يصل إلى أسفل الجبل يسجد على الأرض ويطلب من الله أن يغفر له، إبراهيم، نسيانه واجبه تجاه ابنه، فأي خطيئة أفظع من هذه الخطيئة؟

في الرواية الرابعة والأخيرة ينتقل التركيز بصورة حاسمة من إبراهيم إلى إسحاق. فالشيخ العجوز وابنه وصلا إلى الجبل، والمشهد يكاد أن يكون خلاباً: إبراهيم جعل كل شيء جاهزاً للتضحية، بهدوء ورقة، ولكن عندما التفت جانباً وسحب السكين رأى إسحاق إن يد إبراهيم اليسرى كانت مشدودة بيأس وإن رعدة سرت في أوصاله - لكن إبراهيم سحب السكين.

ثم عادا إلى البيت مجدَّداً، وهرعت سارة خارجة للقائهما ولكن إسحاق فقد الإيمان. ولا تُذكَر كلمة واحدة عن ذلك في العالم. إسحاق لم يخبر أحداً قط بما رآه، وإبراهيم لم يظن قط إن أحداً رآه.

في حين إن إبراهيم يتظاهر في الرواية الأولى بالقسوة ليتمكن إسحاق من اللوذ بوالده في السماء فإنه في الرواية الرابعة يكشف نفسه دون أن يدري. وإسحاق يرى ما لم يكن يُراد له أن يراه على الإطلاق: يد إبراهيم المشدودة بيأس ورعدة تسري في أوصاله. ورغم إن أنظار إسحاق تلتقط تجهماً خاطفاً فإنها تتوصل إلى معلومة مصيرية عن ضعف إبراهيم وشكه. وتحت أنظار القارئ فإن الخوف والرعدة، الكلمتان اللتان تشكلان عنوان الكتاب، تُرسلان في آن واحد باتجاهين مختلفين ولكنهما سرعان ما تتوحدان مجدداً لتثري إحداهما الأخرى. والرعدة ليست كلمة مرادفة لـــــ الخوف فحسب بل هي فعل جسدي أو مظهر خارجي يصبح الخوف، وهو ظاهرة نفسية داخلية، مرئياً من خلاله. وهناك مسافة صوتية أو ظاهراتية قصيرة جداً من الرعدة [بالدنماركية Baeven] إلى الرجفة [بالدنماركية Skiaelven] التي تسري في أوصال إبراهيم أمام عين إسحاق المرعوبة. الرجفة هي فعل العاطفة نفسه عندما يصبح مرئياً، إنها جوَّانية تفضح نفسها، وحين يفقد إسحاق إيمانه فلأنه في ارتجاف إبراهيم يكون قادراً بصورة مفاجئة على الظن بأنه حتى إبراهيم نفسه، أبو الإيمان، لا يمتلك الإيمان ملكية غير مشروطة: وأين أستطيع أن أبحث عن ملاذ وقد عرفتُ أو ساورني الظن بأن الرجل الوحيد الذي أُعجبتُ به لقوته وقدرته، قد اهتز، كما كتب كيركغارد في نصه المشطوب.

إبراهيم والسكين: أغنيتا وفارينيلي

إذا كانت الأقسام أ تتحدث عن الاعتداء على طفل فإن الأقسام ب تتناول أهمية هذا الاعتداء عند الطفل حين يبلغ سن الرشد: عدم قدرة المرء على أن يهب نفسه لآخر. ويجري تطوير عواقب ذلك المخيفة نحو خاتمة الخوف والرعدة حيث يعيد يوهانس الصامت سرد أسطورة أغنيتا وعريس البحر. كتب كيركغارد في يومياته من عام 1843 فقرة غفلاً من التاريخ: فكرتُ في معاينة جانب من أسطورة أغنيتا وعريس البحر ربما لم يخطر ببال أي شاعر. فإن عريس البحر غاوٍ ولكنه بعد أن يفوز بحب أغنيتا يتأثر بذلك حتى إنه يريد أن يكون ملكها بالكامل. ولكنه، ويا للأسف، لا يستطيع أن يفعل ذلك لأنه حينذاك سيتعين عليه أن يُطلعها على كل وجوده الموجوع، وكيف أنه يصبح وحشاً في أوقات معينة، إلخ. والكنيسة لا تستطيع أن تمنحهما بركتها. ثم يُصاب باليأس،

وفي يأسه يغوص إلى قعر البحر ويبقى هناك، لكنه يقود أغنيتا إلى الاعتقاد بأن غايته الوحيدة كانت أن يخدعها. وهذا شعر، ليس ذلك الهراء البائس الذي يُرثى له حيث كل شيء يدور حول مساخر وسخافات. هذا هو نوع العقدة التي لا يمكن فكها إلا بواسطة الديني (ومن هنا اسمه لأنه يفك كل أنواع السحر) [الدين يشير إلى كلمة religare اللاتينية التي تعني الربط] وإذا كان بمقدور عريس البحر أن يمتلك عقيدة فإن عقيدته قد تحوله إلى كائن بشري.

مرة أخرى ترتبط الصورة التخطيطية الشعرية لأغنيتا، سواء في موضوعاتها أو لغتها، على ما يبدو ارتباطاً حميماً على ما يبدو بالنص المشطوب عن ريجينة التي كان كيركغارد غير قادر، مثل عريس البحر، على إطلاعها على أشياء مخيفة. وكان هذا شيئاً حاول كيركغارد بقوة متزايدة أكثر فأكثر أن يوضحه لها خلال فترة خطوبتهما - حين كانت أسطورة أغنيتا وعريس البحر ترد في أحيان كثيرة تماماً.

الشخص الذي تتهمه فقرة كيركغارد في يومياته بتحويل الأسطورة إلى هراء بائس يُرثى له كان على الأرجح هانز كريستيان أندرسن لأن أغنيتا وعريس البحر التي كتبها أندرسن مُثلت على المسرح الملكي في 20 نيسان/ أبريل و2 أيار/ مايو 1843. وكان العمل، الذي مرت على إنجازه حينذاك نحو عشر سنوات، فاشلاً.

في رواية يوهانس الصامت الجديدة للأسطورة، يحرر نفسه من كل آثار العاطفية ويختار بدلاً من ذلك أن يؤكد صفات عريس البحر الشيطانية. ويتحقق ذلك بسلسلة كاملة من التنويعات أحدها أو عدد منها أو ربما كلها تفسر لماذا حدثت الأمور - أو بالأحرى لماذا لم تحدث - على نحو ما وقع بين الشخصيتين. أولاً يوفر يوهانس الصامت صورة تخطيطية ترسم معالم المعالجة التقليدية للأسطورة: إن عريس البحر غاوٍ يخرج من مخبئه في الأعماق. وفي حمى رغبته المشبوبة يخطف ويدمر الزهرة البريئة التي كانت تقف على الشاطئ بكل جمالها تحني رأسها مستغرقة في الأفكار نحو تنهد البحر. كانت هذه نظرة الشعراء في السابق. فلنحولها. كان عريس البحر غاوياً، نادى أغنيتا. وبكلامه المعسول استدرجها إلى البوح بمكنوناتها. وفي عريس البحر وجدتْ أغنيتا ما كانت تسعى إليه، ما كانت تبحث عنه في قعر البحر. أغنيتا مستعدة

للذهاب معه. وعريس البحر يُجلسها على ذراعه. أغنيتا تحيط برقبته وتهب نفسها بثقة ومن الصميم إلى الأقوى. إنه يقف على الشاطئ. ينحني للغوص في البحر مع الفريسة - ثم تنظر أغنيتا إليه مرة أخرى، ليس بخوف، ليس بشك، ليس فرحاً بسعادتها، ليس انتشاء بالرغبة وإنما بثقة مطلقة، مثل الزهرة الوديعة التي كانت تظن إنها هي. وبنظرة [بالدنماركية Blik] تأتمنه على كل مصيرها بثقة مطلقة - وانظروا! البحر لم يعد يموج، صوته الصاخب يصمت. عاطفة العالم الطبيعي، التي تشكل قوة عريس البحر، تهجره وتصبح جامدة كالزجاج [بالدنماركية Blikstille] وتستمر أغنيتا في النظر إليه بهذه الطريقة. ثم ينهار عريس البحر. أنه لا يستطيع أن يقاوم قوة البراءة. طبيعته خانته. إنه لا يستطيع أن يغوي أغنيتا، فيعيدها إلى البيت. يشرح لها إنه كان لا يريد سوى أن يُريها جمال البحر عندما يكون هادئاً. وأغنيتا تصدقه - ثم يعود وحيداً ويهتاج المحيط. ولكن اليأس في نفس عريس البحر يثور حتى بعنف أشد. إنه يستطيع أن يغوي أغنيتا بل يستطيع أن يغوي مئات من مثيلاتها ويستطيع أن يسحر كل فتاة - لكن أغنيتا انتصرت وعريس البحر فقدها. فهي لا يمكن أن تصبح مُلكَه إلا كفريسة.

مثلما كشفت خديعة إبراهيم الرعدة التي سرت في أوصاله، هنا تصوُّت الطبيعة ضد خطة عريس البحر. فهو لا يستطيع أن يقاوم التفاني بدافع الحب، لا يستطيع أن يطيقه عندما تستقبل أغنيتا نياته المريبة بثقة غير محدودة. المفردات الوصفية - ثقة مطلقة، وداعة مطلقة، وثوق مطلق - مفردات استثنائية وما كانت لتخطر ببال يوهانس الصامت بالصدفة المحضة. فإن لدى أغنيتا ما يفتقر إليه إبراهيم من ثقة ووداعة ووثوق، وكان هذا شيئاً استطاع ابنه أن يراه - متسبباً في رعبه ولعنته. ويوهانس الصامت لا يختار أوصافه بعناية فحسب بل يعرف أيضاً كيف يستخدم الذوق والحيطة بدلاً من العجالة - الموجهة في الروايات الثلاث الأولى نحو النظر، نحو البصر، نحو العين. أغنيتا لا تقول أي شيء بل ترى فقط، تماماً مثل إسحاق. ولكنها بهذه النظرة (التي تجعل العالم جامداً كالزجاج) تمنح نفسها بالكامل إلى عريس البحر حتى إنه ينهار في عقمه ولا يستطيع أن يغويها. لذلك يجب أن يتظاهر بأن كان لا يريد سوى أن يريها البحر - وأغنيتا تُصدِّقه.

كيركغارد في يومياته بلا استثناء تقريباً يجعل ريجينة تدخل التاريخ بلا كلمات على الإطلاق. وهي تُذكَر على أنها كانت في موقف أو تُستذكَر في مشهد داخلي تُلاحَظ فيه ويجري التعليق عليها. ولكن في هذه المشاهد والمواقف تكون هي

نفسها قادرة بصورة مفاجئة على الالتفات نحو كيركغارد وفي اللحظة التالية على أن تخترقه بنظرها إلى القارئ مباشرة تقريباً. وخلال إقامة كيركغارد في برلين كتب في يومياته: وعندما وقفتْ هناك مكتسيةً حلّتها القشيبة - حينذاك كان عليّ أن أرحل. وعندما التقتْ نظرتها المبتهجة البشوش بنظرتي - حينذاك كان عليّ أن أرحل - ثم رحلتُ وبكيتُ مر البكاء. اختيارُ الكلمات اختيارٌ في منتهى الحدة لأن بطرس هو الذي بكى مر البكاء بعد إنكاره المسيح ثلاث مرات. وكتب كيركغارد الملاحظة التالية خلال إقامة لاحقة في برلين كأنه نوعٌ من عريس البحر: أحياناً يخطر لي إنها، حين أعود، ربما ستكون اتخذت قراراً بتيقن بأني مخادع. لنفترض أن لديها القدرة على سحقي بنظرتها (وهذا شيء البراءة الثائرة قادرة عليه)، سأكون على استعداد تام للمعاناة إذا عرفتُ إن هذا لفائدتها لو لا اللعب المخيف بالحياة الذي يعنيه ذلك ضمناً - أن يكون المرء قادراً على أن يفعل ما يشاء مع شخص. كانت نظرة ريجينة المخلصة تسبب الألم لأنها تذكّر كيركغارد بالآنية الطبيعية التي فقدها هو نفسه. في نظرتها رأى نفسه كما كان ذات مرة حين كان شخصاً آخر، شخصاً هو الآن منفصل عنه إلى الأبد. وبهذا كان يجري تذكيره على نحو مؤلم بوالده لأنه هو الذي قطعه عن الآنية الطبيعية.

في الخوف والرعدة يكون رمز مثل هذا القطع هو السكين التي يجعل يوهانس الصامت إبراهيم يستخدمها بمثل هذه الدقة المسرحية المنحوسة. وعدا الرواية الأولى التي تصور خديعة ناجحة فإن السكين تكون في الروايات الثلاث اللاحقة شيئاً أكثر من مجرد إكسسوار مسرحي. وينعكس استخدام السكين استخداماً مسرحياً حتى على مستوى الطباعة حيث تساعد التغيرات في الفواصل والفقرات على إيجاد وقفات وفراغات تثير شكوكاً فيما كان إبراهيم يفعله بسكينه قبل أن يرى الكبش. ويبدأ اللايقين بشأن هذه القضية يجعل نفسه محسوساً في الرواية الثانية حيث تشير فاصلة منقوطة مباشرة بعد السكين إلى أنفاس محبوسة. ولكن الإبهام يتبدى بجدية في الرواية الثالثة حيث الكلمات صعد جبل موريا واستل سكينه، تليها المسافة التي تبدأ بها فقرة جديدة. فالقارئ وحده، في أفكاره الخاصة، يعرف ماذا أيضاً يحدث في الشريط الضيق للفاصل الفارغ بين السطور. وأخيراً، في الرواية الرابعة، التي تصف مخطط الخديعة الفاشلة، ينفذ إبراهيم مهمته بشيء من التحدي: لكن إبراهيم استل السكين. ويجب أن نلاحظ إنه استل السكين قبل أن يتمكن النص من توفير الكبش له. وإذا حسبنا عدد المرات

التي ترد فيها الكلمات المختلفة، لا تكون رعدة كاتب السيرة أخف وطأة: في الروايات الأربع تظهر، إجمالاً، أربع سكاكين - مقابل كبش واحد!

هل لدينا الآن فهم أفضل للسبب في أنّ كيركغارد وقّع ملاحظته إلى بويسن باسم فارينيلي المخصي؟

شق طل منه اللانهائي

هناك طبقة بيوغرافية مباشرة تحت المعالجة الفنية للمادة. والدافع وراء النص الجديد هو الخبرة الجارحة، بل الألم غير المُحتَمل الذي يستطيع الفن أن يخففه لكنه أبداً لا يزيله بالكامل.

ولكن رغم أن تجاهل البديهي وعدم قراءة كيركغارد قراءة بيوغرافية يتطلب قدراً من الإرادة في التجريد فإن أعمالاً مثل التكرار والخوف والرعدة تعالج شيئاً آخر - وأكبر - من كيركغارد نفسه. ويثير العملان أسئلة ضمنية وصريحة عن الدرجة التي يمكن أن يبقيا معها صالحين للاستعمال، وبالنسبة لكيركغارد فإن هذه الأسئلة تتخذ شكل تفكير فيما إذا كانت هذه النصوص قابلة للتكرار. وإذا كانت النصوص تنتمي إلى حقبة مضت فإنها في الحقبة الحالية ليست إلا قطعاً أثرية مكانها المتحف ولذلك ينبغي الابتعاد عنها مسافة معينة. أم، على النقيض من ذلك، إن هذه النصوص تكشف أعماقاً وأوضاعاً وجودية أساسية وصراعات أبدية وبالتالي لا يستطيع الزمن أن يجعلها بالية؟

على نحو ما تُعطى الإجابة في تمثيل يوهانس الصامت لشخصيات العهد القديم وأقطابه الأسطوريين ولكن يوهانس الصامت هذا نفسه يحب اللجوء إلى أمثلة ملموسة أيضاً. وهكذا يكون لدينا البناء الشعري الشهير وذو الصيت السيئ لشخصية يسميها الناس جابي الضرائب، وهو نُسخة مُأمثلة نوعاً ما من فارس الإيمان كما قد يظهر خلال رواحه ومجيئه في كوبنهاغن كيركغارد. وعلى غرار إبراهيم فإن جابي الضرائب قام بالحركة الإيمانية المزدوجة، أي إنه قطعاً سلّم كل شيء (كما سلّم إبراهيم ابنه إسحاق) وفي الوقت نفسه أُعيد له كل شيء (مثلما استعاد إبراهيم ابنه إسحاق من خلال طاعة الإيمان) بحكم الإيمان بوصفه إمكانية لا معقولة نهائية. ويكتب يوهانس الصامت ها هو هنا، حيث يكون التعارف، ويجري تقديمي إليه. ومن اللحظة التي يقع فيها نظري عليه، أصده على الفور وأنا نفسي أقفز إلى الوراء، أشبك يدَيَّ وأقول بصوت خافت يا إلهي! هذا

هو الرجل، هل هذا حقاً هو، لأنه يبدو كأنه جابي ضرائب. ولكنه هو بالفعل. أقترب منه قليلاً، أُراقب أدنى حركة قد تنم عن شيء صغير متنافر من إرسال برقي آتٍ من اللانهاية، نظرة، وقفة، إشارة، حزن، ابتسامة تشي باللانهائي في لا تجانسه مع النهائي. كلا! أتفحص قوامه من قمة الرأس إلى أخمص القدمين كي أرى إن لم يكن هناك شق يطل منه اللانهائي. كلا! إنه مرصوص تماماً.

مثل ظل لا يمكن الفكاك منه يتعقب يوهانس الصامت صاحبه جابي الضرائب شارعاً تلو آخر، وصفحة تلو أخرى، للعثور على الشق الصغير الذي قد يطل اللانهائي منه، ولكن بلا جدوى. وبدلاً من ذلك يصبح يوهانس الصامت الشاهد المندهش على جابي الضرائب وكيف يخرج في نزهات مشياً على الأقدام وسط الغابات ويرتاد الكنيسة بالقدر نفسه من السهولة والطبيعية مضطلعاً دون صعوبة ظاهرة على الإطلاق بأي دور يتطلبه الموقف. ومع اقتراب المساء يفهم جابي الضرائب - كأنما في محاكاة كاريكاتيرية للكبش، ضحية إبراهيم، الذي كان الخلاص العجائبي في القصة التوراتية - الفكرة المتمثلة في أن الزوجة ستكون أعدت بكل تأكيد وجبة صغيرة ساخنة عندما يعود إلى البيت، من رأس كبش مشوي مع الخضروات على سبيل المثال.

وكما هو متوقع يلاقي يوهانس الصامت بعض الصعوبة في التصالح مع حقيقة إن جابي الضرائب فارس من فرسان الإيمان وليس مجرد ذلك البورجوازي الأنيق الذي يشير إليه سلوكه الأخرق ولكن هذا الإبهام على وجه التحديد هو مربط الفرس بطبيعة الحال: جابي الضرائب دليل على أن هناك جوَّانية لا تنسجم مع البرَّاني. وهكذا فإنه ليس على الرغم من برَّانية جابي الضرائب بقدر ما إنه بحكم هذه البرَّانية يكون أحد فرسان الإيمان. ويشرح يوهانس الصامت ديالكتيك ذلك: أنه يؤدي باستمرار حركة اللانهاية ولكنه يفعل ذلك بدقة وحذاقة بحيث إنه دائماً يعبر عن المحدودية، ولا يشعر المرء لبرهة واحدة بأي شيء خلاف ذلك.

ولكن في الرواية الرابعة كان هذا على وجه الدقة ما فعله إسحاق: شعر بشيء مغاير - شعر بخوف في ارتجاف إبراهيم. ويوهانس الصامت يُبقي عينه مفتوحة لالتقاط إشارات متماثلة في الشخصيات التي يبتدعها تجريبياً في نصه. وبما إنه شخص مصمم يؤدي عملاً متقناً فإنه يلاحظها وكأنها ممثلون مسرحيون

تشير كل حركة وإيماءة منهم إلى درجات على مقياس للجوَّانية يستطيع أن يقرأه من مقعده في مقصورة خاصة في المسرح حيث يلاحظ أيضاً الحركة المزدوجة للإيمان مقدراً إياها بوصفها جوَّانية موضوعية خالصة. وعلى سبيل المثال إنه يبلغنا إن فرسان الاستسلام اللانهائي يمكن أن يُعرَفوا من خطوتهم التي تكون خفيفة وجريئة. ويصح هذا إلى حد ما على فرسان اللانهاية لأنهم أصحاب سمو. ورغم إن قفزاتهم إلى أعلى قفزات رائعة فإنهم حين يعودون إلى الأرض مرة أخرى يكونون غير قادرين على تولي الموقع المناسب. هم يترددون برهة قصيرة وبعملهم هذا يكشفون أنفسهم: لا يحتاج المرء إلى رؤيتهم في الهواء. كل ما يحتاج المرء إلى رؤيته هو اللحظة التي يلامسون فيها الأرض وبعد ملامستهم إياها - يتعرَّف عليهم. والقدرة على القفز إلى موقع معين بحيث في القفزة نفسها يفترض المرء إن الموقع محفوظ حصراً لفارس الإيمان الذي يمكن اكتشاف جوانيَّته عندما يعود المرء إلى المقياس. ويختتم يوهانس الصامت بالقول: محظوظ هو الشخص الذي يستطيع أن يقوم بهذه الحركات. وسواء أكان إبراهيم أو الخادم في بيت إبراهيم، سواء أكان أستاذ فلسفة أو خادمة مسكينة فإن هذه مسألة لا تهمني بالمرة. أنا أنظر إلى الحركات فقط. لكني حقاً أنظر إليها، ولا أسمح لنفسي أن تخدعها نفسي أو أي أحد آخر.

يوهانس الصمت ليس لديه أي شك بموهبته. ومع ذلك، إذا كان لا يُخدَع بعض الأحيان وإذا كانت أحكامه دائماً صحيحة على ما شاهده، فالسبب الوحيد الممكن هو إن الجوَّانية تنعكس في الجانب البرَّاني للشخصية وبذلك لا تكون متنافرة معها. وإذا كانت هذه هي الحال حقاً فإن جابي الضرائب سيضيع لأنه، بالطبع، كسب جوَّانياً وبصورة غير مرئية ما فقده برَّانياً وبصورة مرئية. وبالتالي إذا ركزنا على حركاته حصراً، فإننا في هذه الحالة لم نتابع إلا شخصية كانت بالصدفة تمشي لا على التعيين في كوبنهاغن. وهكذا فإن مثال جابي الضرائب يجعل من الواضح أن المرء يكون شبيه إبراهيم في الإيمان وليس في جريمة القتل.

ساءت الأمور أكثر بكثير في حكاية شخص لا اسم له كان مأسوراً بقصة إبراهيم بحيث لم يغمض له جفن بل أصبح محروماً من النوم. وبدأت القصة بداية هادئة. فذات يوم من أيام الآحاد في الكنيسة سمع قصة العهد القديم ثم عاد إلى بيته وأراد أن يفعل تماماً ما فعله إبراهيم. وما أن حزم أمره حتى زاره

القس الذي لا يمكن القول إنه منح الخطة بركته: رجل مقيت، حثالة المجتمع، أي شيطان استحوذ عليك بحيث تتمنى أن تقتل ابنك؟ عن هذا أجاب الرجل الذي فارقه الكرى بكل بساطة: لم يكن إلا ما وعظت به أنتَ نفسك يوم الأحد الماضي. القصة قصيرة تماماً، ثم يقدم يوهانس الصامت تعليقه على هذه الواقعة الغريبة: الهزلي والمأساوي يحتكان هنا في لانهاية مطلقة. فإن خطبة القس بحد ذاتها ربما كانت مثيرة للسخرية بما فيه الكفاية ولكنها أصبحت مثيرة للسخرية إلى ما لا نهاية في تأثيرها، ومع ذلك كانت طبيعية تماماً.

العبارة الختامية القصيرة مثيرة للقلق لأنها تقول إن سلوك الرجل الساهد رغم كل شيء سلوك طبيعي تماماً. ولماذا؟ لأنه بخلاف ما يفترضه القس البليد فإن الرجل الذي لا ينام ليس مسكوناً بالشيطان بل مهجوس بالقصة التي من الطبيعي تماماً أن يرغب في تكرارها. وفي هذا التكرار يحمل بعض الشبه بجابي الضرائب ولكن الفارق بينهما يمكن أن نراه بالمعنى الحرفي للكلمة: لأن ما يكرره جابي الضرائب في داخله يكون لدى الرجل الذي لا ينام فكرة تكراره في الخارج - الأمر الذي تمكن القس من منعه لكنه لو لم يصل في الوقت المناسب لوقعت الكارثة ونُحر الابن. وبعد عشر صفحات يعيد يوهانس الصامت تمثيل السيناريو على مسرحه النصي: روى قس قصة إبراهيم لكنه رواها بطريقة مملة حتى إن جماعة المصلين كلهم غلبهم النعاس باستثناء ذلك الشخص الأوحد الذي كان يعاني من الأرق. فبعد القداس عاد إلى البيت مشياً ليمعن التفكير في المسألة ولكن بمرور الوقت وإذ بدأت الفكرة تترسخ في ذهنه تقدم القس هاتفاً: ويحك، أن تدع روحك تغرق في مثل هذه الحماقة. لن تحدث معجزة. ومرة أخرى رد الرجل الذي لا ينام على ذلك ببساطة خفية: لم يكن إلا ما وعظتَ به يوم الأحد الماضي.

يُصوَّر القس هنا تصويراً لا رحمة فيه على أنه منافق يدين ما حرَّكه هو بنفسه. ويسأل يوهانس الصامت كيف يفسر المرء تناقضاً مثل تناقض هذا الخطيب؟ هل لأن إبراهيم اكتسب حقاً عرفياً تقليدياً في أن يُعتبر رجلاً عظيماً بحيث كل ما يفعله يكون عظيماً، وعندما يفعل شخص آخر الشيء نفسه يكون خطيئة، خطيئة من الخطايا القاتلة؟ في هذه الحالة لا أُريد المشاركة في هذا التحميد الأرعن. وإذا كان الإيمان لا يستطيع أن يجعل استعداد المرء لقتل ابنه فعلاً مقدساً فليخضع إبراهيم إلى المحاكمة مثل أي شخص آخر. ويوهانس

الصامت بقوله هذا اتخذ جانب الرجل الذي لا ينام، وهو لا يستطيع أن يمنع نفسه من كتابة حاشية قصيرة: إنه، على ما يُفترض، أُعدم حينذاك أو أُرسل إلى مستشفى المجانين. إنه باختصار أصبح تعيساً إزاء ما يُسمى الواقع، لكنني أعتقد أنّ إبراهيم جعله سعيداً بمعنى آخر. ومرة أخرى تكون العبارة الختامية مفزعة. فالرجل الذي لا ينام ينتهي إما على المشنقة أو في مصح للأمراض العقلية، ومع ذلك يجعله إبراهيم سعيداً. لماذا؟ هل لأن الحقيقة دائماً بجانب المخبول؟ هل لأن الحقيقة لا تقف أبداً في الوسط؟ ربما. ولكن أيضاً، على ما يُفترض، لأن القصة أعطت الرجل الذي لا ينام هوية سردية حررته من حدود المفهوم البورجوازي الشاحب للمصير. ويختتم يوهانس الصامت بالقول: إذا لم يكن إبراهيم لا أحد، شبحاً، لهواً مبهراً فإن الخطأ لا يمكن أبداً أن يتمثل في أن الآثم يريد أن يفعل ما فعله.

ليست مصادفة إن يوهانس الصامت يتعاطف مع الرجل الذي جافاه الكرى لأن الأرق ليس رد الفعل المناسب على خطأ القصة الديني فحسب بل إن الأرق يؤكد أيضاً إن العين هي التي توجه القصة رسالتها إليها: لأن الشخص الذي تعرض مرة إلى هذه الصور لا يستطيع أبداً أن يتحرر منها مرة أخرى.

الحرية من هذه الصور – صور لعلها تشبه تلك التي أنتجها يوهانس الصامت في رواياته الأربع عن إبراهيم – لن تأتي أبداً إلى الرجل الذي لا ينام. وهذا على وجه التحديد هو مصدر أرقه، ولهذا السبب يختم يوهانس الصامت باتخاذه جانب الرجل الذي لا ينام في طرحه السؤال الخطابي الآتي: كانت هناك أجيال لا تحصى حفظت كل كلمة في قصة إبراهيم على ظهر قلب ولكن كم منهم جعلتهم لا ينامون؟

في الخوف والرعدة لا ينجح يوهانس الصامت في إيضاح العلاقة بين الجوانية نفسها وأعراضها البرانية. ولا كيركغارد نفسه يملك الجواب النهائي. وأثناء وجوده في برلين بين 10 أيار/ مايو و17 أيار/ مايو 1843 – فكان بذلك شديد القرب تماماً من وقت كتابته النص المشطوب عن ريجينة – فكّر في هذه القضية بالشكل الذي سترتديه لو لم تعد الشخصية الرئيسية شخصية من العهد القديم وإنما الشخصية الأساسية في العهد الجديد: المفارقة المطلقة ستكون إن ابن الله إذا أصبح إنساناً، جاء إلى العالم وطاف حتى إن أحداً لم يتعرف

عليه بالمرة، وإذا أصبح كائناً بشرياً منفرداً بأضيق معنى للكلمة، شخصاً له مهنة، وتزوج، إلخ... في هذه الحالة ما كان الله ليكون الله وأبا البشرية بل لكان أكبر صاحب مفارقة... المفارقة الإلهية إنه يصبح ملحوظاً، إذا لم يكن بطريقة أخرى فذلك بِأن يُصلب، بقيامه بمعجزات، إلخ، الأمر الذي يعني إمكانية التعرف عليه في كل الأحوال بسلطانه الإلهي حتى إذا كان الإيمان مطلوباً لحل مفارقته [مفارقة السلطان الإلهي] تحوي هذه السطور نموذجاً أمثل للقضية التي تُعالج في شذرات فلسفية حيث مسألة أن يجعل الله نفسه معروفاً، وقضية معرفة الإيمان لنفسه المرتبطة بها، (تشريح الإيمان) ستستأثر بقدر هائل من اهتمام الاسم المستعار يوهانس كليماكوس. ولا يستطيع يوهانس الثاني هذا أو يوهانس الصامت أن يخمد تماماً الرغبة في الخروج بخلاصات من البراني إزاء الجواني - الأمر الذي من الجائز أن يشير إلى أن صانعهما يعاني من تفضيل لهذا النوع من الأشياء وبالتالي حين قيل وانتهى كل شيء لم يتمكن من حمل نفسه على ترك الجوانية في صومعتها، لا يعكرها شيء. ولكن هذه قصة أخرى، أو بالأحرى إنها القصة التي نحن - أيضاً - بصدد متابعتها: بمرور الوقت، أصبح كيركغارد، من المدافع العنيد عن الجوانية، إلى خصمها الذي لا يقل عناداً. ولهذا السبب يمكن أن تُقرأ كتاباته استرجاعياً بوصفها تاريخاً مستفيضاً لإلغاء الجوانية، إلغاء يدفع محركَها من وراء الكواليس، المؤلف الحقيقي سورين كيركغارد، في كتاب إثر آخر، قُدُماً إلى الخطوط الأمامية بحيث في النهاية لن يكون لدى أحد أي شك في مَنْ الذي يتحدث.

1844

مفهوم القلق

«جالسٌ أستمع إلى إيحاءات الموسيقى البهيجة وجدية الأرغن العميقة. تركيبهما مهمة ليست للمؤلف الموسيقي وإنما لكائن بشري يقصر نفسه، في غياب تحديات أكبر في حياته، على مهمة بسيطة هي أن يريد فهم نفسه». هذه الفقرة من اليوميات، بكل تواضعها شديد التطلب، هي من أوائل خريف 1843، بعد فترة قصيرة على شروع كيركغارد في كتابة مسودة «مفهوم القلق» الذي فيه يرتقي الاستبطان على وجه التحديد، أو معاينة الذات، إلى مكانة المنهج النفسي الوحيد المشروع. وكتب المؤلف في مسودة لمقدمة الكتاب إنه «بدلاً من المهمة الجسيمة لفهم كل كائن بشري، اختار شيئاً من الجائز تماماً أن يُسمى شيئاً ضيق الأفق وأحمق وهو أن يفهم نفسه». وتبقى وجهة النظر هذه في النص النهائي للمقدمة حيث يصف المؤلف نفسه بأنه «متشرد لم ير شيئاً من العالم ولم ينطلق إلا في رحلة داخلية في وعيه ذاته».

تتألف المسودة التي تقع إجمالاً في 125 صفحة من تسعة دفاتر مدرسية صغيرة رخيصة تشكل أغلفتها الملونة من الورق الصقيل نقيضاً صارخاً لمحتوياتها الجادة: الدفتر الأول بني والثاني أصفر والثالث برتقالي والرابع أسود والخامس أزرق والسادس بنفسجي والسابع أحمر - بني والدفتر الثامن أسود أيضاً مثل الرابع. بالإضافة إلى هذه هناك كراس غير مرقّم ذو غلاف بنفسجي، وأخيراً هناك كراس مغلّف بورق صقيل أسود وعنوانه «تنغيمات لـ / عن مفهوم القلق». وفي هذا، كما في الدفاتر الصغيرة الأخرى، تلتصق بداخل الصفحة الأولى يافطة صغيرة تحمل اسم ومكان الشراء: «أن. سي. مولر/ مجلّد كتب / رقم 97 أولفيلدس بلايس».

في هذه الدفاتر اتبع كيركغارد عادته المعهودة في كتابة المسودات: يطوي الصفحات طولياً (عمودياً) بحيث يكون لكل صفحة عمود داخلي عريض للنص الرئيسي وعمود خارجي ضيق لأي خواطر وإضافات لاحقة. وبدأ العمل على الكتاب في كانون الأول/ ديسمبر لكنه فجأة بدأ يواجه مشكلات مع الفصل الرابع، وبعد شطر من الكتابة في الدفتر التاسع يذوب النص متحولاً إلى تخطيطات صغيرة مترددة، إلى معالم ومفردات أساسية. وعند هذه النقطة نحَّى كيركغارد المسودة جانباً للتركيز على «خطابان تثقيفيان» و«شذرات فلسفية»، اللذين وجدا طريقهما إلى الورق بسهولة تماماً على ما يبدو بحيث تمكَّن في نيسان/ أبريل 1844 من العودة إلى مخطوطته غير المكتملة، وقام بتحريرها وفي منتصف أيار/ مايو 1844 كتب النسخة النهائية بخط يده. وخلال مرحلة التحرير هذه نقَّح نصه على مستويات متعددة. وعلى سبيل المثال كتب بجانب إحدى الصفحات في الدفتر السابع: «الاستعاضة عن مفردة «تفاهة» بعبارة «انعدام الروح» في كل مكان». وذات مرة كتب الآتي في الأصل مع إشارة إلى المراقب النفسي: «ما يهم الآن هو الهدوء، الصمت، تفادي لفت الانتباه بحيث يستطيع المرء أن يرتاح بهدوء مثل ذرة غبار على صدر فتاة» ولكن النسخة النهائية تجنبت هذا المقطع بتعفف. كما يبدو أنّ الورق الثقيل الذي كُتبت عليه النسخة النهائية تطلب قدراً من ضبط النفس أكبر من الورق الرخيص في الدفاتر المدرسية. وإذا عرضنا بعض الصفحات الأولى من النسخة النهائية إلى الضوء نستطيع أن نميز علامة مائية دائرية تحمل على حافتها هذا الشعار اللاتيني المرجعي PRO PATRIA EIUSQUE LIBERTATE - أي «من أجل الوطن وحريته» - وهو بالمناسبة موقف لا يخلو تماماً من المفارقة حين نأخذ في الاعتبار القوى اللاعقلانية التي تكمن في تلافيف مادة موضوع الكتاب - القلق. كما تضمنت النسخة النهائية مقدمة من 12 صفحة قرر كيركغارد في وقت متأخر بعض الشيء من العملية حذفها من الكتاب، وفي الركن العلوي الأيمن من الصفحة الأولى للمخطوطة نستطيع أن نقرأ السبب: «ملاحظة. لا تُستخدم هذه لأنها ستصرف الانتباه عن المادة قيد البحث. ولذلك كتبتُ مقدمة قصيرة تُطبع مع الكتاب». والمقدمة الأنسب تقع في صفحتين وتتضمن الكثير من الحذوفات والإضافات حتى أننا لا نملك سوى إبداء إعجابنا بمنضد الحروف على نجاحه في التعامل معها. وأُدخلت

المقدمة المرفوضة بوصفها المقدمة السابعة في كتاب «مقدمات» حيث إن عدم انتظامها لا يشتت الذهن على الإطلاق.

في الحقيقة أمضى كيركغارد أقل من أربعة أشهر على مخطوطة «مفهوم القلق» كانت فترة قصيرة حتى بالنسبة له بحيث إنه في خاتمة للكتاب (فكر فيها لكنه لم يستخدمها قط) اعترف صراحة بأن «العمل الحالي أُنجز بسرعة نوعاً ما». وهو رغم بنائه المتوتر في الظاهر عملٌ في منتهى التعقيد أيضاً، يكاد ألا يُقرأ في بعض الأماكن، وهو قطعاً أفضل محطة لكيلا نبدأ قراءة كيركغارد منها.

نظرة على المسودة تؤكد الادعاء القائل بأن الكتاب «أُنجز بسرعة نوعاً ما». وعلى سبيل المثال، يتضح من «المدخل» الذي يتضمنه الدفتر الأول إن الكتاب كان يُراد له في الأصل أن يكون عنوانه «عن/ مفهوم القلق/ تأمل نفسي خالص وبسيط بشأن/ القضية العقائدية للخطيئة الأصلية/ تأليف/ أس. كيركغارد/ ماجستير». وهكذا كان كيركغارد يعتزم نشر العمل باسمه واستخدام لقبه الأكاديمي magister atrium (ماجستير في الأدب). كما إن العمل ليس من دون طموحات أكاديمية معينة. فهو مكتوب بأقسام مرقمة مجموعها ثلاثة عشر قسماً، وهذه موزعة بدورها على خمسة فصول عنوان كل فصل Caput التي تعني باللاتينية «فصل». يُضاف إلى ذلك حرف «عن» الصغير في العنوان «عن مفهوم القلق»، الذي بقي في المخطوطة خلال نقلها من الدفاتر المدرسية إلى النسخة النهائية، ويقودنا إلى التفكير عفوياً في رسالة كيركغارد الجامعية «عن مفهوم المفارقة»، التي من شأن عملٍ عن القلق، لا يقل إبهاماً عن المفارقة، أن يشكل نظيراً لها. ولكن كيركغارد غيَّر العنوان الأصلي في وقت ما وباستخدام قلم شطب حرف «عن» ليكون العنوان الآن ببساطة «مفهوم القلق». وفي المناسبة نفسها قطع صفحة العنوان نصفين بحيث لم يبق إلا العنوان مع تبديل العنوان الفرعي فيما اختفى «أس. كيركغارد/ ماجستير» واستُعيض عنه بالاسم المستعار فيغيليوس هاوفنينسيس Vigilius Haufniensis. وعلى الحافة التي قُطعت عندها الصفحة تماماً تكشف كلمة «تأليف» صغيرة إن تدخلاً حدث. وبطريقة مماثلة شَطَب «أس. كي» التي كتبها في الأصل تحت قول طريف عن سقراط وهامان على الوجه الآخر من صفحة العنوان. ويبدو أنّ إجراء التغييرين حدث قبل أيام قليلة على إرسال المخطوطة إلى المطبعة. وتقدَّم العمل متسارعاً، ويمكن اكتشاف الاستعجال في هامشين تخلف كيركغارد عن

مراجعتهما ليأخذ في الاعتبار الاسم المستعار فيغيليوس هاوفنينسيس الذي بذلك يتكلم بمباشَرَة غريبة عن محاضرات ألقاها شيلنغ وحضرها كيركغارد في برلين عامي 1841 و1842. ولكن اللافت بالقدر نفسه حقيقة إن إهداء فاحماً إلى بول مارتن مولر بقي في مكانه الأصلي - لأن من المشكوك فيه للغاية إن فيغيليوس هاوفنينسيس كان يعرفه ذات يوم! وهكذا تُشكل المخطوطة بطريقتها الحقائقية الجافة تعليقاً ذا مفارقة على أفكار تكهنية تماماً في الغالب خطرت بأذهان أجيال لاحقة عن مشكلة الأسماء المستعارة عند كيركغارد.

ولكن لا يبدو أنّ كيركغارد اكترث ذات يوم بالتناقض اللافت بين نشر العمل باسم مستعار وإهدائه الشخصي، وبعد صدور الكتاب مباشرة كتب فقرة في يومياته أعطى فيها تطمينات لنفسه وللأجيال اللاحقة: «أنا دائماً أقف في علاقة شعرية إجمالاً بأعمالي ولذلك أنا صاحب أسماء مستعارة. وكلما طور كتاب شيئاً ما تتحدد معالم الفردية المناسبة. الآن فيغيليوس هاوفنينسيس يحدد عدداً من هذه المعالم لكني رسمت صورة تخطيطية له أيضاً في الكتاب». وهذه «الصورة التخطيطية» (التي يلحظ المرء وراءها معالم كيركغارد نفسه) إنما هي بورتريه منعش للعالم النفسي في الأيام التي سبقت ارتداءه معطف المختبر الأبيض ونظاراته المهنية للقراءة: «مثلما إن المراقب النفسي ينبغي أن يكون أخف من راقص على حبل مشدود لمسايرة الناس ومحاكاة أوضاعهم ومواقفهم، ومثلما إن صمته خلال لحظة ائتمانه على الأسرار ينبغي أن تكون مغرية وحسية بحيث يمكن للمخفي أن يجد متعة في أن يمضي ويدردش مع نفسه في الخصوصية والهدوء المبنيين بشكل مفتعل - فإن [العالم النفسي] أيضاً ينبغي بطريقة مماثلة أن يتحلى في روحه بالأصالة الشعرية التي تتيح له خلق شيء متكامل ومنهجي مما لا يكون موجوداً على الدوام في الفرد إلا بشكل جزئي ومفكك. وحين يتقن ذلك على النحو الأمثل لن يعود مضطراً إلى أن يأخذ أمثلته من نماذج أدبية أو يقدِّم ذكريات نصف ميتة بل سيكون قادراً على إخراج ملاحظاته من الماء، طازجة تماماً، ما زالت تتلوى وتُظهر كل ما فيها من ألوان».

«مفهوم القلق» عمل مقلق بصورة عبقرية يجمع فرعين هما علم النفس ودراسة المنظومات العقائدية. وتتضمن فقرة في اليوميات من عام 1842 تحديداً مرحلياً لمجموعة القضايا التي تواجه الفرعين بصورة مشتركة معرَّفاً

القلق (باستخدام مصطلح سيصبح شهيراً فيما بعد) بأنه «كراهية متعاطفة»، أي عداء شديد أو تردد (مصطلح آخر نستخدمه اليوم - ربما أكثر مما ينبغي): «الآن عالج البشر طبيعة الخطيئة الأصلية في أحيان كثيرة بما فيه الكفاية، ولكنهم كانوا يفتقدون إلى مقولة أساسية هي القلق. وهذا هو محدِّدها الأساسي: القلق في الحقيقة رغبة فيما يخافه المرء، كراهية متعاطفة. القلق قوة غريبة تستحوذ على الفرد ولكن المرء لا يستطيع الفكاك منها، ولا يريد الفكاك منها - لأن المرء يخاف. ولكن ما يخافه المرء يرغب فيه. القلق الآن يجعل الفرد عاجزاً، والخطيئة الأولى دائماً تحدث في العجز».

بتحليل كيركغارد البحثي لأهمية الجنسوية في ظواهر مثل الهيستريا والعدوانية لم يكن فرويدياً قبل فرويد فحسب بل كان يونغياً قبل يونغ نفسه بمعنى إن كيركغارد تمسك بالذات اللاهوتية في مواجهة كل صنف من المحدِّدات النفسية. وأن يكون كيركغارد قادراً أصلاً على تأليف الكتاب في وقت بالكاد بلغ علم النفس سن الرشد - أعلن برنامجياً «إن علم النفس هو ما نحتاجه» - فإن هذا لا يمكن أن يُفسر إلا بقدرته الهائلة على الاستبطان المثقل بالصراع، الذي من دونه لكانت تحليلات ظواهر مثل التجسيد الشيطاني والقلق من أجل الخير أمراً لا يمكن حتى التفكير فيه.

بما إن قضايا الهوية يمكن، كما هو معروف، أن تنبثق من حقيقة إن الشخص في قرارة نفسه يعرف حق المعرفة مَنْ يكون، فلعله ليس من الغريب إن كيركغارد اضطر إلى النأي بنفسه بعض الشيء عن بصائره ذاتها حول نفسه بنَسْبها إلى قلم اسم مستعار هو فيغيليوس هاوفنينسيس، الكوبنهاغني المتيقظ الذي بذلك يمكن أن يصلح غطاء ممتازاً لكوبنهاغني متيقظ آخر اسمه سورين آبي كيركغارد.

قلق آسر - صفحات من كتاب غاوٍ

عاش كيركغارد أثناء العمل على مسودة «مفهوم القلق» تردداً يثير الاهتمام في مكان ما من منتصف الدفتر الأزرق. «بمعنى ما، كنتُ دائماً أتوقف عند الحقيقة الماثلة في أن قصة حواء تتعارض تعارضاً مباشراً مع كل تماثل لاحق لأن القصة تستخدم مفردة «الغواية» في الإشارة إليها بينما في كل حالة أخرى كان الاستعمال اللغوي الاعتيادي يطبِّق هذه المفردة على الرجل». ويحاول

كيركغارد أن يشرح الوضع بالإشارة إلى أن هناك في سفر التكوين «قوة ثالثة تغوي المرأة» هي الأفعى وبالتالي فإن الأفعى وليس حواء هي التي أغرت آدم.

حتى الآن كلام لا غبار عليه، ولكن كيركغارد يعترف بعد ذلك بأننا «نبقى مع الأفعى» ويقر علناً بأنه في الحقيقة «لا يستطيع أن يربطها بأي فكرة محدَّدة». وبطريقة ما فإنه لم يفعل سوى إزاحة المشكلة إلى الوراء، إلى حيوان أسطوري لا يستطيع أن يستجلي قوته وأهميته.

وضع كيركغارد في مخطوطته صليباً صغيراً حيث يفكر في حواء الغاوية، ويشير الصليب إلى الهامش الآتي: «إذا كان لدى شخص اهتمام نفسي بملاحظات عن هذا الأمر فإني أُحيله إلى يوميات «الغاوي» في كتاب «إما/ أو». ولدى إمعان النظر يمكن أن نرى إنها شيء آخر تماماً وليست رواية، ولديها مقولات مختلفة تماماً تضمرها، وإذا كان الشخص يعرف كيف يستخدمها فإنها يمكن أن تصلح مدخلاً لدراسات مهمة جداً وليست سطحية تماماً. وسر الغاوي هو على وجه التحديد إنه يعرف إن المرأة تشعر بقلق».

كيركغارد حذف هذه الإشارة لاحقاً. ولا يسعنا إلا التكهن بأسباب هذا الحذف ولكنها لا يمكن أن تكون أسباباً وجيهة لأن «يوميات الغاوي» نص يمكن أن يُقرأ قراءة صحيحة على أنه «مدخل» لكتاب «مفهوم القلق» بقدر ما تكون اليوميات أيضاً قصة خلق والسقوط في الخطيئة: يوهانس الغاوي يشكّل أو يكوِّن كورديليا بواسطة تجربة نفسيه معقدة يجعلها، من خلال مراحل مضغوطة بصورة مفتعلة، تمر بنمو متسارع من مرحلة الطفولة إلى سن الرشد، من البراءة إلى السقوط في الخطيئة بجزء ضئيل من الوقت الذي ستنفقه الطبيعة نفسها عليه.

وهكذا فإن «يوميات الغاوي» ليست يوميات بالمعنى المعهود للكلمة. والحق إن النبرة تقنية أحياناً والنظرة دقيقة حتى إن المفكرة التي يُفترض أن تكون يوميات شخصية إنما هي أشبه بالمجلة العلمية. أما كيف على وجه التحديد وجد هذا التقرير طريقه من مختبر الرغبة إلى الجمهور فإن هذا يبقى مبهماً، الأمر الذي ينسجم مع الشخصية الشيطانية لصاحب التجربة الإيروتيكي ولكن مقدمة المحرر (المكتوبة بقلم رجل لا اسم له يتضح إنه أحد معارف يوهانس) ترفع الستارة قليلاً بأفضل الأساليب الروائية. ويجعل الوصف المرجعي بعض

الشيء الذي يقدمه المحرر غير المسمّى من الواضح إن يوهانس «محدَّد روحياً بقدر لا يكون معه غاوياً بالمعنى المعهود للكلمة» ولهذا السبب يمتنع المحرر عن وصفه بـ «المجرم» أيضاً. ويمضي المحرر قائلاً «لكنه كان أحياناً بالفعل يتقمص جسداً طفيلياً، ثم أنه كان حسية خالصة». والجسد الطفيلي مصطلح تقني كان غنوصيو الكنيسة في أيامها الأولى يستخدمونه بالإشارة إلى جسد المسيح. وكانوا يذهبون إلى أنه جسد «في الظاهر» فقط، جسد طفيلي corpus parastaticum. وهذا كان الوضع مع يوهانس أيضاً. فهو روح تكتسي بعض الأحيان حسية ظاهرية ولكن هذا كان، بالمعنى الأعمق، غريباً عن جوهره. وكانت قوته تكمن في إخضاع تلك الحسية. وأعلن كما هو ديدنه «ثُوري أيتها القوى، تحركي يا قوى العاطفةّ! رغم إن تلاطم أمواجك يرمي زَبَده نحو السماء فإنكِ ستبقين غير قادرة على الارتفاع فوق هامتي».

الإشارة الزمالية إلى «يوميات الغاوي» التي حذفها كيركغارد لاحقاً من تحت أنف فيغيليوس هاوفنينسيس، كانت مدفوعة باهتمام بعلم النفس - «يعرف إن المرأة تشعر بالقلق» - ولكن من الجائز أيضاً إن الإشارة كانت مدفوعة بشيء آخر. والحق إن كليهما بصريان على نحو لافت في تعاملهما مع العالم. فهما كائنان بصريان، ويوهانس يفقد نفسه بالكامل حين يبصر كورديليا حتى إن كورديليا الحقيقية تختفي من مجال رؤياه، ولهذا السبب تقترب من كونها مجرد اسم لجماليات البصبصة التي تتشبع بها صفحات اليوميات. «هي لا ترى إني أنظر إليها، تحس بذلك، تشعر به في كامل جسدها. تغمض عينيها فيكون الليل لكنه داخلها وضح النهار». هذا هو الوصف المؤثر حقاً للنشاط الذي يسميه يوهانس في مكان آخر «تعرياً روحياً».

وهكذا أيضاً فإن الرؤية هي التي تحرك الحبكة برمتها. وعندما يخرج يوهانس في نزهة مشياً على الأقدام في لانغليني يوم 9 نيسان/ أبريل يرى فجأة كورديليا التي تذهله أنوثتها بشكل كامل حتى إنه يعجز عن أن يتذكر كيف تبدو: «هل أُصبتُ بالعمى؟ هل فقدتْ عين روحي الداخلية قدرتها؟ رأيتها لكن صورتها اختفت تماماً الآن كما لو إني شاهدتُ رؤية سماوية. عبثاً أستجمع كل ما في روحي من قوة لاستحضار تلك الصورة». لذا يبدأ بحثاً دقيقاً يستمر أكثر من شهر، وفي 15 أيار/ مايو يراها مرة أخرى، فيكتب في يومياته: «شكراً أيتها الصدفة العزيزة، تَقبَّلي شكري! شامخة كانت وبكبرياء، غامضة وغنية بالأفكار

كانت، مثل صنوبرة، غصن واحد، فكرة واحدة، تندفع من داخل أعماق الأرض نحو السماء، بلا تفسير، بلا تعليل لنفسها، كل بلا أجزاء... كانت لغزاً يمتلك حله بصورة غامضة». وبعد أسبوع فقط يتمكن يوهانس من دخول المنزل الذي تسكنه كورديليا، وفي 2 حزيران/ يونيو يتوثق من إنها تمتلك «مخيلة، روحاً، عاطفة، باختصار كل شيء جوهري، ولكن ليس بشكل منعكس ذاتياً». وهكذا ينبغي أن يكون: بالمعنى الأعمق فإن كورديليا بلا تاريخ. وهي تعيش في وحدة آنية مع ذاتها الطبيعية، وحبها يكشف عن نفسه بصورة متقطعة، في الغالب على شكل توق مبهم.

لذلك ليس على يوهانس إلا تشجيع الصفات الخاصة بكورديليا ويكون الإغواء بدأ بالفعل. ويتضح هذا في اليوميات من المقطع الآتي الذي يمكن فهم جمله المختلفة «استرجاعياً» على أنها تمثل المراحل الاستراتيجية في عملية الإغواء: «أولاً، أنوثتها تُحيَّد، ليس مباشرة وإنما بصورة غير مباشرة، بحس وسخرية عاديين مبتذلين وكذلك بما هو محايد قطعاً: الروح. تكاد تفقد حسها بالأنوثة ولكنها بهذه الحالة لا تستطيع أن تبقى بمفردها. ترمي نفسها في أحضاني ليس كما لو أني عاشق - كلا، ما زال ذلك بصورة محايدة تماماً. ثم تستيقظ الأنوثة. تُستدرَج إلى ذروة مطاطيتها. تُدفع إلى الإساءة لمبدأ محترم في العالم اليومي، وتذهب أبعد منه. تبلغ أنوثتها ذرى تكاد تكون خارقة. إنها مُلكي بعاطفة عظيمة عظَمَة العالم».

أن تكون لهذه الاستراتيجية أي فرصة للنجاح فإن هذا ليس لأن اليوميات قطعة فخمة من الخيال النثري (الذي يمكن أن يحدث فيه أي شيء بطبيعة الحال)، بل على العكس. فالسبب هو إن يوهانس قادر على استغلال قلق كورديليا إلى أقصى الحدود. وينعكس احترافه من هذه الناحية بكل وضوح في حسه لما هو «شيق» - مفهوم يواجهه القارئ، كما هو معهود، حتى قبل أن يلتقي يوهانس بكورديليا أصلاً. وفي متن الكتاب بأكمله يقوم مفهوم الشيق بدور مساعد في سياقات شديدة التنوع - تمتد من العام جداً إلى الخاص منتهى الخصوصية، ولكن السمة النفسية الأساسية التي تشترك بها هي علاقتها بـ«المناورات المثيرة للقلق» التي يلجأ إليها يوهانس ليحقق سيطرة متزايدة أبداً على نطاق العواطف والطاقات الشهوانية الكامنة في أعماق جسد كورديليا. وهكذا في مدخل قصير للمقطع آنف الذكر الذي يحدِّد فيه يوهانس مراحل

الإغواء الاستراتيجية، يكتب: «لذلك فإن المبدأ الاستراتيجي، القانون الذي يحكم كل حركة في هذه الحملة، هو دائماً إيقاعها في موقف شيق. وهكذا يكون الشيق هو الميدان الذي ستُخاض فيه المعركة، ويجب تفريغ ما في الشيق من إمكان». وبعد أن يمر بمراحل هذه الاستراتيجية مرحلة تلو أُخرى مستخدماً لمسته الواثقة بصورة مغرية يقيِّم الوضع في مظهر من مظاهر الاكتفاء الذاتي السامي: «في علاقتي مع كورديليا هل كنتُ دائماً وفياً للعهد الذي قطعته؟ أي عهدي مع الجمالي لأن هذا هو ما يمدني بالقوة، أن تكون الفكرة دائماً بجانبي... هل كان دائماً يجري الحفاظ على الشيق؟ نعم، أظن ذلك بحرية وصراحة في هذا الحديث السري».

يتطلب إنتاج الموقف الشيق تضافر الحميمية والمسافة، مع ممارسة فن التحلل المسيطَر عليه بحيث لا يسمح المرء لنفسه أبداً بالاندفاع بل دائماً يكتفي بملاحظة العواطف تدمدم تحت السطح، يلاحظها طول الوقت وهي تترك بصمتها على المرأة التي يواجهها. وفي الموقف الشيق تُجمع نقائض نظرية مثل الطبيعة والفكر لإنتاج شكل هجين يقترب في اتحاد أضداده المشحون بالتوتر أقصى ما يستطيع المرء أن يقتربه من المفارقة المتصوَّرة. وفي مرحلة معينة إذ يكشف يوهانس عن مجون غريب، فإنه يكون قادراً على أن يبين إن بالإمكان الآن «إنتاج القلق الآسر الذي لا يُوصف [في كورديليا] الذي يجعل جمالها شيقاً».

ولكن إذا أُريد للمناورة أن تنجح يجب استخدام طريقة غير مباشرة على نحو ملحوظ. والحق إن أدلة من صنوف شتى - بما في ذلك التوصيفات المتكررة في يوميات يوهانس لمواقف إيروتيكية في منتهى التفصيل والإسهاب - تؤكد إن غير المباشر أو المبهم هو صيغة الموقف. ونراه في أحد هذه التوصيفات يمشي في شارع أوسترغاده عندما تقرر «آنسة صغيرة» فجأة أن تندفع في مجال رؤيته مباشرة، الأمر الذي يؤدي إلى المونولوج الآتي: «إذا مال المرء برأسه جانباً بعض الشيء قد يكون من الممكن اختراق ما تحت البرقع أو الخِمار. حذارِ، فإن نظرة من تحت كهذه أخطر من نظرة وجهاً لوجه... ودون اكتراث تواصل المشي، بلا خوف وبلا زلل. ولكن حذارِ، ها هو أحدهم مقبل: أخفضي البرقع، لا تدعي هذه النظرة الدنسة تلوثكِ. ليس لديكِ فكرة - ربما لفترة طويلة سيكون من المستحيل أن تنسي القلق البغيض الذي تركته هذه النظرة فيكِ».

إن يوهانس بوصفه مراقباً يراقب مراقباً آخر يراقب «الآنسة الصغيرة»، يجد نفسه في موقع يستطيع منه أن يعلق تعليق خبير على التصميم المسرحي للموقف الشيق. فالفتاة بالكاد تفلت من الوقوع تحت نظرة خطيرة من النوع الذي يأتي «من تحت»، نظرة عادة تسبب - يوهانس يعرف ذلك - «قلقاً بغيضاً» لأنها تدخل على رغبة هاجعة. من جهة أخرى كان يوهانس قبيل ذلك موضع اتهام قوي عندما وجد نفسه (يا للصدفة المناسبة) «في معرض عام لبضائع فاخرة» عندما تلصلص على شابة أنيقة صمم أن يراها مرة أخرى: «نظرتي الجانبية لا تُنسى بسهولة». ولماذا لا تُنسى؟ لأن النظرة الجانبية تنطوي على إبهام مطابق للتردد أو «الكراهية المتعاطفة» التي يتسم بها كل قلق. فالمرء يريد وفي الوقت نفسه لا يريد.

يوهانس سيلجأ إلى استخدام بعض هذه الطرق المتخصصة لاستدراج كورديليا إلى حيث يريدها. وبالتالي فإن حركته الاستراتيجية الأولى حركة خاصة تماماً لأنه يبدأ الحملة باستحضار مُعجَب ثقيل الدم في شخص أدفارد، وهو ابن تاجر اسمه باكستر، مهمته الوحيدة أن يثير في كورديليا اشمئزازاً حقيقياً لأشكال الحب التقليدية. وحين يتخذ أدفارد البسيط ويوهانس الماكر مكانهما في الصالون المريح حيث شاي الإبريق يختمر على نار هادئة، كانت الأدوار موزعة كالآتي: أدفارد في محاولته اليائسة أن يفتن كورديليا يؤدي دوره إلى أتفه التفاصيل، وفي هذه الأثناء يتحادث يوهانس بدراية مع عمة كورديليا عن أسعار السوق وإنتاج الزبدة. ولكن في فترات منتظمة خلال هذه الأحاديث عن الاقتصاد الريفي كان يوهانس يبدي ملاحظة «تتيح لنأمة شيء من عالم مختلف تماماً أن تبرق في الأفق البعيد» بحيث تفهم كورديليا إن الإصرار الذي يستحوذ به على اهتمام العمة إصرار كاذب في الحقيقة. ويكتب في يومياته متفائلاً: «أحياناً أدفع الأمور إلى حد أجعل معه كورديليا تضحك مبتسمة على العمة - خلسة تماماً. وهذا هو الدرس الكاذب الأول: يجب أن نعلِّمها الابتسام بسخرية. ولكن هذا الضحك يسري عليَّ بقدر ما يسري على العمة تقريباً لأنها بكل بساطة لا تعرف رأيها بي... وبعد أن تضحك على عمتها تغضب على نفسها ثم أُغيِّر أنا اتجاهي وأنظر إليها بكل جدية مستمراً في الوقت نفسه بالحديث مع عمتها - ثم تضحك عليَّ، تضحك على الموقف».

فيما تضحك كورديليا على عمتها يستطيع القارئ أن يضحك على أدفارد

الذي يبدو شخصية يُرثى لها بصورة متزايدة أقرب إلى الكاريكاتير، كما يلاحظ يوهانس في يومياته: «مسكين أدفارد! للأسف إن اسمه ليس فريتز». ويشرح يوهانس إنه يفكر في فريتز أحد شخصيات «العروس»، وهي أوبرا شعبية، مؤلف موسيقاها أوبر وكاتب كلماتها سكرايب. ويدور العمل حول رجل اسمه فريتز من مواليد تيرول، وعامل تنجيد، وعريف في ميليشيا مدنية عليه، كما على أدفارد، أن يتنازل عن المرأة التي يحبها لشخص آخر. وقد تبدو المقارنة مبالغاً بها، وهي فعلاً مبالغ بها، ولكنها ذات منطق مباشر وحاقد: «فريتز ليس فريتز «ذاك» بل فريتز مختلِف بالكامل - أي خطيب ريجينة الجديد فريتز شليغل!».

وإذ تخرج كورديليا من وضع الابنة الحلوة لأخ العمة وموضع إعجاب مُعجَب ممل فإنها تنتبه بصورة تدريجية إلى وجود اضطراب لا يمكن تحديده في كيانها. وبمساعدة أدفارد يكون الإيروتيكي ما زال مُمثلاً تمثيلاً سلبياً في معالمه العامة بوصفه صبوة بلا هدف أو ظلاً بلا موضوع على وجه التعيين. والأكثر من ذلك لا يكون يوهانس إلا حضوراً خارجياً: «هي نفسها يجب أن تتطور في داخل نفسها... يجب ألا تُدين لي بشيء... وبصرف النظر عن حقيقة إني حقاً أريد لها أن تغرق في أحضاني، كما لو بضرورة طبيعية، وأسعى لإيصال الأمور إلى نقطة تنجذب عندها نحوي فالمهم رغم ذلك ألا تسقط كجسم ثقيل بل بشكل تنجذب فيه الروح إلى الروح... يجب ألا تكون ملحقي الجسدي أو التزامي الأخلاقي. لعبة الحرية نفسها وحدها التي يجب أن تحكمنا».

بعد ذلك بفترة قصيرة يجد يوهانس من المناسب أن يدخل على الخط بوصفه معجباً، حتى إذا كان «الأمر كله محض ادعاء» بطبيعة الحال. ويستمر عاشق الاستراتيجية قائلاً: «تمرنتُ على خطوات مختلفة في الرقص لتحديد أفضل اتجاه أقوم بحركتي التعرضية منه» لأن كورديليا يجب أن تكون «مهجوسة» في «اللحظة» الحاسمة. ولذلك حتى المشهد يجب ألا يكون إيروتيكياً أكثر مما ينبغي، «لأنه يمكن بكل سهولة أن يطغى على ما سيحدث لاحقاً». كما يجب ألا يكون المشهد «جدياً» أكثر مما ينبغي أو «رقيقاً» أكثر مما ينبغي وأقل من ذلك أن يكون «طريفاً وفيه سخرية». الأفضل أن «يكون بلا أهمية قدر الإمكان لتكون عاجزة، بعد أن تقول نعم، عن اكتشاف أدنى ما يمكن إخفاؤه في هذه العلاقة... لا يمكن التفكير في أنها ستقول نعم لأنها تحبني فهي لا تحبني بالمرة». ويُفضَّل أن تكون العلاقة «حدثاً» يمكن أن تقول كورديليا عنه لاحقاً - وبالتالي

بعد فوات الأوان: «الله يعلم كيف حدث ما حدث في الحقيقة». وبالكاد بعد الخلوص إلى هذه الفكرة يراجع يوهانس في ذهنه مجرى الأحداث: «الفتاة لا تعرف إن كان يجب أن تقول نعم أو لا. العمة تقول نعم. والفتاة أيضاً تقول نعم. أنا آخذ الفتاة وهي تأخذني - والآن تبدأ الحكاية».

وتبدأ بالفعل: وضُعت كورديليا بالخطوبة في إطار بورجوازي يجب على يوهانس أن يستدرجها إلى تحدِّيه ليمكن تفجير الأشكال التقليدية برغبة لا شكل لها وخطيرة يكون يوهانس موضوعها. وفيما يستشيط أدفارد المسكين غضباً، هو محق فيه تماماً، على المكيدة التي كان ضحيتها، يكون يوهانس فاتراً في إخلاصه، يكاد أن يكون بلا عواطف على نحو ظاهر في علاقاته مع كورديليا - «مرن، مطواع، لا شخصي» - ويتسبب سلوكه في استحالة إيروتيكية جديدة يرصدها بسرعة: «أعيش معها خبرة ميلاد حبها. أنا نفسي حاضر حضوراً غير مرئي تقريباً حين أجلس مرئياً بجانبها. وحين يؤدي واحد منا فقط رقصة يُفترض في الحقيقة أن يرقصها اثنان - هكذا أرتبط بها. أنا حقاً الراقص الثاني، ولكني غير مرئي».

من باب تشجيع كورديليا على النظر إلى الخطوبة على أنها شكل ناقص، يأخذها يوهانس إلى بيت عمه حيث يلتقي المخطوبون والمخطوبات جماعياً ويجلسون لتقبيل بعضهم بعضاً بلا ذوق: «بلا توقف، طيلة المساء، يسمع المرء صوتاً مثل صوت شخص يمشي وبيده منشَّة ذباب - إنهم العشاق يقبّلون». وكتطور بموازاة ذلك يشن يوهانس «الحرب الأولى مع كورديليا» التي يجعل نفسه خلالها موضوع صبوتها لكنه يحرص في الوقت نفسه على الإفلات منها لكي تتراكم الطاقة الإيروتيكية فيها إلى أن تظهر بوصفها محررة الرغبة المجهَضة ومنقذتها. ويشرع في تصعيد هذه العاطفة برسائل صغيرة ذات مضامين حارة مشتعلة، وبعد ذلك مباشرة يجمدها بلامبالاة جليدية: «حين تتسلم رسالة، حين يدخل سمها حلو المذاق دورتها الدموية، تكون كلمة واحدة كافية حينذاك لكي يتفجر الحب دفاقاً. وفي اللحظة نفسها يسبب التهكم والبرود عندها بعض التوجسات ولكن ليس بالقدر الذي يمنعها من مواصلة الشعور بانتصارها، الذي ينتابها حتى بقوة أشد حين تتسلم الرسالة التالية». ثمة سبب للافتراض إن صانع الغاوي يعرف عم يتكلم.

حتى عندما كان يوهانس يواصل تصعيد الصورة الإيروتيكية في هذه الرسائل - التي يُفترض أن تشجع كورديليا على «أن تكتشف اللانهائي وتجد إن هذا [اللانهائي] هو ما يكمن على أقرب مسافة من الشخص» - فإنه يمعن في إجبارها على حضور اللقاءات التقبيلية المبتذلة في بيت عمه بوصفها تمارين على الغضب: «وهكذا عندما تصبح على علم بهذا الصخب سأضيف الإيروتيكي وحينذاك ستكون ما أُريده وأشتهيه. ثم تُنجَز خدمتي، يُنجَز عملي. وحينذاك سأُنزل أشرعتي ثم أجلس بجانبها. وبأشرعتها هي سنبحر قُدُماً. وفي الحقيقة عندما تسكر هذه الفتاة إيروتيكياً سيكون عندي ما يكفي لعمله في الجلوس وراء الدفة لتعديل السرعة كي لا يحدث شيء قبل الأوان أو بشكل غير لائق. وبين حين وآخر أفتح ثقباً صغيراً في الشراع، وإذا بنا نندفع مرة أخرى قُدُماً».

حان الوقت لإشعال «حرب الغزو» التي تتبادل فيها كورديليا الأدوار مع يوهانس. ويقدم يوهانس تفسيراً تقنياً: «الآن إذ حدث الانقلاب وأبدأ التراجع جدياً عند ذاك لن تعدم وسيلة لإيقاعي حقاً في أسرها. ليس لديها وسيلة لذلك سوى الإيروتيكي نفسه ولكن هذا سيكشف عن نفسه الآن على مستوى جديد بالكامل... ثم ستصبح عاطفتها المتقدة عاطفة محدَّدة، حيوية، قاطعة، ديالكتيكية. قبلتُها ستكون شاملة، عناقها غير فرجوي». وبعد فترة ليست طويلة على هذا تظهر كورديليا متألقة «ذات طاقة وكأنها فالكيري» [فالكيري في أساطير اسكندنافيا عذراوات يخترن مَنْ يموت ومَنْ يحيا في المعركة] ويتابع يوهانس تجربته النفسية بعناية طارحاً الملاحظة بصفاء ذهني: «يجب ألا تُحتجز طويلاً في هذه القمة حيث القلق والاضطراب وحدهما اللذان يستطيعان إبقاءها على قدميها» لأن كورديليا تقف في الحقيقة على حافة الهاوية التي يجب أن تسقط فيها ما أن تتركز حالتها الإيروتيكية المشتتة جنسياً.

في 16 أيلول/ سبتمبر تفسخ كورديليا الخطوبة وتسافر وحدها إلى الريف. ويُبقي يوهانس اتصالاته معها برسائل متباعدة. وحين تغادر ملاذها الريفي بعد وقت يرافقها خادمه الموثوق إلى بيت مهجور شمال كوبنهاغن. ويُطلق على المنطقة اسم «الوجهة». ولا يبقى إلا الفعل الجسدي.

ويكون لزاماً على يوهانس بوصفه غاوياً تأملياً أن يمر بتحول ارتدادي

لكي تكون لديه صبوة، رغبة جنسية. ومع الاقتراب من نهاية هذه العملية يكتب الفقرة ما قبل الأخيرة في يومياته التي تكشف بصورتها الإيروتيكية عن الشكل الأسطوري الذي يسكنه الآن: «في هذه الساعة الليلية لا أرى أشباحاً، لا أرى ما كان بل ما سيأتي، في جوف البحيرة، في قبلة الندى، في الضباب الذي ينتشر على الأرض مغطياً أحضانها المثمرة. كل شيء استعارة. أنا نفسي أسطورة عن نفسي، أليست أسطورة أن أُسرع إلى هذا اللقاء؟ مَنْ أكون ليس له أهمية. كل شيء محدَّد وزمني يُنسى، ولا يبقى إلا الأزلي، قوة الحب، لهفته، هناؤه».

لا نسمع شيئاً عن سير الأمور ليلة العشق نفسها ولذلك يجوز أن نظن ما يحلو لنا. ولكن محرر اليوميات يخبرنا إن كورديليا من الواضح قارئة جيدة تعرف كيف تعبر عن نفسها رمزياً. وتشير كلماتها عن معانقة سحابة إلى الأسطورة اليونانية عن الملك إكسيون الذي دُعي إلى مائدة الآلهة لكن الاستثارة بلغت به مبلغاً حتى إنه حاول أن يغتصب مضيفته هيرا. وبطريقة لبقة بادر زيوس إلى إنقاذ إكسيون من موقفه المحرِج بخلق سحابة لا تختلف عن هيرا، وضاجع إكسيون هذه السحابة. وهكذا فإن كورديليا لم تورط نفسها مع جسد حقيقي بل مع سحابة، مع جسد يحاكي الجسد الحقيقي.

في اليوم التالي، 25 أيلول/ سبتمبر غادر يوهانس مخبأه السري ويعود إلى كوبنهاغن حيث يختتم يومياته بشخص غاوٍ تأملي: «لماذا لا يمكن لليلة كهذه أن تدوم أطول؟... لا أُريد تذكيري بعلاقتي معها، فهي فقدت شذاها... لن أقول لها وداعاً. لا شيء يقرفني أكثر من دموع النساء وتوسلاتهن التي تغير كل شيء لكنها في الحقيقة لا تعني أي شيء. أحببتها، لكنها من الآن فلاحقاً لن تتواصل مع روحي. وإذا كنتُ إلهاً سأفعل لها ما فعله نبتون لإحدى الحوريات - سأحولها إلى رجل».

السطور الأخيرة تحوي أُمنيتين لافتتين - ومن المحال تحقيقهما على ما يظهر. ومع ذلك فإن يوهانس في الحقيقة لم ينجز شيئاً يُذكَر سوى كونه أرانا إنه لا يستطيع أن يخلق كورديليا كما يستطيع إله أن يخلقها ثم يكون في كل الأحوال قادراً على تشكيلها. وإذا عاينا مساهمة كورديليا الفعلية في قصة الغواية فلعل فيها من الرجولة أكثر مما تخيل يوهانس.

نموها كان من صنع يدي. هكذا يكتب يوهانس قبل ساعات قليلة على ليلة الحب، ورغم ما قد يبدو في التعليق من كلبية عارضة فإنه يتضمن حقيقة كبيرة، جمالية ونفسية على السواء: جمالية بقدر ما يتكون شكل العمل، بل اليوميات نفسها، بإيقاع واحد مع نمو كورديليا إلى امرأة، ونفسية بقدر ما يكون يوهانس، حسب تأكيداته المتكررة ذاتها، منغمراً من حيث الأساس في رعاية القدرات الشهوانية الكامنة التي تشكل جزءاً من طبيعة كورديليا، وتنميتها: أُبقي عيناً صارمة وناكرة للذات على نفسي كي يُتاح لكل شيء في داخلها، لثروة طبيعتها الإلهية الكاملة، أن تنمو. ما ليس واضحاً بالقدر نفسه هو إلى أي مدى يسمح استحضار الضرورة الطبيعية هذا ليوهانس أيضاً بأن يأمل بخضوعه لحكم أخلاقي أقل تشدداً لأنه كان ويبقى المثال النموذجي على كيف ينبغي ألا يُستخدم تقدير الجمال والإيروتيكي والتبصر في الطبيعة البشرية. ويومياته هي – من بين أشياء أخرى – رواية تربوية.

إذا كان من المتعذر، رغم هذا كله، استنكار يوهانس بوصفه مثالاً فظيعاً وبغيضاً للسلوك الدنيء فلأن دوراً كبيراً أُنيط به في تصنيف الإيروتيكي. ويمكن فهم هذا على أفضل وجه إذا عدنا من يوميات الغاوي عبر الجزء الأول من «إما/ أو» متوقفين عند المراحل الآنية للإيروتيكي، أو الإيروتيكي الموسيقي الذي لا يشيد فيه متذوق الجمال أ إشادة منتشية بموزارت الذي يقع في حبه مثل فتاة شابة فحسب بل يوفر تفسيراً أصيلاً كذلك للرغبة التي تكتسب شكلاً في شخصيات الصفحة، تشيروبينو وباباغينو ودون جيفاني في أوبرات موزارت الثلاث، زواج فيغارو والناي السحري ودون جيفاني.

المعالجة الأكثر استفاضة محفوظة، بالطبع، لشخصية دون جيفاني المعرَّف تعريفاً مطلقاً على أنه الرغبة ولكن تجسيده الموسيقي خال من الكلام، ولذلك لا يكون غاوياً بالمعنى التكتيكي: إنه يرغب، ولهذه الرغبة بدورها تأثيرها الغاوي. وهو بهذا القدر يمارس الإغواء. ولكن يبقى ذلك بهذا القدر. كما إنه، للسبب نفسه، لا يفهم إن ما يدفعه إلى كل هذه الإباحية المحمومة هو ليس رغبة عارية بل إن القلق، بأعمق معنى، هو الذي يحركه: هناك قلق في داخله، لكن هذا القلق هو طاقته. وعن طريق هذا القلق المتفجر طاقة يرتبط بكل الشخصيات

الأخرى في الأوبرا: عاطفته المتقدة تحرِّك عواطف الآخرين. عاطفته المتقدة تتردد في كل مكان. تتردد وتؤازر ثقل كومانداتوري وغضب ألفيرا وكراهية آنا وأُبهة أوتافيو وقلق زيرلينا وسخط ماسيتو وتشوش ليبوريلو.

ولكن من بين كل هذه الشخصيات هناك شخصيتان تقفان خارج حلقة دون جيفاني الساحرة حيث جعلتهما خارجَين قوة دون جيفاني ذاتها. الشخصية الأولى هي كومانداتوري الذي قتله دون جيفاني وبذلك أحاله روحاً والشخصية الأخرى ألفيرا التي أغواها دون جيفاني وبذلك منحها فهماً جديداً لنفسها: ما أن تقع في الغواية حتى تُرفع إلى دائرة أعلى، وهناك وعي فيها لا يملكه دون جيفاني.

وهكذا فإن اللغة والوعي، قبل كل شيء، تشكلان الفارق بين دون جيفاني ويوهانس. دون جيفاني الآني يجب أن يغوي 1003 امرأة، والتأملي يجب أن يغوي واحدة فقط، كما يشرح متذوق الجمال أ، ويتابع بأسلوب توجيهي: في هذه الحالة يكون لا فرق كم يغوي، ما يشغله هو التفنن، الاهتمام الدقيق بأصغر التفاصيل، المكر العميق الذي يغوي به.

إذا عدنا الآن إلى يوميات الغاوي يتسنى أن نرسم صورة تخطيطية للآتي: الموقف الذي تجد كورديليا نفسها فيه بعد ليلة الحب مع يوهانس يطابق موقف ألفيرا بعد بهلوانيات دون جيفاني. إذ تُترك المرأتان مع الألم والعار والغضب، ولكن أيضاً مع فهم جديد للذات يصبح في حالة كورديليا حباً - كراهية تعبر عنهما بعنف في الرسائل الثلاث التي تكتبها إلى يوهانس بعد انتهاء العلاقة ولكن محرر اليوميات يضعها قبل قصة الإغواء الفعلية. وهكذا فإن كورديليا من ناحية فهم ذاتها تشبه ألفيرا بعد إغوائها، ولكن من حيث حرارة الرغبة قبل إغوائها هي فإن كورديليا - وهنا النقطة المصيرية - تشبه دون جيفاني!

وهكذا من بين كل الصفات التي تُستخدم بارتباط مع دون جيفاني هناك صفة واحدة لا تصح على كورديليا. إنه يرغب، ولهذه الرغبة بدورها تأثيرها الغاوي. وهو بهذا القدر يمارس الإغواء. أُطلقت هذه الأقوال بالإشارة إلى دون جيفاني ولكن إذا استعضنا عن هو بـ هي تكون النتيجة وصفاً أمثل لكورديليا. فإن كورديليا، شأنها شأن دون جيفاني، تمثل القوة الغاوية، قبل التأملية، العصية على سبر أغوارها، التي تنبعث من الطبيعة ذاتها، بل هي تجسيد جنسها. وهي

أيضاً التي، بفضل طبيعتها ورشاقتها وجمالها، تتحكم بهاوية الإغواء الطبيعية، وقلقها المفعم طاقة هو الذي يُبقي الحكاية في حركة متقدمة. وعلى غرار دون جيفاني في الأوبرا فإنها تتردد في كل مكان من اليوميات، نموها هو القلق الذي يحرك العمل بالمعنى الحرفي للكلمة. ومن ظهور كورديليا الأول ذاته في حديقة لانغليني كانت كورديليا ما لم يصبحه يوهانس قط: مغرية.

ولكن هل يمكن الجمع بين كورديليا، بدور المغرية، ويوهانس بدور الغاوي؟ هنا يجب الاستعاضة عن إما/ أو بـــ كلاهما/ و. ومن الخطأ في الحقيقة أن نرغب في عزل المبادرة النشيطة وقصرها على أحد الجنسين فقط. فالغواية نفسها لعب معقد أو ميدان أحداث تكون المقاصد والتكتيكات حقيقية على نحو لا يُنكر فيه لكنها ليست بأي حال محدِّدة كما يود يوهانس أن يتخيل. وفي الفهم الصحيح فإن يوهانس نفسه المسكون بالغواية، وبالتالي يكون خاضعاً لسيطرة قوة أكثر من ذاتية. وفي الواقع إن يوهانس ليس إلا منفذاً بهذا القدر أو ذاك لإرادة تلك القوة في تحقيق ذاتها. وهذا يفسر أيضاً الكمال الذي يجري به الإغواء حيث كل شيء يحدث بلا زلل على الإطلاق، كما لا يحدث إلا في الأساطير أو في تأليف مسرحية بلا موضوع. وهكذا يظهر أن التواضع الذي يبديه يوهانس بصورة متكررة حين يسمي كورديليا معلِّمته، وشريكته في الرقص، ومرآته، إنما شيء أكثر من مجرد إنشاء خجول. وفي الحقيقة إن يوهانس ليس سيد عمله – يومياته مسكونة بقوة غريبة ولهذا كان يجب أن تكون بعنوان يوميات الغاوي.

لعل يوهانس نفسه أدرك ذلك لأن اليوميات في الحقيقة تسوق بعض الأمثلة الواضحة تماماً على إمكانية قلب الأعراف التقليدية للنشاط من أجل الجنس. وعلى سبيل المثال إن يوهانس إذ يتوقع وقت إقدام كورديليا، وفق حساباته النفسية، على فسخ الخطوبة، يكتب: هي نفسها أصبحت المغرية التي تغويني على تجاوز حدود العام. وهنا فإن اختيار كلماته وحده يدعونا حتماً إلى التفكير فيما إذا كان تبادل الأدوار بدأ في الحقيقة قبل وقت طويل مما يتخيل يوهانس. كما إن ما له أهمية إن محرر اليوميات يعلق في مقدمته قائلاً إن تاريخ يوهانس مع كورديليا كان متشابكاً بحيث من الجائز أن يبدو هو المَغوي.

الآن، كما نعرف جيداً، إن القصة كانت متشابكة مع قصة أخرى أيضاً، هي

قصة كيركغارد. ورغم إنه سيكون من غير المعقول أن نحاول تحديد ما موجود من كيركغارد في يوهانس فإن ما موجود من ريجينة في كورديليا، أو بالإضافة إليهما مقدار ما موجود من أدفارد في فريتز فإن القراءة البيوغرافية الموازية تكون حتمية نفسياً، وتصبح لازمة بكل بساطة عندما يكتب كيركغارد وفي ذهنه ريجينة إن يوميات الغاوي كُتبت من أجلها، بهدف صدها.

وهكذا كان كيركغارد أول من أسبغ طابعاً بيوغرافياً على اليوميات. أو ربما كان هناك شخص آخر سبقه. لعل جي. إيل. هايبرغ كان في الحقيقة على سكة بيوغرافية مماثلة عندما راجع الكتاب «إما/ أو» وسدد سهامه بصفة خاصة صوب يوميات الغاوي. وفي هذا الشأن لم يكتف، طبعاً، بالاشمئزاز والغثيان والقرف بل فكر أيضاً في النية التي لا بد إن المؤلف كان يبيتها في كتابته يوميات كهذه. وهكذا لم تساور هايبرغ أي شكوك بأن شخصاً ما قد يكون مثل هذا الغاوي ولكنه كان شديد الدهشة من أن يكون مؤلف فرداً من النوع القادر على الاستمتاع بتخيل نفسه مثل هذه الشخصية. وهنا كان هايبرغ يصدر حكماً أخلاقياً بلا شك، ولكن تحديده المؤلف بالذات على أنه وراء الغاوي كان لافتاً، وتضمن أكثر بكثير من الوعظ الأخلاقي الغاضب. هل ينطوي حكم هايبرغ الأخلاقي على شيء من التكهن القلق أيضاً، بما معناه إن كيركغارد كانت لديه دوافع خاصة تماماً في كتابة عمل مثل يوميات الغاوي؟ - أي كيركغارد كان يبحث عن ملاذ في شخصية مثل يوهانس ليكون قادراً على النأي بنفسه، في شكل رواية، عن الحقيقة المهينة بأن امرأة، في الواقع، نجحت مرة في إغواء رجل؟ باختصار: هل يلمح هايبرغ إلى أن كيركغارد كان يجب أن يكتب يوميات الغاوي لإيهام قرائه بأنه هو الذي مارس الإغواء في حين إن ريجينة هي الغاوية في الواقع.

في كل الأحوال كانت هناك علاقة خفية ومبهمة بين حكم هايبرغ وتردد كيركغارد اللاحق حين بدأ، في غمرة كتابته مخطوطة مفهوم القلق، يفكر لماذا - على نقيض مباشر من كل مماثلة تالية - تكون حواء هي التي أغوت آدم. وفي 26 آب/ أغسطس 1849 حين كان يتذكر أيامه مع ريجينة ويتأمل في القوة التي تمتلكها حقاً، كتب بصراحة: حقاً، عندما أعطت العناية الإلهية القوة للرجل والضعف للمرأة، أيهما جعلته الأقوى؟ هذا ما هو فظيع عندما يرتبط رجل بامرأة: بسبب ضعفها تستسلم، ثم - ثم يصارع المرء مع نفسه، مع قوته هو.

هنا يُقدَّم التفاعل بين القوة والعجز في إبهامه المتبادل ويقترب من منحه وجوداً مستقلاً. ولكن المرء لا يصارع مع قوته هو فحسب بل يصارع أيضاً مع ما سمته مخطوطة مفهوم القلق «القوة الثالثة» في إشارة إلى القوة الغريبة التي أغوت حواء أولاً ثم جعلتها تغوي آدم.

لذا كان كيركغارد في الفقرة التي كتبها في يومياته قريباً تماماً من تفسير دور الأفعى الحقيقي في الأسطورة بل إنه حتى خبِرَ التفسير شخصياً. فالأفعى رمز للعبة الإغواء الحقيقية، وهي تمثل الإغواء بوصفه قوة مستقلة وغريبة تختار أدواتها وتسكنها.

آدم وحواء. يوهانس وكورديليا. والأرجح آخرون كُثر غيرهم.

أوه، أن تكتب مقدمة

سيعرف من يقرأ عدد 17 حزيران/ يونيو 1884 من صحيفة أدرَسيفيسن إن المدعو فيغليوس هاوفنينسيس كان يقدِّم كتاب مفهوم القلق: وقفة بسيطة ذات مغزى نفسياً عن القضية العقائدية للخطيئة الموروثة، 192 صفحة، حتى بسعر ريكسدولار واحد. وفي العدد نفسه إعلان عن عمل نُشر حديثاً بعنوان غامض قليلاً هو مقدِّمات، رغم إنه يُردَف بعنوان فرعي أكثر تنويراً بعض الشيء للمستهلك هو قراءة خفيفة لطبقات مختلفة حسبما يسمح الوقت والمناسبة. وكان العمل من تأليف نيكولاوس نوتابيني Nicolaus Notabene، يقع في 112 صفحة، ويكلف 56 شلناً.

رغم إن هذا لم يكن كافياً للتسبب في إفلاس أحد مالياً فإن حدود ميزانية المرء المرصودة للكتب في حزيران/ يونيو 1844 ربما بلغت نهايتها لأن سيداً اسمه يوهانس كليماكوس Johannes Climacus عرض قبل ثلاثة أيام، في 13 حريزان/ يونيو 1844، للبيع كتابه شذرات فلسفية أو شذرة من الفلسفة، 164 صفحة، بسعر 80 شلناً كانت بحد ذاتها تكلفة يمكن تحملها - إلا إذا صرف المرء قبل خمسة أيام على ذلك ثلاثة ماركات وثمانية وأربعين شلناً على كتاب كيركغارد سورين ثلاثة خطابات تثقيفية، 70 صفحة، أو صرف ماركين واثنين وثلاثين شلناً على عمل المؤلف نفسه خطابان تثقيفيان، 60 صفحة، صدر في وقت سابق من العام، في 5 آذار/ مارس. ومن النواحي الاقتصادية، كما من النواحي الأخرى، كانت تكاليف كبيرة ترتبط بأن يكون المرء ذلك الفرد المنفرد.

يحوي كتاب مقدَّمات بالإضافة إلى مقدمته ثماني قطع مرقمة تُساق على أنها مقدَّمات لكتب نشأت فكرتها بعَظَمة لكنها لم تُكتب قط أو كراسات تعريفية مستفيضة لاشتراكات في مجلات علمية لم تصدر قط هي الأخرى لأن زوجة نيكولاوس نوتابيني وإن كانت لطيفة تماماً من نواحي عديدة فإنها تعارض كل نشاط يتعلق بالنشر أياً يكن نوعه: تقول إن يكون المرء كاتباً وهو متزوج فإن هذه خيانة سافرة. ويكشف نيكولاوس نوتابيني بوداعة لقارئه إنه في غضون أشهر من زواجه أصبح بالتدريج معتاداً على طرق الحياة الزوجية ولكن رغبة لا تُقاوَم في الكتابة غمرته فجأة ولذلك بدأ يسجل ملاحظات ويقوم بتحضيرات أخرى. ولكن الشكوك سرعان ما أخذت تساور زوجته وهددت بمصادرة كل ما كتبه واستخدامه بصورة أكثر فائدة - مثلاً كمسند لما تطرزه أو كأوراق تجعيد لشعرها. وكانت ترفض كل ما ينتمي إلى رجاحة العقل على أنه حماقة لا أكثر. ولكن نيكولاوس نوتابيني نجح مع ذلك في كتابة فقرته التمهيدية التي أراد، مدفوعاً بآمال المصالحة، أن يقرأها لزوجته المهجوسة بالشك فوافقت على المقترح، متسببة في إصابته بذهول خالص، وأسعدته بالاستماع إليه والضحك: حسبتُ إني ربحتُ كل شيء. جاءت إلى المنضدة حيث كنتُ أجلس، ثم وضعتْ ذراعيها بحميمية حول رقبتي وطلبت مني أن أقرأ أحد المقاطع مرة أخرى. فأبدأ بالقراءة رافعاً المخطوطة بما فيه الكفاية لتمكينها من المتابعة بعينيها. ممتاز. كدتُ أطير من الفرح، ولكن قبل أن أنتهي من قراءة المقطع ذي العلاقة اشتعلت المخطوطة ملتهبةً بصورة مفاجئة. إذ إنها دست، دون أن أنتبه، إحدى الشموع تحت المخطوطة. وكانت الغَلَبة للهب النار، ولم يكن من الممكن إنقاذ أي شيء، وأتت النار على فقرتي التمهيدية - لتدخل البهجة في قلوبنا جميعاً لأن زوجتي ابتهجت عني وعنها. بعد هذا حصل نيكولاوس نوتابيني على موافقة لكتابة مقدَّمات ولكن ليس أكثر من ذلك. وهكذا انتهى الأمر.

الحكاية تمثيل هازل لصراع كيركغارد نفسه بين مؤسسة الزواج وغريزة الشعر، ولكن حبه للمقدمة بوصفها جنساً أدبياً بدأ في وقت مبكر. وفي 17 أيار/ مايو 1839 كتب عن الفرح الذي لا يُوصف بالتخلي عن كل تفكير موضوعي وبدلاً من ذلك أفقد نفسي في خمائل المقدَّمة الغنائية التي سينذر نفسه في أعماقها للتهامس السري مع القارئ. وهذا ما حدث بعد خمس سنوات في مقدمات حيث تهمس المقدمة بهذا الشكل الغنائي: المقدمة مزاج. وكتابة

مقدمة مثل شحذ منجل، مثل دوزنة غيتار، مثل الحديث مع طفل، مثل البصاق من النافذة... كتابة مقدمة مثل قرع جرس رجل لتدبير مقلب عليه، مثل المرور بشباك فتاة شابة والنظر إلى حجارة الطريق. إنها مثل ضرب الريح بعصا المشي، مثل أن يرفع المرء قبعته حين لا يكون هناك أحد لتحيته. كتابة مقدمة مثل عمل شيء يجيز للمرء أن يطالب بقدر معين من الانتباه، مثل طلب سيدة إلى الرقص دون القيام بحركة، مثل نهز الحصان بالساق اليسرى وجر العنان إلى اليمين وسماع الجواد يقول إش والقول للعالم كله أن يختفي. إنها مثل الانتماء بلا أدنى شيء من منغصات الانتماء، إنها مثل الوقوف على تل فالبي والنظر إلى الوز البري... كتابة مقدمة مثل الوصول، مثل الوقوف في صالون دافئ، تحية الشخص الذي كان المرء مشتاقاً إليه، الجلوس على كرسي مريح، تعبئة غليون، إشعاله - وأن يكون لدينا ما نتحدث عنه مع أحدنا الآخر بلا نهاية. كتابة مقدمة مثل أن يدرك المرء إنه في مجرى عملية الوقوع في الحب. للروح تململ جميل، اللغز مطروح، وكل شيء يحدث يلمِّح إلى حله. كتابة مقدمة مثل إبعاد غصن في تعريشة ياسمين جانباً ورؤيتها جالسة متخفية، حبيبتي. هكذا، نعم هكذا هي كتابة مقدمة! وكيف يكون هو، الشخص الذي يكتبها؟ إنه يختلط بالناس مثل مغفل في الشتاء وغبي في الصيف. إنه مرحباً ومع السلامة في شخص واحد، سعيد دائماً وبلا هموم، قانع بنفسه، متبطل تافه حقاً لا نفع فيه، بل شخص لا أخلاقي لأنه لا يذهب إلى البورصة للربح بل يتنزه في المبنى فحسب. أنه لا يخطب في اجتماعات سنوية لأن الهواء قريب جداً. إنه لا يرفع أنخاباً في أي جمعية لأن هذا يتطلب إشعاراً قبل أيام. أنه لا يؤدي مهمات بالنيابة عن النظام، ولا يسدد الدين الوطني بل لا يهتم به أي اهتمام جدي. يقضي حياته كلها مثل صانع إسكافي يصفر في الشارع رغم إن الشخص الذي يحتاج إلى جزمته واقف ينتظر - ما عليه إلا الانتظار ما دام هناك تل واحد منزلق لم يزل باقياً أو أبسط مشهد يستحق النظر إليه. هكذا، نعم هكذا هو الشخص الذي يكتب مقدمات.

وهذه، نعم هذه هي الطريقة التي يكتب بها كيركغارد عندما يقدّم جمالياً الآنية التي يلاقي صعوبة أكبر بكثير في الوصول إليها لاهوتياً. ولا يحتاج الشخص إلى أن يكون أي شيء آخر أو أكبر من مقدمته المتعثرة الصغيرة - واثقاً بأنه في مرحلة ما من الأبدية سيُخرج الله نظاماً بكل تأكيد من حكاية الفرد المشتتة والتدريجية ويكتب حاشية توكيدية.

لكن كتاب مقدمات ليس كله همساً غنائياً يتوقف في الحقيقة بعد القطعة الأولى من ثماني قطع ويحل محل نوع عادي جداً من العاطفة يبدو في مرحلة ما وكأنه يستخدم مكبر صوت. ويمكن أن نرى ذلك، على سبيل المثال، في المقدمة السابعة (التي كما سبق ذكره كُتبت في الأصل لـ مفهوم القلق)، وفي المقدمة الرابعة التي تتضمن سخرية لئيمة بشكل ساحر موجهة ضد ألاعيب التسويق الأدبي التي كانت تُستخدم وقتذاك، بمن في ذلك عدد من الكتّاب الذين يروجون أنفسهم، ليس أقلهم هايبرغ ونسخته التي لم تُنجز قط من منظومة هيغل المطلقة. وهناك أكثر من إشارة إلى أن مجلة هايبرغ السنوية أُورانيا Urania لعام 1844 (التي كان كتاب التكرار موضع مراجعة نقدية فيها!) لم تصدر إلا لتلبية الطلب من جمهور يتلهف على الشراء خلال موسم أعياد الميلاد، جمهور إذا كان قادراً على أي شيء آخر فإنه كان على الأقل قادراً على إيجاد متعة في تصميم الكتاب الفاخر بغلافيه الأمامي والخلفي المجلدين بورق أبيض صقيل، وحواشيه المزينة بالكثير من الأشكال الذهبية. وهنا يمر نيكولاوس نوتابيني بتحول خبيث حتى إن القارئ لا يستطيع بالمرة أن يتعرف على الرجل المتزوج المغمور الذي صادفه في مقدمة الكتاب الأولى: كما هو معروف فإن شهر كانون الأول/ ديسمبر هو بداية الهجمة الأدبية للسنة الجديدة بين طبقة التجار الذي يمتهنون الكتابة. وان عدداً كبيراً من الكتب الأنيقة إلى أقصى الحدود والمنتَجة إنتاجاً جميلاً، الموجهة للأطفال وأشجار عيد الميلاد لكنها مفيدة بصفة خاصة كهاديا فيها ذوق، تتزاحم مع بعضها البعض للوصول إلى أدريسيفسن وغيرها من الصحف الأخرى... وحق رب الصين العظيم، ما كنتُ لأظن إن ذلك ممكن - أو ليس البروفيسور هايبرغ مع الرهط هذا العام؟ نعم، إنه حقاً البروفيسور هايبرغ. نعم، عندما يكون المرء بهذه الحلة القشيبة فإنه قطعاً يستطيع أن يستعرض نفسه للحشد المندهش... أتساءل ما الذي سيقوله المرء الآن عن هذا الكتاب؟ عزيزي القارئ، إذا لم تعرف به من خلال وسائل أخرى فإن وكيلنا البرقي الأدبي البروفيسور هايبرغ سيتفضل بكل تأكيد ليكون موظفاً بلدياً يفرز كل الأصوات، مثلما فعل في وقت سابق مع كتاب «إما/ أو». ومن بين أشياء أخرى فإن الكبرياء المجروح الذي تنبض به هذه الجمل الأخيرة تجعل من الواضح إن نيكولاوس نوتابيني نسى للحظة إنه ليس مؤلف «إما/

أو». لكننا نعرف إن في المجتمع الصغير للمؤلفين الذين يستخدمون أسماء مستعارة، يكون مثل هذا النوع من النسيان وراثياً في العائلة: الحق أن فيغيليوس هاوفنينسيس أيضاً نسى إنه لم يحضر قط محاضرة شيلنغ أو كان يعرف بول مارتن مولر شخصياً.

المقدمة الثانية على الأخص من مقدمات الكتاب تُعطي وصفاً بارعاً لعالم النشر والمراجعات المحموم في كوبنهاغن الريفية. ويوخز نيكولاس نوتابيني كتّاب المراجعات أيامذاك الذين يقدمون للجمهور تقييمات جمالية عشوائية لعدد لا يُحصى من الكتب التي لا أحد يتمكن من قراءتها أبداً ولا يعرفون عنها إلا من مصادر ثانوية وثالثية، إلخ. ولا يمكن بالطبع القول إن كيركغارد اتخذ موقفاً محايداً بالكامل في معرض كوبنهاغن للكتاب، وإلى حد ما فإن النقد كان موجهاً موجهاً ضد كيركغارد نفسه أيضاً، الذي لم تكن له حصة الأسد من موسم الكتب في الربيع فحسب وإنما رأى كتبه تُراجَع وتُرفع إلى السماء بالمديح. ففي عدد 30 تموز/ يوليو 1844 من مجلة ني بورتيفولي مثلاً نُشرت في باب مسرح، موسيقى، أدب وفن مراجعة في ثماني صفحات لكتاب مقدمات الذي جرى التنويه به خصيصاً على لغته الممتازة والثاقبة التي تزدري استخدام تلك التعابير من الكلام الفلسفي الطنان، وتستهجن تزييت كلامها بمصطلحات هيغلية. وإن نيكولاس نوتابيني ليس سجالياً نَكِداً لا يرضى عن أي شيء بل على العكس يمتلك روحاً فكاهية متألقة ويُمدح على الخفة التي ترقص اللغة بها عملياً حين تخضع لمعالجته الديالكتيكية. وكاتب المراجعة هذا الذي يوقع باسم 3 – 7 قلق تماماً بشأن أزمة نيكولاوس نوتابيني الزوجية المفترضة، وهو في تعبير عن الأدب الديالكتيكي يقلق لذلك بصوت عال حتى إنه بإخضاع هذه النصوص الصغيرة المكتوبة في السر إلى مديح يفيض انتشاء يمكن أن يزيد الوضع تفاقماً. ونتيجة لذلك يدرك موقفه الصعب بوصفه كاتب مراجعات إذا علمنا إن نيكولاوس نوتابيني لا يحب كاتبي المراجعات بالمرة بل إنه يمقت جنس [المراجعين] كله بقوة حتى إن تناوله بمراجعة أمر بغيض مثل السماح لحلاق يعبث بوجهي بأصابعه الدبقة – مستخدماً تعبيره المعهود نفسه. لذلك، بدلاً من كتابة مراجعة يختار 3 – 7 أن يسوِّد عموداً كاملاً لاقتباس وشرح العرض الطريف الذي تتضمنه المقدمة الثانية ثم يمضي بعد ذلك إلى مناقشة رأي المؤلف بالبروفيسور هايبرغ ونشاطاته. الآن يفضل 3 – 7 الذي

فجأة يعتمد نبرة أخلاقية تماماً، لو إنه مر على هذا النقد بصمت. فإن هايبرغ ليس مفكراً فذاً ومنتجاً فحسب بل إن 3 – 7، بمبادرة منه بعد أن أجرى استطلاعاً خاصاً به، عَلِم إن الشخص الذي يتمرغ في هذه التعليقات النقدية القاسية على هايبرغ إلى هذا الحد لن يتسنى له أبداً قراءة كتابات مثل مفهوم القلق وشذرات فلسفية وخطابات سورين كيركغارد التثقيفية.

وهكذا أحس 3 – 7 بأن هناك شيئاً ليس على ما يرام، ومن الواضح تماماً إن هذا ما أحس به كاتب المراجعة المنشورة في صحيفة دن فريسيندده الذي ربط مقدمات بـ العمل المثير جداً «إما/ أو». وكان كاتبا المراجعتين يعرفان حق المعرفة إن مقدمات كتبه كيركغارد وبالتالي كان بمقدور كيركغارد أن يوفر على نفسه الاتصالات السرية التي ظن إن القضية تتطلبها. وعندما أُريد نقل مخطوطات كتاباته الموقعة باسم مستعار من بيته إلى المطبعة جرى ذلك بمعونة كريمة من جي. أف. غيودفاد. وهكذا في 18 أيار/ مايو 1844 كانت مهمة غيودفاد أن يوصل إلى المطبعة كتابي مفهوم القلق ومقدمات اللذين صُنفا كلاهما على أنهما مادة مكتوبة باسم مستعار فيما ظهر كيركغارد نفسه بعد يومين ومعه ثلاثة خطابات تثقيفية وشذرات فلسفية، اللذان ظهر اسمه على صفحة العنوان في كل منهما. فالمرء لا يستطيع أن يتبرأ من النقد وسمات أسلوبه المميزة التي يمكن التعرف عليها مثلما لا يستطيع التبرؤ من خط يده، وفي الرسالة التي كتبها كيركغارد إلى بويسن من برلين أشار بالفعل إلى كتاباته على أنها أطفال أصحاء، سعداء، مزدهرون، مرحون، مباركون، يولدون بسهولة، لكنهم كلهم يحملون وحمة شخصيتي. وإذا أنجبت مخاضات أدبية لاحقة كائنات سوداوية للعالم فهذه أيضاً كانت دائماً تحمل تلك العلامة الفارقة، أحياناً بشكل لا تخطئه العين حتى إن أكثر البراقع ذات الأسماء المستعارة إبداعاً لم تتمكن من إخفائها. فالأسلوب هو الشخص والشخص كان كيركغارد نفسه.

الأكثر من ذلك إن عدداً من زملاء كيركغارد الأدباء وجدوا التناقض بين التبرؤ من كتاباته من جهة وإمكانية التعرف على أسلوبه من الجهة الأخرى، أمراً مسلياً للغاية. ومن هؤلاء الزملاء هنريك هيرتز الذي في أحد دفاتره يضع في فم كيركغارد السطور التالية دفاعاً عنه: أقف بعيداً تماماً عن كتاباتي باستثناء الخطابات التثقيفية الألف ومئة وثمانية عشر... فقط استمعوا! ثم ينقل مقطعاً من كل شخصية من شخصياته، وهي نصوص متماثلة في النمط واللغة، إلخ.

وكان نقاش أربعة خطابات تثقيفية الذي نُشر في عدد 1 كانون الثاني/ يناير 1844 من مجلة انتليجنسبلاده بعنوان سجالات كنسية، نقاشاً أكثر احتراماً وكتبه ياكوب بيتر مينستر الذي وقعه باسم Kts بعد أن صنع رمز هويته المجهولة باستخدام الحروف الوسطى لاسمه الثلاثي. وكتب الأسقف: تأثرتُ كثيراً بحقيقة أن الماجستير أس. كيركغارد دائماً يهدي خطاباته التثقيفية إلى ذكرى والده الراحل. فأنا كنتُ أعرف ذلك الرجل المحترم أيضاً. كان مواطناً بسيطاً، يتعامل مع شؤونه في الحياة بصمت وتواضع، لم تكن لديه أي اهتمامات فلسفية. فكيف يمكن، إذاً، إن ابنه صاحب العلم الواسع للغاية، كلما يكتب خطاباته التثقيفية تعود أفكاره إلى ذلك الرجل الذي انتقل إلى مثواه الأخير منذ زمن طويل؟ سيفهم السبب كل من قرأ الخطاب الممتع - أو لنسميه ببساطة موعظة - الرب أعطى، الرب يأخذ، فليتبارك اسم الرب. ورأى الابن والده، كما رأيته أنا نفسي، في أوقات الفقدان المرير، رآه يشبك يده ويطأطئ رأسه الجليل. كان يسمع شفتيه تردد تلك الكلمات، لكنه رأى كيانه كله يتلفظها بطريقة حتى إنه أصبح يشعر بما يشرحه بكل هذا الجمال عن أيوب... وما تعلَّمه الابن من والده الشيخ في بيت الأحزان صبه على الورق في موعظة تخاطب وتنعش كل قلب يمكن أن يحس حتى إذا كانت لا تُغرق القارئ في أي حمام فلسفي، رغم إنها لا تتضمن إلا ما يستطيع أي شخص أن يقوله لنفسه في البيت على أريكته - ولكن قطعاً ليس بالبلاغة نفسها. وأنا إذ أطرح السؤال التالي فليس من أجل تقليل امتناني لهذه الموعظة وإنما من باب الاهتمام بالقضية نفسها: هل للخطابات الثلاثة التالية التأثير نفسه؟ وإذا لم يكن لها التأثير نفسه ألا يكون ذلك، في جانب منه، لأن الحمَّام الفلسفي مرئي هنا أكثر مما ينبغي؟ أسعدتْ تعليقات ميسنر البيوغرافية كيركغارد الذي سيتذكر هذا التعبير الصغير عن اعترافه بعد سنوات قليلة.

لم تُنشَر مراجعة عن مفهوم القلق على الإطلاق ولكن فريدريك بيك الذي راجع أيضاً عن مفهوم المفارقة تناول شذرات فلسفية في مجلة لاهوتية ألمانية حيث لدواعي أسف كيركغارد ارتكب خطأ فادحاً حين سمح للمضامين أن تظهر بشكل تعليمي متخلياً بذلك عن مطاطية المفارقة التي كانت جزءاً من طابع العمل التجريبي. وسمح جي. إف. هاغن لنفسه بأن يفعل شيئاً مماثلاً في منتصف أيار/ مايو 1846 كاتباً تحت الرمز 80 إنه راجع العمل في المجلة

اللاهوتية مقدماً مراجعته في ثماني صفحات يتوقف فيها وقفة استرجاعية عند الخوف والرعدة الذي راجعه في المجلة نفسها في النصف الثاني من شباط/ فبراير 1844. وأشار هاغن في الصفحة الأخيرة من نقاشه غير النقدي إلى أن المسافة بين ما هو إنساني وما هو مسيحي ربما أصبحت واضحة حتى إن أي إمكانية لارتباط الشخص بالمسيحية كانت تبدو مهدَّدة. وتذمر كيركغارد في تعليقه على المراجعة كاتباً إنها من المراجعات الشائعة مكتوبة «بلغة جيدة جداً» مع نقاط وفواصل في الأماكن الصحيحة. ونظر كيركغارد إلى الخلاصة التي خرجت بها مراجعة هاغن على أنها نموذج للتلهف الهيغلي الخبيث على التوسط الذي كان يراه Hسوأ الأشياء التي لا تُطاق: المؤلف الذي حقاً يفهم نفسه يُخدَم على نحو أفضل بعدم قراءته على الإطلاق، أو أن يكون لديه خمسة قراء يقرؤونه حقاً أفضل من أن تكون لديه - بفضل تأييد كاتب مراجعة حسن الطوية - تلك البلبلة واسعة الانتشار عن التوسط المذاع حتى أبعد عن طريق كتابه الذي كُتب على وجه التحديد لمكافحة التوسط. وهكذا تكون الكارثة والمفارقة كاملتين: بفضل تخبط كاتب مراجعات يبدي تأييده، مُحِقَ الكتاب، استُدعي، رُفض. وتابع كيركغارد بعد ذلك ليجادل بقدر أكبر من البرود إن عمله شذرات فلسفية ليس مناسباً في الحقيقة للنقاش في جريدة لأن الجرائد تُكتب بالطبع لأشخاص كل شيء مجرد يمر عبرهم: يمكن أن تُترك للجرائد مهمة الكتابة لنمط الأشخاص المشغولين الذين ليس لديهم وقت للقراءة إلا حين يكونون جالسين على المرحاض، وهكذا يكون لديهم في أحسن الأحوال شيء من وقت الفراغ مرة واحدة بين حين وآخر، حين يكونون مصابين بإسهال.

إسرائيل ليفن

في ربيع 1844 كان الحبر عملياً يطفر من قلم كيركغاد، ولكنه بالإضافة إلى كتابته أدى امتحانه في فن الوعظ وكتابة المواعظ، والقى في إطار الامتحان موعظة في كنيسة الثالوث يوم السبت، 24 شباط/ فبراير، ونال درجة «جدير بالثناء». كما أنجز خلال الشهر نفسه القسم الأكبر من قطعة سجالية في عشرين صفحة أو نحو ذلك موجهة بالأساس ضد جي. إيل. هايبرغ. ونُشرت القطعة المعنونة «حاشية على إما/ أو» لتُعطي هذا الكتاب المراجعة الذكية التي لم يلقها وقت نشره. وبالإضافة لذلك كله كانت هناك فقرات لا تُحصى في اليوميات

تختمر فيها زوابع متناثرة لأفكار جديدة. كما أُدخل تغيير طفيف على الظروف الخارجية لحياة كيركغارد: في 16 تشرين الأول/ أكتوبر 1844 انتقل عائداً من عنوانه في 38 نوريغاده إلى 2 نيتروف حيث شغل خلال السنوت الثلاث التالية نصف الطابق الثاني من المنزل، وهو الجانب الأقرب إلى دار البلدية ومبنى المحكمة. ويروي هانز بروشنر بشيء من الحسد «إنه حين شرع في الانتقال كان يركب العربة في الصباح، وفي المساء يؤوب إلى غرفه الجديدة حيث قام الخادم بترتيب كل شيء في أكمل نظام - حتى المكتبة كانت منظَّمة».

ولكن لم يكن كل شيء حسب الخطة المرسومة. ومنذ كانون الثاني/ يناير 1844 كان كيركغارد يشتغل بمثابرة على المخطوطات المختلفة التي انبثق منها عمله «مراحل على طريق الحياة»، وفي 27 آب/ أغسطس قدم «تقريراً» عن العمل قيد الكتابة: «المَثَل الذي يذهب إلى أنه «تحت تأثير الكحول يقول الشخص الحقيقة» in vino veritas لا يجدي نفعاً. فأنا أُعيد باستمرار كتابة أجزاء مختلفة من الكتاب، لكن ذلك لا يرضيني... مصمم الأزياء شخصية صالحة جداً ولكن السؤال هو ما إذا كان هذا كله يمنعني من الالتفات إلى قضايا أكثر أهمية. في كل الأحوال إنه يجب أن يُكتب بسرعة. وإذا لم تأت مثل هذه اللحظة فإني لن أنجزه بالمرة. مؤخراً اتخذت الإنتاجية منحى خاطئاً وجعلتني باستمرار أكتب عما أُريد أن أنتجه». كما إن حرارة الصيف خارج البيت ساهمت في جعل كيركغارد خاملاً، أو كما وصف هو حالته، «متقاعساً».

خلال ذلك العام نفسه تواصل كيركغارد أيضاً مع إسرائيل ليفن الذي لم يكن يعمل مجرد ناسخ مثلما كان سكرتيره «الصغير مستر كريستنسن» فحسب بل كان يكتب ما يمليه عليه أيضاً. ولكن هذه لم تكن مهمة صغيرة، كما تذكَّر ليفن لاحقاً، لأنه عندما كان كيركغارد يُقبِل بحماسة على موضوعه ويبدأ إحياء ما يتدفق من بين شفتيه «بحركات غريبة»، يكون من المستحيل تقريباً اللحاق به رغم إن الورق جاهز، مقطوع بالحجم المطلوب والصفحات مرقمة. ولكن ليفن شهد نقيض ذلك أيضاً - أوقات كانت الكلمات ترفض التصرف كما يريدها الماجستير. ويروي ليفن «إن هذا الوصف للمواقف ودقة التعبير كان يتطلب كمية هائلة من العمل. ومع التصحيحات والمزيد من التصحيحات، كدنا ألا ننهي قط «خطاب مصمم الأزياء». أصبحتُ مفيداً له إلى أقصى حد بمجرد مساعدته على تجاوز أهم المفردات التي كان يتخبط فيها».

كان ليفن يمتلك بالتأكيد كل ما يؤهله للعمل مساعداً ساخراً من هذا النوع لكنه كان باحثاً في الأدب وكاتباً ومترجماً كذلك، وتولّى تحرير ونشر الأعمال التي حررها لعدد من الكُتّاب بينهم لودفيغ هولبيرغ ويوهان هيرمان فيسيل. وكان لعدد من السنوات ضيفاً دائماً من الناحية العملية على الجمعية الطلابية حيث يقدم يوهانس فيبيغر صورة غير لطيفة بشكل استثنائي عنه: «كان عالَم الطلاب الجامعيين يضم كاتباً معروفاً لأجيال عديدة اسمه إسرائيل ليفن، وهو شخص ضئيل قوي البنيان، ذو ذراعين طويلين وقدمين مسطحين، له رأس كبير وملامح تنم عن ذكاء، من نمط عِرْقِه المضطهَد ذاته. وكما يفعل الطلبة الدائمون في أحيان كثيرة، كان يميل إلى البحث عن رفقة الطلاب الأكثر شباباً، وببلاغته التي لا تكل وخبراته في الحياة (التي كانت في الغالب تنحو إلى ما لم يكن نبيلاً وفي بعض الأحيان إلى الكلبي في الحقيقة) فإنه كان مسلياً بعض الشيء.»

كان هذان الرجلان يشكلان ثنائياً لطيفاً تماماً، هو العبقري والسكرتير اللذان كانا في كل الأحوال يشتركان بمستلزمات جسدية تمكنهما من العمل معاً. الأكثر من ذلك أن كيركغارد كان يعرف جيداً مع مَنْ يتعامل: «عن استحقاق أو عدم استحقاق فإن ليفن بلا شك ليس معتبَراً ولا محترماً من غالبية الناس، ومن المؤكد أن موعد حسابه آن أوانه. وإذا تطفل عليَّ بشيء من المديح الأخرق فإني سأبقى صامتاً. لماذا؟ لأن مديحه لا يمكن أن يفعل سوى الإضرار بي، وتشويه سمعتي وإعطاء صورة سلبية عني. من جهة أخرى، إذا اعترضتُ عليه فمن الجائز أن يكون ذلك لمصلحتي ويمكن أن يكسبني ودَّ كثير من الناس الذين يسعدهم أن يروا المرشح ليفن بين رحى المطحنة».

ولكن هذا الاحترام المحسوب للنفس لم يكن هو الذي دفع كيركغارد إلى الرفض في شباط/ فبراير 1845 حين دعاه ليفن مع 130 شخصاً آخر للمساهمة بعينات من خط اليد بل ما دفعه إلى الرفض كان خجلاً اعتيادياً. إذ كان ليفن يخطط لنشر «ألبوم لخط يد رجال ونساء دنماركيين معاصرين، لتعليم خط اليد في المدارس». وكان على كيركغارد أن يتهرب من الطلب: «عزيزي ليفن! هذا بكل بساطة ليس ممكناً. فأنا أكبر سناً من أن أكتب في دفتر تمارين من أجل مصلحتي ذاتها. وحتى إذا أخذنا في الاعتبار إن خط يدي قد يصلح تمريناً للقراء اليافعين فأنا لا أُريد أن أكتب مسودة من أجل المسودة – كتابة مسودات كهذه [بالدنماركية Kladderie] يمكن أن تصبح بسهولة حماقة [بالدنماركية:

Kludderie أي فوضى]. ويبدو أنّ كيركغارد أحس إن رفضه قد يُفسَّر على أنه دليل غرور لأنه بعد فترة قصيرة، حين أرسل إلى ليفين مكافأة تكريمية «تعويضاً عن عملك ووقتك»، كتب على وجه المظروف: «إلى المرشح مستر ليفن/ بخط يدي» وفي الرسالة نفسها قرر «إن كل تخليد لخط اليد ممنوع منعاً باتاً». وكان هذا اعتذاراً صغيراً خاصاً وطريفاً، وفي 17 كانون الثاني/ يناير 1846 نُشر ألبوم ليفن، ولاحقاً وجد طريقه إلى رفوف مكتبة كيركغارد – وإن كان من بدون إهداء من المؤلف!

نستطيع أن نرى من الملاحظات الكثيرة الباقية إن ليفن كان عادة يأتي إلى منزل كيركغارد في الصباح، الساعة العاشرة والنصف أو الحادية والنصف، أو بعد الظهر في الساعة الثالث والربع أو الثالثة والنصف. وعمل ليفن سكرتير كيركغارد من 1844 إلى 1850 وكان له دور في الاشتغال على «مراحل على طريق الحياة» وكذلك في تصحيح «ثلاثة خطابات في مناسبات متخَيَّلة»، و«خاتمة حاشية غير علمية» و«زنبقة الحقل» و«طير الهواء»، وإلى حد ما أيضاً «ممارسة في المسيحية». ويعطينا الوضع ذات «صباح يوم ثلاثاء» بتاريخ معين فكرة عن الظروف المحمومة التي كان يجري فيها إنتاج الكتب: «سيدي العزيز! إنهم ينتظرون في المطبعة. وأنا أقف هناك في المطبعة – منتظراً. أترك المكان وأنتظر – وأتوقع أن تُسرِع. دقتك الأسلوبية تمنعني من القلق بشأن الإفراط في التسرع. وبالتالي فإن العجالة هي الحاسمة – كل يوم ثمين عندي. تقبلوا احتراماتي/ أس. كيركغارد». حتى عندما كان كيركغارد مشغولاً لم يتمكن من الامتناع عن الديالكتيك.

خلال السنوات المزدحمة والمتخمة بالعمل من 1844 إلى 1846 كان بمقدور ليفن أن يصبح جزءاً منتظماً من البيت: «أحياناً كنتُ أمضي إلى ثماني ساعات معه. ومر وقت كنتُ أتناول طعامي في بيته كل يوم لمدة خمسة أسابيع. كما إن مجرد توفير غذاء لروحه الجائعة كان مصدر إزعاج لا نهاية له. كل يوم كنا نأكل حساء، قوياً بشكل مخيف، ثم سمكاً وقطعة من الشمام، يرافقها كأس من النبيذ الفاخر، ثم تُحضر القهوة: إبريقان من الفضة وجرتان من القشدة وكيس من السكر كان يُملأ كل يوم». كان هذا يختلف عن التسكع في الجمعية الطلابية حيث يشرب المرء إلى أن ينسى وجوده ويتكلم إلى أن يبح صوته! ولكن جاءت حينذاك واحدة من اللحظات التي يكرهها ليفن. إذ ما أن كانت

تُحضر القهوة حتى كان كيركغارد يذهب ويفتح خزانة «كان لديه فيها ما لا يقل عن 50 طاقماً من الأكواب والصحون ولكنها طاقم واحد من كل نوع». وظن ليفن إن الأكواب تكشف عن علائم هوس غريب باقتناء الأشياء، وكان عاجزاً على الغرار نفسه عن أن يفهم لماذا جمع كيركغارد مثل هذا «العدد المذهل من عصي المشي» التي كانت مركونة في المدخل تشغل مكاناً هناك. كان كيركغارد يسأل واقفاً أمام الخزانة «حسناً، أي كوب تريد اليوم؟» وما كان ليفن ليكترث بالمرة ويكتفي بالإشارة منهَكاً إلى كتلة الخزفيات، ولكن هذا النوع من الاعتباط لم يكن يُطاق - وكان كيركغارد يطلب إيضاحاً. لذا كان على ليفن أن يبحث في روحه لتبرير خياره.

لكن هذه لم تكن نهاية المشهد الغريب. إذ كانت لدى كيركغارد طريقته الخاصة في تناول القهوة: بسرور كان يمسك كيس السكر ويصب السكر منه في كوب القهوة إلى أن يتكوم فوق حافة الكوب. ثم تأتي القهوة القوية إلى حد لا يُصدق، قهوة سوداء تُذيب الهرم الأبيض ببطء. وبالكاد تكون العملية انتهت قبل أن يختفي المنشِّط الأقرب إلى الشراب المركَّز في جوف الماجستير حيث يختلط مع النبيذ القوي لإنتاج طاقة إضافية تَرْشَح صاعدة إلى دماغه العارم المحتدم - الذي كان في كل الأحوال منتجاً طوال اليوم حتى إن ليفن كان يستطيع أن يرى في الضوء الكابي التململ والنبض في أصابعه المتعَبة حين تمسك مقبض الكوب الرشيق.

وتحت واجهة الخنوع التي كان ليفن مضطراً إلى اعتمادها لدى التعامل مع كيركغارد ميسور الحال (الذي كان على ليفن أن يتحمل طقوسه اليومية مع كوب القهوة وصحنه)، كان يرتجف بامتعاض عميق من السمات النفسية الخاصة لرب عمله العبقري. وكانت هذه تشتمل على البيروفوبيا أي خوف كيركغارد الهستيري من النار وكل ما يتعلق بالنار. وإذا أشعل كيركغارد شمعة أو سيجاراً كان يحرص بعناية على وضع ثقاب الكبريت في موقد الخشب. ولذلك حين رمى ليفن ذات مرة عود الثقاب في المبصقة جاء رد الفعل فورياً. إذ صرخ كيركغارد «هل أنت مجنون؟ أنت يمكن أن تشعل البيت كله ناراً!» وعندها ركع كيركغارد على يديه وركبتيه والتقط عود الثقاب المذنب وطلب ماء ثم وضع العود الخشبي الصغير وسط المبصقة وغمره بكل ما لديه من قدرات حتى إن الماء طفح وانسكب على الأرض. ويتذكر ليفن «إن أكثر من

ربع ساعة مرت قبل أن يستعيد كيركغارد هدوءه بما فيه الكفاية للتوقف عن الارتجاف ويختفي العرق من جبينه». وعلى الغرار نفسه فإنه عندما يطفئ شمعة يطفئها بعناية فائقة ومن مسافة أمينة لأنه يعتقد أنّ من الخطورة استنشاق الدخان المنبعث من الشمعة المطفأة وإنه يمكن أن يؤذي صدره الرقيق.

كانت هذه العصبية المبالغ بها سيئة بما فيه الكفاية ولكن عندما كانت شياطين ضارية وأرواح سوداء تسكن كيركغارد، كانت الأمور يمكن حقاً أن تصبح مخيفة تماماً. «كانت مخيلته خصبة حتى كأنه يرى صوراً تتراقص أمام عينيه، كما لو إنه يعيش في عالم أرواح»، بحسب ما روى ليفن متذكراً بارتعاد كيف كان كيركغارد يستطيع «أن يستحضر أشد الأشياء رعباً بوضوح كان مخيفاً». وكاد ليفن الذي لم يكن حساساً من نواحي أخرى أن يشعر بالغثيان عندما وصف كيركغارد شاذاً يونانياً يتحرش بالأطفال مطعِّماً وصفه بـــــ «دقة في التفاصيل كانت مشينة وشيطانية... كانت روحه تشتعل بالرغبة رغم إن جسده هادئ. وفيما يتعلق بكتاباته كانت نيته تفادي الأفكار الخليعة فقط وليس التعابير الجريئة».

كان كيركغارد يتكلم وليفن يسمع متعجباً. كان ليفن أمام شخص مواهبه اللغوية تكاد تكون عصية على الفهم، لكنه ينسى إن للآخرين أيضاً عيوناً يبصرون بها. وكانت نظرة واحدة إلى هذا القميء بمكنبيه العاليين جداً وساقيه النحيلتين تكفي لإقناع أي أحد بأن الاعترافات المعجونة بالندم عن «شباب ماجن» وغير ذلك من الفواسق التي كان يمزجها بدفقاته من الحمم الشفهية، لم تكن إلا خيالات فارغة أو هفوات دافعها الوحيد هو خجله من عدم وجود شيء لديه يخجل منه في الحقيقة! ولكن عندما بدأ كيركغارد يهنئ ليفن على «حظه السعيد» بوصفه يهودياً، لكونه «متحرراً من المسيح»، الأمر الذي يعني أنه لذلك يستطيع «أن يتمتع بالحياة ويريح نفسه»، زهق ليفن ولم يعد قادراً على التحمل أكثر مما تحمله. فاعتذر والتقط معطفه من بين عصي المشي العديدة التي يملكها كيركغارد، وعاد إلى شقته الصغيرة في شارع فارفرغاده.

رغم الحقيقة الماثلة في أن ليفن كان يرى كيركغارد كل يوم فإن عدم تمكنه من أن يقول لنا المزيد عن الرجل الذي يقف وراء الرجل أزعجت وفاجأت بعض الأشخاص الذين شَكَوا من «ضحالة ليفن الجاهلة والمتحذلقة».

وصحيح إن ليفن كان سيقدم خدمة للأجيال القادمة بتخصيص أكثر بعض الشيء من الساعات الأربع التي أمضاها في منتصف كانون الأول/ ديسمبر 1869 مع أوغست وولف August Wolff، وهو ملازم أول في سلاح المدفعية كان شديد الاهتمام بكيركغارد، وكتب لاحقاً المضامين الأساسية لمونولوجات ليفن المنفعلة. وكان ليفن مستاء وقتذاك لأن إتش. بي. بارفود H. P. Barfod لم يتصل به بشأن نشر أوراق كيركغارد بعد وفاته. إذ «لديه إحساس مزمن بتهميشه وتجاهله واستغلاله، ثم طرده»، كما كتب وولف إلى بارفود بعد زيارته ليفن الذي حاول وولف إقناعه بكتابة «حياة» كيركغارد. واعترض ليفن قائلاً إنه على مر السنين «كدح بما فيه الكفاية في خدمة الآخرين دون أن يلقى اعترافاً» منهم وعلى أية حال فإنه ليس متلهفاً على «التعامل مع هذا الشخص شبه الطلسم». ومع ذلك نجح وولف في النهاية في جعل ليفن يتعهد بأن يكتب شيئاً عن كيركغارد في وقت لاحق، الأمر الذي لم يفعله ربما لأنه لم يكن راغباً في دخول التاريخ بوصفه سكرتير كيركغارد.

ولكنه كتب في كل الأحوال. فبعد وفاة ليفن ترك مجموعة من 150 ألف بطاقة كتب عليها ملاحظات كانت العمل التمهيدي لقاموس. وشكلت هذه البطاقات جزءاً مهماً من إعداد «قاموس اللغة الدنماركية» في 26 جزءاً وبذلك تكون الاقتباسات الكثيرة من كيركغارد فيه قائمة على أساس تاريخي متين.

تعال وزرني قليلاً

لفترات طويلة من الزمن كان انكباب كيركغارد على العمل بمثابرة قصوى يعزله عن محيطه، ولكن بما إنه كان بلا أصدقاء، لم يكن هناك مَنْ يفتقده - باستثناء أميل بويسن. وتكتب كومة صغيرة من الملاحظات والرسائل القصيرة من دون تواريخ كُتبت أواسط العقد الخامس من القرن التاسع عشر، رسالتها الهادئة الخاصة عن العلاقة بين الصديقين اللذين ارتبطا بعلاقة صادقة مع أحدهما الآخر رغم إنهما كانا غير متجانسين إلى حد بعيد. وكان زمن طويل مر منذ جلسا في غرفة أميل الصغيرة في العليّة في «زقاق الفيلسوف» أو خرجا في نزهات مشياً على الأقدام خارج المدينة وقت الغسق وسرح بهما الخيال عن المستقبل الذي بدأ يتلاشى وراءهما ولكنهما كانا مع ذلك يلتقيان على وجبة عشاء يطلبها كيركغارد من مكان ما في المدينة مع إيصالها إلى غرفته. وهناك نبرة

حنان تقريباً في هذه الرسالة القصيرة: «عزيزي أميل! تعال وزرني قليلاً بعد ظهر اليوم. عجل بالمجيء. المخلص أس. كيركغارد». وكان الاثنان يأكلان أحياناً في منزل بويسن، ولكن كيركغارد كان مع ذلك يقوم بدور المضيف البشوش: «عزيزي! هل تتناول الطعام معي هذا المساء؟ أنا أصلاً طلبتُ الطعام. وإذا وافقتَ سأحضر إلى بيتك في الساعة السادسة أو السادسة والنصف مساء. هل ستكون موجوداً في هذه الساعة؟» إذا كان تصحيح النصوص مع ليفن أو عمل آخر يمنع كيركغارد من تناول الطعام مع بويسن فإنه كان بدلاً من ذلك يرسل خادمه أندريس إليه مع قنينة نبيذ من متجر فاخر هو متجر دومنيكو كابوزي في ميدان كونغينز نيتروف الذي كان متعهد تزويد البلاط الملكي بالمؤن، ويرفقها برسالة يطلب فيها من بويسن أن يشرب نخب صحتهما. كما نستطيع أن نرى حرص كيركغارد على بويسن في متابعته بعيون متيقظة لأي تعيينات كهنوتية، ربما العمل قسيس سجن في «دار العقاب والإصلاح والتحسين» في كريستيان هافن، أو ربما قسيس أبرشية في فريدنزبورغ: «هذا شيء لك hic Rhodus, hic salta [باللاتينية: هنا رودس فاقفز هنا (تعبير يُستخدم في كشف الحيلة)]».

في كل الأحوال أصبحت الفترات الفاصلة بين أحاديثهما من القلب للقلب أطول فأطول. إذ كان كيركغارد مشغولاً للغاية وأصبح كثير النسيان - ذات مرة لم يتذكر «وعداً» قطعه إلا حين كان جالساً في عربة ابتعدت به أميالاً من كوبنهاغن «وأشعة الشمس اخترقت دماغي». ومن رسالة كُتبت على الأرجح في شتاء 1844 يمكن أن نرى إن الصداقة فقدت شيئاً من قوتها السابقة: «عزيزي! كيف حالك؟ هل أنت حي؟ نعم، أعرف ذلك... زرتُك بروحي لكني لا أزور أحداً بجسدي، وفي حالتك أنتَ فقط يؤلمني ألا أفعل ذلك». وتلي هذا حاشية قصيرة: «أنا ببساطة لا أستطيع أن أحمل نفسي على أن أُصدّق إن ربيعاً سيعقب هذا الشتاء. اليوم مرة أخرى اشتريتُ لنفسي زنبقة من زنابق الوادي لأُوقظ على الأقل فكرة مثل هذه الإمكانية». هذا رجل مرهف وميسور يشتري لنفسه زنابق الوادي حين لا يكون الموسم موسمها لكنه يحب الزهرة - أعطى ريجينة، بالطبع، يوم كانت تربطها به علاقة، «قنينة من عطر زنبقة الوادي»، وهكذا فإن شقته الآن لا تفوح بشذى الربيع فحسب بل كانت معطرة بذكرى غرامه المجنون أيضاً.

خلال هذه السنوات كان بويسن يكدح في العمل على الكتاب الموسوم

«تطور حياة دينية، مرسوم تخطيطياً في رسائل من كورنيليوس»، الناشر Z. كان العمل بمؤلفه ذي الاسم المستعار وناشره الغامض، يدين لكيركغارد الذي أراد بويسن، بالطبع، أن يعرف تقييمه للكتاب. «حين غادرتَ من هنا اليوم بدا لي إنك مضطرب»، كما كتب كيركغارد في رسالة غفل من التاريخ يعرض فيها مساعدته «بالنصح والأفكار والعون وغير ذلك» ثم مضى محتجاً إن بويسن يجب ألا يسمح بأن تزعجه «مونولوجاتي عندما أتحدث معك». وإذ تشجع بويسن فإنه وصل في مناسبة لاحقة حاملاً مخطوطته تحت ذراعه ولكنه عندما دخل كان هناك رجل غريب في شقة كيركغارد فانسحب بويسن خائباً. «ربما كنتَ تعتزم أن تقرأ لي شيئاً بصوت عالٍ»، كتب كيركغارد بعد فترة قصيرة موضحاً لبويسن لو إنه فقط انتظر «لغادر الرجل الذي كان يزورني وتسنى لنا بعض الوقت». وتابع إن ترتيب ذلك الآن سيكون صعباً من الجهة الأخرى لأن ليفن سيصل في الساعة الثالثة والربع «ويبقى أطول وقت ممكن». الأكثر من ذلك إن كيركغارد لم يكن «غارقاً بشكل هائل» في عمله فحسب بل و«مريض» أيضاً ولذلك على بويسن أن يعذره. وللتعويض عن صدوده أضاف: «الآن سافر وتمتع وانسَ العالم كله، ومنه أنا، لبعض الوقت ثم عد إلى الأهل وحينذاك سيتاح لنا الوقت والمناسبة بكل تأكيد». لا ريب في أن هذا كُتب بأصدق النيات ولكن ليس هناك ما يشير إلى أن الوقت توفر لكيركغارد كي يستمع إلى تطور حياة دينية في رسائل من كورنيليوس. وتسلم الكتاب عندما نُشر في عام 1845 لكنه لا يذكر ذلك أبداً في يومياته.

كما لم يتوفر له الوقت لزيارة بيتر كريستيان الذي تزوج من صوفي هنريته غلان Henreitte Glahn في 12 حزيران/ يونيو 1841، ومنذ أيلول/ سبتمبر 1842 عمل قسيس أبرشية لبلدتي بيدرزبورغ وكندرتوفتة قرب سورو في زيلاند الوسطى. وتشير الفواتير الباقية عن استئجار عربات إلى أن سورين آبي كان حتى أيلول/ سبتمبر 1847 يسافر إلى هناك مرتين في السنة ويمكث عادة يومين أو ثلاثة أيام. كان يحب السرعة - «أجد متعة في التسابق مع الريح» - وكان يحتاج الريف لتغيير الجو، الهواء، الضوء. وتذكّرت لاحقاً ابنة أخيه هنريته لوند التي أمضت عطلتها الصيفية مع الثنائي الرعوي، كيف أنه كان يصل فجأة بالعربة إلى الباحة وينزل منها ويحرك كل شيء بسرعة: «طلع صباح الأحد بسماء صافية وأُعدَّت مائدة العشاء في الهواء الطلق على أحد التلال الصغيرة في

الحديقة. ما زلت أتذكر تلك الحيوية التي كان العم سورين يتكلم بها والعديد من القصص والتعليقات المسلية التي كان يسلينا بها. ولكن في المساء عندما كان يستلقي على العشب بجانب البحيرة الصغيرة كان هذا المرح الرائق ينقطع كما لو بضربة واحدة. كان لا يفعل سوى النظر إلى الأمام بصمت عميق، حالماً. وكان لا يكسر الصمت إلا حين يطل علينا القمر، كأنه قناع ميت نصف ممسوح، من سماء حزيران/ يونيو المكفهرة».

«بمعنى من المعاني أنتَ حقاً لا تعرف الكثير عن الحياة ومقاصدها وأهدافها»، كتب سورين آبي يوم الأربعاء، 19 أيار/ مايو 1847 في رسالة إلى بيتر كريستيان (من 19 رسالة باقية) ولكن حتى شطر كبير من أربعينات القرن التاسع عشر ظلت العلاقة بين الاثنين رغم ذلك أكثر من محتَمَلة وكان نقاشهما حتى يتسم بقدر من الصراحة والحميمية. وفي أوائل أيار/ مايو 1844، عندما وصل الشقيق الأصغر إلى روزكيلدة وابتاع «تذكرة رحلة قصيرة» إلى سورو، أصبح بصورة مفاجئة منهَكاً حتى إنه صرف النظر عن زيارته وعاد إلى البيت بالعربة وقفز في الفراش. وكتب لاحقاً إلى بيتر كريستيان «أعتبر الخلود للفراش من أروع الاختراعات، كي تقول وداعاً للعالم كله - أو «تصبح على خير». وهكذا إذا كان أرسطو مصيباً في تعريف الإنسان بأنه حيوان اجتماعي فهو نفسه لا بد أن يكون «لا-إنسانا» حقيقياً، بحسب تعليل كيركغارد. وذكر في رسالته إن هذا الجنس يضم مستشاراً ميسوراً عجوزاً في ستورمغاده يحب الوقوف عند نافذة مفتوحة أو باب مفتوح يدخن غليونه المسائي. وحين يمر الحارس الليلي وينادي «الساعة العاشرة» كانت عادة المستشار أن يدعوه إليه ليعرف ما الذي هتف به الآن. وكان الحارس الليلي يرد قائلاً «العاشرة» وعندها يبوح له المستشار بأنه سيخلد للفراش وإذا سأل أي أحد الحارس الليلي عنه فما عليه إلا أن يقول لهذا الشخص «الحسْ ط...ي». وهذا الجزء الأخير من تعليق المستشار لم يُكتب كاملاً لأنه كان بذيئاً يعني «الحسْ عجيزتي».

أن يكون لدى المرء إيمان هو أن يتوقع دائماً المبهج، المفرح، الطيب

قصص من هذا النوع ليست بالضبط هي التي كان سورين آبي يلهي بها زوجة أخيه صوفي هنريته. وكانت جيتي، كما كانت تُسمى، امرأة شفافة راقية ذات

روح من الرقة والحنان، لكنها كانت ضعيفة أيضاً تمضي فترات طويلة أسيرة الفراش. وتردت حالتها بدرجة كبيرة في آذار/ مارس 1842 عندما أنجبت، بعد أربعة أشهر من الراحة في الفراش، ابنهما الوحيد باسكال مايكل بول أيغيدي كيركغارد - وهو اسم ثقيل بعض الشيء ولكنهم للاستعمال اليومي كانوا يكتفون بمناداته باسم بول. «أنا أعتز كثيراً بموقعي في الحياة بصفتي عمًّا»، كما كتب الشقيق الأصغر في رسالة بتاريخ 16 أيار/ مايو 1844 إلى بيتر كريستيان الذي طُلب منه أن ينقل إلى بول تحيات «العم سورين». وثمة تحية أكثر حرارة في حاشية رسالة بتاريخ 18 شباط/ فبراير 1845 حيث يقول سورين آبي مشيراً إلى ابن أخيه الذي لم يكن بلغ الثالثة من العمر تماماً، «إنه في التحليل الأخير سيضمن خلود اسم العائلة أفضل من الاحترام الذي ينظر به الناس إليك، أو المجموع الإجمالي لكتاباتي». جرى التفكير في ذلك والتعبير عنه بمحبة ولكن سيتضح إن الواقع يختلف بالكامل.

النوع نفسه من الاهتمام يمكن أن نراه في الرسائل الأربع إلى جيتي التي كانت كلها بلا تاريخ وموقعة باسم «المخلص أس. كيركغارد». ويكون واضحاً من الرسالة الأولى المكتوبة في وقت ما من عام 1844 إن الاثنين لم يعرفا أحدهما الآخر ولم ير أحدهما الآخر كثيراً خلال الفترة حين كانت جيتي وبيتر كريستيان يعيشان في كوبنهاغن. واقترنت الرسالة الثانية المكتوبة في عام 1847 بنسخة من «أعمال الحب» أعطاها الكاتب إلى زوجة أخيه وأضاف إليها التعليق بأنه يأمل «ألا يتعارض الكتاب مع فكرة شقيقي عما يشكل مادة مفيدة أو ضارة للقراءة». وكان سورين آبي يعتزم الاحتفاظ بهذه النسخة من الكتاب تحديداً لنفسه، الأمر الذي لا يفسر سبب إنتاج هذا الكتاب «إنتاجاً جميلاً» فحسب بل وانه قُرئ أيضاً وبالتالي لم يكن على جيتي في الحقيقة أن تُتعب نفسها مع الكتاب، وتستطيع أن تعامله، كما عاملته بالفعل، مثل «أي عمل فني». وصلت الرسالة الثالثة بعد فترة قصيرة وربما كان تاريخها أيلول/ سبتمبر من ذلك العام. ونعلم إن سورين آبي «تحدث عدداً من المرات» مع بيتر كريستيان عندما كان الأخير في كوبنهاغن حيث أوضح إن جيتي «ما زالت طريحة الفراش» ولمَّح على ما يُفترض إلى أن مرض زوجته نفسي أكثر منه جسدي. وفي كل الأحوال فإن رسالة الشقيق الأصغر تناقش نفاد الصبر الذي كثيراً ما يبديه ذوو العلاقة، بمن فيهم الطبيب، حين لا يكون المرض من النوع البسيط والمعروف. «أنه

ليس حمى وليس ذراعاً مكسورة أو إصابة نتيجة سقطة – فما هو إذاً؟» وهكذا فأن يكون المرء مريضاً، بل مريضاً عقلياً، يتطلب منه أن «يتحلى بالصبر لتحمل نفاد صبر العطف». إنه عالم مقلوب عاليه سافله، ولكن السلوى التي تُقدَّمٍ هي أيضاً ليست من هذا العالم: فعندما يعاني الشخص حقاً، يستحق «فرصة حقيقية لإدراك الحقيقة الماثلة في أن إله الصبر هو حقاً مَنْ يستطيع أن يصر على العناية بالشخص عناية مطلقة وغير مشروطة بتعاطف أبدي لا يتغير».

الرسالة الرابعة والأخيرة، المكتوبة في كانون الأول/ ديسمبر 1847 تعزف تنويعاً على موضوعة المواساة. يبقى الحديث عن المرض وكأنه مرض جسدي ولكن من الواضح إن كاتب الرسالة فهم طابعه النفسي: «الآن أنتِ مرة أخرى أسيرة الفراش... هناك شيء وثيق الصلة بالمرض الجسدي – قلق صامت مؤلم بعمق ومنهِك ببطء ينقلب في معاناته أولاً على هذا الجانب في التفكير بنسيان الآخرين لكِ (وهم على الأرجح لا يفكرون في أحد أبداً)، ثم على الجانب الآخر خشية ألا يكون ما يتعين على المرء أن يكتبه أو يقوله جيداً بما فيه الكفاية. أوه، أبعدي هذا الهم. وأوصى كيركغارد أن تبحث جيتي عما يلهيها قدر الإمكان لكنه كان يعرف حق المعرفة إن قول هذا أسهل من تطبيقه. ولكن تطبيقه «ممكن» إذا أراد المرء حقاً أن يطبقه: «الناس عموماً يعتقدون بأن منحى أفكار الشخص يتحدد بظروف خارجية... ولكن هذا ليس صحيحاً. فإن ما يحدِّد منحى ـأفكار الشخص يوجد أساساً داخل نفسه ذاتها. وعلى سبيل المثال إن التعاسة هي دائماً الحالة الأرجح لشخص لديه نزوع إلى المالنخوليا. لماذا؟ لأن المالنخوليا تكمن في داخله. وفي هذه الحالة الافتراضية هناك إمكانية متساوية أو ربما أكبر للحالة المعاكسة، ولكن الشخص يستسلم اعتباطاً بعد أن تكون لديه أدلة كافية للخلوص إلى أن شيئاً تعيساً سيحدث له. ولكن ما معنى أن يكون لدى المرء «إيمان» إذاً؟ فأن يكون لدى المرء إيمان هو أن يتوقع دائماً المبهج، المفرح، الطيب. أليست هذه تلهية استثنائية ومباركة! أوه، ماذا أكثر يحتاج المرء إليه إذاً؟... المطلوب هو الصلابة، كلما تتردى الأمور نبدأ على الفور مرة أخرى وبروح هادئة نقول: نعم، نعم، أكيد ستنتهي على خير المرة القادمة».

رسائل مماثلة بُعثت إلى ابن عمه هانز بيتر الذي كان مقعداً بالكامل لكنه سليم عقلياً. وكان هانز بيتر يقرأ كتابات ابن عمه الذي يتعاظم شهرة بحماسة

خاصة، وتأثر تأثراً بالغاً بالخطابات الاعترافية في العمل الموسوم «خطابات تثقيفية بأرواح مختلفة» الذي يتحدث عن شخص منعه ضعفه الجسدي من النشاط في العالم الخارجي لكنه كان مع ذلك مُلزَم بالواجبات والالتزامات التي تسري على الجميع. وكيركغارد، الذي كان بالطبع معروفاً بإبقاء الزوار «بعيدين عنه مسافة طابق كامل من درجات السُلَّم»، أعطى هانز بيتر موافقة خاصة على زيارته في ساعة محدَّدة من اليوم. وسألت هنريته لوند ذات مرة هانز بيتر عم يتحدثان في الحقيقة. «في الغالب عن أشياء تتعلق بملكوت الله»، أجاب هانز بيتر الذي توقف هنيهة ثم تابع إن كيركغارد «حنون إلى حد لا يوصف ويفهمني جيداً لكني أخاف حقاً من استخدام ذراعه عندما يمدها لمساعدتي على ركوب عربتي». كان ابنا العم هذان في عائلة كيركغارد ثنائياً يبعث على الشفقة باعتلالهما الأعوج عندما يجبران جسميهما على عمل ما لم يكن بوسعهما عمله.

في المناسبات التي كان هانز بيتر يحضر إلى بيت كيركغارد لزيارته بلا جدوى كان واثقاً من إنه لن يمر وقت طويل قبل أن يُريه أندريس خادم كيركغارد اعتذاراً مكتوباً من «صاحب الجلالة الفلسفية» كما كان هانز بيتر يسميه. وكان عادة يحتفظ بهذه الرسائل الصغيرة التي تتضمن واحدة منها تعليقاً ديالكتيكياً بالكامل لكنه مع ذلك تعليق لا إبهام فيه على كتاب «التكرار»: «يؤسفني إن زيارتك أمس ذهبت سدى... ولكن لا تيأس مني بسبب ذلك... عليك الإيمان بالتكرار - ولكن كلا، لأني أثبتُ، بالطبع، عدم وجود تكرار. ولكن ليكن عندك شك في التكرار وعد مرة أخرى لأن التكرار سيعني في هذه الحالة، بالطبع، إن زيارتك ستذهب سدى مرة ثانية. وليس هناك تكرار (غير «تكرار» الكتاب) - وبالتالي فالأرجح بحق الإنسانية جمعاء أن تجدني المرة القادمة».

لكن رسالة بمناسبة السنة الجديدة من عام 1848 تجعل من الواضح إن الديالكتيك يمكن أن يفتح الطريق لصوت مواساة بسيط، حميمي: «سنة جديدة سعيدة! أنا لا أطوف أبداً في زيارات تهنئة بالسنة الجديدة ولا أكتب رسائل تهنئة إلا ما ندر، في حالات استثنائية - ولكنك من الاستثناءات». وتابع كيركغارد قائلاً إنه إذا أعطى هانز بيتر «نصيحة صغيرة عن الحياة» أو يضع «قاعدة للعيش» فإنه سيقول: «في المقام الأول، لا تنس أبداً واجب أن تحب نفسك. لا تسمح لحقيقة إنك بطريقة ما أُبعدت عن الحياة، وإنك مُنعت من المشاركة فيها بدور

نشيط، وإنك بنظر عالم غبي ومشغول، فائض عن الحاجة - في المقام الأول لا تدع هذا يحرمك من فكرتك عن نفسك وكأن حياتك، بنظر الحاكمية الإلهية التي تعرف كل شيء، لا تكون لها أهمية وقيمة، إذا عشتها جوانياً، بقدر أهمية حياة أي شخص آخر وقيمتها».

يكتب هانز بروشنر إن كيركغارد «كان يواسي لا بالتستر على الحزن وإنما بجعل المرء واعياً به وعياً صادقاً، بتقديمه واضحاً كل الوضوح. ثم كان يُذكِّر بأنه في الوقت الذي يوجد فيه واجب للحداد هناك واجب أيضاً لئلا يدع المرء نفسه تُسحق بالحزن». وهذا هو نوع الموقف الصريح بلا تزيين تجاه الحزن الذي نجده في رسالته التي تقع في أكثر من عشر صفحات إلى جي. إيل. أي. كولدروب روزنفينغي J. L. A. Kolderup Rosenvinge الذي نُكب بموت حفيدته ابنة السنتين باربرا في ربيع 1849. إذ يقدم كيركغارد مواساته ويفعل ذلك بطريقة جذرية: «فارق السنوات يجعل الحزن أعمق. إنه دائماً أصعب على الأجداد أن يفقدوا حفيداً من أن يفقد الآباء طفلاً لهم». ويميز كيركغارد بين الألم الآني والحزن المنعكس، ويمضي في تطوير فكرته: «الجد يحزن بطريقة تختلف تماماً عن طريقة الأم الشابة. وفي حين إن شبابها وآمالها بالحياة تساعدها على تحمل الخسارة بسهولة أكبر بل وفي أحيان كثيرة نسيانها بالتدريج (هذه الخسارة التي كانت أخف وطأة عليها من الجد) فإن الجد في هذه الأثناء لم ينس شيئاً بل عنده تردد صدى الخسارة في ذاكرته على الفور مكرراً خسارة سابقة». كما يتطرق كيركغارد إلى الإمكانية الرهيبة لأن يبدأ المرء في غمرة حزنه بتقبيح شخص آخر لأنه لم يحزن حزناً عميقاً بما فيه الكفاية، وفي هذه الحالة «إن الأم لم تحزن حزناً عميقاً - كما حزن الجد».

يبين كيركغارد في رسالته إلى هنريته لوند - ابنة أخته الراحلة (والمفضلة) بتريا سيفرين، وهنريك فرديناند لوند - إنه أُستاذ حقيقي في الفرح بإشاعة البهجة. صحيح إن رسائل عيد الميلاد التي ينبغي أن تكون هنريته تسلمتها في 15 تشرين الثاني/ نوفمبر كانت بلا استثناء تصل متأخرة يومين على الأقل وأحياناً عدة أسابيع - وهو أمر كان الخال الموهوب ديالكتيكياً، في أحيان كثيرة، مستعداً بما فيه الكفاية لجعله موضوعة الرسالة نفسها. وهكذا أرسلت هنريته إليه بمناسبة عيد ميلاده التاسع والعشرين رسماً بدائياً بالحبر لبعض الفواكه أرفقته بملاحظة تنم عن عدم رضاها راجيةً ألا يُري الرسم لأي

أحد – «لأنه محرِج للغاية». ولكن في وقت لاحق من العام نفسه، عندما بلغت هنريته الثالثة عشرة من العمر رد كيركغارد على رسمها برسم رديء على نحو صارخ تقريباً لزهرة بتلاتها ناتئة في كل اتجاه وساق سميك وورقة واحدة. وأكد لها إنه اشتغل بكدح على الزهرة أكثر من ثمانية أيام وسهر الليالي لإنجازها. وعلى الجانب الأيمن من الورقة كتب الفنان (الذي لا تُنكر ميوله إلى استخدام الأسماء المستعارة) بعناية فائقة: زهرة عيد ميلاد زرعها بكل احترام مستر X. وما أن كادت هنريته تبدي انزعاجها من هذه المعاملة الوقحة حتى كان أندريس خادم كيركغارد واقفاً مرة أخرى في الصالون ليقدم إلى فتاة عيد الميلاد الحائرة رزمة تحوي كتابات بول مارتن مولر المنشورة بعد وفاته.

في العام التالي كان كيركغارد متأخراً كالعادة ولكن هنريته لم تبق خالية الوفاض. فإن كيركغارد أرسل مع تحيته المتأخرة بعيد ميلادها بعض العطر وأُمنية كان لها عبيرها الخاص بالأبدية: «أتمنى لك كل الخير عزيزتي جيتي. كوني سعيدة، دائماً سعيدة. هذه هي النصيحة الوحيدة التي يمكن أن تُقدَّم في مواجهة أي أحزان يمكن أن تلم بك. وإذا شئتِ فكوني على ثقة من الإخلاص الصميم الثابت الذي أبقى معه/ خالك المخلص بالكامل/ أس. كي». وفي السنوات اللاحقة استمرت الرسائل والرزم في الوصول دون تأخيرات قصيرة ولكن في تشرين الثاني/ نوفمبر 1846 سجل كيركغارد رقماً قياسياً شخصياً بتأخره يوماً واحداً فقط، وأنعش هذا معنوياته حتى إنه كتب «قهوة كوب» بدلاً من «كوب قهوة»، وهذا الأخير كان الهدية المرفقة برسالته. كانت تلك هي الخطة على أية حال ولكنه في عجالته نسى أن يرسل الكوب ولذلك تعين عليه أن يبذل جهوداً قصوى ويبعث برسالة أخرى أعذر نفسه فيها عن سهوه المؤسف وأرسل خادمه مرة أخرى، هذه المرة معه الكوب.

لم تكتب هنريته مذكراتها حتى عام 1876، وحينذاك كانت في السابعة والأربعين، وكيركغارد متوفياً منذ 21 عاماً. وهي مذكرات لا يمكن القول إنها موضوعية لكنها تُقدَّم بحيوية كبيرة، ووفاؤها لخالها سورين وفاء مؤثر – حتى إذا لم تغفر له تماماً تسميته لها «مدام نظارات» بسبب عادتها في النظر إلى الأمام مستغرقة في التفكير. وتتحدث في مذكراتها عن حفلة عشاء صغيرة دُعيت إليها مع إحدى بنات عمها: «حين دخلنا قدَّم الخال سورين لابنة عمي ولي باقة من زنابق الوادي، وهي نادرة تماماً في ذلك الموسم، ثم أعطى كلا منا هدايا جميلة.

وما كدنا ننتهي من إبداء إعجابنا بالهدايا المختلفة حتى أبلَغنا أندريس، خادم الخال سورين الوفي والمعروف بالكثير من المفاجآت السارة التي كان يجلبها في الكريسمس وأعياد الميلاد، إن العربة تنتظر في الباب. وهتف الخال سورين «أوه، يجب أن نغادر إذاً! إلى أين؟» آه، لم يُبلَّغ أحد إلى أن توقفنا عند معالم ذات اهتمام مختلفة متفق عليها مسبقاً حيث رأينا المناظر غير المعروفة من المدينة. والغريب بما فيه الكفاية إن الشيء الوحيد الذي أتذكَّره من هذه الرحلة هو فقمة تركت عيناها الحزينتان الشبيهتان بعيون البشر أثراً عميقاً في نفسي. وبعد عودتنا لعبنا اللوتو، وكانت الجوائز أشياء مختلفة، غالبيتها كتب. ثم جاء العشاء المتأخر وهو سندويشات مفتوحة وكعكة مارزيبان مع أروع الزهور، وشمبانيا. وكان الخال سورين المضيف المهتم بالجميع بلا كلل، وأندريس لا يقل كداً بدور النادل».

لم تكن هنريته أخذت سر الميرون ولذلك وجد والدها إن الفعالية غير لائقة، بل باذخة، وخاصة الشمبانيا. وكان بمقدور هنريته أن تتذكر إنها بعد عودتها من تلك السهرة تحدث والدها عن «إفساد الأطفال» مثلما كانت هناك بعض التعليقات اللاذعة عن «ذلك الشخص الفظيع». من جهة أخرى كانت هنريته مبهورة بكل بساطة من السعادة حتى إنها لم تنسها قط.

كيركغارد لم يعامل ابنة عمه أوغستا بأي شكل يقرب من هذه الشهامة. إذ كانت أوغستا شديدة الإعجاب بشقتها الجديدة، وطلبت مراراً من ابن عمها أن يأتي لزيارتها. وفي النهاية قام سورين آبي بالمجهود المطلوب، وحين عاد من الزيارة قال «الآن رأيتُ شقة أوغستا. إنها صغيرة لكنها قبيحة».

1845

كبيرة بما فيه الكفاية لأن تكون مدينة

البعض من مواطني بلدي على الأرجح يظنون إن كوبنهاغن بلدة مملة وبلدة صغيرة. وهي عندي على العكس من ذلك - ينعشها البحر الواقعة عليه وهي غير قادرة حتى في الشتاء على أن تمحو من ذاكرتها غابات شجر الزان - أفضل مكان للسكن يمكن أن أتمناه. كبيرة بما فيه الكفاية لأن تكون مدينة كبرى وصغيرة بما فيه الكفاية بحيث لا يوجد سعر سوق على البشر.

هكذا يعبر كتاب مراحل على طريق الحياة عن هيام كيركغارد بكوبنهاغن التي بحسب تعداد 1845 كان عدد سكانها 126787 نسمة. وكانت المدينة الصغيرة، المتراصة، المحصنة، محاطة بأسوار تغوص ناعسة في خنادق مائية عريضة، وكان على كل حركات الدخول والخروج من البلدة أن تمر عبر واحدة من البوابات الضيقة الأربع: أوستربورت ونوربورت وفيستربورت وأماغربورت، التي كانت تُغلق بإحكام كل ليلة ثم تُسلَّم المفاتيح إلى الملك فريدريك السادس في قلعة أمالينبورغ - وهو تقليد استمر حتى عام 1808. ولكن بوابة نوربورت كانت تُبقى مواربة ليتمكن رواد الليل من دخول البلدة - بعد دفع الرسم المطلوب البالغ شلنان. وفي أيام السوق - كل أربعاء وسبت - كان الفلاحون ينتظرون في طوابير طويلة للدخول مع بضاعتهم من الطحين والحبوب والبطاطا والزبدة والحليب واللحوم والدجاج والأغنام والفواكه والمشروبات الروحية والقش والجلود وغير ذلك مما قد تحتاجه المدينة. وكان على مَنْ يرغبون في دخول المدينة أن يدفعوا رسماً وأن يقدموا عرباتهم لتفتيش نُظّار الأكياس الذين كانوا دائماً يجدون أكثر مما كان الفلاحون يريدونهم أن يجدوا، ولذلك كانوا مكروهين بقدر ما كانت القوة الصغيرة

من أفراد الشرطة المسيطرة داخل أسوار المدينة، وكان هناك خمسة وثمانون شرطياً في عام 1840. وأُلغيت في ذلك العام عقوبة الوسم فكان على المدينة أن تكتفي الآن بالجلد في الساحات العامة حيث كان الأشخاص يُربطون بعمود ويُجلدون بقدر ما يستحقونه من الجلدات. من جهة أخرى كان حراس المدينة الليليون البالغ عددهم 188 حارساً أكثر شعبية بكثير. إذ كانت مسؤوليتهم أن يطلقوا صفارة الإنذار في حالة الحريق وأن يذيعوا الوقت كل ساعة، وحتى زمن متأخر هو عام 1863 كانوا ينشدون بيت الشعر المطلوب عن الحارس الليلي كل ساعة عندما يحين وقتها تماماً طوال الليل. وأخيراً كانت مهمتهم إضاءة مصابيح شوارع المدينة التي تحاول تبديد الظلام الكثيف في الشوارع - ولكن مع ذلك كانت المصابيح لا تُضاء إلا في الأيام التي يغيب عنها القمر بحسب التقويم السنوي!

في هذه المدينة أحدث العصر الذهبي الدنماركي نوعاً من الاحتباس الحراري الفكري. إذ كان أي واحد وكل واحد هناك، الشخصيات المرموقة وبسطاء الناس على السواء، يختلطون مع بعضهم البعض - رغم إنهم جميعاً كانوا صغاراً تماماً بالمعنى الجسدي لأن متوسط طول الذكور البالغين خلال تلك الفترة كان خمسة أقدام وأربع بوصات! وكانت المدينة، إذا نظرنا إليها بعيون حديثة، مأهولة عملياً بأقزام ولذلك عندما تحدث غروندتفيغ (الذي كان نفسه يشمخ بقامة ذات طول خطير قدره خمسة أقدام وسبع بوصات ونصف البوصة) عن عمالقة في شكل أقزام فإنه كان أكثر من طريف.

أتى الحريق الكبير الذي اندلع في صيف 1795 على 950 منزلاً من منازل المدينة بتسويتها مع الأرض. وبعد ذلك جاء هجوم 1807 الذي كان بلا رحمة عندما أطلق الإنكليز أربعة عشر ألف قنبلة نارية فوق أسوار كوبنهاغن وعلى داخل المدينة. وبمرور الوقت وبعد أن أُعيد بناء المناطق التي دمرها الحريق، بُعِثت المدينة بطراز كلاسيكي جديد جميل. كما نُسخ طراز المباني الضخمة التي صممها المعماري سي. أف. هانسن C. F. Hansen - مجمع دار البلدية ومبنى المحكمة وكنيسة سيدتنا - بما في هذه المباني من توتر وانضباط، على واجهات المنازل الخاصة التي طُليت سطوحها الباهتة بألوان حجر الكلس والحجر الرملي لتقدم مظهراً يختلف بالكامل عن المنازل القديمة بواجهاتها البارزة وديكورها الغوطي وأعمدتها المتمعّجة ودعاماتها المربعة اللامعة.

الآن يكفي شريط أفقي ضيق من الزينة بين صفوف النوافذ لكل طابق، وإطار باب ذو مظهر متميز وربما جملون مثلث مع تفاصيل ديكورية قرب القمة. وجرى تحسين إمكانية دخول عربات الإطفاء بتعريض الشوارع وإلزام الأبنية المشيدة على التقاطعات بإرجاع أركانها إلى الوراء وقطعها بزوايا 45 درجة وبذلك تحويل أعناق الزجاجة المحتملة إلى ساحات صغرى. وأصبح الملبس أبسط أيضاً. إذ كان الرجال يرتدون سراويل ضيقة وجزماً عالية وصديرية ذات ألوان براقة من الحرير أو المخمل وسترة زرقاء أو بنّية بأزرار لماعة ووشاحاً من الحرير وقبعة عالية سوداء أو رمادية من الحرير. ولم يعد الشارب حكراً على العسكريين، وكان الكبار يتعاطون السعوط فيما كان الشباب يفضلون تدخين السيجار حين يكونون خارج البيت والغليون حين يكونون في البيت بين كتبهم. وحتى وقت متأخر هو أربعينات القرن التاسع عشر ظلت ملابس النساء متواضعة وجذابة ولم يفلت الوضع من السيطرة وتبدأ أقمشة القرينول القطنية تبسط هيمنتها إلا في منتصف خمسينات القرن.

كان المسرح الملكي في ميدان كونغينز نيتروف مركز عالم الثقافة في كوبنهاغن. وبعد إعادة تصميمه عدة مرات لم يكن المبنى مشهداً لطيفاً لكن داخله كان حتى أسوأ: متاهة من الأبواب والسلالم الضيقة والممرات الغريبة حيث من المفترض أن يعلق الضيوف معاطفهم. وكانت المقاعد مصطبات خشبية ضيقة مكسوة بالجلد أو قماش خشن، وإذا اختار المرء مقاعد المقصورة فعليه أن يتحمل الجلوس على مقاعد بلا ظهر. وكانت المعدات والآلات عتيقة والإنارة توفرها مصابيح زيتية ليست مناسبة بالمرة. وارتاع جي. أم. تيلة J. M. Thiele الذي درس العديد من المسارح في رحلاته خارج البلاد حين ألقى نظرة وراء الكواليس في المسرح الملكي: كل شيء يمكن أن تجده في الحيز الموجود بين طابقين – أُطر خشبية كسيحة، كتان، حبال دهنية، أوراق – كلها مركونة بصورة خطيرة قرب المصابيح ولَهَبها. وكانت العليَّة فوق المسرح تغص بكتلة من الستائر وهذا الحيز يستمر دون أي جدار فاصل إلى داخل غرفة تمتد فوق المساحة المخصصة للجمهور في المسرح وكانت مليئة بمئات الستائر الكتانية الملفوفة – بمثابة وقود في حالة وقوع طارئ ستكون من أول المواد التي تنهال بلا رحمة في حريق ساحق كاسح. والغريب إن المسرح، بخلاف الكثير من الأبنية الأخرى، رفض أن يحترق ولم يُهدَّم المبنى القديم في النهاية إلا عام

1870. ولكن هنا احتفل شعراء مثل أوهلينشلاغر وهايبرغ بانتصاراتهم، وهنا رقص بورنونفيل وصمم ديكورات رقصاته الباليه. وهنا كان كيركغارد متفرجاً.

بعد العواقب الكارثية للحروب النابليونية وركود اقتصادي استمر حتى أواخر ثلاثينات القرن التاسع عشر، طرأ تحسن على الوضع في أربعينات القرن، وتوفرت بذلك للسكان إمكانات تتيح لهم البحث عن ملاهٍ. وبرعاية ملكية من كريستيان الثامن أصبح ملازم شاب في وحدة حراس الحياة اسمه غيورغ كارستنسن Georg Carstensen عريف احتفالات العاصمة. ولم يكن اختياره مصادفة لأن كارستنسن بصفته محرر مجلتين أسبوعيتين مسليتين قام في السابق بترتيب احتفالات للمشتركين في مجلتيه. وذات عام دعاهم إلى زيارة حدائق روزنبورغ، ذات الإنارة البديعة. وفي العام التالي نظم حفلة ناجحة بمناسبة السنة الجديدة في حلبة الفروسية المغطاة في قلعة كريستيانبورغ التي زُينت على الطريقة الشرقية وأُنيرت بأربعة آلاف شمعة للمناسبة التي استمرت ثلاثة أيام. وسُمح للمشتركين بالدخول مجاناً فيما كان على الآخرين أن يدفعوا ريكسدولاراً للدخول ولكن الصحافة أُعجبت بالفعالية فتضاعفت حماسة الجمهور بسبب ذلك. بيد إن كارستنسن تمتع بأكبر نجاحاته قاطبة حين نال موافقة في عام 1842 على تأسيس مدينة ملاهي افتُتحت أول مرة في 15 آب/ أغسطس 1843. وكان بمقدور المرء أن يقرأ في صحيفة فادريلانديت بعد أسبوعين إن الحصاد قد يكون كارثة والوباء قد يفتك بالماشية والرسوم التي تجبى عن عبور مضيق ساوند قد تُفقَد ودوقيتا سليفغ وهولشتاين قد تنفصلان ويوتلاند قد تغرق في فيضان ولكن في هذه الأثناء سيكون أهل كوبنهاغن مهتمين بشيء واحد هو مدينة تيفولي للملاهي. كما لم تفت على السكان الأهمية الرمزية لحقيقة أن مدينة الملاهي الجديدة تقع فيما كان في السابق تحصينات عسكرية ممنوع دخولها منعاً باتاً. وها هي الآن مفتوحة لمَشاهد ترفيهية كان أهل كوبنهاغن يتطلعون إليها منذ عقود. واحتراماً لزوار تيفولي ستبقى بوابة فيستربورغ الآن مفتوحة حتى ساعة متأخرة من الليل. وكانت هذه هي الأشهر التي أنهى فيها كيركغارد مخطوطة الخوف والرعدة وكان على وشك الشروع في عمله التحضيري على مفهوم القلق.

إذا كان المرء يشتاق إلى الهدوء وراحة البال بعد زيارة لملاهي تيوفلي فإنه كان يستطيع أن يخرج في نزهة مشياً على الأقدام إلى فريدريكسبيرغ،

وهي بقعة ريفية خلابة يسكنها بضعة آلاف. وفي حدائق فريدريكسبيرغ كان أكبر المعالم الجذابة القلعة الملكية على تل فالبي. وحتى عام 1839 هنا كان فريدريك السادس الأبوي يقضي فصل الصيف كله من السنة، وكانت المتعة الشعبية الكبرى بعد ظهر أيام الآحاد، رؤية صاحب الجلالة ببدلة أدميرال يبحر مع عائلته في مركب هو نوع من الجندول بدعائم عريضة، كان يقوده لمدة ساعة أو نحو ذلك في شبكة القنوات المصممة تصميماً فنياً التي تخترق الحدائق، وبعدها ينزل على أرض جزيرة فيها مقهى صيني حيث كان عازفو آلة الأوبو يقدمون وصلات موسيقية برهافة عالية تحت شمس الصيف المشرقة حتى كان يبدو وكأنها حكاية خيالية. بعد ذلك كان البورجوازيون الميسورون يتمتعون بتناول القهوة في محلات لطيفة على أليغادة وبيليالة. وكان كيركغارد يعشق الحدائق وكثيراً ما كان يجلس هناك مستغرقاً مع سيجاره وعلى مرأى من الفتيات الخادمات اللواتي رسم صورتهن ببراعة في مقطع مطول من يوميات الغاوي حيث تنال فتيات نيبوردر درجة الشرف لأنهن ممتلئات، شهوانيات، مليحات، مرحات، حبورات، خفيفات، ذلقات اللسان، متغنجات بعض الشيء وفي المقام الأول حاسرات الرأس، أكثر ما يرتدينه شيء لا يقل حلاوة عن قبعة صغيرة مثيرة.

على النقيض من ذلك كانت كريستيانسهافن، تلك المنطقة من المدينة الواقعة بين باقي كوبنهاغن وأماغر، غير جذابة بل تكاد تكون بشعة. وكانت كريستيانسهافن أسسها في أوائل العقد الأول من القرن السابع عشر كريستيان الرابع الذي أرادها أن تكون على طراز المدن الدنماركية، بقنوات وشوارع تكون شبكة من الخطوط المستقيمة. وبعد خسارة الأساطيل الحربية والتجارية الدنماركية تردى وضع كريستيانسهافن كثيراً لأن الحي فقد ركائزه القديمة لبناء السفن وتموينها وتجهيزها. صحيح إن سكان هذا الجزء من المدينة تزايدوا خلال أربعينات القرن التاسع عشر ولكن السبب الوحيد لهذا النمو هو كثرة الفقراء الذين هاجروا إلى المنطقة لرخص إيجاراتها. وشعر كيركغارد خلال رحلاته بالأجواء الخاصة في هذا الجزء المكتظ بالسكان والبائس من المدينة بمستودعاته الفارغة. كان ذلك عالماً آخر: [لانغبرو Langebro أي بالدنماركية: جسر طويل] نال اسمه من طوله. وهو طويل حقاً بالنسبة لجسر ولكن الجسر، كطريق، ليس طويلاً جداً كما سيكتشف المرء بسهولة بقطع طوله مشياً. ثم عندما

يقف المرء على الجانب الآخر، في كريستيانسهافن، يبدو مرة أخرى إن الجسر لا بد أن يكون طويلاً رغم ذلك لأن المرء يبدو بعيداً، بعيداً جداً عن كوبنهاغن.

كدتُ أراقصهن

كان كيركغارد كوبنهاغنياً حتى النخاع ويعرف المدينة مثل راحة يده، أو ربما حتى أفضل. صحيح إنه حين كان في برلين وجد من المفيد ألا يتسلل المرء إلى كل ركن وزقاق في مدينة مألوفة يعرف دائماً طريق الخروج منها إلى أبد الآبدين، ولكن لم يمض وقت طويل حتى أخذ يحن للعودة إلى زوايا كوبنهاغن وأزقتها. وتشهد فواتير باقية من الإسكافي سولفيربورغ لحسابات بسيطة على حقيقة إن كيركغارد كان يهري أحذيته بالمعنى الحرفي للكلمة من فرط تجواله في المدينة. وكان يستخدم نوعاً خاصاً من الأحذية ذات نِعال محفورة من الفلِّين لتقليل الضغط على ساقيه الضعيفتين ولكن هذه النِعال الفلينية كانت مناسبة أيضاً لهذا الجاسوس البوليسي، كما كان يسمي نفسه، الذي يستطيع أن يدب بلا صوت في أنحاء مدينته على أقدام مسنودة. كانت هذه غالية. إذ كانت الأحذية تكلف ثمانية ريكسدولارات، وفي شهر تشرين الأول/ أكتوبر 1849 وحده أعاد كيركغارد تجديد نِعال أحذيته وكعوبها ما لا يقل عن خمس مرات.

قلة أدرجوا شوارع كوبنهاغن وطرقها وأزقتها في كتاباتهم كما فعل كيركغارد. فكل واحد منها موجود عملياً في نتاجاته – حروفها الأبجدية كلها من أماغيربو إلى أوستربورت – وهي توظَّف بقدر كبير من الحرص. وعلى سبيل المثال عندما يريد كيركغارد إسكان رجل في [بالدنماركية: طريق المسدس Pistolstraede] ليكون في خلوة يخترع فيها ديناً جديداً فإن قراءه الكوبنهاغيين يدركون على الفور أنه لا بد أن يكون ديناً يُرثى له. إذ كانت هناك طرق ضيقة حيث سكان المنازل التي تواجه الطريق من البورجوازيين الصغار الكدودين عادة في حين إن الأبنية الجانبية والقريبة كانت مأهولة بفقراء مسحوقين. ومن هذه الطرق طريق [بالدنماركية: طريق الحمَّام Badestuestraedet] الذي يذكره كيركغارد في أكثر الأحيان. وفي هذا الطريق تخيل مصير شخصية امرأة عجيبة مجرى حياتها اتخذ المسار المحزن التالي: إذ كانت مسز بيترسن إمبراطورة سابقة على أراضي الحب المشاعية الشاسعة وملكة كل مبالغات الحماقة، فإنها الآن على ركن طريق الحمَّام.

وتتضمن بضع قصاصات مبعثرة من عام 1842 تخطيطات لعمله الموسوم صفحات من مفكرة مفتش طرق بينها قطع مثل حكاية الجرذ الذي أصبح عدو الإنسانية وقصة لوح مزراب (التي قُدمت بوصفها دراما فخمة لأننا نستطيع أن نقرأ كلمة طوفان كنوع من الإخراج المسرحي). وفي العام التالي خطرت ببال كيركغارد فكرة تصوير مدينته تحت عنوان مقاطع عَرَضية أو من كل زاوية أُريدَ لها أن تكون تصويراً كئيباً للحياة في كوبنهاغن كما تكون في ساعات مختلفة من اليوم: الساعة التاسعة، الأطفال يذهبون إلى المدرسة؛ الساعة العاشرة، الخادمات؛ الساعة الواحدة، العالم الراقي. وكانت الفكرة إن الحياة ترتدي ألواناً مختلفة في أوقات مختلفة، كما يتلون الماء بقطعان مختلفة من السمك. ولم يكن لدى كيركغارد شك بشأن الجنس الأدبي: إنها يجب أن تبدأ بأغنية لعاصمتي الحبيبة ومكان سكني، كوبنهاغن.

عندما زار كاتب الأدلة السياحية الألماني هيرمان آخنباع Hermann Achenbach مدينة كوبنهاغن في عام 1836 ساءه بصفة خاصة الصراخ المقزز لبائعات الفواكه والخضروات في الشارع اللواتي يرتكبن مثل هذا الانتهاك المقرف لكل نوع من التناغم الذي لا يستطيع أن يعتاد عليه إلا الدنماركي وحده. ومن حسن الحظ أن كيركغارد كان واحداً من هؤلاء الدنماركيين بحيث إنه لم يعتد على الضوضاء فحسب بل كان في الحقيقة يتمتع بها، وبأُذنه التي تجيد الإصغاء لاحظ كيف كانت النساء القادمات من فالبي يتجمعن حول النافورة في ميدان غاملتورف ويعرضن الدواجن والبيض الطازج للبيع، وكيف كان باعة الجمبري من غاميل ستراند يصرخون إلى أن تبح أصواتهم لبيع صيد البحر وكيف كانت النساء القادمات من أماغر يقفن في هويبر بلادس عارضات بضاعتهن للبيع بصوت عال. وذات يوم حين كان يجلس مستغرقاً في أفكاره، أُعيد فجأة إلى الواقع بصراخ امرأة تبيع الكرز بستة شلنات. ولم يكن الصراخ بقدر ما كان الصوت المألوف هو الذي عاد به إلى زمن أسبق، إلى ذكرى طفولتي الأولى سوى إن المرأة تغيرت قليلاً في السنوات الأخيرة - فَمُها أصبح معوجّاً على نحو ما ليؤثر إلى حد ما في تلفظها مفردة شلن. وفي أوقات أخرى يكون هناك مزاج احتفالي أيام الآحاد يمكن أن يتبدى فجأة على نحو رائع بحيث يتعين تسجيله على الورق: الشمس تشع في غرفتي بكل جمال وبشكل مفعم بالحياة. النافذة في الغرفة المجاورة مفتوحة. وفي الشارع كل شيء هادئ. إنه

عصر الأحد. أسمع بشكل متميز قبَّرة تزقزق خارج نافذة في إحدى الباحات المجاورة، خارج النافذة حيث تعيش الفتاة المليحة. وعلى مسافة، في شارع بعيد، أسمع رجلاً يبيع بضاعته من الجمبري. الهواء دافئ جداً ومع ذلك تبدو المدينة كلها ميتة.

جعل كيركغارد لغة المدينة لغته، تاركاً إياها للأجيال القادمة أيضاً: عندما يسمع المرء خادمة تتبادل الحديث مع خادمة أخرى يكتسب فجأة بصيرة بشيء كان يبحث عبثاً عن التنوِّر بشأنه. لعب على تعبير كان المرء يحاول عبثاً استخراجه من دماغه بشق الأنفس أو يبحث عنه في القواميس (حتى في قاموس الجمعية العلمية) يسمعه بشكل عابر على لسان جندي من العوام ليس لديه فكرة كم هو ثري. وذات يوم في كانون الثاني/ يناير 1846 سمع حوذياً يقول مشيراً إلى زميل له مرق كالبرق، مخموراً وبسرعة خاطفة، إن الرجل عنده شيء يقود المرء إلى الحضيض. وتزخر يوميات كريكغارد من فترات مختلفة بهذه الاكتشافات الفينومنولوجية - الأصوات، الضوء، الحياة في الشوارع - ولكن البداعة القصوى عندما تلتقي الصدفة ونوع من الضرورة الفنية في حضوره الآني فيتمخضان عن وضع، كما حدث على سبيل المثال ذات مساء في عام 1845: المثير للاهتمام إني خرجت من بوابة فيستربورت هذه المساء. كانت ليلة ظلماء. مررتُ بصبيين في أحد الأزقة الضيقة. بالكاد انتبهتُ إليهما ومررتُ بهما عندما سمعتُ أحدهما يروي للآخر حكاية: ثم جاءوا إلى سيدة عرافة عجوز... هذا الصيف حدث معي الشيء نفسه في غسق المساء حين كنتُ عند بحيرة بيبلنغة. كانت هناك فتاتان صغيرتان وقالت إحداهما: ثم رأيتُ قلعة قديمة على بُعد... أعتقد أن أكبر شاعر بالكاد يستطيع أن يُحدِث تأثيراً مثل هذه الأصداء المثيرة للحكاية الخيالية - عن القلعة القديمة على بُعد، أو عما حدث تالياً أو إنهما تحدثتا طويلاً حتى، إلخ...

على مرمى حجر من بحيرة بيبلنغة كان طريق العشاق، وهو الممر المحاذي للبحيرات الثلاث كلها على الجانب الأقرب إلى المدينة رغم أن الخبراء يشطرونه فيسمون القسم المحاذي لبحيرة سورتيدام طريق الزواج والطريق المتاخم لبحيرة بيبلنغة طريق العشاق والقسم المحاذي لبحيرة سانكت يورغينز طريق الصداقة. وفي كتاب يوميات الغاوي كان هذا القسم الأخير هو الذي أراد كيركغارد أن تمشي كورديليا فيه ذات مساء ربيعي، على نياتها، ولكن مصيرها

كان طول الوقت يتجسس عليها. وعندما كان كيركغارد يتجول على طريق العشاق في ساعة مبكرة من صباح أحد الأيام رأى موكباً غريباً: بعض الصبايا كن يرقصن مع إحداهن الأخرى حين اقتربن منه. ربما كانتا شابتين لعوبين، في مغازلات معه كما ظن في البداية ولكنه عندما اقترب كان بمقدوره أن يرى إن هناك شابين وراءهما يعزفان على الناي. إذاً، ما زال هناك شعر من هذا النوع في العالم، كتب كيركغارد في يومياته مسروراً كل السرور لكنه أضاف بعد ذلك – بعاطفة تكاد توجع القارئ – كدتُ أرقص معهن.

كان كيركغرد يرى ما يغفله الآخرون، وكان يكبِّر التفاصيل التي تُرى عادة بلامبالاة. ولكن نظرته لم تكن تفقد نفسها في الموقف فقط: ما كان يُشاهَد كان في أغلب الأحيان يقترن بتأمل في البُعد الرمزي للموقف. إذ كانت له عين مجازية. التناقض: الحوذي على عربة الموتى الفقراء التي كان حصانها الوحيد نصف مغطى ببطانية الخيل، ليكشفه إلى السوط على نحو أفضل... يا لعمق الموت. أو بعد وقت على ذلك: إنه مشهد يُرثى له بصفة خاصة أن ترى فرساً عجوزاً تقف مربوطة أمام عربة وكيس العلف تحت أنفها لكنها مع ذلك لا تستطيع أن تأكل منه. أو عندما يكون كيس العلف معلقاً بطريقة خاطئة على رقبة حصان منكود الحظ مثل هذه الفرس فلا يستطيع أن يأكل منه، ولا أحد يفكر في مساعدته. بيد إن كيركغارد فكر في مساعدة الحصان لكنه في النهاية امتنع عن أن يعمل أي شيء مثلما امتنع عن المشاركة في الرقص.

في مناسبات أخرى كان الموقف هزلياً رغم كل ما فيه من سمات مأساوية، كما حين كان كيركغارد ميسور الحال يتنزه مشياً ذات يوم من عام 1840 في غرونينغين وصادف شخصاً مريباً من دار الفقراء (مكان عمل المحكومين والمسحوقين): اليوم تقدم شخص من دار الفقراء نحوي في غرونينغين وسلَّمني رسالة طلب مني أن أقرأها. بدأت الرسالة كالآتي: أركعُ أمامك بكل تواضع، إلخ. ولا إرادياً رفعتُ عيني عن الورقة لأرى إن كان يركع ذلك ولكنه لم يفعل. هل كنتُ سأكون أكثر هزلاً لو أنا ركعتُ؟ هل يكمن الهزلي في هذا التناقض بين تعبير لغوي مجازي والواقع.

بين حين وآخر لم يكن الواقع هو الذي يمد نظرة كيركغارد بمادة شعرية بل كانت نظرته تفتش الواقع لاختبار مبدأ فني: قد يكون من الشيق استخدام أمثلة

لتحرّي ما يُقصد بالصور الأبدية بالمعنيين الجمالي والفني، مع تحديد علاقات المزاج الأساسية التي يجب أن تنشأ بين المكوّنات الفردية المختلفة لصورة من الصور كي تتماسك كصورة أبدية - قارِب قبالة كاليبرو ستراند، قارِب فيه رجل واحد يقف في المؤخرة تماماً، يصطاد سمك الأنقليس بحربة فيرفع بذلك نهاية القارب الأخرى كلها في الهواء - جو رمادي مرهف الظلال: هذه هي الصورة الأبدية... بحيرة أيسروم تقتضي زورقاً شراعياً ولكن على متنه سيدات. في حالات أخرى تُتاح لنا مجرد لمحة نلقيها على عالم ينساب في اليوميات على نسمة رقيقة: السيدة رائعة الأناقة التي كانت تبحر عصر يوم الأحد في القناة على متن واحد من زوارق إيسكلدين الشراعية، بمفردها. كان كيركغارد عملياً يُسحَر بهذه المواقف التي تلتقط الأبدية في لحظة فوتوغرافية، ومن محاسن الصدف أن تكون في ذلك امرأة على الدوام تقريباً: هذه صورة أبدية أخرى (بالإشارة إلى مقطع ذي صلة في مكان ما وسط الملاحظة 4 من اليوميات) - شجيرات تشكل التخوم البعيدة لمتنزه، وجدول يخترقه - الوقت صباحاً وسيدة شابة تتنزه وحدها بملابس البيت / سيكون هناك منظر عند جدول دار الفقراء يعبر عن ذلك بشكل كامل.

حمام شعبي

كان كيركغارد منذ طفولته يستمتع بالمشي وكان يحب الاختفاء في الزحام أو يتسكع بين أشجار غير مألوفة دون أن يكون في ذهنه هدف محدَّد. وفي منتصف تموز/ يوليو 1837 تحدث بتهكم عن أشباه المثقفين البورجوازيين الذين أخلاقهم ملخص يختصر أوامر بوليسية مختلفة ولم يشعروا قط بالحنين إلى شيء مجهول وبعيد، ولم يحسوا ذات يوم بعمق أن يكون المرء لا شيء على الإطلاق، بعمق التنزه انطلاقاً من نوريبورت بأربع شلنات في جيبه وعصا مشي نحيفة بيده.

كان من السهل التعرف على هيئة كيركغارد بمنكبيه العاليين ومشيته المضطربة، الوثابة بعض الشيء، كما وصفه آرثر أبرهامز في مذكرات حية تذكر أيضاً العصا النحيفة الصغيرة التي كان ينفض بها أطراف النباتات وأوراق العشب على حافة الممر حين كان يُستثار خلال مشياته بمحاذاة البحيرات. وكتبت إيلين بويسن: كان يسرني دائماً أن أتحدث معه ولكن ما كان يزعجني

هو أن أكون مركز الاهتمام، وهذا ما كان يحدث لي حين أمشي معه لأنه كان يبارز على نحو غريب بعصاه وفي أحيان كثيرة يقف ساكناً في الشارع يومئ بيديه ويضحك بصوت عالٍ. ولاحقاً حلت محل عصا المشي الخيزرانية تلك «المظلة الحتمية» كما سمى تيخو سبانغ Tycho Spang هذه الأداة الملحقة التي أسهمت بقسطها في حضور كيركغارد الفريد في الشارع وجَعَلها كيركغارد موضوع صنمية مرحة في ملاحظة من عام 1840 كتبها على قصاصة ورق صغيرة. «مظلتي، صداقتي»، هو العنوان الذي اختاره لملاحظته التي تتحدث عن الحادثة التالية: «كانت عاصفة مخيفة. وقفتُ وحيداً، بعد أن تخلى الجميع عني، وحيداً في ميدان كونغينز نيتروف. ثم انقلبت مظلتي أيضاً عليّ. لم أستطع أن أُقرر إن كنتُ سأرميها بسبب عدم وفائها، وأصبحُ كارهاً للبشرية. باتت عزيزة عليّ حتى إني كنتُ دائماً اصطحبها معي حين أخرج للمشي، في المطر أو تحت أشعة الشمس، بل إني، لكي أثبت لها إن حبي لها ليس بسبب فائدتها فحسب، كنتُ أحياناً أذرع ارض صالوني جيئة وذهاباً متظاهراً بأني خارج البيت، أتكئ عليها، أفتحها، أسند حنكي على مقبضها، أرفعها إلى شفتي، إلخ». وبحسب الكاتالوغ الذي أُعد لبيع متعلقات كيركغارد في المزاد بعد وفاته فإنه كان يمتلك ثلاث مظلات: «مظلة خضراء من الحرير»، «مظلة سوداء من الحرير» زائد «مظلة صغيرة أيضاً».

كانت دائرة كيركغارد الجغرافية - حيث سادينغ في أقصى الغرب وفيبورغ في أقصى الشمال وبرلين في أقصى الشرق والجنوب على السواء - لا تتناسب على نحو غريب مع مكانته العالمية الآن ولكن بما أن الفكر وحب السفر صفتان متباينتان، لم يجد كيركغارد صعوبة في جعل كوبنهاغن عالمـ «ـه» هو. عموماً، كانت شوارع كوبنهاغن عنده بمثابة غرفة استقبال كبيرة واحدة حيث كان دائم الحركة ويتحدث مع كل من يرغب في التحدث معه، كما كتبت هنريته لوند، وتؤيدها في ذلك هذه الفقرة البهيجة التي كتبها كيركغارد نفسه في يومياته: «أنا أعتبر كوبنهاغن كلها ملتقى اجتماعياً كبيراً واحداً. ولكني في يوم واحد أعتبر نفسي المضيف الذي يطوف متحدثاً مع جميع الضيوف الأعزاء الكُثر الذين دعوتهم، وفي يوم آخر أفترض إن رجلاً مهماً أقام الحفلة وأنا أحد الضيوف. أرتدي ملابس مختلفة وأُحيي الحاضرين بطريقة مختلفة، إلخ. كل ذلك حسب تغير الأحوال».

رغم إن هذه المعلومة الأخيرة المتعلقة باختيار ملابسه ينبغي أن تُعزا على الأرجح إلى حماسة الخيال حماسة مفرطة فإن ذكريات معاصري كيركغارد تفيض بالصور المأخوذة من الشارع. وهكذا كتب كيركغارد في عام 1844 إنه وإن كان يتحدث كل يوم مع زهاء خمسين شخصاً من كل الأعمار فإني مع ذلك أشعر بأن من واجبي أن أكون قادراً على أن أتذكر فوراً ما قاله كل شخص أتحدث معه آخر مرة تحادثنا معاً والمرة التي قبلها. وعلى الغرار نفسه فإن كل شخص يكون موضع اهتمامي - كلماته، اتجاه أفكاره - يصبح على الفور حاضراً بصورة حية لي ما أن أراه، إذا رأيته منذ زمن طويل قبل ذلك. يتعذر، بالطبع، التوثق من الدقة العددية لهذا الزعم ولكن حتى إذا استبعدنا (مرة أخرى) كل محاولة هدفها الأَسْطَرة لتحسين صورة الواقع، فإن كيركغارد، فيلسوف الشارع، يبقى حقيقة تاريخية. وقدم لنا فريدريك نيسلن، وهو قس من فونين، هذا الوصف المنعش لصاحب الأسماء المستعارة الشهير: كانت الفترة لم تزل فترة الأسماء المستعارة رغم إن الجميع كانوا يعرفون مَنْ هو الكاتب، والرجل النحيف الضئيل الذي يمكن أن تصادفه لحظة في أوستربورت واللحظة التالية على الطرف المقابل تماماً من المدينة، يتجول متسكعاً في الظاهر، كان معروفاً للجميع.

لا يبدو أنّ هناك نهاية لعدد الأشخاص الذين مشوا يتنزهون مع مواطنهم الذي أصاب شهرة واسعة فيما بعد. بل إن بيتر كريستيان تسالا Peter Christain Zahle يؤكد لنا إن غالبية وجهاء كوبنهاغن مشوا ذراعاً بذراع مع الماجستير: رجال دولة، ممثلون، فلاسفة، شعراء، شيوخ، شباب - باختصار أشخاص من كل صنف - يستطيعون الافتخار بأنهم كانوا يعرفون سورين كيركغارد. وكان أحد هذه الشخصيات المرموقة مصمم الرقصات المسرحية أوغست بورنونفيل August Bournonville الذي روى إنه كان من دواعي سروري في أحيان كثيرة أن أمشي معه وأنعش نفسي من ينبوع ظرافته وفطنته الذي لا ينضب. ولم يتسن لبورنونفيل قط أن يقرأ عن مفهوم المفارقة ولكن خلال نزهاتهما معاً عرف شيئاً مما فاته: علمتُ هذا القدر: إن المفارقة ليست رديف السخرية أو التهكم أو المرارة بل على العكس من ذلك هي عنصر مهم في وجودنا الروحي. والحق إن بورنونفيل يعتقد الآن إنه يفهم إن المفارقة هي الابتسامة من خلال الدموع، التي تمنعنا من ذرف الدموع. كما كان كيركغارد يخرج في نزهات مشي طويلة مع الممثل كريستيان روزينكيلدة الذي تتذكر ابنته جولي الآن إن الشخصيتين

المتناشزتين - والدي بمعطفه الكبير وكيركغارد يعرج بسرواله القصير ويهز عصاه الصغيرة - انغمرتا في شغفهما بالتجريب: توجّه والدي إلى امرأة فقيرة وأعطاها ورقة من فئة خمسة ريكسدولارات وفرح مع كيركغارد باندهاشها، وذات مرة عثرا على قطعة نقدية ذات ريكسدولارين وأعطياها إلى وغد قائلَين هل تتكرم بتسليمها إذا صادف مرورك بمركز شرطة.

ليس كل مَنْ مشى معه كيركغارد في نزهة مشي ترك سجلاً مكتوباً عنها. وأحد الأعضاء البارزين في هذه المجموعة الصامتة الشاعر والطبيب والخبير في شؤون الحب أميل آرستروب Emil Aarestrup الذي كان محل سكنه في نيستيد في جزيرة لولاند لكنه كان يحب المجيء إلى كوبنهاغن، ويخرج في نزهات مشي على الأقدام، من بين أشياء أخرى. ولا يُعرف كيف تعرف الرجلان على أحدهما الآخر - كيركغارد لا يكتب كلمة واحدة عن آرستروب - ولكن علاقتهما تعود على أقل تقدير إلى منتصف أربعينات القرن التاسع عشر، حين طلب آرستروب من أحد أصدقائه أن ينقل تحياته إلى غروندتفيغ وكيركغارد إذا التقاهما ولا يكون لديه شيء أفضل يقوله. وفي وقت ما من عام 1848 سافر آرستروب إلى أهله في نيستيد وكان منتشياً بفضل قبلات نالها من سيدتين والمشية الطويلة مع سورين كيركغارد. وفي عام 1852 حين كان آرستروب يخطط لزيارة العاصمة وعد القس أندريس كروف بأنه سينقل بكل تأكيد تحياته إلى كيركغارد حين يلتقي الماجستير في اليوم الأخير، كما هي عادتي. وكان آرستروب المدوَّر وكيركغارد النحيف كالخط المستقيم يبدوان في نزهات مشيهما معاً وكأنهما رقم 10 متنقل ولكن الرجلين المختلفين جداً، الحساسين حساسية مفرطة والمتشنجين والمتوحدين توحداً لا هوادة فيه، كانا بكل تأكيد يتمتعان بصحبة أحدهما الآخر. ويتحدث آرستروب عن كيركغارد بوصفه من كتابه المفضلين، ومثل كيركغارد سئم آرستروب حقاً من لا نهاية سُكَّر الحلواني العاطفي عند هانز أندرسن. ولا بد أن يكون كيركغارد انجذب قطعاً بشهوة رجل النهضة آرستروب النهمة للحياة ومشاركته الجريئة في حياة المدينة. وبحسب الشاعر كريستيان فينتر، بعد وفاة بول مارتن مولر، فإن آرستروب كان أفضل شخص يستطيع المرء أن يناقش قضايا الجمال معه.

في مكان من كتاب كيركغارد عن مفهوم المفارقة وصف سقراط بأنه فنان اللقاء العابر في شوارع أثينا وأزقتها حيث كان دائماً يتحدث بسهولة

متساوية مع دبّاغي الجلود والبحارة والسفسطائيين ورجال الدولة والشعراء، مع الشباب والكبار، يتحدث معهم بلسان فصيح واحد عن كل شيء. وكتب كيركغارد في فقرة من يومياته أوائل 1850 التعليق الاسترجاعي الآتي: لتحمُّل أعباء فكرية مثل أعبائي، كنتُ بحاجة إلى لهو اللقاءات العابرة في الشوارع والأزقة. ورغم كل اختلافاتهما الجسدية فإن التشابه بين المشّاءين كان تشابهاً لا تخطئه العين - كان كيركغارد سقراطاً كوبنهاغنياً وكان سقراط كيركغارد أثينياً - ولكن فنه في اللقاءات العابرة لم يكن مدفوعاً فلسفياً أو نفسياً فحسب بل كان نابعاً من حاجة أساسية للاحتكاك، التواصلي والجسدي. وكان كيركغارد بكل بساطة يحتاج إلى حمّامه اليومي من الناس، كما كان يقول. وبحسب فيلهلم بيركيدال Vilhelm Birkedal، كانت عادته مع الجميع أن يأخذ مَنْ يمشي معه من ذراعه، مضفياً على مشيتهما حميمية لاحظها كثيرون من مجايليه، ولا شك في أن هذا يساعد على تبديد صورة كيركغارد في أذهان أجيال لاحقة التي كان وفقاً لها شخصاً انطوائياً على الدوام، يرتعب من الاحتكاك الجسدي.

فسر آخرون الحميمية التي كان كيركغارد يمنحها بذراعه على أنها مجرد مناورة تكتيكية. وهكذا كتب بيركيدال أنه شعر إنّ كيركغارد كان لا يريد سوى أن يجرب معي نفسياً. ولم يخفتْ هذا الشك حين سمع بيركيدال ما حدث لرجل وقف على سياج بجوار دائرة الجمارك ينظر إلى الماء تحته. وكان كيركغارد واقفاً هناك أيضاً، حيث اقترب منه شيئاً فشيئاً وهو يظن إن الرجل يعتزم القفز في الماء والانتحار غرقاً. أراد عالم النفس التجريبي أن يقرأ وجه الرجل ليرى كيف تعبر فكرة الانتحار عن نفسها هناك - أن يرى كيف يبدو الشخص في لحظة حاسمة كهذه. وإذ لاحظ ذلك الغريب الذي لم يفكر قط في الإقدام على عمل كهذا، سئم من كونه هدف تلك النظرة الاستقصائية واستدار فجأة ليقول مستر ماجستير! ماذا كنتَ تعني حين كتبتَ أن الإصابة بمسامير في القدم نعمة؟ أجاب كيركغارد سأقول لك وأخذ الرجل من ذراعه ليمشي معه في شوارع المدينة يحاضر ويومئ بيديه. وكانت مسألة مسامير القدم بحاجة إلى إيضاح. ففي لازمة من الديابسلماتا الواردة في «إما/ أو» كتب كيركغارد أن يكون المرء كائناً بشرياً كاملاً هو حقاً أرقى شيء. والآن اكتسبتُ مسامير في القدم، وهذا دائماً أمر له شأنه - ليعلن بذلك على نحو

مضحك بعض الشيء إن مفهوم الكمال منظوراً إليه من الزاوية المنطقية، يعني ضمناً إن المرء يجب أن يمتلك كل شيء، بما في ذلك مسامير في قدميه.

هانز بروشنر أيضاً كان كثيراً ما يخرج للمشي ذراعاً بذراع مع كيركغارد وكان بمقدوره أن يروي كيف كان الكوبنهاغني المتيقظ يُجري دراساته النفسية: ابتسامته ونظرته كانتا معبرتين بشكل لا يُوصف. كانت لديه طريقته الخاصة في التحية عن بُعد بنظرة خاطفة فقط. كانت حركة صغيرة في العين فقط، ولكنها كانت تعبر عن الكثير. من الجائز أن يكون هناك شيء بمنتهى الرقة والحنان في عينه، ولكنه أيضاً شيء منشِّط ومثير للحنق. بلمحة واحدة إلى عابر سبيل يستطيع أن يقيم تقارباً معه على نحو لا يُقاوم، كما كان يعبر عنه. وكان الشخص الذي يتلقى هذه النظرة يصبح منجذباً أو منفوراً، محرجاً، غير متيقن أو ساخطاً. مشيتُ الشارع بطوله معه فيما كان هو يشرح كيف يمكن إجراء دراسات نفسية بإقامة مثل هذا التقارب مع أحد المارة. وفيما كان يتوسع في نظريته كان يطبقها في الممارسة مع كل مَنْ يلتقيه تقريباً. وما من أحد لم تترك نظرته أثراً مرئياً فيه. وفي المناسبة نفسها فاجأني بالسهولة التي كان يفتح بها أحاديث مع كثير من الناس. فهو ببضع تعليقات كان يلتقط الخيط من حديث سابق ويمضي به خطوة أبعد إلى نقطة يمكن عندها مواصلته في فرصة أخرى.

استجوابات كيركغارد النفسية وتجريبه المتواصل لم تكن المصادر الوحيدة للإيقاع الغريب في نزهات مشيه بل إن مشيته المتقلبة والشبيهة بمشية السلطعون يمكن أن تقوم بدور أيضاً. واستذكَر بروشنر قائلاً: بسبب عدم انتظام حركاته الذي لا بد إنه كان يرتبط باعوجاج جسمه، لم يكن من الممكن قط البقاء في خط مستقيم أثناء المشي معه بل كان المرء دائماً يُدفع، بالتعاقب، إما نحو الداخل باتجاه البيوت وسلالم الأقبية أو نحو الخارج صوب المجاري. وبالإضافة إلى ذلك فإنه حين يومئ بذراعيه وعصاه الخيزرانية، كان الطريق يصبح أقرب إلى مضمار من الموانع. وبين حين وآخر كان من الضروري اغتنام الفرصة للانتقال من حوله إلى الجانب الآخر لاكتساب مجال كاف. كان هذا عقلاً يخرج يتمشى، عقلاً ديالكتيكياً، ومن هنا التعرجات التي لا تنتهي على الرصيف. وربما كانت تحدث أيضاً حركة مائلة مفاجئة صوب الجانب الآخر من الشارع، الجانب الظليل، لأن ضوء الشمس الساطع كان يزعج العبقري. وهكذا يلاحظ ليفن في قائمته الطويلة لخصوصيات كيركغارد المميزة: بما إنه

كان يتجنب الشمس، كان دائماً يمشي في الظل، وتماماً مثل سكان الكهوف، كان من المستحيل جعله يمشي في بقعة مشمسة. واختصم مع القس سبانغ لأنه [كيركغارد] أراد أن يعود أدراجه حين سقطت حزمة من أشعة الشمس على الطريق - وفعل ذلك قائلاً لكني لا أُريد إزعاج أحد. اذهب أنتَ وافعل ما تشاء.

في كوبنهاغن أصبح المشي أو التجوال أو التنزه أو مجرد التسكع موضة وانتشر انتشاراً واسعاً بحيث كان من الضروري فرض ضوابط نظامية على حركة السابلة وإعلان أوامر قانونية تحدِّد المشاة الذين لهم أفضلية المرور على الرصيف. (بموجب أمر الشرطة لعام 1810 فإن الماشي الذي تكون المجاري على يمينه يكون له حق المرور). وكان كيركغارد يمشي ويمشي، متخطياً في بعض الأحيان كل الحدود. وكتب في عام 1847 إلى هنريته كيركغارد: مهما يكن، لا تفقدي متعة المشي. أنا أمشي إلى الصحة وبعيداً عن كل مرض يومياً. وجدتُ طريقي إلى أفضل أفكاري مشياً، ولا أعرف فكرة ثقيلة الوطأة واحدة لا يستطيع المرء أن يمشي مبتعداً عنها... وإذا استمر شخص ما في المشي هكذا فإن الأمور ستكون على ما يُرام بكل تأكيد. ربما كانت على ما يُرام ولكن كيركغارد في عجالته نسي إن زوجة أخيه كانت طريحة الفراش فترات طويلة ولذلك من الجائز أن تلاقي صعوبة في اتباع نصيحته المخلصة. وكانت هناك مناسبات أخرى أيضاً سارت الأمور فيها متسارعة. فإن جولي تومسن التي ترملت في عام 1845 ومعها خمسة أطفال صغار، تلقت هذه الرسالة منه في عام 1848: عزيزتي جولي! للأسف، من الواضح تماماً إننا عاملنا ابنكِ الصغير معاملة ظالمة اليوم، فنحن الذين كنا نمشي بسرعة كبيرة، ونحن - أو أنا - نتحمل المسؤولية حين انفجر باكياً، الأمر الذي كان من حقه تماماً أن يفعله، من وجهة نظر طفل. ولهذا السبب أكتب هذه الرسالة وأرسل الطرد المرفق بها. وتمضي الرسالة لإدراج سرد حي يروي من جديد إحدى حكايات غريمس Grimms الخيالية، في حين إن الطرد الصغير المرفق بالرسالة يُراد به أن يكون نوعاً من التعويض: لذا أرجو أن تنقلي تحياتي إلى الطفل الصغير وأن تعطيه صندوق اللُعب المرفق من الرجل الغريب الذي مشى بسرعة كبيرة بجانبه اليوم. التوقيع المخلص بالكامل/ ابن العم أس. كي.

لم يكن كيركغارد يبالغ بالقول إنه وصل إلى أفضل أفكاره مشياً لأن ما كتبه كان يكتبه currente calamo أي بالسرعة التي يستطيع القلم أن يتحرك بها، الأمر

الذي لم يكن ممكناً، كما أوضح كيركغارد، إلا لأنه وضع كل شيء في صيغته النهائية أثناء المشي. لذلك كانت مشياته معدَّلة بدقة لمواكبة حجم أفكاره، وما تسبب في ذهول إف. إيل. ليبنبيرغ F. L. Liebenberg بصورة مسموعة إن كيركغارد كان يستطيع أن يقطع حديثهما فجأة، في منتصف الجملة تقريباً، بالكلمات: الآن يجب أن أذهب إلى البيت وأكتب... فأنا أعمل خلال ساعات محدَّدة كل يوم. وسأل ليبنبيرغ مصعوقاً ولكن هل تستطيع أن تكون مستعداً على الدوام في ساعة معينة؟ وهنا أجاب كيركغارد إذا لم أكن مستعداً حين أجلس فإنها ستأتيني في وقت قريب تماماً بعد ذلك رفع كيركغارد قبعته متمنياً لليبنبيرغ يوماً سعيداً، وذهب إلى البيت حيث لم يكن من غير المعهود، بحسب أي. أف. شيودتة A. F. Schiodte، أن يتوجه وهو بالكاد في الباب إلى منضدة الكتابة مباشرة حيث سيقف زمناً طويلاً بقبعته أو عصاه أو مظلته، ويكتب.

حين كان كيركغارد في البيت كان الوصول إليه صعباً بقدر ما كان هو منفتحاً خارج البيت. ويروي تيخو سبانغ إن كيركغارد كان يعيش في شقة أنيقة كبيرة ذات سلسلة من الغرف المؤثثة تُدفأ وتُضاء في الشتاء وكان يمارس فيها الكثير من المشي جيئةً وذهاباً. وبقدر ما أستطيع استذكاره، كانت هناك في كل غرفة دواة وقلم وورق، يستخدمها خلال تجواله لتثبيت فكرة ببضع كلمات أو رمز. ويواصل سبانغ: كان يلاقي صعوبة في تحمُّل الزوار، وكان على خادمه أن ينكر وجوده في البيت للجميع باستثناء القليل جداً من الأفراد. وأرادت الكاتبة والنسوية النرويجية كاميلا كوليت Camilla Collett أن تزور شخصيات كوبنهاغن الأدبية الكبيرة لكنها لاقت صدوداً من كريستيان فينتر وهانز كريستيان أندرسن. وعندما حاولت أن تزور كيركغارد في منزله ذات يوم اضطر خادمه إلى أن يخيب أملها بإبلاغها أن الماجستير ليس في البيت. وحين نزلت إلى الشارع ألقت نظرة على الشقة بخيبة أمل ورأت كيركغارد واقفاً عند النافذة. التقت نظراتهما، وفي دهشتهما المشتركة أومأ كل منهما للآخر إيماءة قصيرة وبصورة عفوية تماماً. وعاش أوتو زينك Otto Zinck خبرة مغايرة لكنها لا تقل غرابة حين مر بشقة كيركغارد المضيئة إضاءة باذخة في نورغراده ذات مساء وقرر التوقف لحظة. كان كيركغارد يرتدي ملابس وكأنه ذاهب إلى مأدبة عشاء فبدأ زينك يهم بالمغادرة ولكن طُلب منه أن يبقى ويدردش بعض الوقت: حين سألتُه إن كان يتوقع آخرين أجاب «كلا، ليس

عندي حفلات أبداً ولذلك أمشي جيئةً وذهاباً في الغرف محتفياً بضيوفي ذهنياً». وجدتُ هذا التفسير غريباً بعض الشيء ولكني تحملتُ ساعة معه. كان في غاية اللطف وفي بعض الأحيان مسلياً إلى حد الانفلات. وأن يُحتمل شخص كان في غاية اللطف وفي بعض الأحيان مسلياً إلى حد الانفلات فإن هذا قد يبدو قول الشيء ونقيضه ولكنه على الأرجح وصف أمثل للّاتناظر المرهِق الذي يقترن بكون المرء في حضرة كيركغارد. وكان أوتو زينك نفسه ممثلاً ولكنه هنا لاقى نداً له على ما يبدو.

ولكن كما يتضح من ملحق لم يُستخدم في عمل كيركغارد عن سيرة حياته وجهة نظر لصالح عملي كاتباً، فإن طريقة عمله المنضبطة في البيت كانت لها مواطن ضعفها الفريدة أيضاً: إذا استدرتُ، بعد المشي، عندما أتأمل وأجمع أفكاراً، للعودة إلى البيت، وكل كلمة جاهزة للكتابة، أكون غارقاً في الأفكار وبمعنى ما أكون ضعيفاً حتى إني بالكاد أستطيع المشي... إذا خاطبني حينذاك مسكين في الطريق وفي غمرة تحمسي لأفكاري لن يكون عندي وقت للتحدث معه. وقتذاك حين أصل إلى البيت يكون كما لو إن كل شيء اختفى، وتغمرني أشد التأنيبات الروحية رهبة من التفكير في أن ما فعلته لذلك الشخص يمكن أن يفعله الله بي أنا. وإذا، من الجهة الأخرى، اقتطعتُ من الوقت للتحدث مع الشخص المسكين واستمعتُ إليه فإن هذا لن يحدث معي قط، وكل شيء يكون جاهزاً عندما أصل إلى البيت.

الاهتمام بالفقراء هنا مفعم بالعطف حتى إن قدراً من التناشز أمر لا مفر منه، ولكن اهتمام كيركغارد بالإنسان البسيط من العوام اهتمام استثنائي وغير متصنع، ويشهد على سعة ممارسته للمسيحية ونطاقها. وفي فقرة من اليوميات عام 1849 حين أصبحت علاقته بالمدينة وبال علاقة آخرين مشوهة بدرجة خطيرة من أوجه عديدة أوضح مرامه بكل تواضع: كنتُ أريد العيش مع الإنسان البسيط. كان من دواعي ارتياحي إلى حد لا يُوصف أن أكون ودوداً ورحيماً ومهتماً ومتعاطفاً مع تلك الطبقة الاجتماعية تحديداً التي تعاني من شدة الإهمال فيما يُسمى الدولة المسيحية. وما كان بمقدوري تحقيقه ضئيل من نواحي عديدة ولكنه مع ذلك يمكن أن يكون على شيء من الأهمية لهذا الصنف من الناس. دعوني أسوق مثالاً، ولدي عشرات من الأمثلة. فإن امرأة تبدو كبيرة في السن من أماغر تجلس تحت الطوق في السوق لبيع الفاكهة.

لديها أُم عجوز كنتُ أُساعدها أحياناً بالشيء القليل. وعندما أُحييها لا أفعل شيئاً في الحقيقة. ومع ذلك كان ذلك يسعدها، كان يشرح صدرها، أن يمر كل صباح شخص قد تعتبره محظوظاً في الحياة، ولا ينسى أبداً أن يقول صباح الخير، وأحياناً أن يتبادل بضع كلمات أيضاً معها... كم هو مشجع من نواحي عديدة لطبقة الناس الذين، خلاف ذلك، يجب أن يقفوا وينتظروا على الأبواب، ونادراً ما يسمح لهم أن يقولوا كلمة واحدة - كم هو مشجع أن يكون هناك شخص دائماً يرونه في الشارع، شخص يستطيعون الاقتراب منه والحديث معه بحرية.

أشخاص وراء أسوار المدينة يمكن أن يفيدوا أيضاً من حضور كيركغارد غير المتصنع. وهكذا يتذكر إتش. سي. روستيد H. C. Rosted كيف أن حامل الماجستير كان لعدد من السنين ضيفاً كثير التردد على فندق عربة البريد في هورسهولم في زيلاند الشمالية حيث كانت عربته تأتي مكتسحة طريق الدخول ليستطيع أن يمضي اليوم في الأجواء الرومانسية المحيطة: كثيراً ما كان يقف في زريبة الأبقار ويدردش مع الراعي، وأحياناً يمكن أن تراه على قارعة الطريق مع كسَّار حجر عجوز. وكان كثير الحديث بصفة خاصة مع كسَّار الحجر، وعندما يلتقي هذا الأخير أشخاصاً من الفندق كان دائماً يسأل متى يأتي الماجستير؟ - وكان يحب أن يضيف إن الحديث يحلو مع رجل دمث مثل الماجستير.

كان الجو المنفتح والأنيس في فندق عربة البريد يُعزا بصفة خاصة إلى سيدة الدار، مس راينهارد المسؤولة عن خدمة تقديم الوجبات واسمها الأول الرائع ريجينة! وقيل إنها كانت تنظر بإعجاب استثنائي إلى كيركغارد، وفي الحقيقة إن العائلة كانت أحياناً تمازحها واصفة كيركغارد بأنه شُعلتُها. ولعل هذه المشاعر كانت متبادلة إلى حد ما لأن ريجينة الثانية هذه، كان كيركغارد دائماً يجلب لها نسخة من الكتابات التي ينشرها. وبخلاف ريجينة الأولى فإن ريجينة الثانية نشأت على الأساس الديني المطلوب. وذات مرة في عام 1855 حين ضبطها أحد أفراد العائلة الأصغر سناً وهي جالسة تقرأ عدداً من صحيفة اللحظة وسألها إن كانت حقاً تفهم ما تقرؤه، أجابت بغضب: هل أفهمه؟ نعم، صدِّق إني أفهم كل كلمة. وكانت ريجينة تعرف أيضاً كيف تطهي شريحة لحم العجل بحيث يكون مذاقها سماوياً وتتذكر أن تقدم النوع الصحيح من نبيذ الراين - Liebfraumilch ليبفراوميلش (الذي كان كيركغارد يحبه بسبب اسمه

بصفة خاصة). وأخيراً كانت تعرف أن عليها أن تقدم دزينة الخوخ المجفف المغلي الذي تحتاجه معدة الضيف اللامع، الخاملة.

أو ليست هذه ريجينة حقيقية

نعم، طبعاً أنا أرستوقراطي...

المدينة استعارة لعمل كيركغارد كاتباً – متغيرة ومقلِقة – ويمكن في لمح البصر الانتقال من الميادين المليئة بالأضواء، المشطوفة بأناقة، ذات الطراز الكلاسيكي الجديد إلى تناشز الأزقة المظلمة. وهكذا عندما كان كيركغارد يتجول في شوارع كوبنهاغن، كان تبختره يرتبط بكتابته، وكان في كل مكان ولا مكان، يمشي هنا وهناك يتحادث بحميمية مع الجميع، لكنه في الآن نفسه بعيد وغريب. أو بحسب تعبير غيورغ براندیز Georg Brandes الدقيق والمتناقض، فإنه الرجل المنغلق على نفسه، الذي يعرفه الجميع.

مارتنسن لم يستوعب ذلك وشعر بالإساءة. وهايبرغ وقف مستغرباً إزاءه، وأدار نظره في الاتجاه الآخر. ولكن بنظر كيركغارد فإن الجسد بكل تمايله المتقلب، كان نقطة تواصل حيوية. وظهر الرجل من وراء أعماله متنازلاً بذلك عن أي ادعاء بالمرجعية كان الناس سيمنحونها له بصورة غير واعية لو لم يكن يُرِي نفسه في الشارع: كاتب متعلم أساساً على يد سقراط واليونانيين، يهضم المفارقة ويبدأ مشروعاً ضخماً بوصفه كاتباً – معارض على وجه التحديد تماماً لأن يصبح مرجِعاً، ولهذه الغاية يرى، مُصيباً، إنه بالمشي المستمر في الشوارع يجب بالضرورة أن يُضعف الانطباع الذي يتركه.

نبذ القوة هذا ارتبط بنمط التواصل غير المباشر الذي أُنتجت فيه الأعمال، وكان كيركغارد يزعم إنه ملتزم أيديولوجياً بهذا العجز بادئاً في وقت مبكر، منذ صدور «إما/ أو». وقبل عامين من وفاته، حين قام بجردة لإنجازاته، أعرب عن شكره بصفة خاصة إلى جميع مروجي الأقاويل المفيدين الذين لولاهم ما كانت مناوراته الزاخرة بالدسائس لتنجح على الإطلاق: لو أردتُ الحديث عن ذلك لأمكن تأليف كتاب كامل عما كنتُ عليه من إبداع لخداع الناس بشأن وجودي. وحين كنتُ أُصحح كتاب «إما/ أو» وأكتب الخطابات التثقيفية، لم يكن عندي وقت عملياً للمشي في الشارع. وخلال تلك الفترة استخدمتُ طريقة أخرى.

ففي كل مساء، بعد مغادرتي البيت مرهقاً والأكل في مطعم ميني، كنتُ أمضي عشر دقائق في المسرح - وليس دقيقة واحدة أكثر من ذلك. وبما إني كنتُ معروفاً للجميع، افترضتُ أن يكون هناك بكل تأكيد ما يكفي من مروجي الأقاويل في المسرح الذين سيقولون عند ذاك إنه في المسرح كل مساء، ولا يفعل شيئاً آخر سوى ذلك. أوه، يا مروجي الأقاويل الأحبة، كم أشكركم. لولاكم لما كان بمقدوري قط أن أنجز ما أردتُ إنجازه... لذا كان هناك توافق مبارك في روحي بشأن استخدام هذه الوسيلة لإضعاف الانطباع الذي تكوَّن عند الناس عني أنا. ولكن أي أنا منهم بالمناسبة؟

بمرور السنين، ما بدأ نزهة متحررة من كل هم خارج نوريبورت بأربعة شلنات في جيبه وعصا مشي نحيفة بيده، أصبح فعلاً تعبيرياً عارض به كيركغارد الابتعاد المتعالي عن العالم الملموس والبسيط الذي لاحظه بين مثقفي يومه: «نعم، طبعاً أنا أرستوقراطي (وكذلك كل من يعي إرادة الخير وعياً حقيقياً لأن هؤلاء دائماً قلة من حيث العدد)، ولكني أُريد أن أقف في الشارع مباشرة، وسط الناس، حيث الخطر والمعارضة. لا أُريد (على غرار مارتنسن وهايبرغ، إلخ) أن أعيش بجبن وتزمت في برج أرستوقراطي، داخل حلقات مختارة يحميها وهم (بأن الجماهير قلما تراهم وبالتالي تتخيل أنهم أحد ما معتبَر)».

اختار كيركغارد أمثولتين له سقراط والمسيح، اللذين كلاهما انسحبا من المؤسسات التقليدية ونزلا إلى الشوارع. فإن سقراط كافح ضد السفسطائيين، والمسيح استهدف الفريسيين - وكيركغارد كان عنده مارتنسن وهايبرغ اللذان اندمجت فيهما السفسطة والفريسية بمقادير متساوية في صفاء نيِّق. ولا يُنكَر إن قدراً من توكيد الذات تسرب تدريجياً إلى هذه البادرة بتشديد كيركغارد على نكران الذات في ممارسته المشّاءة، وناشطيّته الجوَّالة، لكنه بقي وفياً لمبدئه حتى النهاية: بالمعنى الحرفي تماماً، أن يجعل المرء الحياة اليومية الاعتيادية مسرحه، أن يخرج ويعلّم في الشوارع.

وهذا على وجه التحديد ما كان يشكل راديكاليته الأرستوقراطية.

أعتقد أن غروندتفيغ هراء

في سن السابعة والثلاثين عُين بيتر كريستيان قس الأبرشية لكل من بيدرسبورغ وكندرتوفتة قرب سورو في جنوب وسط زيلاند. وبعد شهرين، في

11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1842 جرت رَسامَتُه على يد الأسقف مينستر في كنيسة سيدتنا. وبذا عُين أخيراً هذا الدكتور باللاهوت - الموهوب على نحو فذ لكنه من وجهة نظر الأسقف صعب التعامل معه - في مكان مناسب بعيداً عن دوائر كوبنهاغن.

ولكن ما كاد بيتر كريستيان وهنريته وطفلهما بول يستقرون في محيطهم الجديد بهذا القدر أو ذاك، حتى أصدرت الحكومة إعلاناً عن الطائفة المعمدانية في الدنمارك بتاريخ 27 كانون الأول/ ديسمبر 1842 أُجبر فيه قساوسة كنيسة الدولة على إقامة طقوس تعميد إلزامية للأطفال من أبوين معمدانيين. وكانت المعمودية القسرية على هذا النحو تتعارض تعارضاً كلياً مع مبادئ بيتر كريستيان اللاهوتية ولذلك فإنه بعد فترة وجيزة، حين جاءه مالك مزرعة يحمل طفلاً في الشهر العاشر من والدين معمدانيين وطالب بتعميده وفق الإعلان، اضطُر بيتر كريستيان إلى أن يرفض أداء الواجبات التي يمليها عليه مركزه. وكان متفقاً في ذلك اتفاقاً كاملاً مع غروندتفيغ الذي نشر كراساً صغيراً بعنوان عن الاضطهاد الديني نأى فيه بنفسه بكل قوة عن أي تدخل حكومي في الشؤون الدينية. وبنظر غروندتفيغ، فلا مراء في إن كنيسة الدولة إنما تعهِّر معموديتها بإقحامها على المعمدانيين وبذلك إعطاؤهم موافقة صريحة على إزالتها بالغسل متى ما يحلو لهم. وهكذا تعيَّن على بيتر كريستيان أن يتمسك برفضه لكي يفهم مينستر ومسؤولوه إنهم حين يريدون المضي قدماً بهذا النوع من التعميد الإلزامي فإن قس بيدرسبورغ ليس هو الذي يجورون عليه بأي حال من الأحوال بل إنهم يتحدَّون سيدنا المسيح وتاريخ الكنيسة، والعقل السليم.

الأسقف مينستر بوصفه ممثل كنيسة الدولة، لم يكن قادراً على قبول قرار بيتر كريستيان وما كان ليقبله، ولذلك طلب الأسقف منه أن يعيد النظر بالموقف بعناية. ولكن بيتر كريستيان لم يجد من الحكمة أن يتصرف على الضد من ضميره، فتعين على مينستر أن يجد قساً آخر لتعميد الطفل. ولكن المبدأ قيد الخلاف أصبح الآن مبدأ بالغ الأهمية، وبعد عدد من الوقائع المروعة خطفت فيها نساء أطفالهن المعمدين الصغار حين كانت كنيسة الدولة أعدت طقوسها كاملة، تلقى بيتر كريستيان إنذاراً نهائياً من الحكومة في 16 شباط/ فبراير 1845 بما معناه إنه إذا لم يبدأ بإجراء مراسم التعميد الإلزامية في غضون أربعة عشر يوماً، سيُعزل على الفور.

قبل أيام قليلة من وصول هذه الكلمات التهديدية إلى بيتر كريستيان تناهت شائعات إلى سمع شقيقه الأصغر في المدينة، وفي 10 شباط/ فبراير بعث برسالة في عدة صفحات تململ فيها ديالكتيكياً بين ولائه لمينستر من حيث المبدأ وتعاطفه الشخصي مع بيتر كريستيان: أنا أُؤيدكما على السواء، كعهدي دائماً، ويمكن أن يتمنى المرء لو لم تصطدما قط مع أحدكما الآخر. وكان بيتر كريستيان حائراً بعض الشيء على نحو مفهوم تماماً، وفي رسالة أخرى طلب مزيداً من التوضيح. وأحرق سورين كيركغارد هذه الرسالة بعد وقت قصير على تسلمها، ولكننا نعلم من رده إن بيتر كريستيان ينبغي، برأيه، أن يثبت على موقفه لأن الأسقف في النهاية لن ينتصر. الأسقف حقاً لم ينتصر واضطر إلى الموافقة على أنظمة أكثر تساهلاً بشأن القضية.

كان الوضع مؤلماً تماماً للشقيقين لأنه رغم إن الدم أثخن من الماء فإن بيتر كريستيان كان من أنصار غروندتفيغ، وسورين كيركغارد كان يتخذ موقفاً معاكساً بهذا القدر أو ذاك. فهو من أتباع مينستر لأن منيستر كان قس والده. وبالفعل، في 9 شباط/ فبراير 1845 – أي قبل يوم على رسالته الديالكتيكية إلى بيتر كريستيان – سمع مينستر يلقي موعظة في كنيسة القصر وإنه وجدها موعظة ممتازة. لذلك ذهب إلى البيت واشتغل على مخطوطة عمله حاشية ختامية غير علمية، الذي يلقى فيه غروندتفيغ معاملة ساخرة إلى أقصى الحدود استندت إلى (وتوسعت في) العديد من التعليقات والأفكار اللاذعة التي تراكمت في اليوميات منذ سنوات.

من زاوية التاريخ الفكري فإن اللافت إن الرجلين اللذين لهما معاً أهمية قصوى للاهوت الدنماركي الحديث والحياة الكنسية – كيركغارد وغروندتفيغ – كانت عندهما، فردياً، آراء مختلفة عن بعضها البعض في كل قضية بقدر ما كان الاختلاف ممكناً بين البشر. وبالطبع فإن هناك تماثلات معروفة. فكلاهما كانا ينتقدان العقلانية اللاهوتية والفلسفة التأملية لهذا الكلاسيكي الألماني أو ذاك، وكلاهما كانت لديهما آراء متقدمة بالنسبة لزمنهما، يفهمان إن الحقيقة دائماً حوارية وليست تجريداً مونولوجياً خاوياً، وكلاهما كانا يعارضان خليط زمنهما المتراخي من الفضائل البورجوازية والإنسانية الروحية والحساسية الرومانسية، وكلاهما ربطا نفسهما – ولو بشكل مختلف جداً – بالإنسان البسيط، بعامة الناس، وكلاهما كان يعرفان إن

الإنسان (على حد تعبير غروندتفيغ) ليس نقانق وُهِبت عقلاً بل (على حد تعبير كيركغارد) عاطفة متقدة، وكلاهما أصبحا على علاقة متوترة بصورة متزايدة مع كنيسة الدولة وممثليها من زمر كوبنهاغن، ولا سيّما مينستر ورهطه. ولكن هناك تنتهي أوجه الشبه، والباقي دهشة وامتعاض وسخرية.

السخرية من غروندتفيغ لم تكن من اختراع كيركغارد بل كانت هواية شائعة بين أذكياء ذلك الزمن. وكان هايبرغ نشر في وقت مبكر يعود إلى سنة 1817 عملاً بعنوان كتاب ألف باء جديد: ساعة من التعليم لتكريم غروندتفيغ الشاب وخدمته وتسليته. محاولة تربوية. وكان الكتاب شنيعاً بصورة ودية ومكتوباً ببراعة. وفي العام التالي واصل بول مارتن مولر النسج على المنوال نفسه بعمله الموسوم محاولة لكتابة رسالة من السماء بنبرة غروندتفيغ التاريخية الجديدة، التي فيها حاكى بعَظَمة إنشاء غروندتفيغ الطنان مقوِّلاً غروندتفيغ في موضع من الكتاب على نحو ذائع الصيت قررنا أنا وربنا. ولكن كيركغارد يتبوأ موقع الصدارة بلا منازع في الاختصاص بشتم غروندتفيغ، ومن المؤكد أن ظروف تعرفه على غروندتفيغ منذ أيام المدرسة الثانوية والاستمرار في إجراء محادثات معه لم تخفف من وتيرة جسارته. وهكذا قيل إن الشخصية الرعوية الهادئة الضخمة وصاحب الماجستير الرشيق المهتاج ديالكتيكاً تنزها في شارع أوسترغراده معاً، وحين وصلا إلى البوابة رفع الاثنان قبعتيهما - بل إن كيركغارد، بحسب شاهد عيان، رفع قبعته بقدر كبير من الاحترام. ولكن كيركغارد، بالإضافة إلى معرفته الشخصية، كان يحتفظ بمختارات فاخرة من أعمال غروندتفيغ في مكتبته، وهي إجمالاً عشرة كتب مأخوذة من كامل سلسلة الأجناس الكتابية لأعمال غروندتفيغ - وإن كانت لا تضم مقالاته السجالية - التي تمتد زمنياً من 1808 إلى 1850. ولم تكن قراءات كيركغارد جامعة، وكانت بكل تأكيد منحازة ومتقطعة كعادته رغم أنها لم تكن قراءات سطحية بالكامل، كما يتضح، على سبيل المثال، من المعارضة الأدبية ذات التنفيذ الأمثل التي كانت في الأصل جزءاً من مخطوطة مراحل على طريق الحياة لكنها حُذفت من النص النهائي: ليكن الموضوع كلمة الكنيسة. نعود قروناً إلى الوراء. نتلمس في ظلام القرون الوسطى. سطوة البابا تقمع الضمير بنَيْر روما الذي لا يُطاق... إلى أن أظهر مارتن لوثر، رجل الكلمة، بشكل مرئي عمق الظلام الذي كان البابويون يتخبطون فيه وربح المعركة الحاسمة على

باب الكنيسة في فيتنبيرغ حيث أسكت أصحاب الألسن السليطة ومشوهي الكلمة من أهل العلم والمعرفة. ولكن الظلام نزل بعد ذلك لثلاثة قرون حتى الاكتشاف الذي لا نظير له هنا في إسكندنافيا عندما حُررت الكلمة الحية، رغم أساتذة المدارس الألمان، وأُعطيت حقها بوصفها اللغة الأم في أجمل حقول الدنمارك ومروجها، ولن يُغلق فم الشعب ولن يُعقد لسانه بل سيتكلم الجميع بالروح الإلهية حين يصل العصر الذهبي، المستقبل الذي لا نظير له، يلمحه الرائي بعينه الصقرية ويطلق إعلانه على قيثارة الفم، عندما تتردد الكلمة الحية، كلمة الكنيسة، كلمة الله، كما في البداية، في مرج الدنمارك. وهكذا يكون، آمين، نعم، في كل الأبدية، آمين. كان بمقدور غروندتفيغ أن يكتب عمله عرض موجز لتاريخ العالم ككل، لكن كيركغارد الذي يكشف هنا عن إنشائه المكتمل وموهبته الكبيرة للتقليد، استطاع أن يفعل ذلك حتى بإيجاز أقصر. فهو لا يحتاج إلى أكثر من ثلاث جمل، ويُسرَد تاريخ العالم!

الاكتشاف الذي لا نظير له في غمرة هذا الدفق الشفهي دخل التاريخ منذ ذلك الحين بوصفه المصطلح المتعارف عليه للإدراك التاريخي الذي توصل إليه غروندتفيغ في عام 1825 حين رأى، بعد عقود من الصراع الداخلي، إن من العبث البحث عن كلمة الله للإنسان في نصوص الكتاب المقدس أساساً التي كانت دائماً مكشوفة لشتى صنوف التأويل، وإنما في الكلمة الحية، أي في عقيدة الرُسُل والصلاة الربانية اللتين مع المعمودية والتناول (الغاز الانتماء والزمالة) تشكلان الأساس الثابت للكنيسة. وطرح غروندتفيغ هذه البصيرة في سجال ضد العقلاني أتش. أنْ. كلاوسن الذي لم يجعله غروندتفيغ متحدثاً باسم أسوأ صنف من البابوية التفسيرية فحسب بل انتقده بقسوة حتى إن كلاوسن رفع عليه دعوى بتهمة التشهير، أسفرت عن فرض غرامة على غروندتفيغ قدرها مئة ريكسدولار والخضوع للرقابة المسبقة مدى الحياة على كتاباته. ولكن رغم إن رأي غروندتفيغ الكنسي كان أصلاً رأياً راديكالياً فإن بيتر كريستيان كيركغارد مضى مع ذلك خطوة أبعد وصاغ النظرية القائلة إن المسيح خلال الأربعين يوماً بين قيامته وصعوده إلى السماء، نقل على ما يُفترض عقيدة الرُسُل (الكلمة الصغيرة من فم الرب) إلى حوارييه.

لم يجد غروندتفيغ ضيراً جدياً في أن ظروفاً تاريخية عديدة تتحدث ضد اكتشافه، بل تصرخ ضده. وحين وصف كيركغارد هذا الاكتشاف بأنه اكتشاف

لا نظير له، لم يكن ذلك إلا لأنه ليس اكتشافاً لا نظير له: بدا له إنه تمتمة الكلمة الحية أو إن لم يكن ذلك فهو لخبطة غنوصية أفلاطونية جديدة. وبوقاحة خبيثة، يجعل كتاب حاشية ختامية غير علمية اكتشاف غروندتفيغ موضع تحقيق هدفه تحديد خانته - أهو جمالي، نفسي - أخلاقي، دوغماتي - الأمر الذي، كما هو متوقع، لا يفعل شيئاً لاستجلاء الموقف. ذلك إن غروندتفيغ غير ديالكتيكي ويبقى غير ديالكتيكي، ولعدم وجود ما هو أفضل اختار أن يبلغ عمق الفكر العميق... كما هو واضح، بتقطيب حاجبه، والنواح بصوته، ورفع جبهته، والنظر إلى الأمام، وعزف التون أف الواطئ في طبقة الباس الصوتية.

النقطة التي كثيراً ما تتكرر في نقد كيركغارد هي المستوى المتواضع على نحو لافت من التأمل الذاتي عند غروندتفيغ: فكرة تستحوذ عليه. يندهش، يتأثر. يريد أن يبارك البشرية جمعاء باكتشافه الذي لا نظير له. من جهة أخرى يفتقر إلى الحراك الديالكتيكي لتمحيص ما اكتشفه تأملياً، ليرى إن كان شيئاً عظيماً أو شيئاً فارغاً. وحين كانت المسألة مسألة قدرة على الارتقاء إلى الأثير الديالكتيكي، حيث تصبح القضايا متبلورة حقاً، كان ذلك كما لو إن غروندتفيغ يعتمر قبعة من رصاص، ولهذا السبب كانت نتيجة تعرُّقه المرهق تنتهي عادة إلى لا - دي، لا - دي، لا - دي، ووبس! (أي الهذر الذي لا معنى له). كما كانت انتقادات كيركغارد تتواشج مع مشاعر خصوصية تكشف عن اختلافات عميقة في المزاج. وهكذا كان ينزعج من براعة غروندتفيغ في أن يكون دائماً حيث يكون الحدث، وقلبه الغريب للتسلسل الزمني الاعتيادي: في أيام شبابه كان يمثل المسيحية القديمة، العتيقة، الموغلة في القدم، في أول زمانها البدئي، والآن في شيخوخته يتلفع بعباءة الرجل المواكب لاتجاهات العصر. وعلى الغرار نفسه يبدو أن غروندتفيغ كان صاحب مقدرة نسبية موقفياً على التلون مع كل وضع: تارة لديه الهالة القدسية الرسولية في وجهِه المشوه وتارة أخرى لا يمكن التعرف عليه في شعائته الإسكندنافية القديمة، دائماً فرد صاخب، ورع، دنيوي، إسكندنافي عجوز، مسيحي، كاهن أعلى، هولغر الدنماركي؛ تارة جذل، وتارة أخرى ينحب، دائماً متنبئ. كما وَجدتْ أشكال أخرى من السخرية طريقها إلى اليوميات حيث يوصف غروندتفيغ، وسط الكثير من الوعيد والتبشيع، بأنه مشاغب عالمي - تاريخي، حداد ينفخ، رجل صميمي نائح، محارب من الفايكنغ. باختصار، أعتقد أنّ غروندتفيغ هراء.

كما إن غروندتفيغ لم ينل علامات جيدة تماماً عن الانطباع الفني الذي تركه. فإن أسلوبه، الذي يكون مرئياً ما إن ينظر المرء إلى صفحاته، أسلوب مزعج على نحو خاص. ويشرح كيركغارد بطريقة تربوية أن الكاتب حين يمدد المسافات بين الحروف في كلمة (أو يكتبها بحروف مائلة، كما يحدث اليوم) فلكي يساعد القارئ على أن يفهم تطور الطرح أو للتشديد على كلمة منفردة ولكن فكرة تمديد المسافة فكرة نسبية على وجه التحديد. وبالنسبة لغروندتفيغ، من الجهة الأخرى، فإن كل شيء مطلق، وهو يمدد المسافات بصورة مطلقة بحيث يصل الأمر إلى حد إن الكلمات التي لم تُمدَّد المسافات بينها تكون هي الكلمات المتميزة. ولا تتحسن الأمور عندما يحاول المرء أن يفهم ما كتبه غروندتفيغ في الحقيقة: إن أسلوبه، وخاصة في مقالات الأخيرة، لا يتضمن أحياناً إشارة مثيرة إلى الميثولوجيا الإسكندنافية؛ كلا، بل أصبحت لغواً يظهر فيه جن وعفاريت [طاحونة دالبي Mill of Dalby] طاحونة تاريخية قرب بلدة دالبي والخزين المستهلَك للغة شعرية بالية، والله يعلم ماذا بعد. وعليك أن تقرأه ومعك قاموس أو تكون مستعداً للعجز عن فهمه، لأنه يطَّعم أسلوبه بهذا الأثاث مثلما يطَّعم الربابنة كلامهم بمصطلحات بحرية. أو، تكراراً لعدم الذوق في شكل الاستفهام المختصر: أوه، آي – أوي، أوهه! لا تُضاهى! هوو هاي! انظروا! انظروا! موسى! موسى!

رغم إن موقف كيركغارد الساخر من صميمية غروندتفيغ أصبح لا يرحم بصورة متزايدة بمرور السنين فإن من الواضح إنه كان يكن احتراماً للعِلم الأسطوري الذي كان يتحلى به هذا العملاق الإسكندنافي، وثقل شخصيته، وطاقته الجبارة التي لا تكل. فإن غروندتفيغ عبقري صرف، أو إذا شئتم، عبقري خالص – لا يهم أي مفردة تُستخدم، كما لاحظ كيركغارد معبراً عن شيء من التحفظ السليط باعثه، على ما يبدو، استخدام مفردة عبقري، لأن كيركغارد لم يطلق هذا الوصف قط على شخص حي – إلا عند الإشارة إلى نفسه. ثم مضى كيركغارد يُخضع غروندتفيغ إلى تحليل نفسي من شأنه أن يساعد في تصويب النظرة الشائعة إلى الرجل على أنه يجسد جوهر الثقافة الشعبية الدنماركية ذاته: كل طبيعة تحتاج إلى نقيضها – تنتجه بنفسها – وفي أحيان كثيرة تماماً تتخيل إنها نفسها ذلك النقيض. وهكذا فإن غروندتفيغ طبيعة قوية – قوة، صلابة، إصرار، وما شابه ذلك. وهذا من طبعه. ولهذا السبب على وجه التحديد يحب الحديث عن الدفء والود وما إلى ذلك. أنه انبثاق ضروري. وهناك بكل تأكيد

الكثير مما يُقال لصالح هذا الافتراض القائل بوجود علاقة خفية بين القسوة والود في غروندتفيغ، وهي علاقة تتطابق قطعاً مع وضع كيركغارد المتناقض على نحو غريب: تشديده المستمر على ضرورة الخيار وتقلبه الحتمي ذاته. ورغم امتعاض كيركغارد سيئ الصيت من الجموع والجماهير فإنه في الممارسة العملية كان أكثر تناغماً مع الناس من غروندتفيغ (الذي كان يجلس ويكتب عن أهمية الناس ولذلك كان لا يريد أن يزعجه – الناس). وهذا ما يشهد عليه عدد من المصادر بينها الشقيقتان روديلباخ اللتان كتبتا بشي من الغضب إن غروندتفيغ قطعاً غير مناسب للحديث مع الناس البسطاء. فهم لا يستطيعون أن يأتوا إليه واثقين به أو يأتونه بقلوب مفتوحة. وبالطبع فإن سبب ذلك إن غروندتفيغ كان دائماً يحتفظ بشبكة محدودة من المعارف، وهذا ما كان يناسبه، وخلاف ذلك فإنه كان يدفن نفسه في الكتب والبحث. الآن عندما يأتي إليه هؤلاء الناس الاعتياديون فإنه يعاملهم بكل فظاظة ويطردهم، أو يتعذر عليهم الوصول إليه في كل الأحوال.

من منظور كيركغارد كانت عزلة غروندتفيغ حماية ضرورية له من الغروندتفيغيين الذين يعجزون عن الوصول نفسياً إلى الرجل القاسي وراء كل ذلك الود، ولذلك انتهى بهم المآل إلى كونهم محض مهذارين. وكان هذا الهذر يتضمن، أولاً وقبل كل شيء، نزوعهم الكارثي إلى الاستعاضة عن المفارقة والإساءة في تجسد المسيح بـ الإعجازي – المُفرح، المُبهج، المبهج والعميق على نحو لا نظير له، إلخ، باختصار الاستعاضة عنه بمقولات مباشرة. ولكن الهذر كان يُعزا أيضاً إلى رعايتهم البهيمية للتناسل والحياة العائلية، التي كانوا يعيدون بها إنتاج قيم يهودية. كما إنهم كانوا يتجمعون في حفلات مرفِّهين عن أحدهم الآخر باللغة الطليقة للمجَسَّد العبقري الشامل. لا يبدو هذا كلاماً لطيفاً، وهو لم يكن لطيفاً: كل مَنْ يعرف شيئاً عن الضجة التي يثيرها الغروندتفيغيون حول الحياة والعيش وكذلك الإزعاج الذي يسببونه بهذه التعابير، سيرى بسهولة إن السر في الأمر كله هو بلوغ طفولية معهودة في الأجواء الجنوبية. وكانوا يستكملون هذه الطفولية بما يقولونه من هراء عن الهوية القومية التي كان كيركغارد يراها نكوصاً إلى الوثنية لأن المسيحية أرادت أن تلغي تأليه الوثنية للقوميات!

رفض كيركغارد انشغال الغروندتفيغيين القومي – الرومانسي بالنزعة القومية الإسكندنافية بوصفها لغواً، وكان لا يكل على نحو يسبب الكلل

من السخرية من نُـواح الغروندتفيغيين والحاجب المقطَّب، والجبين المتجعد، واللكنة النرويجية، وتدوير حرف الراء، وغير ذلك من التصنعات الغروندتفيغية. ولم تكن الإشارة إلى اللكنة النرويجية مجرد إضافة سجالية. فإن مايكل روسينغ، مدير المسرح الملكي، كان نرويجياً وعمل ما بوسعه لنَروَجة اللغة المستخدَمة في المسرح. ولاقى هذا ترحيباً من الغروندتفيغيين الذين كان نموذجهم اللغوي بالطبع الإسكندنافية القديمة لشمال أوروبا، ولكن جَعْل الأمة تتكلم الإسكندنافية القديمة لم يكن ممكناً فاكتفوا بشيء يمكن أن يذكِّر بالإسكندنافية القديمة، وهو اللغة النرويجية. وعندما سماهم كيركغارد في مناسبات عديدة ذوي القمصان المفتوحة فإن هذا أيضاً لم يكن من باب التقريض فقط لأن الغروندتفيغيين كانوا في الحقيقة يحبون الاستغناء عن ربطة العنق دليلاً على فحولتهم الإسكندنافية القديمة!

كما كانت هناك توقعات كبيرة بين الغروندتفيغيين في 23 حزيران/ يونيو 1845 حين وصل طلاب جامعيون سويديون ونرويجيون إلى كوبنهاغن للمشاركة في مهرجان طلابي إسكندنافي. وفي مساء اليوم التالي احتفلوا في مدرسة قصر كريستيانسبورغ للفروسية حيث تحدث ترايدي Tryde، رئيس الشمامسة، وفي اليوم التالي استمرت احتفالات الجمعية الإسكندنافية في متنزه حديقة الغزلان بفعاليات غنائية وما لا يقل عن خطابين ألقاهما غروندتفيغ. وقرأ كيركغارد عن الاحتفالات في صحيفة فادريلانديت التي نشرت مواد استذكارية عن مأدبة العشاء في مدرسة الفروسية والاحتفالات في متنزه حديقة الغزلان. ومن التفكير في هذه الفعالية الثانية استمد كيركغارد الهامة الأكبر: في الختام، تأليه. ظهر غروندتفيغ في الأحراش المحيطة على منصة مرتفعة، يسنده بارفويد وبوفيلسن. وكان يرتدي عباءة كبيرة بطريقة فنية. كانت بيده عصا، ووجهه مخفي بقناع فيه عين واحدة (العين الثاقبة لتاريخ العالم). لحية طويلة مطحلبة فيها أعشاش طيور (إنه عجوز طاعن في السن - نحو 1000 سنة). وبصوت مجوَّف تصاحبه بصورة ميلودرامية عدة ضربات على صَدفة محار (كأنه يدعو إلى انعقاد اجتماعات قروية)، يتحدث بطريقة عاطفية مفخَّمة. وعندما ينتهي من الكلام (أي، حين تقول لجنة المهرجان كفى! وإلا فإنه لن ينتهي أبداً) يُقرع جرس، ويُسحب خيط، وتسقط اللحية، وكذلك تسقط العباءة الضخمة. ونرى شاباً نحيلاً مجنحاً: أنه غروندتفيغ بوصفه روح الفكرة الإسكندنافية.

كيركغارد في الكنيسة

فيما كان الأشقاء والشقيقات الإسكندنافيون يستلقون على العشب في متنزه «حديقة الغزلان»، كان كيركغارد في «كنيسة سيدتنا» ليستمع - مرة أُخرى - إلى مينستر يلقي موعظته. وحين عاد إلى البيت كتب قطعته الغرائبية عن «تأليه» غروندتفيغ، ثم أرفقها بالتالي: «الغريب بما فيه الكفاية إن الأسقف مينستر القى موعظة في يوم الأحد نفسه. لم يكن هناك أحد في الكنيسة، ومع ذلك، كما يحدث عندما تلهمه جماعة كبيرة من المصلين لإلقاء موعظة رائعة، فإن الكنيسة الفارغة أيضاً ألهمته. وعندما انتهى من موعظته نظر أمامه بصمت، وإذا كان هناك تحوُّل في الشكل عندما يدخل الميت وراء الستار، فإنه تحوَّل بتلك الطريقة - بطريقة شخص ميت». وهنا كان مكان كيركغارد، وحيداً في غسق الكنيسة البارد، مع شخص ميت، تحوَّل كما تحوَّل شكل والده هو.

كان الابن دائماً يتذكر والده في تاريخ وفاته، يوم 9 آب/ أغسطس، الذي أصبح يوم استراحة من نوع ما في حياة كيركغارد، يحيطه طقس من نوع خاص - وهكذا في مخطوطة «ثلاثة خطابات تثقيفية» من عام 1843 جاءت المقدمة مؤرخة بيوم «التاسع من آب/ أغسطس». وذهب كيركغارد في الذكرى السنوية الأولى لوفاة والده بهدف أداء التناول في «كنيسة سيدتنا» ولكن الأجواء المهيبة تبددت عندما دخل الكنيسة عدة أشخاص، ربما سياح، وسط توزيع القربان لإبداء إعجابهم بتماثيل بيرتل تورفالدسين Bertel Thorvaldsen.

في أوقات أخرى كان كيركغارد يكتفي بالمشي لزيارة القبر في مقبرة أسيستنس والوقوف هناك مستغرقاً في أفكاره. وفي ساعة مبكرة من مساء 10 حزيران/ يونيو 1845 سجل كيركغارد حادثاً غريباً في يومياته: اليوم أردتُ أن أمشي إلى قبر والدي. كانت عندي حاجة غير اعتيادية للقيام بذلك. كنتُ منكفئاً على نفسي على غير المعتاد. وحدث عندما وصلت للتو إلى العطفة عند المدخل إن امرأة جاءت راكضة، بقبعتها ووشاحها ومظلتها، امرأة مضحكة بعض الشيء. كانت تتصبب عرقاً وتحدثتْ مع امرأة عجوز كانت تمشي على بعد خطوتين مني حاملة سلة على ذراعها: أين كنتِ؟ نحن ننتظر الآن منذ نصف ساعة. (بعد ذلك استمر الحديث ولكن بطريقة كانت المرأة تتراكض معها مشغولة مثل كلب، إلى الأمام أولاً ثم خطوة إلى الوراء). انتظرنا نصف

ساعة. شقيقتي مستعدة للبكاء. عربة الموتى وصلت أصلاً. وموكب المشيعين كله وعازفو الأبواق وصلوا، إلخ. يا لها من كوميديا هابطة! فالشقيقة التي كانت على وشك البكاء كادت تذرف دموعها لأن عازفي الأبواق جاءوا والسيدة ذات السلة لم تصل بعد - مشيتُ في ممر آخر، ومن حسن الحظ إنهم لم يقتربوا من قبر الوالد. في منتهى الغرابة حقاً كيف أن الأمزجة الأكثر جدية على وجه التحديد هي التي تندس فيها الكوميديا. كان كيركغارد غاضباً لعدم احترام حرمة المكان، ولكنه على هامش الفقرة التي كتبها في يومياته أضاف مع ذلك: يمكن إعادة الاشتغال على هذا بنبرة تهكمية تحت عنوان دموع على القبر. لا شيء سيِّئ إلى هذا الحد بحيث لا يكون صالحاً لشيء ما - لو فقط يعرف المرء كيف ينتهز الأحداث التي تقع صدفة بطريقة فنية.

لحسن الحظ إن الآنسات المضحكات بقبعاتهن ومظلاتهن لم يكنَّ منظراً شائعاً، وكيركغارد كان يحب زيارة المقبرة والمشي بين النُصب المتآكلة والأعمدة المقلوبة ينظر إلى شواهد القبور المغطاة بالطحلب، التي كان صمتها أبلغ من الكلام. وكتب في فقرة من يومياته بتاريخ أيار/ مايو 1844: «هناك، كل شيء يلقي موعظة. ومثلما إن الطبيعة تُعلن الله فإن كل قبر يلقي موعظة. هناك نُصب قبر على شكل تمثال نصفي لفتاة شابة. من المؤكد أنها كانت جميلة، ولكن الشاهد سقط الآن والقبر محاط بالنبات القرَّاص. يبدو أنّها كانت بلا أهل - قبر آخر يخفي جندياً خوذته وسيفه موضوعان على لحده، ومكتوب على القاعدة إن ذكراه لن تُنسى أبداً. ولكن وا أسفاه، إن بوابة السياج انخلعت من مفاصلها. ويجد المرء من المغري أن يأخذ سيف الجندي ويدافع عنه - فهو نفسه لم يعد قادراً على القيام بذلك. وظن المشيعون إن ذكراه لن تُنسى أبداً».

كان من الممكن التثقف داخل المدينة نفسها لأنه في عام 1840 كانت كنائس العاصمة ومعابدها ومؤسساتها ومستشفياتها وسجونها توظِّف إجمالاً ثلاثين قساً وراعي أبرشية ومعلِّماً دينياً. بالإضافة إليهم كان هناك خمسة قساوسة ألمان وقس فرنسي واحد. وكان كبيرهم الأسقف مينستر يلقي، بحسب رغباته، مواعظ اثنتي عشرة أو أربع عشرة مرة في السنة، بضمنها على الدوام تقريباً قداس صلاة المساء بمناسبة الكرسمس، وكان كيركغارد نادراً ما يفوّت المناسبة. ولكنه كان يستمع إلى آخرين يلقون مواعظهم مثل الكيِّس والفاضل إي. سي. تريدي E. C. Tryde الذي كان رئيس الشمامسة في «كنيسة سيدتنا» منذ عام 1838، وكان

الكاهن الذي يستمع إلى اعتراف كيركغارد من كانون الثاني/ يناير 1839 إلى نيسان/ أبريل 1842. وكان تريدي يميل إلى اتخاذ جانب مينستر في شؤون الكنيسة، ولكن لاهوته كان تأملياً، وكانت له علاقات ودية مع غروندتفيغ أيضاً.

في أوقات أخرى كان كيركغارد يتردد على كنيسة قصر كريستيانسبورغ للاستماع إلى يوست باولي Just Paulli الذي تمتد صداقته مع أتش. إيل. مارتنسن إلى أيام المدرسة، وتزوج شقيقة مينستر الكبرى في عام 1841. وهكذا كان مينستر ومارتنسن وباولي ثلاثياً لاهوتياً قوياً. وكان باولي الأكثر ليبرالية بين الثلاثة، ومثله مثل تريدي كان لديه بعض التعاطف مع الغروندتفيغيين ومطالبتهم بتدابير كنسية أكثر ليبرالية. وبمرور الوقت أصبح كيركغارد يتخذ موقفاً نقدياً متزايداً من باولي بوصفه واعظاً: «ما هذا؟ هذر. من الواضح إنه نفسه ضحية وهم... أو، جنون»، كما كتب بغضب في 8 حزيران/ يونيو 1851 بعد أن استمع إلى باولي يلقي موعظة عن «البهجة في الروح القدس». ومع ذلك قام لاحقاً بمجهود آخر، ولكن باولي لم ينل إعجابه هذه المرة أيضاً – بل إن كيركغارد كان يعتقد أنّ باولي يستطيع الوقوف هناك، إن كان في ذلك فائدة، ويلقي مواعظ «لمدة 170 ألف سنة» دون أن يَطلَع بأي شيء يزيد على «قليل من الشعر الغنائي». باولي من جهته كان ينظر إلى العناية الرعوية على أنها أهم جزء من عمله ولذلك كان في أحيان كثيرة على اتصال مع ناس بسطاء تماماً لديهم حاجة روحية ومادية. وخلال وباء الكوليرا في عام 1853 عندما هرب من كوبنهاغن كلُّ مَنْ استطاع الهروب، بقي باولي في موقعه وقام بعمل محمود.

كان كيركغارد يحضر أيضاً في «كنيسة الثالوث» حيث كان يعمل دبليو. إتش. روتي W. H. Rothe، رغم إن يومياته لا تتضمن تعليقات على روتي أو إي. في. كولتوف E. V. Kolthoff الذي نُسِّب إلى «كنيسة الروح القدس» في عام 1845. من جهة أخرى، ارتاد كيركغارد في عدد من المناسبات «كنيسة منقذنا» في كريستيانسهافن واستمع إلى أتش. بي. كوفويد – هانسن H. P. Kofoed- Hansen يلقي موعظته. وبوصفه واعظاً شاباً فإن كوفويد – هانسن، الذي كان بعمر كيركغارد تقريباً، كان متأثراً بكتابات كيركغارد وكتب إحدى المراجعات القليلة لكتاب «إما/ أو» نالت رضا كيركغارد. وكان الرجلان يتحدثان مع أحدهما الآخر بين حين وآخر، وتحدثا في إحدى المناسبات عن الخطيئة ضد «الروح القدس»، وفي مناسبة أخرى عن «برج بابل» الذي فككه

الله، مثلما قال كيركغارد إنه يريد تفكيك الجماهير والجمهور. ولكن أفضل وقت كان يوم 8 أيلول/ سبتمبر 1850 عندما لم يلق كوفويد - هانسن موعظة عن «إنجيل كيركغارد الحبيب» - لا يقدر أحد أن يخدم سيدين (إنجيل متي، الإصحاح 6: 24 - 34) فحسب بل اختار ترنيمة كيركغارد المفضلة وهي «ارتكب كل ما يحزنك» لبول غيرهاردت Poul Gerhardt. وكتب كيركغارد مستفهماً في يومياته «يا لها من احتفالية»، مفكراً في الحادث السعيد - لأن 8 أيلول/ سبتمبر كان بالطبع الذكرى السنوية العاشرة لخطبته على ريجينة!

القس الآخر الذي عُين في «كنيسة منقذنا» كان كارل هولغر فيسبي Carl Holger Visby الذي عمل قساً لنزلاء إصلاحيات مدينة كوبنهاغن في سجن يُسمى سجن «البرج الأزرق» وفي «دار العقاب والتأديب والتحسين». وكان فيسبي بلا أدنى شك أكثر القساوسة التزاماً اجتماعياً يومذاك. وكان مسؤولاً عن تنظيم عدد لا يُحصى من المشاريع التربوية والخيرية، بينها مدرسة للمجرمين ومؤسسة تربوية للصبيان المهمَلين، وتولى العديد من مناصب الثقة بينها الخدمة من موقع رئيس جمعية كريستيانسهافن لتوفير الوجبات الغذائية، والمدير التربوي لمعهد المكفوفين. وكان مساهماً نشيطاً في النقاشات العامة وكثيراً ما اشتبك في نزاعات مع السلطات الكنسية والمدنية. كما إنه كان مسؤولاً عن نتاجات أدبية واسعة النطاق، تمتد من مقالات عن «تجهيز الحاجات المادية» للجيش إلى مبحث صغير عن «زراعة النباتات في الأصص». ولكن اهتمام فيسبي الأساسي كان بتحسين الظروف في السجون الدنماركية، وهي قضية أصبحت في ربيع 1845 موضع نقاش محتدم بعض الشيء مع جي. أم. أف. أتش. ستيلنغ J. M. F. H. Stiling، قس السجون المعين حديثاً. وكان كيركغارد يتابع المعركة على صفحات جريدة فادريلانديت وكتب مسودة مقال طويل (لم يُنشر قط) للصحافة اتخذ فيه جانب فيسبي الأكثر ليبرالية وأعرب عن أسفه لراتب فيسبي الضئيل بشناعة (ثلاثمائة ريكسدولار) وظروف العمل المزرية، التي كانت أحياناً تقتضي منه أن يلقي مواعظ ثلاث مرات في يوم أحد واحد. وفي هذا الشأن تطرق كيركغارد إلى صفات فيسبي واعظاً وقدرته على التعاطف نفسياً: «ليس هذا هو المكان المناسب للتعبير عن شكري على دَيني أنا كمستمع للقس فيسبي صاحب الموهبة الفذة. من جهة أخرى أعتقد أنّ الأشياء التي كثيراً ما فكرتُ فيها - أصالته كخطيب، ورصانته، ونجاحه في قول

كلمة الحق، ومعرفته المتمرسة للحالات العقلية، وتواضعه في امتلاك كل هذه الصفات - هي على وجه التحديد ما مطلوب في مؤسسة جزائية... ومن بين جميع القساوسة في كوبنهاغن لعل فيسبي هو الأسرع والأذكى من هذه الناحية. وبين جدران السجن في كوبنهاغن يُذكَر فيسبي أيضاً؛ فحتى عتاة المجرمين يتذكرون شيئاً واحداً على الأقل، إن فيسبي استطاع أن يترك أثراً». وعندما التقى أتش. بي. هولست، صديق كيركغارد من أيام الشباب، معه صباح يوم أحد وبيده كتاب تراتيل ثم سأله أي قس يفضل أجاب كيركغارد على الفور: «فيسبي، وسأقول لك لماذا. حين يكون أحد القساوسة الآخرين كتب موعظته معولاً على شمس مشرقة فإنه سيتحدث عن الشمس المشرقة حتى إذا كان المطر يهطل مدراراً، ولكن حين يلقي فيسبي موعظته، ويدخل الكنيسة شعاع من ضوء الشمس فإنه يقبض على هذا الشعاع ويتحدث عنه طويلاً وبطريقة جميلة وتثقيفية حتى إنك تغادر وفي قلبك شعاع من ضوء الشمس. إنه المرتجل الوحيد بينهم جميعاً». واستمر كيركغارد في الاستماع إلى مواعظ فيسبي في السنوات التالية وكثيراً ما استمتع بالتعليقات الموفَّقة في مواعظه ولكن فيسبي - مثله مثل غالبية القساوسة بنظر كيركغارد - تراجع متردياً أكثر فأكثر بمرور الوقت. وهكذا في يوم السنة الجديدة عام 1849 ألقى فيسبي موعظة كانت «هراء تاماً» مثلما ألقى أواخر أيلول/ سبتمبر من العام نفسه «خطبة تشييع تخريفية حول قصة الكتاب المقدس عن ابن أرملة نائين».

عُين بي. جي. سبانغ في «كنيسة روح القدس». وفي أوائل أربعينات القرن التاسع عشر كان كيركغارد كثيراً ما يخرج في مشيات مسائية طويلة معه، وكان يعرف سبانغ بما فيه الكفاية لمراسلته من برلين ناقلاً إليه أخباراً مسلية عن النقص الفظيع بالمراحيض العامة في المدينة. وكان كيركغارد يحل ضيفاً في بيت سبانغ ويتذكر تيخو نجل سبانغ «إنه بموهبته اللافتة وغير الاعتيادية للحديث مع الناس من كل الأعمار والمشارب، كان دائماً مشاركاً حيوياً في الحديث». وكان بمقدور كيركغارد أن يمزح ويضحك من القلب مع أطفال البيت، ويحضّر الطعام مع شقيقة تيخو ويكون بصفة عامة بشوشاً ومرحاً حتى إن المرء «يمكن أن يجد من المغري الاعتقاد بأنه شخص سعيد روحه جذلة مسترخية... وكنا جميعاً نحبه، وكانت عمة عجوز دائماً تقول لنا «ياه، أو ليس سورين كيركغارد هذا شخص لطيف حقاً!» بعد وفاة بي. جي. سبانغ قبل الأوان في عام 1846

كان من المتعذر عملياً مواساة زوجته (رغم اسمها الأنيق كريستيان فيليبين) ولكن كيركغارد كان يزورها في أحيان كثيرة وتمكن من إسماعها «كلمات تروّح عنها». كما إنه فكر في إهداء «كتاب صغير» إلى سبانغ ولكنه لم ينفذ الفكرة قط، وفي عودة لاحقة إلى تذكر سبانغ ذهب إلى أن سبانغ كان في السنوات الأخيرة شديد الاهتمام بمظهره حين يقف على المنبر.

وهذه كانت الحال يوم الأحد في 12 أيار/ مايو 1844 عندما وقف سبانغ «وكان يحرك يديه في كل الاتجاهات بثقة ومداهنة». فإن كيركغارد سرعان ما ضاق ذرعاً بهذا الشخص الراضي عن نفسه لكنه لاحظ بعدئذ خادمة تجلس تحت المنبر مباشرة: «أنشدتْ الترنمية بهدوء تام ولكن ما أن بدأت الموعظة حتى طفقت تنحب. بيد إن من الصعوبة بمكان الوصول إلى حالة ذرف الدموع تأثراً بسبانغ، ولا سيّما وإنه كان من المتعذر قطعاً البكاء في بداية تلك الموعظة. وأنا أخلص من ذلك إلى أنها جاءت إلى الكنيسة لكي تبكي. كان ذلك فظيعاً: على المنبر كل تلك الأجواء والحركات الدعيّة، وتحته مباشرة خادمة لم تسمع كلمة واحدة مما يُقال - أو كانت تلتقط كلمة بين حين وآخر فقط - وكانت تعتبر بيت الله ليس بيتاً للصلاة بل بيتاً للنحيب، حيث تستطيع أن تبكي بكاء حقيقياً بسبب كل المهانات التي عانتها منذ آخر مرة كانت هنا... الخادمات هنَّ الصنف المفضل عندي من الناس، سواء في الكنيسة أو في فريديريكسبيرغ».

كما هو معهود من مشاعر كيركغارد المشدودة والمرهفة فإن القس المثقل بالرثاء على المنبر حلت محله خادمة باكية ازدادت أهميتها من منظوره لتصبح الشخصية المركزية في ذلك المكان المقدس، في ذلك الصباح من التثقيف غير الناطق. وحدث شيء مماثل، ولو أكثر مرحاً بمعنى غير معقد، بعد أسابيع عندما انصرف انتباه كيركغارد مرة أخرى عن الروتين المنتظم للقداس مستمِّراً على موقف جانبي: «الأم الشابة (مليحة، ذات قوام ممشوق، تضع وشاحاً مخملياً، وتمشي بخطى حثيثة) مع ابنها الصغير. كانت غير آبهة تماماً بألاعيب الصبي الصغير بل استمرت بالصلاة الموصوفة متناغمة مع التراتيل خلال التناول... وا أسفاه! عموماً، يجنح الآباء إلى الانشغال بإبقاء أطفالهم جالسين دون حراك وكأن هذا هو سبب وجودهم في الكنيسة. كم كان جميلاً أن نراها تختار الشيء الوحيد الذي توجد له حاجة، وكم كان جميلاً أن تتعامل مع هذه الصعوبة. قدمتُ آيات الشكر - بطريقة جمالية محضة - إلى كل الأرواح الطيبة على

تركها كل شيء يحدث بهذا الهدوء، ولن أنسى ذلك المشهد الجميل في وقت قريب». وهو لم ينس ذلك المشهد لأنه أدرج الواقعة الصغيرة في عمله «مراحل على طريق الحياة» مضيفاً ببساطة بعض التفاصيل، دون أن يكون في ذلك تحسين للمشهد الأصلي.

كان كيركغارد يعرف كيف يتثقف بالمواد التثقيفية المتاحة، سواء أكانت خادمة باكية أو الأم الشابة لطفل مشاكس، ولكن إذا لم يغتَم كيركغارد بموعظة رديئة أكثر مما اغتمَّ بها فلأن مركز ثقله اللاهوتي كان في مكان آخر يختلف تماماً: «عندي إنشاد الترانيم هو بلا أدنى شك ذو أهمية قصوى خلال القداس. وأشترط أن تكون الترنيمة الجيدة ذات كلمات بسيطة وإلى حد ما غير مهمة... ثم واحد من تلك الألحان الصميمية». وبرأي كريكغارد فإن ترانيم كينغو التي كان يعرفها «على ظهر قلب» لم تكن مناسبة بالمرة للإنشاد. فهي كانت وجدانية أشد عنفاً من أن تُنشد، وعلى المرء أن يقرأها بدلاً من ذلك في البيت «لثقافته الذاتية». ولكن كيركغارد وجد ترانيم قابلة للإنشاد ومذهلة في «كتاب التراتيل الكنسية المخوَّل»، وكان يشدد على الشعور الداخلي الذي ينبثق من ترنيمة مثل «من صميم القلب أنا الآن في شوق»: «مثلما إني لن أملَّ أبداً من النظر إلى سماء خريفية رمادية عندما تتناوب كل الألوان الناعمة بين بعضها البعض في أجمل شكل، كذلك لن يكون من الممكن أبداً أن أملَّ من تكرار الحركات الهادئة للحن كهذا».

هنا تصبح ملموسة تماماً المسافة بين عزلة الروح عزلة توبَويَّة من جهة ورفاقية الغروندتفيغيين السعيدة بثرثرتها من الجهة الأخرى: «غروندتفيغ لا يعرف شيئاً عن الألم الصميمي الأعمق الذي تصالح مع الله في حزن صامت، وهذا على وجه التحديد ما يشكل نغمة الترنيمة الحقيقية... وغرندتفيغ صانع ضوضاء، وكان صانع ضوضاء وسيبقى صانع ضوضاء. حتى في الأبدية ستجده بغيضاً. ليس الأمر كما لو إن غروندتفيغ لم يَخْبِرْ شيئاً لكنه كان دائماً يَخْبِره بضوضاء. ثم يوقفه في طريقه هذا الشيء أو ذاك، ويثير ضجة مثل قطار في حادث اصطدام». وهنا يسمي كيركغارد غروندتفيغ «نائحاً» و«حدَّاداً ينفخ» لا يكون متوفراً بوصفه كاتب ترانيم «إلا للخدمة خارج جماعته إذا كان الجمهور سيدفع فاتورة حلاقته».

غروندتفيغ لم يكن الخطر الوحيد الذي يهدد السلام الداخلي لفرد يصلي في الكنيسة. فعندما كان شغيلة الكنيسة يدورون بصينيات جمع التبرعات على المصلين خلال الموعظة، كان ذلك لا يقل تدميراً للجو التعبدي العام. وفي بعض أيام الآحاد كان ما لا يقل عن سبع صينيات جوالة لجمع التبرعات تدور في أنحاء الكنيسة تخطف العملات الصغيرة من المصلين لدعم دائرة الإطفاء وشراء الخبز والنبيذ لطقوس التناول ومدرسة الغناء الجماعي والقس والفقراء والصم والبكم والراقدين في المستشفيات ومشفى هولسنغور وسجن مون وعدد لا يحصى من القضايا النبيلة الأخرى. وكان الجميع ينزعجون من ذلك بمن فيهم كيركغارد الذي أتى على ذكر الموقف باختصار وتهكم في كتابه «أعمال الحب»، ولكن لاعتبارات اقتصادية تجاهل الأسقف مينستر عدداً من المذكرات من مجلس المدينة (الذي كان يريد إلغاء هذه الممارسة أو على الأقل دفعها إلى وقت آخر وليس في منتصف موعظة القس) واستمر في السماح بطواف صينيات جمع التبرعات. ولكن من نواحي أخرى لم يكن هناك اهتمام غامر بشؤون الكنيسة. وكان حضور الصلاة حضوراً متواضعاً والمناسبات المقدسة تمر دون الاحتفال بها. وفي أيام الآحاد كان التجار يسدون نوافذ الأبواب في محالهم بلوح أو مصاريع، بما يعني إنها «مغلقة» وملتزمة بالقانون - ويستمرون في ممارسة تجارتهم.

أخيراً، كان من بين الأسباب الوجيهة المتعددة للامتناع عن ارتياد الكنيسة، البرد مجمِّد العظام الذي يتسم به موسم الشتاء ويجعل الورع شأناً خطيراً. وهكذا في عام 1841 طلب ما لا يقل عن 18 قساً في كوبنهاغن تدفئة كنائسهم ولكن تدبيراً تجريبياً مقتَرحاً لكنيسة الروح القدس كان سيضع ستة مواقد مرصوفة ببلاطات - وكان ساعاتي اسمه يورغنسن مستعداً لتغطية كلفتها - لاقى معارضة خبراء من الكلية البوليتكنيكية أعربوا عن خشيتهم من تأثير الحرارة الموضعية وأبدوا قلقهم من «الوساخة» التي كان من المحتم أن تسببها المواقد. واقتُرح بدلاً من ذلك أن تكون التدفئة تحت الأرض ولكن هذا سيكلف مبالغ فلكية ولذلك لم يتمخض المقترح عن نتيجة.

وهكذا ظل الناس يتجمدون، أو كانوا يجدون شيئاً أكثر دفئاً يفعلونه صباح يوم الأحد.

«يظن الناس أني كاتب مأجور»

الكاتب لا يكون أبداً أفضل من كتابه الأخير، وكان كيركغارد يكافح لتجاوز نفسه كل مرة. «لا أنسى أبداً القلق الذي كان ينتابني أنا نفسي من ألا أكون قادراً على مداناة ما حققته في السابق»، كما كتب بإخلاص مستميت مشيراً إلى كتابه «مراحل على طريق الحياة»، الذي نُشر في 30 نيسان/ أبريل 1845، بعد يوم على صدور «ثلاثة خطابات في مناسبات متخَيَّلة». وكان قلِقاً أيضاً بشأن جمهور القراء وكيف يستقبل كتابه: «الكثير مما يُقال في «إن المرء تحت تأثير الكحول يقول الحقيقة«، ربما سيبدو حسياً بشكل مخيف. أستطيع أن أسمع من الآن صيحات الغضب». ولكن لم تكن هناك ضجة من الصياح، وكان شهر حزيران/ يونيو في أسبوعه الثاني عندما كتب كيركغارد سبب ذلك بهدوء: «إن قراء كتاب «مراحل «ليسوا بكثرة قراء «إما/ أو»، وهو عملياً لا يثير أي اهتمام. هذا ممتاز. بهذه الطريقة أتخلص من الرعاع البلهاء الذين يصرون على أن يكونوا حاضرين أينما ظنوا إن هناك قلاقل». إن عجزاً في العالم المادي أصبح فائضاً في العالم الروحي.

نُشرت مراجعات للكتابين في صحيفة برلينغسكة تيدندة يوم 6 أيار/ مايو بقلم من سمى نفسه n الذي قدَّم إلى مؤلفهما الذي بلغ لتوه الحادية والثلاثين من العمر، هدية عيد ميلاد متأخرة قليلاً: «إذا تجرأ المرء على تصديق الشائعة – الصحيحة بكل تأكيد – التي تذهب إلى أن الماجستير كيركغارد هو مؤلف «إما/ أو» وسلسلة الأعمال الخارجة كما هو واضح من اليد نفسها، فإن من الجائز أن يظن المرء إن المؤلف يمتلك عصا سحرية يستطيع بضربة منها أن يستحضر كتاباته على الفور نظراً لغزارة إنتاجه الأدبي في السنوات الأخيرة». ويبدي المراجع n إعجاباً ليس فيه أي تصنع بقدرات كيركغارد الخارقة تقريباً، التي تكون حتى أبلغ أثراً لأن «كل عمل من هذه الأعمال استثنائي في عمق تعليله، يتابع موضوعه بأدق التفاصيل، وخاصة إبداء مثل هذه الجزالة اللغوية بحيث لا يوجد كاتب دنماركي يمكن أن يُقارَن بالمؤلف».

رد كيركغارد على صيغ التفضيل هذه بعد ثلاثة أيام بنشره مقالاً عنوانه «إعلان وأكثر قليلاً» في صحيفة فادريلانديت. وفيه احتج على طريقة n الخرقاء والمشوِّشة من خلال ربطه «بعلاقة وثيقة جداً بكتابة عدد من الكتب المنشورة بأسماء مستعارة» قطعاً لم يكن هو مؤلفها – نقطة يطرحها بمهارة ديالكتيكية

وأسلوب كيركغاردي بحيث يستطيع الجميع أن يروا أن المؤلف هو في الحقيقة كيركغارد! كان يعجبه كثيراً أن يكون موضع ثناء بالطبع - «أوه، نعم»، كما يكتب ولكن ليس بقلم نكرة مثل n الذي يختفي «كما العطسة». وإذا أُريد أن تُراجع أعماله فإنه يطلب أن يكون ذلك بقلم أحد المراجعين الحقيقيين - هايبرغ أو مادفيغ أو مينستر - وهم ثلاثي يصفهم «إعلانه» بأنهم على التوالي «الحاكم الشرعي للأدب الدنماركي» و«رجل عِلم ذو مكانة أوروبية» و«تلك الشخصية المرجعية المحترمة الثابتة التي تكتب بالاسم المستعار Kts». وبقدر ما هو معروف فإن n لم يجرؤ قط مرة ثانية على قول أي شيء لطيف عن كيركغارد الذي كان حكمه على منبره الصحفي قاسياً لا رحمة فيه: حين يتعلق الأمر بالنقد الأدبي فإن صحيفة برلينغسكة تيدندة يمكن... أن تُقارن على أفضل وجه بجريدة يُلف بها سندويش، وتُقرأ أثناء الأكل - بل إني حتى رأيتُ رجلاً يمسح نفسه بالجريدة لعدم وجود منديل.

بعد أقل من أسبوع، في 13 أيار/ مايو 1845، أبحر المؤلف الذي امتدح بهذا الشكل الصارخ والمفرط، راحلاً على متن السفينة البخارية غايسر. سافر عن طريق شتيتين في زيارته الثالثة وقبل الأخيرة لبرلين. وكان أحد المسافرين معه الصيدلاني السابق لاوريتس هاغن الذي كان قليل الكلام وانطوائياً. وفي اليوم التالي كان كيركغارد في برلين حيث جلس في غرفة فندقه يسجل في يومياته الإمكانات الفنية لرحلته: «الشخصية الوحيدة الممكن استخدامها على متن السفينة البخارية كانت فتى شاباً... يعتمر قبعة مخملية لا يربطها إلا منديل، وسترة قصيرة مخططة على معطف وعصا مشي تتدلى بخيط من أحد الأزرار. بريء، منفتح، مسافر، ينتبه إلى كل شيء، ساذج، خجول، لكنه غير هياب. وبربطه بمسافر مكتئب (مثل مستر هاغن) يمكن إنتاج تأثير حزين».

في 19 و20 أيار/ مايو حين كان كيركغارد في برلين (حيث أخفق مرة أخرى في الشعور بالألفة) نشرت صحيفة فادريلانديت قطعة بقلم المدعو «A» بعنوان «ملاحظة عابرة عن تفصيل في دون جيفاني» أشار إليه كيركغارد بمناسبة إحياء أوبرا موزارت الخالدة التي قُدمت في المسرح الملكي خمس مرات بين شباط/ فبراير وأيار/ مايو 1845. ولم يكن مسموحاً لأحد أن ينسى كيركغارد لمجرد إنه لم يكن مرئياً في الشوارع! وصل عائداً إلى مرفأ كوبنهاغن في 24 أيار/ مايو (مرة أخرى على متن السفينة غايسر) وبعد خمسة أيام نشر فيليبسن

«ثمانة عشر خطاباً تثقيفياً» مع ستة أقسام في 52 و62 و84 و59 و70 و111 صفحة على التوالي. ورغم إن الكتاب كان تجميعاً لحوارات منشورة سابقاً، فقد كان مفهوماً أن يفترض n إن لدى كيركغارد «عصا سحرية».

كما كان من المفهوم تماماً إن آخرين شعروا بالحسد وسرعان ما توصلوا إلى توافق مؤداه إن كيركغارد كان بكل تأكيد متسرعاً بعض الشيء بغزارة إنتاجه - وبالتالي فإنه لم يكن إلا كاتباً مأجوراً. وكتب كيركغارد بغضب بعد فترة قصيرة على نشر «حاشية ختامية غير علمية» الذي صدر في 27 شباط/ فبراير 1846: «يعتقدون إني كاتب مأجور. بكل تأكيد، خذوا هذا هنا على سبيل المثال. أنا مقتنع بأنه ليس هناك كاتب دنماركي آخر يُعامِل حتى أقل الكلمات أهمية بالعناية الاستثنائية التي أُبديها أنا». ولم يكن كيركغارد بنفسه يعيد كتابة أعماله مرتين على الأقل - بل كان يعيد كتابة بعض الأقسام ثلاث أو أربع مرات - فحسب بل كانت هناك أيضاً «التأملات» حين يخرج في مشياته، التي كانت تستحث إنتاجيته بحيث إنه عندما يصل إلى البيت كان في أحيان كثيرة يصل والعمل في حكم المنجَز، بل إنه حتى «حفظ شكله الأسلوبي في الذاكرة».

سخط كيركغارد على اتهامه بكونه كاتباً «مأجوراً» سخط مفهوم، والتهمة باطلة حتى إن من السهل أن يُغفر له توثيقه لخطل التهم توثيقاً يهنئ فيه نفسه. فهو يكتب بخيلاء مفرط: «وهكذا كانت هناك أوقات كنتُ أستطيع الجلوس فيها ساعات متيَّماً بصوت اللغة - عندما يتردد طبعاً بمخاض الفكرة. وهكذا كنتُ أستطيع الجلوس ساعات كل مرة، آه، مثل عازف ناي يسلي نفسه بآلته. وكان غالبية ما كتبتُه قيل بصوت عالٍ مرات كثيرة، كثيرة، ربما عشرات المرات في غالب الأحيان. وكان يُسمع قبل أن يُكتب. عشتُ وتمتعتُ وخَبِرتُ الكثير في مجرى نشوء هذه الأفكار وبحثها عن شكل حتى إن بناء جُمَلي يمكن أن يُسمى عالم ذكرياتي». وفي وقت سابق، في إحدى الرسائل التي كتبها كيركغارد إلى بويسن، لاحظ إنه كتب «قسماً كبيراً آخر من «إما/ أو» لكنه لم يمض في الكتابة «بسرعة» لأنه «نتاج شعري محض له مطالب خاصة تماماً تقتضي أن يكون المرء في المزاج المناسب له».

في الغالب كان كيركغارد حقاً في المزاج المناسب. ومَنْ سواه كان يستطيع الانتقال بهذه السهولة من الساحر إلى الشيطاني، من العاطفية إلى الشمخريرة

المتهكمة؟ مَنْ سواه كان يستطيع أن يدبر استخدام نبرة حوارية يومية حتى عند التعامل مع أشد التجريدات دقة؟ مَنْ سواه كان يستطيع أن يضع أقوالاً مبتذلة أو كوميديا صاخبة بعد سطر ونصف السطر فقط على أشد الأفكار العميقة استعصاء؟ أو أن يعتكف، يصبح مبعثراً ومبهماً وغير مفهوم - ثم في اللحظة التالية يطق أصابعه بضربة أسلوبية مغرية، ويلهم قلمه، ويصبح آسراً بقوة حتى إن القارئ يضل طريقه بكل بساطة؟ باختصار، أي كاتب دنماركي أنتج شيئاً خصباً واستثنائياً بهذا القدر؟ ثم يسمون نتاجه «كتابة مأجورة»!

إذ جُرح كيركغارد بعمق في كبريائه فإنه ذهب إلى أقصى الحدود لكتابة سلسلة كاملة من الفقرات في يومياته عن الأصالة التي عبر عنها من خلال تنقيطه. وهنا يشرح إنه فيما يتعلق بالإملاء يستسلم «بلا شروط للمرجع (مولبيخ Molbech) ويذكر «قاموس اللغة الدنماركية» الذي وضعه كريستيان مولبيخ، ولم يحلم كيركغارد قط أن يريد «تصحيحه لأني أعرف افتقاري إلى الخبرة في هذا المجال». وفيما يتعلق بعلامات الترقيم من نقاط وفواصل، من جهة أخرى، فإنه على القدر نفسه من الصرامة ويكون مرجع نفسه: «تكويني كله بوصفي ديالكتيكياً ذا حس خطابي غير اعتيادي، وأحاديثي الهادئة كلها بصحبة أفكاري، وممارستي القراءة بصوت عالٍ - هذا كله يجعلني بالضرورة متفوقاً من هذه الناحية». لأنها في الحقيقة مأثرة أدبية أن يكون قادراً على أن ينقل إلى الصفحة المكتوبة إيقاعات الكلام، الوقفات، التنَفُس. وذلكم فعل تعبيري يجب أن يقتنص شيئاً عابراً حين يكون محلقاً على جناح. ويشرح كيركغارد: «في الخطابية بصفة خاصة يشذ ترقيمي عن القاعدة لأنه ترقيم متقدم تماماً. فأنا منشغل على الأخص بالجانب المعماري - الديالكتيكي، الذي يكون في آن واحد جلياً للعين في مقاطع الجُمل، وللصوت عندما يقرؤها المرء عالياً، كإيقاع - وأنا دائماً يكون في ذهني قارئ يقرأ بصوت عال». ولهذا السبب حدَّد كيركغارد استعماله الفاصلة، التي كانت تضعه «في نزاع دائم مع منضِّدي الحروف، الذين بطريقتهم حسنة النية يُدخلون الفواصل في كل مكان، معكرين بذلك إحساسي بالإيقاع». كما كانت لدى كيركغارد طريقته الخاصة في استخدام النقطة: «برأيي إن غالبية الأسلوبيين الدنماركيين يستخدمون النقطة بصورة غير صحيحة. فهم يُذيبون خطابهم في لا شيء سوى جُمل قصيرة متلاطمة ولكن هذا يسفر عن حرمان العنصر المنطقي من الاحترام الذي يستحقه». وكان يريد

أن يرى إبداء احترام مماثل لعلامة الاستفهام التي غالبية الكتّاب لم يعاملوها بالانضباط المطلوب: «عموماً يُساء استخدام علامة الاستفهام بطريقة حمقاء، باستخدامها استخداماً مجرداً كلما تكون هناك فقرة استنطاقية. وأنا كثيراً ما أستخدم الفواصل المنقوطة وأختتم بعلامة استفهام شاملة».

لا غرو إن كيركغارد لم يكن دائماً موضع ترحيب في المطبعة حيث من المؤكد أن منضدي الحروف الشباب كانوا ينزعجون حين يقرر فجأة تغيير ممارسته المعتادة، كما يتضح من الفقرة التي كتبها في يومياته بعنوان «طريقتي في الترقيم من الآن فصاعداً»، التي تتضمن إرشادات توجيهية لإجراء تغييرات في استخدامه النقطتين وعلامات الحصر. ولكنه نفسه نظر إلى هذه الصعوبات على أنها تستحق العناء: «سأخضع بثقة لاختبار يحاول فيه ممثل أو خطيب معتاد على تعديل طبقة صوته، أن يقرأ مختارات قصيرة من حواراتي، وأنا على اقتناع بأنه سيعترف بأن الكثير مما كان سيقرره لنفسه والكثير مما يُشرح عادة في تعليمات مسرحية يلمِّح إليها المؤلف، سيجده هنا مؤَشَّراً بعلامات الترقيم». ويشعر المرء برجفة تماماً حين يفكر كيف أن الأجيال اللاحقة - مدفوعة بقدر متساوٍ من الحرص على مستوى المبيعات والقلق من مستوى صعوبة القراءة - أقدمت على تحديث نصوص كيركغارد بإدخال فواصل ونقاط أينما قرر أحدهم ضرورة ذلك.

يقول كيركغارد إن استحقاقه هو «تهذيب النثر الغنائي». والحق إنه في كتاباته كان قادراً على «إنتاج تأثير غنائي أكبر» مما كان بمقدور شعراء أن يحققوه بأبياتهم. وهذا زعم كبير ولا يمكن التحقق منه، ولكن إذا لم يكن بالإمكان تصنيف نثره بصورة مباشرة على أنه غنائي، فإنه في كل الأحوال يمتلك الكثير من سمات الغنائي، بما في ذلك هذه الخاصية الأساسية: إنه نثر لا يمكن تلخيصه بل فقط اقتباسه. وحين يبدأ المرء تلخيص كتابات كيركغارد (حاولوا أن تلخصوا «تكرار») فإنه سرعان ما يعرف إن جوهرها يختفي لأنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأثير الخطابية الرهيف، ولذلك يتبخر في التلخيص. وهذا لا يعني بالطبع إن الكتابات مجرد حماقة بلا جدية فلسفية ولاهوتية لكنها تبعد مسافة طويلة على نحو لا يُنكر عن هيغل الذي عرف كيركغارد في وقت مبكر - الأمر غير المستغرب - أن يعامل «منظومته» المخيفة ونزعاته التوتاليتارية بوقاحة تخطف الأنفاس. وكان كيركغارد يفضل علمَه الطليق، وهو

نوع من العداء الفكري للنزعة الفكروية التي أقحم ضغطها الساخر مفاهيم على الدموع والخِرَق. وإذا كان من سمات هيغل المميزة إنه يضع نفسه على مستوى متعالٍ من التجريد بحيث يضطر القراء إلى البحث عن الراحة في عالم الخيال والمماثلة فإن العكس هو الحال مع كيركغارد: ما أن يُخضَع المرء لجراحة ديالكتيكية معقدة حتى يجد نفسه في إجازة استجمامية بقطعة من الكتابة فياضة تعبيرياً، زاهية الألوان، مضاءة على نحو غريب من الداخل. وكان هناك، بالطبع، عنصر إغواء في ذلك، كان كيركغارد واعياً به تماماً رغم إنه، وهو الغاوي بمعنى أرقى للكلمة، كان يفضل مفردة «الخداع» - مفردة يجب، بالطبع، ألا يَسمح المرء لنفسه أن يُغوى بها. وفي عام 1845 أصر كيركغارد، ليس من دون سبب، على أنه، وفي ذهنه مثال خطابية أرسطو، «ينبغي استحداث فرع معرفي جديد هو البلاغة المسيحية». وفكر في إناطة المشروع بيوهانس دي سيلنتيو Johannes de silentio.

في حديث مع هانز بروشنر خلال نزهة حول إحدى البحيرات على أطراف كوبنهاغن ذهب كيركغارد إلى أن العقود الأخيرة شهدت «ثروة تكاد تكون شاذة في تطور الشعر» ولكن البلد «افتقر إلى نثر له ميسم الفن». وبعد توقف - وبلا أدنى تردد بالتأكيد - أضاف، «أنا ردمتُ هذه الثغرة».

كان هذا بعيداً عن التواضع وليس من طبيعة الدنماركيين بالمرة، ولكنه كان صحيحاً مع ذلك، وتعويضاً عن ذلك أقدم كيركغارد على نوع من التكفير عن تصرفه اللادنماركي بكتابته ليس أجمل تكريم للغة الدنماركية فحسب بل والأكثر استعصاء على الترجمة. ويمكن العثور عليه مدفوناً بعمق في «رسالة إلى القارئ» يتوصل فيها فراتر تاسيتيرنس إلى إلى خلاصة من نوع «مذنب؟/ غير مذنب؟» ويعني فراتر تاسينيرنس Frater Taciturnus «الأخ قليل الكلام» ولكن الاسم لا يتفق مع الواقع لأن «رسالة» كيركغارد «إلى القارئ» طويلة تماماً وتضع أعباء ثقيلة على صبر القارئ. لذلك من الطبيعي تماماً فيما كتبه من «كلمات ختامية» أن يستفهم فراتر تاسيتيرنس فجأة: عزيزي القارئ - ولكن لمَنْ أتحدث أنا؟ ربما لا أحد ما زال هنا». وبما إن هذا ليس هو الحاصل على ما يبدو فإنه يغتنم الفرصة ليكتب كالآتي: «أشعر محظوظاً بأن أكون مرتبطاً بلغتي الأم، مرتبطاً ربما كما لا يرتبط بها إلا قلة، مرتبطاً مثلما كان آدم مرتبطاً بحواء لأنه لم تكن هناك امرأة أخرى، مرتبطاً لأنه كان متعذراً عليَّ أن أتعلم أي لغة

أخرى، وبالتالي متعذراً عليَّ أن يوقعني الإغراء في استعلاء متكبر ومغتر إزاء لغتي الأصلية. ولكنها متعة أيضاً أن أرتبط بلغة أُم على هذا القدر من الخصوبة في أصالتها الداخلية حين تفتح الروح، وصوتها الحلو يتردد بكل هذه الحسية المترفة في الأُذن؛ لغة أُم لا تطلق أصواتاً خشنة وهي تلهث لالتقاط أنفاسها حين تواجه فكرة صعبة، لغة أُم لا تطلق أصواتاً خشنة وتبدو متوترة حين تواجه ما لا يمكن التعبير عنه لكنها تشغل نفسها به هازلة وجادة إلى أن تعبر عنه، لغة أُم لا تكتشف بعيداً ما هو قريب، أو تبحث في الأعماق عما هو باليد أصلاً - لأنها في علاقتها السعيدة بوظيفتها تتراكض مثل جني وتأتي بها مثل طفل ينطق بالكلمات المثلى دون أن يكون عارفاً بذلك في الحقيقة، لغة متوثبة ومضطربة متى ما يعرف العاشق المناسب كيف يستثير، بفحولة، عاطفتها الأنثوية المتقدة، لغة واثقة بنفسها وظافرة في معركتها الفكرية متى ما يعرف السيد المناسب كيف يقود الطريق، أي مرنة مثل مصارع متى ما يرفض المفكر المناسب أن يرفع يده عنها - ويرفض أن يرفع يده عن الفكرة، لغة ليست فقيرة، حتى إذا بدت فقيرة في هذه المرة أو تلك، لكنها هُجرت مثل حبيبة متواضعة بسيطة هي في الحقيقة ذات أعلى قيمة وفي المقام الأول ليست رثة، لغة لا تعوزها التعابير عما هو عظيم، عما هو حاسم، عما هو مرموق، لكنها ذات ميل بديع، فاتن، لذيذ للفكرة الرابطة، للمفهوم التابع، للصفة، ودردشة الأمزجة، ودندنة الانتقالات، وداخلية التصريف، والترف السري للعزلة المريحة، لغة تفهم الهزل بشكل كامل مثلما تفهم الجد، لغة أُم تأسر أطفالها بقيد «يسهل تحمله ولكن من الصعب كسره!».

هل سماه أحد ما كاتباً مأجوراً؟

مراحل على طريق الحياة

قبل سنوات عديدة أرسل أديب بعض الكتب إلى الوراق هيلاريوس الذي كان سيلتقيه بعد تجليدها. ولكن ورشة التجليد كانت مزدحمة بالعمل ولذلك ظلت الكتب مركونة فترة طويلة بعض الشيء، بل فترة طويلة في الحقيقة حتى إن الأديب توفى في هذه الأثناء وأصبحت الكتب غير المجلدة بعد ملكَ ورثته الذين كانوا يعيشون في الخارج. بعد فترة اكتشف الوراق هيلاريوس طرداً يحوي عدة مخطوطات. فغلفها بورق ملون وحفظها في مكان مناسب من ورشة التجليد. ونحو نهاية العام، عندما كان الوراق يزجي ليالي الشتاء

الطويلة، ظهرت المخطوطات من جديد. كان الوراق هيلاريوس رجلاً بسيطاً لم يفهم الكثير من الأمر برمّته، ولكن نظراً إلى أن خط اليد كان أنيقاً للغاية راح هو وأطفاله ينسخون صفحة منها بين حين وآخر ليتمكنوا من اكتساب بعض المران في فن الخط. وذات يوم لفتت المخطوطات انتباه معلم ذي ميول فلسفية كان يعطي بعض الدروس الخصوصية لابن الوراق الأصغر سناً. ورأى المعلم إن هناك ربحاً من نشرها لأنها في الحقيقة تتألف من عدة كتب أنجزها عدة كتّاب - بل إنه افترض إن هناك على الأرجح جماعة إخوانية، جمعية، رابطة كان الأديب الراحل رئيسها. هيلاريوس الوراق لم يعرف في الحقيقة ما معنى ذلك كله ولكنه وافق على المقترح ونشر هذه المخطوطات التي بدت بذلك القدر من الأهمية.

كان المعلم مصيباً. وكانت المخطوطات تتألف من عدة كتب بقلم مؤلفين مختلفين. وتتضمن المخطوطة الأولى في الخمرة تكمن الحقيقة، بمعنى إن الشخص يبوح بمكنوناته الحقيقية حين يكون تحت تأثير الكحول. وتروي المخطوطة حفلة سُكر ليلية تتنقل خلالها امرأة بين إعلائها تارة والحط من قدرها تارة أخرى. وهنا يستطيع القارئ المطّلع على أعمال كيركغارد أن يتعرف على شخصيات مثل يوهانس الغاوي وفكتور أيريميتا وكونستانتين كونستانتيوس والرجل الشاب ولكننا نقابل أيضاً مصمم الأزياء الذي كاد خطابه أن يُفقِد كيركغارد وليفن قدرتهما على التركيز. وعندما انتهت حفلة السُكر وغادر الضيوف في الليل مروا على بيت ريفي صغير له تعريشة. ومن التعريشة كان بمقدور فكتور إريميتا أن يسمع أصواتاً، ليست عالية بقوة العاطفة بل تتحدث بنبرة خافتة. ونظر في الداخل بحذر ثم تراجع خطوة وهتف فرحاً بما عرفه: أوه، يا إلهي! إنه القاضي وليام وزوجته. وكان الاثنان، السيد والسيدة، يحتسيان الشاي ويتحادثان مع أحدهما الآخر في حدود اللياقة الزوجية عن استمرار صلاحية الزواج، ولكن عندما انتهى القاضي من تدخين سيجاره انتهى الحديث، وغادرا مكان حديثهما الليلي ذراعاً بذراع إلى الفراش. تبعهما فكتور إريميتا خلسة، وقفز من إحدى النوافذ ثم ظهر من جديد حاملاً مخطوطة بقلم حضرة القاضي. ولم يمر وقت طويل ليقرر إذا نشرتُ مخطوطاته الأخرى فإن هذا لا يكون أكثر من واجبي بأن أنشر هذه أيضاً. ولكن فرحته كانت قصيرة العمر لأنه في اللحظة التي كان يهم بوضع المخطوطة في جيبه سرقها في

غفلة منه المدعو وليام أفهام William Afham [بالدنماركية: يعني حرفياً منه]. من يكون وليام أفهام هذا، لا أحد يعرف ولكن هو الذي أوصل المخطوطة المسروقة، بمساعدة الوراق هيلاريوس، إلى المطبعة - وبهذا القدر كانت حقاً منه. وعنوان المخطوطة هو عدة أشياء عن الزواج رداً على اعتراضات، وهي تشكل ثقلاً مضاداً لمعاملة المرأة معاملة مخجلة على يد رفاق السُكر وغمزاتهم الخفية تجاهها. ويجب أن نفترض إن الاحتمالات ليس كبيرة في أن هذه القطعة ستقنع كثيرين بمسرّات الزواج أكثر من مقالات القاضي وليام السابقة رغم إن وليام يبدو هذه المرة في وضع أفضل من كتاباته السابقة - ورغم اعترافه في مرحلة من المراحل بأنه حتى بعد ثماني (!) سنوات من الزواج فهو نفسه لا يعرف على وجه التأكيد، بمعنى نقدي، كيف تبدو زوجتي. وفي الحقيقة إنه يعترف بحنان كبير كبيرة بأنه في الحقيقة حتى هذا اليوم لا يعرف إن كانت زوجته رشيقة أو ممتلئة. ولعل القاضي ينبغي أن يتحرى الأمر في المرة القادمة التي يكون فيها تحت التعريشة مع زوجته.

نكتفي بهذا القدر عن عناوين المخطوطات التي تشكل الجزء الأول من مراحل على طريق الحياة. ويضم الجزء الثاني مذنب؟/ غير مذنب؟ مع العنوان الفرعي قصة معاناة. تجربة نفسية على يد فراتر تاسيتيرنس. ويروي فراتر تاسيتيرنس في مقدمة الكتاب كيف وقع على المخطوطة: سافر إلى بحيرة سوبورغ في زيلاند الشمالية مع عالم مختص بالطبيعة أراد أن يسجل ملاحظات عن النباتات البحرية. فأخذ قارباً لينطلق به في قناة ضيقة خرج منها إلى وسط البحيرة. ويعيد المشهد إلى الأذهان الوصف المطابق عملياً لرحلة كيركغارد عام 1835 مع القس لينغبي. وفي حين إن عالم الطبيعة انهمك بنباتاته البحرية فإن فراتر تاسيتيرنس أنزل آلة من النوع التلسكوبي إلى قعر البحيرة حيث سرعان ما علِقتْ بحيث كاد يتعذر انتشالها: سحبتُ، فصعدت فقاعة من الأعماق. بقيتْ لحظة ثم انفجرتْ رغم إني لم تكن عندي أي فكرة عما قد أعثر عليه. وحين أُفكر الآن، الآن إذ أعرف الأمر كله، وأفهمه، أفهم إنها كانت آهة من تحت، آهة [de profundis باللاتينية: من الأعماق]. آهة لأني أخرجتُ من الماء وديعتها. وحين عادت الآلة الغطاسة إلى المركب الصغير كانت معها حقيبة من خشب الماهوغاني ملفوفة بمشمع ومؤمّنة بعدد من الأختام. كانت الحقيبة مقفلة وعندما فتحها فراتر تاسيتيرنس أخيراً كان المفتاح في داخلها - المغلق

ذاتياً يكون متقوقعاً دائماً على هذه الشاكلة. وبالإضافة إلى كراس مكتوب بعناية وأناقة على نحو خاص من قرطاسية فاخرة جداً، كانت الحقيبة تحوي مجوهرات وأحجاراً كريمة، وخاتماً ذهبياً اعتيادياً حُفر عليه تاريخ، وقلادة من صليب ماسي مربوط بشريط حريري أزرق فاتح زائد مِزْقَة ملصق يعلن عن مسرحية كوميدية، وصفحة منتزَعة من العهد الجديد، كل منها في مظروف من الرق متقن الصنع، ووردة ذابلة في محفة صغيرة فضية – ذهبية، وأشياء أخرى مماثلة من الواضح إنها ذات قيمة عاطفية لصاحبها، لكنها بحد ذاتها ليس لها أي قيمة. ومع ذلك حاول فراتر تاسيتيرنس الوصول إلى مالك حقيبة عُثر عليها في بحيرة سوبورغ في صيف 44 يمكن أن يتصل عن طريق متجر رايتزل لبيع الكتب. وحين لم يكن هناك رد قرر أن ينشر المخطوطة التي وقع عليها. وبمساعدة جدول أجرى حساباته مستر بونفيلس، ماجستير تمكن من أن يحدد إن السنة التي حدثت فيها قصة الخطوبة لا بد أن تكون سنة 1751. وفي المقدمة التي كتبها يطلب في الختام ألا يكون الكتاب موضع أي ذكر نقدي.

هذا الغموض المحيط بظروف النشر قد يكون شبيهاً بمناورة فكتور أيرميتا في مقدمة «إما/ أو» بمحاولته بناء وحدة إنشائية من كتابات كيركغارد غير المتجانسة بالمرة. كما فكر كيركغارد في نشر مذنب؟/ غير مذنب؟ بصورة منفصلة وأعطى المخطوطة ترقيماً خاصاً لصفحاتها. وكانت أُصولها تعود إلى مسودة ناقصة لقصة فكَّر سابقاً في إدراجها ضمن «إما/ أو». وعلى الغرار نفسه أُريد أن يُنشر الكتابان في الخمرة تكمن الحقيقة، وعدة أشياء عن الزواج رداً على اعتراضات في جزء منفصل بعنوان الجانب الخطأ والجانب الصحيح. كما كتب كيركغارد مقدمة لهذا العمل أيضاً. ولكن في وقت متأخر تماماً من العملية، بل في اللحظة الأخيرة تقريباً، جمع الكتابين معاً، ثم تعين عليه أن يخترع شخصية هيلاريوس الوراق ليتمكن من تزوير علاقة راسخة بين القطع المنفردة.

المقاطع المضافة

يروي مذنب؟/ غير مذنب؟ قصة خطوبة قد تكون خطوبة كيركغارد نفسه. وتتوزع القصة على سلسلة من الفقرات في يوميات كاتب شاب اسمه كويدام أصبح خطيب امرأة مرحة اسمها كوادام، لكنه أدرك بعد فترة قصيرة إنهما ليسا

متفاهمين. إذ كان هو يطفح كآبة وتخيلات سوداوية، وهي نقيضه. واستمرت الخطوبة سبعة أشهر مليئة بالتظاهر، ولكن المشكلات الحقيقية لم تظهر إلا بعد انتهاء العلاقة. وكان هناك فيض من هذه المشكلات، ولكن كيركغارد يقدِّم ملخصاً موجزاً لها في اتجاه مسرحي مقتضب: أصبحت الفتاة أكبر بكثير عنده بعد أن تركها. وفي غيابها لم تصبح نوعاً من الهوس فحسب بل إن كويدام كان مسكوناً كذلك بهواجس لا تنتهي عن الذنب الذي (ربما) ارتكبه، أولاً بارتباطه بالفتاة ثم بتركها. وهكذا يكون مذنب؟/ غير مذنب؟ في موضوعته تكراراً للعمل الآخر تكرار ولكنه ذو نطاق أوسع في تذبذباته، والأكثر من ذلك إنه يخلو تماماً من السخرية. وانسجاماً مع ذلك يكون كويدام شخصية أكثر تشنجاً مما كان الرجل الشاب ذات يوم، وأشد توتراً بكثير، وأعمق بشكل واضح.

اليوميات لا تتحدث عن تطور خطي ولكنها سرعان ما تأخذ بالتحرك في دوائر. وفجأة تدور بسرعة حول مركزها المجهول حتى إنها تغور تحت الواقع التجريبي بأكمله مختفية بصمت في الفراغ واللامعنى. وتكون القصة مادة لا تُطاق قراءتها. فإن عذابات كويدام تكاد تكفي لخطف حياة القارئ، ولا أقل من ذلك، ولكن في هذا على وجه التحديد تكمن التفاتة العمل الخلاصية! ويكون مقصد الكتاب المعقد أن نشهد نحن - القراء - الانهيار العصبي للكاتب الممسوس وأن نرى بذلك استغراقه بذاته كحالة شيطانية تشير مباشرة نحو الموت والتحلل. باختصار، إن مقصد اليوميات أن يشخص القارئ صراع كويدام وينأى بنفسه عنه. وبالفعل فإن فراتر تاسيتيرنس وجد في مرات عديدة إن من المغري أن يتخلي عنه [عن كويدام] وينفد كل صبره معه. وهو يفترض، دون أن يكون افتراضه غير معقول، إن القارئ أيضاً كان ميالاً إلى أن يفعل الشيء نفسه. وفي الحقيقة هو يعتقد أنّ من بين قراء الكتاب القلائل سيرفع ثلثاهما الراية البيضاء في منتصفه، الأمر الذي يمكن التعبير عنه أيضاً بالقول إنهم سيتوقفون عن القراءة ويرمون الكتاب جانباً بسبب الملل.

ولكن فراتر تاسيتيرنس بقوله هذه لا يريدنا أن نذهب بعيداً إلى حد رفض النزاع نفسه. فالنزاع في عمقه الأقصى يرتبط بالمجال الديني الذي هو ليس شيئاً للأغبياء والمراهقين غير الحليقين بل أصعب الأشياء على الإطلاق. ويود فراتر تاسيتيرنس أن يدعم هذا التوكيد، ولهذا السبب يرفق بيوميات كويدام (مثل كونستانتين كونستانتيوس) رسالة إلى القارئ تتألف من ست فقرات

طويلة. وهو في هذا الرسالة لا يكرر ببساطة الحركة التحويلية التي يكشف بها كونستانتين كونستانتيوس عن نفسه بوصفه صانع الرجل الشاب فحسب بل يكشف بخبرة سينوغرافية الطريقة التي مارس بها هو نفسه، فراتر تاسيتيرنس، التجريب مع كويدام وكوادام وفق حدود سيكولوجية نوعية تماماً: وضعتُ معاً شخصين غير متجانسين، أحدهما ذكر والآخر أُنثى. هو أبقيته ضمن قوة الروح وربطته بالديني. وهي أبقيتُها ضمن مقولات جمالية. ومن الجائز بكل تأكيد أن يحدث الكثير من سوء الفهم ما أن أضع نقطة التقاء، هي الآتي، إنهما يتوحدان في حب أحدهما الآخر... وإذا أزلتُ العاطفة المتقدة فإن الأمر كله يصبح موقفاً ذا مفارقة يتسم بحبور يوناني. وإذا وضعتُ العاطفة المتقدة يكون الموقف مأساوياً من حيث الأساس... المأساوي إن العاشقين لا يفهمان أحدهما الآخر. والهزلي إن الاثنين اللذين لا يفهمان أحدهما الآخر، يحبان أحدهما الآخر.

هنا كيركغارد من كل الآخرين يفعل هو نفسه ما يكون في أحيان كثيرة وعن صواب موضع خشية فيما يتعلق بتمثيلات كيركغارد البيوغرافية. وهو يأخذ حريته بعض الشيء مع الحقائق، والأكثر من ذلك إنه بعمله هذا يُغري قراءه بالإمعان في الشعرية. والحق إن نقاط الالتقاء بين صراعات كويدام وصراعات كيركغارد الإيروتيكية واضحة تماماً، وإن أوجه الشبه أحياناً تلفت انتباهنا بمباشَرَة مؤلمة – كما حين يقتبس كويدام كلمة مقابل كلمة رسالة الفراق التي كتبها كيركغارد إلى ريجينة حين أعاد خاتمه في 11 آب/ أغسطس 1841 لينهي بذلك علاقتهما رسمياً، أو عندما يضفي كويدام طابعاً شِعرياً على أحداث يوم الأحد في عيد الفصح حين أومأت ريجينة لكيركغارد خلال قداس مسائي في كنيسة سيدتنا، منقولة هنا إلى كنيسة الثالوث ومثقلة باستعراض مسرحي فظ يبدد الشحنة الكهربائية القوية التي تسمّ سرد هذه الأحداث في اليوميات.

هنا، كما في مواضع أخرى، تُخضَع ريجينة لإعادة تعليب شِعرية جذرية، وبالتالي فإن من المفهوم تماماً من الناحية النفسية أن يكون بمقدور كيركغارد الظن بأنها ربما تستغله في وقت ما بالطريقة نفسها. وفي موضع من مسودة مراحل على طريق الحياة سجل كيركغارد ملاحظة هامشية تقول: الرواية القصيرة باسم مجهول التي كنتُ مخططاً بشأنها. والأرجح إن هذا التعليق يشير إلى الرواية القصيرة مقتطفات من يوميات فتاة شابة ومراسلاتها التي أُعلن في

عدد 20 كانون الأول/ ديسمبر 1842 من خلال برلينغسكة تيدندة بأنها نُشرت اليوم. ويجعل السياق الذي كُتب فيه التعليق من الواضح إن كيركغارد ظن بأن ريجينة هي الكاتبة، ولكن من دواعي ارتياحه (ويا للأسف!) أنها لم تكن الكاتبة.

بيد إن خيط السيرة الذاتية التي يسري في مذنب؟/ غير مذنب؟ يتجاوز ريجينة، ويستمر أبعد وأعمق في ستة أقسام مستقلة مدرَجة بين الفقرات التي كتبها كويدام في يومياته، وكل منها مؤرخ بيوم الخامس من الشهر، بدء بكانون الثاني/ يناير وانتهاء بحزيران/ يونيو. ورغم تباين هذه القطع من حيث الموضوعة فإن بالإمكان النظر إليها لدى تفحصها بإمعان على أنها مترابطة ترابطاً حميمياً بأكثر من معنى واحد لأن جميع القطع الست تضفي طابعاً دراماتيكياً على وقائع في الحكاية عن شخص سلَّم نفسه ذات مرة لرغباته الحسية وهو الآن موصوم بعاقبة سقوطه، أخلاقياً وجسدياً. وإذا أعدنا ترتيب التسلسل الزمني الذي تظهر به القطع المختلفة نرى تدريجياً ظهور اعتراف مريع، بطريقة مشفرة على نحو غريب، يتعلق بحوادث وقعت في ماضٍ بعيد بصورة متزايدة ولكن لا مفر منه على الدوام.

في القطع الست كلها تقوم العين المتلصصة أو النظرة الاستنطاقية بدور جدير بالملاحظة: شخص ينظر إلى أحد ما دون أن يكون هو نفسه مرئياً، أو على الأقل دون أن يعرف إن كان هو نفسه مرئياً. أو شخص ينظر إلى نفسه بالنظر إلى الآخر. وهكذا فإن القطعة الأولى ولعلها الأشهر بين القطع المدرجة وهي يأس صامت، تتعامل مع التعاكس المتبادل. وكما تقول المسودة الأولى من هذا القسم: كان هناك أب وابن. كلاهما موهوبان فكرياً. كلاهما ظريفان، وخاصة الأب. ومن المؤكد أن كل مَنْ يعرف بيتهما وزارهما هناك وجده ممتعاً للغاية. وعموماً كانا لا يتناقشان إلا مع أحدهما الآخر، وكانا يسليان أحدهما الآخر بوصفهما عقلين سليمين دون أن يكونا أباً وابناً. وذات مناسبة نادرة، عندما نظر الأب إلى الابن ورآه مغتمّاً جداً، وقف أمامه وقال، يا طفلي المسكين، أنت تعيش في يأس صامت... بعد ذلك لم يتكلما في القضية قط. ولكن الأب والابن كانا اثنين من أكثر الأشخاص الذين عاشوا في ذاكرة الإنسان اكتئاباً... وكان الأب يظن إنه سبب اكتئاب الابن، والابن يظن إنه سبب اكتئاب الأب. لذلك لم يتكلما قط في الأمر مع أحدهما الآخر. وأضاف كيركغارد في النص

الأخير: الابن تماماً كالمرآة التي يرى الأب نفسه فيها، وعند الابن فإن الأب بدوره مرآة يرى فيها نفسه في المستقبل.

بهذه القطعة تُقدَّم شخصية الأب بكامل أبعادها. ورغم إن لا أحد يستطيع أن يكفل أصل الصورة البيوغرافي فإن إقناع القارئ بأن يعتقد خلاف ذلك يتطلب ما يقرب من التدخل العنيف. وتتواصل متابعة موضوعات مماثلة في القطعة الرابعة من القطع المضافة، بعنوان إمكانية، التي إذ تقع في اثنتي عشرة صفحة تكون أطولها. وهي تدور حول ماسك دفاتر في كريستيانسهافن يعرفه الجميع لمواظبته على ذرع المقطع نفسه من الرصيف جيئة وذهاباً صباح كل يوم بين الساعة الحادية عشرة والساعة الثانية عشرة. ورغم إنه مخبول على ما يُفترض فهو محبوب جداً لأنه، من بين أسباب أخرى، ينفق ثروته على الأعمال الخيرية، وخاصة للأطفال. وأصبح ماسك الدفاتر في سن مبكرة متدرباً لدى تاجر من أغنى تجار المدينة كان يثمن شخصيته الهادئة الملتزمة بالمواعيد التزاماً دقيقاً، والذكاء الذي يبديه دائماً. وكان يكرس وقت فراغه القليل للقراءة وتعلم لغات أجنبية وتطوير موهبته غير الاعتيادية في الرسم. وبمرور السنين أصبح منفصماً أكثر فأكثر عن العالم، الأمر الذي هو نفسه لم يلحظه حتى وإن كان ينتابه أحياناً إحساس مؤلم بأن شبابه فاته دون أن يتمتع يوماً بكونه شاباً. ثم تعرف على اثنين من موظفي المتجر الكتابيين كانا عارفَين بأُمور الدنيا. ورغم إنهما كانا يهزآن من سذاجته فإنهما كانا يستمتعان بصحبته ويدعوانه لمرافقتهما في نزهات وزيارات للمسرح. وانتهت إحدى النزهات بعشاء ممتاز بصورة استثنائية ولكن بما أن ماسك الدفاتر الخجول لم يكن معتاداً على المرطبات السائلة فإنه أصبح شخصاً آخر بالكامل، جامحاً وفاقداً للتوازن حتى إنه لم يبدِ أي ممانعة حين اقتيد إلى ماخور، مكان من الغريب بما فيه الكفاية أن المرء يدفع مالاً مقابل ازدراء المرأة فيه. وفي اليوم التالي استيقظ ماسك الدفاتر مكتئباً ومستاء. وإذ لم يكن قادراً على أن يتذكر ما حدث فإنه عزل نفسه عزلة حتى أشد، ولكنه مرض فجأة حتى قتله المرض. وفيما كان ممدداً هناك على باب الموت ظهرت واقعة الماخور من ضباب حمى جسده متخذةً شكل إمكانية مخيفة وكانت هذه الإمكانية إن كائناً آخر يدين بحياته له. ولم يستطع أن يقرر إن كان قلقه نتيجة المرض أو تخيل محموم أو إن المرض يسَّر انبثاق ذكرى أحداث حقيقية كانت مكبوتة. لكنه عاش في

حين إن رئيس الشركة التجارية توفي بعد فترة قصيرة، وماسك الدفاتر ورث ثروته الطائلة. وأتاح له هذا أن ينذر نفسه لدراساته التي انعكس طابعها الخاص في حجم المكتبة الكبيرة التي جمعها بمرور السنين. وكانت المكتبة تضم أعمالاً في علم النفس مصوَّرة بغزارة: كانت لديه أغلى المنقوشات فضلاً عن سلسلة كاملة من رسومه الأصلية الخاصة. وكانت هناك وجوه مرسومة في بورتريهات... وكانت هناك وجوه مصوَّرة وفق أبعاد رياضية... وكانت هناك وجوه مبنية وفق ملاحظات فيزيولوجية، وكانت هذه تُقارَن بدورها مع وجوه أخرى رُسمت وفق فرضيات. وبصفة خاصة كان الشبه العائلي ونتائج علاقات أجيال اهتم بها فيزيولوجياً وفيزيونومياً وباثولوجياً.

ليس علينا أن نفعل أكثر من أن نحك سطح بورتريه ماسك الدفاتر هذا قبل أن يظهر مايكل بيدرسن كيركغارد، رجلاً شاباً. فهو أيضاً كان مقتراً، حريصاً ودقيقاً في المواعيد ليكون بذلك شخصية نالت إعجاب خاله الميسور نيلس أندرسن سيدنغ الذي كافأه بجعله الوريث الوحيد لـ ثروته العظيمة. وهنا، كما في حالات أخرى، فإن تحديد أين ينتهي الواقع التاريخي على وجه الدقة وأين يبدأ الترخيص بالشعر بالكاد يستحق العناء ولكن أهم التفاصيل في تصوير كيركغارد الأول للحكاية هي الآتي: ذات مرة، شخص بأول شبابه، في حالة ذهنية غير متوازنة، سمح لنفسه بالانفلات إلى حد التردد على عاهرة. المسألة كلها طواها النسيان. وهو الآن يريد أن يتزوج. ثم يرفع القلق رأسه. فإمكانية إنه قد يكون أباً، وإن في مكان ما من العالم من الجائز أن يعيش كائن يدين بحياته له هو، تعذبه في النهار وفي الليل. ولا يستطيع أن يقول ذلك لأحد. وهو نفسه ليس على يقين حقيقي من الحقائق.

هكذا تكون زيارة الماخور المصيرية لب الحكاية التي يسربلها كيركغارد بطبقاته الخيالية. ولكن الخوف من عواقب الزيارة لم يكن خوفاً من وجود ذرية ممكنة - هذا تكتيك شِعري لصرف الانتباه. بل الخوف من الإصابة بمرض معدٍ، ولهذا السبب لا يتحرك القلق إلا حين يريد الشخص أن يتزوج مخاطراً بنقل العدوى. وهكذا كان الانهجاس بوجوه الأطفال انهجاساً حقيقياً بما فيه الكفاية ولكن الدافع وراءه مقلوب، إذا جاز القول. وعليه فحيث كان ماسك الدفاتر يدرس وجوه الأطفال ليرى إن كان يستطيع التعرف على ملامحه هو في ملامحهم والتحقق مما إذا كان هو الأب، كان مايكل كيركغارد يدرس وجوه

أطفاله ليرى إن كانوا موسومين للموت كما كان هو. باختصار، لم يكن يبحث عن علامات شبه بل عن علامات سقم.

يُكشَف أصل هذا الخوف في القطعة الثانية، ملاحظة أبرص لنفسه، التي تكون النظرة مبنية في عنوانها أيضاً. تدور القطعة حول سمعان الأبرص، وهو شخصية مستلة من إنجيل متي حيث كان يسوع في بيت عنيا وتقدمت إليه امرأة معها قارورة طِيب كثير الثمن [إنجيل متي، الإصحاح 26: 6 و7]. ولكن بطريقة معهودة في استخدام كيركغارد لمقاطع من الكتاب المقدس فإنه يرفع سمعان الأبرص من سياقه ويضعه بين القبور في البرية حيث نلقاه نائماً على حجر، بعيداً عن البشرية. ثم يستيقظ وينهض على قدميه ثم يصرخ في خواء البرية: سمعان! – نعم – سمعان! – نعم، من المنادي؟ أين أنت يا سمعان؟ – هنا – مع مَنْ تتكلم؟ – مع نفسي – أمع نفسك؟ يا لك من مقرف، بدمامل جلدك، طاعون على كل شيء حي! ابتعد عني، أيها الكريه! اهرب بين القبور! وبعد مونولوج طويل ملتاع يبدو تقريباً وكأنه يتخثر إلى قرحة شفهية متقيحة تعط بنتانة ازدراء الذات، يجلس سمعان الأبرص مرة أخرى ويطلب منسي: منسي! منسي! ولكن منسي رحل. ومنسي في الحقيقة شخصية من شخصيات العهد القديم، ملك يهوذا الوثني الموصوف في سفر الملوك الثاني، الإصحاح 21، 1 – 18 ولكن كما في حالة سمعان الأبرص فإن كيركغارد ينتزع منسي من سياقه التوراتي. وهكذا فإنه غادر إلى المدينة، إذاً. نعم، أعلمُ ذلك. صنعتُ مرهماً يجعل كل دمامل الجلد تنكفئ إلى الداخل بحيث لا يستطيع أحد أن يراها، وسيتعين على القس أن يعلن سلامتنا من الأمراض. علَّمتُه كيف يستخدمه، وقلتُ له إن المرض لا ينتهي من جراء ذلك، بل ينكفئ إلى الداخل، وان نَفَس شخص يمكن أن يصيب بعدواه شخصاً آخر ويتسبب في أن يصبح أبرص بشكل مرئي. ثم هتف بفرح. إنه يكره الحياة، ويلعن البشر، ويريد الانتقام لنفسه؛ يهرع إلى المدينة، ينفث سماً عليهم جميعاً. منسي، منسي، لماذا أوجدتَ مكاناً للشيطان في روحك؟ ألا يكفي إن جسدك مصاب بالبرص؟

تتشكل قصة رمزية شيطانية ومقلقة في عمق هذه الحكاية السوداء، إعادة بناء علاقة قاصمة بالأب. وتتطابق الأحرف الأولى لاسمي سمعان ومنسي مع الأحرف الأولى لاسمي سورين ومايكل، ولكنها قُلبت بحيث إن منسي هو سورين وسمعان هو مايكل. الأب أبرص، والبرص استعارة لمرض السفلس.

والمرهم الذي يستخدمه لمكافحة العدوى ليس اختراعاً شعرياً بل موجود في العالم الحقيقي مرهماً زئبقياً يُعرف باسم المرهم الرمادي كان الأطباء يعتقدون إن له مفعولاً في علاج السفلس. ولكن النتائج الشفائية للعلاج بمرهم الزئبق لا تكون مرئية إلا بعد خمس عشرة أو عشرين سنة. وإذا أُنهي العلاج قبل الأوان فإن المادة المُعدِية تسري داخل الكائن العضوي ويمكن أن تنتقل عن طريق الغشاء الدماغي متسببة في حدوث شلل دماغي أبرز أعراضه جنون العظمة. وإذا وصلت العدوى إلى النخاع الشوكي، من الجهة الأخرى، فإنها تؤدي إلى الشلل الارتعاشي. وينتهي البرص والسفلس اللذان يقترنان بظهور دمامل وعُقيدات فضلاً عن درجات متفاوتة من فقدان العظام ولا سيّما عظمة الأنف، إلى الوفاة ولكن عقوداً تمضي عادة قبل حدوث ذلك.

لم تظهر على مايكل كيركغارد أي من هذه الأعراض ولكنه ربما كان خائفاً من إنه يعيش مع عدوى السفلس في جسده. فهل يفسر هذا سبب انتظاره كل هذا الوقت الطويل قبل أن يتزوج؟ هل أراد أن يتأكد من سلامته؟ عندما توفت كريستين، زوجته الأولى والأحب إلى قلبه، تزوج آنا التي أصبحت والدة أطفاله السبعة، الذين مات خمسة منهم قبل أن يبلغوا سن الرابعة والثلاثين. وبالنسبة لرجل لديه مخيلة كلية القوة لكنها سوداوية كان من المحتم أن تبدو هذه الوفيات بمثابة العقاب الذي يستحقه – ويستحقه لأنه صعد ذات مرة تلا صغيراً في أراضي يوتلاند البور ولعن الله. كان الأطباء مخطئين، فهو سليم لكنه نقل العدوى إلى زوجته وأطفاله. والله لم ينس كُفرَه وكل ما في الأمر إنه كان متمهلاً بل كان في منتهى التمهل.

إنها فكرة مُنفِّرة، وخيال مجنون ولكن كما تروي الحكاية المضافة: ما كان ليُجدي نفعاً إذا أراد أحد أن يساعده. ولعلنا نفترض إن سورين آبي الشاب كان يعرف جوانب من ماضي والده وإنه سمع عن لعنه الرب على الرابية البور. وفي هذه الحالة فمن المؤكد أنه كان سيفعل كل ما بوسعه لطمأنة والده إلى أن الوفيات في العائلة ناجمة عن أسباب طبيعية: إن سورين مايكل توفى بنزيف في الدماغ، ومارين كريستين إثر تشنجات عنيفة، ونيكولين كريستين وبتريا سيفرين نتيجة مضاعفات سببها الولادة، ونيلس أندريس بالتدرن الرئوي، وإن زوجته الأولى توفيت بذات الرئة، وزوجته الثانية بالتيفوس. وكان بمقدور طالب اللاهوت أن يذكر ذلك كله على أنه دليل يؤكد لماذا لم تكن الوفيات انتقاماً

من الله الذي كان يطالب بثمن خطيئة ارتُكبت في الطفولة منذ زمن بعيد جداً. خرافة، توهمات، سوداوية، تعذيب للذات! ولكن ذلك لم ينفع، وفي وقت من الأوقات خلال كانون الثاني/ يناير 1836 تقول اليوميات: صحيح، إن من المؤسِّي والمثير للكآبة في أحيان كثيرة عندما يريد أحد أن ينجز شيئاً في حياته بواسطة الكلمات، ومع ذلك يرى في النهاية إنه لم ينجز شيئاً وإن الشخص المعني يصر بعناد على آرائه. يبدو أنّ الابن بذل محاولة أخرى لتفكيك الخرافة بنية حسنة. فهو شرح وواسى وطمأن واستهان بالقضية كلها. ولكن ذات يوم قال الأب الذي لُثم كبرياؤه بهذه السذاجة الفتيانية، لابنه إنه لا يعرف إلا نصف الحقيقة: كانت اللعنة ترتبط بخطيئة من نوع آخر تماماً، وإنه في شبابه كان أشبه بحيوان جامح وأُصيب بمرضٍ معدٍ، هو عقاب سفلسي. وكان الرب يعرف كيف يثأر لنفسه بشيطانية حتى إنه ترك الآثم نفسه يكون سبب اختفاء عائلته فكان عليه، وهو عجوز منكسر، هيئة مهيبة تتلفع بالأرجواني، أن يبقى في المؤخرة صليباً تذكارياً على قبر كل آماله.

ارتعدت فرائص الابن الأصغر بهذا التفسير السببي الجديد. فهو لم يَرَ نفسه قد جُرد من السلاح لاهوتياً بضربة واحدة فحسب بل انجرَّ أيضاً إلى القصة غير المنتهية بعد عن مرض أظهر موت أشقائه وشقيقاته الخمسة حتميته بأشد الطرق إقناعاً. ولعل المرض دخل دورته الدموية فكان هو أيضاً مريضاً وربما نقل العدوى إلى آخرين، الشيء الذي كان بمقدور والده أن يمنعه لو لم يبق صامتاً بشأن ما يعرفه، ولو كشف الحقيقة عن المرض الفظيع في الوقت المناسب.

في قصة سمعان الأبرص ومنسي هل يواجهنا أصل الزلزال العظيم؟ هل كان موت ماريا لا يُطاق بدرجة مضاعفة لأنه أقنع رجال كيركغارد الثلاثة بأن المرض حافظ على قوته كما هي؟ هل كان سلوك بيتر الغريب إزاء مرض ماريا بسبب خوف عميق من إنه أصاب زوجته بعدوى البذرة القاتلة في العائلة؟ هل كان هذا، ربما، السبب في أنه، وفق نوع من المنطق الجنوني، لم يجرؤ على تقبيلها؟ أم إنه حقاً لم يكن يعرف شيئاً؟ هل كان بكل بساطة متقوقعاً في اعتقاده بالقصة العاطفية عن والده الذي لعن الله هناك على الرابية الصغيرة في يوتلاند؟ أم إن حكاية سمعان الأبرص ومنسي هوس أُضفي عليه بمهارة طابع شعري، مجرد فن إيروتيكي بلا أساس في الواقع؟

هذا الأخير ليس هو الحال على الأرجح لأن الأسطر التالية المأخوذة من فقرة في اليوميات مؤرخة في منتصف أيار/ مايو 1843، تجعل من المؤكد عملياً إن القطعة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بشخص كيركغارد نفسه: مهما كان من أفكار قاتمة وعواطف سوداء ما زالت مستقرة داخلي سأحاول أتخلص منها في قطعة مكتوبة سيكون عنوانها «ملاحظة أبرص لنفسه». والكتابة هي ما كان كيركغارد يعيد فيها اشتغال خبرات صادمة أو مجرد التخلص منها. وهذا أسطع تعبير عن الحقيقة الماثلة في أنّ كيركغارد - وكذلك آخرين - كان يستخدم الكتابة لأغراض علاجية. ولا بد إن الحدس وحده عن بلاء مرض غير مرئي استحضر حالة يأس دائمة، وبالتالي فإن التحليل المستفيض للخطيئة الأصلية [بالدنماركية: Arvesynd، الخطيئة الموروثة] في مفهوم القلق كان أكثر من مجرد مران أكاديمي. ونقرأ في ذلك العمل إن ما تعلّمنا إياه النصوص المقدسة من إن الله يستنزل خطايا الآباء على الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع، إنما تعلنه الحياة بصوتٍ عالٍ. ولا ينفع المرء أن يريد الكلام حتى الإفلات من هذا الرعب بأن يشرح إن هذه الزعم عقيدة يهودية.

لكن الجزء الأكثر رعباً لم يُدرَج في مفهوم القلق بل انكمش خجلاً في الدفتر الأخير من الدفاتر الملونة الصغيرة التسعة التي استُخدمت لكتابة المسودات، وإن اليافطة البيضاء المرفقة بغلافه الورقي الأسود اللماع تقول بإبهام تلفظات لكتاب «مفهوم القلق». وفي اللغات السامية فإن اللفظ هو إضافة حروف علة إلى حروف ساكنة بما يجعل الكلمات قابلة للتلفظ ويعطي المفردات معنى. ولهذا كان كيركغارد يريد بـ تلفظاتـــــــه أن يستجلي معنى مفهوم القلق، ربما للكشف عن نص وراء النص. وهكذا كتب، كنوع من الشعار، على الغلاف الخارجي للكراس بقلم رصاص خشن loquere ut videam te، التي تكون ترجمتها التقريبية تكلم لكي أستطيع أن أراك.

نجد في هذا الدفتر سبع فقرات بلا تواريخ، بعضها كُتبت خلال تحرير المسودة فيما كُتب البعض الآخر في مجرى إعداد النص النهائي بعد التصحيح. وعنوان أول هذه الفقرات هو أمثلة على نتائج علاقات الأجيال، التي تعالج شخصيات مثل هوغنا Hogne، وهو كائن مشوه ولدته أمه بعد إقامة علاقة جنسية مع جني، وروبرت دي ديابله Robert de Diable، الذي كان مفتوناً بشره هو الذي لا قرار له، وميرلن الساحر Merlin the Magician، الذي أيقظ

الرغبة الجنسية في فتاة بريئة. يضاف إلى ذلك، هناك إحالات إلى البعض من شخصيات شكسبير رغم عدم ذكر أي منها بالاسم، وأخيرا إلى سَنسي Cenci، دراما بيرسي بيش شيلي، التي بها يشير كيركغارد إلى قطعة شيلي عن بياتريس سَنسي، التي قتلت والدها لأنه اغتصبها. وما أن نترك غرفة الرعب هذه حتى نقع في الوكر التالي من الرذائل: إدمان الآباء السكيرين ينتقل إلى الطفل / الإدمان على اللصوصية / رذائل غير طبيعية / ميلانخوليا / جنون يظهر في عمر محدَّد. وإذا نظرنا أبعد في صفحات الدفتر الرمادية الحائلة إلى الصفرة نأتي إلى اللفظة الخامسة التي قد تعبر عن الوضع المحدَّد الذي تتبدى فيه بعض الفقرات المكتوبة في وكر الرذائل هذا: علاقة بين أب وابن يكتشف فيها الابن في السر جذور الأمر كله رغم إنه لا يجرؤ على معرفته. الأب رجل وقور، يخاف الله وصارم. وفي مناسبة واحدة فقط، حين كان مخموراً، خرجت منه كلمات قليلة تلمح إلى الأشياء الأشد رعباً. خلاف ذلك لا يعرف الابن المزيد ولا يجرؤ أبداً على سؤال والده أو أي أحد آخر.

أوضح كيركغارد هذه الصورة التخطيطية الموجزة في القطعة الثالثة المدرجة في يوميات كويدام بعنوان حلم سليمان التي تستخدم استخداماً شعرياً حراً قصة العهد القديم من سفر الملوك الأول، الإصحاح الثالث، 5 – 15 حيث يتراءى الرب لسليمان في حلم واعداً إياه بقلب يستطيع به سليمان، كما استطاع والده داود من قبله، أن يميز بين الخير والشر. ويضيف كيركغارد لمسته الدراماتيكية الخاصة في هذه القصة الورعة ليُضفي على علاقة سليمان الشاب وداود الشيخ رعباً خاصاً. والموضوعة هي الخجل وتتردد من الأسطر الأولى: إذا كان هناك أي شيء مثل عذاب العطف فهو أن يكون على المرء أن يخجل من والده، أن يخجل من الشخص الذي يحبه أكثر من أي شخص آخر ويدين له بالدَين الأكبر – أن يكون المرء مضطراً إلى الاقتراب منه وظهره إليه، ويشيح بوجهه عنه كي لا يرى خزيه. ويعقب هذا مشهد ليلي فيه توقظ سليمان أصوات آتية من داخل غرفة نوم والده: إنه في قبضة الرعب. يخشى إن وغداً يريد أن يقتل داود. يقترب خلسة. ويرى داود منكسراً معنوياً. يسمع صرخة اليأس من الروح التائبة. يعود خائر القوى إلى فراشه. يغفو لكنه لا يعرف طعم الراحة. يحلم. يحلم إن داود رجل فاجر، مرفوض من الله، وإن الجلالة الملكية هي غضب الله عليه، وإنه يجب أن يرتدي اللون الأرجواني عقاباً، وإنه محكوم

عليه بأن يسود، محكوم عليه بأن يسمع مديح الناس، في حين إن عدالة الرب تصدر حكمها على الرجل المذنب في السر والخفاء. ويلمِّح الحلم إلى أن الله ليس إله الأتقياء بل إله الفاجرين، وإن على المرء أن يكون فاجراً ليكون من مختاري الله. ورُعب الحلم هو هذا التناقض. ففيما يتمدد داود على الأرض منكسر الروح، ينهض سليمان من فراشه. ولكن ذهنه انفلق. واستبد به الرعب عندما فكر فيما يعينه أن يكون من مختاري الله. ظن إن العلاقة السرية التي تربط الإنسان الصالح بالله، إن صلاح الإنسان النقي أمام الرب، ليس هو التفسير بل إن السر الذي يفسر كل شيء هو الذنب المخفي. وأصبح سليمان حكيماً لكنه لم يصبح بطلاً. وأصبح مفكراً لكنه لم يصبح مؤمناً. استطاع أن يساعد كثيرين لكنه لم يتمكن من مساعدة نفسه. وأصبح حسياً لكنه لم يصبح تائباً. وكان منكسراً لكنه لم يُستنهَض لأن قوة إرادة الرجل الشاب استُنزفت فوق طاقتها. وشق طريقه في الحياة مترنحاً، تتلاطمه الحياة، قوياً، قوياً بصورة خارقة للطبيعة.

ولأن كيركغارد الكاتب كان فناناً بقدر ما كان الشخص الذي يحمل الاسم نفسه طاهراً على وجه التحديد فإن المضامين الملموسة لاعتراف الأب انكفأت في زاوية معتمة ذاتية الصنع مع تفتح القصة. ولكن ما يبقى هو الحقيقة الماثلة في أنّ الابن اكتسب على حين غرة بصيرة في طبيعة الأب المزدوجة، ليعيش، بهذا القدر أو ذاك عن غير قصد، الجانب السقيم المخفي من الوَرَع: الأكاذيب، الجراحات، ألم النفاق، عقم التوبة، أشياء لا تُغتفر إلى الأبد، الحلف مع الشيطان في قلب الأب، الذي ما كان ليستطيع أن يخفيه حتى أكثر أشكال الورع توبةً. ولكن ما لا يقل شراً هو صورة الابن، سورين سليمان، الذي بعد تلك الليلة فقد إنسانيته ليصبح قطعة من العداء الفكري للطبيعة، عقلاً بشعاً مغروساً على نحو متناشز في قنطور كوبنهاغني، عملاقا لا إنسانياً، هجيناً بغيضاً من نقائض تدمر بعضها البعض: رجل حكيم يفتقر إلى الشجاعة، مفكر لكنه ليس ورعاً، واعظ بلا إيمان، شهواني غير تائب، مجروح أخلاقياً في أساس كينونته.

يبدو أنّ حلم سليمان بقوته الرهيبة يقع على مسافة شاسعة عن بيت تاجر الجوارب المتواضع والمتقشف ويستدعي على السواء تفسيراً بيوغرافياً للعلاقات في ذلك البيت. وعليه تكون الرغبة في الخروج باستنتاجات من وقائع القصة المنفردة مباشرة ساذجة بقدر الرغبة في تجاهل كل علاقة. فالمركز

الديناميكي للقصة هو الخبرة الصادمة التي ترتدي شكلاً رمزياً لأن الألم الذي سيرتبط بعرض مباشر للمشهد الليلي سيكون ألماً لا يُطاق. وكيركغارد المتحفظ بشدة إزاء هذه القضية يعطي عرضه - الرمزي أصلاً - طابعاً أشبه بالحلم في ذات اللحظة التي يكاد أن يُعلن فيها الحكم على الأب المنحرف. وفي الوقت نفسه فإن التمثيل الرمزي يستدعي منا أن نُزيل الغموض عن المادة لنتمكن من النفاذ إلى الواقع وراء الكلمات، إلى الأحداث الفعلية في تلك الليلة، إلى صرخة الأب اليائسة. فإلى أي حد يكون لهذه الأصوات المتصاعدة في الليل طابع رمزي فحسب؟ أو لعل الأصوات هي في الحقيقة التفصيل الأكثر جوهرية في القصة؟ أو ربما كانت هذه الأصوات بهيمية أكثر منها تائبة؟ أم ربما إن الابن ضبط ذات ليلة أباه متلبساً بفعل تلويث تجديفي للذات حذر هو نفسه الابن منه؟ فاسق منهار، عجوز بالكاد لديه قدرة حسية...، تقول فقرة متوحشة في اليوميات من عام 1854 حيث يفكر الابن باشمئزاز في الشهوة الجسدية للتناسل - شهوة رفضت أن تموت - هي التي أتت به إلى الوجود؟ أم إنه تأويل شديد الفظاظة؟ هل الأكثر معقولية أن نفترض إن الأب الذي شارك ولديه غرفة نوم واحدة لسنوات عديدة، تمتم أشطاراً قليلة من قصة مروعة في نومه، أشطاراً طورها الأصغر من أبنائه المؤرقين شعرياً بطريقة شيطانية؟ لا نعرف، ولكن الولدين كانا لاحقاً يخافان الكلام في نومهما، وفي عام 1826، عندما شفى بيتر كريستيان من نوبة تيفوس ألمت به، كتب في يومياته، الله حفظني مما كنتُ أخافه أكثر من الموت - من الهذيان.

كانت آخر القطع المدرجة في يوميات كويدام مؤرخة بيوم 5 حزيران/يونيو وعنوانها نبوخذنصر. وهي تتضمن إعادة كيركغارد سرد الفصل الرابع من كتاب دانيال، مقسماً على الطريقة الإنجيلية إلى آيات، راوياً قصة الملك البابلي نبوخذنصر الذي حلم أولاً - ثم عاش الحلم في حياته الواقعية - إن له قلب حيوان بدلاً من قلب إنسان. ولذلك أُجبر على العيش بين البهائم وأكَلَ العشب كالثيران، وابتلّ جسمه بندى السماء حتى طال شعره مثل النسور، وأظفاره مثل الطيور (سفر دانيال، الإصحاح الرابع، 33).

القطعة ما قبل الأخيرة من القطع المدرَجة تجمع كذلك بين الحكمة والجموح. عنوانها درس القراءة وهي تتحدث عن بيرياندر ابن كيبسيلوس، طاغية كورينث. كان بيرياندر معروفاً برفقِه وعدالته مع الفقراء، وكانت حكمته

أسطورية. جريئة كانت مشاريعه، وهذا كان شعاره: الكَدُ يحقق كل شيء. هكذا كان بيرياندر. ولكن هذا لم يكن كل الحقيقة لأنه تحت رماد رفقِه كانت تشتعل بهدوء نار العاطفة، وحتى اللحظة الأخيرة كانت كلمات الحكمة تخفي جنون الأفعال... بيرياندر تحول. لم يصبح شخصاً آخر لكنه أصبح اثنين كان من المتعذر احتواؤهما في شخص واحد: الرجل الحكيم والطاغية، الأمر الذي يعني إنه أصبح وحشاً لا إنسانياً. ولهذه الأسباب ربطت الأجيال اللاحقة اسم بيرياندر بالقول الذي يذهب إلى أنه كان دائماً يتكلم كرجل حكيم ودائماً يتصرف كرجل مجنون. ولم تكن لبيرياندر علاقة جنسية مع أُمه كراتيا فحسب بل إنه في نوبة غيرة ركل حتى الموت أيضاً زوجته الحامل ليسدا التي كان يسميها مليسا. ثم هرب الابنان الفاقدان أُمهما كيبسيلوس وليكوفرون إلى جدهما لأُمهما بروكليس الذي أخبرهما ذات يوم مَنْ هو قاتل أُمهمها. وسلّم كيبسيلوس بالوضع لكن ليكوفرون اختار أن يعبر عن احتقاره لوالده بالبقاء صامتاً: لدى عودته إلى بيت آبائه لم يتفضل قط بالكلام مع والده. فحقد بيرياندر عليه وطرده، وألا يؤويه أحد. وفقط عندما أصبح بيرياندر شيخاً عجوزاً أخذ يبحث عن ليكوفرون الذي لجأ إلى كوركيرا. ثم انتهى مآل الاثنين، الأب والابن، إلى تقاسم المُلك بينهما، ليس كما يتقاسم الأب والابن مُلكاً بمحبة بل كما يتقاسم أعداء الداء الأشياء بينهم. وقررا أن يتبادلا أماكن الإقامة فعاش بيرياندر في كوركيرا على أن يكون ليكوفرون حاكم كورنيث.

تعكس العلاقة بين الشقيقين ليكوفرون وكريبسيلوس اللاتناظر الذي وسم العلاقة بين سورين آبي وبيتر كريستيان. إذ كان الأخ الأكبر مطيعاً وديعاً فيما كان أخوه الأصغر يرفض الامتثال للأب وحوَّل نفسه إلى جلمود لا ينطق. ويكون الرحيل من الوطن إلى المنفى استعارة للرفض في حين إن تبادل أماكن الإقامة مؤشر إلى مصير مشترك، إلى علاقة موجودة رغم كل شيء.

جاءت معرفة كيركغارد عن بيرياندر عن طريق اثنين من كتّابه اليونانيين الكلاسيكيين المفضلين، هما هيرودوت وديوجين لارتيوس. وكان كيركغارد قرأ هيرودوت في ترجمة فريدريك لانغة الألمانية لعمله تواريخ هيرودوت فيما ترجم عمل ديوجين لارتيوس إلى الدنماركية بورغه ريسبريغ الذي أعطاه العنوان تاريخ ديوجين لارتيوس الفلسفي؛ أو حيوات وآراء وأقوال ذكية لفلاسفة معروفين في عشرة كتب. وصدرت الترجمتان في برلين وكوبنهاغن

على التوالي في 1812، السنة التي حملت فيها أم كيركغارد به. وإذا قورنت رواية كيركغارد عن بيرياندر بالأصلَين الكلاسيكيين لعملي هيرودوت وديوجين لارتيوس، يكون لافتاً كيف أنه اتبعهما عن قرب، فيقتبس الترجمة حرفياً في بعض الأحيان أو يعطي ترجمته هو التي تكتسب، بالطبع، نكهة كيركغارد، بصمة أسلوبه المميزة. ومع ذلك فإن القطعة بالأساس شرح مضغوط، كما لو إن كيركغارد كتب مخطوطته ونسخته من كتاب ديوجين لارتيوس على جانبه الأيسر وهيرودوت على جانبه الأيمن. وإذا تجاهلنا بضع كلمات حكيمة مأخوذة من كبير الأساقفة الفرنسي فينيلون وقرأنا القطعة بإمعان فإنها لا تتضمن شيئاً ذا أهمية ليس موجوداً في أحد النصين الأصليين الكلاسيكيين أيضاً. وقد يبدو هذا سرقة أدبية ولكن التفسير جاهز في متناول اليد: في قصة بيرياندر تعرَّف كيركغارد على قصته هو، وتوصل إلى الإدراك الغريب بأنه ليس هو الذي يشرح النص بل العكس، إن النص هو الذي يشرحه. وهكذا أرَّخ النص بيوم 5 أيار/ مايو، عيد ميلاده. وكان يريد التوكيد بأن الأمر كما لو إنه وُلد - ولادة نموذجية وغير مطلوبة - جزء من القصة.

على خلفية حياة كويدام العاطفية المشحونة بالتعاسة، تقول لنا القطع الست المدرَجة، منفردة ومجتمعة، إن الأزمة يجب أن تُقتفى إلى الأب الذي بسبب ذنبه دمر براءة الابن وبذلك حرمانه من الآنية التي هي الشرط المسبق للحب الطبيعي. حتى العنوان مذنب؟/ غير مذنب؟ يكون بذلك مشطوراً بين شخصيتين، أب مذنب وابن غير مذنب.

تقول فقرة كُتبت في اليوميات عام 1843 إنه في رواية قصيرة بعنوان «العائلة الغامضة»، ربما كان بمقدوري أن أُعيد إنتاج مأساة طفولتي: التفسير السري الرهيب للديني الذي قُدم لي في تلميح مخيف، ثم أعطته قوى مخيلتي شكلاً - جريمتي بحق الديني. وهي تبدأ بشكل بطرياركي - رعوي بالكامل لكيلا يشك أحد في شيء قبل Hن تدوي تلك الكلمة بصورة مفاجئة موفرة تسفيراً لكل شيء. كيركغارد لم يكتب قط رواية قصيرة كهذه وبدلاً منها كتب القطع الست المدرجة ورتبها داخل القصة التي تروي خطوبة كويدام ثم نسب العمل إلى فراتر وأخيراً أناط مهمة نشرها بالوراق هيلاريوس.

من وجهة النظر النفسية فإن هذا النأي المنهجي بنفسه عن قصته هو قد يبدو

عملاً من أعمال الكبت ولكنه كان العكس، كان تبديد الصدمة، كان طريقة للتخلص منها. ونقرأ في مفهوم القلق إن الشيطاني هو المنغلق على نفسه حيث يضع فيغيليوس هاوفنينسيس التوجيهات الخاصة بالنشاط العلاجي الذي كان كيركغارد يمارسه بالكتابة: الشيطاني لا يغلق نفسه بشيء بل يغلق نفسه داخل نفسه... وفي الخطاب اليومي هناك تعبير مناسب جداً. إذ يُقال عن شخص ما إنه لن يبوح بها. والشخص المنغلق على نفسه هو على وجه التحديد الشخص الأبكم: اللغة، الكلمة، هي على وجه التحديد ما ينقذ، إنها ما ينقذ من التجريد الخاوي للانغلاق على النفس.

وإذ أُبدلت الصراعات على هذا النحو إلى لغة في مذنب؟/ غير مذنب؟ فإنها أصبحت تدريجياً مراحل مستبدَلة على طريق كيركغارد إلى نفسه، معاداً تقديمها في الحقيقة بكل وجعها ولو مع رثاء المسافة الذي يحرر الصدمة من المجال الخاص فقط ويتركها تولد من جديد فناً.

عينات كتابية

رغم إن مراحل على طريق الحياة كتُب بأقسام متساوية من الدم والحبر فإن الكتاب أُحيل مع ذلك إلى آليات السوق العادية وبالتالي كان لا بد من عمل شيء ما للفت الانتباه إلى وجوده. وارتدى هذا العمل شكل إعلان صغير بتاريخ 30 نيسان/ أبريل 1845 في العدد 99 من جريدة مكتب الإعلان الوحيد المرخص به ملكياً التابع لهيئة الاستعلام في كوبنهاغن (التي نحمد الله إنها معروفة في اللغة الدراجة باسم أدريسيفسن Adresseavisen). وكانت هذه أيام كيركغارد أوسع جرائد المدينة انتشاراً في الإعلانات – كان يُطبع منها ما يربو قليلاً على سبعة آلاف نسخة – وكانت الجريدة تصدر ستة أيام في الأسبوع بإعلانات من كل صنف: مواعيد إبحار السفن ووصولها، وقصائد تذكارية وأحياناً مقالات خبرية وقطع أدبية ومواضيع سياسية ونعوات، وما إلى ذلك. وقبل عامين على ذلك، في 10 نيسان/ أبريل 1843، كان كيركغارد يدرس الإعلانات المنشورة في أدريسيفسن وفجأ وقع على الآتي: بسبب تغيير في الخطط تُعرض للبيع عشر ياردات ونصف الياردة من قماش البومبازين. ويسأل كيركغارد نفسه في يومياته الله يعلم ماذا كانت الخطة الأولى بعدها يكتب إنها قد تكون قطعة ذات شأن من الحوار أن تُقْدِم امرأة شابة خُدعت خلال الأيام الحاسمة قبل الزفاف على نشر

إعلان مؤداه إن عشر ياردات ونصف الياردة من قماش البومبازين، إلخ كان يُراد أن تُصنع منها بدلة عرس. لم توضع هذه القطعة من الحوار قط على لسان امرأة ولكنها بعد فترة وجيزة تسللت إلى كتاب تكرار حيث غُرست في واحد من مونولوجات الرجل الشاب الصاخبة. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 1846 انهمك كيركغارد مرة أخرى في قراءة أدريسيفسن التي كتب إليها القصيدة الغنائية التالية: أوه، أيتها الحلبة الكبرى لأكبر الآمال - أوه، أيها القبر الفسيح للآمال الخائبة. وا أسفاه، في الداخل، أي صراع، أي محنة! كل معلِن يحاول المضي قدماً بطريقة لافتة أكثر من الآخرين. وحتى حروف الأبجدية تُجَر إلى المعمعة... هناك تاجر يترنح تحت الثقل الهائل لحروف الإعلان الضخمة، ويقرأ المرء ما مكتوب تحت بحروف صغيرة: «في هالمستراده، المكان الرابع على اليسار من شارع أوسترغاده، في الغرفة ذات السقف الواطئ...» «في الغرفة ذات السطح الواطئ» - تكتسب هذه الكلمات أهمية لاذعة، وإذ يتأثر المرء (المرء يتأثر) فإنه يفكر في التاجر منكود الحظ في الغرفة ذات السقف الواطئ. أنه قد يُدفن حياً لأن من الواضح إن ثقل الإعلان هو الذي يطحن الغرفة.

كان كيركغارد مأخوذاً بالمنافسة الإعلانية التي تكشفت حتى في الطباعة، عندما يحاول معلِن أن يدوس آخرين تحت أقدامه بمساعدة حروف أبجدية عملاقة! كما راودت كيركغارد فكرة إصدار مطبوع صاخب على نحو مماثل: ملاحظة: على غرار مقدمات نيكولاوس نوتابيني تماماً يجب أن أنشر قطعة سجالية صغيرة. أعتقد أنّ بالإمكان تسميتها نماذج أو عينات لصنوف مختلفة من الكتابة.

لم يُقدَّم العمل المفكَّر فيه قط إلى جمهور القراء ولكن السنوات الممتدة من 1844 إلى أواخر 1847 شهدت إنتاج الكثير من الدراسات لمثل هذه العمل تحت العنوان الجامع عينات كتابية، وعلى غرار مقدمات فإن القطع التي يتضمنها تسخر من الكتّاب المرتزقة أيامذاك والاعتبارات الاقتصادية التي كانت تحكم سوق الكتاب وتخلط بصورة محمومة بين أرقام المبيعات والنوع. وإذا ربطنا القطع المتعددة في كل واحد نجد الملامح الواضحة بدرجة معقولة لوجه كاتب متمرن اسمه الأول فيليباد أو ألكسندر أو ألكسيَس أو تيودور أو بكل بساطة هولغر مع تغيير الاسم الأخير روزينبند إلى روزينبالد. ولكن في النهاية سُميت هذه الشخصية أ. ب. ج. د. ه. و. الرجاء الصالح.

يختفي وراء هذه الحماقات استنكار جاد وقائم على أساس أيديولوجي لصناعة الثقافة المستشرية وعولمة صحافة عمود الأقاويل. بكلمات أخرى، إن ما تحت النار هو انتصار السطحية، ولذلك فإن أ. ب. ج. د. ه. و. الرجاء الصالح ليس لديه أي اهتمام بمظهر الكتاب الذي في الحالة المثلى ينبغي أن يكون مماثلاً لمطبوعات هايبرغ المزوَّقة: ملاحظة. هذا الكتاب ينبغي أن يكتسب أجمل حلة ممكنة: تزيين حافات كل صفحة (كما في كتاب يورانيا)، وكل قسم يجب أن يكون له تصميمه للحروف، حروف أولى تزيينية ولافتة... بعض الحروف مطبوعة بلون أحمر (مثل الكتب القديمة) وبعضها الآخر بالأخضر أو الأزرق، إلخ. والنتيجة كتاب ناجح سرعان ما يراجعه النقاد: خرج من المطبعة مؤخراً كتاب سيكون قنبلة حتى في باريس. الغلاف يبدو هكذا: هناك غار مذهَّب حقيقي على امتداد الحافة، وفي كل زاوية هناك شعار مشغول بالذهب، شيء من هذا القبيل على منديل سيدة. وفي الوسط هناك باقة ورد غالية إلى حد لا يُصدَّق كما نجده على وشاح فارسي حقيقي. الباقة محاطة بالعنوان، مطبوعاً بطريقة التشطيب المطفي... سيكون كثيراً أن ندخل في تفاصيل هذه القطعة المتميزة من الكتابة أو مراجعتها صفحة إثر صفحة، ولذلك لن نوجِّه اهتمامنا إلا إلى الحرف A الذي لا مثيل له على الإطلاق، تبدأ به الصفحة 17.

يعرف أ. ب. ج. د. ه. و. الرجاء الصالح جيداً إن الواجهة الجميلة لا تؤدي المهمة بنفسها فيرمي نفسه في غمرة حملة إعلانية محمومة موجهة إلى مَنْ يُحتمل أن يكونوا مشتركين راغبين. وعندما يسجل خمسون مشتركاً من هؤلاء سيعرض عليهم حلاقة مجانية ويخصص ساعات معينة من كل يوم لتنظيف الملابس بالفرشاة وأداء مهمات وخدمات شخصية أخرى، بما في ذلك تلميع الأحذية. وما أن تُرصد علائم تحسن وهداية بين قرائه سيكافئهم المحررون بـ توصيل ثلث إضافي كل يوم من الرواية الخليعة التي نقوم بتوصيلها الآن. وإذا كان امتلاك معايير أخلاقية أمراً حسناً فإن امتلاك معيار أخلاقي مضاعف يكون أمراً حسناً مرتين. يضاف إلى ذلك أن أ. ب. ج. د. ه. و. الرجاء الصالح يستطيع أن يضمن لقرائه الصوابيين سياسياً بكفالة مكتوبة إنه سيراقب بأكبر قدر من الجدية نمط الملبس هنا في المدينة... وسيحتج بشدة إذا عُد أي شخص، بتبديل ربطة أو زر، أو غياب زر على فستانها، إنها أو إنه تخلف عن إبداء الاحترام المناسب. وعلى الغرار نفسه سيكتب قائمة كل أسبوع تبين عدد أطباق

الطعام التي تقدمها كل عائلة في وجبات عشائها الاعتيادية وكم مرة تستضيف كل عائلة حفلة عشاء. ومن المؤكد أن هذا سيدفع الناس إلى الاشتراك، وحين يكون هناك ألفان على قائمة المشتركين ستكون هناك شجرة كرسمس مع جوائز مناسبة للمشتركين وكذلك لزوجاتهم وأطفالهم. وعندما يكون هناك ثلاثة آلاف مشترك ستكون هناك هدية رأس السنة الجديدة للكبار وكعكات متبَّلة للأطفال. ويبقى غير معروف ما سيحدث عندما يسجل آلاف حتى أكثر ولكن إذا بلغ عدد المشتركين عشرين ألفاً فإني أعتزم شراء حدائق تيفولي بحيث إن دخولها بعد ذلك فلاحقاً يقتصر حصراً وقطعاً على المشتركين عندي. التسويق أمر جيد وأ. ب. ج. د. ه. و. الرجاء الصالح، المتفائل، ليس غريباً عليه، وهو يعرف حيلة تعمل بنجاح: إذا اكتفيتَ بالقول إن لديك كثيراً من المشتركين وتستمر في ترديد ذلك فإنك ستحصل على كثير من المشتركين... وهكذا إذا كُتب في الجريدة كل يوم مبارك إن لديَّ ألف مشترك فإني سأحصل على ألف مشترك. إنها بالطبع تجارة صعبة والمنافسة شديدة، ولكن إذا استخدم المرء أساليب غير تقليدية لا أكثر سيكون النجاح في متناول اليد. وهكذا هو يمدح المعلِن الذي طلع بفكرة حاذقة هي طباعة إعلانه على ورق مصنوع «حصراً وخصيصاً وقطعاً» للمرحاض ومُعَداً للقراءة فيه.

أما المضامين فإنها بالطبع خفيفة فكرياً. وبكل بساطة لم يكن هناك قط سوق للفكر أو الروح: الناس يفضلون الهواء الساخن. وأحد المسجَّلين في قائمة الرواتب بوصفه موظفاً دائماً وكاتب عمود ثابت في المجلة، المدعو فون إشاعة von Hearsay الذي يعرف كل شيء عن انتقال الصوت في وسط اسمُه الجمهرة يجعل الصوت ينتقل بطريقة متفننة بحيث عندما يقول المرء شيئاً فإنه يتحول إلى شيء مغاير تماماً. وستكون في المجلة مساحة لبلاغات صغيرة وإعلانات مصنفة أيضاً مع أخبار الكتب الصادرة حديثاً. وعلى سبيل المثال يستطيع المرء أن يشتري نسخة من كتاب المصطلحات الكنسية أو دليل القساوسة الذي يحوي 500 كليشهة مستهلكة رتبها حسب الحروب الأبجدية إيسايس رمل الشاطئ Esais Beachsand، وهو شماس سابق في حين إن رجلاً يعمل صاحب حانة أخذ على عاتقه أن يحاكم النحو اللاتيني للبروفيسور مادفيغ من وجهة نظر شيوعية. ولكيلا يتعب القراء من كثرة الثقافة الراقية هناك عمود بعنوان النقد والذائقة يكتب فيه صحفي المجلة نفسه ريبورتاجاً حياً عن إعدام

قاتلين يوم أمس في أماغر حيث حضر جمهور كبير، محترم ومتثقف: رغم إن الأحوال الجوية لم تكن رائقة بأي حال فإن أسعد الأمزجة وأقواها التزاماً بالواجب كان ظاهراً في كل مكان. وتمكن ذلك الفنان الجدير مستر مادسن، جلاد كوبنهاغن، من أداء واجبه شديد التطلب بمهارة وبراعة استثنائيتين. بل إن الجمهور كان مغتبطاً بحز الأعناق حتى إنه كان يريد المزيد، ولكن الجلاد مادسن لم يتمكن من تلبية الطلب. ولا المسرح كان غائباً، وبالتحديد الأوبرا الإيطالية التي أمكن كتابة الآتي بشأنها: في الطابق الأرضي لقاعة المسرح كان هناك ثلاثة وتسعون شخصاً وخمسة أطفال، خمسة وثلاثون من هؤلاء كانوا من الذكور وثمانية وخمسون من الإناث. وفي مؤخرة المسرح كان ستون شخصاً ليس بينهم أُناث. وفي المقصورات كان مئتان وثلاثون شخصاً موزعون كالآتي (يتبع). أبواب أخرى من المجلة أسهل على القراءة. وهكذا فإن المعركة في الميدان العام بين الغربان والنوارس تُقرأ بسرعة لأن أ. ب. ج. د. ه. و. الرجاء الصالح لم يذهب قط أبعد من قراءة المانشيت. وهناك حيوية غير اعتيادية في هواية المصارعة مع الريح التي يتكرم فيها أُستاذ متمرس بتقديم توصيات مفيدة: عندي لهذا الغرض مظلة كبيرة ذات ساق متين. الآن سأخرج إلى واحد من أكثر الأماكن تعرضاً للعواصف حيث سأفتح المظلة وأمسكها أمامي، في الريح، مثل القتال بالحربة ضد الفرسان. المسكات هي الآتي: أشدُّ يد على المقبض وإبهام اليد الأخرى يكون على النابض العلوي لكي أستطيع أن أخدع الريح إذا ازدادت قوتها، بإسقاط المظلة – والآن سنخوض المعركة. هذه الهواية شكل في منتهى الفائدة من أشكال التمرين لأن على المرء أن يؤدي أشد الوثبات غرابة.

وإذ تُبدي المجلة ما لصحافة التابلويد من حماسة خرقاء فإنها تحضر أيضاً تجمعات المشاهير. ومَنْ ليسوا بهذه الشهرة، مثلاً، توفر المجلة ملخصاً مستفيضاً لحفلة عشاء أقامتها جمعية لحراس الليل الذين يجتمعون في وضح النهار وبالتالي عليهم أن يغلقوا مصاريع المكان ويضعوا شموعاً مضيئة على الموائد لكي تبدو حفلة عشاء مسائية حقيقية. وبالقدر نفسه من الهباء ما يمكن أن يُقرأ تحت عنوان نشرات إخبارية تتعلق بما حدث لتاجر جملة اسمه ماركوسن في بادستويستراده: ولكن حادثاً وقع على مائدة العشاء سكب فيه تاجر الجملة طاسة المرق على نفسه وعلى السيدة الجالسة بجانبه حول المائدة. وقع الحادث على هذا النحو. في اللحظة التي كان الخادم يقدم طاسة

المرق أراد تاجر الجملة أن ينهض ويرفع نخباً. وبحركة من ذراعه ضرب الخادم وطاسة المرق. هذه هي الحقيقة التاريخية. ونحن ندرك جيداً إن إشاعة قيد التداول تروي القصة بطريقة مختلفة، طبقاً لها إن السيدة على ما يُفترض هي التي ضربت الخادم بحركة من رأسها. ولكن هذه مجرد إشاعة وليس لها وضع رسمي. ولم توجِّه عنايتنا إلى اسم السيدة. البعض يقول إنها مس ليندفاد والبعض الآخر يقول إنها غوستا يوبي. وما أن نعلم مَنْ هو الشخص سننقل النبأ على الفور لأن الاسم ذو أهمية بالغة نظراً إلى أن لا شيء آخر، بالطبع، سيجري على الألسن خلال الأيام الثمانية المقبلة في كل كوبنهاغن، وبالتالي في الدنمارك بأكملها.

خروج هايبرغ

يستطيع العقلاء أن يختلفوا عما إذا كان كيركغارد يكثف مواهبه ككاتب أو يبددها، وإلى أي حد، بالعمل على شيء تافه مثل عينات كتابية في ذات الوقت الذي كان يكتب مراحل على طريق الحياة ولكن في كل الأحوال فإن أ. ب. ج. د. ه. و. الرجاء الصالح وصحبه لم يتعدوا نطاق الأفكار والمسودات. ورغم إن السخط الذي أثاره هايبرغ ويتفجر به كتاب مقدمات، تسرَّب أيضاً إلى صفحات عينات كتابية (حيث اهتمامات هايبرغ الفلكية تُعامل بسخرية خاصة، ويُزوَّد القراء بنسخة من الوصل عن شراء تلكسوب حديثاً) فإن كيركغارد كان يعرف جيداً إن هايبرغ لا يعير هذا النوع من التفاهات اهتماماً ـ وبالفعل فإنه لم يعرْها أي اهتمام.

كانت حصانة هايبرغ بوقار حصانة لا تُطاق. وحتى في وقت متأخر هو آب/ أغسطس 1850 كتب كيركغارد إلى هايبرغ يبلغه إنه ثابت على قراره الأصلي بأن تتسلم نسخة من كل شيء أنتجُه. وبالتلميح إلى ما ذكرتَه أنتَ [هايبرغ] في حديث، من أن أُمطرُك بالكتب، أعرب كيركغاد مع ذلك بدمائة عن الأمل بأن يبقى هايبرغ قادراً على الصمود تحت هذا الوابل المتواصل، ويمكن بذلك أن نخلص منصفين إلى أن كيركغارد حتى عام 1851 على أقل تقدير كان مستمراً في إرسال نسخ من كتاباته إلى هايبرغ. والنسخ الوحيدة الباقية من كتابات كيركغارد التي تتضمن إهداء إلى هايبرغ ومعروفة اليوم هي ثلاثة خطابات تثقيفية وأربعة خطابات تثقيفية وكلاهما من عام 1843، وحاشية ختامية غير علمية من عام

1846 وأعمال الحب من عام 1847 وخطابات مسيحية من عام 1848 والمرض حتى الموت من عام 1849 زائد الكاهن الأعلى - جابي الضرائب - المرأة الآثمة: ثلاثة خطابات خلال سر التناول أيام الجمعة، أيضاً من عام 1849. ولم تُحفظ عبارة شكر واحدة عن هذه الزخات كتبها هايبرغ بخط يده.

ولكن كان هناك استثناء وحيد لأن كيركغارد فكر في مناورة ماكرة. ففي 29 آذار/ مارس 1846 أرسل طرداً يحوي حاشية ختامية غير علمية زائد نسختين من مراجعة أدبية تضمنت تحليل كيركغارد الحماسي لرواية مسز غيليمبورغ القصيرة عصران. وكانت نسخة إلى الأم ونسخة إلى الابن من مراجعة كيركغارد للرواية القصيرة. ولكن بما إن مسز غيليمبورغ كانت تكتب باسم مجهول فإنها اضطرت إلى الاعتماد على ابنها للتعبير عن شكرها على الهدية، وهكذا تسلم كيركغارد أخيراً رسالة من هايبرغ! وصلت بسرعة بعد ثلاثة أيام، في 2 نيسان/ أبريل، وفيها أعرب هايبرغ عن شكره على الطرد الذي كان، في اعتقاده، دليلاً على كرم كيركغارد. واعتبر هايبرغ إن مراجعة أدبية مراجعة شاملة وثاقبة وأغدق المديح على كيركغارد لما أبداه من نكران ذات نبيل أخضع فيه نفسه لمادة موضوعه. وكان هايبرغ أكثر تحفظاً بكثير بشأن حاشية ختامية معلناً إنه سيمضي في الاسترسال طويلاً إذا أردتُ في رسالة كهذه أن أطرحُ الملاحظات والاعتراضات التي سجلتُها خلال قراءتي، لكنه أعرب عن الأمل بأن تتوفر ذات يوم إمكانية تقديم شرح أكثر استفاضة.

لم يقدم هايبرغ هذا الشرح قط. والكتاب الذي تتطلب صفحاته الـ 494 أكثر من ثلاثة أيام لقراءته على الأرجح وجد له مستقَرّاً منزوياً في مكتبة هايبرغ الضخمة - أو على الأقل هذا ما نأمله. وكان بمقدور هايبرغ أن يرى في الصفحة 135 السخرية من اعتناقه الهيغلية وأن يرى نفسه ممسوخاً بصورة كاريكاتيرية في شخص المدعو الدكتور قفزة ظبي Stagleap الذي هو موضوع شهادة متذبذبة بعض الشيء: بحسب روايته هو المكتوبة كتابة جيدة إلى أقصى الحدود، بفضل معجزة حدثت في فندق شترايت في هامبورغ... صباح عيد الفصح، أصبح من مريدي الفلسفة الهيغلية - الفلسفة التي تفترض عدم وجود معجزات... وتبقى القضية كلها محيِّرة إلى أبعد الحدود، حتى إذا افترض المرء إن عيد الفصح جاء مبكراً جداً ذلك العام، في نيسان/ أبريل مثلاً، بحيث إن الدكتور إلى جانب كونه أصبح هيغلياً، أصبح كذبة نيسان/ أبريل أيضاً. في الحقيقة إن هايبرغ تسلم

حاشية ختامية في 29 آذار/ مارس، أي قبل يومين فقط على يوم كذبة نيسان/ أبريل، وهي مصادفة لا يمكن أن تُعزا إلا إلى لُطف القدر الحاقد.

ولكن التجاهل الذي لاقاه كيركغارد من هايبرغ استفزه على الإنتاج. فمهما كان صمت هايبرغ جارحاً لكبرياء كيركغارد فإنه حرره في الوقت نفسه من أي التزامات لاحقة تجاه المراجع الأدبية يومذاك، والمعايير الجمالية النخبوية للياقة، وإجمالاً تجاه النموذج الثقافي الذي كان المتذوقون المدللون لتلك الفترة يريدونه أن يكون موضع احترام. وهكذا فإن مما له مغزاه إن كلمة تربية [بالدنماركية: Dannelse تُستخدم بالمعنى الذي تُستخدم به كلمة Bildung الألمانية] ترد في أحيان قليلة نسبياً - ولكن دائماً بمعنى إيجابي - في كتابات كيركغارد قبل مراجعة هايبرغ لكتاب «إما/ أو» في حين ترد الكلمة بعد المراجعة في أحيان كثيرة إلى أقصى الحدود، وتقريباً على الدوام بمعنى سلبي. فإن بطلنا اليومي في القسم الثاني من «إما/ أو»، وهو القاضي وليام [بالدنماركية: فيلهلم] - وليس من المصادفة قطعاً إنه يشترك بالاسم مع الشخصية الرئيسية في عمل غوته فيلهلم مايستر، الرواية التربوية بامتياز - تحل محله شخصيات هامشية، بل استثناءات مثل إبراهيم وأيوب، وهما شخصيتان سوداويتان ومتقطعتان ومثقلتان بالصراع حتى إن حياتهما تعتمد على التدخل الخارجي وبالتالي إذا أمكنهما النجاح أصلاً فإنهما لا ينجحان إلا بحكم اللامعقول. وكيركغارد لا يكتب روايات تربوية بل روايات ضد تربوية، روايات لا تتحدث عن اندماج الذات بل تفككها.

هذا المنزع كان ظاهراً أصلاً في كتاب الخوف والرعدة الذي بموضوعته - تضحية إبراهيم بإسحاق - وكذلك بالمسألة ذات الصلة بشأن تعليق اللاهوتي للأخلاقي، يشكل انتهاكاً يكاد يكون عدوانياً لتعريف الرواية التربوية. يسأل يوهانس دي سيلينتيو ما المثاقفة الرفيعة إذاً؟ ويكون الجواب جاهزاً له: كنتُ أحسب إنها الطريق الذي يركض فيه الفرد للحاق بنفسه، والشخص الذي لا يقطع الطريق لا يلقى مساعدة تُذكَر حتى إذا ولد في أكثر العصور استنارة. وهكذا فإن يكون المرء مثقفاً هو ألا يعتمد أو يهضم معايير ثقافته وقيمها (العام عند القاضي وليام)، بل أن يلحق بنفسه، أي أن يبدأ من جديد مع نفسه، الأمر الذي يعني بدوره أن يفكر المرء في بدائيته الوجودية ذاتها، في كونه معطى ما قبل ثقافي، في عاطفته المتقدة. وهكذا فكك كيركغارد

القالب الفكري المدمَج في مفهوم المثاقفة الرفيعة، ناقلاً محور التوكيد من استيعاب الأشياء فكرياً إلى الانئسار عاطفياً، وهو بعمله هذا وضع الطبيعة، بصورة متعمدة تماماً، قبل الثقافة. الخادمة العاشقة أساساً، مثقفة أساساً، رجل العوام الذي اتخذ بصورة أساسية وعاطفية قراراً حاسماً، مثقف أساساً، كما كتب كيركغارد في مراجعة أدبية، وهو رأي، بالمناسبة، من المستبعد إنه كان سيُقابل باستحسان في الصالونات التي يتسيدها هايبرغ.

ولكن كيركغارد كان يستطيع ألا يكترث بغياب الاعتراف من جانب هايبرغ. ففي ظرف ما يربو قليلاً على أربع سنوات أصبح أدباً داخل الأدب، وإذا كان الزمن الحاضر ضده فإن المستقبل كان إلى جانبه لأسباب ليس أقلها انتقاده للمثاقفة، وهو نقد لم يستطع أتباع هايبرغ أن يطيقوه. وكتب في ربيع 1846 إن حقي في الشهرة الأدبية هو إني كنتُ دائماً أطرح المحدِّدات الحاسمة للمجال الوجودي في كليتها بحدة ديالكتيكية وببدائية لم تتم، في حدود علمي، في أي أدب آخر، كما لم تكن عندي أي أعمال [عن الموضوع] أستطيع أن أنشد منها ما يرشدني. وهنا أكد كيركغارد بفطنة كبيرة إنه مفكر البدائية. كان تفكيره ابتدائي وأساسي، لم يكن يدين بوجوده إلى إطنابات الفلسفة أو السرقة الأدبية بل استُقي من أعمق أعماق المفكر نفسه. وبهذه الطريقة ميَّز مفكر البدائية نفسه بشكل حاسم عن البروفيسور هايبرغ وصحبه الذين لن يفعلوا سوى تزيين أنفسهم بحُلَّة فلسفية مستعارة، والذين نادراً ما وجد المرء بينهم أو لم يجد قط فكرة بدائية واحدة. ولم يكن من دون سبب إن كيركغارد في قصيدته الساخرة الصغيرة اختار أن يسمي هايبرغ شخصاً مزيفاً، أي شخصية مفتعلة، كوَّنتها الثقافة بخفة وأفلتت من مراسيها في الطبيعة.

البدائية لم تكن ملكية كيركغارد الخاصة فحسب لأن كل امرئ في الحقيقة ينبغي أن يكون لديه انطباعه البدائي عن الوجود ليكون إنساناً. وما يصح على الفرد يصح على العصر: مثلما إن الفشل الأساسي للعصر الحديث هو إنه يجعل كل شيء موضوعياً فإن المصيبة الأساسية للعصر الحديث هي افتقاره إلى البدائية. وقد أصبح نمط الفكر الأكثر بدائية مهمشاً لأنه، من جهة، لم يقدم مادة موضوع فلسفي مبهرجة بل فضل بإصرار البقاء مرتبطاً بمسائل أساسية معينة، ومن الجهة الأخرى لأن هذا النوع من التفكير يصبح خطيراً بصورة استثنائية عندما يُمارس تحت راية الأيديولوجيا. وكتب كيركغارد بسخرية إن

البشر قادرون على بلوغ الكمال، ويستطيع المرء بسهولة أن يجعلهم يفعلون هذا الشيء كما ذاك مثلما يستطيع بسهولة أن يجعلهم يصومون كما يعيشون في متعة دنيوية - شيء واحد فقط مهم عندهم، أن يكونوا تماماً مثل الآخرين... ولكن ما يريده الله هو لا هذا الشيء ولا ذاك بل يريد بدائية. والعلاقة البدائية بالله هي علاقة يرتبط فيها المرء ارتباطاً لا مشروطاً باللامشروط، لكنه إذ يفعل ذلك من المحتم أن يدخل في صراع عميق مع المعايير الاجتماعية والأخلاقية السائدة. لأنه عندما يرتبط الفرد، طبقاً للعهد الجديد، ارتباطاً بدائياً بالله على هذا النحو ويفهمه بطريقته الخاصة فإنه، ما لم يتخل عنه، سيواجه حينئذٍ صداماً.

نقد كيركغارد للمثاقفة الذي بدأ نقداً لسلالة هايبرغ لكنه تطور تدريجياً إلى تشخيص أوسع لتقليدية ثقافة المثاقفة - حيث المثاقفة تصبح مجرد أُمية بورجوازية على مستوى أعلى - تحول هذا النقد إلى طوربيد لاهوتي كان مضموناً أن يصطدم بصروح البروتستانتية الثقافية وأضرحتها. والمسيحية التي نُزع عنها الإرهاب هي في الحقيقة ليست مسيحية على الإطلاق بل أصبحت مجرد فضيلة مدينية وأشكالاً أُخرى من الأُمية. وهكذا يكون من المثير للسخرية تماماً - كما يشرح كليماكس في الحاشية - أن نرى أشخاصاً يكونون مسيحيين بحكم شهادات تعميدهم وحدها ويتصرفون تصرف المسيحيين في المناسبات الطقوسية لأن الشيء الأشد إثارة للسخرية يمكن أن تصبحه المسيحية ذات يوم هو أن تكون ما يُسمى بالمعنى التافه ممارسة معتادة. وأن تكون مضطهَدة أو مبغوضة أو محتقرة أو موضع سخرية أو مبروكة وممدوحة - فإن هذا يليق بأعظم القوى طراً، ولكن أن تصبح عادة معتدلة السلوك، ذوقاً رفيعاً وما أشبه ذلك فإن هذا يكون نقيضها المطلق. أو بأكثر أشكالها اختصاراً: كلما زادت المثاقفة والمعرفة زادت صعوبة أن يصبح المرء مسيحياً.

حاشية: كيركغارد

بهذا القول التوكيدي كان كيركغارد يعتزم أن يقول لعصره المتثاقف وداعاً مثقلة بالقلق. وحدثت الإجازة الرسمية من مهنته في التأليف يوم 27 شباط/ فبراير 1846 بنشره حاشية ختامية غير علمية. شذرات فلسفية. تجميع محاكاتي - إشفاقي - ديالكتيكي. مساهمة وجودية من يوهانس كليماكس Johannes Climacus. وفي هذا العمل يقدم كليماكس إلى قارئه نظرة بانورامية

كبرى إلى كل شيء أُنتج من «إما/ أو» إلى مراحل على طريق الحياة واختتاماً به. ويسمي كليماكس مبحثه لمحة على مجهود معاصر في الأدب الدنماركي مقدماً إياه غاضباً بوصفه نزع القناع عن الاحتيال الأدبي: على امتداد سنوات كان شخص مجهول لكليماكس، اسمه الماجستير كيركغارد، وعدد من المؤلفين الذين يكتبون بأسماء مستعارة، ينشرون ذات الأعمال على وجه التحديد التي كان كليماكس يفكر في كتابتها - لم ينجح إلا في إنجاز شذرات فلسفية. ويمنح هذا كليماكس فرصة كبيرة لتقديم تعليقات على كل هذه الكتابات التي يقيس ترابطها باستفاضة حتى إنه يقترب من إيجاد نظير ذي اسم مستعار للمنظومة الهيغلية التي يشجبها في أحيان كثيرة.

ولكن هنا في الحاشية كان هناك أيضاً تفسير أول وأخير بتوقيع أس. كيركغارد الذي أقر بنشر نتاجاته بأسماء مستعارة. ولكنه أشار في اعترافه إلى أن استخدام أسماء مستعارة أو أسماء متعددة لم يكن له أساس عارض في شخصي... بل كان متجذراً بصورة أساسية في الإنتاج نفسه. ومن أجل السطور الحوارية وتوصيف الاختلافات المتباينة نفسياً بين الأفراد كانت النتاجات ذات حاجة شعرية إلى تعبيرات غير مكبوتة عن الخير والشر، تحطم القلب والغبطة، اليأس والثقة المفرطة، المعاناة والبهجة، إلخ، لا يحدها إلا الثبات النفسي للفكرة [الموصوفة]، وهو شيء ما من شخص حقيقي وفعلي يعيش ضمن الحدود الأخلاقية للفعلية يجرؤ على السماح لنفسه به أو يمكن أن يتمنى السماح لنفسه به. وعليه فإن ما كُتب هو بالتأكيد ملكي أنا ولكن بقدر ما جعلتُ السطور مسموعة بوضعها على لسان الفرد الفعلي شعرياً الذي ينتجها، الكلمات التي تعبر عن نظرته إلى الحياة، لأن وضعي حتى أبعد من وضع شاعر يبدع شعرياً شخصيات ولكنه في المقدمة يكون هو نفسه المؤلف. لا شخصياً أو شخصياً - بصيغة الشخص الثالث - أنا في الحقيقة منظِّم عروض مسرحية أنتج شعرياً مؤلفين، مقدماتهم بل أسماؤهم هي بدورها نتاجاتهم. وهكذا فإنه في الكتب المنشورة بأسماء مستعارة ليست هناك كلمة واحدة مني. وليس لي رأي بها إلا بصفتي طرفاً ثالثاً، ولا أعرف ما تعنيه إلا بوصفي قارئاً... لذلك إن أُمنيتي، بل صلواتي هي إذا خطر ببال أحد أن يريد اقتباس مقطع معين من الكتب فإنه سيقدم لي خدمة بذكر اسم المؤلف المعني ذي الاسم المستعار، وليس اسمي أنا - أي إنه سيسوي الأمور بيننا بحيث إن اللفظة بصيغة المؤنث تعود

إلى الاسم المستعار والمسؤولية، قانوناً، على عاتقي. وهكذا لا تكون هناك علاقة عملياً بين الأسماء المستعارة على اختلافها وكيركغارد نفسه في حين إني، من الجهة الأخرى، قطعاً وبصراحة، مؤلف الخطابات التثقيفية على سبيل المثال، وكل كلمة فيها.

حين يقرأ المرء هذه السطور - التي بذلك تنهي نشاطه التأليفي - يشعر بأنه يُعاد إلى التواطئات التي قدم بها فكتور إريميتا أو هيلاريوس الوراق (أو أي أحد آخر) مروياتهم الخيالية. والحق إن الدقة التي ينفذ بها كيركغارد تبرؤه تخلق شكاً فيما يتعلق بقيمة أقواله وتسند التكهن بأن كيركغارد من خلال نشر كتاباته بأسماء مستعارة تحديداً كان قادراً على السماح لنفسه بالكتابة عما كان خصوصياً بصورة استثنائية. وما نُحرَم من الاطلاع عليه في يومياته - لأنه فيها يكتب باسمه الحقيقي - يُقدَّم بصورة مباشرة أكثر بكثير في الكتابات المنشورة بأسماء مستعارة. وكما سبقت الإشارة فإن رد فعل كيركغارد الغاضب على المراجعات النقدية لم يكن بسبب كبرياء مجروحة فحسب بل أيضاً نتيجة الحقيقة الماثلة في أنّ كتاباته، من بين أشياء أخرى، ذات طابع كاشف عن الذات. وقد كتب من مسافة قريبة للغاية عما يهمه بأشد الصور حميمية، وهو بعمله هذا أفرغ نفسه كذلك. وكتب عام 1847 مبدياً أمانة منعشة: لسنوات عديدة تسببت مالنخوليتي السوداء في منعي من القدرة على أن أقول لنفسي أنتِ بأعمق معنى. وكان عالم كامل من الفانتازيا يكمن بين مالنخوليتي السوداء وأناي. وهذا ما أفرغته إلى حد ما في أسماء مستعارة.

من الآن فصاعداً لم تعد هناك، إذا جاز القول، أزمات إنتاج يستطيع أن يكتب عنها كيركغارد، وكان عليه أصلاً أن يكرر نفسه مرتين: عينات كتابية كررت مقدَّمات، وموضوعة مراحل على طريق الحياة كررت موضوعة التكرار في حين إن هيكل هذا الكتاب كان مماثلاً لهيكل «إما/ أو» - ولو ربما ليس بالقدر نفسه تماما من النجاح. وكان أحد الموتيفات الأخرى التي كانت لدى كيركغارد خطط لتطويرها يتألف من نوع من تكثيف الجمالي: الجزء التالي من يوميات الغاوي يجب أن يكون في عالم اللاذع، علاقته بشابة متزوجة. وفي الحقيقة إن كيركغارد خطط صفحة عنوان من نوع ما: يوميات الغاوي/ رقم 2/ مقالة عن الشيطاني/ بقلم/ يوهانس مفيستوفيليس. ولكن بعد فترة قصيرة على ذلك توفرت الموضوعة من زاوية جديدة بالكامل: قد يعجبني أن أكتب

نظيراً لـ يوميات الغاوي. وستكون له شخصية نسائية، يوميات الغانية. فتصوير مثل هذه الشخصية يستحق العناء. ومن المؤكد أنها كانت تستحق العناء ولكن كيركغارد كان يعرف جيداً إنه استهلك حصته من الإيروتيكا ولذلك كتب هذه الملاحظة التوكيدية في الهامش: ملاحظة. هذا ما يريده العصر، أن يقع خائراً أمام ما هو رذيل ثم يتخيل إنه متفوق. لن يحصل على ذلك مني أنا.

كان على كيركغارد أن يبحث عن مادة وينتظر دفعة. وتلقى كلاهما بوفرة من مصدر غير متوقع بالمرة.

10. على اليمين حيث يشكل مبنى البورصة خلفية بارزة، نرى الشقيقات الست كما كانت المنازل البورجوازية الستة ذات الطراز الواحد تُسمى وقتذاك. وهنا عاشت مس ريجينة أولسن مع أفراد عائلتها. وفي عام 1866 رُدمت القناة التي كانت معروفة باسم خندق البورصة وحل محلها اليوم شارع سلوتسهولمسغادة.

11. الرسم الآخر الذي أنجزه نيلس كريستيان كيركغارد لابن عمه سورين آبي في حوالي عام 1840. وكان الوجه المنحدر من وجنتين عريضتين تماماً ثم يضيق إلى حد التدبب، من سمات والد كيركغارد وشقيقته المفضلة بيترا أيضاً. وتبدو عيناه محدقتين إلى الأبد في حين إن لشفتيه خطين حيويين. وذكر نيلس كريستيان كيركغارد لاحقاً إن التخطيطين اللذين رسمهما ناقصان جداً لأن سورين آبي خدعني بعدم الكشف عن كل شيء - بعد أن جلس أمامي في مناسبتين.

12. ريجينة أولسن. إذ تحمل كل صفات المرأة المثالية الرومانسية فإنها حقاً جميلة وهي تبدو جالسة في هذه الصورة، ابنة ثمانية عشر ربيعاً رسمها أميل بارينتزين بهذه الصورة العفيفة لكنها حميمة عام 1840. وفي هذا العام نفسه أصبحت خطيبة كيركغارد الذي كان يكبرها عشر سنوات ضامنة لنفسها خلوداً أدبياً دون أن تدري. وبعد عام ونصف العام على ارتباطها الفاشل بكيركغارد أصبحت خطيبة فريتز شليغل الذي كان دبلوماسياً في مهنته وطبعه وبالتالي كان مناسباً لدور الزوج.

13. كولتورفيغ منظوراً إليها من ركن بوسترفيغ باتجاه نوريبورت. في عام 1843 كانت لدى كيركفارد خطط لوصف أحياء مختلفة من المدينة تحيكها أجواء شعرية إن جاز التعبير، مثل كولتورفيغ. وقبل عامين على ذلك كان يسكن في إحدى شقق هذه العمارة الكائنة في 11 كولتورفيغ

مع طالب جامعي من يوتلاند الجنوبية. اليوم يشغل المكان مقهى اسمه كلابتريت. وراء المبنى الثاني على اليمين نرى روزنبورغاده في السنوات 1848 – 1850. كان كيركغارد يعيش في النهاية الأخرى من هذا الشارع.

14. يوهان لودفيغ هايبرغ. في القضايا الأدبية والجمالية كانت مرجعية هايبرغ لا تقل ولا تزيد عن مرجعية مينستر في الشؤون اللاهوتية والكنيسة. وكان كيركغارد أيام شبابه يتردد على منزل هايبرغ في كريستيانسهافن ضيفاً على الثنائي الشهير والقوي، هايبرغ وزوجته. وسرعان ما اكتسب كيركغارد اللغة الظريفة والأنيقة لحلقة هايبرغ وكاد يطير من الفرح عندما نَسَبَ أحد ما خطأً إلى هايبرغ أحد المقالات التي نشرها كيركغارد باسم مستعار. ولكن عندما راجع هايبرغ «إما/ أو» وقال إنه كتاب وحش ثم كان فظاً بطريقة مماثلة في معاملته كتاب التكرار، غيَّر كيركغارد اتجاهه وجعل الموقف الهايبرغي – ومعه هيغل وغوته – هدفاً لكراهيته.

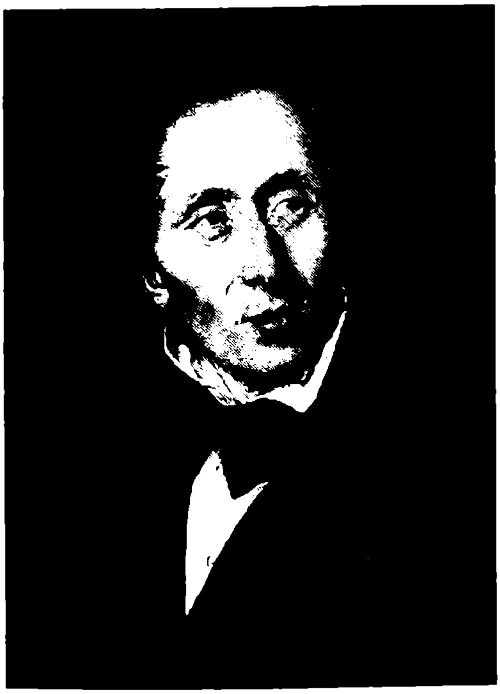

15. هانز كريستيان أندرسن. كتب في قصته فرخ البط القبيح إنه كبير وغريب المنظر ولذلك يجب السخرية منه. وهزأ منه عدد من الأشخاص بينهم كيركغارد الغريب الذي وبَّخه في كتاب «من أوراق شخص ما زال على قيد الحياة» عام 1838، وهو كتابه الأول الذي اتسم بأسلوب متكلف وجمل طول الواحدة ميل. وقيل إن كيركغارد وأندرسن هما الوحيدان اللذان تجشما عناء قراءة الكتاب كله. وجعل هذان الرجلان حين كانا على قيد الحياة الأدب الدنماركي أدباً معروفاً على الصعيد العالمي وكثيراً ما يُذكران في سياق واحد لكنهما كانا يتجنبان أحدهما الآخر – على الأرجح لأنهما كان يعكسان مواطن ضعف أحدهما الآخر.

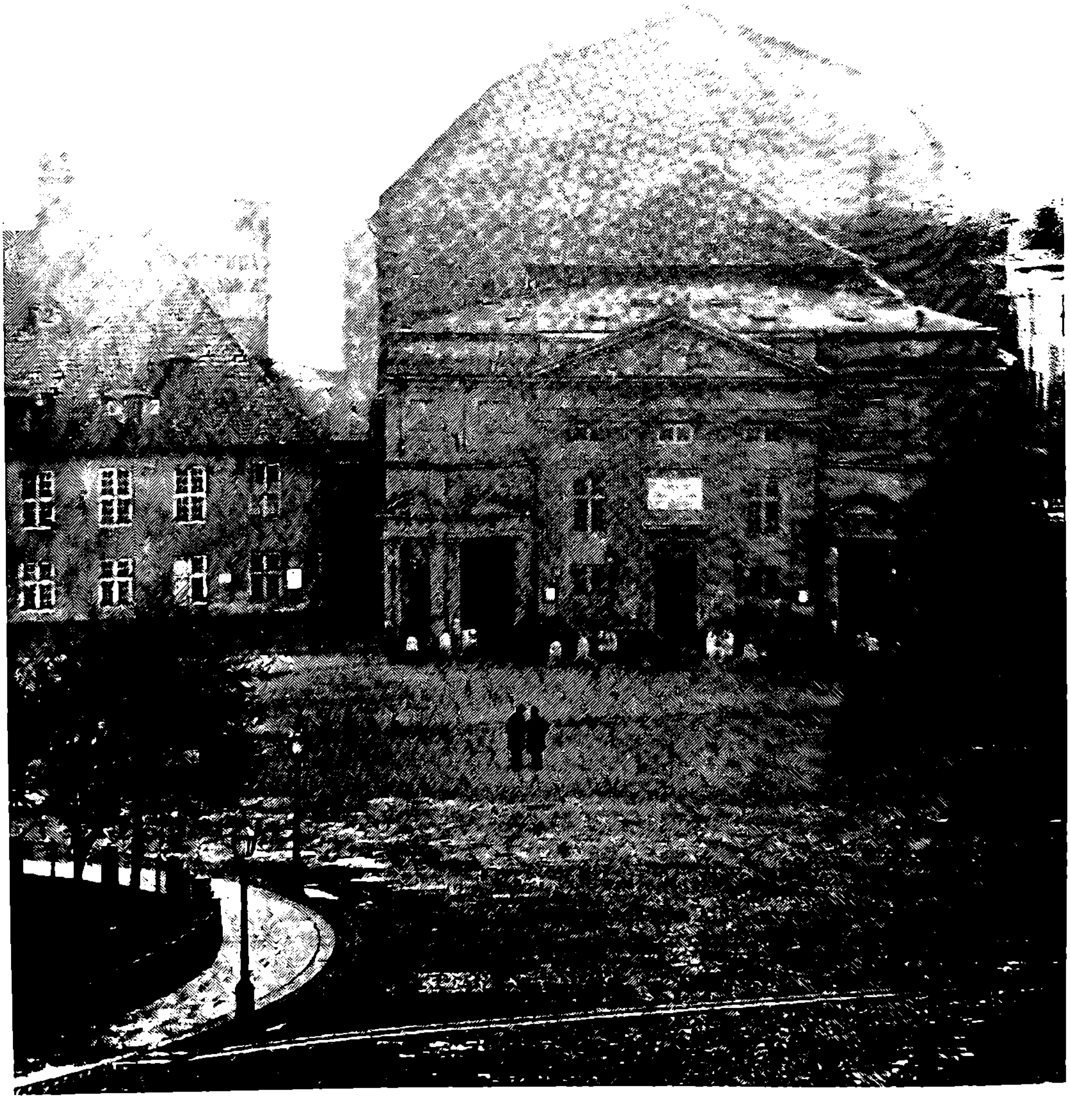

16. المسرح الملكي في ميدان كونغينز نيتروف بناه نيكولاي آيغتفيد في عام 1748 ولكن أُعيد بناؤه وتوسيعه فيما بعد عدة مرات حتى أصبح يشبه فيلاً منهاراً. ولكن هنا كان أوهلينشلاغر وهايبرغ وبورنونفيل يحتفلون بانتصاراتهم – وكيركغارد كان المتفرج اللاهث. والمفارقة إن المسرح، بخلاف العديد من المباني الأخرى، نجا من الحريق ولم يُهدَّم إلا في عام 1874.

17 - إسرائيل ليفن. أحياناً كنتُ أمضي نحو ثماني ساعات في اليوم معه. ومر وقت كنتُ أتناول الطعام في منزله كل يوم لمدة خمسة أسابيع، كما كتب إسرائيل ليفن في شهادته الاسترجاعية عن الفترة التي كُتب فيها كيركغارد مراحل على طريق الحياة. وكان ليفن أكاديمياً أدبياً وكاتباً ومترجماً وناشراً وشخصاً مشاكساً وسكيراً وكارهاً للمرأة، وأكثر من ذلك بكثير - بما في ذلك العمل سكرتير كيركغارد. وبعد وفاته كانت متعلقاته تضم مجموعة من 150 ألف بطاقة وبداية قاموس أصبحت جزءاً أساسياً من قاموس اللغة الدنماركية الذي يتألف من ستة وعشرين جزءاً.

الجزء الثالث

1846

المعجبون بفيكتور إريميتا

ذات يوم ربيعي في عام 1843 بادر ماير آرون غولدشمدت إلى تنظيم ندوة ليست اعتيادية تماماً وأرسل دعوات تحريرية إلى شخصين. رد واحد منهما فقط هو بي. إيل. مولر، ولم يكلف الآخر نفسه أن يرد على الدعوة. وكان هذا مبعث أسف إضافي لأنه كان السبب الحقيقي وراء الندوة، والقصد من الفعالية. ولكن أحداً لم يستطع أن يلومه بصورة معقولة لأن هذا الشخص الغائب لم يكن إلا فكتور إريميتا، الاسم المستعار لمؤلف «إما/ أو».

رغم غياب ضيف الشرف كانت مأدبة العشاء التي أقامها غولدشمدت نجاحاً لا يُنسى. وحضر بي. إيل. مولر على النحو الموصوف في الدعوة متوَّجاً بأكاليل الغار على الطريقة اليونانية وبروح احتفالية، وقام غولدشمدت الذي كان يدرك جيداً إن ندوة تعني حفلة تدور فيها أقداح الخمرة، بفتح قنينة من النبيذ الإيطالي الفاخر، المعروف إنه يساعد في التشجيع على ظهور الحقيقة. وبالفعل فإن حقيقة العبقرية الرائعة لفكتور إريميتا ظهرت حقاً - مطبوعة في الحقيقة وبفضل غولدشمدت نفسه. ففي عدد 10 آذار/ مارس 1843 من مجلة غولدشمدت ذات الشعبية الواسعة Corsaren كورسارن [بالإنكليزية The Corsair: القرصان أو سفينة القراصنة]، راجع غولدشمدت كتاب «إما/ أو» بحماسة معلّياً مؤلفه إلى السماء بالمديح: هذا المؤلف صاحب فكر قوي. إنه أرستوقراطي فكري، يزدري الجنس البشري كله كاشفاً عن بؤسه. ولكن من حقه أن يفعل ذلك. فهو صاحب فكر استثنائي. وحتى إذا كانت هذه كلمات مفخمة إلى حد بعيد كي تُقال في وقت مبكر هو آذار/ مارس 1843 فإن مولر لم يملك إلا إعلان اتفاقه معها. وتذكر غولدشمدت لاحقاً إن مولر أيضاً كان يعتقد

إن فكتور إريميتا أكثر الهيلينيين موهبة من الناحية الفكرية أحيته الأزمنة الحديثة. فهناك ثروة من الأفكار والطرافة والتهكم والتفوق - ولا سيّما هذا الأخير. إذ كان يقف متفوقاً على كل شيء آخر - إذا لم يكن بشخصيته فبأفكاره - ومن الجائز أن يكون هو نفسه كاتب «إما/ أو»، «كلاهما/ و». ولم يكن فكتور إريميتا أو بالأحرى مؤازره الأدبي، الذي كان الرجلان يعرفان تماماً اسمه القانوني، إلا كبير المتحدثين باسم النظرة الجمالية إلى الحياة.

كانت الأجواء منعشة في تلك الأمسية الربيعية، وكما يكتب غولدشمدت مستحضراً سيناريو أوسطياً: لم يحدث من قبل أو منذ ذلك الحين أن دردشنا على هذا النحو - كأننا تحت عرائش الكروم المتلألئة بأشعة الشمس على شاطئ البحر الأيوني. ولم يتعكر صفو الملتقى اللطيف من كل ناحية أخرى إلا للحظة عابرة بتحفظ صغير واحد من جانب مولر. ذلك إن مولر كان يرى إن «إما/ أو» إذ كان عملاً ممتازاً بكل تأكيد فإنه مع ذلك يتألف من خيوط الفكر وليس من لحم ودم. ولكن بدا وقتذاك إن هذا الاعتراض لا يعدو كونه تفاهة عابرة، ثم نهض مولر وأطلق الإعلان الآتي: الآن سأعقد حلفاً معكم: يجب أن نبقى كلانا في خدمة الحقيقة الأدبية، وإذا اقتضت الحاجة ذات يوم فإننا سنقف بشكل أعمى ضد أي كان، بما في ذلك ضد أحدنا الآخر... ومن باب المكافأة سنبقى شباباً لا نعرف الفناء. ويواصل غولدشمدت: تصافحنا على هذا الحلف، كلانا بجدية تامة على ما يبدو، وأنا على أية حال كنتُ متأثراً بعمق. وربما كان مولر ذو المفارقات، متأثراً بعمق كذلك، وفي هذه الحالة فلسبب مختلف تماماً عن الأسباب التي تأثر بها غولدشمدت الذي لم تكن لديه القدرة التخيلية لأن يخمِّن ما كان يجول في ذهن مولر عندما تحدث عن حرب شاملة في خدمة الأدب.

بعد ثلاث سنوات، في عام 1846، شعر غولدشمدت ملزَماً بالتخلص من مجلة كورسارن. وكان السبب كيركغارد. وفي ذلك العام نفسه أصبح كيركغارد السبب، ولو بصورة غير مباشرة، وراء طرد مولر بشكل مؤكد من النخبة الأدبية. وإذ أُصيب مولر بخيبة أمل عميقة فإنه غادر الدنمارك بعد عامين وانتقل إلى فرنسا حيث توفي لاحقا في مدينة ديب. وسجل كيركغارد انتصاره بارتياح ولكنه في الوقت نفسه اعترف بمرارة شديدة بما أنجزه الثنائي غولدشمدت ومولر معاً. فهما غيَّرا حياته تغييراً جذرياً بحيث يمكن تقسيمها إلى فترة ما قبل

كورسارن وفترة ما بعد كورسارن. ولم يكن لدى غولدشمدت أيضاً شك في ذلك. وفي مذكراته التي كتبها بعد أكثر من ثلاثين عاماً وصف الأحداث بأنها دراما وكارثة على ثلاثة أشخاص، أنا الوحيد الباقي منهم.

ولا يحتاج المرء إلى أن يكون شارلوك هولمز للحدس بأن هذا يرتبط بأحداث أشد تعقيداً مما سيعده واطسن ابتدائياً، ويجوز أن نسأل بكل تأكيد كيف وصلت الأمور إلى حد لم يكن مقصوداً بالمرة.

كورسارن – مجلة شيطانية

في 8 تشرين الأول/ أكتوبر 1840، بعد شهر على وجه التحديد من خطبة كيركغارد على ريجينة، صدر العدد الأول من مجلة كورسارن. وأسس المجلة غولدشمدت الذي كان يكتب غالبية موادها مبدياً الكثير من المثابرة والشجاعة، وروحاً ممتازة. وكان أيام شبابه نصيراً متحمساً للثورة الفرنسية وفي كوبنهاغن وجد أربعة يفكرون مثله هم بول تشيفيتز Poul Chivitz وآربو مالر Arboe Mahler وموظف كتابي اسمه بيسروب Bisserup وساعاتي ثوري معروف باسم دانتون Santon. وفي النهاية لم يُضَم هذا الشخص دانتون إلى عضوية هيئة التحرير. فهو كان أكثر ثورية من أن يُضم إليها. ولكن دانتون هو الذي أعطى المجلة اسمها. فهو حين سمع إن هناك خططاً لإصدار أسبوعية ساخرة وسياسية هرع على الفور إلى المتاريس معلنا بحماسة هذه هي! مجلة جديدة، مجلة شيطانية، «قرصان – شيطان» حقيقية مثل تلك التي يمتلكونها في باريس!

بالإضافة إلى شيء من السخرية الشيطانية تضمن العدد الأول مقالين من طبيعة برنامجية. أول هذين المقالين – نَخَب يمكن أن يكون بمثابة برنامج – يعلن إن في النية أن تبقى المجلة معارضة للمحافظين والليبراليين على السواء متخذة موقف الوسط بين الحزبين. وفي شعار مستعار من العاهل البورجوازي الفرنسي المعتدل لوي فيليب، كان هذا يُسمى juste-milieu الوسط السعيد، أوضحته المجلة لاحقاً بطريقة لافتة: حين ترى شخصين يتشاجران ويأتي شخص ثالث فيتشاجر مع الاثنين على السواء، ماذا تُسمي هذه الشخص الثالث؟ مشاكساً؟ قد يكون هذا صحيحاً بكل تأكيد ولكن ينبغي أن تقول إنه الوسط السعيد لأنه لا يتخذ هذا الجانب ولا ذاك بل يشتبك مع الاثنين بطريقة غير متحزبة، وهذا على وجه التحديد ما يُسمى juste-miliieu الوسط

السعيد حين يكون مفيداً فائدة قصوى. وفي المقال البرنامجي الآخر - البرنامج الحقيقي - يذهب غولدشمدت أبعد قائلاً إن كورسارن لن تعمل كمجلة سياسية بالمعنى الضيق للكلمة بل ستكون ناطقة باسم الرأي العام وستكون بذلك ذات اهتمام لجميع طبقات القراء. وفي هذا المقال نفسه نَعلَم إن غالبيتنا طلاب جامعيون ولذلك من الطبيعي أن يعتبروا من الواجب أن ننفذ بكل ما أُوتينا من قدرة الالتزام الأكثر التصاقاً بكون المرء مواطناً من مواطني الأكاديمية: الحفاظ على نقاء الأدب وكرامته والدفاع عنهما. وفي الختام يتضمن البرنامج الحقيقي بضع كلمات عن اسم المجلة لأنه قد يكون هناك البعض ممن يجادلون كالآتي: «إن كورسارن سفينة قراصنة أو ليست أفضل كثيراً من سفينة قراصنة. وبالتالي فإن هذه المجلة لن تكون أفضل كثيراً من مجلة قرصانية، وإذا كانت لا تنهب الناس فإنها في كل الأحوال تسلخ جلدهم». وكان من دواعي ارتياح الجميع إن المحررين استطاعوا أن يقدموا تطمينات بأن هناك رؤى مختلفة تماماً بل رؤى نبيلة وراء المجلة: نحن تخيلنا سفينة مأهولة بشباب شجعان يكونون، في معمعان المعركة والإقلاع بأشرعة كاملة، مصممين على القتال تحت رايتهم من أجل الحق والإخلاص والشرف. بكلمات أخرى أن مجلة كورسارن لن تكون وريقة دردشة كغيرها في تلك الفترة، مثل بوليتفينين Politvennen [بالدنماركية: صديق الشرطي] وراكتين [Raketten الصاروخ]. كان هناك قدر كبيرة من المفارقة غير الواعية مدغمة بهذه الإعلانات البرنامجية لأنها ترسم نهجاً خرجت عنه مجلة كورسارن من البداية. وفي الحقيقة إن المجلة لم تبحر قط بين المحافظين والليبراليين لكنها كانت على يسار المعسكرين بصورة واضحة. ومن زاوية النظر هذه سرعان ما بثت المجلة الخوف والرعب بهجمات متهورة وضعتها في نزاع دائم مع الرقابة. وأُبقي قادة شرطة مختلفون، ولا سيما رايرسن الذي كان شخصية معروفة يومذاك، منشغلين بإعلان الأحكام وعقوبة السجن على رؤساء تحرير مختلفين كانوا واجهات تظهر أسماؤهم على الصفحة الأولى في تعاقب متسارع. وعمل رئيس تحرير الأعداد الثلاثة الأولى شخص اسمه ليند وهو بقال سابق سكير بعض الشيء، على الأرجح لم يكن يعرف القراءة والكتابة. ثم جاء بعده بوخ وهو بحار عجوز بائس التقاه غولدشمدت صدفة ذات مساء في هويبرو، ومقابل بضع كلمات طيبة وشيء من المال تولى منصب رئيس التحرير. وهكذا. وخلال الأشهر الستة الأولى تعاقب على مجلة

كورسارن ما لا يقل عن ستة رؤساء تحرير كانوا واجهات من هذا النوع في حين إن رئيس التحرير الحقيقي غولدشمدت كان غائباً بشكل صارخ خلال السنوات الثلاث الأولى من عمر المجلة ولم يظهر إلا في العدد 161 عندما نُشر اسمه في قعر الصحفة الأخيرة حيث أُدرج بوصفه ناشر المجلة فحسب. وهكذا عندما أشار كيركغارد لاحقاً إلى هيئة تحرير من الأوغاد فإنه لم يكن بعيداً عن إصابة الهدف.

أدّى تغير رؤساء التحرير إلى شائعات مثيرة (وزيادة في التوزيع) عن وجود لجنة تضم خمسة عشر طالباً جامعياً متعاهدين على الكتمان، كانوا يعقدون اجتماعات تحريرية سرية في أماكن مختلفة في أنحاء المدينة. ولكن الحقيقة كانت أقرب إلى نقيض ذلك. فعندما حُكم على ليند بالسجن على الخبز والماء، ساورت تشيفيتز وبيسروب ومالر توجسات جادة حتى إنهم نسوا تماماً ميولهم الثورية. وانسحبوا من المجلة تاركين غولدشمدت يتعامل مع نوعين من الأحكام، الأحكام القضائية والأحكام الصحفية من ذلك الوقت فلاحقاً، وبالمعنى الحرفي تماماً. ونتيجة لما سُمي قضية كورسارن الكبرى عام 1842 حُكم على غولدشمدت بالسجن أربعة وعشرين يوماً مع غرامة قدرها مئتا ريكسدولار، بالإضافة إلى إخضاعه للرقابة المسبقة مدى الحياة. ولكن هذه المصاعب كلها لم تفعل سوى تقوية غولدشمدت وابتداء من العدد 95 أشار إلى عناده المتمرد بتزيين الصفحة الأولى من مجلة كورسارن بسفينة قراصنة ترفع العلم الأسود ذا الجمجمة والعظمين المتصالبين وراية تخفق في المؤخرة عليها شعار الثورة الفرنسية – ça ira، ça ira – وهو شعار تم اختياره بعناية ترجمته التقريبية كل شيء سيكون على ما يُرام!

وإذا أفلتت مجلة كورسارن من مقص رايرسن فإنها كانت تصدر كل يوم جمعة بثلاثة آلاف نسخة. وكانت متوفرة في كل متاجر بيع الكتب في الدنمارك والسويد والنرويج، ومقابل خمسة ماركات فقط كل ثلاثة أشهر كان بمقدور الشخص أن يقضي وقتاً ممتعاً – إلى أن يأتي الدور عليه للهزء منه على أعمدتها الساخرة. وهذا ما حدث، على سبيل المثال، مع جي. إيل. هايبرغ الذي قبل ثمانية عشر عاماً من وفاته أُتيحت له فرصة أن يقرأ نعيه حيث كُتب بعاطفة جياشة إن عهده حاكماً أعلى للذائقة الأدبية وصل الآن إلى نهايته. وكان الجميع يقرؤون المجلة، من الشعبي إلى الأرستوقراطي بل إنها حتى وجدت طريقها

إلى الحجرات الملكية حيث لا بد إن الشَعرات الرمادية الصغيرة على رأس الملك كريستيان الثامن كانت تقف بسببها - ما كان الملك ليعجب بالحماسة الجمهورية للمجلة. وكتب هانز كريستيان أندرسن الذي نال هو أيضاً نصيبه من اهتمام المجلة، بدقة كبيرة عن نوع الحركة التي كانت المجلات الرخيصة تطلقها: في البيوت الراقية لا يشترك فيها إلا الناطور أو الحوذي لكن الأسياد يقرؤونها بنهم.

نشر عدد 14 تشرين الثاني/ نوفمبر 1845 من مجلة كورسارن مراجعة لرواية كارستن هاوخ القلعة المطلة على نهر الراين، مُدح فيها كيركغارد، بشكل عابر، على حساب أورلا ليمان لأن ليمان سيموت ويطويه النسيان ولكن فكتور إريميتا لن يموت أبداً. وفي اليوم التالي كتب كيركغارد مقالاً طويلاً بعنوان نداء إلى كورسارن تضمن الآتي من بين أشياء أخرى: Sin sang resches Tubalcain، التي تُترجم إلى كورسارن القاسية المتعطشة للدماء، السلطانة الجبارة، تمسكين أرواح رجال مثل لعبة بيدك الجبارة ومثل نزوة في سورة استنكارك - أوه، اسمحي لنفسك أن تتأثر بالرأفة وضعي نهاية لهذه العذابات - اقتليني، ولكن لا تخلديني! بقي النداء الموقَع باسم فكتور إريميتا في درج منضدة كيركغارد، ولكنه أظهر إن كيركغارد يستطيع أن يعزف النغمة الصحيحة وإنه ينزع إلى الاشتباك في معركة ديوك فكرية مع مجلة كورسارن ليثبت بذلك إنه هو أيضاً يعرف فن الطرافة - هو إذا كان هناك أحد - ولديه شهادة جامعية تثبت ذلك! وهكذا في أوائل حزيران/ يونيو 1845 عندما يذكر مجلة كورسارن في يومياته لأول مرة فإنه لا يكشف عن معرفة دقيقة تماماً بعادات المجلة فحسب بل يجعل من الواضح أيضاً إنه من أولئك الذين ما زالوا يضحكون، الذين يريدون الاستمرار في تسلية أنفسهم - أي، على حساب آخرين: من الغريب إن مجلة كورسارن لم تفكر في تصوير أشخاص بأسلوب العصور الكلاسيكية القديمة، عراة وبورقة التوت، على سبيل المثال رسم هرقل أو أحد مثله بهذا الأسلوب ثم يُكتب تحته: القس غروندتفيغ.

إنشاء هازل وسترة غودلدشمت البراقة

انضم كيركغارد إلى الهزل ثم وافق على الشكل ومن الجائز إنه قدم بعض الأفكار الشريرة، الصالحة إلى غولدشمدت عندما التقى الاثنان في شوارع

كوبنهاغن. وكان هذا يحدث في أحيان كثيرة. أصبح الاثنان متعارفين منذ صيف 1838 حين التقيا في حفلة في منزل آل رودرام في فريدريكسبيرغ. وكتب غولدشمدت الذي تذكَّر كيركغارد رجلاً نحيفاً منكباه محدودبان إلى الأمام بعض الشيء: لم أكن بكل تأكيد مراقباً منتبهاً صامتاً ولكني ما زلتُ أحتفظ بصورة ذهنية له. كان وجهه بلون العافية وعيناه لهما نظرة متفوقة تعكس مقادير متساوية من الطِيبة والخبث. وتعين على غولدشمدت وكيركغارد أن يعودا إلى المدينة مشياً على الأقدام، وحين كانا يتمشيان معاً على طريق غاميل كونغيفي سأل كيركغارد غولدشمدت إن قرأ كتابه من صفحات شخص ما زال على قيد الحياة، الذي نُشر حديثاً. وكان غولدشمدت بالفعل قرأ الكتاب ولكن دون أن يلتقط الظلال الدقيقة فيه، وفي الحقيقة إن الشيء الوحيد الذي يتذكره هو إن الكتاب كان قاسياً بعض الشيء على هانز كريستيان أندرسن. ولكن هذا لم يكن كافياً بنظر كيركغارد الذي تحدث عن الكتاب أثناء مشيهما نحو المدينة، وما أدهش غولدشمدت أنه بدأ ينمو أكبر فأكبر أثناء المشي. وتذكَّر غودشمدت: كانت هناك وقفة طويلة، وفجأة قام بقفزة صغيرة وضرب نفسه على ساقه بعصاه النحيفة. كان هناك شيء من المرح في ذلك، رغم إنه يختلف اختلافاً كاملاً عن المرح الذي يصادفه المرء عادة في العالم. كانت الحركة غريبة وبدت مؤلمة تقريباً. وأدرك جيداً إني في خطر من تذكُّر ذلك المشهد بمزيج من المعرفة التي تعود إلى فترة لاحقة، لكني متأكد من إن شيئاً موجعاً كان فيه، شيئاً من هذا القبيل: الحقيقة الماثلة في أنّ رجل العِلم النحيف هذا أراد أن يكون جزءاً من مباهج الحياة لكنه شعر إنه عاجز أو غير مسموح له بذلك. ويبدي غولدشمدت هنا تواضعاً مفرطاً لأنه كان في الحقيقة مراقباً ممتازاً وصورته الفوتوغرافية الذهنية أفضل صورة لدينا عن كيركغارد الشاب. وكما هي الحال مع كل التوصيفات الدقيقة فإننا نراها أمامنا مباشرة.

عند غولدشمدت الذي، طبقاً لشهادته ذاتها، كانت لديه حاجة غريزية إلى أن يكون رقم واحد ولم يتغلب قط على حزنه بسبب أدائه الضعيف في امتحانات القبول في الجامعة، فإن اللقاء مع كيركغارد (الذي كان لا يقل طموحاً، وأعلى موهبة بشكل واضح، ويكبره بسبع سنوات) استحضر بطبيعة الحال مقادير متساوية من الإعجاب والحسد. كما جرى التعبير عن هذه المشاعر المتناقضة في أيلول/ سبتمبر 1841 عندما نشر كيركغارد عن مفهوم المفارقة الذي كتب

عنه مراجِع كتب من أسرة التحرير في مجلة كورسارن كان تقييمه للكتاب إيجابياً على العموم لكنه كتب بشي من التهكم عن لغة كيركغارد الطنانة. بيد إن غولدشمدت شعر إن كاتب المراجعة تعامل مع مضامين الأطروحة ببعض السطحية فأضاف الحاشية التالية: إذا مضينا للاعتراف بأن أطروحة مستر كيركغارد، رغم هذه اللغة المثيرة للاستغراب، ذات اهتمام لمن عندهم الصبر على قراءتها فإن هذا الاعتراف - عندما يوضع، بالطبع، في سياق ما قيل أعلاه - يفي مستر كيركغارد حقه من الإنصاف.

بعد ذلك بفترة قصيرة التقى رئيس التحرير الشيطاني والماجستير صاحب المفارقات في الشارع. ولاحظ كيركغارد إنه ظهر الآن في مجلة كورسارن التي لم يكن لديه اعتراضات بشأنها. من جهة أخرى شكا قائلاً إن المقال قاصر إنشائياً ولذلك دعا غولدشمدت إلى أن يجرب الإنشاء الهزلي. وكان رد فعل غولدشمدت الفوري إحساساً بكونه موضع إطراء من خلال التعبير عن الاهتمام ولكن بعد إمعان التفكير شعر مع ذلك بالمهانة لأن كيركغارد بنصيحته حسنة النية في الظاهر أنكر في الحقيقة إن غولدشمدت يمتلك جدية أو احتراماً أو توقيراً. ولم تصبح المهانة أخف وطأة بالحقيقة الماثلة في أنّ غولدشمدت إذ كان بلا أي ثقافة جمالية، لم تكن لديه أي فكرة عما قد يكون مقصوداً بمفهوم الإنشاء الهزلي. وفي مجرى أحاديثهما اللاحقة شعر غولدشمدت بإغراء قوي لاستنطاق كيركغارد عن طبيعة هذا الشيء المسمى إنشاء هزلي ولكن الشجاعة كانت تخونه في كل مناسبة. في اللحظة التي يلتقيه المرء يكون واقعاً تحت ضغط، يكون في امتحان، في حين هو نفسه يكون متحفظاً على نحو ما. ولكن كما لاحظ غولدشمدت بعد سنوات عديدة، كان الآتي هو ما اتضح: إن كيركغارد بإعطائه هذه النصيحة المبهمة شحذ رأس الحربة التي طُعن بها هو نفسه.

ولكن في هذه الأثناء كان كيركغارد هو الذي يوجه اللكمات إلى غولدشمدت. وهكذا ابتاع غودشمدت معطفاً من أحدث الخياطين موضة يومذاك وهو فارنر الذي وعد بأن يخيط له معطفاً فاخراً لم يُعرَف له نظير قط في كوبنهاغن. وكان المعطف فريداً بالفعل - أزرق غامق ذو ياقة من الفرو وعقصة على الصدر أضفت عليه لمسة عسكرية تدغدغ فانتازيات غولدشمدت عن الأسلحة. ولكن غولدشمدت كان لديه هاجس مفهوم جداً هو أن يكون المعطف لافتاً لكثير من الانتباه. هراء، قال الخياط فارنر بل على غولدشمدت

أن يخرج ويتبختر به في شارع أوسترغاده الذي كان وقتذاك كما هو الآن في وسط كوبنهاغن الشارع المواكب لأحدث الصرعات. فكَّر غولدشمدت إن هذا سيكون تمادياً في الجرأة فجرب بدلاً من ذلك أن يمشي في كوبماغيرغاده حيث شعر بارتياح بالغ إن أحداً لم ينتبه على ما يبدو إلى المعطف المفصَّل بمنتهى الأناقة. وبعد اختراق أماغرتورف توجه إلى فيملسكافتيت وهنا كان كيركغارد واقفاً. تقدم نحو غولدشمدت وتحدث معه أولاً عن قضايا ثانوية مختلفة لكنه فجأة قال بنبرة متكتمة على نحو غريب: لا تخرج بمعطف كهذا. فأنتَ لست مدرِّباً لركوب الخيل، وينبغي على المرء أن يلبس كما يلبس الناس. وأُحرج غولدشمدت حرجاً حتى إنه كان بكل بساطة عاجزاً عن القول إنه نفسه كانت لديه شكوكه في المعطف، وما هذه إلا تجربة. وعاد فوراً إلى البيت وأعاد المعطف إلى فارنر مع أوامر بإزالة العقصة والياقة الفرو. وأنهى غولدشمدت روايته بالنغمة التالية: الشيء الوحيد الذي سبب لي ألماً إن كيركغارد كان يظن إني مسرور بالمعطف.

كما جرح كيركغارد مشاعر غولدشمدت في مناسبة لاحقة حين استنطقه عن أصول مجلة كورسارن وأراد أن يعرف كيف استطاع أن يكون بهذا الاطلاع الواسع على ما يجري في سائر أنحاء المدينة. وأجاب غولدشمدت بتواضع إنه في الحقيقة ليس أحسن اطلاعاً من كثيرين غيره يقرؤون قليلاً في الجرائد. ولكن ألا تستلم الكثير من المساهمات مجهولة الاسم؟ نعم يستلم، كما أوضح غولدشمدت ولكن غالبيتها غير صالحة للنشر. وسأل كيركغارد لماذا؟ فرد غولدشمدت قائلاً لأنها تكشف عن أكثر صنوف العلاقات العائلية حميمية بل إن المحررين حتى وقعوا على حالة كان الرجل والزوجة يخبران على أحدهما الآخر. لا أُريد أن أسمع عنها! صرخ كيركغارد لمنع غولدشمدت من الكلام فتوقف هذا على الفور رغم إن توقفه لم يكن من دون ألم. شعرتُ بالأذى وكأنه يتهمني بأني كنتُ أنوي إفشاء سر له وكأني ذو طبع أخشن من طبعه.

كان حس غولدشمدت النفسي مرهفاً جداً. وهكذا في عام 1846 حين يذكر كيركغارد أول مرة مستر غولدشمدت الطالب الجامعي في يومياته، كانت الكلمات تنضح تعالياً متعاظماً ومن المؤكد أنها كانت تعكس الموقف الذي كان الكاتب المتمرس يتخذه ممن عيَّن نفسه رئيس تحرير أثناء جولاته في شوارع كوبنهاغن. ويُشار إلى غولدشمدت في يوميات كيركغارد بوصفه شخصاً ذكياً

بلا أفكار، بلا تعليم، بلا وجهة نظر، بلا ضبط نفس، ولكنه ليس من دون موهبة معينة وقدرة جمالية مستميتة معينة. وهذا التوصيف ليس إطرائياً بصفة خاصة ولكن كيركغارد لا هنا ولا في الفقرات اللاحقة من يومياته كان غافلاً عن موهبة غولدشمدت، وهي موهبة كان يهدرها في خدمة مجلة كورسارن، أداة الابتذال. وقال كيركغارد ذلك تكراراً لغولدشمدت مؤكداً عليه طول الوقت أن يشتغل على الإنشاء الهزلي. وكما هو متوقع فإن رئيس التحرير الذي يحترم نفسه لم يشعر بارتياح من هذه المعاملة بل إن غولدشمدت كتب بعد سنوات عديدة: إنه كان يستطيع أن يجعل المرء يشعر ضئيلاً جداً.

أنا يهودي. فماذا أفعل بينكم؟

في هذه الأثناء أُبقي إحساس غولدشمدت بعدم الارتياح مكبوحاً بتحمسه لعبقرية كيركغارد الأدبية، التي احتفى بها غولدشمدت ومولر في الحقيقة بندوتهما الرمزية بعد فترة قصيرة على نشر «إما/ أو». وعندما التقى غولدشمدت ومولر ذلك المساء لم يكن أحدهما يعرف الآخر أكثر من ستة أشهر. ولم يكن غولدشمدت قط قادراً في الحقيقة على فهم السبب الذي دفع مولر إلى الإعجاب به، ولكن، بحسب ما يكتب، إنه كما لو كان يجلس في مكاتب التحرير ينتظر وصول مولر بلا وعي. ودخل الرجل الأشقر يرتدي معطفاً أزرق بأزرار لماعة وسروال ذي لون فاتح يبدو فيه غندوراً بكل معنى الكلمة. وكان غولدشمدت يعرف إن مولر هو الرجل الذي يقف وراء عدد من المقالات السجالية في مجلتي بورتفويلي Portefeulle وفيغارو Figaro، وانه مُنح وسام الجامعة الذهبي على مقاله المهم الذي يجيب عن السؤال هل تقدمت الذائقة والحس الشعري في فرنسا أم تراجعا في الآونة الأخيرة، وما هو السبب؟، وأخيراً كان يُقال إن مولر ليس ساخراً فحسب بل وحاقد أيضاً، وهي سمة، تأكدت أكثر، كما لاحظ غولدشمدت، بأسنانه ناصعة البياض التي كانت تظهر من أدنى ابتسامة وكانت بدورها تذكيراً بأن الرجل يستطيع أن يَعَض.

كان مولر عاد لتوه إلى الدنمارك من زيارة للنرويج حيث طُلب منه أن ينقل تحيات إلى غولدشمدت من الكاتب النرويجي هنريك فيرغيلاند. وكان بمقدوره أن يذكر أيضاً أن مجلة كورسارن تحظى باحترام كبير في النرويج حتى إن هناك مَنْ يعتقدون إنها يجب أن تكون مجلة نرويجية! وبالطبع كاد

غولدشمدت أن يطير افتخاراً وفرحاً عندما أبلغه مولر إن تحمس النرويجيين لم يكن بسبب خطها السياسي بقدر ما كان لصفاتها الأدبية أو مكانتها العالية في خانة الجمالي، طبقاً لصياغة مولر الإنشائية الأنيقة. وهكذا مُنحتُ، وإن بصورة غير مؤكدة بعض الشيء، مكاناً في العالم، مبرر وجود جديداً. تم انتشالي من المغمورية والانغلاق على النفس إلى تخوم شيء مشرق، مفتوح بالكامل، واستثنائي. كل الغرائز الجمالية والشعرية استيقظت في داخلي، لكنها كانت مقيَّدة. وبدا لي إن لدى مولر المفتاح لإطلاقها، مفتاح نفسي. كنتُ أحتاج إليه كمنقذ. ويبدو أنّ المرأة ليست وحدها التي تنشِّط الغرائز الشعرية. وأصبح اللقاء مع مولر طقوس دخول إلى حياة الشعر، وكان من المفهوم أن يكتب غولدشمدت إن مولر مارس السحر عليّ.

حدث إنقاذ غولدشمدت في أوائل شباط/ فبراير 1843 عندما نشر رواية بأسلوب جيمس فنيمور كوبر James Fenimore Cooper في مجلة كورسارن واتصل به مولر الذي بطريقته المعهودة منه باح له بالآتي: قرأتُ روايتك الكوبرية حين كنتُ عند الحلاق. وهي انسجمتْ بصورة حسنة مع استخدام صابون الحلاقة الدافئ وكادت تنسجم مع الحلاقة حتى قبيل النهاية عندما جُرح أنفي بعد أن قفزتُ بسبب ما سأقوله لك الآن: إن قصتك في سطورها الأخيرة أيضاً تقوم بقفزة. وهي تثب إلى الإنشاء الهزلي مباشرة. ولم يكن غولدشمدت أخبر مولر عن مكابداته مع نصيحة كيركغارد فجعلت هذه الكلمات غولدشمدت يشعر وكأنه بلغ ما لا يمكن بلوغه وكمن يمشي في نومه، تمكنتُ من حل المشكلة الكيركغاردية وأنتجتُ إنشاء هزلياً! وهتفتُ «الحمد لله»!

رغم إن مديح مولر عزز علاقتهما فإنها لم تتطور قط إلى صداقة بالمعنى الأعمق. إذ كان مولر بعيداً ومنعزلاً وتهكمياً بما يحول دون ذلك، ولم يصلا قط إلى مستوى الألفة بينهما. وكان مولر يعتقد بأن أهل الفكر يجب ألا يكونوا قريبين جداً من بعضهم البعض، وهذا النوع من الصداقة يجب أن يُترك للأشخاص الذين يمارسون لعبة البولنغ معاً. ولكن إذا كان موقف مولر يفتقر إلى الحميمية فإن غولدشمدت من جانبه كان يشعر بنوع من التولُّه، ولا شيء أقل من ذلك. وإذ وصف غولدشمدت هذا الغندور الجسور والطريف ثم أصبح منقذاً، الذي ظهر بصورة مفاجئة، فإنه كتب إن مولر بسبب مخياله ومثاليته وقبضته الحسية الثابتة على الوجود وحسه الحاد التهكمي القوي كان [مولر] مقنعاً إلى هذه

الحد ولاذعاً بهذا الشكل الجذاب. لذلك ليس من المستغرَب أن قرابة خُمس مذكرات غولدشمدت مكرسة حصراً تقريباً لمولر.

مولر لم يكن المنقذ فحسب بل كان الغاوي كذلك الذي أتقن الفنون المتزلفة في المراوغة والتراجع، الأمر الذي سيتحسسه غولدشمدت في وقت قريب. وتولى مولر بصورة طبيعية تماماً تربية غولدشمدت الأدبية والجمالية. وأراه، بالمعنى الحرفي للكلمة، الطريق إلى مكتبة الجامعة التي لم تطأها قدم غولدشمدت الجاهل ذات يوم، ولم يكن يعرف حتى أين تقع المكتبة، في العليَّة الشاسعة فوق كنيسة الثالوث حيث يمكن دخولها من المنحدر الحلزوني للبرج المدوَّر. ولكن مولر أبقى طول الوقت على مسافة بينه وبين تلميذه الفضولي، وعلى غرار كيركغارد أفهمه إن قَدَره هو أن يكون مبدع إنشاء هزلي فيما حُفظ لمولر نفسه العمل الأهم بكثير للتكلم بلغة الآلهة في نَظم ذهبي. وكانت لهذا نتائج غريبة: عندما يستخدم سخرية قاسية في استئصال كل أثر للجهل وبذلك المساعدة على أن يجعلني أوسع علماً فإنه كان يعمل ضد نفسه أيضاً أو ضد تلك السمات الفريدة في شخصيتي التي كان يستمتع بالارتباط بها. وبهذه الطريقة ارتدت علاقتنا وجهاً غريباً يناقض نفسه بنفسه على نحوٍ ما بقدر ما كان يحاول أيضاً أن يلجم اكتسابي للمعرفة. ويجب ألا يُفهم هذا على أنه يعني إن مولر كان ينزع إلى الغيرة أو الخوف مني كمنافس محتمل بل إنه كان كالبستاني يريد أن يراني أنمو ببطء، بكل ما يمكن من البطء.

مولر نفسه كان ينمو بشكل جامح وفخم. وأراد أن يجني ثمار ذلك في شكل سلسلة من المحاضرات العامة عن مواضيع جمالية وأدبية تسحر النخبة. ويجب ألا يعرف أحد مشاريعه قبل أن ينفذها، ولا حتى غولدشمدت بل إن مولر في الحقيقة منع غولدشمدت من قراءة المقالات التي نشرها في مجلات مختلفة. وأطاع غولدشمدت الأمر على مضض فلم يعرف مولر ناقداً أدبياً إلا عندما نشر مقاله تخطيطات نقدية في عام 1847.

لكن غولدشمدت كان أكثر من مجرد متمرن مطيع. إذ كان أيضاً رئيس تحرير مجلة كورسارن وأوسع نفوذاً بكثير من مولر. كما كان غولدشمدت يهودياً. وفي صيف 1844 دافع عن القضية اليهودية بحماسة شديدة في الملتقى

القومي الدنماركي في سكاملينغسبانكن حيث هتف بعد أن استفزه يهودي معَمَّد أمام آلاف الحاضرين في القاعة: أنا يهودي. فماذا أفعل بينكم؟

لاحقاً خلال تناول شيء من الخبز الفرنسي وكأس من النبيذ باح غولدشمدت بمكنوناته لمولر مشاطراً إياه المعاناة المرتبطة بكونه يهودياً، والمهانات التي لا تنتهي، والعداء، وعدم الثقة، والكراهية. واستمع إليه مولر فاقداً القدرة على النطق ثم نهض، وأخذ قبعته وعصاه، وفي طريقه إلى الباب قال، بمشاعر كهذه يكتب المرء رواية. وهذا ما فعله غولدشمدت. ففي ذلك المساء ذاته كتب فصلاً سيكون خاتمة روايته يهودي، التي نُشرت في 6 تشرين الثاني/ نوفمبر 1845 بالاسم المستعار أدولف ماير.

أثار الكتاب اهتماماً واسعاً. وكان موضوع مراجعة إيجابية جداً في صحيفة فادريلانديت بقلم كارل بلوغ، وبعد ست سنوات ظهرت بترجمة إنكليزية وبيعت لاحقاً بوصفها تنتمي إلى الأدب الذي يباع من أكشاك الكتب في أميركا. وقرأها كيركغارد على الفور فوجدها جيدة جداً على العموم - ما عدا النهاية الفاشلة فشلاً ذريعاً، فإن هذه هي بكل تأكيد علامة نضج كبير. وحين التقى كيركغارد الكاتب الفخور بروايته البكر في الشارع ذات يوم سأل ما هي الشخصيات التي يعتقد الكاتب إنه صورها أفضل تصوير. ولم يكن لدى غولدشمدت شك بهذا الشأن، إذ لا بد أن تكون الشخصية الرئيسية جاكوب بنديكسن Jacob Bendixen. كلا، رد كيركغارد، أنها شخصية الأم. وفوجئ غولدشمدت بذلك تماماً. فهو لم يفكر فيها عندما كتب الرواية. وكان رد كيركغارد العارف والدقيق: هذا ما ظننته! وكان هناك المزيد من الكلمات الرقيقة من المصدر نفسه. ثم سأل كيركغارد إن قرأ غولدشمدت كل المراجعات الإيجابية وفي هذه الحالة إن توقف عند أهميتها. وكان غولدشمدت فعل ذلك، ويعتقد أنّ الغاية من المراجعات هي بكل بساطة كيل المديح للكتاب. كلا، رد كيركغارد، إن الغاية هي أن يكون هناك أشخاص يريدون أن يروك مؤلف رواية يهودي وليس رئيس تحرير مجلة كورسارن، فإن كورسارن هي بي. إيل. مولر.

حين سمع غولدشمدت ذلك انتابه الهلع نيابة عن مولر لأنه أدرك إن الارتباط بمجلة كورسارن سيخرب سمعة مولر وحياته الأدبية اللاحقة. لذلك احتج غولدشمدت مذكّراً كيركغارد بأن مجلة كورسارن أُنشأت قبل أن يلتقي

مولر بزمن طويل، ولكن كيركغارد اكتفى بأن ابتسم وهز رأسه، ثم مضى في سبيله. وأُصيب مولر بالقنوط حين سمع بذلك، وناشد غولدشمدت أن يبين لكيركغارد مرة أُخرى وأُخرى، حقيقة الأمر. وهذا ما فعله غولدشمدت في أقرب فرصة ولكن بلا جدوى: كان الفيلسوف متعنتاً ولم يقل سوى إن هناك تقارير في العالم أدق من أي تقرير بوليسي. وسألت «كيف يمكن أن يكون لديك أي تقرير في هذا الشأن أدق من تقريري أنا؟» ثم ضحك بطريقته الغريبة، وكان من المغري أن أتعامل مع القضية كلها على أنها نكتة. ولكن عندما تحدثت مع مولر عن مهمتي غير الناجحة أَخَذَ المسألة على محمل أكبر من الجد وقال إنه سيواجه مشكلة كبيرة إذا أصبح هذا الرأي عاماً. وقال إن من المفضَّل لذلك أن نقطع علاقتنا لبعض الوقت، ثم قطعها، وإن لم يقطعها بصورة كاملة.

خبث بمعطف مطري: بيدر لودفيغ مولر

كُتبت مذكرات غولدشمدت في سبعينات القرن التاسع عشر، فكانت نظرته الاسترجاعية للأحداث من منتصف أربعينات ذلك القرن تتسم، بطبيعة الحال، بأكثر من بعض المحاولات لعقلنة الوقائع بعد وقوعها. ولكن حقيقة إن كيركغارد أراد أن يربط مولر بمجلة كورسارن ليست واحدة منها. وعندما أقدم كيركغارد على تغيير علاقته مع غولدشمدت أواخر 1845 لم يكن السبب مجرد سخرية كورسارن المنفلتة، التي كان كيركغار دائماً يشير إليها في تبرير احتجاجه بل أيضاً، وربما على الأخص، بسبب شعوره ببغضاء شديدة لمولر الذي أراد كيركغارد أن يؤذيه قدر الإمكان.

ولكن مَنْ كان بيدر لودفيغ مولر هذا الذي وصفه الكاتب السويدي أو. بي. ستورزين - بيكر O. P. Sturzen-Becker - وهو رجل مطلع على أجواء المثقفين في كوبنهاغن إبان أربعينات القرن التاسع عشر - قائلاً إنه خبثٌ بمعطف مطري؟ ولد مولر ابن تاجر مفلس عام 1814 في آلبورغ وهناك اجتاز امتحانات القبول في الجامعة عام 1832، بعدها شد الرحال إلى العاصمة. وفي العام التالي، 1833، اجتاز مولر ما يُسمى الامتحانات الثانية بعلامات متفوقة في كل المواضيع لكنه لم يتقدم أبعد من ذلك قط في الجامعة. سُجل في قسم اللاهوت ولكن دراساته الرئيسية كانت في الطب واللغات والنقد المسرحي. وعموماً أمضى شبابه، على غرار كيركغارد، في دراسات جمالية

وفلسفية مختلفة. وعلى غرار كيركغارد حضر محاضرات مارتنسن خلال السنة الأكاديمية 1838 – 1839، عندما شرع مارتنسن، بحمية، يُدخِل الهيغلية في الحياة الفكرية الدنماركية. وعلى غرار كيركغارد اختار مولر أن يحضر محاضرات سيبِّرن وبول مارتن مولر. وكرَّم هذه الأخير بقصيدة تذكارية جميلة قد تشير إلى أنه، على غرار كيركغارد، كان يعتبر نفسه تلميذ بول مارتن مولر. وكان معجباً ومقلِّداً للقصائد الثورية من الحقبة الرومانسية – بايرون وهوغو وموسيه وهاينة وريكرت وبورنة وبوشكين – وكانت النماذج التي اختارها مولر من المشهد الأدبي الدنماركي آدم أوهلينشلاغر، المليء بالانفعالات العاطفية، وستين ستينسن بليشر الموسوم بإحساس حاد بالمالنخوليا السوداء، والحسي كريستيان فينتر والإيروتيكي السافر إميل آريستروب.

كما كان مولر يقدر تقديراً عالياً – ببعد نظر واسع لدى النظر إلى ذلك من زاوية عصر لاحق – استحقاقات هانز كريستيان أندرسن بصفة خاصة الذي أدرج مولر سيرة حياته في عمله بانتيون دنماركي ودافع عن حكاياته الخيالية ضد هايبرغ ومجموعة هايبرغ كثيرة التقولات والتحقير، أو العائلة كما سمى مولر هذه الزمرة في مراسلاته مع أندرسن. وكان من المفهوم إن الرجلين حديثي النعمة الأدبية، مولر وأندرسن، سيكونان حليفين في المعركة ضد الهايبرغيين المتعالين فكرياً، الذين رفضوا تقرباتهم غير المثقفة في وقت سابق. وبالطبع إن الظرف المتمثل في أنّ مولر كان مؤيداً للقومية الإسكندنافية أيضاً ومن الحاضرين المتحمسين لسلسلة محاضرات غروندتفيغ عام 1838 بعنوان ذاكرة الإنسان، لم يفعل سوى إنه دفع العائلة إلى أن تترفع جماعياً حتى أكثر من ذي قبل.

كما إن سجل مولر لم يكن سجلاً ناصعاً تماماً. وكان لديه مفهوم مطاط على نحو لافت للحقيقة. وعلى سبيل المثال إن مولر كتب قطعة فظيعة على غير المعتاد عن أتش. بي. هولست في مجلة كورسارن ولكن عندما التقاه هولست في الشارع وشكا منها نفى مولر بشكل قاطع أن تكون له أي علاقة بالقضية وأخبر هولست إن غولدشمدت يستطيع أن يؤكد براءته. ثم هرع مولر إلى غولدشمدت وطلب منه أن يكذب على هولست إذا زاره هذا في مكاتب التحرير. وحاول غولدشمدت التملص ولكن كان بمقدوره أن يوفر على نفسه عناء ذلك لا لأن هولست لم يمر عليه فحسب بل أيضاً لأن مولر بعد فترة قصيرة بعث إلى هولست برسالة اعترف فيها – حسب أقوال غولدشمدت – بطريقة حاقدة وشامتة مصوراً

نفسه بروليتارياً محاصَراً على النقيض من موقع هولست الاجتماعي المحظوظ، بأنه هو كاتب المقال. ونال هايبرغ معاملة مماثلة. فعندما أمضى وزوجته صيف 1842 في باكينهوس، مقر إقامتهما في ضاحية فريدريكسبيرغ، زارهما مولر من غير أن يكون مدعواً لطمأنتهما بأن كاتب المقالات النقدية المجهول ضد هايبرغ التي ينسبها أحد ما إلى مولر، لم يكن هو كاتبها على الإطلاق. ونظر هايبرغ إلى القضية كلها بعدم اكتراث ولكن مولر ادَّعى البراءة مرات متكررة معلناً بأشد المفردات تملقاً ما يكنه من احترام بالغ لهايبرغ بوصفه كاتباً وشخصاً على السواء. ثم بعد ستة أشهر أعلن بي. إيل. مولر هذا نفسه إنه كاتب المقالات إياها. وروى هانز كريستيان أندرسن الذي دافع عن مولر حتى النهاية ما سمعه ذات مرة من مسز غيليمبورغ، والدة هايبرغ، التي هتفت أي شخص فظيع مولر هذا الذي يجرؤ على الطواف متهجماً على ولَدَي لودفيغ - فأخذ جميع الأتباع الهايبرغيين يطوفون مرددين الشيء نفسه على وجه الدقة. وفي عام 1843 حاول مولر عبثاً تحسين سمعته بنشر مطبوع دوري صغير اسمه أرينا Arena الحلبة تهجم فيها على تجار الخِرَق يومذاك، كما وصف هايبرغ وجماعته.

ولكن ما كان أسوأ من ذلك كله هو الشائعات، بما فيها شائعة كانت غريبة حقاً. فإن مولر ليس شخصاً ظريفاً bel esprit يتغنى بالحسية العارية فحسب بل شخص وسيم bel homme أيضاً يمارس ما يقوله شعراً. وفي الحقيقة إن مولر كان يمارس ما كان آخرون كثّر يمارسونه أفلاطونيا على الورق، وبالتالي كان هدف الكثير من الإدانة وأكثر منها الحسد. وإذا لم يكن مولر قادراً على التباهي، مثل دون جيفاني، بغزو 1003 امرأة في إسبانيا فإن له في كل الأحوال عشرات الغزوات الغرامية في كوبنهاغن. وكانت هذه هواية باهظة الكلفة على مولر الذي كان دائماً يشكو من ضيق ذات اليد ولذلك (كما ذهبت الشائعة) باع الهيكل العظمي لإحدى عشيقاته، وهي خياطة مسكينة يبدو أنّها لم تكن من معدن صلب بما فيه الكفاية. وفي رسالة إلى صديق، ذكر هانز كريستيان أندرسن بغضب إنه حتى العقلاء يصدقون هذه الخرافة. ومن المستبعد إن كيركغارد كان أحد هؤلاء المصدّقين ولكن المؤكد أنه كان يتابع، مفعماً بالافتتان المخيف، أفضل ما بمقدور كوبنهاغن أن تقدمه في هيئة دون جوان حقيقي كمثال على الإنجاز الجنسي - وهو موضوع كان لدى كيركغارد موقف محافظ منه.

وهكذا تضافرت الأقاويل مع عدم جدارة مولر بالثقة للتهديد بوضع

عقبة في طريق حياته الأكاديمية. وكان لديه طموح لشغل كرسي الأستاذية بعلم الجمال الذي أخلاه مؤخراً أوهلينشلاغر، وهو منصب لم تكن تنقصه المؤهلات لتوليه قطعاً. صحيح إنه لم يكمل دراسته الجامعية ولكنه في عام 1841 أثبت استحقاقاته بمقال فاز عليه بوسام ذهبي عن الشعر الفرنسي، ومنذ ذلك الحين نشر سلسلة من الدراسات النقدية الممتازة عن المسرح والأدب لعلها إذا أُخذت في مجملها، تشكل رسالة أكاديمية تقريباً.

من الصعب القول كم كانت معرفة الرجلين مولر وكيركغارد بأحدهما الآخر وثيقة على المستوى الشخصي. فإن كيركغارد لا يذكر مولر أبداً في يومياته ولا حتى مرة واحدة قبل أن يصطدم مع مجلة كورسارن. وآثار مولر الأدبية لا تذكر كيركغارد بالمرة. وأخيراً يبدو أنّ غولدشمدت يفترض في مذكراته إن الاثنين كانا بالكاد يعرفان أحدهما الآخر شخصياً. ومع ذلك كانت هناك أماكن عديدة لا بد إن طرقهما التقت فيها: في الجامعة، كما سبق ذكره، ولكن أيضاً في الجمعية الطلابية التي كان كيركغارد يتردد عليها في شبابه وكان مولر معروفاً فيها بكونه من الصنف الذي يحب الجدال. وما كان من الجائز أن يتجنب هذان المتفردان الجماليان لقاء أحدهما الآخر في مقاهي كوبنهاغن وحاناتها. ثم كانت هناك، كما هي الحال على الدوام تقريباً خلال الفترة الرومانسية الدنماركية، كلية ريغينسن حيث كان كيركغارد ضيفاً كثير الحضور أحياناً، ولم يكن بمقدوره أن يتجنب أو على الأقل ألا يسمع عن مولر هذا الذي كان مقيماً هناك من 1834 إلى 1837. وفي إطار الاحتفالات بمناسبة ثلاثاء المَرْفع عام 1835 وضع مولر لافتة على ظهره خُطت عليها الكلمات التالية: نحن ملك غرينلاند والجزر المجاورة، إلخ نُعلن إننا وحدنا نعرف ما يخدم رخاء رعايانا على أفضل وجه. وكانت هذه سخرية واضحة من الرفض المعروف الذي قابل به الملك فريدريك السادس لفيفاً من عدة سياسيين وأكاديميين قدَّموا إليه عريضة دفاعاً عن حرية الصحافة، تسببت في توجيه توبيخ شديد إلى مولر. وبعد سنوات على ذلك، عندما قدَّم مولر طلباً للانتماء إلى منظمة طلابية حديثة التأسيس هي منظمة أكاديميكوم، رفضت اللجنة التنفيذية للجمعية التي تضم 12 عضواً طلبه. وكان مولر متهماً بالضلوع في صفقات اقتصادية مشبوهة والتعريض بخصومه وأخلاقه الجنسية المريبة. وكان أحد الأعضاء الاثني عشر للجنة التنفيذية التي رفضت قبوله بيتر كريستيان كيركغارد.

إذا كان بيدر لودفيغ وسورين آبي لا يعرفان أحدهما الآخر شخصياً فإن

كلا منهما على أية حال كان يستطيع أن يتابع حياة الآخر الأدبية في وقت مبكر تماماً. ولم يكن هذا عملاً ساراً على الدوام بالنسبة لكيركغارد لأن مولر كان سجالياً بارعاً صاحب قلم غدار بالكامل. وكما سبقت الإشارة فإن كيركغارد في عام 1836 كان يستطيع أن يقرأ الآتي في مجلة هومورستيسكه انتليغنسبلاده Humoristiske Intelligensblade: غني عن القول إن فيزيونوميا المؤلف الأدبية لا تمت بصلة إلى فيزيونوميته الجسدية التي لا تهمنا في هذا السياق. كان هذا المقال غفلاً من اسم كاتبه ولذلك لا يمكن إلا أن نحدس إن مولر هو الذي طعن كيركغارد في الظهر. ولكن الأسلوب يعبر عن صاحبه بالطبع والأسلوب كان أسلوب مولر بصورة لا تقبل الخطأ. واحتمال إنه ربما هو الكاتب وحده كان كافياً لأن يوغر صدر كيركغارد. وكان هناك المزيد من مثل هذه الكلمات الرقيقة. ففي مجموعة مولر الصادرة عام 1840، قصائد غنائية، هناك قسم بعنوان ظلال أخلاقية يضم قصيدة اسمها ساخر تقيم تعارضاً صارخاً بين الإقبال بشهية على حب الحياة وأفكار متوحد يعذب نفسه بها. وفي عام 1847 حين أُعيد نشر القصيدة في صورٌ وأغانٍ غيَّر مولر العنوان إلى فيلسوف تائه، الأمر الذي مكَّن حتى الغبي من أن يتعرف فيها على كيركغارد الجوال. كما ضمت مجموعة قصائد غنائية قسماً بعنوان تقويم الطبيعة فيه قصيدة لكل شهر من أشهر السنة. ومن بين هذه القصائد الشهرية كانت قصيدة حزيران/ يونيو وحدها التي أُرفقت بعنوان فرعي بين علامات تنصيص (أسوار كوبنهاغن) – التي بسبب طريق العشاق كانت من الأماكن المفضلة عند كيركغارد للمشي فيها. وتقول قصيدة مولر ما يلي:

أنتَ، المتواضع والعفيف، من لا يرغب إلا في الأفكار
صدّقني إنك هنا، تحت الأغصان الخضراء،
هنا تستطيع أن تمشي وحيداً متفرداً
تحملك عالياً عفاريت غير مرئية
أنتَ الذي، بالطبع، ليس لديك جسد يملكه ـ
لا ترى أثداء جميلة، ولا أردافاً مثيرة
ولا كواحل فوق أحذية بسيطة –
إنها مجرد مادة لثلاثة كتب أخرى!

شِعرُ مولر – أو غالبيته – ليس فناً عظيماً ولا مجرد نتاج أديب هاوٍ ولكن من الواضح في كل الأحوال إنه هنا يتهم كيركغارد بالتسكع في طريق العشاق مثل بصَّاص مخصي يحوِّل حسيته إلى تأمل فلسفي. ومرة أخرى، سواء بالصدفة أو عن سابق إصرار، فإن مولر ضرب كيركغارد في نقطة حيث ربما كانت الشوكة مغروزة بأقصى عمق في جسده.

لذا لا يمكن أن يكون هناك أدنى شك بأن كيركغارد كان يكره مولر لأن هذا الأخير يمتلك على وجه التحديد الجسد الذي يفتقر إليه كيركغارد. ولكن لماذا كان مولر يكره كيركغارد؟ لأن كيركغارد يمتلك على وجه التحديد القدرة الكتابية التي كان مولر يفتقر إليها! والمفارقة إن تسامي كيركغارد الذي سارع مولر إلى السخرية منه هو الذي أتاح في الحقيقة بلوغ تلك الإنتاجية الهائلة – بما في ذلك يوميات الغاوي – التي تركت مولر يلهث تماماً، مختزلة ممارسة مولر الإيروتيكية، بالمعنى الحرفي والأدبي، إلى شيء من البيولوجيا المبتَذلة. وفي حين إن مولر كان يهدر طاقته على كثير من شراشف كوبنهاغن، كان كيركغارد يجمع طاقته في قلمه الفضي الموثوق ليصب محتوياته ببراعة جريئة على شراشف الورق لتبقى رغم نسيان التاريخ.

أوراق مولر من تلك الفترة تجعل من الواضح إلى أي حد وجد النجاح الساحق الذي حققه عمل كيركغارد يوميات الغاوي مهيناً له. وهناك بين أوراقه قطعة بتاريخ آذار/ مارس 1843، بعد شهر واحد على نشر يوميات الغاوي، تضمنت عدداً من التخطيطات لمادة عنوانها من يوميات ساعٍ (آخر) يحاول فيها بسخرية حاقدة أن يعيد كتابة يوميات كيركغارد لينتهي إلى تقليد أدبي مُحرِج. ومع ذلك – أو ربما بسبب ذلك على وجه التحديد – كان مولر يستطيع أيضاً أن يذهب إلى أن كتاب يوميات الغاوي كان أكبر إنجازات كيركغارد بل إن مولر زعم إن يوميات الغاوي يتبوأ موقع المركز في كل ما كُتب من نصوص – الشيء الذي ذكره كيركغارد بغضب على هامش أخير من عمله وجهة نظر لعملي كاتباً حيث هاجم مولر ودافع عن كتاباته الدينية. وفي كتاب وجهة نظر نسب كيركغارد وظيفة لاهوتية إلى يومياته (وكتابه التدريسي) عن الغواية – ولكن من المؤكد أن كيركغارد كان يريد أيضاً أن يعلِّم مولر وغيره من المستجدين الخُرقاء على الحب أيامذاك شيئاً عن كيف أن الغاوي الحقيقي، عاشق الاستراتيجية، يمكن أن يحول الجنسوية إلى جماليات سامية.

«زيارة إلى سورو»

أن يكون مولر أراد أن يكتب كما يكتب كيركغارد وكيركغارد أراد أن يغوي كما يغوي مولر فإن هذه قد تكون طريقة في غاية التبسيط لوصف النزاع ولكن من الجائز أن نفترض بدرجة معقولة إن النزاع كان يرتبط، على التوالي، برغبات غير متحققة، نصية عند أحدهما وجنسية عند الآخر. ويتعزز هذا الافتراض حين ندرس غاياGaea، وهو مطبوع سنوي عن الجمال نشره مولر في 22 كانون الأول/ ديسمبر 1845 مساهماً فيه بـــــ «مقال أساسي» ذي 88 صفحة عنوانه «زيارة إلى سورو». وتجري أحداث القصة في صالون كارستن هاوخ Carsten Hauch في سورو حيث تجمع مولر ولفيف من كبار الأسماء الأدبية في أُمسية لمناقشة كتب اليوم بما في ذلك عدد من كتب كيركغارد.

توجَّه النقاش أولاً إلى كتاب «إما/ أو»، وأثنى مولر على القسم الجمالي منه ثناء عالياً في حين إن القسم الأخلاقي بدا له تجميعاً للمادة أكثر منه أدب حقيقي - حُكم لا بد إنه أزعج كيركغارد لكنه في الحقيقة لم يكن بعيداً بالكامل عن الصواب. وفي هذا الصدد شكا مولر من إن الكاتب لم يكن سيد مادته من البداية «لكنه لم يفعل سوى تطوير ذاته الأخلاقية - أثناء الكتابة»، الشيء الذي جعل العمل بلا شكل وفوضوياً «يمرق باستمرار في كل اتجاه». وأدلى أحد الحاضرين بدوله معلناً اتفاقه: «نعم، هذا عين الصواب... ما عندي ضد هذه الأعمال (التي يشي شكلها ومضامينها بأصلها المشترك) هو إن المرء كل مرة يشعر مستعداً للاستسلام إلى متعة أدبية خالصة، ويقف المؤلف عقبة في طريقه مقحِماً تطوره الأخلاقي والديني ذاته الذي لم يسأل أحد عنه في الحقيقة وقد يكون محترماً بالكامل في حياته الخاصة لكنه لم يستحق أن يجول في رحاب الأدب الموضوعي. إنه يرتكب الخطأ نفسه الذي انتقد الناس بسببه الشاعر [هانز كريستيان] أندرسن - وهو يبيح لتطور حياته الداخلية كله أن يحدث أمام أنظار الجمهور».

هنا كان مولر يُبلغ كيركغارد إن لا شيء لديه عن أندرسن حين يتعلق الأمر بالنظرة إلى الحياة وعالمه الخاص. ولكن هذه الاعتراضات مهذبة ولائقة بالمقارنة مع تعليقات مولر على «مراحل على طريق الحياة»: «عندما وقعتُ على أحدث كتبه الكبيرة مراحل على طريق الحياة، كان ذلك بشعور يقرب من الشؤم. فمثل هذه الإنتاجية المبالغ به بل مثل هذه الإنتاجية غير الطبيعية

قد تكون صحية للمؤلف ولكن للأدب والقارئ - قطعاً لا. ويبدو أنّ الإنتاجية الأدبية أصبحت حاجة جسدية عنده، أو إنه يستخدمها دواء، كما في بعض الأمراض يستخدم المرء النزف والحجامة والحمامات البخارية والعقاقير المقيِّئة وما شابه ذلك. وفي حين إن الشخص المتعافي يرتاح بالنوم فإن المؤلف يرتاح على ما يبدو بترك قلمه يجري. وبدلاً من الأكل والشرب يُشبع نفسه بالكتابة. وبدلاً من الطبيعة البشرية الاعتيادية التي تتنج جنيناً كل عام يبدو أنّ له طبيعة السمكة والتناسل. وشاءت الصدف أن تبدأ مع «التجربة النفسية» في قسم مذنب؟/ غير مذنب؟ الذي يشغل الصفحات المئتين واثنين وأربعين الأخيرة المتراصة حروفها. وهنا، كما كنتُ أخشى، يضل المؤلف طريقه. فهنا ثمة تكرارات وحفريات ذاتية والتماعات متألقة من العبقرية، وبدايات جنون. وفي النهاية ما كان في السابق إنجازاً أصبح الآن مجرد تيسير، وأصبح المنهج سلوكية شائعة، وهي حيلة واضحة للجميع. إنه ليس معنياً بالقارئ لأنه لا يكتب إلا لمتعته هو، ولا من أجل أن يكون له اسم بوصفه كاتباً كلاسيكياً، لأنه يكتب بلا شكل. وهو يتحرك عبر اللغة مثل مهرج إنكليزي يمشي على يديه ويؤدي شقلبات باللغة ولكنه لا يملك أسلوباً لأنه يستخدم كلمات زائدة ويقول كل ما يخطر بباله. وما يحويه وعاء بنات الملك داناوس هذا لغرض التأمل هو قصة حب وخطوبة وفسخها مصاغة في شكل يوميات. ولكل قسم البداية ذات الأسلوب غير تقليدي التي تقول قبل عام اليوم. وهنا يجد المرء فرداً مذكَّراً فَقَدَ كل شيء يشكل شخصية. الشعور، الفهم، الإرادة، القرار، الفعل، العمود الفقري، الأعصاب، العضلات - كل شيء تحلل إلى ديالكتيك، إلى ديالكتيك عقيم يدور حول محور غير مؤكَّد، ليس مؤكَّداً إن كان نتيجة قوة طاردة أو قوة جاذبة إلى أن تختفي تدريجياً في النهاية... وبالطبع فإن الكائن المؤنث في الكتاب التي توضع على طاولة صاحب التجربة تتحول هي أيضاً إلى ديالكتيك وتختفي. ولكن في الحياة الحقيقية كانت ستُصاب بالجنون أو تقفز في بحيرة بيبلينغة. ويمكن تلخيص النص بإيجاز كالآتي:

قبل عام اليوم. وعليه! إذاً، ها أنا مخطوب الآن. إنها لطيفة حقاً ولكن خادمة صغيرة كهذه مليئة بالمتاعب. فهي لا تستطيع أن تفهم إني أُريد أن أكون مخطوباً وأُريد أن أفسخ الخطوبة أيضاً، أُريد أن أفسخ الخطوبة ولا أفسخها، أُريد أن أتزوج ولا أتزوج. إنها لا تستطيع أن تفهم إن خطوبتي ديالكتيكية - أي، إنها

تعبر عن الحب وغياب الحب، وإني أعتزم إنهاءها وكذلك البقاء إلى الأبد في ذروة الرغبة. قبل عام اليوم. الطريقة لا تُجدي. ويجب أن تتغير. إنها تفتقر إلى الخلفية الدينية وبالتالي لا نناسب أحدنا الآخر. وإذا اقتربتْ من الدين فإني سأفقدها. يجب تحريرها لأنها حينذاك فقط ستكون مُلكي، وعندها يمكن أن تصبح مخطوبة ومتزوجة لمن تريد. لكنها مع ذلك متزوجة مني وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية.

إذا سُمح للمنطق السليم، بكل آنيته الخشنة، بالتدخل هنا فإنه على الأرجح سيقول: إذا كنتَ تعتبر الحياة غرفة تشريح وأنتَ جثة فيها فامض قدماً ومزِّق نفسك إرباً إرباً كما يحلو لك. وما دمتَ لا تؤذي الآخرين، لن تتدخل الشرطة في نشاطاتك. ولكن أن تُوقِع كائناً آخر في شباكك وتشرِّحه حياً أو تزهق روحه عذاباً قطرة فقطرة من خلال التجريب - فإن هذا رغم كل شيء ليس مباحاً إلا مع الحشرات، وألا ينطوي مجرد التفكير فيه على شيء مستنكَر، شيء مقزِّز للطبيعة البشرية السليمة؟

من الواضح إن هذا لم يكن نقداً أدبياً بقدر ما كان نقداً لشخصية كيركغارد، التي كل ما في الأمر إن الجوانب الضعيفة والغريبة وغير المتعافية فيها عُرضت بموهبة مولر الغدارة في المقارنات الفظة، ولكن أيضاً بإحساس حدسي مُقلق كان، بحسب ما يقوله لنا غولدشمدت، معهوداً من مولر حين يكون عكر المزاج ويلتقط قلمه ثم يغمسه في السم: كانت لديه... قدرة استثنائية على رؤية كل الاحتمالات السوداء في طبيعة شخص ما وإبرازها كما لو إنها تحققت بالفعل أو تكاد. وأعتقد أنه كان يستطيع أن يكتب إلى مواطن أمين طيب القلب بطريقة حتى إن الرجل، بعد قراءة ما كتبه، يشعر وكأنه باع أباه وخان أمه، وسيكون عاجزاً عن تحرير نفسه من هذه الأفكار دون أن يضع في تصوره كراهية شديدة من الكاتب.

مولر أثار هذا النوع من الكراهية هنا أيضاً. وكاد ذلك أن يكون كما لو أنه اطَّلع سراً على مجموعة مختارة بعناية من يوميات كيركغارد وقَلَبَ الاعترافات الحميمة التي تتضمنها إلى شكل نقيض ببشاعة. فالرغبة العارمة في الكتابة التي كان كيركغارد نفسه يعتبرها موهبة من الحاكمية الإلهية، كانت بتأويل مولر نشاطاً قهرياً الغاية منه التعويض عن عدد من العيوب المحدَّدة بعوامل بيولوجية

في إيقاع كيركغارد اليومي وحياته الغريزية. وجرى تصوير حب كيركغارد للديالكتيك على أنه انعكاسية سقيمة أدت إلى تردد أُنثوي، وما المرأة ريجينة إلا ضحية بريئة بيد تجريبي منحرف. وإذا كان كيركغارد سيفقد عقله فإن ذلك سيحدث هنا على الأرجح.

«ليس إلا من الجائز أن أظهر قريباً على صفحات كورسارن»

سرعان ما أصبح واضحاً إن جرعة مولر القاتلة كانت في الحقيقة مشروعاً انتحارياً. وفي 27 كانون الأول/ ديسمبر 1845، بعد خمسة أيام فقط على صدور المطبوع «غايا»، نشر كيركغارد - باسم فراتر تاسيترنس - رداً لاذعاً، بمقال على خمسة أعمدة في فادريلانديت بعنوان «نشاط متذوق جمال مسافر وكيف أنه مع ذلك دفع ثمن العشاء». وجعل كيركغارد الذي كانت شخصيته السجالية تردُّ فوراً حين تُستفَز، من الواضح كل الوضوح إلى أي مدى يستطيع أن يكون حاذقاً بخبث في تهشيم خصمه. وعلى غرار مولر فإن كيركغارد أيضاً أتقن فن تهذيب الأقاويل والشائعات الخليعة من كل صنف إلى قلق خطابي عضّاض يمكن أن يُقرأ بين السطور. وهكذا فإن الحقيقة الماثلة في أنّ مولر يواجه مشكلات مالية دائمة كانت من أول الأشياء التي دسها كيركغارد بل إنه أشار أكثر من إشارة ضمنية إلى أن الرحلة التي «قام بها أديبنا النشيط والمبدع بي. إيل. مولر إلى سورو كانت مدفوعة بافتقار بسيط للمال، يعكس افتقاره إلى الأفكار». و«المرء يأكل من الصحون التي تُقدَّم ورغم إن البخلاء جداً يميلون إلى إخفاء شيء من الطعام - شريحة من لحم البقر في الجيب، بعض الكعك في القبعة - فإن مستر بي. إيل. مولر شره حتى إنه يأخذ الحديث كله معه إلى البيت ويرسله إلى الطبع».

هكذا قُدِّم العشاء. ولكن مولر أُعطي فتاتاً حقيقياً. إذ اعترف كيركغارد حقاً بأن «مذنب؟/ غير مذنب؟» عمل يقف على حافة الجنون ولكن هذا على وجه التحديد هو القصد منه وبالتالي لم يكن هو المشكلة كما صوره مولر - الذي كان لديه طموح بمنصب أُستاذي. وفي هامش مستفيض أوضح كيركغارد إن العمل تجربة لا أكثر ولا أقل، وإن الكتاب نفسه يجعل من الواضح بلا لبس إن لا أحد قادراً على القراءة حتى بدرجة معقولة ينبغي أن يساوره أي شك في ذلك. وبعد هذه الضربات الموجعة وسلسلة تعليقات ساخرة من أشد الأنواع

تشهيراً اختتم كيركغارد هاتفاً «ليس إلا من الجائز أن أظهر قريباً على صفحات مجلة كورسارن. فمن الصعب حقاً على كاتب مسكين أن يُفرَد على هذا النحو في الساحة الأدبية الدنماركية بحيث يكون (على افتراض إننا أصحاب الأسماء المستعارة كلنا شخص واحد) الوحيد الذي لا يُشتم هناك. وإذا لم أكن مخطئاً فإن شخصية هيلاريوس الوراق المتفوقة عليَّ لاقت ثناء في مجلة كورسارن. وفكتور إريميتا تعين عليه حتى أن يتحمل عار تخليده – في مجلة كورسارن! ولكني كنتُ هناك بطبيعة الحال لأنه:

ubi spiritus, ibi ecclesia و ubi P. L. Moller, ibi the The Corsair.

بالتعبير اللاتيني الذكي أعلاه – «حيث يكون روح الإله تكون الكنيسة: حيث يكون بي. إيل. مولر تكون مجلة كورسارن» – تخطى كيركغارد الحدود بأكثر من طريقة واحدة. وفي الأوساط الأدبية كان من الأسرار المعروفة بكل تأكيد إن لمولر علاقة بمجلة كورسارن، ولكن التزمير بهذه الحقيقة على صفحات جريدة فادريلانديت كان في رأي كثيرين خرقاً كبيراً للإتيكيت. كما إن موجة الغضب العارمة بالأصالة عن مولر فاجأت كيركغارد. فهو لم يضف التعبير اللاتيني إلا بشكل عابر – كُتب كإضافة هامشية إلى المخطوطة. ونحمد الله إن مولر كان أحمق بما فيه الكفاية لإبلاغ «موسوعة الكتاب» التي أعدها تي. أتش. أيرسليف T. H. Erslew إنه (بحسب تعبير كيركغارد) «كان نشيطاً... غنائياً وهجائياً على صفحات كورسارن» وبالتالي فإن إيصال هذه المعلومة إلى جمهور أوسع لا يمكن أن يُسمى تجاوزاً. ومع ذلك تعين على كيركغارد أن يكبح عواطفه بكل حزم بل كان عليه أن يحشد دوافع دينية قوية لتبرير اغتيال مولر أدبياً: «إن المقال الموجَّه ضد مولر كُتب بخوف وارتعاش كبيرين. كتبتُه خلال عطل دينية ومن باب التدقيق الضابط أهملتُ حضور الكنيسة أو تلاوة موعظتي». كان هذا كيركغارد في أسوأ أحواله.

في البداية بدا إن التكتيك كان ناجحاً. فإن مولر المخضوض على نحو محسوس برد فعل كيركغارد، رد في صحيفة فادريلانديت بعد يومين، في 29 كانون الأول/ ديسمبر 1845، كاتباً بلهجة تصالحية إنه ناقش عدداً من الأعمال الأدبية في «غايا» وبالتالي لم يكن يريد أن يخص أي عمل منفرد بالنقاش دون سواه. ونفى بشكل قاطع إن منزل هاوخ في سورو كان على ما يُفترض المكان

الذي جرت فيه الأحاديث الأدبية. وأشار في الوقت نفسه إلى أن كل من ينشر كتاباً يغامر بخضوع كتابه للمراجعة بطريقة ليست إطرائية. وأضاف: «إنك لن تجد أي طريقة لتجريد النقد من سلاحه بيقين كامل سوى عدم السماح بظهور كتاباتك مطبوعة – وبذلك تحقق ما يبدو أنّك تقيِّمُه تقييماً عالياً وهو أن يكون لديك «قارئ واحد». وكان الرد بتوقيع «المخلص الأكثر احتراماً بي. إيل. مولر».

من المؤكد أن هذا الاحترام لم يكن يعني الكثير، وإن غولدشمدت كان مصيباً بكل تأكيد حين كتب إن آمال مولر بتعيينه في منصب أُستاذي أُجهضت بنزاعه مع كيركغارد: وثب عليه كيركغارد بشدة واستخدم كلمات غريبة كانت أو بدا إنها كانت ذات تأثير في الجمهور بحيث أن الأُستاذية بدلاً من أن تقرِّبها غايا «أُبعدت مسافة لا تُقاس». ولاحظ كيركغارد نفسه بشيء من الشماتة اللئيمة إن من المسلي والتثقيفي إلى أقصى الحدود من وجهة النظر النفسية أن يرى مدى السرعة التي التفت بها مولر إلى طلبه هو وأطاع الأوامر: «تقدَّم وانحنى احتراماً ثم غادر إلى المكان الذي ينتمي إليه».

رشقة كورسارن

بعد صدور «غايا» بفترة قصيرة التقى غولدشمدت وكيركغارد مرة أخرى في الشارع. وكان كيركغارد أكثر تحفظاً من المعتاد، وتذكر غولدشمدت: «تمسك تمسكاً صارماً بالغُفْلية. ومثلما كنتُ أنا، بالطبع، غير قادر على أن أعرف أو أقول إنه فراتر تاسيتيرنس فإنه كان غير مستعد بالقدر نفسه لإقرار أي معرفة بارتباطي بتحرير مجلة كورسارن. استطعنا أن نتحدث عن فراتر تاسيتيرنس وبي. أتش. مولر ومجلة كورسارن كما لو إن هذه أشياء ليس لنا أي صلة بها، وحقيقة إنه اتخذ جانب فراتر تاسيتيرنس وأنا اتخذت الجانب الآخر لم تكن تمت بأي صلة إلى تفضيلات شخصية. وأُرسيت هذه اللهجة على الفور بالطريقة التي بدأت بها أحاديثنا. أنا فهمتُ ذلك وجاريته، وكأننا نمثل كوميديا صغيرة خفيفة. ولكن حصيلة هذا الموقف اللاشخصي هي إني لم أتمكن من التوجه إليه والقول «أخبرتُك بكذا وكذا. فلماذا رغم ذلك وجهتَ هذا الاتهام ضد مولر؟» من جهة أخرى، كان بمقدوري أن أقول وقلتُ بالفعل عن فراتر تاسيتيرنس إنه مهما كان مصيباً بشأن القضايا الأخرى فقد ارتكب [فراتر تاسيتيرنس] في هذه النقطة ظلماً وألحق أذى. ورد كيركغارد على ذلك بأن حق فراتر تاسيتيرنس

يجب أن يُحاكم من وجهة نظر أعلى. قلتُ إني لا أستطيع أن أرى وجهة النظر الأعلى هذه، ثم تحدثنا لبرهة عن أشياء أخرى». كان الموقف غريباً وهو مثال ممتاز على كوبنهاغن في عصرها الذهبي حين كان أعلام الفكر الكبار والصغار باستمرار يلتقون بعضهم البعض مصادفة في الشارع، وكثيراً ما كانوا يقصرون أحاديثهم على تحيات مؤدبة أو انحناءة تعبر عن احترام كاذب - لأن مناضدهم في البيت مفروشة بمخطوطات جارحة عن أحدهم الآخر، أو كانوا عائدين لتوهم من المطبعة حيث كان بث آرائهم المسمومة جارياً على قدم وساق.

كان هذا صحيحاً في هذه الحالة. فبعد يومين، في 2 كانون الثاني/ يناير 1846، صدر العدد الجديد من مجلة كورسارن، وحمل مقالة طويلة بقلم غولدشمدت ذات عنوان طويل يناسب طولها، من باب الطرافة: «كيف اكتشف الفيلسوفُ التائه رئيسَ التحرير الحقيقي التائه لمجلة كورسارن». وتضمنت المقالة تقريراً يجافي الحقيقة حتى أدق التفاصيل راوياً كيف أن رئيس تحرير كورسارن، «كورونتاتو الرهيب»، وهو قاطع طرق شهير من البندقية تبحث عنه الشرطة منذ فترة طويلة، أُودع الآن رهن التوقيف. وأوضحت المقالة الظروف الملموسة قائلة: «إن المصادفة اللافتة التي انكشف كل شيء من خلالها هي الآتي: هنا في المدينة يسكن ناسك وفيلسوف عظيم ومشهور اسمه فراتر تاسيتيرنس أو الأخ الصامت. ولكن هذا اسمه التنسكي فقط ولديه اسم آخر يذرع به الشوارع كل يوم، بيد إنه لن يكون من الحصافة كشفه». وذات مساء ائتمن كورونتاتو الرهيب هذا الناسك الفيلسوف على أن يتعهد بالكتمان، ولكن عندما صدر المطبوع «غايا» كان ذلك كثيراً على الفيلسوف فقام على الفور بزيارة إلى صحيفة فادريلانديت التي أُطلع رئيس تحريرها على هذه التعقيدات الغريبة جداً. ومانع في البداية رئيس التحرير (الذي كان اسمه في الواقع جي. إف. غيودفاد وكان صديق كيركغارد وصندوق أسراره الأدبية)، ولكنه تدريجياً أبدى موافقته على الاستراتيجية: «إذا أعلنتَ الآن إن مجلة كورسارن مجلة تثير الاشمئزاز سنقتل عصفورين بحجارة لأن الناس الطبيعيين سيصدقون أي شيء تقوله - فادريلانديت تنحني احتراماً - أنتَ أكبر فلاسفة الدنمارك، ألمع عقول الدنمارك، مؤلف أكبر كتب الدنمارك سمكاً». وبعد أن أغدق كل من فادريلانديت وفراتر تاسيتيرنس المديح على أحدهما الآخر بهذا الشكل لبعض الوقت، مسك هذا الأخير قلمه وجلس ليكتب: «القلم يكتب بقوة بعض

الشيء»، قال فراتر تاسيتيرنس «ولكن أنا أيضاً حاد الطبع، والآن أعلنتُ إن بي. إيل. مولر هو رئيس تحرير كورسارن، وفعلتُ ذلك بتوكيد بحيث سيتعين غداً على المحكمة أن تعتقله.

فادريلانديت: نعم، هذا جيد بكل تأكيد، أيها الفيلسوف العظيم ولكن مجلة كورسارن نفسها! لا تنس كورسارن! بالله عليك لا تجامل.

الأخ الصامت (يُغمس قلمه مرة أخرى في الحبر): استرخي، الآن سأقتلها! وتستطيعين بالتأكيد أن تجري ترتيبات الجنازة... انظري، هناك! الآن انتهى الأمر! الآن سترين دليلاً صغيراً على مدى ذكائي. تلك المجلة الملعونة قد تراودها فكرة إدراج شيء عني فتجعلني خالداً، خالداً في مجلة كورسارن يا صديقتي! لن أقبل ذلك. أو لا تعرفين ما قلته لمنع ذلك؟

فادريلانديت: تستطيع أن تقول ذلك مرة أخرى – ما كنتَ لتفكر في ذلك قط. وأضفتُ «من الجائز الآن أن أظهر في كورسارن». التجربة الفكرية هي الآتي: إما أظهر الآن في مجلة كورسارن أو لن أظهر فيها. إذا ظهرتُ هناك فإنه شيء أنا نفسي طلبته، وهكذا تقدم كورسارن خدمة لي. وإذا لم أظهر فيها – فمرحى! إذاً، لا أظهر هناك – وهذا بالطبع على وجه التحديد ما أُريد».

فادريلانديت (بعين مغرورقة بالدموع): »عظيم، رجل عظيم!«

الأخ الصامت: «مجلة رصينة، لذيذة!»

فادريلانديت (جافلة): «ولكن يتبادر إلى ذهني إنك لا تحتاج إلى تجربة فكرية! فأنت قتلتَ مجلة كورسارن لتوّك».

الأخ الصامت: «اللعنة، هذا صحيح! في عجالتي كدتُ أنسى».

فادريلانديت: «هذا العمل يجعلني سعيدة كما سأكون إذا أكل العالم كله لحم خيول هذا العام في 13 كانون الثاني/ يناير».

الأخ الصامت: «وأنا سعيد كما سأكون إذا اختنق هايبرغ بأحد كتبي في بلعومه».

فادريلانديت: «أعتقد أنّي سأحتفل بالمناسبة بالركوب على ظهر قاضي المقاطعة».

الأخ الصامت: «سأفعل شيئاً للفقراء. ستراودني فكرة إجراء تجربة فكرية أعطيتُ فيها ريكسدولاراً لامرأة فقيرة عندها خمسة أطفال. فكري في سعادتها! فكري في الصغار الأبرياء ينظرون إلى الريكسدولار!

فادريلانديت: «أنت رجل نبيل!»

الأخ الصامت: «أنا في مزاج رائق ولذلك أكون محسناً. أنا سعيد. أنتِ سعيدة. نحن سعداء».

كلاهما: «مرحى!»

ما أن غادر غولدشمدت المطبعة حتى شاء القدر - أو مساحة كوبنهاغن الصغيرة - أن يلتقي غولدشمدت وكيركغارد. أراد رئيس التحرير أن يعرف إن حققت مجلة كورسارن أخيراً الإنشاء الهزلي ولكن كيركغارد رد بـــــ «لالالالالا» طويلة وممدودة. وقال إن المجلة تفتقر إلى الاحترام. سأل غولدشمدت «احترام ماذا؟» رد كيركغارد «احترام حق فراتر تاسيتيرنس الأعلى» ثم افترقا في دهشة. وستمر سنوات قبل أن يتكلما مرة أخرى مع أحدهما الآخر.

في العدد التالي من مجلة كورسارن ذُكر كيركغارد باسمه الحقيقي لأول مرة. وكان ذلك في مقال بعنوان «الكوكب الجديد» فيه حوار بين كورسارن وكيركغارد وهايبرغ وأُستاذ في الفلك اسمه أولوفسن. وهم يعلقون على كوكب غامض ظهر فجأة في قبة السماء. ويعتقد كيركغارد إنها لا بد أن تكون قضية «متشرد، شخص مزعج، صعلوك». وإذ يستحضر كيركغارد وضعه الخاص في المدينة يقول إنه سيتصل بالشرطة، وفي النهاية يهدد بكتابة تسعة عشر خطاباً تثقيفياً لطرد الكوكب الذي لا يستحي! هايبرغ، من الجهة الأخرى، يرحب بالكوكب ويعتبره دليلاً مرئياً على فاعلية قدراته بوصفه نبياً فلكياً، ويغتنم الفرصة على الفور لإثبات ذلك:

أ	التنبؤ بـ	2 نجم	ظهر 1
ب	التنبؤ بـ	صفر نجم	ظهر 1
المجموع:	التنبُّؤ بـ	2	ظهر 2

ثم يأتي دور أولوفسن، ولا أحد يستطيع أن يخدعه. فالظاهرة الكوكبية هي مذنَّب، لا أكثر ولا أقل. نقطة. يهتف كيركغار، إن هذا ليس ممكناً، فهو بلا

ذَنب. يتساءل أولوفسن بحدة: «بلا ذَنب؟ أنتَ أيضاً بلا ذَنب، ولكنك مذنَّب». ما المذنَّب في الحقيقة؟ يجيب كيركغارد وكأنه تلميذ مدرسة «إنه جسم مضيء غريب يظهر لنا نحن الفانين في فترات منتظمة...» يرد أولوفسن، «حسناً، ألستَ أنت مذنباً إذاً؟ ألستَ جسماً مضيئاً، ضوء؟» يضطر كيركغارد إلى الإقرار له بذلك: إنه ضوء. ولكنه غريب الأطوار، كما يعلق أولوفسن الذي فجأة يترك السماء المرصعة بالنجوم ويسأل عن خياط كيركغارد. ويتضح إن اسم الخياط إبسن. يسأل أولوفسن غير مصدِّق «هل تقول لي إن إبسن كان يتبع ما يميله عليه عقله في خياطة سروالك؟ يجيب كيركغارد مكرراً نكتة قديمة، كلا، إنه يتبع ساقيّ. ولكن ذلك لا يساعده، ويرد أولوفسن بضربة ذكية فلكياً: كلا، أيها الرجل الصغير، أنا أيضاً أتعامل مع الخياط إبسن. ولكن اللعنة، فإن إحدى ساقي السروال دائماً بطول الأخرى إلا إذا طلبتُ خلاف ذلك لكي أبدو عبقرياً. طبعاً أنتَ مذَنَّب».

هنا في حوالي منتصف المقال يجد هايبرغ إن أولوفسن أصبح يتدخل في قضايا شخصية جداً، ولذلك يعيد توجيه الاهتمام إلى أعلى، صوب الكواكب البعيدة، ولا يعود هناك حديث عن السراويل، لأسباب ليس أقلها أن رسام الكاريكاتير بيتر كلاستروب صوَّر الفيلسوف بإحدى ساقي السروال أطول من الأخرى - أو أقصر قليلاً، إذا شئتم، فالأمر سيان. وإزاء منظر كيركغارد في تصوير كلاستروب الشرير سيكون من الصعب على كيركغارد أن يتفادى استذكار وقائع من الأوقات الصادمة عندما كان الصبيان في مدرسة بورغرديد يهزؤون منه بسبب ملبسه الغريب ويسمونه «سورين الجورب». والمسافة ليست بعيدة بين الجورب والسروال، ولو عرف مولر الذي كان من أصدقاء كيركغارد القريبين، بهذه النكات التي كان التلاميذ يتداولونها في باحة المدرسة لاستثمرها كما هو ديدنه. كما إن غولدشمدت لم ينس ذلك اليوم في فيملسكافتيت عندما مازحه كيركغارد بسبب معطفه الأنيق الجديد وقال له أن يلبس كما يلبس الآخرون. إذ كان هناك الكثير من أسباب الشماتة في مكاتب تحرير مجلة «كورسارن».

في اليوم التالي ذاته، يوم 10 كانون الثاني/ يناير، نشرت فادريلاندنيت مساهمة بقلم كيركغارد الذي استمر في التوقيع باسم «فراتر تاسيتيرنس». وكان الرد الذي نُشر بعنوان «النتيجة الديالكتيكية لتحقيق بوليسي أدبي» رده العلني الثاني والأخير في النزاع. وفي هذه القطعة التي تهتز غضباً أخلاقياً لاحظ

كيركغارد بتهكم إن المرء يستطيع على ما يبدو أن «يستأجر مجلة كورسارن لشتم أحد ما مثلما يستطيع أن يؤجر عازف أرغن في الشارع لتأليف موسيقى». وينبغي تجاهل المجلة مثلما يمر المرء بـ«عاهرة» بكل أدب – تعليق تكرر على الصفحة التالية ويبدو أنّ القصد منه أن يعني ضمناً إن رئيس التحرير مولر في الحقيقة يمشي إلى البيت مع عاهرات في أحيان أكثر مما يمشي ماراً بهن. وأنهى كيركغارد مساهمته مكرراً «لعلي أطلب أن أُشتَم. فمن الفظاعة التي لا تُطاق أن يعيش المرء مهانة تخليده من قبل مجلة كورسارن».

كان لهذه السطور تأثير فوري في محرري المجلة. فإن غولدشمدت انفجر ضاحكاً، ولكن لون مولر شحب حتى بات بلون شرشف أبيض: «تستطيع أن تضحك على ما تشاء! ما كنتُ لأتعرض إلى هذا الأمر الكارثي، هذا الخلط بين مطبوعي غايا ومجلة كورسارن لو لم أتورط معك.

ولكن مجلة كورسارن واصلت هجماتها على كيركغارد بلا هوادة. وحمل العدد المؤرخ 16 كانون الثاني/ يناير رسالة إلى «مستر مايكل ليونارد نتانسون، تاجر الخيول»، وهو شخص نصف مخبول استشاط غضباً على مجلة كورسارن في مطبوعه الإخباري متوسط الحال. وكان نتانسون هذا شخصية معروفة اشترى الأسبوعية الفاشلة «بوليتيفينن» Politivennen التي أعاد تسميتها إلى كورفيتن

Korvetten واستخدمها منبراً للهجوم على رئيس تحرير برلينغسكة تيدندة الذي هو أيضاً كان اسمه نتانسون. ولم تكن هناك أي علاقة تربط بين كيركغرد ونتانسون المجنون ولم تجمعهما إلا صفحات كورسارن لأن نتانسون كان شخصاً نصف مخبول بصورة سيئة الصيت. وطلبت الرسالة الموجهة إلى نتانسون المعذرة ألف مرة لأن أسرة التحرير لم تتعرف على نتانسون تحت اسم فراتر تاسيتيرنس بل افترضت خطأ إنه اسم مستعار لسورين كيركغارد.

أُبقي كلاسترون مشغولاً. وبالإضافة إلى رسمه الكاريكاتيري لنتانسون زُود أيضاً بعدد من المقاطع القصيرة من أعمال كيركغارد التي على أساسها كان المطلوب من أن يقدم الكثير من الصور المشوهة لصاحب الماجستير المزعج مع الملحقات المناسبة: أول شخص منحني الظهر يركب على كتفي امرأة شابة، ثانياً، يرتدي جزمة كبيرة الحجم عليه، وعلى صهوة حصان حيث يجلس

ملتوياً كالشيطان، يعتمر قبعة عالية، ويبدو مختل التوازن بالكامل، وأخرى عجيبة حقاً حيث يظهر الشخص بهيئة لَقلَق يُبقي مسافة واسعة بينه وبين آلة لدك الحصى [بالدنماركية brolaeggerjomfru خادمة الحجارة] مع التعليق التالي: كيف يمشي فراتر ماراً بعاهرة». كان هذا رد مولر على ما تلقاه، وإذا لم يكن هذا كافياً نرى تالياً كيركغارد في طريقه عبر الباب المؤدي إلى مكاتب مجلة كورسارن، ثم يعود مرة أخرى عقيماً ورثًّا، بكل عاهاته. يضاف إلى ذلك إن هذه العدد نفسه من كورسارن تضمن رسالة إلى فراتر تاسيتيرنس من المدعو فراتر أوبزرفانتيسموس الذي باحترام زائف - ولكن أيضاً مع شيء من التبرير - يسأل فراتر تاسيتيرنس لماذا لم يهاجم كورسارن عندما امتدحته المجلة ولم يهاجمها إلا بعد أن هوجم في غايا التي يصدرها مولر. وأخيراً، حمل الغلاف الخلفي إعلانات من مكتب فراتر تاسيتيرنس للتجريب المرخّص له ديالكتيكياً، وهي عشرة إعلانات مصنفة وهمية بينها إبلاغ من حكومة مدينة كوبنهاغن بما معناه أن فراتر تاسيتيرنس مُنح الآن موافقة للإقامة بوصفه مفارقة هنا في المدين.

في الأسبوع التالي، بعدد 23 كانون الثاني/ يناير، كان هناك رسمان، أحدهما يصور فراتر تاسيتيرنس الرهيب منظوراً إليه من الخلف وهو يعبيء رفاقه الباقين في السلاح في زقاق خلفي حيث يحتفلون بحقيقة إن مجلة كورسارن هُزمت الآن وقُصم ظهرها. وفي الرسم الآخر يلتقي فراتر تاسيتيرنس، مرعوباً، مجلة كورسارن بهيئة غولدشمدت الذي من نكد حظه يقول نهارك سعيد أيها الرجل العظيم. ويرفض فراتر تاسيتيرنس بشدة هذا النوع من الإطراء فيجرب غولدشمدت التحية بعبارة أيها الرجل الصغير الضئيل «التي يعدها فراتر تاسيتيرنس إهانة خبيثة. ثم يهتف غولدشمدت يا إلهي، لن تكون عظيماً ولا صغيراً! حسناً، أيها الرجل المتوسط كيف حالك؟

استمرت الوقاحة في عدد 30 كانون الثاني/ يناير حيث خُلط مرة أخرى بين كيركغارد ونتانسون في سرد فوضوي بعض الشيء حيث يصرخ كيركغارد عدة مرات - بتورية - ليس عندي أرغن [كلمة أرغن بالإنكليزية organ تعني عضو أيضاً ومن هنا التورية المشار إليها - المترجم]. بعد ذلك كان هناك توقف في الفكاهة التي استُنزفت أصلاً حينذاك. ومع ذلك، في 20 شباط/ فبراير استطاعت مجلة كورسارن أن تذكر في بابها الموسوم «السجل» إن مؤلف «إما/ أو» فاز بجائزة من اتحاد الصناعة لمقال عن صناعة الملابس في

الدنمارك. وفي الأسبوع التالي كان هناك خبر آخر هذه المرة بمناسبة نشر عمل كيركغارد «حاشية ختامية غير علمية» مؤخراً، التي خُصت بالذكر على أفكارها النيرة وملاحظاتها القيِّمة ولغتها الجزلة: «مرة أخرى نرحب بالمؤلف الفاضل في عالم الأدب ونسمح لأنفسنا بالتعبير عن الأمل بأن يبيع الكتاب نسخاً كثيرة ويكون له قراء كثيرون».

جاء هذا التنويه بلهجة مخففة بعض الشيء ولكن كيركغارد ارتاب في الأمر وقام على الفور بمراجعة الموقف: «[مجلة كورسارن] أرادت ألا تشتمني لأن لديها رغم كل شيء فكرة عما هو غير لائق. وأرادت ألا تغالي في الإطراء لأن لديها رغم كل شيء فكرة بأن هذا في رأيي سيكون إهانة في الحقيقة. فاختارت بديلاً ثالثاً: مقاربة تقديرية موضوعية. ولكن ذلك لن يجدي. ولا أُريد أن أكون متصالحاً معها».

بعد فترة قصيرة على ذلك التقى كيركغارد وغولدشمدت في شارع مونترغاده حيث قال غولدشمدت إن كيركغار «مرَّ بي وقد بدا منفعلاً في منتهى الغيظ، لا يريد أن يحييني أو أُحييه... شعرتُ متهَماً ومظلوماً: مجلة كورسارن انتصرت في المعركة ولكن أنا نفسي اكتسبت رقم واحد كذباً. بيد إن روحي شعرتْ بصعود احتجاج آخر في تلك اللحظة المثقلة بالعبء: لم أكن شخصاً من الصنف الذي يُنظر إليه باستخفاف، وكان بمقدوري إثبات ذلك. وإذ مشيتُ مخترقاً الشوارع وقبل أن أصل إلى البيت، توصلتُ إلى قرار حازم بالتخلي عن مجلة كورسارن. وعندما أعلنتُه في البيت قالوا «الحمد لله!» - في غاية السعادة لكن مفاجأتهم لم تكن كبيرة وكأنهم كانوا يعرفون بالأمر قبلي.

رغم إن النزاع مع كيركغارد أسهم، بداهة، في قرار غولدشمدت التخلص من مجلة كورسارن فإن ذلك لم يحدث إلا بعد نصف عام، ربما في وقت ما من تشرين الأول/ أكتوبر، عندما نقل ملكية المؤسسة الشيطانية إلى النقَّاش على الخشب فلينتش Flinch مقابل ألف وخمسمائة ريكسدولار. وفي 6 آذار/ مارس كان بمقدور المرء أن يقرأ تحت عنوان الفيلسوف العظيم اعتذاراً موجهاً إلى نتانسون آنف الذكر الذي افترض المحررون خطأ إنه الرجل الذي يقف وراء الأعمال ذات الأسماء المستعارة. وبإصرار متعِب يتهكم المقال على رفض كيركغارد أن يُنقَد أو يُمدَح من أي أحد - باستثناء الأسقف مينستر الذي أُجيز

له من الجهة الأخرى أن يحتكر مديحه. وأُرفق النص برسمين كاريكاتيريين، أحدهما يرينا كيركغارد وهو يقدم كتاباً إلى رجل راكع ممتن. ويصوره الكاريكاتير الآخر شخصاً منحني المنكبين لكنه منتصب القامة، يجلس على سحابة وتحيطه هالة نورانية؛ إنه متموضع في مركز الكون ويدور في فلكه البرج الدائري وكنيسة سيدتنا وجزم وقنانٍ وغلايين وكتب والشمس والقمر والنجوم والكثير من الأشياء الأخرى. وتضمن العدد الصادر في 3 نيسان/ أبريل رسمين هزليين لقارئ مصمم يحاول عبثاً أن يقرأ حاشية ختامية زائد باقة من زهور الأضاليا التزيينية تمثل ثالثة زهورها التسعة جمال كيركغارد، وهو تكوين ممتاز بلون البسكويت تحته ساقان متساويتان، بطلعة بهية مهيبة، لا يُضاهى في كل النواحي، وتلاعب الألوان على الساق رائع بصفة خاصة.

رغم إن مجلة كوريارن كانت توجه بصورة متقطعة كلمات وصوراً لاذعة صوب كيركغارد حتى أواخر 1855 فإن أشد المواد تجريحاً بلغت الذروة في عام 1846. وكانت الطرافة (أو ربما عدمها) تلاشت في ذلك الصيف مع ذكر كيركغارد في مقال بعنوان هرقل ظهر في عدد 17 تموز/ يوليو. وأكملت العجلة دورتها لتعود إلى نقطة البداية. ففي عام 1845 كان بالطبع ذلك العنوان نفسه هرقل هو الذي تخيل كيركغارد إن بالإمكان تصوير غروندتفيغ تحته - على ما في ذلك من مفارقة.

حاشية مولر رداً على حاشية كيركغارد

أكملت عجلة أخرى، وإن كانت أصغر قليلاً لكنها لا تقل أهمية، دورتها وعادت إلى نقطة البداية. ومثلما بدأ الخصام مع مراجعة مولر للعمل مذنب؟/ غير مذنب؟ فإنه انتهى بمراجعة أخرى، هي أيضاً بقلم مولر. وفي عددين من صحيفة كيوبنهافنسبوستن صدرا في النصف الثاني من شهر آذار/ مارس 1846 راجع مولر تحت الاسم المستعار نجاح مولنسكي الطبيعي العمل الموسوم حاشية ختامية الذي نُشر قبل شهر. وإذا كانت مراجعته الأولى جرعة انتحارية مميتة فإن هذه المراجعة تعتبر في أحسن الأحوال وداع رجل ليس لكيركغارد فحسب بل لأي أمل بنيل احترام أكاديمي. فلا غرو إن الكراهية تقطر عملياً من قلمه.

تتألف المراجعة، بهذا القدر أو ذاك، من شروحات ساخرة ومقاطع متجاورة بصورة غريبة من الحاشية التي يقرؤها مولر قراءة خاطئة بلا حياء

لينتج نصاً يحمل بصمات موهبته الاستثنائية في المحاكاة. وفي اللحظة التي يبدو أنّه يحاول جاهداً أن يقدم عرضاً موضوعياً للطرح الذي يقدمه الكتاب عن الديالكتيك بين العناصر التاريخية وغير التاريخية في المسيحية، يستطيع مولر أن يهرع فجأة لإنقاذ القارئ بشرح تربوي إلى حد المغالاة يتضمن غمزاً خسيساً من قناة كيركغارد وطريقته ذائعة الصيت بعض الشيء في المشي: للشخص الذي لا يفهم كلمتي الديالكتيكي والديالكتيك فإن المعنى يمكن أن يُحدَّد على أنه حركة متعرجة - ما يسميه البحارة تغيير المسار - نحو نقطة نهاية يستطيع الأشخاص غير الديالكتيكيين بلوغها باتباع خط مستقيم.

كان مولر خسيساً ولكنه كان أكثر من ذلك. إذ كان ناقداً متضلعاً قدرته على الكاريكاتير تُعزا إلى أُذن مدوزَنة دوزنة مثلى على إيقاع النص وأي نوتات مزيفة قد يتضمنها النص. وكان مولر أول من لاحظ ميل كيركغارد غير الموفق إلى وضع أشياء مختلفة الأصناف لا جامع بينها تحت يافطة الجمالي: الشخص الذي يتطلع إلى الهناء الديالكتيكي يجب ألا يهتم إلا بنفسه، ويجب أن يحرر نفسه من كل ما يُسمى التزامات مدنية وإنسانية، ومن كل المشاعر الشخصية، إلخ التي هي ليست إلا «جمالية». ولعل مولر لم يخطئ الهدف إلا قليلاً عندما ذهب أبعد من الإيحاء ضمناً بأن كتاب حاشية ختامية - بحشده من الفصول والأجزاء والأقسام الفرعية والإقحامات والاستفهامات والافتراقات والاستطرادات والتنقيحات والتأويلات والنقاشات والملحقات والمكملات والترقيمات والتهميشات، والكثير غير ذلك - أصبح، بمعنى ما، كتاباً مستحيلاً لم يُشتَغل عضوياً بعناية كافية ولذلك فإنه حتى في أحسن الأحوال لن يجد مكانه إلا تحت باب «أدب الفوضى». وأي قارئ حاول أن يجد طريقه إلى كتاب حاشية ختامية أو حوله أو خارجه لا يملك إلا أن يقر بأن مولر يعرف ما يتحدث عنه هنا.

ويصح هذا أيضاً على توصيف مولر لأسلوب كيركغارد. وهنا أيضاً أثبت مولر إنه مراقب دقيق بقدر ما كان خشناً في طريقة تقديم ملاحظاته. ذلك إن مولر لاحظ مستخدماً استعارة حديثة إن ديالكتيكه ينتج بخاراً باستمرار وقلمه يجري مثل قطار على سكة حديد. ولكن الاستعارة سرعان تخرج عن السكة لأن كيركغارد في الصفحة نفسها يوصف بأنه يمارس مناورات بهلوانية وخادعة ويلعب عابثاً. لم تكن هذه إلا عبارات مبتَذلة ولكن مولر كان قادراً

على إصابة الهدف أيضاً: في خطابه يسمع المرء أقاويل اغتيابية تارة وبساطة وإيقاعات توراتية تارة وثرثرة مقاهي كوبنهاغن تارة أخرى. ورغم كل التصوير الكاريكاتيري فإن هذا التوكيد على تعدد الأصوات في نصوص كيركغارد توكيد دقيق على نحو يستحق الإعجاب لأن أعمال كيركغارد باستخدامها خليطاً فريداً من الأجناس الأدبية ومساحة مواضيعية متميزة على وجه التحديد، قطعت مع شكل الفلسفة التقليدي في الجدال وأصبحت مجبولة على نوع من الأهمية الدائمة.

كما كان مولر، بوصفه سجالياً متمرساً وساخراً متدرباً، يعرف بطبيعة الحال الوسائل التي يستخدمها كيركغارد حين انتقد أولئك الذين لم يفهموا القصد من في برنامجه للتفكير الموضوعي. ولذلك جمع مولر بدقة محسوبة بعناية سلسلة من الكاريكاتيرات الشفهية التي يزخر بها نص كيركغارد: «مساعدو أستاذ»، «مضاربون»، «معلمون خصوصيون»، «مفهرسون»، «قساوسة مرتبطون ومكفولون»، «سادة منظمون ومحترمون»، «أساتذة»، «فلكيون وبيطريون»، «مفكرون ثمينون»، «صينيون»، «مساعدو حلاقين وحانوتيين حريصون تاريخياً على الصعيد العالمي»، «عصي للمشي»، «موظفون مكتبيون»، «باعة أزبال»، «نفاخو منافيخ»، «صيارفة في الباحات الأمامية»، و«حلي صغيرة تافهة».

حين قدَّم مولر صورة ساخرة لتصوير ساخر على هذا النحو كان يُراد بها أن تخدم غاية محدَّدة. فهو لاحظ أن لعمل كيركغارد سمة غريبة هي الاستغراق في النقائض الديالكتيكة. وفي الحقيقة إن كيركغارد لم يفعل سوى إنه وصف لا شيء إلا الدوران الديالكتيكي، ومولر دعم زعمه بحذاقة بالمحاجَّة التالية: أيام كتب كيركغارد (هنا تأتي الضربة) مقالات كورسارنية لاذعة حقاً ضد كيوبنهافنسبوستن، كانت أوضاع الفلسفة سيئة، كما يمكن أن نراه في الكتاب عن هانز كريستيان أندرسن. الآن، من الجهة الأخرى، عندما أخذت أوضاع الفلسفة تتحسن، يكتب كيركغارد (هنا تأتي الضربة مرة أُخرى) مقالات كورسارنية هابطة، كما تشهد قطعتاه ضد مولر في فادريلانديت. وهكذا فإن كيركغارد بوصفه ناقداً لم يكن أفضل قيد أنملة من طاقم البحارة على متن السفينة القرصانية كورسارن. وتابع مولر قائلاً إن المؤلف نفسه يذهب في بعض الأحيان بعيداً في «شغفه باللامعول» - على سبيل المثال في قصة الدكتور قفزة الظبي (هايبرغ) - بحيث إذا قرؤها فراتر تاسيتيرنس سيعدُّها هجوماً مقززاً

تشنه كورسارن على رجال محترمين مسالمين، كل منهم يخدم بلده، مؤدين واجباتهم في تعفف مشرف عن الأضواء.

تكتيكات مولر تقرب من العبقرية الخالصة. فهو، أولاً، يذهب إلى أن كيركغارد كان دائماً يكتب باسم مجلة كورسارن. ثم إنه باقتباس الخاتمة الحانقة لمقال كيركغارد الأول في فادريلانديت، يستخدم حيلة ذكية مؤلباً كيركغارد (الملقَّب فراتر تاسيتيرنس) ضد كيركغارد (الملقب كليماكس). وأخيراً، إنه يشير إلى قصة كتاب حاشية ختامية عن المدعو الدكتور قفزة الظبي الذي يماهيه بكل صواب مع هايبرغ. وهكذا كشف مولر عن السذاجة الصارخة في أمل كيركغارد الضمني بإقامة تحالف مع هايبرغ - الذي رغم كل شيء استمر كيركغارد في اعتباره الحاكم الشرعي للأدب الدنماركي). ولكن مولر ذهب حتى أبعد بحركة مماثلة إزاء مينستر الذي كان كيركغارد - مرة أخرى بسذاجة - يتوقع منه نوعاً من الاحتجاج الرسمي ضد تصرف مجلة كورسارن المشين. وكتب مولر: تالياً، لن نستطيع أن نوافق على الحقد الذي يبدو أنّ المؤلف يضمره ضد المحترم جداً الفاضل والآن صاحب النيافة الأسقف مينستر. ففي المرحلة الأخيرة من الكتاب يعبر مستر كيركغارد عن شكره للأسقف بحرارة بالغة لأن «شركته» امتدحته، وهو يغتنم الفرصة ليقول ضمناً، بلا لبس، إنه من ناحيته معجب بالأسقف. استطاع مولر أن يحدس البرود الكامن تحت سطح الحرارة البالغة التي شُكر بها مينستر. وفي كتاب حاشية ختامية على وجه الدقة جرى تحديد كلمة معجب المرة تلو الأخرى تحديداً سلبياً على أنها مجرد علاقة جمالية بشيء جمالي، ارتياح منزَّه يشير إلى غياب معين للالتزام الحقيقي بين المعجِب والمعجَب به، وهكذا، على حد تعبير كتاب حاشية ختامية، فإن الإعجاب علاقة خادعة، أو يمكن بسهولة أن يكون علاقة خادعة. وبالتالي فإن كيركغارد أيضاً كان مخادعاً عندما أعلن إعجابه بالأسقف مينستر، وأوصل مولر مرامه بخفة حتى إن الجرأة الديالكتيكية التي أراد كيركغارد أن يتواصل بها مع مينستر هوت على الأرض مثل منطاد من الرصاص. ومن المفهوم تماماً إن منستر لم يشعر بأدنى إغراء لإطلاق أي طوربيدات ضد الإزعاج الذي تمثله مجلة كورسارن.

ولا إن كثيرين آخرين شعروا بما يغريهم بذلك. وعلى سبيل المثال إن جي. أف. غيودفاد، رئيس تحرير فاتريلانديت المسؤول قانونياً، ضاق ذرعاً. وفي

وقت سابق، حين استبد به القلق من الاستقبال الإيجابي الذي كانت مجلة كورسارن تحظى به، شجع كيركغارد على استهداف صحافة الإثارة الرخيصة بهجوم، وكلما كان ذلك أسرع كان أفضل. وعندما كان يعمل على مقاله عن مولر - تذكر كيركغارد في فقرة استرجاعية في يومياته من عام 1855 - جاء غيودفاد بالفعل مسرعاً إليّ للاطلاع على المقال، واقفاً هناك فيما كنتُ أكتب القسم الأخير. ولكن ما أن نُشر المقال حتى قام غيودفاد باستدارة حادة والتزم جانب الصمت المطبق. ولم تكن لديه رغبة في إزعال الجمهور، ولذلك امتنع عن المجاهرة بتأييد كيركغارد الذي أصبح الآن موضع استخفاف. ونظر كيركغارد إلى ذلك على أنه هروب لا يُغتفر، وفي عام 1846 شعر مُلزَماً بقطع العلاقة مع غيودفاد الذي كان يراه كل أسبوع على امتداد سنوات وكان من القلائل (ربما الوحيد إلى جانب أميل بويسن) الذين كان كيركغارد يسمي واحدهم صديقي الشخصي، وهو ما كانه بكل تأكيد. على أية حال، رفض غيودفاد التعليق على كيركغارد بعد وفاة كيركغارد.

إعجاب وحسد: حين تقود كلمة إلى أخرى

من زاوية النظر التي يتيحها لنا التاريخ قد يبدو من الغريب والمحرِج على السواء إن كيركغارد الذي بحلول عام 1846 أنجز نصف نتاجه الأدبي بأكمله، حتى سيتجشم الالتفات إلى مقالب كورسارن الصبيانية التي وإن لم تكن بريئة بطبيعة الحال فإنها مع ذلك كانت من نوع الأشياء التي تنتمي إلى خانة التسلية (وهي خانة تشمل المرأة بحسب كونستانتين كونستانتيوس). وبالفعل، ليس من الغريب أن تُعامل واقعة كورسارن بوصفها جملة اعتراضية على هاشم النص الكبير الذي يشكله نتاج كيركغارد الأدبي، أو الإشارة إليها كمثال على قيام كيركغارد بدور المصلح الأخلاقي لزمانه اللا أخلاقي. ولكن الواقعة كانت شيئاً غير ذلك وأكثر منه؛ كانت، كما وصفها غولدشمدت بدقة، دراما، مثلثاً دراماتيكياً، مثقلاً بكل الأعباء التي ترافق مثل هذه المثلثات.

وكما لوحظ فإن مولر طفح به الكيل حين قرأ قطعة كيركغارد في بداية كانون الثاني/ يناير. وحدث الشيء نفسه مع غولدشمدت في أواخر شباط/ فبراير عندما قرر التخلص من مجلة كورسارن. وكيركغارد نفسه لم يعد لديه ما يقوله علناً بعد مقاله الثاني في مطالع شباط/ فبراير. وفي فقرة من يومياته بلا تاريخ

ولكن يُفترض إنها من شهر آذار/ مارس أو نيسان/ أبريل 1846، كتب: أنا لا أقرأ مجلة كورسارن ولن أوعز حتى لخادمي أن يقرأها لأني لا أعتقد أنّ للسيد سلطة الإيعاز إلى خادمه بالذهاب إلى مكان سيئ الصيت والسمعة.

ولئن واصل الثلاثة مع ذلك حربهم الاستنزافية على طريقة حرب العصابات فلأن منطقاً ماكراً وغداراً كان يعمل من وراء ظهورهم. وكان المنطق يعمل على نحو من هذا القبيل: إذا أُعجب المرء بشيء فمن الطبيعي أن يسعى إلى التشبه به. ولكن إذا لم يتمكن المرء من التشبه به فإن ارتداداً مزدوجاً يحدث. إذ يتحول الإعجاب إلى حسد في حين إن الرغبة الأصلية في التشبه تتحول إلى رغبة في الإمّساخ. وغني عن القول إن هذا يفترض شبهاً معيناً واختلافاً معيناً بين الأشخاص الذين يشاركون في اللعبة. وبطبيعة الحال إن الشبه المطلق يلغي الإعجاب مثلما إن الاختلاف المطلق يجعل من المتعذر بالطبع التماهي مع موضوع الإعجاب.

كان المثلث يتسم بوجود هذا الشبه النسبي وهذا الاختلاف النسبي على وجه التحديد: كان كيركغارد غريب الأطوار والعبقري الذي يكنُّ الإعجاب والحسد لمولر على جرأته الإيروتيكية؛ وكان مولر الإيروتيكي وطفل البروليتاريا الذي يكن الإعجاب والحسد لكيركغارد على عبقريته واستقلاله المالي؛ وكان غولدشمدت اليهودي الطموح الذي يكن الإعجاب والحسد لكيركغارد لكنه يكره عجرفته وسلوكه المتعالي. وكان غولدشمدت ومولر حليفين لبعض الوقت، ولكن كانت بينهما منافستهما المتبادلة الخاصة أيضاً بطبيعة الحال، وتعين على كل منهما أن يمضي في سبيله هو. وصحيح بكل تأكيد أن يقول الناس إن على المرء أن يبقى مع أمثاله، ولكن حين يكون أمثاله طموحين مثله تماماً فإن هذه القاعدة لا تصح بالمرة.

المنافسة بين مولر وكيركغارد هي الأسهل على التميز. فأولاً، إن مولر حاول أن يعيد كتابة يوميات الغاوي لكنه فشل. ثم تمكن، بنجاح أكبر، من إنتاج معارضة أدبية تستند إلى مذنب؟ / غير مذنب؟ وأخيراً، إنه مسخ حاشية ختامية كاريكاتيريّ. ولم تنجح محاولات مولر الثلاث إلا في كونها نُسخاً هزيلة أو مشوهة من الأصل ولكن رسوم كلاستروب الكاريكاتيرية نسخت الأصل - كيركغارد - نسخاً مكتملاً. وكان هناك تناظر خبيث في ذلك: مثلما

إن كيركغارد، من جانبه، نجح في مماهاة مولر مع مجلة كورسارن فإن مولر نجح الآن في مماهاة كيركغارد مع رسم كاريكاتيريّ في كورسارن.

وكانت لهذه المماهاة نتائجها. فإن كيركغارد الذي كان في السابق جزءاً طبيعياً من المشهد المديني، أصبح بملح البصر كاريكاتيراً يمشي في المدينة. ولم يعد الآن يُعتبر مفكراً أفلحت غرابة أطواره ذاتها في فرض احترام الجموع له، بل على العكس أمسى إعلاناً يثير السخرية لمجلة كورسارن، أيقونة مجنونة. وإن أشخاصاً كانوا ينظرون إليه عالياً بإعجاب، ربما من دون أن يفهموا حقاً ما الذي ينظرون إليه بإعجاب، أخذوا الآن يمضون الكثير من الوقت في النظر إليه سافلاً بازدراء - في الحقيقة ينظرون سافلاً إلى سرواله ليروا إن كانت ساقا السروال حقاً غير متساويتين كما صورتهما كورسارن. وهكذا كان كل شخص يستطيع أن يرى بنفسه إن الرجل غريب الأطوار حقاً كما كانت دائماً ظنونهم به. وبلغت الأمور حداً بحيث إن سي. أم. كونيتزر خياط كيركغارد من فيملسكافتيت أبلغ كيركغارد يائساً إن كل هذا الحديث عن السروال الذي كان صنع يده، يمكن أن يضر بسمعة مهنته، وبالتالي إذ وجد كيركغارد لنفسه خياطاً آخر فإن كونيتزر سيكون آخر من يشكو بسبب ذلك.

هكذا يمكن القول إن الرسوم الكاريكاتيرية التي تصور كيركغارد بسرواله ذي الساقين غير المتشابهين كانت، رغم نوعيتها الهابطة، ضربة معلم حقيقية، ورغم إن الفكرة وراء الرسوم الكاريكاتيرية كانت، كما هو واضح، ضربة تحت الحزام (بل تحته أكبر مسافة يمكن تخيلها) فإنها ذات ديمومة لافتة، ولا سيّما وإنها كانت ذات قوة سجالية طبيعية لها مفعول مزدوج. فأولاً، إنها أكدت وغالت بتفصيل عارض سيكون من المثير للسخرية أن يدافع كيركغارد عن نفسه ضده. فالمرء لا ينشر بلاغات في الصحف ينفي بها مزاعم عن سراويله. وثانياً، إن الرسوم الكاريكاتيرية وجهت بمعنى أعم الانتباه إلى مظهر كيركغارد البدني، إلى جسده، الذي لم يكن موطن قوته.

عندما شن كيركغارج هجومه على مولر شعر واثقاً من النصر كاتباً إني سأقتنص مستر بي. إيل. أم. في مصيدته ذاتها ولكننا نجد من المغري أن نتساءل إن لم تكن النتيجة عكس ذلك تماماً - أي، إن لم يكن مولر هو الذي اقتنص كيركغارد في مصيدة مَسَكَته من ساقه. ومما له مغزاه إن نص مجلة كورسارن

ليس هو الذي علق عليه كيركغارد في يومياته بل رسوم كلاستروب الكاريكاتيرية حيث حاول المرة تلو الأخرى الهروب من مهانته عن طريق الاستخفاف بالقضية. أنا معتاد على أشكال من الإرهاب غير الشكل الطفولي للرسم بـ... ساقين نحيفتين إلى حد مقلق لفيلسوف أقل من مغمور، كما كتب مرات متكررة مبدياً بطولته الضعيفة على نحو فريد. وكان هذا صحيحاً بكل تأكيد، أي الجزء المتعلق بأشكال الإرهاب الأخرى، ولكنه لم يفعل سوى إنه جعل موقفاً سيئاً أكثر سوءاً. أنا التزم بكتابة نوع مختلف جداً من المقالات الطريفة عن نفسي وساقيّ مما يستطيع غولدشمدت كتابته، كما أعلن كيركغارد لاحقاً، ولكن بجرة القلم نفسها أدرك هو نفسه تحديداً إنه إذا كانت المقالات تتضمن نوعاً مختلفاً من الطرافة فإن الرعاع لن يكونوا قادرين على فهمها. وهكذا لم يكن من المجدي إنه كان، في رفقة مثقف مثل كارل فايس، يستطيع الضحك من كل قلبي على الموقف الجنوني بأكمله: الحق، عندما نضحك أنا وهو على ساقيّ النحيفتين أفترض إن لدينا أساساً مشتركاً في ثقافة فكرية جوهرية. وإذا كنتُ سأضحك عليهما مع الرعاع فإن ذلك سيعني ضمناً إني أعترف بأن لدي أساساً مشتركاً معهم. وهذه بكل بساطة لم تكن هي الحال.

كان كيركغارد مستاءً، ويصبح استياؤه واضحاً حين ندقق في العدد الكبير من الهجمات والردود غير المنشورة - بعضها أرستوقراطي بحنق وبعضها حقود ينبش في الصغائر وبعضها بالأسلوب الهزلي الهابط الذي كان من اختصاص مجلة كورسارن وبعضها بأساليب مختلفة أخرى - كلها تبحث عبثاً عن وجه مكَشر على النحو المناسب ووضعية ملائمة. وإذا كان الجدل جدلاً جمالياً محضاً حول مَنْ الأكثر ظرفاً، وما شابه ذلك، فإن تسوية القضية ستكون سهلة بطبيعة الحال، كما لاحظ كيركغارد بموضوعية ولكن لسوء الحظ إن هذا لم يكن موضوع الجدال. وهكذا فإن كيركغارد، في قطعة أُعيدت كتابتها مراراً وأصبحت زائغة وساخطة بصورة متزايدة، شعر إن من واجبه الإصرار على أنه ليس في منافسة مع مجلة كورسارن: أرجو ألا يشغل أحد ذو نفس ذكية نفسه بالقول «إن هذا حقاً لم يكن مقالاً طريفاً». كلا، في الحقيقة إن هذا ليس ما يُفترض أن يكون. مع ذلك قام بالمحاولة بعد صفحات: ظن بترارخ Petrarch إنه سيُخلَّد بكتاباته اللاتينية، وكان شعره الإيروتيكي هو الذي فعل ذلك. القدر يعاملني حتى بمفارقة أكبر. فرغم كل اجتهادي وجهودي لم أستطع أن أكتنه ما

يقتضيه العصر - ومع ذلك كان قريباً من متناول اليد. ولا يمكن التصور بأني لم أكتشفه بنفسي، وكان على أحد آخر أن يقوله: إنه سروالي... هل كان أحمر بشريط أخضر أم أخضر بشريط أحمر! بطريقة ما لم يكن ذلك من دون فكاهة. كان الأمر فكرياً للغاية ولذلك ليس هناك بكل بساطة جدوى عندما يكون الأشخاص الذين يتكلم معهم المرء رجال أعمال يهوداً ومكتبيين في متاجر وعاهرات وتلاميذ وصبياناً جزارين، إلخ.

كانت حالة إنسانية إلى أقصى الحدود. فإن إحساساً متزايداً بالهزيمة وضع كيركغارد في حالة ذهنية عدوانية وغير منتظمة رد فيها على غياب الإنصاف بلا إنصاف متزايد: إن مجلة ذي كورسارن هي بالطبع تمرد يهودي ضد المسيحيين (نقيض مجزرة) وضد يهود آخرين إذا لم يقبلوا مفهوم كورسارن للاحترام... لأنه، انظروا هناك في مدخل القبو، هناك يجلس، مفهوم كورسارن، المهيمن، المتسلط، ماسك الدفاتر، رجل القبو، الأمير المتشرد، اليهودي المرابي، أو أي شيء تريدون أن تسموه... فلنُخرج هذه المواهب إلى العلن ونرى ما يمكن أن تفعله. ليكتبوا بالشروط نفسها التي يكتب بها مؤلفون آخرون، وجهاً لوجه، مستخدمين أسماء حقيقية دون اختباء في القبو - حينذاك سأهدر حتى مزيداً من الساعات على سجال من هذا النوع.

الأحدَب الأحوَل

أهدر كيركغارد أكثر من بضع ساعات بل إنه في الحقيقة أهدر أياماً وأسابيع وشهوراً على هذا السجال مع غولدشمدت ومكتبه لجمع القمامة الأدبية، الذي هدده كيركغارد بالنار والسيف وعلقة قوية والكثير من المكاره ولكن جميع الخطط الفظيعة بقيت في منضدته التي يكتب عليها. وفي تلك المنضدة نفسها سيُعثر على فقرة من يومياته، لافتة وغير معهودة من نواحي عديدة، وهي حكاية صغيرة موصوفة بكلمة خيال وموسومة بعنوان الأحدث الأحوَل. تبدأ الحكاية: قبل سنوات عديدة كان يعيش في مدينة ف رجل معروف للجميع رغم إن قلة صغيرة جداً رأته لأنه كان تقريباً لا يبارح منزله على الإطلاق... كان ضئيل البنية، أحول العين، محدودب الظهر، وكان يرى إن الحُدب والحُول وحدهم التعساء حقاً، وهو نفسه أتعسهم. وقال لأنه لو كنتُ أحوَل فقط لأمكنني الخروج في المساء ولن يرى أحد حَوَلي، لكني أحدب أيضاً. كان يكره كل الناس ولا

يتعاطف إلا مع الحُدُب أو الحُول أو الاثنين، ولكن فقط الذين يرفضون تحمل مصيرهم بصبر، يحبون الله والبشر - لأنه ينظر إلى ذلك على أنه تخاذل. كان مخطوباً لكنه فسخ خطوبته بسبب النكات التي كان يسمعها.

نكاد أن نجد من المغري الظن بأن في عين كيركغارد شظية من المرآة السحرية لمخلوق خرافي ورسم صورته الذاتية لأنه شدد بالفعل على تفاصيل كان أهل ذلك الزمان يميلون - بتشجيع من مجلة كورسارن - إلى ربطها به، أي ظهره المحدودب بغرابة وخطوبته المفسوخة. وحين يتوقف باكتئاب، إضافة لذلك، عند التحدي وازدراء النفس المعهودين من الشخص المنعزل فإن هذا بكل تأكيد لا يقلل من الانطباع بأن هذه صورة ذاتية شيطانية. لكنها ليست صورة ذاتية بأي معنى بسيط لأن الحكاية تستمر: كان ناشر جريدة وينشر الفرقة بين الناس. تحدٍ وكبرياء وجشع. في البيت كان يعيش بأبهة. كانت لديه مرايا كبيرة ينظر فيها إلى نفسه ثم يقول بسرور «في الواقع تبدو مثل قيصر سوى الحقيقة الماثلة في أنّك أحوَل العين - وسوى الحقيقة الماثلة في أنّك أحدب ولكن الناس لا يستطيعون أن يروا ذلك حين ينظرون إليك وجها لوجه». نشر كتاباً بعنوان الأحدَب الأحوَل يكشف أعمق أعماقه، وهو شيء لا يفعله كتاب آخرون أبداً. خُيل له إنه يحتاج إلى الجريدة للتعبير عن نظرته إلى الحياة ولكن لم تكن لديه نظرة كهذه على الإطلاق. وكانت الجريدة لا تنشر إلا تذمراً ومداعبة، وكانت نظرته إلى الحياة مزاجاً عكراً ويأساً. وقال لحافظ أسراره «لماذا يجب أن أكون أحوَل وأحدَب ولذلك مستبعَداً من أن أصبح قسيساً أو ممثلاً على سبيل المثال؟» وعندما قال حافظ أسراره إن هذه هي أيضاً حال المكفوفين والعوران والعرجان وذوي الرُكَب المعوجة وذوي السيقان المقوسة، حينذاك قال الرجل الضئيل: «حسناً، كل هذا لا شيء بالمقارنة مع كون المرء أحوَل وأحدَب».

وهكذا فإن ما يبدو في البداية صورة ذاتية يتضح إنه صورة الصحفي غولدشمدت الذي كان يقدِّر التزييف المربح أكثر من النزاهة الأدبية المتعارف عليها. ويستمر كيركغارد: غادر حافظ الأسرار. ثم لبس الرجل الضئيل رداءً مبطناً من حرير الدمسق وشَبَك دبوساً من الماس الحقيقي على الرداء وتحته ارتدى ثوباً من الحرير يحمل الصليب الكبير لوسام الأسد. ثم جلس على عرش أمام مرآة وقال: «في الواقع تبدو مثل قيصر سوى الحقيقة الماثلة في أنّك أحوَل - وسوى الحدبة». ثم بكى مرة أخرى إلى أن حضرت مدبرة المنزل

العجوز وحملته إلى الفراش. وإذ أُثقل كاهل الرجل الضئيل بكل هذه الشارات الجنونية التي لا ترمز إلا لقوة متخيَّلة فإنه يُحمَل خارج الحكاية التي انتهت الآن عملياً. ولكن بالكاد لأنها تستمر وكأنها استدراك تقريباً: رأى ذات مرة مسرحية إيمائية قديمة يقوم فيها بيرو بدور أحدب وظن إن العمل كُتب للضحك عليه وإن بيرو يحاكيه – فشُتم بيرو في الجريدة طيلة عام كامل.

بهذه السطور يعود كيركغارد إلى الإبهام الموجود في بداية الحكاية حيث ليس مؤكداً إن كان هو نفسه أو غولدشمدت الذي يُصوَّر كاريكاتيرياً. ومن بين الاثنين فإن الأحدب لا يمكن إلا أن يكون غولدشمدت في حين إن بيرو الذي هو ليس أحدب بالمرة لكنه يقوم بدور الأحدب لا بد أن يكون كيركغارد الذي تُعاقب جسارته بشتمه في الجريدة. ولكن إذا كان هناك أحدب فعلاً فهو لم يكن غولدشمدت بل كيركغارد! وهكذا تُغيِّر الحدبة المنحوسة أماكنها وتسكن الرجل الخطأ، إن جاز القول. وبذلك ينقل كيركغارد عاهته هو إلى غولدشمدت. والقصد في هذه الوثيقة الوحيدة هي ظاهرة النقل نفسها، والحدبة لا تكون نوعاً من النتوء الجسدي الفعلي بل اسماً آخر للعاهات والعيوب التي ينسبها المرء إلى آخرين لأنه يرفض الاعتراف بها في نفسه.

إنه لمن المأساوي والتثقيفي على السواء، بطريقة ما، أن يُلاقى بالصدود هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين حاول كل منهم تبوُّؤ موقع مركزي في الدوائر الفكرية في كوبنهاغن. ونال ثلاثتهم رقم واحد كاذباً على حد تعبير غولدشمدت. ولعل طرد مولر هو الأقل رمزية. فمنذ عام 1845 مُنح زمالة في الخارج مدعومة من الدولة، الأمر الذي أثار حنق كيركغارد فترة طويلة لأن السماح لشخص كهذا بتلقي دعم من الدولة إنما هو انتقاص من الأمة. وحقيقة إن مولر لم يغادر الدنمارك حتى أوائل 1848 لم تجعل الأمور أفضل. سافر أولاً إلى ألمانيا حيث تولى إعالة نفسه كأديب ومترجم وصحفي. وبعد ثلاث سنوات واصل رحلته إلى فرنسا، وبعد عدد من السنوات المضطربة التي اعتراها فقر متعاظم أبداً توفى بمرض التهاب الدماغ الزهري في عام 1865.

كان القدر أرحم بعض الشيء مع غولدشمدت. فبعد أن تخلص من مجلة كورسارن سافر جنوباً للانتهاء من الطرائف وتعلُّم شيء ما، بحسب تعبيره هو. وبالمناسبة فإن كيركغارد اعتبر ذلك انتصاره الشخصي.

تمثلت هزيمة كيركغارد باستبعاده من النسيج الاجتماعي وفقدانه علاقة صريحة ومنفتحة مع رجل الشارع. ورغم كل حساباته الاستراتيجية فإنه لم يأخذ في الحسبان الشيء الأكثر أهمية وهو العالم الذي يتمكن منه أحياناً منطقٌ مخاتل. وهذا جعل كيركغارد ضحيته.

بعد سنوات عديدة لخص غولدشمدت الأمور في قطعة بعنوان بي. إيل. أم. وأس. كي: كلاهما كانا تعيسين بحيث عندما يتوقف المرء عند مصيرهما فإن القلق الذي يشعر به حين يواجه فداحة الحياة الهائلة أحياناً يشتد متحولاً إلى رعب.

الانقلاب الكبير

كان عام 1846 عاماً كارثياً، عاماً مروعاً، ولكن كيركغارد لن يكون كيركغارد إذا اكتفى بعزو كل المصائب إلى الاحتمالات المفتوحة للصدفة وحدها. بل على العكس، فإن كيركغارد كان كيركغارد - أو بالأحرى إن كيركغارد أصبح كيركغارد - لأنه رأى مصيره مكتوباً في غمرة كل المحنة. وما حدث لم يكن قضية صدفة بل شيئاً له معنى، حدث بتواطؤ الحاكمية الإلهية ورضاها.

في وعي كيركغارد أشَّرت الواقعة مع مجلة كورسارن بدايةٍ جديدة، وهذا ما تشهد عليه بشكل ملموس تماماً الحقيقة الماثلة في أنّه بدأ ينظِّم فقرات يومياته بطريقة مختلفة. ومنذ عام 1833 كان يستخدم دفاتر، 26 دفتراً في المجموع، ولكنه في عام 1846 بدأ يستخدم ما سماه يوميات ملاحظاتـــــــــــــه، في دفاتر فارغة كبيرة (من قطع الربع) كاتباً على الصفحة الأولى لكل جزءٍ من اليوميات التاريخ الذي بدأ فيه يستخدم الدفتر. واليوميات المختلفة مرقمة بترتيب زمني رغم إن تواريخ الفقرات المكتوبة في اليوميات هي الاستثناء وليست القاعدة.

استخدم كيركغارد خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته ما مجموعه ستة وثلاثون جزءاً متعاقبة من يوميات الملاحظات هذه، حدد لأولها تاريخ 9 آذار/ مارس 1846، الذي كان بالطبع فترة اقترابه أكثر فأكثر من الغرق في الأمواج التي خلفتها سفينة القراصنة كورسارن. ولخص الأحداث في تقرير بدأه بأن لاحظ على نحو واقعي إن عمله حاشية ختامية الذي اعترف فيه بكتبه ذات الأسماء المستعارة، نُشر الآن، وإن عمله الآخر مراجعة أدبية على وشك

تقديمه إلى المطبعة. كل شيء على ما يرام. كل ما عليَّ أن أفعله الآن هو البقاء هادئاً وصامتاً، معتمداً على مجلة كورسارن لدعم المشروع كله بصورة سلبية، تماماً كما أرغب... ولا شك في أنّ فكرة القطيعة مع مجلة كورسارن، مأخوذةً بحد ذاتها، كانت أوفق فكرة في ذات اللحظة التي أنهيتُ فيها نتاجي الأدبي لعرقلة كل نوع من أنواع المقاربة المباشرة - في وقت إذ أعلنتُ بأني صاحب كل الأسماء المستعارة، فإني خاطرتُ بأن أكون مَرجِعاً من نوع ما. وهكذا فإن الهجوم على مجلة كورسارن لم يكن بدواعي الغضب الأخلاقي وحده بل كان بدوافع استراتيجية أيضاً وسيضع كيركغارد في موقف متناقض، بقدر ما إن كل الأكاذيب والتشويهات والهراء والتشهير، تُستخدم لبلبلة القارئ وبذلك مساعدته على أن يصبح نشيطاً بمفرده ومنعه من الدخول في علاقة مباشرة. وبصورة لافتة أكثر بكثير من السابق أصبح الآن صحيحاً أن يكون المرء كاتباً إنما هو فعل.

ومع هذا يبدو أنّ فعلاً آخر، فعل أن يكون المرء قسيساً، أُرجئ حتى إشعار آخر مرة أخرى. وقبل شهر كانت فكرة كيركغارد بأن يصبح قسيساً فكرة حية وقائمة، حتى إنه ذهب لزيارة الأسقف مينستر الذي استمع بصبر وأوصى بأن يصبح راعي أبرشية في الريف، الأمر الذي رآه كيركغارد قليلاً للغاية بعض الشيء، ولكنه في 7 شباط/ فبراير 1846 كتب الآتي في يومياته: فكرتي الآن أن أتدرب لكي أصبح قسيساً. ولعدد من الأشهر ابتهلتُ إلى الله أن يعينني أكثر لأنه كان واضحاً لي منذ زمن طويل إني ينبغي ألا أكون كاتباً بعد الآن، وهو شيء أُريد أن أكونه بالكامل أو لا أكونه بالمرة. ولهذا السبب لم أبدأ العمل على أي شيء جديد أثناء قراءة البروفات الطباعية [لعمله حاشية ختامية]، سوى مراجعة قصيرة لنص عصران، الذي هو مرة أخرى قطعة ختامية. ولكن ما كاد حاشية ختامية يُنشر حتى رفع الشك رأسه: لو فقط أستطيع أن أجعل من نفسي قساً. فمهما حققت لي حياتي الراهنة من رضا، هناك، في نشاط هادئ، مانحاً نفسي قليلاً من الإنتاجية الأدبية في لحظات فراغي، سأتنفس بسهولة أكثر.

وهكذا كان كيركغارد ما زال يريد أن يصبح راعي أبرشية. وفي الريف كان يستطيع أن يستخدم وقت فراغه للكتابة، الأمر الذي كان بريئاً بما فيه الكفاية، ولكن بحساباته الخاصة كان ذلك علامة شؤم. وهكذا، في 5 تشرين الثاني/ نوفمبر 1846، بعد أن أجرى حديثاً مع مينستر، اعترف بصراحة بأن احتمال

العيش في عزلة وهدوء تأمين في الريف، مثلاً، أصبح الآن صعباً عليّ لأني أصبحت ساخطاً وأحتاج إلى سحر الإنتاج الأدبي لكي أنسى كل صغائر الحياة اللئيمة. وبعد عشرين يوماً من السنة التالية عادت هذه الأفكار بحدة متجددة: أقر كيركغارد بأن بيتاً لراعي الأبرشية في بيئة ريفية كان دائماً يستهويه بوصفه أمنية رعوية على النقيض من وجود مرهق ولكن الوضع في كوبنهاغن أصبح بصورة تدريجية وضعاً يتطلب وجود شخص استثنائي. وتابع، بإحساس معين من احترام الذات، إلى التوكيد على أنه بقدر تعلق الأمر بالمواهب والقدرات الفكرية، والتكوين الذهني، لا شك في أنّي مؤهل أحسن تأهيل، وسأتحمل مسؤولية جسيمة إذا رفضتُ مهمة كهذه... ومن الناحية الإنسانية، يجوز القول من الآن فلاحقاً إني لا أركض بلا هدف بل أمضي نحو هزيمة معينة - واثقاً بالله بأن هذا على وجه التحديد هو النصر. وقد فهمتُ الوجود بهذه الطريقة عندما كنتُ في العاشرة، وهذا هو مصدر السجال الهائل في نفسي. وهكذا فهمته حين كنتُ في الخامسة والعشرين. ولهذا السبب سمَّاني بول مولر السجالي الأكثر شمولاً. وفي 24 كانون الثاني/ يناير 1847 أصبح قرار البقاء في المدينة محسوماً: الحمد لله أن كل ابتذالات الغوغاء هاجمتني. والآن تسنى لي الوقت حقاً للتعلُّم داخلياً ولإقناع نفسي بأنها في الحقيقة كانت فكرة سوداوية أن أُريد العيش في بيت قس ريفي، تائباً في عزلة وسلوان. وأنا الآن ثابت على موقفي بصورة أكثر حسماً من أي وقت مضى.

قد نظن إن كيركغارد في أعقاب هجوم مجلة كورسارن ما زالت لديه أسباب وجيهة لمغادرة المدينة ولكنه هو نفسه خلص في الحقيقة إلى استنتاج معاكس. ومهما كان من عوامل دافعة فإن كيركغارد استخدم أيضاً، على ما يبدو، الواقعة مع مجلة كورسارن بصورة مباشرة ذريعة للبقاء في المدينة، بل بدا إن اتجاها أخذ يظهر. فمثلما احتاج إلى قطيعة مع ريجينة ليصبح كاتباً كان يحتاج إلى صِدام مع مجلة كورسارن ليبقى كاتباً! وبتعبير بسيط، إن كيركغارد كان بحاجة إلى معارضة ومضايقة ومعاناة تكون حوافز لكتابته. شتائم ستجعل شخصاً آخر غيرَ منتج، لم تفعل سوى إنها جعلتني أكثر إنتاجاً، كما كتب كيركغارد في فقرة بطولية من يومياته عام 1849 حيث تجنب أن يسأل نفسه السؤال البديهي بعض الشيء عما إذا كان في الحقيقة والواقع يبحث عن مثل هذه الشتائم ليبقى منتجاً. ورغم الحقيقة الماثلة في أنّه - كما على سبيل المثال في الفقرة آنفة الذكر من

يومياته عام 1846 – استطاع أن يصف العمل قساً بأنه أُمنية رعوية فإنه كان يعرف حق المعرفة إن لمثل هذه الرعوية أثمانها: في ذات اللحظة التي يذكر فيها المرء قساً ريفياً، يفكر تلقائياً في حياة متقشفة لكنها هادئة وقانعة في طبيعة هادئة حيث تدور الطاحونة كليك – كلاك – كليك – كلاك، حيث يقف القلق على السطح خلال أيام الصيف الطويلة، حيث يجلس القس في المساء تحت العريشة مع زوجته، سعيداً «سعادة أبوية» غامرة، سعيداً بزوجته، سعيداً بعمله المتواضع لكنه ذو معنى. وهكذا لم تكن نبتات الخطمي على جدران بيت القس وحدها التي لم تزهر بل إن القس نفسه كان في خطر أيضاً لأن من المؤكد أن الأفكار الثابتة يمكن بسهولة أن تتطور إلى رعاية أبرشية. وخلص كيركغارد إلى أنه: حتى إذا قال المرء إن الحياة في المدينة الكبيرة تخنق ما هو أسمى، فإن لها جانبها الإيجابي أيضاً – فهي تضم تصحيحاً دائماً يعيق الإسراف.

الإسراف في أن يكون المرء غريب الأطوار على سبيل المثال.

مدرسة الشتائم

وهكذا بقي كيركغارد في كوبنهاغن متوقعاً إن إنتاجه الأدبي لا بد أن يصبح الآن مطابقاً للوقوع تحت رحمة السخرية والازدراء. وتحققت توقعاته أكثر من المتوقع. إذ كانت كوبنهاغن تمنحه في السابق حمَّاماً شعبياً يومياً، وهو إجراءٌ من إجراءات الصحة العقلية للإلهاء، كان يعطيه آثاراً جانبية نفسية إيجابية. والآن لم تعد كوبنهاغن عاصمة الدنمارك بل حفرة صغيرة منغلقة من الطراز الأول، مستنقع متعفن مأهول برعاع ينبحون، نظراتهم الغبية وكركراتهم الدائخة تلاحق كيركغارد أينما ذهب. كان محروماً من حقوق الإنسان الاعتيادية، ويُعتدى عليه بالشتائم كل يوم، ويشعر إنه ألعوبة معذبة حتى لتسلية أطفال المدارس. لم يعد قادراً على التنفس في الشوارع بل كان يستنشق الهواء في يومياته التي تعج بتقارير قصيرة عن مآزق شتى: كل صبي جزار يعتقد أنّ من حقه تقريباً أن يُهينني بناءً على أوامر صادرة من مجلة كورسارن، والطلاب الجامعيون الشباب يبتسمون ويقهقهون وهم سعداء أن يُداس شخص مرموق تحت الأقدام، والأساتذة حسودون ويتعاطفون سراً مع التهجمات، مكررين إياها، رغم إنهم يضيفون، بالطبع، إن ذلك مؤسف. أقل شيء أفعله، حتى إذا زرتُ أحداً ما مجرد زيارة، فإنه يُشوِّه بكذب ويُكرِّر في كل مكان. وإذا علمتْ به مجلة

كورسارن تنشره، ويقرؤه كل السكان. وكانت النتائج فظيعة: الرجل الذي زرته يوضع بذلك في موقف حرج، ويكاد أن يغضب عليّ، ولا يمكن في الحقيقة أن يُلام على ذلك. وفي النهاية سيتعين عليَّ الانطواء ولا أرتبط إلا بأشخاص لا أحبهم لأن الارتباط بآخرين يكاد أن يكون خطيئة. ولم تكن المدينة وحدها التي انكمشت بل يبدو أنّ البلد كله تقلص: الدنمارك بلد صغير جداً وجميل حيث الجميع يعرفون بعضهم بعضاً، حيث مخافة الإنسان هي الإله الأعلى، حيث أشد ما يُخشى أن يبدو المرء مثيراً للسخرية (سواء أكان ذلك مبرَّراً أو غير مبرَّر). وهذه النِسَب تسبب دمار البلد: الدنمارك مغمورة تحت كوبنهاغن، وكوبنهاغن تصبح مدينة ريفية. وهذا على الأرجح ما ستكون عليه الأمور دائماً ولكن كيركغارد كان يحلم بأيام زمن مضى ناسياً الأبعاد التاريخية والجغرافية على السواء: مسكينة الدنمارك، من امتلاكها اسماً عظيماً بوصفها دولة أوروبية، غرقت الآن في عدم الأهمية، إلى مدينة ريفية في النهاية - هذا كل ما في الأمر. أو، إجمالاً: أوه، يا لنكد العيش في بلد ضئيل، صغير، سخيف لا تتألف شخصيته إلا من انعدام الشخصية.

أن يكون المرء مثقفاً حراً، وأقل من ذلك بكثير هزلياً في هذه الظروف، كان يتطلب تقريباً أكثر مما يستطيع كيركغارد تدبيره: سمَّموا الأجواء عليّ. ومع مالنخوليتي السوداء وعبء عملي الهائل، ما كنتُ أحتاج إليه للاسترخاء هو أن أكون وحيداً في الزحام... لم يعد لي ذلك. الفضول يحاصرني في كل مكان. وإذا ترك المدينة واستقل عربة إلى لإمكان بأمل إيجاد خلوة بسيطة في الغابة فإنه بالكاد كان يستطيع أن يفتح الباب أن تقع عيون متطفلة على الأرستوقراطي المعذَّب. بل كانت هناك أوقات يستقبلني فيها جمع ساخر يتعمد أن يهين الحوذي بحيث يكاد أن يصبح خائفاً لأنه لا يستطيع أن يعرف ما يجري. ثم حين بدا أخيراً إنه نجح: أمشي طويلاً في طرقات هادئة، مستغرقاً في التفكير، وفجأة ألقى أمامي ثلاثة أو أربعة أوغاد هناك، حيث أنا وحدي تماماً، ويشرع هؤلاء في توجيه الشتائم إلي ويكون لهذا تأثير بالغة القوة في حالتي الجسدية. وعندما جلس في مكانه المعهود داخل الكنيسة، جلس اثنان من الأجلاف السمان في الصف الذي كان يجلس فيه وبدؤوا ينظرون إلى سرواله ساخرين منه في حديث مرتفع الصوت بحيث يمكن سماع كل كلمة. ولأسباب يجهلها كيركغارد بدأت مربيات أيضاً يرسلن أطفالاً صغاراً إليه واحداً تلو آخر لسؤالي

عن الوقت، وهو شيء يوجّه نحوي بصياح في الشارع أيضاً (الله يعلم ما سبب ذلك أو مَنْ فكر فيه).

لذلك أصبحت مشياته أقصر فأقصر. وأصبح معاصروه لا تُطاق معاصرتهم بصورة متزايدة، وفي الوقت نفسه أصبح هو نفسه مغترباً عن زمنه أكثر فأكثر. والفكاهة التي كان قادراً بها على التصالح مع حماقة العالم أصبحت الآن لاذعة إلى حد السخرية – لأني لا أستطيع أن أمزح ولن أمزح في هذه الظروف. ومن باب الدفاع نأى بنفسه عن محيطه. وكان عليه أن يجعل من نفسه شخصاً متميزاً ولكن التميز على وجه الدقة هو ما كان يكرهه في هايبرغ ومارتنسن ومينستر: لماذا يجب أن أُجبر على أن أكون شخصاً متميزاً؟ غريب. كنتُ أُريد بالتحديد ألا أكون متميزاً، ونلتُ استنكار المتميزين من جراء كل الشكل الذي أعيش فيه، وتحديداً لأني كنتُ راغباً في الارتباط مع كل شخص.

لكن كيركغارد كان، في ذهابه ومجيئه في كوبنهاغن التي تغيرت تغيراً كثيراً بنظره، بقي مع ذلك قادراً على إجراء دراسات نفسية صغيرة لكنها واسعة النطاق مثل هذه: ذات يوم التقيتُ ثلاثة سادة شباب خارج بوابة المدينة وما أن رأوني حتى بدؤوا يبتسمون ويتمادون بكل الوقاحة الرائجة موضتها هنا في هذه المدينة الريفية. ماذا يجري؟ عندما اقتربتُ ما فيه الكفاية للنظر في وجوههم اكتشفتُ إنهم جميع يدخنون لفائف التبغ، فتوجهت إلى أحدهم وطلبت منه ناراً لإشعال لفافتي. ثم سارع ثلاثتهم إلى رفع قبعاتهم كما لو إني قدمتُ لهم معروفاً بإشعال لفافتي. وعليه: الأشخاص نفسهم الذين سيهتفون لي بسرور برافو إذا تفوهتُ بكلمة ودية، وأقل بكثير أن تكون كلمة إطراء، يصرخون الآن [pereat باللاتينية: أزهقوا روحه] ويهددوني. ما يمارسه غولدشمدت ومولر على نطاق واسع يمارسه كل فرد هنا على نطاق أضيق... أنا الذي كنتُ دائماً روح التهذيب ذاته، وخاصة مع الطبقة الأكثر تواضعاً من الناس! الآن القضية كلها مهزلة. ولكن المثير بما لا يُقاس أن تغتني معرفة المرء بالطبيعة البشرية بهذه الطريقة.

كانت المعرفة المغتنية بالطبيعة البشرية تتألف، من بين أشياء أخرى، البصيرة الاجتماعية – النفسية القائلة إن الشعبية ليست النظير الإيجابي الوحيد للاستبعاد بل هي أيضاً شرطه المسبق: خارج بوابة المدينة في ذلك اليوم، حين

عاش كيركغارد الانقلاب السريع من برافو إلى pereat، فَهَم العلاقة بين الصنم وكبش المحرقة، بين البطل والمنبوذ. وفي مجتمع حديث لا يقل العنف فاعلية عنه في الأزمنة السابقة لكنه تحول واكتسب طابعاً أكثر رمزية جعله متحضراً، إن جاز التعبير. إذ لم يعد الأشخاص يُصلبون بل يتعرضون للسخرية. في الأزمنة القديمة كانت التسلية أن يُدفع بشر إلى مصارعة حيوانات وحشية. نذالة زمننا أكثر تهذيباً، كما يكتب كيركغارد تاركاً العنف يعبر عن نفسه باستعاراته التي تحاكي أو تقلد أوضاعاً من أيام كان العنف عنفاً بحق: مجلة كورسارن جعلته هدف هجمات من السخرية وكشفته للشتيمة بالسخرية وللاضطهاد بالحماقة فضلاً عن ابتذالات تحقيرية، بل إن كيركغارد في فقرة من يومياته عام 1854 كان قادراً على وصف وضعه بأنه ببساطة مماثَلة مع قتال الحيوان المصارع في الأزمنة الوثنية. كما إن كيركغارد لم يتطير من الجدال بأنه إذا [عاد] المسيح الآن إلى العالم فإنه قد لا يُقتل ولكنه سيتعرض للسخرية. وهذا استشهاد في عصر العقل. في عصر الشعور والعاطفة المتقدة، كان الأشخاص يُقتلون. باختصار: استشهاد على مذبح السخرية هو ما عانيتُه حقاً.

إذا اكتسب كيركغارد بصيرة نفسية فإنه لم يكن مَنْ ضحك أخيراً بكل تأكيد. فأن يكون المرء هدفاً دائماً للسخرية هو بكل تأكيد شكلٌ حديث من أشكال الاستشهاد ولكنه عند كيركغارد كان أسوأ من الموت: في عصر العقل تكون السخرية هي الخطر المخيف أكثر من أي خطر آخر، وفي زماننا يستطيع الشخص أن يتحمل كل شيء آخر سوى أن يكون أضحوكة، ناهيكم عن انكشافه لسخرية يومية - الأشخاص يرتعدون من هذا الخطر أكثر من الموت الأكثر امتلاء بالعذاب. والاستشهاد بسبب السخرية هو الأكثر استعصاء على التحمل لأنه بوصفه استشهاداً طويل الأمد لا يختلف على الإطلاق عن ذلك الموت البطيء، بأن يُداس امرؤ تحت أقدام سرب من الوز ولذلك كان كيركغارد يفضل بكل تأكيد أن يُعدم.

كان لدى هانز بروشنر فهم واضح لطبيعة ردود أفعال كيركغارد غير المتناسبة بصورة متزايدة: فيما يتعلق بظاهرة معينة لم يكن كيركغارد يمتلك حساً بالواقع - إذا جاز لي استخدام هذا التعبير - قادراً على مقابلة قواه الفكرية بالغة التطور. إذ كان بمقدوره التفكير في قضية تافهة إلى أن تكتسب أهمية تاريخية عالمية بطريقة ما. ومن الواضح إن هذا ما حدث له مع مجلة

كورسارن. وفي رسالة إلى هانز كريستيان أندرسن بتاريخ شباط/ فبراير ناقشت هنريته كولن هجوم مجلة كورسارن المتواصل على سورين كيركغارد ذاكرة إن الضحية المسكين ليس فيلسوفاً بما فيه الكفاية لتجاهل هذا الإزعاج بل إنه منشغل به نهاراً وليلاً ويتحدث عنه مع كل شخص.

لذا ليس من المبالغة القول إن كيركغارد كان مهجوساً بمجلة كورسارن. وإذا كانت لديه أصلاً ميول معينة تنم عن جنون الارتياب فإن مجلة كورسارن أعطته شيئاً يكون مرتاباً منه ارتياباً مَرَضياً: كلهم ضحكوا عليَّ، بعضهم بطيبة، وبعضهم بلؤم - باختصار، بأشد الطرق تبايناً، لكنهم جميعاً ضحكوا، كما كتب في 1854. وعندما كان في مقهى ميني قبل سنوات قليلة وطلب نسخة من مجلة كورسارن، فوجئ واستاء حين اكتشف إنهم أرادوا إخفاء المجلة عنه. وحدث شيء مماثل في حانة باتاو ولكن في المكانين أصر كيركغارد على الحصول على المجلة ثم قرأها بحضور آخرين وتحدثتُ معهم - ونجحتُ كعهدي دائماً في استخدام لغة حوارية خفيفة. ولذلك فوجئ مفاجأة أكبر بردود أفعال الآخرين: ماذا يحدث؟ يأتي غيوفداد ذات يوم ويقول لي إن الناس يقولون إن هذا هو الشيء الوحيد الذي أتحدث عنه، إلخ - أي، إن هذا يثبت، على ما يُفترَض، إني متأثر به. وهو لم يكن، لم يكن متأثراً، بطبيعة الحال. لم أكن ديوجين ذات يوم، لم أقف ذات يوم على تخوم الكلبية. ألبس بالشكل الصحيح والمحترم - وبالتالي ليس ذنبي أن يكون بلد بأكمله دار مجانين، كما كتب في صيف 1848. ومضى يقول: أوه، إذا كان هناك وقت ومكان للنكات في الأبدية، فإني على اقتناع بأن فكرة ساقيَّ النحيفتين وسراولي التي كانت موضع سخرية، ستكون تسليتي الأعظم تباركاً. في الأبدية - ولكن انتبهوا، ليس قبلها بثانية واحدة. ويذكر ابن أُخته ترويلس فريدريك [الذي فيما بعد غيَّر اسمه قانونياً إلى فريدريك تويلس - لوند] كيف أنه ذات مرة رأى خاله سورين في شارع غاملتروف وأراد أن يركض إليه لتحيته، ولكن في تلك اللحظة بالذات سمعتُ بعض المارة يقولون شيئاً ساخراً عنه ورأيتُ شخصين على الجانب الآخر من الشارع يلتفتان نحوه ويضحكان. فإن إحدى ساقي سرواله كانت حقاً أقصر من الأخرى، وأستطيع الآن أن أرى بنفسي إنه كان غريب المظهر. توقفتُ غريزياً، وكنتُ محرَجاً ثم تذكرتُ فجأة أن علي أن أمشي في شارع آخر.

كانت الدروس التي تلقاها كيركغارد بثمن باهظ في مدرسة الشتائم تعني

فتح عينيه على جانب من المسيحية كانت علاقته به في السابق علاقة أكاديمية فقط. حقاً، ما كنتُ لأنجح قط في إضاءة المسيحية بالطريقة التي أُتيحت لي، لو لم يحدث هذا كله لي، كما كتب في فقرة من يومياته بتاريخ حزيران/ يونيو 1848، وبعد خمسين فقرة أو نحو ذلك تجذَّر الموقف: كل هذا، والحمد لله، لم يوقفني عن الإنتاج بل العكس تماماً، وإنه حقاً طوَّرني لأتمكن من إضاءة المسيحية، بل إنه طوَّر نتاجي الأدبي، ولكنه سمح لي بأن أعيش خبرة العزلة التي من دونها لا يكتشف المرء المسيحية... كلا، كلا، يجب أن يتعرف عليها المرء من الأرض إلى أعلى، ويجب أن يتعلم في مدرسة الشتائم. كان كيركغارد، إجمالاً، يفعل شيئاً ازدراه في سياقات أخرى: كان يعيش خبرات مسيحية.

بعد عام 1846، كان كيركغارد رجلاً ميتاً، بالمعنى الاجتماعي للكلمة. صحيح إن العنف الذي أُخضع له لم يكن إلا عنفاً رمزياً، ولكن هذا جعل من الأوضح له إن العصر يجب أن يتجاوز هذه الأشكال: الميت وحده يستطيع أن يتوقف وينتقم من منكَر كهذا أمةٌ كاملة متهمة بالضلوع فيه بهذا القدر أو ذاك. ولكن يا مَنْ عانيتم كلكم سيُثأر لكم! وأنا أشعر بقناعة لا توصف بأني تحديداً، وجدتُ رسالة حياتي الأنسب على نحو أمثل لكل ظروف حياتي... العقاب آتٍ!

الجيران الذين على الجانب الآخر من الطريق

فعل كيركغارد كل شيء ليتجنب مماهاته مع الأسماء المستعارة، ولكن بعد ما حدث مع مجلة كورسارن، سيميزه الغوغاء وينادونه في الشارع «إما/ أو» وسورين: بمساعدة المجلة الناطقة باسم الابتذال أُعطيتْ الإشارة لمناداتي باسمي الأول فقط حتى إنه أصبح لقباً يُطلق عليَّ بصوت مرتفع. والآن فإن الأشخاص من أصول أفضل يستخدمونه، بل أصبح من الأشياء النادرة أن تشاهد مسرحية جديدة باللغة الدنماركية دون أن تكون فيها شخصية اسمها سورين.

هذه النقطة الأخيرة فيها شيء من التضليل ولكنها لم تكن بلا أساس. فإن اسم سورين استخدمه بعض الكتاب بينهم كاريت أيتلار Carit Etlar الذي أعطاه لفلاح من العامة في مسرحيته ذات الفصل الواحدة توني يذهب إلى الحرب. وكان هناك سورين في مسرحية الفودفيل التي كتبتها يوهانا لويز هايبرغ بعنوان يوم أحد في أماغر والتي لاقت نجاحاً ساحقاً. ولكن الأهم من كل ذلك إن اللاهوتي الشاب في مسرحية ينز كريستيان هوستروب Jens Christian Hostrup

الكوميدية الجامحة الجيران الذين على الجانب الآخر من الطريق، التي كُتبت في الأصل لطلاب الجامعة، هي التي كانت في ذهن كيركغارد. وكان هوستروب أصبح طالباً في الجامعة عام 1837 ومُنح إقامة دراسية لمدة ثلاث سنوات في كلية ريغينسن في أيار/ مايو 1841. وفي خريف 1843 اعتكف الطالب الشاحب الضئيل ذو النظرة الحزينة في غرفته بهدف الدراسة للامتحانات النهائية التي اجتازها بتفوق في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر من ذلك العام. وإذ كان من حق الخريج الجديد أن يبقى مقيماً في سكن الكلية ستة أشهر أخرى وكان طائشاً حتى إنه وعد بأن يكتب كوميديا لتسلية أعضاء الجمعية الطلابية، فإنه شرع في العمل على مسرحية الجيران الذين على الجانب الآخر من الطريق دون أن يعرف حقاً ماذا سيكون موضوع المسرحية. وفي الواقع إن هوستروب كان لم يزل يكتب الفصلين الأخيرين حين بدأت البروفات على الفصل الأول ولكن بموافقة ملكية كريمة قُدِّم العرض الأول للعمل يوم الثلاثاء، 20 شباط/ فبراير 1844 في مسرح البلاط (الآن المتحف المسرحي). وضم طاقم الممثلين مقيماً في كلية ريغينسن له اسم كامل الشفافية هو سورين كيرك.

قام بدوره هانز بروشنر الذي التقى سورين كيركغارد الحقيقي في هويبرو بلادس ذات مساء عندما كان في طريقه إلى محاولة تمثيل دوره في المسرحية. حسناً، ستتقمص دوري إذاً؟، قال كيركغارد بنبرة مازحة رد عليها بروشنر محاولاً التهوين من الأمر، إنه بالطبع لن يمثل شخصيته تماماً. وبحسب بروشنر فإن هوستروب، بهذه الشخصية كان في ذهنه أساساً، على ما يبدو، ذلك النوع من الديالكتيك الذي ازدهر بين الطلاب الشباب بعد أن أثار مارتنسن اهتماماً سطحياً جداً بالفلسفة. لذلك وجد بروشنر إن قبوله بالدور مبرَّر تماماً، وعندما افترقا في هويبرو بلادس لم يكن انطباعه إن كيركغارد كان متأثراً على نحو خاص بـ نكتة هوستروب. وما كان بروشنر ليحلم قط بنَسخ كيركغارد أو تقديمه في صورة هزلية: كنتُ أكثر إخلاصاً له من أن أفعل ذلك - وممثلاً رديئاً للغاية.

كان سورين كيرك في مسرحية الجيران الذين على الجانب الآخر من الطريق طالب اللاهوت والمقيم في سكن كلية ريغينسن، مثله مثل مؤلف المسرحية. وفي المشهد الخامس من الفصل الأول هناك اجتماع عام في إحدى الغرف في كلية ريغينسن حيث يناقش الشباب لأي غرض يمكن أن يستخدموا رصيدهم النقدي الكبير، يتقدم سورين كيرك بالمقترح التالي: أيها السادة، هناك طريقتان

نستطيع أن نستخدم بها ثروتنا. إما إننا نستطيع أن نكون ذوي روح نبيلة ونُسعد آخرين، أو إننا نستطيع أن نكون ذوي روح خسيسة ونسعد أنفسنا. وإذا أردنا أن نكون ذوي روح نبيلة ونسعد آخرين فإننا نستطيع أن نرسل المال إلى السويديين الذين احترقوا أو إلى أهل يوتلاند الذي غرقوا. هناك تدخل على الخط إما/ أو. فهذان الاقتراحان يمتان بصلة إلى أحدهما الآخر كصلة النار بالماء. ونحن بأحد البديلين نرمي المال في النار وبالبديل الآخر نرميه في الماء. ويثير المقترح اهتماماً كبيراً، ولذلك عندما يتحدث كيرك في المرة التالية، يواصل الكلام بنبرة تعليمية: إذا أردتم أن تسعدوا آخرين فما الذي تريدون تحقيقه لهم؟ السعادة وليس الحزن. ولكن لمَنْ نستطيع أن نحقق السعادة، لأولئك السعداء أم للحزينين؟ للحزينين فقط وليس للسعداء. فنحن لا نستطيع أن نحقق السعادة للسويديين الذين احترقوا، فهم لا يستطيعون أن يكونوا سعداء لأنهم احترقوا. ونحن لا نستطيع أن نحقق السعادة للسويديين الذين لم يحترقوا فهم كلهم سعداء لأنهم لم يحترقوا. ولا نستطيع أن نحقق السعادة لأهل يوتلاند الذين غرقوا، فهم لا يستطيعون أن يكونوا سعداء لأنهم غرقوا. ونحن لا نستطيع أن نحقق السعادة لأهل يوتلاند الذين لم يغرقوا، فهم كلهم سعداء لأنهم لم يغرقوا. ولكن إذا لم نستطع أن نحقق السعادة لهم فإننا لا نستطيع أن نسعدهم، وإذا لم نسعدهم بهديتنا فإننا سنُحزنهم. لذلك إذا كنا أصحاب روح نبيلة ونريد أن نسعد آخرين فإننا نحزنهم، لكننا لا نريد أن نحزنهم لأننا نريد أن نسعدهم. ولهذا السبب لا نريد أن نكون أصحاب روح نبيلة بل نريد أن نكون أصحاب روح خسيسة ونسعد أنفسنا.

لم تتسم أربعينات القرن التاسع عشرة بلغة هيغلية فحسب بل اتسمت بمرور الزمن بلغة كيركغاردية أيضاً. وكما اعترف هوستروب بلا تردد لاحقاً فإنه استمتع بالمحاكاة الساخرة لما يُسمى الخطاب المنتشي في الجزء الأول من كتاب «إما/ أو» - يبدأ كما هو معروف بالقول تزوج، وستندم. لا تتزوج وستندم أيضاً - الذي يستطيع أي شخص، حسب مزاجه وأفكاره، أن يصوغ تنويعات عليه باستبدال عناصر مختلفة في الآلية الوهمية وبذلك جعل كل شيء مهماً/ غير مهم. وكان هوستروب يحاكي بسخرية محاكاة ساخرة، بطريقة ما. وفي المشهد الأخير يحاول سورين كيرك الكلام مرة أخرى، لكنه يُجَر من الكرسي الذي اتخذ عليه وضعية الخطيب.

من المؤكد أن المحاكاة الساخرة لمحاكاة ساخرة يمكن أن تُغتفر، ولكن كيركغارد لم يكن بأي حال بمنأى من التأثر بها، كما افترض بروشنر: أحدهم يكتب كوميديا لطلاب جامعيين. أحدهم يستغل الحرية الموجودة بين رفاق لتقديم أشخاص حقيقيين على المسرح. حسناً، بالطبع سيكون من غير الرفاقية أن يعترض أحد عليها. لكن المسرحية تطوف متربصة في الأقاليم حيث من المؤكد أنها لا تُعرض لطلاب جامعيين.

طافت المسرحية في الأقاليم على نحو سيئ الصيت تماماً. وفي أودينسة عُرضت عدداً من المرات بين كانون الأول/ ديسمبر 1845 وآذار/ مارس 1846، وفي الوقت نفسه تقريباً قُدمت في أكاديمية سورو حيث أُتيحت بذلك لكارستن هاوخ فرصة للضحك بطريقة رخيصة. قُضي الأمر، ولكن في 27 حزيران/ يونيو 1846، بعد عامين على تقديم الجيران الذين على الجانب الآخر من الطريق لطلاب الجامعة، جرى إحياء المسرحية – وفوق ذلك كله بعرض هدفه جمع التبرعات لأعمال خيرية! – في المسرح الملكي ولكن دور سورين كيرك تغير إلى سورين تروب، وهو لاهوتي، كما جاء في البرنامج. وأصبحت الجيران على الجانب الآخر من الطريق الآن عملاً مسرحياً فائق النجاح، بعدد من العروض في حزيران/ يونيو وتموز/ يوليو، وطيلة أشهر الصيف لم يتحدث أحد عن أي شيء آخر. واستمتع الجميع مع استثناء واحد هو كيركغارد الذي عدَّ المسرحية دنساً، ليس لأن كبرياءه الشخصي جُرح فحسب بل بسبب السخرية من بول مارتن مولر أيضاً. وبالفعل كانت الذروة الهزلية للمسرحية تفكيكاً لا يرحم لقصيدة مولر الوطنية الرائعة ورود تَحْمَرُّ في حديقة الدنمارك، التي يحاول اللفتانت المرتبك فون بودينغ أن يقتبس منها خلال لعبة من ألعاب الحفلات ولكنه بدلاً من ذلك يقع في شِباك رطانة ولعثمة من طراز عالمي.

لم يتحسن الوضع عندما غادرت مسرحية الجيران الذين على الجانب الآخر من الطريق المسرح الدنماركي وسافرت شمالاً، حتى كريستيانيا في النرويج. وفي 6 كانون الأول/ ديسمبر 1847 قرأ كيركغارد عن المسرحية في صحيفة فلايِفه – بوستن Flyve–Posten التي اقتبست نورسك ريغستيديندن Norsk Registidenden ناشرة التقرير التالي: مستر سمث كان شارد الذهن بعض الشيء يوم أمس واختلط عليه الأمر تماماً في قياسات منطقية كيركغاردية واستشاط كيركغارد الحقيقي غضباً فوصف هوستروب بأنه شاعر جبان، وإذ

وقع على الجريدة، كتب ملخصاً حانقاً لمجرى الأحداث تحت عنوان عديم شخصية حقير: يكتب مستر هوستروب مسرحية كوميدية لطلاب جامعيين... المسرحية تطوف أنحاء البلاد وتُعرض أخيراً في المسرح الملكي - والآن، كما أرى اليوم في صحيفة فلايِفه - بوستن تُعرض في النرويج حيث يطلق أحدهم في صحيفة ريغيس - تيدندين Rigs Tidenden، بكل بساطة، كأمر طبيعي، على الشخصية التي يُفترض أن تكون شخصيتي أنا، اسم «سورين كيركغارد». وليس عندي شك في أنّهم، لجعل المسرحية أكثر تشويقاً، وضعوا اسمي حتى على الملصقات الدعائية. وهذه كوميديا لطلاب جامعيين! وهكذا جرى الحط من المسرح الدنماركي ليكون مجلة كورسارن أخرى! إنه لمن المثير للاشمئزاز حقاً كيف يُخزي الدنماركيون أنفسهم باذلين كل مجهود لكي تشاهد شعوب مجاورة فضيحتنا. ورغم الحقيقة الماثلة في أنّ مستر سمث النرويجي كما يبدو اختلطت عليه الأمور تماماً في قياسات كيركغارد المنطقة فإنه مع ذلك قوبل بحفاوة. واكتشف كيركغارد وجود تناقض معين في ذلك لأنه لو كنتُ أنا نفسي لما قوبلتُ بحفاوة بل على الأرجح بقليل من [perpeat المطالبة بإعدامه] كان كرم كيركغارد في هذا الشأن قليلاً بعض الشيء. وعلى ما هو عليه من حساسية فإنه نظر إلى تعريضه للسخرية بهذا الشكل المقيت على أنه أحدث إضافة إلى سلسلة مهاناته ليرسم خطاً ذهنياً من مجلة كورسارن مباشرة إلى مسرحية الجيران الذين على الجانب الآخر من الطريق. ولم يخطر بباله قط إن مثاله الكبير سقراط نهض واقفاً عندما عُرضت مسرحية أريستوفانيس الغيوم على المسرح في أثينا ليتأكد الجمهور من إنه حقاً سقراط الذي تجري محاكاته بسخرية على الخشبة. كما لم يخطر ببال كيركغارد إنه أيام كان هو نفسه طالب لاهوت كتب في الحقيقة المعركة بين أقبية الصابون القديمة والجديدة التي جرى فيها، من بين أشياء أخرى، تعريض مارتنسن إلى المهانة. وبدلاً من ذلك غضب كيركغارد لأنه لم يكن قادراً على الدفاع عن نفسه لأنه إذا لجأ إلى القانون ضد استخدام اسمه سيكون الرد بكل بساطة إن سورين، على أية حال، اسم شائع. واعترض كيركغارد في واحد من مونولوجاته الكثيرة، قائلاً إنه في الحقيقة لم يكن اسماً شائعاً إلى ذلك الحد لكنه لم يتخذ أي إجراء - قضية السروال علّمته ذلك: إذا أثرتُ ضجة حول اسمي ستكون مادة جديدة للسخرية.

لم يعرف كيركغارد قط إن له متعاطفاً معه في بي. أس. إنغمان B. S. Ingemann

الذي كتب إلى هوستروب في 14 كانون الأول/ ديسمبر 1847 بعد أن شاهد الطلاب يقدمون المسرحية الكوميدية في أكاديمية سورو: إن العرض الأريستوفاني لشخصيات معروفة (وبالتحديد سورين ك.) يتعارض مع مبدئي في الحرية الشعرية، وأعتقد أنّ ما تكسبونه من التأثير الآني تلغيه خسارة في المجال الفني الأرقى. وستختفي كل شكاواي بهذا الشأن إذا حذفتم بكل بساطة التلميحات إلى أسماء وإلى المظاهر الخارجية العَرَضية لسمات شخصية خاصة.

كان كيركغارد بالتأكيد سيبدي تأييده التام لوجهة النظر هذه ولكن الضرر وقع بطبيعة الحال، ومن ذلك الحين فلاحقاً سيربط الناس دائماً سورين كيرك بسورين كيركغارد مهما قالوا خلاف ذلك. والرغبة في نيل العدالة ضد الجمهور كانت وظلت مستحيلة، استحالة الإمساك بضرطة.

أس. كيركغارد ومراجعو أعماله

كان ذلك مزعجاً بكل تأكيد. والقدر الهائل من الحديث الذي أطلقه شخصه لم يكن يفوقه إلا الصمت الذي قوبلت به كتاباته. لمدة خمس سنوات ستبلغ ستاً جاهدتُ بوصفي كاتباً. ومن وجهة نظر أدبية لم تُنطَق عملياً كلمة واحدة عني. الجميع ظلوا صامتين... هكذا أعيش، في الحقيقة محروماً من أبسط حقوق الإنسان التي من حق أي شخص أن يتمتع بها في دولة. وأصغر موظف كتابي بل كل صانع مكانس، لديه إحساس بجدية وجوده، ويؤخذ بنظر الدولة مأخذ الجد. وجودي وحده الذي لا معنى له. إذا قامرتُ وتعهرتُ، وعاقرتُ الخمرة طوال اليوم، سيُغفَر لي ذلك - ولكن يا لها من جريمة أن يستخدم المرء وقت فراغه أيضاً. وبما إن عمل كيركغارد صفر بل أقل من صفر فإنه فكر - من أجل القيام بشيء مفيد لبلده والتأهل كوطني حقيقي - أن يقدم إلى جريدة فادريلانديت خدماته كصبي فيها بالعمل موزعاً للجريدة.

إذا لم تُراجع كتابات كيركغارد فإن الفضل في ذلك يعود لحد ما إليه نفسه. ففي أيار/ مايو 1845 عندما تفاوض كيركغارد مع تاجر الكتب بي. جي. فيلبسن بشأن النسخ الباقية من الخطابات التثقيفية الثمانية عشر، طرح مطلباً غير قابل للتفاوض بأن فيلبسن يجب ألا يوفر أي نسخ مجانية للمحررين أو يتسبب بأي شكل في أن تصبح الخطابات موضوع مراجعة نقدية أو نقاش في الجرائد. وهذا النوع من الاشتراط لا يدعم تماماً التسويق الاعتيادي ولكنه في

الحقيقة لم يكن ضرورياً. وفي الواقع إن الصمت الكبير الذي لاقته - بحسب كيركغارد - كتاباته، كسرته الحقائق التاريخية بطريقة صاخبة تماماً: في سنة 1846 وحدها، السنة التي بدأ كيركغارد شكواه، كُتبت مراجعات لأعماله في الصحافة اليومية وفي مطبوعات دورية ما لا يقل عن خمس مرات، وكان موضع دراسة مستفيضة في كتاب كامل اتخذ جانبه بلا لبس ضد كاتب موهوب مثل مارتنسن.

ويتضح حجم الاهتمام الذي تمكن كيركغارد من إثارته في قطعة ظهرت تحت العنوان اللائق أس. كيركغارد ومراجعو كتاباته في عدد يوم الثلاثاء، 19 أيار/ مايو 1846، من مجلة دين فريسيندد Den Frisindede التي يملكها كلاوديوس روزنهوف Claudius Rosenhoff. وكُتب عن كيركغارد: هناك بالكاد مؤلفون في السنوات الأخيرة حوكموا محاكمة ظالمة وأحادية الجانب وبطريقة غير ناضجة كما حوكم هذا الكاتب على وجه التحديد. ورغم صعوبة الإشارة بكل تأكيد إلى أي دراسة شاملة حقاً أو حتى مستفيضة بدرجة معتدلة لكتاباته فلم يكن هناك شح في المحاولات. وأعرب كاتب القطعة التي وقعها باسم... h، عن غضبه على السطحية التي أبدتها الصحافة اليومية على الأخص في تملقها للرأي العام، الذي لم يفعل سوى فغر فاه والابتسام، في حين إن لا أحد من صانعي الضجيج هؤلاء يعرف حقاً جوهر القضية - بل إن الجمهرة كلها تعيش في أكمل جهل بما يريد كيركغارد أن يقوله.

حاول رئيس التحرير روزنهوف أن يخفف من غضب...h بطريقة بناءة. فهو أيضاً وجد الموقف مشيناً لكنه من الجهة الأخرى يستطيع أن يفهمه بسهولة: في الواقع أن كتابات كيركغارد لا يمكن أن تُراجَع بالمرة. وأوضح إن الطبيعة الغريبة لهذه الكتابات تجعل أي حكم عميق متعذراً. وباستخدام تعبير صاحب المساهمة ذاته (وإن بمعنى آخر) فإن المؤلف نفسه صانع ضجيج أدبي، ونحن نعتقد أنّ الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يكتب أي تقييم «عميق» لكتاباته سيتعين أن يكون الكاتب نفسه - لو لم يكن نفسه بهذا «العمق».

هذا الحوار القصير - وربما الوهمي - يجعل من الواضح إن كيركغارد حتى في زمنه تبوأ موقعه كاتباً يتضمن نتاجه نزوعاً معيناً إلى الإبهام داخل مواده ذاتها. وتابع روزهوف: لكن يبدو لنا إنه أحياناً يجعل نفسه مفهوماً بما فيه

الكفاية، وما من كعكة كريسمس حسنة التطعيم بالمتبلات أكثر امتلاء بالزبيب من غالبية أعماله المليئة بمنكهات شعبية للغاية. ولكن لئن أتقن اللغة الشعبية المفهومة من «كل الجماهير» (ولا بد من الاعتراف بأنه أتقنها) حيث تكون مسألة طرائف، ونكات يرويها ساقي الحانة، ومقارنات هزلية، وغيرها من الشقشقيات فإنه إذا لم يكن مفهوماً لن يلوم إلا كبرياءه التكهمي... ومن المؤكد أن المرء لا يستطيع أن يشترط على كل عمل أدبي أن يكون من النوع الذي يمكن نشره في مجلة شهرية للأطفال أو تكون له جاذبية حكايات أندرسن.

صحيح إن روزنهوف كان منتقداً (والمقارنة مع أندرسن مقارنة مزعجة) ولكن كيركغارد في كل الأحوال لا يستطيع الشكوى من إن الناس لم يكن لديهم فهم جيد تماماً لطابع نتاجه الأدبي. فإن كتاباته لم تكن تُراجع فحسب بل إن مراجعي كتاباته كانوا يخضعون للمراجعة، كما هي الحال في أواخر آذار/ مارس 1846 عندما نشر عددان من صحيفة نيت أفتنبلاد Nyt Aftenblad مراجعة استطرادية بعنوان مراجعة صحيفة كيوبنهافنسبوسن لـ «حاشية ختامية غير علمية» و «حاشية ختامية غير علمية».

استمرت مطابع كوبنهاغن في الدوران مثيرة درجات متفاوتة من الاهتمام، وكانت العجلات تهدر، صحيح إنها لم تكن دائماً تهدر بكلمات المديح، ولكن عندما نفكر في القسوة التي لا تعرف الرحمة بل البهيمية التي كانت عموماً السمة المعهودة لمراجعات ذلك الزمن، فإن كيركغارد أفلت بأضرار طفيفة في الواقع. وفي 7 أيار/ مايو نشرت المجلة اللاهوتية مراجعة في ثماني صفحات لعمله شذرات فلسفية كتبها اللاهوتي جي. أف. هاغن الذي وقع باسم 80 في المناسبة. وكما ذكَّر هاغن قراءه في مدخل مراجعته فإنه كتب في وقت سابق دراسة مستفيضة عن الخوف والرعدة مثلما نشر، في وقت حتى أسبق، مراجعة لـ «إما/ أو» ملأت اثنين وثلاثين عموداً من الجريدة. ورغم الحقيقة الماثلة في أنّ هاغن كان إيجابياً على العموم وإنه في قراءته نقد حاشية ختامية للروح الهيغيلة يومذاك وجد إن تحقيق المؤلف الحاد والثاقب مبرَّر تماماً، فإن هاغن كان وظل هاغن، وهاغن كان نكرة. وكانت الحال بكل بساطة إن كيركغارد كان متعالياً بحيث أن ما كان يُكتب عنه ليس مهماً ولا حتى بدرجة قريبة مثل أهمية مَن الذي كان يكتب عنه.

لذلك ما قاله سكرتيره السابق بي. دبليو. كريستنسن P. W. Christensen – الرجل الذي كان قبل سنوات يخربش في الجرائد، إذا أردنا أن نستعير تعبير كيركغارد – كان محل عدم اكتراث عند كيركغارد. وفي مناسبتين تجشم كريستنسن الكثير من العناء ليُدرَج على قوائم الذين كتبوا ضد رب عمله السابق. وفي 29 آذار/ مارس 1846 نشر مقالاً مطولاً في مجلة أزمنة الكنيسة الدنماركية بعنوان الإيمان والديالكتيك: ضد أس. كيركغارد، وفي 20 أيلول/ سبتمبر من العام نفسه نشر ديالكتيك الإيمان في المجلة نفسها. وبأسلوب الطالب الجامعي على نحو لافت يكاد أن يكون مقلوب أسلوب كيركغارد شن هجوماً على حاشية ختامية غير علمية مصراً بحماسة غريبة على أنه لو كان هو نفسه قساً لرمى الفكاهي يوهانس كليماكس في أحضان الشيطان ليكون هو، كريستنسن، مرة أُخرى قادراً على حب الماجستير كيركغارد الذي لا أستطيع أبداً التوقف عن حبه. وكان القصد من ملاحظة كريستنسن إن الأسماء المستعارة وضعت كيركغارد في الظل، ولكن كيركغارد بطريقته المعهودة طلع الآن برده وتجاهل بمرح باقي المسألة. وكان محب تعيس في أزمنة الكنيسة الدنماركية هو عنوان المقال الذي ناقش فيه كريكغارد، مفعماً بغبطة لاذعة، حب كريستنسن التعيس. ولاحظ كيركغارد بطريقة لا تنم عن محبة، بأنه إلى جانب الدخان والمسودات وبرغوث الفراش، لا أعرف شيئاً أشد كارثية من أن أكون موضع هوس في ذهن أحد. وإذا قلتُ «يا مستر كريستنسن، تمالك نفسك. من أجلك أنتَ (لأنك يجب ألا تفعل أي شيء من أجلي أنا) ولكن من أجلك أنتَ فكِّر فيما يمكن أن تؤدي إليه عاطفة تعيسة كهذه – فكِّر إن من عدم الإيمان من جانبك أن تلاحقني على هذا النحو – أنتَ الذي بوصفك من أتباع غروندتفيغ، مرتبط بأحد آخر» – إذا قلتُ هذا فإنه على الأرجح لن يجدي نفعاً. المطروح هنا لم يكن بالتأكيد القضية نفسها وإنما كريستنسن الشخص، الذي سيصفه كيركغارد بعد عامين بأنه غروندفيغي مجنون يهرف.

كيركغارد في الحقيقة أصبح موضع شيء كارثي من قبيل الهوس الذهني عندما تعهد الأيسلندي ماغنوس آيركسون Magnus Eirikson بالولاء غير المشروط له. وفي 19 تشرين الثاني/ نوفمبر 1946 نشر آيركسون، وهو لاهوتي غريب الأطوار بعض الشيء وأعزب ونوع من بطريارك الجالية الأيسلندية في كوبنهاغن، كتاباً عنوانه طويل بما فيه الكفاية ليدخل سجل الأرقام القياسية: الدين الملتبَس، المثالي – الميتافيزيقي، الخيالي – التأملي – والجوهر الهدام

للمسيحية، الجبري، القائل بوحدة الإله والطبيعة، والمؤلِّه للذات في القوانين المنشورة للدكتور أتش. مارتنسن، أو ما يُسمى معالم منظومة الفلسفة الأخلاقية للدكتور هانز مارتنسن. وكما نستطيع أن نرى فإن آيركسون الذي لم يكن من النمط الذي يخفف آراءه، كان معارضاً معارضة مطلقة لمارتنسن، ولكنه كان للأسف مع كيركغارد على طول الخط. وفي مقال من عدة مقالات مطولة رد كيركغارد على رولاند الهائج هذا، وهو القتالي ماغنوس آيركسون الذي بطريقة مخيفة يداعبني بأكثر المفردات لطفاً وتقديراً. وحين رأى كيركغارد لأول مرة في صحيفة أدريسيفيسن إعلاناً عن الكتاب بعنوانه الطويل إلى حد مرعب، ظن إنها حيلة غايتها الوحيدة هي أن يُطبع هذا الإشعار المثير للرعب، الشائن، الأخرق - الحربي، المفتون بنفسه، وأن يقرأه أكبر عدد ممكن من الأشخاص. وتابع كيركغارد قائلاً أنا بالطبع لم أقرأ الكتاب، لكنه فهم في كل الأحوال إن نية آيركسون هي أن يُقال مارتنسن من عمله، ولتحقيق هذا الهدف استحضر حاشية ختامية. كلا، كان الأمر في الحقيقة أسوأ من ذلك، كان هجوماً على استغراقي الغرامي في المشكلات، الأمر المريع بصفة خاصة عندما يرغب المرء في أن يكون على مسافة 100 ألف ميل - أو الأفضل على مسافة الفكرة - من البرهة. وتصاعدت درجة امتعاض كيركغارد حين علم إن آيركسون يؤيد نقده لمارتنسن باقتباس حوار مع عدة طلاب جامعيين فسروا كتاب حاشية ختامية على أنه سجال غير مباشر ضد مارتنسن التأملي. من البغيض إعطاء الانطباع بأن عملي حاشية ختامية حَرَمه [حرم مارتنسن] من أي أتباع لأنه ما من طالب جامعي كان بمقدوره أن يجد كلمة واحدة عن البروفيسور مارتنسن في كتابي بأكمله.

نجد من المغري أن نسأل مَنْ فهم حاشية ختامية بصورة أفضل، الطلاب أم كيركغارد، بل الحقيقة التي لا تُنكر إن كتاب حاشية ختامية بأكمله يتضمن نقداً للتأمل الهيغلي، وصحيح إن مارتنسن لا يُذكر في أي مكان بالاسم ولكن رغم ذلك سيتعين على المرء أن يكون قارئاً هزيلاً بصورة استثنائية ألا يكتشف اتجاه النقد. وهكذا فإن الثغرة التي حاول كيركغارد أن يتملص عبرها من الموقف المحرِج اتسمت بمكر من الفوارق الدقيقة بحيث لا يستطيع المرء أن يأخذها على محمل الجد: بقدر ما تتضمن كتاباتي بعض الأحيان سجالاً ضد هيغل، وبقدرٍ ما تستهدف باستمرار الحجم المفرط من الوعظ الطنان فإن المشروع كله نُفِّذ بطريقة - بمثابرة وأجرؤ على القول بأدب فني - حتى كان من الجائز

أن يُكتب في ألمانيا كما في كوبنهاغن. والحق إن اللقب النموذجي الذي استخدمته مراراً - إذا لم يكن بالقدر نفسه تقريباً من نجاح هولبيرغ في استخدام لقب الماجستير فبشكل مماثل على أية حال - هو لقب الأستاذ المحاضر دون أن يكون بروفيسوراً privatdocent، الذي في الحقيقة لا يوجد هنا في الدنمارك على الإطلاق. وهكذا فإن الطلاب الذين تحدث عنهم آيركسون أجبروا كيركغارد على الحديث بصورة مباشرة عن السجال ضد مارتنسن الذي تمكن كيركغارد الملقّب باسم كليماكس أن يواصله بصورة غير مباشرة في حاشية ختامية. والأرجح إن رفض كيركغارد الاعتراف علناً بسجاله لا يعود إلى احترامه مارتنسن بقدر ما يعود إلى عدم احترامه آيركسون الذي من المؤكد أن تصرفه الأخرق لن يُسمح له بأن يكون سبب مواجهة ذات طابع رسمي.

يبدو من المتعمَّد حقاً إن كيركغارد بعد فترة قصيرة على كتابة هذه الكذبة البيضاء التي نأى فيها بنفسه عن سجال كليماكس، أقدم على تغيير مادة موضوعه وأسلوب كتابته على السواء، مقترحاً بصورة مفاجئة هذه الحكمة بشأن خدمة الحقيقة: إذا كانت الحال إن الدليل على أن شخصاً ما خدم الحقيقة هو الأفضليات التي كسبها بعمله هذا، حجم المال الذي دخل جيبه، وعدد التكريمات والألقاب الفخرية التي جمعها من الذين فوقه أو تحته - أوه، فأنا إذاً لم أخدم الحقيقة ذات يوم! كان ذلك كما لو إن تورط كيركغارد مع مارتنسن الذي عُين كاهن القضاء في 16 أيار/ مايو 1845، أرغمه على التفكير في موقعه هو (أو غيابه): مؤلم، هامشي، مكشوف. وكأن الأمر تمهيد على نحو غريب لاستخدام الكلمات شاهد على الحقيقة ذاتها تماماً التي ستقيم علاقة سجالية بين كيركغارد ومارتنسن بعد تسع سنوات، فإن النص يتابع: هناك كتاب قديم فيه قائمة شهود على الحقيقة... يقرأ المرء قائمة القواعد التي تحكم المرتبة، والسابقة في المحكمة ويلاحظ بانتشاء هادئ كيف ترتقي مرتبة الشخص درجات السلّم العديدة وصولاً إلى قمة التشريف. وبهذه الطريقة يقرأ المرء ذلك الكتاب بانتشاء هادئ ملاحظاً كيف يهبط الشاهد على الحقيقة، درجة تلو أخرى، إلى المجموعة الصغيرة التي ينتمي إليها إلى أن يقف وحده، مرفوضاً... وتقول الذروة: شاركتُ في شرف تلقي التحية بفرح والتتويج على يد الشعب. اللاذروة: شاركتُ في شرف مغادرة المسرح مشيعاً بصيحات الاستهجان - سوى إن هناك اختلافاً هو إن السقف المقوس الذي تتحدث

مرتبة الشخص تحته ليس مصنوعاً صناعة جيدة صوتياً مثل السقف الذي يتحدث الشاهد على الحقيقة تحته، لأن هذا الأخير وحده الذي يردد صدى الأبدية.

كان كيركغارد يستمتع بتسمية نفسه فكاهياً مستقلاً يعمل لحسابه الخاص، ولكن عندما نقرأ سطوراً كتلك المقتبسة أعلاه سيكون من المناسب بالقدر نفسه على الأقل أن يُسمى نبياً مستقلاً. وبحساسية عميقة إزاء ما سيكون دوره هو في المستقبل، امتنع عن نشر اعتراضاته على آيركسون. وبرَّر قراره في اعتراف احتاج فيه إلى صفحتين ليشرح سبب عدم الاحتجاج على تقدير أم. آيركسون الغبي. وكان آيركسون معروفاً للجميع بأنه مغفل وبالتالي فإن كيركغارد ما كان إلا أن يتضرر بالتقدير [تقدير آيركسون]، من جهة، وأن يحقق أفضلية بالاحتجاج على التقدير من الجهة الأخرى. ولكن لهذا السبب على وجه التحديد لم يرغب كيركغارد في تقديم احتجاج رسمي. وكان دافع أخلاقي - ديني يكمن وراء تسليمه: الكبرياء خشوع أمام الله، والخشوع أمام الله كبرياء. وما يسميه البشر كبرياء هو مزيج ذو روح لئيمة من التواضع والغرور. وكما ترون، لهذا السبب لم أرفض تقدير أم. آيركسون.

المحاجَّة محاجَّة ديالكتيكية إلى حد الغرابة. وكما يحدث في أحيان كثيرة يُترك القارئ بإحساس معتدل بالعجب من الخط الرفيع للغاية الذي يفصل، في حالة كيركغارد، فصلاً لا مهادنة فيه بين متابعة نتائج محاجَّة ما وخداع للنفس لا يقل ثباتاً. وعلى أية حال لم يمر وقت طويل قبل أن يرتقي كيركغارد بخبراته السلبية إلى مبدأ إيجابي سيكون قاعدته من الآن فلاحقاً: وهكذا فإن الشخص الذي يريد موافقة الجمهور يجب أن يكون حاذقاً على الدوام في حشد مؤثرات شيقة خلال عروض من نصف ساعة - لأن الكتلة البشرية ليس لديها فكرة عن عَظَمة لا تدوم أكثر من هذا الوقت، فهي لا تستطيع أن تتحمل أطول من ذلك... ولكن حياتي كلها ككاتب عملية كانت تُنفذ منهجياً - بل ربما بحذاقة تزيد عشر مرات على حذاقة الجمهور - تُنفَّذ منهجياً في الاتجاه المعاكس. فأنا دائماً أعتمد المقاربة الخاطئة. وأنا لا أظهر أبداً في ذلك الوقت من السنة حين تكون هناك إثارة في عالم الأدب. وأنا دائماً أظهر في مجلدات ضخمة، ولا أظهر أبداً بطريقة بحيث يُمنح القارئ فرصة لقراءتها بصوت عال أو شيء من هذا القبيل، إلخ، إلخ. وهذا يسري في كل شيء، إلى أتفه التفاصيل... فأنا حتى الآن كنتُ

دائماً ضمن الأقلية، وأنا أُريد أن أكون مع الأغلبية. وآمل بعون الله أن أنجح في ذلك حتى نهايتي المباركة.

وقد نجح بالفعل.

العباءة الخانقة المتصببة عرقاً للعصيدة التي هي الجسد

كيركغارد يكاد يشبه الكاريكاتير، كما كتب مجايله اللاهوتي بيتر كريستيان تساله Peter Christian Zahle الذي تابع مقدِّماً لنا هذه الصورة الموجزة: تحت القبعة ذات القمة المنخفضة والحافة العريضة كان المرء يرى الرأس الكبير بشعره الخشن ذي اللون البني الغامق، والعينين الزرقاوين المعبرتين، ولون وجهه الأصفر الشاحب، ووجنتيه الغائرتين، مع الكثير من التجاعيد العميقة على طول الخدَّين وحول الفم الذي ينطق حتى عندما يكون صامتاً. وكان دائماً يميل برأسه إلى أحد الجانبين. ظهره مقوس قليلاً. ولديه عصا أو مظلة تحت إبطه. كان المعطف البني ضيقاً ومزرَّر بشكل مريح حول الجسد النحيف. بدا إن الساقين الهزيلتين تحملان عبئهما بطريقة غير واثقة، ولكنهما عملتا لزمن طويل على حمله من المكتبة إلى الهواء الطلق حيث كان يأخذ «حمامه الشعبي». يعطينا تساله صورة كيركغارد هرِماً ولكن نظراً لكونه شاخ بسرعة لافتة، بشهادة كثيرين، فإن من المعقول أن تُنسب الصورة إلى أواخر أربعينات القرن التاسع عشر، ربما حتى قبلها. وهكذا، ذات يوم، عندما تطرق هانز بروشنر إلى العلاقة بين الحدة الوجودية والعمر البيولوجي، ملمحاً لكيركغارد بأنه حقاً أكبر الرجال الذين عرفهم سناً، اكتفى كيركغارد بالابتسام قابلاً على ما يبدو نمط الحساب الذي استخدمه بروشنر.

أكثر من زاوية النظر إلى كيركغارد إن العينين اللتين تقومان بالنظر هما اللتان تحدِّدان ما إذا كان المرء يصفه، كما يصفه تساله هنا، بأنه صاحب ظهر مقوس قليلاً أو ذو منكبين مرتفعين (ريجينة) أو ذو منكبين منحنيين قليلاً إلى الأمام (غولدشمدت) أو ذو اعوجاج يبدو على حافة الحدبة (سيبَّرن) أو مشوَّه بعض الشيء أو ذو منكبين مدورَين على أية حال (أوتو زينك)، أو إنه بكل بساطة أحدب (كارل بروسبول وترويلس - لوند). في كل الأحوال فإن هذا الظهر، الذي نال شهرة عالمية لاحقاً، لم يكن مستقيماً، ولعل سبب اعوجاجاته، بحسب هنريته لوند وآخرين، سقطة حدثت له ذات مرة من شجرة في بودينغة

مارك، وهي قرية تقع مسافة قصيرة شمالي كوبنهاغن. شكل جسمه كان لافتاً، ليس بشعاً في الحقيقة وبالتأكيد ليس مثيراً للنفور، لكن به شيئاً متناشزاً، جسد ضئيل إلى حد ما، لكن له ثقله أيضاً، كما كتب غولدشمدت الذي تسترسل صورته الفيزيونومية إلى ضربة عبقري انطباعية: كان يمشي مثل فكرة شرَدَت في ذات اللحظة التي نشأت فيها. وصف أصاب هدفه بدقة.

هيرتز أيضاً ترك تخطيطات صورة بديعة تماماً في أحد دفاتره من أواخر أربعينات القرن التاسع عشر عندما راودته فكرة أن يكتب مسرحية إحدى شخصياتها تُدعى بالصدفة يوهانس كليماكس الذي كان قوامه المستمَد من الطبيعة على النحو الآتي: ذو طول معتدل ومنكبين عريضين وظهر مدوَّر بعض الشيء، نحيف في الجزء الأسفل من جسمه، بانحناءة طفيفة حين يمشي، شعر خفيف، طويل بعض الشيء، أزرق؟ عينان؛ صوت كثيراً ما يتكسر إلى نبرة حادة أو صوت مزماري قليلاً. أيضاً يُستثار بسهولة تماماً إلى الضحك لكنه ينتقل فجأة إلى الجد. كان هناك شيء لطيف فيه... شيء مسلٍ (كان يتمهل). يجلس أو يستلقي بارتياح، مع إحساس معين بالاسترخاء الجسدي. اليقين فيه.

كان الجسد عند كيركغارد شراً لا بد منه، غلافاً دنيوياً مؤقتاً، من المؤسف إنه في حالته أُصيب باعوجاج عبر المنكبين. وفي عام 1848 كتب هذه الفقرة الموجوعة في يومياته: أن يكون المرء قوياً ومتعافياً يستطيع أن يشارك في كل شيء، لديه قوة جسدية وروح بلا هموم - أوه، كم من المرات في سنوات سابقة تمنيتُ هذا لنفسي. في فمي كان عذابي مخيفاً. وبعد الخدمة أربعة أيام فقط في حرس الإنقاذ الملكي أُعطي شهادة تسريح لأسباب تتعلق بعدم الأهلية من الطبيب. وحين أخذ يتلقى دروساً في الفروسية عام 1840 سقط، ليس من الحصان بل أسوأ، سقط في خانة المضحك. لم يكن منظره لطيفاً بصفة خاصة على صهوة حصان، كما كتب هانز بروشنر الذي كان يتابع المشهد من مسافة.

امتطى صهوة الحصان بتشنج وأوحى بأنه يتذكر دائماً تعليمات أُستاذ الفروسية. لم يكن بمقدوره أن يتمتع بكثير من الحرية للاستغراق في أفكاره وخيالاته على صهوة جواد. ولذلك سرعان ما أقلع عن هذه الرياضة. وكما نرى من رسم ظهر في عدد 16 كانون الثاني/ يناير 1846، فإن مجلة كورسارن كانت لا تزال عندها ذكريات عن افتقار صاحب الماجستير إلى التوازن بوصفه فارساً.

ولا المبارزة التي استهوت بيتر كريستيان، كانت شيئاً لاقى أي رغبة قوية فيه من شقيقه الأصغر. ولم يكن هناك أي سبب لذكر الرقص - كان رفضه فورياً ومسألة مبدئية تقريباً: كلا، شكراً جزيلاً. أنا لا أرقص. وبالنسبة لرجل عسير الجسم لا بد إن اتخاذه موضوعاً لإخلاص ريجينة كان شديد الإيلام، ولا سيّما وإن هذا الإخلاص كان موجها إلى شخصه الكامل، كما زُعم: كانت لا تحب أنفي حسن الشكل ولا عيني اللطيفتين ولا قدمي الصغيرتين - ولا رأسي الذكي - بل تحبني أنا فحسب، ومع ذلك لم تفهمني.

تتحدث اليوميات عن وعكات وأوجاع رأس ودوار وأرق ومشكلات في النظر وتشنجات ومصاعب في التبول وأشياء أخرى من هذا القبيل، بينها إمساك متكرر. وهكذا في رسالة إلى بيتر كريستيان بتاريخ 5 شباط/ فبراير 1843 شكا شقيقه الأصغر من حالة بواسير فيما اعترف لابن أُخته الطبيب هنريك لوند بأنه يعاني من إعاقة متصلبة تعني بلغة صريحة إن فتحة شرجي مغلقة بإحكام. وسمع الكولونيل بارت ذات يوم كيركغارد يشكو من آلام مِعَدية وأشار عليه أن يجد لنفسه حصاناً يركبه ويركبه بطريقة صحيحة، وحينذاك ستكون المعدة على ما يرام من جديد بكل تأكيد. ولكن بما إن العلاج بهذا المعنى الحصاني ليس مناسباً لكيركغارد كما هو مفهوم فإنه اختار بدلاً من ذلك أن يخفف مشكلته بخوخات مس راينهارت المغلية أو زيت الخروع.

في رسالة بتاريخ 2 نيسان/ أبريل 1841 أبلغ هندريك فرديناند، خال هنريك لوند، شقيقه الأكبر بيتر فيلهلم الذي كان في البرازيل إن الخال سورين لم يخطب فتاة شابة ومليحة تماماً، ابنة المستشار أولسن، فحسب بل كان مريضاً كذلك: صدره... معتل وبدأ يبصق دماً من جديد. لم تُشخَّص الحالة ولكن شهدت عليها أيضاً هنريته لوند التي تذكر حفلة لمجموعة من الشباب نُقل فيها كيركغارد مريضاً إلى حد إنه كان يبصق دماً.

كيركغارد نفسه لا يذكر في أي موضع بصقه دماً ربما لأن هذا التباين بين العقل والجسد كان عنده هو الأساس لأعمق أشكال المعاناة. وعبرت ملاحظة في يومياته من عام 1845 عن العلاقة المختلة بينهما خير تعبير: مثلما يتلهف المُقعَد على التخلص من ضماداته فإن روحي المتعافية تتلهف على التخلص من تعب الجسد. ومثلما يصرخ القائد الظافر حين يُقتل حصانه من تحته «ائتوني

بحصان جديد!» – أوه، قد تجرؤ صحة روحي الظافرة أن تهتف «ائتوني بحصان جديد، ائتوني بجسم جديد!» وفي هامش بجانب كلمتي تعب الجسد أضاف كيركغارد: هذه العباءة المتصببة عرقاً للعصيدة التي هي الجسد وتعب الجسم. وكان كيركغارد يستطيع أن يصوغ العلاقة بين الروح والجسد باستعارة حديثة أيضاً: مثل سفينة بخارية محركها كبير على هيكل السفينة – هكذا هي معاناتي. أو حتى بإيجاز أكثر ولكن باستعارة بحرية أخرى: أنا أعيش الآن في مرفأ السوداوية الخاص.

وكما هي الحال، لحسن الحظ، مع غالبية الأشخاص، يبدو أنّ كيركغارد أيضاً، بمرور السنين، أصبح أكثر تصالحاً مع جسده، الذي أجبرته مجلة كورسارن عملياً على اكتساب حس فكاهي بشأنه. ولكن كيركغارد تمكن بالتدريج من إعادة تأويل ضعفه الجسدي واكتشاف نقطة لاهوتية، كما لم ينجح في ذلك إلا قلة من الآخرين. وفي عام 1847 تنهد قائلاً أنا ناقص تماماً لدى النظر إليّ بمقولات حيوانية كحصان حراثة أو بقرة للذبح... ليس عندي عضلات ولا سيقان قوية ولا لحم سمين. فلا غرو، إذاً، أن ينظر إليّ الآخرون بازدراء. ولكنه سيكتب في عام 1854: رجل ضعيف، نحيف، سقيم، يُرثى له، صغير العظام مثل طفل تقريباً، شكلُ كلِ حيوان، إنسان تقريباً يجد من المضحك اعتباره كائناً بشرياً – تُناط به مهمات جسيمة تنهار عمالقة تحتها: أيها الأوغاد، ألا ترون أنا أيضاً موجود، أنا الجبار؟ ألا ترون اللامعقول؟ وأمكن الآن وضع الروح القوية بصورة غير طبيعية بكل جدية في مواجهة الجسد الضعيف والناقص: ضئيل، نحيف، وضعيف، محروم في كل جانب تقريباً من الأساس الجسدي لاعتباره شخصاً كاملاً بالمقارنة مع الآخرين، حزين، مريض في القلب، من نواحي عديدة مدمَّر عميقاً وداخلياً، لكني وُهبت شيئاً واحداً: ذكاء فذ لكيلا أكون أعزل تماماً على ما يُفترض.

العلاقة المختلة بين الروح والجسد لم تسجل نقطة لاهوتية فحسب بل كانت شرطاً لازماً للإنتاج الفني أيضاً. ولذلك ليس من المبالغة القول إنه بمنطق متلابَس غريب كان صراع كيركغارد العقلي – الجسدي هو الذي حقق له نجاحاً كبيراً في الأدب العالمي.

لكن هذا النجاح ذاته كان مشكلة لاهوتية كبيرة، وأدى إلى معاناة جديدة.

ثور فالاريس

حين كان الطاغية فالاريس حاكم أغريجنتو في صقلية يريد قتل أعدائه كان يشويهم في ثور عملاق من النحاس جُهز منخاراه بمزامير مصممة بحيث تتحول صرخات أعدائه إلى أشجى الأصوات. وآلة التعذيب هذه المطوَّرة بطريقة شاذة هي ما كان يدور في ذهن كيركغارد حين كتب أول الديابسالمات التي تشكل القسم الأول من إما/ أول: مَنْ هو الشاعر؟ شخص تعيس يخفي عذاباً عميقاً في قلبه لكن شفتيه متشكلتان بحيث عندما تمر آهات وصرخات عبرهما تمر وكأنها موسيقى عذبة. حاله حال المنكودين الذين كانوا يُضعون في ثور فالاريس ويُعذبون ببطء على نار هادئة: صرخاتهم لم تكن تصل إلى أسماع الطاغية لترويعه. كانت عنده موسيقى جميلة. وكان الناس يتجمعون حول الشاعر ويقولون له غنّ مرة أُخرى قريباً، ويعني هذا «عسى أن تعذِّب روحَك معاناةٌ جديدة، وأن تبقى شفتاك متشكلتين كما هما - لأن الصرخات لن تفعل سوى تكديرنا ولكن الموسيقى تطربنا!» ويظهر كتّاب المراجعات ويقولون: «هذا صحيح. هكذا يجب أن تكون الأمور طبقاً لقواعد علم الجمال». وغني عن القول إن كاتب المراجعات أشبه بشاعر في كل التفاصيل سوى إنه بلا عذابات في قلبه أو موسيقى على شفتيه. لذلك، كما ترون، أُفضِّل أن أكون راعي خنازير في أماغيربرو وأن يفهمني الخنزير على أن أكون شاعراً ويسيء الناس فهمي.

لو لم نعرف ما نعرفه لوجدنا من المغري الظن بأن كيركغارد كان يقرأ فرويد في السر لأن فرويد أيضاً شخَّص الإبداع الفني على أنه من أعراض صراع غير محسوم داخل الفنان، تسامي أزمة في علاقة الذات. فالفنان أو الشاعر شخصٌ حياتُه نفسها ليست منسجمة مع ما يَكتب عنه، وما يكتبُه تعويض عن غياب الإدراك الوجودي. وهو يستطيع أن يقول أسرار جميع الآخرين إلا أسراره هو، وعدم الوضوح عنده هو على وجه التحديد منطقة النمو اللاواعي للإنتاج الفني. وحتى القاضي وليام كانت لديه فكرة عن ذلك: وجود الشاعر بحد ذاته يكمن في الإبهام الذين ينتج عندما لا يكتمل اليأس، عندما ترتعش الروح باستمرار يائسةً والروح لا تستطيع أن تحقق تجلياً حقيقياً.

كل شيء كان الملك ميداس يلمسه يتحول إلى ذهب، وكل شيء كان

كيركغارد يلمسه يتحول إلى كتابة. ولكن بخلاف الملك ميداس الذي كاد في النهاية يهلك من الجوع، كان كيركغارد يعيش على الكتابة التي ينتجها هو نفسه. وأقرَّ قبل أن يقرَّ أي أحد آخر بالعلاقة بين أزماته العقلية ووظيفة الكتابة العلاجية: أوه، يا له من عبء! كما قلتُ في أحيان كثيرة عن نفسي، مثل الأميرة في ألف ليلة وليلة، أنقذتُ نفسي برواية حكايات - أي، بالإنتاج. الإنتاج كان حياتي. كآبة ذات أبعاد هائلة، مكابدات داخلية من النوع الذي يثير العطف، كل شيء، كل شيء، أستطيع أن أدبر كل شيء - إذا سُمح لي بالإنتاج. وتتكرر فكرة التسامي هذه بعدد لا يُحصى من النسخ المتطابقة بهذا القدر أو ذاك، تتكرر في أحيان كثيرة حتى إن إلخ عادية يمكن أن تندس وسط اعترافاته المعذَّبة كشيء من التناشز غير الملحوظ تقريباً: أصبح منتجاً، الأمر الذي أنقذني من كآبة عميقة الجذور في كياني، إلخ.

ولكن بين هذه الفقرات الانطوائية نمطياً من اليوميات التي تتخثر أحياناً إلى كليشيهات خالصة، هناك أيضاً تقارير عن مدى سعادته بعمله وطبيعته وبركته الإلهية. بكلمات أخرى، إنه يتحدث عن عمله بوصفه تسامياً ناجحاً، كما على سبيل المثال توصيفه معالم يوم عمل اعتيادي من عام 1849: أستيقظ في الصباح وأشكر الله. ثم أبدأ العمل. وفي وقت محدَّد من المساء أتوقف، مع الشكر لله - ثم أنام. وهكذا أعيش، ليس من دون نوبات كآبة وحزن أحياناً، كما أعترف، ولكن من حيث الأساس في سعادة مباركة أقصى درجات البركة، من يوم إلى آخر. كان كيركغارد يعيش في مركّب محكَم من الروتين الرهباني والجذل الملهَم لم تتمكن المالنخوليا السوداء إلا بالكاد من حشر نفسها فيه لبعض لحظات بين حين وآخر. ولكن من حيث الأساس كانت هذه حياة معيشة في سعادة واعية لا ذاتياً نُقل إليها الفنان بواسطة الإبداع الفني. ولم يكن الإنتاج أقل من حاجة جسدية، شهية: فقط عندما أنتج أشعر بحالة جيدة. وحينذاك أنسى كل الأشياء البغيضة في الحياة، كل المكابدات؛ حينذاك أكون سعيداً ومتآلفاً مع أفكاري. وإذا توقفتُ ليومين فقط، أمرض على الفور، أصبح غارقاً، مغتماً؛ رأسي يصبح ثقيلاً ومثقلاً. وبعد الاستمرار من يوم إلى آخر لمدة خمس أو ست سنوات فإن هذا الدافع، الموفور، الذي لا ينضب ما زال يتدفق بالوفرة نفسها - هذا الدافع هو بالطبع أيضاً نداء من الله.

كان الإنتاج نداء من الله ولكن التردد الظاهر في كلمتي بالطبع أيضاً يشي

بحاجة كيركغارد إلى أن يأتي بـمبرر إضافي لنشاطه الأدبي. ومما له أهمية حاسمة عنده أن يوضح فهمه لمكابدته والإنتاج الذي تتمخض عنه. وعلى امتداد سنوات كان ينظر إلى المكابدة على أنها نزاع دائم بين الروح والجسد نابع من أعباء استثنائية، موروثة وبيئية على السواء. وما دام قادراً على التشبث بهذا الفهم لنفسه فإنه يستطيع أن يكون متأكداً بدرجة معقولة من إن وضع كآبته في خدمة كتابته عمل مبرَّر. وكان التسامي بصراعه الشخصي إلى كتابة عملاً مشروعاً لأنه في التحليل الأخير يخدم غاية إنسانية ووجودية شاملة: فهمتُ إن مهمتي هي مهمة شخص أصبح هو نفسه تعيساً ولكن، لأنه يحب البشر، يريد على وجه التحديد أن يساعد الآخرين غير القادرين على السعادة. بهذا الموقف يبدو أنّ المبرر الخارجي - مساعدة الآخرين - قد توفَّر، وكل ما تبقى هو تنويعات عليه: وهكذا كنتُ أعتقد بأنه جرت التضحية بنفسي لأني فهمتُ إن مكابداتي وعذاباتي جعلتني مبدعاً في استكشاف الحقيقة، الأمر الذي من الجائز أن يكون مفيداً لآخرين. وفي النص الرسمي الذي نُشر في وجهة نظر لعملي كاتباً تُقام التوبة المفروضة ذاتياً، الكفارة، بوصفها عاملاً ديناميكياً في التسامي: عملي كمؤلف هو استنهاض دافع داخلي لا يُقاوَم، الإمكانية الوحيدة لدى رجل كئيب، المحاولة الصادقة لرجل خاشع بعمق، رجل تائب، بتقديم كل تضحية وبذل كل مجهود في خدمة الحقيقة، لعمل شيء فيه خير بالمقابل، إن أمكن.

هنا يبدو أنّ كيركغارد أصبح عالقاً في صراعه الروحي - الجسدي ذاته. وكان يعتقد بأن لا مفر منه ولكن - ربما - كان يعتقد أنّ هذه هي الحال على الأخص لأن الصراع هو أساس فنه. وكتب في عام 1849: نعم، إذا لم تكن مكابدتي، ضعفي، أساس كل نشاطي الفكري، سأبذل بالطبع محاولة أخرى للتعامل معها كقضية طبية بكل بساطة. فرغم كل شيء، إذا كانت حياة المرء بلا أهمية على الإطلاق في كل الأحوال، لا يكون من الصواب المكابدة كما أكابد أنا وبكل بساطة لا أفعل شيئاً. ولكن ها هنا السر: أهمية حياتي مطابقة تماماً لمكابدتي.

ما الذي يعرفه الطبيب حقاً؟

لم يكن العلاج الطبي التقليدي صالحاً بصفة خاصة في نظر كيركغارد. وهذا ما يتضح بأدلة مثل فقرة في يومياته من عام 1845 بعنوان ملاحظات فرد

فكاهي، تتضمن قرب بدايتها هذا المونولوج المرح: الأمور هنا تمشي كما كانت معي ومع طبيبي. شكوتُ من التوعك فرد «لعلك تسرف في شرب القهوة وتمشي قليلاً جداً». بعد ثلاثة أسابيع تكلمتُ معه مرة أخرى وقلت «أنا حقاً لا أشعر بصحة جيدة جداً، ولكن ذلك لا يمكن أن يكون بسبب شرب القهوة لأني لا أشرب قهوة على الإطلاق، ولا بسبب غياب التمرين لأني أمشي طول اليوم». فرد «حسناً، في هذه الحالة لا بد أن يكون السبب إنك لا تشرب قهوة وتمشي كثيراً». وهكذا كان اعتلالي وما زال كما هو، ولكن إذا شربتُ قهوة يكون سبب اعتلالي إني أشرب قهوة، وإذا لم أشرب قهوة يكون سبب اعتلالي إني لا أشرب قهوة. وهكذا هي الحال معنا نحن البشر. فكل الوجود الدنيوي نوع من الاعتلال.

نكتفي بهذا القدر من التخمين الطبي الذي يفضل أن يصيب الهدف الخطأ على ألا يصيب شيئاً، وهو كاريكاتير وجده كيركغارد، بالمناسبة، ناجحاً حتى إنه استخدمه لاحقاً في عمله حاشية ختامية. ولكن رغم كل ارتياب كيركغارد بشأن البلبلة الطبية فإنه لم يتمكن من التخلي عن الفكرة القائلة بأن من الجائز أن يكون هناك مخرج طبي من هذه المكابدة. هل كانت مشكلة جسدية أم مشكلة أخلاقية - دينية؟ ألا ينبغي أن يُفسِّرِ عزلته على أنها وضع لا مفر منه لشخص استثنائي أم أن وضعه كان نتيجة انغلاق ذاتي فرضه بنفسه على نفسه موهماً نفسه بأنه يتصرف وفق مشيئة الله - وبعمله هذا لم يكن يفعل سوى شق طريقه بصورة أعمق نحو الخطيئة؟ من حيث المبدأ كان يشترك في وجهة نظر أستاذ علم النفس ذي الاسم المستعار فيغليوس هاوفنينسيس الذي نأى بنفسه عن مفاهيم الخطيئة السابقة بوصفها مرضاً، شذوذاً، سماً، وتناشزاً. فالشيطاني دُرس - دراسة خاطئة - من ثلاث زوايا نظر: جمالية - ميتافيزيقية ومحاكماتية - أخلاقية وعلاجية طبية، كما يشرح هاوفنينسيس الذي يعتقد، مثله مثل القاضي وليام تماماً، إن من سوء الفهم مراجعة طبيب بسبب مشكلات ترتبط بالشيطاني، لأن الشيطاني ليس شيئاً جسدياً يُصنف ضمن الظواهر الطبيعية بل ظاهرة نفسية، تعبير عن اللاحرية. ولهذا يكون التشخيص الطبي التقليدي سطحياً وقاصراً، وعندما ينظر فيغليوس هاوفنينسيس إلى مكتب الطبيب تكون في عينه شظية من مرآة عفريت سحرية تلتقط مشاهد بشعة: نظر الناس إلى الشيطاني من زاوية العلاج الطبي. ويعني هذا بداهة العلاج بمساحيق

وحبوب – ثم بحقن شرجية! والآن يضم الصيدلاني والطبيب قواهما. ويُبعد المريض لكيلا يخيف الآخرين. وفي عصرنا الشجاع لا نجرؤ على أن نقول للمريض إنه سيموت، لا نجرؤ على استدعاء القس خشية أن يموت المريض من هول الصدمة.

ولكن، مع كل هذا، لم يستبعد كيركغارد إمكانية أن تُعايَن المكابدة من وجهة نظر طبية وكل ما في الأمر إنه وضعها مرتبة أو مرتبتين تحت المعالجات النفسية والهوائية. ومر وقت عام 1846 أثار فيه هذا السؤال في واحدة من يومياته (وبالطبع إنه نفسه استخدم هذا المصطلح الذي يبدو طبياً لتلك الأجزاء): حين نظر إلى الأمر بإمعان، في وسط الحقيقة الفعلية والتكوُّن، ماذا يعرف العالم النفسي والطبيب في الحقيقة، إذاً؟ يُثار السؤال استباقياً وباستسلام خطابي ولكنه ذو إحالة شخصية إلى حد كبير لأن كيركغارد حقاً لم يعرف ما يعرفه الطبيب عن العلاقات الملتبَسة بين الروحي والجسدي.

لذلك وجد من الأفضل أن يستشير طبيبه أولوف لوندت بانغ الذي كان معروفاً على نطاق واسع جداً وقتذاك. وكان بانغ أخ مينستر غير الشقيق، وطبيب عائلة كيركغارد لنحو جيل من الزمن. وكانت علاقته مع كيركغارد على مستوى المعرفة الاجتماعية، إن لم يكن مستوى الصداقة الشخصية، وكان أحياناً يدعو كيركغارد إلى العشاء. وفي 29 كانون الأول/ ديسمبر 1849، مثلاً، تلقى كيركغارد دعوة حارة، كانت، لمرة واحدة، غير مكتوبة بلغة الشعر. وكان بانغ يعاني من دافع لا يُقاوَم للكتابة بلغة شعرية في كل مناسبة، وكان يحب توجيه رسائل طويلة مقفاة بعد أن قدَّم له كيركغارد أحد كتبه. وحتى سيرة بانغ الذاتية كُتبت بلغة شعرية.

فقرة مستفيضة في اليوميات من عام 1846 – بعنوان كيف فهمتُ نفسي من خلال عملي كله كمؤلف – مكرسة لزيارته الطبيب أول مرة. وفي هذه الفقرة يقدِّم كيركغارد معالم صورة مكثفة من سيرته الذاتية تبدأ بلغة ستصبح لاحقاً مضرب أمثال تقريباً: أنا فرد تعيس بأعمق معنى للكلمة ومن أول أيامي سُمِّرْتُ تسميراً ثابتاً بهذه المكابدة أو تلك التي تقف على حافة الجنون والتي لا بد أن يكون أصلها في علاقة ملتبَسة بين عقلي وجسدي – لأنها (وهذا لافت ومصدر تشجيع لا نهائي معاً) لا تمت بصلة إلى روحي التي على العكس من ذلك مُنحت

صلابة غير اعتيادية، ربما بسبب العلاقة المتوترة بين عقلي وجسدي. تالياً تأتي علاقته مع والده الشائخ الذي انتقلت كآبته إلى الابن. ثم تأتي الكارثة مع ريجينة التي غيَّرت حياته وجعلته كاتباً. ثم، أخيراً، يقترب كيركغارد من موعده الطبي. لا نعرف كيف جرت الاستشارة بمعنى ملموس أو سريري، ولكن الأسلوب اللاحر والشكلي لما تسرده يوميات كيركغارد، بحد ذاته يجعل من الواضح الطريقة الخرقاء والخجول - والمنغلقة بالمعنى الحرفي للكلمة - التي تعامَل بها مع القضية: رغم إني لست صديقاً لحافظي الأسرار ورغم عزوفي المطلق عن التحدث مع آخرين حول أعمق أعماق شؤوني الداخلية فإني مع ذلك أعتقد وكنتُ دائماً أعتقد بأن الشخص يجب ألا يتوانى عن الإفادة من العلاج باستشارة شخص آخر، سوى إنها يجب ألا تصبح حميمية تافهة بل تواصلاً جاداً ومهنياً. كان هذا تمهيد كيركغارد الطويل، والآن قفزته: لذلك تحدثتُ مع طبيبي عما إذا كان يعتقد أنّ هذه العلاقة الملتَبسة في تكويني، بين الجسدي والروحي، يمكن أن تُعالج لأتمكن من تحقيق العام. وهذا ما شكَّ فيه. سألته إن كان يعتقد أنّ الروح قادرة على إعادة تكوين أو إعادة تشكيل علاقة ملتَبسة أساسية كهذه بقوة الإرادة. وهذا ما شكَّ فيه. ورفض حتى أن يشير علي باستجماع كل ما عندي من قوة إرادة (التي كانت لديه فكرة عنها) لتسليطها على هذه العلاقة، لأني يمكن حينذاك أن أنسف كل شيء.

نتحسس مدى العناية التي أبداها كيركغارد في صوغ الأسئلة التي طرحها على بانغ بحيث لن يسمع إلا ما كان من الجائز أن يقوله هو لنفسه. وأكثر من أي شيء آخر، كانت الاستشارة في الواقع ممارسة شكلية بكل بساطة وبالكاد أخفت الحقيقة الماثلة في أنّ كيركغارد لم يكن راغباً بصدق في إجراء تشخيص طبي لمكابداته. وكانت فكرته بأنه من خلال استجماع كل ما لديه من قوة إرادة ربما يكون قادراً على إعادة تشكيل العلاقة الملتَبسة بين الروح والجسد، فكرة منسجمة تماماً مع الرأي الشائع وقتذاك، وهو إن بالإمكان علاج اضطرابات عقلية بانضباط حديدي خارجي وصرامة أخلاقية، بكبح رغبات الجسد. منذ تلك اللحظة حُسم خياري. فهذه العلاقة الملتَبسة شديدة الوطأة، بكل مكابداتها - التي لا شك كانت ستدفع إلى الانتحار غالبية الذين لديهم ما يكفي من الروح لأن يدركوا بصورة كاملة الطبيعة المريعة لمكابداتهم - نظرتُ إليها على أنها شوكتي في الجسد، حدودي، صليبي. وفكرتُ فيها كصفقة باهظة الكلفة باع لي فيها الله

في الأعالي قوة روحية لم تجد ندها بعد بين مجايليّ. هذا لا يجعلني مغروراً لأني حقاً منسحق رغبتي أصبحتْ ألمي ولوعتي اليومية المريرة.

المرة الثانية المعروف إن كيركغارد استشار فيها بانغ كانت تتعلق بعدة أيام بهيجة وقت عيد الفصح عام 1848. وفي الفقرة المؤرخة 19 نيسان/ أبريل 1848 من اليوميات، بعد ملاحظتين كبيرتين، نستطيع أن نقرأ: كياني كله تحول. انغلاقي وتقوقعي كُسرا - يجب أن أتكلم. الله العظيم - امنحني بركتك! وما أن قرر كيركغارد أن يتكلم حتى مر بانغ ولكم رغم إن هذه المصادفة من الأحداث قد تبدو وكأنها ذات شبه كامل بـ الحاكمية الإلهية فإن كيركغارد مع ذلك تجنب ذكر الموضوع - كان الأمر مفاجئاً جداً لي. ولكنه كان يريد الكلام بكل تأكيد. بيد إن مزاجه تغير تماماً في يوم الإثنين من عيد الفصح. ومرة أخرى بعد ملاحظات كبيرة كتب: كلا، كلا، تقوقِعي لا يمكن أن يُرفع، ليس الآن، على الأقل. وفكرة الرغبة في رفعه أصبحت شاغلاً دائماً لي حتى أنها لا تصبح إلا فكرة ثابتة أكثر فأكثر.

مع ذلك قرر كيركغارد مدفوعاً بالانقلاب المفاجئ في عيد الفصح، أن يستشير بانغ رغم كل شيء، وهذا بحد ذاته كان له تأثير مهدِّئ رغم إنه تحدث (أو ربما لأنه تحديداً) تحدث لـــــ وليس مع طبيبه: لكني أجد ما يواسيني في كوني تحدثتُ لطبيبي. وكنتُ كثيراً ما أخشى أن يمنعني كبريائي من الحديث لأي أحد. ولكن كما فعلتُها سابقاً فعلتُها الآن مرة أخرى. وماذا عند الطبيب يقوله حقاً؟ لا شيء... أنا بكل تأكيد أُؤمن بمغفرة الخطايا، لكني أفهمُها، كما فهمتُها دائماً، على أنها تعني أن علي أن أحمل عقابي طيلة حياتي، باقياً في المحبس الأليم لهذه القوقعة، بعيداً بالمعنى الأعمق عن مجتمع الآخرين - رغم التخفيف من وطأتها بالفكرة القائلة إن الله غفر لي... وبذلك أكون سعيداً سعادة لا توصف أو مبروكاً في النشاط الروحي الذي وهبني الله إياه بهذا الكرم واللطف.

لا هذه الفقرة من اليوميات ولا أي فقرات أخرى تلمِّح حتى تلميحاً إلى ما تناوله الحديث بين الطبيب والمريض. ففي تلك المناسبة أيضاً من الواضح إن كيركغارد أراد أن يحفظ السر المتمثل في أنّ مكابدته ترتبط أوثق ارتباط يمكن تخيله بإبداعه. وهكذا ترك للأجيال القادمة أن تستشف ما جرى من تشخيص طبي

لأني أحببتُ مالنخوليتي السوداء

من الصعب توجيه نقد معقول إلى كيركغارد بأنه نفسه لم يشارك في تحليل ظاهرة كيركغارد. وقلة من علماء النفس أعطوا مثل هذه الأهمية المركزية لمقاومة الاستشفاء وللقلق على الخير، التي أعطاها كيركغارد. وكان يستطيع بالطبع أن يختفي وراء الاسم المستعار فيغليوس هاوفنينسيس لكنه لم يستطع قط الهروب من الخبرة الشخصية العميقة التي لولاها لما رأى مفهوم القلق النور على الإطلاق. صحيح إن هذا العمل لم يكن سيرة ذاتية نفسية بالمعنى المتعارف عليه ولكن حقيقة إن كيركغارد كان عملياً يتحدث بضمير المتكلم لإنتاج دراسة عن القلق بحد ذاتها تجعل من المعقول النظر إلى ذاته الداخلية الإشكالية على أنها مصدره الأولي.

بفضل تحليلات كيركغارد نفسها استطاع حقاً أن ينأى بنفسه عن التقوقع الشيطاني، ولكننا يجب ألا ننسى إنه تحدث أيضاً عن تقوقع مبرَّر يبدو أنّه كان يكن له تعاطفاً غير محدودة تماماً. ويصوغ فيغليوس هاوفنينسيس المشكلة على النحو التالي: دائماً تذكَّر إنه طبقاً للغة التي أستخدمها، لا يستطيع المرء أن يتقوقع في الله أو في الخير لأن هذا النوع من التقوقع يعني على وجه التحديد أعظم شكل من أشكال الانفتاح. وكلما ازداد الضمير نُضجاً على نحو مؤكد في الشخص، ازداد انفتاحاً حتى إذا انغلق من نواحي أخرى على العالم بأكمله.

المقطع الأخير بعبارته التي تبدو بريئة حتى إذا هو الأعمق مغزى. فهل نجد هنا على وجه التحديد تحوير كيركغارد الشيطاني لنظرية فيغليوس هاوفنينسيس في الانفتاح؟ هل حتى إذا الصغيرة هي في الواقع النفي الكبير لقدرة التواصل على الإنقاذ؟ هل هي عبارة كيركغارد الشرطية الخاصة، تحفّظه الذهني؟ أم إن الكلمات تقول العكس، أي إن العلاقة بالله تحرر المرء إزاء العلاقة بنفسه وأقرانه البشر؟ مَنْ لا يفضل الاعتقاد بالاحتمال الأخير؟

مع ذلك، لا هنا ولا في نقاط أخرى نستطيع الهرب تماماً من الانطباع بأن الحال ربما ليست إن كيركغارد كان محكوماً بتقوقعه بقدر ما إن التقوقع كان محكوماً بكيركغارد من أجل إبداعه، كتابته، فنه. وبخلاف الانفتاح والاندفاع فإن التقوقع والمالنخوليا السوداء عاملان منتجان جمالياً يربطان الفنان بالعالم ويجعلانه يتنفس أعمق. وكان هذا شيئاً عاشه كيركغارد وعبَّر عنه كتابةً: في هذه

المالنخوليا السوداء أحببتُ العالم رغم ذلك لأني أحببتُ مالنخوليتي السوداء. حلوة هي فرحة المالنخوليا السوداء، كما كتب المحارب والشاعر الإيرلندي الأسطوري أوسيان Ossian الذي أعاد كيركغارد صوغ ما قاله في مراحل على طريق الحياة حيث كتب حلو هو حزن المالنخوليا السوداء.

شغفتْ الأجيال اللاحقة بكيركغارد مثلما شغف كيركغارد بمالنخوليته السوداء وكتب الصفحة تلو الأخرى عن مكابداته التي لا تُوصف، عن [vita ante acta باللاتينية: حياة سابقة]، عن الشوكة في الجسد، عن الجرح الذي لا يلتئم أبداً، عن الخبرات الصادمة في الطفولة (أو بالأحرى أن تعاسة كيركغارد وحزنه ويأسه كانت أيضاً موضع اهتمامه - ونادراً ما كان مكتئباً بحيث لم يشعر بالرغبة في الكتابة عنها. وليست هناك علائم اكتئاب بالمعنى السريري الشاذ للكلمة كانت ستترك ثغرات زمنية كبيرة في يومياته، بل على العكس. فإن الإصرار الذي يسم مشروعه الأدبي بأكمله دليل على فائض طاقة جبار، نوع من العافية الذهنية رغم كل شيء. ولهذا السبب فإن يافطة الهوسي - الاكتئابي - التي كانت تُلصق بين حين وآخر لعدم وجود أي شيء أفضل - تبدو خاطئة تماماً. يتحدث المحللون النفسيون عن جنون الاثنين، الذي يريدون به مرضاً ينقله المريض عقلياً إلى آخرين. ومن الفرضيات البديهية بعض الشيء إن الأب نقل حالته الاكتئابية إلى ابنه سورين آبي، الذي يبدو في الحقيقة إنه أدرك ذلك بعد سنوات: لو تربيتُ بطريقة اعتيادية أكثر - نعم، من المنطقي إني ما كنتُ لأصبح بهذه الكآبة.

سيكون من القسوة والخطأ أيضاً الادعاء بأنه عندما كان كيركغارد يكتئب، كان يشعر ما يشعر به أشخاص اعتياديون بصورة طبيعية، ولكن ما لا يُنكر إنه كان نقيضاً منعشاً لصورة كيركغارد دائم الاكتئاب ذي الحدبة عندما هتف زوج أُخته يوهان كريستيان لوند عفوياً (بعد أن قرأ بعض أوراق كيركغارد التي نُشرت بعد وفاته): طيب، أليست هذه فكرة بغيضة، إن شخصاً كان دائماً يبدو بهذا القدر من السعادة كان كئيباً من حيث الأساس. ونكاد أن نجد من المغري أن نفترض إن كيركغارد كان مصيباً حين كتب إلى أم. إتش. هولنبيرغ (في رسالة تتسم ببعض الانتشاء اللاعقلاني) إن سبب كآبته ربما يمكن العثور عليه في مطاط حذائه الفوقي (الكالوش).

أحسب إنه لم يكن كئيباً قط خلال الفترة المديدة التي عرفتُه فيها، ولم أعد أراه إلا في السنتين أو السنوات الثلاث الأخيرة من حياته، كما كتب سيبَّرن، ذو الأربعة وثمانين عاماً، عن كيركغارد الذي تعرف عليه أول مرة في أوائل ثلاثينات القرن التاسع عشر وساعد في تقييم رسالته الأكاديمية عن مفهوم المفارقة. وخلال خطوبة كيركغارد كان سيبَّرن يأتي أحياناً بوصفه مرافقاً من نوع ما يجلس في العربة حين تأخذ الخطيبين الشابين إلى حديقة الغزلان وبالتالي لا بد إنه اكتسب بعض المعرفة على الأقل بتكوين كيركغارد النفسي. كما أن سيبَّرن لم يكن غافلاً عن الحقيقة الماثلة في أنّ كيركغارد كان شخصاً من الصنف شديد التعقيد داخلياً، بالفطرة وفي أعمق أعماق كيانه. وإذا لم يلحظ سيبَّرن آثار كآبة في كيركغارد فمن الجائز بالطبع إن السبب هو أن سيبَّرن، كما لاحظ كيركغارد قائلاً لهانز بروشنر، يفتقر تماماً إلى العين التي ترى العواطف المقنَّعة، ترى الاستنساخ المتكرر الذي به تكتسب عاطفة شكل عاطفة أخرى. ولكن هذا النقد الأخير ليس منصفاً تماماً. فإن سيبَّرن في العبارة نفسها التي أطلق فيها تعليقه المثير للجدل عن عدم شعور كيركغارد بالكآبة، أضاف قائلاً يجب أن أُشير مع ذلك إلى أن من الجائز تماماً أن يحمل شخص كآبة شديدة في داخله مع كثير من الحيوية والانشراح. ولذلك يجد القارئ من المغري أن يخلص إلى أن طبيعة كيركغارد فيها من الحيوية والانشراح أكثر مما فيها من الكآبة. وفي الواقع إنه كان مثل غيره من الآخرين – سوى إنه مضاعَف عشر مرات.

من المعروف جيداً إن الفن ينبثق من أزمات روحية مثلما إن بومة منيرفا لا تطير إلا بعد انتهاء النهار. أن يكون المرء بصحة جسدية ونفسية كاملة ويعيش حياة روحية حقيقية – لا أحد قادر على ذلك لأنه في هذه الحالة سيقع في إحساس آني بالسعادة، كما لاحظ كيركغارد في عام 1849 بموضوعيته الصادمة كعهده. ولم يكن هناك خطر من وقوع الرجل الذي أبدى هذه الملاحظة في أي إحساس آني بالسعادة. فهو أصلاً كان روحاً أكثر منه جسداً. ومع ذلك لا يستطيع المرء أن يتفادى الجسد بوصفه وعاءً للروح، ولا هو قادر على تجنب السؤال عن مدى ما كانت لدى كيركغارد قدرة روحية – جسدية على استثمار مواهبه الفنية.

يمكن الإجابة عن هذا السؤال على أفضل وجه بإجراء تغيير طفيف في المسار لمعاينة شخص ذي مصير استثنائي جداً.

أدولف بيتر آدلر

في 29 حزيران/ يونيو 1843 كتب سورين آبي رسالة إلى بيتر كريستيان في أبرشيته في سورو. وغالبية الرسالة بلا أهمية ولكن هناك بعد ذلك حاشية: تعرف إن هناك في المدينة الماجستير آلدر الذي أصبح قس جزيرة بورنهولم، وهو هيغلي متحمس. جاء هنا ويريد أن ينشر بعض المواعظ التي من المرجح إنه سيتخذ فيها خطوة باتجاه العقيدة القويمة. إنه شخص ذكي، متمرس تماماً في الكثير من حالات الحياة القواعدية لكنه في الوقت الحاضر مجهَد بعض الشيء. بيد إن من الممكن دائماً أن تكون هذه ظاهرة تستحق المراقبة.

ظاهرة آدلر، أدولف بيتر آدلر، كانت حقاً ظاهرة تستحق المراقبة. فهو وصل إلى كوبنهاغن قبل عشرة أيام على متن السفينة البخارية هيرلكوين وبحث عن عنوان كيركغارد ليقدِّم إليه نسخة من كتابه بضع مواعظ الذي خرج لتوه من المطبعة. وكان الكتاب مجلداً بغلاف غبار إضافي من الورق الأخضر الصقيل، وعلى الغلاف الداخلي كتب آدلر بخط يده الأكثر أناقة - وإن ارتكب خطأً واحداً - مستر الماجستير كركغارد. عربون صداقة، آدلر.

كان الرجلان الجالسان في شقة كيركغارد يعرفان أحدهما الآخر من أيام مدرسة بورغرديد عندما حضرا الدروس نفسها لعدد من السنين. ولعل هذا يفسر أيضاً لماذا كانا يتحدثان بألفة ويستطيعان الخوض في شؤون عائلية. كما كان آدلر، مثله مثل كيركغارد، ابن رجل أعمال ميسور ناجح بما فيه الكفاية حتى إنه بحلول عام 1815 استطاع أن يسمي نفسه تاجراً، وكان ذلك شيئاً له قيمته أيامذاك. وبعد أن اجتاز آدلر امتحانات القبول في الجامعة سجل لدراسة اللاهوت عام 1832 وأكمل تحصيله في عام 1836 بدرجة [laudabilis باللاتينية: يستحق الثناء] وفي العام التالي سافر في جولة خارج البلاد أخذته إلى ألمانيا وإيطاليا وسويسرا وفرنسا. ولدى عودته إلى كوبنهاغن واصل دراسة الفلسفة وبالدرجة الرئيسية هيغل، وفي عام 1840 دافع عن رسالته لنيل شهادة الماجستير بعنوان الذاتية المنعزلة في أشكالها الأساسية التي، بعد أن نال آدلر موافقة ملكية على إعفائه من القواعد المتبعة، قدمها باللغة الدنماركية - كما فعل كيركغارد في عام 1841.

خلال فصل الشتاء 1840 – 1841 قدم آدلر سلسلة من المحاضرات العامة

في الجامعة عن منطق هيغل الموضوعي لكنه انقطع عن العمل في كوبنهاغن وتزوج ثم انتقل إلى بورنهولم وأصبح قس أبرشية لأتباع الكنيسة في هاسلة وروتسكر. وقبل أشهر على ذلك أُقيل سلفه في هذا المنصب على أساس إصابته بلوثة عقلية. وفي تلك السنة نفسها قام الأسقف مينستر بجولة تفقدية رسمية في الجزيرة الصغيرة المشمسة، وفي رسالة إلى زوجته بتاريخ 24 تموز/ يوليو 1841 ناقش زيارة القس آدلر المعيَّن حديثاً: كان الموقف، كما يمكن أن تتخيلي، كوبنهاغنياً. ولكن ما أثَّر فيّ حتى أكثر إن آدلر رغم كل هيغليته، جيد جداً في الوعظ والعناية بوظيفته، وإن زوجته، وهي امرأة طيبة، في منتهى السعادة في هاسلة رغم الحقيقة الماثلة في أنّها سيدة من كوبنهاغن. أعتقد أنّ جماعة المصلين أيضاً يحبونه.

وهكذا كان كل شيء يبدو رعوياً، ولكن في عام 1842، قبيل الكرسمس، اتخذت حياة القس الشاب وزوجته الشابة منحى دراماتيكياً. وسرد آدلر نفسه ذلك في مقدمة بضع مواعظ: في كانون الأول/ ديسمبر العام الماضي أنجزتُ تقريباً كتابة عمل نويتُ أن أُسميه محاضرات شعبية عن المنطق الموضوعي... وذات مساء فرغتُ لتوي من الكتابة عن موضوع أصل الشر، ثم رأيتُ في ومضة إن كل شيء لا يعتمد على الفكر وإنما على الروح، وإن هناك روحاً شريرة. وفي تلك الليلة ذاتها هبط على غرفتنا صوت بشع. أمرني المنقذ أن أنهض وأدخل لكتابة هذه الكلمات. ويعقب ذلك أحد عشر سطراً يُفترض إنها تفسر كيف ظهر الشر عندما أصبحت أفكار الإنسان منهمكة بنفسها. وتنتهي المقدمة بالقول: ثم أمرني المسيح بأن أحرق كتاباتي وأبقى في المستقبل ملتزِماً بالإنجيل. أعرف إن المواعظ والخطابات من رقم 6 إلى النهاية كُتبت بعون بركة المسيح، ولم أكن أنا سوى الأداة.

وهكذا فإن هذا الرجل هو الذي ظهر مع مجموعة مواعظه في شقة كيركغارد ذات يوم صيفي في عام 1843. كيركغارد نفسه لم يكتب عن الزيارة ولكنه وصفها لهانز بروشنر الذي يروي هذه الواقعة على النحو الآتي: ذات يوم جاء آدلر إلى كيركغارد ومعه عمل نشره، وتحدث معه طويلاً عن نشاطاتهما بوصفهما كاتبين دينيين. وجعل آدلر من الواضح لكيركغارد إنه يعتبر نفسه نوعاً من يوحنا المعمدان فيما يتعلق بنفسه، ومنذ أن نزل عليه الوحي مباشرة كان هو المسيح الحقيقي. وما زلتُ أتذكر ابتسامة كيركغارد وهو يقول لي إنه رد

على آدلر قائلاً إنه راضٍ تماماً بالموقع الذي منحه آدلر لنفسه: وجدها وظيفة محترمة جداً أن يكون المرء يوحنا المعمدان ولا تكون لديه تطلعات إلى أن يكون مسيحاً. وخلال الزيارة نفسها قرأ آدلر بصوتٍ عالٍ مقطعاً طويلاً من عمله لكيركغارد، وقرأ بعض العمل بصوته الاعتيادي والباقي بهمس غريب. وسمح كيركغارد لنفسه بأن يعلق قائلاً إنه لم يجد أي كشف جديد في عمل آدلر فرد آدلر عليه: «إذاً، سآتي إليك مرة أخرى هذا المساء واقرأ لك العمل كله بهذا الصوت (الهمس) وسترى حينذاك، سيصبح الأمر واضحاً لك». وعندما روى لي كيركغارد الحكاية كان مستمتعاً بقناعة آدلر بأن تغيير صوته يمكن أن يمنح الكتابات أهمية أكبر.

آخرون لم يكونوا مستمتعين. فإن آدلر بسبب عدد من الأقوال الهرطيقية (وفي بعض المواضع الغريبة) من كتاب بضع مواعظ وفي كتاب دراسات الذي صدر هو أيضاً في عام 1843، استنزل على نفسه استنكار المراجع الكنسية. وأُقحم الأسقف مينستر في القضية منذ وقت مبكر تماماً، وفي 12 آب/ أغسطس 1843 اضطر إلى أن يقدم تقريراً إلى الحكومة: أما المواعظ آنفة الذكر فإنه يصبح واضحاً من المقدمة إن الكاتب مريض عقلياً في الوقت الحاضر، وللأسف إن الكتاب كله يسند هذا الحكم. ومن بقايا عدة دراسات فلسفية وبعض القراءات اللاهوتية السائبة قام المؤلف بتركيب عدة جمل يكررها المرة تلو الأخرى. ولكن مينستر تمنى أن يكون التحرك برأفة مشدداً على أن المرض العقلي ربما كان من طبيعة مؤقتة: الماجستير آدلر ما زال في حالة ما يسمى الأفكار الثابتة idées fixes، وهو من كل ناحية أخرى يتكلم ويتصرف بطريقة عاقلة تماماً. وقبل أيام على صدور الكتاب أنا نفسي أجريتُ معه حديثاً طويلاً عن مواضيع مختلفة دون أن ألحظ أي تشوش. واتخذ العميد أف. إيل. ستينبيرغ من بورنهولم موقفاً مماثلاً، متسامحاً نسبياً، وفي رسالة إلى الأسقف مينستر بتاريخ 8 أيلول/ سبتمبر 1843 ذكر إن حالة آدلر العقلية لم تتغير بتاتاً، الشيء الذي يعني إنه في حياته اليومية الاعتيادية لم يظهر عليه أدنى أثر للمرض العقلي. من جهة أخرى فإنه عندما يلقي مواعظه كانت مثل هذه الأعراض تظهر عليه، حيث يكون إلقاؤه على العموم متوتراً تماماً ونظرته جامحة مثل نظرة رجلٍ مجنون، وما أن ينزل من المنبر حتى يصبح هادئاً تماماً، ويبدو رقيقاً ودوداً مع الجميع ويتحدث حديث العاقل تماماً.

طلب العميد ستينبيرغ من آدلر أن يجيب عن أربعة أسئلة. أولاً، سأله إذا كان يستطيع الاعتراف بأنه كان في حالة عقلية مختلة ومشوشة حين كتب الأعمال ذات العلاقة. ثانياً، إن كان يستطيع أن يفهم إن من التعصب والخطأ توقع مثل هذه الإيحاءات الخارجية على ما يُفترض واتباعها. ثالثاً، إن كان سيعترف بأن أعماله تتضمن الكثير من الافتراضات الباطلة التي تخرج عن العقيدة المسيحية. رابعاً وأخيراً، إن كان سيقر بأنه أطلق أقوالاً جارحة أو بغيضة أو غير لائقة إلى أبعد الحدود، مثل القول بضرورة حرق الساحرات أو الرأي الذي يذهب إلى أنه إذا كان الابن لا يؤمن باليسوع فمن باب أولى أن يَقصم الأب رقبته، وإذا كان الأب نفسه لا يؤمن فمن باب أولى أن يذبح نفسه.

آدلر نفسه نشر قطعة تابع فيها وعلق على تطور القضية بعنوان أوراق تتعلق بتجميدي وإقالتي، ولكن برأي المراجع الكنسية لم تكن إجاباته وافية عن أسئلتهم وعُدَّ غير مؤهل للاستمرار في العمل. ورغم الحقيقة الماثلة في أنّ ما لا يقل عن مئة وخمسة عشر من أتباع كنيسته قدموا مذكرة يقفون فيها إلى جانب قسِّهم فإنه جُمد في كانون الثاني/ يناير 1844 وفي النهاية أُقيل من عمله – وإن بتكريم مع معاشه التقاعدي – في آب/ أغسطس 1845، رغم إن ملف القضية الذي تضمن أكثر من سبعين وثيقة لم يُغلق إلا في حزيران/ يونيو 1851. ونتيجة لتدخل مينستر بصفة خاصة بُدلت التهمة من مرض عقلي إلى ألمَسّ الأحادي. وكنوع من الإيضاح المكمّل لإقالته لوحظ إن شقيقه الأصغر يوهان آدلر شُخص، لدى عودته من رحلة طويلة في الخارج، على أنه مصاب بالفصام وأُدخل مصحاً للأمراض العقلية في سليسفيغ. (أمضى حياة بائسة هناك طيلة السنوات السبع وخمسين التالية). ومباشرة بعد إدخال يوهان للعلاج زارته شقيقته ولكن عندما أظهرت هي أيضاً إنها في حالة كاملة من العته مُددت زيارتها حوالي عام. ذلك إن الصحة العقلية لم تكن من الصفات القوية في عائلة آدلر.

لكن أدولف بيتر آدلر كان لديه ما يكفي من الحس السليم للإبحار إلى كوبنهاغن في النصف الثاني من حزيران/ يونيو 1845 للقاء مينستر الذي أرسل إليه آدلر قبل أسبوعين إعلاناً مؤداه إنه يعترف الآن اعترافاً كاملاً بأن الشكل غير المعهود، الغريب، الجارح، الشبيه بالأقوال المأثورة، والمقتضب الذي يجري به التعبير عن الأفكار في مواضع عديدة من مواعظي ودراساتي ربما أثار بصورة

معقولة توجسات المراجع العليا. ويبدي هذا البيان قدراً من المراعاة ولكنه لا يتراجع عن الوحي المزعوم، ولذلك خُسرت المعركة.

انصرف آدلر بعد إقالته إلى نشاطاته الأدبية. وسافر إلى إيطاليا في 1847 - 1848 وأنجز كتاباً ساحراً عن خبراته هناك. عاد إلى هاسلة لكنه في 1853 انتقل إلى كوبنهاغن حيث مكث حتى وفاته في عام 1869. بيد إنه طيلة حياته ظل على حبه لجزيرة بورنهولم الصخرية وثقافتها، وفي عام 1856 نشر محاولة إعداد قاموس للهجة بورنهولم.

الكتاب الذي يتحدث عن آدلر

يغدو واضحاً لدى تصفح نسخة كيركغارد من كتاب آدلر بضع مواعظ إن الكتاب رغم بعض التشديد والملاحظات الهامشية، ليس فيه دلائل تشير إلى أنه قُرأ قراءة متمعنة بصفة خاصة، بل إن الصفحات 93 - 107 التي تحوي المواعظ 24 و25 و26 حتى لم تُفتح. كما إنه لم يفتح الصفحات من 117 إلى نهاية الكتاب، التي تحوي النصف الثاني من الموعظة 28. من جهة أخرى استخدم كيركغارد سكينه بهمة ليفتح الصفحات التي تحوي الموعظة 27 حيث رسم خطاً تحت مقاطع مختلفة للتشديد عليها. وهذه هي الموعظة التي طرح فيها آدلر آراءه الغريبة عن الجنسوية. وهنا استطاع كيركغارد أن يقرأ إن الغريزة الجنسية هي الروح الشريرة وجاءت إلى العالم بواسطة الروح الشريرة. وأجرى آدلر تنويعات على هذا الادعاء في عدد من كتاباته اللاحقة حيث ذهب إلى أن الاتصال الجنسي، كما يوجد حالياً، لم يكن مقصوداً في الأصل للكائنات البشرية ولهذا السبب كان آدلر ملزَماً بوصف العلاقة الطبيعية بين الجنسين كما توجد حالياً بأنها آثمة وشاذة. وفي هذا الشأن أعرب عن إعجابه الكبير بأوريغين الذي أخصى نفسه من أجل ملكوت السماء. من المربح الامتناع عن ملامسة امرأة، أعلن آدلر داعياً إلى التبتل - مع ذلك، في السنة التي أعقبت نشر بضع مواعظ أنجبت مسز آدلر صبياً متعافياً!

في عام 1846 أثار آدلر ضجة أدبية بنشره أربعة كتب بصورة مفاجئة (أو ما مجموعه أكثر من ثمانمئة صفحة) دفعة واحدة، واستأنف كيركغارد تواصله المكثف مع آدلر. وفي يوم نشر الكتاب، 12 حزيران/ يونيو، توجه كيركغارد على الفور إلى متجر رايتزل لبيع الكتب واشترى الكتب الأربعة كلها عائداً إلى

البيت ومعه دراسات وأمثلة ومحاولة تقديم منهجي موجز للمسيحية في منطقها ودراسات لاهوتية وبضع قصائد. ولاحظ كيركغارد أربعة كتب دفعة واحدة! في إشارة إلى جبل الورق. وأطلق في الوقت نفسه زفرة خيبة صغيرة بحقيقة إن آدلر لم يكتب بأسماء مستعارة ليتمكن الشخص ذو الحس الفني، إذا علم بطريقة ملتوية إنها كلها بقلم كاتب واحد، من أن يجد، مع ذلك، بعض المتعة في دخول الوهم القائل إن هذه ليست أربعة كتب لمؤلف واحد بل لأربعة مؤلفين... وفي الواقع إن هذا حدث في الأدب الدنماركي منذ زمن ليس بعيداً، بشكل فني بعض الشيء. وكان كيركغارد يلمِّح هنا إلى إنجازه هو بنشر ثلاثة خطابات تثقيفية وشذرات فلسفية ومفهوم القلق ومقدمات، التي صدرت أربعتها في ظرف أسبوعين في حزيران/ يونيو 1844.

في 25 آب/ أغسطس اشترى كيركغارد كتاب آدلر أوراق تتعلق بتجميدي وإقالتي وبذلك يكون اشترى وقتذاك سبعة كتب من كتب آدلر. وعلى أساس هذه الكتب، ولا سيّما دراسات وأمثلة كتب عمله - الأول - عن ظاهرة آدلر بين منتصف حزيران/ يونيو ونهاية أيلول/ سبتمبر 1846، وفي فقرة من يومياته بتاريخ 1 كانون الثاني/ يناير 1847 وصف كتابه الواقع في 337 صفحة بأنه كتاب مُنجَز. ولكن لم يمض وقت طويل قبل أن تبدأ المشكلات بالظهور: قضية آدلر كلها تؤلمني ألماً شديداً. وأنا صدقاً أكثر من مستعد لمؤازرة آدلر. فنحن نحتاج إلى أشخاص حيويين - أشخاص حيويين، غير أنانيين - لا يستسلمون، أنهكهم الاهتمام بمعيشتهم وزوجاتهم وأطفالهم. وكان كيركغارد يحترم آدلر بسبب عاطفته الدينية المتقدة، الأمر الذي كان يبدو نادراً في مسيحية، متخاذلة، ماكرة، مهذبة. لذلك كان تقييم كيركغارد الإجمالي إيجابياً على العموم: بيد إنه في التحليل الأخير، ما زال تَدَيُّن آدلر رغم كل تشوشه، أكثر بكثير من تَدَيُّن غالبية الآخرين.

لذلك خصص كيركغارد قسماً كاملاً من الكتاب لـ استحقاقات آدلر التي لاحظ فيها، قبل كل شيء: إن ما هو جيد وجدير بالتقدير في الماجستير آدلر، إنه اهتز، وتأثر، ولذلك اكتسبت حياته إيقاعاً يختلف تماماً عن الخبب البطيء الذي يشق به غالبية الأشخاص، بالمعنى الديني، طريقهم عبر الحياة بعدم مبالاة... كل تديُّن تكمن جذوره في الذاتية، في الداخل، في أن يكون المرء متأثراً، أن يكون مهتزاً، في ضغط نوعي على نوابض الذاتية. وأن يتأثر المرء بهذه الطريقة

إنما هو شرط مسبق لا غنى عنه ليكون قادراً على الالتزام جدياً بالمسيحية، وهذا ما كان يميز آدلر عن العديد من الأساتذة الصامتين، ذوي الحياة الجامدة. ولكن ما لم تتوحد اللغة الصميمة للعاطفة العميقة مع المقدرة والدربة في المقولات المفهومية المسيحية، لا يكون لدى خريج اللاهوت الشاب شيء يقاوم به على الإطلاق، ولذلك سيكون من السهل عليه أن يخلط بين المشاعر الدينية الداخلية والوحي. وبحسب كيركغارد فإن آدلر كان في الحقيقة خطراً مميتاً لأنه كان فوق 70 ألف فرسخ من الماء - تعبير لم يستخدمه كيركغارد قط في الإشارة إلى أي فرد محدَّد. ورغم إن كيركغارد في كل الكتاب ظل رسمياً من أنصار كنيسة الدولة بتعاطف ملحوظ مع مينستر (الذي تُمدح قدراته الإدارية واستحقاقاته الشخصية بأسلوب فخم على عدد من الصفحات) فإنه بالتأكيد لم يكن غافلاً عن الجنون الأساسي الذي كان يهدد آدلر: في ذات اللحظة التي اقترب فيها على نحو لا يُنكر، بعد تأثره دينياً، من أن يصبح مسيحياً أكثر من أي وقت طيلة الفترة التي كان فيها مسيحياً - في تلك اللحظة بالذات جاءت إقالته.

اعترف كيركغارد على مضض بأنه طرف في القضية ولذلك فكر إن كان عليه أن يفاتح آدلر ويطلب منه سحب المقدمة سيئة الصيت لكتابه بضع مواعظ، ومقابل ذلك، كنوع من التعويض، سيمتنع كيركغارد عن نشر مخطوطته. ولكن كيركغارد صرف النظر عن هذه الفكرة لممارسة ابتزاز رقيق وبدلاً من ذلك فكر في تفكيك مخطوطته إلى أجزاء منفصلة، قصيرة جداً ناشراً الأقسام النظرية وحدها: يمكن القيام بهذا قطعاً، وحينذاك سيُقرأ العمل بطريقة مختلفة تماماً. وسأُعفى من ذكر آدلر بالاسم، سأُعفى من العملية الرهيبة للاضطرار إلى إعدام شخص بهذه الطريقة. وبحلول 1 كانون الأول/ ديسمبر 1847 مر الكتاب بتحول آخر: قمتُ الآن مرة أخرى بتنظيم الكتاب عن آدلر وترتيبه. وبهذا الترتيب أُضيء كلُ شيء وأصبح شفافاً قدر الإمكان. ولكن كيركغارد كان خائفاً من إنه بنشر الكتاب سيواجه خطر الاحتكاك بهذا الشخص الملتَبس الذي لا عمل له، ولذلك فإنه على الأرجح سيكتب ويكتب. ولم يكن لدى كيركغارد أي رغبة في الاتصال بهذا الصنف لأن القضية يمكن في هذه الحالة أن تنتهي بسهولة إلى معركة ديكة بيني وبين آدلر لمنفعة جمهور فضولي. كلا، من الأفضل صرف النظر عن آدلر.

كان قول ذلك أسهل من تنفيذه. وفي مجرى العامين التاليين أُعيدت صياغة

المخطوطة عدة مرات. ومر وقت كان جزءٌ منها بعنوان حلقة من المقالات الأخلاقية - الدينية، ولكن هذا الحل أيضاً فشل في إرضاء كيركغارد. وفي النهاية، بتاريخ 19 أيار/ مايو 1849، رأى النور قسم متواضع من المادة بوصفه أحد المقالين من عمله مقالان أخلاقيان - دينيان. وبعد يومين على نشرهما اشترى كيركغارد نسخة من كتاب آدلر ملاحظات من رحلة. وفي الوقت نفسه فكر كيركغارد أيضاً في استخدام المزيد من مادة آدلر بنشر ثلاثة مقالات أخلاقية - دينية لكنه تخلى عن الفكرة خشية أن يظن الناس إنه هو نفسه وليس آدلر موضوع الأفكار الواردة في المقالات عن الظروف التي من الجائز أن ينزل وحي شخصي في ظلها. وبحث كيركغارد عن مخارج مختلفة من المشكلة ولكنه لم ينشر قط مزيداً من المادة. بيد أنه واصل تحرير العمل وإعادة تنظيمه حتى ربيع 1855. وبذلك تكون المخطوطات من أشد ما تركه لنا كيركغارد تعقيداً، وهي قادرة على أن تصيب كل من قد يفكر في تحريرها ونشرها بحرقة قلب فقهية.

صُنع بلبلة من أعلى طراز

كان الكتاب التي يتحدث عن آدلر يتألف في تجسده الأول من مدخل وأربعة فصول طويلة توزع الفصلان الأخيران منها على سلسلة من الأقسام (مؤشرة بعلامة القسم§) ومرفقة بملحق واحد. وأوضح كيركغارد طريقته بمفردات تقنية قائلاً إنه دائماً لا يجادل إلا econcessis [باللاتينية: من المقدَّمات المعطاة] بمعنى إنه لا يحلل القضايا المختلفة ويناقشها إلا بناءً على أقوال آدلر نفسها، التي يريد إضاءتها، إن جاز التعبير، من الداخل وبأقل قدر ممكن من التحيز قابلاً الافتراض القائل إن وحياً في الحقيقة نزل على آدلر. وفي هذا الشأن أكد إن الغرض من الكتاب ليس تقديم نقد بالمعنى التقليدي، وإن شخص آدلر نفسه سيُجر أيضاً إلى البحث: وهكذا فإن الماجستير آدلر لا يكون كاتباً. وبحكم حقيقة نزول الوحي فإنه أصبح ظاهرة. وفي غمرة الواقع يكون شخصية دراماتيكية، وليس من الوارد عمل ما هو مطلوب بشكل طبيعي، لننساه كي نركز على كتاباته. كلا، إن هذه ليست إلا مسألة استخدام كتاباته للتركيز عليه، هو الذي بحكم حقيقة نزول الوحي وُضع في موقع أقصى بحيث يكون إما مشعوذاً أو رسولاً. وإزاء هذه المجموعة من البدائل القصوى - مشعوذ

أو رسول - يستبد بنا الشك فيما ستكون نتيجة البحث، وعلينا الاعتراف لكيركغارد بأن مشروعه مشروع غير اعتيادي: بالإضافة إلى ذلك، أنا نفسي أعرف حق المعرفة ما تبدو عليه القضية كلها من غرابة. ولدى التعامل مع كاتب لم تُقرأ أعماله كثيراً حتى الآن فإني أشتغل على تأليف كتاب يُفترض إنه لن يُقرأ كثيراً كذلك. وكما تُروى قصة ذينك الشخصين المهيبين اللذين كانا من البدانة حتى إنهما كانا يتمرنان بالدوران حول أحدهما الآخر - وهكذا في بلد صغير يمكن أن يصبح من التمارين أن يدور الكتّاب حول بعضهم البعض.

ولكن في البداية، كان كيركغارد في الغالب هو الذي يدور حول نفسه. وهكذا فإن أقساماً كبيرة من الفصل الأول الذي يتعامل مع العلاقة بين الشخص الاستثنائي ونظام أخلاقي - ديني قائم، تتناول القضايا المطروحة في كتاب الخوف والرعدة. وعلى الغرار نفسه، عندما يجادل كيركغارد في الفصل الثاني قائلاً إن وحياً معاصراً (في هذه الحالة الوحي الذي نزل على آدلر) لا يختلف في مفارقته عن التجسد، فإنه يكرر سلسلة المواقف التي اتخذها والنقاط التي طرحها في عمليه شذرات فلسفية وحاشية ختامية اللذين يشير إليهما في أحيان كثيرة بهوامش طويلة. وفي هذه الفصول تتمثل وظيفة آدلر في أنّه مجرد مناسبة بالدرجة الرئيسية، وهو نفسه نادراً ما يكون محور التحليلات. ولا يصبح آدلر شخصية مركزية إلا في الفصل الثالث الذي يتضمن قراءة متمعنة للوثائق المقدَّمة في أوراق تتعلق بتجميدي وإقالتي. وبثلاث وثمانين صفحة يكون هذا الفصل أطول فصول الكتاب، وهنا يكشف كيركغارد عن نفسه محققاً رهيباً يتابع حتى أصغر التفاصيل بحماسة تكاد تكون ميتافيزيقية ليعري تناقضات خصمه مع نفسه بأشد الطرق إيلاماً. وكيركغارد بعمله هذا ينزلق أحياناً، بطبيعة الحال، إلى شماتة تتسم بالتحدي وأسلوب دَعي لم يتجاوزه قط.

وعندما طالت القضية أصبحت الأمور ساخنة قليلاً على آدلر بطبيعة الحال. ولذلك حاول في أحد ردوده على المراجع الكنسية أن يماطل بعض الشيء زاعماً إن الوحي المذكور في مقدمته سيئة الصيت ربما لم يكن إلا صحوة أُنقذ بواسطتها بطريقة رائعة. ثم قام بتمييع ذلك لاحقاً إلى مجرد ادعاء لا ضرر فيه بأنه خَبِر نزول الحماسة. وأصبح آدلر هنا، منظوراً إليه بعين كيركغارد، مداناً بالممارسة المعهودة من المحامين في التركيز حصراً على توافه الأمور، لأن المرء لا يستطيع أن يدَّعي في آن واحد نزول وحي إلهي عليه وينحي جانباً

ما نزل عليه في محاولة لإرضاء المراجع الكنسية. وهنا كانت هناك «إما/ أو» مطلقة، وأي شيء من قبيل بهذا القدر أو ذاك / ما بين بين يكون منافياً للعقل. ولم تتحسن الأمور عندما أضاف آدلر إن أفكاره حين يستجليها في المستقبل، ستصبح تدريجياً قادرة على التطور إلى شكل أنسب يكون أكثر انسجاماً مع اللغة النوعية للنصوص المقدسة. وأفلتت الأمور تماماً عندما قدم آدلر أعذاراً من خلال إضافته القول بأنه حتى إذا نظر المرء إلى مواعظي ودراساتي على أنها أول كلام ناقص، ضعيف، يبربره طفل فإني ما زالتُ أعتقد بأن الكلمات تقف شاهداً على الحقيقة الماثلة في أنّ حدثاً وقع تحركتُ فيه بدافع الإيمان. وكان بكل بساطة من غير اللائق ومن غير الجائز أن يُستخدم هذا المصطلح - بربرة طفولية - لوصف شيء أصر المرء في مكان آخر على أنه كُتِب كما أملاه المنقذ! لقد انغمر آدلر في صُنع بلبلة من أعلى طراز.

انزلاق آدلر من ادعائه الأصلي إلى إطنابه الضبابي اللاحق كان من أعراض تشوشه المفهومي وبقي من النقاط المتكررة في نقد كيركغارد. وقرب نهاية القسم الثالث من الفصل الأول لخص كيركغارد مرافعته بالأسطر التالية (التي حذفها لاحقا): لنكررها إذاً. بتاريخ هاسلة [جزيرة بورنهولم]، 18 حزيران/ يونيو 1843، أمامنا رجل نزل عليه وحي وتلقى من المنقذ نفسه توجيهاً كتبه حسبما أملاه - بتاريخ 10 أيار/ مايو 1845، أمامنا رجل أُنقذ بطريقة رائعة - بتاريخ 5 تموز/ يوليو 1845، أمامنا رجل في لحظة من الحماسة تعيَّن عليه أن يطلب العون في النظر إلى عدة نقاط مرجعية ثابتة. هذا هو الماجستير آدلر.

أنه بكل بساطة أمر لا معنى له. ليس بموجب قوانين الطبيعة بأي حال.

القديس بولس وصانع السجاد هانسن

في القسم الثاني من الفصل الثالث ينتقل كيركغارد من الوثائق المتعلقة بالقضية إلى قراءة نقدية للأعمال الأربعة التي نشرها آدلر منذ عام 1846. وهنا يعبر كيركغارد عن دهشته لأن آدلر - بوصفه شاعراً غنائياً في عزلة بورنهولم بلا هموم - نسي تماماً على ما يبدو الوحي الذي نزل عليه ليتصرف بدلاً من ذلك كعبقري: في الكتب الأربعة الأخيرة يكون آدلر مجرد عبقري، عبقري خالص، نقي - ومع ذلك لا يزال على ما يبدو متفقاً مع كتابه الأول. ونُسي إن تلك الكلمات في مقدمة كتاب بضع مواعظ (الذي يعود إليه آدلر مرات متكررة)

نُقلت إليه بنزول وحي عليه أملاها عليه المنقذ خلاله. ونُسى إن المواعظ (التي يشير إليها آدلر في أحيان كثيرة) كُتبت بعون المسيح ونعمته. الوضع شديد الغرابة والبلبلة كاملة، وكيركغارد يرد بتضافر هزة فكاهية من رأسه مع غضب عارم: أن يتمكن رجل من نسيان عصاه في مكان ما من المدينة فهذا أمر بريء بما فيه الكفاية، وأن يتمكن رجل من نسيان اسمه أو حتى حقيقة أنه متزوج، ويمضي إلى عقد قران فهذا أمر سيئ بما فيه الكفاية، ولكن أن ينسى إن وحياً نزل عليه - فهذا نوع من الكفر.

رغم الحقيقة الماثلة في أنّ آدلر يتسم بفكاهة رائعة في كتابه فإنه مع ذلك يعكس نزعة معهودة: إنه داعية لإشاعة الجمال التي هي سمة العصر وبالتالي قادر، بلمحة بصر هيغلية، على طرح مقولات مسيحية بمفردات إنسانية محضة: حين يُلغى مجال المفارقة أو يُشرح بالإحالة إلى الجمالي، يصبح القديس عبقرياً بهذا القدر أو ذاك، ثم وداعاً للمسيحية! الطرافة الذكية والروح والوحي ونداء من الله وعبقرية ورسول وعبقري: كلها تؤول إلى شيء واحد. ومن هذه الناحية لم يكن آدلر يختلف بشكل ملحوظ عن كثير من زملائه: يتحدثون بسمو عن طرافة الرسول بولس الرائعة، عن استعاراته الجميلة، إلخ - جمال خالص. وإذا أُريد أن يُعتبر القديس بولس عبقرياً فإن الأشياء تبدو سيئة للغاية عليه. والجهل الرَّعَويّ وحده يمكن أن تخطر له فكرة مديحه جمالياً... ويمكن أن يخطر بالسهولة نفسها لهذا النوع من البلاغة الرعناء أن تمدح القديس بولس بوصفه أسلوبياً أو فناناً لغوياً، حتى أفضل، لأن المعروف إن القديس بولس كان حرفياً كذلك، أن تدعي إن إنجازاته كصانع خيم هي تحف فنية كاملة بحيث ما من صانع سجاد قبله أو منذ زمنه استطاع أن يصنع شيئاً بهذا الكمال - لأنه طالما إنك تقول شيئاً طيباً عن القديس بولس فإن كل شيء يكون عندئذ على ما يرام. ولكن كل شيء ليس على ما يُرام إذا نسى المرء إن الصفة التي عمل بها القديس بولص كانت صفة رسول، وإنه بحكم هذه الصفة كان يمتلك صفات نوعية: إن القديس بولس كعبقري لا يحتمل المقارنة مع أفلاطون أو مع شكسبير. وهو لا يتبوأ مرتبة عالية بصفة خاصة كمؤلف استعارات جميلة. وله سمعة مغمورة تماماً كأسلوبي - وبوصفه نجاراً، لا بد أن أقول إني لا أعرف علو المرتبة التي قد يتبوؤها من هذه الناحية. وهكذا تكون الخلاصة بديهية بشأن القديس بولس: إنه بوصفه رسولاً لا يمت

بأي صلة مهما كانت إلى أفلاطون أو شكسبير، ولا إلى الأسلوبيين أو صانعي السجاد. فهم كلهم (أفلاطون مثله مثل صانع السجاد هانسن تماماً) لا يُقارنون أي مقارنة به. فالعبقري عبقري بما يفعله في حين إن الرسول رسول بإرادة إلهية هي على وجه التحديد صفة نوعية تتدخل من مكان آخر.

في أحد الهوامش يجد كيركغارد مناسبة للإشارة إلى أنه كان دائماً يسمي نفسه كاتباً بالقول إنه بلا مرجعية وأستخدم هذا التعبير بتوكيد حتى يكاد أن يكون صيغة تتكرر في كل مقدمة. ولذلك إذا لم ينجز الكثير فإنه على الأقل فعل كل شيء ممكن لتفادي البلبلة بشأن ما هو الأسمى والأقدس. وإذا كان لدى أحد شك بشأن مكانه كيركغارد فإنه مستعد لأن يأخذ الموقع الذي يحدِّده له: أنا إنسان فرد مسكين. وإذا كنتُ على شيء من العبقرية، كما يعتقد البعض، فأنا أقول في هذا الشأن: انسوا الأمر. ولكن الرسول يكون إلى الأبد مختلفاً نوعياً عني اختلافه عن أعظم عبقري عاش وعن أغبى شخص عاش ذات يوم.

انتشاء: 21 – 14 – 7؛ 21 – 14 – 7؛ 21 – 14 – 7

كان من سمات انشغال كيركغارد بآدلر إنه لم يُخضع وجهة نظر آدلر للمعاينة الفلسفية واللاهوتية فحسب بل حاكم طريقة عمل كتابات آدلر، الانطباع الذي تتركه كتبه. وعلى أساس هذه الملاحظات لنصوص آدلر إلى حد كبير خرج كيركغارد باستنتاجاته التي كانت استنتاجات من شكل ما كُتب إلى التكوين النفسي للكاتب. وكانت هذه بقدر يزيد أو يقل المناورة نفسها التي استخدمها كيركغارد قبل سنوات في نقده كتاب هانز كريستيان أندرسن الذي وجده فاشلاً لأن الكاتب يفتقر إلى نظرة إلى الحياة.

يشدد كيركغارد رأساً من مدخل كتابه إن آدلر من أُولئك الكتاب الذي لا بد من الاعتراف بأن لديهم مقدمات معينة لكنهم لا ينتهون أبداً إلى نتائج حقيقية: ليس لدينا هنا شاعر ينتج كلاً كاملاً من الناحية الشعرية، ولا ديالكتيكي يشير إلى المجالات التي تقع ضمن النظرة إلى الحياة الموجودة تحت تصرفه. كلا، فرغم الحقيقة الماثلة في أنّه يكتب لكنه من حيث الأساس ليس كاتباً. وفي الواقع إن كتب آدلر الأربعة كانت بذلك كتباً غير مكتملة لأنها أربع ياردات مقطوعة من قطعة قماش ذات طول واحد. ونُشرت الكتب كل على حدة ولكن كان من الجائز بالقدر نفسه من السهولة أن تكون اثني عشر كتاباً مثلما هي أربعة كتب،

ولهذا السبب كان لزاماً على كيركغارد أن يخلص إلى أنها كلها تقع في خانة الطول العشوائي.

يقدم كيركغارد سلسلة من التوصيفات الزاهية لهذا النوع من الكتاب - المؤلف الذي ينطلق من مقدمات - ويصبح واضحاً بالتدريج إن جذور اهتمامه بآدلر تكمن عميقاً في مركَّب من المشكلات النفسية - الجسدية. وأحد التوصيفات تعبير مصغر عن قدرة كيركغارد الفذة بوصفه مقدِّم أرقام كاملة تماماً، وهي قدرة خبيثة على نحو ساحر في محاكاتها الساخرة: عندما يمنح شخص يعيش في منطقة ريفية نفسه كاملةً إلى نفسه وإلى الوجهات غير المحدَّدة لتهويماته، متيَّماً تارة بهذا الانطباع وتارة أخرى بذاك، يثب تارة وثبة فرح صغيرة، وتارة أخرى يقفز قفزة طويلة من أجل التسلية، يقف ساكناً تارة، مستغرقاً في التفكير، ثم يكون عميقاً بحق، وتارة أخرى يكون عديم الذوق وبائخاً: هكذا يمشي آدلر متئداً في قراءة الإنجيل. بعد ذلك بفترة قصيرة ينتقل هذا المشهد من مشهد رعوية ريفية إلى شقة قد تكون مسكن كيركغارد. ورغم إنه يخفي معرفته بآدلر لأسباب تقنية - نابذاً بالكامل أي نظرة خاصة إلى الماجستير آدلر الذي حقاً ليس لديَّ أي معلومات عنه - فإن السرد التالي يستند بشكل واضح إلى حادث غيَّر فيه آدلر نبرة صوته حين كان أحمق بما فيه الكفاية لزيارة كيركغارد في منزله: بهذا الشأن سيكون من المناسب إذا أوصى آدلر، مثله مثل السحرة والحواة، بمراسم معينة ويكتب وصفة بها: إن المرء يجب أن يستيقظ حين تدق الساعة منتصف الليل، ثم يمشي ذارعاً الصالون ثلاث مرات، ثم يُخرج الكتاب ويفتحه... ثم يقرأ مقطعاً معيناً، في البداية بصوت خافت ثم يترك صوته يرتفع إلى أعلى درجاته، ثم يهبط مرة أخرى... إلى أن يصبح الصوت خافتاً تماماً، ثم يمشي حول الغرفة صانعاً شكل رقم ثمانية سبع مرات - ثم يرى إن لم يكن هناك شيء ما في المقطع. ويتكرر الموقف نفسه بشكل أوسع بكثير حيث يتخلى كيركغارد عن وصفه للخيالي ويفتح منظوراً مَرَضياً: لا يملك المرء سوى التفكير في آدلر ذارعاً الأرض مكرراً باستمرار الجملة نفسها، ربما مشجعاً تأثير الخيال، يومئ ويغيِّر صوته إلى أن يسحر نفسه إلى نوع من الخدَر حتى إنه يشعر بهمس غريب، مهيب في أذنه. ولكن هذا ليس تفكيراً. وإذا أراد المرء أن يضع نفسه في مزاج وقور ثم يذرع الأرض وهو يقول 7 - 14 - 21؛ 7 - 14 - 21؛ 7 - 14 - 21، فإن هذا التكرار الرتيب سيعمل

بمثابة معادلة سحرية؛ وسيعمل كمفعول المشروب القوي على المصاب بوهن عصبي. وسيبدو له كما لو إنه احتك بشيء استثنائي. وإذا قال له شخص آخر نقل إليه حكمته ولكن ماذا في هذه الـ 7 – 14 – 21؟ – سيجيب على الأرجح إن هذا يعتمد على الصوت الذي تقولها به، وأن تستمر في ترديدها ساعة كاملة، وأن تومئ أثناء ذلك – حينذاك ستجد بكل تأكيد إن هناك شيئاً ما فيها.

كان مينستر أول من لاحظ كيف أن آدلر، من بعض بقايا دراسات فلسفية وبعض القراءات اللاهوتية المتفرقة أنشأ عدة جُمل يكررها المرة تلو الأخرى. ولاحظ كيركغارد الشيء نفسه وزعم بلغة الواثق مما يقوله إنه إذا حُذفت التكرارات في دراسات وأمثلة فإن كتاب آدلر الذي يقع في 573 صفحة لن يكون أكثر من نص صغير طوله ثمانون أو مئة صفحة. وفي الحقيقة إنه جلس وحسب التكرارات في كتاب آدلر دراسات وأمثلة واستطاع أن يقدم المحصلة التالية: في الصفحتين 105 و106 يُطبع المقطع التوراتي ذو السطور الستة نفسه بالكامل ست مرات، والكلمات التي يرفقها آدلر بذلك تتكرر حرفياً في ثلاثة أقوال مأثورة. وبما إن الأقوال المأثورة المنفردة مفصولة عن بعضها البعض بأسطر فارغة فإن هناك خمسة وعشرين سطراً فقط في الصفحة الواحدة.

2 X 25 = 50 سطراً؛ 6 X 6 = 36 سطراً. والكلمات التي يكررها آدلر نفسه حرفياً نحو 3 X 3 = 9 أسطر؛ 9 + 36 = 45 سطراً. النتيجة: 5 أسطر. ومن نهاية الصفحة 121 إلى منتصف الصفحة 123 يُطبع السطر ونصف السطر نفسه حرفياً ثلاث عشرة مرة. وفي الصفحات 137 – 139 يُطبع السطر ونصف السطر نفسه حرفياً سبع عشرة مرة. وأستطيع بسهولة أن أسوق أمثلة حتى أكبر ولكن من المؤكد أن لا حاجة إليها لإقناع القارئ بأن مثل هذا السلوك إنما هو نوع من المرض العقلي أو وقاحة أدبية.

المتعة الحسية للإنتاج

لا يحتاج كيركغارد إلى سوق أمثلة إضافية. فهو أقنع القارئ بأن سلوك آدلر يجب أن يُعزا إلى نوع من المرض العقلي. ولكن من الجهة الأخرى يبقى كيركغارد مديناً للقارئ بتفسير للسبب في أنّه يجد من الضروري أن ينشغل كل الانشغال العميق بآدلر هذا أصلاً. لماذا، رغم كل شيء، ينفق المرء وقتاً على قضية حُسمت منذ زمن طويل تتعلق بقس مشوّش الذهن، من الدرجة الثانية،

قدَّم تأكيدات عن رسالته السماوية وزعم إن وحياً شخصياً نزل عليه لكنه على الأرجح لم يكن إلا مشعوذاً تصرف تصرفاً أهوج في جزيرة تبعد أميالاً عديدة عن الحضارة؟

الإجابة عن هذا السؤال لا تأتي واضحة على الفور، ولكن الأرجح إن آدلر كان أسير قضيتين مترابطتين ارتباطاً وثيقاً بينهما استأثرتا باهتمام كيركغارد منذ زمن طويل. إحداهما قضية المرجعية أو التخويل والأخرى قضية الوحي أو التنزيل. وكلا القضيتين مركزيتان في كتابه الخوف والرعدة، وكان كيركغارد يشتغل على مخطوطة ذلك العمل عندما نشر آدلر ادعاءه بنزول وحي شخصي عليه. واعترف كيركغارد بلا تردد قائلاً لا أستطيع أن أنكر إنني فوجئت عندما... سمعتُ إن الماجستير آدلر طلع بادعاء نزول الوحي عليه. ولكنه بعد ذلك مباشرة كشَّر مضيفاً: حين سمعتُ بذلك فكرتُ في الآتي - فكرتُ إما إن هذا رجل نحتاجه، إنه المختار، الذي بأصالته الإلهية يمتلك الينابيع المطلوبة لإنعاش تربة المسيحية المنهكة أو إنه... مهرج جاهل.

لكن هذا لم يكن تفسيراً كاملاً لاهتمامه بآدلر، والمخطوطة تتضمن كذلك عدداً من الأسباب والتوقعات غير الرسمية. ولأول مرة نعبر بكل بساطة عن ظنوننا بتقديم هذه الفرضية: أليس من الجائز إن كيركغارد اكتشف في آدلر، إن لم يكن نفسه هو، ففي كل الأحوال جوانب معينة من نفسه لم يكن يرغب في تعريتها؟ هل كان كيركغارد يعرف حقاً من خبرته الخاصة إن الوحي الذي نزل على آدلر لم يمت بأي صلة إلى الوحي ولكن شيئاً آخر يختلف تماماً كان له دور، شيئاً لم يكن كيركغارد يستطيع الحديث عنه دون أن يكشف سره هو؟

يستشف القارئ إجابة في خاتمة الفصل الثالث من الكتاب الذي يتحدث عن آدلر حيث يشرح كيركغارد إنه إذا كان المرء يريد أن يحدِّد عبقرية آدلر بصورة كاملة وأساسية، سيتعين عليه أن يقول إنها دَوَار. وإذ اعترف كيركغارد بأن مفردة دَوار قد تبدو غريبة فإنه مضى أبعد في شرح موقفه: أشارت الفيزيولوجيا بصورة صحيحة إلى أن الدَوار يحدث عندما لا تكون للعينين نقطة ثابتة تقعان عليها. وهكذا يصاب المرء بالدَوار لدى النظر إلى أسفل من برج عال لأنه عندما تسقط النظرة إلى تحت لا تجد تخوماً أو حدوداً. ولسبب مماثل يصاب المرء بالدوار في البحر لأن كل شيء يتغير باستمرار حيث مرة أخرى لا تكون

هناك تخوم أو حدود. من الواضح إن كيركغارد مطّلع على مفهوم القلق الذي يطرح فيه فيغليوس هاوفنينسيس تعريفات مماثلة ولكن كيركغارد لم يخجل من تكرار كلمات صنوه صاحب الاسم المستعار: ما يُصيب المرء بالدوار الواسع، اللامتناهي، اللامحدود، اللا محدَّد، والدوار نفسه، هو افتقار الحواس إلى الانضباط. واللاتحديد هو أساس الدوار، لكنه أيضاً الإغراء بالاستسلام إليه لأنه في حين إن اللاتحديد يتعارض بكل تأكيد مع الطبيعة البشرية... فإن اللاتحديد لأنه يتعارض مع الطبيعة البشرية على وجه التحديد، يكون مغرياً كذلك. وهكذا يتضمن ديالكتيك الدوار في داخله هذا التناقض: إن المرء يريد ما لا يريده، ما يرتعد منه، في حين إن هذه الرعدة لا تفعل سوى ردعه - بطريقة مغرية.

توضيح كيركغارد للدوار وديالكتيكه يُراد به أن يخدم غرضاً سجالياً، ولكنه يخفق في ذلك إلى حد ما. والحق إن آدلر لم يكتب بهذه الطريقة المدوُّخة بلا حدود ولكن هذا هو التأثير الذي مارسه على كيركغارد!

ويقول كيركغارد قرب بداية مخطوطته تماماً إن آدلر مؤلف لامع - مدوِّخ ثم يبدو رجل الحركة، وبعد ذلك يصبح عصا خلاطة، وطوال الوقت يُوصف عمله بأنه إنتاج مبعثر في كل مكان ومزيج ملخبط. وإن إصرار كيركغارد على الطول العشوائي للكتب، يوازي اللاتحديد الذي يشكل أساس الدوار على وجه التحديد. ذلك إن كتب آدلر نوع غريب من الإنتاج، تكاد تكون نوعاً معذَّباً من الإنتاج، كما يشرح كيركغارد الذي لمس كيف أن كتابات آدلر تنهال بعنف تقريباً على القارئ - فهي، بطريقة ما، تهاجم القارئ بفوراتها. وهذا التقييم لتأثير آدلر في القارئ يفرض على كيركغارد أن يراجع تعليقاته النقدية عن أهمية آدلر ككاتب: ما أشرتُ إليه في مدخل هذا الكتاب على أنه قُصور آدلر ككاتب، الذي لا يجعله كاتباً من حيث الأساس - وهو إنه يقترب اقتراباً شديداً من الواقع الفعلي - إنما هو من جانب آخر استحقاقه. فرغم إنه مشوش تماماً في الوقت الحاضر لكنه لهذا السبب تحديداً قادر على إحداث تأثير أو دفع، قادر على التأثير في القارئ. وهذا ما يفعله في الحقيقة. وهكذا أثر آدلر في كيركغارد الذي، في عدد من النقاط، ينسى تماماً اعتراضاته ويستسلم بكل بساطة: بأسلوبه هناك... أحياناً غليان غنائي يكاد أن يكون مسموعاً، رغم ما فيه من عيب من وجهة النظر الجمالية فإنه مع ذلك قادر على استثارة القارئ. المرء لا يغفو حين

يقرأه، ولا ذهنه يشرد بل الأرجح أن يصبح نافد الصبر لأن أحداً اقترب بهذا القدر من آلية المرء الفعلية برمتها.

قراءة آدلر أصابت كيركغارد بالدوار، ولكن لماذا؟ لأن التردد النفسي كان، على غرار مثيله الجمالي، كاريكاتيراً - أي إن الشبه يتكون على وجه التحديد من التشابه وعدم التشابه! بكلمات أخرى، إن كيركغارد تعرف على تكراراته هو، على نشوته في الكتابة، المتعة الحسية للإنتاج. وأُصيب بالدوار لأنه في ذلك الرجل المشوش، في تلك العصا الخلاّطة، رأى نفسه معجونة أحياناً في شكل غريب، بسمات دمثة ويمكن التعرف عليها في بعض الأحيان، لكنها في أغلب الأحيان منَفِّرة في كل ما بها من شبه. وما تحققه استعارات كيركغارد بصورة غير مباشرة يحققه هو نفسه بصورة مباشرة في مكان آخر. وفي الصفحة ما قبل الأخيرة من الفصل الثالث يرفع الستار بما فيه الكفاية لإعطائنا اللمحة التي نحتاجها. وهنا يؤكد مجدداً إنه أفاد من كتابات آدلر لغرض محدَّد تماماً: إذا أردتُ التعامل معها من الناحية الجمالية المحضة وبطريقة مباشرة سأبيح لنفسي متعة الاعتراف، رسمياً قدر الإمكان، بأن المرء، في حكمي، يستطيع في الحقيقة أن يتعلم شيئاً منها - أو للتعبير عما أُريد بدقة كاملة، إني فعلاً تعلمتُ شيئاً أو شيئين منها. وما تعلّمه - بل ما تعلَّمه فعلاً - يبقى سراً. ولكن كيركغارد كتب إنه رغم إن كاتب مراجعات يمكن أحياناً أن يوصي للجمهور بعمل قيد المراجعة حتى عندما لا يكون هو نفسه تعلَّم أي شيء من كاتب العمل، فإن الموقف في الحالة الراهنة يكاد أن يكون عكس ذلك: ما لا شك فيه - من دون شروط - إن غالبية الأشخاص لن يحصدوا إلا الأذى من قراءة كتابات آدلر لأنه يسبب بلبلة كاملة. ولكن الشخص الذي يمتلك ما لا يملكه آدلر - الوضوح الديالكتيكي عن المجالات [المنفردة] وعن الشمولية - يكون هو وحده ولا أحد سواه قادراً بحق على تعلُّم شيء من لفظة واحدة لماحة، حيوية، تثقيفية، مؤثرة وأحياناً عميقة. وبلغة بسيطة (صحيح مع قدر من القراءة بين السطور) فإن كيركغارد يذهب هنا إلى أنه كان صاحب امتياز القدرة على فهم آدلر، وإنه يعرف شيئاً لا يعرفه الآخرون، هو وحده ولا أحد سواه، تعلَّم شيئاً ليس لدى الآخرين أساس لفهمه.

لكن كتّاب مراجعات آخرين أدوا مهمتهم بطريقة مباشرة. وهكذا في تموز/ يوليو 1846 كتب فريدريك هلفيغ Frederik Helveg قطعة طويلة في صحيفة

أزمنة الكنيسة الدنماركية راجع فيها كتب آدلر الأربعة الأخيرة مقارناً إياها مع – عمل كيركغارد. ولاحظ هلفيغ، كما ينبغي، وجود تعارض بين الكاتبين لكنه وجد أيضاً تشابهاً لافتاً... في نقاط معينة. وكان هذا واضحاً بصفة خاصة في الجوانب المتعلقة بالأسلوب.

كان كيركغارد في غمره العمل على تأليف كتابه عن آدلر عندما نُشرت مراجعة هلفيغ، وقرأها على الفور. وأزعجه أن يُقارَن مع آدلر، ولا سيّما وإنه يرى إن التشابه الذي ذكره هلفيغ يعود حصراً إلى حقيقة إن آدلر سرق أسماءه المستعارة، وخاصة فراتر تاسيتيرنس الذي لم يفعل آدلر سوى إنه أضاف إلى شكله الأسلوبي ضراوة فوضوية وغير فنية. وكان هذا صحيحاً وغير صحيح في آن واحد. فإن كتابات آدلر قبل عام 1843 تمسكت بأسلوب أكاديمي جاف، سجالي في أحيان كثيرة لكنه ليس أنيقاً بالمرة في حين إن كتاباته بعد عام 1843 جاءت بأسلوب الأقوال المأثورة وغنية على غير المعتاد بالاستعارات. والمعروف أن آدلر قرأ عن مفهوم المفارقة و«إما/ أو» ومفهوم القلق وشذرات فلسفية وعلى ما يُفترض حاشية ختامية أيضاً، ولكن ارتياب كيركغارد بأن آدلر بكل بساطة سرق منه ارتياب غير مبرَّر على الأرجح، حتى إذا كان السبب الوحيد لذلك هو تواريخ نشر الأعمال ذات العلاقة.

إذا شعر كيركغارد مع ذلك إنه ضحية سرقة أدبية فلأنه كان يستطيع التعرف على أسلوبه في أسلوب آدلر. وبالتالي فإن مما يكشف الكثير إن كيركغارد، في تخطيطاته الأولى لكتابه عن آدلر التي أُنجزت قبل أن تُنشر مراجعة هلفيغ، كان إيجابياً في تقييم آدلر على أنه كاتب أسلوبي أكثر بكثير من تقييمه له بعد ظهور المراجعة. إذ كتب كيركغارد قبل نشر المراجعة إن آدلر لا يخلو من الغنائية واللباقة الأسلوبية، وليس من دون عمق وإنه يستطيع تقريباً أن يضمن إن آدلر لم يبذل أي مجهود لربط نفسه بأسماء مستعارة. وبعد ظهور المراجعة كان لدى كيركغارد الرأي المعاكس: إنه أخذ التدفق الغنائي لأسلوبه من الأسماء المستعارة. ولم يكن لديه ذلك من قبل، ليس في كتابه بضع مواعظ. وما نُشر في صحيفة أزمنة الكنيسة الدنماركية ليس صحيحاً، وهو إنه والأسماء المستعارة متزامنان تقريباً لأنه جاء بعدها، وهذا أمر حاسم جداً.

رغم كل الاختلافات الأسلوبية بين الاثنين كان هناك رمز خطابي محدَّد

جداً لدى كلاهما تولع لافت به، يقرب أحياناً في حالة آدلر من التولع المَرَضي. وهذا الرمز الخطابي هو التكرار. ولاحظ كيركغارد هذه الظاهرة في آدلر في وقت مبكر جداً، وجمع تكرارات آدلر مقترحاً تحديده الحازم لما يعتبره تواتراً مسموحاً به للتكرار الذي يمارسه الكاتب. بتساهل غير اعتيادي، يمكن أن يجيز المرء للكاتب أن يكرر كلماته مرتين أو في أقصى الأحوال ثلاث مرات في الكتاب الواحد. وتبين تكرارات كيركغارد نفسه على نحو لا يتطرق إليه الشك إنه يبالغ في صرامته. وحقيقة إنه أعاد اشتغال مادته وبذلك أخذ يكرر مخطوطة الكتاب عن آدلر إنما هي مفارقة بحد ذاتها، ولكن في تلك المخطوطة نفسها أيضاً كرر نفسه - ليس في الفصلين الأولين اللذين أفرد فيهما مقاطع طويلة لإعادة تدوير القضايا التي تناولها في الخوف والرعدة وشذرات فلسفية وحاشية ختامية فحسب بل أيضاً - وبمنطق متناقض غريب - في الفصل ذاته الذي ينتقد فيه آدلر على تكراراته. وهكذا في الصفحة 105 كرر حرفيا ما لا يقل عن خمسة سطور من رد آدلر الأول الذي كرره بصيغة مختصرة قليلاً في الصفحة 112. ومارس التكرار نفسه في الصفحة 117 بالارتباط مع رد آدلر الثاني الذي تُنقَل منه سبعة سطور، وتتكرر خمسة من هذه السطور بدورها، حرفياً، في الصفحة 118. وتظهر كلمة مشوش ست عشرة مرة، ومفردة تشوُّش تسع عشرة مرة، وتظهر كلمة مختَلَط بأشكال مختلفة سبع عشرة مرة. وعلى الغرار نفسه يكرر كيركغارد في أحيان كثيرة استعاراته. وهكذا يستخدم نجم قطبي مرتين بين ست صفحات فقط، كاستعارة لثبات المفارقة كما يتكرر أحد المعاني المجازية بالارتباط مع كلمة دَواة مرتين في أقل من صفحتين. كما إن بي. إيل. مولر، في مراجعته كتاب مراحل على طريق الحياة، خصَّ بالذكر كلمات تكرارات وحفريات ذاتية على وجه التحديد بوصفها السمات الأسلوبية السائدة في كتابة كيركغارد، في حين إن مولر أكد في مراجعته كتاب حاشية ختامية إن العمل مشغول عضوياً بطريقة ركيكة بحيث إنه حتى في أفضل الأحوال لن يجد مكانه إلا تحت عنوان «أدب الفوضى». وكان هذا يعادل بقدر يزيد أو يقل وصف كيركغارد بما قاله كيركغارد نفسه المرة تلو الأخرى في وصف آدلر: مشوَّش!

كانت الرغبة في الكتابة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بهذا التكرار وربما كانت سببه. وفي حالة آدلر كانت هذه الرغبة قوية حتى إنها كانت تقرب من الرغبة القهرية

في الكتابة. إذ كان آدلر يكتب كل شيء يخطر بباله، وحتى فعل الكتابة كان يضعه في حالة ذهنية من الانتشاء كانت في جذرها ذات إيقاع إيروتيكي تقريباً. وأصبح القلم عضواً يستزف الشخص الذي يكتب به. وما كان هذا ليبدو غريباً على كيركغارد لأنه هو نفسه في الحقيقة كان في أحيان كثيرة يذكر رغبته التي لا تُقاوَم في الكتابة. وهكذا كشف لابن أُخته هنريك لوند قائلاً: ما أن يكون بيدي قلم على ورقة بيضاء حتى أخاطر بالكتابة والاستمرار بالكتابة عليها دون توقف. وأعلن لابنة عمه جولي تومسن بكل صراحة إن الحقيقة هي إني حقاً مغرم بصحبة قلمي. وقد يقول أحدهم «إن هذا شيء بائس تمنحه حبك». ربما! فالأمر ليس كما لو إني دائماً سعيد بذلك. فأحياناً أرميه بغضب. أوه، ولكن هذا الغضب ذاته يجعل من الواضح لي، مرة أخرى، إني حقاً مغرم به. وعلى الغرار نفسه تحدث كيركغارد كيف يستطيع أن يجلس (يجد المرء من المغري أن يقول جلسة كاتب مقدَّمات حقيقي) ضائعاً تماماً في إنتاجيتي الكسول، التي أنتجتُ وأنتجتُ فيها (وبمعنى ما إنتاجاً رائعاً) لكنني لم أتكرم بالتفكير في النشر.

من الواضح إن آدلر وكيركغارد كانا يشتركان بخبرات فنية واحدة. فهل كانا يشتركان بمصير طبي واحد؟

هوس الكتابة

في نحو عام 400 قبل الميلاد كتب أبو الطب، هيبوقراط المولود في جزيرة كوس، وعدد من زملائه عن المرض المقدس. ويتضمن العنوان نفسه سجالاً ضد النظرة التي كانت سائدة وقتذاك إلى المرض وهي إن المرض إلهي لأنه شديد الغرابة يفعل بالبشر ما لا يقدر على أن يفعله إلا الآلهة. ولاحظ مراقبون خائفون كيف أن المرض، عندما يشتد، يمكن أن يمسك الشخص ويطرحه أرضاً بعد أن قهرته التشنجات. ولذلك سُمي المرض بكلمة لهذه النوبة هي الصرع.

لم يصبر هيبوقراط وأتباعه طويلاً على التفسير الميتافيزيقي قائلين بدلاً من ذلك إن سبب الصرع هو تجمُّع البلغم أو المخاط في الدماغ. وكانوا مخطئين بهذا الشأن، وتفسيرهم لا يقل سذاجة عن التفسير الذي رفضوه، ولكن مساهمتهم كانت الإشارة إلى الدماغ بوصفه أصل الداء.

بيد إن التفسير العصبي - الفيزيولوجي لم يلق تأييداً يُذكر طيلة قرون

عديدة، وبقي المرض غامضاً ويرتبط بشياطين. وخلال القرون الوسطى كان يُنظر إلى الصرع على أنه مس خارق للطبيعة، إما إلهي أو شيطاني، ولكن هذا الثاني بصفة خاصة. وفي الحقيقة كان الصرع من البلايا التي دعا لوثر إلى استنزالها على الكنيسة الكاثوليكية. ولم يلق التشخيص اليهبوقراطي اهتماماً طبياً مرة أخرى إلا في مرحلة متأخرة من عصر النهضة الذي كان، بالطبع، يسترجع من نواحي عديدة الحقبة الكلاسيكية، وجُرِّد المرض إلى حد ما من ميثولوجيته. وهو يُعد اليوم بالدرجة الرئيسية، إن لم يكن حصراً، من الاضطرابات العصبية - الفيزيولوجية، ولكن المرض لم يفقد تماماً جذوره الميتافيزيقية التي يمكن أن نراها في الهالة التي تحيط بشخصيات كثيراً ما تُخَص بالذكر في توصيفات الصرع - المصروعون العظام، إذا جاز التعبير: موسى، القديس بولس، قيصر، كاليغولا، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة تشارلس الخامس، فلوبير، دوستويفسكي، وفان كوخ.

سبب الصرع عدد من الاضطرابات المختلفة في الدماغ ولذلك تتبدى هذه بعدة أشكال مختلفة. ويُسمى الصرع الناجم عن الفص الصدغي من الدماغ صرع الفص الصدغي. وتتسم النوبات بأعراض نفسية وجسدية ولكنها يمكن أن تكون نفسية حصراً، كما على سبيل المثال في معايشة ذكرى معينة أو عاطفة حادة، تكون في أحيان كثيرة مثقلة بالقلق. كما يمكن أن ترتدي النوبة شكل إحساس بهناء متسامٍ. ومن بين هذه الأمثلة ليس هناك مثال واحد لا ينطبق على كيركغارد.

الأكثر من ذلك إن الأبحاث الحديثة أظهرت أيضاً إن بعض المرضى المصابين بصرع الفص الصدغي مسكونون عملياً برغبة في الكتابة. وبلغة تقنية فإنهم مصابون بهوس الكتابة ويعانون من الرغبة العارمة في الكتابة. ومن الأعراض السلوكية الأخرى المرتبطة بالرغبة العارمة في الكتابة اهتمام زائد بالمواضيع الفلسفية والأخلاقية، وضعف الرغبة الجنسية، الذي يقترن أحياناً بتغيرات في السلوك الجنسي، والنزق، والاستطراد، والإصرار على تسلسل ما للأفكار (مواصلة قهرية تكون، في أحيان كثيرة، تكراراً)، واللزوجة، قدر من دبق البَشَرة. ومن نواحي أخرى فإن المصابين بصرع الفص الصدغي يعملون بصورة جيدة.

هل كان أدولف بيتر آدلر مصاباً بالصرع؟ العديد من الأعراض تجعله تشخيصاً موحياً، ولكن هذا التشخيص كان في أقصى الأحوال يُشار إليه تلميحاً، ولم يكن تشخيصاً أُجري فعلاً. وعلى سبيل المثال في أواخر أيلول/ سبتمبر 1855 كتب فريدريك هلفيغ الآتي في صحيفة أزمنة الكنيسة الدنماركية عن تسمية آدلر بالنبي: إنه لم يَرَ شيئاً، ولكن من خلال حواسه (وبالتحديد حاسة الشم)، وسمعه بصفة خاصة، نشأ لديه انطباع، ونهض من سريره (الوحي نزل في الليل) ثم في البقعة ذاتها، وعملاً بما أُملي عليه، كتبَ الكلمات التي تشكل مضمون التنزيل. والخبرة الشمّية التي يشير إليها هلفيغ هي ظاهرة سُجلت بين مرضى مصابين بصرع الفص الصدغي وسببها على ما يُفترض تلف في الجزء القاعدي من الفص الصدغي. وكتب هلفيغ الذي كان يعرف آدلر شخصياً مقاله بعنوان موازاة بين نبيين - أي آدلر وكيركغارد. وكانت الموازاة تتعلق بانتقاداتهما للكنيسة التي تشبه بعضها البعض من نواحي عديدة - ولكن أليس من الجائز إن النبيين آدلر وكيركغارد كانا يشبهان أحدهما الآخر من نواحي أخرى أيضاً؟

أو، بتعبير آخر: هل يمكن تشخيص الصرع، وبتحديد أكثر صرع الفص الصدغي، في حالة كيركغارد أيضاً؟ هل يمكن أن يُعزا انشغاله بآدلر - الذي يقرب أحياناً من الهوس الأحادي - إلى حقيقة تعرفه على بعض عيوبه النفسية - الجسدية في آدلر لكنه، بخلاف آدلر، ما كان ليحلم بترجمة النوبات دينياً وتأويلها على أنها وحي؟ هل كان كتابه عن آدلر ربما نوعاً من التواصل غير المباشر مع آدلر عن الوضع؟ أم إن كيركغارد لاحظ في آدلر سلسلة من الأعراض التي كان يعرفها بالفعل ولكن لم يكن عنده اسم لها؟ يبدو أكثر من مصادفة إن يوستينوس كيرنر Justinus Kerner نفسه الذي قرأ كيركغارد بارتعاد حكاياته عن أشخاص لهم بدائل شبيهة، هو الذي أوضح إن الظواهر التي وصفها ترتبط بالصرع. لماذا تحدث كيركغارد عن المتعة الحسية للإنتاج ولماذا ظن إن آدلر يكون في حالة انتشاء عندما يكتب؟ هل كان يُسقِط خبراته هو عليه؟ هل فسَّر كيركغارد أعراض المرض تفسيراً خاطئاً، كما فعل آدلر؟ أم إنه كان يفكر في هذا المرض ذاته عام 1848 عندما كتب في فقرة من يومياته إن الناس في المستقبل سيدرسون حياته وما سماه السر المُثير للماكينة كلها؟ وأي خبرات سوى خبرات شخص مصاب بالصرع، تشكل الأساس لفقرة في اليوميات كهذه الفقرة من عام 1849: أحياناً، في لحظة يأس يخطر ببالي إن المسيح لم يُمتَحن

في معاناة المرض، ولا سيّما في المعاناة الأشد إيلاما حيث يتلامس النفسي والجسدي مع أحدهما الآخر تلامساً ديالكتيكياً؟

ليس كل من يركض عارياً في شوارع المدينة أرخميدس. وليس كل من قطع أُذنه فإن كوخ. وليس كل مصاب بصرع الفص الصدغي سورين كيركغارد! ومع ذلك هناك أسئلة كثيرة، وكيركغارد أخذ غالبية الإجابات معه إلى القبر. ولكننا لم نُترَك خالي الوفاض بالكامل. صحيح إن كلمة صرع لا ترد في أي موضع من يوميات كيركغارد، والمرة الوحيدة التي ذكرها في كل أعماله المنشورة كانت بمعنى اشتقاقي واستعاري - تماماً كما يحدث عندما يتلفظ لسان مصروع الكلمة الخطأ. ولكن، أولاً، إن هذا الغياب يمكن بحد ذاته أن يكون دليلاً، وثانياً، إن عدداً من معاصري كيركغارد أعربوا عن ظنونهم بطريقة أكثر صراحة. وكتب سيبَّرن في رسالة إلى ابنته أوغستا بتاريخ 3 تشرين الأول/ أكتوبر 1863: قال أشخاص إنه مات مشلولاً في نصفه الأسفل بسبب الصرع دون شك. ولكن الصرع يمكن أن يضع النفس في حالة انتشاء عالية. ولم يكن سيبَّرن مصيباً في افتراضه إن شلل النصف الأسفل كان بسبب الصرع، ولكن في كل الأحوال إن أشخاصاً (سيبَّرن نفسه؟) أشاروا إلى أن كيركغارد كان مصاباً بالصرع، الأمر الذي يتفق تماماً، بحسب سيبَّرن، مع حالة الانتشاء التي كان كيركغارد يمر بها في أحيان كثيرة. ولا يبدو أنّ سيبَّرن كان مخطئاً عندما تحدث، في وصفه هجوم كيركغارد عام 1855 على الكنيسة، عن ذلك الهجوم قائلاً إنه نوبة انتابت كيركغارد. وعاد سيبَّرن في عمله كتابة من سنة 2135 إلى القضية زاعماً إن اختلالاً جسدياً، أو مرضاً، كما يُسمى الآن، وضع الروح في حالة اضطراب وتشوش.

القس تيخو إي. سبانغ الذي كان كيركغارد يزور والديه أحياناً، أعطى الرواية التالية، التي يبدو أنّها تسند إلى حد ما تصريح سيبَّرن التشخيصي: جسمه كان معتلاً لكنه مستدام بقوة روحية هائلة. قيل لنا إنه كان في أحيان كثيرة يتعرض إلى نوبات قوية من علاته حين كان مع غيودفاد حتى إنه كان يسقط أرضاً، لكنه كان يكافح الألم بقبضتين مشدودتين وعضلات متوترة ثم يلتقط خيط النقاش المقطوع مرة أخرى، وكان كثيراً ما يقول «لا تكشفوا هذا. ما جدوى أن يعرف الناس ما يجب أن أتحمله»؟ وذكر إسرائيل ليفن واقعة مماثلة، أيضاً في منزل غيودفاد: جلس كيركغارد ذات مساء على الأريكة وكان مرحاً، هازلاً وساحراً.

ثم سقط من الأريكة، وساعدناه على النهوض. «أووه، دعوني أـأ - أ - أستلقي هنا إلى أن تكنس الفتاة في الصباح»، كما تمتم ولكن أُغمي عليه بعد فترة قصيرة.

هل من الجائز إن التشنجات التي ماتت بها شقيقته الكبرى مارين كيرستن كانت في الحقيقة نوبة صرع عنيفة أنهت أربع سنوات من المرض؟

راد. فاريرياني Rad. Valerianae

التعليقات السائبة والحوادث المتقطعة لا يمكن بحد ذاتها أن تثبت إن كيركغارد كان مصاباً بالصرع، ولكنها، بوصفها الدليل الوحيد على حالته الجسدية الشاذة، لا يمكن تجاهلها. وينبغي التفكير فيما إذا كانت رغبته التي كثيراً ما عبر عنها في تفادي زج الآخرين في هذه الوقائع المؤلمة ينبغي أن تعتبر دليلاً غير مباشر على أننا أصبحنا هنا نقف، إن جاز التعبير، وجهاً لوجه أمام كتابة هيروغليفية تشكل رسالة سرية من كيركغارد. ولكن من المفهوم تماماً في كل الأحوال إن كيركغارد كان يريد التعامل مع القضية بقدر من الحيطة. إذ كان يُنظر إلى الصرع على أنه شيء معيب ويؤدي إلى إدانة قانونية واجتماعية على السواء. وبناء على ذلك، يعلن القانون الدنماركي الصادر عن الملك كريستيان الخامس عام 1683 تحت باب أسباب يجوز فصل المخطوبين على أساسها، ما يلي: إذا كان لدى أي شخص قبل الخطوبة أي مرض مخفي مثل البرص أو مرض السقوط أو مرض معدي أو بغيض كهذا، ولم يَكشف عنه، يجوز له أو لها فسخ الخطوبة إذا رغب أو رغبت في ذلك. ولكن إذا حدث مرض كهذا أو داء آخر بعد الخطوبة، فإن فترة معينة من الوقت ستُحدَّد يستطيع المرء أن يطلب مشورة خلالها عما إذا كان من الممكن مساعدة الشخص المريض. وإذا لم تكن مساعدته ممكنة يجوز فسخ الخطوبة حسب الرغبة.

كان مرض السقوط يُعد مرضاً ينتمي إلى فئة تغطي البرص وغيره من الأمراض اللعينة بينها السفلس مثلاً، وأثر هذا، بالطبع، في الآراء الشائعة عن طابع المرض. ولم يكن طبيب كيركغارد الخاص أولوف لوندت بانغ Oluf Lundt Bang استثناء من هذه الناحية. يجب عدم تشجيع الزواج لأسباب منها الحرص على الذرية، كما أوضح بانغ في عمله دليل العلاج حيث ميَّز بين الصرع الوراثي والصرع المكتَسَب ورأى إن الأول لا علاج له بالمرة. هل من الجائز إن هذا كان بين الأسباب التي من جرائها شعر كيركغارد إن من واجبه أن

يفسخ خطوبته على ريجينة؟ على أية حال، إن التخمينات التي قدمها بانغ بشأن ما يمكن أن يسبب انتشار المرض ستكون أكثر من كافية لإثارة القلق: السبب الأكثر شيوعاً هو كون الشخص خائفاً، الأمر الذي يمكن أن تنقله الأم حتى إلى الجنين، بل حتى في الأحلام. وعموماً فإن جميع الأسباب المعتادة تقريباً يمكن أن تستحثّ انتشاراً أولياً ثم هجمات لاحقة: التعرض إلى هواء فاسد في أماكن تجمع أعداد كبيرة من الأشخاص، والبرد، والاستحمام، والمشروبات المنشِّطة، والملابس الضيقة، والتوتر العصبي، والموسيقى، والفسوق، وخاصة الاستمناء.

وقدم بانغ وصفاً دراماتيكياً لنوبة صرع. تبدأ النوبة بشعور مثل شعور بالريح، بتيار هوائي، ببرد، يصعد إلى الرأس بعد ذلك يسقط المريض بصرخة حادة في أحيان كثيرة. العينان لا ترمشان، الحدقتان لا تتحركان، الشرايين متوترة، الأنفاس محبوسة، النبض ضعيف، وفقدان الوعي من البداية. بعد هذه المرحلة الكزازية القصيرة تأتي المرحلة التشنجية: تقلصات في كل الأطراف وفي الوجه، زَبَد في الفم، ويكون الزَبَد دامياً في بعض الأحيان بسبب عض اللسان، ويختفي الإبهامان في قبضتين مشدودتين، وتكون العينان نصف المفتوحتين مشوهتين، والوجه تارة أحمر وتارة أخرى شاحباً، ويصبح النبض أقوى وأكثر امتلاء، وبعد فترة غير محدَّدة من الوقت يصبح التنفس أعمق، وتتوقف الحركات العنيفة، ويعود الوعي تدريجياً، وهناك حساسية وألم في تلك الأطراف، التي ضربت أي شيء، وهناك قدر من التيبس والصداع، ولكن بلا ذاكرة للحالة السابقة. كما أشار بانغ إلى أن بالإمكان أن تحدث نوبات أقل حدة وأقصر فترة لكنها من جهة أخرى تكون أكثر تواتراً، عديدة في بعض الأحيان – بل مئة في فترة أربع وعشرين ساعة. ولكن على الغرار نفسه فإن من الجائز ألا تحدث نوبة إلا مرة واحدة. وإذا كان كيركغارد يعاني من صرع الفص الصدغي سيكون من الصعب بالطبع تحديد المرات التي تعرض فيها إلى نوبات قوية. ربما لم تحدث إلا في مناسبة واحدة، لعل فقرة قصيرة في يومياته من عام 1848 تلمِّح إليها: الرد: وا أسفاه، أن يُنقَل المرء إلى ثالث سماء مرة واحدة فقط في زمن حياة كاملة – وأن يحتفظ في ذكراها بشوكة تعيدها وخزتها إلى الذهن ربما عدة مرات كل يوم!

بانغ لم يكن متفائلاً بإمكانية إزالة الأسباب. صحيح إن مشعوذين قدموا الكثير من العلاجات الباطنية – محاليل سرية ذات قوى عجائبية – وآخرين أوصوا بالذهاب إلى مكان الإعدامات وشرب دم أحد المعدومين، ولكن، كما

أوضح بانغ، فإن الأثر النفسي الذي تتركه هو على الأرجح مصدر مفعولها. وكان بانغ نفسه طبيباً سريرياً وذكر عدداً من الأدوية بينها جرعات كبيرة [من rad. Valerianae باللاتينية: جذر نبات الناردين] يؤخذ ما بين 1 إلى 3 [مرات] في اليوم على شكل مسحوق أو محلول، كما كان بانغ يعرف إن الصرع لا يرتبط بأشياء مقيتة حصراً رغم عدم وجود علاقة، في رأيه، بين التكوين الفكري والصرع: إنها على الأرجح مسألة صدفة أن يكون كثير من المشاهير مصابين بالصرع.

ونحن نتساءل إن كان أحد هؤلاء المشاهير جالساً في مكتبه دون أن يشك به، أم إنه كان يعرف حق المعرفة ما يجري؟ مهما يكن من أمر ففي الشطر الأول من عام 1855 عندما زار كيركغارد مستشفى فريدريك الملكي لإجراء فحوص كان في دمه دواء معين: جذر الناردين.

1847

ربما تودّ أن أستمع إلى دماغك ينبض أيضاً؟

كانت أربعينات القرن التاسع عشر العقد الأول لقوة البخار في الدنمارك، وخلال جولات كيركغارد على امتداد أسوار المدينة استطاع أن يرى كيف أن طواحين الهواء انتقلت الواحدة تلو الأخرى إلى رُحى تعمل بقوة البخار. واخترق مصدر الطاقة هذا ذو الكفاءة العالية ضواحي المدينة وأطرافها وسرعان ما اقتحم أسوار المدينة نفسها فانبثقت مداخن المعامل في كل مكان. وأخذ الناس يشكون من الضوضاء ودخان الفحم برائحته الكريهة، ولكن الصناعيين وأذكياء المستثمرين رأوا في ذلك إمكانية للربح السريع، ولم يمر وقت طويل قبل أن تمتلئ المدينة كلها بالدخان والبخار، على طول الطريق من طاحونة مخبز مارستراند الصغيرة لإنتاج الدقيق في شارع سلكيراده إلى معمل بورمايستر الواسع للآلات في كريستيانسهافن.

وكان مشهد المدينة أيضاً يتحول بواسطة نقل جديدة نَحَتَ لها أحدهم اسماً لاتينياً وديموقراطياً هو حافلة عمومية لأن هذه المركبات كانت متاحة للجميع. وكانت أول هذه الحافلات تجرها خيول ولفتت الانتباه إلى نفسها بهيكلها المطلي بألوان براقة مع أسماء جذابة مثل الشمس والسيدة الحمراء والأسد والنسر ونجم الشمال. وكانت الحافلات العمومية الأولى تعمل من أماغيرتروف، وسط المدينة، إلى ضاحية فريدريكسبيرغ القريبة، ولكنها سرعان ما أخذت تصل إلى لينغبي وشارلوتنلوند وحديقة الغزلان.

وخلال هذه السنوات كان القطار البخاري يشق أرضاً جديدة بالمعنى الحرفي للكلمة. ودرس رجل صاحب مبادرة اسمه سورين هيورت Soren Hyorth

العربات البخارية في إنكلترا منذ عام 1834، ولدى عودته إلى الدنمارك بدأ هو ومتحمسون آخرون التخطيط لمد سكة حديد من كوبنهاغن إلى روسكليدة. وأُفتتح الخط في عام 1847 باحتفال كبير حضره الملك. ولفترة طويلة كان هذا المقطع الصغير من السكة الحديد الخط الوحيد في إسكندنافيا وبالتالي كان مَعلَماً سياحياً كبيراً، ولذلك عندما زار المدينة طلاب جامعيون من مدينة أُوباسلا السويدية عام 1852، كانت رحلة بالقطار البخاري إلى فالبي على بعد ثلاثة أميال تقريباً من مركز المدينة، إحدى الملاهي التي يستطيع أهل كوبنهاغن أن يثيروا بها إعجاب أبناء عمومتهم الإسكندنافيين المندهشين.

وتحقق تقدم في الأشياء الصغيرة أيضاً. ففي أوائل أربعينات القرن التاسع عشر استطاع العدد الذي لا يُحصى من كتاب ذلك الزمان أن يحتفلوا بالاستعاضة عن ريشة الكتابة التي تطرطش الحبر بقلم معدني أفضل بكثير من الناحية العملية. وكان القلم المعدني الدنماركي من اختراع صائغ الذهب إتش. سي. تونيسن H. C. Thonnesen الذي أسفر تجريبه المتواصل عن قلم معدني بداخله خزان للحبر، رغم إن هذا الاختراع الذي مهد لقلم الحبر السيال كان ابتكاراً راديكالياً بعض الشيء على زمنه وكانت مبيعاته بطيئة. وأصاب رسام بورتريهات من فيينا اسمه فينينغر Weninger نصيباً أكبر من النجاح حين فتح محله في باحة في شارع بريدغاده. وفيه كان أفراد البورجوازية الكبيرة يستطيعون الجلوس ويجري تصويرهم - أو طباعتهم على ألواح نحاسية مطلية بالفضة كما كان التصوير الفوتوغرافي يُسمى وقتذاك. ومقابل ثمانية ريكسدولارات كان فينينغر يستطيع أن ينتج صورة واضحة بدرجة معقولة في غضون خمس عشرة ثانية. وبعد أشهر قليلة واجه منافسة من دنماركي اسمه آلستروب Alstrup فتح لنفسه محلاً صغيراً في الحديقة الملكية وأخذ ينتج صوراً مقابل خمسة دولارات للصورة الواحدة. وكانت الصور مكلفة لكنها كانت تُنتج على الفور تقريباً. (في عام 1840 عندما أصبح النحات الدنماركي بيرتل تورفالدسن Bertel Thorvaldsen أول دنماركي يخلّد نفسه بهذه الطريقة، تعين على هذا الشيخ العجوز أن يجلس جامداً بشكل مطلق لفترة طويلة – فيما كان يصنع قرنين بإصبع البنصر وإصبع السبابة من يديه اليسرى للتعوذ من عين الكاميرا الشريرة!)

لم يكن من المعهود الابتسام للمصور. وربما لم يكن هناك الكثير مما يبعث

على الابتسام عليه - أو له - لأن العم وجع الأسنان، كما كان هانز كريستيان أندرسن يسمي ألم الضرس، كان زائراً كثير التردد وغير مرحَّب به، والابتسامة العريضة كانت نادرة. وهكذا كان هناك طلب كبير بدأ يلبيه نقَّاش على الخشب اسمه Iversen إيفرسن في عام 1844 عندما قام بتوسيع مهنته لتشمل إنتاج أسنان اصطناعية. واحتج مسؤولو الصحة العامة على هذا المشروع غير المرخص به ولكن إيفرسن تصدى لهم وربح قضيته في المحكمة العليا، وجاء بعده آخرون أرادوا أن يخوضوا مغامرة مع الأسنان الاصطناعية. وكان من بين هؤلاء لارس بيتر بيترسن Lars Peter Petersen الذي مُنح موافقة لزرع أسنان حصان البحر التي لا تكلف إلا أربع ماركات للضرس الواحد وكانت تُغلف بالحرير للتقليل قدر الإمكان من وجع اللثة. ولا يذكر التاريخ كيف كان يبدو مظهر الشخص لدى ترميم فمه بهذا الشكل، ولكن من المستبعد أن يكون هؤلاء الرواد الدنماركيون أصابوا نجاحاً كبيراً لأنه أُذيع بضجة كبيرة في عام 1851 عن تحقيق اختراق مهم حين بدأ الإنكليز ينتجون أسناناً اصطناعية لا تُغرس في نوع من المادة المطاطية الشبيهة باللثة تُسمى الطَبْرَخي gutta-percha فحسب بل ويمكن استخدامها للمضغ أيضاً.

عموماً كان من السهل الحصول على تراخيص لإنتاج كل شيء تحت الشمس ولكن كان هناك، بطبيعة الحال، بعض التردد إزاء طلبات معينة. وهكذا عندما طلب مهندس معماري اسمه هولم Holm أن يُمنح حق احتكار تصنيع آلات يسيُّرها ثقل مادة متدفقة وضغطها لمدة عشرين سنة، طلبت السلطات، بشكل مفهوم تماماً، أن يقدم إليها معلومات إضافية. وهذه كانت الحال أيضاً عندما سعى شخص اسمه مارتنوسن Martinussen إلى تسجيل براءة اختراع آلة شغل باريسية لصيانة الأحذية والألبسة وإزالة البقع. وعلى الغرار نفسه استطاع صيدلاني أن يمر من خرم الإبرة عندما طلب منحه ترخيصاً لاستخراج البارافين والنفط من الجفت، مثلما طُرحت أسئلة جدية على شخص يقطِّر البراندي بعد أن اقترح استخراج الكحول من التربة الليلية. ولكن عندما طلب صانع آلات موافقة على إنتاج شيء غريب مثل منفاخ لنفخ الهواء في العجول والنعاج بعد ذبحها أخذت السلطات نَفساً عميقاً ورفضت الطلب.

كيركغارد أيضاً لم يكن موافقاً على أي من هذا. ورغم إنه نفسه اخترع مضخة هوائية في رسالة الماجستير التي كتبها فإنها كانت آلة روحية وصُممت

بحيث إن سقراط حين يستخدم المقبض، يستطيع أن يُفرِغ أشد السفسطائيين تولعاً بالتفاصيل الصغيرة من الهواء. ولم يفعل كيركغارد الكثير من نواحي أخرى للمساهمة في بناء مجتمع صناعي حديث، الأمر الذي سرعان ما ندم هو نفسه عليه. وهكذا فإنه، حين كان ذات يوم في حدائق فريدريكسبيرغ (أو بالأخرى منغمراً بعمق في كتابة حاشية ختامية غير علمية) جلس (تحت لقب يوهانس كليماكس) يدخن السيجار وهو مستغرق في التفكير، وحاول أن يَجْرِدَ الوضع. فهو لم يعد شاباً تماماً، وكان يقضي الوقت ببعض الدراسات عن هذا الشيء أو ذاك، ولكن لم يكن فيه أي نفع للجنس البشري. وكان هذا يؤلمه لأنه رأى نفسه محاطاً من كل الجوانب بأشخاص حيويين يفعلون كل ما بمقدورهم لجعل الوجود مطاقاً: البعض بمد سكك الحديد والبعض بحافلات عمومية وسفن بخارية، والبعض بالتلغراف، والبعض بمسوحات سهلة الفهم ونشرات موجزة عن كل شيء يستحق أن يُعرف، وأخيراً مانحو العصر الحقيقيون الذين بحكم الفكر يجعلون الوجود الروحي منهجياً أسهل فأسهل، لكنه ذو معنى أكثر فأكثر. وماذا أنتَ فاعل؟ هنا مراجعتي للذات انقطعت لأن سيجاري انتهى وكان عليّ أن أشعل سيجاراً جديداً.

ما أن أشعل كليماكس سيجاراً جديداً حتى خطرت له الفكرة القائلة إن مساهمته في العالم الحديث قد تكون أن يجعلَ كل شيء أصعب فأصعب وبذلك إعطاء الوجود ثقله المفقود. ولهذا الغرض اختار التوكيد على ذاته الصغيرة. صحيح إن هذا كان يعني إلى حد ما جعل الضرورة فضيلة ولكن بما إنه لا يعرف شيئاً عن الصين أو بلاد فارس أو النظام أو التنجيم أو الطب البيطري فهو، لكي يفعل شيئاً على الأقل، سيُكمل قدرة القلم الذي يكتب به على أن يصوِّر تصويراً ملموساً قدر الإمكان الجانب اليومي من الحياة الذي في أحيان كثيرة تماماً يكون مختلفاً عن جانبها يوم الأحد.

هنا صاغ كيركغارد، منتحلاً شخصية كليماكس وبإيماءات تثير الغيظ، انتقالة من الموضوعي والتجريدي إلى الملموس ذاتياً - الانتقالة المعهودة في غالبية كتاباته. وهكذا لا يمكن أن يتطرق الشك إلى أولويات كيركغارد وأين تكمن ولكن هذا لا يعني إنه وقع في الفكرة الساذجة بأن إمكانية أن يصبح المرء امرِئ ذاته لا تمت بصلة إلى المجتمع المحيط، أو التغيرات الحاصلة، بل على العكس فإن العلاقة الوثيقة بين ذات المرء ومحيطه يمكن أن نراها في سلسلة

من فقرات يومياته عام 1847 يعلق فيها على العلم الطبيعي الذي أعطى التقييم التالي لأدائه: من بين سائر العلوم فإن العلم الطبيعي هو البائخ أكثر من سائر العلوم الأخرى، واستمتعتُ بالتفكير في كيف أن شيئاً كان يثير الدهشة يصبح تافهاً سنة تلو أخرى... فأي إثارة أحدثها استخدام السماعة الطبية! قريباً سنصل إلى مرحلة يستخدم فيها كل حلاق سماعة كهذه، وبعد أن ينتهي من حلاقتك، يسألك، «ربما يعجبك سماعة طبية أيضاً؟» ثم سيخترع أحد آخر أداة للاستماع إلى نبض الدماغ. وسيُحدث ذلك إثارة هائلة إلى أن يستطيع كل حلاق أن يستخدمها في غضون خمسين عاماً. ثم في صالون الحلاقة بعد الانتهاء من قص شعرك وحلاقة ذقنك وفحصك بالسماعة الطبية (لأن هذا سيكون أمراً اعتيادياً تماماً) يسألك الحلاق ربما تود أن أستمع إلى دماغك ينبض أيضاً؟».

من الواضح إن كيركغارد ما كان ليرد على سؤال الحلاق بالإيجاب. ورغم إن هذه الصورة التنبؤية تتسم بقدر معين من التسلية فالصحيح أيضاً إن المرح اقترن بإحساس بالمرض بحيث حتى التعابير الوجهية المقلوبة والساخرة لا يمكن أن تخفيه. والسؤال الذي يطرحه كيركغارد على الزبون الذي حُلق وفُحص بالسماعة الطبية حديثاً – إن كان يود أن يستمع أحد إلى نبض دماغه – يردد قبل كل شيء، على ما يبدو، صدى خوفه من إن العلوم الطبيعية ستكون قادرة بصورة متزايدة على انتهاك خصوصية الإنسان وحقه في تقرير مصيره. إذ كان الحلاق في لهفة والقصد من سؤاله أن يقدم خدمة نافعة، ولكنه بدا أقرب إلى التهديد والتطفل. فإن صوت الدماغ ينبض لم يعد شأن الفرد بل يمكن أن تكشفه الآن آلة، جماد يفشي الأسرار. وتحت كل هذه الفكاهة نلاحظ كيركغارد يرتعد من فكرة اختزال الروح إلى تقنية ميكانيكية. وفي هذا التصوير القاسي تنبأ المشهد في دكان الحلاق بالمناظرات الطبية في أزمنة لاحقة حول معايير الحد الأدنى لإطالة حياة الشيء الوحيد الباقي فيها هو نبض الدماغ الخافت منتهى الخفوت.

رأى كيركغارد في تقدم العلوم الطبيعية سلسلة من الميول نحو هيمنة المعرفة العلمية هيمنة تصادر سلطة البشر المشروعة على شخوصهم ذاتها – معرفة كلية القوة تحرم الأقل معرفة من حق أن تكون له أي كلمة في الأمر. ولا تكون المعرفة المتعاظمة مقترنة بالضرورة بزيادة مقابلة في العدالة، كما هو واضح من الفقرة التالية في اليوميات التي تتناوب على النحو المعهود منه بين السخرية والتوكيد على القضايا المبدئية: ستكون العلوم الطبيعية مصدر أشد الانقسامات

مدعاة للأسف - بين البسطاء المؤمنين بكل بساطة، وأهل العلم وأنصاف أهل العلم الذين كانوا ينظرون من خلال عدسة مجهر. وحينذاك لن تعود الأمور كما كانت في السابق، حين كان المرء يستطيع التجرؤ على أبسط الأشياء ولكنها الأسمى متوجهاً بمجاهرة وصراحة إلى كل واحد، إلى جميع الناس بصرف النظر عما إذا كانوا سوداً أو خضراً أو ذوي رؤوس كبيرة أو صغيرة. وسيتعين عليه أولاً أن يرى إن كان لديهم ما يكفي من الأدمغة - للإيمان بالله. ولو كان المسيح يَعلم بالمجهر لعاين به حوارييه أولاً.

هناك يجتر كيركغارد نقدياً قضايا مركزية في فهمه للعلوم الطبيعية: الفجوة بين الخبير وغير الخبير، ونهاية مبدأ المساواة، وتراجع الكلام الواضح وليس آخراً نشوء وضع تعتمد فيه علاقة الفرد بالمسيحية على مؤهلات تقنية وكفاءة مهنية - وهنا مرة أخرى يذكر كيركغارد الدماغ الذي لا يمكن أن تحاكمه إلا تلك القلة من الذين لديهم علم بهذه الأمور. وهكذا بدأت العلوم الطبيعية تحرم الشخص من مصيره سواء أكان هذا المصير مُختاراً بكل بساطة أو مجرد مصير عارض، وبالنظرة الواضحة للنبي المتشائم رأى كيركغارد إنه سيكون هناك وعي ثقافي جديد يتخذ من العلم الطبيعي ديناً له. وللأسباب نفسها وضع كيركغارد نفسه في موقف المعارضة القوية لمستقبل مبتذل يُنحِّي الناس فيه الأشياء جانباً بالإصرار على أن كل شيء هو بجريرة شيء ما أو أحد ما، بجريرة المجتمع أو الظرف المتمثل في كون أدمغتهم صغيرة جداً: لنتخيل أكبر مجرم عاش في كل زمان ولنتخيل أيضاً إنه حين تكون على أنف الفيزيولوجيا نظارات حتى أروع من أي وقت مضى بحيث يمكن أن تفسر أسباب المجرم، تفسر إن الأمر كله مسألة ضرورة طبيعية، وإن دماغه كان صغيراً للغاية، إلخ. يا لهول تلك الحصانة من كل مقاضاة في المستقبل بالمقارنة مع الحكم الذي تصدره المسيحية عليه وهو إن مصيره سيكون جهنم إذا لم يعلن التوبة.

قد يبدو غريباً إن كيركغارد يبدي مثل هذا الازدراء لقدرة الفيزيولوجيا ذات النظارات الرائعة أكثر فأكثر على رؤية ما كان مخفياً في السابق، لأن كيركغارد نفسه زود فيغليوس هاوفنيسيس بنظارات مماثلة مكّنته من تمحيص عدد من الصراعات النفسية - الجسدية التي كان كيركغارد يشعر بها بالمعنى الحرفي للكلمة داخل جسمه.

هذا التناقض الحاد بين الفيزيولوجيا والمسيحية يجب أن يُعزا، إلى حد ما، إلى إحساس كيركغارد الواضح جداً بأن العلم الطبيعي أراد أن يجعل التفسير مطابقاً للتبرئة، والتشخيص مطابقاً للمحاكمة: في النهاية ستتوسع الفيزيولوجيا بحيث تضم إليها الأخلاق بل هناك من الآن علائم محاولة جديدة للتعامل مع الأخلاق على أنها فيزياء بحيث تصبح الأخلاق كلها وهماً، وسيُعامل الجانب الأخلاقي للجنس البشري إحصائياً، بوصفه مسألة أرقام متوسطة... ما الذي أحتاج إلى معرفته عن النبضات العصبية الواردة والصادرة، عن الدورة الدموية، عن الحالة المجهرية لكائن بشري في الرحم؟ فما هو أخلاقي يلقي على عاتقي ما يكفي من المهمات. هل أحتاج إلى أن أعرف كيف تجري عملية الهضم لأكون قادراً على الأكل؟ أو عن عمليات الجهاز العصبي – للإيمان بالله وحب البشرية؟

كيركغارد لم يعتقد أنّه بحاجة إلى أن يعرف عن النبضات العصبية الواردة والصادرة وفي الحقيقة أنه لم يكن يعرف الكثير عن هذه الظواهر. وعندما كان يلتفت إلى مثل هذه المفاهيم فإن ذلك كان للإشارة، من بين أشياء أخرى، إلى الطريقة التي كان من الجائز أن يكون للعلوم الطبيعية بها تأثير استلابي بسبب لغتها ذاتها بكل بساطة. وتُرجم التذمر الذي كانت هذه اللغة تستثيره إلى تعليقات استخفافية على الانشغال المحموم للباحث الحديث: ما من فائدة على الإطلاق يمكن أن تُجنى من تورط المرء في العلوم الطبيعية. فالمرء يقف هناك أعزل، بلا سيطرة على أي شيء. ويبدأ الباحث على الفور إلهاء المرء بتفاصيله: الآن يذهب المرء إلى أستراليا، والآن إلى القمر، والآن داخل كهف تحت الأرض، والآن، بحق الشيطان، في الشرج – للبحث عن دودة معوية، والآن يجب استخدام التلسكوب، والآن المجهر: مَنْ، بحق الشيطان، يستطيع أن يطيق ذلك!

كيركغارد لم يستطع أن يطيق ذلك، ومن هنا احتجاجه. وفي فقرة من يومياته عام 1851 جرى توكيد الأزمة والاتجاه نحو الصِدام بطريقة حتى أشد تحديداً: فكرتي هي إننا يجب أن نحدد مسارنا باتجاه الوجودي، فإلى هذا نحو سائرون وبالتالي لا يستطيع المرء أن يستخدم العلم لمكافحة الانشغال بالعلم الذي يتخم الشخص (كما يقولون عن الطعام). ويجب استخدام السخرية، السخرية التي تخاف الله. ويبدو أنّ إمكانية الحوار نُبذت بشكل لا يقبل اللبس. فالمرء

لا يستطيع أن يكافح العلم الطبيعي بشروطه هو، بل يجب خوض المعركة على أرض أخرى بواسطة السخرية التي تخاف الله. ولم ينم عن كيركغارد ما يمكن أن تتألف منه هذه السخرية ولكن فقرة سابقة في اليوميات تعطينا فكرة ملموسة تماماً عما كان يجول في ذهنه. وهنا لدينا مسودة كوميديا تتضمن الآتي: كان اليوم يوم السوق للسفسطائيين، وفي هذا اليوم جاء كل واحد وفتح كُشكَه. وتوافد كثير من الفضوليين على المكان. نسمع ثلاث نفخات من مزمار ثم يأتي بشير متقدماً عربة نصر من نوع ما يقف فيها العالِم الكبير. وينادي البشير، «هنا نستطيع أن نبين بالضرورة كيف سيكون هناك في غضون 1000 عام فلكي إسباني سيتنبأ، كحقيقة لازمة، بأن نجماً جديداً سيظهر في غضون 1000 عام. وحقيقة وجوده يمكن إثباتها تأملياً لكنه نجم بعيد بحيث إن ذلك يستغرق وقتاً طويلاً. كما إن هذا العرض المتميز، سيداتي وسادتي، متميز لأن صاحب الجلالة ملك فرنسا سمح لنفسه أن يقتنع به وأعلن إنه أغرب شيء سمع به – والبابا أيضاً» ويمكن أن تنتهي القطعة بتمرد مجموعة من العمال الذين يطوحون بكل الأكشاك ويحطمون كل شيء. هذا ما حدث: رجل اخترع مجهراً عملاقاً يتفوق على كل شيء مهم معروف، سواء أَنظَرَ المرء إلى المجهر نفسه أو نظر من خلاله. ولكن جهازاً هائلاً كان ضرورياً لذلك، وجرى العمل عليه ستة أشهر بثمن باهظ. وكانت لم تزل هناك ثلاثة أشهر من العمل المتبقي لإنجازه. ولكن ماذا حدث؟ في ذلك اليوم وصلت أنباء من الصين بأنه في ذلك اليوم نفسه (لأن الاتصالات ستكون بلغت سرعة مدهشة نتيجة العديد من الاكتشافات المتميزة) إن أحداً اخترع مجهراً قادراً على أعظم تكبير في كل زمن، مجهراً يمكن أن يُبنى بكل بساطة. وكانت نتائج ذلك إن المجهر العملاق أصبح بلا قيمة (قبل إكماله) وأفلس رجل الأعمال وكان العمال بلا خبز.

لعل من غير الضروري أن نشير إلى أن هذه الكوميديا لم تغادر قط منضدة كيركغارد. ورغم كل المبشرين ونبَّاح السيرك وغيرهم من المسليات الجانبية فإن صفات الكوميديا المسرحية ليست لافتة بصفة خاصة. اللافت، من الجهة الأخرى، هو النهاية، التي هي أي شيء ما عدا كونها نهاية هزلية بل إنها تحوِّل المسرحية إلى دراما ثورية عن انتفاضة بروليتارية ضد نظام رأسمالي متأخر كان، بأصدق معنى للكلمة، صانع سقوطه نفسه بحيث يُصاب حتى الرأسمالي بالإفلاس. ولكن الكوميديا ليست دراما ثورية. فالصخب البروليتاري

والانتفاضة البروليتارية بحد ذاتهما محايدان بعض الشيء كمؤشر إلى اتجاه مستقبلي في العلاقة الاستلابية بين الإنسان والآلة. وهكذا فإن ما كان في ذهن كيركغارد ليس في الحقيقة خرافة المجتمع اللاطبقي بل خرافة مختلفة تماماً هي خرافة برج بابل. فإن اختراع المجهر العملاق الذي سيتفوق على كل شيء متميز عرفه الزمن هو تحقيق الحقبة الحديثة للحلم القديم باقتحام السماء وشق طريق المرء إلى أعظم الأسرار في أعمق دواخلها. والمجهر العملاق إنما هو رمز فضول جسور يريد استخدام تكنولوجيا متطورة للنظر من فوق كتف الله.

تقدِّم الفقرات التي كتبها كيركغارد في يومياته عن العلم الطبيعي مجاهر كثيرة مختلفة الحجم والطول البؤري، مصوَّبة في كل اتجاه يمكن تخيله. وهنا، كما في فقرات سابقة، من الواضح إن لدى كيركغارد مشاعر متناقضة تمتد من الاهتمام الصادق إلى الازدراء السافر. وما كانت الحقبة الجديدة تقدِّمه هو في الحقيقة ليس أن تجعل ما كان غير مرئي في السابق مرئياً فحسب بل أن تجعل أشياء كانت محتملة لأنها غير مرئية على وجه التحديد، أشياء غير محتملة – على سبيل المثال الظرف المتمثل بأن الله خلق العالم ويحكمه، بما في ذلك حياة البشر والأفراد. إذ كف البشر عن تفسير العالم فحسب وبدؤوا يغيرونه.

وفي صدارة المساهمة في هذه التغييرات كانت العلوم الطبيعية التي بحسب كيركغارد ارتكبت خطأً مخيفاً بعدم قصر نفسها على النباتات والحيوانات والنجوم وأرادت أن تتطفل على عالم الروح. ولاحظ بمرارة: إن غالبية ما يزدهر بترف هذه الأيام تحت اسم العلم (ولا سيّما العلوم الطبيعية) ليس علماً بل فضول. وفي النهاية سيأتي كل الفساد من العلوم الطبيعية. ويعتقد كثيرون، بصورة تستحق الإعجاب... بأنه إذا جرت أبحاث باستخدام مجهر، يكون هذا جدية علمية. إنها خرافة حمقاء عن المجهر. كلا، فبمساعدة الملاحظة المجهرية، ليس من شأن الفضول إلا أن يصبح أكثر هزلاً. وعندما يتفوه إنسان بالقول، البسيط والعميق في آن معلناً، «إني لا أستطيع أن أرى بعيني المجردة كيف يظهر الوعي إلى الوجود» يكون هذا صحيحاً بشكل كامل. ولكن عندما يكون لدى الإنسان مجهر أمام عينه ثم ينظر وينظر وينظر – ومع ذلك لا يرى الوعي يكون هذا مضحكاً. وما يجعله مثيراً للسخرية بصفة خاصة إنه يُفترَض أن يكون جدياً. وتواصل الفقرة المكتوبة في اليوميات: إذا كان الله يمشي بعصا

في يده ستكون الأمور صعبة بصفة خاصة على أُولئك الراصدين الجادين الذين يستخدمون المجهر. وسيأخذ الله عصاه ويطرد كل النفاق منهم ومن الذين يبحثون في العلوم الطبيعية. والنفاق هو الآتي، إن العلوم الطبيعية تقود إلى الله، على ما يُقال. نعم، حقاً، إنها فعلاً تقود إلى الله، بشكل متفوق، ولكن هذه بكل بساطة وقاحة. ويستطيع المرء بكل سهولة أن يثبت لنفسه إن الباحث في العلوم الطبيعية منافق بهذه الطريقة، لأنه إذا قال له المرء إن الضمير والكتاخيسمس الصغير، كتاب لوثر في أصول التعليم المسيحي، هما كل ما يحتاجه المرء، سينظر الباحث إليه باستخفاف. فهو، بطريقته المتفوقة، يريد أن يحول الله إلى حسناء خجول، إلى فنان شيطاني ليس كل واحد يستطيع أن يفهمه. قف! الحقيقة الإلهية والبسيطة هي إن لا أحد، لا أحد على الإطلاق، يستطيع أن يفهمه، وإن أعمق الأشخاص حكمة يجب أن يتشبث بتواضع بالشيء نفسه الذي يتمسك به أكثر الأشخاص بساطة.

ما يدافع عنه كيركغار هنا هو مبدأ المساواة ولكن المشكلة بالطبع إن الله لا يتجول وكأنه شخصية مسرحية حاملاً عصا في يده لإحقاق العدل الذي يقضي به بل على العكس فإن الله إله خفي، والشيء الوحيد المرئي هو الحقيقة المخيفة بأن لتطور العلم، على ما يبدو، قانونه الداخلي الذي مبدئياً لا يمكن أن يعترف بحدود غير الحدود التي لا يستطيع هو نفسه أن يتخطاها. وهذا التقدم الذي لا هوادة فيه ولا يُقاوَم في تخطي الحدود هو الذي انتقده كيركغارد، ولكن بلا جدوى. وليس من المستغرَب إن قدرته على التحلي بالموضوعية اضمحلت اضمحلالاً مطَّرداً بمرور السنين لتنتهي بالنزق القاسي لرجل عجوز.

الصحافة: ماكينة قاذورات الحكومة

ترك النزاع مع مجلة كورسارن في نفس كيركغارد كراهية شديدة للصحافة اليومية ومَنْ يمارسونها، أُولئك الذين يعرضون الآراء للإيجار، كما سمَّاهم باستخدام تعبير وجده عند شوبنهاور وأصبح مفتوناً به. وكان شوبنهاور لاحظ بكل صواب إن البشر، وإن كان غالبيتهم يتفادون التجوال بقبعة مستعارة أو معطف مستعار، فإنهم يكونون في منتهى الرضا بالتجوال حاملين آراء مستعارة قدَّمها إليهم صحافيون: طبيعي إن الجمهرة الكبرى من الناس بلا رأي ولكن – ها هو جاءكم! – هذا النقص يعالجه الصحافيون الذين يكسبون

رزقهم بإيجار آرائهم. ولهذا الوضع الغريب أيضاً منطقه الخاص: تدريجيا، مع انتزاع أشخاص أكثر فأكثر من حالة البراءة التي لم يكونوا بأي حال من الأحوال ملزَمين فيها بأن يكون لهم رأي، وتُفرض عليهم «حالة الذنب»... التي يجب أن يكون لهم رأي فيها، ما الذي يستطيعه صاحب الحظ المنحوس؟ فالرأي يصبح مادة ضرورية لكل فرد من أفراد الجمهور الهائل ولذلك يقدِّم الصحافي معونته بعرض آراء للإيجار. والصحافيون إذ يفعلون ذلك يجعلون الناس أضحوكة من ناحيتين: أولاً بإقناعهم بضرورة أن يكون لهم رأي ثم بإيجار رأي، رغم صفته المهلهلة فإنه يُلبس ويُرتدى بوصفه - مادة ضرورية.

وهكذا يكون كيركغارد توصل في وقت مبكر على نحو غير متوقع إلى أن يدرك إن الصحافة تعيش بنسج قصصها هي - تتصرف وكأنها تنقل تقريراً عن وضع حقيقي، وتعتزم إنتاج هذا الوضع - وتكون النتيجة إن الواقع نفسه يصبح شاحباً ووهمياً. هناك شيء يريد الصحافي ترويجه، وربما لا أحد على الإطلاق يفكر فيه أو يكترث به. فماذا يفعل الصحافي؟ يكتب مقالاً بأجمل أسلوب يقول فيه إن هناك حاجة يشعر بها الجميع شعوراً عميقاً، إلخ. ولعل صحيفته واسعة الانتشار، والآن حرَّكنا الأمور. وفي الحقيقة يُقرأ المقال، ويجري الحديث عنه. وربما صحيفة أخرى تكتب ضده. ويعقب ذلك جدل سجالي يسبب إثارة.

بهذا العمل كله لم يفعل الصحافيون سوى إنهم تحولوا إلى نبات فطر لا معنى له - تعبير أطلقه كيركغارد عليهم منذ عام 1838 مستخدماً مفردة نبشها في الحقيقة من كتاب مس نيلسن للطبخ. كما يتحمل الصحافيون مسؤولية أخلاقية لأنهم قادرون على تغيير مصير الشخص بين ليلة وضحاها: خذوا فتاة شابة. أحد ما يذكرها بالاسم مستخدماً اسمها الكامل، ثم يروي إنها حصلت على فستان جديد يوم الأحد الماضي. وهذا بالطبع ليس أخبث أنواع الشر - ومع ذلك فإنها تصبح موضع سخرية. فكل شيء خاص، بل حالة الخصوصية نفسها، لا تتوافق بالمرة مع الإتيان على ذكر المرء في سائر أنحاء البلاد في جريدة. وهذه القطعة الصغيرة نفسها من الخجل والانزواء حتى إن القارئ بالكاد يستطيع أن يلقي نظرة خاطفة على المشكلة، لكنها موجودة. ورغم إن إعلاناً كهذا محايد أخلاقياً بحد ذاته فإن حقيقة نشره وحدها تصبح انتهاكاً للخصوصية. ورأى كيركغارد بوضوح أكثر فأكثر إن قيام الإعلام بتحويل السكان إلى الجمهور اقترن بطفلَنة متزايدة وحرمان الفرد من سلطته المشروعة، وهي حالة كانت

حتى أشد كارثية لأنه قيل إنها مطابقة لتقرير الجمهور مصيره بنفسه وامتلاكه تأثيراً على ما يُفترض. ولم تكن لدى كيركغارد شكوك بشأن عواقب الشكل الجديد للحياة العامة. فهي ستكون في الحقيقة جرح الدنمارك القاتل: ضِيق، خوف كل شخص من أقرانه، أقاويل تتناقلها المدينة، نميمة، غياب الصراحة التي يحتاجها المرء للثبات على رأيه... تجسس داخل الحياة العائلية، تلصص في الشؤون المنزلية، إجمالاً، أي شيء يُرضي الجمهور المحترم. فالصحافة كانت بكل بساطة ماكينة قاذورات الحكومة.

كانت الصحافة تتحمل قسطاً كبيراً من المسؤولية عن هذا الفساد، ولم يبدِ كيركغارد لحظة واحدة من التردد: الويل، الويل للصحافة اليومية! لو جاء المسيح إلى العالم الآن، بصورة مؤكدة مثلما أنا حي، لما استهدف كبار القساوسة وما إلى ذلك بل الصحافيين. وإذا لم يستهدفهم المسيح فإن كيركغارد استهدفهم بكل تأكيد. وكتب في عام 1849: الله في السماء يعلم إن التعطش للدماء غريب عن روحي، ولكن مع ذلك، مع ذلك فإني باسم الله سآخذ على عاتقي مسؤولية إصدار الأمر بإطلاق النار فور التوثق في حرصي الشديد بضمير حي من إن لا أحد بالمرة، بل ولا كائناً حياً واحداً يقف أمام فوهات البنادق – سوى الصحافيين. ليس من الغريب إن كيركغارد، وقد كان في ذهنه غيودفاد، وجد من غير المعقول إن أحد أصدقائي كان صحافياً.

قد يكون صحيحاً إن كيركغارد لم يقل شيئاً عن الصحافة لم يقله آخرون، ولكنه قاله قبل أن يقولوه. وكان نقده لزمنه متقدماً على زمنه بحيث لم يصبح ممكناً تأكيد مشروعية آرائه إلا بعد سنوات عديدة. خذوا على سبيل المثال هذه النزوة الصغيرة المثيرة للاهتمام: لنفترض إن أحداً اخترع آلة، أنبوباً ناطقاً صغيراً مناسباً من القوة بحيث يمكن سماعه في سائر أنحاء البلاد. ألن تمنعه الشرطة خشية أن يسفر استخدامه عن أن يصبح المجتمع كله مختلاً عقلياً؟ وبالطريقة نفسها، تُحظر الأسلحة بطبيعة الحال. كتب كيركغارد ذلك في ذات الوقت تقريباً الذي أعلن فيه كارل ماركس عصر البروليتاريا وقال إن الدين أفيون الشعوب. وكان كيركغارد سيبدي تأييده بلا تحفظ سوى أن يضيف إن بروليتاريا المستقبل لن تكون منظّمة ونشيطة بل على العكس ستكون بروليتاريا إعلامية مفككة ومخدَّرة تتحدى كل شيء سهل وحقير.

يُكشَف هذا النزوع حين يختفي صوت الفرد في دردشة العصر حيث الناس لا يتكلمون ولا يبقون صامتين بل يفعلون شيئاً بين هذا وذاك، إنهم يدردشون. في هذه الدردشة يُلغى الفارق بين الخاص والعام في دردشة خاصة - عامة تتطابق تطابقاً تقريبياً مع ما هو عام، لأن العام هو القطاع العام الذي يهتم بما هو الأكثر خصوصية. وبالارتباط مع هذه الدردشة مجهولة الاسم خطرت فكرة الأنبوب الناطق بعيد المدى ببال كيركغارد بوصفه أشد رموز العصر الحديث إثارة للرعب. وفي رؤية مخيفة للفوضى السمعية - البصرية التي ستعم زمناً في المستقبل حين تكون الأرض محاطة بأقمار اصطناعية تدور مخترقة الغلاف الجوي، أعلن كيركغارد متنبئاً: ومثلما إن الجمهور تجريد خالص فإن كلام الإنسان أيضاً سيصبح في النهاية تجريداً. لن يتكلم أحد بعد الآن، ولكن بمرور الوقت سيبعث انعكاس موضوعي شيئاً جوياً أو آخر، صوتاً مجرداً يجعل كلام الإنسان فائضاً عن الحاجة، مثلما جعلت الآلات العمال فائضين عن الحاجة. وفي ألمانيا هناك حتى كتب تُنشَر كدليل للعشاق وبالتالي فإن الأمر كله سينتهي على الأرجح بعاشقين جالسين يتحدثان مع أحدهما الآخر وهما مجهولاً الهوية لكل منهما الآخر.

ما شعر به كيركغارد هنا على أنه نذير هو إن الصوت الذي فهم فيه نفسه أنبوباً ناطقاً متواضعاً - صوت الله - سيتلاشى في الدردشة اللاشخصية للأنابيب الناطقة الحديثة. وكان هذا هو الموضوعة الداخلية لنقد زمانه والأزمنة القادمة. وإمدادات يومنا الغزيرة من الأنابيب الناطقة والتصويرية أظهرت بوضوح أكثر مما كنا نريد، إن قلق كيركغارد قلق مبرَّر، لأن ابتذال كل شيء بلا حدود لم يكن وحده الذي أقلق كيركغارد بل أيضاً غياب الأبدي من الأفق الإنساني وفقدان إمكانية الانطلاق منطلقاً جديداً بصورة جذرية وضياع المصير الحقيقي للإنسان. وذات يوم ربيعي في عام 1845 جسد كيركغارد هذه النقطة برسمه المشهد الغريب التالي: تقف كأنك على قمة جبل التجلي ويجب أن تغادر - ولكن كلَّ مطالب الانتهاء الصغيرة والديون البسيطة التي بذمتنا لبقال الخضروات والإسكافي والخياط تستحوذ عليك وتكون النتيجة النهائية إنك تبقى مربوطاً بالأرض ولست متجلياً، لكن جبل التجلي يصبح كومة روث.

كما لم تكن لدى كيركغارد أي ثقة خاصة بأن نداءه النقدي لزمنه سيلقى آذاناً صاغية، وأقل من ذلك أن يكون له تأثير. وهو جعل كليماكس يكتب في

حاشية ختامية غير علمية إن محاولة ضبط زمن المرء بطريقة مباشرة مثل مسافر في عربة يمسك المقعد الذي أمامه لإيقاف العربة... كلا، الشيء الوحيد الذي ينبغي عمله هو نزول المرء من العربة وضبط نفسه هو.

أشار كيركغارد هنا وهو يستقل إحدى الحافلات العمومية الجديدة - لنقل حافلة نجم الشمال - إلى المأزق الذي كان نقده وكل نقد اجتماعي لاحق يُحال إليه: إذا أراد ناقد أن يكون له التأثير المنشود في الحديث نقدياً عن الإعلام فإن هذا النقد يجب أن يكون في وسائل الإعلام. وإذا أردنا الإفلات من هذا المأزق فعلينا أن نطيع تعليمات كيركغارد، علينا أن ننزل من العربة ونمسك أنفسنا. ويعني هذا إننا يجب أن نتشبث بالقليل من الحرية الذي ما زال على عالم الإعلام المتعطش للسلطة أن يمنحه للفرد: العالم المحلي، الحديث، الصمت. كانت نية الله الحقيقية أن يتحدث الشخص فردياً مع جاره أو في أقصى الحالات مع عدة جيران. فالإنسان ليس أكبر من ذلك. وفي كل جيل هناك بضعة أشخاص موهوبين وناضجين بحيث يكون من المبرَّر لهم أن يستخدموا وسائل اتصال عملاقة مثل الصحافة. ولكن أن يتعين، قبل أن يمضي وقت طويل، على كل فرد، ولا سيّما ذوي الدرجة الثانية كافة، استخدام وسائل اتصالات كهذه حين لا يكون لديهم أي شيء بالمرة يتواصلون بشأنه أو ليس لديهم إلا الهراء يتواصلون بشأنه - يا لها من خيبة أمل!

أن يسافر المرء يعني أن يكتب - والعكس بالعكس

الجميع كانوا يفعلون ذلك، لفترات زمنية تقصر أو تطول وبنتائج متفاوتة، لكنهم جميعاً كان يفعلونه - كانوا يسافرون. ولكن كيركغارد لم يكن منهم. كان الرسامون يسافرون جنوباً، نحو الضوء والروائح والأصوات في إيطاليا وتركيا واليونان. وكان المفكرون يرحلون إلى الجامعات والمكتبات في ألمانيا وفرنسا. وكان البعض يسافر إلى أقصى مكان يمكن أن يصله الإنسان. وتوجه بي. دبليو. لوند إلى حيث المتحجرات وتلال النمل العملاقة في البرازيل، وزار بول مارتن مولر الصين حيث كتب شعراً عن الخبز الدنماركي الأسود الذي افتقده بمرارة. وأخيراً كان هانز كريستيان أندرسن - الذي سخر منه كيركغارد لأنه كان أقدر على الانطلاق في عربة والطواف في أوروبا من أن ينظر في تاريخ القلوب - لكنه في الحقيقة سافر إلى أماكن بعيدة وفي كل صوب (بما في ذلك

الترحال في تاريخ القلوب أيضاً) حتى إنه أمضى عشر سنوات كاملة خارج حدود وطنه.

كانت خطوط السكة الحديد مشاريع العصر الإنشائية الكبرى. بدأت في إنكلترا عام 1830 وسرعان ما انتشرت في القارة الأوروبية متيحة لجيل الشباب أن يسافروا إلى بلدان تعين على آبائهم أن يقنعوا بالحلم بها وكتابة القصائد عنها. كيركغارد لم يَرَ قط ما يقع جنوب برلين من العالم. ولذلك كان عليه أن يقرأ ليتوصل إلى فهم عن حقيقة الأوضاع في اليونان حيث كان سقراط (السلف الروحي الذي كان كيركغارد ينظر إليه بتوقير كبير) يطوف الأرجاء. والمفارقة إن إمكانية روائية رَسَم كيركغارد معالمها في يومياته ذات صباح من شهر كانون الأول/ ديسمبر 1837، أصبحت في الحقيقة تشبه واقِعَه الباهت: بودي أن أكتب رواية قصيرة فيها رجل يمر بمحل المجصِّص في شارع أوسترغاده كل يوم، يرفع قبعته ويقف بهدوء للحظة مع الكلمات التي واظب على التوافه بها كل يوم، أوه أيها المناخ اليوناني الرائع، لماذا لم يُسمح لي بالعيش تحت سمائك أيام ازدهارك؟ وكان المجصِّص ذو العلاقة غوزيبي بارسوغلي، وقبل افتتاح متحف تورفالدسن في عام 1848 كانت واجهات محله في أوسترغاده من الأماكن العامة القليلة التي يستطيع أهل كوبنهاغن أن يكوِّنوا منها فكرة عن فن النحت. وهكذا لم يتعين على المرء أن يسافر وكان يستطيع أن يساعد نفسه بطرق أخرى، بمجرد أن يفكر صوب الجنوب، كما حدث في شهر أيار/ مايو من ذلك العام نفسه في 1837، عندما أجرى الطالب الحائر تجربة صغيرة على نافذة غرفته: غريب كيف أن لون إيطاليا الأزرق - البنفسجي، الغائب عن هذا البلد، يمكن أن يُنتَج بالنظر من خلال النافذة إلى الهواء في مساء رائق، مع شمعة بين المرء والنافذة.

الأكثر من ذلك، كانت لدى كيركغارد فرص سانحة لتخطيط رحلات بدقة أكاديمية على نحو خاص. وهكذا تضمنت مجموعته الواسعة نسبياً من المواد المرجعية الجيوديسية [علم قياس الأرض] عمل سي. أف. فايلاند C. F. Weiland موجز أطلس عام لكل العالم، ومجسم كرة أرضية من تصميم جي. أف. فون أولدنبورغ G. F. von Oldenburg (مع حامل أرضي) كان يعتز بامتلاكهما، وخريطة أوروبا التي نشرها أف. دبليو. شترايت F. W. Streit مرفقة بأسطوانة خشبية، وخريطة عامة للدنمارك صقيلة فاخرة، أيضاً مربوطة

بأسطوانة، وكان أيضاً يملك خريطة القسم الشمالي الشرقي من نيوزيلندا من تصميم جي. أتش. مانسا J. H. Mansa ملصقة على قطعة من الكتان لكنها جاهزة لطيها ووضعها في محفظة السفر الخاصة بها عندما يحين الوقت لرحلة إلى الجليل مثلاً.

لَجَم كيركغارد لهفته على السفر بتذكير نفسه إنه في قرارة نفسه لا يرى سبباً للسفر لأنه عندما يصل إلى وجهته تكون أحاسيسه الشعرية توسعت توسعاً كبيراً بحيث لا يعود قادراً على التركيز على محيطه الأجنبي وبدلاً من ذلك يعزل نفسه في غرفة فندقه، وإذ أُعاني قليلاً من الكآبة... أنغمرُ في أضخم إنتاج [أدبي]. وكانت الرحلة الأولى إلى برلين في عام 1841 استثناء ثانوياً من القاعدة ولكن خلاف ذلك فإن رحلاته اللاحقة تمر دون إشارة تقريباً في يومياته. وفي أوائل أيار/ مايو 1846، وسط نزاعه مع مجلة كورسارن، عندما سافر إلى برلين للمرة الرابعة والأخيرة، وأمضى أسبوعين هناك، ملأ يومياته باثنتي عشرة قطعة مثيرة عن لاهوت قصة الخلق، ولكن كان من الممكن كتابتها في كوبنهاغن.

وهكذا فإن طرق السفر التي لا تُحصى وقتذاك لم تكن سوى طُرق كان فرد قلق يهرب من نفسه عبرها. وكان هذا شيئاً حتى شخصية مثل إيسثيت أ (Aesthete A) [يمكن ترجمته إلى الاسم العربي جمالي ألف] من الأيام الأولى في حياة كيركغارد كاتباً، وجده مسلياً: المرء منهَك من العيش في البلد والسفر إلى العاصمة. المرء منهَك من وطنه الأم والسفر إلى الخارج. المرء [Europamude بالألمانية: منهَك من أوروبا] والسفر إلى أميركا، إلخ. المرء يسلِّم نفسه إلى الأمل المتعصب بالسفر من نجم إلى آخر بلا نهاية. لا شيء سوى قلاع في الهواء. ثم كانت هناك اعتبارات أُخرى دائماً تظهر قبل السفر - ناهيكم عن مضايقات من كل صنف عملياً، بما في ذلك الاحتكاك الجسدي اللا إرادي مع المسافرين الآخرين الذي يتعين دائماً على المرء أن يشاركهم حجرة أو عربة. وهكذا عندما أراد كونستانتين كونستانتيوس أن يقوم بـرحلة استكشافية لإقناع نفسه بشأن إمكانية التكرار ومعناه فإنه سافر بسفينة بخارية إلى شترالزوند وانتقل إلى عربة البريد السريعة إلى برلين واصفاً رحلته كالآتي: بين المتذوقين هناك آراء مختلفة عن أي مقعد هو الأكثر راحة في عربة. رأيي هو الآتي: إن الأمر كله بائس. في رحلتي السابقة كان مقعدي في نهاية مصطبة أمامية داخل العربة (البعض يعتبر هذا أفضلية كبيرة) ثم كنتُ أُقذَف ذات

اليمين وذات اليسار مع رفاق السفر القريبين مني لمدة 36 ساعة بحيث عندما وصلتُ إلى هامبورغ لم أفقد عقلي فحسب بل ساقيّ أيضاً. وعلى امتداد ست وثلاثين ساعة أصبح ستَّتُنا الجالسون في العربة معجونين ببعضنا البعض في جسد واحد حتى فهمتُ ما حدث لأشخاص من مولس جلسوا معاً فترة طويلة بحيث لم يتمكنوا من أن يميزوا أي السياق سيقانهم.

لم يخطر ببال كيركغارد قط إن فنه ربما كان سينتفع من رحلة حقيقية إلى الخارج وإن قراءه كانوا سيجنون فوائد من رحلة كهذه.

الحمَّام الهوائي

في 2 آب/ أغسطس 1847 أنهى كيركغارد مخطوطة أعمال الحب المعدَّة للمطبعة. وعندما كان يعمل على القسم الثامن من أقسام الكتاب العشرة، كان منهكاً حتى إنه فكر في السفر إلى برلين ولكن خشية أن يؤثر ذلك في تركيزه على العمل الذي بين يديه أخمد رغبته في السفر إلى الخارج: تحملتُ، والحمد لله كل شيء جرى على ما يُرام. أوه، فيما يسخر مني أشخاص ويضحكون عليّ بسبب كل العمل الذي أنجزُه فإني أجلس وأشكر الله الذي وهبني النجاح فيه. بل خذوا كل شيء امتلكته ذات يوم: الأفضل ما زال مفهوماً أصلياً – وأشكر الله إنه مفهوم مبارك دائماً – بأن الله إنما هو محبة. ومهما بدت لي الأمور حالكة في كثير من الوقت فإني أستجمع كل الأفكار الرائعة الأوفر بركة التي أستطيع حشدها عما يكون الشخص المحِب – وأقول لنفسي، هذا هو الله في كل لحظة.

في اليوم التالي ذاته استيقظت رغبة السفر من جديد، إلى وجهة أكثر تواضعاً الآن هي شتيتين، ولكنه مرة أخرى نجح في كبح دافعه. وقال كيركغارد لنفسه مرتعداً إن بالطبع كل تكويني، كل عادات حياتي الجسدية، تتعارض تعارضاً كاملاً مع جنون السفر خلال أيام الضيق، حين تكون درجة الحرارة 84 درجة (فهرنهايت)، عندما بالكاد أتجرأ على استقلال عربة في الظهيرة. وأشعر من باب أولى أفضل حالاً بكثير عندما أمتنع عن الحركة بالمرة. فما معنى السفر في هذا الوقت من السنة إلى صحراء رملية حيث حرارة الشمس لا تُطاق؟ ما معنى التعامل بجدية مع النوم لأني لا أنام أبداً أثناء وجودي في الخارج ولذلك أكون دائماً شديد الإنهاك في اليوم التالي؟ وفي محيط أجنبي دائماً يرفع درجة الحرارة 20 درجة أكثر؟

كان كيركغارد أُستاذاً حقيقياً في فن عدم حزم أي حقيبة على الإطلاق. وأدرج بضمير حي أعذاره الواهية والمفضوحة في يومياته. فبادئ ذي بدء، إن أقل من أسبوع يفصل بين اليوم و9 آب/ أغسطس، ذكرى وفاة والده، وهو لا يستطيع قطعاً أن يكون جالساً طول الطريق إلى شتيتين في ذلك اليوم. والأكثر من ذلك إنه منخرط في مفاوضات مع تاجر الكتب رايتزل الذي يريد شراء النسخ المتبقية من كتاباته، وأنا أعرف كم هو عديم المبالاة، وإذا قدمتُ مثالاً سيئاً فتصبحون على خير! وأخيراً، فإنه يتوقع رجلاً ربما يشتري المنزل الواقع في نيتروف. ورغم إن من الجيد أن تراود المرء فكرة الهروب بين حين وآخر بدلاً من هذه الرحلة القسرية، فالمفضَّل أخذ إجازة قصيرة في الدنمارك ليتمكن من التسكع والقراءة قليلاً، وعلى العموم أن يرتاح الرأس. ولعل من القراءات المحتملة خلال إجازته الصيفية نسخته التي اشتراها حديثاً من كتاب صور رحلات جنوبية، تأليف جي. إيل. يوسينغ J. L. Ussing، الذي يصور، من بين أشياء أخرى، الحياة في القسطنطينية وتيسالي. فأن تقرأ يعني أن تسافر.

وهكذا قرر كيركغارد البقاء في كوبنهاغن، ولكن في 14 آب/ أغسطس عادت برلين إلى ملاحقته وندم على تردده: ما أن أرمي نفسي في عربة أو على متن سفينة، حتى أكون هناك، حتى يكون في ذلك قرار من نوع ما. القرار السلبي أصعب بكثير. واختفت الآن ذكرى وفاة والده حجةً للبقاء في البيت، وتفاوضه مع رايتزل أصبح عديم الأهمية. وكان العذر الباقي هو الرجل الذي يريد أن يرى البيت، لكنه لم يأت حتى الآن. وفي هذه الظروف يكون ذلك أمراً لا يُطاق وأمراً مناسباً في الوقت نفسه: مثاليتي تعاني معاناة لا توصف من الإهمال واللاقرار والهراء التي كلها تشكل سر الحياة العملية. فالرجل لا يأتي في الموعد المحدَّد، أو يخطأ في أمر ما، أو يهدر وقتي. هذا كله عذاب لي. أُفضل كثيراً النهوض بأي مهمة، حتى أتفه أنواع العمل كناسخ، شريطة أن يكون مسموحاً لي أداؤه بنفسي لأني حينذاك أستطيع في كل الأحوال أن أُؤديه على الوجه الصحيح وبدقة. ولكن هذا التذبذب الفظيع كابوس بالنسبة لي. إذا أردنا أن نظن إنه يمارس إسقاطاً فلن نكون بعيدين عن الصواب.

بعد يومين نفض كيركغارد تذبذبه. بقي في البيت وفي اليوم التالي توجه إلى المطبعة ومعه المخطوطة الكاملة لكتاب أعمال الحب. ولكن تقلبه بشأن السفر لم يمر من دون عقاب، وهكذا اخترع ثم طبق شكلاً غريباً من التأديب الذاتي

الذي أثبت فاعليته الشديدة: لطمأنة نفسي إلى أن ما كان يمنعني من السفر ليس عزوفاً جائزاً عن كل العناء المرتبط بالاستعداد للسفر، فإني باشرتُ - مع كل عدم الثقة المعهود بنفسي - علاجاً حمَّامياً كنتُ أعرف إنه يثير قرفي. أولاً خطَّط السفر إلى برلين ثم إلى شتيتين ثم إجازة قصيرة في الدنمارك. كلها لم تتمخض عن شيء، والقضية كلها انتهت بعلاج تأديبي في الحمَّام.

وتعين على السبعين ألف فرسخ في الخارج أن تنتظر. بدلاً من ذلك اتخذ الفكر الأثيري حماماً هوائياً كان ما سمَّاه رحلاته في عربات تتأرجح برفق - في عام 1847 وحده خرج فيما لا يقل عن 37 نزهة كهذه، لم تتطلب حزم أمتعة من كل نوع وصنف مع ملحقات معقدة غيرها بل كل ما عليه هو حجز بعض الوقت مع سورين لارسن، الحوذي الأجير في ليلي هليغيستراده الذي كان معروفاً بلقب رجل العربات الأكاديمية أيضاً لأنه تخصص بخدمة الميسورين. وقد تكون الوجهة مكاناً ما في زيلاند الشمالية أو فريدنسبورغ أو فريدريكسبورغ. وحين تكون معنوياته عالية قد تكون رحلة لمدة يومين، ولكن كقاعدة كان لارسن ينطلق به إلى وجهات محلية مثل نيهولتة ولينغبي وورودرسدال وحديقة الغزلان وبيلفيو وهيرمتاج وفورتونين أو أينما يمكن العثور على مطعم جيد.

السكرتير إسرائيل ليفن الذي كان يذهب أحياناً في هذه الرحلات وفَّر لنا هذه القطع القصيرة التي تربطها وتفصل بينها على السواء سلسلة من اللمحات اللاهثة: رحلات العربة إلى زيلاند الشمالية تعين أن تنطلق بإيقاع سريع للغاية. الحمام الهوائي كان مفيداً له - العربة وصلت في الموعد تماماً، وهو نفسه كان على الدوام دقيقاً بإفراط في المواعيد - ثم انطلقنا - وصلنا إلى فريدنسبورغ - أسرع الحوذي إلى داخـل الفندق ولم يقول سوى الماجستير - وبدأ هذا يحرك كل شيء - دخل كيركغارد ولم يقل بصوته الرفيع سوى صباح الـــــخير - ثم اختفى في الغابة - بعد عودتنا تناولنا حساء مع الدجاج أو البط - ثم أخرج كيركغارد 10 ريكسدولارات وقال خذي يا فتاتي الصغيرة، وتكرَّمي بدفع شيء لكل شخص - العودة إلى البيت بسرعة - ضحك الحوذي لأنه حصل على 5 ريكسدولارات بقشيش - في هذه الرحلات كان يستطيع أن يكون اللطف ذاته، ممتع إلى حد بعيد، يتفجر طرافة وعاطفة وأفكاراً. قلتُ ذات مرة «كانت تلك رحلة ممتازة سوى إنها بدت جد قصيرة. أتمنى لو أستطيع تكرارها». فقال كيركغارد «هذا ما سيكون! انظر إن

كانت العربة ما زالت هناك». ولكن العربة غادرت. «إذاً، تعال مرة أخرى غداً في الساعة ــــــــــــ» حضرتُ صباح اليوم التالي. «كلا، لا شيء من ذلك اليوم» - «لكن المتعة - كنتُ أتطلع اليها» - «آه، أنتَ نلتَ كل المتعة. المتعة تكمن في الخيال. أنت كنتَ سعيداً مساء أمس، حلمتَ بها الليلة الماضية. وكنتَ سعيداً هذا الصباح في طريقك إلى هنا. كفاك متعة».

في نهاية اليوم، عندما عادا من رحلتهما كان الخدم انتهوا من تهوية الشقة بالكامل وإشعال الموقد. وكان كيركغارد يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، يلوِّح بمنديله وينظر إلى المحرار لأنه يجب أن يقرأ 36 درجة بالضبط والله يعلم كيف كانوا يدبرونها، لكن المحرار كان دائماً كما يُفترَض أن يكون. وقبل أن يبدأ كيركغارد وليفن العمل كان كل منهما يأخذ قنينة عطر من ماء الكولونيا ويرش بعضاً من قطراته الثمينة على الموقد لكي تملأ رائحته الغرفة ويكون الجو ملائماً - لخطاب تثقيفي!

إما أو يوم الأحد، 3 تشرين الأول/ أكتوبر 1847، قادته رحلات كيركغارد إلى لينغبي وبتحديد أكثر قصر سورغنفري لزيارة الملك كريستيان الثامن. وكانت تلك المرة الثالثة التي أراد فيها أقوى رجل في البلاد أن يتحادث مع رعيته الموهوب بشكل استثنائي. وجفل كيركغارد بعض الشيء، وحاول التملص متعللاً بصحته الهشة ولكن الملك كان مصراً، وعندما يدعو الملك فإن المرء لا يرسل اعتذارات. وكان كيركغارد أصبح الآن أكثر اطلاعاً بعض الشيء على مجمل الطقس الذي تخبَّط فيه تخبطاً كاملاً خلال زيارته الأولى، في منتصف آذار/ مارس من ذلك العام. ففي تلك المناسبة جرى استقباله بعد فترة طويلة من الانتظار المتوتر في صالون الانتظار، ثم، في غمرة ارتباكه، انحنى في الوقت غير المناسب بالمرة ولاحقاً بدا كأنه يهم بالمغادرة في ثلاث مناسبات إلى أن فَهِم، بعد فوات الأوان، توبيخ الملك الملطَّف بما مؤداه إن لدى العاهل متسعاً من الوقت. وعندما انتهت تلك المقابلة، لم يستطع كيركغارد أن يحمل نفسه على تقبيل يد الملك الممدودة واكتفى بانحناءة خرقاء أخرى.

هذه المرة أخذ كيركغارد معه نسخة من أعمال الحب قدَّمها بالتواضع المناسب إلى الملك الذي نظر إلى جدول المحتويات وعلق فوراً على البناء العبقري للكتاب: عليكم بالمحبة. أحبوا جاركم. أحبوا جاركم. وخلال

حوارهما السابق أعلن الملك إن كيركغارد أعمق من أن يفهَمَه. ورد كيركغارد على ذلك بدماثة غير موفقة: جلالتكم، بالطبع، ليس لديه وقت لقراءة الكتب، ولا ما أكتبه موجَّه إليكم. وفوجئ الملك بمثل هذه الخفة، وكيركغارد، في محاولة لإصلاح هذه الزلة، قرأ بصوتٍ عالٍ مقطعاً جميلاً وسهلاً على الفهم عن الحب بوصفه قضية تتعلق بالضمير، أتى بشكل مناسب جداً على ذكر أحد الملوك. فبدا كل شيء على ما يُرام من جديد.

عندما انتهت القراءة وجَّه الملك حديثهما نحو مسألة حُكمِه وتمنى أن يسمع رأي كيركغارد بما يجب أن يكون عليه الحُكم. وإذ تعلَّم كيركغارد من أخطائه فإنه سأل إن كان عليه أن يتكلم بصراحة، فرد الملك بالإيجاب. وهكذا قلتُ له إنه سمح لنفسه بأن تغويه مواهبه الشخصية وإن وضع الملك من هذه الناحية أشبه بوضع امرأة ينبغي أن تخفي مواهبها الشخصية وأن تكون بكل بساطة أُم البيت. وكان كيركغارد يعني إن الملك أساء إلى نفسه بفتح بابه لكل شخص، وإنه بذلك جعل علاقاته صعبة مع أصحاب المستويات العليا في الخدمة المدنية الذين لم يتمكنوا من السكوت عن ترك الملك يتأثر بكل من هب ودب بهذا القدر أو ذاك. وعلى الملك أن يفهم إن الحكم بطريقة ملكية لن يكون ممكناً إذا شعر إنه مسؤول عن كل واحد من رعاياه. كما ينبغي أن يضع الملك نصب عينيه إن كل من استقبله راح يشيع شتى صنوف الهراء المطلق عن استقباله.

لم يكن الملك سعيداً تماماً بحكم كيركغارد عليه ولذلك أراد أن يعرف ما يكون عليه العاهل الأمثل. ولم تكن هناك حاجة إلى سؤال كيركغارد مرتين عن ذلك، وسرعان ما أصبح واضحاً إن أفكاره ملكية أكثر من أفكار الملك نفسه: أولاً، من الأفضل لو كان الملك قبيحاً. وتالياً، ينبغي أن يكون أصماً وأعمى، أو على الأقل أن يتصرف كأنه ذلك، لأن هذا سينقذه من مصاعب كثيرة... وأخيراً، يجب على المرء ألا يقول الكثير، ولكن يجب أن يكون لديه مَثَل يقوله في كل مناسبة، وبالتالي يكون مَثَلا لا معنى له. تمتع الملك بهذا التوصيف من كل قلبه، وعندما أضاف كيركغارد إن الملك ينبغي أيضاً أن يتذكر أن يكون مريضاً بين حين وآخر لأن ذلك يثير التعاطف، ابتهج الملك بضحك مشاكس: آها، لهذا على الأرجح تقول إنك معتل الصحة - أنتَ تريد أن تجعل نفسك مثيراً للاهتمام.

وفيما كان كيركغارد يهم بالتعليق على حس فكاهة الملك سريع البديهة

انفتح باب غرفة مجاورة. واختفى الملك برهة ثم ظهر مع الملكة كارولين أمالي ويدها على ذراعه. ظن كيركغارد أنها بدت باهتة على نحو غريب، بل تكاد أن تكون شعثاء. ولكن هذا لم يمنعه، بالطبع، من الانحناء، بطريقة خاطئة كعهده. ولم تتحسن الأمور عندما أراها الملك بفخر نسخته من أعمال الحب واضعاً كيركغارد في وقف حرِج لأنه لم يجلب معه نسخة للملكة. وطلب المغفرة عن ذلك ولكن الملك رد بكياسة أنه وزوجته يستطيعان بكل تأكيد أن يفلحا في الاشتراك بنسخة واحدة. وأرادت الملكة أيضاً أن تبدي لطفها، وبخلجة طفيفة من التوتر قالت إنها تعرفه معرفة جيدة، ورأته يتنزه على الأسوار. وليس هذا فحسب بل إنها قرأت شيئاً من «إما/ أو»، رغم أنها وجدته كتاباً صعباً.

أوه، يا له من خطأ فادح! إما / أو! ظن كيركغارد إنه شيء يمكن أن تقوله خياطة ملاحظاً في الوقت نفسه محاولة الملك اليائسة أن يلفت نظره نحوه هو. وبعد وقفة مؤلمة بدت دهراً تمالك الملك نفسه وسأل زوجته الجاهلة إن كانت جوليانا تسأل عنها. وردت الملكة على ذلك بكل بساطة، بنعم جوفاء. وغادرت بأسرع وقت طالبة الأذن من زوجها والعبقري الذي معه.

ولكن إجمالاً كان للزيارات تأثير مفيد في كيركغارد، الذي استطاع حتى أن يشير إليها على أنها نوع من الزيارات العائلية. ولكن تأثيرها في الملك ليس معروفاً لأننا حين ننظر إلى يومياته التي تعج بفقرات عن الأعداد الكبيرة من الظبيان والمها والأرانب والثعالب في رحلات صيده فإن الفقرة المكتوبة يوم الأحد، 3 تشرين الأول/ أكتوبر 1847، تقول إن الملك زار الكنيسة في ذلك اليوم للاستماع إلى بيكر يلقي موعظته ثم استقبل زواراً وبعدها خرج في نزهة على حصانه في حديقة الغزلان. وهكذا طُمس كيركغارد في عداد الزوار دون تمييز، الأمر الذي ما كان ليسرَّه مثلما كان سيزعجه إن الوعاظ المفضلين لدى الملك كانوا مينستر ومارتنسن وباولي. ولكن الملك ليس أي شخص، وكريستيان الثامن لم يكن مجرد ملك آخر بل كان ذكياً، مثقفاً، حسن الاطلاع، وكانت هناك نباهة معينة في حضور بديهيته. وهكذا فإنه خلال حديثهما الأول، عندما شكا كيركغارد من كونه عبقرياً في مدينة ريفية، رد الملك إنه يجب ألا يشكو من ذلك بالمرة، لأنه أتاح له أن يفعل أكثر بكثير للفرد!

من الجائز أيضاً إن فكر الملك أحدث توتراً أقلق كيركغارد. إذ لم يسبق أن

رأى شيخاً بهذا الطاقة الفكرية بل كان الملك يتفجر عاطفة حقيقية مثل امرأة شابة: كان نوعاً من شهواني الفكر والروح... كان كريستيان الثامن موهوباً بشكل متألق لكنه في الحقيقة ضاع في ذكائه الواسع الذي كان يفتقر إلى خلفية أخلاقية ذات أبعاد مطابقة. وهذا التعليق الأخير هو طريقة كيركغارد المهذبة في الإشارة إلى الظرف المتمثل في أنّ الملك لم يكن مكتفياً بكارولين أمالي وحدها ولذلك كان لديه عدد كبير من الأطفال غير الشرعيين على ضميره. لذا كان كيركغارد محقاً بكل تأكيد في التعليق بأنه ما من امرأة ولا حتى أبدعهن موهبة، كان بمقدورها أن تمارس سطوة حقيقية عليه. فأولاً، إنه أذكى من ذلك، وثانياً، إنه مأخوذ بعض الشيء بالخرافة الذكورية القائلة إن الرجال أذكى من النساء. ومن الجهة الأخرى، لو سافر الملك إلى مناخات جنوبية والتقى يسوعياً ماكراً يعرف كيف يجعل نفسه مثيراً للاهتمام لكان في منتهى السهولة على القس اليسوعي أن يخدع عاهل الدنمارك كريستيان وأن يستغفله بحيث يبدأ برؤية أشباح في وضح النهار.

في الوقت الحاضر كان الملك يقف وجهاً لوجه مع كيركغارد الذي لم يكن يسوعياً ولا شبحاً لكنه لم يكن شخصاً اعتيادياً كذلك، وفي كل الأحوال كان يعرف كيف يفيد من خدمة ملكية. وبارتياح لا يُخفى لاحظ إن الأشخاص المرموقين الذين فرحوا في السابق لمصابه العلني في أعقاب نزاعه مع مجلة كورسارن سيغيِّرون لهجتهم حين عرفوا إنه كان يخالط في الخفاء ملكاً مطلقاً. والأكثر من ذلك - كما علمنا من عبارة ثانوية - إنه كان يستخدم هذه الزيارات الرسمية ليكون جديراً بتسنم منصب رسمي محتمل. وفي مرحلة من حوارهما الثاني تحدث الملك بحماسة عن سورو وسأل كيركغارد إن كانت لديه رغبة بمنصب في تلك الأكاديمية الرفيعة. كانت سورو بعيدة جداً - والأكثر من ذلك إن كارستن هاوخ وغيره من الخبثاء المتعاطفين مع بي. إيل. مولر كانوا هناك - فكان على كيركغارد أن يجد مخرجاً من ذلك. وكان كيركغارد عَلِم من الجريدة إن الملك خرج في ذلك الصباح لممارسة صيد الأسماك، ولذلك أجاب بحكاية صغيرة مؤداها إن الصيادين، بالإضافة إلى الطُعم الاعتيادي الذي يستخدمونه، لديهم طُعماً صغيراً غريباً يصطادون به أفضل الأسماك - وأنا مثل هذا الطُعم الصغير الغريب.

عند ذاك صرف الملك النظر عن سورو وسأل - في إشارة ضمنية إلى احتمال

مكرمة صغيرة - إن كانت لدى كيركغارد مشاريع للسفر. أجاب كيركغارد إنه ليست لديه أي مشاريع ولكن إذا سافر فإنها في أقصى الأحوال ستكون رحلة قصيرة إلى برلين. وتساءل الملك بكرم لا بد أن يكون لديك الكثير من المعارف الشيقين بكل تأكيد. فكان جواب كيركغارد كلا، يا صاحب الجلالة، في برلين أعيش معزولاً عزلة كاملة وأشتغل بمثابرة قصوى. وكان واضحاً إن الملك لم يفهم كلمة واحدة من ذلك. وهتف مستمتعاً من كل قلبه بظرافته ولكنك في هذه الحالة تستطيع السفر إلى سموروم - أوفره [قرية ريفية صغيرة]. كلا، يا صاحب الجلالة، سواء أسافرتُ إلى سموروم - أوفره أو سمورموت - نيدره، لن أكون مجهول الهوية، ولا إمكانية للاختفاء من أربع مئة ألف شخص. وأراد كيركغارد أن يكون هذا ملاحظة دقيقة صغيرة ولكن الملك على ما يبدو صرف النظر عن فكرة الاستثمار في حامل شهادة الماجستير الضئيل غريب الأطوار ولذلك اكتفى بالإجابة نعم، هذا صحيح تماماً.

بدا من الضروري الانتقال إلى موضوع جديد، ولذلك سأل الملك شيئاً ما عن فلسفة شيلنغ، وحاول كيركغارد بسرعة أن يعطيه فكرة عما ينطوي عليه ذلك. وكانت في ذهن الملك أيضاً علاقة شيلنغ بالبلاط البروسي الذي كان في السابق مشبعاً بالفلسفة الهيغلية بالطبع، وسارع كيركغارد إلى التعليق قائلاً إن وضع شيلنغ ربما كان شبيهاً بوضع نهر الراين الذي يصبح راكداً في منبعه - وهكذا فإنه يصبح مصاباً بفقر دم في صفته من أصحاب السعادة الملكية البروس. وبما أنهما يتحدثان عن رؤى تنبؤية فإن الملك وجد من المناسب توجيه الحديث نحو الشيوعية التي من الواضح أنها كانت تقلقه وتخيفه. وبقدر ما كان كيركغارد يستطيع أن يستشف، لم يكن هناك مسوِّغ للقلق لأن الحركة الوليدة لن يكون لها شأن مع الملوك: ستكون معركة بين طبقة وأخرى، ولكن سيكون دائماً من مصلحة الأطراف المتعادية أن تكون لديها علاقة طيبة بالملك. وحدثت المشكلة نفسها في أزمنة قديمة وهي تتكرر الآن، وكان من السهل أن نرى إن الملك سيكون بطريقة ما بعيداً عن الصراع. وستكون هناك عداوات كتلك التي تحدث في منزل، بين القبو والطابق الأرضي وبين هذين الاثنين والطابق التالي، إلخ، ولكنها لن تهاجم المالك. وبعد تعليقات تكتيكية تتناول كيف ينبغي دائماً ألا يكافح المرء إلا بصورة غير مباشرة ضد الجموع التي يجب اعتبارها امرأة في هذه الدراما، ختم كيركغارد محاضرته المرتَجلة بملاحظة إن

ما يحتاجه العصر حقاً هو بكل بساطة تربية، لأن ما يؤول بسهولة إلى عنف في بلدان كبيرة سيؤول في الدنمارك إلى مجرد شقاوة. وبالطبع فإنه كان مصيباً في ذلك، وحين بدا الملك مطمئناً وطفق يمدح فيلسوف بلاطه الضئيل على كلماته الحكيمة بذكاء لماح، انتهز كيركغارد الفرصة ليعلب ورقته الرابحة: يستطيع جلالتكم أن يرى قطعاً بالنظر إليَّ إن ما أقوله صحيح لأن كل شيء ينبثق عندي في الحقيقة من حسن التربية - ولذلك هو نابع من والدي.

كانت زيارة كيركغارد في تشرين الأول/ أكتوبر 1847 زيارته الأخيرة. إذ توفي الملك كريستيان الثامن بعد ثلاثة أشهر. فهو أيضاً أُحسنت تربيته، ولذلك ضرب الحيطة عرض الحائط في كانون الثاني/ يناير 1848 وتحدّى برد الشتاء القارس بالصعود على متن الفرقاطة فالكيري لتوديع أفراد طاقمها الذين كانوا على وشك الإبحار إلى الشرق الأقصى. وإذ شعر الملك بالدفء خلال مشيته إلى السفينة فإنه خلع قبعته ليقف حاسر الرأس خلال إلقاء كلمة أمام البحارة ولكن بما أنه كان ضعيفاً بعض الشيء فقد أُصيب بنزلة برد شديدة حاول طبيب البلاط أن يشفيه منها بسحب الدم منه. وأدى هذا إلى عدوى تفاقمت إلى تسمم في الدم، وتوفّي الملك نتيجة ذلك في 20 كانون الثاني/ يناير عن واحد وستين عاماً. وفي اليوم التالي أُعلن فريدريك السابع نجل كريستيان الثامن ملكاً جديداً. وكان هذا سكيراً وزير نساء منذ شبابه المبكر، وبمرور السنين أصبح مختل العقل تماماً لا يملك أي سيطرة على نفسه. وشارك في حفلات واحتفالات من كل صنف وفي عدد من المناسبات كان كابتن المغترِّين في ساحة للرماية. وكان فريدريك السابع مرحاً وشعبياً حتى إنه عندما أراد طلاب الجامعة أن يبحروا إلى ستوكهولم، أعارهم سفينة حربية. ولم يتمكن قط من الاقتناع بأي زيجة من الزيجات الملكية التي حاول أشخاص ترتيبها له في أحيان كثيرة، وانتهى به المآل إلى الوقوع في حب راقصة الباليه السابقة لويزا راسموسن التي كانت تكسب رزقها من صنع القبعات. وكان لديها متجر في فيملسكافكيت وفي واجهته دمية آلية من الشمع - ولكن تعين عليها الآن فجأة أن تقوم بدور الكونتيسة دانر.

ريجينة شليغل

المرة التالية التي زار فيها كيركغارد لينغبي، بتاريخ 3 تشرين الأول/ أكتوبر 1847، لم تكن تمت بصلة إلى العائلة المالكة بل للابتعاد عن كوبنهاغن بكل

بساطة، لأنه في ذلك اليوم تزوجت ريجينة أولسن من فريدريك شليغل في كنيسة منقذنا في كريستيانسهافن - وخرقت بكل تأكيد العهد الذي ظن كيركغارد إنهما قطعاه لأحدهما الآخر. وكتب كيركغارد في يومياته: إني إذ أستحضر نوعاً غريباً من الماسونية، أستطيع أن أتخذ من كلمات الشاعر هذه شعاراً لِقِسم من مكابدات حياتي / Infandum me jubes Regina renovate dolorem. وكان كيركغارد يقتبس الشاعر فيرجل، وتعني الكلمات المقتطفة من الإنيادة أنتِ تأمرين يا ريجينة بأن عليَّ أن أُجدد معاناة لا توصف. وتابع كيركغارد، بمرارة أكثر منها بارتياح: الفتاة سببت لي ما يكفي من المتاعب، وهي الآن - ليست ميتة - بل متزوجة بسعادة وهناء. قبل ست سنوات في مثل هذا اليوم قلتُ شيئاً كهذا - وسُميتُ أشد الخسيسين خسة - غريب!

قبل ما يربو قليلاً على شهر من ذلك، في 29 أيلول/ سبتمبر نشر كيركغارد أعمال الحب، الذي وصف فيها ظاهرة الطمع، التي هي في قاموسه رديف الحسد أو الغيرة. الحب الآني يمكن أن يتحول داخل نفسه، وبواسطة الاحتراق العفوي يمكن أن يصبح طمعاً... الشخص الطماع لا يكره موضوع الحب، بأي حال من الأحوال، لكنه يعذِّب نفسه على نار الحب المتبادَل، الذي ينبغي أن يكون له تأثير تطهيري وينقِّي حبه. وبتوسل تقريباً، يجمع الشخص الطماع كل شعاع من حب المحبوبة ولكنه داخل زجاجة طمعه المحترقة يركِّز هذه الإشعاعات على حبه هو، ويحترق ببطء. قد نظن إن كيركغارد كتب هذه السطور على أساس خبرته المؤلمة، ولكن بعد عامين، حين عاد مرة أخرى إلى العلاقة معها، تعجَّب من موضوعيته ذاتها إزاء ريجينة وإزاءه، الشخص الآخر: من المؤكد أن شليغل رجل محبوب. وأنا حقاً أعتقد أنّها تشعر بالسعادة معه. ولكن هذه الفتاة آلة لا يعرف العزف عليها. فهي قادرة على صنع أصوات أنا [وحدي] أعرف كيف أستدعيها. وهكذا لم يكن لدى كيركغارد سبب للطمع بل يزعم بمفردات واضحة إن زواج ريجينة هو بالنسبة له قضية لامبالاة عظمى، والشيء الوحيد الذي يهمني هو ما إذا كان سيجعلها سعيدة ويجعل حياتها أجمل. ولهذه الأسباب ذاتها لم يكن قادراً على التحرر من ريجينة، وفي الفقرة التي كتبها في يومياته عن حياته العاطفية الديالكتيكية وصف ذلك على نحو كاشف بأنه الكلمة الأخيرة، في الوقت الحاضر.

تزوجت ريجينة زواجاً صالحاً. وكان فريتز، كما يسميه أصدقاؤه، من

مواليد 22 كانون الثاني/ يناير 1817، فاحتفل بعيد ميلاده قبل يوم على عيد ميلاد ريجينة - كانت هي من مواليد 23 كانون الثاني/ يناير 1822. وبالتالي كان مكتوباً في النجوم من الناحية العملية إنهما سينتهيان مع أحدهما الآخر! هو دخل الجامعة من المدرسة المتروبوليتانية في عام 1833، وتخرج من كلية القانون عام 1838 ثم سرعان ما ارتقى السلَّم الحكومي. وفي عام 1842 كان متدرباً في وزارة المالية حيث أصبح مدير مكتب في عام 1847، وفي العام التالي عُين رئيس المكتب الكولونيالي، الذي يعادل بصورة تقريبية مدير قسم في وزارة المالية اليوم. واستطاع لاحقاً أن يضع وراء اسمه ألقاباً مثل رئيس أعلى (في حكومة مدينة كوبنهاغن) ومستشار خاص. ولم يكن فريتز مجرد دبلوماسي بالمهنة بل كان كائناً دبلوماسياً، رجلاً متفهماً واصل الحب من حيث قطعه كيركغارد. وكان فريتز وريجينة خلال خطوبتهما يقرآن لأحدهما الآخر بصوت عالٍ من كتابات كيركغارد، والمؤكد أن فريتز المهتم بالأدب، لم يكن غافلاً عن عظمة هذه الكتابات. وفي عام 1875 حين زار فريتز المفتش أوتيسن الذي كانت لديه بورتريهات لكل من غروندتفيغ وكيركغارد معلقة جنباً إلى جنب على الجدار، قال إنه بعد زمن طويل على انتهاء تأثير غروندتفيغ وزواله سيكون كيركغارد ما زال حياً! كما كان متذوق فن، وبعد وفاته ترك مجموعة ثمينة من المنقوشات والمحفورات، وكما سبق ذكره، مكتبة كبيرة.

كان شليغل عملياً نقيض كيركغارد: مستقر، منسجم، متعافٍ، لا يمارس المفارقة، وصبور. وهكذا كان مخلوقاً للزواج، تجسيداً للقاضي وليام - ولكن ممل أكثر منه على الأرجح. وكان كيركغارد وصف في إطار نقاشه الطمع في أعمال الحب، كيف يمكن أن تتسلل العادة إلى الحب فيفقد حرارته وبهجته ومتعته وأصالته وعذوبة حياته. وما يُقال بين السطور إن العادة تشكل خطراً خاصاً على الحدة الإيروتيكية للحياة الزوجية المشتركة، وبنبرة دراماتيكية واصل كيركغارد: هناك وحش مفترس معروف بدهائه يتسلل ثم ينقض على النائمين. وفيما هو يمتص دم النائم يمرر عليه نسمة خفيفة تجعل نومه حتى أكثر هناء. هكذا هي العادة - أو حتى أسوأ لأن الوحش الآخر يبحث عن فريسته بين النائمين لكنه لا يعرف سبيلاً إلى هدهدة المستفيقين حتى ينيمهم. العادة، من الجهة الأخرى، تفعل ذلك. إنها تتسلل إلى الشخص، تهدهده حتى ينام، وعندما يتحقق ذلك تمتص دماء النائم أثناء تمرير نسمة باردة عليه فتجعل نومه حتى أكثر هناء. هكذا هي العادة.

وحب كيركغارد لريجينة لم يصبح قط تافهاً يبعث على النعاس هكذا. ولهذا السبب كان على قدر كبير من الفائدة أن تلتقيه ريجينة في المدينة وأن تعيش مرة أخرى، لبضع ثوانٍ، شيئاً من المرجح إن فريتز الوديع لم يفهمه على الإطلاق.

الحكومة الشعبية هي الصورة الحقيقية لجهنم

شاء القدر بصورة غريبة إن كارل ماركس - الذي جاء إلى العالم في عيد ميلاد كيركغارد الخامس - كان في بروكسل مع فريدريك أنغلز يكتب البيان الشيوعي وقت كان كيركغارد يكتب أعمال الحب. وبالطبع فإن العمل الأول كانت له آثار أبعد مدى مما تصور كيركغارد يوم طمأن الملك إلى أن القضية كلها ليست إلا شِجاراً منزلياً في الطوابق السفلى من البيت. صدر البيان الشيوعي في شباط/ فبراير 1848 ونُشرت طبعة دنماركية منه بعد أربع سنوات، ولكن كيركغارد لم يقرأه قط، ولذلك ليس من الواضح تماماً ماذا كان يدور في ذهن كيركغارد عندما كتب عن الشيوعية. ومع ذلك، ليس هناك شك في أنّه كان ضدها، بقوة في الحقيقة، كما نستطيع أن نرى من ازدرائه العام للعملية السياسية التي سماها تسوية أدت إلى تطبيق الديموقراطية في عام 1849.

الدولة انقلبت عاليها سافلها وأصبحت تقف على رأسها، هو وصف كيركغارد الدقيق للشقلبة التي انقلبت فيها أولويات كانت تعتبر طيلة أجيال أقرب إلى الحقائق الأزلية، في ظرف سنوات قليلة. وأن تتقرر الحقيقة عن مسألة ما بشيء عَرَضي مثل رقم عددي تكون فيه قيمة صوت كل شخص مساوية لقيمة صوت أي شخص آخر، فإن هذا بدا أمراً غير طبيعي مثلما يبدو اليوم من أكثر الأشياء طبيعية. وليس بالمأثرة الكبرى أن يُسمى كيركغارد ظلامياً قروسطياً يرتعب من مجرد فكرة شيء صاخب وسهل القياد مثل حكم مطلق لكنه متنور. وعلى الغرار نفسه من السهل تصويره رجعياً معادياً للديموقراطية، ليس لديه أي اكتراث حتى بأكثر المطالب عقلانية بتحسين ظروف أُولئك الذين في قعر الهرم الاجتماعي لأن كيركغارد بوصفه من أفراد شريحة اقتصادية وفكرية عليا، كان يمتلك كل ما يحتاجه في داخله الديني. وإذا كان هذا هو كل ما يهمنا فإننا نستطيع أن نذكر كليماكس الذي يمتدح في موضع من حاشية ختامية غير علمية الحريات في دولة حسنة التنظيم ويخلص إلى: إن من بين كل أشكال الحكم فإن شكل الحكم الملكي هو الأفضل. فهو يدعم التخيلات الهادئة

والحماقات البريئة للأفراد ويحميها أكثر من أي شكل آخر. والديموقراطية، أكثر أشكال الحكم طغياناً، وحدها التي تُلزِم كل شخص بالمشاركة النشيطة، الأمر الذي يجري تذكير المرء به في أحيان كثيرة بما فيه الكفاية من خلال الجمعيات والمجالس العامة في زمننا. أهو استبداد حين يريد شخص واحد أن يحكم مستبعدنا نحن الباقين؟ كلا، ولكنه استبداد حين يريد الجميع أن يحكموا. وتجعل فقرة من اليوميات عام 1848 من الواضح إن كيركغارد متفق اتفاقاً كاملاً مع كليماكس: من بين كل أشكال الاستبداد فإن الحكومة الشعبية هي الأشد قسوة، الأكثر تجرداً من الروح، الخراب المطلق لكل ما هو عظيم وسام. فالمستبد، رغم كل شيء، ليس إلا كائناً بشرياً واحداً. وهو عادة تكون لديه فكرة، حتى إذا كانت أكثر الأفكار لا معقولية... ولكن في الحكومة الشعبية يكون ند المرء هو الحاكم، الذي يُعنى بأشياء من قبيل ما إذا كانت لحيتي تشبه لحيته، وإن كنتُ أزور حديقة الغزلان في وقت زيارته لها، وإن كنتُ مثله ومثل الآخرين تماماً... إن الحكومة الشعبية هي الصورة الحقيقية لجنهم.

نقد كيركغارد لبزوغ عصر الحكومة الشعبية لا تُخطئه العين، ولكن هذا لا يعني إنه كان بكل بساطة يفضل القديم على الجديد، أو السلطوي على الديموقراطي، أو التجييش على تقرير المصير. ذلك إن نقائض كهذه إنما هي شديدة التبسيط ولا تعبر بالمرة عن راديكالية البديل الذي بدأ يتشكل لديه.

وتبدت أفكاره الآخذة بالتطور عن الموضوع بصفة خاصة في عمله مراجعة أدبية الذي نُشر في 30 آذار/ مارس 1846. وتتخذ صفحاته الخمسون شكل مراجعة إيجابية جداً لرواية مسز غيليمبورغ القصيرة عصران، تضمنت وقفة استرجاعية مع عملها الآخر قصص من الحياة اليومية. ولكن كيركغارد ذهب أبعد وراجع عصره هو أيضاً. وكانت الصورة لا تبدو وردية. صحيح إنه يؤكد لنا إن تفسيره لرواية مسز غيليمبورغ القصيرة لا يخرج شيئاً منها ليس موجوداً فيها ولكن من الواضح للجميع إن المراجعة تتضمن مقاطع طويلة تماماً يقرأ فيها آراءه هو في نص مسز غيليمبورغ. وحين أعربت عن شكرها على النسخة التي أرسلها كيركغارد إليها من مراجعة أدبية فإنها هي أيضاً تجعل هذا واضحاً مشيرة إلى أنها حين تعقد مقارنة مع هذا الكتاب المترع بمثل هذه الملاحظات العميقة، النبيهة والطريفة فإن روايتي القصيرة تبدو لي عملاً رومانسياً بسيطاً أخذ منه الموتيف شاعرٌ لكتابة دراما مكتملة الشكل.

كان تواضع مسز غيليمبورغ ساحراً لكنه كان في مكانه أيضاً لأن الحقيقة هي إن روايتها القصيرة لم تكن تحفة أدبية، ولا اهتمام كيركغارد بها استثارته على نحو خاص صفاتها الأدبية بقدر ما استثارته الحقب التي تشكل خلفية الكتاب: تسعينات القرن الثامن عشر الثورية بعواطف متقدة وأربعينات القرن التاسع عشر الهيابة العاقلة. وكانت مسز غيليمبورغ تفضل العصر الأول من العصرين على علاته ومثالبه، وكذلك كيركغارد لأنه، كما يكتب في تلخيص الاختلافات بينهما: عموماً، بالمقارنة مع عصر متقد عاطفة، يمكن القول عن عصر بلا عاطفة لكنه عصر تأملي إنه يكسب في السعة ما يخسره في الكثافة.

حقيقة إن العصر عصر بلا عاطفة متقدة هي الحكم السلبي الذي يمنح مراجعة أدبية نبضه السجالي. ولذلك ليس مستغرباً إن البورجوازي المبتذَل، الحذر (في عدد من الأشكال الكاريكاتيرية بهذا القدر أو ذاك)، في المقام الأول، هو صاحب الحظ المنكود لأنه ليس بارداً ولا ساخناً لكنه دائماً ينفذ من خلال حلقة نافعة: العصر المنهَك بجهود وهمية يستريح من جرائها لبرهة في خمول كامل. حالته شبيهة بحالة شخص ينام حين يقترب الفجر: أحلام عظيمة، ثم خَدَر، ثم فكرة طريفة أو ذكية للاعتذار عن حقيقة بقاء المرء في الفراش.

بورجوازي المدينة الراضي عن نفسه في استرخائه الكسول هو رمز انهيار البُعد العمودي، سقوط كل المراجع التي كانت لا تهتز في السابق، الدينية والسياسية. المركز الآن في كل مكان. وبخلاف عصر الثورة، حين كانت تجسيدات السلطة على اختلافها تُشجَب بصورة علنية وواعية، فإن عصر العقل يتسم بإفراغ شرعية المؤسسات وماهية الرموز تدريجياً: الشعب لا يريد إلغاء المَلَكية بأي حال. ولكن إذا استطاع أن يحولها شيئاً فشيئاً إلى فكرة خيالية فإنه يمكن أن يهتف بسرور، عاش الملك! وهو يرغب في السماح باستمرار وجود اللغة المسيحية كلها وفي الوقت نفسه يكون رأيه في الخفاء إن لا شيء حاسماً يُقصد بها في الحقيقة. ويكاد أن يجد القارئ من المغري الاعتقاد بأن تشخيصات كيركغارد للعصر تشخيصات ما بعد حديثة، قبل أن تصبح حديثة لتكون ما بعد حديثة بوقت طويل.

كان كيركغارد من أول الذين رأوا كيف أن كل شيء يصبح مسرحيا بصورة متزايدة ولذلك يتحول إلى ديكورات مسرحية، إلى برانية، إلى فن هابط،

سراب. ولا يعود المجتمع يتكون من أفراد أو جماعات منقسمة إلى تراتبية اجتماعية؛ كلا، بل يتألف من كتلة غير متمايزة هي الجمهور. وبنبوءة مخيفة وصف كيركغارد ظاهرة الجمهور بأنها أخطر القوى قاطبة وأكثرها تفاهة. أخطرها لأن الجمهور يسير ما أن يقول أحد ما سر! وأكثرها تفاهة لأنه لا يحلم أبداً بطرح أبسط الأسئلة، الأمر الذي يجعل قوته متناسبة بهذا القدر وذاك مع كونه مجهول الهوية.

تحليلات كيركغارد للجمهور بوصفه سيد التسوية العظيم تشكل تحديداً لماحاً لمعالم آليات السيكولوجيا الجماعية، ولكنها تكشف أيضاً عن ظاهرة كان لها موقع بارز في لغتنا منذ زمن كارل ماركس، هي ظاهرة الاغتراب أو الاستلاب. وعلى غرار ماركس فإن كيركغارد أدرج عدداً من العوامل الاقتصادية والمادية في تحليلاته، لكنها لم تكن مرتبطة قط بأي برنامج سياسي براغماتي وكانت لا تنحو باتجاه أي شيء يمكن أن يلمِّح حتى تلميحاً إلى إصلاحات اجتماعية أو اقتصادية. ليس في عام 1846 على أية حال. فأن يصبح المرء نفسه إنما هو مشروع فردي وليس هماً جماعياً، ولهذا السبب تكون الظروف المادية بلا أهمية حاسمة.

في الوقت نفسه، نتيجةً للتغيرات التي أطلقها الانتقال من الحكم المطلق إلى الديموقراطية، حل محل الخوف من المراجع العليا خوف من التميز عن الآخرين، خوف من الوقوع خارج الاعتيادي. وفي السابق كانت هوية الفرد تتحدَّد أساساً بموقعه في الهرم الاجتماعي، الذي تستطيع حثالة المجتمع أن تنظر من قاعدته نحو الأعلى، من خلال البناء التراتبي الكبير، إلى أصحاب السلطة الأكبر ثم أكبر متوَّجةً بالملك الذي كان ظل الله في الأرض ولذلك كان ملكاً بلطف من الله.

بانهيار هذا الهرم تُرك الناس في أرض مسطحة تعمها الفوضى، أو في فراغ حيث يبدؤون مقارنة أنفسهم مع بعضهم البعض ليصبحوا غرماء. وهكذا فإن التسوية لم تفض إلى مساواة الجميع بل إلى ضآلة مزدَحمة وعسرة، حرب الجميع ضد الجميع: أصبحت العلاقة مشكلة حيث الفرقاء بدلاً من التواصل مع بعضهم البعض يحْذَرون من بعضهم البعض كما في لعبة. باختصار، إن موقع السلطة اغتصبه الامتثال، والاحترام تحول إلى حسد، وما كان ذات يوم

مخافة الله أصبح مخافة الإنسان. ويستثمر كيركغارد مبدأ فيزيائياً في تفسير ذلك: الهواء القريب يكون دائماً مؤذياً.

ولكي يوضح كيركغارد كيف يفقد البطولي طابعه التمثيلي يقدم إلى القارئ لوحاً مزدوجاً (دبتك) يصور عصر العاطفة وعصر العقل. فإن كنزاً نادراً، يتمناه الجميع، يوجد بعيداً على طبقة رقيقة من الجليد بحيث كل من يخرج لاستعادته يعرِّض نفسه إلى خطر قاتل. ولكن البطل، الذي يجرؤ بالطبع حيث يخاف الآخرون، ينطلق بحضور الحشد المبهور الذي يعلق كيركغارد على ردود أفعاله: [الحشد] سيرتجف له ومعه في الخطر القاتل وراء قراره، وسينعيه في موته، ويؤلهه إذا حصل على الكنز. ثم يكرر كيركغارد المشهد ولكن ما كان في السابق حشداً مبهوراً يصبح الآن جمهوراً بلا روح يحسب عقلانياً إلى أي مدى تكون مثل هذه المأثرة في الجرأة مجديةً: يخرجون إلى هناك ويقفون حيث يكون المكان آمناً وسالماً، ويتظاهرون بكونهم خبراء، ويقيِّمون المتزلجين الماهرين الذين يستطيعون التزلج إلى أبعد حافة... ثم يعودون. ويكون بين المتزلجين أحد ذو موهبة استثنائية قادر حتى على مأثرة الوصول إلى الحافة القصوى باذلاً محاولة أخرى، مفعَمة بمظهر الخطر الخادع لكي يهتف الحشد «يا إلهي، إنه مجنون، إنه يخاطر بحياته!» ولكن أو لا ترون، إنه ذو مهارة استثنائية بحيث كان في الحقيقة قادراً على الاستدارة عند الحافة البعيدة القصوى، أي حيث ما زال الجليد أميناً تماماً والخطر القاتل لم يبدأ بعد. وكما في المسرح يهتف الحشد برافو! ويحييه بالتهليل. ثم يعودون إلى بيوتهم جالبين معهم الفنان البطولي الكبير، ويكرمونه بباقة زهور باذخة. لقد أصبح العقل سائداً حتى إنه حوَّل التحدي نفسه إلى حيلة غير حقيقية والواقع إلى مسرح.

وفي حين إن بطل العاطفة المتقدة كُرِّم لأنه وحده غامَرَ إلى حيث لم يجرؤ أحد على الذهاب، فإن بطل العقل احتفي به لأنه عرف كيف يحاكي جدية الخطر - أي كيف يحوِّل مأثرة باهرة في الجرأة إلى حيلة بهلوانية. ويلقى التحول المشوه من هذا النوع ترحيباً، أولاً، لأن الخداع الذاتي الجماعي أسهل على التحمل من حسد ذلك الفرد، وثانياً، إن التسوية فككت الوظيفة التمثيلية التي كان البطل يؤديها في السابق أيام كان يستطيع أن يبتهج بفكرة ما يعنيه أن يكون المرء كائناً بشرياً.

هذه هي فكرة الديني

لم يسمح كيركغارد لنفسه بأدنى قدر من السذاجة في تحليلاته لوضع عصره. كان يدرك واقع التسوية ولم تكن لديه أوهام بأن ما حدث في الماضي لا يمكن أن يُعاد بناؤه. ولذلك فإن الأكثر مدعاة للاستغراب أن نرى إنه أبدى، إلى حد معين، تأييده للتسوية. وكان صحيحاً بالطبع إن إلغاء القوى والسلطات الملموسة بحد ذاته كارثة لأن غيابها يطلق فوضى مجتمعية غريبة. ولكن الصحيح أيضاً إن هذه الإلغاء يتيح للفرد، المتخفف الآن من كل الأعباء المؤسسية – وخاصة الكنسية – أن يتواصل مع الله بصورة مباشرة. ويكتب كيركغارد كاشفاً عن تأرجحه بين التفاؤل الاجتماعي – النفسي والتفكير الديني الرؤيوي: ما من عصر يستطيع أن يوقف الشك بالتسوية، ولا العصر الحالي يستطيع ذلك... لا يمكن وقفُه إلا إذا اكتسب الفرد، في انفصال فرديته، شجاعة الدين الذي لا يعرف الخوف.

كان هذا في آن واحد كابوس كيركغارد وأمله المتناقض. فمهمة الاغتراب هي تدعيم انفصال الفرد عن المجتمع وترك الشخص المنفصل عنه يهتم بتربيته الدينية الخاصة. والفرد يجب ألا تمثله مراجع أخرى عليا بل أن يكون هو ممثل نفسه – أي أن يكون نفسه – وهذا يجب أن يحدث من دون شبكة الأمان التي كانت المؤسسات المختلفة تضعها تحت الفرد في السابق: التسوية نفسها أصبحت المسؤول الصارم الذي يأخذ على عاتقه مهمة التربية. والشخص الذي يتعلم أكثر ما يتعلمه من هذه التربية ويصبح أقصى ما يمكن أن يصبحه، لا يصبح الشخص المتميز، البطل، الاستثنائي – فالتسوية تمنع ذلك... كلا، إنه لا يصبح إلا كائناً بشرياً من حيث الجوهر بالمعنى الكامل للمساواة. وهذه هي فكرة الديني. وهكذا فإن التسوية تضع الفرد أمام خيار جذري: إما أن يضيع في دوامة اللانهاية المجردة أو أن يُنقَذ بصورة لا نهائية في جوهرية الديني. وبهذا القدر تُنبئ تطورات الزمن الحديث بنوع من التقدم، هو إن الأفراد الذين يُنقَذون يكتسبون الثقل النوعي للديني، يكتسبون جوهريته مباشرةً من الله.

ولكن في الوقت نفسه فإن أمل كيركغارد المتناقض، فكرة وجود نوع من التدين المُمَقرَط، تفترض مسبقاً إن تمايزاً يتعين أن يُدخل في اللاامتمايز. وإن أحداً ما يجب أن يفتح عين العصر على وضعه، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا

بأن يُرى شيئاً يختلف اختلافاً تاماً عن نفسه. وهذا هو نوع الاختلاف الذي ينشأ في القسم الأخير من مراجعة أدبية حيث يكتب كيركغارد مقترباً من التلغيز: بالفعل المكابِد وحده يجرؤ المرء الذي لا تُعرف هويته على أن يساعد التسوية في تقدمها، وبهذا الفعل المكابِد نفسه سيصدر حكمه على الأداة المستخدَمة. فهو لا يستطيع التجرؤ على دحر التسوية بصورة مباشرة. ولكنه سيهزمها في المكابدة وبذلك يعبر مرة أخرى عن قانون وجوده، الذي هو ليس أن يأمر أو يحكم أو يقود بل أن يخدم في المكابدة، أن يساعد بصورة غير مباشرة.

لعلنا نسأل، ما هو الفعل المكابِد؟ وكيف يمكن لشيء متناقض مثل الفعل المكابِد أن يدعم التسوية وفي الوقت نفسه يصدر حكمه عليها؟ هذا لا يكون واضحاً على الفور ولكن يتضح تدريجياً إن الفعل المكابِد هو إعادة كيركغارد صياغة الاستشهاد صياغة استعارية بهذا القدر أو ذاك! وهكذا فإن تناظراً يكشف عن نفسه في عمق النص: عصر العاطفة يقابله البطل، وعصر اللاعاطفة يقابله البطل الضد، الشهيد. وفي حين إن البطل يميز نفسه بقوة إرادته فإن الشهيد يتميز بقوة لا إرادته – وإن اقتضى التنويه بأن إرادة اللا قوة هذه بوصفها إرادة، لا تقل بطولة عن قوة إرادة البطل. ولذلك فإن هذه الإرادة يمكن أن تتضمن القدرة على إحداث الكارثة، أي الكارثة التي ستحل بفهم المجتمع لذاته إذا وقف شهيد فجأة وسط المجتمع.

لم يرغب كيركغارد في مواصلة تطوير هذا الأمر أبعد في عمله مراجعة أدبية، وبالكاد وضع نقطة في نهاية الجملة التي تتحدث عن الفعل المكابِد قبل أن يبدأ قسماً جديداً كرر فيه الممارسة المعهودة لأسمائه المستعارة: بتكشيرة غريبة أصر كيركغارد على أن القضية كلها لم تكن في الحقيقة إلا عبث لا يزيد أهمية على لعب البولنغ أو التدحرج على برميل. ومع ذلك، كان هذا أكثر من تجربة تافهة، وفي عام 1849 لاحظ كيركغارد بوعي ذاتي إن اللافت حقاً هو قراءة وصف المستقبل الموجود في نهاية مراجعة أدبية لرواية «عصران» القصيرة ثم التفكير كيف تحقق ذلك بسرعة ودقة بعد عامين في 1848. وكتب شيئاً مماثلاً في وجهة نظر لعملي كاتباً حيث شدد مرة أخرى على أن القسم الختامي من مراجعة أدبية، القسم الذي يتناول الفعل المكابِد، قسم ذو أهمية حاسمة.

لذلك يمكن أن نسأل ما الذي حدث فعلاً في عام 1848؟

الفصل الأول. كلبان بدأا معركة. الحدث يسبب إثارة كبيرة. عدد لا يُصدق من الرؤوس تظهر في الشبابيك لإلقاء نظرة. وفيما تستمر المعركة تتوقف كل الأعمال. الناس يلقون كل ما بأيديهم. الفصل الثاني. سيدتان تخرجان من بابي أقرب منزلين إلى المعركة، كل سيدة من بابها. وتبدو هاتان السيدتان صاحبتي الكلبين. تصر إحدى السيدتين على أن كلب السيدة الأخرى هو الذي بدأ المعركة. وتحتد السيدتان بهذا الشأن حتى أنهما تبدأان العراك. لم أرَ أكثر منذ ذلك، ولكن بالإمكان أن يستمر العراك بكل سهولة. وهكذا في الفصل الثالث. يصل رجلان، زوجا السيدتين. يصر أحدهما على أن زوجة الآخر بدأت المعركة. ويحتد الرجلان حتى إنهما يبدأان العراك. بعد ذلك يمكن أن يفترض المرء إن مزيداً من الرجال والنساء يدخلون المعركة – وهي الآن حرب أوروبية، سببها السؤال عمن بدأها. أو لا ترون، إن هذه معادلة لحرب في الدرجة الثانية. فالحرب في الدرجة الأولى حرب، وفي الدرجة الثانية حرب على مَنْ بدأ الحرب الأولى.

أرسل كيركغارد هذه المسرحية الصغيرة ذات الفصول الثلاثة إلى رفيقه في نزهات المشي جي. أيل. أي. كولدروب – روزنفينغه في النصف الأول من آب/ أغسطس 1848. ومعركة الكلاب – أمر من المؤكد أن كيركغارد شهده – تصوير لافت لموقف كيركغارد، القائل فليحل الطاعون ببيتيكما، من الاضطرابات السياسية التي اجتاحت أوروبا وقتذاك. ويمكن أن نلاحظ، كأحد الظروف المخففة، إن عجرفته تضمنت مسحة فكاهية وإن في هذه الرسالة نفسها يعترف صراحة بافتقاده إلى الفطنة بشأن السياسة الواقعية: كلا، السياسة ليست لي. بالنسبة لي، عليِ الأقل، من المستحيل متابعة السياسة، حتى السياسة الداخلية، في هذه الأيام.

ولكن بعد خمسة أشهر لاقى كيركغارد نفسه، الذي في آب/ أغسطس 1848 وصف الأمر كله بأنه معركة كلاب، صعوبة في العثور على حس الفكاهة ذاته، وفي يوم الأحد 27 آذار/ مارس كتب في يومياته: وهكذا أجلس هنا. في الخارج كل شيء في حراك. الجميع يتحدثون عن التضحية بالروح والدم، وربما يكونون حتى مستعدين لذلك، ولكن بدعم رأي عام كلي القدرة. وهكذا أجلس

هنا في غرفة هادئة. الأرجح إني سأتعرض قريباً للشجب بسبب لامبالاتي تجاه القضية الوطنية: لا أعرف إلا خطراً واحداً، هو خطر الديني. ولكن لا أحد يهتم بذلك. ولا أحد يشك فيما يجري في داخلي. هكذا هي حياتي هذه الأيام. دائماً سوء فهم. في معاناتي لستُ مفهوماً - وأنا مكروه.

قبل أسبوعين على ذلك، في 11 آذار/ مارس، كان هناك ما وُصف بأنه لقاء الكازينو، وسُمي كذلك لأنه عُقد في المبنى الجديد لمسرح الكازينو في شارع أماليغاده. واشترى 2300 شخص تذاكر القاعة الكبيرة للاستماع إلى ذي العقل الراجح أتش. أن. كلاوسن H. N. Clausen وذي الذكاء اللامع أورلا ليمان Orla Lehmann يتحدثان عن ربط سليسفيغ والدنمارك وفق دستور حر. وفي المساء التالي كانت هناك أجواء من الإثارة في قاعة هيبودروم بشارع نوريغاده حيث تجمع عمال شباب طموحون واشتراكيون والبروليتاريا المتمردة بصدق للاستماع إلى الخطباء، بمن فيهم الجمهوري غولدشمدت، يدافعون عن قضية الحرية والمساواة والإخاء - ولكيلا يُنسى - حق الاقتراع العام. وفي 20 آذار/ مارس اجتمع قادة الليبراليين في مكاتب صحيفة فادريلانديت وأعدوا خطة قتالية. وفي تلك الأمسية نفسها سيعقد ممثلو حكومة المدينة جلسة طارئة ويوقعون خطاباً يطالب باستقالة الوزارة القائمة، وفي اليوم التالي يوجّه الخطاب إلى الملك غير الكفء فريدريك السابع. والأكثر من ذلك إن لقاء كازينو آخر سُيعقد لإصدار قرار يدعو إلى دستور حر للدنمارك - سليسفيغ. وكتب أورلا ليمان مسودة الخطاب التاريخي الذي اختتمه بتهديد لا يقبل اللبس بالثورة إذا لم يمتثل الملك الذي لم يجلس على العرش إلا منذ شهرين: نناشد جلالتكم ألا تدفع الأمة إلى مساعدة نفسها بباعث اليأس!

في فجر اليوم التالي، الثلاثاء، 21 آذار/ مارس، كانت الشوارع تغص بالناس. وتجمع قرابة عشرة آلاف أمام قلعة كريستيانسبورغ. واحتشد عدد مماثل في ميدان نيتروف أمام مبنى البلدية حيث افتُتحت الأبواب في الظهيرة، وطل أيل. إن. هفيدت L. N. Hvidt رئيس ممثلي حكومة المدينة ليعلن إن حكومة المدينة ضمت صوتها أيضاً إلى دعم المطالبة بتغيير الوزارة. وأطلق هذا هتافات التهليل من الحشد الذي سرعان ما بدأ يتحرك في فيملسكافتيت بطابور، عرضه ستة أشخاص متشابكي الأذرع، متوجهاً إلى قلعة كريستيانسبورغ حيث دخل وفدٌ كان هفيدت المتحدث باسمه، لتقديم الخطاب. كان الحشد هادئاً وبدا

الانتظار دهراً، ولكن أخيراً ظهر هفيدت، شعره الطويل منفوش بالكامل، وأعلن رد الملك: الوزارة حُلَّت! الواقفون على مقربة وحدهم الذين سمعوا صوته الخافت، ولكن عندما فهموا ما حدث هتفوا على الفور عاش الملك! - بعد ذلك انخرط جميع مَنْ في الميدان والشوارع الملاصقة في الهتاف. ولكن الملك لم يخرج على الشرفة لسماع هتافات الجمهور بحياته وسرعان ما فرغت الساحة التي أمام القلعة، فيما تبع كثيرون هفيدت في العودة إلى مبنى البلدية حيث أعلن مجدداً رد الملك. ثم توجه هفيدت، كعادته، إلى البورصة حيث بقي ساعة ومن هناك إلى البنك الوطني للقيام بوظيفته مديراً للبنك. وفي ذلك المساء تناول وجبة في مطعم أورستيدس. وهكذا لم تعد هناك ثورة في ذلك اليوم، وما كان اليوم لينتهي نهاية سلمية أكثر من هذه النهاية!

في اليوم التالي، 22 آذار/ مارس، شُكلت وزارة آذار/ مارس وهكذا حلت محلت الحكم المطلق في واقع الحال حكومة دستورية. وعينت الحكومة وزيراً لشؤون الكنيسة والتربية دي. جي. مونراد D. G. Monrad الذي استُقدم إلى العاصمة من أبرشيته في جزيرة لولاند حيث كان منهمكاً في ترجمة ألف ليلة وليلة. ولكنه كان يستطيع أن ينسى ذلك كله لأنه الآن وزير العبادات.

من نافذة شقته في 2 ميدان نيتروف كان كيركغارد يستطيع أن يرى جماهير الشعب المحتشدة ولكنه بقي داخل البيت بذكاء. ولا غروندتفيغ، حبيب الشعب - الذي هو نفسه عمل الكثير لجعل الحدث ممكناً - كان راضياً فبقي في شقته الكائنة على ركن فيملسكافتيت وكنابروستراده. والحقيقة إن غالبية المثقفين المعترف بهم فعلوا الشيء نفسه - البقاء في البيت. وطيلة اليوم كان كيركغارد يسمع أصواتاً صاخبة جعلته متوتراً وكتب الآتي في يومياته: كل حركة وتغيير يحدث بمساعدة 100 ألف أو 10 آلاف أو 1000 شخص صاخب، متذمر، هادر، مولول (كل شيء مثل قرقرة المعدة وهوائها) يكون بحكم هذا كله كاذباً، زائفاً، نكوصياً، لأن الله ليس موجوداً هنا إلا بشكل مشوَّش جداً أو ربما غير موجود بالمرة، ربما يكون الشيطان بالأحرى... الحاكم غير الكفء دستور أفضل بكثير من هذا التجريد، 100 ألف من اللابشر الهادرين. ثم يوسع كيركغارد نظرته لتشمل المسرح العالمي - التاريخي ويصدر حكماً كان سيجعل هيغل يتقلب في قبره: في النهاية، كل تاريخ العالم يصبح هراء. الفعل يُلغى تماماً... القلعة في باريس يقتحمها عدد غير محدَّد من الأشخاص

الذين لا يعرفون ما يريدون، بلا أفكار واضحة. ثم يهرب الملك. ثم تكون هناك جمهورية. هراء.

ذات مساء تحدث كيركغارد مع أي. أف. تشيرنينغ A. F. Tscherning، أحد قادة الحركة الليبرالية، وقال له إن الجمهورية الفرنسية نشأت بطريق الصدفة تماماً، مثل خطبة تُعقد في حفلة رقص خلال لحظة طائشة حين كانوا لا يعرفون ما يفعلون. وأشار تشيرنينغ إلى أنه يفهم بشكل جيد جداً ما قاله كيركغارد، ولكنه في اليوم التالي أصبح في الحقيقة عضو المؤتمر الدستوري الوطني بطريق الصدفة نفسها تماماً فيما أصبح في الوقت نفسه وزير الحرب، لديه مكاتبه الخاصة في أماليغاده! وهذا جعل كيركغارد يمقت السياسيين. وكان الوضع كله يذكِّره قبل كل شيء بعائلة تعمها الفوضى: إنه شبيه بالوضع في عائلة كان الوالدان غير قادرين على فرض طاعة الأطفال فيها. فيقول الوالدان، حسناً، الآن ستكونون أنتم أولياء الأمر ونحن نطيعكم، وستكون الأمور أفضل. وبما إن لدى الوالدين بعض الاحترام لما تعنيه الطاعة فإن الأمور تتحسن بالفعل لبعض الوقت. ولكن لبعض الوقت فقط ثم تعم الفوضى في كل اتجاه. كلا. تربية، تربية هي ما يحتاجه العالم. وهذا ما كنتُ دائماً أتحدث عنه. هذا ما قلته لكريستيان الثامن. وهذا ما يعده الناس أكثر الأشياء التي لا ضرورة لها.

ربما سيُقرع ناقوس الإنذار في المعسكر وأنا أكون الضحية المعتدى عليها

خلال هذه الأوقات المضطربة جلس كيركغارد يصحح صفحات النص المطبوع لعمله حوارات مسيحية. وكان كيركغارد دفع المخطوطة إلى المطبعة في 6 آذار/ مارس 1848، عندما كان كل شيء لم يزل على ما يرام، ولكن بعد ذلك بفترة وجيزة كانت هناك فوضى سياسية عارمة، وتحت تاريخ 27 آذار/ مارس نقرأ الآتي في يومياته: مرة أخرى فكرتُ للحظة بقلق في مسؤوليتي بترك خطابات مسيحية، ولا سيّما الجزء الثالث، يصدر في هذا الوقت. ما كُتب هناك كُتب في ظروف مختلفة تماماً، وأن أتركها تُقرأ في الظروف الراهنة إنما هو خطر عليَّ في الحقيقة. لكني لا أستطيع أن أفعل خلاف ذلك. فالحاكمية الإلهية رتبت الأمر لي بهذه الطريقة. وصدر خطابات مسيحية في 26 نيسان/ أبريل. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر، عندما وضع كيركغارد اللمسات الأخيرة

على وجهة نظر لعلمي كاتباً، عاد بنظره إلى الأحداث العالمية - التاريخية التي قلبت كل شيء، وفي هذا السياق شدد على التالي: خلال هذه الكارثة، جلستُ أصحح الصفحات المطبوعة لكتاب أُنجز بالطبع في وقت سابق... وعشتُ انتصار عدم الاضطرار إلى تعديل أو تغيير أدنى شيء فيه. والحق إن الانتصار هو إن ما كتبته في وقت سابق لو قُرأ الآن سيُفهم على نحو أفضل بكثير من وقت كتابته. قد يسأل القارئ ما الذي يريد أن يقوله هنا؟

ما كان يدور في ذهن كيركغارد هو قراءة بيوغرافية لعمله خطابات مسيحية، قراءة تربط الكلمات المكتوبة بكيركغارد نفسه. وكانت هذه هي الفكرة التي أدت إلى شعوره بالانتصار وبالتالي إلى هواجسه التي لا تنتهي. فإن العلاقة الحميمة بين الحياة والكتابة - أن ينشر المرء هو أن يؤكد علناً إن المرء نفسه هو ما كُتب - هو ما أجبره على التفكير فيما إذا كان عليه أن يكتب برفق أو بصرامة. في البداية رأى إن مهمته أن يكون متساهلاً قدر الإمكان ولكن في الفقرة التالية من يومياته طرح وجهة النظر المعاكسة تماماً: ولكن، لا، لا، لا. كدتُ أعجز عن أن أُقدِّر كيف أضافت الحاكمية الإلهية ما كنتُ أحتاجه إلى الجزء الثالث. ولكن المسألة إني أردتُ أن أكون ذكياً بعض الشيء، أردت أن أدبر شيئاً بنفسي أنا... فمن دون الجزء الثالث يكون خطابات مسيحية متساهلاً للغاية، لا يصح على شخصيتي. وهو متساهل ما فيه الكفاية في كل الأحوال.

وهكذا فإن الجزء الثالث من خطابات مسيحية هو الذي كان مركز الاهتمام على وجه الخصوص، وفي هذا الجزء المؤلف من سبعة خطابات منحوتة بدقة بعضها ما زال يحمل آثاراً مرئية من التَقَوية، كان الخطاب الثاني بكل تأكيد مبعث الاهتمام الأكبر لأن فيه شدد كيركغارد على أن المسيحي يجب أن يدير ظهره للعالم على نحو مؤكد بحيث حتى الأمور المهمة للأمة يجب أن تُخلي الطريق. وهذا ما توضحه قضية القديس بطرس الذي يعتبر مثالاً يقتدي به كل مسيحي: نَبَذَ عقيدة آبائه وبالتالي الشعب الذي كان ينتمي إليه، وأرض مولده التي يرتبط حبها بأقوى الأواصر. ولأنه الآن لا ينتمي إلى أي شعب فإن انتماءه للسيد المسيح وحده... في حب المسيح أو في كراهية العالم ترك كل شيء، موقعه في الحياة، معيشته، عائلته، أصدقاءه، لغة الإنسان، حب الأم، حب الأب، حب وطن الآباء.

كان الخطر هنا على وجه التحديد، لأن الخطاب في هذا التعريف السلبي للقضية الوطنية، خاطَرَ بوضع كاتبه على خط المواجهة. وهكذا كان كيركغارد خائفاً بحق من أن تكون لنشر الكتاب عواقب كارثية. وكانت أشياء عديدة تشير إلى هذا الاحتمال. فقبل أقل من شهر على نشر خطابات مسيحية رأى كيركغارد نذير شؤم في كونه قرأ مصادفة موعظة ألقاها مينستر وانظروا، إنها كانت عن نيكوديموس. ونيكوديموس هو الفريسي الذي لم يجرؤ على زيارة المسيح في النهار لكنه كان يزوره في الليل ليتمكن من السؤال عن رسالته السماوية تحت جنح الظلام، وبنظر كيركغارد، كان نيكوديموس اسماً آخر للتهيب والجبن. وهكذا بعد يومين مخيفين قرأ كيركغارد الموعظة التي كانت التالية في مجموعتي لمواعظ لوثر، ومرة أخرى كان نيكوديموس هو الذي طل من صفحات الكتاب. وهذا ما حسم الأمر. وسيكون من الخطل تجاهل مثل هاتين الإشارتين اللتين لا تخطئهما العين لأنهما لا يمكن أن تعنيا سوى إن على كيركغارد أن ينشر خطابات مسيحية، فامتثل وإن بخوف وارتعاد: ربما لن يقرأ أحد كتابي خطابات مسيحية. ربما سيُقرع ناقوس الإنذار في المعسكر وأنا أكون الضحية المعتدى عليها. ربما. أوه، من الصعب تحمل مثل هذا الاحتمال.

كانت استعارات كيركغارد عسكرية، ولكن لم يكن هناك الكثير من إطلاق الإنذارات في المعسكر. وقد يعود هذا، من بين أشياء أخرى، إلى الحقيقة الصغيرة الماثلة في أنّ قراء خطابات مسيحية كانوا على الأرجح فئة قليلة جداً لأن عدداً كبيراً من النسخ ظلت غير مباعة وقت وفاة الكاتب التي لم تكن دموية بالمرة. ومن الواضح إن أفكار كيركغارد عن تأثير الخطابات المحتمل كانت غير متناسبة على الإطلاق، واستطاع هو نفسه أن يرى ذلك في لحظاته الأكثر صفاء. إذ كتب: ربما هناك الكثير من الوسواس المرضي أيضاً في خوفي هذا ثم سارع إلى أن يضيف إن هذا، بالطبع، لا يمت بصلة إلى الأمر بأي شكل من الأشكال. وكان مصيباً في ذلك. لأن المسألة لم تكن مسألة انعدام التناسب بين خوف كيركغارد المأساوي - الهزلي وأي أخطار فعلية، بل العلاقة بين المقدمات النصية وخلاصتها الوجودية - ولذلك كتب مصوُّراً نفسه بالتدريج في دور الشهيد أكثر فأكثر، فاتضح إنه دور مكتوب له بأكثر من معنى.

وهكذا ينبغي ألا نضيع المزيد من الوقت في الاندهاش لحقيقة إن كيركغارد خلال الثورة على وجه التحديد - التي كانت بالطبع تجسيداً لإرادة الجموع

والجماهير - رأى مقولة ذلك الفرد الأوحد تتأكد وتثبت صحتها، لأن مقولة كهذه لم تكن مجرد مبدأ عام لكل من يريد تحقيقه في حياته، كلا؛ فلو أصبحت مقولة الفرد الأوحد بصورة مفاجئة هي النقطة المهمة في غمرة هذه الدوامة التاريخية لأمكن إيقاف الدوامة عند حدها. ومن المؤكد أن هذا يبدو خلاصة دائرية وهي كذلك بالمعنى الدقيق، ولكن هذه كانت مع ذلك الطريقة التي توصل بها كيركغارد إلى نتيجة - وخلص إلى أنه يستطيع أن يدرج نفسه في دوامة التاريخ العالمي.

أنتَ تتوقع طاغية في حين أنا أتوقع شهيداً

تظهر فكرة الشهيد (على الضد من فكرة الطاغية) في مراسلات كيركغارد مع آنف الذكر كولدروب - روزنفينغه، أُستاذ تاريخ الفقه والمسؤول الحكومي الرفيع والمحافظ الجاف جفاف الغبار. وتتسم الرسائل المتبادَلة بين الرجلين بنوع من الألفة الأرستوقراطية تطعِّمُها اقتباسات من الأدب الكلاسيكي وعبارات مداهِنة وكليشيهات مماثلة عن المودة. وإذا كان أحد بحاجة إلى تعريف سريع بكيركغارد في أغرب أحواله وأسوئها، فإن هذه المراسلات منطلق جديد للبدء بمثل هذا التعريف. كما وقف هانز بروشنر حائراً إزاء ما رآه كيركغارد في كولدروب - روزنفينغه الذي كان (بحسب بروشنر) مملاً بعض الشيء ومن نواحي عديدة ضيق الأفق إلى أبعد الحدود، ولكن عندما سأل بروشنر عن الرجل أكد كيركغارد مستواه الثقافي العام بل إن كيركغارد كان يثمن أشخاصاً من الجيل الأكبر احتفظوا بالاهتمامات الإنسانية لزمن مضى والسلوك الراقي الذي نجده غائباً بحدة في الجيل الأصغر.

الرسائل مثيرة للاهتمام بصرف النظر عن ذلك كله، لأنه فيها لخص كيركغارد آراءه بالأحداث الثورية التي وقعت في شباط/ فبراير وآذار/ مارس وحزيران/ يونيو 1848 ليصوغ نوعاً من نظرية الدوامة. ففي آب/ أغطس كتب كيركغارد: ستقر بكل تأكيد بأني مصيب في النظر إلى كل التطور في أوروبا على أنه شكوكية هائلة أو دوامة. ما الذي تبحث عنه الدوامة؟ نقطة ثابتة تتوقف عندها. (وكما ترى فإن هذا هو السبب - وليكن ذلك بين أقواس - في أنّي أبحث عن ذلك الفرد المنفرد). ورواية كيركغارد للأحداث ليست غنية بالتفاصيل السياسية فحسب بل تركز على ذلك الفرد المنفرد بوصفه الشخصية

التي يمكن إيقاف دوامة العصر المجنونة عندها. ولا يمكن تحقيق ذلك إلا إذا أمكن تحديد نقطة غير سياسية تتموضع خارج الحركات نفسها: ولذلك فإن رأيي بالبلبلة الأوروبية كلها هو إنها لا يمكن أن تُوقَف إلا بالدين. وأنا على اقتناع بأنه مثلما إن الشيء الاستثنائي في الإصلاح هو إنه بدا حركة دينية ثم اتضح كونه حركة سياسية فكذلك حركات عصرنا، التي تبدو مجرد حركات سياسية، ستكشف فجأة عن كونها حركات دينية أو حاجة إلى الدين.

من الغريب إن كيركغارد الذي غامر بإبداء رأي كهذا المذكور أعلاه وسط رسالة كانت خلاف ذلك تتسم بثرثرة فكرية غير جادة. والأرجح إن كولدروب - روزنفينغه أيضاً نظر إلى نظرية الدوامة على أنها نكتة مملة بعض الشيء من مُحاوِر ذي عِلم. ومن الواضح إن القصد منها لم يكن ذلك كما هو واضح من تنويعات كيركغارد اللاحقة على الموضوعة نفسها. ذلك إن كيركغارد يتحسس وجود انكفاء يمكن أن يجعل من الواضح إن ما يبدو حركة سياسية في الظاهر هو في جذره حاجة إلى الدين. وهنا، كما في وقت سابق، فإن الشرط المسبق غير المنطوق بهذا القدر أو ذاك للانكفاء هو وجود شخص يُقدِم على فعل. وفي هذا الشأن يذكر كيركغارد سقراط الذي، إذا أردنا معرفة الحقيقة، لم يوقف دوامة سياسية لكنه أوقف شيئاً مماثلاً، دوامة سفسطائية. والحق أن نتائج إيقافها كلفت سقراط حياته لأن الموت كان أهم جزء في تنفيذ خطته: سقراط الميت أوقف الدوامة، التي لم يستطع سقراط الحي أن يوقفها. ولكن سقراط الحي أدرك فكرياً إن رجلاً ميتاً وحده الذي يستطيع أن ينتصر - تضحية - وأدرك أخلاقياً إنه يجب أن يراهن بحياته كلها لكي يصبح ذلك على وجه التحديد.

يبدو أنّ كيركغارد فهم شيئاً مماثلاً. فهو أيضاً كان يعتقد أنّ الرجل الميت وحده الذي يستطيع أن ينتصر، وفي هذه الرسالة نقل ما مؤداه ذلك - وإن بصورة غير مباشرة - إلى السيد الوقور الذي رافقه في نزهاته على الأقدام رغم إن هذا الأخير لم يستوعب القصد بأكمله على ما يبدو. ولذلك صاغ كيركغارد نفسه في رسالته التالية بقدر أقل من اللف والدوران. وكان كولدروب - روزنفينغه أعرب عن ثقته بجان بابتيست كافيناك الدكتاتوري، قائد القوة العسكرية في أيام حزيران/ يونيو عام 1848 في باريس، عندما قُتل ثمانية آلاف عامل على أيدي ثلاثين ألف جندي وجندرمة، ورداً على مشاعر كولدروب - روزنفينغه كتب

كيركغارد: أنتَ تتوقع طاغية في حين أنا أتوقع شهيداً. وما كان ليمكن التعبير عن ذلك بطريقة أكثر مباشرةً - إلا إذا أضاف كيركغارد إنه، إذا كان لا بد من قول الحقيقة فهو نفسه الشخص الذي كان يتوقعه.

بكمات أخرى، ما كان يكمن وراء النص عن حتمية الاستشهاد شيء يختلف تماماً عن مجرد اهتمام أكاديمي، بل على العكس، كانت المسألة، بأصدق معنى، مسألة جدية رهيبة. فالاستشهاد هو الفعل المكابِد الذي يمنح قدرة على جعل اليوتوبيا واقعاً. وفي تشرين الأول/ أكتوبر 1848 حين تعين على كيركغارد أن يكتب مقدمة لعمله حلقة من المقالات الأخلاقية - الدينية، اكتسب الوضع أهمية خاصة: الكارثة... ستعينني على أن أصبح مفهوماً بشكل أفضل مما فُهمتُ حتى الآن، أو على الأقل أن يُساء فهمي بعاطفة متقدة. فالقضية لا تتعلق بسلطة تشريعية ذات مجلس أو مجلسين أو عشرة مجالس، وهي لا تتعلق بدعوة لجنة إلى الاجتماع أو تسمية وزراء... فالحاكمية الإلهية فقدت صبرها ولن تسكت بعد الآن... المشكلة دينية، مشكلة مسيحية... لأنه إذا أمكن استعادة الأبدية لنا فإن أُفقها يكون في كل برهة، جديتها، بركتها، راحتها. وإذا أمكن استعادة الأبدية لكل شخص منفرد، لن تكون هناك حاجة إلى سفك الدماء... ومن نواحي عديدة سيذكِّر الزمن بزمن سقراط (سوى إن هذا الزمان أشد عاطفة وعنفاً لأن هذه هي سفسطة العنف، سفسطة الملموس) - ولكن لن يكون هناك ما يُذكِّر بسقراط.

إذا كان هذا مقطعاً تنبؤياً فإن تحققه كان يعتمد إلى حد بعيد على النبي نفسه. وقد أصبح يدرك إن حقبة جديدة لا يمكن أن تبدأ إلا إذا أخذ أحد ما على عاتقه مهمة إعادة إنشاء الأبدية في الزمن. وإعادة إنشاء كهذه لا يمكن أن تُنجَز من دون عنف: لاستعادة الأبدية سيكون الدم مطلوباً من جديد، ولكنه دم من نوع آخر، ليس دم آلاف الضحايا المذبوحين، كلا، بل الدم الأغلى ثمناً، دم الأفراد - دم الشهداء، أُولئك الموتى الجبابرة الذين يستطيعون أن يفعلوا ما لا يستطيع شخص حي، يأمر بحصد الآلاف، أن يفعله؛ يستطيعون أن يفعلوا ما لم يكن أُولئك الموتى الجبابرة أنفسهم قادرين على فعله حين كانوا أحياء لكنهم لم يتمكنوا من فعله إلا حين ماتوا وهو إجبار غوغاء هائجين على الطاعة وعلى وجه التحديد لأن هؤلاء الغوغاء الهائجين سُمح لهم، في عصيانهم، بأن يزهقوا روح الشهيد.

الله يكره الأهرامات

كيركغارد لم يكن وحده الذي جلس يقرأ صفحات التصحيح بعد طباعتها فيما كانت جموع تندفع مارة في الشوارع تحته. فإن أتش. أيل. مارتنسن كان أيضاً بصدد دفع كتاب مهم إلى المطبعة، وكتب عنه استرجاعياً في عام 1882: خلال اضطرابات 1848 كانت عندي مهمة هادئة وجَّهتْ أفكاري بعيداً عن القلاقل العالمية – التاريخية إلى عوالم أخرى: تصحيح صفحات كتابي الدوغماتية، الذي كان حينذاك جاهزاً للنشر.

تلفت نظرنا على الفور الحقيقة الماثلة في أنّ مارتنسن، بخلاف كيركغارد، لم يربط بأي شكل وضعه هو بالغليان السياسي وقتذاك بل على العكس. فإن مهمته الهادئة قادته بعيداً عن صخب العالم. ولم تكن هناك علاقة مباشرة بين النصي والفعلي، بين الكاتب ورسالته، كما كانت الحال مع كيركغارد وخطاباته المسيحية. من جهة أخرى، في حين أن كيركغارد لم يهتم بأي شكل جاد بالأسباب المادية الكامنة في أساس نزاعات ذلك الوقت فإننا نفاجأ في البداية بحس مارتنسن الحاد بالوضع الاجتماعي والسياسي، الأمر الذي لم يكن تماماً ما كنا نتوقعه نظراً لموقع مارتنسن الاجتماعي نفسه. فإن حياته المهنية اتسمت بصعود لامع وسريع، وطيلة حياته في مرحلة البلوغ كان يرى مكانه الطبيعي في الدوائر المحافظة والكنسية التي تنظر إلى الميول الديموقراطية باستنكار، وتنفر من فكرة الحكم البرلماني وتمقت فكرة تحرر المرأة.

عندما نظر مارتنسن في مذكراته إلى أحداث 1848 لم يملك سوى الاتفاق مع ملاحظة منسوبة إلى أحد معارفه تحدث عن الثورة السياسية بطريقة غليظة على نحو ما ولكن ليست من دون فكاهة: هذه نوبة جديدة وعنيفة أخرى من التقيؤ. فإن من سمات تكوين مجتمعنا إنه يصاب بين حين وآخر بالغثيان ويجب أن يستفرغ. وكان مارتنسن، على الغرار نفسه، مقتنعاً قناعة كاملة بأن الثورة هي دائماً شذوذ في مجتمع بشري، وأعرب بكلمات قوية عن إدانة القوى الشيطانية التي بدت الجماهير مسكونة بها.

الحق إن مارتنسن ليس من النمط الذي يقتحم المتاريس ملطخ اليدين بالوحل والدم، ولكن كان لديه فهم واضح بأن هذه الثورة الغريبة ليست سياسية فحسب بل اجتماعية أيضاً. وكانت هذه وجهة نظر طورها في عمله الصادر عام

1874 الاشتراكية والمسيحية، الذي دمجه دون تغيير، بهذا القدر أو ذاك، في سلسلة من الفصول في عمله الأخلاق الاجتماعية عام 1878. وحينذاك كانت أحداث 1848 ثلاثين عاماً في الماضي، ولكن بحسب مارتنسن نفسه فإنه مع ذلك كان لديه إحساس حتى وقتذاك بأنه إذا لم يفهم المرء الجانب الاجتماعي من الأمر، لا يكون لديه فهم للقضية كلها. وكان لزاماً عليَّ أن أتذكَّر ما قاله فرانز فون بادر قبل سنوات عن البروليتاريا، عن العلاقة المختلة بين مَنْ يملكون ومَنْ لا يملكون. وكان لزاماً عليَّ أن أتذكَّر قوله إن ثقافتنا الاجتماعية في الوقت الحاضر مثل... هرم قلة من أصحاب الامتيازات في قمته الصغيرة في حين إن القاعدة العريضة تتكون من سرب لا نهاية له من المحرومين والمعوزين، بلا معين لهم.

اقتبس مارتنسن في عمله الاشتراكية والمسيحية، من فرديناند لاسال Ferdinand Lasalle، مؤسس الديمقراطية الاجتماعية الألمانية، وكذلك فريدريك أنغلز وكارل ماركس، وأثَّر تعاطف مارتنسن مع هؤلاء المفكرين السياسيين في اختيار الكلمات في مذكراته حين توقف عند أحداث 1848: القضية الاجتماعية هي مسألة الغني والفقير، مسألة العمل ورأس المال، مسألة عذاب اجتماعي، ومسألة توزيع ثروات الحياة الدنيا توزيعاً أكثر مساواة وعدالة. هذه هي المشكلة - اختمار وتململ، بلا جلاء - في قعر ثورة شباط/ فبراير. وتابع مارتنسن، كما لو إنه يكتب لافتة ستخفق فوق رؤوس حركات المستقبل العمالية، إن الليبرالية تريد فردانية. والاشتراكية تريد مجتمعاً وتضامناً. وبرأي مارتنسن فإن مد الليبرالية الصاعد ليس إلا شكلاً آخر من أشكال الأنانية، إنه جشع متنكر بزي إيديولوجيا: يزداد وضوحاً إن الليبرالية ستفكك المجتمع إلى أفراد لا أكثر، لهم مصالحهم الفردية هي بالنسبة لأعداد غفيرة من الأشخاص مصالح مالية بكل بساطة. وإن الاشتراكية، حين تُفهَم وفق معناها الحقيقي، ستحقق تلاحم المجتمع تضامنياً، وتُخضع الفرد للمجتمع. ورغم إن الليبرالية لها اليد العليا في الوقت الحاضر، فليس من الصعب أن نرى إن الاشتراكية لها المستقبل إلى جانبها.

مارتنسن - الذي لم يتمكن قط من أن يفهم ماذا دهى كيركغارد بحيث كان يريد الحديث مع هؤلاء الأشخاص الاعتياديين هناك في الشارع - كان قادراً على التعامل مع هذه المصطلحات الإيديولوجية كمحترف حقيقي.

من جهة أخرى، لا يمكن القول إن مفاهيم كيركغارد السياسية كانت متطورة تطوراً حسناً بصفة خاصة: في عام 1846 لم تكن الاختلافات بين الاشتراكية والليبرالية واضحة، وكان من الصعب على الغرار نفسه التمييز بين الاشتراكية والشيوعية. وهكذا فإن كيركغارد لم يتقن إيديولوجياته ولكنه احتفظ بقدر معين من الطراوة الرؤيوية حين يكون في مواجهة الطيف السياسي التقليدي، وهذا مكّنه من القفز بسهولة من الفوضى المطلقة إلى أشد أشكال الجمود ماكيافيليةً.

وكان مارتنسن يستطيع أن يقارن الثقافة الاجتماعية لذلك اليوم بالهرم، حيث أصحاب الامتيازات يشغلون القمة والقاعدة العريضة تتكون من المحرومين.

وكان كيركغارد يستطيع، من دون أن يقرأ سطراً لماركس، أن يكتب شيئاً مشابهاً، ويستخدم، مثل مارتنسن، استعارة الهرم: الإنسان «حيوان اجتماعي» وهو يؤمن بقوة الوحدة، بتشكيل جماعات. ولذلك فإن الفكرة الإنسانية هي الآتي: لنتحد جميعاً - إن أمكن كل ممالك الأرض وبلدانها - والرابطة ذات الشكل الهرمي نتيجة ذلك، التي تنمو أعلى فأعلى، تحمل على رأسها ملكاً أسمى. ويجب أن يُفترض إنه الأقرب إلى الله... وفي المسيحية تكون الأمور عكس ذلك تماماً. فهذا الملك الأسمى ذاته سيقف الأبعد عن الله، مثلما إن الله معارض بقوة لمشروع الهرم برمته. فالشخص المحتَقر، الملفوظ من الجنس البشري، بائس مسكين، وحيد، منبوذ - هذا، طبقاً للمسيحية، هو ما يختاره الله وهو الأقرب إليه. إنه يكره قضية الهرم. وبما إن الله محبة لا متناهية فإن عينه الأبوية ترى على الفور كم من السهل أن تصبح فكرة الهرم البشري هذه قاسية على الأقل حظاً، على المُهمَلين وسواهم من الجنس البشري... وهكذا فإن الله يطوُّح الهرم وكل شيء ينهار. وبعد جيل يبدأ الناس من جديد مع قضية الهرم.

حرية ومساواة ورحمة

هكذا أدرك كيركغارد في وقت مبكر تماماً عدداً من القضايا التي سيتعين على العصر الجديد، الحداثة، المستقبل أن يعيش معها - أو يموت بسببها. وكتب في عام 1848 إن مسألة المساواة أصبحت موضع نقاش في أوروبا وبالتالي فإن كل أشكال الاستبداد القديمة (الإمبراطور، الملك، الأرستوقراطية، الإكليروس، وحتى استبداد المال) ستكون الآن عاجزة. ولكن هناك شكلاً من الاستبداد يطابق المساواة هو خوف الإنسان. وكان كيركغارد يعتقد أنّه نفسه جزء من هذه

العملية، وقد واصل هجومه بتصميم: هنا في هذا البلد وغيره، يناضل الشيوعيون من أجل حقوق الإنسان. جيد، هذا ما أفعله أنا أيضاً. ولهذا السبب على وجه الدقة أُكافح بكل ما لدي من قوة ضد استبداد خوف الإنسان... ما تثير الشيوعية كل هذه الضجة بشأنه هو ما تفترض المسيحية إنه تحصيل حاصل، أي إن البشر كلهم سواسية أمام الله وبالتالي هم متساوون من حيث الجوهر. أو باختصار وعلى نحو ذي صلة: «ما هي الإنسانية؟ [بالدنماركية menneskelighed]. إنها مساواة إنسانية [بالدنماركية Menneske-Lighed]، واللامساواة لا إنسانية».

وهكذا فإن بديل كيركغارد عن الشيوعية والاشتراكية والليبرالية وميوله المحافظة العتيقة، كان شيئاً راديكالياً وجريئاً هو الرحمة! ولم يكن من دون سبب أن يصر على أن الفصل الثامن في الجزء الثاني من كتابه أعمال الحب كُتب في معارضة الشيوعية بصورة مباشرة. ويمكن أن نضيف بمعنى ما إن هذا يصح على الكتاب بأكمله، ولكن الفصل المعني هو فعلاً من أكثر فصول الكتاب صلة بالموضوع مادياً، حتى وإن كان يحمل عنواناً غير مادي بالمرة هو الرحمة: عمل من أعمال الحب حتى إذا لم يكن عندها ما تعطيه وعاجزة عن عمل أي شيء. ويضع الفصل جوهر الرحمة الحقيقي في مواجهة هذا الحديث الدنيوي الذي لا ينتهي عن الخير والبِر والإحسان والعطاء ثم العطاء، ويرفض كيركغارد البديل الثاني بصرامته الحريصة على نحو فريد: أوه، ليتحدث كتّاب الأعمدة في الصحف وجباة الضرائب ومدراء إغاثة الفقراء عن الإحسان وليحسبوا ثم يحسبوا، لكن دعونا لا نغفل أبداً أن نلاحظ إن المسيحية تتحدث أساساً عن الرحمة. ولا يعني هذا إن الرحماء معفيون من الأعمال الخيرية بل على العكس فغني عن القول إنه إذا كان لدى شخص رحيم ما يعطيه، سيعطيه عن طيب خاطر. ومقصد كيركغارد إن المرء يستطيع أن يكون رحيماً من دون أن يكون لديه أي شيء يعطيه وإن كون المرء رحيماً بحد ذاته اكتمال أعظم بكثير من امتلاك المال وبالتالي القدرة على العطاء. أو للتعبير عن الشيء نفسه بقدر أكبر من الحرية: أن يكون لدى الشخص قلبٌ في صدره لا يستتبع بالضرورة أن يكون لديه مال في جيبه ولكن الأول بالطبع أكثر أهمية، وذو ثقل حاسم فيما يتعلق بالرحمة... لأن الأبدية عندها أقوى عين وأرقى فهم بشأن الرحمة ولكنها بلا أي فهم للمال. بهذه الكلمات يُفَكَّك المنظور الإيديولوجي ثم يُعاد بناؤه إلى استفزاز إيديولوجي مباشر - استفزاز يكاد أن يكون فضائحياً وهو

جارح بطبيعة الحال. وفي الحقيقة إن كيركغارد يتصدى لعدد من الاعتراضات بحوار صغير غاضب (وسنرى قريباً) محسوب بالقدر نفسه لإثارة الغضب: «الشخص الفقير، الشخص البائس، يمكن حقاً أن يموت – ولذلك فإن الشيء الأهم هو تقديم العون». كلا، تجيب الأبدية، الشيء الأهم هو ممارسة الرحمة أو إن العون يكون عون الرحمة. «اجمعوا مالاً من أجلنا، وفرّوا لنا مستشفيات. هذا هو الشيء الأهم». كلا، تقول الأبدية، الشيء الأهم هو الرحمة. وبالمعنى الأبدي فإن موت شخص ما ليس مصيبة لكنه يكون مصيبة إذا لم تُمارَس الرحمة... أوه، ليتني أستطيع وصف التعبير على وجه الأبدية حين يجيب غني عن السؤال إن كان رحيماً بالقول «أعطيتُ مئة ألف للفقراء!» لأن الطبيعة ستنظر إليه مندهشة على أنه شخص لا يعرف ما يقول، ومرة أخرى ستطرح الأبدية عليه السؤال «هل كنتَ رحيماً؟»

من المستبعد أن تكون الأبدية وحدها التي ارتسم على محيَّاها تعبير الاندهاش، والأرجح أن يرتسم على وجه القارئ أيضاً، إذا لم يكن الآن فالمؤكد عندما يواصل كيركغارد حواره عن الرحمة بمثل هذه الراديكالية اللاهوتية بحيث تبدو لبرهة بلا رحمة على الإطلاق: لذا فإن الخطاب يتوجه إليك، أنتَ الفقير والتعيس!... كن رحيماً، كن رحيماً مع الغني! تذكَّر إن هذا شيء في مقدورك حتى إذا كان يملك المال!... أوه، كن رحيماً! إذا كان الغني مغلول اليد وبخيلاً – أو حتى إذا لم يخبل بالمال، إذا كان فظاً وزجرك – فيجب أن تكون غنياً برحمتك!

تقدِّم الثورة نفسها في شكل إعادة تقييم للقيم كافة. هذا ما تحركه المسيحية عندما يقوم الفرد بأعمال رحيمة فيجعل كل الشعارات السياسية عن الحرية والمساواة والإخاء شعارات نافلة. وترتبط الرحمة بوضع محدَّد، بلقاء فعلي، بموقف، ولهذا السبب أيضاً ستحافظ أبدياً على حصانتها ضد الإيديولوجيا. وعند كيركغارد فإنه لهذا السبب نفسه يكون المجتمع المنظَّم على أسس مسيحية تهريفاً لا يمكن تخيله، كما يتضح بجلاء في هذه الفقرة من يومياته عام 1948 التي تقدم تصويراً ساخراً للعالم بعد أسوأ كارثة إيديولوجية يمكن تخيلها: شكل العالم سيكون شبيهاً – حسناً، لا أدري بماذا أُقارنه – سيكون شبيهاً بكريستيانفيلدت عملاقة [بلدة طائفة تَقَويَّة متزمتة في جنوب يوتلاند]. وهناك أيضاً سيندلع نزاع بين أكبر خصمين ممكنين على تفسير هذا الظاهرة:

الشيوعية، التي ستقول إن هذا صحيح، بحسب الطرق الدنيوية. إذ يجب ألا يكون هناك فارق على الإطلاق بين شخص وآخر. الثروات والفن والعلم والحكومة، إلخ، كلها شر. البشر كلهم يجب أن يكونوا متشابهين كعمال في مصنع، كنزلاء في دار للفقراء، ويجب أن يرتدوا ملابس متشابهة، وأن يأكلوا طعاماً واحداً يُحضّر في قِدْرٍ ضخم واحد، وأن يأكلوا في ساعة واحدة، بمقادير متساوية، إلخ. وستقول التَقَويَّة، هذا صحيح وفق المسيحية. إذ يجب ألا يكون هناك فارق بين شخص وآخر، ويجب أن نكون جميعاً أخوة وأخوات، نملك كل شيء ملكية مشتركة. الثروات والموقع الاجتماعي والفن والعلم، إلخ، إلخ، كلها شر. البشر كلهم يجب أن يكونوا متشابهين كما كانوا في بلدة كريستيانفيلدت الصغيرة. يجب أن يرتدوا ملابس متشابهة، ويصلُّوا في أوقات محدَّدة، ويتزوجوا بالقرعة، ويخلدوا إلى النوم في ساعة محدَّدة، ويأكلوا طعاماً واحداً، من صينية واحدة وفق إيقاع محدَّد، إلخ، إلخ.

حين يُفرَض نمط واحد على الناس، لا فرق إن حدث باسم المسيحية أو الشيوعية. فإن لا حريته ذاتها دليل واضح على لا حقيقته.

وسيكون من الشيق في الحقيقة أن نعرف أي نشاطات أخرى قد تكون مخفية وراء إلخ، إلخ المتكررة.

من الأوراق المالية لشخص ما زال على قيد الحياة

الأربعاء، 5 أيار/ مايو، 1847: يا للغرابة، أن أبلغ من العمر أربعة وثلاثين عاماً. أمر لا يمكن تصوره على الإطلاق بالنسبة لي. كنتُ متأكداً بقوة إني سأموت قبل عيد ميلادي هذا، أو فيه، وأجد من المغري في الحقيقة أن أفترض إن يوم مولدي سُجِّل خطأ وإني سأموت في سنتي الرابعة والثلاثين.

سجَّل كيركغارد هذا اليوم في مجموعة صغيرة من الفقرات في يومياته تتناول عدداً من المواضيع بينها قضية الاختلاف بين الخطيئة والصراع الروحي، ومسألة الموت، الموت الفعلي وخاصة الموت الرمزي: حين تركتُها، اخترتُ الموت - ولهذا السبب ذاته كنتُ قادراً على العمل بهذا الشكل الاستثنائي. صرختْ بمحاكاة ساخرة «أنا سأموت» فيما كنتُ أنا أتصرف وكأن ملذات حياتي لم تبدأ إلا الآن، وكان هذا على ما يُرام تماماً. فهي امرأة وأنا ذو مفارقة. لا يُنكر إن المقطع ينتهي بشيء مفاجئ نوعاً ما من الكلبية، ولكن بعد أسطر

أسفل الصفحة، منفصلة بعلامة الجنيه الاسترليني £ خفَّف كيركغارد من موقفه: ولكن السبب يكمن حتى أعمق. وبالطبع، إن ما دفعني إلى تركها، وهو تعاستي العميقة، اكتسب الآن أهمية مختلفة تماماً لأن هذا كان سببي لجعلها تعيسة، وتحمُّل جريمة قتل على ذمتي. ولذلك فإن بؤسي قهرني منذ تلك اللحظة فلاحقاً، ولم يكن خلاف ذلك ممكناً. ولتبرير سلوكي معها تعين تذكيري دائماً بتعاستي الأساسية. هكذا هي الأمور. وبعد هذه السطور كتب المحتفِل بعيد ميلاده عن تعجبه لبلوغه سن الرابعة والثلاثين.

تَخلُّفُ الموت عن الوصول في عام 1847 كان حجر عثرة غير متوقع في حساباته، وبأكثر من طريقة واحدة: من 31355 ريكسدولار ورثها استُثمرت 17760 في سندات مَلَكِّية وأسهُم في شركة تأمين ضد الحريق. وباع هذه الاستثمارات، الواحد بعد الآخر، بين عام 1830 وعام 1847. وفي 2 آذار/ مارس 1847 باع آخر أسهمه، وفي 14 كانون الأول/ ديسمبر من العام نفسه باع آخر سنداته. وكقاعدة حقق كيركغارد أرباحاً رأسمالية معتبرة من غالبية هذه الصفقات. وسيبلغ التقدير المتدني لدخله الاستثماري الإجمالي نحو 6500 ريكسدولار، ولكنه الآن بحاجة إلى نقود، وكان يتعين عليه الوصول إلى وضع يده على المال المجمَّد في بيت طفولته في 2 نيتروف. وتسلَّم كل من الشقيقين في الترتيبات التي كانت تحكم ميراثهما عام 1839، حصة قدرها 15 في المئة من البيت. وأخذ بيتر كريستيان على عاتقه المسؤولية الإدارية عن العقار ولكن بعد ثلاث سنوات عندما عُين قساً في بيدرسبورغ، آلت المهمة إلى الشقيق الأصغر الذي سرعان ما بدأ يشكو منها: أنتَ تعرف كم كنتُ قلقاً بشأن تولي إدارة المكان، كما كتب إلى بيتر كريستيان في منتصف كانون الثاني/ يناير 1843 لإبلاغه في المناسبة نفسها إنه أقنع زوج أخته، رجل الأعمال يوهان كريستيان لوند، بإدارة العقار إلى أن ينجح في بيعه بأفضل فائدة ممكنة. وكانت هذه أول مرة تُطرح فيها هذه الإمكانية في نقاشات الشقيقين، ولكن سورين آبي سأم التفاصيل المزعجة ذات العلاقة بالبيت بحيث إنه في الحقيقة كان سيبيعه مقابل لا شيء، لو فقط أستطيع التخلص منه. ولكن هذا لا يعني إنه كان غافلاً عن الجانب التجاري من المسألة: لا يُنكر إن للموقع أفضليات كبيرة، وبالأيدي المناسبة يمكن أن يُباع بسعر مرتفع.

بعد خمسة أشهر، في 3 آذار/ مارس 1843، دفع هو نفسه بعضاً من هذا

السعر. إذ إنه اشترى، بصورة مفاجئة بعض الشيء، نصف بيتر كريستيان من البيت ليصبح بذلك المالك الوحيد. وطبقاً لشروط البيع تسلّم بيتر كريستيان 1500 ريكسدولار نقداً وقسطاً أول قدره 7000 ريكسدولار بفائدة سنوية نسبتها 4 في المئة. وطُرح العقار في السوق خلال النصف الثاني من عام 1847، وأُبرم عقد البيع عشية الكريسمس. وقبل يومين على توقيع الوثائق الختامية أُبلغ بيتر كريستيان بالتفاصيل. وأصر الشقيق الأصغر مراراً على أن شقيقه الأكبر لا يملك سوى أن يكون سعيداً بطريقة التعامل مع الصفقة. وأوضح قائلاً الله يعلم إني هذه الأيام حائر بكل هذه الأمور التجارية حتى إني شديد الميل إلى ممارسة الحذلقة، ثم تابع بارتباك غير متحذلق على نحو غريب إني حتى لا أتذكر كيف جرى ترتيب قرضك العقاري الأول، ولكن في كل الأحوال، إن المسألة كلها شكلية محضة. وليس مؤكداً إن بيتر كريستيان كان سيتفق مع ذلك، ولعله وجد شيئاً معهوداً من التسرع حين كتب سورين آبي في الجملة التالية إنك بدلاً مما إذا كنتَ: لذلك أخبرني إنك راض بالبريد.

وبمساعدة محام اسمه كرافت نُقل العقار إلى كريستيانة إليزابيث بيتسوف التي كانت أرملة وسيط مالي وبالتالي ميسورة الحال. كان سعر البيع 22 ألف ريكسدولار، منها 10 آلاف تُدفع نقداً والباقي على أقساط بفائدة سنوية قدرها 4 في المئة، على أن تكون الأقساط 5000 و7000 ريكسدولار تُدفع إلى سورين آبي وبيتر كريستيان على التوالي. وهكذا حقق الشقيق الأصغر ربحاً محترماً من البيت خلال السنوات الأربع الأولى التي كان البيت ملكه فيها – هو نفسه أعطى الرقم 2200 ريكسدولار. ولا تقول لنا المصادر ماذا كان رأي بيتر كريستيان بمردوده الصافي من الصفقة ولكن بعد فترة قصيرة على لقاء الشقيقين بشأن بيع المنزل كتب سورين آبي واحدة من أول الفقرات المريرة بصدق في يومياته عن بيتر كريستيان الذي تأكدت تفاهته وحسده بحيث من الجائز أن نفترض إن بيتر كريستيان قال، من دون تفكير، بعض الملاحظات لشقيقه الأصغر الذي أبدى شطارة في الأمور الاقتصادية. ويبدو أنّ بيتر كريستيان خسر 1000 ريكسدولار في الصفقة.

لم تكن هذه المرة الأولى التي يتعامل فيها الشقيقان مالياً مع أحدهما الآخر. ويبدو أنّ الشقيق الأكبر البخيل كان أحياناً يقوم بدور مؤسسة إقراض بلا أسعار فائدة. ففي 26 آذار/ مارس 1839 استلف سورين آبي 300 ريكسدولار من بيتر

كريستيان الذي سجلها في دفتر حساباته: إلى شقيقي سورين آبي كيركغارد على أن تُستقطَع من حصته من مدخول العقار هذا العام... 300 ريكسدولار. وفي 20 تشرين الأول/ أكتوبر خُفض الرصيد المستَحق إلى 150 ريكسدولاراً ولكنه في 13 كانون الأول/ ديسمبر ارتفع إلى 450، وكتب بيتر كريستيان: بدلاً من دينه البالغ إجمالاً 450 ريكسدولاراً، حوَّل إليّ في 14 من الشهر ثلاثة أسهم في الشركة العامة للتأمين ضد الحريق... اشتريتها بسعر 150 ريكسدولاراً للسهم. وحين عجز، على ما يبدو، متذوق الجمال المثقل بالدين عن جمع المال لإعادة شراء أسهمه الثلاثة باعها بيتر كريستيان في منتصف أيلول/ سبتمبر 1840 وحوَّل إلى سورين آبي ما زاد من سعر البيع على 450 ريكسدولاراً. وبحسب دفتر حسابات بيتر كريستيان فإن سورين آبي اقترض في وقت سابق من العام، وبالتحديد في 20 كانون الثاني/ يناير 1840، مبلغ 200 ريكسدولار ليسدد فقط بعض الديون التي كان دائنو الغندور المبذِّر يطالبونه بدفعها. وعُقدت صفقات مماثلة بين الشقيقين في 1841 و1842 ولكن يبدو أنّها توقفت بعد حين، ومن 1843 إلى 1848 كان سورين آبي يقترض المال من البنك الوطني بضمانة أسهمه وسنداته عادة.

مال في الكتب

كان البقاء على قيد الحياة بعد سن الرابعة والثلاثين يعني إنه سيكون هناك موعد نهائي جديد (إذا أمكن تسميته ذلك) في حياة كيركغارد، وأدى هذا أيضاً إلى بعض الترتيبات الجديدة المفاجئة للحسابات في مأوى كيركغارد الآخر، أي كتاباته. وفي الشطر الأخير من نيسان/ أبريل 1847 حاول مستشار الدولة كريستيان مولبيخ أن يشتري نسخة من كتاب «إما/ أو» لإهدائها إلى صديق ألماني. وفوجئ بأن الكتاب نفد، وهذا، كما قال لمؤلفه، لا بد أن يكون ظاهرة في تاريخنا الأدبي الحديث قد تحتاج إلى دراسة. وكان رد فعل كيركغارد الأول هزة غاضبة برأسه على جهل مولبيخ: فإن الطبعة الأولى من «إما/ أو» نفدت منذ كانون الأول/ ديسمبر 1844، وعندما اقترح رايتزل على المؤلف بعد فترة قصيرة على ذلك إصدار طبعة ثانية، عارض الفكرة على أساس مبدئي. ولذلك فإن من باب أولى ألا يبدأ مولبيخ بدراسة ظاهرة ما في التاريخ الأدبي وعليه بدلاً من ذلك أن يتعلم الديالكتيك شديد التطلب لقابلية الانقلاب، الذي من

المؤكد أنه سيلاقي مصاعب معه: يعيش الأشخاص مع هذا النمط الخبرة نفسها التي تعيشها الكلاب مع تعلُّم المشي على قوائمها الخلفية. فهي تنجح لبرهة لكنها تعود فوراً إلى المشي على أربعة. وفي الحقيقة إن مولبيخ كان أحد الذين يمشون على أربعة لأنه لم يستطع أن يستوعب إن كيركغارد سيعمل ضد نفسه وفي خدمة فكرة ما، من خلال عدم السماح بطبعة ثانية من كتاب «إما/ أو». وفي الحقيقة إن كيركغارد أرسل إلى مولبيخ إحدى نسخه هو من كتاب «إما/ أو» التي، وإن لم تكن جديدة تماماً، فإنها أحسن من لا شيء - وإذا أراد نسخة جديدة تماماً فكل ما عليه هو أن يسأل، وسيفهم كيركغارد الإشارة بسرعة جِنّي مطيع. وهكذا كان كيركغارد يريد العمل ضد نفسه لصالح فكرة، وليس ضد مستشار الدولة مولبيخ.

في أوائل آب/ أغسطس 1847 - أي بعد عيد الميلاد الرابع والثلاثين سيئ الصيت - تفاوض كيركغارد رغم كل تصريحاته المبدئية، مع رايتزل بشأن النسخ الباقية غير المباعة من كتب أخرى لدى رايتزل على أساس العمولة، وختم إحدى رسائله بنصف الوعد التالي: أما كتاب «إما/ أو» فإنه يمكن أن يُترك لمناسبة أخرى بكل تأكيد. من الواضح إن كيركغارد لم يعد معارضاً بالكامل لفكرة طبعة جديدة. ولكن لا بد إن رايتزل تردد بعض الشيء لأنه بنهاية ذلك الشهر نفسه كان كيركغارد قطع شوطاً بعيداً في مفاوضات مماثلة مع تاجر الكتب بي. جي. فيليبسن الذي بناء على حديث أجراه مع كيركغارد، أرسل إليه في 23 آب/ أغسطس حساباته مع سعر معروض من مطبعة بيانكو لونو. واقترح فيليبسن أن تصدر الطبعة الجديدة من «إما/ أو» بألف نسخة، أو نحو ضعف عدد الطبعة الأولى، الأمر الذي سيمكِّنه من خفض سعر التجزئة ريكسدولاراً واحداً على الأقل. وطلبت مطبعة لونو 948 ريكسدولاراً و60 شلناً عن الطباعة والورق تضاف إليها تكاليف التجليد والإعلان، والمحصلة النهائية أن يتقاضى كيركغارد 500 ريكسدولار، تُدفع منها 400 في 1 كانون الثاني/ يناير 1849 والمئة الباقية بعد بيع الطبعة الثانية كلها.

لم يتمكن كيركغارد من قبول هذا العرض. وأراد 700 ريكسدولار رد عليها فيليبسن في 28 آب/ أغسطس مرتبكاً بعض الشيء - في صحبة الكاتب البليغ يبدو أنّه نسى كل حساباته وغير ذلك من التفاصيل المملة - ولكن بحزم احترافي: حضرة الماجستير المحترم! لديك سبب وجيه للابتسام على ترددي.

فأنا عندما أكون معك، أنسى كل أرقامي. لا أرى، لا أسمع أحداً سوى مؤلف «إما/ أو» وأقول نعم لكل شيء يخرج من بين شفتيك. هنا في مكتبي أستطيع أخيراً أن أجري تخميناتي. وقمتُ مرة أخرى بحساب مصروفاتي وكل المخاطر بعناية شديدة، ونتيجة لذلك فإني مضطر للالتزام برسالتي في 23 من هذا الشهر ولا أملك سوى أن أفترض نشر «إما/ أو» وفق الشروط الواردة فيها. وكان كيركغارد، كما هو مفهوم تماماً، أقل من راضٍ بعرض فيليبسن 500 ريكسدولار عن ألف نسخة، لأنه قبل سنوات قليلة، عندما كان هو نفسه ناشر أعماله، كسب نحو 1000 ريكسدوار من الطبعة الأولى التي لم تكن إلا 525 نسخة. وجاء رده بالرفض على عرض فيليبسن بعد يومين فقط: السيد المحترم! بما إنك لا تريد ما أُريد فلن تنشر «إما/ أو»، وبهذا تُحسم المسألة.

توجه كيركغارد الآن إلى رايتزل، وفي رسالة غفل من التاريخ نَقَلَ قبوله عرض رايتزل دفع 550 ريكسدولاراً عن 750 نسخة. وكان هذا يعادل 733 ريكسدولاراً عن ألف نسخة وبالتالي أفضل بصورة واضحة من عرض فيليبسن. والأكثر من ذلك إن رايتزل كان مستعداً للدفع في وقت أسرع، 300 ريكسدولار تُدفع في 11 حزيران/ يونيو 1849 والـ 250 ريكسدولاراً الباقية في نهاية تموز/ يوليو 1849. كان الوقت بمثابة مال، وكان لدى كيركغارد نقص في الاثنين على السواء. لذلك أقبل في الحال عرضك بشأن «إما/ أو» رغم إن العائدات قليلة إلى حد لا يُستهان به – ولكنه بلد صغير، كما كتب بحماسة متأففة. وتابع: وحظ سعيد في الصفقة. برأيي إنك حققتَ لنفسك صفقة رابحة، وسترى إن المشروع سيزدهر. ولو لم أعمل مباشرة بطرق متعددة ضد بيعه أيام أنا نفسي كنتُ الناشر لكان الوضع مختلفاً تماماً كذلك. ولكن الحظ السعيد الذي كان من المفترض أن يرافق المشروع (الآن إذ كان كيركغارد لا يعمل ضد البيع) لم يكن كافياً لنفاد الطبعة الثانية في زمن حياة كيركغارد، ولم يكن من الضروري إصدار طبعة ثالثة حتى عام 1865.

مع ذلك ربح كيركغارد من «إما/ أو» أكثر مما ربحه من أي كتاب آخر. إذ كان سعر النسخة من الطبعة الأولى 4 ريكسدولارات و72 شلناً. وتقاضى رايتزل 72 شلناً فكانت أرباح كيركغارد الإجمالية من الطبعة الأولى بأكملها 2100 ريكسدولار. ومن هذا المبلغ تعين استقطاع نحو 640 ريكسدولاراً للورق والطباعة وبذلك تخفيض أرباح كيركغارد إلى 1460 ولكن هذا المبلغ أيضاً لم

يكن دخله الصافي لأن كيركغارد تحمَّل مصروفات أخرى لسكرتيره (سكرتيري الصغير مستر كريستنسن) وتصحيح الصفحات المطبوعة (غيودفاد). وليست هناك حسابات باقية لهذه المصروفات ولكن كيركغارد ذكر في مكان آخر إن تصحيح صفحات حاشية ختامية غير علمية كلفه 100 ريكسدولار وبالتالي فإن ما يقدَّر بنحو 150 ريكسدولاراً لتصحيح «إما/ أو» ليس مبلغاً قليلاً بكل تأكيد، وهذا أعطى المؤلف ربحاً صافياً يزيد على 1200 ريكسدولار.

عموماً كانت القاعدة وليس الاستثناء أن يحقق كيركغارد ربحاً من نتاجاته. وفي الفترة الممتدة من 1838 إلى 1855 نشر ثلاثة وأربعين كتاباً منفصلاً منها ستة وثلاثون كتاباً من خلال رايتزل وستة كتب من خلال فيليبسن وكتاب واحد من خلال غيلدينال. ونُشرت ثلاثة عشر من الكتب التي كانت لرايتزل علاقة بها على أساس العمولة، الأمر الذي يعني إن كيركغارد نفسه تفاوض بشأن العقود مع بيانكو لونو، وكان يدفع إليه مباشرة عن الورق والطباعة. وعندما يكون الكتاب جاهزاً في المطبعة كان عدد من النسخ يُسلَّم كل مرة إلى رايتزل الذي كان عموماً يأخذ لنفسه 25 في المئة من سعر المباع رغم إنه في حالة «إما/ أو» لم يأخذ إلا 16 في المئة.

هكذا كانت لدى كيركغارد علاقة عمل دائمة مع لونو ومع رايتزل، وبالنظر إلى الوثائق الباقية للحسابات نستطيع أن نتتبع الحظوظ الاقتصادية للكتب «إما/ أو» ومفهوم القلق ومقدمات وثلاثة خطابات في مناسبات متخيَّلة ومراحل على طريق الحياة وحاشية ختامية غير علمية ومراجعة أدبية وخطابات تثقيفية بأرواح مختلفة. وهناك وثائق معينة مفقودة تتعلق بالكتب الخمسة الباقية التي نُشرت بعمولة – من أوراق شخص ما زال على قيد الحياة وخطابان تثقيفيان والخوف والرعدة والتكرار وشذرات فلسفية – ولكن تبقى هناك معلومات كافية لتخمين أرباح كيركغارد بصورة جيدة جداً.

كانت زهاء نصف الكتب المنشورة على أساس العمولة بأسماء مستعارة، وحتى عام 1846، عندما اعترف كيركغارد بإبوة ثلاثة كتب، وجد من اللامعقول التفاوض مباشرة مع رايتزل ولونو واستخدم بدلاً من ذلك جي. أف. غيوفاد وسيطاً له في المفاوضات. ولذلك فإن اسم غيوفاد هو المذكور في حسابات لونو وليس كيركغارد، مثلما إن غيوفاد هو الذي دفع عن الكتابات ذات الأسماء

المستعارة وتقاضى العائد المالي من رايتزل عن بيع الأعمال المختلفة. وهكذا وقع غيوفاد التصريح التالي تحت القَسَم في 11 أيار/ مايو 1845: أقسم بحياتي إن مستر ماجستير أس. أي. كيركغارد له الحق في أن يتقاضى مني ما أتسلّمه من ريع عن بيع الكتابات... من مستر رايتزل، تاجر الكتب، وفي حالة وفاتي يكون هو ملزَماً بدفع المبلغ إلى مستر كيركغارد.

انتهت هذه الحركة المعقدة في عام 1847: خلال موسم الصيف تفاوض كيركغارد مع رايتزل بشأن مصير النسخ الباقية غير المباعة من الكتب التي نُشرت بعمولة. وتوصل الطرفان إلى اتفاق في آب/ أغسطس، ومقابل 1200 ريكسدولار استملك رايتزل النسخ المتبقية من الخوف والرعدة والتكرار وشذرات فلسفية ومفهوم القلق ومقدمات وثلاثة خطابات في مناسبات متخيَّلة ومراحل على طريق الحياة وحاشية ختامية غير علمية ومراجعة أدبية. كما أخذ رايتزل على عاتقه التكاليف المرتبطة بكتاب خطابات تثقيفية بأرواح مختلفة من عام 1847، الذي طُبع أصلاً على حساب كيركغارد. وتسلّم كيركغارد 235 ريكسدولاراً عن هذه الخطابات، وهي أول عائدات يحققها، بعدها كان كاتباً تُدفع له عائدات بالطريقة الاعتيادية: قبل صدور كل كتاب كان يبيع حقوق الطبعة الأولى إلى رايتزل ولكنه كان دائماً يحتفظ بحقوق الملكية اللاحقة. وكان يكتب عقداً جديداً ويتسلم عائدات إضافية كلما تصدر طبعة أخرى.

ويمكن أن نرى ما كانت عليه الحال ابتداء من تموز/ يوليو 1847 في كشف لحساب كيركغارد أرسله إلى رايتزل قبل المفاوضات على الكتب التي نشرها بعمولة.

العمل	العدد	المباع	المتبقي
إما/ أو	(525 نسخة)	نفد من السوق	0
الخوف والرعدة	(525 نسخة)	321	304
التكرار	(526 نسخة)	272	253
شذرات فلسفية	(525 نسخة)	229	296
مفهوم القلق	(250 نسخة)	165	85
مقدمات	(525 نسخة)	208	317

العمل	العدد	المباع	المتبقي
ثلاثة خطابات في مناسبات متَخيلة	(500 نسخة)	818	319
مراحل على طريق الحياة	(525 نسخة)	245	280
حاشية ختامية غير علمية	(500 نسخة)	119	381
مراجعة أدبية	(525 نسخة)	131	394

بلغت أرباح كيركغارد من كل نسخ كتبه المباعة ناقص 20 في المئة نصيب رايتزل، 3674 ريكسدولاراً يجب أن تضاف إليها 1200 ريكسدولار دُفعت إلى كيركغارد في آب/ أغسطس 1847 عندما استملك رايتزل النسخ المتبقية غير المباعة. وهكذا ربح كيركغارد ما مجموعه 4874 ريكسدولاراً من الكتب العشرة التي طُبعت على أساس العمولة. ويجب استقطاع مصروفاته على الورق والطباعة والتجليد من هذا المبلغ - ما مجموعه نحو 2500 ريكسدولار عن جميع الكتب المطبوعة بعمولة، ليكون الباقي نحو 2674 ريكسدولاراً. وأخيراً يجب أن تُستقطع من هذا المبلغ كلفة الإعلانات وكلفة عدد من النسخ المجانية وكذلك مصروفات على المعونة السكرتارية والتصحيح. وكان هذان البابان الأخيران الأبهظ كلفة، ربما تبلغ كلفتهما الإجمالية زهاء 500 ريكسدولار. وهكذا كان مجموع أرباح كيركغارد الصافية من الكتب التي أنتجها على أساس العمولة وبيعت من خلال رايتزل نحو 2000 ريكسدولار.

هذا الحساب لا يشمل كتاب من أوراق شخص ما زال على قيد الحياة الذي أيضاً وُزع عن طريق رايتزل على أساس العمولة. فالمعلومات المتوفرة عن هذا العمل شحيحة ولكننا نعلم من كشف بتاريخ 30 آذار/ مارس 1850 إن كيركغارد ربح أقل بقليل من 43 ريكسدولاراً من بيع 121 نسخة بين حزيران/ يونيو 1839 وآذار/ مارس 1850. والأرجح إن المبلغ الذي دُفع إلى كيركغارد في نيسان/ أبريل 1850، غطى مصروفاته على الورق والطباعة. والأرجح إنه خرج متعادلاً بلا ربح أو خسارة بالطريقة نفسها من نشر خطابان تثقيفيان الذي بقيت منه 78

نسخة غير مباعة حتى يوم 24 أيار/ مايو 1845 الذي بعده اشتراها فيليبسن.

ونرى اتجاهاً مماثلاً، وإن على نطاق أصغر، فيما يتعلق بالكتب الستة التي طُبعت على أساس العمولة وبيعت عن طريق فيليبسن. وكانت هذه الكتب الأجزاء الصغيرة من خطابات تثقيفية التي صدرت في عام 1843 وعام 1844 زائد عن مفهوم المفارقة من عام 1841. وكل ما معروف عن الجانب المالي لرسالة كيركغارد الأكاديمية إن سعر بيعها كان 1 ريكسدولار و48 شلن. ولا يُعرف كم نسخة طُبعت أو بيعت أو العمولة التي تقاضاها فيليبسن. ولاحظ كيركغارد نفسه بدقة تامة ولكن من دون تفاصيل محدَّدة، إن الكتاب كلفني 182 ريكسدولاراً و4 ماركات و18 شلناً لنشره. وإذا أخذ فيليبسن 25 في المئة من سعر البيع كعمولة فإن مصروفات كيركغارد ستُغطى إذا باع 163 نسخة، الأمر الذي لا يبدو واقعياً لأن حضور الدفاع العلني عن الرسالة كان على ما يبدو أقرب إلى الوقوف فقط بلا مقاعد للجلوس وبالتالي مقابل تذاكر مخفضة. من جهة أخرى، جاء في إعلان صغير ضمته الطبعة الأولى من ستة عشر خطاباً تثقيفياً لعام 1852 إن كتاب عن مفهوم المفارقة ما زال متاحاً للشراء، وبالتالي فإنه لم ينفد من السوق.

في 1843 و1844 نشر كيركغارد ما مجموعه ثمانية عشر خطاباً موزعة في ستة كتيبات صغيرة. وظهر أول هذه الكتيبات بعمولة في متجر رايتزل لبيع الكتب يوم 16 أيار/ مايو 1843 فيما طُبعت الكتيبات الأخرى بعمولة عن طريق فيليبسن الذي اشترى في عام 1843 النسخ المتبقية غير المباعة من هذه الخطابات الستة عشر، التي وزعها بعمولة زائد النسخ المتبقية من خطابين للبيع بعمولة في متجر رايتزل. وفي 29 أيار/ مايو 1845 نشر هذه الخطابات تحت عنوان ثمانية عشر خطاباً تثقيفياً. وتبين السجلات المالية إن رصيد كيركغارد ابتداء من 1 كانون الثاني/ يناير 1845 كان، بعد استقطاع تكاليف الإعلان وعمولة رايتزل، 224 ريكسدولار و1 مارك و4 شلنات لدى فيليبسن. وكان هذا سيغطي في كل الأحوال غالبية مصروفات كيركغارد على الورق والطباعة. وإذا خسر بعض المال من رسالته الأكاديمية فإنه ربح نحو 100 ريكسدولار من خطاباته التي يبدو أنّه كان يدرك قيمتها التجارية لأنه في العقد الذي وقعه مع فيليبسن احتفظ على نحو صريح بحقوق ملكيته: ما أن تنفد الطبعة الأولى يكون العمل ملكيتي مرة أخرى.

صدر مقالان أخلاقيان - دينيان في عام 1849. وطبع الكتاب لويس كلاين، وكان العمل الوحيد الذي صدر بعمولة عن طريق غيلدينال. وكانت الطبعة 525 نسخة كما هو معهود. وبلغت تكاليف الورق والطباعة ما يربو قليلاً على 53 ريكسدولاراً، وسعر البيع 3 ماركات، مع احتفاظ غيلدينال بعمولة نسبتها 25 في المئة. لم يكن العمل من الكتب الأكثر مبيعاً، وبحلول عام 1852 لم تُبع منه إلا 74 نسخة، الأمر الذي كان يعني، طبقاً للترتيبات المالية المتعارف عليها، إن كيركغارد تسلَّم 21 ريكسدولاراً. واشترى رايتزل المتبقي من الطبعة في عام 1852، ولكن الحسابات مشتتة بحيث لا يمكن حساب صافي أرباح كيركغارد. والمؤكد أنها كانت متواضعة ولكن من المستبعد إنه تكبد أي خسارة مالية على مقالان.

إجمالاً، كان كيركغارد يربح من كتاباته. وحققت له الكتب التي أنتجها على أساس العائد 2835 ريكسدولاراً، والكتب التي طبعها على أساس العمولة زهاء 2000 ريكسدولار، وبذلك يكون المجموع الكلي 4835 ريكسدولاراً. لم يكن هذا مبلغاً كبيراً من المال ولكن لأغراض المقارنة يمكن أن نذكر إن رئيس قسم في مفتشية الجمارك في كوبنهاغن كان يتقاضى راتباً سنوياً قدره 600 ريكسدولار، وإذا كان المرء حريصاً بدرجة معقولة فإنه يستطيع أن يعيل أسرة على 400 ريكسدولار في السنة. وإذا كنتَ حرفياً مؤهلاً فإن راتبك السنوي سيكون 200 ريكسدولار، ولكن من الجهة الأخرى يكون طعامك وسكنك مجاناً في بيت معلمك. وكانت الخادمة تتقاضى بالإضافة إلى الطعام والسكن راتباً سنوياً قدره 30 ريكسدولاراً. وإذا احتاجت حذاء جديداً كان عليها أن تعتصر من راتبها ثلاثة ريكسدولارات كاملة، ولذلك كانت ترتدي أحذيتها العتيقة لزمن طويل جداً.

عاماً تلو الآخر، على حسابي

رغم إن أرباح كيركغارد لم تكن طائلة تماماً فإنها مع ذلك تشكل نقيضاً مباشراً لتعليقاته المتكررة بما مؤداه إنه تكبد خسائر مالية من نتاجه الأدبي. وكان سقراط يرفض تقاضي أجور عن الدروس التي يعطيها وكان سقراط ماثلاً في ذهن كيركغارد عندما وصف عائداته في عدد من المرات بأنها سقراطية بعض الشيء. ويقدم مقطع من كتاب مقدمات مثالاً نموذجياً على ذلك:

إن الكاتب الدنماركي يجب ألا يمتلك فكراً ودربة، وما شابه مما كان دائماً يعتبر مرغوباً بطبيعة الحال، فحسب بل يجب أن يكون لديه مال أيضاً، وفي المقام الأول، مزاج غير اعتيادي بالمرة ليكون قادراً على الرضا بأن يهب وقته وجهوده - وماله - دون أن يلقى الكثير مقابل ذلك سوى الجحود.

وكانت هذه الشكوى موضوعة كثيرة التكرار في كتاباته، وأصبحت ترتبط على نحو متزايد بالسخرية من الوضع الأدبي في الدنمارك. وكما يكتب في وجهة نظر لعملي كاتباً فإنه عندما يكون البلد صغيراً، من الطبيعي أن تكون كل الأشياء صغيرة بالتناسب مع بلد صغير. ويصح هذا على الأدب أيضاً. فالعائدات وكل الأمور ذات العلاقة لن تكون إلا ضئيلة... وعليه إذا كان هناك فرد لديه موهبة ليكون كاتباً وأيضاً محظوظ بما فيه الكفاية لامتلاك بعض المال فإنه حينذاك سيصبح كاتباً على حسابه الخاص بالأساس.

ليس من شأن إعلانات كهذه إلا أن توحي بأن عمل كيركغارد مشروع لم يكن غير ربحي فحسب بل انتهى به المآل إلى كونه غير مربح أيضاً. وفي وقت مبكر تماماً ساعد أميل بويسن وهانز بروشنر على ترويج هذه الفكرة، ولكنه هنريته لوند وأخاها غير الشقيق فريدريك ترويلس - لوند، مع والدهما المستشار العدلي هنريك فرديناند (الذي كان رئيس قسم في البنك الوطني) هم الذين عملوا، دون أن يدروا بهذا القدر أو ذاك، بمثابة صانعي الأسطورة الكبار فيما يتعلق بأحوال كيركغارد المالية. وبعد خمسة أيام فقط على وفاة كيركغارد سيكتب لوند، رجل البنك الوطني، ما يلي إلى ابنه: إذا تكلم أحد عن الثروة العظيمة التي تركها وراءه دعه يتكلم. ولكن الحقيقة هي هذه، إنه حين كان على قيد الحياة أنفق ماله - جزء على كتاباته وجزء على تكاليف معيشته وجزء على الفقراء - بحيث لا يترك شيئاً سوى مكتبته، إلخ.

وهكذا أصبحت الفكرة القائلة إن كيركغارد أنفق جزءاً كبيراً من ثروته على نشر أعماله، حقيقة مفترَضة في وقت مبكر تماماً، وعززها قدر معين من الإبهام في يومياته. وخلال الفترة التي أعقبت مباشرة هجوم مجلة كورسارن كتب المؤلف الذي كان هدف الكثير من السخرية قائلاً: أنها بلا شك تربية أن يتموضع المرء في مدينة صغيرة مثل كوبنهاغن، كما أتموضع أنا. أن أعمل بكل قدراتي، إلى حد اليأس تقريباً، بعذاب ممض في روحي والكثير من المكابدة الداخلية،

وأدفع المال لنشر الكتب - ثم يقرؤها أقل من عشرة أشخاص بالمعنى الحرفي للكلمة قراءة متمعنة. وخلال هذه السنة نفسها وبالنبرة نفسها، أثناء التفكير في غولدشمدت وبي. أيل. مولر بطريقة أقل من ودية، كتب كيركغارد: إن العائدات هذه الأيام، حتى لأعمال كتّاب معروفين في عالم الأدب الدنماركي، عائدات متواضعة في حين، من الجهة الأخرى، إن العطايا التي توزع على أجلاف الأدب عطايا كبيرة تماماً. فهذه الأيام كلما كان الكاتب أكثر مدعاة للازدراء زاد ما يكسبه. أو مرة أخرى، من العام نفسه وبتهكم ما بين المرارة والحلاوة: وهكذا من جهة، الشرف والاحترام والكسب المالي - والرأي الخاطئ، ومن الجهة الأخرى، الخزي والاستبعاد والخسارة المالية - والرأي الصائب. لو لم يكن المرء متفائلاً، وفي ذهنه ذلك، فمن لا يريد أن يصبح متفائلاً؟

وفي حين كان كيركغارد هادئاً وكيِّساً على العموم في نقاش هذه القضية في كتاباته المنشورة فإنه كان أقرب إلى نقيض ذلك في يومياته حيث كان حقاً يشكو من اغتمامه، محتجاً طول الوقت بأنه في الحقيقة لا يشكو: الدنمارك بلد صغير حيث الكاتب الحقيقي لا يستطيع أن يكسب شيئاً - كان هذا أمراً عرفته قبل أن أبدأ. وما شكوتُ منه يوماً، ولن أشكو - حتى إذا كان من المحزن بكل تأكيد، إني لو عشتُ في بلد كبير لكسبتُ ثروة كبيرة خلال الوقت الذي كان عليَّ أن أدفع فيه المال كي أعيش ككاتب. وفي العام نفسه، 1848، يبدو أنّه انكفأ إلى موقف سقراطي: أُفكر بقلق بالغ في مسألة ما إذا كان مسموحاً لي في الحقيقة كسب المال من عملي، ربما ضمن دخل ثابت لنفسي، سيكون مبعث طمأنينة لي في الوقت الحاضر. أُفكر في ذلك بقلق بالغ لأني بالتأكيد أفهم إني في ذات اللحظة التي أفعل فيها ذلك سيُقوِّض عملي ككاتب، وعملي بصفة عامة، لأني سأكون قد روجتُ تعريفاً تافهاً للجدية، لاعتبار المرء محترماً - يكسب المال وتُقرأ أعماله على نطاق أوسع ويُقتَبس في أحيان كثيرة. والسبب؟ لأني أصبحت الآن جاداً - أي، إني أكسب الآن مالاً. وكان كيركغارد يحقق عائدات من كتبه في تلك الفترة. وكانت سنة 1848 سنة منتجة ومربحة حققت له 1020 ريكسدولاراً، بموجب عقده مع رايتزل، ولعل هذا جزء من تفسير تردده المفاجئ. ولكن لم يمض وقت طويل قبل أن تنتهي أزمته السقراطية: أليس حاشية ختامية إنجازاً كبيراً، أكثر من كافٍ لثلاثة أساتذة! ولكن الكاتب، بالطبع، لم يكن لديه منصب رسمي ولا يبدو أنّه يريد منصباً كهذا. لم تكن هناك أقسام لها ثقلها [أسلوب

هيغلي] وبالتالي فإن الأمر لم يكن شيئاً في الحقيقة. نُشر الكتاب في الدنمارك، ولم يُذكَر في أي مكان. ربما بيعت خمسون نسخة وبالتالي فإن نشر الكتاب، بما في ذلك ما أُنفق على التصحيح (100 ريكسدولار) كلفني نحو 400 – 500 زائد وقتي وجهدي. هنا عتَّم كيركغارد، لهذه المناسبة، على حقيقة إن بي. أيل. مولر ناقش حاشية ختامية باستفاضة في الواقع – ولو بلغة مسمومة.

كانت مرارة كيركغارد لا تخطئها العين، وجاءت لتبقى. وعلى الغرار نفسه فإن الحاجة لتقسيم نفسه إلى عدة كتّاب ازدادت باطِّراد أيضاً. وبحلول عام 1850 بلغ عددهم عشرة كتاب: نعم، إذا أمكنني تشطير نفسي وأصبح عشرة أشخاص – سيكون هذا شيئاً في الدنمارك. ثم سيكون هناك التنوع اللازم، كاتب اليوم، كاتب آخر غداً، ولا أحد منهم له قيمة تُذكر. حتى القطعة الصغيرة التي أكتبُها بلا عناء ستكون كافية لمزاولة مهنة زاهرة في الدنمارك – ومهنة تحقق لي الكثير من المال... كلمة واحدة مطبوعة عن الملابس التي أرتديها، وآلاف مؤلفة سيتلقفونها، وستُذكر طيلة عصور. أو هذا التعليق التوكيدي بصفة خاصة من عام 1851: كنتُ لا شيء ولا أُساوي شيئاً، لكني نذرتُ نفسي للتسلية باهظة الكلفة بكوني كاتباً في الدنمارك – باهظة الكلفة بالمعنى المالي أيضاً.

سيكون من السهل استكمال ما ذُكر هنا بجملة تنويعات على هذه الموضوعة نفسها، ولكن هناك فقرات في اليوميات أيضاً تصحح الانطباع العام أو على الأقل تلطفه، مثل هذه الفقرة من عام 1850: صمدتُ سنة بعد أخرى، على حسابي الخاص. أحياناً كنتُ أنفق من جيبي. في المحصلة النهائية غطيتُ مصروفاتي، وبالتالي لم أربح شيئاً. وتتوافق هذه الموازنة بين المصروفات والمدخول تقريبياً مع ما ذكره سيبّرن، الذي كان حسن الاطلاع عموماً، في هذا الشأن: لا بد إن نشر كتاباته الضخمة كلفه شيئاً لفترة طويلة تماماً من الوقت. من جهة أخرى، لا بد إنه في النهاية عاد عليه بإيرادات كبيرة.

لكن إيرادات كيركغارد لم تكن قط تغطي تكاليف معيشته، ولذلك عندما ذهب إلى أنه كان يدفع من جيبه ككاتب فإنه لم يجانب الحقيقة تماماً – هذا إذا قبلنا بالمنطلقات الغريبة التي أقام عليها محاجَّته: إذا حقق عائدات قدرها 500 ريكسدولار في سنة معينة لكنه أنفق 2000 على تكاليف المعيشة فإن نشر كتبه كلفه تلك السنة 1500 دريكسدولار.

رغم إن هذا الحساب قد يكون ناقصاً حين ننظر إليه من وجهة النظر الاقتصادية فإنه منطقي من الناحية النفسية. ذلك إن كيركغارد بدأ شاباً ثرياً. وعمل كالمجنون بالمعنى الحرفي للكلمة. حرم نفسه ليكرس نفسه بالكامل إلى العمل كاتباً. وسنة إثر أخرى رأى ثروته تختفي. وبالتالي ألم يُنفق المال على الكتابات؟ ألم يعش كمؤلف يكتب مجاناً؟ وأخيراً ألم يعمل بكد ومثابرة حتى الفقر؟ كان من الصعب أن يبدو الأمر خلاف ذلك بالنسبة له، وما كان الأمر ليختلف كثيراً إذا كانت التكاليف الاقتصادية المباشرة لكونه كاتباً لا تغطي سوى مصروفاته أو إذا حققت فائضاً يقل قليلاً عن 5000 ريكسدولار. فبهذا المبلغ من المال ما كان كيركغارد ليستطيع أن يعيل نفسه أكثر من سنتين أو ثلاث سنوات! وبما إنه عمل كاتباً أكثر من سبعة عشر عاماً فإن الكتب كانت في المتوسط لا تحقق له سوى نحو 300 ريكسدولار في السنة - كانت أحياناً لا تكفي حتى لتغطية إيجاره.

لا يمكن التدقيق باستفاضة في أوضاع كيركغارد المالية بسبب الكثير من الفراغات والثقوب السوداء في السجلات الباقية. ولكن الأبواب الرئيسية والمحصلة النهائية يمكن أن تُحدَّد بصورة مؤكَّدة تماماً: بلغ حجم الثروة التي ورثها كيركغارد في عام 1839 ما مجموعه 31335 ريكسدولاراً، وأسعار الفائدة ودخله من توزيع الأرباح عن الأسهم والسندات ما مجموعه 6500 ريكسدولار، وإيراد كتاباته في حدود 5000 ريكسدولار، ورَبَح 2200 ريكسدولار من بيع منزل العائلة. ومن أصل هذا المجموع الكلي البالغ 45035 ريكسدولاراً لم يترك شيئاً حين توفّي عام 1855. وكانت الأشياء الوحيدة الباقية متعلقاته الشخصية وأثاثه ومجموعة كتبه وثلاثين قنينة نبيذ في القبو، ورصيد له بمبلغ 599 ريكسدولاراً مع رايتزل. إذ اختفى المال في غضون سبعة عشر عاماً، الأمر الذي يعني إن كيركغارد كان ينفق ما متوسطه 2600 ريكسدولار في السنة.

ماذا حدث للمال؟ الجواب بسيط: كان لدى كيركغارد معدل مرتفع ارتفاعاً هائلاً من الاستهلاك الشخصي. وتتكلم الفواتير الباقية لغتها الفصيحة عن نمط حياة شخص متذوق. وهناك فواتير من باعة كتب، ومجلدي كتب، ومن صانعي قبعات مختلفين، ومن آغرسكوف وشمدت، صانعي الستائر وبزازي الحرير، ومن الخياط كونيتسر، ومن صانع الأحذية سولفيربورغ الذي كان مقابل شلنات ليست قليلة يتولى تنعيل جزم كيركغارد الخاصة مع ترصيعها بالفلِّين. وهناك

أيضاً فواتير من حرفيين مختلفين وخمسة إيصالات من الحلاق أف. دبليو. آلستراند عن حضوره بشأن الحلاقة. وقد يطلق هذا الحضور عنان الخيالات ولكن في الحقيقة لم يكن من المستغرب وقتذاك أن يأتي الحلاقون إلى بيوت الزبائن لحلاقة رؤوسهم، التي دفع الزبون كيركغارد عنها أربعة ريكسدولارات في 1850 – 1851. ولكن أغرب ما في هذه الحزمة من الفواتير هي الإيصالات الخمسة عشر عن دفع رسوم العضوية في روابط وجمعيات وأندية مختلفة من النمط المغلق بعض الشيء. ومن هذه رابطة الفن التي قُبِل فيها كيركغارد بوصفه العضو رقم 201 مقابل مبلغ معتبر قدره ريسكدولاران من الفضة وبذلك أصبح تلقائياً من المشاركين في قرعة على عمل فني – والمدهش إنه في 3 شباط/ فبراير 1855 فاز بلوحة زيتية عنوانها المرأة الإيطالية وطفلها للفنانة إليزابيث يريخاو باومان. وأعطى كيركغارد اللوحة إلى زوج شقيقته هنريك فرديناند لوند موضحاً إن الصورة ستكون لك مكافأة على عدم قراءتك ذات يوم كلمة واحد مما كتبتُه. ودفع ثلاثة ريكسدولارات فضة للعضوية في مكتبة أتينيوم الخاصة. وليس من المستغرب إن كيركغارد كان عضواً في جمعية تشجيع الأدب الدنماركي أيضاً ولكن ما يبقى لغزاً هو لماذا إن كيركغارد، في وقت متأخر مثل عام 1850 حين كان كثير الشكوى من ظروفه المالية الصعبة، أنفق أربعة ريكسدولارات كاملة على العضوية في جمعية تشجيع البستنة. ويصبح الوضع عصياً على الفهم تماماً حين نقلب علبة القسائم الصغيرة المرتَّبة بتزويقاتها القلمية الأنيقة، ونعلم إنه في 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1850 – كما هو وارد – دفع مساهمته المحدَّدة بسخاء بستة ريكسدولارات عن العضوية في رابطة المرأة عام 1843. ونسأل أنفسنا إن كانت عضويته في هاتين الجمعيتين الأخيرتين شكلاً من أشكال العمل الخيري أو مجرد تعبير عن تهكم خفي.

من الأسهل أن نفهم عضويته في جمعية الموسيقى. وكان كيركغارد قام بدور ممتع بعض الشيء في تأسيسها. فبعد احتفال خاص أُقيم في المسرح الملكي تكريماً للموسيقار سي. إي. أف. ويزي C. E. F. Weyse بمناسبة عيد ميلاده الثاني والستين في 5 آذار/ مارس 1836، تجمع بعض الذين كانوا حاضرين في المسرح في مقر الجمعية الطلابية حيث قرروا تشكيل جمعية الموسيقى التي ستتخذ من تشجيع المؤلفين الموسيقيين الدنماركيين هدفاً من أهدافها. وبحسب الطبيب والموسيقي الهاوي جي. إيل. لورك فإن الجمعية كانت منذ

16 آذار/ مارس 1836 تضم ما لا يقل عن 141 عضواً، فجلس لورك وأدفار كولن لإعداد نظامها الداخلي الذي سيحكم نشاطاتها في المستقبل. وإذ أراد السيدان أن يتأكدا من إن لوائحهما أُعدت بعد دراسة متأنية فإنهما توجها إلى صديق وزميل يثقان بفطنته الديالكتيكية ثقة عميقة - سورين كيركغارد. وهكذا التقى الثلاثة ذات مساء في شقة لورك على كأس من شراب البَنش وقدما إلى الديالكتيكي الشاب مسودة النظام الداخلي المقترح للجمعية: يبدو أنّ سورين كيركغارد أخذ المسألة بجدية كبيرة، ودخل في نقاش حول التفاصيل. ولكن مهاراته في التشريح الديالكتيكي سرعان ما أحبطت كاتبَي النظام الداخلي اللذين لم يفكرا عملياً بالعواقب التي اكتشفها في نظامهما الداخلي الفيلسوف الذي استدعياه. وغادر الاثنان مستشارهما دائخَين.

كان كيركغارد نفسه أول مَنْ اعترف بإسرافه. وفي فقرة من يومياته ذات عنوان دراماتيكي هو الحكم على نفسي كتب: الله يعلم إني كنتُ باذخاً. أعترف بذلك بإرادتي وأقر بذنبي... ومع ذلك فإن بذخي يرتبط ارتباطاً أساسياً بإنتاجي، الذي فهمتُ إنه إمكانيتي الوحيدة وفي الوقت نفسه نظرتُ إليه على أنه نعمة لا تُوصف من الله أضفَتْ على حياتي مثل هذه الأهمية. ولذلك كان كل شيء يُبذخ لإبقائي في حالة منتجة. ولكان رضا الله أكبر أو لكان من المسيحية بقدر أكثر صدقاً لو إني تصرفت بطريقة معاكسة تماماً وكنتُ مقتراً. أفهم ذلك الآن، لكني في حينه ما كنتُ لأفهمه ولا أعتقد أنّ ذلك كان ممكناً لي. من جهة أخرى، من المؤكد أني توجهتُ إلى الله، كنتُ أبتهل إليه كلما تعين عليَّ اللجوء إلى لهوٍ غالٍ، ومن المؤكد أن فهمي الشبابي كان يقول لي إن ذلك مباح. كنتُ أبتهل إلى الله أن أجد متعة حقيقية في مثل هذه النزهات، وتركتُ الأمر بيده. هنا يبدو أنّه على الأقل يعني ما يخرج من فهمه عن المال، ويبدو أنّ الاثنين وُظِّفا توظيفاً حسناً: من دون بذخ لما كنتُ أستطيع أبداً أن أعمل بالحجم الذي عملتُ به، لأن بذخي كان محسوباً على الدوام لغرض واحد هو إبقائي منتجاً بهذا القدر الهائل.

ذوو الأفق الضيق من الأجيال اللاحقة راقهم أن يتحسسوا من هذه العادات باهظة الكلفة، ولكن فقط لأنهم في حسدهم واستهجانهم ذهبوا إلى أنه كان على كيركغارد أن يُخضع نفسه إلى تزهد سترفضه الأجيال اللاحقة نفسها بطريقة مهذبة.

18. مجلة كورسارن، العدد 285، الجمعة، 6 آذار/ مارس 1846: هناك لحظات تصبح فيها أفكار المرء مشوَّشة ويظن إن نيكولاس كوبرنيكوس كان مغفلاً حين قال إن الأرض تدور حول الشمس، بل على العكس. فإن السماء والشمس والكواكب والأرض وأُوروبا وكوبنهاغن تدور حول سورين كيركغارد الذي يقف صامتاً في المركز ولا يكلف نفسه حتى أن يرفع قبعته اعترافاً بالتكريم الذي يلقاه. فمَنْ، بل ماذا، يكون سورين كيركغارد حقاً؟ اسألوا آلافاً سمعوا به وبكتبه الضخمة.

19. بيدر لودفيغ مولر. لا يُعرَف الكثير عن حياته الخاصة. شخصيته غير الودية كانت تُبقي غالبية الأشخاص بعيدين مسافة مناسبة منه، كما كتب كارل بروسول (المعروف باسم كاريت أيتلار) عن مولر الذي كان يُسمى أيضاً النسخة الشيطانية من كيركغارد. كان طالب لاهوت لكنه مثل كيركغارد كان يقضي وقته بدراسات مختلفة وخاصة المواضيع الجمالية والفلسفية. وكان من زوار المقاهي المواظبين ومعروفاً بلسانه المسموم – وشهوته التي لا ترتوي للنساء. وكان ممقوتاً من الجميع – ومحسوداً من الجميع أيضاً بكل تأكيد – بما كان يمارسه في حياة الواقع الحسية التي كان آخرون بينهم كيركغارد، يتّبعونها في وسط أفلاطوني هو الورق.

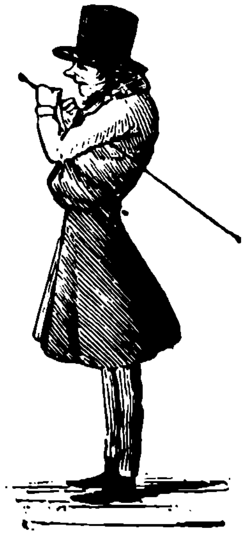

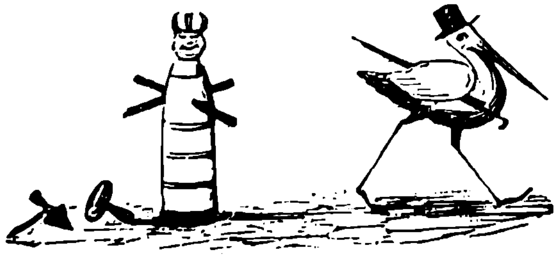

20. ماير آرون غولدشمدت. كان غولدشمدت ينتمي إلى جيل من الكتاب والمثقفين الشباب الذين اعتبروا كتاب «إما/ أو» فتحاً أدبياً. وبصفته رئيس تحرير مجلة كورسارن كتب مراجعة متحمسة للكتاب. ولاحقاً خطرت للمجلة الفكرة الشريرة الجيدة بأن تصوُّر كيركغارد أحدب لكل ساق من ساقي سرواله طول يختلف عن الآخر. وبسرعة البرق تحولت علاقة كيركغارد بأهل كوبنهاغن. وشعر تحت نظرات الاستغراب التي كانوا يرمقونه بها بتنزيله من مفكر فذ إلى معتوه القرية. وشعر في الوقت نفسه بالارتقاء من مرتبة شاعر إلى مرتبة شهيد. الرسوم الأربعة أدناه من مجلة كورسارن، العدد 277 والعدد 278.

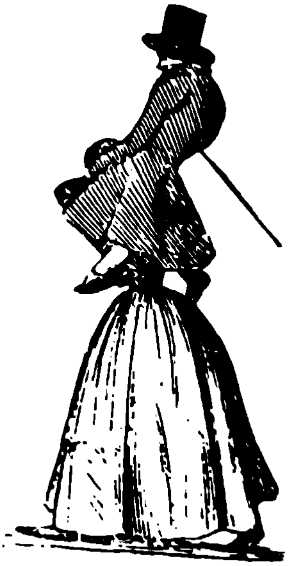

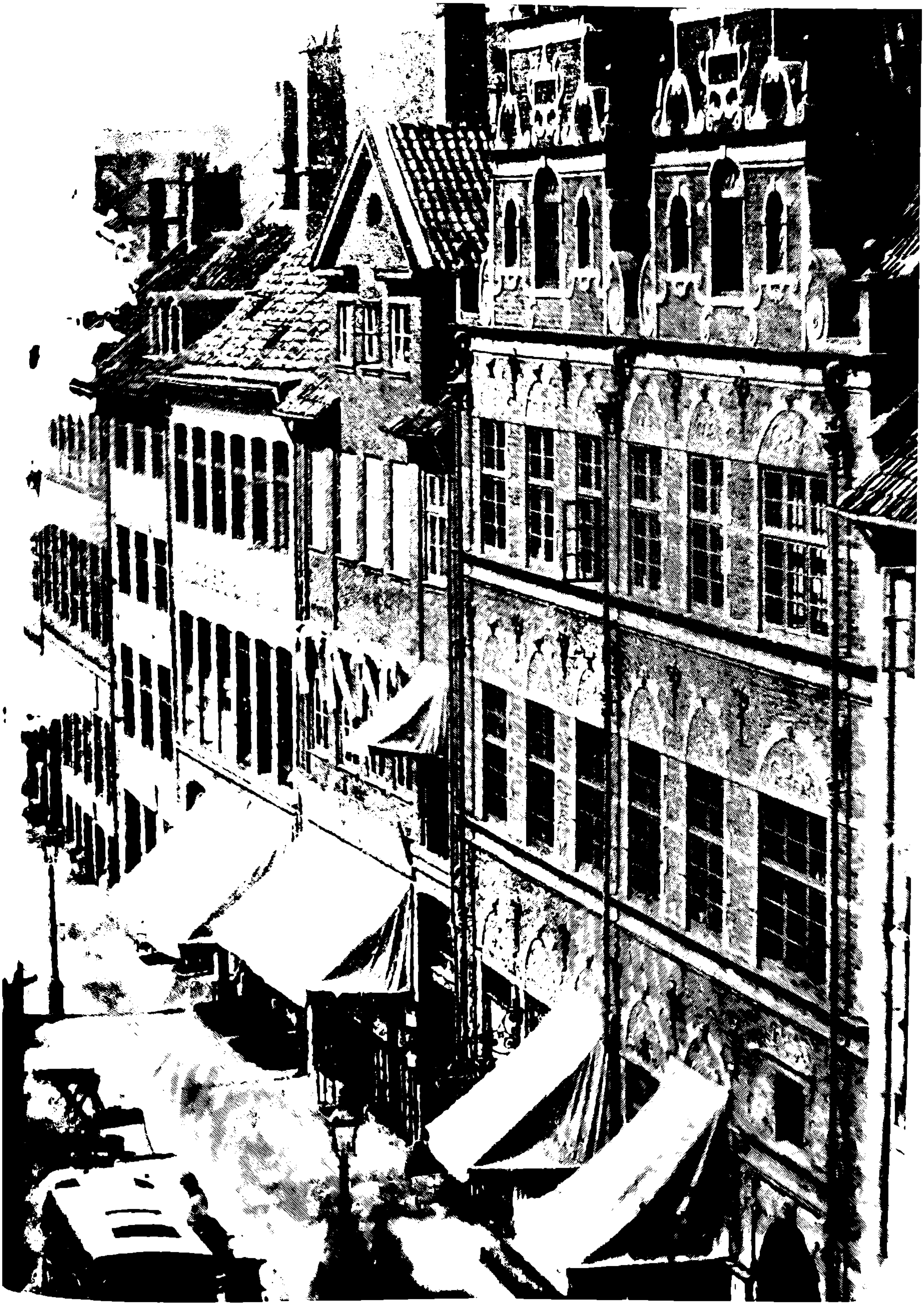

21. كان شارع ستروغه يُسمى الطريق في تلك الأيام واليه كان المرء يذهب ليرى ويُرى، للسلام على الأصدقاء بحرارة وفي والوقت نفسه تجنب الأعداء بشكل ظاهر. وجرى تحديث المطاعم من

الطراز القديم وفق نماذج أجنبية وأصبحت تسمى محلات لبيع الحلويات أو تحولت إلى مقاهٍ ذات أسماء غريبة مثل أبيتز وكابريتز وكابوزي وفيريني ولارديللي وبلايش.

22. ينز فينسن غيودفاد. أُسمي غيودفاد صديقي الشخصي، وخلال السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة كنتُ أتحدث معه كل مساء... ولو لم يكن صحفياً لوجدتُ فيه بكل تأكيد الشخص الذي كنتُ أستطيع، بمنتهى القُرب، أن أأتمنه في صداقة حقيقية. هكذا كتب كيركغارد في عام 1850. ولكن غيودفاد كان وظل صحفياً، والأكثر من ذلك إنه كان صاحب ميول ليبرالية قوية. واستخدمه كيركغارد وسيطاً لدى إرسال أعمال بأسماء مستعارة إلى المطبعة.

Kjøbenhavn den 20de December 1850.

Idag, Fredag den 20de December fra Kl. 9 Formiddag, fortsættes Auctionen i Krystalgade Nr. 61 over Meubler og Effecter, en stor Ballance, Lodder, en Skpd.s og to 4 Lpd.s Blismere, Oste, m. m., og begynder i Catalogets Pag. 29, 30te Boe.

Bal.

Søndagen den 29de December afholdes Bal paa Raadstuesalen i Ringsted, hvortil Billetter erholdes hos Undertegnede.

H. Bille,
Gjæstgiver.

Dr. Jesper Brochmanns Senge i Vartou Hospital.

Ved Dødsfald er Nr. 8 af de af Dr. Jesper Brochmann i Vartou Hospital oprettede Senge, som er en Fruentimmerseng, bleven ledig.

Da Fundatsen bestemmer, „at de af Fundators Slægt, Byrd og Forvandte, som udi Armod og Uselhed findes geraaden, fremfor andre den nyder", indkaldes herved i Overeensstemmelse med Placaten af 12te Juli 1843 § 1, den eller de, som ifølge heraf maatte formene sig qvalificerede til at indlægges paa bemeldte Seng, med 12 Ugers Varsel til Strifillgen at legitimere dette for undertegnede Direction.

Den administrerende Direction for Fattigvæsenet i Kjøbenhavn, den 17de Decbr. 1850.

Færøerne, I Begyndelsen af Februar Maaned næste Aar vil der afgaae en Skibsexpedition fra Shetlandsøerne til Færøerne. Breve, som maatte ønskes afsendte til Færøerne med denne Expedition, maae være indleverede paa det kongelige Postcontoir her i Staden, senest Onsdagen den 1ste Januar 1851, adresserede til dHrr. Hay & Co. i Lerwick paa Shetland, via Ostende.

Efterlysning.

Fredag Eftermiddag d. 13de d. M. om Eftermiddagen mellem Kl. 11 og 2, er paa Enighedsværn bortkommen en Tegnebog, hvori fandtes 15 Rbd., 2de Breve og en Fødselsbrev, lydende paa et sort Silkeforklæde. Hvo der kan give Oplysning om det Bortkomne, erholder 2 Rbd. ved Overbringelsen, naar man behager at henvende sig i Castellet, Elephantstokken Nr. 7.

Literatur.

Udkommen er:

Børnetheatret

eller
Comedier til Opførelse af Børn,
1ste Hefte,
Prøven paa Slaget ved Fredericia.
Original Børnevaudeville
i 1 Act,
og faaes i alle Byens Boglader samt hos undertegnede Forlægger. Priis 1 Mk.

Gandrup,
Bog- og Papirhandler,
Vimmelskaftet 136.

Schouws Forordninger, 2den Udg., complet, 1847 incl., samt Bangs og Larsens Proces, ere billigt tilfalgs. Dette Blads Contoir anviser.

Spansk Læsebog
for Begyndere
faaes paa Amagertorv Nr. 6, 2den Sal i Mellembygningen. Priis 2 Mk.

Paa C. A. Reitzels Forlag er udkommen:

En opbyggelig Tale,

af
S. Kierkegaard,
heft. 16 ß.

Clara Raphael.

Tolv Breve, udgivne af:
J. L. Heiberg,
Priis heft. 72 ß.

Nye Digte

af
Christian Winther,
Priis heft. 72 ß.

Thorvaldsens Ungdomshistorie. 1770—1804.

Efter den afdøde Kunstners Brevvexlinger og egenhændige Optegnelser og andre efterladte Papirer, af:
J. M. Thiele.
Priis 2 Rbd.

Digte

fra forskjellige Perioder,
af
H. Hertz.
2 Dele, heft. 2 Rbd.

Danske Romanzer,

hundrede og ti.
Samlede og udgivne
af
Christian Winther.
Papbind 1 Rbd. 24 ß.

Ovennævnte Skrifter kunne ogsaa erholdes i smukt indbundne Exemplarer med og uden Guldsnit.

23. صفحتان من برلينغسكة بوليتيسكة وادفيرتسمنتس - تيدندة، صباح الجمعة، 20 كانون الأول/ ديسمبر 1850. لتفادي إغراق القراء بطوفان من الإعلانات المتنوعة وضع سي. أي. رايتزل إعلاناً واحداً كبيراً يعرض للبيع عدداً من الكتب بينها كتاب كلارا رافائيل اثنتا عشرة رسالة وكتاب كريستيان فينثر قصائد جديدة وكتاب هنريك هيرتز قصائد. وفوقها كلها يتوجها خطاب تثقيفي بقلم أس. كيركغارد، يمكن شراؤه بستة عشر شلناً.

24. راسموس نيلسن. رغم إن كيركغارد كان لا يريد تلاميذ فإنه وجد من المناسب اختيار شخص واحد يفتح له مغاليق عمله بصفته كاتباً. وقع الاختيار على أستاذ الفلسفة راسموس نيلسن، وهو رجل متعدد المواهب لديه اهتمامات بالرياضيات والكيمياء وعلم النبات والفيزيولوجيا. وقال أنا مثل الخيول التي تجر الحافلات العمومية. تكفيني استراحةً أن أربَط بعربة مختلفة. ولكن الحافلة الكيركغاردية كادت تجبره على الركوع. إذ كان كيركغارد يعتقد أنّ نيلسن يسرق أفكاره وينشرها كأفكاره هو، ولذلك كان سيجد من المناسب بكل تأكيد أن يخلد نيلسن نفسه بقبعة في يده.

الجزء الرابع

1848

بذخ في خدمة الفكرة

ثم أصبحت شقة في ركن تورنيبوسكيغاده شاغرة، شقة كنتُ شغوفاً بها منذ إنشاء المبنى. كان المبنى الذي رفَّ له قلب كيركغارد في ركن تورنيبوسكيغاده [بالدنماركية: شارع غابة الشوك] وروزينبورغاده [بالدنماركية: شارع قلعة الورود] وكان يعود إلى جي. جي. غرام J. J. Gram الذي يملك معمل دباغة. وشُيد مبنى الشق على الطراز الأحيائي - الكلاسيكي المتأخر بأربعة طوابق وأربع نوافذ تطل على الشارع. وأصبحت الشقة متوفرة للسكن في صيف 1847.

وافق كريكغارد على أن يكون يوم عيد الفصح عام 1848 يوم إخلائه الشقة الكائنة في النصف الجنوبي من الطابق الثاني لبيت العائلة القديم في نيتروف. وفي هذا الوقت كانت لدى كيركغارد خطط للتوقف عن الكتابة (أن أشق طريقي بكل نعومة إلى فكرة التوقف عن الإنتاج) وإنفاق شيء من الـ2200 ريكسدولار التي تسلّمها عن بيع منزل والده على رحلة إلى الخارج لمدة عامين ثم البحث عن وظيفة قس. ثم خطرتْ لي الفكرة: تريد السفر إلى الخارج، ولكن لماذا؟ لكي تقطع إنتاجك وتحصل على شيء من الاستجمام. ولكن ألا تعرف من الخبرة إنك لا تكون على الإطلاق منتجاً كما تكون في الخارج، في العزلة الهائلة التي تعيش فيها هناك، بحيث تعود إلى الأهل بعد المكوث عامين ومعك كومة ضخمة من المخطوطات؟ وهكذا استثمر كيركغارد بالفعل بعض المال في سندات مَلَكية وأسهماً في شركة تأمين ضد الحريق، وفي نهاية كانون الثاني/ يناير 1848 وقَّع عقد إيجار الشقة الفاخرة بنوافذها الأربع التي تواجه روزينبورغاده وما لا يقل عن ست نوافذ تواجه تورنيبوسكيغاده. وانتقل إلى

المكان في منتصف نيسان/ أبريل وكان مسؤولاً عن تسديد الإيجار البالغ 295 ريكسدولاراً في السنة.

بعد بضعة أشهر حاول البروفيسور راسموس نيلسن، الذي جاء إلى المدينة من مكان إجازته في تارباك، أن يزور كيركغارد في شقته الجديدة بلا جدوى، وبدلاً من ذلك انتهى به المطاف أن يوجه رسالة إلى الساكن الجديد تتضمن وصفاً من الطراز الأول للمنزل – وساكنه: الركن الزاوي في العنوان يترك انطباعاً ممتازاً. فهذا العنوان وصف مناسب جداً (ترى ذلك بوضوح إذا وقفتَ في المكان الصحيح وظهرك إلى كنيسة الإصلاح). ولكن لدى إمعان النظر يكون ذلك حتى وصفاً خاطئاً بصورة أكثر توكيداً، لأنه ما من شخص، بطبيعة الحال، مهما حاول أن يجعل نفسه نحيفاً، يستطيع الدخول مباشرة من خلال ركن – يجب أن ينظر المرء على امتداد كل جانب لكي يجد مدخلاً. يا لها من أفضلية لك وصعوبة للشخص الذي سيدخل! إذا ظن مَنْ يريد الدخول إنه سيجدك في روزينغاردن [بالدنماركية: باحة الورود، وهو شارع قريب ذكره نيلسن خطأ] تكون أنتَ جالساً تتخفى في ظلال تورنيبوسكيغاده. وحين يبحث عنك حينذاك بين الأشواك، نعم، تكون انتقلتَ عندئذ إلى الجانب المشمس، للعيش بين نبتات الآس والورود.

يبدو أنّ أستاذ الفلسفة الذي أضنى نفسه لتقليد أسلوب كيركغارد كان يعرف إن كيركغارد، في أكثر من ناحية واحدة، شخص من الصعب تحديد موقعه، وبين السطور قال نيلسن ضمناً إن لديه شكوكاً بأن كيركغارد أخفى نفسه في النهاية المقابلة من الشقة الركنية الكبيرة. وجعل رد كيركغارد من الواضح إن شكوك نيلسن ربما لم تكن دون أساس بالكامل. وكانت الرسالة اعتذارية على نحو غريب وأبلغت نيلسن بمفردات واضحة إن الزيارات التي تُرتَّب مسبقاً بالكتابة أفضل بكثير من الزيارات غير المعلنة.

رغم إن كيركغارد لم يستطع قطعاً أن يشكو من ضيق المكان، فقد تعين بالطبع أن يكون هناك حيز للخدم. وكان هناك أكثر من بضع غرف لهم. ويمكن أن نرى من إحصاء 1850 السكاني إن فريدريك كريستيان ستروبه، وهو نجار حرفي في التاسعة والثلاثين من العمر، من أيسلندا، وزوجته وابنتيهما زائد خادم كيركغارد الشخصي أندريس كريستنسن فيسترغارد البالغ من العمر 31 عاماً،

كانوا يعيشون في الشقة التي أصبحت بذلك تشبه السكن الجماعي. والحق إن الشقة بعد نصف سنة فقط أثبتت كونها غير مناسبة، وتعين عليهم الانتقال إلى شقة حتى أكبر بجوارها. وإذا تمكن راسموس نيسلن، ذات يوم، من التسلل داخل الشقة لَلاحظ الآتي: إن ثلاث نوافذ من نوافذها الخمس تنير ما يُسمّى sale [بالفرنسية-الدنماركية: الغرفة الكبيرة، الصالون] والنافذتين الأُخريين تنيران غرفة مجاورة. وكانت السقوف المجصَّصة مزينة بالطنف. وكانت الجدران مكسوة في الأسفل بخشب السنديان وفي الأعلى مقسَّمة إلى أُطر مغطاة بالكتان الذي أُلصق عليه ورق جدران مطلي بالزيت. وكانت الحافات الداخلية لهذه الأُطر ذات أغطية مذهبة. وكانت كل غرفة مجهزة بموقد حطب عمودي. وكانت لغرفة الطعام التي فيها موقد ذو أربع ردهات، نوافذ تواجه الباحة بزاوية. وكانت أفضل الصالونات وغرفة الطعام ترتبط بدهليز فيه خزانتان مبنيتان داخل الجدار، ومن هناك تمتد الشقة بمحاذاة ضلع المبنى، أولاً إلى غرفة ذات نافذتين (ربما غرفة نوم) ثم إلى غرفة ذات نافذة مزدوجة، وأخيراً إلى مطبخ ذي مدخنة وموقد طبخ ومائدة طعام وخزانات ومغسلة من الحديد ورفوف للصحون. وتتفرع عن المطبخ حجرة بسيطة للخادم، ذات جدران مجصَّصة خشنة، وما بعدها مخزن للمؤن. ويقع ملاذ الشقة (باللغة الإنكليزية البسيطة الفضاء الخاص) قرب السلم الخلفي، بجوار غرف النوم. وينص عقد الإيجار، الذي ما زال موجوداً، على أن للشقة أقبية لخزن الحطب والمؤن. وكان الإيجار السنوي لهذه الشقة الأكبر أعلى - 400 ريكسدولار - ولكن الإيجار كان بعيداً عن كونه المصرف الوحيد بل كانت هناك كلفة الغذاء والمؤن، ومن الواضح إنه كانت هناك أفواه عديدة يجب أن تُطعَم.

كيركغارد نفسه كانت لديه أذواقه الخاصة. فإن أطباقه المفضلة كانت البط، المطهي بالكاري أو المملَّح، والوز، المملَّح أيضاً، يُقدَّم وزاً مشوياً اعتيادياً، وصدر الوز مع السبانخ أو الفاصوليا الفرنسية، وفراخ الحَمَام، وسمك السالمون. ومن دفتر حسابات كيركغارد مع مدام أندرسن التي كانت تمده بالأغذية من 6 نيسان/ أبريل 1847 إلى 21 نيسان/ أبريل 1848، نرى إن كيركغارد تناول في تشرين الثاني/ نوفمبر 1847 البط المشوي أربع مرات وسمك السالمون مرتين ولحم الخروف المملَّح أربع مرات زائد أطباق اعتيادية أُخرى. وكان كثيراً ما يأكل المرق في الغداء والعشاء. وعلى سبيل المثال خلال شهر

آب/ أغسطس 1847 تناول مرقاً في تسعة وعشرين يوماً من أيام الشهر الواحد وثلاثين، وفي اثنين وعشرين يوماً من هذه الأيام كان يتناول المرق مع وجبتين. وإلى جانب المصروف على البيرة والنبيذ والقهوة والوجبات الصغيرة بلغ إنفاقه على الغذاء خلال الفترة الممتدة من أيار/ مايو 1847 إلى نهاية آذار/ مارس 1848 ما مجموعه 269 ريكسدولاراً و4 ماركات و6 شلنات. وليس من دون سبب إن إسرائيل ليفن، الذي شاركه الطعام في فترات مختلفة، كان يرى إن طريقة حياته كلَّفته مبالغ ضخمة.

آخرون في الحي كان يعيشون حياة مختلفة جداً. ففي ركن آبرنا وروزينبورغ، مقابل سكن كيركغارد مباشرة، كان مجمَّع قلعة الأسمال الذي يسكنه مزيج خائب من الفقراء والمتعيشين على الصدقات وغيرهم من البؤساء التعساء، مجموعهم 63 رسمياً. وكانت تتوزع في أنحاء المدينة عشرة أو نحو ذلك من هذه المساكن الرخيصة لإيواء الفقراء والمشردين أسماؤها وحدها تكشف عن أعماق بشاعتها: الجحيم، الحفرة، سحابة الرعد، نزل داني الملعون، نادي القمل، المرحاض، المدوُّد، الكوخ، ميناء العبيد وبيت نابش النفايات. ومقابل شلنين اثنين يستطيع المرء أن يبات الليلة في أحد هذه الأماكن ربما على السُلَّم في العليَّة حيث كانت هناك حبال مشدودة ليتمكن المرء من أن يسند نفسه عليها والنوم واقفاً، على أفضل ما تسمح به الحال. وبعد أن أتى حريق على قلعة الأسمال في آذار/ مارس 1850 اشتهر المكان في سائر أنحاء البلاد عندما كتب أدولف فون ريكة الأغنية المطبوعة على ورق رخيص حريق قلعة الأسمال فيما تردد الجوقة يوليا، يوليا، اقفزي، اقفزي. وبعد شهر انتقل العبقري الذي يعيش قبالة هذا المجمع من شقته ذات الخمس غرف ونصف الغرفة.

أنا تقريباً لا أقوم بزيارات أبداً، وفي البيت كانت قاعدة واحدة تُتَّبع بصرامة مطلقة: بلا شروط عدم استقبال أي أحد باستثناء الفقير الذي يطب مساعدة، كما يكتب كيركغارد في وجهة نظر لعملي كاتباً، الذي بدأ يكتبه في الشقة الجديدة في مطلع صيف 1848. وبالنسبة لشخص يعيش عبر الشارع من قلعة الأسمال كان هناك الكثير من الذين يحتاجون مساعدة، ونرى من دفتر لحسابات العائلة في الفترة الممتدة من 2 كانون الثاني/ يناير 1847 إلى 28 نيسان/ أبريل 1848، حفظه بعناية أندريس خادم كيركغارد، إن كيركغارد في عام 1847 وحده قدَّم 271 صَدَقة بما قيمته 31 ريكسدولاراً و2 مارك و4 شلنات. ويبدو أنّه كان هناك

طابور صغير مواظب من طالبي الصَدَقات كان أندريس يدفع لهم تعرفات مختلفة من الصدقة: 1 مارك و8 شلنات و4 شلنات. وكان عازف الأرغن يأتي كل يوم خميس ويحصل على أعلى تعرفة وهي 1 مارك. وكانت المرأة الفقيرة أيضاً تحصل على 1 مارك. وكان على الرجل الكسيح أن يقنع بـ 8 شلنات في حين كان على الشيخ العجوز أن يقبل بنصف هذا المبلغ. وبالإضافة إلى هؤلاء الزبائن المنتظمين كان هناك عدد من الأشخاص الذين يأتون مرة واحدة، عادة في أيام السبت. وهناك حسابات باقية من هذا النوع، في فترات لاحقة، ولكن الأرجح إن سكان النزل الكائن على الجانب الآخر من الشارع كانوا أحياناً يعدِّلون أسمالهم ويؤدون زيارة استغاثة للسيد الميسور عبر الشارع.

ليست هناك أدلة وثائقية على قيام كيركغارد بأي نشاطات خيرية كبيرة، ولعل بيتر كريستيان تساله كان محقاً في القول: إذا قدَّم تبرعات خيرية فإنه كان يقدمها في السر. وبعد اندلاع حريق في عام 1849 بعث رجل منكوب تركه الحريق مع زوجة وخمسة أطفال صغار برسالة إلى كيركغارد يستجدي فيها المساعدة، ولكن لا يُعرف كيف رد عليه كيركغارد. من جهة أخرى، المعروف إن ماغنوس آيركسن حين طلب المساعدة رُفض طلبه، بل رُفض بسرعة. كما إن الطالب الجامعي H الذي انتهى به المآل مجنوناً لاقى معاملة قاطعة بعض الشيء عندما أرسل إلى كيركغارد مقالاً ذا محتوى فلسفي مغتنماً المناسبة ليطلب مساعدة اقتصادية أيضاً. وقرأ الطالب بعد ساعتين مستر H الفاضل! عندما تقرأ هذه السطور سأكون في طريقي إلى شتيتين، أس. كي. ولكن هناك وثائق أيضاً أُغفلت تكشف عن إحسان كان مخفياً – حتى الآن. وبين أوراق بيتر كريستيان رسالة بتاريخ 23 تشرين الثاني/ نوفمبر 1855 يتحدث فيها جون بيلفور رينالز، وهو عسكري سابق، بشكل مؤثر عن شقيق بيتر كريستيان النبيل، المبارَك الذي لدي سبب للثناء على إحسانه الكبير في الخفاء.

في سياق وضع كيركغارد الاقتصادي العام كانت هذه الصَدَقات لا شيء وبالتالي إذا صحت نظرية هانز بروشنر بأن كيركغارد وهب القسم الأعظم من ثروته للأعمال الخيرية، فإن كيركغارد ما كان ليتسنى له الوقت أن يفعل أي شيء آخر سوى الطواف موزعاً الشلنات. وبالمقارنة فإن العمل الخيري لم يؤثر في ميزانية كيركغارد تأثيراً بالغاً بقدر تأثير جولاته في العربة التي اشتهر بها حتى في زمن حياته. وتبين الفواتير الشهرية التي دُفعت بوصولات إلى لاسن، الحوذي

المأجور من منطقة ليلي هليغَيستراده، إن كيركغارد أنفق 132 ريكسدولاراً في عام 1850 على رحلاته بالعربة وحدها.

كوبنهاغن مدينة قذرة جداً

كانت الجولات بالعربة تجري بالطبع من أجل الإلهام الذي كان يأتي من تلهيته لكنها كانت أيضاً بسبب حاجة كيركغارد إلى الهرب من هواء كوبنهاغن القريب، ولا سيّما من روزينبورغاده الشارع الذي يشكل اسمه الشاعري نقيضاً للرائحة الكريهة المنبعثة من الجلود المسلوخة حديثاً في معمل الدباغ غرام، وهي رائحة كانت تغمر جدران المنزل. وطيلة موسم الصيف كانت قنوات الصرف المفتوحة تعط برائحة النفايات الغِرْيَنية المتدفقة من المدبغة، ونتانة الروث في الشوارع، وكانت تحرق مناخير المرء. ولم يمض وقت طويل قبل أن تظهر أطوار كيركغارد الغريبة على المشهد: المدبغة الكائنة حيث أسكن، عذبتني برائحتها الكريهة طوال الصيف. ومرات عديدة، عديدة قمتُ حقاً بمجهود ذهني لكيلا أتقيأ من نفاد الصبر. وإذا كان كيركغارد يأمل بالابتعاد عن الرائحة الكريهة بالانتقال من 9 روزينبورغاده إلى رقم 7 فإنه أُصيب بخيبة محزنة. ذلك إن روزينبورغاده كان، رغم كل شيء، الشارع التي تقع فيه مدابغ المدينة.

كان رد فعل كيركغارد قوياً، ولكن ليس من دون مبرر، ولم يكن الوحيد الذي كان هذا شعوره بأي حال من الأحوال. إذ كتب الدكتور هورنمان Hornemann في عام 1847 إن كوبنهاغن مدينة قذرة جداً، وكل من يدخل بوابات المدينة من الريف يلفحه الهواء الفاسد على الفور. فهي حدود المدينة نفسها التي رُسمت في عهد كريستيان الرابع قبل قرنين، وفي هذه الأثناء تضاعف عدد سكان المدينة ست مرات. وكان ذلك بمثابة عرس لمَلاك الأرض. فحتى أصغر القطع شُيدت عليها أبنية، وكانت طوابق جديدة تُضاف على الطوابق القديمة، ويجري تحويل الأقبية والمستودعات والأكواخ الخشبية بل وحتى أقنان الدجاج إلى مساكن. وكان من الطبيعي أن تنظر وزارة الصحة وطبيب المدينة هوبة Hoppe إلى هذا الوضع باستنكار، والدعوة إلى تنفيذ الأوامر القابلة للتطبيق، ولكن مع نمو السكان أكثر فأكثر تعين التغاضي عن أحكام القانون، وكان على كوبنهاغن أن تتعلّم الاكتظاظ في حيز أضيق فأضيق داخل أسوارها.

بطبيعة الحال كانت الجرائد وغيرها من مطبوعات تلك الفترة تعج بالأوصاف

التي تصور الظروف المزرية. وهكذا سأل البروفيسور فيلكينز Wilkens في مقترحه توسيع المدينة: [هل هي حقاً] الرغبة في التخالط الاجتماعي، أن عائلات كثيرة حشرت نفسها في غرفة واحدة تفصل بينها خطوط مرسومة بالطباشير، تعلِّم أطفالها على احترامها بضربهم؟ هل إن شغفاً رعوياً برائحة الروث دفع آخرين إلى البحث عن مأوى تحت أسطح المراحيض؟ وقُدمَت إلى قراء العدد الصادر في 12 تموز/ يوليو 1852 من صحيفة فادريلانديت، الشكوى التالية التي تجعل المرء يشهق لأكثر من سبب: في حرارة جزر الهند الغربية هذه عندما نعاني جميعاً في كل ساعة من اليوم بسبب الرائحة الكريهة التي لا تُطاق محيطةً بكوبنهاغن من كل الجهات عملياً - من الجنوب والغرب منبعثة من أعشاب البحر المتعفنة، من بين أشياء أخرى... من الشمال والشرق آتية من المدابغ، من لحوم الجزارين المتفسخة، من القنوات الراكدة، من دم الأسماك، من المستنقعات، من معامل الكبريت، من مكبات المراحيض، وكل مخازن القذارة والأوبئة التي تغمر كوبنهاغن - سيظن المرء إن الحكومة لا تحتاج إلى اطّلاعها على الدمار الذي ألحقته الكوليرا بمدينة كاليش [البولندية] لتذكيرها بضرورة عمل شيء ما في مواجهة مثل هذه الأوضاع الاستثنائية.

كانت كوبنهاغن قنبلة جرثومية حقيقية ولكن ما من أحد في الحقيقة أخذ التحذير على محمل الجد. إذ كان مسموحاً للحيوانات داخل حدود المدينة، وبحسب مسح أُجري في عام 1840 كانت تعيش في كوبنهاغن 2777 حصاناً و1450 بقرة و739 خنزيراً زائد أعداد لا تُحصى من الدجاج. وفي روزينغاردن أنشأ كادوفيوس، الذي كان يملك معملاً لتقطير الكحول، في الحقيقة زريبة لعشرين بقرة. وكان يُطعمها التفالة الغنية بالمغذيات، من مشتقات عملية التقطير، ولكن بما إنه كان في غنى عن المشتقات التي تخرج من الأبقار فإنه مد بلا تردد ساقية تصب مباشرة في قناة الصرف التي تجري في شارعه. ولا يُعرف عدد الكلاب التي كانت تنتمي إلى حديقة الحيوانات هذه، ولكن غالبيتها كانت سائبة بلا مالك وكانت تتجول أينما يحلو لها، ولا سيّما حين كانت تغامر بالمشي على أسوار المدينة التي كان يحرسها جندي مسلح ببندقية لحماية السور كما يُسمى، مكلف بتحييد أي بروليتاري على أربعة قوائم. كما كان من السمات المعهودة للصحة العامة (أو عدمها) موظف المدينة البالغ راتبه السنوي مئة ريكسدولار ومهمته إزالة الجيف من ساحات المدينة العامة

وشوارعها وأزقتها. وكانت المدينة قذرة على نحو لافت وتعاني من نقص المرافق العامة حتى إن ابلروفيسور أتش. أنْ. كلاوسن H. N. Clausen أُستاذ اللاهوت، استشاط غضباً في صحيفة دانسك فولكبلاد Dansk Folkeblad بسبب التشوه والنجاسة اللذين يواجههما المرء بصورة متزايدة في كل شارع من شوارع كوبنهاغن. وأثَّر المقال في مفوضية الصحة العامة التي حاولت في عام 1852 نوعاً من الترتيب التجريبي في سلوتسهولمين حيث أقامت مبولتين صغيرتين حتى إنهما سُميتا باللغة اليومية الدراجة محفظتي بول.

وعندما كان الدباغون في روزينبورغاده يُفرغون أحواضهم في قناة مياه الصرف - وكانوا يفعلون ذلك أربع أو خمس مرات في اليوم - كان الماء النتن يشق طريقه ببطء إلى فريدريكسبورغاده عبر كولتورفيت وعلى امتداد كوبماغيرغاده ثم عبر ستروغيت ويلتف أخيراً عبر هويبرو بلادس ليصب في القناة المحيطة بسلوتسولمين. وكانت تخترق المدينة نحو ثمانين كيلومتراً من مجاري الصرف يقرب إجمالي مساحتها السطحية من ثلاثة آلاف متر مربع، ولكن لأن المنحَدَر لم يكن كافياً بالمرة فإن الماء النتن نادراً ما كان يصل إلى المصب النهائي وبدلاً من ذلك كان يتسرب ببطء داخل الأرض. والأكثر من ذلك كانت تحت بيوت المدينة منخفضات الأقبية سيئة الصيت حيث يتجمع الماء بعد أي عاصفة مطرية مفاجئة أو كلما ارتفع منسوب الماء. وكان يتعين ضخ الماء من منخفضات الأقبية في فترات منتظمة، وكان من الجائز أن تعط رائحة كريهة. وكتب الدكتور هورنمان في أماكن عديدة وجدتُ أقبية ومداخل وسلالم مرتفعة داخل البيوت تفوح بأشد النتانات إثارة للاشمئزاز من هذه المنخفضات، وخاصة حين تكون عملية الضخ جارية. ولن أذكر إلا مشكلة واحدة من المشكلات المترتبة على ذلك: في كل حالة تقريباً تقترن منخفضات الأقبية هذه بوجود نوع معين من الرخويات التي كثيراً ما توجد بأعداد كبيرة في الأقسام السفلى من المبنى حيث تترك سوائلها اللزجة على الأخشاب والأغذية وعلى كل ما تدب عليه.

المرافق العامة في المدينة موضوع قائم بذاته، وموضوع حساس. فهي بُنيت وفق نظام الحفريات القديم، أي إن البراز كان يُنبَش ويُجمع في أقبية كبيرة أو منخفضات كبيرة في الأرض، تتسع لعدد كبير تماماً من الحمولات بحيث يستطيع المرء أن يكتفي بتفريغها مرة واحدة أو مرتين فقط في السنة. وكان

يتولى عملية التفريغ مَنْ يُسمون رجال الليل الذين، كما يوحي الاسم ضمناً، لا يُسمح لهم بتفريغ المراحيض العمومية إلا ليلاً وبموجب قواعد محدَّدة. ولكن هذه القواعد كانت تُخرق باستمرار ويتحدث تقرير للشرطة من عام 1854 عن رجال ليل يُفرغون حمولاتهم بصورة غير لائقة على جناح السرعة! وكانت قاذورات الليل تُنقل فوق جسر كنيبلزبرو عبر كريستيانسهافن ثم خارجاً إلى أماغر إلى مكبات أُنشأت هناك في عام 1777 وتُستخدم منذ ذلك الحين.

كان رجال الليل يتقاضون أجوراً جيدة ولذلك كان السكان يحاولون في أحيان كثيرة أن يتخلصوا من قاذوراتهم الليلية بطرق أخرى. وكانوا يستطيعون بالطبع أن يرموها بكل بساطة في مجاري الصرف أو يلقونها في منخفض القبو - ذلكم هو مآل تلك البوتقة! وإذا كانوا يعيشون قرب قنال أو خندق يكون من البديهي تقريباً ما يتعين أن يفعلوه. وهكذا فإن الخندق المحيط بقلعة روزينبورغ الذي لم يكن له مَنفَذ ولا مخرج وكان على بعد مرمى حجر لا أكثر من شقة كيركغارد، أصبح تدريجياً حفرة ذات أربعة أضلاع لكب الفضلات لأن كل قاذورات الليل والنفايات السائلة من ثكنة الحراس كانت تصب مباشرة في الخندق وكذلك ما يجري من زريبة الأبقار التي كانت جزء من مقر الآمر.

وفي حين إن رائحة كريهة كانت تنبعث من هذه المواد فإنها لم تكن الأسوأ. إذ كانت تغوص في الأرض أيضاً مختلطة بماء الشرب في المدينة الذي يصلها عن طريق أنابيب خشبية طويلة تغور عدة أمتار عادة في العمق. وكان أفضل ماء يُسمى ماء نبع (رغم الحقيقة الماثلة في أنّه لم يكن من نبع بل مثل كل شيء آخر كان يتعين حمله عالياً إلى المنزل)، وكان يأتي من بحيرة أيمدروب خارج المدينة في حين إن ماء المضخة الاعتيادي كان يأتي من بحيرات داخل حدود المدينة. وعندما يصل الماء إلى وجهته فإنه يصل بعد بقائه تحت الأرض فترة طويلة بحيث تكون نوعيته تردت بصورة حادة. وعادة يكون الأنبوب الخشبي متعفناً في مكان أو آخر على الطريق، وكانت الأنابيب تمتد في بعض النقاط قرب حُفر قاذورات الليل وتخترقها مباشرة في بعض الأحيان. وفي أوقات ليست قليلة كانت أسماك ميتة تُضخ مع الماء - أو ديدان عَلَق وشراغيف وأسماك أنقليس حية. وإذا انحشر أحد هذه المخلوقات في آلة المضخة كان على المرء أن يرسل في طلب مفتش الماء، أو ما يعادل مهنة السباك في العصر الحديث. وفي الصيف كان الماء دائماً أقرب إلى الفاتر، وعلى المرء أن يشتري

جهاز ترشيح ومبردة ماء ليجعل حساء سمك الأنقليس الفاتر الشهير (كما كان يُسمى الماء) صالحاً بدرجة مقبولة للشرب.

لا غرو إن السكان كانوا يفعلون ما بوسعهم لتفادي استخدام الماء من هذه الأنابيب لأغراض الشرب، وكانوا بدلاً من ذلك يستخدمون واحدة من مضخات الآبار العمومية الأربعمئة أو خمسمئة في المدينة. وهذا الماء أيضاً لم يكن صالحاً رغم بعض الاستثناءات مثل المضخة الموجودة في ركن غوترسغاده والأسوار، والتي نالت سمعة بكونها أشبه بالمصح. ودفع هذا سيداً صاحب مبادرة إلى أن يطلب في عام 1846 موافقة الحكومة على احتكاره المضخة ليتمكن من إيصال الماء إلى عائلات كوبنهاغن مقابل أجر معقول جداً. وما أن أُنجز خطة السكة الحديد إلى روسكيلدة حتى قُدِّمت اقتراحات لاستخدامه في نقل ماء الشرب من ينبوع ماغلكيلدة الشهير إلى العاصمة في براميل ضخمة تُحفظ في أقبية جليدية بُنيت خصيصاً حيث يُعبأ الماء لبيعه بسعر شلن واحد للقنينة في نقاط مختلفة حول المدينة مثل البرج الدائري ونافورة الماء الكبرى (اسم على مسمى).

في عام 1842 عندما كانت نوعية الماء رديئة بدرجة استثنائية شكا المواطنون لمفوضية الماء ولكن المفوضية صبت ماء بارداً على توجسات السكان المرعوبين بإعلانها: إن خواص الماء التي تثير الغثيان تعمل بمثابة تحذير من استخدامه. وفي ذلك العام نفسه انتشر وباء التيفوئيد في الحي الكائن حول برَدغاده ولكن لم يُعثر على تفسير لهذا البلاء الذي اقتصر على حي واحد إلا بعد عامين: بعد الحفر وصولاً إلى الأنابيب الخشبية العتيقة اكتشفوا ثقباً بحجم قبضة رجل بين أنبوب الماء الأساسي وخط المجاري القادم من المشرحة في مستشفى فريدريك الذي كان يقع فوقه مباشرة.

بالمناسبة كان مستشفى فريدريك من الأماكن القليلة نسبياً التي يستطيع المرء أن يستحم فيها كما ينبغي ولكن بما إن الاستحمام في لم يكن مجاناً فإن الميسورين وحدهم الذين كانوا يغتسلون في الواقع. وأبدى الدكتور هورنمان رأيه بشأن الميل إلى عدم النظافة أو على الأقل عدم الاهتمام بالنظافة الذي تتسم به شريحة واسعة من سكان المدينة. ولم يكن ثمة معنى لوضع حوض استحمام في شقة المرء إلا إذا كان مستعداً لحمل الماء على السلّم إلى أعلى،

وغالبية السكان كانوا بالطبع غير مستعدين للقيام بذلك. وكان الاستثناء هو المخترع دومينيكو كابوزي Dominico Capozzi الذي طلب في عام 1841 منحه ترخيصاً لتجهيز الراغبين بحمامات في بيوتهم، من خلال استخدام أحواض استحمام، بماء الآبار أو ماء البحر، وكذلك الماء البارد والساخن زائد حمامات كبريتية وعشبية. ومنحت حكومة المدينة مباركتها للفكرة، وبعد سنوات أصدرت المدينة موافقتها أيضاً على مذكرة من صانع القبعات فيلدبرغ Feldberg الذي كان يملك معملاً في كرونبرينسغاده، لفتح حمام بخاري يستخدم بخار الكبريت من معمل البخار الذي يستخدمه في إنتاج قبعات حريرية. ولا يُعرف إن كان هذا هو المكان الذي مارس فيه كيركغارد، بعد أن انتهى من كتابة أعمال الحب في 1847، الاستشفاء بالاستحمام واصفاً إياه بـ المثير للاشمئزاز، ولكن ذلك جائز.

كانت الحالة المزرية للصحة العامة تتحمل قسطها من المسؤولية عن معدل الوفيات المرتفع الذي درسه البروفيسور فينغر وعرضه إحصائياً قبيل انتشار وباء الكوليرا في عام 1853. وتبين جداوله إن متوسط العمر الذي يعيشه سكان كوبنهاغن في فترة السنوات الخمس من 1849 إلى 1844 كان أربعة وثلاثين عاماً للرجال وثمانية وثلاثين عاماً للنساء. وفي الريف كان متوسط العمر الذي يعيشه الفرد أطول من خمسين سنة للجنسين على السواء وبالتالي لم يكن لدى أحد شك بأن كوبنهاغن لم تكن المكان المناسب للنفوس الرقيقة، ناهيكم عن الأجساد الواهنة.

قضايا أخرى كانت تتطلب نوعاً ذهنياً من التعبئة. وفي عام 1849 كتب كيركغارد استرجاعياً: حين استأجرتُ الشقة في تورنيبوسكيغاده كانت فكرتي أن أعيش هنا مدة نصف سنة متأملاً بهدوء في الحياة، ثم أبحث عن وظيفة [قس]. وحينذاك أفلت التشوش فجأة من عقاله. ولمدة شهرين كان هناك وضع ربما كنتُ فيه مفلساً في اليوم التالي وفي ضائقة مالية بالمعنى الحرفي للكلمة. وكانت تداعيات ذلك شديدة الوطأة عليَّ. وكانت حرب سليسفيغ - هولشتاين تسببت في تقلب أسواق المال، وخسر كيركغارد قرابة سبعمئة ريكسدولار على سنداته المَلَكية، وهو استثمار سمَّاه بندم أغبى شيء فعلته، واعتبره درساً حقيقياً. كما إن خطط الحكومة لجباية ضريبة دخل عملت ما بوسعها لإصابته بالكآبة. ولكن كيركغارد لم يتكبد سوى فزعة. وبلغت فاتورة ضرائبه للربع الثالث من

عام 1850 ما مجموعه خمسة (أكرر خمسة) ريكسدولارات هي مال القس، وكاتب الأبرشية والشماس الذي لم يستطع أحد الهروب من دفعه.

في هذا الوقت كان اندلاع الحرب يعني استدعاء أندريس للخدمة العسكرية - أخذوا أندريس مني، كما كتب بحزن في يومياته. وقال كيركغارد ذات مرة لهانز بروشنر إن أندريس هو في الواقع جسدي. وكان أندريس الذي خطط لأن يصبح ذات يوم ضابط شرطة، أكثر من مجرد خادم نافع. وفي أيلول/ سبتمبر 1847 عندما طلب من سيده توصية تسلَّم الشهادة التالية: إن صاحب الطلب عمل في خدمتي منذ أيار/ مايو 1844. ومنذ ذلك الوقت كان يلبي حتى أشد مطالبي صعوبة بشكل كامل بحيث أستطيع التوصية به من كل ناحية بصدق وتوكيد. رصين، أخلاقي، منتبه ذهنياً على الدوام، موثوق موثوقية مطلقة، معتاد على البقاء صامتاً، ليس من دون درجة من الذكاء، الذي يمكِّن المرء من السماح له بأخذ الأمور على عاتقه منفرداً. كان لا غنى عنه بالنسبة لي حتى إني سأكون سعيداً بإبقائه في خدمتي. وأحسبُ إن هذه أعلى توصية أستطيع اعطاءها لأي أحد. ولعل توصية كيركغارد تقول عن الوصي أكثر مما تقوله عن الموصى به ولكن أندريس كان عند حسن ظن كيركغارد: أندريس الذي كنتُ سعيداً معه بصفة خاصة لأنه...، كما كتب في فقرة من يومياته لم يُكملْها وحذفها فيما بعد، وبسبب طبيعتها المتشظية تجعل خيال المرء يدور. ونحمد الله إن أندريس عاد من الحرب سالماً. ولكن كيركغارد كان قلقاً من أن يسمع أندريس أقاويل عن سيده.

إلى هذه المصاعب مع الحرب والأمور المالية وأندريس أُضيفت لاحقاً مشكلات مع ستروبه، النجار الأيسلندي الذي كان كيركغارد يعتمد عليه كما لا يعتمد أحد آخر، هذا الرجل الذي ورثته من والدي، الذي عرفته منذ عشرين عاماً واعتبرته من أُولئك العمال الأصحاء الأقوياء الأشاوس. وا أسفاه، كم تغيَّر، تغيَّر بالكامل! فإن ستروبه أصبح مشوش الذهن لأنه أفرط في التفكير الحزين. وأثَّر التفكير الحزين في عقل ستروبه فأصبح معتداً برأيه ومتشنجاً. وذات يوم عاد كيركغارد إلى البيت ليكتشف برعب إن أحداً ما عبث بمنضدته وفتح الصندوق الماهوغاني الذي يحوي أوراقه الخاصة. وبقي الفاعل مجهولاً؛ ربما هو نفسه نسى أن يقفل المنضدة حين خرج، ولكن ستروبه بقي موضع شبهة لأنه كان شديد التوتر وكان يريد إصلاح العالم كله. ولم يكن هذا يبشر بخير ولا سيّما

وإن الأمر كان من الجائز أن ينتهي حدثاً مثيراً ستتلقفه الجرائد. أُدخل ستروبه مستشفى فريدريك حيث عالجه رئيس الأطباء سليغمان ماير ترير وسرعان ما حرره من أسوأ نزواته بحيث استطاع أن يعود إلى العمل. وبعد فترة قصيرة كتب كيركغارد إلى ترير: اسمح لي أن أشكرك مرة أخرى على ما فعلته لنجّاري. فهو عاد مرة أخرى إلى ما كان له الشرف أن يكون طيلة خمس وعشرين سنة، عاملاً له حياة وروح، عاملاً وإن كان يفكر أثناء أداء عمله فإنه لا يرتكب خطأ الرغبة في أن يجعل التفكير عمله.

المرض حتى الموت

مرة أخرى يُقدَّم لنا تذكير لافت بالمسافة بين حياة كيركغارد وكتاباته لأنه هنا تحديداً - في الشقة باهظة الإيجار، حيث خطر الحرب يحوم في الجو، والرائحة الكريهة المنبعثة من المدبغة تنقَّض على منخريه - كتب، بشهادته هو بعضاً من أفضل ما كتبتُه.

ومنذ شباط/ فبراير 1848 حدَّد كيركغارد تحت عنوان ملاحظة، ملاحظة، معالم عمل جديد سيكون عنوانه أفكار تشفي شفاء جذرياً: الشفاء المسيحي. وكان المزمع أن يكون هذا العمل الطبي الروحي في جزئين يتألفان من المرض حتى الموت وعلاج جذري ولكن خلال الأشهر التالية أُعيد ترتيب الخطة، وفي 13 أيار/ مايو 1848 أنتج تقريراً عن عمله قيد الإنجاز: لهذا الكتاب صعوبته. فهو ديالكتيكي وصارم بحيث لا يجيز الاستخدام الصحيح للخطابي، للتحريضي، لما يحرك الروح. ويبدو أنّ العنوان نفسه يشير إلى أنه حوارات على ما يُفترض. والعنوان عنوان غنائي. وأضاف كيركغارد إن الكتاب ربما ينبغي ألا يُنشر بالمرة ولكنه في كل الأحوال أعطاه مخططاً ممتازاً يمكن أن يساعده على تحديد طريقه في المستقبل، عندما تعين عليه أن يكتب خطابات تثقيفية. ثم طرح، في الهامش، بعض السمات النموذجية للمرض حتى الموت: أولاً. خفيته. ليس فقط إن الشخص المصاب به... يرغب في إخفائه. كلا، فالأمر المخيف إنه خفي بحيث إن الشخص يمكن أن يكون مصاباً به دون علمه. ثانياً، عموميته. لأن كل مرض آخر يكون محدَّداً، بهذا الشكل أو ذاك، بالمناخ والفئة العمرية، إلخ. ثالثاً، استمراره على مدى كل الدهور - حتى الأبدية. رابعاً، أين يكون مأواه؟ في النفس. الجهل اليائس

بامتلاك نفس، في وقت تكون للمرء نفس فإنه في يأسه لا يريد أن يكون نفسه، أو في يأسه يريد أن يكون نفسه.

هذه هي ضربات الفرشاة الأولى في تصوير كيركغارد لطوبوغرافية اليأس بوصفه شرطاً بشرياً أساسياً على نحو مماثل لمعالجته القلق قبل أربع سنوات. وبـ مخططه الممتاز وجد القسم الاستهلالي من المرض حتى الموت الذي استخدم إيقاعات ديالكتيكية إلى حد باهر في تعريفه للكائن البشري على أنه تركيب: الكائن البشري روح. ولكن ما الروح؟ الروح هي النفس. ولكن ما النفس؟ النفس علاقة تربط نفسها بنفسها، أو إنها ربط العلاقة لنفسها بنفسها في تلك العلاقة. النفس ليست هي العلاقة بل إن العلاقة تربط نفسها بنفسها. والكائن البشري تركيب للانهائي والنهائي، للزمني والأزلي، للحرية والضرورة، إنه، باختصار، تركيب. والتركيب علاقة بين حدَّين. والكائن البشري منظوراً إليه بهذه الطريقة ليس نفساً بعد.

هذا المخطط من الاختصار بحيث إنه نفسه يكاد يكفي لدفع المرء إلى اليأس. ولكن المرض حتى الموت مفهوم تماماً في مواضع أخرى، وبخلاف مفهوم القلق، الذي أساساً يقرب من كونه عصياً على القراءة، فإن هناك مواضع يفعل الكتاب فيها ما بوسعه لتذكير القارئ بمؤلِّفه، ليس وجودياً فحسب بل بالمعنى المادي أيضاً. لأن المرض حتى الموت هو في الحقيقة كتاب يكون التوازن بين العناصر الفردية في تركيب النفس مهماً فيه بقدر أهمية التناغم للمنزل ذي الطراز الكلاسيكي الجديد في شارع روزينبورغ حيث كُتب العمل.

وكان كيركغارد أظهر معرفته بتفاصيل المساكن الحديثة ذات الطوابق المتعددة في مفهوم القلق حيث كتب إن الإجراءات المتعارف عليها التي يتخذها المراقب النفسي توفر للعالم النفسي ما يحتاجه جاهزاً، تماماً مثلما إن المرء في منزل حسن التجهيز، لا يحتاج النزول إلى الشارع لنقل الماء، بل يصله بمواسير إلى الأعلى بقوة الضغط. وكان ضد كليماكس - كما سمَّى مؤلف هذا العمل ذو الاسم المستعار نفسه - مطَّلعاً كذلك على الحياة في مدينة حديثة. ويتضح هذا من ذكره المتكرر للأبواب الكاذبة كاستعارات لثنايا النفس العصية على الوصول إليها والغامضة. (بالمعنى الأعمق فإن مسألة النفس كلها تصبح نوعاً من الباب الكاذب في خلفية الروح، التي لا يوجد شيء وراءها).

كما يظهر من تصوير أُفق عظيم للنفس بوصفها بناء، النفس مثل منزل: تخيلوا منزلاً يتكون من قبو وطابق أرضي وطابق ثانٍ، مسكون ومؤثث بطريقة بحيث إما يكون هناك أو يُفترض أن يكون هناك فارق في الطبقة الاجتماعية بين ساكني كل طابق. وإذا قارنتَ كيف يكون الكائن البشري بمنزل كهذا فالمؤسف إن مما يدعو للأسى والمثير للسخرية إن غالبية الناس يفضلون العيش في قبو منزلهم. وكل كائن بشري هو تركيب نفسي - جسدي يُراد له أن يكون روحاً - هذا هو المبنى - لكنه يفضل العيش في القبو - كلا، إنه يحبه إلى درجة يغضب معها إذا اقترح أحد عليه أن ينتقل إلى [belle étage الطابق الثاني] الشاغر والمتوفر لسكنه، لأن هذا، رغم كل شيء، هو منزله الذي يعيش فيه.

شَعْرَنة الله إلى شيء يختلف قليلاً

كقاعدة كان كيركغارد نفسه يعيش في الطابق الثاني ولكنه كان مطلعاً كل الاطلاع على نزعة ساكن القبو الشيطانية إلى الأسفل، وذلكم واحد من أشكال اليأس العديدة. ويتضمن المرض حتى الموت سلسلة من التشخيصات المستفيضة لرغبة شخص في ألا يكون نفسه، في أن يكون أي شيء وكل شيء إلا نفسه، ليس مجرد نسخة أكثر نجاحاً من نفسه ولكن في الحقيقة - ربما الأكثر تفضيلاً - ألا يكون نفسه على الإطلاق، أن يكون كائناً مجهول الهوية، تماماً مثل الآخرين، نسخة، رقماً، جزءاً من الجموع. ويسمي ضد - كليماكس هذه الرغبة يأساً ويمضي أبعد فيحدِّدها على أنها - خطيئة. وهو يقول ذلك صياغةً في الفرع الرئيسي الثاني من كتابه: الخطيئة هي: أمام الله، أو مع مفهوم الله، في اليأس لا يريد المرء أن يكون نفسه، أو في اليأس يريد المرء أن يكون نفسه.

في هذا القسم نفسه يقدم لنا ضد - كليماكس وجود شاعر يميل إلى الديني، وهو يوضح إن من وجهة النظر المسيحية فإن مثل هذا الوجود خطيئة، خطيئة الشَعْرَنة بدلاً من الكينونة، خطيئة ربط المرء لنفسه بالخير والحق عن طريق المخيَّلة بدلاً من أن يكونه - أي، السعي وجودياً إلى أن يكونه. وسُمع هذا من قبل في كتابات كيركغارد، لكن ضد - كليماكس يضيف بعد ذلك عمقاً دراماتيكياً كبيراً إلى هذا التشخيص: وجود الشاعر الذي يعنينا هنا يختلف عن اليأس في أن لديه مفهوماً لله... ومثل هذا الشاعر قد تكون لديه حاجة دينية عميقة جداً، ومفهوم الله يُدرَج بوصفه جزءاً من يأسه. فهو يحب الله أكثر من

كل الأشياء. الله عنده مواساته الوحيدة في عذابه السري، لكنه مع ذلك يحب العذاب، ولن يتركه. ويود كثيراً جداً أن يكون نفسَه أمام الله ولكن ليس من ناحية النقطة الثابتة التي تعاني فيها النفس - هناك، في اليأس، لا يريد أن يكون نفسه. وهو يأمل بأن الأزلية ستُزيله.

كتب كريكغارد في كتابه عن هانز كريستيان أندرسن إن المؤلف يرسم نفسه في الصورة، مثلما إن رسامي المناظر الطبيعية يتمتعون أحياناً برسمها، وهنا يواجهنا هذا النوع ذاته من الصورة الذاتية. ورغم إن هذه ليست بالتأكيد المرة الأولى التي سمح فيها كيركغارد لنفسه بمثل هذه الصورة الذاتية الجريئة في عمل باسم مستعار - وهو شي كان قادراً على السماح لنفسه به لأن العمل منشور باسم مستعار، وبذلك توجيه أنظار القارئ من الوهلة الأولى بعيداً عن مؤلفه الحقيقي - فإنه مع ذلك كان في هذه الحالة طائشاً بصورة غير اعتيادية. وأشار كيركغارد أكثر من إشارة ضمنية إلى أن مفهوم الله عنده قد يكون نوعاً من الآلية الدفاعية يستخدمها للحفاظ على سوداويته وحماية القوقعة التي أحبها ولم يكن يريد أن يتخلى عنها - لأنه إذا تخلى عنها سيكون عليه أن يتخلى أيضاً عن كتابته، فنه. ويواصل ضد - كليماكس اعترافه نيابة عن كيركغارد: ولكنه مع ذلك يستمر في ربط نفسه بالله، وهذا هو خلاصه الوحيد؛ وسيكون أكبر رعب بالنسبة له أن يتعين عليه أن يكون من دون الله - «سيكفي للوقوع في اليأس بسبب ذلك». ومع ذلك فإنه في الواقع يسمح لنفسه - ولو ربما لا شعوريا - بشَعْرَنة الله إلى شيء يختلف قليلاً عما هو الله، أقرب قليلاً إلى أب حنون مستعد كل الاستعداد إلى الاستسلام لأمنية الطفل الوحيدة. ومثل شخص منكود الحظ في الحب، أصبح شاعراً وامتدح بسعادة غامرة مسرَّات الحب، فهو أصبح شاعرَ الديني.

كان واضحاً إن ما دفع كيركغارد إلى استخدام مفردة الشاعر للإشارة إلى نفسه ليس ما كتبه بل الحقيقة التي كتبها. والإله الذي شَعْرَنَه هذا الشاعر ربما لا شعورياً لنفسه كان بذلك إلهاً سمح له أن يتشبث بالألم - وتحديداً الألم الذي كان دائماً ينبوع الفن العميق بلا قرار. ولكن من غير الجائز إن هذه الشعرنة كانت لا شعورية تماماً لأن الفنان في الحقيقة يمارس فعل اكتشاف حيلته هو: إنه يفهم بصورة مبهمة إن المطلوب أن يترك هذا العذاب الذي يجب أن يُخضع له نفسه بإيمان وأن يأخذه على عاتقه بوصفه جزءاً من النفس. وهذا هو القبول

المهين للمعاناة بوصفها جزءاً من نفسه لا يستطيع الشاعر أن ينفذه، وهو لا يستطيع لأنه لا يريد: ولكن أن يأخذه على عاتقه بإيمان - فإن هذا ما لا يستطيع أن يفعله. أي، في التحليل الأخير إنه لا يريد - أو، في هذه المرحلة تنتهي نفسه إلى انطماس.

لعل الصورة الذاتية تنتهي إلى هذا النوع من الانطماس أيضاً لأن كيركغارد، كما سبق ذكره، نأى بنفسه إلى حد ما في هذا التحليل عن الشاعر الذي يصوِّرُه، وإن الفهم الذاتي للمصوِّر أكبر من الفهم الذاتي للمصوَّر. وبالطبع إن هذا لا يعني إن كيركغارد في عام 1848 تجاوز كل شياطينه ولكنه أكتسب وقتذاك بصيرة أعمق نفاذاً في المكر الشيطاني ولخص مأزق الشاعر الديني في صيغة نفسية: صراعه هو هذا في الحقيقة: هل حقاً إنه سمع نداء؟ هل الشوكة في الجسد هي الإشارة إلى استخدامه لما هو استثنائي؟ أمام الله، هل يصح تماماً أن يكون الاستثنائي الذي أصبحه؟ أم إن الشوكة في الجسد هي ما يجب أن يقبله بتواضع لكي يبلغ الوضع البشري عموماً؟

حتى الآن اختار كيركغارد أن يتبع التفسير الأول ولكن بدا الآن إن شكوكاً ساورته عما إذا كان مبرَّراً في عمله هذا. وطالما إنه قادر على تفسير معاناته بوصفها صراعاً نفسياً - جسدياً نابعاً من لطخة وراثية ومن توترات بيئية فإن توظيفه السوداوية في خدمة كتاباته أمر يمكن الدفاع عنه، ولكن تحليل الشاعر الديني كشف الجانب المريب لهذه المناورة لأن السوداوية يمكن أن تُفهم على أنها يأس أيضاً، أي معاناة مفروضة ذاتياً.

الجدير بالملاحظة إنه عندما يكتب كيركغارد عن قضايا تقترب من مشكلته الوجودية فإنه لا يصبح عالماً نفسياً دقيقاً فحسب بل يستخدم كذلك تفسيراً ذاتياً دينياً مكثفاً لا يعود الله يعمل فيه حامياً للسوداوية: السوداوية قلق على الخير، السوداوية لا إيمان لأن السوداوية كراهية للنفس متولعة بالنفس. وفي التحليل الأخير فإن السوداوية خطيئة، خطيئة الشك في مغفرة الخطايا. وحيث كان كيركغارد يستخدم في السابق كتاباته للتخفيف من شعوره بالذنب بإنتاج شيء مفيد في المقابل - وحيث كان كيركغارد في السابق لا يكابد فحسب بل يحتاج أيضاً إلى الحط من المكابدة لكي يبقى منتجاً - فإن كيركغارد الآن، في المرض حتى الموت، أوضح بالكامل الدوافع المريبة لاهوتياً التي كانت تكمن

وراء سيكولوجيا شاعر مثله. بكلمات أخرى، إنه فهم الآن إن هذه كانت شَعْرَنة الله إلى شيء يختلف قليلاً.

تطرح فقرة في اليوميات من فترة المرض حتى الموت الموقفين، القديم والجديد. فهو أولاً يكتب: يجب أن أُمارس سيطرة أفضل على سوداويتي. فهي حتى الآن استقرت في أعمق الأعماق، وأُبقيتْ هناك بمساعدة مجهود فكري هائل. ومن الواضح بكل تأكيد إني أفدتُ آخرين بعملي وإن الله رضي عنه وأعانني بكل الطرق. وأنا أشكره مرة أخرى وأخرى لأنه فعل لي أكثر بما لا نهاية له مما كنتُ أتوقع. وهكذا عاين كيركغارد نفسه أولاً من وجهة نظر نفسية محضة: بواسطة كتابته نجح في إبقاء معاناته في زاوية بعيدة عن حياته. وأن ينتج المرء كان يعني أن يلهي نفسه، أن يفقد نفسه، أن يكون لديه الكثير إلى ما لا نهاية تحت نفسه، وكانت الكتابة عملاً مؤثراً من أعمال القمع، تكتيك للمشاغَلة، إزاحة بحجم كبير. ورضي الله عنها بحماية السوداوية. وتتابع فقرة كيركغارد في يومياته: لكن الله يريد الأمور خلاف ذلك الآن. إن شيئاً يتململ داخلي يشير إلى تحول... لذلك يجب الآن أن أبقى هادئاً، ألا أعمل بإجهاد بأي حال من الأحوال، بل ألا أعمل بأي إجهاد على الإطلاق، ألا أبدأ أي كتاب جديد بل أن أحاول المجيء إلى نفسي وأن أُفكر حقاً في فكرة سوداويتي مع الله، ها هنا والآن. وبهذه الطريقة يمكن أن تُلغى سوداويتي ويمكن أن تقترب المسيحية مني. وحتى الآن حميتُ نفسي من سوداويتي بجهد فكري يلجمها. والآن يجب أن أحاول... أنا نفسي أن أنساها ولكن ليس من خلال الإلهاء، ليس بإبعاد نفسي عنها وإنما في الله... وبهذه الطريقة يجب أنا نفسي أن أتعلَّم التجرؤ على نسيانها في المغفرة.

هنا أشار كيركغارد إلى موقفه (أو بالأحرى تنازل عن موقفه الدفاعي) واقترب من الارتقاء إلى مستوى التحدي الكبير الذي تضمنه المرض حتى الموت: أن يصبح شفافاً أمام نفسه. فالسوداوية كانت بلا شك معاناة ولكنها لم تكن مجرد شذوذ نفسي - جسدي بل كانت يأساً يجب أن ينبذه. وكان على كيركغارد أن يبتعد عن أعز شيء يملكه. ثم كان عليه أن يؤمن بأن سوداويته ويأسه نالا المغفرة.

حقاً.

شِعْرُ الأبدية

لا أدري في هذه اللحظة إن كنتُ أستطيع بيع أحد كتبي بحيث ينفد من السوق ولكن المؤكد أني كنتُ أستطيع ذلك قبل أن أبدأ بإغاظة الناس. هذه السطور هي بداية فقرة طويلة في اليوميات عن الغياب المؤسف للتناسب بين نوعية الكتاب وآفاق مبيعاته. فكلما كان الكتاب أحسن قلَّ عدد قرائه. وكان كيركغارد يعرف ما المطلوب على وجه الدقة: بضع كلمات متملقة لهذا الشخص وذاك، مجرد نصف أو عُشر الأشياء الأخرى التي يجب أن يفعلها الكاتب لتسويق كتبه، وستنفد مبيعاتها. ولو كان جي. إيل. هايبرغ، رئيس المسرح الملكي الأنيق الذي عاش في كريستيانسهافن - لو نشر هو بعض الخطابات التثقيفية لبيعت بسرعة جداً، ولكان الكتاب طبعة خاصة، موشاة بالذهب مع شريط من الحرير ليمكن تعليقه من شجرة عيد الميلاد في كل بيت بوروجوازي بلا روح: وحينذاك لكان ثمة شيء في الجو في سائر أنحاء المدينة، وكأن الأمور حقاً في حراك. صرير عربات منطلقة لتهنئة البروفيسور سيتعالى طيلة أيام بحيث سيكون من المحال... عبور كنيبلسبرو [الجسر المؤدي إلى كريستيانسهافن]. وكان البروفيسور هايبرغ الرجل المناسب لذلك!

بعد شهرين على كتابة هذه السطور في أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر 1847 خطرت ببال كيركغارد فكرة نشر عمل يُباع عم طريق الاشتراك. وكتب متفائلاً توثقتُ من إن لصيغة الاشتراك أفضلياتها التالية. أولاً، إن هذه الطريقة تساعد على أن تضمن حتى قراءة كتاب كبير لأنه سيُرسَل إلى القراء على أقساط قصيرة، وثانياً، إنها تساعد على إقامة علاقة هادئة، حميمة بين الكاتب والقارئ. لذلك قرر كيركغارد تعميم الدعوة التالية: إذ سعدتُ بعلمي إن خطاباتي التثقيفية التي تتوجه إلى الفرد ما زال يقرؤها كثير من الأفراد فإني فكرتُ في احتضان قرائي هؤلاء وربما كسب أفراد إضافيين كقراء، بالسماح لمثل هذه الكتابات التثقيفية بالظهور مستقبلاً في أقسام أصغر وعلى أساس الاشتراك... لذلك ابتداء من 1 تموز/ يوليو هذا العام، أعتزم نشر مطبوع فصلي بالعنوان العام قراءة تثقيفية في أجزاء صغيرة من 96 صفحة أو 128 صفحة كحد أقصى... أس. كيركغارد. كانون الثاني/ يناير 1848. وكعامل جذب خاص عرَضَ

كيركغارد إمكانية اختتام كل قسم صغير بطريقة غنائية أو ديالكتيكية كوحدة صغيرة بحد ذاتها بحيث يمكن النظر إليها وقراءتها ككتاب منفرد.

لا شيء من هذا أثمر نتيجة، ولكن أصداء لغة إعلانية ترددت في أواخر نيسان/ أبريل 1848 عندما كان يشتغل على زنبقة الحقل وطائر الهواء فأعطى هذا العمل العنوان خطابات تثقيفية عن الزنابق والطير. وكان النص الذي استند إليه كيركغارد في كتابة نصه هو إنجيل متي الإصحاح 6: 24 – 34. وكان هذا من أحب النصوص إلى قلب كيركغارد الذي عالجه مرات عديدة من قبل وخاصة في الجزء الثاني من خطابات تثقيفية بأرواح مختلفة الذي صدر في 13 آذار/ مارس 1847 والجزء الأول من خطابات مسيحية الذي نُشر في 26 نيسان/ أبريل 1848. ولكن شيئاً خاصاً حدث هذه المرة: هذه الخطابات... ستطور الصراع بين الشعر والمسيحية: كيف، بمعنى من المعاني، تكون المسيحية نثراً – بالمقارنة مع الشعر المشتهي، الساحر، المخدِّر، الذي يحوِّل واقع الحياة إلى حلم شرقي، كما حين تريد فتاة شابة أن تستلقي على الأريكة طوال اليوم وتدع نفسها تنتشي – ومع ذلك يكون حقاً شعر الأبدية. من الواضح إن تصويرات الطبيعة يجب أن تكون مترعة بما يزيد من الألوان الشعرية والتلوين الرائع على ما أُعطيت في السابق، لا لكي تصبح تصويرات متفوقة جمالياً بل لكي يخرج الشعري مختالاً، لأنه إذا سقط الشعر حقاً (لا بسبب لغو قس متجهم غبي) فإنه يجب أن يُكسى حلة مهرجانية.

في الأول على الأخص من هذه الخطابات الثلاثة الورعة، كما هو العنوان الفرعي للقطع التي يتألف منها زنبقة الحقل، طوَّر كيركغارد هذا الصراع بين الشعر والمسيحية. الشاعر هو طفل الأبدية لكنه يفتقر إلى جدية الأبدية. ولذلك حين يفكر في الطير والزنبقة فإنه يبكي. وعندما يبكي يجد السلوى في البكاء. أوه، يا ليتني كنتُ تلك الزهرة في الحقل، الزهرة التي كانت تنتصب في حديقة أُمي. الشاعر عاطفي، وهو يجد السلوى في الماضي، ولديه رغبة ملتهبة في العودة إلى أيام آنيته، أيام مضت منذ زمن طويل. ولكن إذا قلتَ له، بالإنجيل، «إن هذا أمر جاد، إنه حقاً جاد، الطير مُعلِّم بجد» – حينذاك سيتعين على الشاعر أن يضحك. وسيكون عليه أن يضحك لأن كلمات الإنجيل تبدو له شعراً مرفوعاً إلى قوة أعلى، وبالتالي أجمل من أن يكون حقيقياً، أروع من أن يكون فعلياً. لكن الإنجيل يجرؤ على أن يأمر الشاعر، أن يقول له إنه يجب أن يكون

كالطير. والإنجيل من الجدية بحيث إن أكثر إبداعات الشاعر سحراً لا يُقاوَم، لا تستطيع أن تجعله يبتسم.

من المؤكد أن الخطابات الثلاثة - التي مواضيعها الصمت والطاعة والفرح على التوالي - تعبر عن كل البهاء الشعري والجمال اللغوي الذي يمكن أن تستحضره اللغة، في اليوم المناسب. ويستطيع كل واحد أن يرى إن الكلمات تكتسي حلة مهرجانية ولكن شكوكاً يمكن أن تبقى بمدى نجاح كيركغارد في إيصال الشعر إلى السقوط. فإن نبرة الخطابات الثلاثة نبرة دندنة بلا هموم، نبرة إيقاع هادئ مفعم بالروح وملموس بالأبدية لمسة رقيقة، والأبدية تربط الخطابات بأحدها الآخر، متمددة في موضوعتها: ما الفرح، أو ما معنى أن يكون المرء فِرحاً؟ إنه حقاً أن يكون المرء حاضراً لنفسه. ولكن أن يكون المرء حاضراً لنفسه بحق هو هذا اليوم، هذا الذي يكون اليوم، أن يكون اليوم حقاً. وكلما زاد كونك اليوم صدقاً زاد كونك حاضراً بالكامل لنفسك في كونك اليوم وقلَّ وجود أحزان الغد لك. الفرح هو الوقت الحاضر، مع كل التوكيد على الوقت الحاضر. لذلك تبارك الله، هو القائل أبدياً: اليوم، هو الحاضر أبدياً ولا نهائياً لنفسه في كينونة اليوم... وهكذا فإن حقيقة مجيئك إلى الوجود، حقيقة إنك موجود، وإنك تتلقى ضرورات الوجود «اليوم»؛ حقيقة إنك جئت إلى الوجود، وإنك أصبحت كائناً بشرياً، وإنك تستطيع أن ترى (فكر في ذلك، في أنّك ترى)، وإنك تستطيع أن تسمع، وإنك تستطيع أن تشم، وإنك تستطيع أن تتذوق، وإنك تستطيع أن تشعر، وإن الشمس تشرق لك أنتَ - ومن أجلك، وحين تتعبْ يأتي القمر، ثم تُضاء النجوم، وإن الشتاء يحل، والطبيعة كلها تتنكر متظاهرة بأنها غريبة - وهي تفعل ذلك لإسعادك، وأن يأتي الربيع، وتأتي الطيور أسراباً كبيرة - وهي تفعل ذلك لإدخال الفرح في نفسك، وأن تتفتح الأوراق الخضراء، وأن تنمو الغابة إلى جمال أخاذ، واقفة هناك كأنها عروس - وهي تفعل ذلك لإدخال الفرح في نفسك، وأن يأتي الخريف، وترحل الطيور، ليس خجلاً، أوه، كلا، وإنما لكيلا تمل منها، وأن تخفي الغابة حلّتَها لكي تفرح أنتَ بها في المرة القادمة.

هكذا كتب كيركغارد في الكتب التي قدمها إلى قرائه بيده اليمنى. اليد الأقرب إلى القلب.

أن ينشر أو لا ينشر

لا شيء يرهقني بفظاعة كما ترهقني القرارات السلبية، شكا كيركغارد في مطلع صيف 1848 حين كان على وشك أن ينشر الأزمة، وأزمة في حياة ممثلة - ولكن على وشك فحسب لأنه مرة أخرى عاش كتلاً كبرى من التأمل تتجمع فجأة في أكوام هائلة من الثلج كدتُ أهلك فيها - وهذا رغم تصميمه ورغم وقت السنة! أن ينشر أو لا ينشر، هذا هو السؤال، ولم تكن لدى كيركغارد أدنى فكرة عما يجب أن يفعله، الأمر الذي كان منافياً للعقل بطبيعة الحال: ثمة شيء خطأ هنا، عندما يمكن حقاً، بعد تفكير، أن يكتسب شيء عديم الأهمية بحد ذاته مثل هذه الواقعية الرهيبة. إنها إشارة إلى أن التأمل أصبح سقيماً. وعندما يحدث هذا يجب التحرك لينقذ المرء حياته.

كان الشي عديم الأهمية قطعة كتبها كيركغارد منذ فترة طويلة، في أوائل عام 1847، عندما قامت مسز هايبرغ مرة أخرى - بعد استراحة دامت تسعة عشر عاماً - بدور دوليت في مأساة شكسبير الشهيرة. وحينذاك كان هذا الإحياء نفسه أصبح تاريخاً، وفي صيف 1848 كان كيركغارد ما زال يشتغل على كتابه الأزمة. وكان يريد أن ينشره ولكنه بدا له جمالياً بإفراط، ولذلك أثار نوعاً من الأزمة في حياة كاتب. أولاً، عدَّد كل الإيجابيات: إنه يود أن يُسعد مسز هايبرغ وأن يكون في الوقت نفسه مزعجاً بعض الشيء لزوجها جي. أيل. هايبرغ الذي كان يريد أن يقول له بعض الحقائق المرة عن نفسه. ثم هناك رئيس التحرير غيودفاد الذي طلب بلهفة مقالاً لجريدته. وأخيراً، إن كيركغارد بنشره كتاب الأزمة قد يكون قادراً على التصدي للفكرة القائلة بأنه أصبح مقدساً وجاداً لأنه لفترة طويلة لم ينشر شيئاً سوى كتابات دينية. وهذه محاجَّة مؤيِّدة بالغة الأهمية ولكن المحاجَّة المعارِضة تتكلم. وها أنا دخلت الآن المسيحية دخولاً حاسماً، وقدمتُ الكثير منها بشكل صارم وجاد بحيث إن هناك بالتأكيد أشخاصاً تأثروا بذلك. وقد يجد هؤلاء الأشخاص غضاضة تقريباً إذا سمعوا إني كتبتُ عن ممثلة في الصحافة الشعبية. والحق إن لدى المرء مسؤوليات تجاه مثل هؤلاء الأشخاص... والأكثر من ذلك، ليس عندي في اللحظة الراهنة أي كتابة دينية جاهزة يمكن أن تُنشر في وقت واحد. ولذلك يجب ألا يُنشر الكتاب. إن وضعي خطير للغاية، وقليل من الإهمال في الغذاء قد يسبب ضرراً لا يمكن إصلاحه.

وفي نهاية الفقرة كتب كيركغارد ملاحظة ثم أزال صفحة من يومياته، الأمر الذي كثيراً ما يكون مؤشراً إلى أزمة خطيرة فعلاً. فالنتف الباقية من الفقرة نتف ذات صفة مختصرة، متطيرة: هي إلى غيودفاد – ثم تركتها وأصبحتُ مريضاً بشدة بعد الظهر – وا أسفاه، أُفضل كتابة محفظة كاملة على نشر صفحة.

ولكن بعد ثلاث فقرات من اليوميات تراجع كيركغارد عن قراره: كلا، كلا، المقال الصغير يجب أن يُنشر. فإن غيودفاد طلبه مرة أخرى، وقد يكون ذلك إشارة من الحاكمية الإلهية. وبما أن كيركغارد كان قادراً على الدفاع أمام الله عن كتابته المقال فإنه يستطيع بكل تأكيد أن يسمح لنفسه بنشره أيضاً، ولا سيّما إذا أرَّخه، كمحتال تقي، في سنة تأليفه الأصلية.

وهكذا انتهى الأمر. إذ نُشر كتاب الأزمة، وأزمة في حياة ممثلة مسلسَلا على حلقات في أربعة أعداد من صحيفة فادريلانديت، من 24 إلى 27 تموز/ يوليو 1848، وكان بتوقيع داخل وداخل آخر. واستطاع كيركغارد أن يتنفس بسهولة: أحسنتُ صنعاً بتنفيذ نيتي، وتبأ لي على حاجتي إلى تذكيري بهذه الطريقة، على انتفاخي إلى هذه الدرجة بداء الاستسقاء السوداوي للتأمل. ولكن في النهاية لم يُسمح لي بالتحرر منه قبل أن أفعل ما ينبغي أن أفعله. وكنتُ سأندم ألف مرة لو لم أفعله. وكان كيركغارد الآن مقتنعاً قناعة كاملة بأنه إذا مات دون أن ينشر ذلك المقال الصغير لكان الناس على الأرجح أشاعوا ذلك النوع من الهراء – المعهود من بلبلة عصرنا المفهومية اللامسؤولة بفظاعة – بما مؤداه إني رسول. والله العظيم، إني بدلاً من ممارسة تأثير نافع والدفاع عن المسيحية لكنتُ قد خربتها. وكما حدث في أحيان كثيرة فإن فكرة كيركغارد عن الاهتمام المعاصر بتدبيره المنزلي الأدبي كانت غير متناسبة بعض الشيء. وهكذا، بعد فقرات قليلة في اليوميات، عندما يشن كيركغارد هجوماً ساحقاً على راسموسن نيلسن لعدم استيعابه إن كتاب الأزمة تواصل معكوس غير مباشر، نكون إزاء قضية عنف واضحة ضد شخص بريء من المارة.

إذا قرأنا المقال الصغير الذي قتلت صفحاته العشرون كاتبه عملياً، قد يكون من الصعب أن نرى ما المُقلق جمالياً فيه. فمثلما إن كيركغارد استخدم في وقت سابق مراجعته لعمل مسز غيليمبورغ كأداة للتعبير عن زمنه فإنه في كتاب الأزمة استخدم مسز هايبرغ بطريقة مماثلة كمناسبة للتعليق على حماقات العصر التي

دائماً يوجد منها الكثير. ولكن كيركغارد كان راضياً عن كتاب الأزمة، وأوضح إنه إذا نُشر ذات يوم كعمل منفصل فينبغي الإبقاء على الاسم المستعار ولكن هناك الإهداء إلى البروفيسور هايبرغ. ويجب أن يُصاغ الإهداء على النحو الآتي: الإهداء إلى مستر بروفيسور جي. أيل. هايبرغ / عقل الدنمارك المتضلع بعلم الجمال / بقلم عالم جمال أدنى مرتبة، المؤلف.

بقي الإهداء مجرد فكرة، ولكن عندما نشر كيركغارد وجهة نظر لعملي كاتباً في عام 1851 اغتنم المناسبة للاعتراف رسمياً بأبوته لكتاب الأزمة، وأرسل نسخة من الكتاب إلى مسز هايبرغ مرفقة برسالة يعيِّنُها فيها القارئة الحقيقية لكتاب الأزمة. ولاحقاً جعل جي. أيل. هايبرغ الرسالة تُنشر في صحيفة كيوبنهافنسبوستن مع مقاله هو مساهمة في معرفة تتعلق بآراء كيركغارد عن المسرح. وختم مقاله هايبرغ بالثناء على قطعة كيركغارد التي قال إنها ينبغي أن تُقرأ لأسباب منها الازدراء الذي يستهجن به النقد المسرحي الهابط لتلك الأزمنة بكل ضحالته الجمالية وبغضه الأخلاقي.

كانت هذه الكلامات التقديرية من معلِّم كيركغارد الجمالي وغريمه ستثلج قلبه بحق لكنها جاءت متأخرة. فحين نُشرت كان كيركغارد متوفياً منذ شهر ونصف الشهر.

وجهة نظر لعملي كاتباً

مجايلو كيركغارد لم يفهموه، وكان هو على اقتناع بذلك. ولكن الأجيال اللاحقة ربما ستفهمه. وهكذا نقرأ في يومياته من عام 1848: لا يمكن أن أُفهَم إلا بعد موتي. ولكن في العام نفسه سيكتب كيركغارد أيضاً أنه في مرحلة ما سيكون من الصواب بكل تأكيد أن أترك في زمني أثراً، ليس أثراً مستنسَخاً لما أزعمه عن نفسي، لما أُريده، إلخ.

وقد يبدو هذا الخوف من أن يُساء فهمه مستغرَباً من كاتب تبرأ بأسماء مستعارة وباسمه الحقيقي من أي علاقة بأقسام مهمة من نتاجه في عدد من المناسبات - ولكن الخوف كان قائماً رغم ذلك. ويبدو أنّ هذا كان أحد الأسباب وراء رغبة كيركغارد في التواصل المنفتح رغم كل أولوياته الشخصية وشكه العميق إزاء الجمهور. وفي أوائل ربيع 1847 مثلاً خطرت له فكرة تقديم دورة صغيرة من اثنتي عشرة محاضرة عن ديالكتيك الاتصال. وكان من

المزمع أن تقترن هذه المحاضرات بمحاضرات مماثلة عن الغرام الرومانسي والصداقة والحب. وبدأ العمل على هذا المشروع في منتصف أيار/ مايو من ذلك العام، وحقق تقدماً طيباً. لكنه أدرك فجأة إنه بكل بساطة ليس مناسباً لإلقاء محاضرات وأوضح ذلك بالإشارة قائلاً أنا معتاد على اشتغال الأشياء بالتفصيل. وما هو جوهري بالنسبة لي الثراء المترف لما أقدِّمه وأن يكون كل سطر مشبعاً بالتأمل. فإذا ألقيت محاضرات سيكون عليَّ تحضيرها مثلما أُحضِّر كل شيء آخر، ولذلك سيتعين عليَّ أن أقرأها بصوت عالٍ من مخطوطة. وأنا لا أُريد ذلك. وأي طريقة أخرى لن ترضيني. صحيح تماماً إني بتقديم دورة صغيرة سأدعم جهودي وأنال مزيداً من القبول بأفكاري، إلخ - في الوقت الحاضر. لا ضير. أفكاري ستلقى قبولاً بكل تأكيد. وبعد فترة قصيرة على ذلك قرر وضع المحاضرات على الرف واستئناف جهوده التي انقطعت على كتابة أعمال الحب.

مع ذلك عادت الرغبة إليه. وبعد أقل من عام بقليل أراد كيركغارد أن يلقي محاضرات، ومضى إلى حد كتابة دعوة صغيرة أخرى إلى مشتركين قد يكونون راغبين. وتستحق هذه الدعوة إعادة إنتاجها كاملة:

يعتزم الموقِّع أدناه تقديم دورة من المحاضرات عن المبدأ التنظيمي لكامل عملي ككاتب بالارتباط مع العصر الحديث، مستنيراً بالإحالة إلى العصور الكلاسيكية القديمة.

الجمهور الذي في ذهني سيتألف بالدرجة الأساسية من خريجي قسم اللاهوت أو في كل الأحوال من طلاب متقدمين. وأفترض مسبقاً في جمهوري معرفة مستفيضة بكتاباتي. وأُريد أن أطلب سلفاً من كل مَنْ لا تصح عليه هذه الحالة أن يتجاهل هذه الدعوة. ومسبقاً أُريد القول أيضاً إن هذه المحاضرات لن تكون تسلية بأي حال بل ستتألف من عمل، ولذلك لا أُريد أن أُغري أي أحد. و- لأني أعتقد أنّ هذه هي الحال مع كل نوع من الفهم العميق - إن هذه العمل سيبدو أحياناً، عند النظر إليه من زاوية اللحظة ونفاد الصبر، مملاً بكل بساطة، وفي هذا الشأن أُحذر الجميع من المشاركة. وإذا فُهمتُ بنجاح فإن مستعمي سيحقق الفائدة المتمثلة بأن حياته ستكون أصعب بكثير عليه من أي وقت مضى، ولذلك لن أحث أحداً على قبول هذه الدعوة.

فور توقيع عشرة أشخاص سأبدأ، ولا أُريد أكثر من عشرين لأني أُريد ذلك النوع من العلاقة مع جمهوري الذي يجعل من الممكن، إذا نشأت الضرورة، أن تصبح المحاضرات ندوات أكاديمية.

الرسم 5 ريكسدولارت، واحد يوقع معي.

لم يكن هناك أي خطر كبير من أن يزيد العدد على عشرين مشتركاً. فمن سيدفع خمسة ريكسدولارات عن شيء ليس فيه أي متعة وإنما عمل فقط - بل عمل ممل وحتى في أحسن الأحوال يجعل حياة الشخص أصعب من أي وقت مضى؟ وبالطبع فإن سلسلة المحاضرات التي تخيَّلها كيركغارد ظلت مجرد فكرة. ولكن هذا لا يعني إن كيركغارد تخلى عن خططه لتقديم إعلان عام عن عمله كاتباً، وفي أواخر آب/ أغسطس 1848 كتب في يومياته: الآن أستطيع أن أرى طريقي واضحاً إلى كتابة عرض موجز وجاد قدر الإمكان لكتاباتي السابقة، الأمر الضروري قبل الانتقال إلى المرحلة التالية. ولماذا أشعر إني قادر على ذلك الآن؟ لأني على وجه الدقة توصلتُ الآن إلى وضوح بشأن التواصل المباشر لما هو مسيحي بشكل حاسم. وما أن قال ذلك حتى نفذه: بموازاة إنجاز المرض حتى الموت وكتابة الأقسام الأولى من الممارسة في المسيحية كتب وجهة نظر لعملي كاتباً الذي كان في حكم المنجَز بحلول نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر 1848.

يتأرجح العمل بين السيرة الذاتية والمعالجة الأدبية ولكنه لدى النظر إليه نظرة صحيحة لا يكون هذه ولا تلك - جنسه جنس حرباء. وهكذا يكون العمل، من بين عدة أشياء أخرى، إعلاناً برنامجياً يقدم إلى القارئ قراءة صائبة لأعمال كيركغارد. وهو لذلك يغري القارئ قائلاً: حاولْ إذاً، حاولْ أن تفسر كل هذا النشاط الكتابي على أساس الافتراض القائل إنه بقلم كاتب جمالي. ولكن، كما سرعان ما يعرف القارئ، فإن هذا من الإغراءات التي من الأفضل مقاومتها، لأن كيركغارد لم يقدِّم إلى القارئ واحدة من بين عدة قراءات ممكنة بل القراءة الأكثر استحالة على الإطلاق. وإذا بذلتَ، من الجهة الأخرى محاولة الافتراض القائل إن الكاتب كاتب ديني سترى إن ذلك متوافق نقطة فنقطة مع كل خطوة على الطريق. ولذلك لا بد أن يكون الكاتب دينياً أو جمالياً. الاحتمالات الأخرى - مثل أن يكون الكاتب (وعمله) أخلاقياً - ليست مذكورة.

يصر وجهة نظر بوصفه إعلاناً برنامجياً، على أنه يجب أن يُقرأ كما النصوص السابقة التي خرجت من يد كيركغارد، عمل يريد أن يكون نص هذه النصوص، ما بعد النص. وهكذا يسعى وجهة نظر لعملي كاتباً إلى أن يكون بمستوى عنوانه الفرعي: اتصال مباشر، تقرير إلى التاريخ. ولكن الاختصار ليس تماماً مواطن قوة وجهة نظر، بل على العكس فهو يواجه صعوبات أساسية في الوصول إلى النهاية. وخاتمته ليست حتى كلمته الأخيرة بل هي بمثابة مقدمة لـــــــنهاية لاحقة يتضح إنها ليست نهاية لأنها نهاية تعقبها ملاحظتان نفسهما تسبقهما مقدَّمة جديدة يليها مزيد من الكتابة التي تأتي بعدها حاشية إضافية حاشيتها الحقيقية حاشية أخرى تلتمس بإلحاح كلمة أخرى فقط بعدها. وهكذا فإن مما له دلالته وطابعه الساخر عندما سمح كيركغارد لنفسه في موضع ما منتصف وجهة نظر لعملي كاتباً، أن يكتب إن الأمر كله يمكن أن يُقال بكلمة واحدة. فالأمر كله لا يمكن أبداً أن يُقال بكلمة واحدة.

وجهة النظر الحقيقية لكتاب وجهة نظر بسيطة بما فيه الكفاية من ناحية: إن محتويات هذا الكتاب الصغير هي إذاً الآتي: ما أكونه حقاً ككاتب، هو إني وكنتُ كاتباً دينياً، وإن عملي كله ككاتب يتعلق بالمسيحية، بمسألة أن يصبح المرء مسيحياً... ما أكتبه هنا هو للتوجُّه وللسجل، إنه ليس دفاعاً أو اعتذاراً. وهكذا أراد كيركغارد أن يكون موضوعياً لا يحيد عن الحقائق في عرض البناء المربَّع لعمله، ولكن لم يمض وقت طويل حتى بدأ الكتاب يتحرك وينطلق بشكل دراماتيكي في اتجاه الاعتذار الذي أراد تجنبه. قد يبدو أنّ تأكيداً بسيطاً من الكاتب نفسه يكون أكثر من كافٍ في هذا الشأن. فهو بعد كل شيء شخص ذو دربة في معرفة الأمور. لكني لا أُؤمن كثيراً بتأكيدات من هذا النوع بشأن العمل الأدبي، وأنا معتاد على الارتباط بعملي الأدبي بشكل موضوعي تماماً. إنه يكتب بإيماءة من الهيبة والتوكيد. ثم - بعد صفحتين فقط! - يعطي كيركغارد تأكيدات بكل ما عنده من قدرة: هكذا كان الأمر. بالمعنى الدقيق فإن «إما/ أو» كتُب في دير، وأستطيع أن أُؤكد لكم... أستطيع أن أؤكد لكم إن كاتب «إما/ أو»، من أجل نفسه هو وبدقة رهبانية، كان يقضي جزءاً محدَّداً من كل يوم في قراءة كتابات تثقيفية - أنه كان يفكر في مسؤوليته بخوف والكثير من الارتعاد. وفي هذا الشأن كان يضع نصب عينه على الأخص - يا للغرابة! - «يوميات الغاوي».

قبل أن يفكر كيركغارد في كتابة وجهة نظر بأقل قليلاً من أربع سنوات، أطلق يوهانس كليماكس الزعم الآتي: المعروف جيداً إن أكثر الأشخاص نزاهة وصدقاً يقعون بسرعة في تناقضات عندما يُخضعون لمعالجة استجوابية وللأفكار المهووسة في ذهن محقق في حين إن قدرة المرء على تفادي التناقض مع نفسه في أكاذيبه تكون، بسبب الحساسية التي يتطلبها تأنيب الضمير، الملاذ الوحيد للمجرم المنحرف. ولو أُتيحت لكليماكس فرصة تدقيق وجهة نظر بعينه الخبيرة لمعاينة عدم حساسيته وتناقضاته الذاتية فإنه لن يصف كيركغارد بالمجرم المنحرف لأن هذا النوع من الأشخاص يستطيع أن يتكلم من دون تناقض مع نفسه، الشيء الذي لا يمكن أن يُقال عن كيركغارد. ولكن المشكوك فيه إن كليماكس سيتمسك بنقيضه الحاد فيصنِّف كيركغارد على أنه أكثر مَنْ صادفهم نزاهة وصدقاً في ممارسته.

مع تقدم العمل اضطُر كيركغارد إلى أن ينحي محاجَّته الموضوعية جانباً ويصر أخيراً باستغاثة على إن التفسير الحقيقي يمكن أن يجده شخص يبحث عنه بصدق. وبهذا القول وُضعت شروط التفسير الآن على أساس أخلاقي، ويوضع القارئ على نحو ترهيبي تحت طائلة المحاسبة. والآن فإن جدية القارئ هي التي تضمن صدقية الطرح، الأمر الذي في النهاية يجعل هذه الجدية اسماً آخر للقبول ضمناً بخيالات كيركغارد وحيَلَه المريبة. لذلك ليس من المستغرب أن يبدي العمل ثقة ملحوظة بالقارئ – أو إذا شئتم، ليس من المستغرب أن تكون براءة يوهانس الغاوي براءة غير تأملية مفترضة مسبقاً في كورديليا، مماثلة على نحو مريب بالجدية غير النقدية التي يفترضها كيركغارد مسبقاً في قارئه. ويتبدى هذا على سبيل المثال في هذا النداء الإيروتيكي بدرجة خفيفة: ذات يوم، عندما يطل حبيبي سيرى بسهولة إنه عندما كنتُ أُعتَبر صاحب مفارقة فإن المفارقة لم تكن بأي حال من الأحوال تتكون مما كان الجمهور المثقف المحترم يظن... سيرى إن المفارقة تتكون على وجه التحديد من الحقيقة الماثلة في أنّه داخل هذا الكاتب الجمالي، تحت ظاهر الدنيوية هذا، يخفي نفسه كاتب ديني... سيرى حبيبي كيف ينسجم ذلك حرفياً.

من هو حبيب كيركغارد؟ إنه القارئ الذي يقرأ الرواية على أنها قطعة غير روائية ولا يستطيع أن يرى إن كيركغارد في هذا العمل لم يَعِدْ إنتاج أعماله وإنما أنتجها في الحقيقة بوصفها أعمالاً نصية تدَّعي إنها حقائق.

والحق إن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن نجعل كل شيء منسجماً، حرفياً.

ما الذي لم يكن هذا القلم قادراً عليه...؟

ولكن كتاب وجهة نظر لعملي كاتباً لا يتكون فقط من اعتذار غير مقصود بهذا القدر أو ذاك - وفي التحليل الأخير اعتذار اتهامي للذات - عن تأويل ديني محدَّد لكتابات كيركغارد. كما إنه يتضمن مقاطع غنائية بينها قصيدة للكدح مع القلم والورق وللقوى الغامضة التي تساعد على إنتاج مثل هذا العمل الحِرَفي. وفي هذا الشأن كتب كيركغارد إنه لم يكن هناك أدنى تأخير في الإنتاج الأدبي. فكل شيء يُراد له أن يُستخدم كان جاهزاً تحت اليد في ذات اللحظة التي يُراد أن يُستخدَم فيها. وبمعنى ما اتسم الإنتاج كله بانتظام ليس فيه انقطاع كما لو إنني لم أفعل شيئاً آخر سوى أن أنسخ كل يوم قسماً محدَّداً من كتاب مطبوع. وكان ذلك مهمة واجب بسيطة، وكيركغارد نفسه عاش مثل ناسخ في مكتبه.

كان مكتب كيركغارد استعارة لغياب المزاج، ومن الواضح إن هذا المكتب كان جزءاً من دائرة الواجبات والدقة في المواعيد. ولا يُقال لنا أي كتاب نسخه كيركغارد بهذه المثابرة ولكن ينبغي أن يكون واضحاً إن هذه لم تكن حالة عمل ناسخ اعتيادي أو مجرد سرقة أدبية. فعندما كان كيركغارد ينسخ شيئاً، كان يفعلِ شيئاً آخر وأكثر من مجرد النسخ. ولكن ماذا؟ وكتابة مَنْ كانت كتابته نسخةً منها؟

كيركغارد الناسخ يجيب عن هذه الأسئلة بطريقة في منتهى الأصالة في الفصل الثالث من وجهة نظر المعنون دور الحاكمية الإلهية في كتاباتي. وهو بالفعل وجد إن من المحرِج إلى حد ما أن يكون عليه الكلام عن نفسه، ولكن الإحراج كان إحراجاً يمكن التعاطي معه، كما يتضح من المقطع التالي الذي يمكن أن يُسمى عن صواب اعترافات كيركغارد ولذلك يستحق بعض الاهتمام: ما الذي لم يكن هذا القلم قادراً عليه حين كان شيئاً يتطلب جرأة وحماسة وعاطفة متقدة إلى حد الجنون تقريباً! والآن حين يجب أن أتحدث عن علاقتي بالله، عما يتكرر كل يوم في صلواتي، التي تقدم آيات الشكر على الأشياء التي لا توصف التي فعلها لي، أكثر بما لا نهاية مما كنتُ أستطيع أن أتوقعه ذات يوم؛ وحين يجب الآن أن أتحدث عن ذلك فإن نفاد صبر شِعْرياً

يستيقظ في روحي. وبتصميم أقوى من ذلك الملك الذي نادى مملكتي مقابل حصان، وبتصميم مبارك كان هذا الملك يفتقر إليه، سأهب كل ما عندي، بما في ذلك حياتي للعثور على شيء يجده الفكر أكثر تباركاً من عثور الحبيب على حبيبته - «التعبير» - ثم أموت وهذا التعبير على شفتيّ. وانظروا، إنها معروضة عليَّ - أفكار ساحرة مثل تلك الفاكهة في الحديقة المشهورة، يا لها من تعابير غنية، حارة، تتقد عاطفة، مهدِّئة للرغبة في العرفان التي في داخلي، بتلك القدرة على تلطيف حرارة الشوق. ويبدو لي إنه لو كان عندي قلم مجنَّح - بل لو كان عندي عشرة اقلام مجنحة - لما كنتُ قادراً على مواكبة الإيقاع المتسارع الذي تُعرَض به الثروات عليَّ. ولكن عندما ألتقط قلمي عند ذاك أكون للحظة عاجزاً عن تحريكه، مثلما يتحدث امرئٌ ما عن كونه عاجزاً عن تحريك قدمه. وفي هذه الحالة ما من سطر واحد يجد طريقه إلى الورق، كما لو إني سمعتُ هاتفاً يقول لي: رجل غبي! ما الذي يفكر فيه؟ ألا يعرف إن الطاعة أثمن عند الله من سمن الأكباش؟ نفذ الأمر كله كمهمة إلزامية. ثم أصبحُ هادئاً بالكامل. ثم يكون هناك وقت لكتابة كل حرف بقلمي الأبطأ، بتدقيق مفرَط تقريباً. وإذا استيقظت تلك العاطفة الشعرية مجدداً فيَّ لبرهة فكأنما سمعتُ صوتاً يتحدث معي مثلما يتحدث معلم مع صبي، حين يقول «الآن أمسك القلم بصورة صحيحة واكتب كل حرف بعناية متساوية». ثم أستطيع أن أفعل ذلك، ثم لا أجرؤ على عمل أي شيء آخر. ثم أكتب كل كلمة، كل سطر، غافلاً بالكامل تقريباً عن الكلمة التالية والسطر التالي. ثم حين أقرأه بعد ذلك فإنه يرضيني بطريقة مختلفة جداً. وحتى إذا أفلت مني هذا التعبير أو ذاك يكون ما أُنتِج شيئاً آخر - ليس نتاج عاطفة شعرية أو فكرية بل عاطفة مخافة الله، وبالنسبة لي إنها عبادة الله.

النص نفسه يعبر عما يريد أن يعبر عنه. وهو يبحث عن التعبير الذي يجب حصره بين علامات اقتباس لحماية تميُّزه العميق لكنه بدلاً من ذاك يكتشف التعابير، تدفقاً مضطرباً من الاستعارات التي تصنع من نص كيركغارد الاعترافي نصاً جمالياً عن الدين. وتبدأ السطور تحوم تقريباً فوق الصفحة كأنها كُتبت بـ قلم مجنَّح - بل ربما بعشرة أقلام كهذه - أصبح طياراً واتبع عاطفة شعرية متقدة. ولكن هذه في الحقيقة ليست هي الحال. وفيما لا يقل عن مناسبتين يسمع النص هاتفاً يعنِّف كيركغارد ويأمره - كأنه تلميذ - بأن يمسك القلم العنيد بصورة صحيحة ويكتب كل كلمة بعناية، فيفعل بقلمه الأبطأ. وهكذا

يحدد الهاتف نص كيركغارد مثلما إن الحاكمية الإلهية تحكم. ولم يتمكن كيركغارد من وصف الإنتاج الجمالي بأنه تفريغ ضروري إلا بعد أن قرأ (أعاد قراءة) نصه وكتبه (أعاد كتابته) من هذا المنظور. ثم ذكر كيركغارد، في شطر من الحوار، كيف أن الديني تسامح مع هذا التفريغ لكنه كان يواصل المسير كأنه يريد أن يقول «ألن تنتهي من هذا قريباً؟» النص لا يقول لنا متى رد كيركغارد على هذا السؤال بالإيجاب ولكن يبدو أنّ السؤال طُرح عليه مرات متكررة، ولذلك قرر كيركغارد في النهاية إرضاء الديني بأن أصبح كاتباً دينياً.

نص كيركغارد الاعترافي قطعة لذيذة لكل متذوق فرويدي، وكيركغارد يقدم طبق تشخيصه الخاص تقديماً لطيفاً بوصف علاقته مع الله بأنها قصة الحب الوحيدة السعيدة في حياته التعيسة. وكيركغارد في محاولته تمييز عالَم الديني عن عالَم الجمالي أضفى في الحقيقة طابعاً جمالياً على علاقته بالله ولكن ما هو ليس لافتاً بالقدر نفسه إنه محا كل السمات الاعتيادية للخبرة الفنية وجعل الله رب الوحي الذي يتعين على كيركغارد أن يستدعيه كل يوم للدفاع عن نفسي ضد وفرة الأفكار. وأوضح كيركغارد قائلاً [أستطيع] أن أجلس وأستمر في الكتابة بلا انقطاع نهاراً وليلاً ومرة أخرى نهاراً وليلاً لأن هناك ثروة كافية. وإذا فعلتُ ذلك سأنهار. أوه، أقل إهمال صغير في الغذاء وأكون في خطر قاتل.

كأنه قصة خيالية، هذا الإصرار على الكتابة ألف ليلة وليلة متواصلة. كانت الأميرة شهرزاد ترجئ إعدامها برواية القصص الخيالية. وكان كيركغارد يؤجل رغبته الإيروتيكية بالكتابة – وطوال الوقت كانت عين الله مثل والد (آخر) تراقب رغبة ابنه التي لا يمكن السيطرة عليها في تفريغ نفسه ولذلك كان عليه أن يطلب بصورة متكررة أن يتصرف قلم ابنه القذّاف منوياً بصورة لائقة (في هامش على وجهة نظر لاحظ كيركغارد ضرورة الوصول إلى نقطة منوية خارج النظام).

لكني عند ذاك لا أستطيع بالطبع أن أقول «أنا»

عاش كيركغارد خبرة رهيبة أثناء العمل على وجهة نظر. وأدركَ إنه ليس الكاتب الحقيقي للكتاباتِ بل كاتب مشارِك أو نوع من الكاتب الشبحي الذي يكتب لأحد آخر ولذلك كان عاجزاً عن الكلام بمرجعية عن معناها الداخلي. وإذ لم يتمكن من اكتناه خبرته ذاتها، لم يخطر بباله إن هذا النوع من الكتابة

المشتركة قد تنبع من اللغة نفسها، التي، بالطبع، دائماً تمتد أبعد من الشخص الذي يكتب بها ويمكن - بقواعدها النحوية بكل بساطة - أن تُبقي الكاتب داخل قنوات معينة وربما حتى تضعه صوب اتجاه محدَّد. كما لم يخطر ببال كيركغارد إن عملية الكتابة نفسها قادرة على تفعيل قوى لا شعورية في الشخص الذي يمارس الكتابة ويمكن أن يُفاجأ برؤية نفسه يتعامل مع مواضيع يبقيها الكبت الفاعل عادة بعيدة عن الأنظار. وفرض كيركغارد تأويلاً دينياً على خبرته وسمَّى القسم الغريب من كتابته دور الحاكمية الإلهية. ولكن حتى هذا التأويل لم يكن وافياً: فإذا قلتُ ببساطة إنه كانت لديَّ نظرة عامة إلى البناء الديالكتيكي لعملي كله بصفتي كاتباً من البداية... سيكون هذا إنكاراً وعدم أمانة تجاه الله، واتجاه القارئ كما يمكن أن نضيف. ويواصل كيركغارد: كلا، يجب أن أقول بحق إني لا أستطيع أن أفهم المسألة كلها لأني على وجه التحديد أستطيع أن أفهم المسألة إلى أدق التفاصيل الصغيرة - ولكن ما لا أستطيع أن أفهمه هو إني أستطيع أن أفهمها الآن رغم إني بكل تأكيد لا أجرؤ على القول إني فهمتها بهذا القدر من الوضوح في البداية. ومع ذلك كنتُ بالطبع الشخص الذي فهمَها مفكراً في كل خطوة على الطريق.

قد تبدو فكرة دورة الحاكمية الإلهية في الأعمال من الوهلة الأولى كأنها جنون عظمة جامح ولكن لدى إمعان النظر والتفكير نستطيع أن نرى إنها قريبة من نقيض ذلك - الخبرة المتمثلة في أنّ استقلال المرء الذاتي استقلال محدود. وكيركغارد لم يكن الشخص الذي كان يمارس فعل الكتابة فحسب بل إنه - وهنا تحديداً لم يتمكن من إيجاد الكلمات التي يحتاجها - كان الشخص المكتوب أيضاً. فعندما كان يكتب وفيما كان يكتبه كان في الحقيقة يكتب نفسه أيضاً: كتاباته تشكل رواية نمو ضخمة شاملة، رواية تربوية ترتبط فيها الكتابة نفسها بعلاقة خلاصية، بعلاقة تساؤلية على الطريقة السقراطية، مع الكاتب.

كانت خبرة كيركغارد خبرة من الصعب التعبير عنها باللغة - لأنها على وجه التحديد كانت تتعلق بشروط اللغة ذاتها. لذلك لجأ إلى مفردة أخلاقية هي التربية، التي تكتسب بصيغة المبني للمجهول أن يُربى، طابعاً مادياً أو ملموساً لا يختلف كثيرا عن صيغة أن يُكتب. وكتب كيركغارد إن من الواضح وضوحاً لا لبس به قدر الإمكان إن الحاكمية الإلهية هي التي ربَّتني، وإن هذه التربية تنعكس في عملية الإنتاج الأدبي. وبهذا القدر، إذاً، فإن ما قيل سابقاً بما مؤداه إن الإنتاج

الجمالي كله خداع، لا يكون بمعنى ما صحيحاً بالكامل لأن تسميته ذلك تعني الذهاب بعيداً بعض الشيء في التنازل للوعي. ولا هو من الجهة الأخرى بعيد بالكامل عن الصواب أيضاً لأني منذ البداية كنتُ واعياً بأني كنتُ أُربَّى.

وإذ نوجه اهتمامنا إلى الفقرات التي كتبها كيركغارد في يومياته بشأن وجهة نظر فإننا نرى الآن إن تأملاته في العلاقة بين النشاط الواعي والنشاط اللاشعوري في عملية الكتابة كانت أحياناً تضاعف موضوع الكتابة مرتين وأحياناً أخرى تختزله إلى النصف: وهكذا فإن الـ «أنا» في النص لم تكن بكل بساطة متطابقة مع الـ «أنا» التي أعادت قراءة ما كُتب والتي بدورها لم تكن نفسها الـ «أنا» التي فكرت في حقيقة إن الـ «أنا» الأولى والثانية لم تكونا متطابقتين. وفي فقرة من هذه اليوميات يعطي كيركغارد القارئ انطباعه عما رأى كيركغارد الكاتب ينقله عن الكاتب الذي نُشر عمله بالاسم نفسه: إن كتاب وجهة نظر لعلمي كاتباً يجب ألا يُنشر. كلا، كلا! – (1) وهذا هو الأمر الحاسم (كل شيء آخر فكرتُ فيه بشأن المخاطر التي تهدد وضعي المالي وإيجاد وظيفة، لا أهمية له): أنا لا أستطيع أن أُقدِّم نفسي بصدق كامل. وحتى في المسودة الأولى (التي كتبتُها دون أي تفكير في النشر) لم أكن قادراً على توكيد ما كان الأمر الرئيسي بالنسبة لي. ولكن عندما أَخرجتُ المخطوطة بهدف النشر كان علي أن أجري بعض التغييرات الطفيفة لأن التوكيد كان، بعد كل شيء، أقوى من أن يُنشر... (2) لا أستطيع القول تماماً إن عملي كاتباً هو تضحية. والصحيح بكل تأكيد إني كنتُ تعيساً إلى حد لا يُوصف منذ طفولتي ولكن مع ذلك يجب أن أعترف في هذا الشأن بأن طريق الهروب الذي وفره لي الله في السماح لي بأن أصبح كاتباً كان طريقاً غنياً، غنياً بالمتعة. لذلك جرت التضحية بي قطعاً ولكن عملي ككاتب ليس تضحية – إنه في الحقيقة أكثر ما أود الاستمرار في عمله بشكل مطلق. وهكذا فإني لا أستطيع أن أكون صادقاً هنا أيضاً لأني لا أستطيع الحديث عن عذاباتي وبؤسي هكذا، طباعةً – ثم ما هو الأبرز حقاً يصبح هو المتعة.

المرة تلو الأخرى ثم الأخرى يميِّع كيركغارد ما يقوله بإضافة ولكن ورغم كل شيء ولا يمكن تماماً وصحيح بكل تأكيد ولكن مع ذلك ومرة أخرى ولكن. وتتردد هذه التحفظات في كل المونولوج النصي كاشفةً اندهاش كيركغارد عندما عاد إلى المخطوطة. فهو نَبَشَ المسودة الأول وأعاد قراءتها وتوثق من إن الشيء الأساسي – التوبة الاختيارية – لم يُصوَّر تصويراً وافياً. ثم أجرى

تعديلات ثانوية لكنها لم تسفر عن تقوية الشيء الأساسي بل أضعفته. وما الذي تسبب في هذا الإضعاف لشيء ضعيف أصلاً؟ إنه هذا: الدافع الخاص إلى التوبة لأن أعمال كيركغارد بوصفه كاتباً لم تكون متوافقة مع هذه الأعمال نفسها التي لم تكن تضحية بل على العكس كانت غنية، غنية بالمتعة. وحين يُعرَض العذاب والبؤس الداخلي طباعةً تصبح أنا التائبة مثيرة للاهتمام، الأمر الذي تسبب في حلول الديني مرة أخرى محل الجمالي.

والحق إن كيركغارد نظر إلى كتابه وجهة نظر من هذه الزاوية المزدوجة. ذلك أن الكتاب نفسه صحيح، وهو برأيي عمل بارع، كما كتب بشكل بعيد بعض الشيء عن التواضع في فقرة من اليوميات نظر فيها بعين على الجانب الديني وعين على الجمالي. ومن دون أن يطرف له جفن مضى إلى أن يكتب الآتي في الفقرة نفسها من اليوميات: لو أُضيفَ القليل إلى توكيد الحقيقة الماثلة في أنّي تائب، وعن خطيئتي وذنبي، والقليل عن بؤسي الداخلي - لكان عند ذاك صحيحاً.

ترك كتاب وجهة نظر لعملي كاتباً في أثره ذاتاً مهمشة إلى أقصى الحدود خاب ظنها حين رأت الشيء الأساسي يختفي في غمرة النص. ويمكن أن يُقرأ تهميش من هذا النوع - بالمعنى الحرفي تماماً - في ملاحظة هامشية ضيقة طويلة وُجِدت مع واحدة من قصاصتي ورق كتب عليها كيركغارد ملاحظات لخطاب بعنوان من عَليّ، سيجذب كل شيء إلى نفسه. وتحت عنوان ما يتعلق بالعمل غير المنشور الكامل ونفسي، كُتب الآتي على امتداد حافة من قصاصة الورق: إن الصعوبة في نشر القطعة التي تتناول كتاباتي هي، وما زالت تتمثل في، إني استُخدمتُ دون علمي في الحقيقة أو دون علمي بالكامل. والآن، لأول مرة، أفهم وأستطيع أن أرى الأمر كله - ولكني عند ذاك لا أستطيع بالطبع أن أقول «أنا».

هنا الحاكمية الإلهية ليست مدرجة في العملية. فإن كيركغارد استُخدم وكُتب كتابةً كاملة في عملية الإنتاج بحيث عندما نظر إلى الوراء لم يكن قادراً على أن يقول أنا. وعندما عاد ينظر إلى حياته فإن ما رآه في الحقيقة لم يكن حياة، بل رأى كتابة، جبالاً من الكتابة. وبمنطق متناقض يبين كيف أن غياب المرجعية فرض إنتاج رواية، فإن كيركغارد هذا نفسه (الذي كان في ظروف

أخرى غير مستعد للمخاطرة بالوقوع في بلبلة شِعرية محيِّرة) فكَّر في نشر وجهة نظر باسم يوهانس دي سيلنتو! لكنه سرعان ما أدرك إنه عندئذ لن يعود ذلك الكتاب على الإطلاق لأن مقصد الكتاب هو على وجه التحديد إنه كان بياني الشخصي. ولكن رغم وجود اعتبارات معينة تجعل من المفضَّل نشر سيرة ذاتية باسم الكاتب نفسه فإن فكرة النشر باسم مستعار عادت إلى الظهور، وهكذا كتب كيركغارد مقدَّمة لكتاب وجهة نظر بتوقيع A-O، الذي ختم مغامرته في هذا المسعى المتشظي بالقول التالي: أجرؤ الآن على القيام بهذه المغامرة الشِعرية. فالكاتب نفسه يتحدث بضمير المتكلم ولكن ضعوا نصب أعينكم إن هذا الكاتب ليس الماجستير K بل هو إبداعي الشعري - ويجب بكل تأكيد أن أطلب المعذرة من مستر ماجستير لمغامرتي تحت أنفه تماماً، إذا جاز التعبير، بفهمه شعرياً أو شَعْرَنَته. ولكن لا شيء أكثر من... هذا الاعتذار لأنه من نواحي أخرى حررتُ نفسي شعرياً بصورة كاملة تماماً منه. والحق، حتى إذا أعلنتُ إن فهمي له غير صحيح حقائقياً بشأن هذا التفصيل أو ذاك فلا يستتبع من ذلك إنه لم يكن صحيحاً من الناحية الشعرية. وبالطبع فإن الخاتمة ستُقلَب: لذلك فإن الماجستير ك. لم يرتقِ إلى ما سيكون صحيحاً شعرياً أو يدركه.

محاولة تقديم تقرير مباشر إلى التاريخ حلت محلها هنا لعبة خطابية، ديالكتيكية على نحو لا يُنكر، لكنها في الوقت نفسه لعبة مدمرة لأنها في لعبها المزدوج الخبيث على غير الصحيح حقائقياً والصحيح شعرياً، تمحو كل اختلاف بين A-O ـ والماجستير K وهذا المنطق الغريب الذي يقفز بشهوانية إلى خاتمة مقلوبة يدع الرواية أن تكون لها الكلمة الأخيرة. وبهذا المعنى يكون كيركغارد منسجماً تماماً حين يختم وجهة نظر بـــــ السماح لشخص آخر، هو شاعري أنا، أن يتحدث. ثم يمضي هذا الشاعر إلى إنهاء الكتاب بالقول: إن الاستشهاد الذي كابده هذا المؤلف يمكن أن يوصف بكل اختصار بالقول إنه كابد لكونه عبقرياً في مدينة ريفية. والمعيار الذي كان يقيس به القدرات والكد ونكران الذات والتضحية ومقولات إطلاقية الفكر، إلخ كان معياراً أعلى بكثير من مستوى مجايليه. فهو رفع الثمن عالياً للغاية... ولن يكن قادراً على أن ينسِبَ البناء الديالكتيكي الذي أنجزه - والذي مكوناته المنفردة أعمال بحد ذاتها - إلى أي كائن بشري، وأقل من ذلك أن يَنسبَه إلى نفسه. وإذا نَسَبَه إلى أي أحد لكان ذلك إلى الحاكمية الإلهية.

وهكذا لم يكن كيركغارد قادراً على تخويل الأعمال الكاملة باسمه هو بل تعين عليه أن يوزع التخويل في اتجاهات متعددة، بحيث إن كتاب وجهة نظر الذي يُفترض أن يكون تواصلاً مباشراً وتقريراً إلى التاريخ، أصبح أي شيء إلا مباشراً، وتقريره يبدو في المقام الأول عن وجهات نظر متعددة ومتنافسة. لذلك كتب كيركغارد نصاً مختصراً إلى حد بعيد في آذار/ مارس 1849 لكنه لم يتمكن من أن يَحْمل نفسه على نشر هذا النص أيضاً، الذي لم يظهر إلا بعد عامين، في 7 آب/ أغسطس 1851 بعنوان عن عملي كاتباً في حين أن المخطوطة الأصلية لكتاب وجهة نظر أُحيلت إلى النشر بعد وفاته، الأمر الذي تولاه بيتر كريستيان كيركغارد في عام 1859، وبعد ذلك يبدو أنّ المخطوطة اختفت في واحد من المواقد الجشعة التي تعمل بالحطب في منزل الأسقف. ومهما يكن من أمر فإنها لم تعد موجودة. وكان مراجع في صحيفة داغبلاديت Dagbladet أقل من مقتنع بجدارة مؤلف وجهة نظر بالثقة فكتب: نحن بالتأكيد لا نرى إنه يكذب بوعي لكننا نعتقد بأنه يفعل شيئاً ليس خارجاً عن المألوف ويخلط بين التعليل في ضوء الحقائق والتعليل القَبْلي عندما ينظر، في ختام عمله ككاتب، استرجاعياً إليه ويكتشف إن بالإمكان رؤية تماسك معين بين الأعمال... ورأيُنا المؤكد تماماً لا يقتصر على أن من غير الصحيح بالمرة أن تكون الأعمال الجمالية كُتبت بنيِّة دينية – غير صحيح بالمرة. ولا أيلين بويسن Eline Boisen (التي كان كيركغارد يقرب لها من زيجة شقيقه الأولى) كانت مقتنعة، وقالت متذمرة باقتضاب: في سيرته الذاتية... يريد أن يقدم نفسه وكأن القصد من كل مساعيه أن يواجه الناس خلسة بالإنجيل. ولكن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً فيما يتعلق بالجزء الأول من حياته. فهو لم يكرِّم والده ووالدته ولذلك لم تجرِ الأمور له على ما يُرام في البلد.

حين نفكر في حجم العمل المنجَز يكون عام 1848 من أعوام الوفرة ولكن عندما نفكر في حجم ما نُشر فإنه يكون من أكثر السنوات عجافاً. ذلك إن خطابات مسيحية والأزمـة هما الكتابان الوحيدان اللذان أفلتا من تردد كيركغارد. وفي نهاية العام كان لدى كيركغارد ما لا يقل عن أربع مخطوطات جاهزة للطبع: مقالان أخلاقيان – دينيان الذي كان يتجمع عليه الغبار منذ كانون الأول/ ديسمبر 1847 وأُدرج لاحقاً ضمن حلقة من المقالات الأخلاقية – الدينية الذي كتب له كيركغارد مقدِّمة وحاشية في تشرين الأول/

أكتوبر، والمرض حتى الموت الذي أُنجز في منتصف أيار/ مايو 1848، ووجهة نظر لعملي كاتباً الذي أُنجز في أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر 1848، والممارسة في المسيحية الذي أُكمل في كانون الأول/ ديسمبر 1848. وتملأ المخطوطات مأخوذة كلها ما مجموعه أكثر من خمسمئة صفحة مطبوعة.

في منتصف كانون الأول/ ديسمبر راودت كيركغارد فكرة أن ينشر بعض مواده في كتاب واحد بعنوان الأعمال الكاملة للإنجاز، ولكن بعد فترة من التفكير المتعرج صرف النظر عن الفكرة. واغتنم الموت ذريعة للتصالح مع تردده: قواي - أي قواي الجسدية - تضمحل. وصحتي تتردى بشكل مخيف. أنجزتُ مادة ذات أهمية حاسمة بحق ولكن لن أعيش طويلاً ما فيه الكفاية لنشرها بنفسي.

بالإضافة إلى كل هذه المادة هناك مسودات الخطابين الموسومين كبير القساوسة والفريسي وجابي الضرائب اللذين كانا جاهزين في أوائل أيلول/ سبتمبر 1848، ومراجعة مسرحية هي مستر فيستر بوصفه الكابتن سكيبيو بتوقيع بروكول، وكان جاهزاً بحلول كانون الأول/ ديسمبر بعد التصحيحات الأخيرة. وعلاوة على كل هذا كانت لديه خطط لكتابة زوج خطابات تحت عنوان مشترك هو لا تدع القلب يقع في خطيئة الأسى تتناول ما هو بالمعنى الإنساني أنبل أشكال اليأس وأجملها، وبالتحديد الحب التعيس أو الحزن على وفاة حبيب [و] الأسى على عدم إيجاد المرء مكانه اللائق في العالم. فهذه كلها أشكال من اليأس يعشقها الشاعر ولكن المسيحية تسميها خطيئة. وإلى جانب هذا كله كان هناك أيضاً المقال حياد مسلح زائد يوميات كيركغارد، كي لا ننسى. وأنهى كيركغارد الملاحظة رقم 4 في اليوميات بتاريخ 15 أيار/ مايو وبدأ على الملاحظة رقم 5 في ذلك اليوم نفسه، وبحلول 16 تموز/ يوليو كانت مليئة بالكتابة ونُحيت جانباً لصالح اللاحظة رقم 6 التي حلت محلها في 21 آب/ أغسطس الملاحظة رقم 7 التي استمرت حتى 28 تشرين الثاني/ نوفمبر عندما بدأت كتابة الملاحظة رقم 8 - التي أشبعت حاجات كيركغارد لما تبقى من العام.

كل هذا بقي في مناضد كيركغارد الكتابية وصناديق معدنية وأكياس صغيرة من الخيش بانتظار أيام أفضل.

مسؤول عن سمعته بعد الوفاة

«ما الذي يفعله غوته في عمله Aus meinem Leben [بالألمانية: «من حياتي»، كتابات في السيرة الذاتية]، سوى تقديم دفاع ذكي عن إخفاقات»، كما كتب كيركغارد حاقداً في عام 1844. وتابع بالنَّفَس الحقود نفسه: إنه لم يدرك الفكرة في أي مرحلة، لكنه قادر على الإفلات من كل شيء بالكلام (نساء شابات، فكرة الحب، المسيحية، إلخ)، بل إن غوته، كما لاحظ كيركغارد في الهامش، «لم يكن يختلف إلا بالدرجة عن مجرم أيضاً يتملص من المسؤولية بالشعر، مُبعِداً إياها عن نفسه عن طريق الشَعْرَنة».

إذا كانت سيرة حياة غوته الذاتية دفاعاً عن إخفاقات فإن القارئ يجد من المغري أن يسأل إن لم يكن الاعتراض نفسه يصح من حيث المبدأ على كتاب كيركغارد وجهة نظر لعملي كاتباً. ولكن كيركغارد في الحقيقة لم يحاول الإفلات من أي شيء بالكلام بل العكس هي الحال: هناك الكثير مما لا يتكلم عنه بالمرة (العلاقة مع ريجينة مثلاً التي يشير إليها ببرود على أنها تلكم الحقيقة، وتُضغَط بين قويسات). ولكن الصمت أيضاً دفاع عن إخفاقات. كما إن كيركغارد لا يتملص من المسؤولية بالشعر، وأحياناً يتوقف عندها بشكل ظاهر. ولكن المتأصل في جنس السيرة الذاتية نفسه هو الميل إلى الانزلاق، عاجلاً أو آجلا، نحو نوع الاعتذارية ذاته الذي تسعى إلى تجنبه مبدئياً. وأخيراً فإن كيركغارد ليس المجرم الذي يتهم غوته بكونه لكنه بكل تأكيد يترك أقل ما يمكن تركه للصدفة ويبذل كل مجهود ممكن ليقدم الصورة المناسبة عن سيرته المقبلة. والنية المعلَنة بهذا القدر أو ذاك من كتاب وجهة نظر هي التحكم بالسرد وصوغ الفصول بحيث لن يتعين على الأجيال القادمة أن تقبل القصة فحسب بل وأن تريد إعادة روايتها والتطريز عليها أيضاً. وبالتالي فإن ما له دلالته ويبعث على القلق إن كيركغارد عندما أسس مبحث كيركغارد – وهذا ما فعله بكتابة من وجهة نظر – إنما فعل ذلك كنوع من التوثيق الروائي أو إضفاء طابع دراماتيكي.

ويجد هذا التوثيق الروائي تعبيره، على سبيل المثال، في الفصل الثاني من وجهة نظر حيث يريد كيركغارد أن يستجلي خصوصيته الوجودية الشخصية التي توافق جنس الكتابة الخصوصي ملمِّحاً في هذا الشأن إلى التكتيكات التي كان عليه أن يستخدمها في نشر حاشية ختامية: أدركتُ على الفور... إن وجودي

الشخصي يجب أن يُعاد تشكيله لهذا الوضع. كما تكونت لديَّ فكرة عما ينبغي عمله عندما يتدخل ظرف صغير - رأيته إيماءة من الحاكمية الإلهية - يهبُّ إلى مساعدتي بطريقة مناسبة جداً ويمكِّنني من العمل بصورة حاسمة. كان الظرف الذي تدخل بهذه الطريقة المناسبة دخول مجلة كورسارن في الساحة وتأثيرها في أهل كوبنهاغن، لأن «جمهوراً ضخماً مشتبك الأذرع in bona caritate [باللاتينية: بلطف] أصبح متهكماً، اللعنة!» ذلك إن المفارقة الجامحة لعصر كيركغارد وضعته في موقف صعب. فهو نفسه لم يكن يستطيع أن يستخدم المفارقة لأنها ستُفهَم على أنها مجرد شكل حديث الاختراع وشديد الإثارة من التهكم. لذا تعين عليه أن يفعل العكس جاعلاً نفسه موضع تهكم الجميع.

إن تقديم كيركغارد لما كان في الواقع مجرى أحداث بالغ التعقيد تقديم مبسَّط بحيث يحوم في مكان ما بين المحاكاة الساخرة والتزييف. ويبدو أنّه ينضح خيالاً من كل مساماته، وهو انطباع يتعزز حين يصور كيركغارد نفسه مسؤولاً عن الأمر كله: حسبتُ الآن إن الوضع سيكون الوضع المناسب ديالكتيكياً لإعادة الاتصال المباشر فيه. ورغم إني كنتُ منشغلاً بأعمال دينية حصراً فقد تجرأتُ على التعويل على هذه الجرعات اليومية من ابتذال الغوغاء شكلاً للدعم السلبي من شأنه أن يُبقي الوضع بارداً ما فيه الكفاية لمنع الاتصال الديني من أن يكون كله مباشراً أكثر مما ينبغي أو أن يكسب لي مريدين بصورة مباشرة أكثر مما ينبغي... وحتى الذين لم يحذِّرهم هذا سيقلقهم الظرف الإضافي المتمثل بإني عرَّضتُ نفسي اختيارياً إلى هذا كله، اندفعتُ إليه، نوع من الجنون... آه، نعم، ومرة أخرى، آه نعم، لأنه، منظوراً إليه من منظار ديالكتيكي، كان نكران ذات مسيحياً على وجه التحديد. وتأكيد الذات لا يُحرم مما يستحقه في نكران الذات المسيحي عند كيركغارد، الذي يبدو العالم كله وكأنه حركة عظمى لترويج الذات بطريقة مسرحية، مع كل الاستعارات العديدة للتستر الدراماتيكي: الأزياء، الديكور الباذخ، بدلة الملابس.

هذه النزعة واضحة في اليوميات أيضاً. وبمرور السنين أصبحت صور السيرة الذاتية التي كانت لزمن طويلٍ اختصاص كيركغارد، مشدودة بتوتر ومتكررة بكثرة بحيث إنها، بوصفها فناً، كانت تواجه خطر الانتهاء إلى كليشيهات في حين إنها، بوصفها سيكولوجيا، بدأت تقترب من الفن الهابط. وفقدت هذه البورتريهات الذاتية أكثر فأكثر من التفاصيل والعمق في حين إن دور المؤرخ

الذاتي نفسه، من الجهة الأخرى، ازداد وضوحاً في معالمه. ولم يكلّ كيركغارد قط من تصوير نفسه شخصية هامشية قادرة، من موقعه المكشوف، على أن ترى تطورات حاسمة عديدة مرت دون أن ينتبه إليها الآخرون. وكان هذا الدور يُصوَّر في أحيان كثيرة على أنه ذو سمات مميزة لطبقات اجتماعية أدنى بكثير من طبقة كيركغارد نفسه، كما على سبيل المثال عندما وصف نفسه بأنه جاسوس ثم طفق يربط هذا الدور بفكرَتَي الذنب والعقاب اللتين كانتا تظهران بشكل قهري تقريباً كلما كتب عن نفسه: ما قلته لنفسي وعن نفسي صحيح: فأنا مثل جاسوس في خدمة ما هو الأعلى. الشرطة أيضاً تستخدم جواسيس، ولهذا الغرض لا تستخدم أُولئك الذين كانوا على وجه التحديد يعيشون أفضل حياة وأكثرها استقامة بل على العكس فإن الشرطة تستغل المجرمين المخادعين والماكرين الذين تجبرهم على التعاون لأن الشرطة تعرف الكثير عن حياتهم السابقة. آه، الله أيضاً يستخدم الآثمين بهذه الطريقة. ولكن الشرطة لا تفكر في إصلاح جواسيسها. الله يفكر في ذلك. وعندما يستخدم، في رحمته، شخصاً كهذا فإنه يربي هذا الشخص ويصلحه.

حياة كيركغارد السابقة vita ante acta، حياته المبكرة، حياته حتى هذا التاريخ، جزء دائم من تقديم نفسه، ويشير هذا التعبير على ما يُفترض - ليس من دون قدر طفيف من الشبق - إلى مشاهد آثمة لا يُسمح للقارئ أبداً الاطلاع عليها. معه، كان كل شيء عواطف داخلية. حديثه عن شاب مبذِّر، عن خطايا الشباب، إلخ، لا يمكن إلا أن يشير إلى «خطايا في الفكر»، كما أصر إسرائيل ليفن داعماً زعمه بالإشارة إلى أنه ما على المرء إلا أن ينظر إلى أصول كيركغارد كلها لمحق أي تفكير في الفسق لديه. وكان ليفن بعيداً عن كونه شاهداً على الحقيقة ولكنه لاحظ عن صواب ميل كيركغارد، مع تقدمه في السن، إلى تصوير ماضيه بلغة مسرحية على أنه ماضٍ من الحسية المنفلتة - كأنه كان شهوانياً متغندراً له صولات وجولات في مواخير كوبنهاغن. وهذه الصورة بلا أساس تاريخي لكنها كانت جزءاً مهماً من محاولة كيركغارد أن يخلق الغُبش الديالكتيكي الذي كان يريد الأجيال القادمة أن تراه فيه. وأوضح هو نفسه هذه التعقيدات بالطريقة المعقدة التالية: أعترف بأني بدأتُ عملي كاتباً من موقع ذي أفضلية: كان يُنظر اليَّ بوصفي أقرب إلى الوغد، ولكن صاحب فكرٍ لامع إلى حد كبير، أي أسد اجتماعي، طفل من أطفال العصر المدللين حقاً... ولكن

هنا كان يكمن الجاسوس، ولم يكن هناك من يرصده. وأن يبدأ شخص بداية شهواني شبق، أسد اجتماعي، ثم، بعد سنوات عديدة، يصبح ما يسميه الناس قديساً فإن هذا لا يستحوذ على اهتمامهم. ولكن أن يحرص تائب، واعظ من نوع ما، يدعو إلى التوبة، على أن يبدأ بزي أسد اجتماعي فإن الناس ليسوا معتادين على ذلك.

يجب أن نقر لكيركغارد بأن وعّاظ التوبة نادراً ما يتنكرون بزي إسود اجتماعية ولكننا يجب أن نشير أيضاً إلى أنه ليس خارجاً عن الصدد تماماً أن نأتي على ذكر عن مفهوم المفارقة حيث شدد كيركغارد على نوع مماثل من التذبذب بين الاعتكاف الرهباني والانفتاح الشبق كصفة معهودة لدى صاحب المفارقة الرومانسي: هو الآن في طريقه إلى الدير، وفي الطريق يزور فينوسبرغ. هو الآن في طريقه إلى فينوسبرغ، وفي الطريق يصلي في الدير.

وهكذا عندما تعين على كيركغارد أن يكتب سيرة حياته ويصور تطوره الديني، لم يجد مشكلة في إعادة تدوير مادة صنفها في موضع آخر على أنها جمالية.

والدي مات – ثم حصلتُ على والد آخر بدلاً منه

هذه التقديمات الذاتية المعقدة التي يتصارع فيها الخداع وخداع النفس مع أحدهما الآخر حتى الاستنزاف وبشروط متساوية، تقترن أحياناً بفقرات أكثر صراحة في اليوميات حيث تعود، على سبيل المثال، خبراتُ طفولة صادمة ولكن بشكل متحول. الألم لم يختفِ ولكنه خفَّ بما يكفي لأن يأخذ كيركغارد القلم في يده – ثم يبلغنا إن التفاصيل الأشد حسماً ستبقى مكفَّنة بالصمت: أوه، كم هو مخيف عندما أُفكر حتى لبرهة واحدة في خلفية حياتي المعتمة، من أيامها الأولى. القلق الذي ملأ والدي روحي به، سوداويته المخيفة ذاتها، الأشياء الكثيرة في هذا الشأن التي لا أستطيع حتى كتابتها. اكتسبتُ قلقاً كهذا بشأن المسيحية ومع ذلك انشددتُ إليها بقوة.

تتكرر الفقرة في مواضع مختلفة بجملة تنويعات، وعلى القارئ أن يستجمع حسن نية استثنائياً ليكون قادراً على تجاوز التفكير في التأثير العلاجي الذي لا بد إن فعل تفريغ الصدمة في الكتابة ذاته، مارسه على كيركغارد الذي كانت يومياته المؤتَمَن الوحيد على أسراره بطبيعة الحال. وبالطبع إن الحقيقة ذاتها الماثلة

في أنّه تعاطى مع خبراته الصادمة بكتابتها ضللت الأجيال اللاحقة للتركيز على الصدمات نفسها وليس على المسافة التي وضعها كيركغارد بينها وبين نفسه، سطراً فسطراً، بمرور الوقت. وفي فقرة من يومياته أوائل صيف 1848 يبدأها كيركغارد بصورة قاطعة تماماً، نستشعر كيف تزداد هذه المسافة: ولكن طبعاً إن موت والدي كان أيضاً خبرة مدمِّرة بشكل رهيب لي - إلى أي حد كانت مدمِّرة لم أتحدث عن ذلك قط إلى أي شخص. وكان الشطر الأول من حياتي كله غارقاً على العموم في أكثر السوداويات سواداً وفي ضباب البؤس الأكثر إثارة للكآبة بحيث ليس من المستغرَب إني كنتُ كما كنت. ولكن هذا كله يبقى سرِّي أنا.

واجه كيركغارد قارئه بهذا التستر الصريح مرات كثيرة حتى إن المرء يكاد أن يرد باستسلام. فهو يريد، لكنه لا يريد، رغبته في الاعتراف تتسم بكراهية متعاطفة، أبدية [باللاتينية: يريد المرء أو لا يريد] nolens volens. ولكن الفقرة تستمر بعد ذلك: لعل هذا ما كان ليترك مثل هذا الأثر في أحد آخر ولكن مخيلتي - ولا سيّما في أيامها الأولى حين لم تكن لديها أي مهمات يجب أن تنجزها. وعند هذه النقطة تنتهي الجملة لكنها لا تنتهي بصورة صحيحة بل ينقصها فعل على أقل تقدير. إذ كان على كيركغارد أن يمضي في طريقه مسرعاً لأنه بالكتابة أوقع نفسه في المساحة الخطيرة حيث الفن والواقع، الشعر والحقيقة، تتصارع مع بعضها البعض. عشر كلمات إضافية لا أكثر في هذا الاتجاه ويكون قد كشف عن كونه قاطع طريق أدبياً تعين عليه أن يمارس النهب مع ماضيه ذاته لأن سنوات مرت منذ أن كانت هناك مواضيع في أي مكان آخر لديها الجاذبية المطلوبة لإبداعه الفني. حذف كيركغارد هذه الكلمات العشر وعاد بدلاً من ذلك إلى صيغته المألوفة: مثل هذه السوداوية الأساسية مثل هذا المَهَر الضخم من الحزن، والمصير الأشد مدعاة للأسف في أن تكون تربيتي على يد مثل هذا الأب الكئيب - ثم ببراعة فطرية، أن أكون قادراً على خداع الجميع، كما لو كنتُ الحياة والمرح ذاته - ثم أن يساعدني الله في السماء كما ساعدني.

موقف كيركغارد المتذبذب من هذا العجوز المكتئب الذي سمَّم حرصه الضال حياته، موقف لا مثيل له في الأدب العالمي - ولا حتى كافكا استطاع أن يستخدم الشيطنة للوصول إلى شيء كهذا - ونحن عملياً نغوص في أخطاء والده: قمعه لجنسوية ابنه الذي أسفر عن صراعات نفسية - جسدية، وأخلاق العبد التي أوجدها أب متشدد بإفراط، المفارقة في أنّ ابنه، بفضل هذه المهانات

ذاتها، كان يعبده وتخيل إنه يحبه لأنه كان يخاف أن يعترف بكراهيته، ومشاعر التقصير النابعة من التوقعات الأخلاقية والفكرية المبالغ بها، التي كان يُفترض بالابن أن يرتقي إليها بدلاً من والده، وجنون الارتياب الراسخ في مراقبة الأب المستمرة لسلوك الابن - وظهر لاحقاً بشكل معكوس في فكرة الابن عن كونه جاسوساً مهمته كشف الآخرين، والمفارقة الناجمة عن تصنع قهري وعدوانية مكبوتة - عدوانية ارتبطت بدورها، من خلال قنوات مبهمة، بالطريقة المزرية التي عوملت بها ريجينة وتبدَّت لاحقاً في فكرة الاقتصاص من زمنه بالسماح لهذا الزمن أن يصبح مذنباً مسؤولاً عن موت شهيد.

سيكون من السهل المد في هذه القائمة من الاستراتيجيات التربوية التي أقعدت الطفل عملياً، وتوسيعها وتعميقها، ويمكن أن يُضاف ملحق خاص يحوي عدداً من قصص الطفولة الرهيبة التي رويت على صفحات اليوميات. وسيتعين أن نكتفي باثنتين منها: مع ذلك أنا مدين إلى والدي بكل شيء، من البداية. فهو في اكتئابه حين يراني مكتئباً يناشدني، «تأكد من إنك حقاً تحب عيسى المسيح». وهذه ليست فقرة سارة في اليوميات وما يجعلها سوداء بصفة خاصة الاستحسان غير المتحفظ الذي يقتبس الابن به كلمات الأب - وكان هذا الاستحسان القاعدة أكثر منه الاستثناء. وبعد فقرتين في اليوميات يكرر كيركغارد ملاحظة والده، التي مر عليها الآن نحو عقد من الزمان، عندما أطلق سورين كيركغارد المغرَق في الدنيوية، تعليقه الخطير على إمكانية أن يستطيع لص كبير تغيير حياته ويصلح أموره: كل شيء قاله لي والدي صحيح. «هناك خطايا لا يمكن إنقاذ الشخص منها إلا بمعونة ربانية استثنائية». وإنسانياً، أنا مدين بكل شيء إلى والدي. فهو جعلني تعيساً قدر الإمكان من كل ناحية حتى إن شبابي كان عذاباً لا يُقارن. وبسببه، في أعمق أفكاري، اقتربتُ من أن تُسيء لي المسيحية، أو في الحقيقة إنها أساءت لي، حتى إذا قررتُ ألا أقول كلمة واحدة عن ذلك لأي أحد احتراماً لها، ومن باب الحبَ لوالدي أن أُقدِّم المسيحية بقدر ما يمكن من الصدق - على النقيض من الهراء الذي يُسمى مسيحية في المسيحية الرسمية. ومع ذلك كان أبي أكثر الآباء محبة، وأنا اشتقتُ وما زالتُ أشتاق إليه، ولم أتخلف عن تذكُّره صباحاً ومساء، كل يوم.

كان ابنُ أبٍ مَنْ كتب هذه السطور، ابنٌ ظُلم لكنه نفسه ارتكب ظلماً كذلك. وبالطبع فإن السؤال الذي يجد علم النفس الحديث من الصعب ألا يطرحه، هو

ما إذا كان الابن البالغ قادراً على تفادي نقل صفات الأب الدنيوي إلى الأب السماوي - وهل كان قادراً على تفادي إسقاط هذه الصفات عليه؟ ليس من الممكن الإجابة عن هذا إجابة لا لبس فيها ولكن ما يثير الاستغراب إن كيركغارد يبدو في عدد من المواضع وكأنه يبدد كل شك في مثل هذا الإسقاط. وكتب في فقرة من يومياته الإسقاط لا تخطئه العين فيها: عشتُ مع الله، بالمعنى الحرفي تماماً، كما يعيش المرء مع أب. ولكن بعد صفحات قليلة في اليوميات نفسها تأتي هذه الانعطافة الجذرية في القصة: توفّي والدي - ثم كان لي أب آخر بدلاً منه: الله في السماء - ثم اكتشفتُ إن والدي الأول كان في الحقيقة زوج أمي وبمعنى غير حقيقي فقط كان والدي الأول.

ينبغي أن نولي العبارة الختامية اهتماماً لأنه هنا سوَّى كيركغارد حساباته مع والده: أظهر مايكل بيدرسن كيركغارد إنه كان زوج أم ولذلك كان عليه أن يتنازل عن موقعه إلى الأب الحقيقي، إلى الأب السماوي، الله. وهذه البصيرة كانت على وجه التحديد ما جعل من الممكن في النهاية أن يفعل الابن لتاجر الجوارب شيئاً كانت دونه في السابق مصاعب يتعذر تذليلها - الصفح عنه.

صاغ كيركغارد فكرة البديل، الكاهن، في ذات الوقت تقريباً الذي تسبب عمله المرض حتى الموت في أن يشغل نفسه مرة أخرى بمسألة الصفح عن الخطايا. أنا حقاً يجب أن أقترب باستمرار أكثر فأكثر من عقيدة الصفح عن الخطايا، كما كتب في واحدة من القصاصات الورقية الكثيرة من عام 1848 التي تتعامل مع هذا الموضوع، وهو موضوع كان يهم كيركغارد بأكثر الطرق التي يمكن تخيلها حميمية. كما وجد طريقه إلى الورق مونولوج تأملي بصفة خاصة لكنه رصين تماماً تحت عنوان شيء عن مغفرة الخطايا: الصعوبة هي إلى أي آنية يعود الشخص المؤمن بها [بمغفرة الخطايا]؟ أو ما هي الآنية التي تأتي نتيجة هذا الإيمان، وكيف ترتبط تلك الآنية بما يُسمى، لولا ذلك، آنية؟ فالإيمان بمغفرة الخطايا إنما هو تناقض، إنه اللامعقول، إلخ، إلخ - وأنا لا أتحدث عن ذلك بل عن شيء آخر. وعليه أفترض إن أحداً ما كانت لديه شجاعة الإيمان الهائلة للاعتقاد حقاً بأن الله غفر له خطاياه بالمعنى الحرفي للكلمة - شجاعة ربما لا نجدها في عشرة أشخاص خلال جيل كامل - هذه الشجاعة المجنونة: أن تكون اكتسبتَ فكرة ناضجة عن الله وبعد ذلك أن تؤمن بأن الله قادر على أن ينسى بالمعنى الحرفي تماماً. لكني أفترض ذلك. فماذا بعد؟ وهكذا نُسي

الآن كل شيء، كما لو إنه شخص جديد. ولكن أليست هناك أي آثار تُركت على الإطلاق؟ بكلمات أخرى، هل من الجائز إن الشخص سيكون حينذاك قادراً على العيش مع روح الشباب الخالية من الهموم؟ محال!... كيف يمكن أن يصبح شخص يؤمن بمغفرة الخطايا شاباً بما فيه الكفاية للوقوع في الحب بالمعنى الإيروتيكي؟

هذه التأملات في العلاقة بين الآنية الأولى والآنية الثانية قادت كيركغارد مباشرة إلى مركزه الوجودي: ها هنا صعوبة حياتي. تربيتُ مسيحياً على يد شيخ عجوز في منتهى الصرامة. ولهذا السبب حياتي ملتبَسة بصورة مخيفة، ولهذا السبب دُفِعتُ إلى صدامات لا يتخيلها أحد، وأقل من ذلك بكثير أن يتحدث عنها أحد. الآن، لأول مرة، الآن في عامي الخامس والثلاثين، ربما بمعونة مكابدات شديدة الوطأة، وفي توبة مريرة، تعلمتُ أن أموت مبتعداً عن العالم بما فيه الكفاية بحيث من الجائز أن تكون هناك على الوجه الصحيح مسألة أن أجد حياتي كلها وخلاصي بالإيمان بالصفح عن الخطايا. ولكن الحق رغم إني روحياً قوي كما لم أكن في أي وقت مضى، فإني الآن أكبر سناً من أن أقع في حب امرأة وشيء من هذا القبيل.

من الوهلة الأولى قد يجد القارئ ما يغريه بالظن إن كيركغارد كانت لديه هذه التحفظات عن الوقوع في حب امرأة لأنه كان طبيباً نفسياً جيداً يعرف نفسه ويعرف تحديداته، أو إن هذه التحفظات نابعة من عيب في لاهوته يمنعه من الإقبال على المغفرة بصورة كاملة. وكانت الآنية الثانية التي هي في الوقت نفسه شرط وبركة، آنية أخرى عند كيركغارد، ولذلك لا بد إن الشخص الذي يتخذ موقعاً داخل تلك الآنية أصبح شخصاً آخر أيضاً: إن الشخص الذي عاش حقاً وما زال يعيش خبرة الإيمان بمغفرة خطاياه أصبح بالفعل شخصاً آخر. كل شيء نُسي. ومع ذلك فإن وضعه ليس وضع طفل، بعد أن غُفر له يصبح مرة أخرى الطفل نفسه من حيث الجوهر. كلا، إنه أصبح أكبر دهراً. وهو الآن أصبح روحاً: الآنية كلها وأنانيتها، تشبثها الأناني بالعالم وبنفسها، فُقدت، وهو الآن شيخ، في منتهى الشيخوخة، إنسانياً، لكنه أزلياً شاب.

هذه الأزلية المجدِّدة للشباب هي التي غَشَتْ كيركغارد بصورة متزايدة وحاول وصفها في فقرة تلو الأخرى في يومياته، مدركاً تمام الإدراك إنها لا

يمكن أن توصف لأن خبرة حب الله خبرة عصية على الوصف تماماً. ولهذه الفقرات من اليوميات، منظوراً إليها من الخارج، ميزة كونها في، آن واحد، خاصة بصورة جذرية ومنفتحة بالكامل، ولكن الكلبي وحده يشك في صدقها العاطفي: إنه لرائع كيف يغمرني حب الله. وا أسفاه، في النهاية لا أعرف صلاةً أصدق مما أُصلِّيه المرة تلو الأخرى بأن يسمح لي الله في كل الأحوال - ألا يغضب عليّ - أن يسمح لي أن أشكره باستمرار، أشكره لأنه فعل، بل ما زال يفعل، أكثر بكثير إلى حد لا يمكن وصفه، مما كنت أتوقعه ذات يوم. وأنا المطوق بالسخرية، المبتلى يوماً بعد آخر بتفاهة الناس، حتى الأقرب اليَّ، لا أعرف شيئاً آخر أفعله في بيتي أو في أعمق أعماق كياني سوى أن أحمد الله وأشكره لأني أفهم إن ما فعله لي لا يُوصف... إنه يجيز لي أن أبكي أمامه عارفاً إنه حريص عليّ - وفي الوقت نفسه يضفي على حياة الألم هذه أهمية تكاد تفيض عليَّ، يمنحني النجاح والقوة والحكمة في كل إنجازاتي... الإيمان هو آنية بعد تأمل. وأنا بوصفي شاعراً ومفكراً قدمتُ كل شيء في وسط المخيلة فيما أعيش أنا نفسي في الاستسلام. الآن تصبح الحياة أقرب إليّ، أو إني أقترب من نفسي، مقبلٌ على نفسي.

أنا أُعَد إنكليزياً من نوع ما، غريب الأطوار نصف مجنون

كلما اقتربت الحياة من كيركغارد زاد بُعدُه عن نوع آخر من الحياة - الحياة الاجتماعية، الآخرون. وكانت تداعيات النزاع مع مجلة كورسارن بعيدة عن كونها منتهية، بل على العكس بدا إنها تتحدى قوانين الطبيعة متنامية بمرور الوقت إلى موجة عارمة كانت تهدد بجَرْفِه: هكذا في الحقيقة هي الطريقة التي أُعامل بها في كوبنهاغن. فأنا أُعد إنكليزياً من نوع ما، غريب الأطوار نصف مجنون يتخيل كل ملعون منا، من الأكثر أرستوقراطية إلى الحثالات، إنه يستطيع أن يضحك قليلاً عليه. عملي كاتباً، ذلك الإنتاج الهائل، الذي يبدو لي إن حدته قادرة على تحريك الحجر، الذي أَقسامُه المنفردة (ناهيكم عن كليِّته) لا يستطيع كاتب حي أن يتنافس معها - هذه الكتابة تعتبر نوعاً من الهواية، مثل الصيد وشيء من هذا القبيل... لا تسندني كلمة واحدة في المراجعات التي تتناول أعمالي وما شابه ذلك. ينهبني أنبياء ضئيلون في محاضرات حمقاء خلال لقاءات دينية وما إلى ذلك. ولكن هل يذكرونني بالاسم؟ كلا، فهذا ليس ضرورياً.

هذا السخط، الذي مع ذلك لا يخلو من بعض المرح، كانت مناسبته مواقف يشير إليها كيركغارد مراراً في الفقرات المتأخرة من يومياته. وعدد هذه الفقرات والطاقة التي كان كيركغارد يتعاطى بها مع الموضوعات ذاتها المرة تلو الأخرى، هي بحد ذاتها فقرات وطاقة غامرة بحيث من الصعب أن تحرر نفسها من الشك بأن الانشغال بمواقف مؤلمة، الذي بدأ كنشاط علاجي، انتهى إلى إيحاء ذاتي خالص. وسيكون من المفيد جداً إذا أمكننا أن نسمع كيركغارد يقرأ هذه الفقرة من يومياته بصوته هو الذي من شأن توكيده وإيقاعه أن يمدا السطور بمعلومات تفسيرية ثمينة. ومن دون هذا الصوت فإن ردود الأفعال هذه غير المزوقة كثيراً ما تبدو غير متناسبة بالمرة. وهكذا فإن إغاظة غبية صغيرة في عدد 6 آذار/ مارس 1846 من مجلة ذي كورسارن بما معناه إن كيركغارد لا يتكرم برفع قبعته لأحد - تلميح إلى حركة ديالكتيكية ساحرة في مقدمة كتابه حاشية ختامية - جعلت كيركغارد يستشيط غضباً: ولكن هذه قطعة هائلة ومقرفة من الفظاظة. تعليق صغير من شخص ذي اسم مستعار (تعليق كليماكس على رفع قبعته)، تعليق هازل من فكاهي (وممتاز بحد ذاته) في مقدمة كتاب ضخم لا يعرف بوجوده إلا قلة من الأشخاص، هذا التعليق يُنتزَع من سياقه ويُنشر في مجلة للرعاع (يقرؤها جميع السكان لأن الجميع رعاع في الدنمارك، الأمر الذي تثبته بالطبع الحقيقة الماثلة في أنّ الجميع يقرأ مجلة الرعاع)، ليبدو وكأنه أنا (أس. كيركغارد) مَنْ تلفظ بهذه الكلمات وإني قلتها لأهل كوبنهاغن الفعليين. وهذا يُكتَب لكل صاحب خمارة وساقي في حانة وبنّاء، إلخ، إلخ، لتلاميذ المدارس، إلخ، إلخ. وللتأكد من إن الجميع سيتمكنون من التعرف عليَّ هناك رسم متوفر. والآن الجميع مهيَّجون ضدي - لأني من باب الكبرياء رفضتُ أن أرفع قبعتي لهم. Pro dii immortals. من المؤكد أن بلداً يمكن أن يحدث فيه ذلك ليس بلداً، إنه بلدة ريفية، بلدة ريفية بلا معنويات. وحتى اليوم (بعد عامين) يشير رجل إلى حقيقة إني قلتُ هذا في مقدمة كتاب (لم يقرؤه قط بطبيعة الحال).

Pro dii immortals بحق الآلهة الخالدة! من المدهش إن كيركغارد حتى يتفضل بإثارة ضجة حول ما قاله رجل لا على التعيين عن قبعة لا على التعيين. ولكن، أولاً إن كيركغارد لم يتخلص قط من هذه الواقعة مع مجلة كورسارن بالكامل، وثانياً إنه كان عاجزاً بشكل مطلق عن تجاهلها بل في يومياته كان أكثر

من سعيد باقتباس تعليق بول مارتن مولر - بأنه كان سجالياً حتى النخاع بحيث كان الأمر مخيفاً تماماً - كنوع من الشرعنة لطلقاته السجالية على كل شيء يتحرك بهذا القدر أو ذاك.

المثير للاستغراب بعض الشيء إن علاقة كيركغارد بـــــ ابتذال الغوغاء تعكس علاقته بمن سماهم الشُلَل ويعني بهم الزمر الفكرية والتجمعات الثقافية في كوبنهاغن التي أغلقت صفوفها بوجهه بهذا القدر أو ذاك. وقال بحسرة في عام 1848 يا ليتهم أعطوني ما أستحقه ككاتب وحينذاك كانت ستُتاح لي فرصة الحديث عن نفسي بطريقة مغايرة. وكان الناس سيرون بسهولة كم أنا بعيد عن الاستعلاء. وكان هايبرغ من أُولئك الذين فاتتهم في وقت مبكر فرصة الاستجابة لحاجة كيركغارد إلى الاعتراف به بعد أن أختار بدلاً من ذلك استبعاده أو على الأقل نصف استبعاده. ولم يتمكن كيركغارد من أن ينسى هذه المعاملة المهينة، وفي لحظات الضعف - التي لم تكن قليلة معه - كان يستغرق في خيالات جامحة ومترعة بالنجاح الأدبي: يضاف إلى ذلك، بعد معاناة أشد آلام المالنخوليا السوداء من خلال الاضطرار إلى أن أكون المضحى به، ومعاناة كل إساءة ممكنة في العالم، ليس مستحيلاً أن يكون من الجائز فجأة إن إرادة الله شاءت أن أصبح في الحقيقة ناجحاً في العالم.

لم تكن هذه قط إرادة الله من أجل كيركغارد، وبمرور الوقت وتعزيز الزمر لنفسها أكثر فأكثر رأى باستنكار إنه ليس موضع تجاهل فحسب بل كان أيضاً ضحية دسيسة خبيثة، ولهذا السبب قرر - بمساعدة الحاكمية الإلهية - أن يقوم بسلسلة من المناورات التكتيكية ستحطم صورته بنظر أعضاء الزمر المختلفة. وكتب عن ذلك باستفاضة: كان تكتيكي دائماً أن أزرع بذور الشقاق في الشُلل. والآن عندما أنظر إلى الوراء أرى مرة أخرى كيف ساعدتني الحاكمية الإلهية. فالشُلة الكبرى هي مينستر وهايبرغ ومارتنسن، ورهطهم، لأن مينستر كان واحداً منهم، حتى وإن لم يتلطف بالاعتراف بذلك صراحةً. وهكذا حاولت هذه الشلة أن تدمرني بمقاومة سلبية. ثم هناك الظرف المؤاتي في أنّي كنتُ أُوقِّر مينستر بشكل مطلق. وكان هذا إزعاجاً لهم، وفي الحقيقة إن الشلة لم تتمكن من تشغيل طاحونة الشائعات. ثم مر الزمن وأصبح هايبرغ أقل فأقل نشاطاً. والأكثر منذ ذلك إن مينستر رأى إنه كان مخطئاً، ولم يكن في نيتي على الإطلاق أن أصبح خبيراً جمالياً. ربما كانت لديه حتى نتفة من إحساس بأنه

أجحف بحقي... ثم أخذتُ والدته واحتفيتُ بها. وكان هذا مزعجاً لأن الشلة ركن من أركان المجتمع. والآن زوجته - ومن باب التحوط فشيء من السحر ضد مارتنسن لكيلا تكون الشلة بالغة السعادة بهذا كله.

وتستمر الفقرة المكتوبة في اليوميات، لكن المطلوب بعض الإيضاحات عند هذه النقطة. فعندما كتب كيركغارد إنه احتفى بأُم هايبرغ كان يعني ملاحظاته الإطرائية عن مسز غيليمبورغ في عمله مراجعة أدبية. وبحديث كيركغارد عن زوجة هايبرغ كان يقصد بطبيعة الحال يوهانة لويزا (ما كانت لترضى بهذا التوصيف) التي رفعها إلى السماء بمديحه لها في مقاله الأزمة وأزمة في حياة ممثلة، الذي لاقى استحساناً من آل هايبرغ. وأخيراً إن الكلمات فشيء من السحر ضد مارتنسن تشير إلى مقطع صغير تشهيري تماماً في ذلك المقال نفسه - أي الأزمة - الذي مارس فيه كيركغارد لعباً خشناً (على الكلمات) بشأن قس كبير في إحدى المحاكم كان أيضاً قس المدينة أو ربما بتعبير أدق قس المحاكم الكبير المهيب، وهذا كله، بحسب كيركغارد، كان تلميحاً صغيراً إلى مارتنسن.

في إطار محاولات كيركغارد أن يزعزع استقرار شلة كوبنهاغن بأكملها، أقام علاقة تكتيكية مع غروندتفيغ الذي لم يكن يطيقه لا مينستر ولا هايبرغ أو مارتنسن: نجحتُ في إقامة نوع من العلاقة المفعمة بالحيوية معه [مع غروندتفيغ]، الأمر الذي يثير حنق الجماعة بشدة. وكان كيركغارد يعتقد أنّه يستطيع الاستمرار في هذا السرد لمناوراته الصغيرة المغيظة بشيء من الاستفاضة، لكنه كبح نفسه: لكنها ستكون مهمة لا تنتهي أن أُعدد كل هذه التعقيدات. صحيح إني ولدتُ للمكائد، ومن المؤكد أن هناك قوة تنضم إلى هذه اللعبة وهذا ساعدني بطريقة غريبة. وكان النصر التكتيكي سيكتمل لو أمكن إجبار القبطانين وراء دفة كورسارن على القفز في الماء يداً بيد، ولكن هنا كان على كيركغارد أن يتوخى الحذر في الاحتفال بانتصاراته. وكان كيركغارد زعم حقاً إنه فيما يتعلق بشُلة بي. أيل. مولر وغولدشمدت فهنا أيضاً كانت حساباتي أن أضعهما في خانة واحدة. ولكنه أضاف في الهامش سطراً يعدِّل الحسابات تعديلاً كبيراً بحيث لا يشك المرء بالشكل الذي آلت إليه الأمور في الواقع: بعد كل شيء، ليس من المستحيل إن هذا كان ناجحاً إلى حد ما.

الأرجح إن كيركغارد - الذي أُسقط اسمه من سجل الحرس في عام

1830 – كان يستطيع أن يصبح استراتيجياً عسكرياً متميزاً ولكن فيما يتعلق بـالشُلل كان تخطيطه مضيعة وقت وعناء لأن أحداً لم يلحظ حملته التي خطَّطها بمكر. ولا أحد من أعضاء الزمرة يذكره خلال النصف الثاني من أربعينات القرن التاسع عشر. ونبحث عبثاً عن اسم كيركغارد في مراسلات غروندتفيغ كما في مراسلات مينستر. ولا مينستر أعطى ما ينم عن علمه بأن كيركغارد حي يرزق، ولم يفعل ذلك إلا في وقت لاحق. ولا الثنائي هايبرغ وزوجته أشارا إلى أنهما يعرفان بوجود كيركغارد رغم الحقيقة الماثلة في أنّ يوهان لودفيغ كان يحفظ عدداً من أعمال كيركغارد بينها «إما/ أو» ومقدمات على رف كتبه. وإذا كان كيركغارد يراهن على توسع يوهان لودفيغ في أنشودته التي يمدح بها مسز غيليمبورغ، سيكون عليه أن يعيد النظر برهانه لأن أوراق يوهان لودفيغ الشخصية ليس فيها ولا حتى فاصلة عن عمل كيركغارد مراجعة أدبية. وهناك بعض ما يُكسب من يوهانة لوزيا التي عاشت من جديد لاحقاً خبرة الفترة بأكملها في الذكرى (باستعارة تعبير من عنوان مذكراتها) ولكن حتى هنا ما زلنا في عالم الصغائر – بضعة سطور عن تحليل كيركغارد لإحيائها دور جوليت. وفي المواضع التي قد نتوقع ظهور كيركغارد في سردها فإنه يكون غائباً بشكل ملحوظ. وعلى سبيل المثال في الفصل الكبير بعض الشي عن مجلة كورسارن روتْ يوهانة لويزا بغضب إن الفضيحة على حساب الجار هي العادة الشائعة اليوم. وتابعتْ إن هذه الصرعة الجديدة في الهجوم على أفراد في شخصهم أثارت ضجة كبيرة وحققت للمجلة توزيعاً هائلاً. وكل من لم يكن هدفاً لتهجماتها وجد في ذلك تسلية كبيرة إلى أن يُهاجم هو نفسه فكان يجده معيباً وشائناً. وعندما نتذكر إن كيركغارد كثيراً ما فسر قفزته في غمار كورسارن على أنها احتجاج تعبيراً عن التضامن مع البرنامج الهايبرغي فإن الطريقة التي قوبلت بها جهوده (كان يعتقد أنّها جهود بطولية) بالتجاهل تكاد تكون مؤلمة.

لا يسعنا أن نتجنب الاستنتاج المثبِّط بأن محاولة كيركغارد زرع بذور الانقسام في صفوف الشُلل، ارتدّت أساساً إلى نحره وإن الذين تعرضوا للهجوم لم يشعروا قط بتأثرهم بالهجوم. ونتيجة لهذا الوضع التاريخي نضطر للتكهن قليلاً عما إذا كان تصوير كيركغارد لمكابداته اللامتناهية على يد مجلة كورسارن نوعاً مماثلاً من البناء الذهني، شيئاً كان بكل تأكيد مفعماً بالأهمية عند كيركغارد لكنه لم يمتِ إلى الواقع إلا بأدنى صلة ممكنة.

1849

إهداءات ورفض

علاقة كيركغارد بالمشهد الأدبي لم تكن في الحقيقة جلية كما كان يروق له أن يصورها في أشد لحظاته سواداً. وهكذا على سبيل المثال، عندما أعاد نشر «إما/ أو» في أيار/ مايو 1849 (اليوم نفسه الذي صدر فيه زنبقة الحقل وطائر الهواء) حرص على أن تتلقى مجموعة مختارة من كتّاب هذا البلد النجباء نسخاً منفردة من الكتاب الأول: شعرتُ إن ذلك من واجبي. والآن باستطاعتي أن أؤديه، لأن الآن لم يعد من الممكن تشكيل شلة لدعم الكتاب - لأن الكتاب قديم بالطبع، وفترته الحرجة مرت. ومع ذلك فإن صاحب الاسم المستعار فكتور إريميتا هو الذي أرسل الكتاب إلى الشعراء. وكسب آدم أوهلينشلاغر وكريستيان فينتر إهداء الكتاب إليهما لأن كيركغارد كان معجباً بهما في حين إن هنريك هيرتز كان عليه أن يكتفي باستلام العمل لأنه على قدر كبير من الدماثة. ولا يُعرف إن كان هؤلاء الأدباء الثلاثة شكروا كيركغارد ولكن الشاعر ينز بالودن مولر الذي أيضاً تذكره كيركغارد، شَكرَه في اليوم التالي على هديته الثمينة واعداً بقراءة الكتاب قراءة متأنية إلى الحد الذي تسمح به قدراتي ومعرفتي، وهذه ليست دائماً هي الحال عندما أقرأ أعمالاً فلسفية. والحق أنه حتى كارستن هاوخ تلقى نسخة وأكد لكيركغارد إنه وجد بالفعل العديد من التلميحات والإشارات في كتاباتك التي يسَّرت تطوري الروحي، وفي الحقيقة إنه لو وُضع في محجر انفرادي ولم يُسمح إلا باختيار كتاب واحد يكون رفيقي في عزلتي فإنه قد يختار «إما/ أو» لأني فيه سأجد مادة دسمة للتفكير فيها حتى إن الوقت لن يمر دون تحقيق تقدم روحي. (في ذات اليوم، 14 أيار/ مايو 1849، نشر هاوخ نفسه مسرحية «الشقيقات الواقفات على جبل التنوب» التي مُثلت

فيما بعد عدداً من المرات في المسرح الملكي لكن كيركغارد وجدها فاشلة من كل النواحي لأن هاوخ خلط بين مقولاته). ورغم إن الطريقة التي وضع كيركغارد بها هانز كريستيان أندرسن في مكانه قبل سنوات لم تترك لديه ما يشكر كيركغارد عليه فإنه رد بسرور صادق وعفوي على نحو لافت مع ذلك قائلاً: عزيزي مستر كيركغارد! منحْتنَي متعة كبيرة حقاً بإرسال كتابك «إما/ أو» إليّ! كانت دهشتي كبيرة، كما يمكن أن تفهم. فأنا لم أكن قط أعتقد بأنك تكنّ أفكاراً طيبة عني - لكني أرى الآن إنك تكنّها لي! بارك الله بك على ذلك! شكراً، شكراً! بإخلاص من القلب، أتش. سي. أندرسن.

إعادة نشر «إما/ أو» أخضَعت كيركغارد إلى الأفكار الملتوية الواجبة التي لم تكن ترتبط ارتباطاً فيه مفارقة بعنوان الكتاب فحسب بل كانت على نقيض مثير للاهتمام مع الحزم الذي أبداه كيركغارد في مفاوضاته مع فيليبسن ورايتزل. وكان واضحاً له منذ زمن طويل إن إعادة نشر العمل سيتعين أن تقترن بقطعة دينية كما كانت الحال في عام 1843 عندما رافقت الطبعة الأولى لكتاب «إما/ أو» قطعة عنوانها خطابان تثقيفيان في 16 أيار/ مايو. ولكن الآن تغيّر الوضع وتغيّر معه كيركغارد: منذ ذلك الحين اكتسبتُ شخصية الكاتب الديني. فكيف أستطيع الآن أن أجرؤ على السماح بنشره دون شرح دقيق؟ لذلك فكّر في أن يرافقه العمل الموسوم حلقة من المقالات الأخلاقية - الدينية رغم إنه في 19 شباط/ فبراير 1849 أصبح أكثر ميلاً إلى أن يترك هذا الدور إلى ثلاث ملاحظات (كانت ترتبط بكتابه وجهة نظر) - هذا يروقني كثيراً - ثم في نيسان/ أبريل غيّر رأيه مرة أخرى وأناط مهمة مرافقة الطبعة الجديدة من كتاب «إما/ أو» بخطاباته الإلهية الثلاثة، زنبقة الحقل وطائر الهواء، التي كان يعمل عليها منذ آذار/ مارس.

في منتصف أيار/ مايو، وفي آن واحد بهذا القدر أو ذاك مع تلقي كيركغارد رسائل مختلفة تشكره على «إمـا/ أو»، سلّم أحد السعاة رسالة من الكاتبة السويدية فريدريكا بريمر Fredrika Bremer التي كانت في كوبنهاغن منذ خريف 1848 تجمع مادة لكتاب عن الحياة في إسكندنافيا. وعدا هانز كريستيان أندرسن الذي التقته صدفة قبل اثني عشر عاماً في الطريق إلى ستوكهولم، لم تكن الكاتبة البالغة من العمر 48 سنة تعرف أحداً على الإطلاق حين وصلت إلى كوبنهاغن. ولكنها نجحت بوقت قياسي في الاتصال بهانز كريستيان أورستيد

وكارستن هاوخ وغروندتفيغ ومصمم الرقصات المسرحية أوغست بورنونفيل والموسيقار جي. بي. إي. هارتمان والشاعر بي. أس. أنغمان الذي زارته في سورو، وكارولين أمالي (الملكة التي قدَّمت قراءة في «إما/ أو») وأخيراً وليس آخراً قس القضاء مارتنسن الذي استقبلها بحفاوة. وخلال إقامتها كانت كثيرة التردد على منزل مارتنسن حيث كانت أول امرأة تقرأ الصفحات المعدة للتصحيح من كتابه الدوغماتية، الذي أُنجز لتوه. وتذكَّر مارتنسن لاحقاً بابتهاج الساعات المسائية الكثيرة عندما كانت تأتي إلى غرفتي وتتحدث عما أثَّر فيها وثقَّفها من العمل - كانت تعتقد أنّي، بالمعنى الروحي، شيدتُ كاتدرائية. ولكن بريمر كانت لديها شكوك وهواجس أيضاً، ولا سيّما بشأن وعي الخطيئة الذي لم تتمكن من هضمه بيد إن مارتنسن كان صبوراً: لذلك تعين أن تكون لنا أحاديث عديدة عن الخطيئة والنعمة.

قبل أن تواصل الكاتبة الشعبية رحلتها إلى إنكلترا التي سافرت منها إلى أميركا، حاولتْ ترتيب لقاء مع كيركغارد. وإذ أشارت إلى وضعها بوصفها معتكفة مثلك فإنها قدَّمت الطلب إلى فكتور إريميتا من جهة لكي أشكرك على المَن السماوي لكتاباتك، وأتحدث معك عن كتاب مراحل الحياة من الجهة الأخرى - وكذلك لكي تطلب مقابلة مع الماجستير يوم الخميس المقبل، الذي يصادف عيد الصعود، بعد الصلاة في الكنيسة مباشرة. ويبدو أنّ كيركغارد تردد في الرد على الطلب لأنها بعد يومين كررت دعوتها موجهة إياها الآن إلى خريج اللاهوت مستر سورين كيركغارد، في غاملتورف، الذي لم يكن العنوان الصحيح لأن خريج اللاهوت المومى إليه كان يسكن في روزينبورغاده منذ نيسان/ أبريل 1848. وعندما استجمع كيركغارد قواه في النهاية وكتب رداً كان واضحاً إنه لن يتعامل مع هذه المعتكفة التي كانت تخالط كل من هبَّ ودب. وكتب كيركغارد في مستهل مسودة رد تكشف عن غمِّه فيها تشطيبات لا تحصى: آمل ألا يُساء فهمي ولكن حتى في هذه الحالة ما زلتْ لا أستطيع قبول دعوتكِ. ولكن كيركغارد، في محاولة غير مجدية لإيجاد إيقاع ديالكتيكي يضفي سحراً على رفضه، نجح في أن يكتب إن الكاتبة السويدية الشهيرة في سائر أوروبا قطعاً ليست هي التي أبدت هذا التهور بمفاتحته. كلا، فأنا أعرف الكثير عن التهور - وأتوجه إلى تقديركم بكل تهور. وأجرؤ بتهور أقصى - أنا الذي يقول لا للدعوة.

وسيتضح في وقت قريب إن هذا - الجزء المتعلق بكونه متهوراً في رفضه دعوة فريدريكا بريمر - صحيح بالكامل.

دوغماتية مارتنسن

فيما كان كيركغارد يجلس في حرارة تموز/ يوليو يكدح على تصحيح الصفحات المطبوعة لكتابه المرض حتى الموت، كان كتاب مارتنسن الدوغماتية المسيحية قيد النشر. وكان صدور كتاب مارتنسن يُنتظَر بتوقعات كبيرة على غير العادة، لم يخيبها العمل. ونُشرت مراجعة للكتاب في صحيفة فليفن - بوستن حيث وُصف بأنه على الأرجح أهم عمل صدر في أدبنا اللاهوتي. وأعرب كاتب المراجعة عن اعتقاده بأن العمل سيكون بركة سواء في الدوائر اللاهوتية أو الدوائر الأخرى حيث سُمح للتكهن السلبي الحديث، محمولاً على روح العصر بصورة واعية أو غير واعية، بالدخول وقوَّض أُسس العقيدة. وكان مينستر سعيداً كذلك. إذ شعر بـ تعاطف كبير مع العمل وجعله موضع الكثير من الاهتمام مستخدماً إياه في دراساته العقائدية.

وصل كتاب الدوغماتية المسيحية إلى أبعد من دائرة المختصين الضيقة في هذا الحقل، ورغم إن الطبعة الأولى كانت أكبر مما هو معتاد لعمل كهذا فإن طبعة ثانية أصبحت ضرورية حتى قبل أن تنتهي السنة، الأمر الذي كان، بالطبع، سبباً لانزعاج كيركغارد الذي كانت مبيعات كتابه المرض حتى الموت ضعيفة ولم تُنشر حتى مراجعة له. وعاش مارتنسن ليرى أربع طبعات من النسخة الدنماركية، وعندما طاف كتاب الدوغماتية ظافراً في أنحاء أوروبا، شهد أيضاً صدور طبعات بالسويدية والإنكليزية والفرنسية والألمانية، بل في ألمانيا صدر الكتاب فيما لا يقل عن سبع طبعات. وذكر مارتنسن في شيخوخته إن العمل كان أيضاً موضع دراسة في الكنيسة الكاثوليكية الرومية والكنيسة الكاثوليكية اليونانية. واعترف قائلاً إن الكتاب كان موضع دراسة لتفنيده على الأرجح ولكنه أضاف إنهم بعملهم هذا كشفوا عن احترامهم له.

كان مارتنسن ناجحاً وأصاب النجاح منذ تعيينه في الجامعة قبل عشر سنوات. وكان المتفَق عليه في ذلك الوقت إن حقبة جديدة بالكامل ستبدأ مع مارتنسن في حين إن مينستر سيُحيَّد في وقت قريب وينحيه النظام الهيغلي جانباً. ولتفادي ذلك رتَّب مينستر بصفته عضواً في مجلس إدارة الجامعة، أن

يُعيَّن مارتنسن أُستاذاً استثنائياً للاهوت. ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى أقدم مينستر على ترشيح مارتنسن لعضوية الجمعية العلمية، وهو شرف كبير. وعندما سرت شائعات بما مؤداه إن الزميل الكدود والجاد شعر بالحاجة إلى إلقاء مواعظ تكفَّل مينستر بأن يُعين مارتنسن قساً قضائياً عام 1845. وبهذه الصفة كان مارتنسن ملزماً بإلقاء موعظة مرة كل ستة أيام أحد، ولكن عندما يلقي موعظة كانت كنيسة القلعة تغص بعليَّة القوم من أعيان كوبنهاغن فيما كان كيركغارد يذهب إلى كنيسة أخرى. كما نجح مينستر في أن يُمنح مارتنسن، وهو في سن التاسعة والثلاثين فقط، لقب فارس دانيبروغ. وكل هذه المعاملة التفضيلية من جانب مينستر كان لا بد أن تُؤتى أُكُلها، وبالفعل فإن مينستر في كتاب مارتنسن الدوغماتية المسيحية يُمنح المكانة الرفيعة للمرجع الأكثر اقتباساً. ونتيجة لذلك كان كتاب الدوغماتية مادة منتظمة للقراءة المسائية في مقر إقامة الأسقف لفترة طويلة تماماً، وكان مارتنسن يُدعا إلى هناك في أحيان كثيرة.

كان كيركغارد يتابع هذا كله من مسافة، وهو لم يكره حظ مارتنسن السعيد فحسب بل كره بصفة خاصة كون هذا الحظ جاء بمشيئة مينستر الذي أخذ مارتنسن تحت حمايته وجعله تلميذه المفضل علناً. وكشفت ردود فعل كيركغارد عن كل ما يشير إلى الاشمئزاز: أوه، ولكن لا بد إنه من الفظاعة أن يكون المرء مغفلاً مثل مارتنسن: أن يعظ مبشراً بالمسيحية... للأرستوقراطيين. يا لها من مسخرة! مارتنسن واعظ فيكون بالطبع تلميذ المعلم. سيدنا المسيح عيسى الذي بصق عليه العالم... ولكن مارتنسن لا بد أن يكون صاحب تفكير دنيوي بفظاعة (بحيث إن لقباً صغيراً وبعض التمييز يمكن أن يكونا بمثل هذه الأهمية عنده) أو غبياً جداً. وأنا أُراهن على هذا الأخير. شعر كيركغارد إنه مهمش ومرفوض ومهان وبالتالي كان تقييمه لمبحث مارتنسن عن العقيدة متوقعاً إلى حد ما. وهاكم أحد ردود أفعال كيركغارد الأولى: في وقت ينهار الوجود كله، وفي وقت يستطيع أي أحد أن يرى إن كل هذا الكلام عن ملايين من المسيحيين إنما هو وهم، والأرجح إن المسيحية اختفت من وجه الأرض - يجلس مارتنسن هناك ويبني منظومة من العقائد. والمنظومة نفسها ليست بالشيء الذي يستحق التباهي به: إنه حقاً أمر مثير للسخرية! الآن عندنا هذ الحديث عن منظومة وبحث علمي، وبحث علمي، إلخ - وأخيراً

تأتي المنظومة. يا الله العظيم، يا أبتاه! قطعتي الأكثر شعبية أشد صرامة في تعريفاتها المفهومية واسمي المستعار جون كليماكس أشد صرامة سبع مرات في تعريفاته المفهومية.

ازدراء كيركغارد لأستاذه القديم الذي حاول أن يُدخل مبادئ العقيدة في رأسه قبل عشر سنوات كان ازدراء بلا حدود تقريباً: إن المفكر الحقيقي دائماً يطرح قضية في شكلها الأقصى. وهنا على وجه الدقة تكمن البراعة، ولا يستطيع أن يجاريه في ذلك إلا قلة. ثم يأتي البروفيسور ويحبس «المفارقة». ويستطيع أن يفهمه كثيرون جداً، بل الجموع كلها تقريباً، وهكذا يظن الناس إن الحقيقة أصبحت الآن أكثر صدقاً!... كل مفكر جاد لا يسعه إلا النظر إلى البروفيسور هازلاً. البروفيسور هو ليبوريلو في العلاقة بدون جيفاني. في لحظة يظهر كتاب الدوغماتية مفرطاً في علومه وفي اللحظة التالية تستعرض المعرفة العلمية نفسها غيابها: ليس لدى مارتنسن مقولة واحدة يملكها. وليست هناك معرفة في كتابه الدوغماتية أكثر مما في مواعظ مينستر بل إن المعرفة العلمية الوحيدة التي اكتشفتُها هي إنه موزع على § § [علامة الفصول في كتاب]. وردَّ مارتنسن في مذكراته على شك كيركغارد بقدراته العلمية بالتعليقات التالية عن كيركغارد: أفترض أيضاً إنه غير لائق للكفاح المعرفي في اللاهوت لأنه لم يكن يليق إلا للكفاح في ظروف فكاهية شبه شعرية أستطاع أن يستخدم فيها الخطاب العابث والهجمات على مواطن الضعف. إذ لم تكن لديه موهبة الخطاب التوجيهي والعقائدي، الأمر الذي يفسر لماذا يساجل باستمرار ضد «مساعدي الأساتذة» الذين يمقتهم.

رغم إن كيركغارد كانت لديه حساسية ناضجة تجاه أدنى عيب في محاجَّة مارتنسن فإن ما جعل الحبر يغلي في قلم كيركغارد لم يكن التفاصيل بقدر ما كان الاختلاف بين نمط حياة العقائدي من جهة وعقائده من الجهة الأخرى. وتفسير ذلك واضح تماماً: إن المسيحية في كل مكان تميل إلى الحقيقي، إلى أن تكون ما يجعلها ضمن الحقيقي، الذي هو الوسط الوحيد الذي ترتبط به حقاً... ومارتنسن... أيضاً يتحدث عن كيف يجب أن تكون المسيحية حياة، حياة حقيقية – والآن تبدأ التأكيدات: حياة حقيقية فعلية، حياة حقيقية، فعلية جداً فينا. ويجب على المرء ألا يرتبط بالمسيحية عن طريق الخيال. ولكن الآن ما الذي يعبر عنه ذلك – لوجود مارتنسن؟... ما يعبر عنه إنه – صدقاً – ربح

الخديعة الكبرى القائلة إننا جميعاً مسيحيون. فإن كل هذه الفوارق في كونه قس محاكم وفارساً ويُحتفى به على مآدب العشاء ترتبط من حيث الأساس بالوهم القائل إننا جميعاً مسيحيون بهذا الشكل أو ذاك. وتكشف الموافقة الضمنية على هذا الوهم إن مينستر حقاً دمر معنويات مارتنسن الذي اعتمد مقولة الأسقف، وهي مقولة مريحة بقدر ما كانت مربحة، أي السلام. وماذا يعني هذا السلام؟ إنه يعني إن المرء يضمن لنفسه موقعاً من أكثر المواقع احتراماً في المجتمع مع إمكانية الوصول إلى موقع حتى أكثر احتراماً. وهنا يود المرء أن يبقى ويتمتع حقاً بالحياة. ولذلك يجب أن ينعم المرء بالسلام. وهذا ما يجري تزيينه على أنه مسيحية. إجمالاً: يا له من هذر هذا الأمر كله.

يبدو أنّ علة كيركغارد بلغت ذروتها هناك ولكن قراءته القسم 234 من كتاب الدوغماتية المسيحية الذي يتناول نظام الخلاص أصابته حتى بقدر أكبر من الغثيان. فهنا كتب مارتنسن: يستطيع الفرد أن يطور كاريزميته في تبادل الحب مع العديد من الكاريزمات المختلفة التي كلها موجودة وتنتمي إلى مملكة واحدة. فهو لا يستطيع أن يحقق تقديسه بالعيش بطريقة أنانية سقيمة بوصفه فرداً. شعر كيركغارد وكأنه أُصيب في الصميم. وكتب: يبدو أنّ مارتنسن يوجه سخريته نحوي بحديثه عن الحياة الأنانية السقيمة كفرد، ولكنه رد قائلاً إن ما تفهمه المسيحية بالصحة شيء يختلف اختلافاً كاملاً عما يفهمه الشخص الدنيوي بالصحة. فالشخص الدنيوي يفهم بالصحة القول وداعاً للمجهود اللامتناهي على أن يكون فطيناً بشأن أهداف محدَّدة، أن يكون لديه عيش رغيد ومعدة مبطنة بالمخمل بأسرع وقت ممكن، وأن يعيش في أوساط أرستوقراطية. وبعد تسعة أعوام من زواج مارتنسن وهيلينا هنريته هيس التي توفيت في أيلول/ سبتمبر 1847، تزوج فرجينيا هنريته كونستانس بيدولاك في تشرين الثاني/ نوفمبر 1848. وكان كيركغارد حسن الاطلاع على ذلك وبالتالي استطاع أن يتابع على النحو التالي: وعندما يكون رجل، بالإضافة إلى هذا، متزوجاً مرتين فإن الشخص الدنيوي سيعتبره موفور الصحة بل إنه حتى سيرى ذلك دليلاً على عافية غير اعتيادية حتى إن الشخص نفسه، في كتاب مارتنسن الأخلاق، يكون قادراً على تعليمنا بأن الزيجات الثانية ليست جديرة بالثناء - الأمر الذي قاله مارتنسن بالفعل في الصفحة 84 من عمله معالم منظومة الفلسفة الأخلاقية من عام 1841. وعندما يكون الشخص قادراً على أن يلوي مبادئه الأخلاقية ذاتها

على هذا النحو بما يناسب ذوقه فإن كل واحد يستطيع أن يطلع بكلمات معسولة عن سُقُم الآخرين، كما زمجر كيركغارد مضيفاً هذه الخاتمة الديالكتيكية: أو لا ترون، بهذا المعنى، أنا شخص سقيم بكل تأكيد - وأناني. وأن يستسلم المرء لفكرة ما، أن يفقد بعض الصحة الحيوانية التي تهتم بنفسها اهتماماً أنانياً، وما إلى ذلك - فإن هذا على وجه التحديد ما تعتبره المسيحية دليل عافية.

مارتنسن الذي كان يتصور نفسه متعافياً ما كان قط ليفهم أي شيء كهذا. ونحن لا يسعنا إلا أن نشعر بالارتياح قليلاً لأن كيركغارد في قراءته المهووسة، العدوانية بشكل حدي، لم يتمكن على ما يبدو إلا من المرور سريعاً على مقدَّمة كتاب الدوغماتية لأن سخرية مارتنسن تصاعدت هنا إلى أعلى مستوياتها، ضاحكاً على أُولئك الذين لا يشعرون بالميل إلى الفكر المتماسك لكنهم قادرون على إرضاء أنفسهم بالتفكير في أفكار وأقوال مأثورة عشوائية، واكتشافات مفاجئة وتلميحات.

كانت هذه القطرة من السم موجهة إلى كيركغارد الذي كان هو أيضاً يعرف كيف يوجه ضربات موجعة. وفعل ذلك في هجوم استهدف أضراب مارتنسن في هذا العالم ممن يعيشون حياتهم بدرجات متفوقة - egregie [باللاتينية: امتياز] - في دفاترهم لكنهم للأسف نسوا ما هو المهم حقاً: لتكن درجة امتياز على شهادتك باللاهوت، ولتكن فوق ذلك الأقدر بين الذين نالوا هذه الدرجة، ولتقف على قمة تثاقف العصر، ثم اقرأ أحد تلك الأعمال اللاهوتية التي أنتجها شخص أخذ شفاء الروح على محمل الجد، ثم تعلَّم أن تشمئز من كل معرفتك بصفتها معرفة لاهوتية، تعلَّم أن تشمئز من هذا اللغو التعبدي يوم الأحد، هذا الهراء في الأطروحة.

يوم أحد في الأثينيوم

انزعاج كيركغارد من لغو مارتنسن وجد متعاطفاً معه من راسموس نيلسن، أُستاذ الفلسفة الذي استطاع يوم الجمعة، 20 تموز/ يوليو 1849، أن يُبلِغ صديقه العزيز مستر ماجستير إنه تسلم الآن المنظومة، التي يقصد بها نيلسن كتاب الدوغماتية الصادر في اليوم السابق. وينبغي الآن أن يُقرأ - ويُهدَّم. وكانت النتيجة متوفرة يوم 15 تشرين الأول/ أكتوبر 1849 في شكل مراجعة مستفيضة، بل كتاب صغير في الحقيقة، بعنوان يوهانس

كليماكس من صنع الماجستير سورين كيركغارد والدوغماتية المسيحية من تأليف الدكتور أتش. مارتنسن.

يعترف مارتنسن في مذكراته بأن نقد نيلسن فاجأه لأن نيلسن كان في السابق تربطه في الحقيقة علاقة ودية ومتعاطفة بل صداقة معي، ولذلك نظر مارتنسن إلى نيلسن على أنه زميل رائع يتمنى الكفاح بجانبي من أجل القضية المشتركة. وفي الحقيقة، قبل نشر كتاب الدوغماتية أتاح مارتنسن لنيلسن أن يرى عدداً من أقسامه، نالت تأييده الكامل. والآن أُعلن إن كتاب الدوغماتية كله عمل خاطئ بالكامل. ولم يكن لدى مارتنسن شك في سبب انقلاب نيلسن عليه، وهو، بداهةً، إن عقلِ نيلسن الذي يتأثر بسهولة طغى عليه سورين كيركغارد، بل إن نيلسن كان واقعاً تحت تأثيره بحيث إنه في انبهاره لم يتجشم حتى استعارة أفكاره من كيركغارد نفسه الذي في الحقيقة نادراً ما يكشف عن وجهه الحقيقي، وإنما من أحد أقنعته، وهو الاسم المستعار يوهانس كليماكس. وكانت التبعية كبيرة حتى إنه لم يحاول أن يغيِّر كلمات القناع - التي نُطقت على شكل طرائف فكاهية وساخرة - إلى محاضرة تعليمية بل دمجها في صيغة مباشرة وتعامل معها بوصفها أقوالاً عقائدية.

مهما اختلف مارتنسن وكيركغارد على قضايا أخرى فإنهما كانا متفقين في انزعاجهما من غياب الظل في استخدام نيلسن للأسماء المستعارة مراجعَ عن العقيدة. وهكذا تذكر مارتنسن كيف أنه ذات يوم أحد بعد الظهر خرج يتنزه في كريستيانسهافن عندما التقى كيركغارد الذي رافقه في مشية على امتداد سور كريستيانسهافن. وهناك كان لهما حديث طويل عن الوضع المزري للأدب الدنماركي بما في ذلك بالطبع مجلة ذي كورسارن التي شعر مارتنسن إن كيركغارد كان يعود إليها في أحيان أكثر مما ينبغي. وفي الطريق إلى البيت توقف الرجلان عند 68 أوسترغاده، مكان مكتبة الأثينيوم ذات الملكية الخاصة. وأومأ مارتنسن كأنه يشير على كيركغارد إلى أنهما سيفتقران الآن كل في طريقه، ولكن كيركغارد رافقه إلى داخل المكتبة. وهنا بدأ حديث - انطلق من تلقاء نفسه إذا جاز التعبير - عن نزاعي مع راسموس نيلسن. وأعربتُ عن غضبي بلا تحفظ على ما وجدتُه مرفوضاً في سلوك راسموس نيلسن، وخاصة الطريقة المشوهة والخاطئة وغير اللائقة تماماً التي استخدم بها اسم كيركغارد المستعار، يوهانس كليماكس، منتزعاً بفجاجة عبارات من ذلك العمل من سياقها ومضفِياً عليها أهمية

عقائدية ومستغلاً إياها بصورة مباشرة. كيركغارد لم ينقض مارتنسن، ولم يقدم أدنى بادرة تأييد لراسموس نيلسن بل على العكس انتقد تعابير معينة في مدخل كتابي الدغماتية كان يعتقد أنّ من الأفضل لو حُذفت. وهنا يبدو أنّ مارتنسن كان يشير إلى مدخل كتابه معلومات عقائدية الذي كتبه أساساً لتفنيد راسموس نيلسن حيث تحدث عن كتابات كيركغارد بوصفها ذلك الجسم المهذار من الأدب، الذي لا يهمه بالمرة - مع التشديد على ذلك ما لا يقل عن مرتين.

غني عن القول إن كيركغارد لم يكن راضياً عن ذلك ولكن في ذلك العصر من يوم الأحد في مكتبة الأثينيوم لم ينفجر على ما يبدو بوجه مارتنسن. واستطاع مارتنسن حتى أن يتذكر إن كيركغارد قال إنه رغم كل شيء فإن عدم اتفاقهما كان خلافاً داخل المسيحية، وهو تعبير فهمه مارتنسن نوعاً من التقارب لأن الخلاف داخل المسيحية ربما أمكن تسويته، ولذلك طلب من كيركغارد أن يوضح ما يريد بمزيد من التفصيل. ثم أوضح كيركغارد إن الأشخاص في رأيه يجب ألا يحاولوا استغلال التعارض البولسي (كناية بالقديس بولس) بين الخطيئة والنعمة التي غالبية الأشخاص ليسوا ناضجين بما فيه الكفاية للتمتع بها. وكان يشعر بأننا يجب أن نحاول الإفادة فائدة كاملة من رسالة جيمس. ويبدو هذا جائزاً لأن مناشدة الرسالة على وجه التحديد هي التي لا نكون فيها مجرد سامعي الكلمة التي كانت أحد المقاطع التي عاد إليها كيركغارد مرات متكررة بل وصانعي تلك الكلمة أيضاً. وهكذا كان مارتنسن قادراً تماماً على متابعة كيركغارد ولكنه لم يكن يمتلك الطاقة لكي يجادل، بصريح العبارة، لأنه إذا كان هناك شيء للجدال حوله فإن هناك بالتأكيد قضايا أخرى وأكبر. بيد إنه لدى العودة إلى الوراء كان واضحاً لمارتنسن إن فرصة فاتته في ذلك اليوم للاقتراب من كيركغارد. ولكن، كما اعترف، كنتُ معارضاً بشدة لكينونته الجوهرية - التجريبية والمتقوقعة كما كانت - التي بدت لي مرتبطة ارتباطاً لا مفر منه بخطر زيف داخلي في شخصيته حتى إني كنتُ عاجزاً عن الشعور بأي رغبة في إقامة علاقة أقرب... كنتُ عاجزاً عن إيجاد أي ثقة وكان عليَّ التمسك بالرأي القائل إن كل واحد يجب أن يثبت على أفكاره.

راسموس نيلسن

خلال هذه السنوات بدأ اسم جديد يظهر في المجلات، هو اسم راسموس نيلسن. وكانت علاقة كيركغارد الشخصية به حديثة العهد تماماً، تعود إلى أوائل

صيف 1848 عندما مر الاثنان بأحدهما الآخر في الشارع. وكان الموقف رمزياً إلى أقصى الحدود: كان الرجلان على جانبين متقابلين من الشارع، كل على رصيفه ويمشي في الاتجاه المعاكس للآخر. ولكن كيركغارد لوَّح لنيلسن مشيراً إلى أنه يجب أن يعبر إلى جانبه ليتمكنا من التحادث قليلاً، ثم دعاه إلى زيارة خاصة. ولا بد إن هذا الظرف الأخير على الأخص ترك أثراً بالغاً في نفس نيلسن الذي كان يعرف مدى حذر الماجستير إزاء دعوة غرباء إلى بيته. واستذكار كيركغارد مسترجعاً تلك الواقعة يجعل من الواضح أيضاً إنه وجد ذلك لافتاً: على الأرجح أنه لم يظن إلا إنه سيطرق بابي بطريقة ما ومن ثم أفتح له الباب مواربا بطريقة ما أو حتى ليس موارباً. وبدلاً من ذلك فُتح الباب المزدوج على مصراعيه ودُعي للدخول. وكان ذلك أكثر مما يستطيع شخص أن يطلبه.

ليس معروفاً ما الذي تحدثا عنه في ذلك اليوم ولكن لا بد إن وقعه كان حسناً لأن كيركغارد، بعد فترة قصيرة عليه، ذكر نيلسن بوصفه أنسب مرشح لنشر أوراقي بعد موتي حين يصبح ذلك ضرورياً. وفجأة غمغم كيركغارد (بحسب كيركغارد نفسه) خلال رحلة بالعربة إلى هيرشهولم حين بدأت تراوده فكرة أن يكون له تلميذ وربما حتى حافظ أسرار قائلاً لنفترض إني متُّ غداً - لن يكون هناك أثر لحياتي. ولم يكن لديه شك بشأن نمط الشخص الذي يبحث عنه: ما أحتاج إليه شخص لا يومئ بتمويج ذراعيه من المنبر أو هز إصبعه من كرسي الأُستاذية بل شخص يومئ بكل وجوده الشخصي، باستعداده للتعامل مع كل خطر، يرضى أن تعبُّر أفعاله بدقة عما يبشر به. ومساعد بروفيسور شخص لديه سبعة عشر شيئاً يأخذها في الاعتبار. فهو يريد وظيفة دائمة، يريد أن يتزوج، يريد أن يكون محترماً، يريد أن يستجيب لمطالب العصر، إلخ.

نيلسن لم يكن أكثر الرجال تأشيراً بيديه، والأكثر من ذلك إنه لم يكن مجرد مساعد بروفيسور بل بروفيسوراً كاملاً إلى جانب كونه يحمل لقب فارس دانيبروغ، وعلاوة على كل شيء كان متزوجاً، الأمر الذي كان في طريقة تفكير كيركغارد دَيناً خطيراً في رصيد نيلسن. ولكن نيلسن كان في كل الأحوال أقل الأشخاص تخلفاً في المدينة. ولا بد أن يكون هذا ما يفسر الترتيبات التي قام بها كيركغارد لأنه منذ فترة طويلة لم يكن لديه احترام يُذكر لأُستاذ الفلسفة الذي شغل كرسي ماران مولر الشاغر في نيسان/ أبريل 1841. وعلى سبيل المثال إن كيركغارد، بعد فترة قصيرة على نجاحه في الدفاع عن رسالة الماجستير عندما

شجعه سيبَّرن على التقدم على وظيفة جامعية كمساعد أُستاذ في الفلسفة، رد قائلاً إن عليه أن يطلب عامين لتحضير نفسه. وسأل سيبَّرن متعجباً أوه! كيف تستطيع أن تتخيل أنهم سيوظفونك في مثل هذه الشروط؟ فرد كيركغارد، حسناً، أستطيع بالطبع أن أفعل ما فعله راسموس نيلسن وأتركهم يوظفونني بلا تحضير. ثم انزعج سيبَّرن وقال، أنتَ دائماً يجب أن تختار نيلسن! ولم يكن سيبَّرن مخطئاً تماماً. ففي عام 1839 نشر نيلسن إعلاناً في صحيفة أدريسيفيسن يدعو الجمهور إلى الاشتراك في عمله معالم أخلاق مسيحية الذي كان يعتزم نشره خلال الشتاء المقبل، وفي مقال صحفي لاحق بعنوان اعتراف علني تحدث كيركغارد بتهكم عن مشروع نيلسن قائلاً: إن العصر يشق طريقه نحو النظام. فالبروفيسور نيلسن أصلاً نشر واحدة وعشرين فقرة من منطقه، تشكل القسم الأول من منطق الذي يشكل بدوره الجزء الأول من موسوعة شاملة - هذا ما يُشار إليه على الغلاف ولكن من دون ذكرٍ محدَّدٍ لحجمها، ربما لتفادي تخويف الناس، لأن المرء قد يخلص من ذلك إلى أنها قد تكون ذات حجم لا نهائي.

لم تتحسن الأمور عندما نشر نيلسن معالم منطق تأملي. وصدرت أربعة أقسام من العمل في كُتيب بين 1841 و1844، وأشار العمل إلى نفسه في المقدمة على أنه شطر من منهجية فلسفية، وهو بالفعل أصبح ذلك لأنه لم يُنجَز قط وانقطع في منتصف الكلام بالمعنى الحرفي للعبارة. وكان هذا التشظي اللا إرادي مبعث قدر من الشماتة في عمل كيركغارد مقدمات حيث يظهر المدعو B. B. (في المخطوطة كتب كيركغارد في الأصل البروفيسور آر. نيلسن) الذي يعد بكتابة عمل عنوانه النظام. وفي ذلك العام نفسه أشار كيركغارد إلى نيلسن على أنه مدير مدرسة نظامي، الأمر الذي لم يكن مقصوداً بطريقة ودية، ومن المفهوم تماماً إن نيلسن سرعان ما بدأ يتجشم بعض العناء لكي يتجنب كيركغارد هذا، وفي الحقيقة طلب بصراحة إعفاءه من الانضمام إلى اللجنة التي قيَّمت رسالة كيركغارد لنيل الماجستير.

في مرحلة مبكرة كان نيلسن مأخوذاً بهيغل وأراد توحيد الفلسفة واللاهوت، لكنه تحرر من فكرة الموضوعية هذه عندما وقع على كتاب كيركغارد حاشية ختامية الذي يصر على أن الذاتية هي الحقيقة. والتهم نيلسن هذا العمل ربما بشيء من الحرية لأنه في عمله Propaedeutic [من اليونانية: تعليم إعدادي] أعلن: إن الحياة ذاتية. والحياة الحقيقية أبداً حياة ذاتية بالمطلق. الإرادة ذاتية. والإرادة

غير المشروطة أبداً ذاتية بالمطلق. وهكذا فإن الموضوعي بوصفه الموضوعي ليس هو الحقيقي. وليس هناك شك بالمرة إن كيركغارد كسب هنا تلميذاً لديه، بحسب تعبير المعلّم نفسه، ميل إلى رفعي إلى أعلى مستويات الاستثنائي - وكان على كيركغارد أن يعترف بأن هذا ربما يتضمن قليلاً من التملق.

ولكن بعد نزهتين فقط من نزهات المشي التي كان الرجلان يخرجان فيها بدقة طقوسية كل يوم خميس، بدأت شكوك تساور كيركغارد فيما إذا كان نيلسن هو الشخص المناسب لاتمانه على أسراره، ولا سيّما وإن الثقة تحمل معها بالطبع خطر الخيانة. ومع بداية تسرب جنون الارتياب من قلم كيركغارد كتب يقول: يجب أن أُبقي نظري عليه كما يفعل ضابط الشرطة. وكانت إحدى الطرق التي لجأ إليها كيركغارد في ذلك هو إنه جعل نشر الأزمة وأزمة في حياة ممثلة بمثابة اختبار لقدرات نيلسن الديالكتيكية. وإذا تذكرنا وساوس كيركغارد وشكوكه التي لا تنتهي بشأن نشر هذه القطعة يكون واضحاً إن نيلسن لم يسعه إلا الفشل في الاختبار، وقد فشل فيه فشلاً ذريعاً. فهو كان يذهب باستمرار إلى أنه فهم كيف استُخدم الجمالي طُعماً وستاراً. كما ذهب إلى أنه فهم إن الانتباه دائماً ذو أهمية قصوى. حتى الآن والأمور على ما يُرام، ولكن الاتجاه الوحيد من هنا هو نحو الأسفل: ذلك المقال الصغير الذي قرأه فاته تماماً على ما يبدو... وبالتالي كان هناك سوء فهم في هذا الشأن. وهو ربما أبداً لن يصبح ديالكتيكياً. والأكثر من ذلك - وا أسفاه! - يبدو أنّ له أرضية واهية في الدين، ربما بلا أرضية على الإطلاق.

من السهل أن يكون لدى المرء تلاميذ. فهم أولاً يفقهون ما يجري، مثل نيلسن في هذه الحالة، ثم إنهم يثبتون كونهم على العموم بارعين براعة فائقة في التعلُّم، بل يسلبونك كل شيء، كما فعل نيلسن هذا نفسه أيضاً. ذلك إن كتاب آر. نيلسن نُشر، كما كتب كيركغارد بعد فترة قصيرة على صدور عقيدة الإنجيل والوعي الحديث وهو كتاب فاشل من 530 صفحة دخل عالم الأدب بخطة ثقيلة في 19 أيار/ مايو 1849، اليوم نفسه الذي صدر فيه عمل كيركغارد مقالان أخلاقيان - دينيان. وخطرت ببال نيلسن فكرة - كارثية بنظر كيركغارد - هي وضع الشك والإيمان بجوار أحدهما الآخر وتركهما يتناقشان. ولكن أمراً كهذا لا يمكن أن يتحقق بنجاح ما لم تكن لدى المرء دقة ديالكتيكية وعاطفة متقدة بشكل مطلق، وكلاهما فضيلتان يفتقر إليهما نيلسن. إذ يبدو أنّ هذا الكتاب

يهدف إلى أن يكون نسخة أخرى من «إما/ أو». وربما لن يصبح سوى لا هذا/ ولا ذاك. ويعتمد الكتاب اعتماداً أساسياً على جون. كليماكس، وهو الشخص الوحيد الذي لا يُذكر. وكلما مضينا أبعد في قراءة الكتاب كان كيركغارد يرى إن الفكرة تلو الأخرى مشفوطة: كانت الكتابات مسروقة بطرق عديدة، وفي المقام الأول بالطبع الأسماء المستعارة التي لهذا السبب لا يذكرها أبداً، ربما بعد أن توصل بحساب ذكي إلى أنها الأقل قراءة. ثم أحاديثي!

إجمالاً كان ذلك قدْراً لا يُصدَّق من النَسخ التافه والسيئ. وكان مشروع نيلسن كله يتكون من تلصيق بناء جديد هو من حيث الجوهر سرقة أدبية. ولم يكن هذا سوى مستوى هابط لا أكثر ولا أقل لأن هناك أشياء معينة تكون المقدرة بشأنها هي المُهمة أهمية مطلقة، ويتكون المستوى الهابط على وجه التحديد من أن يريد المرء مجاراة شيء ما قليلاً. والأكثر من ذلك فإن ما فعله نيلسن ليس ممكناً من دون انتهاك شكل التواصل ذاته الذي كان ضرورياً للكتابة بأسماء مستعارة: كان نيلسن يدرِّس عن كيركغارد، وبذلك جعله صاحب عقيدة جامدة. وكانت عواقب هذا الخطأ وخيمة: ستكون خلاصة القول توفير كومة من الهذر الكنسي بجهاز جديد تُملأ به الصفحة تلو الأخرى بالهذر. لقد جاء راسموس نيلسن إلى النبع الدافق للعبقرية الكيركغاردية – وبيده كوب شاي!

قدم كيركغارد احتجاجاً في أول سانحة. والحق إن نيلسن يبدو، في واحدة من رسالتين بتاريخ 25 أيار/ مايو 1849، ذليلاً، يكاد أن يكون مهشماً: عزيزي مستر ماجستير! أنتَ على حق، ويعني هذا إني على خطأ، وها أنا ألتمس العفو. يوم الخميس الماضي لم تكن عندي فكرة واضحة بعد عما يجب أن أفعله. المخلص R. N.. وفي الرسالة الثانية طلب نيلسن من كيركغارد بصورة أكثر مباشرة أن يتذكر إن ما تعين على كيركغارد توصيله في لقائهما الأول كان من الجدية بحيث لا يمكن نقله خلال نزهة مشي. وكانت هذه هي الحال مع ما كان نيلسن يريد نقله الآن، وبالتالي كانت الرسالة غير المكتوبة: يجب أن نلتقي على انفراد! وبعد حاشية أعرب فيها نيلسن عن شكره الخالص على الخطابات الإلهية التي تسلمها، كانت الرسالة بتوقيع المخلص R. N.. وفي اليوم التالي رد كيركغارد مشيراً إلى أن مثل هذا الترتيب كان ممكناً بكل تأكيد لو كلف نيلسن نفسه الالتزام بموعدهما يوم الخميس الماضي وحضر إلى مكان اللقاء المعهود لنزهات مشيهما كل يوم خميس. كان كيركغارد هناك، ولكنه كان واقفاً هناك،

يراقب العشب ينمو. وإذا كان نيلسن لا يريد التطرق إلى المواضيع التي تهمه أثناء نزهة مشي فكانت دواعي اللياقة تتطلب أن يبلغ كيركغارد بذلك كتابة ومسبقاً. يضاف إلى ذلك إن كيركغارد كان في الحقيقة يفضل أن يلتقيا خلال مشياتهما وليس على انفراد - ذلك إن اللقاءات من النوع الأول ضمناً لا تكون ملزِمة مثل اللقاءات من النوع الثاني.

لم يكن من السهل أن يكون المرء في موقف نيلسن. وفي فقرة من اليوميات بتاريخ منتصف تموز/ يوليو 1848 - وبالتالي بعد أشهر قليلة فقط على أول حديث حقيقي بينهما - يسوق كيركغارد مثالاً على المفارقة في الممارسة، من الجائز جداً إنه مستوحى من لقاء مع نيلسن: الأشخاص عموماً لا تكون لديهم فكرة عن... ما يعنيه أن يضع المرء نفسه داخل شخصية... حاولتُ هذا بمفارقة. أخبرتُ شخصاً إن هناك على الدوام شيئاً فيه مفارقة عني. ثم ماذا بعد ذلك؟ ثم توصلنا إلى تفاهم مع أحدنا الآخر. فأنا كشفت له نفسي. ولكن حينذاك، في ذات اللحظة التي تقمصتُ فيها الشخصية، أُصيب هو بالحيرة. وفي تلك اللحظة قُطع كل تواصل مباشر، وموقفي كله، نظرتي، تعليقاتي كانت علامات استفهام خالصة. ثم قال، آها، إنها مفارقة. وكان بالطبع يتوقع أن أُجيبه بنعم أو لا - أي، أن أتواصل مباشرة. ولكن في اللحظة التي أتقمص فيها شخصية أسعى إلى أن أكون أميناً لها. والآن كان من المتعذر عليه أن يتوصل إلى يقين عما إذا كان ذلك مفارقة - وهذا على وجه التحديد كان مفارقة. وفي فقرة مماثلة لهذه من اليوميات نكاد أن نرى عيني نيلسن تنظران هنا وهناك بيأس.

مع ذلك أصبح الوضع وضع مفارقة اختيارية عندما، بلمح البصر، تطور نيلسن - الذي من المفترض أن يكون مساعد كيركغارد وربما حتى وريثه - إلى مشكلة ذات أبعاد كبيرة. وعلى أمتداد أشهر عديدة سيتعين على كيركغارد الآن أن يتحمل هذا الناسخ الأخرق الذي قرأ واستوعب من الكتابات ذات الأسماء المستعارة بحيث إنه في كل دقيقة أو دقيقتين يطلع لا شعورياً باستعارات وملاحظات نابعة من قلم كيركغارد. وكان كيركغارد يستطيع أن يرى بوضوح إلى أين تسير الأمور: الآن من المرجح أن يفجر نيلسن قنبلة من الإثارة بمادة يُدين بها لي أساساً. أو على حد تعبير كيركغارد بأسلوب لا يتسم تماماً بالتواضع: وهكذا فإن ما هو موجود فيَّ، بالاكتمال الاستثنائي لأصالته، هو شيء طرحته بنكران ذات وتضحية نادرين - إلى حد الإفراط، بل إلى حد الجنون تقريباً.

وعندما يأتي دور R. N. لتقديم هذه الخلطة نفسها ستكون الأمور استثنائية! ومع ذلك فإن نيلسن، بكونه عظيماً، صغير بما فيه الكفاية لأن يكون عظيماً في الدنمارك.

لم يكن كيركغارد واثقاً بشأن الوضع. وفي ليلة 23 على 24 آب/ أغسطس 1848 أبقى نيلسن خارج صلواته ولكنه سرعان ما ندم على ذلك بوصفه خطيئة رهيبة ولذلك أعاده إلى علاقته بالله. وكان كيركغارد يعرف عن خبرة إنه ما أن يصبح أحد ما جزءاً من هذه العلاقة حتى يكون من المحال تقريباً إخراجه منها. والحق إن الشيء نفسه حدث مع ريجينة التي كانت في وقت سابق بمثابة المناسبة التي مكّنت كيركغارد من التوصل إلى قدر أكبر من الوضوح عن مهمته. والآن يستخدم الله أحداً آخر، رجلاً، نيلسن: الحقيقة هي إني الشخص الذي ينبغي تربيته، ولهذا الغرض يُستخدم أحد كهذا ويُزج في علاقتي بالله. لم يكن نيلسن هو الغاية بل الوسيلة التي بلغ كيركغارد غايته بها: أنا دائماً أحتاج إلى شخص وقت أكون مُقبلاً على القيام بانعطافة حادة. وعندي فإنه سيكون ما كانته تلك الفتاة الصغيرة ذات مرة، ولو بدرجة أقل بكثير. وحيث كانت العلاقة مع ريجينة علاقة عاطفية فإن العلاقة مع نيلسن كانت علاقة مبدئية. وهذا هو الاختلاف بين الحالتين. ومن جهة أخرى كان التماثل يكمن في أنّ كيركغارد في الحالتين ترك الطرف الآخر يقطع الصلة رغم إنه كان يعرف منذ وقت مبكر تماماً إنها علاقة لا مستقبل لها.

يمكن تتبع هذه العملية في مراسلات كيركغارد ونيلسن المستفيضة نسبياً خلال صيف 1849. إذ كان من امتيازات البروفيسور نيلسن الإجازة الطويلة التي قضاها شمال كوبنهاغن في بقعة لطيفة بين لينغبي وتارباك، ومنها كان يكتب رسائل إلى رفيقه في نزهات المشي في المدينة النتنة. ولكن لم يمضِ وقت طويل قبل أن تبدأ رسائل كيركغارد بالانتفاخ على نحو غريب، مليئة بالارتياب. وعلى سبيل المثال، بعد أن أرسل إلى نيلسن نسخة من المرض حتى الموت فور خروج الكتاب من المطبعة، قرأه نيلسن في الحال وشكره بحرارة عليه في 28 تموز/ يوليو: عزيزي مستر ماجستير! شكراً على الرسالة، وشكري الجزيل على الكتاب، وألف شكر على محتويات الكتاب. ثم أضاف نيلسن بعض الأفكار عن العلاقة بين كليماكس وضد - كليماكس اللذين برأيه كانا يشتركان بعدد من أوجه الشبه، مثل طريقتهما في تعريف الإساءة. وفُقد رد كيركغارد

في 4 آب/ أغسطس بطريقة لا تفسير لها في البريد لكنه كان بعيد النظر بما فيه الكفاية لطبع نسخة منها: يا لها من نهاية مخيِّبة! هل هذا يليق بأُستاذ في المنطق؟ فأنت تقدِّم ألف شكر على محتويات الكتاب، وأقل على الكتاب، وحتى أقل على الرسالة – أنتَ تنسى بالتأكيد إني لستُ إلا المحرر ولذلك عندما تراسلني ينبغي أن تكون الذروة معكوسة. وعليه كان اعتراض كيركغارد الآتي: إنه نفسه لم يكن إلا المحرر وبالتالي كان الواجب أن يشكره بأقل قدر على محتويات الكتاب وأكثر على الكتاب نفسه وحتى أكثر على الرسالة – فهي، بعد كل شيء، الشيء الوحيد الذي كتبه كيركغارد!

ما كان نيلسن ليرضى عن هذا التوبيخ الفلسفي ولكن مع هذا لم تنقصه روح الدعابة في رسالته بتاريخ 10 آب/ أغسطس عندما أبلغ أُستاذه: رأيتُ النور. وحققت اكتشافاً جديداً. في رسالتي السابقة لاحظتُ إن كليماكس وضد - كليماكس التقيا في الإساءة، كل واحد من اتجاه معاكس للآخر. وكانت تلك ملاحظة كُتبت بتسرع... كلا، الآن لدي فهم مختلف تماماً لما يجري. فاليأس هو القصد... وأُسارع إلى إبلاغك بذلك، من جهة لكي ترى بأي اجتهاد أدرس الكتابات، ومن الجهة الأخرى لكي تعرف إني لست غبياً حين يتعلق الأمر بتحقيق اكتشافات.

لم يرغب كيركغارد في مناقشة الاكتشاف آنف الذكر بالبريد ولكن إذا كانت هناك فرصة في وقت ما للتواصل شفاهاً فإني سأكون سعيداً لشرح وجهة نظري بشأن العلاقة المشكوك بها بين هذا الاكتشاف الجديد والاكتشاف السابق ورسالتي الأولى التي أُرفقت بالنسخة المرسلة من كتاب «المرض حتى الموت». وكان كيركغارد مباشراً أكثر بعض الشيء في يومياته: في رسالة بتاريخ 10 آب/ أغسطس اكتشف آر. نيلسن الآن إن النقطة المشتركة بين كليماكس وضد - كليماكس هي اليأس... وفي رسالة سابقة كان نيلسن يعتقد أنّ النقطة المشتركة هي الإساءة. وكان هذا في الحقيقة أقرب بكثير إلى الصواب، واكتشافه الجديد هو بكل بساطة نهاية مخيِّبة.

في 28 آب/ أغسطس كتب نيلسن إلى كيركغارد من مخبز فايديمان في لينغبي ليبلغه بأنه، كما طلب كيركغارد، سأل في الفندق وفي المخبز الآخر في المدينة ولكن بلا جدوى: يبدو أنّ رسالة كيركغارد بتاريخ 4 آب/ أغسطس

اختفت تماماً. فيما يتعلق باكتشافيّ اللافتين ما زلتُ أرى إني على الأرجح سأكون قادراً على إيجاد انسجام بينهما بواسطة اكتشاف ثالث، وآمل بأن أفعل ذلك حين أسمع اتصالك الشفهي بسرور. لذلك أرجوك أن تسمح لي بأن أعتبر نفسي - من باب التوقع وفي الوقت الحاضر - «فارس الاكتشافات الثلاثة».
ويبدو أنّ كيركغارد لم يكترث قيد أنملة بالأفكار المشوَّشة على نحو متزايد لفارس التوقعات، وفي رسالة غفل من التاريخ طلب أن يستفسر نيلسن في دائرة بريد لينغبي عن الرسالة المفقودة التي يُزعم إن خادم كيركغارد فاته أن يدفع رسم إرسالها بالبريد. وإذا وقعتَ عليها فإعمل لي معروفاً وعدها اليَّ غير مفتوحة. فهناك منهج معين في رسائلي ولا يعجبني أن تُقرأ خارج التسلسل. الأمر كله يبدو غريباً، ولكن نيسلن كان مع ذلك لطيفاً بما فيه الكفاية للإسراع إلى مراجعة دائرة البريد وإن كانت مراجعته بلا جدوى، وبتعبير بالغ عن الأسف نقل ذلك إلى الماجستير الذي أبلغ نيلسن، بشيء من الانزعاج، إنه لا يريد في الحقيقة الاستمرار في التراسل معه: كنتُ دائماً أُؤمن بالخرافات إلى حد ما، ومن اللحظة التي فُقدتْ فيها رسالتي المؤرخة 4 آب/ أغسطس يئست في الحقيقة من التراسل.

أن تكون رسالة مفقودة - واللافت أكثر رسالة طبع كيركغارد نسخة منها - قادرة على أن تصبح محور هذا القدر من الاهتمام فإن هذه شهادة غريبة ومؤسفة على ضآلة ما كان هناك بين الرجلين. والغريب والمعهود بما فيه الكفاية إن الشيء الوحيد الذي بدا إنهما يتفقان عليه كان في الواقع إن من المعقول ألا يفعلا شيئاً على الإطلاق من الناحية العلمية. وهكذا، في أيلول/ سبتمبر عندما شكا نيلسن من أن المرض أجبره على البقاء في الريف، وإنه خلال فترة النقاهة كان لا يعمل أكثر من النظر إلى الطبيعة ودجاجات الخباز. ورد كيركغارد قائلاً إنه يتفق تماماً بشأن دجاجات الخباز: عندما تسنح الفرصة ينبغي ألا يهمل المرء جعل هذا النوع من الأمور موضوع مشاهداته. فإن «ساعة هادئة» من هذا النوع من المؤكد أن تكون أنفع بكثير من تلك «الساعات الهادئة» المحتفى بها كل ذلك الاحتفاء، التي تُصرف على خداع الناس بشأن المسيحية.

وكتب كيركغارد في أواخر صيف 1849 خذ المفارقة من المفكر - وسيكون لديك بروفيسور. فإن نيلسن لم يعط كيركغارد أي سبب للتخفيف من لغته.

بعد فترة، في 20 أيلول/ سبتمبر، عاد نيلسن إلى المدينة ليبلغ كيركغارد بعودته في رسالة مقتضبة: وصلتُ. المخلص آر. أنْ. ويجعل غياب التراسل في الفترة اللاحقة من المعقول أن نفترض إنهما استأنفا نزهاتهما في المشي كل يوم خميس – وكذلك أحاديثهما التي أدت إلى القطيعة النهائية بينهما.

الشهادة التي منحتها فريدريكا بريمر

إذا لم يكن لدى المفكر كيركغارد والفيلسوف نيلسن ما يتحدثان به خلال نزهاتهما مشياً على الأقدام كل يوم خميس فإن نشر كتاب فريدريكا بريمر الحياة في إسكندنافيا الذي صدرت ترجمته الدنماركية في 12 أيلول/ سبتمبر 1849، سيكون موضوعاً بديهياً للحديث في كل الأحوال. والكتاب الذي يقع في 44 صفحة فقط ينتهي تقريباً قبل أن يبدأ، ولا هو من الكتب التي لا تُنسى. والأرجح إنه كان سيمر دون أن ينتبه إليه أحد لو لم يتضمن صوراً ذاتية وتقييمات لعدد من الشخصيات المرموقة التي كانت حياتهم ونشاطاتهم تحدث داخل أسوار كوبنهاغن. وهكذا يكون كتاب بريمر بمثابة شهادة تتضمن الدرجات التي أعطتها لتلاميذ صف على قدر كبير من التنوع ثم رُزموا معاً وأُطلق عليهم اسم العصر الذهبي الدنماركي.

يبدأ الكتاب بوصف عَذِب للبلد كما يروق الدنماركيين أن يروه: إنه بلد ودود رائع من الجزر، أرض من الخضرة والحقول المنداحة، بلا جبال ومنحدرات، تنبثق ببساطة من البحر، بسهولها الخصبة وغاباتها الجميلة. وتقرير بريمر هو أيضاً شهادة وطنية على شخصية الشعب الدنماركي نفسه: الناس شاعريون، رومانسيون، فكهون، يحبون الأساطير والشعر الملحمي، والقصص الشعرية والأغاني والنكات. كما إن الناس متدينون بعمق. وهذا ما يجب أن يكون، وبريمر كانت تعرف ما الذي تكتب عنه. وبعد هذه الملاحظات المهذبة تقترب بريمر من قلب الأمة وبالتالي من قلب شهادتها، كوبنهاغن: إن دنماركي كوبنهاغن أو الكوبنهاغني ليس طيب السريرة تماماً مثل الدنماركيين عموماً، وهو أحياناً يثمِّن الرأس على حساب القلب. إنه ناقد، سريع في رؤية إخفاقات جاره وأخطائه... ومع ذلك تبقى الابتسامة صافية النية في متناول اليد، واليد جاهزة للتصالح. الدنماركي لا يعرف الرذيلة والخبث، وهو يستنكر الضغينة. وهكذا يمكن النظر إلى أهل كوبنهاغن، رغم كل شيء، بعين الزائر من

الخارج على أنهم حيويون، مرحون، نشيطون، في غاية اللطف، محبوبون، ذوو قلوب مفتوحة، يساعدون، واجتماعيون.

بهذا الأسلوب الحي وصلت بريمر إلى مثقفي كوبنهاغن الذين تقدمهم في سلسلة من الصور الذاتية المصغرة مرصوفة بترتيب اعتباطي بعض الشيء ومجللة باستعراض مذهل من صيغ التفضيل: في فجر القرن ظهر مينستر وغروندتفيغ في الكنيسة بنار الروح، بقوة الكلمة ليعلنا مجدداً تعاليم الدين القديمة والشابة أبداً. مينستر، متضلع في العلم، واضح، متناغم. غروندتفيغ (روح بركانية) بقوة أنبياء الزمن القديم وروحهم. بعد ذلك يُمدح هنريك هيرتز على قوة الشعر السحرية التي يستطيع اقتناصها في النثر المفعم أيضاً بمهابة سامية وأخلاقية. وشيء من هذا القبيل هو الحال مع كارستن هاوخ، ذلك الروح الدافئة، المتحمسة الذي يجمع عمله بين العلم والشعر. كما ينال بالودان مولر، مؤلف آدم الإنسان أعلى الدرجات لأنه مفكر عميق في كتابة نثر ذي خفة وكمال يستحق الإعجاب. ويغنِّي كريستيان فينتر عن العالم الطبيعي الرعوي لوطن آبائه في قصائد حية ومنعشة حتى إن الدنماركيين يبدون قادرين على تمييز رائحة القش الطري فيها. وهنا فقط نصل إلى جي. أيل. هايبرغ الذي يحظى بذكر فاتر قليلاً بوصفه ناقداً، الأمر الذي لم تكن بريمر تحبه كثيراً بسبب صعوبات لديها في قبول أي حاكم أعلى في الأدب ما عدا الحاكم الذي يتبلور شكله عاجلاً أو آجلاً في قلب الجمهور النابض ذاته.

بعد هذه القفزة الصغيرة في غمار الرثاء العاطفي يصبح أسلوب بريمر مرة أخرى دافئاً وناعماً وجزلاً، وتروي الآن كما في حكاية عن الجن، قصة زهرة متواضعة بسيطة انبثقت في جزر الخضرة الربيعية ذات يوم. بعض الأشخاص أحاطوها بالحماية. الشمس أحبت الزهرة وأشرقت عليها. وتفتحت أوراقها وارتدت أشكالاً وألواناً رائعة الجمال، واكتسبت أجنحة، وانسلّت متحررة من أُمنا الأرض وحلَّقت فوق العالم أجمع! وفي كل مكان تجمع الناس واستمعوا، كباراً وصغاراً، شيباً وشباناً، متعلمين وغير متعلمين، في الساحات وفي الأكواخ. وعندما يستمع المرء يحار لحظة ويتأثر لحظة أخرى... فمَنْ في العالم المثقف لم يسمع قصص هانز كريستيان أندرسن للأطفال؟ رُسمت اللوحة بقدر كبير من الرقة وراعت بحق غرور أندرسن. فهو طفل عجائبي وجد أصالته وخلوده في الحكاية الخيالية.

والرسامون مارستراند Marstrand وسوني Sonne وسكوفغارد Skovgaard وغيرتنر Gertner والمؤلفون الموسيقيون هارتمان Hartmann وورنغ Rung وغاده Gade وأخيراً الألسنيان راسك Rask ومولبيخ Molbech، على سبيل المثال. ويكون القارئ أصلاً منقطع الأنفاس لكن عليه أن يسمع أيضاً ما تقوله بريمر عن النجوم المزدوجة الساطعة في سماء المعرفة العلمية، الأخوة أورستيد Orsted والحقوقي أندريس ساندو Andres Sandoe والعالم الطبيعي هانز كريستيان Hans Christian الذي يُصوِّر اكتشافه الكهرومغناطيسية بطريقة مؤثرة لا يجيدها إلا جاهل بالموضوع.

الآن وصلت الجولة أخيراً إلى مفكري البلاد الفيلسوفيين. وهنا تخص بريمر بالذكر بشكل يفتقر إلى اليقين بعض الشيء تيخو روتي Tycho Rothe بوصفه الفيلسوف الأول لكنها تسرع فوراً نحو سيبِّرن الذي من الواضح إن شبابه العاصف أكثر تشويقاً عندها من الفلسفة التي وضعها لاحقاً. بعده يأتي غارِس بذور بأرقى معنى للكلمة – ومَنْ يكون غير مارتنسن. فهو بكلماته الحية وكتاباته الفلسفية (التي تحظى باحترام كبير في السويد كما في الدنمارك) [نشر] بذور تطور جديد في الحياة الدينية للكنيسة والمعرفة العلمية من خلال فهم أعمق لما هما عليه من حيث الجوهر. ولا تكل بريمر من إغداق المديح على صاحبها غارِس البذور: إن الوضوح والتميز غير الاعتياديين للغة التي يستطيع هذا المفكر ذو الموهبة الكبيرة أن يطرح بها أعمق المبادئ التأملية، وطريقته المثيرة والفذة في التعليم تجعله كاتباً شعبياً. وفي كتابه الدوغماتية ننتظر عملاً كبيراً، وليس لأهل العلم وحدهم بل حان الوقت لأن يكتسب اللاهوت جاذبية شعبية. وهذا ما فعله سيدنا المسيح قبل 1800 سنة. هذه الجملة الأخيرة على الأقل تجعل من الواضح إن مارتنسن لم يكن ناجحاً كل النجاح في دروس اللاهوت الخصوصية التي تلقتها بريمر على يده!

من هذه الفكرة البهيجة عن أوجه الشبه بين المسيح ومارتنسن تهوى بريمر نحو عقد مقارنة جريئة أخرى: في حين إن مارتنسن اللماح يلقي ضوء من وجهة نظره المركزية على دائرة الوجود بأكملها وعلى ظواهر الحياة كلها فإن سورين كيركغارد يقف على عموده المعزول كأنه نسخة أخرى من القديس سيميون ستيلايتس، نظرته مثبتة بلا انقطاع على نقطة واحد. وهو يضع تلسكوبه على هذه النقطة يدرس بتمعن أصغر الذرات وأسرع الحركات العابرة مروراً وأعمق

التغيرات. وعن هذا يتحدث ويكتب صفحات لا تنتهي. وبالنسبة له فإن كل شيء موجود في هذه النقطة. ولكن هذه النقطة هي - قلب الإنسان. ولأن لديه بصورة مستمرة هذا القلب القابل للتغير فإنه قلب يعكس نفسه في الأبدي وغير القابل للتغير... ولأنه في مجرى تهويماته الديالكتيكية المرهقة يقول إشياء إلهية فإنه كسب جمهوراً ليس بالقليل في كوبنهاغن السعيدة اللطيفة، وخاصة بين السيدات. إذ لا بد أن تكون فلسفة القلب ذات أهمية لهن. وفيما يتعلق بالفيلسوف الذي يكتب عن هذه القضايا فإن الناس تتحدث إيجاباً وسلباً - وبغرابة. والذي يكتب لـذلك «الفرد الأوحد» يعيش وحيداً، لا يمكن الوصول إليه، وفي النهاية، لا يعرفه أحد. وخلال النهار يراه المرء ماشياً وسط الجموع، يذرع أكثر شوارع كوبنهاغن ازدحاماً، غادياً رائحاً، لمدة ساعات كل مرة. وفي الليل يُقال إن مأواه الموحش يتوهج بالنور. ويبدو أنّ سبب هذا [السلوك] ليس ثروته واستقلاله بقدر ما هو طبيعته السقيمة والنزقة، التي يمكن أحياناً أن تحنق على الشمس نفسها عندما ترسل أشعتها في اتجاه غير الاتجاه الذي يريده. ولكن يبدو أنّ شيئاً من قبيل التحول الذي كثيراً ما يكتب عنه، حدث داخله، وقاد كاتب «إما/ أو» المبتلي بالشك، عبر القلق والرعدة إلى الذرى المتألقة التي يتحدث منها بلغة طنانة لا تنضب عن إنجيل المعاناة، عن أعمال الحب وعن «الغاز الحياة الداخلية». إن أس. كيركغارد واحد من النماذج النادرة المعقدة التي وُجِدت في إسكندنافيا (في السويد أكثر من الدنمارك) منذ غابر الزمان، وللأرواح التي تشاركه تفكيره يتحدث عن أبي الهول الذي في داخل صدر الإنسان وعن القلب الغامض، كلي القدرة. ثم تمضي بريمر إلى مناقشة المشهد السياسي.

القلق والرعدة - كانت هذه تسمية بلهاء بالطبع مثلما كانت عندما قالت الملكة إما وأو. وسيكون من الخطأ القول إن كيركغارد كان راضياً بصفة خاصة عن الصورة التي رسمتها بريمر عنه. وسرعان ما اكتشف الدافع الأساسي: كان من دواعي سرور بريمر الآن أن تصدر حكمها على الدنمارك. وهو بالطبع يتكون من أصداء ما قاله أصحاب العلاقة لها. ويمكن أن نرى ذلك بكل جلاء في حالة مارتنسن الذي كانت له صلة قوية بها. وأضاف كيركغارد في الهامش إنها عاشت هنا فترة طويلة ومارست الاتصال الجسدي مع مشاهير وأرادت أن تمارس الاتصال الجسدي معي لكنني كنتُ عفيفاً. ويواصل باقي الفقرة التي كتبها في يومياته: إنها كانت لطيفة بما فيه الكفاية لأن تبعث لي برسالة مهذبة

تدعوني فيها إلى إجراء حوار معها. الآن أكاد أندم لأني لم أرد كما فكرتُ في البداية أن أرد، بهذه الكلمات فقط: «كلا، شكراً جزيلاً، فأنا لا أرقص». ولكني على أية حال رفضت دعوتها، ولم أذهب. وها أنا أسمع في كتاب مطبوع إني شخص «لا يمكن الوصول اليه». والأرجح إنه بسبب تأثير مارتنسن، صنعت فريدريكا مني طبيباً نفسياً ولا شيء آخر. وذلك أمر مثير للسخرية حقاً - كيف يمكن في العالم كله أن أُعتبر كاتب «سيدات»؟ ولكن ذلك بسبب مارتنسن. فهو لاحظ بكل تأكيد إن نجمه يأفل في الجامعة. والمؤكد أنه سيكون مسلياً لراسموس نيلسن وأُولئك الذين ينتمون حقاً إلى جيل الشباب أن يقرؤوا إني كاتب سيدات.

كيركغارد بكل بساطة لم يستطع تجاوز انزعاجه من ذلك، ولاحقاً في ذلك العام نفسه، بعد أن شكا من التضحيات التي كان عليه أن يقدمها من أجل إنتاجه الأدبي، كتب: في فريدريكا يُقال إني سقيم ونزق بحيث يمكن أن أصبح حاقداً عندما لا ترسل الشمس أشعتها كما أرغب - أيتها العجوز التقية، أيتها المشردة التافهة، ما قلتيه هو عين الصواب! وهذا التفسير سيوحد دوائر مختلفة ربما ليست بهذا القدر من الاختلاف بين بعضها البعض. فمن جهة، مارتنسن وبولي وهايبرغ، إلخ، ومن الجهة الأخرى، غولدشمدت وبي. أيل. مولر... كلهم معاً: سيكون عالماً جميلاً سوى إن الماجستير كيركغارد سقيم ونزق بحيث يحقد على الشمس إذا لم تشرق كما يريد.

شمس بريمر على أية حال لم تشرق. وهذا بحد ذاته كان كافياً للتسبب في شعور أحد الأشخاص بالمرارة.

حلم كيركغارد

بالإضافة إلى كل المعارضة في العالم الخارجي عانى كيركغارد من العذاب الذاتي المرتبط بالمخطوطات غير المنشورة - بمرور الوقت كان منها عدد كبير تماماً - التي كانت تتكدس وتتراكم في مكتبه. وفي النهاية قرر أن يؤجل كتابه وجهة نظر بعملي كاتباً في حين كان من الممكن نشر المرض حتى الموت بكل تأكيد. وكان هذا قراراً كنتُ أحتاج إلى اتخاذه باستماتة. وكان من المنهك إلى حد مخيف أن أرى هذه المخطوطات مرمية هناك، وكل يوم مبارك أُفكر في نشرها مصححاً كلمة هنا ثم كلمة هناك.

ما أن توصل كيركغارد إلى اتفاق مع مالك المطبعة بيانكو لونو - الذي فوجئ كيركغارد بطلبه المخطوطة في اليوم التالي ذاته - حتى عَلِم بأن والد ريجينة مستشار الدولة تيركيلد أولسن توفّي ليلة 25 على 26 حزيران/ يونيو 1849: ترك ذلك أثراً بالغاً في نفسي، ولو كنتُ أعرف قبل أن أكتب إلى مالك المطبعة لكان ذلك سبباً للتأجيل.

مر أقل بقليل من العام منذ رأى كيركغارد المستشار آخر مرة. ففي أواخر آب/ أغسطس 1848 عاد تفكيره في ريجينة بإلحاح لا يُقاوَم، وأثار كيركغارد مرة أخرى وضعَها لكنه ذكَّر نفسه في الوقت ذاته بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً لها مهما أراد ذلك: ستنفجر غاضبة إذا اكتشفتْ ما عليه الأمور في الحقيقة. وبعد فترة قصيرة على ذلك، يوم السبت 26 آب/ أغسطس 1848، سافر كيركغارد، مدفوعاً بباعث مبهم، إلى فريدينزبورغ، وأقام في الفندق الكبير. وشعر كيركغارد بسعادة لا تفسير لها وكان واثقاً على نحو غريب بأنه سيلتقي عائلة أولسن التي كثيراً ما كانت تمكث في فريدينزبورغ أواخر الصيف. ولكن عندما وصل لم يكن هناك أحد يراه. وخرج في نزهته المعتادة مشياً في زقاق القبطان على طريق يبدأ أمام قلعة فريدينزبورغ وينحدر صوب بحيرة أيسروم لينتهي عند بيت القبطان. وعندما وصل كيركغارد إلى البيت دردش قليلاً مع نوتي اسمه توماس لاحظ مصيباً إن هذه هي المرة الأولى التي يزور الماجستير فريدينزبورغ ذلك العام. وسأل كيركغارد عَرَضاً كم مرة كان المستشار أولسن في الحقيقة هناك خلال العام، وأجاب توماس إن المرة الوحيدة التي كان فيها هناك هو يوم الأحد في عيد الفصح. ثم مشى كيركغارد عائداً إلى الفندق الكبير وطلب عشاءه ولكن ما أن بدأ يأكل حتى مر رجل بالنافذة ولفت انتباهه: المستشار أولسن!

كانت لدى كيركغارج رغبة قوية في أن يتحدث مع المستشار وإذا أمكن أن يتصالح معه، لكنه لم يستطع أن يفعل ذلك بفم مملوء بالطعام! وقبل أن يتمكن من مضغ طعامه ويضع فوطته على المائدة اختفى المستشار. بحث عنه كيركغارد وبدأ صبره ينفد لأن عليه أن يعود إلى كوبنهاغن بعد قليل. لذلك قرر أن يخرج للمشي في زقاق القبطان، ومن الجائز أن يلتقي بالمستشار هناك لكنه وعد نفسه بأن يلقي نظرة واحدة فقط. وبالفعل هناك وقف الشيخ الكبير. وكانت لدى كيركغارد الكثير من المشاعر القوية تجاهه: أذهبُ إليه وأقول: نهارك سعيد أيها المستشار أولسن. لنتحدث مع أحدنا الآخر لمرة. فرفع قبعته

محيياً لكنه بعد ذلك نحاني جانباً بيده وقال «أنا لا أُريد أن أتحدث معك». وا أسفاه، اغرورقت عيناه بالدموع، وقال هذه الكلمات بعاطفة مخنوقة. فمشيتُ نحوه لكن حينذاك بدأ الرجل يركض بسرعة بحيث كان من المستحيل اللحاق به حتى إذا أردتُ ذلك. لكني تمكنتُ من قول ما يلي، وقد سمعه: «الآن أجعلَك مسؤولاً عن عدم الاستماع إليّ».

كان كيركغارد في الخامسة والثلاثين والمستشار في الرابعة والستين من العمر. ومع ذلك كان من المتعذر اللحاق به. والآن، بعد عام، توفّي المستشار، ولم يتمكن كيركغارد قط من أن يقول ما كان يريد أن يقوله للرجل الذي يكن له احتراماً كبيراً والذي ارتكب كيركغارد بحق ابنته إثماً بدافع حب حزين، بل إنه حتى فكَّر في إهداء قطعة يكتبها في ذكرى المستشار أولسن ولكن لم يحدث شيء، ولن تكون الفكرة مجدية على الإطلاق الآن. وخلال ليلة 27 على 28 حزيران/ يونيو 1849 نام كيركغارد نوماً متقطعاً، ورأى حلماً غامضاً. لكنه لم يكتب قط عن أحلامه، وهذا الحلم في الحقيقة لم يُكتب في اليوميات إلا بعد أشهر. ولم يستطع أن يتذكر إن كان يتحدث مع نفسه في الحلم، أو إن أحداً آخر تحدث معه. وكان قادراً على تذكُّر الكلمات فقط، ولكن هنا أيضاً لم يكن واضحاً مَنْ نطق بها حقاً: أتذكَّر هذه الكلمات: «انظروا، الآن يريد دمار نفسه». لكني لا أستطيع القول بيقين إن كان هذا لأني أنا مَنْ أراد الامتناع عن إرسال المخطوطة إلى المطبعة والتقرب منها – أو العكس، أنا مَنْ أصر على إرسال المخطوطة إلى المطبعة. وأستطيع أيضاً أن أتذكر الكلمات: «بالطبع لا...» – لكني لا أستطيع أن أتذكر بيقين إن كانت الكلمة التالية يهمك أو يهمني – إن المستشار مات». أستطيع أن أتذكر الكلمات لكني لا أتذكر الضمير المحدد: أنت – أو أنا – «يمكنك أو يمكنني الانتظار أسبوعاً أو نحو ذلك». أستطيع أن أتذكر الجواب: «مَنْ يظن نفسه؟»

في الفترة التي أعقبت ذلك حاول كيركغارد أن يفهم هذا المونولوج الحواري ولكن لم يصبح واضحاً له إلا في 7 آب/ أغسطس بأنه في ذلك الحديث الليلي كان حسي السليم وليس ذاتي الأفضل هو الذي أراد أن يضبط نفسي. وبذلك توصل إلى تحليل ضميري ولكنه ليس بالضرورة تحليلاً منطقياً لما تضمنه الحلم من ملاحظات وردود. ومع ذلك ظل كيركغارد غير قادر على أن يقرر إن كان كبريائي هو الذي أراد أن يكونِ جريئاً رغم وجود صوت تحذيري («انظروا،

إنه يريد الآن دمار نفسه») أو العكس تماماً، أي إن حسي السليم في الحقيقة هو الذي أراد أن يضبطني ويجعلني أنتظر أسبوعاً أو نحو ذلك، الأمر الذي كان سيدع كل شيء يعود إلى وضعه الطبيعي مرة أخرى، ولكان هذا هو دماري. من الواضح إن تفسير الحلم كان مفعَماً بالعذاب: أمر رهيب. إذ شعرت بمعاناة مثل آلام الموت.

عندما استيقظ كيركغارد في الصباح كان مشوشاً تماماً وفي حالة من الرهبة غير المحدَّدة. وكان الاتفاق مع المطبعة معقوداً بالطبع، وخاف من أن يصبح مغفلاً حقيقياً إذا هرع فجأة الآن بعد الصراع كل هذه الفترة الطويلة مع مسألة النشر، إلى المطبعة وألغى الكتاب. وسيكره بقوة أن يُضعف الانطباع الذي تكون لدى مالك المطبعة عن حسي التجاري. كان ذلك مأزقاً. فمن جهة شيء حدث أراد أن يحذرني، ومن الجهة الأخرى قرأ كيركغارد مؤخراً الروحاني الفرنسي فينيلون وقريبه الروحي جيرار تيرستيغن، وهو كاتب ديني ألماني. وتأثر كيركغارد تأثراً عميقاً بهذه القراءة وخاصة قول فينيلون بأنه سيكون من المرعب للشخص إذا كان الله يتوقع منه أكثر بعض الشيء. وهكذا لم يتمكن كيركغارد من أن يستبعد احتمال إن الوضع كان اختباراً، وفكر بأنه حين يرهب اللهُ شخصاً فإن ذلك لا يعني دائماً إن الله يحاول أن يمنعه من عمل شيء مخيف - بل إن الشيء المخيف قد يكون على وجه التحديد الشيء الذي يتعين عمله: يجب أن يُرعَب ليعلم أن عليه أن يفعله بخوف ورعدة.

خلال هذا القلق أصبح واضحاً له بأنه إذا أُريد نشر كتاب المرض حتى الموت أصلاً، سيتعين نشره باسم مستعار. وهنا حُسم الأمر. وبدأ العمل في المطبعة يوم 28 حزيران/ يونيو. وفي غمرة العملية كان هناك بعض الهراء مع رايتزل جعل كيركغارد نافد الصبر إلى أقصى حد حتى إنه كاد يستعيد المخطوطة ويضعها جانباً لتُنشر لاحقاً مع المخطوطات الأخرى وباسمه الصريح. ولم يكن الوقت فات على ذلك. فصفحة عنوان الكتاب لم تُنضَّد بعد، ولم يُتخذ قرار نهائي بشأن اسم المؤلف. ولكن عندما ذهب كيركغارد إلى لونو علم إن الكتاب مُنجَز في الغالب، وان الاسم ضد كليماكس مطبوع على صفحة العنوان بوصفه المؤلف. هكذا يجب أن يُساعَد المرء وهكذا يجب أن يساعِد نفسه حين يكون الفعل صعباً، كما شرح كيركغارد لنفسه في يومياته حيث نعلم أيضاً إنه حذف من المخطوطة المقاطع التي تشير إليَّ وإلى حقائق تتعلق بعملي كاتباً،

لا يمكن أن يقولها شخص شاعري (اسم مستعار)، ولم تبق إلا لمسات قليلة من النوع المناسب لشخصية شعرية. وهكذا كان بمقدور كيركغارد أن يتنفس بسهولة مرة أخرى، وأن يفكر بصفاء وينظر إلى الوراء: يجب أن أعتذر وألوم نفسي لأن الكثير مما كُتب في هذه اليوميات سابقاً هو محاولة لتمجيد نفسي، سيسامحني الله عليها. حتى الآن كنتُ شاعراً، وليس أكثر من ذلك قطعاً، وكانت الرغبة في تخطي حدودي معركة يائسة... لذلك سيصدر كتاب المرض حتى الموت الآن ولكن باسم مستعار، وأنا نفسي المحرر. وهو كتاب موصوف للتثقيف، وهذا أكثر من خانتي، خانة الشاعر في التثقيف... الاسم المستعار هو يوهانس ضد - كليماكس، في مواجهة كليماكس، الذي قال إنه ليس مسيحياً. ضد - كليماكس هو الطرف النقيض: أن يكون مسيحياً إلى درجة استثنائية. وياليتني أستطيع أن أصبح حتى مسيحياً بسيطاً تماماً.

في 30 تموز/ يوليو 1849 نشرت صحيفة أدرسيفيسن بعددها رقم 176 إعلاناً عن المرض حتى الموت: عَرْضٌ نفسيٌ مسيحيٌ للتثقيف والتوعية. كان الكتاب يقع في 136 صفحة مع سبع صفحات إضافية لجدول المحتويات والمدخل. وكان من تأليف ضد - كليماكس لكن محرره رجل أخفى نفسه وراء الاسم أس. كيركغارد، أم يا ترى العكس؟ في كل الأحوال، يكشف الحلم الغامض إلى أي حد أصبح كيركغارد والأسماء المستعارة قريبين من بعضهم البعض، ولكن بالإمكان النظر إليه على أنه هامش ذو مفارقة في النظريات التجريدية، في أحيان كثيرة، التي تُطرح آخر زمن زاعمة تفسير الأسباب التي ربما كانت لدى كيركغارد لنشر أعمال بأسماء مستعارة. وفي هذه الحالة كان السبب التقاء جملة عوامل مختلفة بلا ميعاد: وفاة مفاجئة، حلم مقلق، عامل تنضيد لديه من الفراغ في تقويمه أكثر مما كان يراهن عليه.

الرسالة المختومة لمستر ومسز شليغل

في 1 تموز/ يوليو 1849، يوم الأحد التالي بعد وفاة المستشار أولسن، كانت ريجينة في كنيسة الروح القدس مع كل عائلتها. وكان كيركغارد هناك أيضاً. وكان كيركغارد دائماً يترك الكنيسة بعد الموعظة مباشرة في حين كانت ريجينة تبقى جالسة عادة. ولكنها في يوم الأحد هذا غادرت هي أيضاً يرافقها زوجها، بعد فترة قصيرة على قول القس كولتهوف آمين: كما إنها دبرت أُموراً بحيث

التقينا بهذا القدر أو ذاك عندما مررتُ تحت مقصورة فرقة الغناء الجماعي. وربما كانت حتى تتوقع مني أن أُحيِّيها. لكني أبقيتُ عيني لنفسي... وربما كان من محاسن الصدف إني تجشمتُ كل ذلك العناء في المطبعة وقتذاك لأنه لو لا ذلك لربما ذهبتُ إليها وبادرتُ ببعض المقدمات - على الضد مباشرة من فهمي السابق بأن والدها هو الشخص الوحيد الذي لعلِّي أرغب - وأجرؤ - في الاتصال به. ربما ترى هي عكس ذلك، ربما تظن إنه بالذات الشخص الذي وقف في طريق قيامي بأي نوع من التقرب. الله يعلم كم أنا نفسي أشعر بالحاجة إلى أن أكون رقيقاً معها - من الناحية الإنسانية - لكني لا أجرؤ. ومع ذلك فإن الأمر كما لو أن الحاكمية الإلهية تريد منعه - ربما عن معرفة بما سيعقب ذلك. وفي 22 تموز/ يوليو، المرة التالية التي ألقى فيها كولتهوف موعظة، كان كيركغارد مرة أخرى جالساً في كنيسة الروح القدس ولكن في يوم الأحد ذاك لم تحضر ريجينة.

كنيسة الروح القدس لم تكن المكان الوحيد الذي التقيا فيه بل كانا كثيراً ما يريان أحدهما الآخر في كنيسة القلعة حيث كان هو يجلس في مقعده المعتاد وكانت هي تجلس على مقربة منه تماماً. ومر وقت في كانون الثاني/ يناير 1850 حدث خلاله نوع من تكرار الموقف المحرِج السابق: ريجينة غادرت فور انتهاء الموعظة فوجدت نفسها برفقة كيركغارد الذي سجل الموقف في يومياته، بما في ذلك في كتابته عن إحدى الصور القليلة لنفسه منظوراً إليها من الخارج: خارج باب الكنيسة التفتَتْ ورأتني. وقفتْ في منحنى الممر على يسار الكنيسة. أنا انعطفتُ يميناً كما أفعل دائماً لأني أُحب أن أمشي مخترقاً الرواق. ويكون رأسي مائلاً بصورة طبيعية إلى اليمين. وعندما استدرتُ ربما أحنيتُ رأسي بصورة ملحوظة بعض الشيء أكثر من المعتاد. ثم مضيتُ في سبيلي وهي في سبيلها. بعد ذلك وبَّختُ نفسي حقاً أو بالأحرى قلقتُ من إنها ربما لاحظت تلك الحركة وفهمتها إيماءة تشير إلى أنها يجب أن تمشي معي. الأرجح إنها لم تلحظها على الإطلاق، وفي كل الأحوال كان سيتعين عليَّ أن اترك الأمر لها إن كانت تريد التحدث معي - وفي تلك الحالة سيكون سؤالي الأول إن كانت لديها موافقة من شلغيل على ذلك.

كان الاثنان يلتقيان مع أحدهما الآخر في كل ركن من المكان. وفي الفقرة نفسها من اليوميات عام 1850 كتب كيركغارد إنه وريجينة كانا لأكثر من شهر

نرى أحدنا الآخر كل يوم مبارك تقريباً، أو على الأقل مرتين بعد كل يوم. وتابع: أنا أقوم بنزهتي المعتادة في المشي على امتداد السور. والآن هي أيضاً تمشي هناك. وتأتي هي إلى هناك إما مع كورديليا أو بمفردها ثم دائماً تمشي عادة من الطريق نفسه، بمفردها. وبالتالي فإنها تلاقيني في المرتين على السواء. وهذا ليس تماماً مصادفة بكل تأكيد. وهو على الأرجح لم يكن مصادفة، مثلما يبدو أكثر من مصادفة إن كيركغارد ارتكب زلة قلم نزلت من السماء عندما كتب كورديليا بدلاً من كورنيليا، اسم شقيقة ريجينة. والأكثر من ذلك إن كيركغارد كان على اقتناع بأنه إذا أرادت ريجينة أن تكلمه فقد كان هناك الكثير من الفرص. وكان مقتنعاً على الغرار نفسه بأن ريجينة تمتلك الشجاعة المطلوبة للاقتراب منه، لأنها في الحقيقة خلال الفترة التي أعقبت فسخ خطوبتنا وفترة خطوبتها لشليغل، أرسلتْ إيماءة برقية صغيرة بحثاً عن تلميح مني، وتلقتْه بالفعل. أما شليغل فإن كيركغارد كان متأكداً تماماً من إن قضيته بأيدي أمينة معي لأنها لا تهمني إلا إذا كان ذلك برضاه. فإن علاقة معها فيها أدنى أثر من nefas – أوه، رباه – يكون في هذه الحالة إن الناس لا يعرفون مَنْ أنا.

لكن شليغل كان يعرف جيداً مَنْ هو كيركغارد، وكان يعرف أيضاً إن nefas كلمة لاتينية تعني في الحقيقة فعلاً يخرق فيه المرء شرع الله، فضيحة، ولكنها تُستخدم أيضاً بالارتباط مع الزنى. ولا مكان لمثل هذا الكلام، كما وعد كيركغارد، ولكن كما هو معرف جيداً فإن هناك درجات عديدة للزنى، وإن إيماءة برقية صغيرة ليست بريئة كما أراد كيركغارد أن يوحي.

في 24 آب/ أغسطس 1849 بدأ كيركغارد يحفظ دفتراً منفصلاً من الفقرات التي يكتبها في يومياته، وأعطى له العنوان علاقتي معها، يقدِّم فيه عرضاً كاملاً نسبياً ودقيقاً إلى حد ما من الناحية التاريخية لمجرى الخطوبة، عرضاً شكَّل الأساس للتأويلات التي قدمتها أجيال لاحقة. ورغم إن الفقرات أُريد لها أن تكون وكُتبت كي تكون تقريراً للتاريخ فإنها مع ذلك أثارت عند كيركغارد الدفق العاطفي لرغبة في التحدث مع ريجينة التي لم يسمع صوتها منذ حوالي ثمانية أعوام. ولكنه لكي يسمع صوتها يحتاج إلى موافقة شليغل وإلا فإنه يخاطر بارتكاب nefas.

لذلك، بعد ثلاثة أشهر، في 19 تشرين الثاني/ نوفمبر 1849، تلقى، الذي

يحمل لقب مدير مكتب، رسالة من أشد الرسائل التي تسلمها غرابة، أو بالأحرى رسالتين. وكما لو إن كيركغارد نسخة من فكتور إريميتا تستهويه الصناديق الصينية المصفوفة صندوق داخل صندوق، فإنه وضع داخل الرسالة الأولى ظرفاً مختوماً يحوي رسالة أُخرى يُطلب فيها من مدير المكتب أن يعطيها إلى ريجينة، الفرد الأوحد، التي وحدها - وحدها تماماً - يجب بعد ذلك أن تعرف محتويات الرسالة. ولا يُعرف نص الرسالة الموجهة إلى شليغل على وجه الدقة ولكن المسودة النهائية في سلسلة من المسودات التي تزداد اختصاراً بإطراد تقول الآتي:

سيدي المحترم:

الرسالة المرفقة مني (أس. كيركغارد) إلى - زوجتك. وأنتَ نفسك يجب أن تقرر الآن إن كنت ستنقلها إليها أو لا، لأني بالطبع لا أستطيع الدفاع عن التقرب منها، ولا سيّما الآن، بعد أن أصبحتْ امرأتك، ولهذا السبب لم أغتنم قط الفرصة التي سنحت - وربما كانت سانحة - منذ عدد من السنين. وأعتقد أنّ معلومة صغيرة عن علاقتي بها قد تكون مفيدة لها الآن. وإذا لم توافق هل لي أن أطلب منك إعادة الرسالة غير مفتوحة، ولكن أن تبلغها بذلك أيضاً. أنا أردتُ أن أتخذ هذه الخطوة - التي أشعر إني ملزَم بها التزاماً دينياً - وأن أفعل ذلك كتابةً لأني أخشى إن شخصيتي المتميزة، التي لعلها كانت ذات تأثير بالغ في وقت من الأوقات، قد تكون مرة أخرى ذات تأثير بالغ وبالتالي مقلقة بطريقة ما - لي الشرف [أن أكون]، إلخ.

يبدو أن مدير المكتب لم يعتقد بأن تقديم معلومة عن العلاقة بين كاتب الرسالة وزوجته يمكن أن تخدم أي غرض مهما كان، ولذلك أعاد الرسالة غير مفتوحة. ولا يمكن أن يُلام على قيامه بذلك. وهو لم يكن يتصرف بموجب الرغبات الواضحة لكاتب الرسالة فحسب بل كانت لديه أسباب وجيهة للانزعاج من التعليق - المصاغ ديالكتيكياً بكل تأكيد لكنه واضح على نحو لا تخطئه العين أيضاً - بما معناه إن زوجته قدمت نفسها طيلة عدد من السنوات، إلى كاتب الرسالة الذي سببت شخصيته المتميزة قلقاً بالغاً قبل ذلك. نعم، والحق يُقال!

من المفهوم تماماً إن شليغل لم يجد ما يغريه للاستعانة بخدمات اتصال غير

مباشر بل يكون الأمر مفهوماً حتى أكثر عندما نقدِّر الأفكار الغريبة التي كانت تدور في ذهن كيركغارد. ويمكن أن نرى ذلك في إحدى مسودات الرسالة الموجهة إلى شليغل: إذا كان ردُّك بالإيجاب، يجب أن أضع مسبقاً شرطين اثنين في حالة ألا ترى سبباً لأن تضعهما أنتَ نفسك. فإذا أُريد للتبادل بيننا أن يجري كتابةً، أشترطُ ألا تصل رسالة مني إليها دون أن تكون أنتَ قرأتها، مثلما لن أقرأ أنا أي رسالة منها ما لم تحمل توقيعك شاهداً على أنك قرأتها. وإذا أُريد للتبادل أن يكون شفاهاً فأشترط أن تكون أنت حاضراً خلال كل حديث.

ليس بعيداً عن العقل أن نسأل ماذا كان حقاً يدور في ذهن كيركغارد. هل كان يظن جاداً إن مدير المكتب سيجلس ويراقب رسائله ويضع توقيعه أيضاً على الرسائل التي قد تكتبها ريجينة إلى كيركغارد؟ والفكرة القائلة إن شليغل سيكون شاهداً على الأحاديث بين منافسه السابق وزوجته الحالية فكرة لا معقولة حتى أكثر. فما الذي سيتحدثان عنه؟ لا شيء في العالم. وسيتعين عليهما الحديث باللف والدوران طول الوقت، وفي الغرف الهادئة سرعان ما سيكون من الممكن أن يُسمع سقوط إبرة تلو أخرى. باختصار، ليس من المحيِّر بالمرة إن شليغل قال كلا، شكراً للاقتراح الداعي إلى أن يفتح باب بيته لكيركغارد صديقاً إفلاطونياً للعائلة.

لكن كيركغارد كان أكثر من محتار، وعندما أُعيدت الرسالة المختومة إليه بعد يومين، في 21 تشرين الثاني/ نوفمبر، كتب بلغة لاذعة إن السيد المحترم أرفق بها رسالة منه غاضبة ذات وعظ أخلاقي. وما أن فرغ كيركغارد من قراءة هذه الرسالة حتى رماها في نار كانت تشتعل قربه. وكتب لاحقاً إن شليغل استبد به غضب شديد ولن «يطيق أي تدخل من أحد آخر في العلاقة بينه وبين زوجته» بأي حال من الأحوال.

وهكذا فإننا لا نعرف محتويات رسالة شليغل. كما لا نعرف ما هي المعلومة التي أراد كيركغارد إيصالها إلى ريجينة، معلومة ستُوفر عليها معرفتها الآن – أو ربما خُدعت بعدم معرفتها. ولكن هنا، مرة أخرى، هناك عدد كبير من المسودات الباقية، آخرها ربما لا تختلف اختلافاً كبيراً عما كان في الرسالة المختومة، التي بدروها ربما لم تكن مختلفة عن المعلومات الحميمية الخاصة التي كان كيركغارد عموماً يحذفها من يومياته. ولكن إذا كنا نتوقع أن نجد

توضيحاً لا إبهام فيه لعلاقتهما فإننا سنصاب بخيبة أمل لأن مسودة الرسالة تقول: كنتُ قاسياً، وهذا صحيح. لماذا؟ حسناً، إن هذا شيء أنتِ لا تعرفينه. كنتُ صامتاً، وهذا مؤكد. الله وحده يعلم ما عانيته – وإن شاء الله عندما أتكلم، حتى إذا تكلمتُ الآن، ألا يكون ذلك قبل الأوان! لم أستطع الزواج. وحتى إذا كنتِ لا تزالين حرة، لا أستطيع. لكنكِ كنتِ تحبّيني، مثلما كنتُ أُحبك. أنا مدين لكِ بالكثير – وها أنتِ الآن متزوجة. حسناً إذاً، للمرة الثانية أعرض عليكِ ما أستطيع وأجرؤ وينبغي أن أعرضه عليكِ: المصالحة. وفي وقت من الأوقات كتب كيركغارد في البداية محبتي، أي محبة للصداقة، بما يعني ضمناً المصالحة: يبدو أنّ هذه كانت صيغة قوية فاختصرها ببساطة إلى صداقتي، ولكن هذه كانت لم تزل صيغة عاطفية للغاية ولذلك غيَّرها إلى مفردة المصالحة التي تبدو تعاقدية بعض الشيء. وتابع كيركغارد: أنا أفعل هذا كتابةً لكيلا أُفاجئُك أو أُكثِر عليكِ. مر وقت ربما كان لشخصيتي تأثير قوي للغاية، وهذا يجب ألا يحدث مرة أخرى. ولكن بحق الله في السماء فكري بعناية إن كنتِ تجرُئين على أن تصبح لك علاقة بهذا، وفي هذه الحالة إن كنتِ ترغبين في الحديث معي على الفور أو تفضلين تبادل بعض الرسائل أولاً. إذا كان ردك بالنفي – حسناً إذاً، بحق السماء تذكّري إني في كل الأحوال كنتُ صاحب الخطوة الأولى.

في كل الأحوال أبقى – كما في البداية
حتى هذه النقطة النهائية – المخلص
والوفي بالكامل لك
أس. كي.

هذه الخاتمة الطويلة الاستطرادية بعض الشيء تبدو من الناحية العملية نثراً مرعوباً، متجمداً في الشكلية، لكنه في الواقع نقيض ذلك تقريباً: إنه نثر حميمي، والكلمات اختيرت بعناية فائقة لأنها، مع بعض المتغيرات القليلة، تكرار للخاتمة التي أنهى مايكل بيدرسن كيركغارد بها رسالته إلى سورين آبي الذي في صيف 1835 أقام في غيليليه لكي يجد نفسه، إن أمكن. والآن، بعد سنوات عديدة إزال كيركغارد الختم عن شفتيه وكتب رسالة مختومة لكي يجد نفسه، إن أمكن، إزاء امرأة متزوجة لم يستطع أن يحرر نفسه. منها وبالنظر إلى تسلسل المسودات نستطيع أن نرى كيف أنه حاول منهجياً أن يخلِّص الرسالة

من الحسية التي كادت تقطر بشكل ملموس من قلمه كلما فكر في ريجينة. وهكذا كتب في المسودة الأولى التي تمتد عدة صفحات: شكراً، أوه، شكراً! أشكركِ على كل شيء أُدين به لكِ، أشكركِ على الوقت الذي كنتِ فيه مُلكي، أشكركِ على صِفاتكِ الطفولية التي تعلمتُ منها الكثير - أنتِ معلمتي الساحرة، أنتِ معلمتي الرائعة. أنتِ الزنبقة الجميلة، أنتِ، معلمتي. أنتِ الطائر الأثيري، أنتِ معلمتي. وعندما نتذكر إن كيركغارد في موضع آخر أصر على أنه ليس لديه إلا معلمان هما المسيح وسقراط، لا يكون لدى ريجينة سبب للشعور بأنها خُدعت.

واقعة الرسالة المختومة تجعل من الواضح إنه حتى بعد ثماني سنوات على فسخ الخطوبة، كان كيركغارد لم يزل مهووساً تقريباً بريجينة، لكنه كان إيضاً يخاف طبيعتها، عاطفتها المتقدة، جسدها. ومرة تلو الأخرى، حتى لو بطريقة خفية قليلاً، نجد صياغات في يوميات كيركغارد تصور ريجينة كائناً يتفجر طاقة إيروتيكية. وهنا مثال من إحدى مسودات الرسالة المختومة أُريد لها أن تكون موجهة إلى ريجينة: أنتِ كنتِ الحبيبة، الحبيبة الوحيدة. كنتِ الأحب عندما تعين أن أتركِكِ، حتى إذا أحزنتيني إلى حد ما بانفعالك الذي لم يكن قادراً على فهم أي شيء أو راغباً في فهم أي شيء. ولاحقاً، في مسودة أخرى: لهذه الأسباب أيضاً، إذا رغبتِ في أن تتحدثي معي فأنا أعتزم أن أنتقدكِ انتقاداً لاذعاً لأنكِ في عاطفتك المتقدة تخطيتِ ذات مرة حدوداً معينة.

نجد من المغري أن نسأل، أي حدود هذه، وأي خبرات كانت تكمن وراء قول من قبيل: فيما يتعلق «بها»، أنا دائماً مستعد وراغب - بل وحتى بحماسة أشد - لعمل أي شيء يمكن أن يسعدها أو يفرحها. لكني دائماً أخشى عاطفتها المتقدة. أنا ضامن زيجتها. وإذا فهمتْ موقفي الحقيقي فإنها ربما ستفقد فجأة رغبتها في الزواج. وا أسفاه، أعرفها معرفة جيدة. ما الذي كان كيركغارد يعرفه معرفة جيدة - بل جيدة حتى إنه انكمش عن أن يقول للقارئ ما هي؟ ولماذا كان يخشى إن ريجينة يمكن أن تفقد رغبتها في الزواج؟ ألا يجوز أن تكون الحقيقة في الواقع إن كيركغارد كان عليه أن يكتب دفاعات القاضي وليام الطويلة عن شرعية الزواج الجمالية ليقنع ريجينة غير المصدِّقة والغاضبة بأن مؤسسة الزواج مؤسسة مجدية رغم كل شيء؟

على أية حال إن نوعية عاطفتها التي لا تُسبر موضوعة متكررة في يوميات كيركغارد بحيث لا بد أن تكون هناك خبرات مخيفة بعمق وراءها. ففي عام 1849 مثلاً كتب: ربما حتى الزواج كله قناع، وهي أكثر التصاقاً بي عاطفياً من ذي قبل. وفي هذه الحالة كل شيء سيضيع. أنا أعرف جيداً ما هي قادرة عليه حين تمسك بي. ليس غاوياً من تكلَّم هكذا. الأرجح إنه شخص جرى إغواؤه، وكان خائفاً من أن يتكرر الإغواء ويكون في المرة الثانية إغواء عاصفاً حتى أكثر من المرة الأولى: وعليه، لنفترض إن العاطفة اتقدت مرة أخرى وإن لدينا القصة القديمة، مرفوعة إلى مستوى أعلى من الحدة. ولنفترض إنها فصمت عرى الزواج وتمردت على المواضعات ورمت نفسها عليَّ مستميتة، وإنها تريد الانفصال، وتريدني أن أتزوجها – ناهيكم عن ذاك الذي هو أشد رعباً.

لنا أن نفترض هنا، مرة أخرى، إن كيركغارد غارق في اهتمامات ربما كان من الأفضل توفيرها لأوقات أسوأ وغايات أفضل. إذ ما كان ليمكن أن نتخيل، إلا في فانتازيا متشنجة، إن ريجينة يمكن أن تطالب فجأة بالانفصال عن زوجها المتفهم فريتز الذي أنقذ سمعتها ووفر لها ضماناً مالياً. من جهة أخرى فإن الأفكار التي راودت كيركغارد عن العواقب المحتملة، جديرة بالملاحظة لأنها على ما يبدو تؤكد – بصدق – إن القواعد الكلاسيكية للسلوك الجنسي قُلبت: ريجينة كانت تتفجر طاقة إيروتيكية كأنها دون جيفاني من نوع ما في حين إن سورين آبي تطير وشعر إنه مطارَد. مثل زرلينا من نوع ما، تريد ولا تريد ذلك الذي هو حتى أشد رعباً.

تعال مرة أخرى في وقت آخر

جلس في غرفة الانتظار وقتاً طويلاً، ولكن الأسقف مينستر أبقاه ينتظر. وما كانت هذه المرة الأولى. فقبل ثلاثة أسابيع – في أوائل حزيران/ يونيو 1849 – جلس وانتظر هكذا تماماً، وعندما سُمح له أخيراً بالدخول، كان الأسقف مينستر يمشي بعصبية جيئة وذهاباً، عاجزاً عن أن يحمل نفسه على أن يقول أكثر من يا صديقي العزيز المرة تلو الأخرى، دون أن يكون كلامه موجهاً إلى أحد على وجه التعيين. وذكَّر المشهد الغريب كيركغارد بواقعة مشابهة قبل عام ونصف العام، عندما زار الأسقف ليعرف رأيه بكتاب أعمال الحب، وحتى حينذاك مر وقت طويل منذ تسلم الأسقف نسخة من الكتاب، مع إهداء طنان

عبَّر فيه كيركغارد عن إخلاصه العميق للأسقف. وفي تلك المناسبة لم يكد كيركغارد يدخل من الباب حتى سأله الأسقف بكلمات واضحة هل هناك شيء كنتَ تريده؟ وبالفعل كان هناك شيء - بل الشيء الكثير في الحقيقة - ولكن ليس بالشروط المعروضة.

كان كيركغارد يريد الآن أن يتحدث مع مينستر عن إمكانية تعيينه في الدير الرعوي، من بين أشياء أخرى. وأثار كيركغارد هذا الأمر سابقاً، في آذار/ مارس 1849، ولكن تلك الزيارة كانت في الحقيقة مناسبة بالدرجة الرئيسية لكي يثبت كيركغارد لنفسه إنه يستطيع فعلاً أن يطلب تعيينه في وظيفة: إذا عرضها أحد عليَّ فإنها لن تغريني. وكرر المحاولة لاحقاً رغم إنه لم يتمكن من رؤية الأسقف، وترك مقر سكن الأسقف مرة أخرى بمشاعر متناقضة من الارتياح والغضب، كما هو معهود في شخص لا يستطيع أن يقرر ما يريده حقاً. كما زار مكتب جي. أنْ. مادفيغ J. N. Madvig، وزير شؤون الكنيسة والتربية، ولكن الوزير أيضاً لم يكن موجوداً. ولذلك ذهب بعد فترة مرة ثانية لرؤية مينستر الذي كان يريد إبقاء كيركغارد بعيداً عن الطريق قدر الإمكان ولذلك حاول أن يستدرجه إلى منصب رعوي في أبعد أبرشية سيمكن تخيلها: ما أن تصبح منغمراً في شؤون الحياة العملية حتى تختفي بكل تأكيد. وسأل كيركغارد ما هذا الذي سيختفي؟ فأجاب مينستر دون أي أثر للتهكم إنه المثالية.

وجد كيركغارد هذا التعليق محرِجاً، لكنه بطريق ما كان يشترك بالأهداف نفسها التي يعتز بها الشيخ المحترم سوى إنه كان يريدها بمقام على السلَّم الكبير. وكانت هذه إحدى النقاط الرئيسية التي أراد كيركغارد الآن أن يطرحها في منزل الأسقف في ذلك الإثنين، 25 حزيران/ يونيو 1849 ولكن استعارته الموسيقية تفككت إلى نشاز لأنه عندما حضر مينستر أخيراً قدَّم مرة أخرى أداءه الإيمائي الغريب مكرراً عبارته «يا صديقي العزيز»، ربما ست أو سبع مرات، مثل دمية آلية، مع كونه طوال الوقت الأسقف ذاته إلى حد بعيد مربتاً على كتف مَنْ أقام له الأسقف في السابق طقوس سر الميرون. وقال تعال مرة أخرى في وقت آخر باستقبال مثبِّط على نحو غريب، دافعاً كيركغارد الذي استبد به الغضب إلى الوراء ونزول الدرَج ثم إلى البيت ومنضدة الكتابة حيث تمالك أعصابه أخيراً عندما أخذ قلمه ينفث سماً على صفحات يومياته.

كان مينستر كثيراً ما يتسبب في دفع قلم كيركغارد إلى التصرف بهذه الطريقة، ولكن الفترات الفاصلة بين القُطَع التي تقطر سماً أصبحت أقصر فأقصر في الآونة الأخيرة، ونال مينستر شرفاً مشكوكاً فيه هو كونه الشخصية المعاصرة التي ذكرها كيركغارد أكبر عدد من المرات في يومياته. وهكذا تشكلت سمعة مينستر بعد وفاته إلى حد كان سيخيفه، من حيث علاقته مع كيركغارد – الذي من جانبه لم يكتف بأخذ ريجينة وحدها معه إلى دخول التاريخ.

لكن مينستر كان له تاريخه ورغم أعبائه الإدارية المختلفة وزياراته الرسمية التي تستهلك الكثير من الوقت وعضويته في مجالس إدارة عدد لا يحصى من المنظمات فإنه استطاع أن يجد الوقت لكتابة مذكراته التي سماها بوعي اتصالات تتعلق بحياتي واستغرقت كتابتها أقل بقليل من عام واحد. وكانت المقدمة بتاريخ 2 شباط/ فبراير 1846، وفي 21 كانون الثاني/ يناير 1847 جفَّف حبر الصفحات النهائية. وبذلك وضع المخطوطة جانباً، لكنه عاد إليها مجدداً في 13 أيلول/ سبتمبر 1852، لأنه أراد أن يُجري بعض التغييرات الطفيفة في النبرة اليائسة التي أنهى ذكرياته بها في وقت سابق. ولكن العمل لم يُنشر إلا بعد أن اكتشف فريدريك يواخيم، نجل مينستر، المخطوطة – وفوجئ بها – أثناء تقليبه أوراق والده بعد وفاة الأسقف. وأضاف نجل مينستر مقدمة قصيرة وحاشية مختصرة ونشر المذكرات في منتصف نيسان/ أبريل 1854.

وهكذا بدأ مينستر سيرة حياته وأنجزها خلال الفترة التي بدأ كيركغارد يتردد فيها عليه بانتظام. ويبدو من مفارقات الحقد إن فقرات كيركغارد في يومياته التي تروي أحاديثهما أصبحت تشكل بداية قصة عن مينستر لم تُختتم خاتمة تختلف تماماً عن قصة مينستر نفسه عن نفسه فحسب بل لاقت قبولاً دون انتقاد من الأجيال اللاحقة التي نظرت إلى مينستر من وجهة نظر كيركغارد ولم تنظر قط إلى كيركغارد من وجهة نظر مينستر.

وكان هذا ينحو إلى تعميتنا عن أوجه الشبه الواضحة بين الرجلين.

ياكوب بيتر مينستر

يتوزع كتاب اتصالات تتعلق بحياتي على خمسة أقسام كبيرة تقدم سرداً زمنياً لحياة مينستر من الطفولة إلى الشيخوخة. ويوضح مينستر قرب نهاية الكتاب إن السيرة كُتبت بكثير من العجالة، وفي الغالب كانت فكرتها متسرعة

بالقدر نفسه. ولم يتسن لي الوقت ولا الرغبة لإعادة كتابتها، وكنتُ أشد ميلاً لرمي هذه الصفحات في النار. النبرة خامدة، وأحياناً جافة، وبعض الأحيان تهكمية مع شيء من السخرية. ويعبر الكتاب عن قدر ليس بالقليل من الاعتداد بالنفس، ولكن هذا كان معهوداً في ذلك الزمن، من جهة، وكثيراً ما يقابله إحساس غير مفتَعل بالدونية، من الجهة الأخرى - وفي كل الأحوال كان لدى مينستر بمرور السنين ما يجيز له في الحقيقة الاعتداد بنفسه. ومع ذلك تقول المقدمة بتواضع: في الخارج، كان في حياتي القليل من الأحداث الاستثنائية بحيث يمكن تلخيصها في بضعة سطور. أما حياتي الداخلية فلن يكون تقديمها بدرجة معقولة من الصدق مهمة سهلة، ليس هذا فحسب بل إن هناك أيضاً بعض الخجل المرتبط بهذا النوع من التعري أمام آخرين. وسيبدو الكثير مما أثَّر فيَّ بكل عمق طفولياً ومثيراً للسخرية لغالبية الأشخاص. لذلك يجب ألا نتوقع اعترافات حميمة من مينستر. وكان هناك بالتأكيد ما يكفي من مواطن الضعف لاستعراضها، لكني لستُ مغروراً بحيث أسعى إلى لفت الانتباه إلى نفسي بالحديث عن كل موطن ضعف ومثلبة أعلَمُ بها.

ولد ياكوب بيتر مينستر في 8 تشرين الثاني/ نوفمبر 1775، الابن الأصغر لكريستيان غوتسون مينستر، وهو حقوقي ولاحقاً مسؤول في مستشفى فريدريك، توفي بالتدرن الرئوي عن خمسة وثلاثين عاماً فقط. وبعد وفاته بفترة قصيرة تزوجت فريدريكة نيكولين كريستيانة، والدة مينستر التي تُركت مع ولدين، هما أولي هايرونيموس الذي كان في الخامسة وياكوب بيتر الذي كان في الثانية، من أف. أيل. بانغ، رئيس الأطباء في المستشفى، الذي أصبح فيما بعد أُستاذاً في الطب أيضاً. ويكتب مينستر إن رحلتي الأولى كانت بذلك من أحد جوانب المستشفى إلى الجانب الآخر. كان الزواج قصير العمر. إذ توفت فريدريكة حين كان ياكوب بيتر في الرابعة من العمر. وتركت رسالة إلى كل من ولديها، حذرت في إحداهما أولي من تقلبه الشديد فيما كتبت إلى ياكوب بيتر، إنك منذ طفولتك المبكرة أبديتَ طبعاً يابساً وجامداً ذرفت الكثير من الدموع بسببه. ورغم ما طرأ من تحسن ملحوظ فإني ما زلتُ ألحظ إنك تفضل أن تُعاقَب على أن تتنازل. وتذكَّر مينستر وقوفه أمام قبر والديه حين كان شاباً، وبعد فترة قصيرة دُمرت كنيسة نيكولاي والمقبرة المجاورة في الحريق الكبير عام 1795، والمكان الآن سوق لبيع اللحوم.

تزوج رئيس الأطباء بانغ من جديد بعد فترة قصيرة، مرة أخرى من أرملة، ولكنها هي أيضاً توفت بعد عامين عن سبعة وعشرين عاماً. وبعد خمسة أشهر فقط تزوج بانغ للمرة الثالثة، الآن من فتاة ذات ستة عشر ربيعاً اسمها لوزي هانسن. وكانت ابنة قس تَقَوي، رغم إن هذا الانتماء لم يكبح طبيعتها العاطفية. وكانت فتاة مليئة بحب الحياة، كريمة وإن كانت هستيرية - كثيراً ما تنتابها تشنجات في منتهى الشدة - وأنجبت تسعة أطفال، خمسة منهم توفوا في سن مبكرة. وإزاء ذلك كله كانت إدارة المنزل تعاني من الإهمال بعض الشيء فتعين استقدام الحماة، وهي سيدة محترمة حضرت ومعها اثنتان من بناتها.

كان والدي، وهو رجل حيوي يميل إلى البدانة، ودوداً كل الود - حين لم تكن هناك مشكلات - اجتماعياً في طبعه، كما كتب مينستر عن زوج أُمه، الذي على الأرجح كانت له مشكلات كثيرة معه. كل شيء كان بسهولة يترك في نفسه أثراً قوياً. وكانت كل صعوبة تجلب معها زفرة أو توبيخاً منه، مع استمرار هذا الأخير عدة أيام في بعض الأحيان. كان زوج الأم من طبيعة بسيطة ويعتقد أنّ الشعر للنساء والشباب فقط، وكان يصر على تعليم نفسه بنفسه لكنه لم يكن يقرأ أي شيء، الأمر جعل آراءه أحادية الجانب وتافهة بصورة متزايدة.

لكن أسوأ ما في الأمر إنه كان مزيجاً صعباً من رجل مرح ورجل تَقَوي أو - على حد تعبير ابن زوجته - رجلاً أشد إخلاصاً وحيوية مما يمكن أن يسميه المرء باهتاً. ورغم إنه نفسه لم يدخل كنيسة ذات يوم فقد كان يجبر الأطفال على الذهاب، وحين يعودون إلى البيت منهَكين، كان يطالبهم بتقديم تقارير مستفيضة عن موعظة اليوم ويمتحنهم في فصل من الكتاب المقدس. كما إن الصلوات الكثيرة في البيت كانت لا تُطاق. وكانت العائلة كلها تجتمع في الصالون لمراقبة الرجل البدين يتصفح يومياته باحثاً عن شيء يسلّي به المجتمعين. وكان هذا الشيء عادة أفكاراً استطرادية تافهة بعض الشيء عن خطيئة العالم وعدم إيمانه، ولكن عن مواطن ضعفه أيضاً. وكان ضرر هذه التمارين الورعة أكثر من نفعها، وغرست في نفس مينستر قرفاً حقيقياً من كل شيء يمكن حتى أن يوحي بتَقَوية غليظة. ورغم كل ذلك سيتعين أن يمر جيل تقريباً قبل أن يتوصل مينستر إلى قناعة شخصية بأن المسيح ليس بُعبعاً كانوا يخيفونني به في طفولتي.

عندما تنتهي الصلوات المسائية البشعة كان ياكوب بيتر وأولي مع البعض من أصدقائهما اليافعين يصعدون إلى الغرفة الكائنة في الطابق الثاني، الغرفة رقم 5 في الرواق، لشيء من المتعة. وكانوا يجلبون معهم كتبهم المفضلة وشيئاً يدخنونه ولكن إذا نسي أحد منهم تبغه فلا ضير لأنه كانت في الغرفة أيضاً نارجيلة طويلة من جزر الهند الشرقية كان الدخان يحدث فيها الكثير من الضوضاء حين يمر في الماء ويطلق رائحة كريهة. وكان أصدقاء أولي، بمن فيهم هنريك ستيفنس وغروندتفيغ، الذي كان نجل شقيقة زوج الأم الصارم، يلتقون هناك حيث يناقشون الفلسفة وعلم الجمال ويعبرون عن تأييدهم لمُثل الثورة الفرنسية. وكان نجم المجموعة ستيفنس الذي كان يتحمس بصفة خاصة للجيولوجيا وروح العالم، وبعده أولي الذي كان يعرف كل شيء ومشغولاً على الدوام بشيء ما ولكن كانت لديه مسحة كسل فاسدة فضلاً عن إحساس معين بالبعد عن قدراته. وشكّل الشبان الثلاثة فيما بعد جمعية مناظرات صغيرة أطلقوا عليها الاسم الطنان Trifolium نفل المروج وكان الهدف منها تقسية روحهم وشحذ تمكنهم من اللغة اللاتينية.

عندما كان مينستر يعود بأنظاره إلى سنواته وقت كان ياكوب بيتر الصغير، لم تكن العاطفة توجّه قلمه. صحيح إن الزمن وقوى الطبيعة خففت طبع زوج أمه الجامد إلى حد ما، ولكن في تلك الأيام كان وقت كل وجبة تقريباً يُطعَّم بمحاضرات تأديبية مريرة طويلة، وفي أحيان كثيرة كانت عاصفة رهيبة تنفجر فجأة من لا مكان... وكنا نرتجف حين كنا نُستدعى على حين غرة لرؤية والدي، وأحياناً كنا نتسلم رسائل طويلة بأشد اللهجات قسوة. وهكذا لم يكن لدى مينستر صبر للطريقة العاطفية التي كثيراً ما كانت طفولته تُصوَّر بها على أنها طفولة سعيدة، بل إن مينستر ذهب إلى أن ترانيم المديح لمباهج الشباب التي لا تُحصى مبنية في الغالب على وهم، وإن النور المجيد لبضع ساعات أو بضعة أيام يوجَّه بحيث يشع استرجاعياً على الشباب بأكمله. وضغوط الحاضر تُنسي المرء الضغوط التي عاناها من الماضي.

تعلّم ياكوب بيتر على يد سلسلة من الأساتذة الخصوصيين. ولم يُرسل ياكوب بيتر للتعلم في مدرسة لاتينية تنتمي إلى كنيسة سيدتنا لمدة عام إلا بعد أن أُصيب أحد أساتذته بالجنون وبدأ يعلن بتعصب عودة المسيح الوشيكة. وكان الأطفال يلعبون خلال وقت فراغهم في باحة المستشفى أو في دهاليزه

الطويلة وغرفه الهادئة، حيث كانت توضع جثث توفر خلفية مثلى لقصص الأشباح التي كانت الخادمة ترويها حين يتجمع الأطفال في دار الحضانة وقت الغسق. وفي الصيف كانت أكبر تسلية عند العائلة عصر يوم الأحد أن تخرج في نزهة من المشي في حدائق فريدريكسبيرغ وتناول الشاي في مطعم مناسب، وفي ليالي الشتاء المُقمرة يطوفون حول أروقة القصر. وباستثناء المجموعة الرائعة من أصداف المحار التي يملكها والد أحد أساتذة ياكوب بيتر الخصوصيين فإن طفولته لم تمنحه فرصاً كثيرة للهو: لم يكن لدينا الكثير من اللُعَب أو اللوازم الأخرى.

كان بديل كل هذا المَلل هو الكتب، وفي سن مبكرة انصرف مينستر إلى القراءة بحماسة شديدة وخطط طويلة الأمد: أن أكون كاتباً كان، في حدود ما تسعفني الذاكرة، دائماً يمثل أرقى أشكال السعادة عندي. وكان ينسخ في السر مقاطع من أعمال في علوم الطبيعة على ورق رقيق ثم يستمتع بغمس الصفحات في الماء لكي تبدو وكأنها خرجت تواً من المطبعة! كما اشتمل نتاج مينستر الأدبي على كتابة بعض القصائد من نظمِه، قدم الأسقف العجوز مختارات ذكية منها في مذكراته، مصحوبة عادة بنقد لاذع. كما إنه لم يكن متساهلاً في محاكمة نفسه حين كان شاباً: مزاجي وفظ، كما كتب عن طَبْعِه مستكملاً هذا الوصف بمفردات مثل متشنج، مقتضب، خجول، دائم الخوف من أن يكون عبئاً على الآخرين. وظل مينستر يدرك بألم إنه لم يتغير تغيراً ملحوظاً في هذه النقطة الأخيرة: في أحيان كثيرة تماماً، ربما ما زال أشخاص ينظرون على أنه انعزال إلى ما هو أساساً مجرد خوف من الإثقال على الآخرين بالاقتراب منهم، أو الخوف من التصرف تصرفاً أخرق. فلا غرو إن هذا الطفل الخجول بدأ يمارس لعبة التظاهر ولبعض الوقت اغتنم فرصة الظهور على الخشبة في مسرح صغير في نيهافن حين كان ناجحاً بصفة خاصة في أداء أدوار نسائية. وعندما قام بدور إيلسا في مسرحية الحساس إلى حد يثير السخرية بدا جميلاً حتى إن ضيفاً أبلغه لاحقاً إنه كان سيقع في غرامه لولا قضية صغيرة هي إنه ليس امرأة.

في سن الخامسة عشرة أدى ياكوب بيتر امتحانات القبول في الجامعة ونال أعلى الدرجات في كل المواضيع، وفي ذلك العام نفسه، 1790، دخل الجامعة لدراسة اللاهوت حسب مشيئة زوج أمه. وكان يحضر الدروس بقدر معقول من الاجتهاد لكنه وجدها تعليمية بالحد الأدنى لا أكثر. والآن أصبح مينستر

الذي كان منذ زمن طويل ضئيل الجسم وناعم الصوت، بصورة مفاجئة شخصاً طويلاً هزيلاً ظن الجميع إنه سيموت مسلولاً... ونتيجة هذا النمو السريع كنتُ ضعيف الأعصاب، كثير المرض، من دون علَّة حقيقية. وفي 14 تموز/ يوليو 1794، قبل أن يبلغ التاسعة عشرة، تخرج من الجامعة بشهادة في اللاهوت بعد أن نال درجات شرف في كل المواضيع.

لم يضطر مينستر إلى أن يجشم نفسه عناء التفكير فيما سيفعله تالياً. فإن زوج أُمه قرر منذ زمن طويل أن يكون معلِّماً خصوصياً لنجل الكونت يواخيم غودسكه مولتكه الوحيد، آدم فيلهلم البالغ من العمر تسعة أعوام. وامتثل ابن الزوجة لرغبات زوج أُمه. فعنده هذه الوظيفة أو تلك لا تختلف عن الأخرى لأن شيئاً واحداً هو المهم في الأساس: إن المهمة التي كانت تواجهني باستمرار وكادت تلتهمني وأوصلتني مرات عديدة إلى حافة اليأس هي كيف سأكون أي شيء بالمعنى الروحي. ولا يسعنا إلا أن نتذكر إن كيركغارد لم يكن أول شخص يبحث عن فكرة يحيا ويموت من أجلها.

في عام 1784 استقال مولتكه من رئاسة الوزراء وكان الآن يمضي مواسم الصيف في بريغينفيد، ضيعته، ومواسم الشتاء في قصره في كوبنهاغن. وكانت زوجته الكونتيسة جورجينا، رقيقة، لطيفة، هادئة - بل خجولاً - وكقاعدة كان مينستر لا يرى إلا أفراد طاقم الخدم في وجبة المساء التي كان من بين ضيوفها سكرتير خاص عجوز يتكلم الألمانية وشقيقة الكونت السقيمة، التي كانت تعيش في الضيعة. والحديث حول المائدة لم يكن حيوياً جداً، والجو عتيقاً بشكل غريب والنبرة دائماً جافة، ولذلك عندما تنتهي الوجبة كان الجميع يأوون إلى الفراش - باستثناء المعلم الخصوصي الذي كان يحب قضاء ساعات الليل برفقة كتاب.

كانت أعـوام مينستر الثمانية في الضيعة قبل كل شيء أعواماً مع الكتب - كتب طوَّرته وأنضجته. وتفتحت مجالات جديدة وغير متوقعة للنمو والاهتمام عندما كان يختفي في المكتبة الواسعة لدير فيميتوفته. كما إن آدم فيلهلم الذي كان على مينستر أن يعلِّمه ويسليه من التاسعة صباحاً حتى الثامنة مساء كان تلميذاً موهوباً ومجتهداً على السواء، ولذلك تعدت قائمة الكتب المعدة للقراءة ما كان يُخصَّص عادة للأطفال. وفيما كان الفتى يأكل التفاح

والمكسرات، كان مينستر يقدِّم دروسه في المواضيع الكلاسيكية التي لا غنى عنها ثم يسأل الطفل عنها، من نهايتها ومن بدايتها. كما كانا يدرسان الإنكليزية والألمانية والفرنسية معاً فيما كان مينستر يصارع بمفرده مع الإيطالية، وتمكن في النهاية من العبور بهذا القدر أو ذاك في دراسة كتَّاب مثل دانتي وبتراركا وتاسو وماكيافيلي. والأكثر من ذلك إنه أخذ يهتم بالاقتصاد ولبعض الوقت درس آدم سمث باستفاضة. وبالإضافة إلى ذلك كله قرأ كانط الفصيح، الذي أعاده إلى هيوم. ثم استغرق في ياكوبي وسُحر بهلفيتيوس. وقرأ مونتسكيو وروسو بالفرنسية ثم عاد إلى عمالقة الفلسفة الألمانية الشباب - فخته ولكن بصفة خاصة شيلنغ، النجم الفلسفي الذي بهر الجميع. وقادته صداقته مع النرويجي أدريان بنتزون إلى أسخيلوس وإلى غوته، لكن المعجزة الأكبر كانت تعرُّفه مجدداً على هوميروس الذي قرأ أعماله في مواسم الصيف الحارة بقلب يخفق وصدغ ينبض: بالطبع من كتيبات التاريخ والميثولوجيا عرفتُ جيداً ما يسمونه المحتويات ولكن عالماً جديداً بالكامل انفتح لي وسحرني ببساطته المرتقاة ومشاعره العميقة المعبَّر عنها دائماً في حدود الاعتدال ولا تتبدى في أحيان كثيرة إلا بأوتار قليلة. وأدركتُ بوضوح إنه ما دام هوميروس يبقى مقروء فإن الذوق الحقيقي لن يموت تماماً. ترجمتُ الأغنية الرابعة عشرة من الأوديسا والأغنية السادسة من الإلياذة بالتفاعيل السداسية.

قرأ فيما بعد جان بول أيضاً وأُخذ به تماماً لأنه حيث التزم آخرون جانب الصمت لعدم وجود الكلمات المناسبة، لم يتوقف هذا الرومانسي الألماني متجرِّئ على التصريح إن ما قاله آخرون لا يمكن النطق به. واستوحى مينستر أسلوب جان بول في استخدام الأمثال، وأعاد في مذكراته نشر بعض محاولاته الشبابية في كتابة طرائف حلوة - مرة تُذكِّر - إن لم تكن في نوعيتها فعلى أية حال في نبرتها - بالدياسالماتا الكيركغاردية. وينضح أحد هذه الأمثال بتعبه المأساوي من العالم: وضعي مثل وضع اليونانيين في العصر الحديث: خلال أكثر أيام موسم الفصح بهجة يكون هناك دائماً وقت أطوف فيه بين القبور. ويستحضر مَثَلٌ آخر من هذه الأمثال المأثورة على الفور القسمَ الأخير من الخوف والرعدة الذي يستخدم استعارة عن يوم رمى الهولنديون توابل في البحر. وكتب مينستر: لمنع المُتع من فقدان قيمتها لا تُكثر من الانغماس فيها، مثلما اقتلع الهولنديون أشجار القرفة لمنع سعر القرفة من الهبوط. مثل مأثور ثالث ينقلنا إلى عالم أشد

غرابة: كثيرون يشبهون شجرة أميركا الشيطانية: بانفجار كبير تنثر فاكهتها ما أن تنضج - وفي أحيان كثيرة قبل أن تنضج بزمن طويل.

كما كتب مينستر ما سماه لاحقاً بازدراء دراما عاطفية ذات فصل واحد وكذلك مأساة بقيت قطعة ناقصة. وأُغري مينستر بدخول مسابقة الجامعة على الميدالية الذهبية في كتابة مقالات عن مواضيع محدَّدة. وكانت محاولة مينستر الأولى عام 1795 في الرد على السؤال التالي، الخطابي على الأرجح: أي نوع من الأزمنة هو الأنسب لإنجاب شاعر عظيم - الأزمنة البسيطة والتي تفتقر إلى الرقي أم الأزمنة المثقفة والراقية؟ وكتب مينستر عدة مسودات لكنه لم يتمكن من إنجاز مقاله. وفي السنة التالية كان الموضوع مقارنة بين التعليم الشعبي القديم والحديث، وأنجز مينستر في الحقيقة كتابة مقال قصير لكنه لم يكن راضياً عنه ودسه في درج منضدته. بيد إن الأمور كانت مختلفة في عام 1798 عندما كان الموضوع أفضليات ونواقص التعليم العام والخاص. إذ كتب مينستر مقاله في ثلاثة أسابيع وفاز بالجائزة. وكان مقاله مدفوعاً في بعض أسبابه بـ الغضب الذي شعرتُ به وما زلتُ أشعر به على المربين الحديثين، وهم عموماً أكثر الناس ضحالة، يظنون إنهم بمصطلحاتهم ومعرفتهم المتشظية يستطيعون أن يعيدوا تشكيل الجنس البشري. لعل الأمور لم تتغير كثيراً في الحقيقة منذ ذلك الزمن.

كتب مينستر وهو يعود بأنظاره إلى الوراء معترفاً بأنه في الحقيقة عاش الكثير من الأوقات السعيدة: إن كل ذلك يبدو لطيفاً تماماً الآن لكني صدقاً عشتُ أوقاتاً متعبة ومريرة أيضاً. وكانت في داخلي زوبعة وضغط نفسي كنتُ أتحرج من مناقشتهما مع أي أحد، وحاولتُ أن أُناقشها مع نفسي بالشعر والنثر ولكن دون جدوى... كان حبٌ يعتمل لكنه لم يجد موضوعاً له، وكانت هناك عواطف لم تُخمَد، وأفكار لم تثمر، وأمثولة يأستُ من تحقيقها ذات يوم... كثيرة كانت الأوقات التي انزلقت فيها إلى الهمود، وأصبح كل شيء، بما في ذلك أنا نفسي، مسألة عدم اكتراث عندي. وبرع ياكوب بيتر في رياضة الخداع المرهقة: لم يكن أحد يعرف بحالي. كنتُ أنفذ مسؤوليات وظيفتي. وبرفقة الآخرين كنتُ أتصرف كما هو ديدني دائماً. ولكن سواء أكنتُ مع آخرين أو بمفردي، وسواء أكنتُ في العمل أو في عطالة فإني كنتُ مملوء بالعتمة نفسها.

كما بدأ خريج اللاهوت الشاب يعاقر الخمرة بعض الشيء، واستمر يعاقرها نحو نصف سنة. وفي السابق كان لا يحفظ مشروباً كحولياً قوياً في غرفته لكن أولي أعطاه قنينة خمر وفي حالتي المحبطة وربما العصابية بعض الشيء كان من اللطافة إلى حد لا يوصف أن أذهب وآخذ رشفة حتى إني كنتُ أحتاج إلى ما تبقى عندي من قوة شخصية لمقاومة ذلك وهكذا بدأتُ الانحدار على طريق من الجائز أن يكون بالغ الأذى. ولم يتحرر مينستر تماماً قط من هذا الميل الاكتئابي، وحتى بعد سنوات عديدة سيشعر بما كان يسميه سلاماً مراً ليس كثير البعد أبداً عن تكويني المُراقيّ بطبيعته. وأوضح إن الأمر لم يكن حقداً على العالم بقدر ما كان شيئاً ما لا أعرفه لم يتمكن من وضع يده عليه بل كان ينقّض عليه بلا سابق إنذار ويصب قطرات مرارته في كل قدح من البهجة.

كان ياكوب بيتر مشتعلاً بحب حزين لأنه حب لم يُجَسد قط وبالتالي كان حباً بلا تاريخ. وظل ما سمَّاه هو وأولي رجلاً متزوجاً أكثر من امرأة زواجاً أفلاطونياً، وأدرك إن وضعه هو الظاهرة العابرة التي سماها جان بول الحب في آن واحد. وعندما كان مينستر يعود بنظره إلى الوراء لم يتمكن على الإطلاق من أن يتذكر وقتاً لم أكن عاشقاً فيه. فتارة تكون ابنة عم ذات ابتسامة حلوة تعيش في المدينة، وتارة فتاة نرويجية قصت خصلة من شعرها البني، حتى دون أن يُطلب منها ذلك، وقدَّمتها إلى المعجَب المحرَج بها - الذي بعد سنوات عديدة ظل يحتفظ بها. وأحياناً يكون الوَلَه أعمق كما في حالة صوفي غاردر التي كانت بكل تأكيد من تلك النساء اللواتي يقع جميع الرجال في حبهن ثم يختفين عن الأنظار. وكان ستيفنس يرى إنها صاحبة فكر لامع ولكن مينستر لم يتفق معه: لم تكن صاحبة ذات ذكاء حقيقي أو فطنة، بل لم تكن حتى على قدر كبير من الجمال في الحقيقة، وكادت تكون شقراء أكثر مما ينبغي. ولكنها عندما كانت تقف هناك منتصبة القامة وبطلاوة غير مصطَنعة، كانت قسماتها الجميلة وعيناها الرقيقتان تعبر عن كل ما يتململ داخلها. ولم أسمع قط كلمات مديح أجمل من تلك التي تفوهتْ بها بعد أن سمعتْ إن صديقاً لها تصرف بشرف: عقدت يديها على صدرها ورفعت عينيها وقالت الكلمات البسيطة «يا إلهي، كان ذلك خيراً».

عندما اقترب موعد تقدُّم آدم فيلهلم لأداء امتحان القبول في الجامعة وبذلك الاستغناء عن خدمات المعلِّم الخصوصي شغَرَت وظيفة قس أبرشية في قرية

سبيليروب في زيلاند الجنوبية. وكانت لدى مينستر شكوكه. هل حقاً سأشهر السلاح ضد تحقيق كل مشاريعي ورغباتي متمترساً وراء منبر وسياج محراب؟، كما كتب بانفعال إلى أولي ولكن ما يعتقده أولي لم يكن مهماً. فالقرار كان في الحقيقة قرار الكونت، وكان يعتقد أنّ مينستر ينبغي أن يقضي سنة أخرى في ضيعة بريغينتفيد ثم يصبح قس سبيليروب. وبدا هذا حكماً بالسجن تقريباً في نظر مينستر، وسيقضي عشر سنوات – في الحبس الانفرادي، لا يحيطه إلا فتيان ريفيون أجلاف وفتيات بسيطات، ومدبرة منزل لا تُطاق تتشاجر مع الجميع وعلى كل شيء، حقدها يتسرب مثل مرارة الصفراء إلى كل شؤون الحياة.

مع ذلك كان مينستر سعيداً في النهاية بأن يكون لديه مكان خاص به. وكان بيت القس فسيحاً وفي حالة جيدة حتى وإن كان يعاني قليلاً من الإهمال. وبمرور الوقت تمكن مينستر من تنظيم إحدى الحديقتين لتكون في حالة لا بأس بها، وعندما كان يمشي في نزهة ماراً بالبيوت المجاورة لم يتمكن من قمع شعور معين بـــــ الاعتداد بالنفس. ولكن هذا الشعور ذاته أيضاً سيختفي بالكامل تقريباً حين كان عليه أن يكتب مواعظه. وكانت تمر أوقات يشعر فيها قاحلاً بالكامل من الأفكار وعليه أن يلجأ إلى مواعظ الآخرين بأمل أن يجد موضوعة أو قطعة أطول قد تلهمه: وهكذا، كل أسبوع تقريباً كان ينتابني شعور مؤلم جداً – أُسميه «يأس السبت»ـ الذي ما زلتُ غير محصَّن ضده حتى بعد أربعة وأربعين عاماً من الممارسة. فيوم السبت، بعد أن عمل المرء حتى الإنهاك لإنجاز موعظة ثم قراءتها ليجدها بائخة وغبية حتى إن المرء بالكاد يحمل نفسه على قول هذه الكلمات – ولكن ليس لديه شيء آخر يقدمه إلى مستمعيه – فإنه لا يؤوي إلى الفراش بقلب مرتاح.

خلال صيف 1803 عاش مينستر اختراقاً حاسماً في تطوره الروحي. ففي غسق المساء، كان، كما في أحيان كثيرة من قبل، جالساً على الأريكة يقرأ كتاباً – في هذه المناسبة عمل ياكوبي عن سبينوزا – حين ملأته فجأة بصيرة كأنها إضاءة من الأعالي: إذا لم يكن الضمير وهماً لا معنى له من نسج الخيال – وأنا لم يكن لدي شك بأنه ليس كذلك – فعندئذٍ إذا وجبت عليك طاعته في شيء، توجب عليك أن تطيعه في كل شيء، بلا استثناء، ويجب أن تتصرف وتتكلم بما يمليه عليك واجبك بأكمل وجه تعرفه وقادر عليه، دون أي اكتراث بحكم العالم، مدحاً أو قدحاً... وأدركتُ الأهمية الكاملة لكلمات

المسيح «لا يقدر أحد أن يخدم سيدين»، وهكذا تمكنتُ من دخول ملكوته.

كانت هذه الثورة الداخلية الكبرى على نقيض لافت مع الانتظام الخارجي للعالم الذي يحيط بالقس الشاب. وكان يقضي الوقت بقراءات متنوعة – أفلاطون، هيرودوس، سوفوكليس، دانتي، تاسو. كان مينستر يقرأ كل شيء أردتُ أن أقرأه، وكنتُ أعتقد، بقدْر من التبرير، إن كل نوع من القراءة تقريباً إنما هو ماء في طاحونة رجل الدين. ولهذا السبب نفسه كان مينستر كثير التردد على دير فيميتوفته حيث كانت المجموعة الرائعة من أعمال الأدب الفرنسي القديم تبقيه مشغولاً من الصباح حتى المساء. وكان يسافر إلى كوبنهاغن مرتين كل عام ولكن أصدقاء الشباب تغيروا، وكذلك تغير أولي الذي أصبح الآن رئيس الأطباء في مستشفى فريدريك. فبعد عدد من الخيبات القاسية في حياة أولي العاطفية اقتدى بمثال زوج أُمه وتزوج من أرملة دخلت بيت الزوجية ومعها أطفالها الأربعة. وفَقَدَ أولي نفسه الآن في حياة بورجوازية ومهمات عملية ليهجر بذلك، كما ظن ياكوب بيتر، تقبله للمثل الأعلى مثلما إن فكرَه المتَّقد حل محله نزق سافر. وأصبحت الآن نزعة أولي الحاضرة دائماً للتسلط على أخيه الأصغر نزعة استبدادية تقريباً، وتلاشت العلاقة الحارة بين الأخوين إلى برود لم يكن فيها مجال إلا للحكايات والتقلبات المزاجية ولكن بلا تبادل حقيقي للآراء على الإطلاق.

في هذه الظروف كان تعرُّف مينستر على كامّا راهبيك Kamma Rahbek ذا أهمية لا تُقدر. كانت كامّا وزوجها في مركز الدوائر الأدبية والفكرية في كوبنهاغن أيامذاك. وحدَّثها ستيفينس عن مينستر بكلمات طيبة، ولأن كامّا كانت راغبة في التعرف على قس شاب لم يستسلم إلى أي جهالة جسدية أو فكرية فقد رُتبت زيارة تقوم بها عائلة راهبيك إلى سبيليروب لمدة يومين في صيف 1804. وكانت الزيارة ناجحة ولذلك تكررت في مواسم الصيف التالية. وسرعان ما بدأت مراسلات بين ياكوب بيتر وكامّا (التي كانت تعاني من تحزب لا يُضاهى). ولم تكن النبرة الحميمة والانتظام الأسبوعي لهذه الرسائل مصدر سرور لكنود ليني Knud Lyne زوج كامّا لكنه كان إنساناً دمثاً وجنتلماناً من الطراز القديم فنظر إلى الأمر بروح متحضرة. وتذكّر مينستر حين نقَّب في كومة الرسائل خلال كتابة مذكراته إن مسز راهبيك لم تكتب لي خطابات صغيرة بل رسائل طويلة كثيراً ما تغطي صفحتين أو ثلاث صفحات من القطع المتوسط،

ومكتوبة عادة بريشة غراب. والحق إنه شعر بما يغريه بترك الرسائل كلها للنشر بعد وفاته، ولكن، لا، لن يكون ذلك مجدياً. فإن مسز راهبيك في رسائلها إلى أصدقائها القريبين، كانت حقاً تطلق العنان لنفسها. وفي الأحوال الاعتيادية كان موضوع مراسلاتهما بريئاً على العموم ولكن ليس دائماً بكل تأكيد، وعندما بدأت تكتب عاطفياً كانت كتابتها تتطور إلى قصف حقيقي. والأكثر من ذلك إن الكثير مما كان في الرسائل لا يمكن أن يُفهَم اليوم لأنها كُتبت بلغة باكيهوس، منطقة عائلة راهبيك خارج كوبنهاغن مباشرة. وحتى الأسماء المستخدمة كانت غريبة: كان ستيفينس معروفاً باسم الإمبراطور فريدريك، وهو في الحقيقة اللقب الذي كان يُطلق على مجنون غريب الأطوار يطوف شوارع كوبنهاغن خابطاً بيديه خبط عشواء. وكانت كامّا معروفة باسم ابنة الأخ في حين كان ياكوب بيتر نفسه معروفاً بعدد من الأسماء ولكن في الغالب باسم العم يوب Job – وهو اسم طلع به أحد معلميه: إذا حُذف المقطع ak الحزين في وسط الاسم Jakob فأن ما يبقى هو الاسم Job الأكثر حزناً [Job هو اسم أيوب بالإنكليزية].

باستثناء قصيدتين صغريين نُشرتا دون اسم لم يكن مينستر نشر أي شيء بعد ولكن عندما صدر عمل أوهلينشلاغر كتابات شعرية في عام 1805 طلب راهبيك – وأوهلينشلاغر نفسه – من القس الشاب أن يكتب مراجعة لهذه القصائد التاريخية. وافق مينستر على الطلب لكنه لم يتمكن من كتابة مراجعة وبدلاً من ذلك نظم قصيدة إلى آدم أوهلينشلاغر التي من حسن الحظ لاقت استحسان الوسط الثقافي في كوبنهاغن. كما تحدث هانس كريستيان أورستيد مادحاً قصيدة مينستر التي وجدها عملاً لطيفاً أن يأتي من هاوٍ. شقيقة أوهلينشلاغر المليحة صوفي وحدها التي رفعت سبابتها منتقدة باكورة مينستر في الشعر، لكنها كانت معروفة باستحالة إرضائها عملياً.

كان مقال نشره مينستر في منيرفا مجلة راهبيك في نيسان/ أبريل 1806 لا يقل أهمية. إذ كتب مينستر معارضاً قطعة بقلم الأسقف بويسن الذي كان يهذر لصالح طقوس دينية لا شكل لها. وفي ظروف أخرى ما كان مينستر ليرد ولكن بما إن الحكومة أخذت حماقة بويسن على محمل الجد، خاف مينستر من فوضى تعم الطقوس الدينية كلها التي كنتُ أعلم جيداً بضعفها لكني أحببتها بكل عمق. وإذ أراد مينستر أن يفعل الشيء النزيه فإنه كتب مقاله حول التغيير المقترح في طقوسنا الدينية لكنه تردد وتركه مركوناً بضعة أسابيع: أنا، المجهول،

لن أُدرَج على قوائم المعارضين لرجل كان في ذلك الوقت يتمتع بحظوة عامة بين الطبقات العليا والدنيا، لكني كنتُ أيضاً، إلى حد ما على الأقل، أدافع عن الأشكال القديمة التي تخلى عنها الجميع تقريباً وكنتُ أتحدث دفاعاً عن نظرة معينة إلى المسيحية ستذهل، إن لم تُغضب، غالبية القراء، وتوجه طعوناً إلى مبادرة حكومية. وأرسل مينستر قطعته السجالية إلى منطقة باكيهوس حيث أيدتها كامّا وشقيقها بأكملها، في حين إن كنود ليني كان متشككاً إزاءها. لكنها نُشرت في كل الأحوال. وعبرَ مينستر نقطة اللاعودة: مُدح وانتقد، وصُرف النظر عن فكرة بويسن.

فيما كان مينستر تدريجياً يصبح نفسه أكثر فأكثر في سبيليروب أوقع نابليون مناطق شاسعة من أوروبا في فوضى. وكان مينستر ينظر إلى الفرنسي القميء بمقت لا هوادة فيه ليس لأنه اغتصب سلطة ملكية أو إمبراطورية أو لأنه كان قاهراً، كلا، بل كان سبب مقته عبارات منافقة كان يُزعم فيها باستمرار - وسط أبشع إراقة للدماء وأقسى صنوف الابتزاز - إن هذا كله من أجل رفاه الجنس البشري وخلاصه. وكانت قوات نابليون تضغط على الدنمارك منذ فترة طويلة عن طريق بروسيا، الأمر الذي كان ينذر بالشؤم ولكن مع ذلك كان غالبية الناس مرتاعين من كارثة 1807 الفظيعة حين قام الإنكليز بغزو الدنمارك. وحين بدأنا نحصد حقولنا في السلام الأكثر استتباباً اتخذ كل شيء على حين غرة مظهراً حربياً. فالجنود الذين كانوا في إجازة لم يكونوا وحدهم الذين جرى استدعاؤهم بل تشكيلات المتطوعين المحلية أيضاً دُعيت للخدمة، كما كتب مينستر. وهو نفسه عانى كثيراً لأن الاتصالات بين سبيليروب وكوبنهاغن قُطعت، وأحياناً كان الشخص الوحيد الذي يستطيع الاتصال به مدبرة منزله نصف المعتوهة.

ذات يوم قبيل المساء، كان قصف يُسمع من الشمال الشرقي، وبدا مساء اليوم التالي هادئاً ولكن لا لسبب سوى إن الريح غيرت اتجاهها، وكان هذا في الحقيقة الهدوء الذي يسبق العاصفة. وكانت ذكرى ذلك حية في ذهن مينستر حتى إن الصفحات نفسها تبدو تقريباً وكأنها تختفي في رذاذ المطر والعتمة: في منتصف الليل تسلقتُ سلّماً طويلاً لتسقيف السطح بالقش كان يستند إلى جملون البيت. وكانت القرية كلها غارقة في النوم. كان المطر يهطل رذاذاً وكان الظلام حالكاً حتى إني لم أستطع أن أتبين أي أشياء قريبة. لكني رأيتُ ناراً تنتشر

فوق الأفق البعيد، وكنتُ أعرف جيداً إن كوبنهاغن - مدينة كل ما هو عزيز عليَّ - تحترق. وجاء الاستسلام بعد أيام، وسافر مينستر إلى العاصمة فوجد عائلته التي بحثت عن ملجأ لها في مستشفى فريدريك، سالمة وبمعنويات عالية نوعاً ما. وعندما طال الاحتلال أُرسل جنود إنكليز للسكن في بيت القس مينستر، الأمر الذي كان صعباً تماماً على الراهب الأعزب لكنه محتَمل طالما أنها ليست إلا مسألة عرفاء وجنود أنفار. ولكن الوضع أصبح لاحقاً أقرب إلى البلاء عندما تعين عليه أن يستضيف ضباطاً فظين جلفاء لا يهمهم شيء سوى راتبهم وراحتهم الشخصية.

خلال السنوات التالية كثف مينستر دراساته اللاهوتية. وقرأ الكتاب المقدس في ضوء جديد ودرس جاستن الشهيد بالارتباط مع الأناجيل الأربعة. كما كان على اقتناع أيضاً بأنه يستطيع أن يبين إن رسالة جيمس تحوي موضوعات تشير إلى رسالة العبرانيين، وكتب مقالاً طويلاً عن ذلك. ولكن ما له أهمية قصوى إنه نشر في عام 1809 كتاباً صغيراً يضم بين دفتيه اثنتي عشرة موعظة من خيرة مواعظه. وخلال سنوات الحرب المضطربة لم يكن هناك، بالطبع، ناشر مستعد للإقدام على مخاطرة النشر. وتعين على مينستر أن يستثمر ماله الخاص في نشر المواعظ، ولكن كتاب مواعظ سبيَلروب لاقى ثناء واسعاً وحقق مبيعات كبيرة فجنى ربحاً من استثماره. وفي العام التالي نشر عن فن الوعظ الذي أصاب هو كذلك نجاحاً كبيراً. وقرأ ميبنستر المخطوطة بصوت عالٍ لزملائه اللاهوتيين في الاجتماع الأبرشي السنوي، وكان راضياً إلى حد كبير: كانت الأفكار واضحة تماماً، واللغة متينة، وفي تلك الأيام كنتُ أجيد القراءة بصوت عال وبالتالي تَرَكتْ القراءة أثرَها البالغ. وخلال تلك الأيام كان مينستر يجمع أيضاً مادة لمشروع طموح يتناول القرون الثلاثة الأولى من تاريخ المسيحية، أيام الشهداء الحقيقيين، ولكن رغم العمل المثابر طوال العمر على الموضوع فإنه لم يتمكن من إنجازه قط.

من جهة أخرى فإن أتباع كنيسة منيستر نفسه لم يكونوا مصدر فرح يُذكر. وكانت الحرب تسببت في ارتفاع أسعار المنتجات الزراعية وبالتالي ارتفاع مستوى معيشة الفلاحين الذين لم يهتموا قيد أنملة بموعظة القس. وحين كانوا لا يسكرون ويَزْنون بكل ما أُوتِيُوا من قوة فإنهم كانوا متعجرفين وصلفين ومتبطلين. ولكن كانت هناك نقطة ضوء واحدة: إن الموت حرر مينستر من

مدبرة بيته التي لا تُطاق بيد إن الفتاة الرقيقة التي حلت محلها كانت ترفض أن تأكل على مائدة مينستر، وبالتالي لم يكن هناك مَنْ يحادثه. وجدتُ إن العزلة التامة التي كانت في اليوم الاعتيادي لا يقطعها إلا هراء متعِب، أصبحت بالتدريج شديدة الوطأة.

في واحدة من المناسبات غير المعتادة حين كان مينستر يتوقع صُحبة، زاره دون إشعار ضيف غير مدعو. كان الضيف غروندتفيغ، القس في قرية أودبي وقتذاك، الذي ما زال محتفظاً بشبابه لكنه بدأ يفقد شعره. وقرر غروندتفيغ أن يزور مينستر، زميله وابن عمه، الذي يكبره ثماني سنوات. ورغم إن الزيارة لم تكن في وقت مناسب فإن مينستر رصد ساعتين للحديث مع نيكولاي فريدريك سيفرينوس الذي أسهب في الكلام عن الشعر والمأساة اليونانية - وأُتيحت لي فرصة كبيرة لأن أعجب من الروح التي كان يصدر بها أحكامه على أشياء ليس لديه معرفة بها على الإطلاق. وبالطبع إن غروندتفيغ وجدني بارداً وغير منفتح معه. إذ لم تكن عندي في الحقيقة رغبة للتعرف عليه بشكل أفضل. ولكن مينستر لم يتمكن من تفادي نشوء علاقة لاحقة معه لأن غروندتفيغ أصبح من أعلى منتقدي مينستر صوتاً ومن أبغض الأشخاص عنده. فإن مينستر لم يكن يطيق الرجل ويجده صاخباً غريب الأطوار لكنه ليس أصيلاً: عندما كان أوهلينشلاغر يضبط قيثارته الإسكندنافية كان غروندتفيغ يصر على امتلاك واحدة مثلها، حسبما كتب مينستر في اتهام معهود منه. كما إن أعمال غروندتفيغ التاريخية لم تنل احترام مينستر: لأننا نعرف نبوءات غروندتفيغ - فهي عادة لا تتحقق. وألصق مينستر وصمة الوثنية باعتقاد غروندتفيغ القائل بأن عقيدة الرُسُل كانت حلقة وصل بالمسيح التاريخي، وعندما بدأت مجلة أزمنة الكنيسة الإسكندنافية تطلق رشقات غروندتفيغية على مينستر بوصفه ممثل كنيسة الدولة وصف هذه الهجمات بأنها شرسة وجلفة.

أُصيب مينستر بالممل حقاً من حياته السبيليروبية. ولاحت لفترة قصيرة إمكانية تعيينه قساً في غينتوفتة شمالي كوبنهاغن مباشرة، ولكن عندما شَغرَت وظيفة قس مقيم أول في كنيسة سيدتنا في كوبنهاغن لم يكن هناك شك لدى مينستر. ورتَّب الكونت مولتكه له لقاء مع الملك، وعُيِّن في الوظيفة يوم 13 كانون الأول/ ديسمبر 1811. وبعد أقل من شهر بقليل ألقى موعظته الوداعية في سبيليروب، ويوم الأحد التالي، حين كان مع أتباع كنيسته للمرة الأخيرة، سمع

عميده الأبرشي العجوز يطنب عن القس المنقول حديثاً بوصفه رجلاً لم يكن يسعى للتدريس باستقامة فحسب بل وأن يعيش باستقامة أيضاً.

خلال أواخر صيف 1812، بعد أن باع مينستر متعلقاته الشخصية بالمزاد في مقر إقامة القس في سبيليروب، استأجر بعض الغرف المتواضعة المريحة في عليَّة منزل في ميدان غالمتورف. وهناك كان يقضي أوقات العصر والمساء بعيداً عن إزعاج المدينة الهادرة - التي كنتُ أستطيع أن أسمع ضوضاءها تحت أقدامي - وفي أماسي الصيف الهادئة، عندما يحل الظلام الساكن، كان يستطيع أن يسمع تناثر ماء النافورة برقة في الميدان. وفي الصباح كان يستطيع أن يرى بزوغ الفجر فوق الأسطح الضيقة عبر ساحة نيتورف. ولعل القس البالغ من العمر 35 عاماً كان يقف ليراقب شروق الشمس في ربيع 1813، غارقاً في نعيم الجهل باشتباكاته في المستقبل مع الصبي الرضيع الذي رأى النور في الأربعاء الأول من أيار/ مايو عبر الميدان بخط مائل من الغرف التي يسكنها مينستر.

بوجود مينستر في عليَّته المرتفعة التي يهب فيها الهواء نكون الآن وصلنا إلى القسم الخامس والأخير من عمله اتصالات. فأيام المران انتهت، والمستقبل ينتظر بفارغ الصبر للإفادة من هذا الرجل المثقف، المجتهد والناضج - والأكثر من ذلك رجل لا يرتبط بأي مسؤوليات دنيوية ولم يعش بعد حتى نصف حياته. وهكذا تكون الصفحات الأخيرة من السيرة الذاتية لحياة مينستر نوعاً من المأثرة في سجل الجهاز الإداري الملكي الدنماركي: تعيينات في مناصب رفيعة، تكريمات عديدة، مراكز قيادية في مجالس إدارة وهيئات مختلفة، المشاركة في فعاليات اجتماعية فخمة، عقد زيجات أميرية، وغير ذلك من دلائل العَظَمة. وفي عام 1812 عُين مساعد أستاذ علم النفس في الدير الرعوي وعُين عضواً في مجلس إدارته. وفي عام 1814 أنجز طبعة مرفقة بتعليقات من كتاب لوثر التعاليم المسيحية الصغيرة. وفي العام نفسه شارك أيضاً في تأسيس جمعية الإنجيل الدنماركية التي أصبح عضواً في مجلس إدارتها عام 1815. وكان من مسؤوليات مينستر تنقيح الترجمة الرسمية للعهد الجديد. وفي عام 1815 أيضاً نال مينستر شهادة الدكتوراه برسالة أكاديمية عن القديس بولس. ولكن هذا كان لا شيء بالمقارنة مع المعجزة الحقيقية: عام 1815 حقّق لي شيئاً أهم بكثير وكان مصدر فرحة أكبر بكثير من الدكتوراه، وهو زوجتي العزيزة. كانت بنت الأسقف مونتر البكر (لكنها مع ذلك في التاسعة عشرة من العمر) ماريا

فريدريكة فرانسيسكا المعروفة ببساطة بلقب فاني، التي قبلت طلبه الزواج منها من نافذة مفتوحة في مسكن الأسقف القديم. هنا وجدتُ ما كنتُ أبحث عنه منذ زمن طويل بلا جدوى، كائن أحبتني وأعطتني نفسها بلا أدنى شك. صحيح إن فاني لم تكن نسخة من صوفي غاردر التي كانت تستطيع القول يا إلهي، كان هذا بديعاً ولكنها منحته أربعة أطفال أُحسنت تربيتهم، وبعد واحد وثلاثين عاماً من الحياة معاً سيعود بذاكرته إلى زواج سعيد ويمدح فاني على صفاء ذهنها، ولباقتها، وجهودها التي لا تكل كربة بيت. وظل قادراً على أن يتذكر كيف أنه في لقاء صغير رفع كأسه واقترح النخب التالي: إذا كان لدى شكسبير شخصية رجل يهتف إيها الضعف إن اسمك هو المرأة! فأنا أقول بكل اعتراف وامتنان، أيها الوفاء إن اسمك فاني!

الشؤون العائلية لم تقف عقبة في طريق حياة مينستر المهنية. وفي عام 1819 عُين مينستر عضو الجمعية العلمية. وقبل عامين على ذلك أصبح عضو مجلس إدارة الجامعة، وبهذه الصفة علم إنه ليست هناك قبيلة إدارتها أصعب من الأساتذة. فهم جميعاً أهلُ علم وهذا يعني إنهم جميعاً يفهمون كل شيء أفضل من جميع الآخرين، وغالبيتهم يعتقدون إن لديهم حساً كبيراً للتجارة رغم أن أصغر فئة منهم فقط لديها في الحقيقة معرفة بالتجارة. كما لم يكن مينستر راضياً عن الروح السائدة في قسمي الإنسانيات واللاهوت في الجامعة. منذ تعيين هيغل في جامعة برلين أصبحت فلسفته الشيء الوحيد بإطلاق، وكانت غطرسة مريديه بلا حدود. وكان مينستر على اقتناع تام بأن الهيغلية لن تكون إلا موضة فلسفية عابرة، لكنه كان مخطئاً في ذلك. بيد إنه لم يشعر بأنه مؤهل لمكافحة الهيغيلة، ولذلك كان قانعاً بالمشاركة في بضع مناوشات طليعية وخاصة ضد هايبرغ. وفي البداية بقي هايبرغ صامتاً، لكنه في عام 1839، قَبَلَ أن يتحدث، بتثنية من مارتنسن، بعد نشر عمل مينستر العقلانية وعالم ما وراء الطبيعة. ولكن المعركة كلها جرت بلا أدنى انقطاع في الاحترام الذي أكنه لمواهب خصومي أو محبتي لهذا الأخير [مارتنسن] بصفة خاصة، وهي محبة ازدادت منذ ذلك الحين عاماً بعد عام.

كما إن الأعباء الكنسية كانت تضع مطالب ثقيلة على وقت مينستر. ومما له أهمية خاصة في هذا الشأن الزيارات الرعوية الرسمية، وهي رحلات كثيراً ما تستمر لمدة أسبوع يقوم بها مينستر في سائر أنحاء البلاد للاطلاع على أوضاع

رجال الدين الدنماركيين الذين يرسم له صورة بلا رتوش في يومياته عن تلك الزيارات للفترة الممتدة من 1835 إلى 1853. كما إن الأحاديث والمواعظ التي لا تحصى مما كان عليه أن يكتبها ويلقيها و- في السنوات الأخيرة - أن ينشرها، كانت تأخذ منه وقتاً طويلاً، وكان ينشر مجموعة من المواعظ كل عام من 1846 حتى نهاية 1853. ورغم إن المواصفات الصوتية في كنيسة الثالوث (مقر أتباع كنيسة سيدتنا التي أتت عليها النار، حتى عام 1829) كانت رديئة بعض الشيء وبالتالي غير مناسبة على الإطلاق لصوت مينستر الرفيع وكثيراً ما يشكو منها، فإن الناس كانوا يتوافدون على الكنيسة بأعداد غفيرة: كنتُ دائماً أسعد بجمهور كبير من طبقات اجتماعية مختلفة. وإذا كنتُ في أحيان كثيرة لستُ راضياً عن نفسي لكلامي بطريقة تثقيفية مع الطبقات الاجتماعية الدنيا ربما في أحيان أقل مما كان يجب أن أفعله، فإني رأيتُ أدلة تواسيني بما مؤداه إن هذه ليست تماماً هي الحال: كان عندي الكثير من المواطنين البسطاء والعمال اليدويين بين مستمعيَّ الدائمين. وفي الحقيقة إن مينستر أصبح قس العاصمة صاحب الشعبية الواسعة. وكان يسعى إليه بصفة خاصة الأثرياء مادياً أو فكرياً وبمرور الوقت نجحتُ في أن أجمع حول نفسي دائرة من أعقل - المستمعين - وأكثرهم مرغوبية من كل ناحية - يمكن أن تقدمهم المدينة. وكان مكتوباً في اللوح المحفوظ وفي النجوم أن يُعيَّن قس القضاء في عام 1826، وأُستاذاً مَلَكياً وقس البلاط والقلعة في عام 1828 وأن يشغل منصب أسقف زيلاند وكبير أساقفة كنيسة الدولة الدنماركية من أيلول/ سبتبمر 1834 حتى وفاته في كانون الثاني/ يناير 1854.

«عندما أنظر إلى مينستر———»

كان هذا، إذاً، الرجل القوي الذي جعل كيركغارد ينتظر في غرفة الانتظار دون أن يخطر بباله إنه بذلك كان يساهم في انتقاص كارثي من سمعته بعد وفاته. وكانت هناك اختلافات واضحة بين الاثنين، الكنسي العجوز في الداخل، والرجل الضئيل اللامع ينتظر في الخارج، وكان الأبرز بين هذه الاختلافات إن مينستر كان يعتبر المسيحية مصدراً كبيراً للطمأنينة والراحة، في حين إن كيركغارد كان يراها تراجعاً مشيناً في كل القيم الإنسانية والثقافية، صراعاً دائماً مع العالم. ولكن إذا كانت الاختلافات صارخة فإن أوجه الشبه صارخة

كذلك، بل يكاد الأمر يبدو وكأننا نتعامل مع حياتين متشابهتين، متوازيتين لكنهما تزيحان أحداهما الأخرى إزاحة جانبية: كلاهما كانا يحملان البصمة العميقة التي تركها أب صارم، كلاهما كان يقفان في ظل شقيق مقتدر ومتسلط، لم يبتعد كل منهما عنه إلا بعد سنوات عديدة، كل منهما كان حساساً إلى حد الهشاشة تقريباً، يتحرق إلى حب جامح، لكنه مستحيل دائماً، أحدهما يتحدث عن العتمة التي في داخله والآخر عن مالنخوليته السوداء، كلاهما يشعران إنهما ضحية سوء فهم، معزولان، كلاهما كانا، من سن مبكرة، طموحين لديهما رغبة في الكتابة، لكلاهما طبع أرستوقراطي يتذبذب بأشد الطرق غرابة بين المقام المتميز والمَراق (الوسواس المرضي)، بين شعور راديكالي بالنقص واعتداد فائق بالنفس، كلاهما نظرا بازدراء إلى الثورة السياسية التي كانت قائمة وقتذاك، كلاهما كانا محافظين ملكيين، مينستر على يمين اليمين وكيركغارد على يسار اليمين، كلاهما كانا يشعران بعدم اكتراث يقرب من العداء تجاه غروندتفيغ وهذر الغروندتفيغية الشعبية، كلاهما كانا يميلان سلباً إزاء هيغل والفلسفة التأملية التي تحتضنها نخبة كوبنهاغن الثقافية.

رغم كل أوجه الشبه هذه فإنهما لم يكونا يتابعان أحدهما الآخر إلا بحذر ومن مسافة – حتى عام 1846 على أية حال. مينستر قرأ الخوف والرعدة والمجموعات الأولى من خطابات تثقيفية (التي امتدحها في الحقيقة) وما نشره كيركغارد عام 1845 من خطابات يكتبها بين حين وآخر، كانت في نبرتها وشكلها تُذكِّر بمواعظه الأولى ولذلك نالت رضاه، ورضا آخرين. وهكذا في رسالة إلى مينستر بتاريخ 27 كانون الأول/ ديسمبر 1847 أعرب كارستن هاوخ عن شكره على بعض المواعظ التي أرسلها إليه مينستر وانتهى تواً من قراءتها: قرأتُ أيضاً خطابات كيركغارد التثقيفية باهتمام كبير. وهي ستكون حتى أفضل لو لم تكن موسومة بهذا القدر الكبير من النَسْج الديالكتيكي، ولو كانت لها البساطة النبيلة لخطاباتك أنتَ. ولا يُعرف إن كان كيركغارد أرسل كتاباته الأولى إلى مينستر أم إن الأسقف اشتراها بنفسه، ولكن هناك نسخاً باقية فيها إهداءات من كيركغارد، من كتبه حاشية ختامية وزنبقة الحقل وطائر الهواء والمرض حتى الموت. ويتكرر الإهداء تكراراً يكاد أن يكون نمطياً: إلى صاحب السعادة الموقر الأسقف مينستر، فارس دانيبورغ وعضو دانيبورغ، من بين أشياء أُخرى، مع عميق التبجيل من المؤلف. وكان هناك احترام أيضاً وإن كان ممزوجاً بلمسة

جريئة من التهكم، حين أتى كيركغارد على ذكر مينستر في أعماله المطبوعة لأول مرة، وذلك في المقدمة السادسة من كتابه مقدمات التي شكرت الأسقف بمهابة على كتاباته التثقيفية. وكذلك شركة Kts، كما كان يُلقّب مينستر، لاقت اعترافاً مهذباً ثلاث مرات في حاشية ختامية مثلما إن كتابه وجهة نظر لعملي كاتباً يتضمن مديحاً لهذه الشركة ذاتها لأنها فهمت كتاب الخوف والرعدة على أنه نوع خاص من النتاج الجمالي.

نكتفي بهذا القدر من المظاهر الخارجية. داخلياً كانت الأمور مختلفة تماماً ومنذ زمن طويل، ولا سيّما بعد المصاعب التي حدثت مع مجلة كورسارن. ولم يتحدث الاثنان عن الواقعة نفسها قط ولكن كيركغارد أُصيب بخيبة أمل عميقة لأن مينستر لم يحرك ساكناً في هذا الشأن. وبصرف النظر عن كل شيء فإن مجلة كورسارن، في 6 آذار/ مارس 1846، أقحمت الأسقف بالسخرية من كيركغارد لأنه رفض النقد أو المديح من أي أحد - باستثناء مينستر الذي، من الجهة الأخرى، مُنح احتكار مديحه. والأكثر من ذلك إن المجلة نفسها تعاملت مع ملحق كيركغارد في كتاب ترانيم إيفانجيلية مسيحية بطريقة فظة تماماً فور صدوره ولكن مينستر تظاهر بأنه لم ينتبه.

لكن كيركغارد شعر بالحيف ليس بالارتباط مع قضية مجلة كورسارن وحدها. فإن الخطط التي اقترحها مينستر لمستقبل كيركغارد كانت أيضاً تشير إلى اختلافات بين الرجلين. ومنذ 5 تشرين الثاني/ نوفمبر 1846 كتب كيركغارد في يومياته: حين ينصحني الأسقف مينستر بأن أصبح قساً في الريف فإنه من الواضح لا يفهمني. صحيح بكل تأكيد إن هذا ما أُريده، ولكن منطلقاتنا مختلفة تماماً لأنه يفترض إني بطريقة أو أخرى أُريد المضي قدماً بعمل ذلك، وإني بعد كل شيء أُريد أن أكون شيئاً. وهنا بيت القصيد: أنا أُريد أن أكون صغيراً قدر الإمكان، وهذه على وجه التحديد هي فكرة مالنخوليتي السوداء. وبمرور الوقت أصبح واضحاً لكيركغارد إن ما بدا في البداية سوء فهم من جانب مينستر كان في الحقيقة مناورة تكتيكية. وفي 20 كانون الثاني/ يناير 1847: رغم حسن نية منيتسر المؤكَّدة تجاهي - في قرارة نفسه ربما حتى أكثر مما يعترف - فمن الواضح إنه يعدّني موضع شبهة بل وحتى شخصاً خطيراً. ولهذا السبب يريدني بعيداً في الريف. وتابع كيركغارد موضحاً إنه حقاً في مكان ما من أعماقه كان دائماً يريد أن يصبح قساً في الريف ولكن الوضع المُلتبَس بصورة متزايدة في

العاصمة – في عوالم الأدب والمجتمع والسياسة – أوجد حاجة قوية تماماً إلى شخص استثنائي. والسؤال الآن هو... ما إذا كان هناك أحد في المملكة مناسب لذلك غيري أنا.

خلال الأشهر التالية كان كيركغارد ثابتاً على موقفه، طارحاً إياه مبدئياً. ولاحظ في وقت ما من صيف 1848: إن إعادة الاستنساخ هو ما هو مسيحي بحق... ومن وجهة نظر مسيحية فإن ما يُسأل باستمرار ليس إن كان ما يقوله المرء صحيحاً بشأن المسيحية فحسب بل وأي نمط من الأشخاص هذا الذي يقول ذلك؟ ولذلك عندما يقول رجل يرتدي الحرير وتغطيه النجوم والنياشين من درجات مختلفة إن الحقيقة يجب أن تعاني من الاضطهاد، إلخ، فإن هذه الظروف لا تنتج إلا وضعاً جمالياً... صحيح إن هذا الرجل المتسربل بالحرير يقول «تذكروا، أنتم لا تعرفون متى ستأتي اللحظة التي يجب أن تكابدوا فيها من أجل الحقيقة»، ثم يبكي رجل الحرير (لأنه يتخيل نفسه شهيداً) ولكن المستمع لا يفكر إلا: انسَ الأمر. وهذا التزييف لم يكن مجرد ظاهرة من ظواهر المدينة الكبيرة: أيام الآحاد في الريف، في بيئة الريف الهادئة عندما يقسم ويرعد قس موقَّر ويرسم علامة الصليب على صدره في الكلام عن العالم الذي يضطهد المسيحيين (بمن فيهم نيافته) فمن الواضح إن هذا مارق يدغدغ غروره بتخيل نفسه مضطهداً في هذا المكان الريفي الآمن، حيث لا رفقة له إلا فلاحون وأضرابهم ممن يقدمون له آيات الاحترام. كلا، أيها الشيخ، فإن هذا أيضاً مهزلة. وإذا أُريد للأمر أن يكون جاداً فأرجوك أن تتفضل بالذهاب إلى العاصمة وتصعد على المسرح الكبير.

الشيخ الريفي المستهدف بهذا الهجوم الغاضب هنا هو إلى حد بعيد كيركغارد نفسه مثلما إن استعارته للمدينة كخشبة مسرح فتحت الطريق لموضوعة رئيسية في نقده مينستر الذي يُتهم في فقرة تلو أخرى من يوميات كيركغارد بالتذبذب بين خداع النفس وترويج النفس بطريقة مسرحية – فكرة كانت توحي بمقارنات مسرحية أخرى وأوسع. وفي فقرة من اليوميات أوائل صيف 1848 نستطيع أن نرى ملامح الأسقف التي مر وقت كانت لا تهتز بنظر كيركغارد، تذوب أمام عينيه: الأمر كله مؤلم إلى حد لا يُوصف بالنسبة لي. حين أنظر إلى مينستر – أو، يبدو كأنه الجدية نفسها مجسدة. ذلك Erscheinung [بالألمانية: مظهر] البارع سيكون دائماً مظهراً لا يُنسى عندي.

ومع ذلك سأعتبر نفسي حالماً لا مسؤولاً إذا خطر لي ذات يوم أن أتصرف هذا التصرف.

Erscheinung [مظهر] مينستر الذي يكاد أن يكون مهيباً، ترك أثراً في نفوس آخرين أيضاً غير كيركغارد. وعلى سبيل المثال إن البروفيسور أتش. أنْ. كلاوسن كتب في مذكراته: وجدتُ في الكرادلة الروم مزيجاً مماثلاً من النبرة الاجتماعية الرقيقة، الراقية، والكهنوتية الرفيعة. وشاطره راسموسن نيلسن وجهة نظره وانطباعه: في شخصية مينستر وطبعه كان هناك شيء محسوب أن يبعث على الخشوع والاحترام للرجل العجوز. ولكن لم يذهب أحد إلى حد ما ذهب إليه كيركغارد الذي صنع من الجانب الجمالي لنشاطات مينستر مشكلة لاهوتية. وكان كيركغارد قادراً على أن يحسب المسافة التي تبعد مينستر عن المَثَل الأعلى بمجرد النظر إليه، إن جاز التعبير: كل مقلِّد حقيقي للمسيح يجب أن يقترب قدر الإمكان من جعل وجوده يعبر عن هذا الشيء نفسه: الدناءة والحقارة لا تنفصمان عن كون المرء مسيحياً. يجب التبشير بالمسيح بكل تأكيد ولكن دائماً بتقديمه وجودياً. وما أن تُكسب أدنى أفضلية دنيوية صغرى من خلال التبشير بالمسيح حتى تكون هناك متاعب قيد الاختمار.

وكانت هناك متاعب كثيرة من هذا النوع تختمر في كنيسة سيدتنا حيث حقق مينستر بكل تأكيد أفضلية دنيوية من نشاطاته الوعظية. ولدى انتقال مينستر إلى مقر سكن الأسقف في 3 أيار/ مايو 1835 قُدِّم إليه طقم فاخر من الأثاث، أريكة وعشرة كراسٍ ذات أذرع منجَّدة تنجيداً ساحراً بأعمال تطريز من صنع فتيات مرشحات لسر الميرون وأشخاص ودودين آخرين. وفي المناسبة نفسها رُفع الستار عن تمثال نصفي لمينستر نحته أتش. دبليو. بيسن H. W. Bissen، وقدمت إلى الأسقف الموهوب بهذا القدر الكبير أوراق مالية قيمتها ألف ريكسدولار لغرض استحداث زمالة تحمل اسم مينستر.

لم يكن مينستر ناسكاً ولا شهيداً، ولكن لم يكن لديه سبب لاهوتي للاعتذار عن ذلك. وفي حين إن أي. أو. أورستيد – الذي كان يلعب الورق مع مينستر وأوهلينشلاغر (كانت اللعبة المفضلة لعبة الأومبري) – وصف المستوى الاعتيادي لمقر سكن الأسقف بأنه متواضع فإن هذا لا يعني أن مينستر لم يكن يقيم مآدب عشاء سخية كما في مناسبة اليوم الذي أرسل فيه صديقه بي. سي.

أف. فون شولتن إليه سلحفاة من جزر الهند الغربية. وكانت الأمور تصبح ترفيِّة أكثر مما يجب بعض الشيء في ولائم عشاء كهذه، كما كتب أحد الضيوف بعد أن أقبل بشهية مفتوحة على أطباق مختلفة. وكان القاموسي الشيخ كريستيان مولبيخ أحد الضيوف في حفلة عشاء أُقيمت في كانون الأول/ ديسمبر 1853، وفي رسالة إلى ابنه ذكر إنه تناول عشاء رائعاً من الطراز الأول، كان ممتازاً بحق، وكان عليَّ أن أمر على أربعة أو خمسة أطباق، أطباق فاخرة حقاً.

كيركغارد لم يُدعَ قط إلى مآدب العشاء الباذخة هذه - تعين عليه الاكتفاء بالسماع عنها - وسوَّد عدة صفحات من يومياته يتخيل كيف كانوا يتخمون أنفسهم هناك في مقر سكن الأسقف. الآن، على سبيل المثال، هناك وليمة لحساء السلحفاة في مقر سكن المستشار الخاص H - المشرف أيضاً مشمول بها، كما كتب كيركغارد في فقرة من اليوميات يُشوى فيها هذا المشرف نفسه (كبير أساقفة الكنيسة الدنماركية) أولاً على نار هادئة ثم يُقدَّم في صلصة متَّبلة. ويضع كيركغارد بصمة مسرحية تماماً على النفاق: جولي وفاني هما ابنتا المستشار الخاص. إنهما تناقشان الوليمة... وتقول جولي، «صدقيني، إن من المتعب والمزعج جداً للمشرف أن يحضر ولائم كهذه. وهو يفضل أكثر بكثير أن يعيش في فقر - هل سَمِعتِهِ يوم الأحد الماضي؟» وفاني (التي لها بالطبع اسم زوجة مينستر نفسه!) سمعته حقاً يلقي موعظته، وهي لذلك مسرورة سروراً مضاعفاً أن يتكرم المشرف بأن يكون معنا - ومع السلحفاة. فاني وجولي مليئتان بوجْدٍ ديني: أوه، هذا المشرف، إنه حقاً شيء استثنائي! ويختم كيركغارد بالقول: هكذا تؤكل السلحفاة بصلصة حريفة على نحو فريد حقاً - فلا غرو أن تكون لها مثل هذه النكهة الاستثنائية.

كان كيركغارد أيضاً يقدِّر العشاء الجيد، وهو لم يطبق معايير أخلاقية مزدوجة ستمنع مينستر من أن يفعل ما كان كيركغار نفسه يفعله بإسراف. وما كان مينستر ليصبح مسيحياً أفضل لو إنه بدلاً من السلحفاة والنبيذ المعتَّق أكل ربع قطعة بقسماط وبعض الماء الفاتر بل إن قصد كيركغارد من نقده هو توكيد مضاعفة المتعة بصورة منافقة كما يحدث عندما يبدأ المرء يومه بموعظة عن الفقر وينهيه بكرع حساء السلحفاة - وأن يجعل معروفاً إن من الأخْيَر للمرء في الحقيقة ألا يقرَب من ذلك؟

اقترن عَيْفُ الطعام الذي أيقظه هذا النفاق في كيركغارد بالقلق من إطلاق العنان للدنيوية كمسألة طبيعية حتى إن الثقافة السائدة ستنتصر من دون أن تواجه أي مقاومة. وهكذا كانت حكاية الوليمة على حساء سلحفاة في الحقيقة قصة عن انتصار التاريخ - عن قهر المسيحية النهائي على يد مجتمع مثقف. وكان هذا على وجه التحديد العالَم الذي وضع كيركغارد فيه مينستر المتألق رُقيّاً: العظيم فيه براعة فنية على غرار براعة غوته. وهذا يفسر ما في هيئته من وقار معيَّن ولكن حياته لا تعبر في الحقيقة عن أي شيء... لأن مينستر واعظاً في السوق أمر محال تماماً - بل أكثر كل الأمور استحالة. ومع ذلك فإن قضية إلقاء المواعظ في الكنائس هذه أصبحت شيئاً يقرب من الوثنية والمسرح، ولوثر كان على قدر كبير من الصواب في دعمه القوي للفكرة القائلة بأنه في الحقيقة يجب ألا يكون هناك وعظ في الكنائس. وفي الوثنية كان المسرح عبادة إلهية - في المسيحية أصبحت الكنائس مسرحاً على العموم. كيف ذلك؟ هكذا: الناس يجدونه لطيفاً وليس من دون متعة معينة أن يجري التواصل مع العليّ القدير عن طريق المخيلة مرة في الأسبوع بهذه الطريقة. ولكن لا شيء أكثر من ذلك. وهذا أصبح في الحقيقة هو القاعدة المتبعة للوعظ في الدنمارك. ومن هنا هذه المسافة الفنية - حتى في أكبر المواعظ الخرقاء.

بعبارة ملطفة، كان وصف كيركغارد غير متساهل لكنه كان بعيداً عن الخطأ في وضعه مينستر أقرب إلى غوته، التجسيد المهذَّب للمجتمع المثقف، منه إلى لوثر، الإصلاحي الصلب للمسيحية الرسمية. والمفهوم الأساسي هو الغرس الثقافي، وكيرغارد كان أول متثقف يُفرغ المفهوم من مضمونه الأصلي ويعيد ملأه بمضمون سلبي جديد. ولم يعد الغرس الثقافي مصطلحاً لعملية تكوين النفس المعقدة، ولم يعد يعني فردنة المرء انسجاماً وتناغماً مع قدراته الطبيعية، ومع الثقافة المحيطة. كلا، فإن كيركغارد ربط الغرس الثقافي بالنخبوية، بالأخلاق الحسنة والذوق الرفيع. ودسَّ قدراً من التعالي في المفهوم ناسباً ذلك إلى الرائحة المريبة للعجرفة والتصنع الذي لم تفقده قط بصورة كاملة. إن خدمة الأسقف مينستر للمسيحية هي في الحقيقة إن شخصيته الكبيرة، ثقافته، تفوقه بين دوائر المتميزين وأكثر الأشخاص أرستوقراطية، مكّنته من أن يقدِّم الطرح - أو بمهابة أكبر المبدأ المتفق

عليه - بأن المسيحية شيء ما من شخص عميق وجاد حقاً (يا بَخته على هذا الثناء!)، ما من شخص مثقف (يا للطافة) يستطيع الاستغناء عنه.

هنا جُعلت المسيحية شيئاً يمكن تقديمه وشيء طبيعي، لكنها جُردت بذلك من راديكاليتها وطابعها المشين، من ألفها ويائها، لأنه إذا كانت المسيحة غرساً ثقافياً بحق فأن يكون المرء مسيحياً هو بهذا القدر أو ذاك ما سيتنمى إنسان اعتيادي أن يكونه في أسعد لحظاته - الأمر الذي يعني إننا على نحو ما نبعد ثلاثة أرباع مليون ميل عن اللغة التي تتكلم عن المخلّص الذي كان عليه أن يتعذب في العالم ويحتاج إلى صلب الجسد. ولم يبدِ كيركغارد تردداً ملحوظاً في التوصل إلى هذا الاستنتاج: لكن تَدَيّن مينستر هو تقريباً هذا: إن المرء يعيش من حيث الأساس وثنياً نبيلاً، إن المرء يجعل حياته مريحة وطيبة، يتمتع بمباهجها - لكنه عندئذ يعترف أيضاً بأنه بعيد جداً عن بلوغ الأسمى. وهذا الاعتراف هو الذي يعتبره في الحقيقة مسيحية... إنها نسخة تساومية بعض الشيء من المسيحية - ويستطيع المرء بسهولة أن يقدم هذا الاعتراف.

كان هناك تزييف في هذا الاعتراف - الذي، بالمناسبة، لا يختلف عن الإقرار الذي اقترحه كيركغارد نفسه (وإن كان بصفة خاصة من خلال رجاله الطيعين المرتاحين) بوصفه موقفاً دفاعياً عندما تبدو المطالب المسيحية التي طرحها كيركغارد المتأخر مطالب لا إنسانية إلى حد بعيد. وكان البديل الحقيقي لهذه المسيحية الناعمة، هذا التدين المخنَّث الذي يضع ذنبه بين ساقيه كمسألة مبدئية، محفوفاً براديكالية تكاد تكون حادة الصوت: أن يكون المرء مسيحياً لا يزيد ولا يقل، إطلاقاً لا يزيد ولا يقل عن أن يكون شهيداً. فكل مسيحي - أي كل مسيحي حقيقي - هو شهيد... هذا هو الوضع. وأن يصبح المرء شهيداً إنما هو امتحان وضعه الله. ولكن لهذا السبب بالذات يجب، في كل الأوقات (في سنة 1 وفي سنة 1848)، أن يكون من الصعب بالقدر نفسه أن يصبح المرء مسيحياً... فليكن عندنا مرة أخرى، بالمعنى المسيحي النبيل، قساوسة رثاث، أشخاص مساكين، يرتدون أسمالاً، محتقَرون، موضع سخرية، أضحوكة، يبصق عليهم الجميع. وآمل بل وأعتقد أنّه بعون الله سأكون أنا نفسي قادراً على الوعظ بلا خوف حتى إذا بصق أحد في وجهي عندما أقف على المنبر. ولكن إذا تلفعتُ برداءٍ مخملي ذي نجوم وشرائط - ثم أتحدث باسم المسيح فإني سأموت من الخجل.

المشهد دراماتيكي. فإن فقرة كهذه في اليوميات فقرة تغلي عملياً. ومرة أخرى ما يلحظه القارئ إن القساوسة الحقيقيين يمكن أن يُعرَفوا بقابلية التعرف عليهم مباشرة، من ملابسهم الرثة، وهزال مظهرهم، الأمر الذي يكون على نقيض صارخ مع الثرثرة المهيبة بلا موقف للقس المتشح بالمخمل: أوه، الويل، الويل لأولئك المئة ألف قس محترف الذين لا يفعل وعظهم سوى إيقاع الناس في مستنقع اللغو. أو حتى بقدر أكبر من عدم الحياء: لهذا السبب فإن الموعظة هذه الأيام ليست إلا أكذوبة. والقساوسة مثل المدرب الرياضي الذي هو نفسه لا يعرف السباحة لكنه يعلِّم الآخرين كيف يسبحون فيما يبقى هو واقفاً على الرصيف ينادي «أخبط الماء سريعاً بذراعيك».

لم يكن لدى كيركغارد شك بالاتجاه الذي يجب أن يسير فيه المرء: لكن تواصل المسيحية يجب أن ينتهي أخيراً إلى المشاهدة. فالسقراطي لا يمكن أن يكون الشكل النهائي. وهكذا يبدو أنّ الوقت ولى منذ زمن طويل عندما كان التواصل يمكن أن يُمارَس بصورة غير مباشرة والمتواصِل يمكن أن يخفي نفسه متنكراً باسم مستعار. وكان من الأقوال المأثورة التي جاءت لتبقى إن ما تحتاجه المسيحية الرسمية في كل لحظة هو أحد يمفصل المسيحية تمفصلاً أهوج بالمطلق. ولتبديد أي شكوك في أنّ الشخص الذي وضع هذا الاشتراط كان نفسه مشمولاً وجودياً به لكنه يدرك حدوده أيضاً، أضاف كيركغارد: يمكن أن تفيد المسيحية الرسمية بطرق متعددة (وفي الحقيقة قد يكون هذا هو العلاج الوحيد) من خبرة إعدام أحد من أجل المسيح - لكي تُفتح عيناها أخيراً على ما هي المسيحية. ولكني لا أملك القوة الجسدية على ذلك، ولا هذا النوع من الشجاعة ربما، وأخيراً أنا ديالكتيكي قادر بالتأكيد على عمل الكثير من ناحية التفكير والجوانية وأستطيع أيضاً أن أُمارس تأثيراً توعوياً ولكني ليس في وضع غير مُعَد في الحقيقة للديالكتيكي.

وهكذا سيكون الاستشهاد موقفاً غير ديالكتيكي. وبخلاف الديالكتيك فإن الموت لا مرد عنه في الحقيقة.

مقالان أخلاقيان - دينيان

يشكل هذا الصراع بين التفكير الديالكتيكي والفعل الدراماتيكي الموضوعة الأساسية لأحد مقالين غريبين نُشرا في 9 أيار/ مايو 1849، باسم مشتَرَك هو

مقالان أخلاقيان - دينيان. ونُشر المقال ذو العلاقة تحت عنوان هل للكائن البشري حق السماح لنفسه بأن يُعدَم من أجل الحقيقة؟ وكان مرفقاً بالمقال الموسوم عن الاختلاف بين العبقري والرسول. وكان المقالان القطعة الثالثة والقطعة السادسة على التوالي في حلقة من المقالات الأخلاقية - الدينية، عام 1848، كانت بدورها تتـألف من ستة أقسام قابلة للاستخدام من الكتاب الذي يتناول آدلر. وفكر كيركغارد في نشر المقالات الباقية - باستثناء المقال الخامس، ذلك الذي يتناول آدلر - تحت عنوان ثلاثة مقالات أخلاقية - دينية ولكن الفكرة لم تُنفذ.

وفي حين إن الثاني من المقالين كان مستلاً من الكتاب الذي يتناول آدلر دون تغييرات كبيرة فإن المقال الأول أُعيد اشتغاله بصورة منفصلة ولم يُنجز إلا في نهاية 1847. وخلال تحرير كيركغارد النهائي للمخطوطة ترك لنفسه (وللأجيال القادمة) معلومة مؤثِّرة بعض الشيء: ملاحظة: هذا الكتاب يجب التعامل معه بعناية شديدة لدى كتابة النسخة النهائية لأني كنتُ محظوظاً بما فيه الكفاية للتمكن من كتابته في ظرف ثماني ساعات. ولذلك يتطلب الامتنان أن يُكتب الجزء الروتيني حقاً من العمل بمزيد من العناية. وتقع مقالات أخلاقية - دينية إجمالاً في خمس وثمانين صفحة من القطع الصغير، وكانت الطبعة تصدر في 525 نسخة كما هو متعارف عليه. وكان التصميم الطباعي للكتاب مستعاراً من كتب مسز غيليمبورغ لأن كيركغارد أعطى في النسخة النهائية التعليمات التالية إلى عامل التنضيد: الشكل كما في قصص من الحياة اليومية ولكن بحروف متقاربة أكثر وحجمها أصغر. وأخيراً، في الرسالة نفسها، طلب كيركغارد ست نسخ على ورق الرق.

كان مقالان من تأليف H. H.. وهو جنتلمان حازم ولا يتسم على الإطلاق بالمرح النابض الذي نلقاه عموماً في شخصيات كيركغارد. وفي موضع من مسودة أول المقالين وقع كيركغارد في خطأ السماح لـ H. H. أن يقول كلمة تفاهة ولكنه سرعان ما ندم على ذلك وأضاف الملاحظة التالية: ملاحظة: إن نبرة هذا السطر في منتهى البذاءة. بكلمات أخرى، إن H. H. يحمل بصمة الجدية في موضوع مادته وهو بذلك لا يتوقع دائرة واسعة من القراء. وهذا واضح أيضاً من مقدمته - التي لا تزيد على سطر ونصف السطر (نعم، ½ 1 سطر) - حيث يقول إن المقالات على الأرجح لن تكون إلا موضع اهتمام اللاهوتيين.

وكان H. H. محقاً في ذلك. فالمواضيع التي قرر أن يعالجها مواضيع متخصصة على نحو لا مراء فيه بحيث إن هناك حتى بين اللاهوتيين أنفسهم قلة فقط - ربما في التحليل الأخير شخص واحد هو كيركغارد نفسه، لم يكن رسولاً لكنه مع ذلك (أو ربما لهذا السبب) كان عبقرياً - لعلها كانت مهتمة بقراءة تفسير للمدى الذي يمكن أن يذهب إليه عبقري في السماح بأن يُعدَم من أجل الحقيقة. وعلى أقل تقدير فإن انعدام المخيلة عن سابق إصرار وحده الذي لا يربط القضية المطروحة في المقال بكيركغارد نفسه، وعلى غرار كتاب الممارسة في المسيحية فإن قطعة مقالان كان من المقرر في الأصل أن تُنشر باسم كيركغارد. وفي اللحظة الأخيرة اختار كيركغارد بدلاً من ذلك الحرفين H. H. اللذين كانا نوعاً من الشفرة الشخصية أكثر من كونهما اسماً مستعاراً جديداً. وبرر كيركغارد هذه الصيغة ديالكتيكياً: إن الكتاب الصغير بقلم H. H. كان مصيباً بالكامل. فالمرء لا يستطيع بكل بساطة أن يتخذ هو نفسه موقفاً كهذا الموقف بالغ الصعوبة، ومليء بالمسؤولية. لذا يمد المرء دعوة صغيرة ليجعل من اليوم الحاضر شريكه. وإذا وقع أحد على الكتاب الصغير فإنه سيثير ضجة هائلة - وهو محق في ذلك لأنه كتاب صغير في منتهى الغرابة. ولكن في هذه الحالة يكون هو مَنْ أثار الضجة، وأنا الآن الآخر. لذلك تعين أن يُنشر هذا الكتاب - إما باسمي (ومع أكبر توكيد ممكن) أو كما نُشر في الواقع. وكان الغرض من نشره باسم H. H.، قبل كل شيء، لتفادي الإيحاء بأن كيركغارد يعتبر نفسه شهيداً، وثانياً - كاحتمال أُخترُع بمكر - ليكون مناسبة يغتنمها أحد آخر لتقمص الدور بدلاً من كيركغارد.

وهكذا كانت لدى المؤلف توقعات مهمة بشأن عمله الموسوم مقالات ولا سيّما وإنها كانت المفتاح إلى أعظم إمكانية في عملي كله. وبالطبع كان على كيركغارد أن يعطي مكانة خاصة لرواية ذات أسماء ملفقة كهذه: وهكذا فإن مقالان أخلاقيان - دينيان ليسا جزءاً من شرعة وهما ليسا عنصراً فيها بل وجهة نظر. وإذا توقفت الشرعة فإنهما سيكونان نقطة يُسقطها المرء أمام نفسه ليتوقف هناك. كما إنهما يتضمنان النقطة السامية المفترضة والفعلية: شهيد بدلاً من رسول - وعبقري. ولكن إذا بحث المرء في المقالات نفسها عن بعض المعلومات المتعلقة بي أنا فهي بالطبع هذه: إني عبقري - ليس رسولاً، وليس شهيداً.

كانت لدى كيركغارد طريقة غريبة جداً في التواضع.

إرادة اللاقوة

هل للكائن البشري حق السماح لنفسه بأن يُعدَم من أجل الحقيقة؟ يتخذ شكل تأمل في سؤالين. الأول هو ما إذا كان من الجائز السماح للمسيح، في حبه للجنس البشري، أن يضحي بنفسه وبذلك تحميل الجنس البشري ذنب مقتله. والسؤال الثاني هو ما إذا كان يجوز للكائن البشري، في حبه للمسيح، أن يسمح لنفسه أن يفعل ما سمح المسيح لنفسه أن يفعله. الإجابة عن السؤال الأول بسيطة بقدر ما هي متناقضة: موت المسيح التكفيري كان نفسه تكفيراً عن ذنب الذين أعدموه.

الإجابة عن السؤال الثاني أعقد بكثير لأنها ترتبط في النهاية باتخاذ موقف من مسألة إلى أي مدى يمكن أن يُفترض إن كائناً بشرياً، في علاقته بكائنات بشرية أخرى، يمتلك الحقيقة بشكل مطلق. بكلمات أخرى، هل يمكن القول إن هناك أحداً لديه امتياز الوصول إلى الحقيقة؟ في البداية كان كيركغارد ميالاً للرد على السؤال بالنفي، ولذلك خطرت له فكرة إنهاء القطعة بطريقة مقتضبة بعض الشيء مستخدماً هذا التزويق البياني الفكاهي الصغير في الخاتمة: أما السؤال الذي يسبِّب أو سبَّب لهذا الشخص هذا القدر من المتاعب فإن إجابتي عنه سهلة: أوه، يا إلهي، كلا! فالشخص لا يملك الحق في أن يفعل هذا!

تخلى كيركغارد عن هذا التزويق البياني الختامي لعدد من الأسباب، لكنه تُرك حينذاك مع المشكلة الرئيسية: هل يقع على الشخص، بكَتْم معرفته بالوضع اللامسيحي للمسيحية الرسمية، ذنب أكبر من السماح لآخَرين أن يصبحوا مدانين بجريمة قتل؟ كيركغارد جعل H. H. يجيب عن السؤال بالنفي. فجميع البشر آثمون وبالتالي ليس لفرد سيادة على الآخرين. ويبدو أنّ هذا حسم المسألة ولكن H. H. يسأل في الوقت نفسه: من أين، إذاً، تأتي الصحوة إذا كان الشخص لا يجرؤ على استخدام الوسيلة الوحيدة الحقيقية للصحوة؟ كما إن H. H. لا يكتفي بالتوقف هنا: إذاً – بشأن العلاقة الاشتقاقية بالمسيح – إذا كان شخص ما مسيحياً ويرتبط بوثنيين إلا يكون عندئذ على علاقة بهم في الحقيقة المطلقة؟ إن الفارق بينه وبينهم فارق مطلق، والإعدام هو على وجه التحديد التعبير المطلق عن الفارق المطلق. – بالنسبة لطريقتي في التفكير، لا يمكن إنكار ذلك.

بهذه المحاجَّة المفككة قليلاً يُجري H. H. تغييراً في المنظور من الواضح إنه تغيير عائد إلى تأملات لا يعرضها كيركغارد مباشرة لقرائه: هنا، تماماً كما في الخوف والرعدة، أستطيع القول إن غالبية الأشخاص ليس لديهم أدنى فكرة عما أتحدث عنه، كما قال متحسراً حين كان في غمرة مسودات عمله. وهكذا فإن ما كُتب ذو طابع شخصي بعمق ولا يمكن وضعه في متناول الجمهور العام. كما إن الإشارة إلى كتاب الخوف والرعدة جديرة بالملاحظة ولكن لأسباب أخرى. فإن تأملات H. H. في موضوعة التضحية يمكن أن تُقرأ في الحقيقة بوصفها تنويعاً من العهد الجديد على موضوعة التضحية في العهد القديم الواردة في كتاب الخوف والرعدة. الآن قُلِبَ المنظور بطبيعة الحال. والمشكلة الآن هي حق الشخص المضحى به في السماح لنفسه بأن يُضحى بها، وليس، كما في السابق، حق المضحي في التضحية.

لا يُقال لنا بيقين ماذا دهى H. H. في هذا الشأن، ولكن العنوان الفرعي لمقاله جدير بالملاحظة: الرفات [الأدبي] لرجل وحيد بعد الموت. ويبدو أنّ هذا يعني ضمناً إن السؤال الذي يعالجه المقال نظرياً أجاب عنه H. H. عملياً - في شكل استشهاده هو! ويبدو أن القسم C من المقال بصفة خاصة يشير إلى هذا قائلاً: من بين كل الأشياء المثيرة للسخرية في هذا الزمن الأحمق لعل الأشد إثارة للسخرية هو العبارة التي كثيراً ما قرأتها حيث تُسمى «حكمة» وسمعتُ كلاماً يعجب بها على أنها «مناسِبة»: وهي إن الشخص في زمننا هذا لا يمكن أن يصبح حتى شهيداً، وإن زمننا لا يملك حتى الطاقة على إماتة شخص ما. Sie irren sich! [بالألمانية: أنتم مخطئون!] فالزمن ليس هو الذي يجب أن يمتلك الطاقة لقتل أحد أو صنع شهيد منه، بل الشهيد، الشهيد الذي سيكون شهيداً هو الذي يجب أن يمتلك الطاقة لإعطاء الزمن عاطفة، هي في هذه الحالة عاطفة الغضب، لإعدامه. وكما نرى فإن هناك مؤشرات إلى أن الاستفزاز تكلل بالنجاح وان الاستشهاد أصبح واقعاً: موت H. H.

لكن الزمن لم ينتبه. ويوم السبت، 21 تموز/ يوليو 1849، عندما نُشرت مراجعة لكتاب مقالان في صحيفة أزمنة الكنيسة الدنماركية، كانت المراجعة قصيرة وسلبية. وكان رأي المراجِع إن كاتب المقالين لا بد أن يكون مؤلفاً شاباً تماماً قرأ الماجستير كيركغارد. وكان رد فعل كيركغارد يتسم بالاشمئزاز حين قال حسناً، يا لهم من نقاد! وبعد أن خفَّ انزعاجه قليلاً فكَّر في أن يهبَّ للدفاع

عن ذلك «الشخص الشاب» بالإعلان إنه، كيركغارد، قرأ الكتاب الصغير باهتمام استثنائي تماماً بل ربما ينبغي أن يتقدم ويقول استمر في الكتابة أيها الشاب. فأنتَ قطعاً الشخص الذي سأُنيط به مهمة أن تكون خَلَفي. وكان كيركغارد يستطيع أن يستمتع بهذه التسلية الصغيرة لكنه قرر أن يشيح بنظره بعيداً عنها. فرغم كل شيء، لا يمكن أن نستبعد إن الأمر كله كان خدعة من كاتب المراجعة لاستدراجي إلى مصيدة. ولكنها لم تكن خدعة.

لم تتحسن الأمور في السنة التالية عندما نُشرت مراجعة للكتاب في المجلة اللاهوتية الجديدة (تحت عنوان: B: عقائد الإيمان والأخلاق!) حيث كتب صاحب المراجعة إن الكاتب المجهول يجعل من الواضح إنه تلميذ ومقلِّد للماجستير كيركغارد. وبطريقة ليست محسوبة تماماً لتشجيع المبيعات ذهب كاتب المراجعة إلى أن موضوع المقال الأول عولج في عبارات استطرادية. وتابع كاتب المراجعة قائلاً إن العمل مع ذلك يحمل دليل تفكير ووضوح منطقي... ويتمنى المرء لو أمكن استخدام هذه المواهب في مواضيع واعدة أكثر وبطريقة طبيعية أكثر. وكان ذلك نهاية السطور الاثني عشر القصيرة التي خصصها صاحب المراجعة لذلك الكتاب.

لو كتب كيركغارد باسمه لربما وفر على نفسه هذه الكوميديا المهينة من التباس الهويات. ومن الجهة الأخرى، لم يتعين عليه، الآن بعد أن وقع المحذور، أن يكشف هويته. ولكنه مع ذلك لم يكن قادراً على مقاومة إغراء أن يكتب مقالاً طويلاً، كله غضب لأن أعماله لم تُراجع قط في المجلة اللاهوتية الجديدة بل كانت تُعدَّد فحسب بين حين وآخر مع ملاحظة يُبلَّغ فيها القارئ بأن المحررين لم يتلقوا نسخة مجانية. وخلص كيركغارد من ذلك إلى أن المحررين إذا لم يستلموا نسخة مجانية فإنهم لا يراجعون الكتاب. وكتب أكثر بكثير في هذا الاتجاه لكنه انتهى إلى حفظ نتيجة غضبه في الدُرج الأوسط من المنضدة. وإذا كنا نظن إن كيركغارد كان مرة أخرى يبالغ في رد فعله فكل ما علينا أن نفعله هو أن نقلب صفحة واحدة إلى الوراء من المجلة اللاهوتية الجديدة حيث نُشرت في الحقيقة مراجعة لكتاب المرض حتى الموت تماماً كما وصفها كيركغارد: المعلومات البيبلوغرافية الأساسية عن الكتاب مُؤشَّرة زائد السعر، 1 ريكسدولار. وكان هذا كل شيء. إذ لم تكن هناك إشارة حتى لعدد صفحات الكتاب.

عدا هذه المراجعات القاصرة فإن رد الفعل الوحيد على مقالات H. H. كان حين غمغم مينستر بتردد بعض الشيء عبارة الصديق العزيز، ربما ست أو سبع مرات - بعد السماح أخيراً بدخول كيركغارد. وكانت هذه هي الضجة الهائلة التي أثارتها مقالات H. H.. ولم يكن ذلك كافياَ لكنه مفهوم حتى إذا كان السبب الوحيد إن العمل الذي اقترحه H. H. ما كان ليعني شيئاً إلا إذا حدث خارج النص، في العالم الحقيقي، ربما في مركز كوبنهاغن مباشرة، وسط ميدان أماغيرتورف.

المتكلم من بطنه الذي قال أنا

مع نمو العمل كاتباً تقلصت المسافة بين الكاتب والعمل. وبمرور الوقت أدرك كيركغارد كيف أنه يرتبط ارتباطاً لا فكاك منه بأعماله التي اتضح إنها تربيته وتطوره - على حد تعبيره في كتاب وجهة نظر لعلمي كاتباً.

حتى H. H. وبمن في ذلك H. H.، ظهر رموز النص على أنهم شخصيات. وظهرت هذه الشخصيات بدلاً من كيركغارد، أي، بما إنه لم يكن قادراً على تقمص الشخصية فقد جعل شخصية شعرية تفعل ذلك بدلاً منه. وأصبح كيركغارد ينظر بصورة متزايدة إلى هذا الترتيب على أنه تهرب من شرط تحقيق الذات وجودياً. ويكون هذا واضحاً من العذر الذي قدمه في أولى محاضراته عن التواصل غير المباشر، التي كتبها في عام 1847 لكنه لم يلقها قط: ربما يجب أن أُقدم عذراً للطريقة التي أستخدم بها أنا في هذه المحاضرات... وبالنسبة لطريقة تفكيري فإن موطن ضعفي ومنقصتي... ألا أُغامر بجرأة أكبر في استخدام أنا يَ أنا. ومن الجوانب المؤسفة للزمن الحديث هي على وجه التحديد إن الـ أنا، الـ أنا الشخصية، أُلغيت. ولهذا السبب بالذات يبدو الأمر كما لو إن التواصل الأخلاقي - الديني الصادق اختفى من العالم، لأن الحقيقة الأخلاقية - الدينية ترتبط أساساً بالشخصية ولا يمكن توصيلها إلا بـ أنا إلى أنا. وما أن يصبح التواصل موضوعياً تصبح الحقيقة لا حقيقة. فإن مقصدنا يجب أن يكون الشخصية. وأقول إن استحقاقي هو إني بإنتاجي شخصيات مصنوعة شعرياً تقول أنا وسط واقع الحياة (أسمائي المستعارة)، أسهمتُ في تعويد الزمن مرة أخرى على أن يسمع، إذا أمكن، صوت أنا، أنا شخصية (وليس تلك الفانتازيا المؤلفة من أنا خالصة ويخرج كلامها من البطن).

إذاً، يمكن إيصال الحقيقة الأخلاقية والدينية شخصياً، ولهذا السبب جعل كيركغارد أسماءه المستعارة تقول أنا في غمرة واقع الحياة. حتى الآن كل شيء على ما يرام. ولكن خطوته المضادة خطوة حديثة بصورة متميزة لأن الواقع الذي يقول أسماؤه المستعارة أنا على وجه التحديد ليس واقعاً بل نص. وهكذا فإن الرغبة، مفهومة فهماً صحيحاً، في إعادة الـ أنا إلى مكانها الشرعي باستخدام أسماء مستعارة، ممارسة متناقضة بحيث إن النتيجة ستؤدي بالضرورة إلى كلام من البطن. وإذا كان كيركغارد يريد النجاح في إعادة إرساء الذاتية – الـ أنا الحقيقية – فإنه نفسه سيكون عليه أن يحل محل الشخصية ذات الاسم المستعار.

وكان هذا يحدث بصورة تدريجية ولكن ذات يوم في أوائل صيف 1847 ظن كيركغارد إنه تلقى أوامر على الضد من ذلك: يجب أن يقوم بدور المدسوس في خدمة قضية أسمى. في ذات الوقت الذي كنتُ على وشك تفكيك الدكتاتورية في كوبنهاغن، وصلت أوامر تبلغني أن عليَّ الظهور بدور جديد: دور المضطهَد. ويجب أن أبذل كل مجهود لإجادة الدور بالمستوى نفسه. وقيل إن الشخص في زمننا لا يستطيع النجاح في أن يكون مضطهَداً. الآن سنرى. لكني متأكد من إنه إذا نجحتُ سيقول أشخاص «أن الذنب ذنبه» – وهم سيكونون الأشخاص أنفسهم الذين يلومون الزمن قائلين إن المرء لا يستطيع حتى أن يكون مضطهَداً. أوه، يا غباء الإنسان، كم أنتَ لا إنساني!

كان الصوت صوت H. H.، لكن اليدين كانتا يدي كيركغارد. وتقسيم العمل هذا معهود من فقرات كثيرة للغاية في اليوميات تعود إلى أواخر أربعينات القرن التاسع عشر، حيث تشكل الأسماء المستعارة مراجع يقارن كيركغارد نفسه بها، واضعاً نفسه في بعض الأحيان فوق أحد الأسماء المستعارة، وفي أحيان أخرى تحته. وكتب معيداً تدوير الاستعارة التي استخدمها في عام 1939، مثل نهر غوادالكيفير، يمر وقت أهوى فيه تحت الأرض فتكون هناك رقعة، هي التثقيفي، تحمل اسمي. وهناك شيء أدنى (الجمالي) هو الأسماء المستعارة – وشيء أعلى هو أيضاً ذو اسم مستعار، لأن شخصيتي لا ترتقي إلى مستواه. وبصرف النظر عن أين يموضع المرء كيركغارد في هذه الرقعة على امتداد النهر فإن استخدامه أسماء مستعارة كان مدفوعاً باعتبارات شخصية أكثر منها اعتبارات سقراطية: هنا لا تتعلق المسألة بالقارئ وإنما بكيركغارد. ويصبح هذا أكثر من

واضح في تعليق مرفق بكتاب الممارسة في المسيحية حيث صاغ العلاقة بين الكتابة والكاتب كالآتي: في عملي الحالي توضع شروط الحالة المثالية عالياً بحيث إنها تتضمن حكماً على وجودي أنا... لذلك فإن الاسم المستعار هو الذي يتكلم وهو الذي يجرؤ، بحرية الشِعْري ليقول كل شيء - ويقول كل شيء كما هو.

كان كيركغارد يعدِّل كتاباته باستمرار لتكون مطابقة قدر الإمكان مع موقفه. وكانت كتابات يُفترض أن تُنشر باسمه، تُغيَّر في اللحظة الأخيرة - أحياناً في المخطوطة المقدَّمة للمطبعة - إلى كتابات بأسماء مستعارة. وهكذا فإن كتاب الممارسة في المسيحية الذي كان له في الأصل العنوان الفرعي خطاب ودي موجَّه إلى هذه الأزمنة بقلم أس. كيركغارد انتهى به المآل إلى اسم ضد كليماكس على صفحة العنوان لأن وجود كيركغارد نفسه لم يستوف المستلزمات المسيحية الراديكالية في العمل. وكتب كيركغارد كما هو ديدنه: ملاحظة. لا يمكن أن يُستخدم لأن الكتاب باسم مستعار بالطبع، وهنا كما لو إني أنا المؤلف. وقد كان وظل مؤلفاً رغم العديد من مزاعم الوصاية اللاتخويلية التي أصر عليها في تصويباته التي أجراها احتراماً للمرجعية التي قال لنفسه بطريقة مرجعية قوية إنه لا يملكها: ملاحظة. ملاحظة. ملاحظة. يا لي من غرابة مراقية أنا! اليوم أخرجتُ آخر أعمالي لكي أرى إن كان صحيحاً إن ما قيل كان أكثر مما ينبغي أن يُقال. وهناك كان مكتوباً عليه: شِعري، من دون مرجعية.

شاعر الاستشهاد: استشهاد الشاعر

عندما يشق المرء طريقه بصعوبة عبر مئات الفقرات من يوميات كيركغارد التي يفكر فيها بهوس أحادي في العنف والتضحياتيّة، ينتاب المرء أحياناً شعور بأن مشروع كيركغارد على وشك أن يصبح متقوقعاً بإحكام، دون أي صلة بالواقع - ليس بالواقع المحتفى به كثيراً هناك في الخارج فحسب وإنما بالواقع الحقوقي أيضاً. فمنذ المصادقة على دستور 1849 الذي كان شديد التسامح في الأمور الدينية، سُمح للمواطنين بأن يعبدوا الله وفق عقائدهم طالما إن هذه العقائد لا تتعارض مع آداب المجتمع والنظام العام.

لكن المسألة هنا ليست غياب التناسب بين أفكار كيركغارد القلقة وحقيقة الأشياء في عالم الواقع وإنما إن كيركغارد خرج بخلاصات شخصية على

أساس مقدَّمات نصية. وأراد تنفيذ كتابات موضوعتها الأساسية ترتبط ارتباطاً عميقاً وفي بعض الأحيان ارتباطاً مبهماً بفكرة التضحية. ويجري تطوير هذه في حلقة من الفقرات التي كتبها في اليوميات أواخر نيسان/ أبريل وأوائل أيار/ مايو 1849: ملاحظة. ملاحظة. ملاحظة. ملاحظة. أوه، ولكن يا للطريقة الغريبة التي يمكن أن تمتزج بها المالنخوليا والتدين مع أحدهما الآخر... لكني فكرتُ في إمكانية المضي خطوة أبعد الآن، وفي التوجه منهجياً إلى أمام، خطوة فخطوة، واضعاً نصب عيني إمكانية إعدامي. كان الهدف وكل شيء معه صحيحاً... والصراع كان الصراع الصحيح: الاستسلام لغوغاء مدفوعين بحسد الطبقات العليا... أنا لا أشك لثانية – أو بالأحرى إني على قناعة مطلقة – بأن من المؤكد أن المسيحية الرسمية تستطيع أن تستخدم هذا النوع من الصحوة... أفهم إن هذا من وجهة نظر إنسانية سيكون النتيجة القصوى لحياتي... وأن يجب أن تتخذ حياتي المنحى الذي اتخذته، وأقل من ذلك بكثير أن تنتهي إلى الاستشهاد، فإن هذا لم يحدث لأي أحد من مجايليّ. أنا الذي يوجه الدسيسة بمكر – وبحسب تكتيكاتي فلإن مجايليَّ يجب ألا يدركوا ذلك قبل حدوثه... ولكن في هذا هناك ظلماً تجاه البشر. فالبشر، رغم كل شيء، ليسوا إلا أطفالاً وبالتالي أن يُسمح لهم بالوقوع في الذنب على هذا النطاق ظلم بحقهم مثلما هو غير جائز للمرء. وهكذا ألقيتُ النظرة الأخيرة على حياتي. الآن أستدير جانباً، صادقاً مع نفسي ومع أصولي: فأنا، بعد كل شيء، شاعر من حيث الأساس.

المالنخوليا السوداء والتدين يمكن أن يمتزجا مع أحدهما الآخر بأشد الطرق غرابة ولكن يبدو أنّ كيركغارد H. H.، مع ذلك، امتزجا مع أحدهما الآخر بطريقة بسيطة تماماً، لأن المشكلة التي صاغها كيركغارد هنا بوصفها مشكلته الشخصية تكاد، كما نستطيع أن نرى، أن تكون مطابقة حرفياً لما قدمه H. H. في مقاله. وكانت هناك حدود متحركة، مفتوحة بين الأعمال المنشورة بأسماء أخرى واليوميات المكتوبة باسمه هو. وكانت النبرة واحدة، والعاطفة المثقلة بالقلق، المحمومة، بل المأساوية أحياناً، كانت واحدة، مثلما إن الرجل الذي يقف وراء النصوص كان، بالطبع، واحداً كذلك. وأدرك كيركغارد إن الاستشهاد ضرورة سقراطية ولكن، كما في حالة H. H.، كان لدى كيركغارد قلق على الأشخاص الذي يُسمح لهم بأن يتحملوا ذنب استشهاد كهذا بحيث إنه تخلى عن مشاريعه واستأنف دوره بوصفه شاعراً. واتسمت فقرته التالية

في اليوميات - كتبها جانبياً على هامش الفقرة المقتبسة أعلاه، ومؤرخة يوم 25 نيسان/ أبريل 1849 - بشعور بالراحة والخلاص ناجم عن قراره التراجع:
أوه، الحمد لله، الآن أفهم نفسي... بوصفي كاتباً ليس عليّ إلا أن أتلقى مذلة واحدة من يد الله... أي، إني أنا نفسي يجب ألا أتجرأ على التعبير في الواقع عن أشياء أُقدِّمها على النطاق الذي أُقدِّمها عليه - وكأني أنا نفسي المثل الأعلى. ويجب أن أُقدم اعترافاً في هذا الشأن: أنا في الغالب شاعر ومفكر... والحق إن هذا - مثلما أدركتُ في وقت مبكر تماماً وإن لم يكن بوضوح كما الآن - كان سوء فهم لخلفيتي كلها. كانت مهمة تفوق قدرات البشر ربما لن تُنجز أبداً: بالنسبة لشخص له مثل تكويني ومخيلتي وقدرتي على الإنتاج الشعري، يريد أيضاً أن يكون وجودياً. عموماً، يأتي البطل أو الشخصية الأخلاقية أولاً، ثم الشاعر. وأنا أردتُ أن أكون الاثنين: في ذات الوقت الذي كنتُ أحتاج فيه إلى هدوء الشاعر ومسافة من الحياة وهدوء المفكر، أردتُ - في غمرة الواقع مباشرة - أن أكون ما كنتُ أُشَعْرِنَه وأُفكر فيه... بدا لي إن العالم، أو الدنمارك، بحاجة إلى شهيد. أنهيت كل كتابتي، وفي الحقيقة فكرتُ في تقديم الدعم، إن أمكن، إلى ما كُتب بأقوى الأشكال حسماً، بأن أُعدَم. وفي هذا - الذي لم أكن قادراً عليه - في هذا كان يكمن سوء الفهم، أو هذا على الأرجح هو ما كنتُ أحتاج إلى لف نفسي عليه. والآن كل شيء كما ينبغي أن يكون... ما زلتُ عاشقاً بائساً في العلاقة بكوني أنا نفسي المثل الأعلى المسيحي ولذلك أبقى شاعرها. لن أنسى هذا الإذلال أبداً... ليس عندي القوة لكي أكون شاهداً على الحقيقة يُعدَم من أجل الحقيقة. ولا طبيعتي كانت مناسِبة لذلك.

قدم كيركغارد هنا الإعتراف المهين الذي سعى ضد كليماكس، من بين آخرين، إلى حمل المسيحية الرسمية على تقديمه: إذ أستخدِمُ مصطلحاً سيكون لاحقاً مركز قدر هائل من الاهتمام، أعترف بأنه ليس شاهداً على الحقيقة. وفي هذه الحالة فإن ما أشار إلى المسافة الفاصلة عن المثل الأعلى هو الظرف الغريب المتمثل بأن كيركغارد الشاعر ليس قادراً على تحقيق المُثُل التي لم يتمكن كيركغارد اللاهوتي من التخلي عنها أو يريد التخلي عنها. وإن شاعر الاستشهاد لن يتنازل عن موقعه لاستشهاد الشاعر، إذا جاز التعبير. ثم أشار كيركغارد، كمَخرَج من عجزه، إلى الجانب الذي يفوق قدرات البشر لفكرته ذاتها: ما أن رفض كيركغارد فكرة دعم المطلب الأقصى لأعماله من خلال

استشهاده حتى فُسر هذا الرفض نفسه على أنه من شروط الحاكمية الإلهية لاستمرار كيركغارد في كونه شاعر الاستشهاد. وهكذا (جُعل) كل شيء مرة أخرى كما ينبغي أن يكون.

لكن الأمور لم تحدث بهذه السهولة، ومنذ 4 أيار/ مايو 1849 انقلب الوضع: المسألة هي إني كنتُ أُريد أن أكون على قدر كبير من الذكاء... كنتُ سأحقق لنفسي مستقبلاً مضموناً ثم أجلس على بُعد مسافة وـ أقول شعراً. أوه، تُفو! كلا، الله بالتأكيد سيتكفل بالأمور. والأكثر من ذلك إن الزمن لا يحتاج إلى شاعر آخر... ولهذا السبب عانيتُ كل هذه المعاناة الممضة. إنه عقابي. وعانيتُ أيضاً لأني لم أكن أُريد الارتباط بل أردتُ أن أكون حراً وأبتعد عما هو حاسم. هذا، إذاً، كان سبب كل ذلك الهراء المُراقيّن وضع نفسي عالياً جداً في أي من كتاباتي، وهو أمر غريب جداً عن روحي... الآن سيُنشر المقالان - هل للكائن البشري الحق في السماح لنفسه بأن يُعدَم من أجل الحقيقة؟ وعن الفارق بين العبقري والرسول - ولكن بأسماء مستعارة... وإذا تركتُ هذه «اللحظة» تمر فإن القصد والموقف في الإنتاج الأدبي كله سيضيعان، ثم سيُغمر كل شيء بطبعة ثانية من «إما/ أو». لكني أردتُ القيام بدور المولى والسيد، أحكم الأشياء بنفسي، مبرراً نفسي أمام الله بتهربات مَراقية.

هنا، كما في الفقرتين السابقتين من اليوميات، وصف كيركغارد الراحة التي شعر بها في الاعتراف بفشل خططه - أوه - تُفو! - ولكن ما رَفَضه قبل عشر فقرات في اليوميات بوصفه مَراقاً سوداوياً يُحتفى به الآن على أنه اشتراط من الله بأن يتقمص شخصيته. وهكذا فإن خوف كيركغارد من أن يتولى دور الحاكمية الإلهية كان خوفاً له مسوغاته لأن هذه الحاكمية الإلهية ذاتها في هذه الفقرات من اليوميات، كيان مطاط على نحو غريب، متردد، ليس من دون سبب، مثل كيركغارد ولذلك كان قادراً على أن يبرر تأويلاً في البداية ثم تأويلاً آخر. ولكن إذا كان لا يريد أن يضيع القصد من الإنتاج سيتعين عليه أن يكرر استشهاد H. H. النصي استشهاداً وجودياً، وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي يمكن للإنتاج أن يحقق بها مقصده الافتراضي والفعلي. قُدُماً! قُدُماً! هذا هو الاتجاه، وكان كيركغارد يعرف ذلك: أوه، تُفو، تُفو! إنه بسبب الخوف من المخاطر، بسبب المَراق، بسبب الفشل في الثقة بالله، أردتُ أن أجعل نفسي شيئاً أقل بكثير مما وُهبتُ، كما لو أني إذا احتلتُ

على الحقيقة... ومع ذلك بدا لي [إني كنتُ] متواضعاً جداً. أوه، المُراق، المُراق!... الآفاق قاتمة، ومع ذلك أنا بسلام. وهذا، عيد ميلادي، سيكون عيد ميلاد لا يُنسى عندي!

كان ذلك عيد ميلاد المفكر الأُستاذ/ الشهيد السادس والثلاثين! واحتفل بذلك اليوم بتوبيخ نفسه توبيخاً شديداً، معترفاً بأنه احتال على الحقيقة. وللتعبير رمزياً عن موقفه الجديد حرص على إيصال المقالين إلى غيودفاد الذي كان عليه تسليمهما بحذر إلى الناشر غيلدندال. ونظر كيركغارد إلى هذا العمل على أنه عمل حاسم وقاطع. والآن كل ما يفتقد إليه هو معارضة الغوغاء جسدياً لأن مثل هذه المعارضة ضرورية بالطبع إذا أُريد أن يكون هناك استشهاد. وفي الحقيقة كان ينبغي أن يكون هناك استشهاد لأن هناك فهماً ثابتاً واحداً للمسيحية... هو أن يصبح المرء شهيداً.

يجب أن نقر بأن كيركغارد ببطولته ذات الحساسية المرهفة سعى إلى أن يكون ثابتاً منذ صدامه المصيري مع مجلة كورسارن وإنه في عام 1847 استطاع أن يرسم معالم شخصيته الأكاديمية الهشة على المشهد الحضري لمدينة كوبنهاغن: اليوم الذي يسخر فيه الغوغاء هنا في المدينة من قبعتي (وهذا اليوم قد لا يكون بعيداً) هو اليوم الذي سأكون انتصرتُ فيه. وأصر بشيء من الاستعلاء على هذه الشرط المتمثل بإعدامه، واتضح إن هذا - من وجهة النظر المثالية - كان مصيبته. فإن زمنه عمل كل شيء باستثناء الشيء الحاسم: كان الناس يسخرون منه، والطبقات النخبوية تحسده، والقليل القليل يقرؤونه، ولكن لا أحد، لا أحد على الإطلاق، خطرت له فكرة السخرية من قبعة الماجستير كيركغارد وبذلك مات موتاً طبيعياً. ولم يعد الأشخاص يُعدمون بسبب معتقداتهم الدينية، رغم كل شيء. وإذا كانوا عباقرة لن يُعدموا أبداً.

لذلك كان على كيركغارد أن يكيِّف نفسه مع مفارقة أخرى هي أن يكون المرء شهيداً من دون الاستشهاد المرتبط بكونه شهيداً. ولعلها لم تكن مفارقة إلى ذلك الحد أن ينتهي به المآل إلى هذه المفارقة لأنه كان بالتأكيد أول شهيد في تاريخ العالم طُبع مقاله عن الاستشهاد على ورق الفيليوم - ذلك الورق الثقيل الناعم كأنه من الرق الذي يُسمى أيضاً جلد العجل.

وسُعِّر المقال على هذا الأساس.

الدكتور إيكستاتيكاس

في مطالع ربيع 1848، ربما في منتصف أيار/ مايو، غمس كيركغارد قلم الشاعر في الحبر وكتب: فكِّر في أحد عاشق. نعم، إنه يستطيع أن يتحدث يوماً إثر يوم عن سعادة الوقوع في الحب. ولكن إذا طالبه أحد بأن يتحدث ويذكر ثلاثة أسباب تثبت حبه - أو حتى أن يدافع عن حبه - ألن يعدَّ ذلك اقتراحاً مجنوناً؟ أم، إذا كان أكثر فطنة بعض الشيء، ألن يقول للشخص الذي اقترح ذلك عليه، «آها! أنتَ بالتأكيد لا تعرف ما معنى أن يكون المرء عاشقاً! وأنتَ ربما مقتنع قليلاً بأني لستُ عاشقاً». أو قول ذلك بالدم فضلاً عن قوله بالزهور: إن الطريقة الحقيقية الوحيدة للتعبير عن وجود مطلق هي أن تصبح شهيد هذا الوجود أو أن تصبح شهيداً من أجله. وهكذا هي الأشياء حتى فيما يتعلق بالحب الرومانسي المطلق.

وهكذا فإن المسألة ليست مسألة حساب بارد، مسألة تفكير واعٍ بل تتعلق بعاطفة متقدة، بنشوة، الوجد أو ec-stasy التي تعني عاطفة تعلو على قدرة الجسد. ولم يكن من دون سبب إن كيركغارد عندما بدأ يدرس لأداء امتحاناته في عام 1839 وقَّع عابثاً - ولكن مع لمسة من الجدية - في يومياته باسم أس. كي.، سابقاً الدكتور إيكستاتيكاس Exstaticus.

ومن الجائز تماماً إن الأحداث التي وقعت بعد عشر سنوات تسببت في انزعاجه من نفسه من جراء ذلك التوقيع في عام 1839. وفي غمرة الضجة التي رافقت نشر كتاب مارتنسن الدوغماتية، أفلح بيتر كريستيان في زج نفسه في النقاش على حساب شقيقه الأصغر. وفي 30 تشرين الأول/ أكتوبر 1849 كان بيتر كريستيان في مؤتمر روسكيلدة الرعوي. وفي الحقيقة كانت نيته أن يعلق على إعلان أصدره لفيف من القساوسة المتمردين في سليسفيغ ولكنه بدلاً من ذلك قرر أن يقارن بين ظاهرتين خصوصيتين في أدبنا الحديث هما أعمال الماجستير أس. كيركغارد المعروفة وكتاب مارتنسن الدوغماتية وعمله حول العقيدة بصفة عامة. وكان الكلام ارتجالاً من نوع ما، وبدأ بيتر كريستيان طالباً من جمهوره أن يسامحه لأنه يجب الآن أن أُقدم إليكم شيئاً خطر ببالي أول مرة مساء أمس وأعددتُه بعجالة.

كانت المقارنة بين البروفيسور مارتنسن والماجستير كيركغارد جريئة لعدد

من الأسباب ولكن بيتر كريستيان مضى إلى نهاية الشوط: جُعل البروفيسور ممثل التفكير الواعي في حين إن الماجستير آنف الذكر كان داعية مفهوم ذاتي محض لعدم الأمان اقترب فيه من الوجد. وبالاستناد إلى رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس 5: 13 (لأننا إن صرنا مختلّين فذلك لله أو كنا عاقلين فلكم) وأحياناً بالإفادة من كتابي الخوف والرعدة وحاشية ختامية، أشار الشقيق الأكبر إلى وقوع شقيقه الأصغر أسيرَ قوة العاطفة المتقدة حتى إنه كان يتفادى كل ما لا ينطوي على جهود تتطلب أكبر طاقة. ولهذا السبب حافظ شقيقه الأصغر على استقلال الإيمان عن الأدلة القاهرة، وأصر باستمرار على أن الإيمان يُختبر في المعركة ويتقوى في الخطر. وبالتالي، عندما لاحظ بيتر كريستيان، محاولاً أن يكون ظريفاً أنه سعيد بأن يسترخي بين حين وآخر (ولا سيّما عندما يصعد الدم إلى رأسه والأفكار فيه تتقاطع مع بعضها البعض بسرعة مذهلة) بقفزة من شراع التأمل الرئيسي لكي يسبح في 70 ألف فرسخ من الماء.

في المناسبة نفسها أعطى بيتر كريستيان تأكيدات بأن لا اعتراض لديه على أن يكون عنده شقيق كنسي منتشٍ بالوجد، ولا هو غافل عما لكتابات شقيقه من استحقاقات رغم إن الكتابات فيٍ هذا الوقت ذات تأثير سلبي تماماً عليه - لكنه جعل من ذلك نقطة إيجابية: إن ساعة من قراءة هذه الكتابات لها عليَّ في الواقع التأثير نفسه تماماً الذي كان يمارسه حمام دش على تكويني الجسدي. ولبرهة، يبدو كأن الحياة فيّ تلهث من أجل الهواء، ثم أتنفس بعمق وحرية من جديد في نسمات الإيمان المنعشة، في حين إن جحافل الفكر تتقهقر إلى موقعها الخاضع بوصفها خادمة الحياة، والرأس راضٍ من جديد بأن يكون رأساً عوض أن يريد أن يكون الشخص كاملاً. وكانت هناك طرق عديدة للتقلب والاستدارة إذا أراد المرء أن يقول إن سورين آبي كان صاحب فكر كبير وجسد ضئيل - وهذه كانت مغامرة بيتر كريستيان في جنس الكتابة. والآن إذ كان يتحدث عن أشياء مشوهة وباروكية في عدم تناسبها فإنه لن يتردد في الإشارة إلى إحدى المفارقات المضحكة قليلاً التي اقترنت بجهود شقيقه الأصغر لإيجاد ذلك الفرد الأوحد بل إنه يبدو على وشك أن يكسب مريدين معجبين بتعليماته عن التمسك بالحياة لا النظرية، ومن الواضح إنهم بدافع الإعجاب الخالص لا يفعلون ما هو مطلوب وإنما يكتبون عنه. وحتى في الوقت الحاضر نستطيع أن نستشف علائم هذه الآراء الغريبة عند أشخاص يجعلون من احتجاج الحياة على النظرية

نظرية جديدة. هذه الكلمات أرسلت رشقة ودية باتجاه راسموس نيلسن وبي. أم. ستيلينغ وماغنوس آيركسن وH. H.. - والأول والأخير من هؤلاء ذُكرا حتى بالاسم!

لم تكن تساور سورين آبي أي ظنون بشأن هذا الهجوم الذي لم ينتبه إليه إلا عندما زاره بيتر كريستيان في أوائل كانون الأول/ ديسمبر 1849. والأكثر من ذلك إن بيتر كريستيان أوحى له بأنه أطلق رشقاته صوب راسموس نيلسن وكتاب صغير غريب - بقلم المدعو H. H. - مؤلفه الحقيقي مجهول له. وحينذاك اضطر سورين آبي للتنويه برصانة إلى أن H. H. هو أنا نفسي. وكان من الطبيعي أن يُفاجأ بيتر كريستيان بذلك ولكن بعد فترة مؤلمة تمكن الشقيقان من الحديث قليلاً عن الكتاب. ثم قال بيتر، «حسناً، ليس هناك جدوى تُذكر في حديثنا عنه بعد الآن لأن عليَّ أولاً أن أكتب الحديث تحريرياً». فكتب الحديث تحريرياً.

وهكذا كتبَ الحديث تحريرياً أو بالأحرى ملخصاً له. وكان عليه أن يسرع إذا أراده أن يظهر، كما هو مقرر، في العدد التالي من صحيفة أزمنة الكنيسة الدنماركية الذي صدر في 16 كانون الأول/ ديسمبر. وقرأ سورين آبي على الفور رواية شقيقه عن الحديث، وتألم عميقاً بما كتبه، وهذا ما قاله في رسالة إلى بيتر كريستيان. وكان لا يريد أن يخوض في التفاصيل بل مجرد الإصرار بشكل عام على أنه إذا كان لا بد من مقارنته بمارتنسن فإن مثل هذه المقارنة ينبغي أن تنوه إلى أنه في حين إن كيركغارد، بكونه كاتباً، ضحى درجة استثنائية فإن مارتنسن، من الجهة الأخرى، ربح بدرجة استثنائية. وبعد ذلك كان ينبغي أن يُشار إلى أن مارتنسن لا يملك شيئاً أساسياً أو أصيلاً لكنه يسمح لنفسه بكل بساطة أن يصادر العِلم الألماني كله على أنه علمه هو. وأخيراً فإن التعليق سيئ الصيت على الشعور بالوجد كان ينبغي أن يُحذف كله أو يُعدَّل بحيث يصح في أقصى الأحوال على اثنين من أسمائي المستعارة - ولكن ليس بأي حال من الأحوال على كيركغارد بوصفه كاتب خطابات تثقيفية. الرسالة غفل من التاريخ لأنها، على ما يُفترض، لم تُبعث قط بالبريد، ولا الاحتجاج الذي اعتزم أن يرسله إلى صحيفة أزمنة الكنيسة الدنماركية. وفي هذه الرسالة الثانية طلب كيركغارد ألا يُخلط بينه وبين أسمائه المستعارة، وهذا على وجه التحديد ما فعله كاتب المراجعة - الغروندتفيغي المعروف بكفاءته غير الاعتيادية،

القس حامل ليسانس باللاهوت كيركغارد - النبرة خافتة، أكاديمية، بل تكاد أن تكون مكتومة.

لكن سيكون من الصعب إطلاق هذه الصفات ذاتها على نص أكبر كُتب في هذا الوقت تقريباً بعنوان محاضرة النصف ساعة التي ألقاها الدكتور كيركغارد في المؤتمر الأخير. والنص محاكاة ساخرة بقسوة لخفة الدم المعهودة في الغروندتفيغية: كانت هناك نصف ساعة إضافية في المؤتمر ملأها الدكتور كيركغارد ببعض الملاحظات المتنوعة حيث القى نظرة على تاريخ الكنيسة واكتشف إن هناك طريقين، طريق الوجد وطريق الوعي. وتابع سورين آبي: ولكن هناك في الحقيقة طريقاً ثالثاً هو طريق الثرثرة المطروق أكثر بكثير - إنه في الحقيقة الطريق السريع الرئيسي الذي يمتد، من البداية إلى النهاية، عبر تاريخ الكنيسة وتاريخ العالم. وانطلق بيتر كريستيان على طريق الثرثرة العريض هذا، وكان السؤال الذي ظل بلا جواب هو ما إذا أعاقته المسرَّات الاجتماعية في المؤتمر وأماكن أخرى، وكذلك ما إذا لم يُفسَد بالانشغال بهذه المهمات الصغيرة المجزية، السهلة، التي هي موضع محبة وتقدير في زمننا، الذي يشتهي الحلوى والطيبات ويحسد الكفاءة الحقيقية ويكره الجدية والصرامة.

لعل آخرين كانوا سيصفون هذا كله بأنه زوبعة في فنجان، ولكن خلال الأسابيع التالية أججها كيركغارد إلى إعصار حقيقي يهدد باكتساح كل شيء، بما في ذلك الوعي. عفا عليه الزمن، أهبل أخرق، ساعي بريد ينقل هذراً، رائل يسيل لعابه، هي مجرد عينة مختارة من الأسماء الجارحة التي انهالت على بيتر كريستيان الذي اتُهم بـ الأنين، والجُبن، والسطحية، والتفاهة، والتخاذل، والإجرام، والثرثرة، والاستهتار، والسرقة الأدبية، والصميمية الكاذبة. وفيما يتعلق بهذه التهمة الأخيرة كتب سورين آبي: أنا أيضاً عندي قلب. وحاولتُ الاستمرار في كوني صاحب قلب ولذلك حاولتُ أن أُبقيه في المكان الصحيح - لكيلا يكون على شفتي تارة وفي سروالي تارة أخرى، ولكن لا يكون أبداً في المكان الصحيح - لكيلا أخلط بين الصميمية والدردشة والهذر. لعل في ذلك كانت العلة، هناك في سروال بيتر كريستيان - فزوجته كانت مريضة أو مُقعَدة أو أي طارئ آخر لكنها في كل الأحوال ليست متوفرة. ولذلك بدأ سورين آبي يفكر، ربما كان بيتر كريستيان بحاجة إلى بعض ما يلهيه: إنه كان دائماً ممن عفا عليهم الزمن. وفي الآونة الأخيرة كان خاوياً من الأفكار بعض

الشيء. ولكن الآن يبدو تقريباً وكأنه رأى النور – سيجد النجاح بوصفه مصفِّقاً للعاديّة والتفاهة والحماسة. صحيح إنه كان بحاجة إلى ما يلهيه. وأنا أستطيع أن أفهم إنه تعب من العيش هناك في الريف مع زوجة مريضة – ولكن يا له من لهوٍ!... – إنه ذكي وذو مواهب متعددة لكنه يتفكك إلى متسكع بائخ، يدلو بدلوه في كل شيء.

في غمرة غضب سورين آبي حوَّل النقد بذكاء لصالحه لأنه فجأة تبادر إلى ذهنه إن ما اتُّهم به هو على وجه التحديد ما يحتاجه العصر: إن مصيبة الزمن وعيبه الأساسي – هو العقل. وما كان مطلوباً هو حقاً – نشوة الوجد... وأحسب إن ما كان مطلوباً عند ذاك هو وعيي المتألق ومكري لاستدراج الزمن إلى ذلك. أو، كما كتب قبل يومين على الكرسمس وهو ما زال ساخطاً على البلبلة التي أُحدثت عندما طُبِّق المقطع الذي قاله القديس بولس على مارتنسن وعليه هو: إن مفهوم مارتنسن – بيتر [كريستيان كيركغارد] للوعي هو إلى حد ما مفهوم لا ديني للجهل والتطامن البورجوازيين... لأن العاديّة والصفقات الدنيوية، إلخ هي على وجه التحديد ما يسوده. وبالمقارنة مع مارتنسن سيتعين أن يمثل القديس بولس نشوة الوجد. وفي كل الأحوال، كما وضع كيركغارد نصب عينيه، فإنه هو نفسه لم يكن شبيهاً بالقديس بولس، وحقيقة إنه استخدم أسماء مستعارة، وحدها تشير إلى أبعد من نشوة الوجد، باتجاه التفكير الواعي. ومن حسن الحظ إنه تحدث مع غروندتفيغ الذي اتخذ موقف ازدراء على الوجه المطلوب في تصريحاته عن بيتر لأنه، كما يرى، بعد أن قيل وتم كل شيء، فإن الكلام في المؤتمر كان مرتَجلا، على طريقة من جهة هذا / ومن الجهة الأخرى ذاك، التي كان بمقدور أي أحد أن يستخدمها. صحيح إن تعليقات غروندتفيغ قدمت بعض العزاء لكنها كانت عديمة الأهمية تماماً فيما يتعلق بالرأي العام، تلك الأعداد التي لا أسماء لها، بلا إحساس تقريباً لظلال الكلام والتي حسها النفسي ذو قعر مسطح مثل عربة أطفال: تقول الأعداد إن هذا الشقيق ليس غريباً أو غريب الأطوار بالمرة مثل الشقيق الآخر. إنه ليس متفاخراً ومتجبراً بل رجل جاد محبوب وصميمي.

على العموم وفرت الواقعة التي حدثت في مؤتمر روسكيلدة الرعوي ظروفاً مثلى تقريباً للرياء: انظروا، هكذا تكون الأشياء عندما يعمل شقيق بهدوء – بصمت وطاعة الله – مقدِّماً كل تضحية، ثم يأخذ الشقيق

الآخر - بطريقة استعلائية بعد نصف ساعة من التحضير - على عاتقه بتفاهة إعطاء تفسير عميق لسمات العصر. وكان هناك المزيد من هذا الحقد: إذاً، إن ضآلة شقيق وحسده كانا الشيء الوحيد الذي فعلته عائلتي لي. كان شغله الشاغل أن يحصل على نسخ مجانية مما كتبتُه. ثم عندما رميت نفسي على مجلة كورسارن، كان راضياً لأنه وجد الآن إن كل ما حدث لي كان عقاباً من الله. ويمكن أن يُساء استخدام اسم الله بطرق متعددة. ويتبدى هذا المستوى نفسه من الغضب في فقرة استرجاعية من اليوميات في الفترة نفسها تبني في جانب منها على حكاية الابن الضال: كان بيتر في قرارة نفسه دائماً ينظر إلى نفسه على أنه أفضل مني، يعدُّني كالشقيق الضال بعض الشيء. وهو كان مصيباً في ذلك. إذ كان دائماً أكثر استقامة ونبلاً مني. وعلاقته بالوالد مثلاً كانت علاقة ابن نجيب - علاقتي به، من الجهة الأخرى، كانت في أحيان كثيرة تستحق اللوم. ولكن، أوه، بيتر لم يحب الوالد قط كما أحببته أنا. بيتر لم يكن قط مصدر حزن على الوالد، وأقل من ذلك مصدر حزن كما كنتُ أنا. ولكن بيتر أيضاً نسى الوالد منذ زمن طويل في حين أنا أتذكره كل يوم، قطعاً كل يوم، منذ ذلك التاسع من آب/ أغسطس 1838، وسأتذكره حتى يلتم شملنا المبارَك في الآخرة. وهكذا كانت كل علاقاتي. وأنهى سورين آبي الفقرة بانقباض مرير حقاً: وحينذاك، عندما أموت سيتقدم ويكون - شقيقي، شقيقي الذي تابع مشروعي بحرص أخوي، الذي يعرفني معرفة جيدة، إلخ، إلخ.

بعد عام 1849 لم تصبح العلاقة بين الشقيقين إلا أكثر بروداً بصورة متزايدة. ويمثل حادث واحد مسجَّل في يوميات بيتر كريستيان شهادة مجهرية لكنها مؤلمة على تردي العلاقة بين الشقيقين. ففي حزيران/ يونيو 1849 أعاد بيتر كريستيان تصميم عربته إلى عربة يجرها حصان واحد لكي تستطيع زوجته المُراقية استنشاق بعض الهواء النقي وتنظر إلى شيء غير بيدرسبورغ. وتواصل يومياته: خرج سورين معنا لكنه عاد إلى المدينة صباح اليوم التالي. ويبدو أنّه كان لا يريد التجوال في عربة ذات حصان واحد مع زوجة شقيقه الصعبة وشقيقه متقلب الأهواء إلا إذا كان ذلك ضرورياً ضرورة مطلقة.

لدى جرد سنة 1849 نرى إنها كانت سنة فظيعة، سنة مزرية مثل سنة 1846، لم تفعل سوى شحذ إحساس كيركغارد بأنه ضحية، شهيد: تقييم بريمر له والمعضلة مع راسموس نيلسن وعجرفة مينستر وسلوكه المضحك على

نحو غريب وكتاب مارتنسن الدوغماتية (الذي أصبح من أكثر الكتب مبيعاً) ومشكلات كيركغارد مع النشر ومصاعبه الاقتصادية وموت المستشار أولسن والتقرب من مستر ومسز شليغل وخيبة الأمل المؤلمة بسبب صدودهما وأخيراً - بالتزامن مع نهاية العام - محاضرة بيتر كريستيان التشنيعية.

في مرحلة ما خلال شهر كانون الأول/ ديسمبر الكئيب اقتبس كيركغارد مقطعاً من الشاعر هانز أدولف برورسون Hans Adolf Brorson المشهور بترانيمه - فيما الهواء ما زال مليئاً / برعشة البرد في ثلج الشتاء - ثم أضاف كلمات من عنده: يوم يكون جو الشتاء مخيفاً بحيث لا تريد الخروج - ثم عندما تمتد حياة كاملة على هذا النحو أمامك، ويكون السؤال الخروج أو عدم الخروج!

كيركغارد اختار ألا يخرج وما كان ليستطيع الخروج: أنا ضعيف بحيث عليَّ أن أستخدم قوة روحي حتى مع أتفه الأشياء.

1850

ثماني طرق لكيلا تقول وداعاً

بعد تبادل الرسائل في الصيف مع راسموس نيلسن عاد ما تبقى من عام 1849 إلى الاستقرار على طقسه المنتظم لنزهات المشي أيام الخميس ولكن في 17 كانون الثاني/ يناير 1850 تعين على البروفيسور أن يقلع عن ذلك بعد أن كان من دواعي سرور زكام محترم في الرأس أن يملي عليَّ البقاء عدة أيام تحت الإقامة الجبرية. وفي 22 شباط/ فبراير كان نيلسن مرة أخرى غير قادر على المشي مع كيركغارد رغم إنه هذه المرة لم يذكر سبباً مثلما تعين عليه (بما يكفي من الإحراج) أن يفوِّت مشيتهما في 4 نيسان/ أبريل. ولكنهما في يوم الخميس، 11 نيسان/ أبريل، تمكنا من الخروج في نزهتهما مشياً على الأقدام.

لم تكن مشية لطيفة جداً. وقال كيركغارد بصراحة تامة إن آخر ثلاثة كتب نشرها نيلسن كُتبت، برأيه، للفت الانتباه إلى مؤلفها وليس لأي سبب يتعلق بمادة موضوعها. وتابع كيركغارد، إن الأكثر من ذلك إن سجال نيلسن ضد مارتنسن كان خطأ فادحاً لا علاقة له بأي حال من الأحوال بقضية كيركغارد بل أساسه خلافات نيلسن الشخصية مع زميله الجامعي، أُستاذ اللاهوت، الذي أثار حفيظة نيلسن عندما خطف عضوية الجمعية العلمية التي كانت ينبغي أن تؤول إليه. وأخيراً، قيل لنيلسن إن سرقته الأدبية من كيركغارد بلغت نقطة الإحراج بل حتى الأحاديث التي جرت بينهما على مدى سنوات وجدت طريقها إلى النشر مباشرة. واحتج نيلسن قائلاً إن كيركغارد يظلمه فاكتفى كيركغارد بالرد قائلاً إذا كانت هذه هي الحال فإنه ليس أسوأ شخص يُعامَل معاملة ظالمة. ولم يسفر هذا عن تحسن يُذكر في الوضع: غضب إلى

حد ما، أو بالأحرى أصبح نزِقاً. ولكني غيَّرتُ مجرى الحديث وتكلمتُ عن أشياء أخرى ومشينا عائدين إلى البيت دون أن يفسد خلاف الرأي للود قضية.

في الأسبوع التالي، يوم 8 نيسان/ أبريل، اعتزم كيركغارد أن يناقش الأمر أكثر خلال مشيتهما ولكن فقط إذا كان نيلسن مستعداً للاستماع إلى صوت العقل وقبول الحقيقة وأن يفعل شيئاً للقضية بوصفه كاتب مراجعات وشيئاً من هذا القبيل مع الامتناع في الوقت نفسه عن إنتاج المزيد من هذه المجلدات الثقيلة. وفي اللحظة التي كان من المفترض أن يحضر فيها نيلسن للخروج في نزهتهما مشياً وصل ساع يحمل رسالة إلى كيركغارد: عزيزي مستر ماجستير! بادئ ذي بدء، بسبب الظروف يجب أن أتخلى عن نزهاتنا بالمشي أيام الخميس، ولهذا السبب يجب أن أطلب منك ألا تنتظرني اليوم. وعندما يعود الوضع بحيث أستطيع مرة أخرى التمتع بذلك سأسمح لنفسي بأن أبعث إليك برسالة تسأل إن كان من الجائز أن يكون ذلك مناسِباً لك أيضاً. المخلص، آر. أنْ.

جاء رد الفعل سريعاً: المفترض أن تكون هذه الرسالة قطعة أخرى من التعفف المقصود به استسلامي - إنه استغل وسواسي من المرض، بالإضافة إلى كونه سعى بكل بساطة إلى البحث عن إلهام، المرة تلو الأخرى. وتجعل المسودات السبع التي سبقت رد كيركغارد النهائي من الواضح إنه لم يكترث بأسباب نيلسن لعدم تمكنه من الحضور - ذلك الهراء عن الظروف. والمسودات الأربع الأولى، التي كانت كل مسودة أقصر من الأخرى، تقول الشيء نفسه بلغة متطابقة إلى هذا الحد أو ذاك: يا له من أمر لافت! قبل البارحة والبارحة، كنتُ خائفاً بحق من إنه بسبب الظروف (أُصبتُ في الحقيقة برَشَح خلال الانتقال إلى شقة جديدة بحيث كنتُ أتوقع كل يوم أن أقع صريع المرض) سيتعين علي أن أبعث إليك برسالة أُلغي مشية اليوم، وإذا بي اليوم أتسلم رسالة منك أعلم فيها أنك «بسبب الظروف»، إلخ. لم يكن كيركغارد يريد سؤال نيلسن عن الظروف آنفة الذكر ولكنه شعر ملزَماً بأن يجعل من الواضح إنه سيكون من غير المعقول بالمرة أن يقطع نيلسن علاقتهما - لمجرد إنه تلقى لكمة خفيفة. وجادل كيركغارد قائلاً: إذا كانت هناك علاقة بيننا فأنا أعتبر من واجبي أن استخدم معياري أنا لمرة، وأرى أيضاً (مفترضاً إن بيننا علاقة) إنه ليس لدي الكثير مما أشكرك عليه.

ربما كانت هذه أفضل طريقة لإعادة العلاقة. وفي الحقيقة إن كيركغارد لم يبعث بالرسالة لكنه بدأ من جديد بهذه الكلمات: خلال السنوات التي تحاورتُ فيها معك كان الموقف كالآتي بهذا القدر أو ذاك: فيما يتعلق بعملك العام (كتاباتك) قلتُ لك بكل توكيد إن من وجهة نظري لم أكن قادراً على استحسانها. وشرحتُ أيضاً لماذا. وأنتَ عبرت عن نفسك بطريقة أعتقد أنّها فُهمت. والأكثر من ذلك، كنتَ في المجالس الخاصة دائماً تعبر عن نفسك بطريقة تختلف جداً عنها في تصريحاتك العلنية. وفي الوقت نفسه كنتَ دائماً تقول إني سأرى إن كتابك المقبل سيكون مختلفاً. ولهذا السبب بالذات واصلتُ الانتظار. ولكن الآن يجب أن ينتهي هذا. ويجب هنا - من دون أي زعل على الإطلاق - أن أقطع علاقة بدأت بنوع من الأمل وما أنا متخلٍ عنها الآن من دون أمل. ويعني هذا إني لم أعد أستطيع الخروج للمشي معك علّى أساس منتَظم متَّفَق عليه. وإذا شاء القدر أو العناية الإلهية أن تلتقي طرقنا سيكون الأمر مختلفاً. في هذه الحالة سيكون من دواعي سروري أن أتحدث معك مثلما أتحدث مع كثيرين غيرك.

لكن كيركغارد لم يكن راضياً عن هذه السطور، ولذلك كتب مسودة أخرى كانت أكثر تعاطفاً وأرق في نبرتها. وأعرب عن الأسف لأن نيلسن في رسالته الأخيرة حرمه من فرصة أن أكون أنا مثقِلا كاهلي بأن أبدو ما لستُ أنا. ولكن كيركغارد اعترف بصراحة إنهما في حوارهما الأخير، عندما قدم المسألة التي كانت تهمه تقديماً أخرق بعض الشيء وربما جارحاً إنما فعل ذلك متوقعاً أن يلتقيا يوم الخميس المقبل ويستأنفا من حيث توقفا. ولكن إذا كان هناك مدخل صغير هنا فإن كيركغارد سرعان ما أغلقه بوصفه آخر رسائل نيلسن بالغرابة ثم مضى يشرح باستفاضة كيف كان بالإمكان أن تُكتب بشكل أنسب.

هذه المسودة لم تكن كافية هي الأخرى. وكان كيركغارد يُجري التغيير تلو الآخر ثم أعرب - في المسودة الأخيرة والأقصر من المسودات السبع - عن الأسف لانقطاع نزهاتهما في المشي كل يوم خميس بصورة مفاجئة، الأمر الذي عُزي الآن بطريقة دبلوماسية إلى سوء فهم. ولاحظ كيركغارد إنه هو أيضاً كان لا يريد أن توضع لقاءاتهما عنوة في إطار جامد: لتكن معتمدة على الصدفة والرغبة. فرغم كل شيء، ليس من الصعب العثور عليَّ. وما يثير الدهشة إن هذه المسودة - الأخيرة في السلسلة - اختتمت بالكلمات التالية: مقترحي... أن نلتقي غداً في الوقت والمكان المعتادين لنرى أين نقف. وعلى الهامش العلوي

من الرسالة كتب كيركغارد إنها أُرسلت فعلاً وإن لم يكن مؤكداً متى على وجه الدقة سوى الحقيقة الماثلة في أنّها أُرسلت يوم ثلاثاء. وكان رد نيلسن أيضاً بلا تاريخ ولكن عنوانه كان يوم الخميس: عزيزي مستر ماجستير! اسمح لي أن أشكرك. أوه، اسمح لي أن أشكرك لأنك كنتَ مستعداً للقائي. سأصل قريباً - بصمت - لأني لاحظت أن الشخص معك يجب أن يكون هادئاً جداً ليتمكن حقاً من سماع ما تقول. المخلص، آر. نيلسن.

ثمة شيء يقرب من حلاوة الهيام في هذه المصالحة الضعيفة، ولكن عندما التقى الرجلان يوم الأربعاء، 30 نيسان/ أبريل، كانت الحميمية قد اختفت. وتذكر اليوميات بلغة جافة قلتُ له إني أُريد علاقة أكثر حرية. وهنا انتهى الأمر: أمر جيد إن ذلك حدث. لستُ حاقداً عليه على الإطلاق، وأنا مستعد جداً للارتباط بي من جديد رغم أن ذلك لن يقدم لي خدمة تُذكر لأن متانته الحسية لا تضاهي تدقيقي إلى حد الوسواس. إنه كَبُر ولكن ما زال هناك شيء من مساعد البروفيسور فيه. وفي يوميات كيركغارد خلال السنوات التي أعقبت ذلك كان كثير العودة إلى أمر نيلسن كما كان يسمي المشكلة، ولكن بمرور الوقت أصبح تطور العلاقة وتراجعها أكثر ظلالاً، وكتب المرة تلو الأخرى أنه أقام العلاقة مع نيلسن لأنه كان يعتقد أنّ الواجب الديني يقتضي ذلك، ولكن نيلسن كان مخيباً للآمال وسرعان ما كشف نزعاته اللصوصية فيما يتعلق بالكتابات ذات الأسماء المستعارة وحواراتهما أثناء نزهاتهما أيام الخميس التي، بالمناسبة، كان يثبِّط كيركغارد خلالها بدردشته العادية. وهكذا لم يحقق كيركغارد أي فائدة من أُستاذ الفلسفة الذي كان ثقيلاً للغاية وثخين الجلد للغاية ومفسَداً للغاية بعهد الملك كريستيان الثامن. ولكن الاتصال بين الاثنين لم ينقطع بشكل حدِّي، كما نستطيع أن نرى من نتف أدلة مختلفة بينها رسالتان قصيرتان من شباط/ فبراير وحزيران/ يونيو 1852 أعرب فيهما نيلسن عن أسفه لأنه لم يكن قادراً على الخروج للمشي. ومما له مغزاه أن نيلسن في الرسالة الثانية من الرسالتين لم يوقع باسم المخلص، آر. نيلسن كما في السابق بل فقط بالقول باسم الصداقة، آر. نيلسن.

كتب كيركغارد قطعة تحوي إعلاناً رسمياً للعداء تجاه نيلسن، وهو مقال طويل بعنوان قضية قانونية عامة استُدعي فيه يوهـ. كليماكس، بالأصالة عن نفسه والعديد من الأسماء المستعارة، ليكون شاهداً ضد مستر ليسانس

اللاهوت آر. نيلسن، أُستاذ الفلسفة وفارس دانيبورغ. ويجب أن نأمل بأن العنوان كُتب بتهكم من باب المزاح، ويجب أن نكون شاكرين بالقدر نفسه لبقاء المقال في دُرج منضدة كيركغارد. ولا يقل إحراجاً المقال المعنون البروفيسور آر. نيلسن يقف وحيداً! - مع العنوان الفرعي الملغَّز بورتريه بطول ثلاثة أرباع - الذي ينطوي على رمزية غريبة بعض الشيء: عندما ينفذ المرء رسماً يُصوَّر فيه شخص ذو عين واحدة من الجانب الذي توجه فيه عينه، لا يخطر ببال أحد قط إن له أي شيء سوى عينين اثنين. وعندما يُصوَّر صاحب البورتريه إلى حد ركبتيه فقط - ويكون الشخص الذي يوفر الإسناد مخفياً - حينذاك يبدو وكأن البروفيسور نيلسن واقف وحده. ولكن كلا، إنه لم يكن واقفاً وحده بل كان يقف على أكتاف كيركغارد والأسماء المستعارة، الأمر الذي يعني إن وقوفه لوحده احتيال. وفي النص الثاني من مقال مراجعة أدبية الذي كُتب أوائل 1853 استبعد كيركغارد أي علاقة في المستقبل: الآن بُلغَت النقطة حيث إذا كنتُ سأموت الآن، مثلاً، فإن البروفيسور ن سيكون أبعد شخص أتمنى أن يُعتبر الشخص الذي كان لديه فهم حقيقي لجهودي.

أن يكون المرء تلميذ كيركغارد ليس بالشأن الهين، أو بالأحرى ليس شأن أي أحد. وكان كيركغارد حريصاً على تفاصيل كونه كيركغارد حتى إنه كان عاجزاً تماماً عن تحمل فكرة إعادة إنتاجه على يد أي تلميذ كان بمجرد كونه تلميذاً مشروع لص بطبيعة الحال مثلما هي الحال مع سكرتيره الصغير مستر كريستنسن الذي كان يتلصص ويكتب في الصحف بتعابير كيركغاردية مستعارة على ما يُزعم. وبعد عامين، عندما دافع غريمور تورغريمسون تومسن Grimur Thorgrimsson Thomsen عن رسالة أكاديمية عن لورد باريون، تكررت السرقة الأدبية: ياه، ولكن غريمور تومسن لا بد أن يكون رجلاً واسع العلم، ويمكن أن نرى ذلك من الأعمال العديدة التي يذكرها في رسالته الأكاديمية. ومع ذلك يمكن أن نرى أيضاً من الرسالة إنه لا بد أن يكون قرأ حتى أعمالاً أكثر - على سبيل المثال الخوف والرعدة والقلق وإما/ أو - لا يذكرها. وكان هناك حتى شخص مهووس بالسرقة داخل عائلته نفسها. فعندما بدأ بيتر كريستيان يكتب للمجلة الكنسية استمراريات من بيدرسبورغ ويحررها، وجد الشقيق الأصغر مرتاعاً لأن بيتر كريستيان يستعير قليلاً مني، وما أزعج سورين آبي إنه الوحيد الذي انتبه إلى ذلك لأن

بيتر كريستيان كان يعتبر بالطبع من مؤيدي غروندتفيغ: عاملوني بطريقة دنيئة مقرفة؛ إن جريمة كبرى ارتُكبت بحقي، خيانة من الجيل المعاصر، كما كتب كيركغارد في يومياته عام 1848. ولم يكن لديه أحد يلجأ إليه كي يتفهمه، وأصبح شخصاً فائضاً عن الحاجة بهذا القدر أو ذاك. ولكن طيلة هذه الوقت كان كتّاباً آخرين يسطون عليه وينشرون المُلكية المسروقة في قطع مختلفة تُراجع وتُمدَح رغم إن لا أحد يحلم بذكر اسم الرجل الذي كان مصدر أفكارهم: أسمي لا يُذكر أبداً. من بين جميع الكتاب الأحياء الآن، أنا الوحيد بلا أي أهمية، الوحيد الذي ليس مصدر اتجاه جديد – لأن الآخرين مصدره.

أحد هؤلاء الآخرين ماغنوس آيريكسون Magnus Eirikson الذي قدم مهارته الغريبة في عمل ذي عنوان طويل كان معهودا من هذا الأيسلندي: هل الإيمان مفارقة بحكم اللامعقول؟ سؤال مناسبته كتاب الخوف والرعدة بقلم يوهانس دي سيلنتيو، أُجيب بمساعدة الاتصالات الخاصة لفارس من فرسان الإيمان من أجل التثقيف المشترك لليهود والمسيحيين والمحمديين، على يد الأخ فارس الإيمان آنف الذكر، تيوفيلوس نيكولاس. وحدس كيركغارد عن صواب إنه حتى في العنوان أنتج آيريكسون قطعة بشعة من الفن الهابط منتحلاً أسلوب كيركغارد: أو لا ترون، هذا ما يحدث عندما يغامر أثوَل أخرق برأيٍ عن عمل فني... وا أسفاه، كم من المحزن أن يعيش المرء في أوضاع تافهة حيث لا أحد عملياً لديه عين حقاً تقدِّر عملاً فنياً أُنجز بصدق. مواكبة كل الخيوط في ذلك التصميم المتقَن – وهو شيء كلفني أياماً من العمل المثابر والجهد العظيم وإصرار ديالكتيكي كاد لا يعرف طعم النوم: بالنسبة لآخرين فإن هذا غير موجود على الإطلاق. أنا بكل بساطة أتماهى مع أسمائي المستعارة.

أيام متحركة

في 18 نيسان/ أبريل 1850 غـادر كيركغارد شقته الغالية في شارع روزينبورغاده وانتقل إلى نوريغاده حيث عاش أيضاً في أوائل أربعينات القرن التاسع عشر. ولكنه هذه المرة كان على الجانب الآخر من الشارع، في رقم 35، وكان عليه القبول بشقة ذات خمس غرف زائد مطبخ وغرفة للخادمة ورواق ومخزن وملحقات ثانوية أخرى. وكان الإيجار السنوي 280 ريكسدولاراً. ولم يكن لديه وقت لتفقد المكان بنفسه ولذلك ترك المهمة لخادمة ستروبه الذي،

رغم نجاح رئيس الأطباء سيلغمان ماير ترير في أن يعيد له توازنه بهذا القدر أو ذاك، لم يكن بكامل قواه العقلية. إذ كان كيركغارد يريد أن يسكن belle étage [بالفرنسية: الطابق الجميل]، أي الطابق الثاني، كما كان يسكن دائماً ولكن بما إن ستروبه استنتج إن الشقة الموجودة في هذا الطابق لم تكن جيدة في الحقيقة تعين على كيركغارد أن ينتقل إلى طابق فوقها، الأمر الذي سيتضح قريباً إن له عواقب وخيمة.

كتب كيركغارد بعد فترة قصيرة على انتقاله وأوضاع بيتي هذه الأيام! ففي الصيف الماضي، عندما كنتُ في محل الدباغ، تعرضت إلى شكل لا يُوصف من النتانة. ولم أجرؤ على المخاطرة بقضاء صيف آخر هناك، والأكثر من ذلك إن الأمر كله كان باهظ الكلفة عليَّ. وحيث أسكن الآن، في أوقات العصر أعاني كثيراً من ضوء الشمس المنعكس حتى إني خفتُ في البداية من أن أُصاب بالعمى. ورغم إن كيركغارد كان دائماً يعيش على الجانب المشرق من الشارع فإنه كان يحجب الشمس بستائر أو سواتر أو مظلات للنوافذ. وكان مستهلكاً كبيراً لهذه البضائع، كما يشهد على ذلك كاتالوغ المزاد لبيع متعلقاته الشخصية الذي ضم وفرة حقيقية من الحصائر والستائر الكتانية والستائر المصنوعة من القماش القطني المطبوع والمبطن وستائر قطنية ذات حافات مخملية ومظلات لفافة وأدوات منزلية - حمراء أو خضراء أو مخطَّطة. وأحياناً كان كيركغارد بكل بساطة يغطي النوافذ بطلاء. ولكن هذا لم يكن مجدياً في شارع نوريغاده لأن الشقة كانت عالية وشمس العصر لا ترحم. ولاستكمال الكارثة كان هناك المستأجر الساكن في الشقة التي فوق شقته، أو بالأحرى المستأجر من هذا المستأجر: في المكان الذي أسكنه الآن في شارع نوريغاده يمكن بكل تأكيد تسمية المستأجر الذي فوقي مستأجراً هادئاً وديعاً. فهو يكون خارج البيت طوال اليوم. ولسوء الحظ إن لديه كلباً في البيت طول اليوم. وهو يقبع عند نافذة مفتوحة ويبدي اهتماماً بكل شيء. إذا مر رجل وعطس بصوتٍ عالٍ على غير العادة ينبح الكلب على الفور ويمكن أن يستمر في النباح زمناً طويلاً. وإذا مر حوذي بالعربة واستخدم سوطه، ينبح الكلب، وإذا نبح كلب آخر هو أيضاً ينبح. وهكذا ليس هناك أدنى حادث صغير في الشارع لا أعرفه بنسخة ثانية بفضل هذا الكلب. لم يكن لدى كيركغارد شك - فالأمر فظيع قطعاً: قلة من الأشياء الخارجية سبَّبت لي كآبة كما سببت هذه الشقة.

أميل بويسن، صديق كيركغارد من أيام الشباب، انتقل أيضاً - ليس على بعد مئتي ياردة في الشارع وعند الركن مثل كيركغارد وإنما إلى مدينة أخرى أصلاً هي هورسنس في يوتلاند حيث عُين خورياً مقيماً وقس مستشفى أواخر تشرين الأول/ أكتوبر 1849. وفي 7 آذار/ مارس 1850 كتب إلى كيركغارد ليحدثه قليلاً عن أحواله الجديدة الباعثة على الاكتئاب بعض الشيء. وهنا لم يكن مصدر الإزعاج كلباً صغيراً بل سوق خيول كاملة تقع خارج نوافذ مسكن بويسن وهناك حركة مرور مستمرة أيضاً في المنزل من الصباح الباكر حتى المساء المتأخر. لذلك لم يكن من الغريب أن بويسن شعر بالحاجة إلى إجازة. فهو فَقَدَ مؤخراً والدته الحبيبة وتعرض والده العجوز إلى سقطة أبقته حبيس الفراش، وعلاوة على ذلك كله، كان القس الشاب غارقاً حتى أُذنيه في العمل: أيام الآحاد أكون عموماً بردائي الكهنوتي من الساعة التاسعة صباحاً حتى الساعة السابعة والنصف مساء، أولاً سر وسواس، ثم سر التناول بعد موعظة قس الأبرشية، ثم علي أن ألقي موعظة في المستشفى، ثم بعد صلاة المساء في الكنيسة الرئيسية... ولدي جماعة غريبة من المصلين في كنيسة المستشفى الصغيرة: امرأتان عجوزتان لا تسببان أذى، بعض السكارى نصف المخبولين، عادة اثنان من أفراد عائلة الكونت... ثم البعض من أهل البلدة. الخطب التي ألقيها خلال الاعتراف تؤثر في أكثر من أي أحد آخر. وكان زميله رجل دين عجوزاً قاسياً، منعزلاً وعصبي المزاج، جعل بويسن ينهض بالقسم الأعظم من العمل الورقي الممل والمزعج. ومع ذلك أكد بويسن لكيركغارد إنه مغتبط وممتن لكوني أصبحت قساً. في تلك الأيام كانت مهنة القس لم تزل بمثابة رسالة.

كتب كيركغارد في رسالته السابقة إنه، إذا واجه بويسن أي مصاعب، يستطيع المساعدة على حلها، فما عليه إلا أن يُعلِمه بذلك. الآن طلب بويسن من كيركغارد أن يزور والده أسير الفراش وأن ينقل بعد ذلك تحياته إلى خطيبته لويز صوفي كارولين هولترمان التي سيأتي القس الذي يعاني من الوحدة إلى كوبنهاغن ويأخذها معه ما أن ينتهي من درس سر الميرون هذا العام. وكانت الخطيبة حقاً جعلت بويسن يشعر بالسعادة والاعتزاز بها كل يوم، وبسعادة أكبر مع كل رسالة تكتبها إليَّ، ومن المؤسف حقاً إنك لم تتمكن من التعرف عليها قبلي. وكان هناك تلميح طفيف إلى الشماتة، نوع من رد الصاع، في هذا السطر الأخير الذي يبدو تقريباً وكأنه يمكن أن يستمر باتجاه أقوى يردد صدى

المراسلات بين الصديقين أيام كان كيركغارد في برلين يوجّه تحركات بويسن في ذهابه وأيابه في كوبنهاغن في خدمة إيروس أعلى. ولكن بويسن هدأ في اليوم الذي أعقب كتابته هذه السطور، وأضاف: ألا تستطيع أن تعلّمني سر صوغ موضوعة مناسبة لموعظة؟ اعتن بنفسك! ايها الصديق العزيز، شكراً على كل شيء طيب! نفذ الطلبات الثلاثة بسرعة!

يبدو أنّ مناشدة بويسن لم يكن لها تأثير آني في كيركغارد الذي انتظر أكثر من شهر، حتى 12 نيسان/ أبريل، قبل أن يتسنى له الرد على الموقر القس إي. بويسن، الكاهن المقيم، الذي علق على خط يده الذي تصعب قراءته كالمعتاد: هذا بكل تأكيد ليس خط يد بل وخزات دبلوس صغرى على ورق خفيف إلى أقصى حد. كان بمقدوري استخدام مجهر لقراءته. وكان على كيركغارد أن يخيب أمل بويسن بشأن رغبتين على الأقل من رغباته الثلاث: التقى لويز صدفةً في الشارع وقال لها بصراحة إن خطيبها طلب منه زيارتها لكنه قرر ألا يزورها. كما إن كيركغارد لن يعود والد بويسن المريض، إذ كانت آخر مرة التقى فيها الاثنان منذ زمن طويل وبالتالي سيتطلب الأمر مصادفة ما لحملي على الذهاب مرة أخرى. من جهة أخرى، كان يستطيع بكل تأكيد أن يعطي بويسن نصيحة صغيرة عن فن إيجاد موضوعة جيدة لموعظة. إذ ينبغي ألا يحاول المرء شيئاً من هذا القبيل بطريقة مباشرة – كلا، بل يجب، لأمرٍ من هذا النوع، أن ترتب حياتك بشكل معقول. وكل يوم يجب أن تخصص على الأقل نصف ساعة من وقت فراغك لقراءة عابرة في N. T. أو لكتابة دينية. وعندما تخرج في نزهة مشي دع أفكارك تطوف بلا هدف، تتلصص هنا وهناك، تجرب شيئاً في البداية ثم آخر. هكذا يجب أن تنظم تدبيرك المنزلي. كانت النصيحة حسنة النية ومن المؤكد أنها كانت ستنفع لولاً الحقيقة الماثلة في وجود سوق كاملة للخيول التي تصهل تحت النوافذ مباشرة.

بعد أسبوعين، في 29 نيسان/ أبريل وصل رد من بويسن الذي يبدو أنّ شَمْلُه التمَّ مع لويز حياته: الصديق العزيز! بودي هنا أن أدعوك إلى حفلة زفافي بعد ظهر الأربعاء (1 أيار/ مايو) في الساعة السادسة (أو السابعة) في كنيسة سيدتنا. أنا لا أزورك بنفسي لأني أُصبت بزكام شديد ويجب أن أعمل على الشفاء منه بسرعة. أرجوك أن ترد، وسيكون من دواعي سرورنا البالغ أن تحضر. المخلص، أميل بويسن. ولا يُنكر إن هذه كانت دعوة ملتبَسة وإن كيركغارد في

الحقيقة لم يكن من ضيوف حفلة العرس. إذ شاءت الصدفة المريحة أن يُصاب هو أيضاً بالزكام ولذلك كان لديه عذر مشروع. وكما نعرف، في ذلك الوقت كان راسموس نيلسن أيضاً يعاني من الرَشَح وبالتالي لا بد إن شيئاً ما كان في الجو ذلك الصيف له تأثير شديد في العقول اللاهوتية الفذة.

وفيما كان العروس والعريس يحتفلان بشهل العسل وما إلى ذلك احتفل كيركغارد بعيد ميلاده السابع والثلاثين دون علم أي أحد. وبعد أيام وصلت بطاقة تحية صغيرة فارغة (رغم إنها كانت تحمل تاريخ 5 أيار/ مايو) من هنريك لوند الذي كان يعيش وقتذاك في أودينسه. وكان ذلك كل شيء. كيركغارد نفسه أحيى ذكرى ذلك اليوم بحضور صلاة المساء في كنيسة منقذنا حيث كان الواعظ خريج لاهوت اسمه كليمنسن. ولم تكن الموعظة التي ألقاها قطعة لاهوتية عظيمة بكل تأكيد بل سماها كيركغارد بسيطة ولكن، من الجهة الأخرى، كما أضاف كيركغارد، فإن هذا الأسلوب المتواضع والعادي هو على وجه التحديد ما ينبغي أن تُصاغ به الموعظة. ومن محاسن الصدف إن قطعة من الجمال الشعري إلى حد الرقي خرجت من الواعظ كهدية عيد ميلاد صغيرة خاصة إلى كيركغارد. إذ القى كليمنسن موعظته عن الحياة بوصفها رحيلاً عن الأب وعودة إلى الأب، كما في نص الإنجيل. ثم جاء الكلام المعهود عن الحياة وكونها طريقاً. ثم كانت هناك استعارة عن والد يضع ابنه في معترك الحياة، شيء جميل جداً. ثم هُجرت الاستعارة وأصبحت واقعاً - علاقتنا بالله. ثم قال: وعندما تدق أخيراً ساعة الموت ويُخلَع رداء الحجيج وتُلقى العصا - والطفل يدخل على الأب. رائع! أُراهن إن كليمنسن قالها دون أن يدري، بل إنه لو فكر فيها لكان من الجائز أن يختار القول الروح أو الشخص المتحول، أو شيئاً من هذا القبيل. ولكن كلا، اختار الطفل، بضربة معلم.

كان كيركغارد فطناً ولكن مع ذلك ربما أفلت شيء ما من تحليله هنا - وأفلت منه على وجه التحديد لأنه يتعلق به. وحين كان مبهوراً كل هذا الانبهار باستعارة الطفل الذي يدخل على الأب ربما نتيجة ديجا فو déjà vu (التوهم بأن الشخص شاهد هذا من قبل) مفاجئ، نظرة خاطفة إلى نفسه وهو طفل، قبل سنوات عديدة، في طريق دخوله على والده الدنيوي ذاته، الذي رغم كل شيء، ظل يحبه.

الممارسة في المسيحية

كان هناك في الحقيقة طفل من هذا النوع حاضر في المخطوطة التي كان كيركغارد ينجزها خلال هذه الأسابيع بالذات. وكانت المخطوطة جالسة تنتظر وضع اللمسات الأخيرة عليها منذ نحو عامين. وكان تاريخ القسم الأول بعنوان تعالوا هنا يا مَنْ تكدحون وتُثقَلون بالأعباء، وسأُعطيكم راحة، يعود إلى نيسان/ أبريل 1848. وفي 4 حزيران/ يونيو 1850 قرر كيركغارد أن ينشر العمل باسم مستعار مذكّراً نفسه بأن أقسام الكتاب الثلاثة يجب أن تُدقق لكي أتأكد من إن شخصي أو اسمي أو أي شي من هذا القبيل لا يرد كما في حالة القسم الثالث منها. وكان القسم الثالث يتألف من سبعة خطابات أولها متطابق من حيث الأساس مع موعظة ألقاها كيركغارد في كنيسة سيدتنا يوم 1 أيلول/ سبتمبر 1848، كخطبة في أعقاب سر الاعتراف وسر التناول السابق عليه. لذلك كان على كيركغارد في شخص ضد - كليماكس، أن يرفق هامشاً توضيحياً بنصه: هذا الخطاب ألقاه الماجستير كيركغارد في كنيسة سيدتنا... وبما إن هذا في الحقيقة هو ما أعطاني فكرة العنوان فإني نشرته بموافقته. وإنها مسألة ذوق إن كان المرء يفضل أن يسمي هذه الحركة مناورة ذكية أو في الحقيقة بداية انهيار الأسماء المستعارة ولكن في كل الأحوال، جرى تنضيد الحروف وتصحيح الصفحات المطبوعة بسرعة كبيرة بعد شيء من التحرير في أوائل آب/ أغسطس، وفي 27 أيلول/ سبتمبر 1850 نشرت صحيفة أدرسيفيسن إعلاناً عن كتاب الممارسة في المسيحية، الأعداد 1 و2 3 تأليف ضد - كليماكس وتحرير أس. كيركغارد.

يبدأ الخطاب الثالث من القسم الثالث بصلاة: السيد المسيح! إن الكائن البشري يمكن أن يشعر منجذباً إلى أشياء من كل صنف ولكن هناك شيئاً واحداً لم يشعر أحد قط إنه منجذب إليه - هو المعاناة والمهانة. فهذا شيء نعتقد نحن البشر أن علينا الفرار منه، بعيداً قدر الإمكان، وفي كل الأحوال يجب أن نُجبَر عليه بالإكراه. ولكن أنتَ، يا منقذنا ومخلصنا، أنتَ المهان، أنتَ الذي لا تجبر أحداً - وأبعد من ذلك أن تجبرنا على ما هو بالطبع ويجب أن يكون أسمى شرف للكائن البشري، وهو أن يجرؤ على التشبه بك: لعل صورتك في المهانة ستبقى أمامنا، حية جداً، بمثل هذه الصحوة والإقناع حتى إننا نشعر منجذبين إليك في

تواضعك، منجذبين بحيث نريد التشبه بك في التواضع، أنتَ الذي من عليّ ستجذب الكل إلى نفسك.

هذه الصلاة ليست مجرد صلاة بل تحوي عناصر من التكتيكات التي يستخدمها النص نفسه للتغلب على المقاومة التي تتصدى بها النفس للمعاناة والمهانة. النص يريد التغلب على هذا النوع من المقاومة بواسطة صورة تجعل المعاناة والمهانة ليس حية وفي صحوة فحسب بل مقنعة بحيث ينجذب القارئ إلى الرغبة في التشبه بالشخص المُهان. وانسجاماً مع ذلك يتوجه النص باستمرار إلى نظر القارئ فارضاً عليه أن يرى إلى ما يعتزم النص أن يجعله مرئياً. وبعد استعراضٍ جنائزي للمنقِذ المهان يوجه النص نداءه: ألستم متأثرين بهذا المشهد؟... إذاً، انظروا مرة أخرى إليه، إليه هو المهان! يا له من تأثير يُحدثه هذا المشهد - ألا ينبغي أن يكون قادراً على التأثير فيكم بحيث تريدون أن تعانوا بشكل ما كما عانى هو...؟

يُراد بهذا النمط من الكتابة الصورية التأثير في القارئ، لا إلى حد إبكائه أو غير ذلك من فورات العاطفة وإنما بعيداً عن النص نحو فعل خارج النص نفسه. ومثل هذا الفعل سيكون في الواقع الخاتمة الحقيقية للقراءة. فالنص شبيه بمعادلة للتنويم المغناطيسي: إذا أمكن، انسَ للحظة كل شيء تعرفه عنه وانتزع نفسك خارج ما قد يكون حقاً طريقة متقاعسة، معتادة بها تكون لديك معرفة به. ليكن الأمر كما لو إنها أول مرة سمعتَ فيها قصة هذه المهانة. وإذا لم تُحدث هذه الحركة التأثير المنشود فإن النص يكون مرة أخرى جاهزاً للمساعدة: الآن، إذاً، لنساعد أنفسنا بطريقة أخرى. لندع طفلاً يساعدنا، طفلاً... يسمع الآن القصة لأول مرة. دعونا نرى أي تأثير يحدثه ذلك حتى إذا لم تكن روايتنا لها جيدة إلا بقدر محتَمَل.

ثم تُجرى تجربة: إن تجاور المألوف والغريب لدى وضعهما في الزمان والمكان الصحيحين لا يمكن أن يسفر عن تصادم عنيف. ويواجَه طفل بصور مختلفة - صورة لنابليون وأخرى لوليام تيل وهكذا دواليك - كل صورة مصحوبة بشرح شيق. وفي اللحظة التي ينتقل فيها الطفل من صورة إلى أُخرى بفرح لا يُوصف يرى الطفل فجأة صورة وُضعت بطريقة متعمدة بين الصور الأخرى، وهي تصوِّر شخصاً مصلوباً. في البداية لا يستطيع الطفل

أن يربط أي شيء بالصورة لكنه يتأثر تأثراً بالغاً حين يعلم إنها تصور عملية إعدام. وفجأة تستحوذ الصورة على مجال رؤية الطفل بشكل كامل حتى إنه يصبح قلقاً وخائفاً من الكبار ومن العالم ومن نفسه ناسياً كل شيء عن الصور الأخرى التي كما تقول الأغنية الشعبية، ستدير ظهرها، فهذه الصورة صورة شديدة الاختلاف.

عندما شقت هذه الصورة طريقها إلى أمام الصور الأخرى واضعة نفسها في الصدارة، يجب على الراوي أن يشرح الآن أهمية النموذج الدينية تحديداً. ويتولى ضد - كليماكس مسؤولية الموقف: أو لا ترى، هذه هي اللحظة. فأنتَ إذا لم تترك أثراً قوياً في نفسه الطفل، حان الآن وقت أن تحدِّث الطفل عنه، عن ذلك السامي، الذي من عليّ سيجذب الجميع إلى نفسه. قل للطفل إن هذا الشخص السامي هو المصلوب. قل للطفل إنه المحبة، إنه جاء إلى العالم محبةً وإنه اتخذ شكل خادم متواضع، وإنه عاش من أجل شيء واحد فقط، أن يحب البشر ويساعدهم، ولا سيّما المرضى والحزانى والمعذبين والبائسين. قل للطفل كيف كانت حياة هذا الشخص، كيف خانه واحد من القلة الذين كانوا قريبين منه، كيف أن القلة الآخرين أنكروا معرفته، كيف أن جميع الآخرين أهانوه وسخروا منه إلى أن علقوه على الصليب بالمسامير - كما يمكن رؤيته في الصورة... قلها للطفل بطريقة حية كما لو إنك نفسك لم تسمع بها قط أو رويتها لأحد من قبل. قلها كما لو إنك اخترعتها بنفسك ولكن لا تنس أن تروي كل تفصيل محفوظ ومتداوَل - سوى إنك حين ترويها ينبغي أن تنسى إنها منقولة.

إزاء رؤية هذه الصورة المروعة يفقد الطفل إحساسه بالزمان والمكان بشكل كامل حتى إنه ينسى تماماً إن الحدث نفسه، الصلب، وقع قبل أكثر من 1800 سنة. وإذ يُنقل الطفل بطريقة التنويم المغناطيسي تقريباً إلى هذه المعاصَرَة فإنه يبدأ بالتساؤل لماذا لا يتدخل الله لمنع موت هذا الشخص المُحِب. وعندما يقع المحتوم يتأثر به الطفل تأثراً بالغاً به ولا يستطيع أن يفكر أو يتحدث عن شيء سوى السلاح والحرب - لأن الطفل صمم على أنه حين يكبر سيقتل كل أولئك الفجّار الذين عاملوا الشخص المُحِب هذه المعاملة. ولكن هذا ليس ما آلت إليه الأمور: عندما يصبح أكبر ويبلغ سن النضج لن ينسى هذا الانطباع من الطفولة ولكنه سيفهمه بطريقة مختلفة. فهو لم يعد يرغب في الضرب لأنه، كما

يقول، إذا فعلتُ ذلك لن أُحقق أي شُبه به، بذلك الشخص المُهان، الذي لم يضرب أحداً قط، ولا حتى من باب الرد عندما ضُرب. كلا، إنه لا يتمنى الآن إلا شيئاً واحداً، أن يكابد تقريباً كما كابد هو [المصلوب] في العالم.

تمضي القصة موضحةً إن مشهد الصلب الأول هذا لا يرخي قبضته أبداً على نظرة الطفل إلى العالم بل يرافق الطفل ويحدِّد فهمه للحياة: من خلال قوة هذه المخيلة، ينجذب اليافع... إلى الصورة، أو إن قوة مخيلته تجذب تلك الصورة إليه. إنه يقع في حب الصورة... لا يرخي قبضته - ولا حتى في نومه - على هذه الصورة التي أرَّقته. وكلما يمعن هذا اليافع النظر يصبح هو نفسه مرئياً أكثر: المرء يراها في مظهره، عيناه لا ترى شيئاً مما هو الأقرب إليه... إنهما تبحثان عن تلك الصوره وحدها، وهو يمشي كمن يمشي في النوم، لكنه يقظ بكامل وعيه، كما يمكن أن نرى من النار واللهب في عينيه. إنه يمشي كأنه غريب لكنه بين أهله لأنه من خلال قوة المخيلة يكون دائماً بين أهله مع هذه الصورة التي يتمنى التشبه بها.

ضد - كليماكس لا يشك للحظة إن علاقة الفتى اليافع بالعالم، نتيجة ذلك، علاقة بالضرورة مليئة بالمعاناة، وهذا على وجه التحديد مقصده: بمعنى معين خُدع الفتى اليافع بقوة المخيلة، ولكن الحق لو إنه نفسه أراد فإنها لم تخدعه بطريقة مؤذية بل خدعته للوصول إلى الحقيقة - بواسطة الخداع وضعته بيد الله، على نحو ما... وصحيح بكل تأكيد إنه قد يرتعد للحظة في تقييم الموقف ولكن هل يتخلى عن تلك الصورة؟ - كلا، فهذا شيء لا يستطيع أن يُقنع نفسه به. من جهة أخرى، إذا كان لا يستطيع أن يقنع نفسه بالتخلي عن الصورة فإنه لا يستطيع الهروب من المعاناة أيضاً... فيمشي بلا وجل إلى المعاناة التي يُقاد إليها... وهو نفسه أصبح صورة للكمال الذي أحبَّه، وحقاً إن قوة المخيلة لم تخدعه أكثر مما خدعت الحاكمية الإلهية.

رغم إن الخداع كان مدغماً بديالكتيك فني فلا بد إن ضد - كليماكس نفسه أحس كيف أصبح السرد على حين غرة مماثلاً بشكل مقلق لقصة إغواء، ولذلك يُدخل تعليقاً مرجعياً في القصة: إذا كانت القوة التي تحكم حياة الإنسان قوة غاوية فإنها في تلك اللحظة ستقول عن هذا اليافع بسخرية «انظر، إنه الآن في المصيدة». وهذه بالطبع فكرة تثقيفية ولكنها بالمعنى الدقيق مع ذلك ليست

ضمانة بأن النص الذي يستهين بمخاطر الغواية لا يملك هو نفسه قوة إغوائية، ربما ممارساً الإغواء بفاعلية قصوى بإنكاره ممارسته.

هذا الطرح التصويري أو الجمالي للمسيح بصفة خاصة هو الذي يشجع الفتى اليافع على اتباع – محاكاة – المسيح مبيناً بكل وضوح كيف يكون الجمالي مبدأ فاعلاً داخل الديني. وليس من المبالغة القول إن كيركغارد قدم لنا هنا نوعاً من السيرة الذاتية الدينية باختصار شديد. وفي عام 1849 عندما كتب قطعة بعنوان المحاسبة كانت نسخة مكثفة من وجهة نظر لعملي كاتباً ألحق بها ملاحظة مرفَقة تُعلِمنا: حتى عندما كنتُ طفلاً صغيراً قيل لي بكل المهابة الممكنة إن «الغوغاء» بصقوا على المسيح رغم إنه نفسه كان الحقيقة بألف ولام التعريف... وهذا أمر حفظتُه في أعماق قلبي... فالمسيح الذي كان فعلاً الحقيقة بُصِق عليه. وحتى إذا نسيتُ كل شيء فلن أنسى أبداً – مثلما لم أنس حتى هذا اليوم – ما قيل لي وأنا طفل، والأثر الذي تركه هذا في ذلك الطفل.

بالطبع لا نعرف على وجه التأكيد ما إذا حدثت الواقعة فعلاً في بيت طفولة كيركغارد ولكن هناك أكثر من بضعة أشياء ترجِّح ذلك، وحتى في سن البلوغ كان كيركغارد يرتعد عندما ينظر إلى واجهة متجر وفجأة يقع على صورة للمسيح المصلوب معلقة وسط عدد من صورة نورمبرغ بفرشاة هواة [رسوم شعبية رخيصة].

لعب كافر بما هو مقدس

في 22 تشرين الأول/ أكتوبر 1850 كان كيركغارد مستعداً ومتلهفاً على زيارة مينستر. وتحدث في اليوم السابق مع صهر الأسقف، يوست باولي الذي أخبره كم كان الأسقف العجوز مستاء من كتاب الممارسة في المسيحية. وقال مينستر على ما يُفترض لدى دخوله الصالون إن الكتاب أغضبني غضباً شديداً. إنه لعب كافر بما هو مقدس. وعندما سأله باولي إن كان سيعيد هذه الكلمات أمام كيركغارد إذا رآه أجاب مينستر، نعم، وإنه على الأرجح سيأتي لمقابلتي في وقت ما، ولذلك سأقول له ذلك بنفسي. ولبرهة قصيرة كان كيركغارد مشلولاً بما نقله باولي عما حدث في مقر إقامة الأسقف لكنه أصيب بعد ذلك بالدوار تقريباً. فالآن لم يعد بحاجة إلى ذريعة البحث عن وظيفة في الدير الرعوي لزيارة مينستر أو إخضاع نفسه لمسرحيات الأسقف الهزلية على نحو غريب.

كلا، إنه يستطيع أن يدخل مباشرة ويطلب إخضاعه لما يقتضيه احترامه لمرجع مثل مينستر - أن يجري توبيخه.

وهكذا زار مينستر في اليوم التالي. وكان كيركغارد، على مر السنين، أصبح عليماً بما يوجد من براعة في احتياط الأرستوقراطية أتقنها الأسقف إلى حد الكمال واستخدمها حين استقبله - لا لشيء سوى الاستهانة به وإعادته من حيث أتى. لذلك صاغ كيركغارد كلماته مسبقاً وكان لم يزل يرددها مع نفسه عملياً حين دخل منزل مينستر: القس باولي أخبرني أمس إنك فور أن تراني تعتزم توبيخي على آخر كتبي. أرجوك أن تعتبره تعبيراً آخر عن الاحترام الذي أبديته لك دائماً، بأنني ما أن سمعتُ ذلك حتى أتيتُ لرؤيتك. وكان كيركغارد نفسه يرى إن حركته الافتتاحية كانت ناجحة تماماً: كان الوضع حسن الترتيب، ولم تكن هناك فرصة للانفعال أو التهكم، اللذين يبدوان لي بلا قيمة في هذه الظروف.

لكن كيركغارد أخطأ تماماً في الحساب. فإن مينستر الذي كان دائماً صخرة صلدة من الاعتداد بالنفس، لم يكن يريد أن يصدر أي توبيخات بالمرة في ذلك اليوم، واكتفى بالعبارة العادية القائلة إن كل طائر يجب أن يغرد أُغنيته. وكيركغارد جاء إلى هنا ليتلقى تعنيفاً شديداً! بيد إن مينستر أضاف إن من المستبعد أن تكون للكتاب أي جدوى، ولا سيّما وإن القسم الأول هجوم على مارتنسن والقسم الثاني هجوم على مينستر نفسه. وكان هذا التعليق الأخير تلميحاً إلى تعليقات الكتاب النقدية بما معناه إن المسيحية يجب ألا تكون موضوع شيء بعيد مثل الملاحظات لأن هذا هو بالطبع تماماً نقيض المسيحية التي تتابعنا كي ترى إن كنا في الحقيقة نفعل ما نقول. وكيفما يقلِّب المرء هذا الأمر ويديره فإن الوعظ لا بد أن يبقى ملاحظات، بحسب اعتقاد مينستر، وكيركغارد لم يرغب بالخوض في الأمر أبعد من ذلك، خشية الدخول في قضايا وجودية، ولكني أوضحتُ ما كنتُ أعنيه بتقديم عدة أمثلة عامة. ومع ذلك كان مينستر متأكداً من إن المقطع المتعلق بـ«الملاحظات» كان يستهدفه. وكانت لديه أسباب وجيهة للشعور بالإساءة، لأن صفحة العنوان ملاحظات عن مذاهب العقيدة المسيحية - نُشر أول مرة في عام 1833 وأُعيدت طباعته للمرة الرابعة في 1855 وكان أكثر الكتب التعبدية قراءة في زمنه - كانت لا تحمل اسم أحد سوى ياكوب بيتر مينستر!

ولكن رغم إن ما لا مراء فيه إن كلمة ملاحظة كانت بالفعل موجهة سجالياً إلى مينستر فإن كيركغارد لم يكن يريد الاعتراف علناً برأيه القائل إن الأسقف المتقاعد كان، وجودياً، غير متأثر بوعظه ذاته. ولو قال كيركغارد رأيه الحقيقي بمينستر لسماه رجلاً بلا شخصية لأن هذا على وجه التحديد هو التوصيف الذي تكرر أكثر المرات في قائمة الرذائل الأسقفية التي كان كيركغارد يعدها بحمية خلال هذه الفترة، لأن رجلاً لا يترجم أقواله إلى أفعال ووعظه إلى ممارسة هو في الحقيقة رجل بلا شخصية. وكان انشغال كيركغارد بهذا الوضع المؤسف يعود، أولاً وقبل كل شيء، إلى طريقته الخاصة جداً في قراءة الكتاب المقدس وتفسيره، لكنه يُعزا أيضاً إلى مقته العام لكل شكل من أشكال التظاهر بالورع: رغم إني عموماً أكره الآلات فإني أتمنى حقاً لو إن أحداً يخترع آلة (نوع من الصندوق الموسيقي الذي يمكن وضعه على منبر كنيسة) يمكن نصبها بحيث تستطيع أن تقدم هذه المواعظ الساحرة والملهِمة. وحينذاك يمكن لكل جماعة من المصلين أن تحصل على واحدة من هذه الآلات. وبهذه الطريقة سنُعفى على الأقل من مواجهة وضع شائن لأنه ليس هناك ما هو مشين عندما لا تطبق آلة واعظة ما تعظه.

كاد كيركغارد يطير من الفرح بشأن هذه الآلة العجيبة، وأضاف ملاحظة توجيهية في الهامش، توضح إن الآلة يمكن بسهولة أن يشغِّلها شماس يمكن تدريبه لمصاحبة مواعظ أيام الآحاد المعلبة بـ الحركات الإيمائية اللازمة من يديه - بحيث إن الشماس، في فترات منتظمة، يتمخط ويمسح العرق من جبينه وباختصار يتصرف كما كان بكل تأكيد يرى كيف يتصرف القس. وختم كيركغارد: سيكون من الممتع أن نسمع صبي الموسيقى يقول «حتى إذا سقط جميع الآخرين على جانب الطريق سأكون على إيماني بالمسيحية، العقيدة الرقيقة، السلوى والبلسم الشافي لكل الأحزان، تمنح الأفراح مذاقها الحقيقي. وقناعتي من أعمق أعماقي أن، إلخ. كانت الدردشة بلا التزام من صندوق موسيقي محاكاة ساخرة مثلى لفن مينستر في الوعظ، لعباً كافراً مع سماحته.

الإله الأبله - وزمنه

هكذا، بحسب مينستر، فإن القسم الثاني من الممارسة في المسيحية كان يستهدفه هو في حين إن القسم الأول كان رداً نقدياً لا هوادة فيه موجهاً إلى

مارتنسن. لعل هذه الملاحظة ملاحظة خرقاء إلى حد كبير بعض الشيء، ولكن مارتنسن في كل الأحوال قرأ الكتاب، وفي رسالة بتاريخ 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1850 قدَّم حكمه على الكتاب إلى لودفيغ غودي الذي شعر من جانبه بأن العمل ثبَّط معنوياته أكثر مما ثقَّفه. وكتب مارتنسن، أنا أتفق تماماً مع ما تقوله عن عمل كيركغارد. فإن محاجَّاته اتصالات آنية ومباشرة - وهي بالطبع تعتمد على سفسطات وتوريات ظاهرة. قلائل جداً لاحظوا السجال. وكان من نتائج الكتاب الأخرى إن الأسقف تخلى تماماً الآن عن عمل كيركغارد. وهو بطبيعة الحال ساخط على التعليقات المعيبة عن مواعظ الكنيسة. ومن المؤكد أن هناك شيئاً صحيحاً في تعليقات [كيركغارد] ولكن نقد الكنيسة بهذا الشكل لا يبدو لي إن له أي غاية إصلاحية بل يجب أن يُسمى نقداً مفستوفيلي [مفستوفيليس هو اسم الشيطان في أسطورة فاوست]، دائماً يحوي بالطبع شيئاً من الحقيقة.

كالعادة كان مارتنسن يكتب بقلم من جليد، ولكنه رأى شيئاً ما بوضوح تام. فإن الممارسة في المسيحية في الحقيقة كتاب راديكالي جريء، ساخر في بعض المواضع إلى حد الكُفر، وبالتالي ليس من دون عنصر من المفستوفيلي، من الشيطاني فيه. وإن ضد - كليماكس لا يوجه نقداً لاذعاً إلى هراء الأحد الدائم الذي قد يكون من الأنسب أن ينتهي بـ «زغرودة» بدلاً من «آمين»، بل إنه يكتب (على حد تعبيره) بلا أي قيود عن المسيح. وهذا بكل تأكيد ليس قولاً ملطفاً. ويضم النص ممثلين عن البورجوازية ذات النظارات في حقبة بيدرماير - بمن فيهم أفندي وقس وفيلسوف وسياسي - يتناوبون على الكلام معلقين على ذلك الشخص الغريب، المسيح، الذي سمى نفسه إلهاً. وصفحة تلو أخرى يتعرض هذا المسيح، هذا الإله الأبله، إلى سخرية النص الذي عملياً يبصق عليه - هذا المسيح الذي، إذا كان عاجزاً عن عمل أي شيء آخر، فإنه على الأقل جعل من الواضح إن كتّاب يومنا أصابوا الهدف بدقة في كونهم دائماً يمثلون الصالح والحقيقي بشخص نصف معتوه أو بشخص أغبى من جذع شجرة مجوف.

الأفندي العاقل ينظر بعين الشك إلى معجزات المسيح ولكن ما لا يستطيع أن يكتنهه هو أن يكون المسيح بهذا الغباء أو بهذا الخواء أو بهذا الجهل بالطبيعة البشرية أو بهذا الضعف أو بهذه التفاهة الوديعة أو سمِّها ما تشاء لكي يتصرف بطريقة حتى إنه عملياً فرض أفعاله الطيبة على الناس!... فهو، رغم كل شيء، لا بد أن يعرف ما كنتُ أستطيع أن أقوله له منذ البداية مستخدماً أقل من نصف

عقلي، وهو إن هذه ليست طريقة لشق طريقك في هذا العالم - إلا إذا كان المرء، مستهيناً بالذكاء، يتطلع بصدق إلى أن يصبح مغفلاً أو ربما حتى يدفع الصدق بعيداً بحيث يفضِّل أن يُعدم. وإذ يتظاهر أفندي حذر آخر بالقلق العميق على مستقبل هذا الحالم، لم يسعه إلا أن يعبر عن اتفاقه مع الشك الذي أبداه زميله: إن حياته هي بكل بساطة فانتازيا... فالشخص يمكن أن يعيش هكذا عامين على الأكثر في شبابه لكنه تجاوز الثلاثين، وهي لا شيء بالمعنى الحرفي للكلمة... وماذا فعل بشأن مستقبله؟ لا شيء. هل لديه عمل ثابت؟ كلا. ما هي آفاقه؟ بلا آفاق. وحسبُنا أن نذكر هذه المشكلة البسيطة: كيف سيقضي وقته حين يتقدم به العمر، خلال ليالي الشتاء الطويلة؟ - ماذا سيفعل لملء هذا الوقت؟ إنه لا يعرف حتى أن يلعب الورق.

ليس من المستغرب إن القس عاجز بصورة مشابهة عن مباركة هذا الشخص الصعب. لكنه سيقر بأن الرجل، بالنسبة لشخص ديماغوجي مثله، صادق إلى حد يكاد يثير الشفقة، وهذا يجعل حكم القس أكثر رأفة بعض الشيء: إنها علامة صدق أن يحاول المرء تقديم نفسه على أنه المنتَظَر وفي الوقت نفسه لا يشبه المنتَظَر بشيء يُذكر كما هي حاله - وهذا صدق مثلما يكون الصدق عندما يفشل شخص يريد أن يروج نقوداً مزورة في إنتاج أوراق نقدية فشلاً ذريعاً بحيث يمكن أن يكتشفها أي أحد مفتّح العين. القس يعرف أمور الدنيا وهو يعرف جيداً كيف يتصرف ويتحرك الإله الحق: إن المنتَظَر الحقيقي سيكون لذلك ذا مظهر مغاير تماماً وسيأتي بوصفه أروع ازدهار وأسمى تطور في النظام القائم.

ثم يأتي دور الفيلسوف. إنه بالطبع لا يرى أي دليل على النظام، ولذلك لا يستطيع بكل بساطة أن يسكت عن جنون العظمة المسكون به هذا الحالِم: أن يُفترَض إن كائناً بشرياً هو الله فذلك فانتازيا بغيضة أو بالأحرى مجنونة لم يُسمع لها نظير من قبل، ولم يسبق أن رأى أحد ذات يوم هذا الشكل من الذاتية الخالصة والنقض المحض مدفوعين إلى مثل هذه النهاية القصوى. إنه بلا عقيدة، بلا نظام. ولدى أخذ كل الأمور في الاعتبار فهو لا يعرف أي شيء. يكرر أو يغيِّر باستمرار عدداً من الأقوال المأثورة وبعض الأمثال والحكايات الرمزية مستخدماً إياها لإبهار الجماهير... وإذا كانت الفرضية الجنونية القائلة إن كائناً بشرياً منفرداً هو الله فرضية جائزة فإن من المنطقي أن يستتبع من ذلك إن على

المرء أن يعبد هذا الكائن البشري الفرد - قطعة أكبر من البهيمية الفلسفية لا يمكن أن يتخيلها المرء.

الآن ينبري السياسي البرغماتي بهذه التعليقات: لا يُنكر إن هذا الشخص قوة في الوقت الحاضر - ما عدا، بالطبع، وهمُه بشأن الله. فهذا شيء من النوع الذي يتجاهله المرء ببساطة بوصفه نزوة غريبة خاصة...هل يريد الكفاح من أجل القضية الوطنية؟ أم إنه يفكر في ثورة شيوعية؟ هل يريد جمهورية أو مَلَكية؟ ما هو الحزب الذي يؤيده والحزب الذي يعارضه؟ أم إنه يريد أن يكون صديقاً لجميع الأحزاب أو معادياً لها كلها؟ الدخول في علاقة معه؟ - كلا، فهذا آخر شيء أفعله.

عدة آخرين ينهضون لقول بضع كلمات في هذه الندوة الشيطانية حيث المشاركون لا يتغنون بالمرأة وإنما بالحماقة. وعليه فإن من المناسب تماماً أن يكون آخر المتكلمين متهكماً: كائن بشري فرد، شخص مثلنا تماماً، يقول إنه الله. إن هذه حقاً فكرة لا تُقدَّر بثمن، نستطيع نحن جميعاً بالطبع أن نجني منها فائدة مباشرة. وإذا لم يكن هذا إحساناً تجاه البشرية فأني لا أعرف ما هو الإحسان والبِر (أو البِر والإحسان)... العمر الطويل لصاحب مثل هذا الاكتشاف الاستثنائي! غداً سأعلن إني الموقِّع أدناه رب العالمين... إن هذا أكثر الأشياء التي يمكن تخيلها مدعاة للسخرية. والعنصر الكوميدي دائماً يكمن في التناقض، وهو هنا أكبر التناقضات الممكنة...، إن كائناً بشرياً مثلنا تماماً، ولو إنه ليس مهندَماً كما يكون الشخص الاعتيادي مهندَماً - هو إذاً، شخص رديء الملبس، عملياً... نزيل مأوى للفقراء - يكون الله.

ضد - كليماكس ليس ضد - المسيح ولكن ضد - المسيح ما كان ليستطيع أن يقدم أداء أفضل - أو أسوأ إذا شئتم - منه في السخرية التجديفية. وفي كل الأحوال فإن القصد هو إن النص يجعل زمنه معاصراً لزمن الإله، ويجعل زمن الإله معاصراً لزمن النص. ولم يكن ضد - كليماكس مكتفياً بمجرد أن يُقدِّم لنا البورجوازية العليا لشوارع الناصرة وأزقتها في حوالي عام 30 بل يذهب أبعد واضعاً هذا الإله الأبله في كوبنهاغن عام 1848: في ميدان أماغرتروف وسط الضجيج والصخب المعهود في يوم عمل. وهو يفعل ذلك ليواجه القارئ بالسؤال التالي: إذا كنتَ لا تتحمل المعاصَرَة، وإذا كنتَ لا تتحمل رؤية ذلك

بالفعل، وإذا كنتَ لا تستطيع النزول إلى الشارع - وترى إن الإله موجود هناك في ذلك المشهد المريع، وإن هذا ما سيحدث لك إذا لم تركع وتعبده - فإنك تكون عندئذ مسيحياً من حيث الجوهر.

أصوات المُساء إليهم

بعد فترة التقى كيركغارد شخصاً في الشارع، ولم يكن هذا الشخص هو الإله تماماً، لكنه لم يكن مجرد أي شخص أيضاً. كان يوست باولي Just Paulli الذي انثنى وجهه المتملق الباسم في تجاعيد من الاهتمام الكهنوتي كاشفاً لكيركغارد إن أشخاصاً من كل صنف يفسرون تعليقاته على أنها لا شيء سوى حماقة، تسلية وألعاب. ولم يتمكن كيركغارد من أن يتحمل المزيج المتزمت من التقوى والإثارة الذي أحاط باولي بقبضته النهمة. وقال بازدراء إن باولي نمَّام عتيق. ومع ذلك بدأت شكوك تساور كيركغارد فيما إذا كان سلوكه الأدبي سلوكاً يمكن الدفاع عنه وشعر ملزَماً بتقديم مزيد من التوضيحات في يومياته. وفي البداية حاول أن ينظر إلى الأمر كله على أنه تفاهة: حسناً، حتى إذا كان ذلك صحيحاً - وإذا؟ فكل شيء مفيد بصدق وجديد يمكن أن يؤدي إلى إساءات من هذا النوع. ثم ساق محاجَّة أكثر مبدئيةً تقوم على مماثلة مع العصور القديمة الكلاسيكية: صدقوني، إن الشخص الذي بدأ يقدم أدواراً هزلية في أعمال مأساوية كان عليه أن يتحمل أشخاصاً وجدوا ذلك جارحاً. وكان من المهم استخدام الهزل في القض-ايا الدينية لأن العصر في محاولته التشبه بالمثالي كان يفتقر إلى ما يكفي من السذاجة الطفولية: توقفتْ المسيحية في فطنة دنيوية لا تكترث بالمثالي وتعتبر الذين يسعون بلوغه حالمين. وهكذا يكون الهزلي مهماً لأنه باستخدام الهزل وحده يستطيع المرء أن يلفت الانتباه إلى الفارق بين وقار هذا الأحد والحياة اليومية.

في الحقيقة كان هناك وعي بهذا الفارق منذ زمن طويل يعود إلى التقاليد الكنسية القروسطية الثلاثة - عيد الحمار وعيد المغفل وعيد الكوميديا - التي تطرق إليها كيركغارد أثناء كتابة مفهوم المفارقة. وفي أول هذه الأعياد الثلاثة شارك حمار في المواكب والعروض المسرحية، والثاني كان عيداً بمناسبة رأس السنة شبيهاً بالكرنفال يحاكي بسخرية المراسم الكنسية، والثالث نال اسمه من القصص الهزلية التي كانت تُروى من المنبر خلال أسبوع عيد الفصح.

وكتب كيركغارد متفقاً كل الاتفاق مع ضد - كليماكس أنا أدرك جيداً ما أفعله، وصدقوني إن هذه العادة التاريخية - العالمية المستهلكة التلقينية الكسول حيث يتحدث المرء دائماً على نحو ما عن المسيح بقدر من الإجلال إذ يرى، رغم كل شيء، إن التاريخ اكتسب بعض المعرفة وسمع الكثير بما مؤداه إنه إلى حد ما شيء عظيم من نوع ما - هذا الإجلال لا يساوي كومة فاصوليا. إنه رعونة، ادعاء، وبالتالي تجديف لأن من التجديف أن يُجَّل إجلاء أهوج شخص على المرء إما أن يؤمن به أو يشعر بالإساءة منه.

كان هناك تعريض ضمني بالغروندفيغية في هذا النقد لعادات عالمية - تاريخية. وفي الحقيقة إن بيتر كريستيان كان أيضاً من غير الراضين عن العمل ويظنون إن سورين آبي تمادى بإدراج تعليقات كهذه المذكورة هنا، وكان عليه أن يكتفي بالتلميح إليها. يا إلهي، المفترض أن يكون هذا حكمة، كما رد سورين آبي الذي حاول أن يستخدم التلميح الفني في أعمال الحب، فكان يعرف بالخبرة إن مثل هذا الأمر ليس مجدياً. وإذا كان بيتر كريستيان غير راضٍ فلأنه كان يفضل تجاهل كل الأسئلة الباحثة عن إجابة لا أكثر: بيتر دائماً يتمسك بالأشياء غير المهمة التي أهدر حياته عليها. وهكذا، كما هي الحال دائماً، ليست هناك صعوبة على الإطلاق في تأليف كتب كبيرة كتلك التي أكتبها - فهذا شيء أي شخص يستطيع أن يفعله... ويمكن للعادية حقاً أن تعيش زمناً بهيجاً لأن الدنمارك لا تملك أي معايير. وهكذا تعين على كيركارد أن يرافع عن قضيته مرة أخرى: إن التمثيلات المختلفة لما يقوله العقلاء ورجال الدولة، إلخ في الحكم على المسيح في إطار معاصر إن هي إلا صيغ للحكم الصادر من النهائي على المطلق. وغالبيتها تحوي شيئاً مجنوناً بصورة تنبؤية عندما تتحدث أكثرها جنوناً على الإطلاق عن المسيح بمفردات تعبر على وجه التحديد عما يريده المسيح نفسه - على سبيل المثال عندما يقول الفطين «إلا إذا كان يعتزم تعريض نفسه للإعدام». ولكن بمعنى معين فإن هذا كان نية المسيح تحديداً. وهكذا دواليك، في عدد كبير من النقاط.

كيركغارد جعل البورجوازيين المبتذلين يقولون ما عندهم كبراهين على رد فعلهم الشائن على الإله الأبله. ولاحقاً، عندما خاطب كيركغارد مجايليه، قراءه، ستتكرر هذه التعليقات بوصفها أصداء متأخرة على نحو غريب، وكان ينبغي تقريباً أن تُدرج بوصفها حاشية للطبعة الثانية من كتاب الممارسة في

المسيحية حين صدرت في أيار/ مايو 1855. وكانت ألقاب هؤلاء الأشخاص وحدها ستؤدي الغرض: المحرر، رئيس الشمامسة، الفيلسوف، الطبيب، كاتب المراجعات والقس الريفي.

وهكذا قال المحرر - أي غيودفاد - إن كيركغارد بتقديمه المثالي هذه التقديم القوي ربما أخاف بعض خريجي اللاهوت من أن يصبحوا قساوسة. ورد كيركغارد، إن الناس في هذه الحالة ربما ما كان ينبغي أن يقرؤوا أعمالي لأنه إذا كان لدى الشخص رد فعل عنيف كهذا على تمثيلات المثالي فكيف ستكون الأمور عندما يقدم كيركغارد الحالة الإنسانية المثالية؟ هل إن هذا سيخيفه من أن يكون بشراً بحيث من الجائز أن ينتهي الأمر بانتحار؟ ومضى كيركغارد ليوضح إن هذا النوع من السُقُم يكمن في حقيقة إن الشخص يحب نفسه حباً أنانياً بدلاً من حب المثالي.

«ترايدِه»، كبير الشمامسة، أيضاً كان لديه تعليق. وبرأيه إن كيركغارد كان يبالغ عندما ذهب إلى أن المسيحية أُلغيت من خلال إبداء الملاحظات. وكان «ترايدِه» متأكداً، بالإضافة إلى ذلك، من إن التعليق على الملاحظات كان موجهاً إليه نفسه، الأمر الذي وجده بلا أي مبرر لأن سورين كيركغارد لم يستطع أن يكون أكثر ذاتية منه هو [«ترايدِه»] - بل إن «ترايدِه» حتى ألقى نظرة على عمل كيركغارد خطابات تثقيفية ليقنع نفسه بأن الأمر كذلك. ولعلنا نظن إن كيركغارد كان سيجد إن هذا النوع من التنافس على مَنْ هو الأكثر ذاتية، أمر في منتهى السخف، ولكن كلا، لأنه في الحقيقة قَبَلَ التحدي: إن القس المحترم لم يَرَ إنه يجب أن يكون هناك دائماً هذا الاختلاف الكبير: هو يتولى منصباً رسمياً ويتقاضى راتباً كبيراً جداً، وأنا فعلتُ ذلك مجاناً. أنا لم أصبح شيئاً، وعرَّضتُ نفسي لاضطهاد الغوغاء. عشتُ في الشارع - كل ذلك طبقاً لقواعد الذاتية.

الفيلسوف كان سيبِّرن، وبحسب كيركغارد فإنه طرح الغرائبية الصغيرة التالية: قبل أيام قال لي سيبِّرن إن أحدهم قرأ التعليقات المدرجة في القسم الأول من الممارسة في المسيحية بمعنى هزلي محض، وكان رأيه إن الأمر جدي بحيث ينبغي أن يتدخل الإكليروس. وهكذا فات هذا الشخص أن يلاحظ إن الطرح تضمن نقطة لاهوتية أعمق. إن سيبِّرن لم يستطع أن يمنع نفسه من الضحك عندما روى لي ذلك، كما كتب كيركغارد - وهو نفسه يضحك على الأرجح.

كاتب المراجعات كان سويدياً هو الباحث في الأدب وعلم الجمال ألبرت ليساندر Albert Lysander الذي لفت انتباه كيركغارد إليه أتش. بي. كوفويد هانسن H. P. Kofoed Hansen، القس في كنيسة سيدتنا في مدينة هاديرسليف جنوبي يوتلاند. وكانت مراجعة ليساندر نُشرت في مجلة الأدب الدورية السويدية. وقرأها كوفويد هانسن دون أن يتثقف بها وافترض أن كيركغارد أيضاً قرأها ذلك.

في 5 آب/ أغسطس 1850 كان طبيب كيركغارد الشخصي أولوف لوندت بانغ أكثر سروراً بكثير – وذرب اللسان تماماً، وكتب ليشكر كيركغارد على الكتاب بتوجيه رسالة مقفاة في 150 بيتاً لطيفاً سنحيلها إلى عالم النسيان رحمةً ببانغ.

وفي 20 كانون الأول/ ديسمر من ذلك العام، عندما تسنى أخيراً للقس أميل بويسن أن يكتب رسالة شكر على تسلمه كتاب الممارسة في المسيحية، أعرب عن أسفه الشديد لهذا التقاعس لكنه هوَّن على نفسه وعلى كيركغارد بالإشارة إلى أنه كان أكثر سروراً بهذا الكتاب من الأعمال السابقة من هذا النوع، لأني، على ما أفترض، هنا [في يوتلاند] الآن وكثيراً ما أفتقدتُك – ولا سيّما في الآونة الأخيرة. ولكن عندما تسلمتُ الكتاب وقرأتُ شيئاً منه، كان ذلك كالمجيء إلى منزلك والحديث معك. نُشر الكتاب باسم مستعار ولكن من الواضح إن هذا لم يخفِ اسم كاتبه الحقيقي. وكانت الرسالة المشجعة من الأرياف تقول شكراً عليه. يبدو أنّه سيلقى الاستقبال نفسه الذي لاقته الكتب السابقة. ثم ترك بويسن موضوع الكتاب وانتقل إلى نقاش مستفيض للضجة التي أثارها في سائر أنحاء يوتلاند مقترح الترخيص بالزواج المدني. كان بويسن منغمراً الآن في تفاصيل اللاهوت العملي. وكان الكرسمس قادماً، وكان القس وزوجته مشغولين. قريباً سيتعين عليَّ مرة أخرى أن ألقي العديد من المواعظ في فترة قصيرة من الوقت. ألقي مواعظي على أحسن وجه ممكن، لكنها في أحيان كثيرة هزيلة جداً. وكثيراً ما يكون علي أن أجلس وأزجِّي الوقت حتى ساعة متأخرة جداً من عصر يوم السبت قبل أن تعود الأمور إلى نصابها ثم يكون عليَّ أن أتخلص من كل توجساتي وأسعى إلى وضع نفسي في عهدة الله. في يوم الكرسمس علي أن ألقي ثلاث مواعظ، الأولى في الساعة السادسة صباحاً. أرسل تحيات لويز. إنها بحال جيدة جداً وهي هذه الأيام مشغولة بالتحضير للكرسمس. نعيش في سَكَن

ضيق بعض الشيء وفي ظروف غير مستقرة إلى حد بعيد، ولكن من الصعب إيجاد مكان لائق للسكن. ومع ذلك نفعل ما بوسعنا لإيجاد سكن بحيث نستطيع أن نستقبلك حين تأتي لزيارتنا. نتحدث عنك في أحيان كثيرة تماماً.

يُسجَّل لكيركغارد، على ما يتسم به من غرابة أطوار، إنه لم يتعامل قط بتهكم مع رسائل بويسن، التي تستدعي مثل هذه المعاملة بين حين وآخر. أو في الحقيقة أليس من الجائز إن أميل بويسن وزوجته لويز كانا نموذجين من نوع ما لخريج اللاهوت لودفيغ فروم وجوليانته الصغيرة، اللذين صُوّرا لاحقاً بسخرية لاذعة في مطبوع كيركغارد اللحظة؟

ولماذا، إذاً، هذا الإخفاء؟

بشأن النقاش نفسه حول الزواج المدني الذي وصل إلى بويسن في هورسنس في يوتلاند، نشر الغروندتفيغي أي. جي. رودلباخ A. G. Rudelbach قطعة تضمنت الإعلان التالي: حقاً، في زمننا إن مصلحة الكنيسة الأعلى والأعمق على وجه التحديد... هي التي ينبغي أن تُحرَّر مما يمكن أن يُسمى بصواب المسيحية المعتادة والمُقامَة حكومياً. وأرفق رودلباخ ملاحظة بهذا التعليق: إن هذا هو نفسه ما يسعى واحد من أروع الكتّاب في الآونة الأخيرة، هو سورين كيركغارد، إلى توكيده والتشديد عليه و- كما يقول لوثر - غرسه في كل شخص يسمع.

لم يكن من المؤثر تماماً أن تُعقد مقارنة مع لوثر فحسب بل كان من بواعث الإحساس بهذا الإطراء أن يكون مَنْ عقد المقارنة رودلباخ، ولم يخف كيركغارد هذه الحقيقة حين رد بمقال نُشر في صحيفة فادريلانديت بتاريخ 31 كانون الثاني/ يناير 1851 تحت عنوان بمناسبة تعليق من الدكتور رودلباخ يتعلق بي أنا. وكتب كيركغارد إن الدكتور R يمتلك درجة مدهشة من سعة المعرفة، ومما سمعته فإنه على الأرجح أوسع الرجال علماً في الدنمارك ثم يصف كيركغارد نفسه بأنه رجل بائس مسكين في المعرفة والعلم يعرف ما يكفي من الحساب للأغراض المنزلية. ويمكن أن يُسمى هذا تملقاً على مستوى عال. وكيركغارد اعترف بالفعل بأنه حقاً يكره المسيحية المعتادة ولكن المسيحية المعتادة يمكن أن ترتدي أشكالاً مختلفة: وإذا لم يكن هناك خيار آخر، إذا كان الخيار الوحيد بين هذا النوع من المسيحية المعتادة - مزاجية دنيوية تعيش بلا

هموم متخيلةً إنها مسيحية، ربما حتى من دون أن يكون لديها أي انطباع عما هي المسيحية - وذلك النوع من المسيحية المعتادة التي نجدها بين الطائفيين، أصحاب الصحوة، المتزمتين، المتحزبين: إذا كانت الأمور سيئة إلى هذا الحد فإني سأختار الأولى بلا شروط.

لذلك إذا كانت المسألة تتعلق بتحرير الكنيسة من الدولة فإن كيركغارد لم يكن مهتماً بكل تأكيد، لأنه لم يكافح قط من أجل تحرير الكنيسة مثلما إنه لم يكافح ذات يوم من أجل تحرير التجارة في غرينلاند أو المرأة أو اليهود أو تحرير أي صنف آخر. وكان المهم جداً عند كيركغارد فصل قضيته فصلاً واضحاً عن كل المؤسسات والمنظمات الخارجية. وكانت قضيته استبطاناً وليست تخارجاً: بكل ما في وسع القدرات التي وُهبت لي، عملتُ بكد وأمانة وبتضحية أكثر من قليلة من أجل جعل المسيحية مسألة استيعاب، لنفسي وللآخرين على السواء، بقدر ما يكونون متجاوبين. ولكن لأني على وجه التحديد فهمت من البداية إن المسيحية جوانية، وان مهمتي النوعية أن أجعل المسيحية مسألة استيعاب داخلي - لهذا السبب بالذات، حرصتُ بضمير حي إلى حد المبالغة تقريباً، على التوثق بأنه ما من فقرة، ما من جملة، ما من سطر، ما من كلمة، ما من مقطع لفظي، ما من حرف مدرَج، يميل باتجاه اقتراح تغييرات في الترتيبات الخارجية.

اقترن هذا الجيش الصغير من المرادفات التي حشدها كيركغارد لتعزيز وجهة نظره، بوعد تقديم مكافأة للشخص الذي يستطيع أن يشير، في كل هذه الكتب، إلى مقترح واحد يميل باتجاه إجراء تغييرات في الترتيبات الخارجية، أو مجرد أي شيء قد يشبه التلميح إلى مقترح كهذا، حتى عند الأشخاص الأقصر نظراً الذين نظروا إليه من مسافة. وتشي هذه التأكيدات الشاملة التي تخاطر بإجهاض غايتها، بالتردد الذي كان في الحقيقة موجوداً في رد كيركغارد على رودلباخ. وكان هذا تردداً حاول كيركغارد جاهداً أن يخفيه لكنه أصبح ظاهراً في حاشية صغيرة على مقاله: أنا لم أُقدِّم - ومع ذلك قدَّمته شعرياً - ما يمكن أن يسميه المرء تصحيحاً وجودياً للنظام القائم، مائلاً باتجاه الاستيعاب الداخلي من جانب «الفرد»... وفي سفر أعمال الرُسُل نقرأ إن على المرء أن يطيع الله لا أن يطيع البشر. ولذلك، هناك مواقف من الجائز أن يكون فيها النظام القائم نظاماً ما من مسيحي ينبغي أن ينصاع له، مواقف ينبغي

أن يقول فيها المسيحي إن المسيحية ما هي إلا هذا النوع من عدم الاكتراث بالترتيبات الخارجية.

كما هو معروف جيداً، هناك مواقف أهم ما فيها يأتي متلكئاً في الهوامش أو معزولاً في حاشية. وهذه الحاشية هي موقف كهذا. فإن كيركغارد كان ينظر بعدم ثقة عميق إلى ذلك النوع من المسيحية الرسمية التي اعتادت على تبرير نفسها باستحضار جوانية خفية، وهذا وضع كيركغارد في علاقة مترددة بالتردد الذي هو نفسه دافع عنه عندما تحدث عن استعصاء الجوانية على القياس. وقد يكون من المستغرَب إن كيركغارد حتى وقت متأخر هو عام 1851 كان لم يزل قادراً على الدفاع عن موقفه القديم ولكنه لم يكن ناجحاً نجاحاً كاملاً في دفاعه – فإن خطابيته خانته.

صحيح إن صفحة عنوان الممارسة في المسيحية تدعو القارئ إلى الصحوة والاستيعاب الداخلي ولكن هذه الدعوة تُسحب إلى حد ما بالعمل نفسه. وإن كتاب الممارسة في المسيحية هو في الحقيقة نقد لجوانية زمنه الدينية بقدر ما يوجَّه نقد لأي شيء آخر. وبالتالي كانت ضربة ذكية عندما أشار غروندتفيغ إلى كتاب الممارسة في المسيحية على أنه ممارسة للمسيحية مركِّزاً بذلك على المطالبة بممارسة وجودية، بإعادة استنساخ، تنمذج العمل وتكون على نقيض حاد مع الجوانية التي تكون دائماً غير مرئية: هنا لدينا مفهوم المسيحية الرسمية القائمة. وفي المسيحية الرسمية القائمة نكون جميعاً مسيحيين حقيقيين، ولكن بجوانية مخفية. والعالم البراني لا يمت بأي صلة إلى كوني مسيحياً. وجودي كمسيحي لا يمكن أن يُقاس بمعاييره... ولماذا، إذاً، هذا الإخفاء؟... أوه، بالطبع لأني أخاف من إنه إذا اكتشف أحد كم أنا مسيحي حقيقي فإني سأُكافأ بتكريم واحترام استثنائيين، وأنا مسيحي حقيقي بحيث لا أُريد تكريماً ولا احتراماً لأني مسيحي حقيقي. أو لا ترون، لهذا السبب أُبقيها مستورة في جوانية خفية... الجميع مسيحيون حقيقيون – ولكن بجوانية خفية.

بهذا الطرح الكاريكاتيري تطل بجدية رؤية جديدة للجوانية. فإن أحداً ما مسيحي للغاية بحيث لا يكشف كم هو مسيحي في الحقيقة وبالتالي يُبقي مسيحيته مخفية في أعمق أعماق كيانه – ربما مخفية بشكل جيد حتى إنها ليست موجودة بالمرة. بكلمات أخرى، المشكلة إن المسيحية الرسمية كانت

مناسَبة لإحداث تغيير كامل في مشهد كون المرء مسيحياً لأن كل البرانية نُبذت وحُكم على الناس بأن يكونوا مسيحيين جوانياً، الأمر الذي يعني إن كلِّية «مدفوعة بالكامل» أُعطيت لنا وتسلمناها جميعاً. الأمر محسوم. فنحن جميعاً مسيحيون، بالمعنى نفسه تماماً الذي نكون معه كلنا بشراً.

يفكر ضد - كليماكس باستفاضة في كيف يمكن أن تُعرَّى الجوانية بوصفها لا شيء سوى مواقف استعراضية بادعاء الورع. ولهذه الغاية يعبئ مجاميع كاملة من التكتيكات القابلة للاستخدام ثم يستقر على نموذج بسيط نسبياً: ألا ينبغي أن يكون من الممكن كسر هذه السرية وجعل الأمور ظاهرة إلى حد ما دون افتراض التحول إلى العليم بكل شي [أي الله، انظر سفر أعمال الرُسُل 15: 8]؟ نعم، بالفعل! كيف إذاً؟ بكل بساطة بترك الشخص، متحدثاً عن نفسه وحدها، أن يعترف بالمسيح وسط المسيحية الرسمية. إنه لا يصدر حكماً على أي شخص، حاشى أن يفعل ذلك ولكن كثيرين سيكونون مكشوفين بطريقتهم في الحكم عليه.

إذا تجاهلنا هذه الحقيقة الماثلة في أنّ هذا الأمر كله ليس سهلاً كما قد نظن من الوهلة الأولى، فإن المناورة تتوقف على اتصال مباشر بعض الشيء يُفترَض أن يكشف بصورة غير مباشرة عن وجود الحقيقة - أو الأرجح - اللاحقيقة في المسيحية الرسمية. وإذا اعترضنا قائلين إن الاعتراف بالمسيح، رغم كل شيء، كان يحدث كل يوم أحد بعد آخر منذ أن أُدخلت المسيحية إلى البلد، فإننا لم نفهم المسألة لأن الاعتراف بالمسيح مطابق في الحقيقة لكون المرء مقلِّداً، وإلّا يكون من نوع المقلِّد الأنيق المزيَّن الذي يحقق ربحاً للشركة، مقدِّماً المسيح على أنه شخص عانى قبل قرون عديدة. كلا، فأن تكون مقلِّداً هو أن تجعل حياتك مثل حياته بقدر ما يكون ذلك في وسع البشر. ولذلك فإن ما يحتاج إليه الزمن هو ليس مينستر أو مارتنسن أو غروندتفيغ أو أياً من أصحاب الدكاكين الكنسية الآخرين بل على العكس. فإن ما يحتاج إليه الزمن هو شاهد، أو مخبر، أو جاسوس أو ما تشاء أن تسميه، شخص، بطاعة غير مشروطة - وطبقاً للطاعة غير المشروطة بكونه مضطَهَداً، بمعاناته، بموته - يُبقي النظام القائم في حالة ترقب.

لا نحتاج إلى القراءة بين السطور في هذا التوصيف الوظيفي لكي نرى إن الشخص الذي ينطبق عليه الإعلان هو شهيد. وإذا كانت هناك أي شكوك متبقية فإن النص يوفر معلومات إضافية: كل شيء يجهز معيار القياس للامشروطية

يكون بحكم ذلك هو التضحية. وهكذا ينبغي ألا يكون هناك أي شك في ذلك. وتصبح الأمور موضع شك أكبر، بالطبع، إذا أمعنا التفكير قليلاً في هذا الإعلان لأنه رغم إن فكرة ضد - كليماكس فكرة ماكرة تماماً فإن مثلبة صغيرة واحدة تعتورها: الطريقة الوحيدة التي يمكن تطبيقها في الممارسة هي في الحياة الحقيقية - ويكون الموت نتيجة تطبيقها.

المشكلة ليست مَنْ ينبغي أن يُعدَم فحسب بل ليس مؤكداً مَنْ سيكون الجلاد أيضاً. وهذا ما يصبح واضحاً في هذا الشطر من الحوار: أسمع أحداً يقول «كم هو لا معقول، كم هو لا معقول. إذ من المحال بالطبع إننا جميعاً يمكن أن نصبح شهداء. وإذا أُريد لنا جميعاً أن نصبح شهداء وأن نُعدم فمَنْ سيعدمنا؟» على ضد - كليماكس أن يعترف بأنه عندما تُطرح المسألة على هذا النحو فإن تناقضات ذاتية سرعان ما تظهر. وهو يعترض بأن هذا، مع ذلك، لا يعني إن الفرد لا يستطيع أن يأخذ على عاتقه أن يصبح شهيداً. وهذا صحيح تماماً، لكنه لا يحل المشكلة إذا لم يرد أحد على الإعلان عن طلب شهداء. وضد - كليماكس نفسه يقول شكراً ولكن كلا شكراً بتعليق مبهم إلى حد ما مؤداه إنه لا يملك إلا معرفة شكلية محضة بالأسرار الوجودية وهو لذلك ليس ملزَماً في الحقيقة بتنفيذ المناورة.

ماذا إذاً؟ حسناً، لا شيء أكثر إذاً، أي لا شيء إذا ارتكز المرء في موقفه على العبرة الأخلاقية التي يختتم بها القسم الأول من الممارسة في المسيحية حيث يُقال الآتي: وماذا يعني هذا كله؟ إنه يعني إن كل فرد، بجوانية هادئة أمام الله، يجب أن يتواضع إزاء كونه مسيحياً بأضيق معنى للكلمة ويعترف بصدق أمام الله أين يقف، لكي يبقى من الجائز أن يتلقى عن جدارة النعمة التي تُقدَّم إلى كل كائن ناقص - أي إلى الجميع. ثم لا شيء أكثر: إذاً، لما تبقى، أن يهتم بعمله، سعيداً به، وأن يحب زوجته، سعيداً بها، وأن يربي أطفاله فرحاً بهم، وأن يحب أقرانه البشر، وأن يبتهج بالحياة. وإذا كان مطلوباً منه أي شيء آخر فمن المؤكد أن الله سيُعلِمه به، وفي هذه الحالة يساعده على المضي قُدماً. فكرة الاعتراف هذه موجودة أيضاً في شعار أُعد في حزيران/ يونيو 1849 لاستخدامه بالارتباط مع كتاب الممارسة في المسيحية، كتبه كيركغارد لكنه لم يستخدمه قط: لا أشعر إني قوي بما فيه الكفاية لأن أتشبه بك وبعملي هذا أموت من أجلك أو من أجل قضيتك. أكتفي بشيء أقل، بشكرك متعبداً لأنك ستموت من أجلي.

وهكذا فلا شيء أكثر. هذا كل شيء - في الوقت الحاضر على الأقل. وبفضل هذه الإمكانية لتقديم اعتراف، يجوز للفرد أن يستمر في العيش كنسخة من القاضي وليام مع وعي كاذب مستنير. إما العادية أو الاستشهاد - هذه هي العبرة الأخلاقية من الحكاية. ولذلك يبدو الأخلاقي، أكثر من أي شيء آخر، شديد الشبه بشيء لا أخلاقي مثل النفاق بقدر ما إن كتاب الممارسة في المسيحية، من بدايته إلى نهايته يصف حركة طويلة واحدة باتجاه التهميش. واعتراف الفرد الداخلي ليس كافياً لإبطال كل هذه الخطط الماكرة عن كون المرء شاهداً وجاسوساً وما شاء المرء أن يسمي الشهيد - ولا سيّما وإن هذه الخطط كانت قيد الإعداد منذ زمن طويل، وسيكون انقطاعاً غريباً في المسار إذا أُلغيت هذه الخطط الآن بفعل العبرة الأخلاقية في كتاب الممارسة في المسيحية.

ولكنها لم تُلغ، لأنه في حين أن القارئ ربما يكون مكتفياً (على حد تعبير غروندتفيغ) بحياة متواضعة، صميمية، نشيطة في الدنيا مع زوجته وأطفاله الصغار الذي أُحسنت تربيتهم، فإن كيركغارد مضى ينتقد الجوانية بوصفها مخبأ النفاق. وكان من نتائج ذلك أيضاً إجباره على إعطاء تبرير واسع النطاق وأحياناً إشكالي لموقفه اللاهوتي تجاه لوثر الذي، رغم كل شيء، جعل الجوانية الخالصة مبدأه الروحي الأعلى، مبدأ يمكن، بحسب كيركغارد، أن يصبح خطيراً إلى حد بعيد بحيث من الجائز أن نهبط إلى أدنى مستويات الوثنية قطعاً وبكل تأكيد.

كان نزاع كيركغارد مع زميله في الإصلاح الكنسي يتصل بالعلاقة بين الإيمان والأعمال، ولذلك ترك أثره بصفة خاصة في سلسلة من الأسئلة عن مكانة الجوانية في عالم متعلمِن حديث حيث لم تعد المسيحية قلباً فاضحاً لكل القيم البورجوازية بل مخفية على نحو غير مرئي في الفرد الأوحد - أو الأرجح، ملغاة في الكثيرين! واخترع لوثر الفكرة القائلة إن المسيحية موجودة لتوفير طمأنة، كما كتب كيركغارد المتمرد في عام 1854 عندما اقترح أيضاً بديله غير المطمئِن: إذا كان العهد الجديد يقرر ما يعني أن يكون المرء مسيحياً حقيقياً... سيكون من المحال على المرء أن يكون مسيحياً حقيقياً بصمت بقدر استحالة إطلاق مدفع بصمت.

1851

ذلك السطر الذي كُتب عن غولدشمدت كان مصيرياً

كان كيركغارد يعرف جيداً إنه ذهب بعيداً بكتابه الممارسة في المسيحية، وتخيل إن مينستر ربما سيوبخه بغمز خفيف من قناته في إحدى المواعظ. وقد كان مخطئاً في ذلك. إذ اختار الأسقف تكتيكاً آخر. وفي منتصف آذار/ مارس 1851 انخرط مينستر في النقاش حول الزواج المدني بمقال يقع في خمسين صفحة عنوانه مساهمات أخرى في المفاوضات حول العلاقات الكنسية في الدنمارك، أُرسلت نسخة منه إلى كيركغارد الذي ذكره في المقال مرتين. فقرأه كيركغارد على الفور ورأى نفسه مذكوراً بوصفه كاتباً موهوباً. وبطريقة ما كان ذلك لطيفاً ولكن ما لم يكن لطيفاً أن مينستر قبل أسطر قليلة على ذلك لمَّح إلى غولدشمدت. صحيح إن مينستر فعل ذلك بصورة غير مباشرة وفي خاطرة جانبية لكنه لمَّح إلى غولدشمت حين كتب: من بين المظاهر [بالدنماركية: Fremtoninger] الموفَّقة - ونحن نعتمد هذه المفردة من أحد أكثر كتابنا موهبة - التي تبدت خلال هذه المفاوضات، إلخ... وكانت هذه الكلمة التي تفيد معنى المظهر مفردة جديدة في اللغة الدنماركية ولذلك جيَّر مينستر فضل نحتها إلى غولدشمدت ليس بذكر اسمه وإنما بمجرد الإشارة إليه على أنه واحد من أكثر كتّابنا موهبة.

لعل ذلك أمر لا أهمية له. ولكن صغائر الأمور ليست دائماً أكثرها تفاهة. وغولدشمدت لم يكن بكل تأكيد شخصاً اعتيادياً مثل أي شخص. فهو كان رئيس تحرير مجلة كورسارن. وبعد بيع المجلة في تشرين الأول/ أكتوبر 1846 سافر في جولة واسعة متأخرة بعض الشيء، ومنذ عودته عمل رئيس تحرير وناشر مجلة الشمال والجنوب التي أسسها في كانون الأول/ ديسمبر 1847.

وحاول غولدشمدت بهذه النشاطات أن يضع خطايا ماضيه وراءه، ولكن عندما قرأ كيركغارد المقال في العدد الأول من مجلة الشمال والجنوب حيث نشر غولدشمدت إعلاناً برنامجياً لمقاصد المجلة الجديدة، رأى إن كاتبه يوحي بأنه مرشح لسر الميرون يحفظ دروسه عن ظهر قلب لكنه أبعد من ذلك ليست لديه أدنى فكرة عما يجري: يا له من فارق عجيب بين غولدشمدت الصلف الذي احتمى وراء جدار من القابلية الممتازة للازدراء وغولدشمدت الضئيل ثقيل الدم والمعتد بنفسه، كما عندما ترى شخصاً بدأ بوصفه الأسد الأول في الحانات والخمارات الواطئة المشبوهة، يظهر في مجتمع أرستوقراطي واقفاً هناك يعدِّل ربطة عنقه. فالوغد يبقى وغداً، كما كان كيركغارد مقتنعاً قناعة تامة: غولدشمدت – الذي كان أداة الازدراء، هو الآن العفيف، المختال! الذي كان دجالاً بابتسامة هو الآن العالِم بالأخلاق! الذي كان يختفي وراء الأوغاد، حبيب الدهماء – هو الآن الأرستوقراطي، الأرستوقراطي الراقي كل الرقي، يجالس البارونات والكونتات على وليمة العشاء – ولكنه هو نفسه رغم كل هذه التحولات.

هنا كان كيركغارد، دون أن يعلم، متفقاً للمرة الأولى والأخيرة مع بي. أيل. مولر الذي قبل فترة قصيرة على مغادرته الدنمارك بصورة نهائية، التقى غولدشمدت (وأشبعه احتقاراً على انتهازيته). وفي العدد الأولى من مجلته الشمال والجنوب امتدح غولدشمدت، اليهودي، إنجازات المسيحية التاريخية بكلمات متوهجة، وهنأه مولر الذي كان في مزاج عكر بصورة غير اعتيادية ذلك اليوم، تهنئةً ساخرة قائلاً إن الأسقف سيجازيه بكل تأكيد بل إنه ربما سيُطوَّبه ليحج المؤمنون إلى المرقد الذي يضم عظامه ذات الروح المسيحية كما هو واضح. وقال مولر في سورة غضبه إن غولدشمدت بتخليه عن مجلة كورسارن إنما خذل نفسه. وجادل مولر بأن غولدشمدت ليس لديه ميل طبيعي على الإطلاق للقيام بأي دور إيجابي في الحياة العامة. وكما تذكر غولدشمدت لاحقاً كلمات مولر فإن الطبيعة اليهودية الآكلة كانت تتطلب كراهية، وفي الكراهية كانت قوتي. ورغم إن كلمات مولر (بحسب غولدشمدت) كانت خالية من أي أثر لكراهية مبتذلة ضد اليهود فإن الاثنين بالكاد تمكنا من تجنب الافتراق عدوين.

وهكذا كانت الكلمات التقديرية عن غولدشمدت التي نشرها مينستر

في عام 1851 تحقيقاً لنبوءة مولر من عام 1848 لكنها بنظر كيركغارد كانت استفزازاً محسوباً كذلك لأنها أعطت موافقة ضمنية على المعاملة البهيمية التي لاقاها من مجلة كورسارن قبل سنوات. ومع ذلك فإن مفردة مظهر لم تكن مفردة بديعة إلى ذلك الحد! وكان بمقدور مينستر أن يكتب ظاهرة إذا أراد. ولكنه لم يفعل بل كتب مفردة مظهر ولم يكتبها إلا ليتمكن من حشر غريمين قديمين في جملة واحدة.

وبلمح البصر كانت هناك كثرة من الفقرات في اليوميات تتناول المقارنة سيئة الصيت مع غولدشمدت، وهناك قدر من الحقيقة في الزعم القائل إنّ مينستر بنشر مقاله دشن فضيحة ثانية مع مجلة كورسارن. كما لم يكن لدى كيركغارد شك في العواقب المترتبة على تعليق مينستر، بالمفردات الإنسانية واللاهوتية: ذلك السطر الذي كُتب عن غولدشمدت كان مصيرياً. (1) إنه قدم بصيرة حزينة عن الجانب الشرير من مينستر. (2) إنه أعطاني على وجه التحديد الدليل الملموس ضد مينستر الذي يتعين أن أمتلكه إذا أردتُ الهجوم. وكنتُ أدرك منذ زمن طويل إن شخصه الكامل كان أقرب إلى الدنيوية... ولكن هذه الحقيقة الواضحة تشي بالأمر كله.

في 2 أيار/ مايو 1851، بعد أسابيع عديدة من التأملات المتلوّية، أجرى كيركغارد حديثاً مع مينستر قبيل جولة زياراته السنوية. في البداية تحدث الاثنان قليلاً عن الوضع السياسي الراهن. ثم تطرق كيركغارد إلى استخدامه التكتيكي لشخصية ضد - كليماكس التي قال إنه من دونها ما كان ليستطيع أن ينتقد رودلباخ. واتفق مينستر على أن الأمر كذلك. وكرر كيركغارد بأنه أياً يكن رأي مينستر بعمله الممارسة في المسيحية فإن الكتاب كان ويبقى دفاعاً عن النظام القائم. ثم فجأة وجَّه كيركغارد الحوار نحو مقال مينستر وقال بصورة مباشرة إن السبب في أنّه لم يشكره عليه هو إن الكتاب يتضمن شيئاً لا يستطيع أن يقبله، أي ما يتعلق بغولدشمدت. أُخذ مينستر بذلك على حين غرة إلى حد ما وحاول أن يهوِّن الأمور شارحاً لكيركغارد أن كون المرء صاحب نبوغ أروع بكثير من كونه صاحب موهبة.

الأكثر من ذلك كان رأي كيركغارد أن المديح الذي كاله مينستر قد يُفهَم على أنه بمثابة وضع ختم الموافقة الأسقفية على سلوك غولدشمدت، وذكَّر

مينستر بأن لديه أعداء ربما يستغلون عدم حيطته. وأصر كيركغارد المرة تلو الأخرى على أنه حريص بصفة خاصة على سمعة مينستر وألا يلحق أي ضرر بها - يجب ألا يُنسى إن غولدشمدت خبير في إثارة الفتن. وكان على مينستر أن يطالب غولدشمدت بنشر تراجع عما قاله، وللأسباب نفسها، الآن بعد أن مدحه مينستر، فإن غولدشمدت ينبغي أن ينبذ نشاطاته السابقة بصفته رئيس تحرير. ثم قلتُ له «قد يبدو غريباً لك أن يتحدث شخص شاب بهذه الطريقة مع شخص أكبر منه ولكن مع ذلك ستسمح لي بهذا وتدعني أُعطيك نصيحة: إذا كان هناك أي شيء فيَّ لستَ راضياً عنه، وإذا أردتَ أن توجه لي صفعة فليكن. فأنا أستطيع أن أتحمل ذلك بكل تأكيد، وسأحرص قطعاً على ألا تتأذى أنتَ من جراء ذلك. ولكن، في المقام الأول، لا تفعل ذلك بطريقة بحيث تتضرر سمعتك بسببها. إن سمعتك هي التي تهمني». وكان كيركغارد متلهفاً على أن يستوعب مينستر هذه النقطة، وانحنى عبر الطاولة وكتب كلماته عملياً على الشرشف لكيلا تكون لدى مينستر أي شكوك فيما يعنيه، وفي الوقت نفسه حرص على إعطاء الأسقف فرصة إبداء بعض التعليقات التي تكون إشارات إلى أنه فهم ما قاله كيركغارد. كان ذلك كما لو إن كيركغارد يخاطب نفسه بنفسه، كما لو إن مينستر ظله، رديفه.

ختم كيركغارد بالقول - من نواحي أخرى، كان حديثي ينضح بكل الإخلاص له الذي جاءني من والدي. وفي التفاتة غير معتادة بعض الشيء من كيركغارد دردش قليلاً كذلك عن عائلة مينستر وزفاف ابنته الوشيك. وكان مينستر، الذي عموماً يتمنَّع كلما يثير كيركغارد موضوع القيام بزيارات في المستقبل، منفتحاً معظم الوقت على غير عادته في ذلك اليوم، وقال لكيركغارد إنه دائماً موضع ترحيب. وافترق الاثنان بكل ود: له حقاً كل إخلاصي رغم إنه لن يكون مجدياً بالطبع أن أُعلن مدى إخلاصي له منشوراً، فذلك لن يكون مفهوماً على الإطلاق. ليس من السهل أن يحب المرء شخصاً آخر.

ولكن في الهامش المقابل لهذه الفقرة من اليوميات أضاف كيركغارد بعض السطور التي تجعل من الواضح إن هذا الإخلاص بدأ يتبخر. لأن كيركغارد فكر في هذا التعليق الهامشي إن كان مينستر في الحقيقة يريد مع ذلك إهانتي بوضعي في خانة واحدة مع غولدشمدت. وفي الحقيقة عندما وصل الحديث إلى حيث ألح كيركغارد على مينستر أن يحمل غولدشمدت على نبذ ما فعله في الماضي، ردِ مينستر بأنه في هذه الحالة سيتعين عليه بالطبع أن يقرأ أولاً

كل كُتب غولدشمدت من الغلاف إلى الغلاف. نعم، ولكن كُتبِ غودشمدت ليست المشكلة!، كما كاد كيركغارد أن يهتف. فهو لم يكن يفكر في الكتب بل في حقيقة إن غولدشمدت كان على امتداد ست سنوات رئيس تحرير مجلة كورسارن وبصفته هذه أسهم في إيذاء كيركغارد اجتماعياً. وإما إن مينستر كان ساذجاً بالكامل عندما قال هذا الهراء عن قراءة كل كتب غولدشمدت أو إنه كان كلبياً يستمتع بثمار السطوة من خلال التظاهر بكونه متعاطفاً. ولم يستطع كيركغارد أن يُفكر في احتمال ثالث، وكان تقييمه للموقف دراماتيكياً: ربما يراهن مينستر على كوني ضعيفاً بحيث لا أتمكن منفرداً من الهجوم على النظام القائمة بأكمله. ولكن عليه أن يحذر... فأنا لستُ ضعيفاً بحيث لن أُهاجم... وسيكون بمقدوري أن أفعل ذلك بطريقة تدفع مارتنسن وباولي إلى الميل إلى جانبي. ورغم الصدود الذي لاقاه كيركغارد فإن إخلاصه لمينستر لم يفقد شيئاً من حرارة العاطفة عندما تحول إلى كراهية: كما أفهم الموقف الآن، يجب أن أنظر إلى الأسقف مينستر على أنه أخطر خصومي وألدهم.

جرت زيارة كيركغارد التالية لمقر سكن الأسقف في 9 آب/ أغسطس 1851. وكان مينستر عاد مؤخراً من رحلة دينية استطاع خلالها أن يطَّلع على الأمور بنفسه ويكوِّن انطباعاً مباشراً عن الوضع الكهنوتي والرعوي في البلد، الذي كان في بعض الأماكن وضعاً مزرياً تماماً. وأرسل كيركغارد إليه نسخاً من خطابان للتناول أيام الجمعة وعن عملي كاتباً اللذين نُشرا كلاهما في 7 آب/ أغسطس، قبل يومين فقط، وبذلك كان قادراً على دخول المسرح بملاحظة جسورة: مرحباً بعودتك من رحلة زياراتك. سماحتكم بالطبع زارني أنا أيضاً [في] الكتابين اللذين أرستهما لك. كان هذا تعليقاً جريئاً يقرب من الوقاحة، ولكن مينستر في الحقيقة زار كيركغارد فعلاً - وليس في كتاب خطابان الذي افترض كيركغارد إنه قرأه وإنما في عن عملي كاتباً. وعلق مينستر قائلاً نعم، هناك خيط يسري فيه كله، لكنه نُسج بعد وقوع الحدث - وإن كنتَ أنتَ نفسك تقول ذلك. ورد كيركغارد بأن ما هو جدير بالملاحظة على الأخص إنه على امتداد كل هذه السنين وكل الأعمال، نذرتُ نفسي [حصراً] لشيء واحد ولم يَحِدْ قلمي عنه قط، ولا حتى مرة واحدة. واعترض مينستر قائلاً إن عمل كيركغارد مراجعة أدبية يمكن على الأرجح أن يوصف بأنه مثل هذه الحِيدة ولكن كيركغارد لن يعلق على ذلك لأن الظروف التي أُحيطت بذلك العمل شُرحت أصلاً في عن

عملي كاتباً. الفكرة التي كوَّنتها حينذاك عن مينستر إنه إجمالاً تأثر بالكتاب الصغير ولذلك خانته الكلمات.

رغم الإطراء الطفيف كان الجو إيجابياً. وكان مينستر مسروراً وراضياً، الأمر الذي كان محل ترحيب بصفة خاصة لأن كيركغارد كان يتطلع بصدق إلى الحديث معه اليوم كان ذكرى وفاة والدي، وأردتُ أن يكون كل شيء كما يجب في هذا اليوم. وروى ذلك لمينستر الذي يبدو أنّه لم يعرف كيف يفسر هذا الشعور ولكن الحديث كان مع ذلك ودياً للغاية وليس من دون عاطفة. ورغم ذلك لم يمتنع كيركغارد عن أن يقول مرة أخرى بضع كلمات أعربتُ فيها عن اعتراضي على ما قاله بشأن غولدشمدت في آخر كُتبه، وهو شيء شعرتُ على الأخص بضرورة ذكرِه لأني أبديت قدراً كبيراً من الإخلاص له. ثم افترقنا، هو بعبارته المعهودة «الوداع يا صديقي العزيز».

هذا الحديث إذا لم يكن آخر حديث أجراه كيركغارد مع مينستر فإنه في كل الأحوال آخر حديث رواه باستفاضة - الصدام الممكن مع مينستر - في منتصف 1852. وكتب كيركغارد إنه، رغم كل اختلافاتهما في الرأي، كان مخلصاً [المينستر] بعاطفة وسْواسِيَّة وعلى نطاق لم يشك فيه قط. وما كان بالوسع صوغ ذلك بتعبير أفضل - عاطفة وسواسِيَّة.

لعل العاطفة المتناقضة التي شعر بها كيركغارد انعكست إلى حد ما بعاطفة مماثلة من جانب مينستر. وذات مرة، عندما انزعجتْ فاني زوجة مينستر من زيارات كيركغارد التي لا تنتهي ونصحت زوجها بألا يستقبل الضيف الثقيل في مثل هذه الأحيان الكثيرة، أكتفى مينستر بالقول، أوه، حسناً، دعيني أخرج للقائه - فهو قد يكون الشخص الوحيد الذي يحبني حقاً. وكان مينستر قادراً على تحسس قربه العميق من كيركغارد الذي بدوره، حتى بعد أكثر اللقاءات إنهاكاً، لم يكل قط عن ترديد لازمته: ومع ذلك أُحب الأسقف مينستر. أُمنيتي الوحيدة هي أن أفعل كل ما بمقدوري لتعزيز سمعته، لأني أُعجبتُ به، ومن الناحية الإنسانية، ما زلتُ معجباً به. وكل مرة أستطيع أن أفعل فيها شيئاً ما لمصلحته أتذكَّر والدي الذي أعتقد أنّ ذلك يغبطه.

في فقرة من اليوميات بتاريخ 29 حزيران/ يونيو 1855 - بعض المعطيات التاريخية عن علاقتي بالأسقف مينستر - يقدِّم كيركغارد نصاً مضغوطاً: خلال

السنة الأخيرة نادراً ما كنتُ أراه. والمرة قبل الأخيرة التي تحدثت فيها معه كانت بعد فترة قصيرة على يوم السنة الجديدة، عندما خرج إلى غرفة الانتظار وقال بحضور موظفين إنه لا يستطيع التحدث معي، وإنه مشغول جداً وعينيه كليلتان. ثم كانت المرة الأخيرة التي تحدثتُ فيها معه في وقت ما من أوائل الصيف. وكان حديثاً طويلاً، وحياً بصورة غير اعتيادية. وعلى غير عادته تبعني طول الطريق خارج مكتبه إلى غرفة الانتظار، وهو لم يزل يتحدث معي. وحين غادرتُ قلتُ لنفسي «هذه ستكون المرة الأخيرة». وقد كانت المرة الأخيرة.

من المتعذر تحديد التواريخ الدقيقة لهذين الحوارين الأخيرين لأنه بعد فترة قصيرة على يوم السنة الجديدة يمكن أن تشير إلى عام 1852 أو عام 1853، كما عبارة في وقت ما أوائل الصيف. ولم يروِ كيركغارد في أي موضع فحوى الحديث الحي ولكننا قد نجيز لأنفسنا أن نظن بأنه أذاق مينستر عينة من الهجوم الذي كان يغلي في يومياته منذ زمن طويل، لكنه لم يُشن رسمياً إلا بعد وفاة مينستر ودفنه. ورغم ما كان من انفصام في علاقتهما فإن كيركغارد استمر مع ذلك في الحضور إلى الكنيسة عندما يلقي مينستر موعظته – كل مرة يلقي موعظة – باستثناء موعظته الأخيرة في كنيسة القلعة يوم 26 كانون الأول/ ديسمبر 1853. ولم يكن غياب كيركغارد عن الكنيسة في ذلك اليوم بسبب المرض أو إنه مُنع من الحضور لأي سبب آخر بل إن كيركغارد ذهب في ذلك اليوم إلى كنيسة روح القدس للاستماع إلى موعظة إي. في. كولتهوف لأنه أراد الخروج عن تقليد الوالد.

في أحاديثهما كان مينستر كثيراً ما يقول إنها ليست مسألة مَنْ هو الأقوى بل مَنْ يصمد فترة أطول. وكان كيركغارد متفقاً من حيث الأساس مع هذا الشعور. كما لم يكن لديه شك بشأن النتيجة المتناقضة للمعركة. أن أكون أنا مصيباً فإن هذا أمر يعرفه الجميع، في قرارة أنفسهم – بمن فيهم الأسقف مينستر، وألا أنال حقوقي فإن هذا أمر يعرفه الجميع – بمن فيهم أنا.

كيركغارد في كنيسة القلعة

قدَّم حدث صغير وقع وسط زيارات كيركغارد المتعددة لبيت مينستر وتأملاته اللاهوتية، دليلاً لافتاً على المسافة بين مبادئ كيركغارد وشخصه، الهوة بين المَثَل الأعلى الذي يعتز به والواقع المادي لجسده. وكان كيركغارد

ألقى موعظة في مناسبتين خلال قداس التناول يوم الجمعة في كنيسة سيدتنا، وهذه المرة - يوم الأحد، 18 أيار/ مايو 1851 - سيلقي موعظة في كنيسة القلعة. وفكر في اغتنام المناسبة لقراءة إحدى مواعظ مينستر بصوت عالٍ مدللاً بذلك على إن التثقيف أمر يختلف تماماً عن إمكانية الاهتمام المدفوع بالفضول. ولو نفذ نيته لاغتنم الفرصة أيضاً كي يقول بضع كلمات عن العادة الإنكليزية المفيدة التي تقتضي بأن تُقرأ المواعظ من نص جاهز (لأن الكلام العفوي يمكن بسهولة أن يمارس تأثيراً مُسكراً ويُسكر الواعظ نفسه) وعن التأثير المفيد لقراء موعظة أحد آخر بصوت عالٍ، يذكّر الخطيب بأنه هو أيضاً مُخاطَب. وكنتُ سأقول أيضاً بضع كلمات تثقيفية عن أهمية موعظة مينستر لي أنا، الأمر الذي ورثته من والدي.

لكنه صرف النظر عن الفكرة وقرر بدلاً من ذلك أن يلقي موعظة عن نصي الأول، نصي الحبيب، إنجيل جيمس الأول. وهذا هو النص الذي يتحدث عن كل هبة طيبة ومُثلى تأتي من أعلى، تنزل من أب الأنوار الذي لا تغيير فيه ولا ظل تغيير. واستخدم كيركغارد هذا النص أساساً للخطاب الثاني من عمله خطابان تثقيفيان من عام 1843 وكذلك لخطابيه الثاني والثالث من عمله أربعة خطابات تثقيفية من عام 1843 أيضاً، ولذلك فإنه عندما سمى النص نصه الأول لم يكن ذلك من دون سبب. وعندما سماه أكثر من ذلك نصه الحبيب فإنه كان يشير إلى أهمية النص الخاصة خلال فترة خطوبته. زد على ذلك إنه أقر (إني أعترف) بأنه كان يفكر فيها عندما اختار هذه الإصحاحات من إنجيل جيمس لتكون نص موعظته يوم ذلك الأحد في كنيسة القلعة - في الحقيقة راوده الأمل الضئيل بأن تأتي ريجينة إلى الكنيسة في ذلك اليوم، إذا كان سيغبطها الاستماع إليَّ. وفي 3 أيلول/ سبتمبر 1855، عندما نشر الموعظة بعنوان طبيعة الله التي لا تتغير فإن المقدمة الموجزة - بتاريخ 5 أيار/ مايو، عيد ميلاد صاحبها - قالت لنا بواقعية متى أُلقيت الموعظة. ولكن في المسودة الأصلية روى كيركغارد قصة مختلفة تناولت ريجينة بطريقة إيروتيكية لا تقبل الخطأ: أستطيع أن أُسمِّي هذا النص حبي الأول - الذي إليه يعود المرء دائماً بطبيعة الحال.

فكرة التطرق إلى ريجينة أمام المصلين لم تجعل كتابة الموعظة سهلة: مسبقاً عانيتُ كل صنوف التوتر كما هي الحال دائماً عندما يتعين عليَّ أن أستخدم شخصي الجسدي. وفي الصباح قبل موعظته ابتهل إلى الله أن يلد

في داخله شيء جديد، وانشغل بالفكرة القائلة بأنه مثلما يربي الآباء أطفالهم ويقودونهم إلى سر الميرون فإن القداس الوشيك هو نوع من سر الميرون يقوده إليه الآن أبوه في السماء.

في اليوم التالي على إلقاء موعظته شعر الواعظ ذو الثمانية وثلاثين عاماً بالوهن حتى إنه وعد نفسه بألا يرتقي المنبر مرة أخرى أبداً: أُلقيتْ بشكل معقول ولكن صوتي كان ضعيفاً حتى إن الحاضرين شكوا لأنهم كانوا لا يسمعون... وفي يوم الإثنين كنتُ واهناً وضعيفاً بحيث كان الأمر مخيفاً... ثم أصبحت مريضاً بحق. وكان أحد الموجودين في كنيسة القلعة في ذلك الأحد بيتر كريستيان تسالة، وهو كاتب ولاحقاً قس أيضاً، ولم يتذمر بأي بشكل من صوت كيركغارد بل على العكس: لن ينسى مَنْ سمعه يعظ ذلك الصوت الضعيف إلى أقصى الحدود لكنه معبِّر بشكل رائع. ولم أسمع قط صوتاً بهذه القدرة على تصريف حتى أكثر ظلال التعبير شفافية.

وبالفعل، بعد انتهاء القداس مباشرة شعر كيركغارد بحال حسنة، بل بالانتشاء تقريباً ولكن خططه لإعداد عدة مواعظ وإلقائها خلال الصيف بدت غير واقعية له، لأنه أدرك إن هذا الأمر يتطلب قدراً غير طبيعي من الوقت. وبدلاً من ذلك فكر إنه ربما يستطيع الوعظ بارتجال دون نص مكتوب، الأمر الذي لن يوفر عليه الوقت فحسب بل سيمنحه الفرصة للتشديد بصورة مطلقة على قضايا وجودية. ولكن كلما كان يدفع هذه الفكرة بقوة كان يزداد ضعفاً: حينذاك فهمتُ الأمور بشكل مختلف، بأني كنتُ أريد مرة أخرى أن أُغامر أبعد من حدودي. والآن أسترخي في هذه الفكرة: «تكفيك نعمتي» [انظر رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس، 12: 9]. ومهمتي هي الاستيعاب الداخلي.

بريد المعجبين

كانت فريدريكا بريمر وصفت كيركغارد بأنه كاتب سيدات، وهو توصيف جعله ينخر بازدراء ولكن عندما نقرأ الرسائل التي وصلت رداً على موعظته في كنيسة القلعة، نجد من المغري أن نخلص إلى أن هناك بالفعل شيئاً في توصيف بريمر. والخطابية الإيروتيكية التي كانت مقصودة باتجاه ريجينة كان لها تأثيرها في آخرين أيضاً. وكانت هناك، على سبيل المثال، رسالة بتاريخ 21 أيار/ مايو من مس e-e سمَّت نفسها قارئة ومستمعة ممتنة. سمعتُ إنك كيّس

وودود مع الشباب ومتسامح مع مَنْ ضلوا الطريق، ولذلك أتوجه إليك، حسبما اعترفت e-e التي لم تتردد في سرد قصة حياتها لمتلقي رسالتها. وعملاً بروح العصر الغبية فإنها أغفلت منذ زمن طويل أن تأخذ الله على محمل الجد. ولكن سرعان ما اتضح إن ذلك كان خطأ جسيماً. لذلك سعت إلى السلوى في الصلاة ولكنها مع ذلك لم تشعر إن الله سينصت إليها. وعندما ذهبت إلى الكنيسة لم تتمكن من أن تلم شتات أفكارها وظلت تركز على موعظة القس، كما وجدت من الصعب أن تجد راحة البال في الكتابات الفلسفية المتوفرة. قرأتُ «إما/ أو» بإعجاب شديد وحاولت أن أستعير العديد من أعمالك لأن شراءها فوق قدراتي. وحصلتُ على خطابات مسيحية من عام 1848، التي لم تكن ما أردته ولكني قرأتها - والآن لا أستطيع أن أشكرك ما فيه الكفاية! وجدتُ فيها نبع الحياة الذي لم يخذلني منذ ذلك الحين. وتوسعت مس e-e في ذلك باستفاضة لكنها حينذاك وصلت إلى مقصدها: يوم الأحد الماضي كنتَ مسجَّلا بوصفك الواعظ في كنيسة القلعة. وماذا كان بوسعي غير السير إلى هناك؟ ولم يخب ظني. لم تكن من تلك المواعظ التي كثيراً ما سمعتها ونسيتها قبل أن تنتهي. كلا، كان الكلام يصدر من قلب دافئ، كريم، مخيف لكنه تثقيفي ومطمئِن أيضاً، يخترق القلب، حيث لن يُنسى أبداً وإنما يحمل ثماراً أزلية، غنية بالبركة. وفي النهاية لاحظت مس e-e إنها ستعتبرها هدية حب من شخص أغدق الله عليه كل ثروات الروح، إذا نحى كيركغارد هويته المجهولة جانباً بإعلان نفسه أكثر من مجرد خريج لاهوت وبتقديم إشعار مسبق بموعد كلامه في العلن. ويُفهم من طلب e-e إنها لم تقرأ عدد 17 أيار/ مايو 1851 من صحيفة أدرسيفيسن لأن قائمة الوعاظ المنشورة في تلك الصحيفة لليوم التالي، الأحد الرابع بعد عيد الفصح، تضمنت القلعة، مستر ماجستير أس. كيركغارد، الساعة 9: 30 صباحاً.

معجبة أخرى أيضاً كتبتْ رسالة بتاريخ 12 أيار/ مايو. وكانت هذه مس .S. F. التي سوَّدت أربع صفحات متراصة السطور بحماسة لم يعهد كيركغارد نظيراً لها من قبل. واستماحته المعذرة لأن امرأة مثلها تجرأت على وضع قلم بيدها. ولو كانت رجلاً وبالتالي قادرة على التفكير والكتابة بتماسك لأمكنها بالطبع أن تنشر شيئاً عنك وما كنتُ لأحتاج إلى التطفل على خصوصيتك. وكانت تتصل به لأن شُكرها الشخصي لك ليس شأن أحد آخر. ولكنها وعدت بأن هذه ستكون المرة الأولى والأخيرة التي تكتب فيها رسالة إليه، وإذا أحرقتَ هذه

فور الانتهاء من قراءتها فإنك بالكاد ستلاحظها. وأمضت المرأة يوماً لا يُنسى في كنيسة القلعة. بالنسبة لي كان اليوم يوم تثقيف مقدساً، وأحسبُ إن كثيرين آخرين شعروا كما شعرتُ، حسبما كتبتْ مستخدمةً استعارة مغرية: عندما يكون الكأس ممتلئاً فوق الحد فإنه يفيض. ولكن عندما يكون قلب مسكين أكثر من ممتلئ فماذا يفعل؟ إنه يجب أن ينفجر أو، مثل الكأس، يفيض. وهذا ما يفعله قلبي الآن، لأني حقاً لا أستطيع، من دون خوف وارتعاش، أن أقترب من هذا الوضع الاستثنائي، حين أتجرأ، رغم منعك الصارم، على أخذ القلم والكتابة على الورق لكي أشكركَ - أوه، أيها الرجل المتميز - على الثروة اللانهائية التي أدين بها لك... لن آخذ الكثير من وقتك، أو من وقتي، بما أعرف إنك تعدّه مضيعة وقت وأكثر الأشياء النافلة نفلاً، لكني لا يمكن أن أموت قبل أن أقول لك إنك بلا مضارع على الإطلاق - وأعرف جيداً جداً إنك لا تفعل شيئاً سوى وضع الشخص في مكانه المناسب، شحذ رؤيته وتوسيع مجال رؤيته وإبهاج الروح بتمكنك من اللغة والأفكار - وإن الأشياء التي تعلنها ليست في الحقيقة اكتشافات جديدة من عندك بل وُجِدت بوصفها حقائق أزلية منذ - نعم منذ الأزل بطبيعة الحال. ولكن مع ذلك فإن أحداً لم يعلن لي هذه الحقائق قبل أن تعلنها أنت على هذا النحو بحيث كنتُ أستطيع سماعها (أسمعها بآذان روحي) - يجب أن يُسمح لي بالتأكيد أن أشعر بالامتنان لك، أنت الذي يوقظ أفكاري ويغنيها!... ثم هذا التهكم الساحر الذي يجعلك متفوقاً تفوقاً لا يوصف وله تأثير مُسكِر تقريباً في نفسي... كنتُ أظن إني أعرف ما يعنيه أن أضحك حتى قبل 1843 ولكن كلا، فقط حينذاك، عندما قرأت «إما/ أو» صارت عندي فكرة عما يعنيه أن يضحك المرء من صميم القلب، وفي الغالب كان من صميم قلبي أن توصلتُ إلى فهم عام لكل ما قُلتُه أنت... الآن يجب ألا تفكر إن الشيء الوحيد الذي تعلمتُه من هذه الكتب هو كيف أضحك. أوه، كلا، أرجوك أن تصدق إنك أيقظتني المرة تلو الأخرى لكي أرى نفسي وأفهم مهمتي بوضوح أكبر... لكني آمل أن تعترف بأنها ليست مهمة سهلة أن يغير المرء طبيعتِه المتأصلة كلها... الآن، إذا كنتَ تعتقد أنّي تمكنتُ من قول نصف معشار ما كان علي أن أقوله لك فإنك لعلى خطأ، ولكن عملاً بالأصول المرعية سأختِم موقِّعةً بسعادة وامتنان على أني من قارئاتك الوفيات، S. F..

قبل أن يكتمل شهران، في 12 تموز/ يوليو وصلت رسالة أخرى من معجبة.

اسمهما بيترونيلا روس، صماء وأمضت عدداً من السنين تعمل مدبرة منزل والد بول مارتن مولر ثم قررت أن تدخل ديراً من نوع ما، داراً لغير المتزوجات ذوات الأصول المحترمة في جزيرة فالستر. وعندما كتبت روس رسالتها كانت في كوبنهاغن تزور أخاها وهو كابتن في سلاح المشاة صادف كونه جار كيركغارد المباشر، وطلبت من كيركغارد أن يعيرها نسخة من كتاب خطابات مسيحية أو غيره من أعمالك التي لا تكون مستعجلاً جداً على إعادتها إليك. كما أرادت أن تتحدث مع كيركغارد الذي تتذكر شقيقه وزوجة شقيقه أليسا ماري (ماريا) بويسن (المتوفاة الآن من زمن طويل) من أيام شبابها. وكشفت لكيركغارد قائلة أنا أمنح عزلتي حياةً باختبار مهاراتي في الكتابة وإنها كتبت قصتين عن الحياة القروية في الريف ساعدها البروفيسور سيبَّرن على نشرها. ونشرهما سيبَّرن تحت عنوان قصص لقراء بسطاء ولكن للأسف خطرت له فكرة غير موفقة بالمرة بأن يستعيض عن اسمها الممتاز بالاسم المستعار البشع مس ديرغود. ولزيادة الطين بلة إن أخطاء مطبعية كثيرة وجدت طريقها إلى القسم النهائي من العمل. ومع ذلك، إذا كان كيركغارد راغباً في رؤية هذه القطع الصغيرة رغم التوصية الفاترة بعض الشيء بها، فإن نزيلة الدير الصماء ستكون سعيدة بإرسال نسخة إليه. وقرأتْ المعجبة مؤخراً عدة صفحات من عمل كيركغارد هموم التواضع التي وجدت هذه الهموم فيها هي قارئها المنشود: شكراً أيها الطبيب الطيب عن كل بارقة نور ألقيتها على الحياة المعتمة لأقرانك من الكائنات. وفي رسالة إلى سيبَّرن بتاريخ 5 تشرين الثاني/ نوفمبر 1851 تحدثتْ عن الفرح المتواصل الذي عاشته لدى قراءة كيركغارد - وإذا أصبح شديد التعقيد عليها فإنها كانت ببساطة تضع الكتاب جانباً وترتق جورباً بدلاً منه!

إيليا فيبيغر، الشقيقة الأكبر للنسوية الدنماركية ماتيلدا فيبيغر أيضاً كتبت إلى كيركغارد. وفي أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر 18851 طلبت بتواضع كبير أن يقرأ عدة مسرحيات كتَبَتها وأرسلتها إلى المسرح الملكي حيث قوبلت بالرفض. واعترفت بصراحة إنها ليست مثقفة بما فيه الكفاية لفهم كتابة كيركغارد. ولكنها عندما كانت تضع أحد كتب كيركغارد جانباً دون قراءته كانت تجد سلواها في الفكرة القائلة إنه لا بد أن يجد فهم الآخرين سهلاً مثلما إن الآخرين يجدون فهمه صعباً. كما طلبت راجيةً من كيركغارد أن يرسل المخطوطات بعد قراءة مسرحياتها مع رده إلى الشفرة الغامضة S. S. M. No. 54 في دائرة تسليم البريد

المحلية التي سترسل الطرد الخصوصي حسب تعليمات فيبيغر. لم يحدث أي شيء من هذا. إذ لم يتسن لكيركغارد قط أن يقرأ مسرحيات فيبيغر - وفي حدود ما معروف، لم يقتطع من وقته لكتابة رد. وحين رُبط أحدهما بالآخر مجدداً كان ذلك بعد فوات الأوان: في أواخر 1855 عملت إيليا فيبيغر هذه نفسها ممرضة في مستشفى فريدريك حيث تولت العناية بكيركغارد حين كان يحتضر.

العرائض الأدبية لم تأت من نساء فقط. وفي رسالة غفل من التاريخ نقرأ إن شخصاً مجهولاً تماماً لكم يسمح لنفسه بمناشدتكم، سيدي الفاضل، وطلب السيد مجهول الهوية أن يستخدم كيركغارد ما يتوفر له من وقت لقراءة المخطوطة المرفقة وربما كتابة مقدمة يثني فيها على العمل لقرائه. ولاحظت الرسالة بجلافة إنه لعدد من الأسباب المختلفة أتمنى مراعاة إبقاء الهوية مجهولة بصرامة قصوى من ناحية النشر. ونُصح كيركغارد بأقوى المفردات ضد محاولة اكتشاف هوية كاتب الرسالة، وأن يكتفي بوضع المخطوطة ورده في طرد مختوم لإعادتهما بأسرع وقت ممكن إلى 219 نوريفولد، الطابق الثاني، الباب المقابل للسلم مباشرة، يُفضل بين ساعة الظهيرة والساعة الواحدة بعد الظهر. مع كل الاحترام بتوقيع C. R. - على ما يُفترض الشاب سي. أف. تي. رايتزل C. F. T. Reitzel ابن ناشر كتب كيركغارد الذي كان في الحقيقة يسكن في العنوان نفسه المحاط بمثل هذا التكتم.

قد نجد ما يغرينا بالابتسام قليلاً على هذه المناشدات مع مبالغاتها الساذجة لكنها في الحقيقة لم تكن فارغة تماماً من بعض الفهم للواعظ والكاتب ذي الثمانية وثلاثين عاماً سورين كيركغارد.

كان هناك آخرون لم يغتنموا قط الفرصة للاتصال بكيركغارد وكان عليهم الاكتفاء بإبداء الامتنان في يومياتهم لمصلحة الأجيال القادمة. وهكذا على سبيل المثال كتب الرسام يوهان توماس لوندبي Johan Thomas Lundbye الآتي في يومياته بتاريخ 31 تشرين الأول/ أكتوبر 1847: عندما تكون معنوياتي هابطة وأكاد أرتعد مما قد يحمله المستقبل الآني - آه، حينذاك أجد السلوى في أحدث كتب سورين كيركغارد، «أعمال الحب». وفي السنة التالية قُتل لوندبي خلال الحرب على سليسفيغ: رصاصة طائشة دخلت من فمه وخرجت مخترقة مؤخرة رأسه.

الإهداء إلى ريجينة

إنها الآن تحت الطبع. أوه، أشعر بسعادة وارتياح وثقة وترقب على نحو لا يمكن شرحه ولا وصفه. حب لا نهائي! عانيتُ كثيراً خلال هذه الأيام، كثيراً إلى حد مخيف. آه، ولكنه يعود مع ذلك - فهم لمهمتي مرة أخرى يواجهني، ولكن بشكل حاد. وحتى إذا أخطأتُ الفهم سبع عشرة مرة فإن حباً لا نهائياً، بنعمته، جعل كل شيء يؤول، مع ذلك، إلى الأفضل. كان هذا رد فعل كيركغارد على نشر مخطوطات عن عملي كاتباً وخطابان لسر التناول أيام الجمعة، أخيراً.

تضمنت مقدمة خطابان مقطعاً اقتبس لاحقاً في أحيان كثيرة جداً: هنا يبحث نشاط تأليفي بدأ متقدماً خطوة فخطوة مع «إما/ أو» عن محطة استراحته الحاسمة تحت المذبح حيث الكاتب - الذي هو نفسه يدرك شخصياً منقصته وذنبه - لا يسمي نفسه بأي حال من الأحوال شاهداً على الحقيقة بل مجرد نوع غير معهود من الشعراء ومفكر «بلا مرجعية» وليس لديه شيء جديد يقوله. وكان تعبير شاهد على الحقيقة الصغير يشير إلى أحداث ستقع بعد أربع سنوات.

بهذا يبدو أنّ مجموعة الأعمال الكاملة اختُتمت رسمياً. وقرر كيركغارد أن يُهدي عمله المنشور كله إلى ريجينة ولكن ما إذا كان الإهداء سيظهر في عن عملي كاتباً أو في خطابان فإن هذا ظل لفترة طويلة سؤالاً غير محسوم بصورة مؤلمة. وفي النهاية اختار كيركغارد الكتاب الثاني ثم أبحر في محيط صغير من الإهداءات الجائزة - سبعون ألف فرسخ مستميت منها:

الإهداء إلى شخص بلا اسم / اسمه يجب ألا يُذكر بعد / لكن التاريخ سيقول اسمه ذات يوم / ولفترة مهما طالت أو قصرت / فإنها ستكون طويلة طول فترتي أنا / إلخ

أو ربما:

إهداء(*)

*) بسبب الظروف فإن الاسم في هذا الإهداء لا يمكن بعد / إضافته ولكن بصرف النظر، يجب مع ذلك / أن يُمنح مكانه الآن.

أو حتى أفضل:

بهذا الكتاب، نشاط تأليفي / مُلكُها هي إلى حد ما / يُهدى إلى آر. أس. / من شخص تَملكُه بالكامل.

أو إهداء آخر:

بهذا الكتاب الصغير / النشاط التأليفي بأكمله / يُهدى / كما كان من البداية / إلى مجايل / اسمه يجب ألا يُذكر بعد ولكن / التاريخ سيقول اسمه / مهما طالت الفترة أو قصرت / ما دامت تذكر اسمي.

واستمر كيركغارد فترة أطول كثيراً من ذلك ولكن النص النهائي ظهر بعد ذلك:

بهذا الكتاب الصغير / النشاط التأليفي بأكمله / يُهدى / كما كان من البداية / إلى شخص غير مُسمًّى / سيُقال اسمه ذات يوم.

في أغلب الأحيان كانت لدى كيركغارد نسخ من كتبه المهداة في أغلفة من القماش الأبيض المتموج أو ورق أسود مصقول مع صفحات موشاة باللون الذهبي ولكن النسخ المهداة إلى ريجينة كانت الأكثر فخامة، مطبوعة على ورق خاص جداً - ورق رق ثقيل - كما في حالة كتابه خاشية ختامية على سبيل المثال، الذي كان مجلداً بمخمل بني ومزوَّق تزويقاً غنياً بماء الذهب على الظهر والغلافين.

ريجينة لم تتسلم هديتها قط. فهي حُفظت ببساطة في الخزانة المصنوعة من خشب الماهوغان بلا رفوف.

أبله قرية لاهوتي

نُشرت مراجعة لكل من الكتابين خطابان وعن عملي كاتباً في صحيفة فلايِفه بوستن بتاريخ 7 آب/ أغسطس 1851، يوم صدورهما بالذات. وخلص كاتب المراجعة مجهول الهوية الذي أشار مادحاً إلى المؤلف بوصفه صاحب موهبة كبيرة، إلى نتيجة ربما لم تكن غير معقولة وهي إن كيركغارد يعتبر عمله ككاتب الآن منجَزاً من حيث الأساس. ويبدو أنّ هذه لم تكن هي الحال: كان هذا مسلياً للغاية! لا بد أن يكون عندي صديق، فاعل خير، لديه مصلحة - ربما كانت عنده هذه المصلحة منذ زمن بعيد - في أن يراني أكف عن كوني كاتباً في وقت قريب تباً له! ولم يتحسن مزاج كيركغارد حين علم - بالصدفة المحضة - إن المراجعة نفسها أُعيد نشرها بعد يومين في صحيفة فينيس آفيس Fyens Avis الإقليمية ولكن مع تبديل طفيف هو حذف عبارة صاحب موهبة كبيرة.

بعد أقل من شهر بقليل، في 16 أيلول/ سبتمبر 1851 كان هناك مقال آخر عن كيركغارد في فلايفِه بوستن حذر فيه سيد وقع باسم 4651 قراءه، بهذا القدر أو ذاك، من شراء كتاب عن عملي كاتباً. وكان تعليق كيركغارد على ذلك: إن الشيء الوحيد الذي أجده جديراً بالملاحظة هو... التوقيع «4651». إنه مؤثر، ومقنع وذو قوة طاغية. إذا حدث الشيء الرهيب، ويأتي الآن أحد ما يوقع باسم «789,691» فإني سأُسحق.

في أواخر تشرين الأول/ أكتوبر تحدث كيركغارد بما كان في كل مظاهرة نبرة متفائلة على غير المعتاد: ولكن نجمي صاعد الآن في الدنمارك. فإن كتاباً صغيراً خاصاً صدر، هو نوع من المراجعة. ولكن سرعان ما يصبح واضحاً إن كيركغارد كان يتهكم، وكان لديه سبب وجيه للتهكم لأن مناسبة ابتهاجه الكاذب كانت نشر قطعة باسم مستعار قبل أسبوعين على ذلك بعنوان عن عمل الماجستير أس. كيركغارد بوصفه كاتباً. ملاحظات قس في قرية. وكان قس القرية في الحقيقة لودفيغ غودا Ludvig Gude، الذي كان صديقاً قريباً من أصدقاء مارتنسن، الأمر الذي لم يكن يبشر بخير. ولم يكن كيركغارد مسروراً بذلك. صحيح إن غودا كثيراً ما استخدم لغة متحضرة بما فيه الكفاية واصفاً كيركغارد بأنه كاتب ممتاز، لامع، نبيل، ومتميز: الحق إنه عملياً أغدق صفات إطرائية عليَّ ككاتب. ولكن رغم ذلك، نظر غودا عموماً نظرة استعلائية وانغلاقية بعض الشيء إلى أعمال كيركغارد، واعترت مقاربته سلسلة من الأخطاء علق عليها كيركغارد باستفاضة حتى إن ملاحظاته ذاتها شكلت مخطوطة من خمسين صفحة!

بادئ ذي بدء، إن قس القرية لم يقرأ الأعمال قراءة منهجية على الأطلاق - الأمر الذي، بالمناسبة، هو نفسه أقرب من الصفحة الخامسة - بحيث إن عنوان عمله الصغير كان مضللاً، على أقل تقدير. ثانياً، إن قس القرية لم يتمكن من التمييز بين الأعمال المكتوبة بأسماء مستعارة والأعمال التي تحمل اسم كيركغارد، ولذلك أخفق في تقدير الديالكتيك المصنوع بدقة الذي يسري في مجمل الأعمال: من السهل أن نرى كيف أن مَنْ يريد شيئاً من اللهو (كما يُسمى) واللعب في عالم الأدب ما عليه إلا أن يأخذ خليطاً من الاقتباسات، بعضها من الغاوي وبعضها من يوهانس كليماكس وبعضها مني أنا، إلخ، ويطبعها كلها معاً كأنها كلها كلماتي، ويشير إلى التناقضات بينها، وهكذا يعطي

انطباعاً مشوشاً ومتنوعاً كأن المؤلف مصاب بلوثة. مرحى مرحى! وكان هذا النوع من المناورة استُخدم أيضاً في عهد أقرب تحت الشعار الذي يحمل أداة التفكيك. ثالثاً، كان الكاتب مهجوساً بالفكرة القائلة إن كيركغارد يثمّن على ما يُفترض الاتصال المباشر تثميناً أعلى من النمط غير المباشر، وهو رأي كان كيركغارد يعارضه - بصورة مباشرة جداً - مستحضراً مرجعية تكاد أن تكون نيتشوية: الاتصال المباشر أرقى اتصال. لكنه في الحقيقة لا يوجد إلا في خانة السوبرمان. لذلك لم أجرؤ قط على استخدامه باسمي. رابعاً، كان من المشين أن ينشر قس القرية هذا - إذا كان حقاً قس قرية، الأمر الذي كانت لدى كيركغارد شكوك عديدة فيه - سجالاً باسم مجهول: في موضع من الكتاب، يواجهني قس القرية دون أن يكشف عن هويته، ذاكراً اسمي، ومجادلاً بسخونة - في محاضرة ساحرة! موضوعياً! - ضد التخفي. انظروا، هذا هراء. وأنا لا أُريد التورط في هراء. وهذا على وجه التحديد من نوع الهراء الموضوعي الذي أُكافح باستمرار ضده. وكل التبجح بما مؤداه إنها أسماء مستعارة من أجل القضية، إلخ - كل هذه الشعارات التي كانت ذات يوم شعبية هي في طريقها إلى الزوال.

بعد أن قيل ذلك كان ينبغي أن يصبح الأمر واضحاً بدرجة معقولة، حتى بنظر قس قروي ضيق الأفق. وكما حدث في أحيان كثيرة من قبل فإن ردود كيركغارد السجالية باتت غير صالحة للاستعمال أكثر فأكثر لأنه ضخ في جُمَله تنميقاً عدوانياً أكثر فأكثر، مسودة بعد أخرى. ولذلك أنتج على صفحتين نصاً جزئياً ومضغوطاً من المخطوطة الأصلية. وهنا طرح بعض الشروط المسبقة للنقاشات المقبلة مشترطاً، بادئ ذي بدء، أن يغير قس القرية عنوان قطعته، وثانياً، أن يشير بدقة إلى كتب كيركغارد التي قرأها، وأخيراً أن يكشف اسمه. وختم كيركغارد بالقول: أستطيع القول بثقة إني... متفهم وراغب. ولكن هناك شيئاً واحداً أُريده: إن الوضع يجب أن يكون له معنى، يجب أن يكون منتظماً، ويجب أن يكون هناك قدر من اللياقة - وإلا لن أُداخل. هذه السطور، مثل سطور كثيرة أخرى، لم تصل قط إلى القارئ المقصودة له.

كان اختتام مجموعة أعمال كيركغارد لعبة انتظار. فإن عمله من أجل معاينة ذاتية: يُنصح بها للعصر الراهن نُشر في 10 أيلول/ سبتمبر 1851 - الذكرى السنوية الحادية عشرة لليوم الذي وافقت فيه ريجينة على طلب كيركغارد الزواج منها. وصاغ كيركغارد فكرة الكتاب في أيار/ مايو 1850، وتبلور شكل

المخطوطة بسرعة. وكان الكتاب يتكون من ثلاث مواعظ مر وقت فكر في إلقائها - قبل أن تستنزفه موعظته في كنيسة القلعة. ولكن أولى هذه المواعظ كانت بطول ثماني وثلاثين صفحة ولو أُريد إلقاؤها فعلاً كموعظة لتعين إعادة اشتغالها في حين كانت كل من الموعظتين الأُخريين في سبع عشرة صفحة وبالتالي بطول كان سيتيح استخدامهما كموعظتين فعلاً. وفي هذا العمل أعطى مينستر مرة أخرى نَخْسَة صغيرة: اسمح لي أن أقول على وجه الدقة أين أقف، إذا جاز التعبير. فهناك في وسطنا شيخ موقر للغاية، إنه كبير أساقفة هذه الكنيسة. ما كان يريده، ما كانت مواعظه تريده، هو نفس ما أُريده سوى إني أُريده بمقام كبير، الأمر الذي يمكن تفسيره بالفارق بين شخصيتي وشخصيته وبمتطلبات العصر المختلفة.

لاقى كتاب من أجل معاينة ذاتية استقبالاً طيباً في عالم الأدب وعلى غرار خطابان لسر التناول أيام الجمعة تمتع بمصير غير معهود هو الصدور بطبعة ثانية في السنة التي أعقبت الطبعة الأول مباشرة. ومرت خمس سنوات قبل أن يصدر أعمال الحب والممارسة في المسيحية بطبعة ثانية في حين تعين على مراحل على طريق الحياة أن ينتظر ثلاثة عشر عاماً والخوف والرعدة أربعة عشر عاماً كاملة.

1852

جاءت تمشي كأنما من فرن الكلس

في كوبنهاغن كان الانتقال من شقة إلى أخرى يحدث عموماً في الثلاثاء الثالث من شهر نيسان/ أبريل أو الثلاثاء الثالث من شهر تشرين الأول/ أكتوبر. وبهذه الطريقة يمكن أن يكون الأثاث والخدم والضروريات الأخرى حيث تقتضي الحاجة إلى وجودهم بحلول 1 أيار/ مايو أو 1 تشرين الثاني/ نوفمبر، على التوالي. وعندما ينتقل الأشخاص كانوا يميلون إلى البقاء في الحي نفسه. وعاش هانز كريستيان أندرسن في خمسة عشر عنواناً مختلفاً في كوبنهاغن ولكن دائماً قرب المسرح الملكي وميدان كونغينس نيتروف، اللذين يشكلان نقطة مركزية بالنسبة له. وكان كيركغارد دائماً يختار السكن قرب كنيسة سيدتنا والمقر القديم لسكن الأسقف.

لكنه يوم انتقل في نيسان/ أبريل 1851 خرج عن القاعدة وانتقل خارج أسوار المدينة إلى أوستربروفي حيث سكن في منزل كبير جديد تماماً في الضواحي له موقع لطيف يطل على بحيرة سورتيدام. وكان المنزل الذي هُدم في عام 1897 محاطاً بالحدائق ومزارع الخضروات الكبيرة، والمنطقة عموماً ذات طابع ريفي، كما يمكن أن نرى من الصورة المعروفة التي رسمها كريستن كوبكة Christen Kobke بعنوان أوستربرو في ضوء الصباح من عام 1836. وكان هناك مجال لسكن عائلتين في الطابق الأرضي وعائلة واحدة في الطابق الذي فوقه، حيث انتقل كيركغارد. وكان للمكان مدخل ومنظر يواجه حديقة وبحيرة لطيفتين، كما وصفه كارل لوند ابن أُخت كيركغارد في رسالة إلى بيتر كريستيان كتبها في أيار/ مايو من ذلك العام. وهناك قام أميل بويسن بزيارة كيركغارد بضع مرات في الخريف وكتب إلى زوجته لويز في

يوتلاند إن سورين ك. يسكن في منزل بديع وكان على طبيعته يتصرف كما يتصرف عموماً.

كان كيركغارد يغادر بيته كل صباح ويمشي مسافة نصف الميل إلى المدينة. وفي وقت لاحق من الصباح كانت مشية العودة إلى البيت تأخذه خارج المدينة عن طريق نوريبورت إلى الممر المحاذي للبحيرة أو إلى فاريماغسغاده، وكان في هذا القسم من رحلة مشيه يلتقي في أحيان كثيرة ريجينة التي غادرت بهدوء شقتها في شارع بريدغاده. ولم يحدث قط تبادل كلمات في هذه اللقاءات، ولكن الثنائي اللذين كانا خطيبين ذات يوم كانا يعوضان عن غياب الكلمات بالاستخدام المحموم لقاموس كامل من الحركات التي كانا يقومان بها خلال الثواني النابضة القليلة التي يستغرقها مرور أحدهما بالآخر. وكان هذا نوعاً من السذاجة يشوبها شعور بالذنب، لها مجموعتها الداخلية الخاصة من القواعد التي أحياناً تقرب من الطقوس وتكون دائماً متوافقة بعناية مع مجموعة الحركات التي تقوم عليها. وكان كيركغارد وصف لقاءاتهما بتفاصيل تكاد أن تكون مؤلمة مسجلاً أوقات اليوم والمسافات وتغيرات المسار واتجاه الريح والأحوال الجوية العامة، وكأنه يريد أن يتأكد من إمكانية تكرار اللقاءات دائماً ليكون الشخصان الصامتان قادرين إلى الأبد على المرور بأحدهما الآخر متهادين ببطء على الممر الصغير الضيق نفسه بمحاذاة البحيرة، ثم يختفي كل منهما في اتجاهه دون النظر إلى الوراء. وكتب كيركغارد استرجاعياً في أيار/ مايو 1852: خلال الشطر الثاني من عام 1851 كانت تلتقيني كل يوم. كان ذلك خلال الفترة التي كنتُ أمشي فيها إلى البيت عن طريق لانغليني في الساعة العاشرة صباحاً. كان التوقيت دقيقاً وكان المكان فقط ينتقل أبعد فأبعد على الطريق باتجاه فرن الكلس. كانت تأتي ماشية كأنما من فرن الكلس. لم أخرج قط خطوة واحدة عن طريقي وكنتُ دائماً أنعطف عند طريق القلعة حتى عندما صادف ذات يوم إنها كانت بعيدة بضع خطوات على امتداد طريق فرن الكلس ولذلك كنتُ سألقاها لو لم أنعطف جانباً. هذا ما كان يحدث يوماً إثر آخر.

بمرور الوقت أصبح كيركغارد معروفاً إلى حد مخيف بحيث كان من الجائز أن تثير هذه اللقاءات مع سيدة وحيدة في ساعات الصباح المبكرة خارج أسوار المدينة، الانتباه وتؤدي إلى الثرثرة والأقاويل. ولاحظ كيركغارد إن ثنائياً آخر كانا أيضاً يلاقي أحدهما الآخر بانتظام وتعرفا علينا نحن الاثنين،

وبدأا ينظران إليهما بفضول أكثر من اللازم بعض الشيء. من جهة أخرى، لم يفكر كيركغارد فيما سيظن فريتز شليغل إذا عرف إن زوجته شرعاً كانت مرة أخرى ترتدي ملابسها وتغادر البيت للمشي في مثل هذه الساعة المبكرة على غير العادة من الصباح. كما إنه لم يفكر كيف سيكون رد فعله لو كان فريتز هو الذي يلاقي بانتظام - ريجينة كيركغارد! بدلاً من ذلك سمح لنفسه بالانزلاق إلى قليل من خداع النفس: ربما كانت ريجينة تخرج للمشي في هذه النزهات الصغيرة للوصول إلى مصالحة معه وفي هذه الحالة سيكون من الطبيعي أن أصر على أن تكون لديها موافقة من زوجها. وفي ضوء الفشل الذي اقترن على الأخص بواقعة الرسالة المختومة التي لم تطلب سوى شيء بريء هو التحادث، كان على كيركغارد أن يقول لنفسه إن فريتز ما كان ليعطي موافقته أبداً على هذه اللقاءات الأكثر حميمية بكثير. وبالفعل، بعد نقطة معينة استطاع كيركغارد أن يلمس إن هذه اللقاءات فقدت أكثر فأكثر من براءتها، وإنه ملزَم أخلاقياً بالتحرك: لذلك كان عليَّ أن أُجري تغييراً. وفي اليوم الأول من السنة الجديدة سيختار طريقاً جديداً وقد فعلتُ ذلك. ففي 1 كانون الثاني/ يناير 1852 غيَّرتُ طريقي وعدتُ إلى البيت من جهة نوريبورت. ثم كانت هناك فترة لم نَرَ فيها أحدنا الآخر. وذات صباح لاقتني على الطريق المحاذي للبحيرة الذي أصبح الآن طريقي المعتاد. وفي اليوم التالي سرتُ أيضاً في طريقي المعهود. هي لم تكن هناك. ومع ذلك فمن أجل سلامتها غيَّرتُ طريقي ابتداء من ذلك الوقت فلاحقا ماشياً على طريق فاريماغسفي وفي النهاية صرفتُ النظر عن تحديد أي طريق ثابت لمشية العودة إلى البيت. وبدا إن هذا كان مجدياً بدرجة معقولة. ولكن ماذا حدث؟ بعد مرور بعض الوقت لاقتني في الساعة الثامنة صباحاً في الجادة الكائنة خارج أوستربورت، وهي الطريق الذي أمشيه إلى كوبنهاغن كل صباح. ولكنها لم تكن هناك في اليوم التالي. واصلتُ المشي في طريقي المعتاد إلى المدينة، الذي لا أستطيع تغييره بسهولة. وكانت كثيراً ما تلاقيني هناك، وأحياناً عند الأسوار التي أمشي بمحاذاتها في طريقي إلى المدينة أيضاً. لعل هذه مصادفات - ربما. لا أستطيع أن أفهم لماذا تريد أن تمشي على هذا الطريق في تلك الساعة من اليوم. ولكن بما إني ألاحظ كل شيء فقد لاحظتُ إن الأرجح بصفة خاصة إنها كانت تمشي على هذا الطريق عندما تكون هناك ريح شرقية. وبالتالي من

الجائز طبعاً إنها كانت لا تتحمل الريح الشرقية على طريق لانغليني - رغم إنها كانت تأتي عندما تكون هناك ريح غربية أيضاً.

ظلت ريجينة غامضة. كانت تأتي ماشية لتظهر فجأة من لا مكان، كأنها إلهة تظهر في أماكن تبدو مصادفة لكنها نادراً ما كانت كذلك. كانت تغيب لبعض الوقت ثم تعود إلى الظهور - حتى اختيارها لاتجاهات الريح كان يتدخل في استنتاجات كيركغارد. ثم جاء عيد ميلادي. وأنا عموماً أميل للذهاب إلى مكان ما في عيد ميلادي، ولكني لم أشعر بحالة جيدة تماماً. لذلك بقيتُ في البيت ومشيتُ إلى المدينة كالمعتاد في الصباح للتحدث مع الطبيب لأني فكرتُ في الاحتفال بعيد ميلادي بشيء جديد لم أتذوقه من قبل هو زيت الخروع. لاقتني خارج بابي مباشرة، على الرصيف في بداية الجادة تماماً. وكما حدث في أحيان كثيرة مؤخراً لا أستطيع تمالك نفسي من الابتسام حين التقيها مصادفة - آه، كم أصبحت مهمة لي! - ردَّتْ الابتسامة بمثلها ثم أومأت محيية. مررتُ بها خطوة ثم رفعت قبعتي وواصلت المشي. الوصف وصف بصري جداً مع زاوية نظر مرتفعة نستطيع أن نستطلع المشهد كله منها: كيف يبتسم العبقري صاحب عيد الميلاد ذو الأسماء الخاملة لحبيبته (رغم أنها لن تعد بنتاً) ريجينة التي تردُّ على ابتسامته بابتسامة. ثم خطوة إلى الأمام وقبعة تُرفَع والمضي بعيداً.

في يوم الأحد التالي، 9 أيار/ مايو، حضر كيركغارد قداسات كنيسة القلعة حيث كان من المقرر أن يلقي باولي موعظة. وكانت ريجينة أيضاً هناك واتخذت مقعدها قرب المكان الذي يقف فيه كيركغارد. واختار باولي، الذي نال شهادة الدكتوراه باللاهوت في العام السابق ولذلك مُنح الحق في أن يقرر إن كان سيلقي موعظة عن نص الإنجيل أو عن الرسالة لذلك اليوم من أيام الأحد، أن يلقي موعظته عن الرسالة التي صادف في يوم الأحد ذاك أن تكون رسالة يعقوب 1: 17 وما بعدها، المقطع الذي يتحدث عن عطيّة صالحة وموهبة تامة من فوق، وتناوله كيركغارد نفسه في موعظته في كنيسة القلعة قبل عام. الانطباع الديني الأول الذي تكوَّن لديها عني يرتبط بهذا النص، وهو نص شددتُ عليه تشديداً كبيراً. لم أظن في الحقيقة إنها ستتذكره ومع ذلك أعرف (من سيبِّرن) إنها قرأت الخطابين من عام 1843 حيث يُستخدم هذا النص. وعندما سمعتْ ريجينة الكلمات من رسالة يعقوب، استدارت واختفت وراء الشخص الجالس بجانبها. نظرت باتجاه كيركغارد و- لاحظوا! - كانت نظرة حارقة ملتهبة.

وامتنع كيركغارد بوعي عن أن يبادلها النظرات. نظرتُ أمامي تماماً، ليس إلى شيء معين. ولكنه كان لا شيء معيناً شديد التطلب: أعترف بأني كنتُ مهزوزاً إلى حد ما بذلك أيضاً. انتهى باولي من قراءة النص بصوت عالٍ. هوَتْ بدلاً من أن تجلس حتى إني شعرتُ بشيء من القلق - على غرار ما شعرتُ به في مناسبة سابقة واحدة - لأن حركتها كانت عنيفة إلى درجة كبيرة.

أصبح الوضع حتى أشد هياجاً لأنه في الحقيقة عندما بدأ باولي موعظته قال إن كلمات النص مزروعة في قلوبنا بل استمر بالسؤال إذا كانت هذه الكلمات ستُنتزَع من قلوبكم ألن تفقد الحياة كل قيمتها عندكم؟ لم يكن لدى كيركغارد شك بشأن رد فعل ريجينة: لا بد إن الأمر كان ساحقاً بالنسبة لها. لم أتبادل كلمة معها قط. مشيتُ في طريقي وليس طريقها. ولكن هنا كما لو أن قوة أعلى قالت لها ما لم أكن أنا قادراً على قوله. وتحدث عن حالته هو: وقفتُ كم يقف على جمر متوهج.

بعد عدة أيام لاقى ريجينة مرة أخرى لكنه لم يستطع أن يحمل نفسه على تحيتها. كان الأمر كما لو إن إيروس الروحي بينهما في الكنيسة أعاد كيركغارد إلى رشده الأخلاقي. أنا منفتح على كل شيء ولكن إذا أُريد عمل أي شيء فيجب أن يكون زوجها وسيطاً بيننا. إما/ أو! وإذا أردتُ أن أصبح مرتبطاً بها فيجب أن يكون ذلك على أعظم نطاق، وسأُريد أن يكون ذلك معروفاً للجميع، مع تحولها هي إلى شخصية ظافرة ستُمنح أكمل تعويض عن كل الازدراء الذي تعرَّضت إليه لأني فسخت خطوبتي منها. ومع ذلك أحتفظ بحق تعنيفها تعنيفاً شديداً على الحدَّة التي أبدتها في حينه. يبدو هذا مؤثراً تماماً ولكن كيركغارد كان أيضاً يعرف نفسه جيداً بما فيه الكفاية لأن يدرك إن خططه ما كانت أبداً ستوضع موضع التنفيذ لأن هناك سبعة عشر سبباً لتعذر ذلك. من المؤكد أن 17 كان رقماً صغيراً جداً!

10 أيلول/ سبتمبر 1852 كان يوماً مهماً بصفة خاصة للاثنين على السواء: وهكذا أصبحتُ مخطوباً قبل اثني عشر عاماً اليوم. وبطبيعة الحال «إنها» لم تتخلف عن الحضور في ذات البقعة وملاقاتي. ورغم الحقيقة الماثلة في أنّي في الصيف أخرج للمشي أبكر مما أفعل في أوقات أخرى... فإنها لاقتني صباح اليوم وصباح أمس في الجادات القريبة من أوستربورت. حين التقيا في اليوم

السابق وكادا أن يفقدا نفسيهما متهاديين في نظرتهما المشتركة أشاحت فجأة بنظرها. وتساءل كيركغارد عن ذلك ولكن التفسير جاءه بعد ذلك مباشرة. فإن ريجينة لمحت شخصاً وراء كيركغارد يقترب على صهوة حصان، ولذلك نظرت بعيداً. وفي الذكرى السنوية لخطوبتهما كان اللقاء أكثر نجاحاً وإن لم يكن ناجحاً كل النجاح: وهكذا نظرتْ اليوم إليَّ لكنها لم تومئ محييةً، ولم تكلمني. آه، ربما كانت تتوقع ذلك مني. يا إلهي، كم أود أن أفعل ذلك، وأن أفعل كل شيء من أجلها. لكني لا أجرؤ على الاضطلاع بهذه المسؤولية. فهي نفسها يجب أن تطلب مني أن أفعل ذلك. لكني كنتُ أريد بقوة أن أفعل ذلك هذا العام. على العموم لعله أمر حسن إن لقاءهما أُجهض. ولم يكن كيركغارد في وارد سربلتها بالشهرة والنجاح. إذ لم تكن ريجينة الشخص الذي له الأولوية الأولى في حياته لأن ذلك الشخص، كما ذكَّر نفسه، هو الله. ولكنها كانت مسألة ديالكتيكية: خطوبتي عليها وفسخ خطوبتنا هما في الحقيقة علاقتي بالله. وأحسب إنهما، مفهومتين دينياً، تكونان خطوبتي من الله.

كان اللقاء يوم الكرسمس في كنيسة سيدتنا حيث ألقى مينستر موعظة بعد صلاة المساء، لقاء متوتراً بصورة غير اعتيادية. وكان الاثنان التقيا هنا خلال قداسات الكرسمس السابقة ولكن هذه السنة، 1852، كانت هناك ظروف خفية. وكان كيركغارد بالطبع يتسلم أحياناً رسائل – عن طريق دائرة إيصال البريد – من نساء مجهولات الهوية كن يرفقن رسائلهن بهدايا صغيرة، وخطرت له الفكرة القائلة إن بين هذه الرسائل ربما هناك رسالة من ريجينة. ثم عشية الكرسمس وصلت هدية صغيرة على غير المتوقع. لا أعرف كيف حدث ذلك ولكن تَبادَر إلى ذهني إن من الجائز أن تكون هي التي فعلت ذلك. وهو لا يقول لنا شيئاً عن طبيعة الهدية ذات العلاقة. لا يُقال لنا سوى إن لها صلة بمقدمة خطابات تثقيفية بأرواح مختلفة، ولكن أيضاً، إلا إذا كنتُ مخطئاً خطأ كبيراً، لها صلة بمقدمة تينك الخطابين التثقيفيين من عام 1843. وفي مقدمة هذين الخطابين توجه كيركغارد إلى ذلك الفرد المنفرد الذي أُسميه بفرح وامتنان قارئي – الذي كان، بالطبع، ريجينة في الأصل. وليست هناك مواد بين الرسائل والملاحظات القليلة الباقية التي تسلمها كيركغارد في حوالي وقت الكرسمس عام 1852، يمكن أن تُربَط بريجينة ولكن لا بد من وجود شيء ما.

عندما حضر كيركغارد صلاة المساء في كنيسة سيدتنا نسى الهدية الصغيرة

ولكن عندما كان يهم بدخول صحن الكنيسة لحظة انعطافه إلى الرواق على اليمين، هناك كانت تقف ريجينة. كانت واقفة هناك. لم تكن تمشي، بل كانت واقفة هناك، تنتظر أحداً على ما يبدو، أياً يكن. لم يكن هناك أحد. نظرتُ إليها ثم توجهتُ نحو الباب الجانبي الذي كنتُ على وشك ولوجه. كان هناك شيء غريب في هذا اللقاء، بعيد جداً عن الحذر. وعندما مرتْ بي وانعطفتْ لدخول الباب تحركتُ أنا جسدياً حركة من الجائز إنها كانت بغية التنحي جانباً للإفساح في المجال لا أكثر، ولكنها ربما كانت نصف تحية أيضاً. استدارتْ بسرعة وقامت بحركة. ولكن الآن، إذا كان تريد الكلام، لم تعد الفرصة سانحة لأني كنتُ أصلاً داخل الكنيسة. فتوجهتُ إلى مكاني المعتاد. ولكن لم يفتني إنها وإن كانت جالسة بعيداً، كانت تنظر إليَّ باستمرار. ربما كانت تنتظر أحداً آخر في الرواق، ربما تنتظرني، ربما تلك الهدية الصغيرة كانت منها، ربما كانت تريدني أن أُكلِّمها، ربما، ربما.

وربما، ربما إن ريجينة نفسها كانت هدية كيركغارد الصغيرة ذلك المساء، ساحرة بكل صمتها المبهم.

الشُقة الأخيرة

رافقت كيركغارد في انتقاله خارج أسوار المدينة عائلة ستروبه لكنها لم تبق من ساكني منزله طويلاً. وعندما تناولت ابنة ستروبه سر الميرون أعطاها كيركغارد فستاناً جميلاً ووشاحاً وعلى ما يبدو بعض الحلي الذهبية أيضاً. وفي عصر يوم تناولها سر الميرون تمخطرت في أنحاء الحديقة بكل حلتها القشيبة مستعرضة نفسها فجأة ببهجة ظاهرة، على نحو استفزازي تقريباً. وارتاع كيركغارد الذي لا بد أن يكون رأى ذلك كله من إحدى النوافذ في شقته، وربما خاف أيضاً من الأقاويل. على أية حال، قرر أن ينتقل ستروبه وعائلته ويستأجروا غرفاً في مكان آخر، الأمر الذي أذهل النجار المجنون بعض الشيء الذي لم يفهم ما حدث.

هذه القصة من أي. أف. شيودته A. F. Schiodte، وهو قس في آرهوس، لكنه لم يكشف عن مصادره، وبالتالي لن يعني هذا أكثر من كونه حكاية. لعل شيودته سمع القصة من خادم كيركغارد، أندريس فيسترغارد، الذي التقاه ذات مرة في فيبورغ حيث كان فيسترغارد يعمل ضابط شرطة. ولم يحصل شيودته

الذي كان من المعجبين المتحمسين بكيركغارد، على معلومات بيوغرافية مختلفة من فيسترغارد فحسب بل أنه ضمن لنفسه أثراً: باعه فيسترغارد قبعة كانت في السابق ملك كيركغارد، وفيما بعد كان شيودته يعتمرها حول المدينة في مناسبات خاصة!

في تشرين الأول/ أكتوبر 1852، بعد أقل من عام ونصف العام في أوستربرو انتقل كيركغارد عائداً إلى المدينة واستقر في مبنى كان وقتذاك يحمل رقم 5 – 6 في كلايدبوديرني (الآن رقم 38 سكيندرغاده). كان عنوان النصف الخلفي من البناية 5 ديركوب وكان مقابل كنيسة سيدتنا مباشرة. وفي هذا الجزء من المبنى استأجر كيركغارد ثلاث غرف في الطابق الرئيسي من مسز بوريس التي كانت في البداية مترددة في أن تؤجر له لأنها سمعت إن كيركغارد معروف بجعل الأمور صعبة (كما وصف يوهانس كليماكس نفسه، مهمته في حاشية ختامية)، وهذا لم يكن مستأجراً من النوع الذي تريده في غرفها! لكنها استقبلته بأدب، وبعد أن تفقد كيركغارد الغرف جلس على الكنبة، ونظر حوله بعينين وجدتهما مسز بوريس آسرتين بصورة غريبة، ثم قال بصوته الرقيق، نعم، سأُقيم هنا. وعلى الفور تخلت مسز بوريس عن كل تحفظاتها، وفي استثناء عن ممارستها المعتادة، وافقت حتى على تدبير مساعدة منزلية. وأُنيطت هذه المهمة بأرملة إسكافي فقيرة كانت موضع ثقة ومقتدرة، لكنها للأسف بليدة بعض الشيء وبالتالي من دون أدنى إحساس بالمفارقة والتعليقات التهكمية الصغيرة التي كانت تشهدها بين حين وآخر. من نواحي أخرى كان كيركغارد مستأجراً هادئاً، ولكن حين بدأ هجومه على رجال الدين ارتعبت مسز بوريس من القوة المتفجرة التي كانت تسكن عندها. ولكن رعبها أخلى الطريق لتعاطف بلغ ذروته يوم نُقل كيركغارد إلى مستشفى فريدريك. ففي ذلك اليوم عندما فتحت بابها، هناك وقف كيركغارد أمامها مباشرة، في مدخل غرفته، منتصباً وإن كان أحد آخر يسنده، ورفع قبعته لها مع نظرة كانت ساحرة كتلك النظرة التي غزا بها قلبها في السابق.

حين انتقل كيركغارد إلى هذا السكن الأضيق بكثير في منزل مسز بوريس ربما تخلص من جزء من مكتبته ببيعه إلى تجار مختلفين يتعاطون بالكتب المستعملة، ومنهم أي. جي. سالومون، الذي باعه كيركغارد ما قيمته ستة ريكسدولارات من الكتب في الشطر الأول من حزيران/ يونيو 1850. وكان

على كيركغارد أن يعوِّد نفسه عموماً على مستوى معيشة أكثر تواضعاً، وخلال سنواته الأخيرة تعرَّض إلى نوع من الإهمال المالي على يد زوج أُخته هنريك فرديناند لوند الذي كان يدفع ما تبقى من ثروته المتضائلة إلى حد بعيد بأقساط صغيرة.

هذه الظروف المادية والاقتصادية الأكثر صعوبة لم تناسب كيركغارد لكنه كان سعيداً بالعودة إلى المدينة لأن مكانه هنا، في غمرة كل شيء: أنا أعيش الآن على مقربة من كنيسة سيدتنا بحيث أستطيع أن أسمع صيحات الحارس الليلي عندما ينادي كل ربع ساعة. وعندما أستيقظ في الليل بعض الأحيان – حسناً، من الجائز أن يكون المرء في بعض الأحيان راغباً بمعرفة الوقت... فإنه ينادي بصوت حاد مرتفع، واضح كأنه يقف بجانبي، وعالياً حتى إنه يوقظني إذا كنتُ نائماً (الأمر الذي ما كنتُ أريده): هالو، هنا الحارس الليلي! ثم بعد هذا الاستخدام المحموم لقدراته يخفض صوته ويذكر الوقت بصوت خافت. وهكذا تسير الأمور، من ربع ساعة إلى ربع الساعة التالي، من ساعة إلى ساعة. وإذا أردتُ البقاء مستيقظاً طوال الليل أستمع كل ربع ساعة فإن كل ما سأعرفه هو: هالو، هنا الحارس الليلي!

كان كيركغارد ينام مباشرة قبالة الكنيسة التي سيهاجم أسقفها بكل عنف بعد عامين.

هالو، هنا كوبنهاغن!

1853

حياة في العالم السفلي

قرأتُ ما يجب أن أُسميه أبشع ما كتُب من سجالات ضدي، وهو حياة في العالم السلفي. الكاتب مجهول الهوية، لكنه في الحقيقة راسموس نيلسن، وذلك مؤكد مثلما هو مؤكد بأني الشخص الذي يكتب هذه الرسالة. وكان الشخص كاتب الرسالة مارتنسن والرسالة موجهة إلى غودا. وكان التاريخ 21 شباط/ فبراير 1853. أنا الشخص الذي يصوَّر روحاً بعد الموت - بالطبع من دون ذِكري بالاسم - وأنا مدان بعمل لا شيء على الإطلاق من أجل المسيح، أثناء حياتي، ولكن فقط بالسعي إلى إعلاء سمعتي... ويظهر هو نفسه [نيلسن، الكاتب مجهول الهوية] في العمل ويلاقيني في شخص خِرقة يواجهني بالادعاء القائل إني لم أتمكن إلا بمساعدة أسلحة وزمر دنيوية من التفوق عليه في النزال الأدبي. كما يظهر في العمل باولي ومينستر وآخرون دون أن يُذكَروا بالاسم. وعلى سبيل المثال إن باولي يتحدث في جنازتي، إلخ، إلخ... إن هذا العمل الحقير يقع خارج كل التصنيفات... و[أنا] حقاً قلق عليه. يا ليت عنده صديق يستطيع أن يأتي ببعض السلام إلى روحه! كما ذكر مارتنسن إن مينستر لم يرغب في قراءة الكتاب في حين إن باولي، من الجهة الأخرى، قرأه ولكن، على غرار مارتنسن نفسه، أعاد النسخة إلى بائع الكتب لأنه لا يريد أن يمحض دعمه لعمل هابط إلى هذه الحد المخيف. أنها فضيحة مروعة، وأقول بكل صراحة إن أفضل شيء له هو أن يمر هذا الكتاب دون أن ينتبه إليه أحد... أوه، يا للأشياء التي على المرء أن يعيشها - إنها حقاً فظيعة... فهو خرج يمشي على طبقة جليد كيركغاردية رقيقة، بعيداً عن أي معونة إنسانية، حيث لا بد أن يزلق ويسقط - إذا تفادى السقوط في الداخل! بطبيعة الحال إن كيركغارد

ليس الرجل المستعد أو القادر على العناية به، وإعطائه بعض الإرشاد. كيف سينتهي ذلك كله؟

مناسبة هذه الضجة كلها كانت كتاب راسموس نيلسن المنشور حديثاً حياة في العالم السفلي، الذي صدر بالاسم المستعار فالتر باينغ. والكتاب الذي يقع في أقل قليلاً من مئتي صفحة، نوع من الرواية ذات الشخصيات الحقيقية والأسماء الملفقة، فيها من المخيلة أكثر مما فيها من الموهبة، لكنها نص ممتع – وعلى حد تعبير مارتنسن المستشيط غضباً – وهو بما فيه من عدد لا نهاية له من التلميحات، كتاب يفرقع بالسجالات الموجهة صوب نواحي مختلفة من الحياة الكنسية والثقافية في كوبنهاغن. وكان مارتنسن نفسه الشخصية الرئيسية غير المسماة في الكتاب، الراوي بضمير المتكلم. وبعد جنازة مؤثرة (حيث يلقي باولي كلمة رثاء كتبها مارتنسن عن نفسه) تُرسَل شخصية مارتنسن إلى العالم السفلي الذي يطوف فيه مع عمله الدوغماتية – المذهب غير الملوث – تحت إبطه يبحث عن القدس الجديدة. وما أن يهرب من عدد من الأفاعي والزواحف الفتاكة – التي لوح بكتابه الدوغماتية فوق رؤوسها الآثمة بحيث ينبثق النور من الحروف المذهبة – حتى يسمع صوتاً يأمره ابتعد إلى الخلف! يأتي الصوت من رجل بسيط يرتدي قميصاً وطاقية ويتضح إن هذا الرجل غريب الملبس لم يكن سوى كيركغارد الذي يظهر في الفصول الثلاثة التالية شخصية دنيوية تحث مارتنسن على أن يكون أكثر وعياً وتقدِّم له عدداً من الحقائق الذاتية. وهكذا فإن من أول الأسئلة التي تُطرح على مارتنسن هو السؤال: ماذا أنتَ؟ ويجيب مارتنسن: أيها السيد المحترم، مَنْ أكون وماذا أكون أشياء أنتَ نفسك ستكون قادراً على قولها حين ترى إني رجل عنده دوغماتية وصورة المسيح. والأحرى أنا مَنْ ينبغي أن يسألك، ماذا أنتَ؟ مَنْ تكون؟ ومَنْ خولك بمخاطبتي بهذه الطريقة؟ ويرد كيركغارد: يا رجل، انظر أين تقف! ويرى مارتنسن إنه يقف على جسر كسيح ضيق فوق هوة معتمة. وينهار الجسر بعد فترة قصيرة، لكنه يُنقَذ ويأتي إلى وادٍ بين الجبال حيث يرى إنه محاط من كل جانب بتماثيل رخامية تصور أشخاصاً كل منهم، مثل مارتنسن، يقف على عمود من الغرانيت ويحمل كتاباً: بَشَرٌ من كل المذاهب في الكنيسة – يونانيون، رومانيون، كالفينيون، أنجليكيون، لوثريون – أصبحوا متحجرين فيما سمَّوه المذهب غير الملوث. مارتنسن نفسه يشعر إنه متحجر وغير متيقن مما إذا خاطبته روح فعلية أو مجرد

كيركغارد. ويهتف مارتنسن مستنكراً وخائفاً: شيطان، ملاك، قوة، جبروت، سطوة، لا أعرف ماذا تصف نفسك. أنتَ تريد الحكم عليَّ بالوقوف على هذا العمود كالحجر لأني أتمسك بالمذهب غير الملوث. هذا الحكم حكم ظالم... لعل هذه الأرواح المتحجرة لم يكن لديها إلا المذهب ولكن أنا بالطبع عندي الحياة والمذهب على السواء.

يطلب الصوت من مارتنسن أن يقول أهم شيء في حياته، وعندما يجيب قضية المسيح عيسى وأتباعه، يُطالب بتقديم تقرير عما فعله من أجل المسيح، حصراً وفقط من أجل المسيح. مارتنسن لا يستطيع أن يفعل ذلك، على أية حال قطعاً ليس بكلمة واحدة، لأن ذلك سيتطلب محاضرة تثقيفية متماسكة، ولهذا يطلب مهلة لكتاب موعظة. لهذا الغرض يوضع في متناوله مكتب مريح، مع نسخة من الكتاب المقدس ومجموعات من المواعظ، ولكن في اللحظة الذي تتوفر له كل اللوازم الضرورية يختفي كل شيء ويجد نفسه على مدخل حديقة ذات سور مرتفع مع بوابة حديدية. ويظهر خادم بزي رسمي يسمح له بدخول الحديقة. وعالياً على رقعة أرض تبعد مسافة كان هناك مبنى منعزل، فيلا نصف حديثة، نصف دير. ما يحيط بها له ظاهر مكان بديع في الريف، كما يرُى في ليلة مقمرة رائقة. المبنى نفسه كان مضاء بإنارة ساطعة من الداخل. ومن خلال النوافذ أستطيع أن أرى بوضوح شكل رجل يتحرك بسرعة من مكان إلى آخر كأنه شخص لديه ما يفعله. في هذا الوصف نتعرف بسهولة على منزل كيركغارد عند بحيرة سورتيدام. وتُصوَّر الحديقة الغناء على أنها متاهة حقيقية. الممر ينحني وينعطف ويلتف بتعرج حتى إن بعض الوقت مرَّ قبل أن نصل إلى النهاية. أليس من الجائز أن يكون هذا وصفاً استعارياً لمجموعة أعمال كيركغارد الشائكة والأفعوانية؟ إنه يبدو ذلك بكل تأكيد. وبالفعل، عندما يشق مارتنسن طريقه صاعداً إلى المنزل يعلق مع نفسه قائلاً طراز غريب، ترتيب فانتازي معقد. وكانت تتناثر تيجان ورقية لكنها متنوعة بإفراط لأشجار سامقة تظلل الشجيرات والنباتات الأصغر، جذوعها مكسوة باللبلاب والكروم البرية. وكانت بقع صغيرة لا تحصى من الضوء تتراقص على الأغصان الرشيقة، والندى يلتمع على العشب النضر. كل شيء كان ضاجاً بالحياة، مترعاً بالأزهار والعطور. كانت أكثر ما رأيته من خضرة ترفاً.

شخصيتنا الرئيسية المفزوعة تتسلق سلماً حلزونياً وتدخل غرفة ذات ضوء

ساطع حيث يواجهه أمين مكتبة مع رفين أنيقين من الكتب على كل من جانبي الباب - تماما كما في منزل كيركغارد - وعلى مارتنسن أن يختار الآن بين أعمال كيركغارد، على جانب، وأعمال مينستر على الجانب الآخر. ويبلغه أمين المكتبة إن في المجموعة التي على اليسار يمكن العثور على عدد من الخطابات التثقيفية وكذلك بعض المواعظ عن التوبة والصوم، التي هي برأيي مسيحية جداً لكنها ذاتية بشكل مطلق. ولا أسبغ أي أهمية على اسم المؤلف. فهو مجهول الهوية بهذا القدر أو ذاك. وعلى اليمين هناك بعض المواعظ الغنائية من النمط المعاكس بقدر ما لها من طابع لاهوتي - كنسي - موضوعي جعلها موضع حب كبير من المصلين. ويهتف أمين المكتبة أرجو من سماحتكم أن تختاروا، إما رف الكتب على اليسار أو رف الكتب على اليمين، الموزَّع إلى أقسام تضم كتابات قديمة وحديثة، وعندما يسحب أمين المكتبة كلمة رثاء صغيرة أثارت اهتماماً بين الأحياء والأموات، يرى مارتنسن اسمه على صفحة العنوان!

الآن يجب أن يكتب موعظته، ويَعِدُه أمين المكتبة بأن أتباع الكنيسة سيظهرون ما أن ينتهي ويسحب حبل الجرس. ويكون مارتنسن على وشك أن يشكر أمين المكتبة عندما تنطفئ فجأة جميع الأنوار. ويشرح أمين المكتبة إن السبب هو إن سيد البيت رجل دقيق بشكل استثنائي يرى إن الشخصية الصادقة والقادرة تكون دائماً منيرة داخل نفسها. وبعد كل هذه العوائق، يباشر مارتنسن العمل على مهمته الدينية، على كتابة موعظته، لكنها تعصى عليه. فهو حقاً يعتقد أنّ كل شيء قيل في كلمة الرثاء الممتازة، في جنازته هو، ويقلِّب بشكل محموم صفحات العهد الجديد دون أن يجد أي شيء يناسبه، لأن الكتاب كله ذاتي للغاية. وإذ يضع موعظته غير المنتهية وصورته للمسيح وكتابه الدوغماتية تحت أبطه يخرج متجولاً في الحديقة التي تبدو فلاة يضيئها القمر ويلفها الضباب: كان يبدو لي باستمرار وكأن أحداً يمشي ورائي، ولكن عندما أنظر إلى الخلف لا يكون هناك أحد... وذلك بغيض بما فيه الكفاية للخوف من شيء ما ولكن الخوف من شيء أمر مخيف. ويجادل مارتنسن مع نفسه ومع محيطه اللعين الذي لا يرتقي بالمرة إلى تصوراته عن التناسب الصحيح: كل شيء باروكي، مزوَّق، معوَّج، منحني، متعرِّج، مشوَّه... أنا أُجعل أضحوكة، أنا أُخدع. ويلوذ مارتنسن بكتابه الدوغماتية وتعريفاته للشيطان، لكنه يخلص إلى النتيجة اليائسة بأن الحالة الراهنة هي مسألة شيطنة: أساساً إن الشيطان بالمعنى الدقيق شيء

يستطيع المرء أن يفلت منه، لكن الشيطنة الخالصة ماكرة بحيث تستهين بكل تأمل عقائدي. والأكثر من ذلك إن هذا يجعل من الواضح إن الشيطنة الخالصة أسوأ من الشيطان المحض. ويُجبر مارتنسن على الركوع، وفي وضع الركوع هذا يقدم اعترافاً توبِيّاً: ماذا أنا، وماذا فعلتُ من أجل المسيح شيء لا أستطيع قوله بكلمات، لا بكلمات قليلة ولا بموعظة. ولكني أستطيع قول الآتي، إن الأمر الرئيسي هو إني ولدتُ ولادة موضوعية، وعُمِّدتُ تعميداً موضوعياً ومتُّ موتاً موضوعياً ولذلك أُصلي بخشوع أن تنقذني من كل إطناب ذاتي! ويغادر المنزل الغامض من بوابة حديدية مفتوحة. لم أرغب في النظر إلى الوراء. كان عندي إحساس مؤكد أن الظل كان في ظهري مباشرة، وإنه وقف عند البوابة – وانحنى.

يعقب ذلك تسلسل عاصف. يسافر مارتنسن بحراً ويقع في براثن سلطعون رث، بلا روح، فظ، بلا مخيلة، وحش مبتدئ، في الحقيقة تبلغ به الوقاحة أن يلتهم كتابه الدوغماتية. بعد ذلك يُجبر على تحمل رفقة عدد من أفراد الهوتنتوت الذين يثيرون اشمئزازه لكونهم يقطرون شهوانية بكل تأكيد. وأخيراً يخضع لأشد الاستجوابات عذاباً يجريه معه معلِّم أنيق مختص بتدريس مبادئ المسيحية من الجائز أن يكون مينستر. وبعد هذا كله وأكثر، يجد مارتنسن الممتَحَن هذا الامتحان العصيب نفسه فجأة على أرض بور مرتفعة حيث يلتقي رجلاً يبحث عن فاتورة من خياط سقطت من جيب معطفه. ويزعم الرجل إنه خِرقة وإنه (كما حدد مارتنسن هويته لاحقاً) راسموس نيلسن نفسه. على أية حال، فإن مارتنسن في لهفة لدخول القدس السماوية بكل أُبهة، وبما إنه يود أن تكون معه رفقة فهو يضطر إلى التباهي بنفسه بعض الشيء. فيسأل: هل تعرف ماذا أنا؟ ويجيب نيلسن بصلافة: كلا، يا إلهي، كيف لي أن أعرف ذلك؟ وهذا يغيظ مارتنسن كثيراً حتى إنه يفقد السيطرة تماماً: الآن، اسمع يا هذا، وسأقول لك في اتصال مباشر. أنا، برأيي، تجسيد للعقيدة، موضوعي، أنا انتماء جوهري إلى الكنيسة.

نيلسن الخِرقة ما زال لا يفهم كل هذه الخزعبلات العقائدية لكنه يقترح بلا تردد أن يعترف الاثنان بأحدهما الآخر: الآن، افهمني جيداً. أنتَ بطل وأنا خِرقة. أنت بطل عظيم، وأنا خِرقة عظيمة. أنتَ عظيم في مجالك، وأنا عظيم في مجالي. ألا ينبغي نحن الرجلين العظيمين أن نتفق على الاعتراف بأحدنا

الآخر؟ مارتنسن لا يشعر بوجود ما يغريه بالمشاركة في هذا النوع من الاعتراف الديالكتيكي، ولذلك يقدم نيلسن ضمانات بأنه كان كدوداً على الدوام وإنه في قرارة نفسه كله اختمار. بل، كما يعترف رغم إني لم أجد قط طمأنينة في أي شكل ثابت فإني مع ذلك كنتُ أبحث باستمرار عن بعض المضامين. هذا قول معبَّر عنه بصراحة بعض الشيء، ولكن نيلسن يمضي خطوة أبعد في جنس الاعترافات الأدبي المؤلم قائلاً لمارتنسن إنه بصرف النظر عما كتبه أو متى كتبه فإن الخبراء استطاعوا على الفور أن يروا إني مقلِّد مزعج، وكان كل متاجر بالأدب يهنئني على مواهبي كناسخ.

يريد مارتنسن المرتاع من هذا الإعلان عن التوبة أن يعرف كيف سارت الأمور مع نيلسن في العالم السفلي. لذلك يروي نيلسن كيف أنه، بعد فترة قصيرة على موته، جاء إلى نهر عظيم، عريض، عميق كان عليَّ في النهاية أن أعبره. وأخيراً، عندما لم أتمكن من إيجاد أي طريقة للعبور ناديتُ طالباً المساعدة. ورجل يقف على الجانب الآخر... هل كان شخصاً يرتدي طاقية؟ يقاطعه مارتنسن بقدر من الهلع. ولكن نيلسن لا يعرف ذلك، ولا يتذكر سوى إن أحداً نادى بصوت مطالِب، إيها الروح، ما أنتِ؟ فرد نيلسن بتواضع: سيدي، في العالم لم أكن شيئاً وأنا لا شيء عند الله. ارحمني وساعدني على عبور النهر. أمر الرجل الواقف على الضفة الأخرى من النهر نيلسن بنزع ثيابه والقفز في النهر، وحينذاك سيُستقبل بأحضان مفتوحة. ولكن نيلسن تردد. كان النهر عميقاً وعريضاً، وعندما وضع أطراف أصابعه في الماء التهبت نيران غطت يده بالكامل. ثم نَشَجْتُ وتسولتُ مناشداً الرجل أن يرحمني لأني لم أكن قادراً ولم أجرؤ على رمي نفسي في مثل هذا السيل من النار.

يفترض مارتنسن إن الرجل انزعج وطارد نيلسن، ولكن كلا، لم يطارده، كما رد نيلسن بل: إنه مدَّ جسراً عبر النهر وأمرني بالمجيء كما أنا. فعلتُ ذلك بامتنان عميق على مساعدته. ولكن حين كنتُ راكعاً وعلى وشك أن أشكره مَسَكني بيده القوية وأخذ طشتاً ملتمعاً غمره في النهر، ثم وضع يديَّ في النيران الملتهبة... توسلتُ، نحبتُ، واتهمته، صرختُ إلى السماء، ولكن الرجل القوي كان عنيداً. وعندما أمسك بي ما شاء له أن يمسكني، كان عليَّ في النهاية أن أطلب الصفح، ثم تركني. كانت أصابعي تتوهج لكني كنتُ أتجمد من البرد لأني كنتُ عارياً!

استمع مارتنسن إلى كل ذلك محبوسَ الأنفاس ويريد أن يعرف إن كان نيلسن استعاد ملابسه فيجيب نيلسن إن الشخص غير المسمى رمى ملابسه في نهر النار. ويسأل مارتنسن هل أعطاك معطفاً عتيقاً؟ كلا، يجيب نيلسن، لم يعطني معطفه بل أعاره لي فقط - لبعض الوقت. يا إلهي، أنت حقاً... ويقول نيلسن الكلمة الأخيرة، خِرقة.

تستمر الرواية عبر سيل من التهجمات الأدبية، وسنكتفي بهذا القدر. فكتاب حياة في العالم السفلي ليس عملاً فنياً متألقاً، ولكن إذا تذكرنا إن كاتبه أُستاذ في الفلسفة، سيطل منه الرؤيوي وتكون المشاهد المترجرجة مشاهد مؤثرة تماماً. ومن الواضح إن أهم دافع وراء الرواية هو العداء تجاه مارتنسن، والنفور من سلوكه الرفيع بتصنع، وعدم طبيعيته بأناقة وافتعاليته، وإيمانه المضحك والخرافي بمنظومة عقائدية. ولكن الرواية كانت أيضاً محاولة نيلسن - وإن كانت بطريقة ساذجة بعض الشيء - للمصالحة والتوصل إلى حل وسط، ومجهوداً بهدف أن يجعل نفسه مفهوماً لمارتنسن الذي كان ينشد اعترافه به. ومن المؤكد أن الرواية لا تنتمي إلى أدب الاعترافات ولكنها مع ذلك منفتحة جداً وغير متحوطة، ومن الواضح إن نيلسن شعر بأنه مضطهَد وغير قادر على حل النزاعات التي هو نفسه أتى على وصفها بين كيركغارد ومارتنسن. وكان كيركغارد طالب نيلسن بإبداء تصميم لم يتمكن من استجماعه فيما اعترف نيلسن صراحة بممارسة النقل من آخرين: إنه لم يكن سوى خِرقة، وتلفع بمعاطف كيركغارد العتيقة، وحتى هذه لم تكن إلا إعارة. ولكننا نحدس في الوقت نفسه خوف نيلسن من مشروع كيركغارد، الذي مع ذاتيته المغالية كان له أيضاً بُعد شيطاني، في الحقيقة يقرب بعض الأحيان من انتهاك سلامة نيلسن كشخص.

ملأ نيلسن فيما بعد صورته عن كيركغارد في عدة مسودات لمحاضرة يبدو أنّه أراد أن يلقيها في الجامعة ضمن سلسلة من المحاضرات الشعبية التي كانت تُلقى في أُمسيات للجمهور العام. وعلى ورقة كبيرة بعنوان حركات أفكار كتب نيلسن بصراحة إن كيركغارد أعظم مفكرينا المسيحيين. لكنه أضاف بعد ذلك إن كيركغارد هذا نفسه أراد بحماسة عنيدة وميل إلى المتناقضات وسوداوية متوترة، إحياء المسيحية وإلهاب نفسه إلى أن يكون مسيحياً (مقلِّداً حقيقياً للمسيح). ولكن ماذا اكتشف؟ - إن المسيحية ماتت وما زالت ميتة (ليس فيها

إلا ما يشبه الحياة وشيء وهمي)، وحتى هو نفسه لا يستطيع أن يكون مسيحياً. رجل صادق قال هذا بصراحة.

نيلسن: وغد شيطاني

كانت الأسابيع التي أعقبت نشر رواية نيلسن عن العالم السفلي أسابيع دراماتيكية. مارتنسن عمل كل ما بوسعه لتجنب نيلسن، وكان يعتقد بأنه حتى أولاد الشوارع يجب أن يتجنبوه مثله. وفي مكان ما من المدينة تحدث باولي مع كيركغارد الذي (بحسب مارتنسن) كان رأيه بالعمل نقدياً إلى أقصى الحدود وإنه وجد من المخيف أن يستطيع أحد من أن يكون «حساساً إلى هذا الحد» بحيث إن سجالاً كهذا يملأه ألماً بعد مرور ثلاث سنوات عليه. وكان مارتنسن يستطيع أن يقول أيضاً إن كيركغارد زعم بأنه لم يقدِّم تشجيعاً على الإطلاق في دعم هجوم نيلسن: ما زال باولي على اقتناع بأن هذا كله قيل بأمانة. وهذا جائز بطبيعة الحال. وفي حدود الممكن فإن المرء ينبغي أن يصدِّق الأفضل، وخاصة في هذا الأمر. ولكن من المؤكد مع ذلك إن كيركغارد اتخذ موقفاً متغطرساً، متناقضاً، ومتحفظاً من بداية القضية حتى نهايتها.

غودا قرأ الكتاب وسماه معادياً للمسيحية، الأمر الذي رأى مارتنسن إنه وصف مناسب تماماً لأن نيلسن دنَّس مقاطع من الكتاب المقدس ونسجها في سخريته. وبكل بساطة فإن نيلسن تعامل مع ما هو مقدس بعبث. وكانت هذه نسخة مارتنسن من تعليق مينستر بأن كتاب كيركغارد الممارسة في المسيحية كان مجدِّفاً في اللعب بما هو مقدس. والأكثر من ذلك إن نيلسن وغد، لا يبعد إلا مقدار شَعْرَة عن شيء شيطاني. وأن يكون سمى نفسه خِرقة لم يكن إلا كلبية مقرفة. وبالفعل كان هناك على العموم شيء كلبي يسري في ذلك العمل البشع بأكمله.

في اليوم التالي على كتابة هذه السطور كان مارتنسن في الكنيسة للاستماع إلى باولي يلقي موعظة تثقيفية عن إنكار بطرس لليسوع. كان اليوم عيد ميلاد باولي، وأمضى مارتنسن الشطر الأعظم من اليوم مع مجموعة صغيرة لطيفة من الأشخاص في مقر الإقامة الأسقفية بصحبة أسقفنا الحبيب. وفي يوم الإثنين نشرت صحيفة فادريلانديت مراجعة قاسية بعض الشيء، طولها أربعة أعمدة، وجدها مارتنسن مُرْضية نسبياً بقدر ما إنها على الأقل أعلنت إن المشروع كله

يعاني من عيب، وإنه دحض أيضاً آراء [نيلسن] عديمة الحياء. وبالطبع كان مارتنسن يفضل تجاهل الكتاب إلى أن يموت، وتوجيه ضربات موجعة إلى نيلسن ليدرك الناس كم هو شخص غليظ وبائس. وما كان يجب إيضاحه إن [نيسلن] من الآن فلاحقاً فَقَدَ كل الاحترام بوصفه عالِماً ومعلماً عمومياً في الجامعة لأن محاولة اغتيال كهذه لا بد بالضرورة أن تسفر عن أشنع نوع من الإفلاس يحدث لبروفيسور وعضو في قسم الفلسفة. وإذا حدث أمر كهذا في ألمانيا فإن الطلاب سيقاطعون دروسه. كما حضر مارتنسن احتفالاً بعيد ميلاد دبليو. أتش. روتي W. H. Rothe، الدكتور في اللاهوت، والقس في كنيسة الثالوث. وكان نيلسن مدعواً كذلك، ولكن كما كتب مارتنسن، فأنا بطبيعة الحال لم أعرْه أي اهتمام. هناك أنبياء حقيقيون، وهناك أنبياء كذابون، وكان مارتنسن يتمتع بامتياز هو إن أي شكوك لم تساوره في مَنْ منهم الحقيقيون ومَنْ منهم الكذابون.

في رسالة بتاريخ 15 آذار/ مارس 1853 وجد مارتنسن أخيراً شيئاً يغتبط به: إن عمل [نيلسن] لا يحقق تقدماً ولم يلق تعاطفاً. وفي اليوم السابق تحدث مع الشاب روتي الذي نقل عن نيلسن قوله إن لديه آمالاً عريضة بأن ينتهي الأمر كله نهاية إيجابية وإنه الآن في راحة بال رائعة تراوده أكثر المشاعر إحساناً تجاه مارتنسن. ومارتنسن، من جهته، وصف تعليقات نيلسن بأنها لغو مخيف بعض الشيء ورأى إن المعهود من نيلسن أن يريد التملص من كلماته ذاتها بالجدال. ولكن مارتنسن أصر على أنه لا يكن أي مشاعر كراهية تجاه نيلسن الذي اعترف دائماً بمواهبه الطبيعية، ولكن من الغني عن القول إن من المحال على مارتنسن أن يحترمه، وخاصة بعد فصله الأخير من الخباثة.

لمَّح نيلسن في حديثه مع روتي إلى أنه، إذا كلَّمه مارتنسن عن خلافاتهما الشخصية وأبدى الاحترام المطلوب، لن ينظر إلى نفسه على أنه إمرء مقهور شخصياً فحسب بل سيدلي بتصريح علني بهذا المعنى، تُفصل فيه المسألة الأكاديمية بشكل مطلق وتُوضع جانباً كقضية مفتوحة لمزيد من النقاش. ويمكن أن تعيد فكرة مثل هذا التصريح إلى الأذهان الاعتراف الذي سيطالب به كيركغارد من مارتنسن بعد أكثر قليلاً من عام، ولكن مارتنسن لم تكن عنده أي نيات لعمل شيء كهذا بالمرة. ولكن أليس هذا هو بكل وضوح هراء الشيطان ذاته، كما أبلغ غودا مغتنماً في الوقت نفسه الفرصة لتشجيع غودا على نقد

نيلسن الذي، يحتاج إلى تأديب بوصفه وغداً بحق. وينبغي أن يكون نقد غودا لنيلسن كتابةً وفي شكل اتصال مباشر، الأمر الذي يجب في الحقيقة أن يعتبر عملاً من أعمال الحب لأنه رغم كل شيء فإن نيلسن أفضل من أن يُفقَد. ولكن، كما أصر مارتنسن، إذا كتب غودا عن ذلك فإن عليه أن يفعله على نحو بحيث لن يكون نيلسن قادراً بأي شكل من الأشكال... على أن يرى فيه أي اتصال غير مباشر من ناحيتي.

في 23 أيار/ مايو التقى كيركغارد ومارتنسن في الشارع، وبحسب مارتنسن فإن كيركغارد تبرأ تماماً من نيلسن. وبعد فترة قصيرة على هذا اللقاء أعرب مارتنسن عن رغبته الملهوفة في التمكن من زيارة مستر ومسز غودا في لولاند الحبيبة لبضعة أسابيع في الشطر الأخير من الصيف. واستفسر مارتنسن في رسالته اللاحقة بتاريخ 22 تموز/ يوليو عن التطورات بشأن الكوليرا في لولاند ملاحظاً بحزن انتشارها العنيف في كوبنهاغن. ويبدو أنّ غودا رد على مارتنسن بأنه موضع ترحيب حار ولكن مارتنسن مع ذلك قرر تمديد إقامته في سليسفيغ حتى نهاية الإجازة.

ولعل ذلك كان أذكى شيء فعله، لأنه فيما كان رجال الدين هؤلاء يكتبون عن بعضهم البعض وإلى بعضهم البعض ومع بعضهم البعض وضد بعضهم البعض، كان هناك أشخاص لديهم أمر آخر تماماً يفكرون فيه.

ذات يوم رأيتُ حافلة الجثث تأتي

لعشرين عاماً كانت الكوليرا الآسيوية تتربص وراء الحدود بعد وصولها إلى برلين وهامبورغ وهولشتاين في عام 1831. واتخذت إجراءات احترازية - الأشخاص الذين يصلون بحراً كانوا يوضعون في الحجر، والحدود في جنوب يوتلاند أُغلقت. وشُكلت هيئة صحية استثنائية في كوبنهاغن وفُتحت ردهات للمصابين بالكوليرا في المستشفى البحري وفي نزل الفقراء التابع لكنيسة سيدتنا، وعُممت تعليمات بشأن طريقة التعامل مع المرض. ولكن الخطر مرَّ والهيئة الصحية حُلت، والتدابير الأخرى لم تسفر عن نتيجة.

في مجرى عام 1848 وصل المرض إلى سانت بطرسبورغ، ومنها إلى هلسنغفورس في فنلندا، وفي الدنمارك ظهرت إصابات قليلة في دراغوت جنوب شرق كوبنهاغن. وفي عام 1850 أبلَغت مدينة مالمو جنوبي السويد

عبر مضيق أوريسند من كوبنهاغن، ومدينة لوبيك شمالي ألمانيا عن إصابات بالكوليرا، وكانت هناك بضع إصابات في الدنمارك، وبالتحديد في باندهولم، وهي بلدة صغيرة في جزيرة لولاند جنوبي البلاد، وفي كورسور، وهي بلدة سوقية تقع جنوب شرقي زيلاند. ودفعت هذه الإصابات إلى اتخاذ إجراءات تعبوية جديدة. وأُعيدت التدابير السابقة مرة أخرى، وبُعثت الحياة في الهيئة الصحية، وفُتح محجر بإدارة طبيب كدود اسمه الدكتور هياتلين في كلامبنبورغ على بعد حوالي ثمانية أميال شمال كوبنهاغن. ولكن التصليحات بقيت قليلة في شبكة الصرف الصحي، وحتى أكثر المقترحات تواضعاً - على سبيل المثال كنس الباحات وتنظيف قنوات المجاري - كانت تُقابل بالرفض والتقاعس من جانب الملّاك الممَثلين في حكومة المدينة. ولم يكن أحد يصدِّق حقاً إن مثل هذه التدابير ستكون مجدية، وغُلقت مرة أخرى في عام 1852.

ثم جاء صيف الكوليرا، عام 1853، وأُبلغ عن الإصابات الأولى في 11 حزيران/ يونيو، وعن أول الوفيات بعد أربعة أيام. وخلال الأسبوع التالي توفّي ثمانية آخرون، وفي 24 حزيران/ يونيو أُعلن رسمياً إن المدينة موبوءة بالمرض. وفي اليوم التالي اجتمعت الهيئة الصحية، وفُتحت مراكز لإعداد التقارير في أنحاء مختلفة من المدينة، تبقى مفتوحة على مدار الساعة للإبلاغ عن الوفيات بسبب المرض. وحدثت أول الوفيات في منطقة نيبودر البحرية القديمة والمناطق المحيطة في القسم الشرقي من المدينة. وفي أديلغاده، وهو شارع مكتظ بالسكان، أُصيب 514 شخصاً بالمرض توفّي منهم 331 مصاباً. ولكن حتى شارعاً أرستوقراطياً مثل أماليغاده - ليس بعيداً عن أديلغاده - تأثر إلى حد كبير بالمرض. ولم يكن هذا مستغرَباً لأن الحي كله بُني فوق حُفَر المجاري التي كانت توفر ظروفاً مُثلى لنمو البكتريا.

كان معدل الوفيات بأعلى مستوياته بين الذين يعيشون في المساكن الخلفية المنزوية في الباحات أو الأقبية أو العلّيات والطوابق العليا. وعندما انتشر الوباء

لم يتخذ الكابتن هيرفورت مدير المستشفى العام أي إجـراءات سوى طلب مئتي تابوت. وقبل وباء الكوليرا كان يرقد في المستشفى قرابة 1200 مريض محشورين في ظروف مزرية حقاً. ومر أسبوعان قبل أن يجد المرض طريقه إلى المستشفى ولكن عندما وصل وجد ظروفاً مُثلى تقريباً. وفي غضون

خمسة أسابيع فقط توفّي 538 شخصاً. ولم تكن لدى أحد فكرة عما ينبغي عمله بكل هذه الجثث، وكان من الضروري التقدم إلى وزارة الحرب بطلب استعارة خيم تُقام في المقابر وتُستخدم بمثابة مشارح مؤقتة. وفُتحت ملاجئ خاصة للجثث في حقل الخزّاف في مقبرة أسيستينس والمقبرة الواقعة خارج أماغيربورت مباشرة. وفي الأحوال الاعتيادية كانت الجثة تُنقل بعربة موتى من منزل المتوفى إلى المقبرة. وبعد وباء الطاعون في عام 1711 مُنحت مجموعة من طلاب الجامعة في كلية ريغينسن احتكار هذا العمل، ولكن في الظروف القصوى لوباء الكوليرا عام 1853 لم يتمكن ناقلو الجثث هؤلاء من تحمل العبء الواقع عليهم. وفي رسالة بتاريخ 7 آب/ أغسطس 1853 قدم هانز بروشنر الوصف التالي للمشاهد البدائية والمرعبة التي كانت تتوالى أمام أنظاره حين كان يتجول في أنحاء كوبنهاغن: في كل ساعة من ساعات اليوم، من الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من المساء، عندما كنتُ أمشي نحو المدينة، كنتُ أستطيع أن أرى مواكب الجنازات، وفي الرحلة القصيرة على الأقدام إلى البوابة [نوريبورت] (أسكن وراء البحيرات مباشرة) كنتُ التقي ثلاثة مواكب مختلفة: عربات موتى عتيقة، متداعية، وعربات تجارية، وعربات زراعية وحافلات ومركبات لنقل الأثاث - رغم إني لم أرَ العربات اليدوية المذكورة في صحيفة كيوبنهافنسبوستن. وفي المقبرة تجري الأمور بالحد الأدنى من المراسم. وذات يوم رأيتُ حافلة الجثث تأتي إلى هناك بستة توابيت. فتح أحد حفاري القبور بابها وزحف وراء التوابيت التي دفعها إلى الخارج كأنها بضاعة، وتلقاها الآخرون مطلقين شتى صنوف التعليقات المرحة... كانت التوابيت مسطحة، مصنوعة من ست ألواح مسوَّدة، وكانت مصنوعة صناعة رديئة بحيث إن غطاء أحد التوابيت سقط أثناء إنزاله، فتولى أمره أحد الرجال بإعادته إلى مكانه بقبضته.

انتشر الوباء خلال شهر تموز/ يوليو بالغاً ذروته في نهاية الشهر. واستمرت آثاره المدمرة طيلة شهر آب/ أغسطس بأكمله، وأصبح متقطعاً في أيلول/ سبتمبر، ثم بدأ ينحسر حتى أُبلغ عن آخر إصابة في 13 تشرين الأول/ أكتوبر. وحينذاك كان الوباء استمر أربعة أشهر. ومن بين سكان المدينة البالغ عددهم 130 ألف شخص أُصيب بالمرض 7219 شخصاً وتوفي 4737 شخصاً. وكان من ضحاياه المرموقين الرسام سي. دبليو. إيكرسبيرغ C. W. Eckersberg.

كانت الكوليرا إيذاناً بنهاية كوبنهاغن الأليفة والمريحة. وكان واضحاً

لغالبية الأهالي بأنه يجب أن يُخفف عن وسط المدينة عبء بعض السكان الذين حُشروا فيه. فبدأ تفكيك أسوار المدينة البديعة وبذلك تمكين السكان من الانتقال إلى المنطقة الواقعة وراء البوابات القديمة وإعطاء المدينة بعض الهواء المنعش. وكانت الكوليرا، في المقام الأول، بمثابة تذكير منكود بضرورة عمل شيء ما بشأن الصرف الصحي. فزيارة هذا الضيف الثقيل لم تكن عبثاً.

يجب رفع الأسعار في الصالون

كان تذكيراً غريباً بمفهوم المعاصَرَة: فيما كان سكان كوبنهاغن يموتون أفواجاً كان كيركغارد يفكر فيما إذا كان الشخص يستطيع الدفاع عن السماح لنفسه بأن تُعدَم من أجل الحقيقة - وإذا كان ذلك جائزاً فكيف! ولئن كان صحيحاً إن حي كيركغارد لم تمتد إليه الآثار المدمرة لوباء الكوليرا على نحو خاص فاللافت مع ذلك إنه لم يأت على ذكر الوباء بالمرة في يومياته وقتذاك. ولم يكتب إلا بعد عام، في تشرين الأول/ أكتوبر 1854، فقرة بعنوان أهمية الكوليرا، أوضح فيها إن المرض تمكن من أن يحفر في البشر الحقيقة الماثلة في أنّهم أفراد، الأمر الذي لا تستطيع الحرب ولا أي كارثة أخرى أن تفعله بل إن هذه تعبئ البشر في مجموعات. ولكن الوباء يبعثر البشر إلى أفراد ويعلّمهم - جسدياً - بأنهم أفراد.

ولكن كيركغارد كان بعيداً عن عدم الاكتراث بالمجتمع المحيط به، وفي سنواته الأخيرة وضع المبادئ الأساسية لشيء يمكن أن يُسمى، لعدم وجود توصيف أفضل، نوعاً من الاشتراكية المسيحية. وما يثير الاستغراب إن أفكاره في بعض المواضع مماثلة لأفكار المفكرين الاشتراكيين حتى إننا قد نجد ما يغرينا للاعتقاد بأنه قرأ أعمالهم سراً رغم إن مثل هذا الظن سيكون بلا أساس. وكانت مكتبته تضم عمل سيبّرن بعض الملاحظات المتعلقة بالدولة والكنيسة الذي نُشر في تشرين الأول/ أكتوبر 1849، لكنه تخلى عن سيبَّرن منذ زمن طويل - واصفاً معلّمه السابق بكل صراحة بالمغفل - ولذلك من المستبعد أن يكون قرأ نقد سيبَّرن الموجز لكنه حاد للآثار السلبية الناجمة عن الدمقرطة المتسارعة ومبدأ المنافسة - وهي آثار أراد سيبَّرن التخفيف منها بتنفيذ إصلاحات اجتماعية جذرية.

من جهة أُخرى ليس من المستبعَد إن كيركغارد ربما تعرَّف إلى حد ما على

عمل فريدريك دراير Frederik Dreier وهو كاتب اشتراكي شاب من الجائز إن أعماله استعارت مما موجود في مكتبة أثينيوم التي كان كثير التردد عليها في تلك السنوات. وأياً يكن الأمر فإن كيركغارد ودراير، إذ كانا يحيدان بعيداً عن التوقعات الساذجة والمفرطة بالتفاؤل لثقافة بيدرماير Biedermeier فإنهما يبرزان بوصفهما من الاستثناءات الراديكالية في الحياة الفكرية الدنماركية في تلك الفترة. ولو قرأ كيركغارد عمل دراير الإيمان بالأرواح والتفكير الحر من عام 1852 لتعرَّف على الكثير من آرائه هو ولكن في صورة مرآتية إذا جاز التعبير. إذ كان دراير ينتقد الدين من زاوية نظر علمية - طبيعية وضعية واشتراكية إلى الإنسان يفند فيها أفكاراً وعقائد دينية مختلفة بوصفها مظاهر جهل وخرافة، وإيماناً بالياً بمرجعية السلطة. واستهدف دارير في مدخل كتابه رجال الدين واللاهوت بهجوم كان ينبئ على نحو لافت بما أنتجه كيركغارد لاحقاً: لا يتطلب الأمر جرأة كبيرة للقول إننا سنرى في وقت قريب الناس يضحكون على القساوسة والأساتذة الجامعيين وغيرهم من تجار المصطلحات إلى حد إنهاء أدوارهم. فالضحك سلاح ماضٍ، وسنرى عما قريب إن الذين يضحكون أخيراً يضحكون كثيراً. وتحققت نبوءته بعد ثلاث سنوات. وأكد دراير في سجاله ضد النزعة الدينية المحافظة إن المسيح لم يكن يتطير من الحديث مع الإنسان البسيط في الشارع والسوق معلّماً إياه خبث الطبقة الحاكمة وعدم فائدة المراسم الموروثة. وفي نيسان/ أبريل 1855 سيكتب كيركغارد: وعليه فإن الوعظ يجب ألا يحدث في الكنائس بل في الشارع، وسط الحياة، في واقع العالم الاعتيادي اليومي.

وجَّه دراير نقده إلى اللاتسامح المسيحي وخاصة إلى المظالم الاجتماعية التي من المحتم أن تؤدي إليها إقامة كنيسة دولة. وهكذا شدد على أن الأمر الرئيسي عند المسيح هو العدالة الاجتماعية، ولهذا السبب كان المسيح يعادي ابتزازات رأس المال... وكان يُفترَض بالغني أن يعطي كل ما يملك إلى الفقير. ولم يكن هناك كثيرون يكتبون أشياء كهذه في عام 1853. وأحد القلائل الذي كتبوا كيركغارد الذي كتب: إن المسألة بسيطة تماماً. فإن ع. ج. [العهد الجديد] سهل الفهم إلى أقصى الحدود. ولكن نحن البشر حقاً محتالون ماكرون، ونتظاهر بأننا لا نستطيع أن نفهمه... وأنا أفتح ع. ج. وأقرأ «إذا أردتَ أن تكون كاملاً فاذهب وبع كل أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني». يا إلهي، كل الرأسماليين وكبار المسؤولين الحكوميين والمتقاعدين

أيضاً - بل الجنس كله باستثناء المتسولين - سنَهلك، لو لا العِلم الذي يقصد به كيركغارد هنا العِلم بالعهد الجديد، تفسيره، الذي يحوِّل كل شيء إلى شيء إشكالي وبذلك قطع جذور كل شكل من أشكال الراديكالية.

درايز قرأ كيركغارد بكل تأكيد. إذ كتب إن الزمن ليس بعيداً عندما سيحدث للرهبان الشيء نفسه الذي حدث للمنجمين الرومان: حين كانوا يلتقون بعضهم البعض بقلنسواتهم السوداء وياقاتهم المكشكشة - أوه، يا له من لباس رفيع الذوق - كانوا بالكاد يتمالكون أنفسهم من الضحك على أحدهم الآخر. من الجائز تماماً إن هذه الحكمة اللاذاعة مستوحاة من كيركغارد الذي كتب شيئاً مماثلاً في عمله «إما/ أو». ولكن النقد المحدَّد للذين يكسبون رزقهم بالعمل قساوسة، كان إضافة صغيرة من درايز - وهذا التفصيل على وجه الدقة هو الذي ظهر من جديد في كتابات كيركغارد بعد ثلاث سنوات، كتعبير متميز عن الشكر: عندما كانت الوثنية تنهار كان هناك قساوسة يُسمَّون منجمين. وقيل عنهم إن المنجم كان لا يستطيع النظر إلى منجم آخر دون أن يبتسم. وفي «المسيحية الرسمية» من الجائز أن تكون الحال قريباً إن لا أحد سيكون قادراً على النظر إلى قس - بل ستكون الحال قريباً إن الشخص لا يستطيع أن ينظر إلى شخص آخر - من دون أن يبتسم: لأننا جميعاً قساوسة بطبيعة الحال.

أوجه الشبه بدرايز - التي يمكن توثيقها بالعديد من المقاطع الطويلة - نفسها تبين إن آراء كيركغارد الاجتماعية والسياسية شهدت تحولاً محسوساً منذ أربعينات القرن التاسع عشر عندما كانت أفكاره المحافظة البالية هي السائدة. ويمكن أن تشكل آراؤه من تلك الحقبة دفاعاً عن الظلم الاجتماعي، ولكن استناداً إلى بصائره الجديدة فإنه توصل الآن إلى سلسلة من الخلاصات بالغة الأثر تكشف أحادية آرائه السابقة ونفاقها. ومع ذلك فإن تضامن كيركغارد المعلَن في كتاباته السابقة واللاحقة على السواء مع الإنسان البسيط، ظل بلا تغيير: حقاً، حقاً، إن هذا أيضاً أمر شعرتُ واعترفتُ به، وكان دائماً مصدر إلهام لا يُوصف لي بأنه أمام الله أن يكون المرء خادماً، إذا كان هذا مآله، لا يقل أهمية عن أن يكون أبرز نابغة. وهذا هو أيضاً مصدر تعاطفي المبالَغ به تقريباً مع طبقة بسطاء الناس، مع العوام. ولهذا السبب يمكن أن أكتئب وأحزن لأنهم ضُبطوا متلبسين بالضحك عليَّ وبذلك عزل أنفسهم عن الشخص الوحيد في هذا البلد الذي أحبهم بكل إخلاص. كلا، إنها الطبقة المتثاقفة والميسورة، إن لم يكن

الأرستوقراطيون، فعلى الأقل البورجوازية الأرستوقراطية - هؤلاء هم الذين يجب أن يُستهدفوا، وهنا يجب رفع الأسعار في الصالون.

هذه الفقرة المكتوبة في اليوميات هي من عام 1849 ومن أول الفقرات التي بدأ كيركغارد يرفع السعر الإيديولوجي فيها. وفي ذلك العام نفسه قرأ عمل أي. جي. رودلباخ عن بنية الكنيسة، وركز انتباهه على بضع صفحات تتناول التهديد الذي تشكله البروليتاريا للدولة. وذهب رودلباخ إلى أن الفقر المتفشي في البلد ناجم عن الحرب والنمو السكاني والاستغلال، ولكنه أصر على أن سبب البؤس الحقيقي هو إن الكنيسة خذلت المسحوقين متخليةً عنهم إلى أعمال الإغاثة العامة ونظام الإصلاحية. ولذلك، بحسب رودلباخ، فإنه بالإضافة إلى الأسباب آنفة الذكر هناك الحقيقة الماثلة في أنّ كنيسة الدولة، بكل ميولها الدنيوية، هي نفسها سبب أساسي لنشوء البروليتاريا الحديثة. وأعلن كيركغارد اتفاقه التام مع ذلك وأكد إن فضل الكتاب هو إنه أظهر إن كنيسة الدولة هي السبب في نشوء البروليتاريا أو إنها أسهمت في نشوئها. ولكن من نواحي أخرى شعر كيركغارد إن تشخيص رودلباخ لم يكن راديكالياً بما فيه الكفاية. وعلق كيركغارد قائلاً إن رودلباخ نفسه لم يدرك، على ما يبدو، كم يعني هذا كله ضمناً. وإن ما هو غير ومسيحي وفاجر أن تُقام الدولة على شريحة من الناس يتجاهلهم المرء بالكامل نافياً كل صلة قربى بهم - حتى إذا كانت هناك في أيام الآحاد مواعظ مؤثرة عن حب «الجار».

مرة أخرى، إن ما اختلف معه كيركغارد هو التناقض بين البلاغة الكهنوتية والواقع اليومي، ولكن نقده يستهدف الآن شريحة مادية أكثر بكثير. وفي الفقرة نفسها من اليوميات علق قائلاً إن هذا بالنسبة له اكتشاف تحقق بثمن باهظ. والتلميح الاقتصادي في هذه الاستعارة ليس مصادفة بأي حال. فهو قبل سنوات كان ريعياً قوي المركز بمستوى معيشة مرتفع وفهم قليل نسبياً للمسألة الاجتماعية لكن ثروته تضاءلت الآن حتى إنه في أحلك لحظاته كان يعتقد أنّ عصا متسول تنتظر بفارغ الصبر على الباب.

وهكذا أصبح كيركغارد يدرك إن النزعة الكهنوتية المحافِظة وظفت المسيحية في خدمة الظلم الاجتماعي، وإن رجال الدين بعملهم هذا مدانون بتهمة الاحتيال إزاء القضايا الاجتماعية وإزاء المسيحية على السواء، لأن المسيحية

ليست بالدرجة الأولى دين النظام بل دين الضعفاء والمهمشين، الخارجين على القانون: إذا كانت للمسيحية آصرة بأحد... فإنها بأُولئك الذين يعانون، الفقراء، والمرضى، والمجذومين، والمختلين عقلياً وأشباههم، بالآثمين والمجرمين. وانظروا ما فعلت لهم المسيحية الرسمية، انظروا كيف أُبعدوا عن الحياة لكيلا يحدثوا تعكيراً - المسيحية الرسمية الجادة... إن المسيح لم يقسِّم الناس على هذا النحو، ومن أجل هؤلاء الناس على وجه التحديد كان راعياً... ما حدث للمسيحية في المسيحية الرسمية مشابه لما يحدث عندما تعطي شيئاً إلى طفل مريض - ثم يأتي طفلان أقوى ويخطفانه منه.

كان لدى كيركغارد اهتمام واضح بالجانب النفسي لآلية القمع هذه أيضاً. وهكذا أطلق التعليق التالي عن إحدى مواعظ مينستر (تحدثتْ عن المعاناة لكنها كانت برأي كيركغارد لا تقدم سلوى للشخص الذي يعاني بقدر ما تقدم طمأنة لطيفة للشخص المحظوظ): عموماً، ما لدينا هنا هو مجال كامل للملاحظة النفسية: المكر الذي تسعى به أنانية البشر، متنكرة بشكل تعاطف، إلى حماية نفسها من تأثير بؤس الحياة لمنعه من تعكير نهم الشهوة للحياة... وكم من الأحيان نعظ ونتحدث عن الفقراء بوصفهم أسعد كثيراً من الأغنياء - ويجري هذا تحت قناع التعاطف، وهو يُطرح بطريقة شديدة التأثير: يا لسعادة الفقير القادر على العيش متحرراً من كل أعباء الثروة. فهل هذا كلام يمنح سلوى للفقير؟ كلا، إنه تعبير يلقى ترحيباً حاراً من الأغنياء لأنهم لا يرون ضرورة لإعطاء شيء إلى الفقراء.

هذان الاحتيالان في المجالين الاجتماعي والديني يفترضان أحدهما الآخر مسبقاً، وهما يوفران الظروف لوجود أحدهما الآخر في ديالكتيك مبهَم لكنه ملموس تماماً فرض على كيركغارد أن يعيد النظر في مواقفه السابقة. وكتب كيركغارد الآتي في عام 1854 متوقفاً عند فكرة العناية الإلهية: بين الأشخاص الذين يملكون شيئاً أو أصبحوا شيئاً في العالم كثيراً ما يواجه المرء - أو حتى في غالب الأحيان - ميلاً إلى بعض التدين. فهم يحبون الكلام عن الإيمان بالعناية الإلهية، عن الحاكمية الإلهية... جميل! ولكن إذا حللتَ هذا الورع بمزيد من التمعن ربما سترتعد إزاء هذا النمط من القسوة والأنانية. / فإذا كان المرء يملك شيئاً أو أصبح هو شيئاً في العالم فإنه يريد التمتع بهذه المباهج الدنيوية بطريقة مهذبة من خلال نَسْبِها إلى الله، مضفياً على نفسه أهمية بكونه موضوع عناية

الحاكمية الإلهية، بل ربما موضوعها الخاص. آها! / تالياً، قد يكون لدى المرء ميلٌ لأن يتخيل إنه لكي يستمر في امتلاك هذه المباهج الدنيوية، سيكون من المرغوب فيه أن تكون هناك عناية إلهية، حاكمية إلهية - كضمانة، على ما قد يظن المرء. آها! / الأكثر من ذلك، إن المرء يهنئ نفسه حين يتخيل إن ما حققه في العالم هو في الحقيقة مكافأة من الحاكمية الإلهية لأنه استخدم حياته بحكمة وتقوى. آها!... وأخيراً، بوجود هذه الحاكمية الإلهية يكون لدى المرء حتى دفاع لعدم عمله أكثر مما يعمله من أجل الذين يعانون، لأن المرء يخاف من التدخل بشكل قد يخل بخطط الحاكمية الإلهية لكل فرد.

في فقرات كهذه من اليوميات نجد قسماً من النظرية وبعض الدافع وراء النقد المادي لرجال الدين والمسيحية الرسمية الذي طوره كيركغارد بصورة أكمل بعد عامين في انتقاداته المسعورة للحياة التي يعيشها رجال الدين. وحين كتب إن محور الإنجيل أن يكون الإنجيل للفقراء على وجه التحديد فإنه بالطبع لم يكن يفكر بمقولات اقتصادية ضيقة ولكنه لم يكن يفكر بمقولات رمزية أو تجريدية فحسب أيضاً: هنا ينبغي أن نفهم بكلمة الفقراء ليس الفقر وحده بل كل الذين يعانون، من المنكودين، المعذبين، المظلومين، المعتلين، الضعفاء، المجذومين، المسكونين بالشياطين. يجري التبشير بالإنجيل من أجلهم - أي إن الإنجيل هو من أجلهم.

أس. أي في مواجهة أي. أس

مع تزايد الفردانية خلال منتصف القرن ظهر عدد من المفكرين المتشائمين الذي لم تكن لديهم ثقة تُذكر بقوة العقل بوصفه عضو الجسم الذي يتحكم بحياة البشر مشددين عوضاً عن ذلك على أهمية قوى لا عقلانية، على الجانب المظلم من النفس، على عاطفتها المتقدة، على قبضة الرغبة فيها. وكان أحد هؤلاء المفكرين آرتور شوبنهاور الذي بدأ كيركغارد يقرأه أول مرة في أيار/ مايو 1854 واستمر يقرأه طيلة صيف ذلك العام. وقد يبدو مستغرباً إنه لم يتعرف على المفكر الألماني الذي له تفكير مماثل لتفكيره في وقت أبكر لأن بول مارتن مولر ناقش شوبنهاور في مقاله عن الخلود عام 1837. ودرس كيركغارد مقال مولر بعناية لكنه ربما شعر بالخوف من شوبنهاور وقتذاك لأن مولر تحدث عن جهود شوبنهاور بوصفها مثالاً على الجانب العدمي لمذهب وحدة

الوجود الحديث مستهيناً بالمفكر الألماني الذي وصف فلسفته مستخدماً أشد المفردات صراحة بأنها معادية للمسيحية وعدمية.

وما إذا كان لهذا السبب ذاته على وجه التحديد إن كيركغارد شعر بانجذابه إلى شوبنهاور في عام 1854 فإن هذا يجب أن يبقى سؤالاً مفتوحاً ولكن هناك الحقيقة التي لا مراء فيها بأن كيركغارد – الذي توقف بالكامل تقريباً عن شراء الكتب – حصل خلال فترة قصيرة جداً على كل الكتابات المتوفرة بهذا القدر أو ذاك بقلم شوبنهاور وعنه: رسائل عن فلسفة شوبنهاور الصادر حديثاً، والقضايا الأساسية للأخلاق الذي نُشر عام 1841، وهو عام دفاع كيركغارد عن رسالته الأكاديمية لنيل الماجستير، وأخيراً عن الإرادة في الطبيعة، الذي نُشر عام 1836، حين كان كيركغارد الشاب نفسه في صراع مع الإرادة في طبيعته الكفاحية ذاتها.

وتشير عروض مستفيضة وتعليقات نقدية في مواضع مختلفة من كل يوميات كيركغارد إلى أن العمل الذي قرأه أكثر من سواه (وإن بطريقته اللاخطية المتعرجة، كما هو ديدنه) كان إنجاز شوبنهاور الرئيسي، العالم كإرادة وتمثيل، من عام 1844. وكان هذا هو العمل الذي حقاً استحوذ على اهتمام كيركغارد. وهنا كان شوبنهاور يحاول أن يثبت إن الجوهر الأساسي للوجود هو إرادة عمياء عصية على التحكم بها في الحياة، أو غريزة تحكم الكائن البشري بقدر أكبر بكثير مما يدركه. وتنبع إرادة الفرد من إرادة شاملة في الحياة تريد مواصلة الحياة بأي ثمن وتكون مسرفة مع الأفراد من أجل الحفاظ على الجنس. ويكون الفكر عبد الإرادة، وهو يستطيع، بالطبع، أن يمد الإرادة بموضوعات تستخدمها متى ما يطيب لها، عندما يكون من الواجب عقلنة الأشياء بعد وقوع الحدث، ولكن الفكر نفسه لا تأثير له في قرارات الإرادة. وهكذا فإن الإرادة في علاقتها بالفكر مثل الأعمى القوي الذي يحمل المشلول الذي يبصر على كتفيه. وكلما كان فكر الفرد متطوراً أصبح وجوده أكثر امتلاء بالمعاناة، ولذلك يكون العباقرة مخلوقات ناشزة. ولأن تأثير بؤس العالم ينبع من الإرادة وليس ناجماً عن عيب يمكن علاجه في العالم الخارجي فإن الأمر المهم هو ترضية إرادة الحياة، وبحسب شوبنهاور فإن هذا لا يتحقق إلا بأن ينذر المرء نفسه – بنكران ذات كامل ودون أي رغبة على الإطلاق – للمتعة الجمالية، والزهد، والتضحية الأخلاقية بالنفس. واحتضن شوبنهاور ذلك القسم من البوذية الذي هدفه المحدَّد التحرر من كل الرغبات، وأصبح إنجيله Oupnekhat، أي النسخة

الفارسية من الأوبنشاد. حقيقة إننا نريد ذاتها هي مصيبتنا: لا تمت بصلة إلى ماذا نريد... ونحن نعتقد باستمرار إن الأشياء التي نريدها يمكن أن تضع نهاية لرغبتنا بها في حين نحن وحدنا الذين نستطيع أن نفعل ذلك بالكف عن أن نُريد. وإذا كانت النفس العارفة قادرة على تحرير نفسها من النفس التي تريد وتكرِّس نفسها للنظر إلى شيء دون أن تريده فإن النفس تنظر إلى تشيئات خالصة للإرادة، للأفكار، وستجد الراحة.

الغريب إني أُسمى S. A. وبذلك تكون لدينا علاقة معكوسة بين أحدنا الآخر، كما كتب كيركغارد الذي تعين عليه أن يقصر نفسه على الحرفين الأولين لاسم سورين آبيSoren Aabye ليبين علاقته المقلوبة باسم آرتور شوبنهاور Arthur Schopenhauer. ومضى يشرح إن شوبنهاور كاتب مهم... ورغم الاختلاف التام فوجئتُ بأن أجد كاتباً يؤثر فيَّ إلى هذا الحد. ولا بد إنه وجد من الغريب بل ومن المقلق تقريباً اكتشاف فيلسوف يعادي الهيغلية والتاريخ والمؤسسة الأكاديمية والمرأة بقدر عدائه هو لها. وكان الاثنان يشبهان أحدهما الآخر حتى في تفاصيل سيرة حياتهما: كان شوبنهاور، مثله مثل كيركغارد، ابن تاجر ميسور تزوج امرأة تصغره نحو عشرين عاماً، وحين توفّي ترك ثروة مكّنت الابن من الاستمرار طويلاً في ممارسة مهنة الفلسفة وأبقته - بطريقة كيركغاردية تقريباً - مديناً بالعرفان لوالده. لم تكن هناك نسخة من ريجينة في حياة شوبنهاور العاطفية التي اقتصرت على ارتباط في البندقية وعلاقة غرامية في درسدن أسفرت عن إنجاب بنت لكنها ماتت حين كان عمرها شهرين فقط. وبقي شوبنهاور غير متزوج ولكن ليس وحيداً لأنه عاش حياته بصحبة سلسلة طويلة من كلاب البُودِل كلها اسمها آتمان، وهو الاسم الهندي لمفردة النفس. كما كان شوبنهاور يشبه كيركغارد في علاقاته الصعبة مع الجامعة، ولكن بخلاف كيركغارد لم يكن مكتفياً باستخدام كتاباته لمكافحة فلسفة الأساتذة الأكاديمية. وعندما عُين شوبنهاور في جامعة برلين حيث كان هيغل ينشر عقائده الخاطئة وسط إطراء بالغ، وضع مواقيت محاضراته لتكون مطابقة تماماً مع الساعة نفسها التي كان هيغل يلقي فيها محاضراته فصلاً إثر آخر ولكن دون نجاح يُذكر. فإن نظرته إلى العالم لم تكن من المواضيع المطلوبة في الامتحانات ولذلك لم تكن تثير اهتمام الطلاب. وبدلاً من ذلك كان شوبنهاور يختبر مواهبه كمترجم لأعمال كانط إلى الإنكليزية وأعمال هيوم إلى الألمانية، وعرض أيضاً تنقيح

ترجمة فرنسية لأعمال غوته ونشر طبعة إيطالية لأعمال برونو ترافقها ترجمة لاتينية. ولكن هنا أيضاً لم يكن هناك اهتمام يُذكر. بيد إن هذا لم يؤثر في اعتداد شوبنهاور بنفسه، الذي كان دائماً اعتداداً هائلاً وله خصوصية كيركغاردية في أنّه على ما يبدو يتزايد كلما زادت المعارضة التي يلقاها من العالم الخارجي. وكانت مبيعات أعمال شوبنهاور هزيلة جداً تنتهي غالبيتها إلى ورق خردة، كما هي الحال مع كتابه العالم كإرادة وتمثيل الذي لم يصدر في طبعة ثانية حتى عامين قبل وفاة المؤلف. ولكن شوبنهاور لم يشك قط للحظة واحدة في أنّ نتاجه ذو أهمية حاسمة للفلسفة. وكتب بحس فني ملحوظ يطرح به محاجَّته بل إنه أصر بصراحة على أن فلسفته، بخلاف كل الفلسفات السابقة ما عدا فلسفة أفلاطون، هي بكل بساطة فن. وفي الحقيقة إن كيركغارد اكتشف في شوبنهاور ما كان يحبه في ليسنغ: الأسلوب. كان هناك إيقاع في خطابية شوبنهاور لأنه، مثله مثل كيركغارد، كان موسيقياً يحب موزارت الذي كثيراً ما كان يعزف أوبراته لنفسه على الناي، وهي موهبة إن كيركغارد كان على الأرجح سيحسده عليها.

وهكذا كانت هناك أوجه شبه بين أي. أس. وأس. أي. رغم إن هذا كان أحياناً يذهب أبعد من اللازم في فائدته. وعلى سبيل المثال، عندما علم كيركغارد إن شوبنهاور وصف الصحافيين بأنهم أولئك الذين يؤجّرون الآراء فإنه اغتبط لذلك واجداً إن هذا التعبير تعبير قيّم حقاً، لكنه أضاف على الفور ملاحظة في الهامش تقول: من ناحية أجد الشروع في قراءة أعمال شوبنهاور بغيضة تقريباً. وعندي قلق وسواسي إلى حد لا يُوصف من استخدام تعابير شخص آخر وما إليه من دون اعتراف بذلك. ولكن تعابيره مشابهة أحياناً لتعابيري حتى إني في قلقي المبالَغ به ربما أنسب إليه أشياء هي في الحقيقة مُلكي أنا. وكانت مناسبة أحد الأمثلة اللطيفة على مثل هذه الحالات البغيضة كلمة قِرْبَة التي يستخدمها شوبنهاور استخداماً رائعاً وخاصة عندما يتحدث عن الفلسفة الهيغلية والفلسفة المهنية بأكملها. هام كيركغارد بهذه المفردة - التي كانت مناسبة بصورة مُثلى لعصر فلسفة الأكاذيب - هياماً حتى إنه للحظة أصبح يحسد اللغة الألمانية. لكنه بعد ذلك فكر في الأمر، وفي محاجَّة مشكوك فيها بقدر ما هي ساحرة، أوضح كيركغارد لماذا لم ترد الكلمة في اللغة الدنماركية: **نحن الدنماركيين ليس لدينا هذه الكلمة ولا الشيء الذي تصفه الكلمة هو من سماتنا نحن الدنماركيين. فإن شخصية الأمة الدنماركية لا تتضمن في الحقيقة**

إمكانية أن يكون المرء قِرْبَة. ويستطيع الدنماركيون أن يتنفسوا الصعداء ولكن ليس طويلاً لأن كيركغارد يتابع: من الجهة الأخرى، نحن الدنماركيين عندنا منقصة أخرى - للأسف، منقصة مطابقة - تملك اللغة الدنماركية مفردة لها، مفردة ربما غائبة عن اللغة الألمانية هي windsucker أو شافط الريح. وهي تُستخدم على نطاق شائع عن الخيول ولكن بالإمكان تطبيقها بشكل أعم. وهذا هو الوضع بهذا القدر أو ذاك: ألماني يُخرج ريحاً ودنماركي يشفطها. وكانت بين الألمان والدنماركيين هذه العلاقة مع بعضهم البعض منذ زمن طويل. وبهذا التم شمل أي. أس. وأس. أي. من جديد في تناظرهما المقلوب: أي. أس. كافح ضد القِرَب وأس. أي. ضد شافطي الريح.

من نواحي أخرى لاحظ كيركغارد بالدرجة الرئيسية خلافاتهما. ولتبسيط الموقف قليلاً كان كيركغارد يتحدث أخلاقياً عن أمور نفسية في حين كان شوبنهاور يتحدث نفسياً عن أمور أخلاقية. وعند شوبنهاور فإن النعيم يتألف من أن يصبح المرء موضوعياً، نقياً، منزَّهاً، وتأملياً، في حين عند كيركغارد، من الجهة الأخرى، فإن المهم هو أن يصبح المرء ذاتياً ويربط نفسه في عاطفة متقدة بنعيمه الأزلي. ولكن كيركغارد كان أقل اهتماماً بمواقف شوبنهاور التجريدية تماماً منه بممارسة شوبنهاور الوجودية التي انتقدها بحدة في عدد كبير من الفقرات التي كتبها في يومياته. وإن واقعة معينة في حياة شوبنهاور جعلت المشكلة مرئية بحدة. ففي عام 1837 اقترحت الجمعية العلمية النرويجية السؤال التالي لمقال يتنافس على الميدالية الذهبية: هل يمكن إثبات حرية الإرادة البشرية على أساس الوعي الذاتي؟ وقدم شوبنهاور إجابة فاز عليها بالميدالية الذهبية. وما أن حدث هذا حتى اقترحت الجمعية العلمية الدنماركية سؤالاً ذا علاقة صاغته بلغة بيزنطية لا يمكن على الأرجح أن تخطر إلا ببال البروفيسور سيبَّرن: هل ينبغي البحث عن مصدر الأخلاق وأساسها في تطور فكرة الأخلاق كما هي متاحة آنياً للوعي وفي الأفكار الأخلاقية الأساسية التي تنبثق منها، أم في مصدر آخر للمعرفة؟ ومرة أخرى قدم شوبنهاور إجابة عن هذا السؤال لكنه لم يربح الجائزة بل كان هدفاً للكثير من النقد لأنه، برأي لجنة الحكام، لم يسئ فهم السؤال وارتكب عدداً من الأخطاء الشكلية فحسب بل كتب أيضاً عن البعض من أهم الفلاسفة المعاصرين بطريقة وجدتها اللجنة غير لائقة وجارحة إلى أقصى الحدود. ونشر شوبنهاور إجابتيه لهاتين المسابقتين في كتابة مقال

تحت عنوان مشترك هو مشكلتا الأخلاق الأساسيتان وأرفقهما بمدخل طويل تهكم فيه على الحكم ضيق الأفق الذي أصدرته الجمعية العلمية الدنماركية. وهو بكل تأكيد لم يخرج عن الحدود بعمله هذا إذا - وهنا كان اعتراض كيركغارد - إذا لم يضع نفسه بعمله هذا في نزاع مثير للسخرية مع أخلاقه ذاتها: لكنه ليس عصياً على التفسير. فهو إذ يمثل - وبموهبة كهذه - نظرة إلى الحياة بهذا القدر من البغض للجنس البشري، مغتبط إلى حد بعيد... حتى إن الجمعية العلمية في تروندهايم (يا إلهي، في تروندهايم!) توَّجت مقاله المرشح للجائزة... وعندما امتنعت كوبنهاغن عن تتويج مقال آخر مرشح للجائزة كتبه شوبنهاور فإنه يستشيط غضباً عليها، بكل جدية، في المدخل المرفق بنشره.

سلط اعتراض كيركغارد ضوء على النقطة المركزية في نقده لشوبنهاور، وهي غياب التكرار، المسافة بين النظرية والممارسة. وأُضفيت على هذا مسحة دراماتيكية على نحو فريد بالارتباط مع أفكار كيركغارد عن مصير شوبنهاور في ألمانيا: تعلّم شوبنهاور حقاً أن يقدر الحقيقة الماثلة في أنّ... داخل الفلسفة هناك طبقة من الأشخاص يعتاشون على الفلسفة وراء قناع تدريسها... وشوبنهاور خشن على نحو لا يُضاهى في هذا الشأن. إلى هذا الحد كل شيء على ما يُرام، ولكن الأمور تبدأ الآن بالاشتطاط: شوبنهاور ليس شخصية، إنه ليس شخصية أخلاقية، ليس عنده حتى شخصية فيلسوف يوناني، وأقل من ذلك شخصية ضابط شرطة مسيحي... كيف يعيش شوبنهاور؟ إنه يعيش وجوداً انطوائياً، يطلق بين حين وآخر زوبعة رعدية من النعوت الفظة - التي يجري تجاهلها. نعم، أو لا ترون، هذا هو الوضع. وكان كيركغارد ينظر إلى تنصيب المرء نفسه متحدثاً باسم التشاؤم - في الوقت الذي يتبوأ مثل هذا الموقع الممتاز - على أنه تجسيد للسفسطة لأن السفسطة نجدها في المسافة بين ما يفهمه المرء وما يكون عليه المرء. والشخص الذي لا يدخل في طابع ما يفهمه هو شخص سفسطائي.

لم يكن كيركغارد قطعاً أول شخص يسوق هذا الاعتراض على شوبنهاور. وعلى هذه التهمة رد شوبنهاور بالشكل المناسب تماماً قائلاً بأنه سيكون من الغريب حقاً أن يُشترَط على فيلسوف أخلاقي ألا يوصي بالتزام الآخرين بمستوى من الفضيلة أعلى مما بلغه هو. ونستطيع أن نضيف إن هذا هو بهذا القدر أو ذاك ما كان كيركغارد نفسه يفعله حين كان يكرر القول إنه شاعر، وإن

نقده لغياب التكرار عند شوبنهاور لا معنى له في الحقيقة إلا عندما يُفهم على أنه نقد ذاتي مُزاح أو غير مباشر. والأكثر من ذلك إن شوبنهاور كان في الحقيقة يتّبع تعليماته الزاهدة ذاتها إلى حد بعيد: بصرف النظر عن الطقس، كان يمشي فترات طويلة في ريف فرانكفورت حيث عاش منذ عام 1833. وكان يأخذ حمامات باردة، ويعيش حياة منتظمة ودقيقة كأنه إيمانويل كانط من نوع ما - أو سورين كيركغارد.

شوبنهاور الذي درسه كيركغارد في السنة الأخيرة من حياته عاش بعده ست سنوات أخرى، وبخلاف زميله الدنماركي فإن نظرة شوبنهاور إلى الحياة في سنواته الأخيرة أصبحت أكثر تفاؤلاً منها في أي وقت مضى (رغم إن هذا قد لا يكون واضحاً على الفور حين ننظر إلى الرجل المتجهم والعبوس الذي ينظر إلينا ببرم من الصور القديمة التي كانت تُطبع على ألواح فضية في السنوات الأخيرة من حياته). ولكن بعد ثورات 1848 وخيبة الأمل التي أعقبتها، كان الوقت ناضجاً لاستقبال رسالته المريرة، وعاش شوبنهاور المتشائم الإحساس الغريب بالنجاح إلى درجة كادت تجعله متفائلاً. وهكذا كان الشطر الأطول من عمله الأخير يتألف من سلسلة أقوال مأثورة عن حكمة الحياة تقدم نفسها إلى القارئ بوصفها تمارين صغيرة في فن عبور الحياة بغبطة وسعادة قدر الإمكان. وكان هذا شيئاً لاقى هوى مباشرةً لدى البورجوازية المسترخية، وأثار حنق كيركغارد حتى إن الفقرة التي كتبها في يومياته تطايرت أشلاءً عملياً: ليس هناك أدنى شك بأنه إزاء ما عليه الأوضاع حالياً في ألمانيا - يمكن أن نرى ذلك بسهولة من برابرة الأدب وحمّاليه والصحافيين وصغار الكتّاب الذين انشغلوا كثيراً بشوبنهاور - إنه سيُجَر الآن إلى المسرح ويُعلن عنه. وأُرهان مئة إلى واحد إنه - إنه سيفرح فرحاً غامراً بحيث لن يخطر بباله أن يقلل من القُمامة. كلا، إنه سيكون سعيداً. وهكذا لم يكن شوبنهاور متشائماً إلا بمقدار ما كانت تقتضيه الظروف الخارجية، ولكن ما أن كان الزمن بجانبه حتى أصبح تشاؤمه أسلوباً، وفلسفته مقبولة، وعداؤه للأنظمة ممنهجاً: إذاً، إنه يأخذ على عاتقه تخصيص مكان للزهد في النظام... وهو يقول، ليس من دون قدر كبير من الرضا عن النفس، إنه أول شخص خصص مكاناً للزهد في النظام. للأسف، إن هذا ليس إلا كلام بروفيسور: «أنا أول مَنْ خصص له مكاناً في النظام».

من سمات كيركغارد في سنواته الأخيرة إنه يفسر فلسفة شوبنهاور

بيوغرافياً – لم يفعل شيئاً من هذا القبيل مع مارتنسن ومينستر مثلاً – ولم تكن لديه شكوك في كيف استطاع شوبنهاور أن يحرر نفسه من التزوير الذي كان غارقاً فيه: كلا. تعامل مع الأمر بطريقة مختلفة. اذهب إلى برلين. أخرج هؤلاء الأوغاد إلى مسرح الشوارع. تحمَّل أن تكون أسوأ الأشخاص صيتاً، يعرفك الجميع... هذا ما مارستُه أنا – بالطبع على نطاق أصغر – هنا في كوبنهاغن... ثم تجرأتُ حتى على عمل شيء آخر – لأني على وجه التحديد وُضِعت تحت أمر ديني – تجرأتُ طواعية على كشف نفسي لأن أكون كاريكاتيراً وموضع سخرية من كل الغوغاء، من بسطاء الناس إلى الأرستوقراطيين، كل ذلك من أجل تفجير أوهام... ولكن أي. أس. [آرتور شوبنهاور] ليس هكذا على الإطلاق. إنه من هذه الناحية لا يشبه أس. أي [سورين آبي] بالمرة.

يفضي هذا المنظور الشخصي إلى مشكلة مبدئية أعمق ستعود بعد قدر من الدوران الديالكتيكي (كما سنرى) إلى كيركغارد في شكل شخصي للغاية: شوبنهاور يستخف بالمسيحية، يحقِّرُها بالمقارنة مع الحكمة الهندية. وهذا شأنه. ليس عندي شيء ضد غضب شوبنهاور الجبار على هذا التفاؤل المقيت الذي هو مجال اختصاص البروتستانتية على وجه التحديد. وأنا سعيد جداً أنه يبين إن هذه ليست مسيحية على الإطلاق. وهنا، كما في مواضع أخرى، كان كيركغارد متسامحاً إلى أقصى الحدود مع الذين يجاهرون بشجب المسيحية، ولكن كان عليه مع ذلك أن يحتج على ظرف محدَّد واحد هو إن شوبنهاور حدَّد العيش مع المكابدة لأن المسيحية تُلغى عندئذ. فإذا كانت الحياة تعاني أصلاً من البداية نفسها، ستُحرَم المسيحية من شيء يساعد على جعلها قابلة للتحديد سلبياً وتصبح حشواً، ملاحظة فائضة عن الحاجة، لغواً، لأنه إذا كان كون المرء بشراً يعني أن يكابد فإن من الخطل بالطبع أن تكون هناك عقيدة تقترح التعريف الآتي: أن يكون المرء مسيحياً يعني أن يكابد.

كان كيركغارد متلهفاً على توكيد خطأ شوبنهاور في مماهاة الحياة مع المكابدة. ومن المؤكد أن عصره المتحلل والسطحي أفاد من التلظي على جمر المالنخوليا السوداء ولكن الحياة سعادة، الحياة ليست مكابدة. ولا تصبح الحياة معاناة إلا حين تتدخل المسيحية. وفي هذا الشأن يستحضر كيركغارد شخصية يوهانس كليماكس الذي حاشيته الختامية صاغت بالفعل المبدأ القائل، أن تكون مسيحياً يعني أن تكابد وهكذا فإن كل فكرة عن الرغبة في قتل

شهوة الحياة أو إماتتها لا يمكن أن تكون ذات معنى إلا إذا وُجد الفرد في علاقة بمرجعية عليا خارج الفرد، إله يأمر الفرد بأن يميت الرغبة الجسدية.

رغم الاختلافات والخلافات بين الرجلين، فإن تشاؤم شوبنهاور كان له تأثير مثمر في كيركغارد وزاد انتقاداته حدة. وكيركغارد الذي نادراً ما كان يُفكر في طلاب اللاهوت المقبلين قرر أن يخرج عن القاعدة بعد لقائه شوبنهاور: مثلما إن المرء خلال الأوبئة يضع شيئاً ما على فمه لتفادي العدوى، إن أمكن، من خلال تنفس الهواء المشحون بالمرض، فإنه يستطيع أن يوصي طلاب اللاهوت الذين يجب أن يعيشوا هنا في الدنمارك وسط هذا التفاؤل (المسيحي) الذي لا معنى له بأن يتناولوا جرعة صغيرة من عمل شوبنهاور الأخلاق كل يوم للوقاية من عدوى هذا الهراء. ويختلف الأمر معي. فإن وقايتي تأتي بطريقة مختلفة.

المسيحية هي اختراع الشيطان

كيركغارد لم يكن بكل تأكيد مهدداً بعدوى التفاؤل التي أصابت زمنه بل على العكس. فإن يومياته من تلك السنوات تضج بالطَرْقات الرتيبة لكره البشر. وأصبح مشغولاً باللا إنسانية باسم المسيحية ناقلاً، كاللازمة تقريباً، الوصف الساخر للمسيحية المبكرة كما صورها عدد من الكتاب بينهم تاسيتوس: odium generis humani، كُرْه كل شيء بشري. ثم طرح كيركغارد وجهة نظر خاصة به: نظرة إلى المسيحية، في حدود علمي لم تُطرح قط من قبل، ترى إن المسيحية من صنع الشيطان، محسوبة بأن تجعل البشر تعساء بمساعدة المخيلة. ومثلما إن الدودة والطير يبحثان عن الفاكهة الأفضل فإن الشيطان استهدف المتفوقين، أولئك الذين لديهم مخيلة خصبة ومشاعر وفيرة لاستدراجهم إلى طريق الضلال بواسطة المخيلة دافعاً إياهم إلى أن يجعلوا أنفسهم تعساء، وإذا أمكن، جعل الآخرين أيضاً. هذا الرأي على الأقل يستحق سماعه.

سُمع هذا الرأي بكل تأكيد - وتحديداً عندما وصف كيركغارد فهمه للمسيحية الذي جُعلت الحياة الطبيعية فيه موضع كثير من الكراهية بحيث قد يكون من الصعب التمييز بين الله والشيطان. وكتب إن المؤكد أيضاً إننا ما أن نبلغ ذلك المستوى الرفيع الذي يكون نقطة الانطلاق الحقيقية لأي نقاش حول ما يعنيه أن يصبح المرء مسيحياً، عندئذ تكون كل خطوة من الصعوبة والخطورة أخلاقياً حتى إنها تكون باستمرار أشبه بموقف الاختيار بين الأحمر أو الأسود

[في لعبة الروليت]: إما الله أو الشيطان. ولم يجمع كيركغارد هذه المبادئ الأساسية لمذهب عبادة الشيطان في موضوعة متماسكة لكنه واصل فقرته في اليوميات بأحد تهجماته المألوفة على الفوضى التي تُسمى المسيحية الرسمية، أُولئك الملايين من المسيحيين الذين يمثلهم كما هو معهود جاهل بورجوازي ميسور، ناخر، لا يحل ولا يربط، وهذا من وجهة نظر مسيحية مثير للسخرية كما لو إن البرج الدائري أراد أن ينتحل شخصية فتاة راقصة شابة في الثامنة عشرة من العمر.

الاستعارة استعارة جيدة، لكنها غرائبية أيضاً لأنها تكتسب قوتها الهزلية الكاملة بتصادم عنصرين لا يمتان بصلة إلى أحدهما الآخر. وهي بحد ذاتها نموذج لسلسلة من استعارات كيركغارد في تلك الفترة، كلها تشدد على المسافة بين المسيحية والعالم، بين الشرط الأخلاقي والطبيعة. وفي كل حالة يكون التناشز محور الاستعارة لتصبح مرتبطة ارتباطاً حميمياً أكثر فأكثر بكيركغارد نفسه. وهكذا في 13 شباط/ فبراير 1854 كتب الآتي تحت عنوان مهمتي. وعن نفسي: العامل الحاسم بشكل مطلق هو إن المسيحية تناشز، تناشز مع العالم، حتى إنها لاعقلانية إزاء العالم، وإزاء كون المرء بشراً بمعنى بسيط. وسُمع هذا من قبل، الأمر الذي يكون واضحاً من الاستعارات، ولكن كيركغارد تابع بعد ذلك: منذ سنواتي الأولى كنتُ أفزع من وجود شوكة في الجسد، وارتبط بذلك أيضاً وعيي بالذنب والخطيئة. شعرتُ إني متناشز. وفهمتُ هذا الألم، التناشز، على أنه علاقتي بالله.

هكذا، أولاً جاء الألم، حياة المعاناة، الشعور بالتناشز، وبعد ذلك - أو بتعبير أدق لذلك - جاءت العلاقة بالله. بكلمات أخرى، هنا لم تكن العلاقة بالله هي التي أدت إلى المعاناة - وهو ما أصر عليه كيركغارد في جداله ضد شوبنهاور - بل العكس على وجه التحديد: إن المعاناة هي التي أدت إلى العلاقة بالله! ولذلك يكون أكثر من معقول أن تذهب بنا الظنون إلى أن كيركغارد رحّل إلى مسيحية تناشزه هو، عدم انسجامه الراديكالي. وليست المشكلة إن شهوة الحياة يجب أن تُقتل أو تميت. كلا، المشكلة هي إماتتها الفاشلة حيث الطبيعة التي كان ينبغي أن تُقتل رفضت أن تموت وخرجت بعدوانية ضد الجميع، مع شرط محتدّ لمعارضة الطبيعة والموت من العالم. وبهذه المناورة تختفي كل أشكال المرجعية الصالحة عموماً، ولهذا السبب لم يبق شيء قادر على تصويب

الذات المجردة من طبيعتها، التي لا تُحال إلا إلى نفسه: أليست المسيحية تجعلني أنانياً كبيراً، أو ألا تطوِّر أنانيتي بصورة شاذة تماماً لأنها بتخويف الشخص بأعظم صنوف الرعب تجعل همه الوحيد والأوحد هو خلاص نفسه، ساهياً بشكل مطلق عن النواقص الممكنة لسائر الآخرين ومواطن ضعفهم؟ يقف السؤال هناك للحظة صارخاً إلى السماء، ويشعر القارئ برغبة متزايدة في رفضه بوصفه سؤالاً لامعقولاً. ولكن بعد فوات الأوان لأن كيركغارد كتب أصلاً: عن ذلك يجب أن تكون الإجابة: «إن الحقيقة» لا يمكن أن تتصرف خلاف ذلك.

وإلى هذا يجب أن يُقال: إن كيركغارد، أي كيركغارد المتأخر، لم يتمكن من التصرف خلاف ذلك. وانبثق هذا الموقف، هذه الأنانية المتطورة بصورة شاذة، من تكثيف أقصى للأطروحة القائلة إن الذاتية هي الحقيقة. وما فُقد هو الديناميكية الديالكتيكية الصادرة عن النقيض - حيث الذاتية هي اللاحقيقة. وكيركغارد ليس هو المجنون بل لاهوته المجنون، ويُعزا هذا تحديداً إلى فقدان هذا البُعد الديالكتيكي.

وبفضل هذا الفقدان اكتسب كيركغارد في النهاية وضوحاً بشأن مهمته الاستثنائية.

25. كنيسة سيدتنا. وعلى مسافة في نهاية شارع نوريغاده أول بناية في ديركوب. وهنا استأجر كيركغارد غرفاً من مسز بوريس خلال سنواته الأخيرة - قريباً جداً من المدينة الرئيسية في الدنمارك.

26. ياكوب بيتر مينستر. ليس لديك فكرة أي نوع من النبات السام كان مينستر، كما قال كيركغارد المحتضر لصديقه أميل بويسن. ولا يبدو مينستر بريئاً تماماً وهو يجلس هنا بالملابس الكنسية المهيبة. والمفارقة إن أسنانه المفقودة تمنحه مسحة جشعة أشبه بسمكة القرش. وبوصفه من رجال كنيسة الدولة فإنه كان إدارياً حريصاً وكفئاً، محافظاً لكنه ليس متزمتاً حقاً في التمسك بالطقوس الكنسية التقليدية. واتسمت علاقة كيركغارد بمينستر - قس والدي - بتذبذب استثنائي. وبالطبع كانت الآراء بشخصية مينستر منقسمة ولكن كيركغارد لم يكن الوحيد في هواجسه. أتش. أن. كلاوسن على سبيل المثال كتب في مذكراته كنتُ أحياناً أُصادف في الكرادلة الرومان مزيجاً مماثلاً من النبرة الاجتماعية، المهذبة الصقيلة والكهنوتية المداهنة.

27. هانز لاسن مارتنسن. أدركتُ على الفور إن فكره فكر عادي لكن لديه كذلك دافعاً للسفسطة، للألعاب التي تنشغل بتوافه الأمور، كان يتبدى في كل مناسبة، ويكون في أحيان كثيرة متعباً. هكذا كان مارتنسن يتذكر سورين آبي الشاب الذي تعاقد، من جيب والده، مع هذا الرجل الكفء بشكل متميز الذي ستكون له حياة مهنية ذات نجاح منقطع النظير، ليكون أستاذه الخصوصي. وفي المعركة على ما يشكل شاهداً صادقاً على الحقيقة تحدث مارتنسن علناً مرة واحدة فقط، بعدها تخندق في صمت سماه كيركغارد صمتاً لا يمكن الدفاع عنه من وجهة نظر مسيحية، صمتاً مثيراً للسخرية، غبياً - فطناً، ومبعث ازدراء. وترك هذا الهجوم أثراً عميقاً في مارتنسن، يتبدى بوضوح في سيرته الذاتية حيث يصف كيركغارد بأنه ملاك اتهام ويسمّي حملته خبرة من أبغض نوع.

28. نيكولاي فريدريك سَفَرين غروندتفيغ. رغم إعجاب كيركغارد بعلم غروندتفيغ الأسطوري وثقل شخصيته وطاقته الطبيعية التي لا تنام فما من أحد آخر نال معاملة على هذا القدر من عدم الاحترام في يوميات كيركغارد حيث وُصف العملاق الإسكندنافي بنعوت منها مشاكس عالمي - تاريخي، حداد ذو منفاخ، رجل يولول من صميم القلب ومحارب يعب البيرة الإسكندنافية. قرأ غروندتفيغ الأعداد المختلفة لمطبوع اللحظة The Moment ووصف كيركغارد بأنه أحد الساخرين الجليديين الذين كانوا دائماً يتدلون تحت سطح الكنيسة مثل قطع الجليد مستدقة الأطراف.

29. بيتر كريستيان كيركغارد. التردد يبدو وكأنه تقريباً يشع من عيني بيتر كريستيان كيركغارد الذي تقرر مصيره إلى حد ما بالظرف المتمثل في كونه الشقيق الأكبر لشقيق أصغر كان عبقرياً. دافع عن أطروحته عن الكذب في غوتنغين حيث أكسبته بلاغته وحذاقته الديالكتيكية لقب المناظِر الشيطاني من إسكندنافيا. ورغم مؤهلاته لم يُعيَّن بمناصب مهنية في الفلسفة أو اللاهوت لأنه، على ما يفترَض، كان صاحب ميول خاطئة لاهوتياً للتعاطف مع غروندتفيغ. وفي عام 1875، بعد نحو عشرين عاماً من العمل أسقف آلبورغ، قدم الرجل السوداوي والمنكسر روحياً استقالته لأنه شعر إنه غير جدير بالمنصب.

af
W. v. Sommer.
6 Blade, elegant udført i Farvetryk. — Priis 3 Rd.

Udkommen er:

Dette skal siges: saa være det da sagt.
Af
S. Kierkegaard.
Priis 12 sk.
C. A. Reitzels Bo og Arvinger.

Paa vort Forlag ere Sangene udkomne af

Farinelli.

Complet 1 Rd. 16 sk.; i enkelte Nr. 1, 2, 4, 6 og 7 a 24 sk.; 3 og 5 a 36 sk.

C. C. Lose & Delbanco,
Gothersgade 348.

Udkommet hos **Jordan** (Pilestræde 119):

Gjæstgivergaarden Guldsolen.
Af **Xavier de Montépin.** 1 Rd. 16 ß.

Udkommen er:

Korsaren.

Et episk Digt af
Lord **Byron.**
Oversat af **H. Schow.**
40 sk.
C. A. Reitzels Bo og Arvinger.

Blandede Bekjendtgjørelser.

Den i Ind- og Udlandet som den behageligste og bedste Toilette-Sæbe anerkjendte

Dr. Borchardt'ske

aromatiske medicinske Urte-Sæbe har ved sin eiendommelige, velgiørende Virkning paa Huden erhvervet sig et saa stort Renomée, at der er opstaaet flere **Efterligninger**, og Kjøbere af denne Sæbe ere hyppigt blevne skuffede af andre Fabrikater under den almindelige Benævnelse **„Urte-Sæbe"**.

De ærede Consumenter af den Dr. **Borchardt'ske Urte-Sæbe** ville derfor ved deres Indkjøb særdeles **nøie** agte paa Navnet

Dr. Borchardt

og tillige bemærke, at den Dr. Borchardt'ske K. K. privil. Urte-Sæbe kun sælges indpakket i hvide Pakker med paatrykt grøn Skrift og forsynet paa begge Ender med **hosstaaende Segl**, samt at den i Kjøbenhavn alene erholdes ægte a 1 Mk. 14 ß. pr. Stk. hos Hr. Isenkr. **Peter Eegholm**, Hjørnet af Østergade og Hølbroplads og i Provindserne kun hos nedennævnte Herrer. I samtlige disse Udsalgssteder findes ogsaa den

almindelig bekjendte, fortrinlige
Suin de Boutemards
Tandpasta

(a 1 Mk. 14 ß og 3 Mk. 8 ß pr. Stk. efter Størrelsen), som med Rette ansees for det bedste Middel til Tændernes og Tandkjødets Conservation.

Paa en
Præste- eller Herregaard

søger en ung Pige, der er vant til at deeltage i Huusholdningen, har lært Landhuusholdning om end ikke til Fuldkommenhed, men er særdeles øvet i Skræddersyning, en Plads som Huusjomfru. Da det er den Søgende magtpaaliggende at komme paa et Sted der kunde være blivende, er hun villig til det første halve Aar at arbeide uden Løn, haabende i den Tid at kunne vinde Vedkommendes Tilfredshed. — Ønskende senest 1ste Juli d. A. at tiltræde Pladsen, bedes Billet, med Oplysning om hvor Vedkommende kan henvende sig, indsendt paa dette Blads Contoir inden 14 Dage fra Dato, mrkt. Huusjomfru 307.

En ung Pige, Datter af en Embedsmand, ønsker sig i Løbet af Sommeren eller til Efteraaret som Lærerinde hos en Familie paa Landet, helst hvor der er mindre Børn. Hun underviser i de almindelige Skolekundskaber, samt i Tydsk, Fransk, Engelsk og Musik. I sit Hjem har hun i et Par Aar beskjæftiget sig med Underviisning, men ikke tidligere været ude, hvorfor hun ønsker at komme i en Familiekreds, hvor hun kan finde et venligt Hjem. En Billet, mrkt. H. Nr. 335, bedes aflagt paa dette Blads Contoir.

J. R. Lunds Pariser-Etablissement,
Kongens Nytorv 215, Hj. af St. Kongensgade.
Elegant Udvalg af moderne færdige Herreklæder.

Bog-, Papir- og Kunsthandel
i Frederiksund.

Da jeg Fredagen den 25de Mai aabner en Bog-, Papir og Kunsthandel, er jeg herved saa fri at anbefale Samme til Enhver der godhedsfuld ville forunde mig deres Søgning. Billig og reel Behandling skal stedse være Maalet for mine Bestræbelser. Min Bopæl er i Hr. Reebslager Leerckes Gaard.

NB. Dhrr. Præster, Skolelærere og Handlende erholde betydelig Rabat paa Alt til Faget henhørende.

Ærbødigst
S. M. Lublin,
Bog-, Papir- og Kunsthandler
i Frederiksund.

I
Ludvig Wulff & Co.'s
Pianoforte-Fabrik,
Østergade 69,
forefindes store og smaa taffelformige Pianoforter til forskjellige Priser.

Lilionese.

Dette for dets Fortrinlighed og Uskadelighed af Læger attesterede og i en Aarrække berømmeligt bekjendte Vand renser **Ansigt, Hals og Hænder for bruun, guul og smudsket Hud, og giver samme en skjøn Hvidhed og zart, ungdommelig Friskhed.** Endvidere tjener det til fuldkomment at udrydde **Fregner, Ringorme, Finner, Leverpletter, Rynker og Rødme paa Næsen samt andre Steder i Ansigtet.**

30. برلينغسكة بوليتسكة أوغ أفرتيسمنتس - تيدندة، الخميس، 24 أيار/ مايو 1855. حتى بالتكبير الانتقائي العالي فإن الإعلان عن Dette skal siges; saa vaere det da sagt [بالدنماركية: هذا يجب أن يُقال. فليقال] لا يلفت نظر القارئ على الفور وهكذا يكون بمثابة تذكير يبعث على الاكتئاب بالمسافة بين قوى الفكر وقوى السوق. وفي أسفل الصفحة هناك إعلان عن محلول عجائبي ذي مفعول قوي يُسمى ليليونيز لا يمنح البَشَرة بياضاً جميلاً ونضارة شبابية رقيقة فحسب بل قادر أيضاً على إزالة النمش والقوباء الحلقية والبثور والبقع الجلدية والتجاعيد واحمرار الأنف. ويضمن البائع جيو درالي مفعول المحلول في غضون أربعة عشر يوماً. ونكتفي بهذا القدر.

31. الرسم الذي أنجزه أتش. بي. هانسن من عام 1854. وفي ذلك العام نفسه كتب كيركفارد إنه ليس هناك أحد فَطِن بحيث يبلغ حالة من الذكاء لا تلتقطه نظرتي البوليسية على الفور ولا يستطيع ذكائي أن يكشف إنه حيلة. ولكن هذا لم يكن صحيحاً تماماً. فإن رسم أتش. بي. هانسن كان حيلة بمعنيين للكلمة لأنه عندما مر كيركفارد كان هانسن جالساً في شقته، قلمه جاهز وإضمامة من أوراقه جاهزة، وهكذا ضَبط الرسام مشهد الجاسوس البوليسي للأجيال القادمة. ويجعل الظل الذي تلقيه القبعة ومنظورنا لجانب حافتها العلوي من الواضح إن هانسن ربما التقط هيئة كيركفارد من نافذة على الطابق الأرضي أو طابق فوقه. وكان كيركفارد شاخ مبكراً ومن الواضح إنه فقد شياكته الجمالية بمرور السنين ولكنه ظل يحتفظ بابتسامته الصغيرة على فمه الشبيه بالخطم، وهي ابتسامة حزينة وساخرة بمقادير متساوية.

Efter faa Ugers Sygeleie bortkaldtes Dr. **Søren Aaby Kierkegaard** Søndag Aften den 11te d. M. ved en rolig Død fra det Timelige, i hans Alders tre og fyrgetyvende Aar, hvilket herved paa egne og hans øvrige Families Vegne sørgeligst bekjendtgjøres af hans Broder

P. Chr. Kierkegaard.

(Begravelsen finder Sted Søndagen den 18de Kl. 12½ fra Frue Kirke).

Efterlysning.

En lille rød og hvid Panhund af engelsk Race med hvidt Bryst og hvide Been, samt hvid i Panden med en rød Plet i det Hvide, lydende Navnet Pion, er bortløben den 13de dennes. For dens Tilvelebringelse loves en god Douceur i Solegaden Nr. 416 D. i Stuen tilhøire.

Literatur.

Fra Bogtrykkeriet i Kjøge er udkommen:

Jochum Smed i Husum,

en Fortælling om, hvorledes han blev straffet for sit Hovmod og hvorledes han maatte bøde for sin Utroskab mod den stakkels Else. Priis 4 Skilling. — Endvidere:

En sandfærdig Historie om den i hele Europa berygtede og bekjendte italienske Røver og Morder

Pozzolino,

der havde tolv Koner, men som fik sin fortjente Straf, da han vilde have den Trettende. Priis 6 Sk.

☛ Handlende erholde 100 pCt. Rabat.

Fremdeles erholdes følgende Sange sammesteds a 4 Mk. Hundrede, flere Hundrede 3 Mk. pr. Hundrede:

Jens Vægter; Russen og Tyrken; Peders lystige og fornøielige Vise om de raske Tøse i Kjøbenhavn; Kunsten altid at blive ung; Sømanden og hans Pige; Marens Uheld; Den vægelsindede Karen; Lises Beklagelse.

Kjøge 1855. **S. Oettinger.**

Carl Bernhards

samlede

Noveller og Fortællinger

i en **priisbillig** Udgave,

udkommer i 22—24 maanedlige Leveringer a 32—40 ß efter Arketallet, saaledes at Prisen neppe vil overstige **Tredieddelen** af den oprindelige Ladepriis. Den 1ste Levering (Et Aar i Kjøbenhavn, 1ste Deel) forefindes i alle Boglader hvor Subskription modtages. **J. H. Schubothes** Boghandel.

Paa Universitetets Forlag er udkommet:

Almanakken for Aaret 1856. 2 Ark i 12. Mat. 7½ ß, heft. 8 ß, indb. 16 ß.

Do. paa Islandsk. 1 Ark i 16. Mat. 5 ß, heft. 5½ ß.

Do. paa Tydsk. 2 Ark i 12. Mat. 7½ ß, heft. 8 ß.

Huuscalenderen (den lille Contoircalender) for 1856. ½ Ark i 4. 4 ß.

Do. paa Tydsk. ½ Ark i 4. 4 ß.

Den store Contoircalender for 1856. 1

Damer,

hvis Udseende vansires ved at Haaret groer ned i Panden, anbefales et i ritskligt fransk Præparat, hvorved de selv med Lethed kunne flern denne Ulempe. Det erholdes i Stænger a 2 Mk. Sk. ved Frederiksholms Canal, mellem Nybrogade og Magstræde, Nr. 25, 2den Sal. Brugs-Anviisning medfølger.

Mærk.

Et ungt Menneske, der skriver godt, ønsker Beskjæftigelse snarest muligt. Dette Blads Contoir modtager Billet, mrk Flid 493.

Alinandre

„Cement Staalpenne",

(Plumes cementées).

Vort Etablissement er blevet forsynet med denne nye Slags **Cement** eller **dobbelt hærdede** Staalpenne. Priis pr. Æske indeholdende 1 Gros 12 Mk.

H. J. Bing & Søn.

N. Petersen,

kongelig Hof-Porcellainshandler,

Kongens Nytorv Nr. 354,

anbefaler sit betydelige Lager af

ægte importerede Havanna-Cigarer,

bestaaende af:

H. Upmanns 1a,
Flor la Resolution,
La Rya de la Villaverd,
El Universal,
Dos Amygos,
Jenny Lind,
Valentina,
} Regalia.

S. Francisco de la Jajas,
Dos Amygos,
Valentina,
} Medio Regalia.

Flor La Perla,
La Viriato,
La Engelita,
El Desizuio,
Intimidad,
Dos Amygos Galanos,
Manuelamores,
} Londres.

Ambrocia 1ma,
Trabucos do.,
H. Upmann,
El Tulipan,
Rencural,
La Adoracion,
Henry Clay,

32: برلينفسكة بوليتسكة أوغ أفرتيسمنتس – تيدندة، الجمعة، 16 تشرين الثاني/ نوفمبر 1855. نعي بيتر كريستيان كيركغارد لشقيقه الأصغر الذي توفي شاباً يظهر وسط فوضى من الإعلانات العادية تماماً، تتراوح من سيجار هافانا إلى عباءات ذات أسعار متهاودة إلى أقلام فرنسية بمتانة الفولاذ والإسمنت. ويحوي العمود الأيمن عَرضاً لبيع مستحضر فرنسي للسيدات اللواتي يشوه منظرهن شعر ينمو أسفل جبهة الرأس. وتحت نعي أهم مفكر في البلد مباشرة هناك إعلان بعنوان مفقود عن كلب أحمر وأبيض صغير من الجنس الإنكليزي بصدر أبيض وسيقان بيضاء. اسم الكلب الهارب بيون وإن أحداً في شارع سولفغاده يعد بمكافأة جيدة مقابل إعادته.

الجزء الخامس

1854

موت شاهد على الحقيقة

هو الآن ميت. ولكان من المرغوب فيه جداً لو أمكن حمله في نهاية حياته على الاعتراف للمسيحية بأن ما كان يمثله ليس المسيحية في الحقيقة بل نسخة مميَّعة منها لأنه حَمَل العصر بأكمله... الآن وقد مات دون أن يقدم ذلك الاعتراف فإن كل شيء يتغير. وكل ما يبقى الآن إن وعظه أوقع المسيحية في وهم.

كان هذا رد فعل كيركغارد الأول على موت مينستر الذي جاء بصورة مفاجئة. فخلال الصيف الماضي كان قادراً على القيام برحلاته الكنسية المعتادة. وكانت عائلته تلاحظ أحياناً إنه متوعك بعض الشيء ولكن موعظته في 26 كانون الأول/ ديسمبر 1853 اتسمت بقوة وعنفوان استثنائيين. أو هكذا، على أية حال، تذكَّرها ابن مينستر البكر. آخرون عاشوا خبرة شيء مختلف. وعلى سبيل المثال إن مارتنسن كتب الآتي إلى صديقه غودا في 4 كانون الثاني/ يناير 1854: بالمناسبة، بيني وبينك، إن مينستر في حالة صحية سيئة تماماً... وتلاحظ أكثر فأكثر إن الحياة أنهكته، وما هذا بمستغرَب. وبعد فترة ليست طويلة على ذلك أُصيب مينستر بنزلة برد ثم بدا إنه يتماثل إلى الشفاء ولكن في حوالي ظهيرة يوم الأحد، 28 كانون الثاني/ يناير، شعر وكأنه تلقى ضربة في صدره وعليه أن يستلقي. انحسر الألم ولكن حلَّ محله نعاس شديد حتى إن مينستر لم يتمكن من استعادة وعيه الكامل إلا بحضور أفراد عائلته الأقربين. وخارت قواه، وفي الساعة السابعة صباح 30 كانون الثاني/ يناير 1854 لفظ الأسقف البالغ من العمر 78 عاماً أنفاسه الأخيرة.

في ذلك اليوم صدرت الصفحة الأولى لجريدة برلينغسكة تيدندة مجللة بصليب أسود نُشرت تحته أُولى كلمات النعي العديدة التي ظهرت في الصحف الوطنية: بحزن سيُذاع في عموم البلاد نبأ وفاة ياكوب بيتر مينستر، أسقف زيلاند، زينة الكنيسة الدنماركية، الشاهد العظيم على الديانة المسيحية. وبعد يومين نشرت الجريدة نفسها رثاء كتبه أو. بي. - أولوف بانغ، ناظم الشعر الذي لا يكل وطبيب كيركغارد - الذي حيًّا مينستر بوصفها شخصية فريدة في زمنه. ونُشر في الأيام التالية العديد من كلمات الرثاء ذات النيات الحسنة، بما فيها كلمة رثاء من بي. أس. أنغمان. وباسم مؤتمر كوبنهاغن الإكليركي أعلن رئيس الشمامسة «ترايِده» في برلينغسكة تيدندة إلى أعضاء الإكليروس، من المدينة ومن باقي البلاد، الذين يرغبون في المشاركة في موكب تشييع جنازة الأسقف مينستر إلى مثواه يوم الثلاثاء، 7 شباط/ فبراير، يرجى التجمع في الحرم الجامعي في الغرف المشار إليها هنا في الساعة 9: 30 صباحاً بالضبط. وعندما جاء اليوم الكبير كان طول المراسم وحجمها موضع إعجاب بحق. وبحسب التقرير الذي نُشر في برلينغسكة تيدندة فإن المراسم بدأت في الساعة الثامنة صباحاً عندما حمل خريجو وطلبة قسم اللاهوت نعش مينستر من مقر الأسقفية عبر الميدان إلى كنيسة سيدتنا حيث وُضع أمام المذبح. وكما أوعز «ترايِده» فإن المشيعين تجمعوا في الجامعة الساعة 9: 30 صباحاً بالضبط وكان أفراد كل مرتبة من مراتب المجتمع ممثلين: رئيس السلطة القضائية ممثِّلا الملك، ومدير مكتب الملكة، وولي العهد، وغيره من الأمراء وأعضاء الوزارة، ووزراء العديد من الحكومات الأجنبية شاركوا في موكب التشييع. وحضر أكثر من مئتي عضو من أعضاء الإكليروس، من المدينة ومن البلاد بصفة عامة، بمن فيهم أساقفة فونين وآرهوس وآلبورغ ولولاند - فالستر زائد أعضاء الإكليروس من كنيسة الإصلاح في المدينة. وعندما عبر الموكب الميدان من الحرم الجامعي وكان يقف أمام مدخل الكنيسة الرئيسي نُفخت الأبواق من برج الكنيسة ثم دخل أعضاء الإكليروس والوجهاء الآخرون إلى الكنيسة التي كانت مجللة بالسواد ومضاءة بحاملات المصابيح الجدارية والشمعدانات. وبعد أن أنشدت فرقة الغناء الطلابية في الجامعة القسم الأول من كنتاتة كتبها فريدريك بالودان مولر لموسيقى من تأليف جي. بي. إي. هارتمان، ألقى رئيس الشماسة «ترايِده» كلمة أشار فيها إلى أهمية الأسقف الراحل للبلد والكنيسة. ثم تولى شقيق

يوست باولي، الموسيقي أس. أتش. باولي مهمة عازف الكمان الأول وقاد إنشاد قصيدة كتبها مينستر نفسه. بعد ذلك جاءت مساهمات الأسقف سي. تي. أنغلستوفت والدكتور أي. جي. رودلباخ اللذين أعقبهما النصف الثاني من كنتاتة بالودان مولر التي غُنيت بلحن كورالي شارك فيه جميع الحاضرين منشدين بحيوية. وبعد انتهاء مراسم التأبين في الكنيسة حمل طلبة اللاهوت النعش خارج الكنيسة إلى الشارع حيث وُضع على عربة قرب نوريبورغ. واستمر الموكب - الذي كان أغلبه يسير بعربات - إلى مقبرة أسيستنس حيث قال قس القضاء باولي، صهر المتوفى، بضع كلمات وداعية بالأصالة عن العائلة وأدى مراسم إهالة التراب على التابوت.

غني عن القول إن كيركغارد لم يكن حاضراً في كل ذلك، ولكن بوصفه جاراً لكنيسة سيدتنا، ما كان ليستطيع أن يتجنب سماع الأبواق تُنفَخ من غرفه المستأجرة. وعلى الغرار نفسه كانت ستُتاح له فرص القراءة عن الحدث في جريدة برلينغسكة تيدندة حيث كان يستطيع أن يدرس نصوص الكنتاتات والأناشيد، التي نُشرت في الجريدة. وفي 13 شباط/ فبراير، كان يستطيع أن يقرأ في الجريدة نفسها الآتي تحت باب أدب: نشر الدكتور أتش. مارتنسن، في شكل مطبوع، الموعظة التي ألقاها في كنيسة قلعة كريستيانسبورغ يوم الأحد الخامس بعد عيد الغطاس. وإذ استند في موعظته إلى نص رسالة العبرانيين 13: 7 - 8 فإنه أقام نصباً تذكارياً جميلاً وملائماً للأسقف الراحل.

كان من الممكن الحصول على الموعظة آنفة الذكر مقابل ستة عشر ريكسدولاراً، ولكنها عند كيركغارد كانت عملياً لا تُقدر بثمن. والموعظة نفسها كانت في الحقيقة استذكاراً طناناً ومفخَّماً للميت ولكن مارتنسن بذل جهداً كبيراً، وتضمنت أقواله الآتي: من هذا الرجل الذي تملأ ذاكرته العزيزة قلوبنا، تعود أفكارنا إلى السلسلة الكاملة من الشهود على الحقيقة، ممتدة عبر العصور، من أيام الرُسُل إلى زمننا نحن... كما إن معلمنا الراحل يشكل حلقة في هذه السلسلة المقدسة من الشهود على الحقيقة، على جلال الرب أبينا.

لم يكد كيركغارد ينتهي من قراءة موعظة مارتنسن حتى بدأ يصوغ بيان احتجاج سيكون بداية أبرز ثورة يقوم بها فرد واحد. بيد إن كيركغارد لم يريد التورط في الجدال حول تعيين خلف مينستر الكنسي فأرجأ احتجاجه. وكان

المحافظون يريدون تعيين مارتنسن والليبراليون يؤيدون أتش. أنْ. كلاوسن في حين كانت لدى الملك فريدريك السابع نفسه خطط لتعيين جي. أنْ. مادفيغ، أُستاذ الدراسات الكلاسيكية. وحاول وزير الخارجية سي. أي. بلومة أن يثني الملك عن اتخاذ مثل هذه الخطوة مشيراً إلى أن مادفيغ ليس لاهوتياً مؤهلاً فرد الملك مبدياً درجات متساوية من التعجب والإزعاج: ما الفارق الذي يحدثه ذلك؟ - ملاحظة كانت مصدر قدر من الضحك في الأوساط الفكرية. وكانت زوجة الملك الكونتيسة دانر تطالب بتعيين مرشح آخر، الأمر الذي زاد صعوبة اتخاذ القرار. وفي النهاية تمكنت الحكومة المحافظة من إقناع الملك بتعيين مارتنسن، وبعد فترة قصيرة على قداس الكنيسة يوم الأحد في عيد الفصح توجه رئيس الوزراء أي. أس. أورستيد إلى كنيسة القلعة لنقل النبأ السار إلى مارتنسن بنفسه. وفي مساء اليوم نفسه تشاطر مارتنسن فرحته في رسالة إلى غودا: وهكذا الآن، بتوجيه من الله - لأني أنا نفسي لم أفعل شيئاً في هذا الشأن - دُعيتُ إلى هذا المنصب المهم والمقدس بصورة استثنائية. وفي الفترة الممتدة من ذلك الحين إلى يوم رسامته في 5 حزيران/ يونيو أُصيب مارتنسن بما سماه حمى أسقفية. وكانت الأوضاع السياسية والكنسية في فوضى، ولم تكن لديه شكوك بما هو آتٍ: ما زالت هناك أزمات في الطريق لأن الفساد وانتشار التحلل الأخلاقي المتفشي الآن لا يمكن أن يتوقفا. وأتوقع ما هو أسوأ. وفي هذا الشأن ستتحقق توقعات مارتنسن بما يفوق حجمها.

جرت رسامة مارتنسن في عيد العنصرة، عيد الروح القدس. وقبل فترة على ذلك فكر كيركغارد في مسألة جني فائدة دنيوية من المسيحية فوجدها مثيرة للاشمئزاز، مقرفة مثل أكل سمك دهني مع الدبس. وكان الآن على وشك التقيؤ: أوه، كم هذا مقزز بحق، هذه الملايين التي تلعب بالمسيحية، محتفلة بعيد العنصرة - والآن سيكون عندنا أسقف يُرَسَّم في اليوم التالي على عيد العنصرة. وصدقوني، ستكون هناك خطابات عن «الروح». كم مقزز هذا، كم هو مقيت. كان كيركغارد يستطيع بكلِ تأكيد أن ينشر احتجاجه بعد الإعلان عن تعيين مارتنسن ولكنه ظل متردداً، لأسباب منها إن نقاشاً جرى حول التعيين في الصحافة، ولم يكن كيركغارد يريد أن يرتبط احتجاجه بذلك. كما لم يكن يريد أن يقف عقبة في طريق حملة شعبية - أطلقتها مجموعة من رجال الدين البواسل في يوم دفن مينستر ذاته - لجمع تبرعات من أجل إقامة تمثال

للأسقف. ولكن كيركغارد كانت لديه أسباب أخرى لا علاقة لها بذلك وراء تأجيل حملته هو. فإن أي. أس أورستيد لم يكن رئيس وزراء في الفترة الممتدة من نيسان/ أبريل 1853 حتى كانون الأول/ ديسمبر 1854 فحسب بل تولى منصب وزير شؤون الكنيسة والثقافة، ولو أطلق كيركغارد احتجاجه في هذه الظروف لكان من الجائز أن يأتي ذكر اسمه في دعوى قذف وتشهير. لذلك كان من الأفضل أن ينتظر قليلاً، ولا سيّما وإن كتلة معارضة قوية كانت تحاول تشكيل حكومة ليبرالية. وأصبح هذا واقعاً في 12 كانون الأول/ ديسمبر 1854 مع تولي بي. جي. بانغ P. G. Bang رئاسة الحكومة وتعيين سي. سي. هال C. C. Hall بمنصب وزير شؤون الكنيسة والثقافة. ولم يكن الوضع الجديد يروق لمارتنسن المحافظ بالمرة، وبعد ثلاثة أيام على تشكيل الحكومة الجديدة كتب إلى غودا بهذا المعنى: نعم، لدينا وزارة جديدة، وهو يتحدثون حتى عن الخروج في مسيرة مشاعل إلى الملك للاحتفال بالمناسبة. إن هذا أكثر الأشياء التي خَبِرناها حتى الآن رعباً، والكرامة الملكية بلغت الآن قمة العُهر.

بالإضافة إلى هذه الاعتبارات الاستراتيجية والسياسية كان هناك ظرف شخصي أيضاً كثيراً ما أُغفل. إذ نُشر كتاب مينستر اتصالات تتعلق بحياتي في منتصف نيسان/ أبريل 1854. وتولى فريدريك يواخيم نجل مينستر ترتيب نشره، وفي بادرة صداقة أرسل نسخة إلى كيركغارد. وفي رسالة غفل من التاريخ أعرب كيركغارد عن شكره على الرسال المرفقة بالطرد الذي فيه الكتاب. وأراد أن يحتفظ بالرسالة التي تسلمها من نجل مينستر لكنه شعر ملزَماً بإعادة الكتاب نفسه. وأوضح في رده إن علاقتي بالوالد الراحل كانت من نوع خاص جداً مشيراً إلى أنه رغم مشاعر التعاطف تجاه أحدهما الآخر، كانت هناك خلافات بينهما. واختتم بالقول سواء استخدمته أو لم أستخدمه، يجب أن تكون لدي، وأريد أن تكون لدي الحرية في أن أكون قادراً على الكلام دون الاضطرار إلى أخذ أمر كهذا [هدية الكتاب] في الاعتبار. وهكذا لم يرد كيركغارد أن يكن مَديناً بالشكر للعائلة - فأُعيد الكتاب.

تعليق يظهر في يوميات كيركغارد بعد فترة على ذلك يجعل من الواضح إنه كان مع ذلك مطّلعاً على مضامين أقسام على الأقل من عمل مينستر اتصالات تتعلق بحياتي. فإن كيركغارد لاحظ - بشكل عابر تقريباً لكنه مفعم بالتهكم - إن مينستر قرب نهاية مذكراته أعرب عن أُمنيته بأن يذهب إلى القبر

رجلاً نزيهاً. وفي الحقيقة إن هذا الشعور شكل الجملة الأخيرة من الكتاب، وبالتالي فإن كيركغارد إما اشترى كتاب اتصالات، الأمر الذي يبدو مستبعَداً لأن هذا العمل لم يكن في المكتبة التي تركها مينستر بعد وفاته، أو استعاره من مكتبة أثينيوم. وإذا تذكرنا كيف كان كيركغارد شديد الاهتمام بمينستر طيلة حياته تقريباً سيكون من اللافت حقاً ألا تثير مذكرات الرجل اهتمام كيركغارد. وبصرف النظر عن كيف وقع كيركارد على الكتاب فلا بد إن وقع الأمر كان فظيعاً عليه حين توثق من إن مينستر لم يخصص حتى صفحة واحدة للكتابة عن علاقتهما - ولا حتى جملة واحدة، في الحقيقة ولا حتى كلمة واحدة! لم تظهر عائلة كيركغارد بالمرة في مذكرات مينستر، لا الأب - تاجر الجوارب الذي كان شديد الإخلاص للأسقف - ولا أي من ولديه، رغم الحقيقة الماثلة في أنّ طرقهما التقت مع طريق مينستر لأكثر من جيل، وكان الأصغر منهما يراه في أحيان كثيرة خلال الفترة ذاتها التي كان يكتب فيها عمله اتصالات، الذي، كما سبقت الإشارة، يغطي حياة مينستر حتى 13 أيلول/ سبتمبر 1852. من جهة أخرى، بُحث مارتنسن وذُكر بدفء لا بد إنه جعل دم كيركغارد يجمد في عروقه. وكتب مينستر بصراحة كاملة عن مشاعر الحب التي يكنها لمارتنسن وكانت تنمو مع كل عام يمر منذ بداية صداقتهما.

لا سبيل إلى أن نعرف ما إذا كان لهذا اللاتناظر المؤلم بين حب كيركغارد لمينستر وتجاهل مينستر التام لكيركغارد، دور في إطلاق الهجوم العلني ولكن الحقيقة إن يومياته من الفترة التي أعقبت مباشرة نشر كتاب اتصالات الغادر، تعج بالفقرات المكتوبة عن مينستر وتبدي عدوانية غير معهودة من قبل.

وهكذا فإن مارتنسن وليس كيركغارد هو الذي أخذه مينستر معه في كتاب اتصالات طالباً منه أن يكون خلفه في مهنة الكهنوت أيضاً. وفي 3 تشرين الأول/ أكتوبر 1854 كتب مارتنسن هذا نفسه إلى غودا: وهكذا انتقلنا أخيراً إلى مقر سكن الأسقف، وأنا الآن جالس إلى منضدة عملي، المكان الذي أمضى مينستر فيه سنواته المباركة المديدة. ذات مساء قبل أيام جلستُ طويلاً أثناء الليل في هذه الصومعة وهذا الصمت الاستثنائيين. وقبل شهرين على ذلك في 21 آب/ أغسطس، أنجبت زوجة مارتنسن ابنتهما الصغيرة اللطيفة والمتعافية التي سمياها فرجينيا. وبعد الولادة انتابت مسز مارتنسن حالة لافتة من التشنجات، ولاحقاً أُصيبت بوهن عصبي حاد (نوراستينيا) وكذلك بالتهاب

في أحد الثديين. ولكن مارتنسن كان الآن يستطيع التنفس بسهولة أكبر: الحمد لله، الخطر الحقيقي مرَّ، ويجب بالطبع أن نتعلَّم الصبر. وفي 12 تشرين الثاني/ نوفمبر عاد الأسقف إلى الورق والقلم: كان مشغولاً، غارقاً في واجبات منصبه - ولكن تعين عليه أن يعترف لغودا قائلاً نعم، أنت على حق. فأنا الآن أعيش في واحدة من أجمل المراحل في الوجود.

بعد أسابيع قليلة، فُتحت كل أبواب جهنم.

«ـــــــ هكذا يُدفن شاهد على الحقيقة»

في 18 كانون الأول/ ديسمبر 1854 نشر كيركغارد احتجاجه. وظهر في صحيفة فادريلانديت تحت عنوان هل كان الأسقف مينستر «شاهداً على الحقيقة»، «أحد الشهود الحقيقيين على الحقيقة»؟ هل هذه هي الحقيقة؟ من الجائز أن يُوصف هذا بأنه سؤال خطابي. وبعد عرض موجز لموعظة مارتنسن قدم كيركغارد النسخة الحقيقية لشاهد حقيقي على الحقيقة: إن الشاهد على الحقيقة إنسان حياته من البداية إلى النهاية، لا تعرف أي شيء يندرج تحت اسم المتعة... الشاهد على الحقيقة إنسان، في الفقر، يشهد على الحقيقة، في الفقر، في التواضع والوضاعة، لا يحظى بأي تقدير، مكروه، بغيض، موضع سخرية، أضحوكة، مهان... الشاهد على الحقيقة، أحد الشهود الحقيقيين على الحقيقة، إنسان يُجلَد، تُساء معاملته، يُجَر من سجن إلى آخر، ثم في النهاية (الترقية النهائية الذي بها يُكافأ بعضوية في المرتبة الأولى لنظام الأسبقية المسيحي ويوضع بين الشهود الحقيقيين على الحقيقة) - ثم أخيراً (لأنه رغم كل شيء يتحدث البروفيسور مارتنسن عن أحد الشهود الحقيقيين على الحقيقة) - ثم أخيراً يُصلَب أو يُقطع رأسه أو يُحرق أو يُشوى على منقل، ويرمي مساعد الجلاد جسده الذي فارقته الحي في مكان بعيد عن الطرق، دون أن يُدفن - هكذا يُدفن شاهد على الحقيقة! وهذه بالطبع لم تكن الطريقة التي دُفن بها مينستر بل على العكس. فإن دفنه جرى حرفياً بكل الأُبهة والموسيقى. ولكن هذا كان له منطق معين لأن مينستر لم يكن في الواقع إلا ضعيفاً، مجنوناً بالمتعة، وليس عظيماً إلا بوصفه خطيباً متفوهاً. وعليه فإن الخلاصة هي إن تبشير مينستر بالمسيحية يميِّع البعض من أقوى المعتقدات المسيحية قطعاً ويموهها ويقمعها ويحذفها.

نكتفي بهذا القدر عن مينستر. أما مارتنسن فإن كيركغارد ذهب إلى أن

من أهم الدوافع وراء الموعظة التذكارية هو التأكد من أن يُذكَر مينستر نفسه بالارتباط مع الكرسي الأسقفي الشاغر، أي إن أفعال مارتنسن كانت بكل بساطة تكتيكاً أملاه اهتمام دنيوي فج بمهنته الكنسية. وتضمنت تعليقات كيركغارد تورية لغوية تشهيرية كان كيركغارد نفسه يعتز بها على ما يُفترض وكانت في كل الأحوال مصدر تسلية في دوائر معينة في المدينة. كما إن موعظة مارتنسن قالت الشيء الكثير عن أهمية الاتباع - ضمناً اتباع المسيح بطبيعة الحال - وشدد مرات متكررة على أهمية الاستمرارية: روح المسيح باقية، رغم إنها تعمل من خلال أدوات وعطايا مختلفة، ولذلك فإن الرب سيكون متسلحاً على الدوام بالأدوات الضرورية لتثقيف الأتباع. ولم يتأخر كيركغارد في استغلال علاقة حاقدة تربط كون المرء من أتباع المسيح باتباعه مينستر في منصب الأسقف. والأكثر من ذلك، كما كتب كيركغارد، فإن ما كان مارتنسن يفعله لا يعدو كونه لعباً بالمسيحية مثلما يلعب الطفل حين يقوم بدور الجندي.

أن يتسبب المرء في كارثة

كان كيركغارد في شك حتى الدقيقة الأخيرة حول الشكل الذي ينبغي أن يتخذه الهجوم. هل ينبغي أن يبدأ بنقد مارتنسن على استخدامه المريب لمصطلح شاهد على الحقيقة؟ أم سيكون من الأفضل البدء بـــــ صرخة، قطعة صغيرة تحذر من المشاركة في القداسات الدينية الرسمية؟ وكانت النتيجة التي خرجت بها أفكار كيركغارد إن على الصرخة أن تنتظر دورها. وفي كل الأحوال فإن كيركغارد لم ينجز الصفحتين العريضتين اللتين كان من المفترض أن تقترنا بتلك القطعة وبالتالي لم تُنشر إلا في 24 أيار/ مايو 1855 تحت عنوان هذا يجب أن يُقال. وبرأي كيركغارد فإن التأثير الكارثي الذي في نيته، كان سيتحقق على الأرجح بشكل أكمل إذا نُشرت تلك القطعة أولاً، ولكن كانت هناك معضلة خاصة جداً في هذا الشأن. وكتب كيركغارد في فقرة من يومياته بتاريخ كانون الأول/ ديسمبر 1854: إذا تجرأتُ على أن أرفق بأفعالي تعليقاً يشرح الغاية الذكية وراء المشروع كله فإني سأتمتع بنجاح كبير - لكني سأفشل تماماً في مهمتي. والحملة نفسها يجب أن تبدو نوعاً من الجنون (لأنه من دون ذلك لن نحرك العواطف المتقدة، ولن تُشعل النيران). وبعد يومين، تحت

عنوان كارثة، تضمنت اليوميات البيان الدراماتيكي التالي: كيف يمكن إحداث كارثة في عالم الروح؟ بكل بساطة بإلغاء عدة خطوات وسطية، بطرح نتيجة دون توفير مقدمات، بإظهار العاقبة دون إشارة إلى الشيء الذي هي عاقبته، وما إلى ذلك - وحينذاك يمكن أن يصبح الصِدام بين الشخص الذي يتصرف بهذه الطريقة ومجايليه، كارثة.

هنا نواجه، على ما يُفترض، النقطة الاستراتيجية الرئيسية في حملة كيركغارد. وهي يجب أن تأتي مفاجأة للجميع. ويجب أن تبدو جنوناً حقيقياً، ويجب أن تستدعي أكمل انقلاب في كل القيم. باختصار، إنها يجب أن تكون كارثة، مدمرة لتفاؤل البورجوازية اليومي المبتذل وفهم الإكليروس الثقافي البروتستانتي لنفسه. والكارثة هي، إذا جاز التعبير، الصيغة التي يمكن تلخيص مناورات كيركغارد كلها تحت مسماها. ومن الواضح إن مارتنسن لم يكن إلا مناسبة لهذا كله، وأنه لم يكن سبب الهجوم. والحق إن كيركغارد قبل عدة سنوات أخبر سي. تي. إنغلستوفت C. T. Engelstoft إنه ما أن يموت مينستر، سينفخ البوق عالياً.

يرد عرض لهذه الاستراتيجية في فقرة من اليوميات بلا تاريخ كُتبت بعد نشر مقال كيركغارد في 18 كانون الأول/ ديسمبر بعنوان أن يتسبب المرء في كارثة: مهما يبلغ خوف الناس مني إذا اكتشفوا، كم سيبدو ذلك غريباً لهم، إن ما كان يشغلني بكل تأكيد في الآونة الأخيرة هو ما إذا كان الله في الحقيقة يريدني أن أُراهن بكل شيء على التسبب في كارثة، على تعرضي للاعتقال، وإدانتي - وإعدامي إذا أمكن ذلك. وفي قرارة نفسي أخشى إني إذا امتنعتُ عن ذلك سأندم إلى الأبد... ولذلك عندي توجسات بشأن نفسي، بشأن ما إذا كنتُ في الحقيقة قادراً (إذا وصل الأمر إلى ذلك) على دخول السجن، وإمكانية إعدامي، وما إذا كان هذا الشكل من الكفاح كله سيكون له أثر في نفسي. وهنا، بنوع أكاديمي على نحو غريب من الجرأة، تخيل كيركغارد أسوأ كارثة يمكن تصورها، ورغم إننا قد نبتسم قليلاً على خوفه من الإخلال بعواقب مثل هذا الكفاح فإننا يجب ألا نغفل الواقعية التي فكر في حملته بها.

تصل اليوميات إلى نهايتها بعد يومين بفقرة عن موت شخص الروح. ويتألف المتبقي من هذه اليوميات النهائية - يوميات، ملاحظة 36 - من

صفحات فارغة. ومن هنا فلاحقاً لا يمكن أن نتابع كيركغارد إلا بصورة متشظية على قصاصات متفرقة من الورق - وبالطبع في أعماله العامة.

مرة أخرى، بعد أربعة أعوام من الصمت.

شاهد شيطان على الحقيقة

أحدث المقال ضد مارتنسن ضجة واسعة وخض أرواحاً على الفور، أرواحاً عظمى وأرواحاً أقل عَظَمة. وفي اليوم التالي مباشرة نشرت صحيفة داغبلاديت قطعة بقلم A الذي أعرب عن تعجبه كيف أن الورَع يستطيع أن يحكم بالسكوت عن الأحياء ويسمح بالكلام عن الأموات. وفي 23 كانون الأول/ ديسمبر نشرت صحيفة كيوبنهافنسبوستن قصيدة باسم مجهول، وفي اليوم التالي - عشية الكرسمس - نشرت الصحيفة نفسها مقالاً زعم فيه المدعو aesculap [اسم آسكليبيوس، إله الطب والشفاء اليوناني، باللغة الدنماركية] إن كيركغارد الذي بدأ أصيلاً يفتقر الآن إلى كل شيء سوى ثلاثة حروف من كلمة أصيل original - أي، إن كيركغارد أصبح الآن gal [بالدنماركية: مجنون]، وكلمة أصيل original نفسها بالدنماركية والإنكليزية. ومن المفهوم تماماً إن هدف هذا الهجوم في يوميات كيركغارد كان يشير إلى أن الأحرى بصحيفة كيوبنهافنسبوستن أن تغير اسمها إلى كلام وهراء.

أصبح الجنون موضوعة عُزفت عليها تنويعات خلال نصف العام التالي. وهكذا أُشير على كيركغارد في إحدى المراحل أن يقوم برحلة ترميمية يقطع فيها ثمانية وعشرين ميلاً خارج المدينة، إلى سانكت هانز، وهو مستشفى مجانين معروف. وفي 27 كانون الأول/ ديسمبر نشر شخص يُدعى J. L. من نوريبرو مادة في صحيفة فلايفِه بوستن نقل فيها مقاطع طويلة من مقال كيركغارد في صحيفة فادريلانديت ليكشف، على ما يُفترض، ما سمَّاه مهزلة - مأساة كيركغاردية. وإن وكيركغارد في مقاله الجارح ضد مارتنسن كشف بلا وعي شخصيته الأساسية الداخلية وثروة من التثاقف لكنه يفتقر بالكامل إلى شيء واحد هو الجدية. وتابع J. L.: لهذا السبب فإن كل شيء يملكه ذهب إلى براعته ككاتب. إن مستر كيركغارد كاتب لامع، منعش لا مثيل له، ذو أسلوب فني متألق قادر على تقديم عمل جمالي وفلسفي ولاهوتي لم يُعرف له نظير من قبل، ولكن رغم كل ذلك فإن النتيجة المخيفة وما زالت إن مستر كيركغارد هو

الرجل الذي يفتقر إلى الجدية. ولا يُعرَف على وجه التأكيد مَنْ هو المختفي وراء الحرفين J. L. ولكن بما إنه بدا وكأنه يعرف كيركغارد شخصياً وأسند نقده في جانب منه إلى ملاحظات في فقه اللغة فإن هناك الكثير مما يشير إلى أنه إسرائيل ليفن، سكرتير كيركغارد السابق [باللغة الدنماركية في القرن التاسع عشر كان الحرفان J جي وI آي كثيراً ما يُستخدمان بالتبادل] الذي كانت لديه الآن فرصة للانتقام من رب العمل الذي أصبح يكرهه. وبالطبع إن كيركغارد ما كان ليستطيع الانتباه إلى مثل هذه التقطيعات وتقلباتها: وعليه سيفهم الناس إني لا أستطيع إيلاء اهتمام بما ينشره كل شخص مجهول الاسم، وكل aesculap... في جريدة، أو بما ينقله رجل جاد من نوريبرو، مستحضراً جدية صحيفة فلايِفه بوستن، إلى الناس عن افتقاري إلى الجدية.

إحدى الأرواح العظمى التي دخلت على الخط راسموس نيلسن الذي زار مارتنسن في الليل مشيراً عليه أن يقدم إلى كيركغارد الاعتراف المطلوب أو التنازل، كما سماه نيلسن. وفي نهاية رسالة بدأها مارتنسن في 15 كانون الأول/ ديسمبر (رغم إنها على ما يبدو انتهت بعد عدة أيام، مباشرة بعد أن شن كيركغارد هجومه) أرفَقَ الحاشية التالية: في الساعة 10: 30 مساء أمس جاءني راسموس نيلسن في زيارة نيقوديموسية [نيقوديموس هو عضو المجلس اليهودي الذي زار يسوع ليلاً] غير متوقعة على الإطلاق. وبقي حتى الساعة 12: 30 بعد منتصف الليل. كل ما علمتُه معبأ تحت كمية مخيفة من الهراء، هو بكل بساطه إنه نادم على الفضيحة مع كيركغارد – وهل من الممكن أن أُقدم إلى هذا الرجل تنازلاً يجعله غير مؤذٍ في المستقبل؟ (يا له من هراء). وأعرَب عن الأسف لأن القوى التي تقاتل إلى جانب المسيحية قوى منقسمة. ويوم الحساب قريب... خلال هذا كله بقيتُ في منتهى الرقة. وفي رأيِ إنه تأثر بقناعة داخلية مؤداها إن كيركغارد يعاني...وكما سبق ذكره، بقيتُ هادئاً قدر الإمكان لكيلا أستفزه. أوه، يا للأشياء التي على المرء أن يعيشها!

محاولة راسموس نيلسن التوسط كانت غير مجدية. وفي 28 كانون الأول/ ديسمبر نشر مارتنسن رداً في صحيفة برلينغسكة تيدندة إشار فيه إلى أن كيركغارد استخدم تعريفاً تقييدياً لمصطلح شاهد على الحقيقة لم يكن بطبيعة الحال مطابقاً لمفردة الشهيد بأشد معانيها دموية. ويبدو أنّ كيركغارد – الذي مسيحيته بلا كنيسة وبلا تاريخ – أساء عن سابق إصرار فهم عدد من الأشياء

البسيطة بينها الحقيقة الماثلة في أن ما لا يُنكر هو وجود أشكال أخرى من المعاناة غير الاضطهاد الجسدي. ومضى مارتنسن ليسأل أليس من الممكن أن يُرجَم شاهد على الحقيقة بطريقة مغايرة لرمي حجارة حقيقية؟ (بكل أمانة، إن كيركغارد الذي سمى نفسه ذات مرة شهيد السخرية سيكون عليه أن يقر بأن مارتنسن محق في ذلك).

بقدر تعلق الأمر بالأسقف الغاضب، لا يمكن تفسير احتجاج كيركغارد إلا بواحدة من طريقتين: إن الدكتور أس. كيركغارد لا بد أن يكون في قبضة هَوَس حتى إنه فَقَدَ أبسط أنواع حضور الذهن، أو إنه عرَّف مفهوم الشاهد على الحقيقة بهذه الطريقة المشوهة (رغم الحقيقة الماثلة في أنّه نفسه يعلم أفضل من ذلك) لأنه يريد أن يثير ضجة مرة أخرى بشأن «اللعب على المسيحية». ولكن في هذه الحالة كان ينبغي تخطيط هذه اللعبة الجريئة بعناية أكبر، لأنه في غياب أي مادة أخرى، فإن التوكيد البسيط لهذا الافتراض المسبق – الاعتباطي بصورة بدائية وملموسة ويفتقر إلى الأساس بحيث من التفاهة تقريباً أن يُرَد عليه – يكون رغم كل شيء توكيداً ضئيلاً من سفسطائي متمرس مثل الدكتور أس. كيركغارد، ولا بد أن يُخشى من إن فكرَه المتقلب بإفراط من البداية، أخذ يصبح فكراً جامداً للغاية – أو إن أفكاره بدأت الآن حقاً تصبح أفكاراً مهووسة. والأكثر من ذلك، فإن كيركغارد عندما اتهم مارتنسن بقمع البعض من أقوى المعتقدات المسيحية، كان عليه أن يراعي إن مَنْ يخدم الرب يجب ألا يحترس من قمع أي شيء أُرسل ليقوله إلى الناس فحسب بل يجب على الغرار نفسه أن يحترس من أن يقول أكثر مما أُرسل ليقوله. ويعني هذا أيضاً إنه يجب أن يحترس من أن يقول أكثر مما أُرسل هو تحديداً ليقوله وفق العطايا الروحية النوعية التي أُرسيت في نفسه. وكان الأسقف مينستر دائماً يلتزم بهذه القاعدة الذهبية، ولو اتبعها الجميع فإن الكثير جداً من الأقوال غير الحقيقية والمشوهة عن شواهق الحياة المسيحية وأعماقها – عن الموت تلاشياً من العالم مثلاً، وهو شيء لا يعرفه هذا المتحدث إلا عن طريق المخيلة – ستُجتَنَب بل إن الكثير من الخطابات والكتب التثقيفية ستبقى غير مكتوبة. وإذا أراد أحد أن يصدر حكماً على رجل مثل مينستر فإن المطلوب ليس شيئاً مختلفاً عن مقال الدكتور أس. كيركغارد الرث في صحيفة فادريلانديت وأكبر منه فحسب بل شيء مختلف عن كل الكم المهذار للكتابات الكيركغاردية وأكبر منها أيضاً.

وهنا يقتبس مارتنسن نفسه، وفي الحقيقة إنه يقتبس نفسه، وهو يقتبس نفسه لأن مارتنسن منذ عمله معلومات عقائدية الذي نشره عام 1850 لخص اطلاعه على عمل كيركغارد بطريقة متغطرسة بعض الشيء: اطلاعي على الكم المهذار للكتابات هو، كما ذكرتُ سابقاً، اطلاع عابر ومشتت.

ثم تناول مارتنسن الهجوم على حياة مينستر وشخصيته وأبدى بشكل مفهوم تماماً تعجبه من أن يستطيع كيركغارد اتهام مينستر - الذي هو من أكثر الرجال كداً في الدنمارك - بأنه كان مجنوناً بالمتعة. وهنا اقترب مارتنسن من فقدان الرصانة التي نسبها إليه بيتر كريستيان كيركغارد بمقدار كبير: حقاً إن هذا القناع الذي رفعه عن وجهه في صحيفة فادريلانديت سيُذكَر لفترة طويلة بكل تأكيد في تاريخ أخلاقنا العامة وسيضيف إلى شهرة أس. كيركغارد. ولكن الملاحظة التالية تبدو بديهية: أليس من الجائز أن تصل الأمور إلى حد سيصبح معه الدكتور أس. كيركغارد نفسه قناعاً، يتجول بيننا... أو هل يعتقد الدكتور أس. كيركغارد حقاً إننا يجب أن نستمر في أن نفترض إنه جاد فيما يحاضرنا باستمرار عنه، وهو إن الحقيقة يجب أن يُعبَّر عنها في «الوجود»؟ ورغم اطلاع مارتنسن المشتت على كتابات كيركغارد فإنه مع ذلك استوعب عدة نقاط - ومشكلات - ذات أهمية حاسمة. وتابع مارتنسن: لا أعرف كيف يستطيع أن يبرر هذا القناع التنكري. فإن فارس الإيمان، في علاقاته مع الأشخاص، الأحياء منهم والأموات (والدكتور أس. كيركغارد كثيراً ما كان يظهر بمظهر فارس من فرسان الإيمان) يجب، رغم كل شيء، أن يسعى إلى التصرف بشهامة. ولكن أنا ليس عندي أي شك بأنه سيكون قادراً على تبرير أفعاله لضميره بالتوجه إلى أخلاق نوع من العبقرية العليا ربما حتى بالتوجه إلى نوع من الاشتراط الديني الذي يستلزم تنحي كل اعتبار آخر عن الطريق وبذلك منحه معياراً - مرفوعاً فوق الاعتيادي بكثير - تُقيَّم به أفعاله. ويلي ذلك كلام غير لطيف بطريقة مداهنة: المعروف بشكل مؤكد أن الدكتور سورين كيركغارد بأحدث خطاب له عن شخص ميت (كتب ذات مرة خطاباً بعنوان «عن عمل الحب في تذكُّر أحد ميت») سيجعل نفسه مذكوراً بطريقة ستحميه زمناً طويلاً من خطر يبدو أنّه مستعد لتقديم أي تضحية من أجل تفاديه - خطر أن يكون منسياً. والصحيح بكل تأكيد إن النزاع كان حول معنى مصطلح شاهد على الحقيقة لكنه كان أيضاً حول مَنْ سيتبوأ مكاناً في التاريخ، وحول مَنْ سيقف أين تحت قبة سماء المستقبل.

كان هناك الشيء الكثير من هذا النوع نفسه من الشناعة، ولكن أسوأ ما فيها جملة ثانوية صغيرة قارن مارتنسن فيها كيركغارد بثرسيتيس، وهو من أكثر شخصيات هوميروس حقارة، وصفه الشاعر اليوناني كالآتي: كانت ساقاه معوجتين، يعرج على إحداهما عرجاً شديداً. كان ظهره محدودباً... وكان الشَعَر على قمة رأسه خفيفاً. ولا شك في أنّ كيركغارد فهم هذا الإطراء، فهو كان مطلعاً على النشيد الثاني من ملحمة الالياذة. والحق إنه في اليوم التالي على نشر مقال مارتنسن، وجدت أرملة الإسكافي التي كانت تدبر منزل كيركغارد صحيفة برلينغسكة تيدندة ممزقة قصاصات ومنثورة على الأرض. وفي مساء اليوم نفسه كانت هناك وليمة عشاء في منزل مصمم الرقصات المسرحية أوغست بورنونفيل الذي دعا أصدقاء وزملاء من المسرح الملكي. وضمت المجموعة فريدريك لودفيغ هويدت الذي كان ممثلاً ومخرجاً ناجحاً لكنه أيضاً من القراء المتحمسين لأعمال كيركغارد، وأثبت هذا كونه إشكالياً. إذ كتب بورنونفيل في يومياته أمضينا وقتاً ممتعاً ولكن هويدت يزعجني بالدفاع عن هجوم سورين كيركغارد الدنيء على مينستر.

لكن تعليقات مارتنسن التوجيهية وخطابيته الأسقفية أُهدِرت على الماجستير كيركغارد الذي لم يفعل سوى تكرار احتجاجه في عدد 30 كانون الأول/ ديسمبر من صحيفة فادريلانديت: أن يُمثَّل رجل حتى في تبشيره بالمسيحية نال وتمتع، على أكبر نطاق ممكن، كل البضائع والأفضليات المادية الممكنة - أن يجري تمثيله شاهداً على الحقيقة، ضمن السلسلة المقدسة، فإن هذا مثير للسخرية كالحديث عن عذراء لديها فوج كبير من الأطفال. وهناك أشياء كثيرة يمكن أن يكونها المرء بالإضافة إلى ذلك، كما أوضح كيركغارد بطريقة تربوية. إذ يستطيع المرء أن يكون هذا وذاك على السواء وبالإضافة إليهما أن يكون عازف كمان هاوياً. ويختلف الأمر مع كون المرء شاهداً على الحقيقة، الذي هو في الحقيقة من فئة متعجرفة وغير اجتماعية إلى أقصى الحدود لا تبيح ربطها بأي فئة أخرى، وإذا بُذلت، رغم كل هذا، محاولة للقيام بذلك فلا بد أن يقول المرء بصوابية مسيحية إن هذا شيطان شاهد على الحقيقة.

في 2 كانون الثاني/ يناير 1855 كتب مارتنسن إلى غودا معبراً عن سروره لأن صديقه كتب مراجعة عن مقاله ضد كيركغارد بوصفه لطمة مستحَقّة جداً. وأوضح مارتنسن إن تقواه تجاه مينستر أرغمته على أن يرد على ذلك الهجوم

الشنيع رغم إنه لم تكن لديه أي رغبة للدخول في نزاع علني. ثم ذكر مبرِّراً آخر لكتابة رده وهو إن مقالاً مثل مقال كيركغارد يجب ألا يُحاكَم بالتأثير الآني وربما الاستثنائي الذي يتركه ولكن أيضاً بتداعياته اللاحقة. وفي هذا المقال الثاني المحموم حتى أكثر من المقال الأول، إلى حد يقرب من جنون العَظَمة، قدَّم مثالاً على ما قلته عنه. وفي كل الأحوال، أنا، بطبيعة الحال، لن أكتب أي شيء أكثر في هذا الشأن. وأعتقد بأنه ليس من المُحال أن ينَتج في وقت ما كتاباً كاملاً عن الموضوع.

1855

خصمي كتلة مخاط

في الحقيقة إن كيركغارد لم يؤلف كتاباً عن الموضوع ولكن إذا جُمعت كل الوثائق الفردية المختلفة ذات العلاقة بالقضية مع بعضها البعض فإنها سرعان ما تشكل أرشيفاً كاملاً من الكراسات تتفاوت فيه النبرة من الغضب الصارخ إلى الاستعلاء الواعي. وهكذا في 9 كانون الثاني/ يناير 1855 نشرت صحيفة برلينغسكة تيدندة مراجعة طويلة بقلم مجهول لمقال ينز بالودان مولر عن هجوم الدكتور سورين كيركغارد على سمعة الأسقف مينستر بعد موته. وأشار كاتب المراجعة إلى أن بالودان مولر، القس المقيم في كاتدرائية آلبورغ، أثبت بصورة مقنعة إن معيار القياس الذي استخدمه كيركغارد وكذلك الحكم الذي أصدره، مخطئان، وبناء على ذلك فإن احتجاج كيركغارد لم يكن إلا التسويد الجاحد لسمعة شخصية مهيبة بعد موتها. وتحدى بالودان مولر كيركغارد أن يسند مزاعمه بتوثيق من العهد الجديد، وأعرب عن شكه في أن ينجح كيركغارد في ذلك لأنه في بعض النقاط يريد الدكتور أن يكون أكثر مسيحية من سيدنا المسيح ورُسله أنفسهم. وفي الختام قرر كاتب المراجعة إن النصر حليف خصوم كيركغارد: أثبتوا بيقين وجلاء إنه في كتابات الدكتور أس. كيركغارد ذاتها، إن ما يشدد عليه بوصفه أقوى المعتقدات المسيحية، يُخلط بمذاهب واختراعات بشرية. وهكذا فإن المسيحية المصنوعة ذاتياً التي يوصي بها تقود بعيداً عن الكنيسة ووسائل نعمتها ويجب أن تؤول إما إلى صوابية ذاتية أو إلى اليأس. وباستحضار نوع من المنطق الارتجاعي أضاف كاتب المراجعة رأيه هو: إن مقالَيه في صحيفة فادريلانديت سحقاه ككاتب تثقيفي.

بعد أيام رفض كيركغارد التحدي الذي طرحه بالودان مولر عليه بوصفه

مشاغلة. فالقضية هي ما إذا كان مينستر أو لم يكن شاهداً على الحقيقة، لا أكثر ولا أقل. وليس من شأن السجال الأكاديمي واسع النطاق إلا تحويل هذه المسألة البسيطة على نحو متأصل إلى بحث لاهوتي، أكاديمي مسهب مع اقتباس إثر آخر... كلا، شكراً. وفي اليوم الذي سبق كتابة كيركغارد ذلك كتب مارتنسن إلى غودا بأنه وجد عمل بالودان مولر ممتازاً للغاية ولكنه ربما كان يستطيع الإفادة من التركيز على الشخصية تركيزاً أشد حدة. وكانت هذه طريقة مارتنسن في القول ضمناً بأنه لأغراض التحريض كان المرغوب فيه استغلال أشمل للأطوار الغريبة في تكوين كيركغارد العقلي. ومضى مارتنسن لينقل إن لدى كيركغارد، على ما قيل، كتاباً كبيراً قيد الطبع، وإذا اتضح إن ذلك صحيح فلن تكون هناك فضيحة أخرى فحسب وإنما بلبلة أيضاً لأن الأكاذيب والخداع دائماً تُمزَج بقسم كبير من الحقيقة، وكثيرون من ذوي النيات السيئة سيجدون شيئاً يؤيدهم في آرائهم. وشعر مارتنسن نفسه إنه معفي من التورط أبعد في الأمر، ولكن إذا تفاقم الوضع فإنه مستعد بطبيعة الحال: عندئذ ستكون المهمة على وجه التحديد محاربته من وجهة نظر العقيدة. وإن المنطق اليسوعي بالكامل - بل الشيطاني - الذي يستخدمه لن يصمد أما أي تحليل جاد. وأسوأ شيء إنه أصبح خسيساً بحيث من المزعج جداً التورط معه. هكذا تكلم أسقف زيلاند، وهكذا غسل يديه النظيفتين أصلاً بدرجة استثنائية. ونستشف حقاً لماذا إن كيركغارد بكل بساطة لم يستطع أن يطيق هذا الكنسي بصوابيته الذاتية - ولماذا، إن كيركغارد الذي أغضبه ما كان برأيه تخاذل النظام القائم، دُفع في مرحلة من المراحل إلى التعليق: إن خصمي كتلة من المخاط.

راسموس نيلسن، من الجهة الأخرى، لم يكن خائفاً من التورط. وفي عدد 10 كانون الثاني/ يناير من صحيفة فادريلانديت نشر بعنوان عمل صالح مقالاً طويلاً ذهب فيه إلى أن كيركغارد كان محقاً في الاحتجاج على تصوير مينستر شاهداً على الحقيقة. وكان مقال نيلسن شجاعاً وبالتالي كان المقال نفسه عملاً صالحاً ولكن كما هي الحال في أحيان كثيرة مع نيلسن في السابق، اقترنت شجاعته بنوع من السذاجة المؤثّرة. فهذا الوسيط الذي عين نفسه بنفسه لمهمة الوساطة للأسف أخذ على عاتقه الرد على عدد من التحاملات الشائعة ضد كيركغارد. وعلى سبيل المثال إن كيركغارد لم يكن عقلانياً بارداً كما قد يظن المرء، حسبما طمأن نيلسن قراءه، ثم مضى يدعم هذا الرأي بجملتين بينهما

تعليق بين قوسين قال مجلدات عن علاقته بكيركغارد: في الحقيقة، انطباعي إن كيركغارد رغم كل أفكاره رجل مشاعر. وعندما قرأتُ أعماله، وعندما تحدث معي (حتى عندما كان يستثيرني) أحسستُ بأن هذا الرجل النحيف، بكلماته المدببة، كان مع ذلك صاحب طبع رقيق وأشبه بالطفولي بكل تأكيد.

ثم انتقل نيلسن إلى المسألة الأساسية وهي اتهام كيركغارد بأنه غير كَنَسي وحملته أمر خاص بشكل ضيق. وإن قضية الكَنيسة لا تُخدم بمجرد استحضار مراجع خارجية وإنما بشيء أكثر راديكالية بكثير، بوضع أقوال المسيح موضع التنفيذ: إن الكنيسة لا تستطيع أن تتحمل إذا ضعف تأثير ما يعنيه أن يكون المرء شاهداً على الحقيقة... وإن سورين كيركغارد، سيد التأمل في عصر تأملي، إذ وجه سجالاته الفكرية متعددة الأوجه والتي لا تكل، ضد كل صنف من صنوف المكر الروحي، سعى إلى علاج هذا الضعف المنهك. وحاول نيلسن باستحضاره منظوراً استرجاعياً وتاريخياً، أن يبين كيف انتظر كيركغارد عبثاً أن يقدم مينستر اعترافاً: الأسقف مينستر مات وكتاب اتصالات نُشر، ولكن لم يكن هناك توضيح نهائي، ولا حتى كلمة واحدة من جانب الكنيسة يمكن أن تُجلي سوء الفهم... وبذلك بُلغت الحدود. وهكذا فإن نيلسن أيضاً درس كتاب مينستر اتصالات ويبدو أنّه تعجب لأن الكتاب لم يذكر كيركغارد وعمله بسطر واحد. لذلك وجد نيلسن إن هجوم كيركغارد مفهوم تماماً. وكان نيلسن يعتقد أنّ كيركغارد فعل ذلك بألم لا يُوصف، وإنه وضع الأمر بيد الله. وأخيراً ترك نيلسن التعليق الصغير الآتي يفلت منه: أعتقد ذلك لأني لا أستطيع أن أفعل خلافه. في هذا الأمر أنا ملزَم بتقييم هذا الرجل تقييماً عالياً لكيلا يُقيَّم - تقييماً متدنياً جداً.

بعد هذه الجهود حسنة النية لتنفيذ المهمة التي لا شكر عليها في تحقيق مصالحة، قدم نيلسن عريضته الفعلية التي جعلت من الواضح كم كان فهمه للأمر في الواقع هزيلاً إلى حد لا يُصدَّق: إذ افترض مسبقاً إن كيركغارد لم يكن مدفوعاً لا بـ حب الذات ولا بـ استعلاء مغرور أو عجرفة فكرية فإنه طلب من الأسقف مارتنسن أن يسمح له، نيلسن، بأن يقدِّم إلى كيركغارد الاعتراف الذي كان يطالب به. أنا لا أطلب أن يغيِّر الأسقف مارتنسن آراءه الفردية بل كل ما أطلبه هو أن يسمح الأسقف - ليس من أجل كريكغارد أو من أجلي أنا بل من أجل الكنيسة - بتقديم الاعتراف، كما أفهمه، وبالوقوف وتطبيقه على

نفسه كذلك. وكان هذا مقترحاً يثير الاستغراب، وانتحى جي. أف. غيودفاد، كبير القائمين على صحيفة فادريلانديت، بكيركغارد جانباً بحيطة ليسمع منه إن كان يعتقد بأن الجريدة ينبغي أن تنشر المزيد من هذا القبيل، الأمر الذي لم يكن برأي كيركغارد المحسوم ضرورياً بشكل قاطع. وكان كيركغارد يفضل في الحقيقة أن تنشر فادريلانديت مقالات تهاجمه لأن هذا من شأنه أن يساعد في الحفاظ على انفصاله كفرد.

في اليوم التالي على عمل الإحسان الذي قام به نيلسن كتب مارتنسن إلى صديقه الكهنوتي غودا يبلغه بأنه رد زيارة نيلسن ليجعل من الواضح إنه لا يضمر أي كراهية ولا هو معارض للمصالحة. وكانت الزيارة ناجحة بدرجة معقولة لأن نيلسن على ما يبدو لا يشارك مارتنسن آراءه فحسب بل ويؤيدها. وسيواصل نيلسن، بالطبع، الدفاع عن أعمال كيركغارد ولكن مارتنسن لاحظ إنه تكلم باستنكار أشد بكثير شاجباً أحدث واقعة شائنة من جانب كيركغارد. ولم يقر تماماً بأنها كانت شيطانية لكنه أقر بأن من الجائز أن تكون. وقال إن كيركغارد يقف الآن على مفترق طرق خطير: إما سيكون عليه أن يثبت إنه أعظم رجال الحقبة أو إنه سيكون أقل من صفر. وبحسب مارتنسن فإن نيلسن ذكر حينذاك إنه سيكتب قطعة تشرح آراءه بمزيد من التفصيل. بالطبع، أنا لم أُناقش المسألة أبعد من ذلك لأن هذه أمور حساسة، وأنا أُفضل أن أدع كل شخص يكتب ما يريد أن يكتبه محتفظاً لنفسي بحق أن أفعل الشيء نفسه. وسيصبح من غير اللطيف إذا زارني في أحيان أكثر.

لم يعد بي. أس. إنغمان B. S. Ingemann الذي كان عادة يستطيع إقامة علاقات ودية مع أي شخص، قادراً على كبت غضبه، وفي 15 كانون الثاني/ يناير كتب إلى ينز بالودان مولر Jens Paludan Muller إن القطعة التي أنجزها كانت دفاعاً ثمة حاجة ماسة إليه عن سمعة مينستر ضد سيد سفسطائي نسختنا الحالية من أثينا. وتابع إنغمان: بقدر تعلق الأمر بسورين السفسطائي لم أعتقد قط إن الحقيقة كانت لديه. وبديالكتيكه الفذ فإنه كان دائماً يبدو لي فناناً محتالاً يمارس الخداع مع الحقيقة ومع المسيحية، يجعلها تظهر وتختفي تحت قواقعه. وفي هذه الأثناء يلعب أولاً سيميون ستيلايتس ثم مفيستوفيليس، وهو نفسه شخصية جوفاء أساساً باع بطريقة ما قلبه وعقله مقابل جرعة مضاعفة من الدهاء الرائع – ولكن من دون أن يفكر في إخفاء الخواء الذي يتدفق منه ما لا حد له

من الغرور والكبرياء وروح لا تعرف الحب والكثير من صنوف البؤس الأخرى. وفي ذلك اليوم نفسه، 15 كانون الثاني/ يناير، نشرت فادريلانديت مقالاً بقلم رئيس الشمامسة «ترايدِه» - هل قام الدكتور سورين كيركغارد بعمل صالح في الاحتجاج على توصيف الأسقف مينستر بأنه شاهد على الحقيقة - يبحث في النزاع بطريقة لاهوتية ذكية رغم إن المقال انتهى باتخاذه جانب مارتنسن.

بعد أقل قليلاً من أسبوع على مساهمة نيلسن الأولى في المناظرة، نشر مقالاً ثانياً موجزاً تماماً بعنوان إلى صاحب النيافة الأسقف مارتنسن: سؤال. وإذ استجمع نيلسن كل براعته الدبلوماسية طلب أن يؤكد الأسقف إن احتجاج كيركغارد عمل صالح: باسم الكنيسة، هل تجد من المناسب أن يبقى رأيي قائماً، بلا معارضة، كرأيٍ مضادٍ لرأيك، حتى إشعار آخر، أم إن تقديرك هو إن رأيي يجب أن يُرفض على الفور بوصفه رأياً لا أساس له، ليمكن، من أجل سلام الكنيسة، توكيد حكمك على أنه حكم معصوم من الخطأ وقطعي؟ لم يتلق نيلسن رداً قط. ولكن بعد يومين نشرت صحيفة برلينغسكة تيدندة إعلاناً من مجهول اسمه X لاحظ بحدة قاطعة: بما إن أي نوع من الرد، في الظروف الراهنة، على سؤال كهذا في غير وقته ولا مبرر له، ليس من شأنه إلا أن يبدو وكأنه يصب الزيت على النار، فإن المرء ربما ينبغي أن يفترض بأنه لن يكون هناك رد، من أجل السلام ومن أجل المستقبل.

لا يُعرف إن كان مارتنسن هو الشخص الذي اختفى وراء X ولكنه في كل الأحوال لم يكن راضياً بكل تأكيد عن المنحى الذي اتخذته القضية. وكتب إلى غودا في 19 كانون الثاني/ يناير أما آر. نيلسن فإنك لا شك قرأتَ الآن مقاله الثاني الشنيع. أوه، كم هو بلا شخصية هذا الرجل. وبعد عشرة أيام سيصبح الوضع حتى أشنع، إذا أمكن ذلك. ففي 29 كانون الثاني/ يناير أعلن كيركغارد في صحيفة فادريلانديت إنه بتطويب الأسقف مينستر على هذ النحو فإن الأسقف الجديد يجعل المؤسسة الكهنوتية كلها، من وجهة نظر مسيحية، قطعة من الخروج المعيب عن اللياقة لأنه لو كان الأسقف مينستر شاهداً على الحقيقة فحينذاك - كما يستطيع أن يرى حتى أكثر الأشخاص عمى - يكون كل قس في البلد شاهداً على الحقيقة. ثم استخدم كيركغارد جنس الشناعة في الكتابة بلا وازع: أكرر هنا احتجاجي، ليس بطريقة مخففة بل محتدة: أُفضِل المقامرة والسُكر والفسق والسرقة والقتل على المشاركة في استغفال الله. وأُفضل قضاء

وقتي في صالات البولنغ ومحلات البلياردو وقضاء الليالي في الكازينوهات أو في حفلات تنكرية، على المشاركة في هذا النمط من الجدية التي يسميها الأسقف جدية مسيحية، بل أُفضل استغفال الله مباشرة أو التسلق إلى بقعة مرتفعة أو الخروج من أبواب حيث أكون وحدي معه، وأقول هناك بصراحة «أنتَ إله هزيل لا نفع فيك سوى أن يستغفلك الناس». أُفضل أن أفعل هذا على أن أستغفله بالتظاهر بالقدسية بأُبهة، مقدماً حياتي بوصفها حماسة وحميّة خالصة من أجل المسيحية - ولكن، أرجوكم أن تلاحظوا، أن يكون على نحو بحيث إن هذا دائماً (اللعنة على المواربة) يحقق لي «بالإضافة إلى ذلك» ربحاً في الجوانب الزمنية والدنيوية.

في ذلك اليوم نفسه نشر كيركغارد في ملحق صحيفة مقالاً بعنوان شاهدان جديدان على الحقيقة. وكانت مناسبة المقال نشر موعظة ألقاها مارتنسن في 26 كانون الأول/ ديسمبر 1854 وصف فيها بطريقة استفزازية أسقفين جديدين بأنهما شاهدان على الحقيقة. وأوضح كيركغارد إن الأسقف الراحل كانت لديه موهبة غريبة تماماً في إخفاء الجوانب الضعيفة ومواطن الوهن في النظام القائم. والأسقف الجديد، مارتنسن، رجل موهوب أيضاً، ولديه موهبة نادرة في أن يفضح، حتى بأبسط الأشياء التي يفعلها، هذا الجانب الضعيف أو ذاك من جوانب النظام القائم. وجرت رَسامة الأسقفين الجديدين بعد يوم الكرسمس، في يوم القديس إسطفانوس الشهيد، الأمر الذي وجده كيركغارد مثيراً للسخرية، مثلما غضب لأن مارتنسن بتلميحه إلى القديس إسطفانوس اغتنم المناسبة ليشير، من بين أشياء أخرى، إلى أن مصطلح شاهد على الحقيقة «يردد صدى خاصاً في هذا اليوم». وهذا لا يمكن أن يُنكَر - سوى إن هذا الصدى الخاص إنما هو نشاز.

مرة أخرى تعين على إنغمان أن يهب للنجدة بكلمات من المواساة لأُولئك الذين هوجموا. وفي رسالة بتاريخ 28 كانون الثاني/ يناير كتب الآتي إلى مارتنسن: أغضبتني وأساءتني كثيراً بهلوانيات سورين السفسطائي على قبر مينستر. كان تفنيدك له قاسياً لكنه عادل ومناسب. ولو قدم إنغمان اعتراضاً واحداً لكان إن مارتنسن كان ينبغي ألا يهاجم مظهر كيركغارد الجسدي لأنه بعمله هذا خاطر بأن يتيح للعقاب الذي يستحقه كيركغارد أن يجعل منه شهيداً في مخيلته هو وبحكم هذا الفعل جعله «شاهداً على الحقيقة» في تلك المخيلة

ذاتها. وهكذا لم يكن التعاطف بل اعتبارات تكتيكية هي التي دفعت إنغمان إلى أن يشير على مارتنسن أن يخطو بحذر. أما كيركغارد فإن إنغمان تابع كالآتي بشأنه: إنه أجوف، فنان ديالكتيكي محتال يسمح للحقيقة بأن تظهر ثم تختفي تحت قلنسوة راهب صلبة هي في الحقيقة طاقية مهرج. وبرأيي فإن كبرياء وغروراً لا حدود لهما والكثير من الدناءة تطل من خلال الأسمال والثقوب الجمالية التي يزين بها نفسه - وفي هذه الأثناء يعمق ويعمق الهوة بين نفسه (وكذلك المعجبين به) والمسيحية التي يبشر بها.

كان إنغمان قادراً على تحقيق إنجاز آخر وأكبر من كتابة الترانيم السُكرية المعروف بها. ويقودنا وضع الحقيقة في فم مهرج إلى الأمام في الزمن نحو der tolle Mensch أو الشخص المجنون الذي سوف يرسله نيتشة بعد أقل من جيل متعثراً يحمل فانوساً في وضح النهار ليُعلن موت الله.

فرجينيا وريجينة - فقدان ما هو أثمن شيء

وسط كل هذه الأحداث، بعيداً في زاوية صغيرة من التاريخ، رُزق غودا بنتاً صغيرة اسمها إيما دوروتيا. وفي 2 شباط/ فبراير أرسل مارتنسن تهانيه وأضاف تعليقين يتناولان مقال كيركغارد عن أجدد شاهدين على الحقيقة: ربما لم تسنح لك فرصة لقراءة أحدث مقال متعصب بقلم كيركغارد كتبه بحدة مبتذلة. إنه شيء من النوع الذي يجعل المرء قلقاً على حالته العقلية. ما هو مؤكد أن ملكوت الله لا يقاربنا بوسائل كهذه... وآمل أن يتركه الناس الآن تماماً لنفسه وألا يتورطوا معه.

عندما كتب مارتنسن مرة أخرى بعد أسبوعين كان ذلك - على نقيض لافت مع القضايا المبدئية الكثيرة التي كانت تتطاير بالاتجاهين بين هذين الرجلين المتعنتين - عن أمر شخصي بعمق: أُشاركك هنا النبأ المحزن بأن ابنتنا الصغيرة فرجينيا التي كان عمرها نصف سنة، ماتت أمس من جراء إصابتها بتشنجات وذات الرئة. وسبَّب هذا الحدث بصفة خاصة الكثير من اللوعة العقلية لزوجتي. الله يمنحنا القوة على تحمل هذا المصاب وكل صليب يشاء الله أن نحمله!

وفيما كان الأسقف يستعد للدفن وحفار القبور يضرب الأرض المتجمدة ليمكن إنزال تابوت الطفلة إلى العمق الموصوف بستة أقدام، كانت السجالات تسيل محتدمة من قلم كيركغارد، وكان الإكليروس، الذي تعرض إلى خضة،

مرتاعاً على العموم. مررنا حقاً بوقت غير سار مع هجوم سورين كيركغارد على مينستر، كما كتب يوست باولي إلى أحد معارفه في منتصف شباط/ فبراير. ومن المعيب بحق استغلال المسيحية كما يفعل كيركغارد مستخدماً إياها لإثارة ضجة. ثمة شيء شيطاني في غروره. كل شيء فيه محسوب. ومن أحاديثه – في أوقات ماضية كنا نخرج في نزهات نمشي معاً – أدركتُ بالتأكيد منذ فترة طويلة أنه يعتقد أنه هو نفسه الرجل الذي ينشر المسيحية بيننا، وأعطيته رأيي الصادق عما كان منحرفاً وخطيراً في كتاباته.

لكن كيركغارد هذا لم يكن قادراً على حساب كل شيء. وخلال شهر آذار/ مارس كانت عائلة شليغل مشغولة في توضيب ما في الدار لأن شليغل عُين حاكم جزر الهند الغربية الدنماركية حيث سيمضي مع زوجته السنوات الخمس المقبلة. وفي 17 آذار/ مارس، يوم رحيلهما، تركت ريجينة الشقة الشبحية في شارع بريدغاده للمشي في أرجاء المدينة بأمل لقاء سورين. وما إذا كان ذلك التفاتة كريمة أخيرة أم لا من جانب الحاكمية الإلهية تجاه هذين الاثنين اللذين ارتبطت حياتهما هذا الارتباط المستحيل فإنها لم يمض وقت طويل حتى وقع نظرها على هيأته المعروفة بالقبعة ذات الحافة العريضة. وحين مر بها قالت بصوت خافت بالكاد يُسمع، الله يباركك – أتمنى لك كل الخير. ذُهل كيركغارد تماماً لكنه أفلح في رفع قبعته وتحية حبيبته السابقة – للمرة الأخيرة في حياته.

ثم أسرعت ريجينة عائدة إلى الشقة في شارع بريدغاده متصرفة وكأن شيئاً لم يحدث.

بكل بساطة – أُريد استقامة

خلال الأشهر الخمسة المقبلة كتب كيركغارد نحو عشرين مقالاً لصحيفة فادريلانديت، نُشر أكثر من نصفها في ظرف اثني عشر يوماً فقط. وكان ذلك قصفاً سجّادياً حقيقياً من السجالات. وكان مارتنسن ينقصه الحلفاء والذخيرة على السواء، وطلب من غودا عدة مرات أن يمده بمادة مناسبة يحارب بها الضجة الكيركغاردية، على حد تعبيره في رسالة بتاريخ 21 آذار/ مارس. وفي هذه الرسالة نفسها كشف الأسقف الذي قام الآن بزياراته الرسمية الأولى إلى دوائر مينستر القديمة، الآتي: اكتسبتُ بصائر عديدة عن الظروف والأحوال المزرية التي يتسم بها الوضع الكنسي. هناك بكل تأكيد أشياء في كنيسة الدولة لا يمكن الإبقاء

عليها بل وينبغي ألّا يُبقى عليها. ويضم الإكليروس عدداً كبيراً من الأعضاء الذين لأجلهم لن تكون هناك قيمة لدعم أي مؤسسة كنيسة على الإطلاق. اليوم أتوقع تناول العشاء مع الكونت كنوت وحلقة صغيرة من الأصدقاء.

كيركغارد ما كان ليستمتع بانتقال مارتنسن السهل من شكاواه الكنسية إلى المجتمع الأرستوقراطي الذي توقعه ذلك المساء فحسب بل كان سيبتهج أيضاً بالحقيقة الماثلة في أنه هنا حقاً كان الاعتراف الذي سعى إليه. إذ أكد مارتنسن بأم عينيه ما انتقده كيركغارد بإطناب. فالوضع في الكنيسة كان مزرياً، وكنيسة الدولة مكشوفة للنقد، والقسم الأعظم من الإكليروس لا يستحق الدفاع عنه. ويُسجل لمارتنسن إنه اعترف بهذا الواقع، وكونه لم يجاهر بذلك جعل صمته نفاقاً.

فيما كان غودا جالساً وسط الطبيعة الخلّابة في جزيرة أولاند يقرأ رسائل الأسقف، صدر عدد 22 آذار/ مارس من صحيفة فادريلانديت متضمناً نصيحة كيركغارد الملموسة بشأن ما ينبغي أن يفعله مارتنسن: أولاً وقبل كل شيء، وعلى أوسع نطاق ممكن، يجب وضع حد لكل اللاحقيقة الرسمية - حسنة النية - التي تستحضر (بأفضل النيات) وتديم الوهم القائل بأن ما يجري التبشير به هو المسيحية، مسيحية العهد الجديد... يجب تحويل الأمر بهذه الطريقة: بعيداً، بعيداً، عن كل الهلوسات، وكشف الحقيقة، كشفها - بأننا غير قادرين على أن نكون مسيحيين بمعنى العهد الجديد. وبعد أربعة أيام، في 26 آذار/ مارس، استأنف كيركغارد من حيث توقف: الوضع الديني في البلد هو: إن المسيحية... لا وجود لها على الإطلاق، الأمر الذي من المؤكد أن الجميع يستطيعون رؤيته بوضوح كما أراه أنا. فنحن لدينا، إذا شئتم، كادر كامل من الأساقفة وكبار الكهنة والقساوسة. ذوو علم، أهل علم بصورة استثنائية، موهوبون، حسنو النية بالمعنى الإنساني، كما يعلنون جميعهم - أمر حسن أو حسن جداً أو حسن بصورة استثنائية أو حسن بقدر معقول، أو حسن بدرجة عادية، أو بمستوى ضعيف - ولكن لا أحد منهم له طابع مسيحية العهد الجديد، ولا حتى طابع السعي باتجاه مسيحية العهد الجديد. ما كان مارتنسن ليتفق مع استنتاجات كيركغارد ولكن الأرجح إن الرجلين كان من الجائز أن يتفقا على المنطلقات.

ولكن استمرار الحوار كان متعذراً، وبعد يومين، في 28 آذار/ مارس / سقطت قنبلة إنشطارية أخرى قريباً جداً من مقر سكن الأسقف. أطروحة - أطروحة

واحدة فقط. أوه، يا لوثر كانت أطروحاتك خمساً وتسعين. كم ذلك مخيف! ومع ذلك فإنه بمعنى أعمق، كلما زادت الأطروحات كان ذلك مخيفاً بدرجة أقل. هذا الأمر مخيف أكثر بكثير: هناك أطروحة واحدة فقط. إن مسيحية العهد الجديدة لا وجود لها على الإطلاق. ليس هناك شيء ينبغي إصلاحه. المهم هنا هو إلقاء بعض الضوء على مخالفة جنائية مسيحية مستمرة منذ قرون، يمارسها ملايين (ببراءة أو بذنب إلى حد ما) حيث الناس إذ يقولون إنهم يفضلون المسيحية، حاولوا بحذاقة، شيئاً فشيئاً، أن يخدعوا الله بعيداً عن المسيحية، محوِّلين المسيحية إلى نقيضها تماماً في العهد الجديد. وفي هذه المناسبة نفسها أصر كيركغارد على أنه ليس مصلحاً أو متنبئاً أو نبياً بل محقق بوليسي موهوب موهبة غير اعتيادية. وبعد يومين، في 30 آذار/ مارس، كان كيركغارد حاداً في نقده للدين بحيث لا بد إن نقده أصاب ذوي العباءات السوداء بحالة إغماء: إذا انتفض الجنس البشري متمرداً على الله ورَفَض المسيحية أو زجَرها فإن ذلك لن يكون خطيراً بخطورة هذا السلوك المُدَلِّس الذي ألغى المسيحية بنشرها بطريقة باطلة وكاذبة. وطوَّر كيركغارد هذه الفكرة في اليوم التالي، 31 آذار/ مارس، في مقال ذي عنوان استنطاقي هو ماذا أُريد؟ قدم هو نفسه الإجابة عنه: بكل بساطة أُريد استقامة... أنا مستعد للتجرؤ من أجل الاستقامة. ولكن من الجهة الأخرى أنا لا أقول إن المسيحية هي التي أتجرأ من أجلها. افترضوا هذا، افترضوا إني أصبحت قرباناً، بالمعنى الحرفي للكلمة: لكني لن أصبح قرباناً من أجل المسيحية بل لأني كنتُ أُريد الاستقامة.

أُسقط بيد مارتنسن. ورد بدفاعية وغضب ناقلاً إلى غودا في رسالة بتاريخ 2 نيسان/ أبريل، الآتي: وهكذا بدأ كيركغارد فضيحة جديدة بمقالاته الصحفية التي لا تتوقف. لم أقرأها لكني سمعتُ تلخيصات شفهية لها. أوه، هذا الرجل يكشف عن نفسه بطريقة مخيفة بصورة متزايدة. كما يبدو لي إنه حتى بمفردات فكرية، عدا عن الجانب الأخلاقي للقضية، يعهِّر نفسه بهذه الهجمات ضيقة الأفق فاضحاً نفسه شخصاً، بكل بساطة، لم يولِ اهتماماً بحدود مواهبه. وهنا نرى بوضوح ما هو قادر عليه في مضمار الاتصالات المباشرة. وسيكون من الشيق أن نعرف رأي راسموس نيلسن بشأن الـ «إما/ أو» التي اقترحها في مقاله الأول. لكني لم أرَ شيئاً منه على الإطلاق ولا أرغب في أن أرى.

قبل أسبوع على ذلك كتب كارستن هاوخ رسالة إلى إنغمان يعلن اتفاقه

الكامل مع حكم هذا الأخير على سلوك كيركغارد. وكان إنغمان أعرب عن سخطه على التأييد الذي لاقته وقاحة هذا السفسطائي وصفاقته بين شباب يبدو لهم هذا التهريج القاسي مع الحقيقة عملاً رائعاً. وقبل ستة أعوام، عندما أعرب هاوخ عن شكره لكيركغارد على إرساله نسخة من كتاب «إما/ أو» أكد لكيركغارد أن هذا بكل تأكيد هو الكتاب الذي سيأخذه معه إذا دخل السجن ذات يوم.

وأعربت ماغدلين هانسن، شقيقة الرسام كريستيان كوبكه وزوجة زميله الرسام كونستانتين هانسن، عن موقف أكثر تعاطفاً بكثير في رسالة إلى البارونة أليسا ستامبة: كان أيضاً مبعث أسى مستمر لي أن أسمع أشخاصاً يمزقون كيركغارد إرباً، وإذا جاز أقول، يجهدون في سد آذانهم عن الصدق في سلوكه ليتمكنوا من تَبَيّن مواطن ضعفه الإنسانية بمزيد من الوضوح - وكأن السؤال هو، «أي صنف من الأشخاص كيركغارد؟» وليس «هل أنا مسيحي؟»

لذلك، احذفوا الأسماء المستعارة

ما بدأ نزاعاً على التعريف الصحيح لمصطلح شاهد على الحقيقة سرعان ما تطور إلى نقد واسع النطاق لقيادة الإكليروس غير الكفء في الاضطلاع بمسؤولياتها تجاه المسيحية، التي أصبحت الآن لا تتميز عن نظرة البورجوازية المهذبة بلا روح إلى العالم. وفي 3 نيسان/ أبريل نشر أحدهم مستخدماً اسم N-n مقالاً بعنوان مقترح إلى الدكتور أس. كيركغارد في صحيفة فادريلانديت آملا أن يضع نهاية للسجال الذي كان يقترب الآن من نقطة النصف عام، ويجب برأي N-n أن يبقى بعيداً عن المبالغات المتناقضة والتهويلات المتشنجة. والأكثر من ذلك إن N-n كان غاضباً على البراعة اللئيمة التي صب بها كيركغارد لعناته على الكنيسة وإكليروس الكنيسة: كل شيء يعلِّمه خدام المسيحية المعينون ويبشرون به يوضع في سلة واحدة ويُصنف على أنه معادٍ للمسيحية. وحان الوقت الآن للكلام بصورة بناءة، وبالتالي إذا كان كيركغارد يريد أن يفعل أكثر من مجرد إثارة المتاعب والهدم، والتعكير والتشويش، مروجاً القلق والرعب فإن عليه أن يعطي مواطني بلده بعض الإرشاد، عَرْضاً بمعالم واضحة ومحدَّدة، لعقائد العهد الجديد بطريقة تجيز لها، في رأيه، أن تحمل اسم «عقائد العهد الجديد». وكان N-n يرى إنه لو حدث ذلك فإن القراء

ربما يكونون قادرين على الخروج من العالم الضبابي الذي هم فيه الآن بلا أنوار أخرى سوى شموع وصواريخ رومانية لأنه لا شيء تحقق بقرع ناقوس الإنذار والصراخ، بالزوبعة والغضب، بالرعد والبرق. فهذا ليس بروح الأنبياء وأقل منه بروح المسيح والرُسُل.

في 7 نيسان/ أبريل رد كيركغارد بإحالة N-n إلى أعماله حاشية ختامية والمرض حتى الموت ولا سيما الممارسة في المسيحية، الذي نفد بالطبع من السوق، ولكنه كان وقتذاك قيد الصدور في طبعة جديدة. وبعد أسبوعين نشر العميد فكتور بلوخ، وهو من مريدي غروندتفيغ، آراءه في صحيفة فادريلانديت. فهو قرأ مساهمة N-n باهتمام، واتفق مع طرحه للقضية ولكن ليس مع خلاصته لأن ما تتطلبه المسألة، برأي بلوخ، ليس مفاوضات لاهوتية وإنما قرار كنسي. وإذا أُريد أن يؤخذ كيركغارد على محمل الجد والقضية كلها لا تُعد نكتة سمجة تحمل هراوة شرطي، سيتعين أن يواجَه بمناقضة نفسه حين يريد هو غير المسيحي أن يقرر ما هي المسيحية وما ليست هي. ولكن كيركغارد لم يناقض نفسه فحسب بل ناقض أيضاً الرب الذي وعد عباده بحياة أبدية والنصر على قوى الظلام... ولكن عندما يتمادى في الصلافة والزعيق سيتعين عليه أن يتحمل الحقيقة الماثلة في أن عباد الله سيتركون صوته الزاعق في الخارج وغير مسموع، غالقين أبوابهم بوجهه وفي هذه الأثناء يواسون أنفسهم بإنشاد ترانيمهم، مؤدين صلاة ربهم، قارئين إنجيلهم، مستمعين إلى وعظ كلام الله ويعيشون أسرار الرب المقدسة. كانت هذه هي الطريقة الغروندتفيغية وهي نادراً ما كانت تسبب إساءة.

رد كيركغارد الذي توقف منذ زمن طويل، بالطبع، عن حضور الكنيسة، بعد ثلاثة أيام: إذا لم أُصلح طرائقي يريد العميد أن يُخضعني لعقاب الكنيسة. وكيف؟ في الحقيقة إن العقاب محسوب بقسوة، بدرجة كبيرة من القسوة، بحيث أنصح السيدات أن يجهزن ملح النشادر لكيلا يُغمى عليهن حين يسمعن به: إذا لم أُصلح طرائقي سأُستبعَد، أُستبعَد خلال الساعات الهادئة لأيام الآحاد من الاستماع إلى بلاغة شهود على الحقيقة - بلاغة إذا كانت لا تُقدَّر بثمن فإنها تعلو على أي قيمة - وأنا - الخروف المسكين البائس أنا - لا أستطيع القراءة ولا الكتابة ولذلك يجب، بعد أن أُستُبعدت على هذا النحو، أن أذوي روحياً، وأموت جوعاً لاستبعادي عما يستحق بكل تأكيد أن يُسمى مغذياً لأنه يغذي

القس وعائلته!... عقاب مخيف، مخيف! عميد مخيف! بعد هذا ظل بلوخ صامتاً جداً.

قبل يومين نشرت صحيفة داغبلاديت مقالاً بقلم مجهول أيد نقد كيركغارد لتسيُّب العصر. ولكن الذنب، كما يعتقد الشخص المجهول، ليس ذنب الكنيسة بل يكمن في حقيقة إن المسيح غريب في بيوتنا، ولذلك أراد أن يوجه ضربة إلى الصلوات المنزلية - نعم، هذا ما نفتقد إليه! كيركغارد الذي كان يرد حتى على أدنى سقسقة، لم يعلق على هذه البساطة العميقة مع إنه نفسه فكَّر قبل بعض الوقت على ذلك في شيء لا يختلف كثيراً عن هذا المقترح. فبما إن القداسات الدينية محاولة عظمى لاستغفال الله، قرر أن يلازم بيته ويقرأ أحد الأعمال التثقيفية الأشد صرامة صباح يوم الأحد وينشد بعض الترانيم. والأرجح إن هذه الخطة لإقامة قداسات دينية بوجود رجل واحد لم تُنفَّذ قط بل إن كيركغارد أسبغ على احتجاجه مسحة استفزازية بالمواظبة على التردد على غرفة القراءة في مكتبة أثينيوم كل يوم أحد في اللحظة التي تقرع الكنيسة أجراسها داعية إلى حضور القداس. وفي يوم الجمعة، 28 أيار/ مايو 1852، حضر كيركغارد سر التناول للمرة الأخيرة في حياته من القس أي. أنْ. سي. سمث، القس الذي كان يسمع اعتراف والده. وكان ثابتاً. ففي 2 أيار/ مايو 1855، بعد أن نُكب ابن عمه الشيخ مايكل أندرسن كيركغارد بموت زوجته، تلقى كيركغارد رسالة من الحانوتي الذي أبلغه بأن عربة ستأتي لأخذه يوم الدفن. ولكن كيركغارد أرسل اعتذاراته، وفي رسالة (هي بالمناسبة آخر رسالة لدينا من يده) أوضح إنه منذ سنوات لم يحضر جنازة أحد، ولا حتى أفراد عائلتي الأقرب، كما تعرف أنتَ نفسك يا عمي، لأني لم أحضر تشييع عمتنا في غوترسغاده ولا تشييع ابن العم أندريس، وبذلك سأجرح بكل تأكيد آخرين سيكونون بالطبع حاضرين إذا خرجت عن القاعدة هذه المرة. لذلك أستمحيك المعذرة يا عمي العزيز. وربما تُبلغ الحانوتي بذلك لكيلا يرسل عربة تأخذني بسبب حدوث سوء فهم.

كان لدى كيركغارد أمر آخر عليه أن يوليه اهتمامه وتعين عليه أن يترك الموتى يدفنون موتاهم. وفي 10 أيار/ مايو نشر مقالين في صحيفة فادريلانديت هما نتيجة ومونولوج، وكلاهما ركزا بقسوة على غياب رد فعل الإكليروس. وفي هذا الشأن قدم إيضاحاً: كان احتجاجي موجهاً ضد

خيالات مارتنسن. ولم أطرح المسألة بطريقة بحيث يجب على رجال الدين أن يكونوا شهوداً على الحقيقة. كلا، أنا طرحت المسألة على النحو الآتي: إن عليهم إنزال تلك اليافطة. بعد ستة أيام علق كيركغارد نفسه يافطته الخاصة. وكانت المناسبة الطبعة الثانية من كتاب الممارسة في المسيحية الصادرة حديثاً، وأوضح إن العمل لو نُشر للمرة الأولى الآن، في 16 أيار/ مايو 1855، لما صدر باسم مستعار بل باسمي أنا، وكانت المقدمة المكرَّرة ثلاث مرات ستُحذف... وسابقاً كانت فكرتي تذهب إلى أنه إذا كان من الممكن الدفاع عن النظام القائم فإن هذه هي الطريقة الوحيدة للقيام بذلك: بإصدار حكم عليه شِعرياً (وبالتالي باسم مستعار)... الآن، من الجهة الأخرى، أنا على قناعة تامة بشيئين: كلاهما إن من وجهة النظر المسيحية لا يمكن الدفاع عن النظام القائم وكل يوم يكون موجوداً فيه إنما هو، من وجهة النظر المسيحية، جريمة، وإن المرء لا يجوز أن يلجأ إلى النعمة في هذا الأمر. لذلك احذفوا الأسماء المستعارة، احذفوا المقدَّمة المكرَّرة ثلاث مرات والعبرة من القسم الأول – إذاً، من وجهة النظر المسيحية فإن كتاب الممارسة في المسيحية إنما هو هجوم على النظام القائم.

الكراس الموسوم هذا يجب أن يُقال، فليُقال الذي صدر في الأسبوع التالي مع ما يُسمى الورقتان المرفقتان به، جعل من الواضح بجلاء إن تقديم اعتراف لم يعد إمكانية قائمة. وحملت الورقتان المرفقتان التاريخين 9 و11 نيسان/ أبريل 1855. وكانت الورقة الأولى منهما موجهة في الأصل إلى وزير شؤون الكنيسة والثقافة سي. سي. هال وكُتبت على شكل خطاب مباشر. وحذف كيركغارد هذه السمات ونشر القطعة بوصفها إعلاناً رسمياً لمعاداة المسيحية الرسمية. وفي 26 أيار/ مايو، قبل أن يتمكن أحد من الرد، نُشر مقال آخر أصدر فيه كيركغارد الحكم القاسي التالي بعد نوع من العرض المختصر للأحداث التي وقعت حتى الآن: إن صمت الأسقف مارتنسن (1) لا يمكن الدفاع عنه من وجهة النظر المسيحية، و(2) إنه مثير للسخرية و(3) إنه غبي – فطن و(4) يستحق الازدراء بأكثر من معنى.

بهذا انتهت المرحلة الأولى من هجوم كيركغارد. وأمكن الشروع بالمرحلة الثانية، ولكن الوقت كان يمر سريعاً.

فيما يتعلق بالشهود على الحقيقة فإن سورين يستخدم الآن مدافعه الثقيلة وفتح نيران بطارياته في مقال نشرته صحيفة فادريلانديت وفي مجلة من نوع ما اسمها اللحظة The Moment، كما كتب هانز بروشنر في رسالة بتاريخ 29 أيار/ مايو 1855 إلى صديقه القديم كريستيان كي. أف. مولبيخ، الذي كان وقتذاك أُستاذ اللغة والأدب الدنماركيين في مدينة كيل. وكالعادة كان بروشنر حسن الاطلاع. وقبل خمسة أيام، نُشر العدد الأول من الرسالة الإخبارية وبدأ فجأة تداوله في كوبنهاغن التي كانت حينذاك تمر بموجة حر تكاد تكون شبه مدارية، وأثار صدور العدد ضجة غير اعتيادية. ولكن أمل بروشنر كان ضئيلاً بأن تؤثر الرسالة الإخبارية في رجال الدين. وكتب إن شهودنا على الحقيقة هم مثل سكان سيباستوبول مقارنا الوضع الكنسي بالميناء البحري الشهير في شبه جزيرة القرم، المطوق وقتذاك بالقوات البريطانية التي ضربت حصاراً على المدينة طيلة أشهر بلا جدوى. طالما أنهم ليسوا جياعاً، فهم لا يكترثون بأي شيء آخر. هم صامتون ويواصلون دراساتهم لِنِسَب الضريبة المنكودة والأبرشية - التي هي بمثابة العهد القديم والعهد الجديد لرجال الدين عندنا.

كان واضحاً منذ فترة طويلة لكيركغارد إنه لا يستطيع أن يواصل حملته في صحيفة فادريلانديت. وفي حين إن علاقاته كانت طيبة مع جي. أف. غيودفاد فإنه كان يمتنع عن التمادي في استغلالها. وكانت صحيفة فادريلانديت منحت آنذاك اسمها وكميات كبيرة من حبر مطابعها لما لا يقل عن اثنين وعشرين مقالاً بقلم كيركغارد، وكان لا يريد أن تصبح الجريدة مطبوعه الرسمي. وكتب كيركغارد فيما بعد عائداً بأنظاره إلى الوراء: وهكذا بعد التفكير في عدة عوامل مختلفة قررتُ أن أبدأ نشر بعض الرسائل الإخبارية بنفسي وبذلك يكون عندي ناطق باسمي وحدي كفرد.

ولكن إطلاق الرسائل الإخبارية تطلّب بعض الوقت. فأولاً، كانت هناك صعوبات معينة بشأن التمويل لأن كيركغارد نفسه كان عليه أن يتحمل تكاليف الإنتاج. ولهذا الغرض اضطُر إلى الاعتماد على آخر خمسة آلاف ريكسدولار متبقية من بيع عقاره في 2 ميدان نيتروف، بتاريخ 25 آب/ أغسطس 1854، إلى زوج أخته المصرفي هنريك فرديناند لوند. وثانياً، إن كيركغارد كان يخاف من

أن ينتهي به المآل إلى مفارقة صحفية فظيعة. ومن مقال غير منشور تاريخه 8 نيسان/ أبريل 1855 يتضح كم كان مهماً لكيركغارد أن يستخدم الصحافة اليومية دون الدخول في تناقض مع آرائي بشأن الصحافة اليومية. ومع ذلك نحى كيركغارد هذه المصاعب المختلفة جانباً لمصلحة القضية، وفي 24 أيار/ مايو صدر العدد الأول من اللحظة، التي طبع منها ألف نسخة وحملت دعوة إلى الاشتراك فيها من خلال الناشر سي. أي. رايتزل. ومنذ 19 تموز/ يوليو استطاع كيركغارد أن يطلب من رايتزل أن يطبع خمسمئة نسخة إضافية من اللحظة، العدد 2 وبعد عشرة أيام لاحظ بانتصار صامت إن توزيع اللحظة كان الآن يساوي توزيع صحيفة فادريلانديت.

ورغم إصرار كيركغارد على أنه يريد شن حملته بوصفه فرداً فإن رسالته الإخبارية كانت مع ذلك قطيعة مع مبادئه السابقة، وكاد سيبِّرن ألا يصدِّق عينيه حين رأى العدد الأول من اللحظة. ولم تساوره بعض الشكوك فيما إذا كان كيركغارد حقاً صاحب هوى وطبع مسيحي... رغم إنه لا بد أن يملك شيئاً من هذا القبيل بكل تأكيد، فحسب بل فوجئ أيضاً بأن كيركغارد الذي كان يكره التحريض طيلة معرفتي به، أصبح هو نفسه محرِّضاً بحماسة. ولاحظ مارتنسن أيضاً هذا الانقلاب: هنا توجه إلى الجماهير – هو الذي كان في السابق يحتقر الجماهير ولا يريد إلا لقاء هادئاً مع الفرد. ولم يمض وقت طويل حتى بدأ كيركغارد نفسه يشعر بالاختلاف بين الرسالة والوسط، بين الاحتجاج الشخصي والإذاعة العلنية. وفي 30 آب/ أغسطس عندما توقف عند التأثير الذي يمارسه، لم يجد ضيراً في الاهتمام الذي أبداه أشخاص بقضيته. كما لم يكن هناك أي شك على الإطلاق بأن هناك مَنْ يقرؤونه، ولكن الخطوة التالية التي اتخذوها كانت في الاتجاه الخطأ بالمعنى الحرفي للكلمة: يوم الأحد المقبل يذهب الناس إلى الكنيسة كالمعتاد. وما يقوله ك. صحيح من حيث الأساس، ومن الشيق قراءة ما يقوله – بأن عبادة الله الرسمية كلها استغفال لله، وإنها تجديف. لكننا معتادون على ذلك رغم كل شيء، ولا نستطيع أن نحرر أنفسنا منه. ليس لدينا القوة على ذلك. ومع ذلك، من المؤكد أننا سنجد متعة كبيرة في قراءة ما يكتبه. والمرء حقاً لا يستطيع الصبر لوضع يده على العدد الأخير ويعرف المزيد عن هذا الأمر الإجرامي الذي لا يُنكَر إنه موضع اهتمام هائل. بالطبع وجد كيركغارد إن هذا النوع من الاهتمام مستنكَر، وليس من شأنه إلا تأكيد

إيمانه بأن المسيحية أُلغيت وإن الناس في زمننا ليسوا حتى فيما أُسميه حالة دينية، بل هم غرباء عن الدين، ولا علم لهم بنوع العاطفة المتقدة التي يتطلبها كل دين، ومن دونها لا يستطيع المرء أن يكون له أي دين، ولا سيّما المسيحية.

ثم فجأة تحوَّل ذلك الشاعر

لمواجهة خمول الغباء المتأصل في الإعلام نفسه أصر كيركغارد مرات متكررة منذ وقت مبكر تماماً على أنه يفضل ألا يكون مضطراً إلى العمل من خلال مطبوع اللحظة. وفي المقال الأول ذاته في العدد الأول احتضن المثل القديم القائل الأيدي الراغبة تجعل العمل سهلاً لكنه أجرى تحويراً عليه قائلاً إن الجدية الحقيقية لا تظهر إلا عندما يُدفع شخص كفء بقوة عليا إلى النهوض بمهمة ضد إرادته - أي شخص كفء يقف ضد رغبته ذاتها. وجادل كيركغارد بأنه إذا كان هذا الانقلاب في الرغبة والواجب صادقاً، وقد كان صادقاً، فسيكون هو قادراً على ربط نفسه على النحو الصحيح بمهمة «التحرك في اللحظة» لأن الله يعلم، إن لا شيء غريب عن روحي أكثر منذ ذلك. أن يكون المرء كاتباً - حسناً، نعم، هذا يستهويني. وإذا أردتُ أن أكون صادقاً، يجب أن أقول إني أحببتُ أن أكون منتجاً... فأنا شخص من النوع الذي حقاً لا يجد أي متعة في التحرك في اللحظة - على افتراض إني لهذا السبب تحديداً كنتُ مختاراً للقيام بذلك.

كان الوضع استثنائياً، وكذلك الدور الذي اضطلع به كيركغارد. وفي مسودة العدد العاشر من اللحظة بتاريخ أيلول/ سبتمبر 1855، أبدى كيركغارد التواضع اللازم في وصف الموقف: إن وجهة النظر التي عليَّ عرضها، وها أنا أعرضها، وهي جهة نظر متميزة بحيث في 1800 سنة من المسيحية الرسمية ليس عندي شيء مماثل بالمعنى الحرفي للكلمة، وضع مقابل أستطيع الإشارة إليه. وهكذا فإني - وجها لوجه مع 1800 سنة - أقف وحدي بالمعنى الحرفي للكلمة. والمماثلة الوحيدة التي أمامي هي سقراط. فإن مهمتي مهمة سقراطية، وهي التمحيص في تحديد أن يكون المرء مسيحياً. وفي القطعة نفسها أبلغ كيركغارد قراءه إن هناك شخصاً واحداً على قيد الحياة عنده ما هو مطلوب لإنتاج نقد مناسب لعملي، وهو أنا نفسي... والشخص الوحيد الذي كان أحياناً يتكلم بشيء من الحقيقة عن أهميتي هو البروفيسور آر. نيلسن، ولكن هذه

الحقيقة سمعها في أحاديث خاصة معي. كما لم يكن لدى كيركغارد شك في أهمية قضيته لتاريخ بلده، رغم إن آراءه ظلت في يومياته: إن القضية التي لي شرف خدمتها هي أعظم قضية عَرَفتها الدنمارك على الإطلاق، إنها مستقبل المسيحية، ويجب أن تبدأ هنا. وحسب الأصول المرعية، من ناحيتي أنا، فإن هذه القضية خُدمت بقدر كبير من الحماسة والجهد والكد، ونكران الذات حتى إن الدنمارك لم تعرف قضية تشبهها من هذه الناحية.

كان الأمر بلا نظير، فوق أي مماثَلة، ولكن مع ذلك عندما أشار كيركغارد إلى المسرح الذي سيكون ساحة هذه الأعمال، كان بمقدور الجميع أن يروا إنه وجد ملحقاته المسرحية في مدرج روما القديمة، الكولوسيوم. وهكذا يصبح نوعاً من المتعة (مقابل متعة المتفرجين عندما كان المصارعون يقاتلون حيوانات) أن يشاهد أحد من الجمهور هذا الكفاح: فردٌ لا يمتلك شيئاً سوى قوة الروح ويرفض رفضاً قاطعاً أن يقبل أي قوة أخرى، يكافح من أجل الدين، دين التضحية، ضد هذا الفيلق العملاق من ألف قس محترف يقولون «كلا، شكرا» للروح لكنهم يشكرون من الصميم الحكومة على ما يتلقونه من رواتب وألقاب وصلبان فروسية. وعندما ساق كيركغارد مثالاً على حياة كهذه تُعاش بالارتباط مع مسيحية العهد الجديد سيكون المرء أكثر من بليد إذا لم يربط تلك الحياة بشيء يميل باتجاه كيركغارد نفسه: دعوني أعطي مثالاً. أن يعيش المرء بطريقة بحيث يكدّ بجهد أكثر من أي كادح ملزَم بأن يكدح، وفي مجرى العملية يستثمر مالاً في المشروع، ثم لا يؤول إلى شيء، ثم يكون موضع سخرية، وما إلى ذلك. وبنظر الجمهرة الكبرى من الناس لا بد أن يبدو العيش هكذا نوعاً من الجنون. على أية حال، سيشعر غالبية الناس إن هذا غريب وسينظرون إلى مثل هذه الطريقة في العيش على أنها غريبة. ولكن الحقيقة هي إن هذا النمط من الحياة هو حياة تُعاش بالارتباط مع مسيحية العهد الجديد.

كانت حملة كيركغارد تصحيحية هدفها النظام القائم. وأشار إلى ذلك في أحيان كثيرة وبصوت عالٍ. ولكنها كانت شيئاً آخر أيضاً، شيئاً صرف قدراً يكاد يكون متساوياً من الطاقة على عدم ذكره. إذ كانت الحملة لتصحيح أقسام واسعة من أعماله هو. وانقلب كلامه من بطنه بأسماء مستعارة ليتحول أخيراً إلى أقوال شخصية. وأوضح كيركغارد باستعارة فروسطية قائلاً عندما تكون بوابة قلعة الجوانية مغلقة منذ زمن طويل وتُفتح أخيراً، فإنها لا تتحرك بلا صوت

مثل باب داخلي يتحرك على مفاصل مركَّبة على نوابض. وفي عمله عندما يصدر المسيح حكمه بشأن المسيحية الرسمية، بتاريخ 16 حزيران/ يونيو، عبَّر عن مشاعره بطريقة مباشرة أكثر: بدأتُ بطرح نفسي شاعراً، مستهدِفاً بمكر ما كنتُ أعتقد بكل تأكيد إنه النقطة المركزية في المسيحية الرسمية. وكان جوهر الموقف إن الناس حولوا المسيحية إلى شعر، وبذلك ألغوا محاكاة المسيح لكي يستطيعوا الارتباط بالنموذج الأمثل بواسطة المخيلة فقط فيما يعيش المرء في مقولات مختلفة تماماً - الأمر الذي يعني إن المرء يرتبط بالمسيحية ارتباطاً شعرياً. ولاحظ كيركغارد بشأن تكتيكاته إن الطريقة الإجرائية كانت نفسها التي استخدَمَتها الشرطة لطمأنة الأشخاص ذوي العلاقة، وهذا أمر تفعله الشرطة تحديداً لنيل فرصة التحقيق في قضية بصورة أشمل. وبمرور الوقت كشف هذا التحقيق الكثير بحيث تعين على الشاعر أن يمر بعملية تغيير: ثم فجأة تحول الشاعر. رمى غيتاره - إذا جاز لي استخدام هذا التعبير - وأخرج كتاباً اسمُه العهد الجديد لسيدنا ومنقذنا يسوع المسيح.

تقرب كلمات كيركغارد من الابتذال المطلق، لكنها قيلت بجدية قاتلة، كما يتضح من النتف المختلفة من الأدلة، بما فيها مادة نُشرت في العدد السابع من اللحظة تطرح بشيء من التفصيل الخطر الذي يشكله الشعر على الدين. وهنا، مرة أخرى، يتولى العرض ضابط شرطة موهوب في تمويه نفسه وانتحال شخصية شاعر، كان قادراً على أن يرى ما وراء الكثير من الأقنعة والأزياء التنكرية المختلفة في ذلك الزمن. وبحركات ديالكتيكية ذكية متعددة تقدم المادة - المنشورة بعنوان لماذا يحب «الجنس البشري» «الشاعر» أكثر من سواه؟ - الشاعر على أنه مخادع ومضلل بامتياز. فالجميع يحبونه لأنه يتوجه إلى المخيلة بصورة استحضارية للذكريات حتى إن الناس بكل بساطة ينسون إن كتابته خيالية ويخلطون بينها وبين الواقع. وهنا أيضاً يمكن القبض على ضابط الشرطة الموهوب لارتكابه عدداً من الجرائم الجمالية، بما في ذلك ماضيه كـ شاعر، ولكن بما إن قوى الحفاظ على القانون والنظام جُمدت مؤقتاً فإننا سنكتفي بإثارة المسألة المتمثلة في أن انتقادات كيركغارد هي، من بين أشياء أخرى، انتقادات ذاتية بهذا القدر أو ذاك.

شيء مماثل يصح بشأن التعليقات على الهراء (اقتبِس لاحقاً في أحيان كثيرة) الذي نُشر في العدد التاسع من اللحظة: إن الجنس البشري جنس فطن،

وأجبر الوجود على أن يكشف سرَّه، وعرف الحقيقة الماثلة في أن المرء إذا أراد أن تكون الحياة سهلة (وهذا على وجه التحديد ما نريده) فإن من السهل جعلها كذلك. وكل ما يحتاج المرء إلى عمله هو أن يجعل نفسه وأن يجعل كونه كائناً بشرياً ضئيلين أكثر فأكثر - ثم تصبح الحياة أسهل فأسهل. كُنْ هراء وسترَ، كل المصاعب ستختفي!... فكُنْ هراء. ليكن عندك رأي اليوم ورأي آخر غداً، ومرة أخرى ليكن عندك الذي كان عندك قبل البارحة، وليكن عندك رأي جديد يوم الجمعة. كُنْ هراء. اجعل نفسك عدة أشخاص، أو وزع نفسك، ليكن عندك رأي باسم مجهول ورأي آخر باسمك الصريح، رأي شفهي وآخر تحريري، رأي بوصفك مسؤولاً رسمياً، وآخر بوصفك مواطناً عادياً... وسترى، كل المصاعب ستختفي. هراء هو خانة الخفَّة، خانة التحويم غير الملتزِم والتجريبي، خانة قابلية الموضوع للتغير. ولكن الهراء بسبب كونه هذا كله على وجه التحديد هو أيضاً استعارة خبيثة أو لا إرادية لأعمال كيركغارد ذاتها، التي بحكم الشخصيات المتغيرة تغيراً متسارعاً، والانفجار السكاني لغاليري البورتريهات التي نجدها في الأعمال المنشورة بأسماء مستعارة، والخطابات التثقيفية بأرواح متفاوتة جداً، تقدم دليلاً يكاد يكون كلاسيكياً على سلوك شخص يجعل نفسه عدة أشخاص، يوزع نفسه، لديه رأي باسم مجهول وآخر باسمه الصريح.

بئس الجوانية!

اشتبك كيركغارد في مواجهة مع شخصيته، فنحى جانباً كل أشكال الاتصالات غير المباشرة، ولم يعد يطيق الجوانية، لا جوانيته هو نفسه ولا جوانية ثقافته، كذريعة للامتناع عن الفعل. وأضفت الصور والاستعارات ذاتها، التي استخدمها كيركغارد في حملته، بصمة شيء من قبيل إقصاء الجوانية. وكثيرا ما كان كيركغارد يصوِّر وضعاً ينفجر فيه داخل متقيح أو سقيم على العالم الخارجي، كما على سبيل المثال في مقال خذ دواء مقيِّئاً! ففي هذه القطعة تُشخص المسيحية الرسمية على أنها مرض له أعراض داخلية كثيرة مثل المذاق الكريه في الفم وبياض اللسان ونوبات البرد والقشعريرة يصف لها الطبيب عادة دواء مقيِّئاً. وكيركغارد وصف الدواء نفسه: أولاً، فكِّرْ لحظة فيما هي المسيحية، ما تقتضيه من الشخص، وما تطالب به من تضحيات... ثم اجعل من

الواضح - واضح بشكل ساطع تماماً - لنفسك كم هو مثير للاشمئزاز حقاً أن يُفترَض بأن هذه هي العبادة المسيحية لله: أن تقضي ساعة هادئة يتقدم خلالها رجل يرتدي ملابس بطريقة دراماتيكية، وإذ يتخذ وضعيه مرعبة، يُعلن بعَبَرات مخنوقة إن هناك حساباً في الأبدية، وإننا نعيش بطريقة، بحيث أن نتجاهل، خارج هذه الساعة الهادئة، حتى هذا الاعتبار التقليدي أو ذاك - ولا سيّما أن نتجاهل اعتبارات تمس تقدم المرء في أُمور الدنيا، أو أفضلياته الدنيوية، أو آراء النخبة - فإن هذا بالطبع شيء لن يحدث أبداً لأحد، ولا بالطبع للخطيب الواعظ. وإذا فعل أحد ذلك فإنه سيُعاقَب بإعلانه مجنوناً من نوع ما. فكِّرْ في العيش بطريقة بحيث يُفترَض أن تكون هذه عبادة مسيحية لله. الآن، ألا يكون الدواء المُقَيِّئ مجدياً؟ وإذا لم يكن للدواء المفعول المنشود، على الضد من التوقعات فإن العلاج يمكن أن يستمر حتى الشعور بالغثيان: حسناً، في هذه الحالة خذ جرعة إضافية! والقصد من هذه الوجبة الشهية - وفكرة الشفاء ذاتها - هي نبذ الجوانية التي انتشرت في مفاصل المسيحية الرسمية. فلندعه يؤدي مفعوله. والتالي بعد الله، قدِّم الشكر إلى الأسقف مارتنسن عن هذه الدواء المُقَيِّئ ذي الفائدة القصوى.

في القرن الذي مر منذ زمن سارتر أصبح الغثيان الرمز الأكبر للمرض الثقافي، وفي مطبوع اللحظة ارتبط بسلسلة كاملة من الأمراض: الآن من الواضح إن الأمر لا يتطلب أكثر من شخص واحد لنقل عدوى الكوليرا إلى مدينة كاملة، وألف شاهد زور هم أكثر من كافٍ لإصابة مجتمع كامل بالجرب. واستخدم وباء الكوليرا في عام 1853 كثقل مضاد كارثي للعلوم الطبيعية والطبية التي كانت، خلاف ذلك، مبعث كثير من التفاؤل. وفي العدد الثاني من اللحظة قارن كيركغارد فهمه لزمنه بعلاج مريض نفسي. ونُقاد بالتفصيل داخل مستشفى عملاق (استعارة لكنيسة الشعب الدنماركي التي أصبحت في عام 1849 الاسم الجديد لكنيسة الدولة) حيث الجميع يموتون مثل الذباب باستثناء كيركغارد الذي لا يتأثر بالمرض، وقادر على إعطاء تشخيصه العارف وهو إن المبنى كله معجون بالسم ولذلك يجب الاستعاضة عن الهواء القريب فوراً بـــ هواء نقي. ويحمل مقاله العنوان السريري تشخيص طبيب، وعلاج كيركغارد ليس أكثر الوصفات تثقيفاً على وجه الدقة: لندع هذه الفوضى تنهار، لنتخلص منها، لنغلق كل هذه البوتيكات والدكاكين، الاستثناءات الوحيدة من القوانين

الصارمة لغلق المحلات يوم الأحد. اجعلوا هذا الإبهام الرسمي مستحيلاً، ادفعوهم إلى الإفلاس، أحيلوا كل المشعوذين على التقاعد... ولنعبد الله مرة أخرى ببساطة، بدلاً من استغفاله في أبنية بديعة، دعوا الأشياء تصبح مرة أخرى جدية واتركوا اللعب.

القس – ذلك التجسيد للهراء ملفعاً بعباءات طويلة

اقتصرت نداءات كيركغارد للمؤسسات الحكومية والرسمية في الغالب على الأعداد الأولى من اللحظة. وبعد ذلك كان يتجاوز المراجع الحكومية ورجال الدين، ويتوجه مباشرة إلى الإنسان البسيط بنبرة شخصية ذات حس تضامني: أنتَ أيها الإنسان البسيط! أنا لم أعزل حياتي عن حياتك. أنت تعرف ذلك. فأنا عشتُ في الشوارع ومعروف للجميع. والأكثر من ذلك لم أكن شيئاً ذات يوم، وأنا لستُ مسكوناً بأنانية طبقية. وعليه إذا كنتُ ملكَ أحد فإني ملكك أنتَ، الإنسان البسيط. لم يدعُ كيركغارد الإنسان البسيط إلى التبرؤ من الكنيسة وإنما إلى مقاطعتها وعموماً البقاء بعيداً مسافة مناسبة عن القساوسة: ولكن بحق الله في السماء وكل ما هو مقدس، هناك شيء واحد أتوسل إليك أن تفعله: تجنَّب القساوسة، تجنَّبهم، هؤلاء الأشخاص البغيضين الذين طريقة رزقهم هي منعك حتى من أن تصبح مُدركاً لما هي المسيحية الحق. وكانت هذه المناشدة سمة الحملة كلها، كما هنا، على سبيل المثال، في العدد السابع من اللحظة: إذا آمنتَ – وطبعاً تؤمن – بأن الله يحرِّم السرقة والسطو والنهب والفحشاء والتشهير والجشع، إلخ فهو يكره المسيحية الرسمية وعبادتها لله أكثر من كل ذلك بما لا نهاية.

دأب كيركغارد على المطالبة بفصل الكنيسة عن الدولة مع قيام الدولة بتوفير تعويض اقتصادي للقساوسة الذين يستقيلون من وظائفهم. ولكنه شدد في الوقت نفسه على أن من المهم أن يستمر الجميع في دفع ما عليه أو عليها من ضرائب للكنيسة. بل سيكون حتى أفضل إذا دفع الأشخاص ضعف ما مطلوب منهم معبرين بذلك عن ازدرائهم لأنه مهما بلغ الثمن يجب على المرء أن يتفادى الدخول في خلافات تتعلق بالمال مع مَنْ يزدريهم. وكان بديل كيركغارد عن كنيسة الدولة بديلاً غير ملائم بقدر ما هو راديكالي: يجب أن تجعل الدولة كل وعظ عن المسيحية ممارسة خاصة. وبمرور الوقت اتخذت أساليب كيركغارد مظهر

حملة تشهير شعواء: ولذلك يجب، من وجهة نظر مسيحية، إيقاف «القس»... وكما كانوا يهتفون عن اليهودي النجدة! [مختصر للعبارة اللاتينية Hierosaluma est Perdita: القدس ضاعت] فإنهم يجب أن يهتفوا عن القس أوقفوه، حرامي! أوقفوه، أنه يسرق ما هو مُلك الأماجد!، إلى ألا يعود هناك قساوسة.

لا في السابق ولا منذ ذلك الحين تعرض رجال الدين الدنماركيون إلى مثل هذا الاضطهاد المنهجي. وكانت الاتهامات تنهال حقاً على هذه الطائفة من النصابين الكهنوتيين، المدعوين أيضاً شركة القساوسة، هذه العصبة من الرجال الصغار عديمي الكفاءة الذين كانوا محظوظين بحيث دسوا أخطامهم الطفيلية في خزينة البلد، ولا يتورعون عن عمل أي شيء لمجرد التشبث بمناصبهم، حتى إذا على سبيل المثال إن الدولة طلعت بفكرة إعلان ديانة تقول إن القمر مصنوع من جبنة خضراء. واستخدم كيركغارد ما لا يحصى من التلميحات والقصص الصغيرة والحكايات والتقولات والغمز عديم الذوق، وكل ما يمكن توظيفه غير ذلك، ليجعل من الوضع المالي للقساوسة موضوعة مركزية في مطبوعه اللحظة حيث طرح المسألة بصورة مباشرة تماماً: إن مسألة استمرار وجود النظام الكنسي القائم هي – مسألة مال. وشدد كيركغارد على تتجير المسيحية ناشراً مقالاته تحت عناوين مثل رجال الدين بوصفهم طبقة تجارية أو النقابة العملاقة للقساوسة المحترفين. وفي أحيان ليست قليلة كان الإكليروس يُسمى ببساطة ألف مسؤول عام يجب أن يعتاشوا على المسيحية (أي إنهم يعتاشون على الحلاوة الشرابية المتخِمة التي هي السلعة المتداولة لشهود على الكذب). وأصر كيركغارد على أن دور القس يكون بذلك حماية المجتمع ضد المسيحية، ومثل أي خبير بالإحصاء عندما يُقدَّم إليه حجم سكان مدينة كبيرة، يكون قادراً على تحديد العدد المقابل للعاهرات اللواتي تستهلكهن مدينة كهذه، ويكون من الممكن أيضاً حسب عدد شهود الزور (القساوسة) الذي تحتاجهم الدولة لحماية نفسها ضد المسيحية. وهذا عهد سري، وهو يحقق فوائد للشريكين على السواء، الدولة والقساوسة. وفي الحقيقة إن القساوسة بوصفهم نوعاً من الشراكة التجارية، يكونون حريصين بصفة خاصة على أمرين: (أ) أن يسمي الناس أنفسهم مسيحيين – كلما كان حجم قطيع الغنم أكبر كان ذلك أفضل – وأن يعتمدوا تسمية «المسيحيين» و(ب) أن تنتهي المسألة عند هذا الحد، ألا يكتشفوا ما هي المسيحية حقاً.

من صدام كيركغارد مع مجلة كورسارن عرفَ أفضل من أي أحد التأثير الساحر الذي يتحقق من توجيه انتباه الناس نحو المظهر الخارجي لشخص ما، وخاصة إلى قطعة لا على تعيين بهذا القدر أو ذاك من ملابسه، إلى سرواله ذي الساقين غير المتساويين أو - كما في الحالة الراهنة - إلى عباءة رجل دين: عباءات طويلة من المحتم أن تقود المرء إلى الظن بأن لدى الشخص شيئاً يخفيه تحتها. وحين يكون لدى شخص ما شيء يخفيه فإن العباءات الطويلة تكون عملية جداً. ولدى المسيحية الرسمية الكثير مما تخفيه لأنها، من البداية إلى النهاية، لاحقيقة، وبالتالي من الأفضل أن تُخفى - بعباءات طويلة. والعباءات الطويلة - هذه بالطبع ملابس نسائية. ويذكّر هذا بشيء آخر معهود في المسيحية الرسمية - عدم رجولتها، استخدام المخاتلة واللاحقيقة والأكاذيب بوصفها قوتها. وهذا مرة أخرى معهود تماماً من المسيحية الرسمية التي، كونها هي نفسها لاحقيقة، تستخدم كتلة ضخمة من اللاحقيقة لإخفاء ما هو الحقيقة وإخفاء إنها هي نفسها لاحقيقة. أو، بدقة لا ترحم على نحو خاص: القس - ذلك التجسيد للهراء مبرقعاً بعباءات طويلة!

عمد كيركغارد إلى تبسيط انتقاداته لتضخيم أثرها. وكان يبالغ أحياناً بصورة جامحة، ويحرض أكثر مما يجادل، وكان يستطيع أن يكون مبتذلاً بحق، كما هي الحال في العدد التاسع من اللحظة حيث ضخ الكثير من الهواء السفسطائي في محاجَّته مصوراً سلوك القس البهيمي أسوأ من آكل لحوم البشر: (1) آكل لحوم البشر رجل متوحش. القس رجل متعلم، مثقف، الأمر الذي يجعل سلوكه المقيت أشد إثارة للاشمئزاز. (2) آكل لحوم البشر يفترس أعداءه. الأمر خلاف ذلك مع القس. فهو يوحي بأنه مخلص على نحو استثنائي لمن يأكلهم. والقس، القس على وجه التحديد، الصديق الأكثر إخلاصاً بين هؤلاء الأماجد. «فقط اسمعوه، اسمعوا كيف أنه قادر على تصوير معاناتهم وتقديم تعاليمهم. ألا يستحق زينة من الفضة لمائدته، وسام صليب الفروسية، طقماً كاملاً من الكراسي ذات الذراعين المطرزة، 2000 إضافية كل عام - هذا الرجل المجيد الذي، إذ تأثر حتى ترقرقت دموعه، يستطيع أن يصور معاناة الأماجد بهذه الطريقة؟ وسط هذا المشهد الغرائبي وضع كيركغارد طقماً من الكراسي ذات الذراعين المطرزة، كانت بالطبع من الهدايا التي تلقاها مينستر لدى انتقاله إلى مقر سكن الأسقف - هدية يبدو أنّها أثارت بعض الاستغراب وسرعان ما

أصبحت تلوكها الألسن في المدينة. وتابع كيركغارد: إن القس معتكف براحة في سكنه الريفي فيما تلوح آفاق الترقية من بعيد. زوجته تجسيد للمرأة ممتلئة القوام، وأطفاله لا يقلّون ازدهاراً. وكل هذا بسبب معاناة الأماجد، معاناة المنقِذ، الرسول، الشاهد على الحقيقة. هذا ما يعتاش عليه القس، هذا ما يأكله، يطعم بهم زوجته وأطفاله في متعة سعيدة بالحياة. إنه يخزن هؤلاء الأماجد في برميله لحفظ الأغذية في محلول الملح. صرخاتهم اتبعني، اتبعني! غير مجدية.

المعاملة الأسوأ مخصصة للمدعو Ludvig From, Cand. Theol. [لودفيغ فروم يعني حرفياً لويس تقي، والمختصران بعد اسمه يعنيان خريج لاهوت] الذي قُدِّم في القصة القصيرة الصغيرة بعنوان أولاً ملكوت الله. لودفيغ فروم، باحث. وعندما يسمع أحد إن خريج لاهوت يبحث فإنه لا يحتاج إلى خيال خصب ليفهم ما يبحث عنه: ملكوت الله، هذا بالطبع هو ما يجب أن يبحث عنه المرء أولاً. ولكن كلا، ليس ذلك. فإن ما يبحث عنه هو تعيين بإرادة ملكية ليكسب مصدر رزقه من العمل قساً. وقبل وصوله إلى هذه النقطة تعلّم أولاً في مدرسة تحضيرية، ولذلك أدى أولاً ألامتحانين الأول والثاني الإلزاميين، وبعد أربع سنوات من الدراسة في الجامعة، أدى أولاً امتحاناته لنيل شهادة جامعية باللاهوت. ولذلك هو الآن خريج لاهوت، ولكن هذا لا يعني إنه لا يستطيع أن يباشر العمل باسم المسيحية. كلا، كلا، أولاً عليه بالطبع أن يمضي نصف سنة في الدير الرعوي، وبعد أن يُكمل هذه الفترة، بموجب القواعد المتَّبعة وقتذاك، عليه أن ينتظر ثماني سنوات إضافية قبل أن يستطيع البدء بجدية نذر نفسه لعمله الحقيقي: والآن نحو في بداية القصة. السنوات الثماني انتهت، وهو يبحث. / حياته، التي حتى الآن لا يمكن القول إن لها أي نوع من العلاقة بالمطلق، فجأة تدخل في علاقة كهذه: إنه يبحث عن كل شيء بالمطلق. يملأ ورقة تلو أخرى من المعمالات الرسمية، ويركض من ركن إلى عمود، ويتملق الوزير والبواب على السواء. باختصار إنه تماماً في خدمة المطلق، بل إن أحد معارفه الذي لم يره خلال السنوات الماضية فوجئ حين اكتشف إنه أصبح أصغر حجماً، ربما لأن الرجل واجه المصير الذي واجهه كلب مونشهاوزن، الذي بدأ كلباً سلوقياً ولكنه بعد الكثير من الركض أصبح كلباً من نوع دشهُند. / ثلاث سنوات تمر بهذه الطريقة. خريجنا بشهادة في اللاهوت حقاً يحتاج إلى راحة. فبعد نشاط مضنٍ إلى درجة هائلة يحتاج

إلى إيقافه عن العمل أو إيجاد استراحة في موقع كهنوتي وترعاه زوجته المقبلة – لأنه في هذا الأثناء أصبح مخطوباً أولاً. وأخيراً يُعيَّن في وظيفة ولكن ما أن يصبح التعيين واقعاً حتى يعلم إن دخل المهنة يقل نحو 150 ريكسدولاراً عما كان يعوِّل عليه. ويكاد لودفيغ أن ييأس. وسرعان ما يبتاع مزيداً من الأوراق ذات الختم الرسمي عليها ليستطيع أن يطلب من الوزير أن يعفيه من الوظيفة ولكن أحد معارفه يثنيه عن ذلك، ويتصالح فروم مع ظروفه المالية البائسة. يُرَسَّم – ويصل يوم الأحد حين يكون من المزمع تقديمه إلى جماعة المصلين. وكبير الكهنة الذي مهمته أن يفعل ذلك، أكثر من شخص اعتيادي: ليس لديه... عين غير متحاملة على الكسب الدنيوي فحسب بل لديه عين تأملية على تاريخ العالم أيضاً، وهو أمر لا يستطيع أن يحتفظ به لنفسه بل يشارك به أتباعه من المصلين أيضاً. والمفارقة إن النص الذي اختاره كبير الكهنة كان مأخوذاً من أقوال الرسول بطرس بشأن التخلي عن كل شيء والسير وراء المسيح. ثم يأتي دور فروم لإلقاء موعظته، والغريب إن النص في ذلك اليوم هو النص الذي يتناول البحث أولاً عن ملكوت الله. «موعظة جيدة جداً»، كما يقول الأسقف الذي كان حاضراً بشخصه، «موعظة جيدة جداً، وأحدثت التأثير المناسب، ذلك القسم عن أولاً ملكوت الله، والطريقة التي شدد بها على أولاً تلك».

كانت هذه القصة القصيرة الساخرة مترعة بالمبالغة الغرائبية، ولذلك قد يبدو من المحير إن كيركغارد أكد، وكأن هذا هو تقريباً العبرة من القصة، إنها في غاية الصدق، في غاية الصدق. ومن الجائز أن يكون التفسير أنه لم يَرَ حزمة الضوء في عين شقيقه فحسب بل استمتع بعرضه أيضاً، لأن بيتر كريستيان سُمح له في عام 1850 أن يستقيل من وظيفته في أبرشية تورسلوندة – إيسهوي عندما أدرك، في اللحظة الأخيرة تماماً، إن الدخل المرتبط بالوظيفة حُدِّد خطأ لأنه ليس من الممكن أن يكون دخل العُشر أقل بمقدار عشرين برميلاً أخرى من الشعير. وكان هذا النوع من النقص كافياً لتخويف بيتر كريستيان. كما لا يمكن أن نستبعد إن كيركغارد كان يلمح هنا إلى أتش. بي. كوفويد هانسن الذي بعد أن عمل معلماً في أودينسة سعى إلى وظيفة في كنيسة منقذنا في منطقة كريستيانسهافن. وهو أيضاً عاش الخبرة المخيفة في أن يكتشف إن الدخل المرتبط بالوظيفة أقل

مما كان يتوقع، الأمر الذي دفعه إلى أن يطلب إعفاءه فوراً من الوظيفة. ومع ذلك انتهى كوفويد هانسن، على غرار لودفيغ فروم، إلى التصالح مع مصيره، وفي 9 أيلول/ سبتمبر 1849 عين رئيس الشمامسة «ترايدِه» خريج اللاهوت، الحائر قليلاً، في منصبه. وكان كيركغارد مطلعاً على هذه القضية الملتَبَسة، وتذكرها في فقرة من يومياته كانت أقل انتقاداً لكوفويد هانسن منها لـ«ترايدِه»، لأن «ترايدِه» رغم علمه بتفاصيل قرار كوفويد هانسن اختار الخطابة بشكل مؤثر عن كيف أن خدَّام الرب في هذا الزمن يجب أن يفكروا بصورة محدَّدة تماماً في حقيقة إن هذا أمر حياة المرء مرهونة فيه. أكيد. كلا، شكراً. وليس مهماً بصفة خاصة إن كان بيتر كريستيان أو كوفويد هانسن هو الذي كان بمثابة النموذج في ورشة كيركغارد الساخرة لأن كلاهما شعراً بكل تأكيد بلسعة المادة التي كتبها - وهكذا أفلح كيركغارد في ضرب ذبابتين كنيستين صغيرتين طماعتين بخبطة واحدة.

وتبدت مهارة مماثلة في التسديد عندما ثقب كيركغارد بالونات كنسية مثل سر المعمودية وسر الميرون والزواج. وفي صورة قلمية غرائبية لشاب دنيوي تماماً قرر - الله وحده يعلم لماذا - أن يُعمَّد طفله، أوصى كيركغارد إنه بدلاً من إلباس الطفل قلنسوة المعمودية ينبغي أن يمسك أحد ما طاقية نوم فوق الأب المفترَض. وإذ تعامل كيركغارد مع المعمودية (هذا الهراء البهيمي الخالص - أن يصبح المرء مسيحياً بتلقيه رشقة ماء على رأسه من مسؤول مَلَكي) فإنه انتقل إلى سر الميرون الذي كان، إذا أمكن، هراء أعمق بكثير من سر المعمودية) بقدر ما إنه بالطبع يدَّعي شيئاً كان مفقوداً في تعميد الرُضَّع، أي شخصية حقيقية. ويمكن العثور على بعض ما يجعل سر الميرون هراء في انعدام التناسب بين عمر الشخص والأبدية: صبي في الخامسة عشرة! إذا كانت المسألة مسألة 10 ريكسدولارات فإن الوالد سيقول «كلا، يا بني، لا يمكن السماح لك بوضعها تحت تصرفك. فأنتَ ما زلت فتى طري العود». ولكن عندما تكون المسألة مسألة خلاصه الأبدي... فإن سن الخامسة عشرة سن مناسبة للغاية. العملية كلها مسخرة، كما خلص كيركغارد الذي مع ذلك أراد أن يساهم في المرح بتخيله قاعدة تشترط على المرشح لسر الميرون أن تكون لديه، أثناء وجوده في الكنيسة، لحية يمكن بالطبع إزالتها خلال احتفالات العائلة في المساء. ولم يكن وصف كيركغارد لسر الزواج المقدس

وصفاً احتفالياً تماماً هو الآخر. فبدلاً من المراسم الاعتيادية اقترح بديلاً من العهد الجديد ليس له مستقبل يُذكَر. إذ سيُلغى قداس الزفاف لأنه في اللحظة الأخيرة اختار الشاب كارهاً نفسه والحبيبة، أن يتركها ليحب الله. ولا يحتاج الأمر إلى كثير من التأمل ليكتشف مَنْ كان في ذهن كيركغارد في هذا الشأن.

من هنا لا تكون المسافة بعيدة قبل أن نصل إلى انتقادات عامة للحياة الطبيعية بأكملها. فالقساوسة، وهم رهط من أصحاب الذكاء المتدني بصورة استثنائية، يشكلون على ما يبدو تهديداً خاصاً لتقدم الجنس البشري روحياً، لأنهم يعيدون إنتاج أنفسهم باستمرار بإنجاب أفراد أقل فأقل يتجمعون فوراً في جيوب صغيرة تهنئ نفسها بنفسها: من وجهة نظر مسيحية فإن الحياة العائلية المسيحية التي يجري التبجح بها كثيراً إنما هي أكذوبة. ومن وجهة نظر مسيحية، ليست هناك حياة عائلة، وأبعد من ذلك أن تعتبر أصدق أشكال المسيحية. وفي أفضل الأحوال يمكن تحملها من باب التساهل. بل إن التربية المسيحية للأطفال التي تلقى كل هذا المديح تتألف من حشو الطفل بالأكاذيب الخالصة إلى حد التخمة. وهكذا أجبر كيركغارد هؤلاء القساوسة - النقابة المرحة، منجِبة الأطفال وصانعة المهن بأكملها - على سماع الكثير من الكلام عن الشهوة الجنسية والطاقة الغائرة والمنشطات الجنسية بحيث إنهم لاقوا صعوبة في ضبط أنفسهم: والحق كلما يتقدم بي العمر أدرك بوضوح أكثر إن الهراء الذي غَرِقَتْ فيه المسيحية - وخاصة في البروتستانتية ولا سيما في الدنمارك - يرتبط لدرجة كبيرة بالظرف الذي أصبحت هذه الأذرع الغضة تحيط به أكثر من اللازم بعض الشيء. وهكذا باسم المسيحية يجب أن يطلب المرء من الأناث اللواتي تعود هذه الأذرع البضة إليهن أن يتراجعن قليلاً. فإن إنجاب الأطفال والنشاطات ذات العلاقة لا تمت بصلة إلى المسيحية لأنه من وجهة نظر مسيحية فإن أعلى درجات الأنانية أنه بسبب عدم تمكن رجل وامرأة من السيطرة على شهوتهما، يجب على كائن آخر أن يتنهد في وادي الدموع هذا ويُسجن ربما سبعين عاماً وربما أن يُفقَد إلى الأبد.

حاصل جمع كل هذه الأحابيل المقدسة هو بالتالي العياذ، آمين، آمين، وإلى الأبد آمين: الحمد للقساوسة!

قارن كيركغارد التاريخ بـعملية غَزَل رغم إنه قَلَبَ الاستعارة وبدلاً من إزالة الشوائب فإن مصفاة التاريخ أسهمت في نموها بشراسة: تُقال الفكرة - ثم تدخل عملية التاريخ. ولكن هذا لا يتضمن تنقية الفكرة (يا له من افتراض مثير للسخرية!) التي لا تكون أبداً أنقى منها في بدايتها. كلا، إنه يتكون من العملية المتزايدة باستمرار لإفساد الفكرة، جاعلاً إياها لغواً، محوِّلاً إياها إلى هراء. وبذلك أكد كيركغارد بكل جلاء فهمه للتاريخ على أنه تاريخ انحطاط: التاريخ يستمد طاقته من الهراء وينتهي إلى لا شيء. ويكاد ألا يوجد تعارض أكبر من هذا التعارض مع فكرة هيغل عن عقلانية التاريخ المتأصلة فيه!

تكمن جذور راديكالية كيركغارد في رفضه الراديكالي للتاريخ، الذي برأيه لا يستجلي الأفكار أبداً بل دائماً يشوشها. ويفسر هذا لماذا أُلغيت المسيحية بالوتيرة نفسها التي انتشرت بها. بكلمات أخرى إن شعاره كان: كلما يكون أكثر يكون أقل، وإذا كان الكل فهو لا أحد. وكان كيركغارد قادراً على ضغط التاريخ في مخطط بسيط جداً بوضع نقيضين لا يمكن التوفيق بينهما بجوار أحدهما الآخر: المسيحية في الحقيقة لم تأت قط إلى العالم. فهي ظلت مقتصرة على النموذج الأمثل، وفي أقصى الأحوال، على الرُسُل. ولكن حتى الرُسُل شددوا على انتشارها في وعظهم بحيث إن الاحتيال بدأ بالفعل... كان [المسيح] أكثر ضبطاً للنفس بكثير. وهكذا في ثلاث سنوات ونصف السنة لم يكسب إلا أحد عشر مريداً في حين إن رسولاً واحداً يكسب في يوم واحد بل الأرجح في ساعة واحدة ثلاثة آلاف من مريدي المسيح.

كان عدم الثقة الراديكالي هذا بالتاريخ مصدر الصدود الذي شعر به كيركغارد تجاه الثقافة. وقد وصف طريقة تفكير الثقافة على النحو الآتي: بين الأشياء المختلفة الكثيرة التي يحتاجها البشر في الوضع الثقافي، أشياء تحاول الدولة أن تضمنها لمواطنيها بأرخص الطرق الممكنة وأريحها - مثل السلامة العامة والماء والإنارة والطرق والأرصفة، إلخ - وهناك أيضاً مباركة أبدية في الآخرة، وهي حاجة ينبغي أن تُشبعها الدولة أيضاً (يا للكرم!) وبأرخص الطرق الممكنة وأريحها. وغني عن القول إن الاهتمام بالحاجات الدينية للمواطنين بهذه الطريقة سيكون له تأثير لا مفر منه في نظرتهم إلى العهد الجديد الذي بدأ

مرشداً وجودياً للمسيحيين، وأصبح الآن أثراً تاريخياً مثيراً للاهتمام أشبه إلى حد ما بالدليل السياحي لزوار بلد معين بعد أن جرى تغيير كل شيء في هذا البلد تغييراً كاملاً، ومثل هذا الدليل لم تعد له أي قيمة لزوار هذا البلد لكنه قيِّم جداً بوصفه مادة خفيفة للقراءة. وعندما يسافر المرء مرتاحاً في القطار يقرأ في الدليل إن «هنا توجد حفرة الذئب المخيفة حيث يهوي المرء 70 ألف فرسخ تحت الأرض». وعندما يجلس المرء مدخِّناً سيجاره في عربة المطعم المريحة يقرأ في الدليل «هنا وكر عصابة من قطاع الطرق الذين يهاجمون ويعتدون على المسافر». وهنا يوجد - أي هنا كان يوجد لأن من الممتع الآن أن نتخيل كيف كانت الأمور - ليس حفرة الذئب بل سكة حديد وليس عصابة من قطاع الطرق بل عربة مطعم مريحة.

ما كان آخرون سيعتبرونه تقدم الثقافة أو حتى تقدم الحضارة صوَّره كيركغارد على أنه تردي العِرْق وموت الشخص الذي له روح. وقدَّم كيركغارد شجرته لعائلة التشاؤم في العدد الخامس من اللحظة: انحط العِرْق إلى حد لم يعد معه ينجب كائنات بشرية قادرة على تحمل العناية الإلهية المتمثلة بمسيحية العهد الجديد. وفي العدد نفسه من اللحظة يجد القارئ نظرة جادة على الكائن البشري الحديث الذي لا روح له: إن الشخص الذي له روح يختلف عن أشخاص مثلنا لأنه قادر على تحمل العزلة، ومرتبته كشخص له روح تتناسب مع الصلابة التي يستطيع أن يتحمل العزلة بها، في حين إن أشخاصاً مثلنا دائماً يحتاجون إلى «الآخرين»، القطيع. فنحن نيأس ونموت ما لم نجد الطمأنينة في الوجود مع القطيع، في حمل الآراء نفسها التي يحملها القطيع، إلخ. ولكن مسيحية العهد الجديد مُعَدَّة تماماً للارتباط بهذه العزلة للشخص الذي عنده روح. ففي العهد الجديد تعني المسيحية حب الله في كره البشرية، في كره المرء لنفسه وبالتالي كره كل الآخرين، كره الأب والأم، كره طفل المرء نفسه، زوجته، إلخ - التعبير الأقوى عن العزلة الأشد إيلاماً.

وهكذا يبدو أنّ الإنسان الحديث والمسيحية متنافران تنافراً كاملاً. والمرء إما يكون حديثاً أو مسيحياً. ولا وجود للمسيحي الحديث أو لا يكون له وجود إلا إذا أمكن تعليق التاريخ ومحو الألف وثمنمئة سنة الممتدة بين المسيح والمسيحية الرسمية: الاضطهاد وسوء المعاملة وسفك الدماء كلها لم تلحق مثل هذه الإصابة. كلا، فهي بالمقارنة مع الضرر الأساسي - المسيحية

الرسمية – كانت مفيدة، بل كانت مفيدة إلى حد لا يُقاس... إلغوا المسيحية الرسمية، ودعوا الاضطهاد يأتي: في تلك اللحظة ذاتها ستعود المسيحية إلى الوجود. وكان عداء كيركغارد للتاريخانية يرتبط أيضاً براديكالية لاهوتية جعلت اشتراطاته في بعض المراحل تتذبذب بين استحالة تنفيذها تماماً من جهة وكونها هزلية لا إرادياً من الجهة الأخرى. أن يصبح المرء مسيحياً بمعنى العهد الجديد إنما هو تحوُّل راديكالي بحيث، من منظور بشري محض، سيكون عليه أن يقول إن أكبر مأساة تلم بعائلة هي أن يصبح أحد أفرادها مسيحياً.

ومنذ العدد الثاني من اللحظة طرح كيركغارد السؤال: إذا كنا حقاً مسيحيين فماذا يكون الله؟ وقدم كيركغارد نفسه الجواب: أكثر الكائنات التي عاشت إثارة للسخرية. وبهذا السؤال والجواب لم يكن كيركغارد يشير، عائداً القهقرى، إلى الموضوعة الواحدة التي اقترحها في صحيفة فادريلاندديت يوم 28 آذار/ مارس فحسب، بل إنه عندما زعم إن المسيحية غير موجودة كان يشير إلى الأمام أيضاً في الزمن، إلى إعلان نيتشة موت الله. وبالطبع إن هذا لم يكن قولاً أنطولوجياً بل ادعاء اجتماعياً – نفسياً ربط وجود الله بأهمية المسيحية – أو عدم أهميتها – لقيم المجتمع وفهم الفرد لذاته. وهكذا إذا كانت المسيحية غير موجودة فإن الله ميت. ولكن هذا لا يعني تحرر البشر من شكل عفا عليه الزمن من أشكال العبودية، بل على العكس. إنه يعني موت الكائن البشري، موت الشخص الذي له روح حيث يولد الإنسان العاقل الأول Homo sapiens من جديد كحيوان: أن يكون المرء مسيحياً بمعنى العهد الجديد يختلف عن كونه إنساناً، في الاتجاه الصاعد، مثلما يختلف الحيوان عن كونه إنساناً في الاتجاه النازل.

رد غروندتفيغ

أضاف هجوم كيركغارد مزيداً من البلبلة بين رجال الدين الذي كانوا أصلاً مبلبلين وميالين إلى الامتعاظ من الهجوم بقدر ما كان المناهضون لرجال الدين مبتهجين به. واستمر مارتنسن في متابعة مجرى الأحداث عن كثب وكان يخشى منذ زمن طويل أن يتفق كيركغارد مع غروندتفيغ وحلفائه. وفي أول مقال في صحيفة فادريلاندديت لاحظ كيركغارد – كطريقة يبين بها إنه قرر شن الهجوم منذ سنوات عديدة – إن غروندتفيغ العجوز كان شاهداً حين قال إنه سيهاجم، ولكن الأسقف مينستر يجب أولاً أن يموت [و] يُدفن بكل الفخفخة

وعلى إيقاع الموسيقى. ولعل هذه الملاحظة كانت مؤشر علاقة وثيقة بعض الشيء بغروندتفيغ، وربما حتى مؤامرة - فإن غروندتفيغ كان، بعد كل شيء، غائباً بشكل واضح عن تشييع مينستر! - وكان مارتنسن على قناعة تامة بأن كيركغارد لن يتردد في استخدام كل الوسائل على الإطلاق لإيذاء خصومه.

يوم أحد الشعانين عام 1855 توجهت مسز مارتنسن وباولي الذي كان قساً في كنيسة القلعة إلى كنيسة فارتوف للاستماع إلى موعظة غروندتفيغ. ولدى عودتهما نقلاً إنهما استمعا إلى موعظة كاملة ضد أس. كيركغارد الذي سماه غروندتفيغ مرات متكررة مزدرياً. وفَنَّد غروندتفيغ بالطبع، على غرار كيركغارد، ما يُسمى مسيحية العالم، أي كل ذلك الحديث عن ملايين المسيحيين وعما يُسمى دولاً مسيحية وكل شيء ذي صلة بذلك. ولكن غروندتفيغ مضى بعد ذلك قائلاً إنه عندما يهتف المزدرون إننا لهذا السبب إذا أردنا السماح لنا بأن نسمي أنفسنا أتباع المسيح فيجب أن نزهد في الدنيا، أو على الأقل أن نجلد أنفسنا في الدنيا ونجلد الدنيا إلى أن تعلن عداءها السافر للاسم وللعقيدة ولأتباع الرب يسوع المسيح ثم نتخلى عنها إلى المزدرين أنفسهم.

مارتنسن لم يكن ممتعضاً من هذا الذكاء. زوجتي وباولي اللذان استمعا بالصدفة إلى هذه الموعظة، كانا في منتهى الارتياح، كما كتب بحماسة إلى غودا الذي من المؤمل إنه كان على ما يكفي من اللباقة لإغفال الكذبة المفضوحة في كلمة بالصدفة.

ليس معروفاً إن سمع كيركغارد شائعات عن هذه الموعظة أو إنها كانت مصادفة استثنائية لا أكثر، ولكن في العدد السادس من اللحظة الذي صدر في 23 آب/ أغسطس، تلقى غروندتفيغ صفعة: خذوا القس غروندتفيغ إذاً... أقصى ما كافح من أجله هو السماح، لنفسه ولمن يريدون أن يتبعوه، بالتعبير عما يفهمه بالمسيحية. وهكذا هو يريد إزالة النَير الذي وضعته الدولة عليه. وأغضبه إن قوة الشرطة ستُستخدَم لحرمانه من حريته في الشؤون الدينية. وتابع كيركغارد قائلاً إن هذا كله على ما يُرام في الحدود التي ذهب إليها، ولكن المشكلة كانت بكل بساطة إن غروندتفيغ لم يفكر قط في إعلان الحرب على الأوهام الحقيقية للمسيحية الرسمية: كلا. الحرية لنفسه ولمن يتفقون معه. الحرية للتعبير عما يفهمه هو وأنصاره بالمسيحية. هذا أقصى ما كان يريده - ثم سيبقى صامتاً،

هادئاً في حياته، ينتمي إلى عائلته، ومن نواحي أخرى يعيش كما يعيش أُولئك الذين يكونون مرتاحين كأنهم بين أهلهم في هذا العالم... كلا، بالمقارنة مع العاطفة المتقدة الأصلية للمسيحية فإن حماسة غروندتفيغ نصف جدية، وهي عدم اكتراث.

كان هذا اتهاماً خطيراً تماماً، وبعد ثلاثة أيام لا أكثر، يوم الأحد، 26 آب/ أغسطس، تضمنت موعظة غروندتفيغ رداً قوياً: نعم، يُهتف في أُذننا إن مسيحيتنا هباء، تماماً مثل مسيحية العالم التي لا تتكون إلا من كلمات فارغة وعادات كنسية. نعم، يُقال لنا - نحن الذين نسمع صوت سيدنا يسوع المسيح، ونشكر أبانا في السماء على الحياة، على الحياة الأبدية باسم ابنه الوحيد - إننا لا نعرف عن المسيحية الحق أكثر مما يعرفه يهودي غير مؤمن. ولكن بدلاً من إخافتنا ينبغي أن نكون سعداء بجعلنا موضع سخرية من أجل المسيح. ولم يأتِ العدد التالي من اللحظة على ذكر لوندتفيغ بصورة مباشرة ولكن كان هناك مقطع عن أُولئك المزيفين في أمانتهم، أولئك الذين لا يفعلون سوى ممارسة الرياء، الأمر الذي ربما كان تحية صغيرة لجماعة المصلين في فارتوف. وأياً كانت نية كيركغارد فإن غروندتفيغ شعر بلسعتها، وفي عمليه تعاليم مسيحية ابتدائية جعل من الواضح كم كان مجروحاً باتهام كيركغارد له بكونه أسوأ الكل في وكر اللصوص. وفي موعظة أُلقيت في 16 أيلول/ سبتمبر استأنف غروندتفيغ انتقاداته لحملة كيركغارد: وإذ يصبح هؤلاء المشهِّرين بسيدنا يسوع المسيح أذكياء وماهرين بصورة متزايدة في فنونهم فإنهم سيضفون مظهر الحقيقة على تشهيرهم بإساءة استخدام كتاب المسيحيين المقدس نفسه، ما يُسمى العهد الجديد، وتشويهه، بمساواة حتى أكثر المسيحيين صدقاً واستقامة بكل الآلاف والملايين من الذين يجري استدراجهم أو باستخدام الوعيد لدفعهم إلى تعميد أنفسهم، ويسمون أنفسهم مسيحيين، الذين بالطبع لا يملكون إلا الاسم الفارغ. في هذا الوقت لم يكن كيركغارد أحد المشهِّرين بيسوع المسيح فحسب بل شريك أب الأكاذيب وأمير الظلام وحامل راية الموت، الذي بالطبع يتظاهر بكونه ملاك النور الذي يربك أتباعه بمظهر الوضوح وكل صنوف الأوهام اللامعة، لكنه مع ذلك يقتل كل ما هو إنساني فيهم قائداً إياهم إلى الظلام الخارجي حيث النحيب وصر الأسنان.

بلغ رفض غروندتفيغ هنا ذروته - كان من الصعب بكل تأكيد الذهاب أبعد

من ذلك! وتضمنتْ مواعظه اللاحقة تلميحات بين حين وآخر إلى مقالات نشرتها اللحظة ولكن ليس أكثر من ذلك. ومع ذلك تركت حملة كيركغارد أثراً بالغاً في غروندتفيغ، كما يمكن أن نرى في عمله تعاليم مسيحية ابتدائية الذي كُتبت أقسامه الأولى حين كان غضب كيركغارد في أُوجه. ويتضح هذا، على سبيل المثال، في القسم الموسوم مسيحية العهد الجديد حيث كتب غروندتفيغ عن مخاتل استثنائي يفترض مسبقاً الحقيقة الممكنة للمسيحية. ولكن، كما جادل غروندتفيغ فإنه إذا كان المرء لا يُريد أن يُرغم على الإقرار بأن المخاتل على صواب، سيتعين عليه أن يبدأ بالتخلي عن طريقة التفكير المتخلفة التي بموجبها يكون الكتاب، العهد الجديد، على ما يُفترض، مصدر المسيحية الحق، أو أساسها، أو حكم عقيدتها، لأن هذه هي النقطة الحاسمة للمخاتل بوصفه القاضي الذي يصدر حكمه على المسيحية ومعذِّب القساوسة، الذين يجب أن يثبتوا خطل محاجَّاته أو يقفون بوصفهم أعداء المسيحة الألداء وناكريها.

القس بي. كري. كيركغارد، ليسانس لاهوت، شقيقي

كانت المواجهة بين كيركغارد وغروندتفيغ مزعجة بصفة خاصة لبيتر كريستيان كيركغارد، شقيق الأول لكنه تآخى مع الثاني. وفي 7 حزيران/ يونيو حضر بيتر كريستيان حفلة زفاف في غينتوفتة شمالي كوبنهاغن مباشرة، وبعد فترة قصيرة على ذلك زار شقيقه الذي بدا مرهَقاً تماماً. لذلك اقترح أن يقوم شقيقه برحلة صغيرة ولكن رد الفعل كان فقط أهذا هو وقت السفر؟ يبدو أنّه لم يكن وقت السفر. كما أراد بيتر كريستيان أن يناقش بعض النقاط الرئيسية التي بدت لي جهوده بشأنها جهوداً مضللة ولكن المحارب المناهض لرجال الدين لم يكن مستعداً لذلك أيضاً. وهكذا افترق هذان الشقيقان المتميزان اللذان كانا يحملان الكثير من الأسرار، بصورة منفصلة وكل على انفراد. وما كان ليستطيع أي منهما أن يعرف إنهما لن يريا أحدهما الآخر مرة أخرى. وفي آب/ أغسطس أمضى بيتر كريستيان في الحقيقة عشرة أيام في كوبنهاغن التي كان يسافر منها بانتظام لزيارة ابن أُخته فيلهلم نيكولاي لوند في ضيعته في أنيسيغارد، لكنه لم ينجح في محاولاته الاتصال بسورين آبي.

اتضح إن شيئاً حدث بين زيارات بيتر كريستيان إلى كوبنهاغن بين حزيران/ يونيو وآب/ أغسطس، كانت له نتائج مصيرية رغم إن بيتر كريستيان سجلها

بطريقة بعيدة جداً عن الدراما في يومياته: تحدثتُ ضد الكتابات والنظرية (السورينية) بأسماء مستعارة في مؤتمر روسكيلدة في 5 حزيران/ يونيو. وقبل مؤتمر روسكيلدة الرعوي كان الشعور العام إن هذا هو على وجه التحديد الموضوع الذي لن يُناقش في الاجتماع، ولكن غوني بوسك، رجل الدين الغروندتفيغي، أفلح مع ذلك في إقناع بيتر كريستيان بالحديث عن بعض السمات الأساسية للاتجاه الذي يسري في عمل سورين بأكمله ككاتب. وتكلم بيتر كريستيان بارتجال خلال الحديث. وبعد ذلك حاول أن يعيد بناء كلامه على الورق، وكما هو معهود منه، كانت إعادة البناء نصاً جافاً ومملاً بقدر ما كان الحديث حيوياً وجميلاً. وكان حديثه تحقيقاً ينقد اللاهوت - أو، كما كان يُفضل أن يُسمى على الأرجح، اللا - لاهوت - الذي أوجدته أكاديمية من الأسماء المستعارة خلال السنوات الأخيرة كجزء من أدب بلدنا. ولدى معاينة هذه الشخصيات ذات الأسماء المستعارة لاحظ بيتر كريستيان غياب ما هو أساسي بصورة مطلقة للمسيحية، أي تجديد حياة الإنسان الحقيقية، في الأفراد وفي الجنس البشري على السواء. وبما إن حقيقة الحياة المسيحية تجعل نفسها مرئية في النمو والتطور والتوسع - على طول الطريق من النطفة إلى نضج الإنسان - فإن هناك إمكانيتين فقط: إما إن المفكرين ذوي الأسماء المستعارة الذين يجرون حواراً علنياً حول الوجود منذ فترة، لم ينتبهوا إلى هذه الحقيقة، أو، باستخدام تعبيرهم نفسه، إنهم تعمدوا تمويهها وتمييعها. وهكذا أغفَلت كتابات سورين كيركغارد حقيقة الحياة المسيحية، وقد أغفلتها إما بسبب عدم الانتباه أو نتيجة خداعٍ واعٍ - ما من تفسير آخر يبدو ممكناً. وعليه فإن كتابات سورين كيركغارد الروّحيةَ - الزاهدة، كما وصف بيتر كريستيان أعمال شقيقه، كانت تتضمن دعوة موجهة إلى كل مَنْ يرغب في أن تكون له خبرة حية بالإيمان، ولكن ما أُعطي له في الحقيقة كان مراناً في السباحة بلا أحزمة نجاه فوق سبعين ألف فرسخ من الماء، بل نُصح بأن يبدأ القفز على رأسه أولاً. ولا شك في أن هذا التعليق على مبتدئ يقفز على رأسه أولاً، كان مبعث سرور عام بين المندوبين الغروندتفيغيين الحاضرين في المؤتمر، الذين أسعدهم الاستماع إلى سجالي كان أشد حدة منه في محاضرته السابقة في مؤتمر روسكيلدة، في تشرين الأول/ أكتوبر 1849. وكان بيتر كريستيان بمعنويات عالية حقاً، ولم ير سبباً للف والدوران، ومع اقتراب كلمته من نهايتها طلع في الحقيقة بإعلان عداء

صريح لشقيقه الأصغر: نعم، بكل تأكيد، إن المسيحية ليست ما يقوله القساوسة البكائون. ولكن لا يستتبع من ذلك أن تكون [المسيحية] على الأرجح ما يسعى أنبياء فكاهيون أو شتّامون إلى أن يجعلوا منها.

لم يسجل أحد الكلمة وقتذاك ولكن لا بد أن سورين آبي سمع تقارير شفهية عما جرى، ولم يتجاهلها. ففي 23 تموز/ يوليو أنهى كتابة مخطوطة عنوانها القس بي. كري. كيركغارد، ليسانس لاهوت، شقيقي، وهي هجوم كاسح على غروندتفيغ وجميع مريديه السطحيين. واتخذ سورين آبي من المؤتمر الرعوي الاستعراضي موضوعاً لسخريته متبنياً بذلك موقف مينستر الذي أشار إلى المؤتمرين بوصفهم كأس بيرة صغيراً. ولعل هذا أوحى له باستعارة قوية المفعول: لأنه مثلما يقولون إن على المرء ألا يقرب من سكير عربيد لأنه محاط برائحة الكحول الكريهة، كنتُ أجد دائماً إن من المزعج [تغيرت بعد أن كانت مما يثير الاشمئزاز] الاقتراب كثيراً مما يكتبه الغروندتفيغيون لأنه يميل إلى أن يكون مغلفاً برائحة الحماسة الكريهة. والحق إن القس ليسانس كيركغارد، من بين الغروندتفيغيين، واحد من الذين يعطّون بالقدر الأكبر من هذه الرائحة الكريهة. ومرة أخرى فإن الفكرة القائلة إن بيتر كريستيان بصفته أخاً، قد يمتلك معرفة خاصة عن سورين آبي، وُصفت بأنها استنتاج خاطئ على نحو واضح: إن هذا بعيد إلى أقصى الحدود عن كونه هو الحال. وفيما يتعلق بكامل حياتي الدينية الداخلية ونياتي، إلخ فإن القس ليسانس كيركغارد لا يعرف إلا ما يمكن أن يعرفه أي أحد آخر على أساس كتاباتي. وفي هذا الشأن فإنه لا يعرف أكثر أو أقل من أي أحد آخر لا يعرف شيئاً.

ثم يُعاد سرد القصة كلها مرة أخرى بطريقة تكاد تكون قهرية: إنه، سورين آبي، أعطى الدنمارك كاتباً بنكران ذات، وإنه من أجل القضية عرَّض نفسه بإرادته إلى هجمات مجلة كورسارن، وإن بيتر كريستيان لم يحرك ساكناً بشأن هذه الهجمات، بل إن بيتر كريستيان، على النقيض من ذلك، استغل الوضع عندما ألقى كلمته في مؤتمر روسكليدة حيث جعل من شقيقه ممثلاً للنشوة. ثم جاءت اللحظة التي هاجمتُ فيها مارتنسن. ومنها فلاحقاً ثاروا ضدي على أوسع نطاق ممكن تقريباً في هذه الأرض الصغيرة. وجرى تحريك كل شيء لوصمي شريراً، شخصاً يعكر سلام القبور، أو تصويري بكل بساطة رجلاً مجنوناً من نوع ما - الأمر الذي تكرر المرة تلو الأخرى في الصحافة. والشقيق

المتحمس لم ينبس ببنت شفة في هذا الشأن. لذلك كان الشيء الوحيد الذي يمكن قوله عن هذا الأخ، الرائحة الكريهة وما إلى ذلك، هو إنه شخص متخاذل أساساً وإن الحقيقة هي إنه بربط نفسه بهذه الشلة البائسة لكنها صاحبة مخيلة من الغروندتفيغيين، وبمساعدة بعض المنجزات الثانوية والتضامن الحزبي [حيث إنه] حقق لنفسه بالخداع [تغيرت العبارة من نال بالكذب] أهمية هي بكل بساطة ليست له بالمرة - في حين إنه لو أعرض عن كل هذا الهراء باقياً بمفرده مع الله بالطريقة الكيركغاردية الحق، لأمكن أن يكون ذا أهمية بالغة للدنمارك.

قد نجد بعض السلوى في حقيقة إن هذا المقال سُمح له بالبقاء كامناً لا يعكره شيء ستة وعشرين عاماً ولم يُنشر إلى أن ظهر في الجزء الأخير من أوراق كيركغارد بعد وفاته. ولكن هناك قدراً أقل من السلوى نجده في حقيقة إن نشر هذه الأوراق تابعها عن كثب لفترات طويلة من الزمن بيتر كريستيان المعذَّب بصورة متزايدة، الذي في مقر إقامته الأسقفي جرى تحرير المخطوطات.

في المسرح، حدث أن

كان أحد الآثار الجانبية لمقالات كيركغارد في الصحف وكراساته إنه تمكن من وضع نفسه في وعي الجمهور برسوخ أقوى من أي وقت مضى منذ نشر عمله «إما/ أو». ورغم إن استخدام الكلمة قد يبدو ثقيلاً على نحو لا يُنكر في هذا السياق فليس من الخطأ النظر إلى حملته على أنها عودة ناجحة نجاحاً ساحقاً. وكان العديد من مجايليه يتذكرونه حيوياً، يكاد أن يكون دائخاً حين كانوا يلتقونه في الشارع خلال هذه الفترة. ويُقال إن كيركغارد ائتمن تيخو إي. سبانغ قائلاً نعم، أو لا ترى، حسناً، وجَدَتْ الدنمارك أعظم نحاتيها في تورفالدسن وأعظم شعرائها في أوهلينشلاغر، والآن أعظم أسلوبييها النثريين فيَّ أنا. ولن تدوم الدنمارك طويلاً الآن! كان يُراد بذلك أن يكون نكتة بالطبع، ولكن ليس نكتة فقط. وخَبِرَ فيلهلم بيركيدال نوعاً مماثلاً من الوقاحة. وكان بمقدوره أن يتذكر واقعة صغيرة أقنعته على الفور بأن التلاشي من العالم الذي كان كيركغارد لا يني يعظنا به نحن الآخرين جاعلاً ذلك سمة الشاهد المسيحي الصادق، كان لا ينطبق على الواعظ نفسه. وذات يوم رصد بيركيدال، الذي كان من أتباع غروندتفيغ وبصفته هذه يعتبر نفسه مشتبكاً في معركة ضارية من أجل الكنيسة، كيركغارد جالساً إلى مائدة عامرة في واحد من أفضل مطاعم

المدينة، مع وجبة فخمة من الغذاء تليق بملك وكأس كبيرة جداً من النبيذ المتلألئ أمامه. عرفه كيركغارد وناداه على الفور هلو، بيركيدال، تبدو بخير. نعم، أنتَ المضطَهَد تسمن. فرد بيركيدال: نعم، وأنتَ الذي تضطهِد تنحف، لأن كيركغارد رغم عيشه الراقي لم يكن إلا جلداً وعظماً.

تركت حملة كيركغارد أثراً عميقاً في بيركيدال كلفه قدراً ليس بالقليل من الصراع في نفسي ولكن بيركيدال نجح مع ذلك في شق طريقه بالكفاح إلى النور والبهجة، عندما كما لو في رؤيا شاهدتُ سيدنا المسيح واقفاً على الجبل يبكي على القدس والآثمين في المدينة، وبجانبه رأيتُ سورين كيركغارد واقفاً ويضحك علينا جميعاً، يحكم علينا بقعر الجحيم... ثم راعني اليقين الذي لا يُدحض بأن هذين الاثنين لا يمكن أن يتفقا ولا بد أن تكون هناك مسافة شاسعة بينهما. وخرجتُ على الفور من أفكاري الحزينة. ويمكن أن نرى هذا الحزم الغروندتفيغي نفسه في رفض كيركغارد لدى هانز روردام الذي، في رسالة بتاريخ 4 أيار/ مايو 1855، كتب الآتي إلى شقيقه بيتر: إن سورين كيركغارد الذي يهتف بأن كنيسة المسيح هلَكَت هو بنظري مثل البعبع الذي يصرخ لإرهاب أطفال هذا العالم الكافرين والمؤمنين بالخرافات. ولكن المسيحي يضحك عليه. وإذا ذهب إلى نهاية العالم مثل إسكافي القدس [أهاسويروس، اليهودي الجوال في الأسطورة] هاتفاً إن كنيسة المسيح هلَكَت، سأطلب السماح لي بالمشي وراءه والقول «أنت تكذب، يا سورين! وطبقاً لشهادة المسيح وروح الله، أنتَ كذاب كبير». ولعل بيتر روردام كان سيعلن نفسه متفقاً مع شقيقه لأنه قبل بعض الوقت على ذلك خرج في نزهة مشي مع كيركغارد الذي تحدث حقاً عن غروندتفيغ بنبرة ساخرة. ودفع هذا روردام إلى إنهاء كل علاقة لاحقة مع كيركغارد الذي لامس تعليقه في روردام، وهو غروندتفيغي، النقطة الأشد حساسية عنده.

استنزفت الحملة كيركغارد مالياً وجسدياً، ولكنها جعلت الأدرينالين فيه يتدفق بالقدر نفسه من السعادة التي تدفق بها حين كتب «إما/ أو» قبل اثني عشر عاماً على ذلك. ذلك إن أسلوب كيركغارد كمن يصقل الأحجار الكريمة، وسخريته واستفزازاته الملتبَسة ونقاطه المسبوكة بأناقة ومرحه بل وحتى النبرة في تلك المقالات اللاذعة والعصبية، كما سماها غولدشمدت، تذكِّر بالبعض من أفضل ما جاء في الديابسالماتا التي بها قدَّم أيسثيت أي [بالإنكليزية:

Aesthete تعني متذوق الجمال] في الجزء الأول من «إما/ أو». وإن عنقوداً صغيراً من الأقوال المأثورة في العدد السادس من اللحظة نُشر بعنوان مختصر وحاد، والرابع في هذه المجموعة من الأقوال المأثورة يتخذ شكل حوار آلي لا معقول: «هل كان للرسول بولس منصب رسمي؟» كلا، لم يكن عنده منصب رسمي. «هل كان إذاً يكسب الكثير من المال بطريقة أخرى؟»، كلا، لم يكسب مالاً على الإطلاق. «إذاً، هل كان على الأقل متزوجاً؟» كلا، لم يكن متزوجاً. «إذاً، لم يكن بولس رجلاً جدياً!» كلا، لم يكن بولس رجلاً جدياً. غولدشمدت، من الجهة الأخرى، كان رجلاً جدياً لأنه أخذ القول المأثور بجدية مفرطة، مشيراً لكيركغارد في يومياته الموسومة الشمال والجنوب إلى أن بولس كان يكسب المال في الحقيقة بقدر ما كانت مهنته صانع خِيَم. الثاني من هذه الأقوال المأثورة مباشر على غير المعتاد في شكله: في الكاتدرائية الرائعة يتقدم الواعظ الأعلى، الأصيل، المكرَّم والفاضل غيهايمة - جنرال - أوبر - هوف، الحبيب المختار للمهمين، أمام دائرة منتقاة من المنتَقين، ويعظ بطريقة مؤثرة حول نص اختاره بنفسه هو «إن الله اختار الوضيعين والمحتقرين في الأرض» - ولا أحد يضحك! ثم ضحك الجميع بطبيعة الحال، ربما حتى غولدشمدت.

في اللحظة الأخيرة تمكن سيد المفارقة من كسب الضحك مرة أخرى إلى جانبه، وكان ذلك، بالإضافة إلى كل شيء آخر، من الدوافع الواعية بهذا القدر أو ذاك، وراء الحملة. وفي مسودة عدد من اللحظة، في مادة بعنوان مَنْ أنا وماذا أنا، أعلن كيركغارد إن القوة التي سأستخدمها (هكذا أفهمها طبقاً للحاكمية الإلهية) هي - نعم، سيندهش الناس، ولكن هكذا هو الأمر - هي الضحك!... بيد إنها بالطبع منذورة لقضية دينية عندما أخدم تلك القضية. أو لا ترون، لهذا السبب رَضِيتْ الحاكمية الإلهية بأني، أنا الذي دلَّلتني السخرية الدنسة، يجب أن أجعل نفسي ضعيفاً بإرادتي لكي أستطيع أن أصبح - وسأصبح - شهيد السخرية حتى أستطيع، بتقديسي على هذا النحو وبأعلى موافقة من الحاكمية الإلهية، أن أصبح مشاكساً مزعجاً، بلاء واعياً على هذا الغياب للروح.

حاول كيركغارد هنا، بمساعدة عقلنات بديهية تستند إلى حقائق واقعة، أن يعيد ترتيب تسلسل العوامل ذات العلاقة ليتمكن شهيد السخرية من أن يكون مدلَّلا من جديد. وفي هذا الشأن أرفق هذه الفقرة من يومياته، كما هو ديدنه، بإشارة إلى اللازمة الأخيرة من المزامير في كتاب إما/ أو، لأن هذا كان

المقطع الذي يتحدث عن متذوق الجمال المختال الذي كان في السماء السابعة حيث طلبت منه الآلهة أن يختار من مجموعة منتقاة تضم الشباب والجمال، وأجمل امرأة، والعديد من المسرات الأخرى. وبعد التردد لحظة - كما أوضح - خاطبتُ الآلهة هكذا: «أيها المعاصرون الأفاضل، أنا أختار شيئاً واحداً، هو أن يكون الضحك جانباً إلى جانبي». لم يرد أي من الآلهة ولا حتى بكلمة واحدة، وبدلاً من ذلك بدؤوا جميعهم يضحكون. وخلصتُ من هذا إلى أن أُمنيتي تحققت.

من المستحيل أن نعرف إن كان متذوق الجمال أيسثيت أي مصيباً فيما خلص إليه، ولكن ما يبدو فوق الشكوك إن كيركغارد، خلال حملته هو، فعل ما بوسعه لكي تتحقق أُمنية مماثلة. فالناس بكل بساطة لم يستطيعوا أن يتمالكوا أنفسهم من الضحك - حتى الأسقف مارتنسن ربما شعر بابتسامة خفيفة على ملامحه الأسقفية. ولكن هذا الظرف ذاته يبدأ بإثارة بعض الشك فيما إذا ارتقت الحملة إلى مستوى المتطلبات التي حُدِّدت لها. هل من الجائز إن كيركغارد وعلاجاته الباعثة على الضحك لم تساعد على فضح الفارق بين المسيحية والمسيحية الرسمية فحسب بل إنه وضحكه ساعدا أيضاً على جعل هذا الاختلاف محتَملا، لأننا على وجه التحديد نستطيع أن نتصالح معه في الضحك؟ وهكذا، على أي حال، تصالح التاريخ مع تنديد كيركغارد. أم إننا ربما نضحك على الشيء الخطأ وفي الوقت الخطأ؟ هل إن ابتهاجنا أُسيء فهمه وهو في غير محله؟ في هذه الحالة سيلقى كيركغارد المصير نفسه الذي لاقاه المهرج الذي جعل متذوق الجمال إيسثيد أي يقول عنه: في أحد المسارح، حدث أن شب حريق خلف المسرح. وظهر مهرج لإبلاغ الجمهور عنه. ظن الناس إنها نكتة، وصفقوا. كرر ما قاله فاشتد التصفيق. وهكذا، على ما أظن، سيصل العالم إلى نهايته، وسط الفرحة العامة لأذكياء يعتقدون إنها نكتة.

نجد الواقعة مسلية لأننا نفترض ضمناً إنها خيالية. ولكنها ليست خيالية لأن متذوق الجمال أيسثيت أي في الحقيقية أقام لازمة مزاميره على أساس حدث فعلي وقع في سانت بطرسبورغ يوم 14 شباط/ فبراير 1836. وكلف الحادث أرواحاً كثيرة لأن أحداً لم يأخذ المهرج على محمل الجد عندما هرع إلى المقدمة هاتفاً حريق! حريق! ونشعر فجأة بالأسى على المهرج المذعور. فهو توصل إلى اكتشاف مروع لم يفعل الجمهور سوى الضحك عليه. ولكن ماذا لو

أن المهرج نفسه أشعل النار، ماذا لو كان الذنب ذنبه في نشوب الحريق - حينذاك سيتحول تعاطفنا على الفور إلى احتقار، وسنمقته.

في 4 نيسان/ أبريل 1855، بدفع من مقترح بأن يكف عن قرع ناقوس الإنذار، رد كيركغارد بأنه لن يكون من الممكن الدفاع عن التوقف عن قرع ناقوس الإنذار طالما إن النار مشتعلة لأن المطلوب من الشخص في مثل هذه الأحوال أن يثير ضجة. واستمر رد كيركغارد كالآتي: ولكن بالمعنى الدقيق، أنا لستُ مَنْ يدق جرس الإنذار. أنا الشخص الذي أشعل الحريق لطرد الأوهام والاحتيال بدخانه. وهكذا كان كيركغارد مهووساً بإشعال الحرائق - مهووساً مسيحياً، بطبيعة الحال - ولذلك كان معذوراً فيما فعله، لأنه طبقاً للعهد الجديد فإن المسيحية هي إشعال الحرائق. والمسيح نفسه يقول «جئتُ أُلقي على الأرضِ ناراً». وأشار كيركغارد المهووس بإشعال الحرائق إلى أنها كانت فعلاً مشتعلة لأن المسيحية الرسمية هي التي أُضرمت فيها النار. وبالتالي كان ذلك عملاً جاداً، وجمهور بلا روح وحده الذي يخلط بين حريق كيركغارد والتهريج الاعتيادي.

من هنا لا تكون المسافة بعيدة إلى العدد السادس من اللحظة وكبير إطفائييها بالمقلوب، الذي يصرخ ويلعن ويأمر حشود الناس الذين هرعوا إلى المكان أن يخلوا الطريق، ليس من أجل إخماد الحريق ولكن لكي يشتد لهيبه حقاً وبذلك يأتي على هذه الغابة، هذا المعقل لكل الهراء، لكل الأوهام، لكل الخداع. وباستخدام خطابيته الخاصة التي تصم الأسماع يخاطب كبير الإطفائيين كل أُولئك الناس اللطفاء، الغيورين، الخيرين، الذين يريدون بكل جوارحهم أن يُطفئوا الحريق: كبير الإطفائيين، كما يقول - ونعم، من نواحي أخرى فإن كبير الإطفائيين رجل لطيف ومثقف جداً، ولكنه في الحرائق يستخدم ما يُسمى لغة فظة - إنه يقول أو بالأحرى يزعق، «أوه، اذهبوا إلى الجحيم بدِلائكم ورشّاتكم».

يطرد كبير الإطفائيين بقسوة كل ذلك الجمع الحبور، الغيور، الجاد من الناس الذين يعتقدون بكل تأكيد إن ثمة خللاً على نحو ما، وإن إجراء يجب أن يُتخذ بشأنه. وكان هذا الرفض نقداً للدين شبيهاً بالعدمية الفاعلة بحيث قد يكون من الصعب تمييز أحدهما عن الآخر. ولكن تكتيكات كبير الإطفائيين تكون أيضاً

بمثابة تذكير بأن لحملة كيركغارد مكانة تاريخية فريدة لأن تكتيكاته تشكل رفضاً قوياً لجميع رُسُل المستقبل وكل محاولاتهم السفسطائية لإضفاء قدر معين من الميوعة على حملته - ذلك الرفض النهائي للمسيحية الرسمية - بتأويل الحملة على أنها تواصل غير مباشراً. وكان أيضاً إلى أولئك الأشخاص - إلى المساعدين الأكاديميين ولصوص الأعمال الجامعية، وأعضاء جمعيات كيركغارد والنوادي الأخرى المليئة بأذكياء سيقفون بعد قرن ونصف القرن حاملين شمعات مبللة وأعواد شخاط بلا كبريت - إلى هؤلاء أيضاً، أصدر كبير الإطفائيين الفظ أوامره الخشنة: أبعدوا هذا الجمع التافه من هنا.

تعال اسمع أيها الابن غير الشرعي اللماح

كان أحد الذين جُرحوا وحاول أن ينازل كيركغارد برد الضحك إلى نحره طالب لاهوت في الخامسة والعشرين من العمر اسمه كريستيان هنريك دي تورا Christain Henrik de Thura، وهو نجل قس من أبرشية قرب ريبي في يوتلاند. وكان تورا معروفاً بوصفه كاتب مجموعتين من القصائد الدينية جعل خياره للإيقاعات والقوافي والأبجدية الرونية، من الواضح إنه من أتباع غروندتفيغ. وفي عام 1852 أثبت تورا إتقانه فن النظم الشعري المعقد عندما نشر نصاً شعرياً جديداً لأنشودة سليمان تحت عنوان وردة شارون.

في 27 أيلول/ سبتمبر 1855 نشر تورا كراساً صغيراً أقل من عشرين صفحة يمكن شراؤه باثني عشر شلناً. وكان الكراس بعنوان رسالة مقفاة إلى يوهانس الغاوي، الاسم المستعار للدكتور سورين كيركغارد. والمادة شهادة مؤلمة على حقيقة إن كيركغارد كان يؤخذ مأخذ الجد حتى إن أشخاصاً اضطروا إلى استخدام أبشع الأسلحة والهجمات الشخصية والتلميحات إلى مظهره الجسدي. ويقول المقطع الأول منها:

تعال أسمع أيها الابن غير الشرعي اللماح(*)
أنت الموهوب بلسانك
الأملس مثل أي سمكة لزجة من أسمال الإنقليس
الحاد مثل أي نصل فولاذي:

*- يا مَنْ أنزلتَ والدك إلى مستوى حيوان شبق

بدلاً من الركض هنا وهناك
أن تمشي متثاقلاً، وللأسف أن تتسكع
في كل ساقية قذرة، نتنة ــــــ
لنلعب أنا وأنتَ النهاية، أنت الخاسر!

الجزء الأخير من يوميات كيركغارد لا يتضمن فقرات تاريخها الشطر الأخير من أيلول/ سبتمبر 1855 وبالتالي لا نعرف إن قرأ قصيدة تورا التشهيرية. ولكنها كانت ضمن مجموعة من الكتب التي تركها كيركغارد بعد وفاته، وأتى فعلاً على ذكر تورا حين كان في المستشفى، قبيل وفاته. وليس من الصعب أن نفهم لماذا كان سيذكر تورا:

أنتَ تجرؤ على الكثير، وتحسن التجرؤ
أن تضع نفسك حيث يقيم الله
كل ذلك لأنك لا تستطيع أن تطيق
إن نداء الرب يأتي من يد الرب
يا قرد الشيطان الحلو، قل لي من أين
يأتي هذا الذكاء؟
يا للخسارة أن تفلت من نظرة الله
حتى هذه الأيام الأخيرة جداً
لأن الله سيجد من البداعة حقاً
أن يجمع الحكمة تحت قدميك!

استمرت رسالة تورا ملمِّحة في طريقها إلى مقالات نُشرت في عدة أعداد من اللحظة، أشار إليها تورا في هوامش صغيرة. وكانت النتيجة معارَضَة أدبية صوَّرت مسيحية كيركغارد المعادية لحياة الجسد، على أنها مازوخية روحية.

المكابدة الروحية، هنا يكمن الجمال ــــــ
هذا الواجب الملزِم لكل مسيحي
الألم المسيحي ألم إلهي
في عقلك السليم (أو خارجه)
وناس ذوو غرائب صغيرة
سيجدون أنفسهم بقلوب مرتاحة

كما كان تورا مأخوذاً بـ كبير الإطفائيين المهووس بالحرائق، وعمد إلى

مماهاته بكيركغارد ونيرو الذي أحرق روما. ثم وجه تورا اهتمامه نحو ثروة كيركغارد الشخصية التي جعلت من السهل عليه (وإن كان ذلك نفاقاً) أن يطالب الآخرين بالزهد:

كل شيء كان لك معطى
لم يتعين عليك قط أن تكسب رزقاً
المسيحي يشعر بلسع جَلدَتك الموجعة
لكنك لم تكن ذات يوم في عوز للمال
فأنت الوارث الغني
لتاجر البضائع الجافة كيركغارد
والكل هنا في المدينة يعرف
إنه ترك لك ذهباً بأكوام كالثلج
وجهُك يستطيع أن يبتسم، وفكاهتك أن ترقص
لأنك نفسك لا تُقدِم على مخاطرات حقيقية
و، أوه! يا لهم من مارقين هؤلاء القساوسة المغفلين
الذين، بخلافي أنا، لا يستطيعون أن يكونوا أسياداً
لكنهم يتصيدون الناس - ياه، يا للجشع!
لأنهم طماعون!
فقط اتبعوني. قال الرب
يجب أن أعيش ولكن لا أن أكسب خبزاً...
إنه لرائع عندما تفكر كيف
تهرب من ذلك العهد بالخطوبة
الذي قطعته ذات يوم لامرأة
قالتْ إنها ستتبعك إلى القبر
لكنك ما فتئتَ، المرة تلو الأخرى
تختبر صبر شخص
لم يتمكن من التحمل أكثر رغم كل شيء
وأنتَ كنتَ عازماً على أن تجعلها تعلَم
إن هذه حياة، وإنها يجب أن تمتثل لكَ
كأنها تمتثل لله. ولكنها لم تتمكن من عمل ذلك

أوه، يا لها من ضربة رائعة
كانت. أنتَ بكل بساطة كسَرتَها!
أنتَ تفتخر بوعظك - التبتل!
... لا بد أن تكون بنقاء مَلاك.
انظر إلى ساقيك، وستعرف بكل تأكيد
أنتَ يا كاره القساوسة، أيها المتهور والجامح
لن تكون أباً لطفل
ولو إنك - ربما كان لديك الكثير من الأطفال
ولكل شخص أن يفكر كما يحلو له

بعد أن وصل تورا إلى هذا الحد أراد أن يساعد كيركغارد على إنتاج تلك المشاعر البغيضة التي يبدو أنّه كان يثمنها عالياً. فأُرشد كيركغارد إلى التنزه مشياً في شوارع المدينة صباح يوم أحد لتجميع حشد من الناس وهو يمشي. ثم تكتمل الدائرة:

خُذهم إلى المقبرة
حيث والدُك ميت ومدفون
قف هناك ومد لسانك إلى الخارج
واهتف: ها هنا إذاً ابنك النغل
واذهب إلى الجحيم أيها القواد العجوز!
لا تستطيع أن ترد بكلمة واحدة أيها النذل!
والآن انتهيتُ من أُغنيتي

إلا إذا جاء مزيد من اللحظات [في إشارة إلى اللحظة مطبوع كيركغارد]

طالب لاهوت آخر شن هجوماً مضاداً فنشر مادة باسم مستعار تحت عنوان تورا وسورين كيركغارد. وزعم كاتبها إن تورا سرق من أعمال غروندتفيغ ولكن في يديه أصبحت التعابير القوية من كتابات غروندتفيغ جَلِفة بلا ذوق فحسب. وادَّعى الكاتب إن عمل تورا تكلل الآن بقطعته رسالة مقفاة التي لا غرض لها سوى شتم كيركغارد وإغراقه بأقذع لغة وأكثر صنوف الاعتداء ابتذالاً على أخلاقه. وإن هجوم تورا نُفذ بذلك النوع من الدناءة التي لا تليق قطعاً بطالب لاهوت. وهكذا كانت النتيجة إن المزاج العام الذي كان في السابق ضد كيركغارد انقلب الآن معه. مثل هذه الاتهامات الباطلة ضد رجل لُطِّخت سمعته

بهذا القدر من هذه الناحية، لا يمكن إلا أن تستدعي الاستنكار الشديد من كل مسيحي.

آخر من زملاء تورا الطلاب أصدر رداً بعنوان رسالة مقفاة إلى المدافع عن الإيمان ذي الاسم المستعار طالب اللاهوت تورا، من طالب اللاهوت Th. L. وكان يختفي وراء الحروف Th. L طالب لاهوت اسمُه توماس لانغة يمضي وقته في بطالة مشغولة يكتب شعراً عابراً ومسرحيات كوميدية لا يدبِّجها إلا الهواة ويعمل في الوقت نفسه بصفة مالك حصة في مقهى السماء، وهو مقهى يقع وسط الحي الجامعي في ركن كوبماغيرغاده ومخزن كانيكيستراده. (هذا الموقع الأخير مكَّن لانغة من اعتبار نفسه مالك فندق). ولم تكن قصيدة لانغة محبوكة مثل قصِيدة تورا ولكن السابع من مقاطعها الأربعة عشر أفلح في إيصال الرسالة القائلة بأنه لا بد أن تكون انتقادات كيركغاردات ضد غروندتفيغ هي التي دفعت تورا إلى الركض إلى المطبعة:

أنت شاعر رسمي من شعراء غروندتفيغ
ولذلك تستطيع أن تفهم
واجبك، وأنتَ بالتكيد تعرفه:
أن يُمنع سورين كيركغارد
لماذا قال ذلك الرجل الغبي أصلاً
غروندتفيغ؟ مَثَل أعلى؟ إنه سقط إلى أدنى من ذلك!
وإذا لم يفعل سورين سوى الضغط على فكيه
فإننا سنتحرر جميعاً من قصائد مثل قصائدك!

على ما قد يبدو في ذلك من غرابة فإن تورا كان جريئاً بما فيه الكفاية للرد على هذه الردود بكراس صغير بعنوان لماذا تفعلها بهذه الطريقة؟ المقدمات في أساس القضية. سي. أتش. تورا ضد الدكتور أس. كيركغارد. وهنا حاول تورا الدفاع عن قصيدته اللئيمة بنثر بائس: الدكتور كيركغارد سخر من ربنا... أخذ اسم الله عبثاً وتحدث عنه بلهجة غبية تافهة. شوَّه كلام الله وسماه لغواً... طرح نفسه بوصفه أداة الله. وباسم الله سخر من البشرية. أساء استخدام اسم الله جاعلاً منه برقعاً للشر من أجل الإيقاع بالضعفاء والمكشوفين. ويجب بادئ ذي بدء أن يُجبَر على رفع هذا البرقع وأن يخرج إلى العلن حيث يمكن أن يُشجَب بوصفه ساخراً من الله. ومرة أخرى فإن كراس تورا المؤرخ 6 تشرين الأول/

أكتوبر 1855، وضعه في دائرة اهتمام الجمهور، وكتب غولدشمدت - الذي أصبح بمرور الوقت بورجوازياً صلباً بحيث كان قادراً على إصدار أحكام أخلاقية على حماقات شباب طائشين - الآتي في مجلته شمال وجنوب: إن طالب اللاهوت تورا استخدم لغة خنزيرية للهجوم على أس. كيركغارد.

كان لدى تورا عدد من المتعاطفين معه في كلية ريغينسن، وهم عملوا كل ما بوسعهم للتعبير عن ازدرائهم لتوماس لانغة الذي كان يعيش مباشرة عبر الشارع في كلية أيلر. وكلما كان لانغة يطل من نافذته أو يظهر في الشارع كان يُقابل بالهتافات والتعابير الوجهية البشعة. وفي النهاية بلغ اللهو حداً لم يعد لانغة يطيقه: ذات صباح، عندما تعرضتُ للمضايقة بهذه الطريقة ذهبتُ وحشوتُ أحد المسدسات الكبيرة وفتحت باب الشرفة وأطلقتُ النار على العدو - أي على ريغنسن. واهتزت السماء بل وحتى البرج الدائري من أساسهما. وفرض قائد الشرطة غرامة قدرها خمسة ريكسدولارات وأصدر تعنيفاً أبوياً وضع حداً لهذه المعركة الكنسية الطلابية.

في ذات الوقت تقريباً الذي نشر تورا رسالته المقفاة، كان أف. دبليو. توريَل، أحد زملاء كيركغارد الطلاب من أيام الجامعة، يصحح الصفحات المطبوعة لعمله الأبدية: تسع رسائل من السماء إلى الدكتور سورين كيركغارد. وكان الغرض من هذا العمل رد الاعتبار إلى مينستر والكنيسة الرسمية التي بحسب ترويَل، لا يملك حد الحق في الحكم عليها، لأن هذا من حق الله وحده - وبالطبع ترويَل! وعرض قسم تمهيدي زاخر بالألغاز ما ينتظر كيركغارد من مهانات حين يصل إلى حجرات السماء السامية. وأعقب ذلك مزيج ساحر من السخط المرتعش والغباء الذي لا يُنكر، كما هو معهود من ترويَل، زُعم فيه إن أعمال كيركغارد تتألف من تخيلات عن موضوعات لغوية ومشاريع فكرية، معروضة بالبراعة العجيبة لحاذق من الزمن الحديث. وتساءل ترويَل أيُفترض بهذا أن يكون مسيحية؟ ثم تناول الأمر بصورة مباشرة أكثر ناصحاً كيركغارد أن يفك قبضته الفنية على خيوط اللغة والتخلي عن لعبته في التوازن على سُلَّم الفكر وعزلته المتعالية. ومضى ترويَل إلى وصف كيركغارد بأنه نهم وشهواني، بل إنه حتى تمكن من إقحام كيركغارد في أحضان العديد من الحسناوات اللواتي يَعِشْنَ في حريم: أنت أضرمتَ النار في العالم أجمع لكنك الوحيد الذي يحترق في ذلك الحريم متقوقعاً كما أنتَ مع المنطق والمفارقة والديالكتيك.

بعد حوار - طويل مثلما كان غير محتَمل - بين مَلاك اتهامي وملاك من ملائكة الله يخاطبان أحدهما الآخر بمقاطع شعرية بائسة، وصل تروِيَل إلى الرسالة التاسعة والأخيرة من رسائله من السماء حيث شدد ظافراً على عاهات كيركغارد الجسدية. ومن الواضح إن تروِيَل قرأ مقال مارتنسن ضد كيركغارد وبذلك استطاع أن يهتف: أوه، لكنك ثَرسيتيس! لديك تلك الروح المتكبرة، المغرورة والحاقدة، تلك القابلية السقيمة للتغير وتلك الفطنة الشيطانية... وأنا أشرتُ إلى شهوتك الروحية وقسوتك. وفي السياق نفسه فإن كبرياءك واضح للجميع. يا له من عذاب لطبيعة كهذه... أن تمتلك أيضاً - بمعنى جسدي، بدني - شيئاً تجده الجماهير الفظة مثيراً للسخرية، ومقززاً، والجميع يجدونه مقرفاً وهزلياً. وإذا كنتَ، بالإضافة إلى هذا كله، فيلسوف شوارع تتقول الأقاويل مع كل واحد، بلطف ظاهري، وإذا قَلَبتَ وجهك ومشيتَ كما يمشي السلطعون، مقوساً ظهرك على شارع أوسترغاده، فإن ذلك كان عبثاً: أنتَ لم تفعل سوى استنطاق الناس للضحك عليهم، ولم تذهب إلى هناك إلا لإشباع حاجتك إلى الازدراء. أنتَ تتناول الطعام مع الخنزير، ليس لأنك بكل بساطة أنتجتَ كتابات قذرة فحسب بل لأنك - مع الغوغاء الذين يهتفون لك - استوعبتَ رغبة العصر: تهديم كل ما هو سامٍ ومقدس.

المريض رقم 2067

كان اليوم 25 أيلول/ سبتمبر 1855. أخذ كيركغارد قلمه وغمسه في الحبر ثم كتب في قمة الصفحة مصير هذه الحياة مفهوماً من وجهة نظر مسيحية. كانت تلك آخر فقرة كتبها في يومياته: مصير هذه الحياة هو: إيصال المرء إلى أعلى درجات التعب من الحياة. والشخص الذي يكون، بعد إيصاله إلى هذه النقطة، قادراً على القول (أو يكون بعون الله قادراً على القول) إن الله، محبةً به، هو الذي أوصله إلى هذه النقطة - فإن هذا الشخص، مفهوماً من وجهة نظر مسيحية، اجتاز امتحان الحياة، وهو ناضج للأبدية. أنا جئتُ إلى الوجود من خلال جريمة. جئتُ إلى الوجود ضد إرادة الله. والجريمة - التي هي بمعنى ما ليست جريمتي أنا رغم إنها تجعلني مذنباً بعيون الله - هي منح الحياة. العقاب يناسب الجريمة: أن تكون محروماً من كل شهوة للحياة، أن تُقاد إلى أشد درجات التعب من الحياة... ما الذي يريده الله حقاً؟ إنه يريد

نفوساً تستطيع أن تحمده وتحبه وتعبده وتشكره - عمل الملائكة. ولهذا السبب يكون الله محاطاً بالملائكة، لأن نوع الكائنات الموجود منها أفواج في المسيحية الرسمية، النوع الذي مقابل 10 ريكسدولارات سيطبل ويزمر لفضل الله وفي حمده - هذا النوع من الكائنات لا يرضيه. كلا، الملائكة ترضيه. وما يرضيه حتى أكثر من تسبيح الملائكة بحمده هو هذا: عندما، في الدورة الأخيرة من هذه الحياة - عندما يبدو وكأن الله يتحول إلى قسوة خالصة وإنه، بقسوة وُجدت بأشد الطرق قسوة، يفعل كل شيء لحرمان الشخص من كل شهوة للحياة - عندما يستمر إنسان، رغم ذلك كله، في الإيمان بأن الله محبة وأن الله بدافع الحب يفعل ذلك - عندئذ يصبح مثل هذا الإنسان ملاكاً. وهو يستطيع بكل تأكيد أن يحمد الله في السماء، ولكن وقت التعليم، وقت المدرسة، هو بالطبع أصعب الأوقات. إنه كما لو إن المرء خطرت له فكرة السفر حول العالم أجمع ليسمع مغنياً عنده صوت أمثل: هكذا يجلس الله في السماء ويستمع. وفي كل مرة يسمع اللهُ الحمدَ من إنسان أوصله إلى أقصى نقطة من التعب من الحياة، يقول لنفسه، «ها هنا هو الصوت».

هناك مفارقة خاصة، لا تُطاق في حقيقة إن كيركغارد كتب هذه السطور التي تصور بطريقة مؤلمة شطراً من سيرته الذاتية، عن إيصاله إلى أقصى درجات التعب من الحياة، قبل يومين تماماً على نشر تورا رسالته المقفاة. ومن المؤكد أن قصيدة تورا لم تساعد في التخفيف من تعب كيركغارد من الحياة خلال الأسبوعين الأخيرين من أيلول/ سبتمبر، اللذين كانا أشد تعاسة من المعتاد. ففي منتصف الشهر، عندما كان كيركغارد يجلس على أريكة وحاول أن يميل قليلاً على الجانب، تزحلق على الأرض وكان بالكاد قادراً على النهوض. وفي اليوم التالي سقط مرة أخرى أثناء محاولته ارتداء سرواله. ولم يكن كيركغارد يعاني من الدوار أو التشنجات أو أوجاع الرأس ولكنه عندما يمشي كانت قدماه لا تأخذانه إلى حيث يريد، كما لو إن خطوته أصبحت قصيرة بعض الشيء. وفي الوقت نفسه كان يحس بشيء يدب ويوخزه في ساقيه اللتين كانتا تطنان أو تخدَران. وأحياناً كان يشعر بآلام حادة من أعلى ظهره إلى أسفله. وعادت الصعوبات القديمة في التبول، وكان إما لا يستطيع التبول بالمرة أو يتبول لا إرادياً. وكانت معدته منقبضة، ولكن الغريب إن شهيته كانت طبيعية تماماً. وأُصيب أيضاً بالسعال لبعض الوقت. وعندما كان السعال شديداً بصفة خاصة،

ولا سيّما في البداية، كان يشعر بألم في مقدمة صدره، وكانت مادة هلامية تخرج منه. وكان الإفراز مَصْلياً، مع كتل صفراء. ولم يعد الألم حاداً، بل كان مرهِقا جداً فحسب. وعندما خرج للمشي ذات يوم من أيام أيلول/ سبتمبر الأخيرة خذلته ساقاه وسقط. استُدعيت عربة ونُقل إلى منزله في كلايدبوديرني ولكن حالته لم تتحسن. وبعد أربعة أيام، وبالتحديد الثلاثاء، 2 تشرين الأول/ أكتوبر، راجع مستشفى فريدريك الملكي وطلب أن يُفحص.

أجرى الفحص خريج طب كان مناوباً اسمه هارالد كرابة، مسؤول، بموجب الإجراءات المتعبة، عن ملف كيركغارد الصحي أيضاً. وكان كرابة تخرج طبيباً ذلك العام ولم تكن لديه خبرة واسعة، كما هو واضح من تاريخ الحالة (سوابق المريض)، الأمر الذي أتاح - في ضربة حظ للأجيال المقبلة - أن تكون للمريض كلمة أكبر من المعتاد في تقييم مرضه ذاته. وهكذا سجل كرابة عن كيركغارد: إنه لا يستطيع أن يذكر أي سبب محدَّد لمرضه الحالي. ولكنه يربطه بشربه ماء سَيلتزر بارداً في الصيف، ومَسكَن معتم، وكذلك عمل فكري مرهق يعتقد أنّه كان شديد الوطأة على جسده الضعيف. وهو يرى إن مرضه قاتل وإن موته ضروري للقضية التي صرف في خدمتها كل طاقاته الفكرية، ولها وحدها كدَح، ولها وحدها كان منذوراً كما يعتقد. ومن هنا التفكير الشاق بالارتباط مع الجسد الضعيف. وإذا بقي على قيد الحياة سيتعين عليه أن يواصل معركته الدينية ولكن الناس سيتعبون منها حينذاك. من جهة أخرى فإن نضاله سيحتفظ، من خلال موته، بقوته، وانتصاره، كما يعتقد.

بعد الفحص أُرسل كيركغارد إلى مكاتب المستشفى الإدارية للتسجيل بوصفه مريضاً يدفع أجور علاجه. ومن هناك ذهب إلى القسم الطبي (أي) حيث كان رئيس الأطباء سيلغمان ماير ترير المهيمن منذ ثلاثين عاماً، ما زال هو المسؤول. وأُخذ المريض إلى غرفة خاصة في أحد الأجنحة الواقعة في المبنى الأمامي. وكانت في المستشفى أربع عشرة غرفة خاصة كهذه كانت، بخلاف الردهات العمومية، مجهزة تجهيزاً لطيفاً، ببطانيات ناعمة جيدة، وسرير، وخزانة ملابس، ومرآة، وكراسٍ، ومناضد، وكذلك خزانة ركنية تُحفظ فيها صحون خزفية وأدوات مائدة فاخرة. وعلى الجانب الذي يواجه بريدغاده كانت هناك نوافذ مضادة للعواصف تخفف من قوة أشد الرياح العاتية والأصوات العالية. وكانت تُقدَّم إلى كيركغارد خدمة أفضل الوجبات النصفية، التي لم

تكن نصف خدمة في أفضل الوجبات الكمية وإنما النوعية، ولا يستطيع أحد التمتع بها إلا بناء على طلب خاص وبسعر. وفي كل يوم من أيام الأسبوع، كان الغداء 32 غراماً من الخبز الأبيض و8 غرامات من الزبدة ونصف ديسيلتر من الحليب. وكان لدى كيركغارد، مثله مثل سائر المرضى الآخرين، ميزان طعام صغير ليتمكن من التدقيق والتأكد من إن العاملين في المستشفى لم يسرقوا شيئاً من طعامه في الأروقة.

كانت غرفة كيركغارد الخاصة تقع في الطابق الثاني – طابقه الرئيسي المفضل – والحمد لله. ولكن من الجائز بالتأكيد إنه كان يتمنى لو كان الرواق الذي توجد فيه غرفته باسم آخر لأن اسم الرواق – من بين كل الأسماء الأخرى – كان رواق مينستر! ففي اللحظات الأخيرة بدا إن مفارقة العالم تريد أن تلعب حيلة على كيركغارد، بل وحيلة فظيعة، لأن الغرفة التي أدخلوا فيها الرجل المنكسر كانت رقم 5، وفي يومها، قبل نحو ثلاثة أرباع القرن، كانت غرفة أطفال لابني زوجة رئيس الأطباء، أولي هيرونيموس وياكوب بيتر مينستر. وهنا خطط الشقيقان مستقبلهما المشرق.

وهنا سيمضي كيركغارد الواحد وأربعين يوماً الأخيرة من حياته.

الخميس، 4 تشرين الأول/ أكتوبر. ازداد ضعف الساقين. وعندما كان المريض يُسنَد كان بالتأكيد يستطيع أن يحرك ساقيه بدرجة معقولة ولكنه لم يتمكن من وضع قدميه على الأرض بصورة صحيحة بل كانت قدماه تهويان، على الكاحل أوّلاً، وعندما يجلس في السرير كان يتأرجح إلى حد ما قبل أن يستقر أخيراً على جنبه الأيسر، حيث كان الألم. وعندما يستلقي كان يستطيع أن يسحب ساقيه قليلاً تحته لكنه لم يتمكن من رفعهما. فُحص صدره ولكن لم يُعثر على شيء غير اعتيادي. كما فُحص عموده الفقري وهنا أيضاً لم يكن هناك شيء غير طبيعي. نام كيركغارد نوماً مضطرباً بفظاعة ليلة الخميس، 4 تشرين الأول/ أكتوبر على الجمعة، 5 تشرين الأول/ أكتوبر، يسعل في أحيان كثيرة بعض الإفرازات. كما أُصيب بإسهال ولذلك وُصفت له مادة قابضة باعتدال مستخلصة من جذمور زهرة الأوركيد أو infusion saleprod باللاتينية. وأمضى كيركغارد الشطر الأعظم من ليلته دون أن يتبول، وسجلت يوميات المستشفى: كان عليه أن يتبول كثيراً اليوم ربما بسبب نفوره المذكور سابقاً من التبول بحضور

آخرين (الممرضة المناوبة)، وهو يفكر في ذلك طول الوقت تقريباً بل إنه حتى يعتقد أنّ مشكلته كان لها تـأثير سائد في حياته جعله غريب الأطوار. كما لوحظ إن كيركغارد استخدم valeriane officinalis وهو مستخلَص جذر حشيشة الهر له صفات مهدئة. ولـم يُذكَر متى أو كم مرة كان عليه أن يستخدمه ولكن أولوف لوندت بانغ في عمله دليل العلاج أدرج هذه المادة بوصفها دواء ضد الصرع.

لـم يكن كثيرون يعرفون إن كيركغارد أُدخل المستشفى. واستمر أشخاص في الكتابة عنه كأنه سيأتي مقتحماً الباب في أي لحظة، ولكن في 6 تشرين الأول/ أكتوبر كتب كارستن هاوخ إلى إنغمان عن لعنتهم المشتركة: في الآونة الأخيرة يُقال إن سورين كيركغارد تعرض إلى نوبة صرع، الموت هو نتيجتها المرجحة. والمرض الأرجح إن الجهد العصبي ونوعاً من التهيج التشنجي قاما بدور كبير في نشاطاته المريرة والسلبية، التي كشف خلالها للعالم أجمع عن وجهه مطبوعاً بكره البشرية. وفي المناسبة نفسها قال هاوخ في وصف كيركغارد إنه روح حادة لكنها باردة كالجليد، كلماته حادة مثل قطع الجليد المتدلية، بل إن كيركغارد كان نبياً كاذباً من المؤكد أنه يقدِّم لنا عطايا كبيرة ولكن بقلب من الخواء حتى إنه يقول بصراحة إن لا فرق عنده إن كان العالم مسيحياً أو لم يكن، وفي هذه الأثناء كلها هو نفسه يذيع بصوت عالٍ إنه بهذا القدر أو ذاك الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يرى ما هي المسيحية الحق، معلناً بصراحة إن الله يكره البشرية.

خلال الأسبوع التالي تدهورت حالة كيركغارد. وتراجعت أكثر قدرتُه على إسناد نفسه على ساقيه، وأصبحت ساقة اليسرى مشلولة بصورة متزايدة. بالإضافة إلى ذلك كانت هناك الآن آلام في الظهر عولجت بدعك ظهر المريض بزيت التربنتين. والآن وُصفت له عصارة جذر حشيشة الهر التي لها صفات مهدئة حتى أقوى من مستخلص جذر حشيشة الهر الذي أُستخدم سابقاً. خمس وعشرون قطرة أربع مرات في اليوم. وكان نصف القارورة من بيرة ميونيخ التي وُصف له أيضاً ذات مفعول طبي أقل إلى حد ما، ولكن في اليوم التالي تحديداً رفض كيركغارد تناولها بسبب معتقداته الدينية، على حد تعبير يوميات المستشفى. وبدلاً من البيرة أُعطي شاياً خاصاً قوامه مزيج من النفل وزهور البابونج وزهور العطاس. وكان المفترض أن يشرب كوباً منه كل صباح وكل مساء، ولكن بسبب التبول اللا إرادي حين يسعل، سرعان ما أُوقف هذا الشاي. وكتب الطبيب يوم الجمعة، 12 تشرين الأول/ أكتوبر إنه ما زال يدَّعي اقترابه من الموت. وكان هانز

كريستيان أندرسن أطلع هنريته فولف على الوضع قبل يومين قائلاً: إن كيركغارد مريض جداً. ويقولون إن الجزء الأسفل من جسمه كله مشلول، ويجب أن يكون في المستشفى. وكتب لاهوتي اسمه تورا قصيدة فظة ضده.

إميل بويسن أيضاً سمع بنقل كيركغارد إلى المستشفى، وسافر من هورسينس إلى كوبنهاغن. وفي يوم الأحد، 14 تشرين الأول/ أكتوبر، عاد كيركغارد لأول مرة. وبعد عشر سنوات، سينتج بويسن، بطلب من أتش. بي. بارفود H. P. Barfod، أول محرر لـــــ أوراق كيركغارد بعد موته، سرداً لهذه لزيارات. وروى بويسن لزوجته لويز في هورسينس الأثر البالغ الذي تركته في نفسه رؤية كيركغارد مرة أخرى، وتطرق أيضاً إلى الحقيقة الغريبة المتمثلة في إني، أنا الذي كنتُ المؤتَمن على أسراره سنوات عديدة ثم فُصلت عنه، جئتُ الآن إلى هنا لأكون تقريباً قس اعترافه.

كيف الحال؟

سيئة. إنه الموت. ابتهلْ لي أن يأتي سريعاً وسهلاً. أنا مكتئب. عندي شوكتي المغروزة في لحمي، كما كانت للقديس بولس شوكته، وبالتالي لم أكن قادراً على الدخول في علاقات طبيعية. ولهذا السبب خلصتُ إلى أن مهمتي هي أن أكون استثنائياً، فسعيتُ إلى تنفيذها بكل ما في استطاعتي. كنتُ لعبة بيد الحاكمية الإلهية، التي سبكتني في لعبة، وكان يجب أن أُستخدم... وهذا كان أيضاً الخلل في علاقتي بريجينة. ظننتُ إنها يمكن أن تُغيِّر ولكن ذلك لم يكن ممكناً فقطعتُ العلاقة... كان من الصواب أن تتزوج شليغل. كان ذلك هو التفاهم الأول، ثم دخلتُ أنا على الخط وخلخلتُ الأمور. إنها عانت الكثير بسببي. (وتحدث عنها بمحبة وحزن). كنتُ أخشى أن يتعين عليها أن تصبح مربية. ولكنها لم تصبح مربية بيد إنها الآن حاكمة جزر الهند الصينية.

هل كنتَ غاضباً وحاقداً؟

كلا، ولكن حزين، وقلق، وساخط إلى أقصى الحدود، على شقيقي بيتر مثلاً. لم أستقبله حين أتى آخر مرة لزيارتي بعد كلمته في روسكليدة. هو يعتقد أنّه بوصفه الأخ الأكبر يجب أن تكون له الأولوية. كان يقوم بدور المعلِّم حين كنتُ أنا لا أزال أُضرَب بالعصا – كتبتُ قطعة ضده، قاسية جداً، مركونة في المنضدة في البيت.

هل اتخذتَ أي قرارات بشأن أوراقك؟

كلا. سيتعين أن يكون ذلك كما قد يكون. الأمر يعتمد على العناية الإلهية، التي أَخضع لها. ولكن بالإضافة إلى هذا، أنا مدمَّر مالياً، والآن لا أملك شيئاً، فقط ما يكفي لدفع تكاليف جنازتي.

في يوم الأحد ذاك نفسه عاد كيركغارد زوجُ أُخته يوهان كريستيان لوند الذي اصطحب معه ابنته صوفي وكذلك ابن أخيه البالغ من العمر خمسة عشر عاماً ترويلس فريدريك لوند. وتذكَّر ترويلس كيف كان الرجل المريض، الشاحب والنحيف، يجلس منحنياً بالكامل على كرسي عالٍ ذي ذراعين، وحيَّاه بابتسامة منهَكة لكنها ودية. وكان الزوار متوترين بعض الشيء لأن هواء المستشفى البارد المَرَضي نشَّط وسواس يوهان كريستيان لوند المَرضي القوي. وعندما سأل كيركغارد كيف يشعر وممَّ يشكو في الحقيقة، تلقى رداً مقتضباً: إن الأمور كما تراها. أنا نفسي لا أعرف أكثر. فوجد يوهان كريستيان لوند هذه الكلمات، بكل ما فيها من بساطة، غير وافية وتهديدية، وكاد أن يفقد رشده: كلا! اسمع. ألستَ تعرف يا سورين؟ والله المعين أنتَ لا تشكو من علَّة سوى عادتك القديمة واللامعقولة في ترك ظهرك يتحدب. فالوضعية التي تجلس بها ستجعل أي شخص مريضاً بطبيعة الحال. إجعل ظهرك مستقيماً وقف، وسيختفي المرض! أستطيع أن أقول لك ذلك! وأحس يوهان كريستيان لوند نفسه إن رد فعله المتفجر تقريباً لم يفعل سوى إنه أضاف إلى الإصابة إهانة، فالتزم جانب الصمت. صوفي طأطأت رأسها ناظرة إلى الأرض فيما استرق ترويلس النظر إلى كيركغارد والتقت نظراتهما للحظة خاطفة: من خلال الحزن التمعت نظرة من التسامح الرقيق، مقترنة بالبريق العابث الاستفزازي لميل هدام إلى الضحك، وإحساس بالتسلية - كان هذا آسراً على الفور، ونظرنا إلى أحدنا الآخر في مؤامرة سعيدة... وسَرَت هذه النبرة بطريقة ما في سلسلة المشاعر بأكملها، من قهقهة تلميذ متألقة إلى لمحة ثاقبة، كلها مغفرة... كان ذلك كما لو إن كل تعبير شُفط من حركاته الجسدية بل حتى من ملامح وجهه، وتركَّز بمزيد من القوة في عينيه وحدهما. وتلألأت عيناه بعاطفة متقدة تركت تأثيراً بالغاً... وبصفتي الأصغر سناً كنتُ آخر مَنْ مدَّ يده، ونظرتُ في عينيه العجيبتين مرة أخرى، وقلتُ بخجل وانفعال، «الوداع والشفاء العاجل»!

الثلاثاء، 16 تشرين الأول/ أكتوبر. كان التبول ما زال لا إرادياً وفي أحيان كثيرة جداً. وكان كيركغارد يعاني الآن من الإمساك منذ ثلاثة أيام. وجُرِّب زيت الخروع عدداً من المرات، ولكن وصفت له الآن حقنة شرجية بسائل صابوني مليِّن clysma sebum. وأدت الحقنة مفعولها. في الليل كانت إحدى الممرضات المناوبات تجلس في غرفته. وكان اسم رئيسة الممرضات المناوبات إيليا فيبيغر التي كانت تتحدث معه بانتظام معبرة عن تحمسها لعمله من أجل معاينة الذات. وضعت فيبيغر زهوراً في غرفة كيركغارد لكنه لم يرغب بوضعها في الماء وحفظها في خزانته. وكشف لبويسن الذي فهم المعنى الرمزي على ما يُفترض إن مصير الزهور أن تتفتح وتعطي شذاها ثم تموت. وقال كيركغارد فيما بعد لبويسن إنها في الليل تكون المشرِفة [على المستشفى] وفي النهار تشرف عليَّ أنا، مضيفاً بنبرة خافتة إن الممرضة المناوبة قالت له في السر: الأكثر من ذلك، إنها [رئيسة الممرضات فيبيغر] تبكي من أجلك.

الخميس، 18 تشرين الأول/ أكتوبر. كان كيركغارد ضعيفاً جداً. كان رأسه يتدلى على صدره، ويداه ترتعشان. غفا قليلاً، ولكن سعاله أيقظه من غفوته. عاده بويسن وسأله إن كان لم يزل قادراً على استجماع أفكاره. فأجاب كيركغارد إن الأمر على ما يُرام في غالب الأحيان ولو إنه قد يكون صعباً بعض الشيء أثناء الليل. وهل يستطيع الابتهال إلى الله بسلام؟ نعم، أستطيع أن أفعل ذلك. فأُصلي أولاً طالباً المغفرة عن الخطايا، عسى أن يُغفر كل شيء، ثم أُصلي أن أتحرر من اليأس وقت موتي... ثم أُصلي من أجل شيء أُريده بقوة، وهو أن أكون واعياً قبل مجيء الموت بقليل. في ذلك الخميس كان الطقس خريفياً صحواً رائقاً، ولم يستطع بويسن أن يمنع نفسه من اقتراح الخروج للمشي معاً كما كانا يفعلان في الأيام الخوالي. وافق كيركغارد على الفكرة، ولكن هذا كان كل ما حدث: نعم، هناك مشكلة واحدة. فأنا غير قادر على المشي. ولكن هناك وسيلة نقل أخرى. فأنا يُمكن أن أُرفع. وانتابني شعور بأن أصبح ملاكاً، أن تكون لي أجنحة، وهذا بالطبع ما يجب أن يحدث: أن أركب سحابة وأنشد هللويا، الحمد لله، هللويا الحمد لله، هللويا الحمد لله. أي مغفل يستطيع أن يقول ذلك، ولكن الأمر يعتمد على الطريقة التي يُقال بها.

وكل هذا بالطبع لأنك تؤمن بالمسيح وتلوذ به باسم الله؟

نعم، طبعاً، وماذا غير ذلك؟

ثم أراد بويسن أن يعرف إن كان كيركغارد يرغب في تغيير أي شيء في تصريحاته الأخيرة التي بالطبع لم تكن مطابقة للواقع لكنها كانت إجمالاً ضيقة للغاية.

هل تعتقد أنّ عليَّ أن أُخفف، بالكلام أولاً لتوعية الناس، ثم تهدئتهم؟ لماذا تريد أن تزعجني بذلك!... ليس لديك فكرة أي نوع من النبتة السامة كان مينستر. ليس لديك فكرة عن ذلك. مذهل كيف نشرَتْ فسادها. كان عملاقاً. وكان المطلوب قدر كبير من القوة لإطاحته، والشخص الذي فعل ذلك أيضاً كان عليه أن يدفع ثمناً عن ذلك. عندما يطارد صياديون خنزيراً برياً يختارون كلباً معيناً ويعرفون جيداً ما سيحدث: سيُحاصَر الخنزير البري، ولكن الكلب الذي يقتنصه سيدفع ثمن ذلك. إنه سيموت بسرور. وحينذاك سأكون متأكداً من إني أنجزتُ المهمة. كثيراً ما يفضل الناس أن يسمعوا من شخص ميت وليس من أحد حي.

عندما سأل بويسن إن كان لدى كيركغارد أي شيء آخر يريده أن يُقال نيابة عنه أجاب كيركغارد:

كلا. نعم، انقل تحياتي إلى الجميع - أحببتهم كلهم كثيراً جداً - وقل لهم إن حياتي معاناة كبرى، مجهولة ولا يمكن أن تُفسَّر للآخرين. كل شيء كان يبدو كبرياء وغروراً، ولكنه لم يكن كذلك. فأنا قطعاً لستُ أفضل من الآخرين، وقلتُ ذلك ولم أقل خلافه قط.

الجمعة، 19 تشرين الأول/ أكتوبر. أبلغ زوار من كوبنهاغن بيتر كريستيان إن شقيقه الأصغر مريض، وإنه انهار بين 27 و29 [أيلول/ سبتمبر]. وفي رسالة بتاريخ 7 تشرين الأول/ أكتوبر شرح مايكل لوند، ابن أُخت بيتر كريستيان، وهو طبيب شاب أنهى تطبيقه العملي في مستشفى فريدريك قبل سنوات قليلة، الوضع لخاله، مضيفاً إن المرض على الأرجح عدوى في الحبل الشوكي، مع شلل الساقين. وبعد أيام كتب والد مايكل، التاجر يوهان كريستيان لوند، إن حالة سورين آبي هي في أحسن الأحوال ما بين بين. وكان يوهان كريستيان، مثله مثل نجليه الطبيبين هنريك ومايكل، اللذين كانا يعودان خالهما كل يوم، غير متفائل على الإطلاق بشأن كيركغارد، لأن حالته ضعيفة تماماً. وهو نفسه لم يَرَ سورين

آبي منذ يوم الأحد السابق، وحاول أن يزوره منذ ذلك الحين ولكن المُعينة منعته مكتفية بالقول إن الماجستير يشعر باعتلال شديد ولا يريد أي زوار. ولكن بيتر كريستيان لوند سيعود كيركغارد في المستشفى مرة أخرى وختم رسالته إلى بيتر كريستيان بهذه الكلمات: إذا أردتَ أن تذهب هناك بنفسك أخشى إن من الأفضل ألا تتردد طويلاً.

وإزاء التحدي الذي واجهه بيتر كريستيان على هذا النحو فإنه سافر إلى كوبنهاغن من بيدرسبورغ ولكن عندما وصل إلى مستشفى فريدريك يوم الجمعة، 19 تشرين الأول/ أكتوبر، مُنع من الدخول. فإن شقيقه المحتضر كان لا يريد رؤيته. وكما أوضح سورين آبي لبويسن لاحقاً في ذلك اليوم نفسه فإن بيتر كريستيان يمكن إيقافه لا بالنقاش وإنما بالعمل. هذه الواقعة جعلت بويسن قلقاً.

ألن تأخذ سر التناول؟

نعم، ولكن ليس من قس وإنما من شخص اعتيادي.

سيكون ترتيب ذلك في غاية الصعوبة.

إذاً، سأموت من دونه.

هذا ليس صحيحاً.

لا نستطيع مناقشة الأمر. فأنا حسمت خياري، واخترت. القساوسة موظفون في الدولة، وموظفو الدولة لا يمتون بصلة إلى المسيحية.

لكن هذا ليس صحيحاً بطبيعة الحال. إنه ليس مطابقاً للحقيقة والواقع.

نعم، أو لا ترى، إن الله هو الملك القدوس، ثم هناك كل هؤلاء الأشخاص الذين يريدون ترتيب الأمور على نحو مريح لأنفسهم. فيرتِّبون المسيحية للجميع، وهناك آلاف القساوسة، بحيث لا أحد في البلد يستطيع أن يموت موتاً مباركاً دون أن ينتمي إليها. ثم يكونون أصحاب المُلك، ومُلك الله ينتهي. ولكنه يجب أن يُطاع في كل شيء.

ما أن قيلت هذه الكلمات حتى أخذ النعاس يغلب كيركغارد وأصبح صوته ضعيفاً. وفي الطريق إلى البيت من المستشفى أصبح بويسن شديد القلق لأن كيركغارد أراد أن يأخذ التناول من شخص اعتيادي ثم كل شيء سينقلب عاليه سافله - وفي هذه الحالة، كما علّل بويسن، فإن الشخص الاعتيادي سيكون بالطبع مسيحياً صالحاً لأنه ليس قساً.

السبت، 20 تشرين الأول/ أكتوبر. حالة كيركغارد لم تتغير. أُعطي folia sennae أو أوراق السنا التي لها مفعول مليِّن. وكانت مفيدة. واعتقد كيركغارد نفسه إن مفعولها يُعزا إلى أنه كان يأكل خبز الجاودار. وعندما وصل بويسن كانت ممرضان تتوليان نقل المريض، الضعيف تماماً الآن، من كرسي إلى آخر. وسقط رأس كيركغارد إلى الأمام على صدره، وقال إن مرضه يقترب من صراع الموت الحقيقي. وطلب من بويسن أن يمسك رأسه، ثم وقف بويسن ماسكاً رأسه بين يديه. وحينذاك قام بويسن بحركة كأنه يهم بالمغاردة واعداً بأن يعود في اليوم التالي. فأجاب:

نعم، افعل ذلك، ولكن لا أحد يعلم، وينبغي مع ذلك أن نودع أحدنا الآخر الآن في هذه اللحظة.

الله يبارك فيك، وأشكرك على كل شيء.

الوداع. شكراً. سامحني عن زجك في مصاعب كنتَ ستوفرها على نفسك.

الوداع. الآن استرح بسلام الله إلى أن يدعوك ربنا. الوداع!

الأحد، 21 تشرين الأول/ أكتوبر. ما أن تمكن بويسن من دخول الغرفة حتى أبلغه كيركغارد إن هذا ليس وقتاً مناسباً، رغم إنه ذكر اسمي تورا ومارتنسن. وفي اليوم التالي، الإثنين، كانت الزيارة قصيرة أيضاً. ولاحظ بويسن إن كيركغارد ينبغي أن تكون لديه غرفة تطل على منظر أفضل ليتمكن من رؤية الحدائق في الخارج، ولكن كيركغارد رفض الاقتراح: ما جدوى أن تخدع نفسك هكذا؟ الأمور مختلفة الآن. إنها الآن عذاب الذات. وفكرة من هذا النوع عذاب الآن. كلا، حين يكون على المرء أن يعاني، يجب أن يعاني.

في ذلك اليوم نفسه زار بويسن القس إي. في. كولتهوف، الذي كان ذات يوم قس كيركغارد، وهو الآن زميل مارتنسن. وبعد سنوات ستكون هناك حوادث إضافية تضع علاقة بويسن بمارتنسن في إطار مبهَم إلى حد ما. وفي عام 1869 عندما أصبح بويسن رئيس الشمامسة في آرهوس كتب الآتي إلى أتش. بي. بارفود الذي كان وقتذاك يعمل على إعداد أوراق كيركغارد بعد وفاته للنشر: إذا وجدتَ هجمات على مارتنسن في أوراق أس. كي. أعتقد أنّ مارتنسن سيأسف لرؤيتها منشورة، وبالطبع أياً يكن ما أراد أس. كي. نفسه أن يقوله علناً لمهاجمته فإنه منشور أصلاً. هل كانت زيارة بويسن لبارفود محاولة تهدف إلى إجراء

مصالحة بين مارتنسن المجروح وكيركغارد المحتضر؟ هل حاول بويسن، كما نستشف من القراءة بين السطور، أن يحث كيركغارد على تغيير آرائه؟

في كل الأحوال، كان ذلك سيكون بعد فوات الأوان. فإن كيركغارد كان يشعر بالضعف أكثر فأكثر وكان يذوي بشكل مرئي على فراشه. كان يشعر بألم في وركه، وكانت إحدى ساقيه مقلوبة على الجانب الآخر. كان نبضه 100، وكان يتبول لا إرادياً، ولا سيّما خلال الليل. واستمر سعاله في إزعاجه، ولاحظت يوميات المستشفى: كان البلغم يتألف من جلطات صديدية بعضها ممزوج تماماً بدم أحمر خفيف. وفي يوم الثلاثاء، 23 تشرين الأول/ أكتوبر، عاده بويسن مرة أخرى لكنهما لم يتكلما إلا لفترة وجيزة عن زهور مس فيبيغر قبل أن يشعر كيركغارد بأن حالته ساءت تماماً. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم نفسه عاد كيركغارد زوج أخته هنريك فرديناند لوند. وكان أن سمع إن بيتر كريستيان أُعيد من حيث أتى، فأراد أن يحاول التوسط للتخفيف من حدة الوضع بعض الشيء. لذلك سأل إن كان يُسمح له بنقل تحية ودية وأخوية إلى بيتر كريستيان. لم يكن لدى المريض اعتراض على ذلك طالما إن مثل هذه التحية لا تُربط بـــــ النزاع الأدبي بين الشقيقين. وفي يوم الأربعاء، 24 تشرين الأول/ أكتوبر، أرسل ابن الأُخت ذو الخمسة وعشرين عاماً كارل لوند، الذي وضعه كيركغارد ذات مرة في حضنه وحدَّثه عن شقته الجديدة، تقريراً مؤلماً عن زيارته لخاله، الذي تغير الآن بدرجة كبيرة: كان يجلس على كرسي ذي ذراعين متلفعاً برداء لكنه كان منحنياً، رأسه يتدلى إلى الأمام، وكان غير قادر بالمرة على مساعدة نفسه. كانت يداه ترتعشان كثيراً، وكان أحياناً يسعل. كنتُ معه بعض الوقت، وشكا بصفة خاصة من ضعفه ومن حقيقة إنه لا يستطيع النوم في الليل... غادرته وأنا أُفكر إن أيامه الباقية معدودة هنا على هذه الأرض.

الخميس، 25 تشرين الأول/ أكتوبر. أُعطيت لكيركغارد حقنة شرجية بماء صابوني، أسفرت عن نتائج طيبة. واعتقد هو نفسه إن مفعولها يُعزا إلى تناوله حبتين من الكمثرى. وفي نحو ساعة الظهيرة مرَّ بويسن. وشكا كيركغارد من إن يديه ترتعشان وإن الارتعاش امتد الآن إلى جسده. وجلب بويسن معه نسخة من موعظة توديعية كتبها فرديناند فينغر، أحد أنصار غروندتفيغ، ولكن كيركغارد ألقى عليها نظرة عابرة وطلب من بويسن أن يعيدها. وامتعض بويسن قليلاً من ذلك لأن الموعظة كانت تعبيراً عن حسن النية من جانب فينغر، ولا

يمكن أن تُعاد ببساطة. وفجأ شعر بويسن مدفوعاً إلى قول بضع كلمات دفاعاً عن غروندتفيغيين هاجمهم كيركغارد. واعترض بويسن قائلاً إن من الجائز، بالطبع، أن يكون هناك طريق للخلاص يمر بالكنيسة الرسمية فرد كيركغارد مكتفياً بالقول أنا لا أُطيق الحديث عن ذلك. فالإجهاد أكثر مما أتحمله. فعمد بويسن إلى تغيير الموضوع.

هل كان الهواء فاسداً في غرفة النوم [في شقته] التي كانت عندك سابقاً؟

نعم، وأنزعجُ جداً حين أُفكر في الأمر. أنا لاحظتُ ذلك بكل تأكيد.

إذاً، لماذا لم تنتقل؟

كنتُ واقعاً تحت ضغط شديد لا يتيح لي ذلك. كان لم يزل عندي عدة أعداد من اللحظة عليَّ إصدارها وبضع مئات من الريكسدولارات الباقية لاستخدامها من أجل هذا الغرض. وعليه كنتُ أستطيع أن أُنحي الأمر جانباً ولا أُجشم نفسي أو أستطيع الاستمرار ثم أسقط. اخترتُ البديل الأخير مصيباً ثم انتهى أمري.

إذاً، أنت أصدرت أعداد اللحظة التي أردتَ إصدارها؟

نعم!

كم هو غريب إن كثيراً من الأمور في حياتك كانت كافية فقط!

نعم، وأنا سعيد جداً بذلك، وحزين جداً، لأني لا أستطيع أن أُشارك أحداً فرحي.

الجمعة، 26 تشرين الأول/ أكتوبر. حين عاده بويسن في اليوم التالي أبقى كيركغارد الممرضتين في الغرفة معه. ولم يتحدثا إلا عن أمور غير مهمة حتى إن بويسن لم يكلف نفسه كتابتها. وتكرر هذا المشهد في اليوم التالي. شعر كيركغارد إنه مُثقَل. وكانت الشوارع في الخارج مزدحمة أكثر من المعتاد، وضجيج الحياة وجد طريقه إلى داخل المستشفى الذي كان، لولا ذلك، على درجة كبيرة من الهدوء. وقال كيركغارد، نعم، هذا ما كان يوافقني إلى حد بعيد. وبعد وقت على ذلك – لا نعرف متى على وجه الدقة – رآه بويسن للمرة الأخيرة. كان كيركغارد غير قادر تقريباً على الكلام، ولم يكتب بويسن أي ملاحظات. وبعد فترة قصيرة عاد إلى زوجته وابنه الصغير في هورسينس حيث كانت عنده وظيفة رعوية تتطلب مَنْ يقوم بها.

1 – 11 تشرين الثاني/ نوفمبر. خلال الأسبوع الأول من تشرين الثاني/

نوفمبر بُذل عدد من المحاولات، بعد هبوط الليل بقليل، لكهربة أطراف كيركغارد السفلى. وكانت تأثيرات ذلك في المريض الذي هو الآن في حالة انهيار تام، طفيفة جداً. إذ ارتعشت الساقان قليلاً ولكن كيركغارد نفسه لم يلحظ ذلك عملياً. وبقيت حالته العامة بلا تغيير. واستمر كيركغارد في السعال. وكان يتبول لا إرادياً وتعين إعطاؤه حقناً شرجية بصورة منتظمة. من جهة أخرى لم تضعف قدرات المريض الفكرية. ولعل هذا هو السبب في الاستعاضة عن الجرعة اليومية البالغة مئة قطرة من نبات الناردين بدواء infusum tonico nervina، وهو مهدئ قوي ومخفف للقلق. وكان كيركغارد يُعطى خمسين غراماً في اليوم.

خلال الأسبوع الأخير كان ممداً دون أن يقول كلمة واحدة. وشُخصت عنده تقرحات سريرية من جراء بقائه في الفراش بلا حركة. فأُعطي ضمادات وكانت شراشف فراشه تُغيَّر كل يوم. واستمر العلاج الكهربائي مع تحسن طفيف في مفعوله على ساقيه. وكانت أوراق السنا ذات مفعول في تخفيف إمساكه. ولكن شهيته ظلت جيدة. وفي يوم الجمعة، 9 تشرين الثاني/ نوفمبر، تسجل اليوميات الطبية إن كيركغارد دخل في شبه غيبوبة. لم يتكلم ولم يأكل أو يشرب أي شيء. وكان البول والغائط يخرجان لا إرادياً. وبقيت التقرحات السريرية ولكنها بدت أنظف. وارتفع النبض إلى 130 وكان غير منتَظِم. وبدا على وجهه قدر من الانحراف لأن الركن الأيسر من الفم كان مسحوباً إلى الأعلى قليلاً. وفي اليوم التالي تبعه الجانب الأيمن من الفم، وكان المريض مصاباً الآن بنصف شلل وجهي أجبره على الابتسام ابتسامة متشنجة أمامية كأنه صاحب مفارقة مرعوب. وتقدم المرض الآن إلى الجزء العلوي من جذع الدماغ، ولم يعد كيركغارد قادراً على التواصل مع العالم الخارجي. وإذا رُفعت ذراعاه وتُركتا فإنهما تسقطان متهاويتين. وكان كيركغارد ما زال قادراً على أن يرمش عينيه، وكان يتنفس بسرعة وبلا صوت. وفَقَدَ القدرة على السعال، وكان النبض والتنفس المتسارعان علائم حمى أيضاً، ربما بسبب مرض ذات الرئة المزدوج نتيجة تراكم الإفرازات في رئتيه. وكان لم يزل واعياً ولكنه مشلول تماماً. وزار يوهان كريستيان لوند المستشفى في 9 تشرين الثاني/ نوفمبر، وفي اليوم التالي كتب إلى بيتر كريستيان إن الأمر لن يطول: رأيته يوم أمس، وللأسف يجب أن أُؤكد تشخيص الممرضة المنحوس. كما وجه لوند رسالة صريحة تماماً: إزاء

هذا الوضع يجب، تحسباً، ألا أهمل الاستفسار عما إذا كان لديك سند مُلكية الأرض التي يوجد فيها مدفن العائلة، أو إذا كنتَ أنتَ تعرف أين هي.

يوم الأحد، 11 تشرين الثاني/ نوفمبر كان آخر يوم في حياة كيركغارد. وكان الآن ممداً في غياب تام عن الوعي، في حالة غيبوبة. كان نبضه بطيئاً وتنفسه ثقيلاً وقصيراً. كان يختنق تدريجياً، تماماً مثل سقراط، عندما اقترب سم نبات الشوكران من قلبه. وجاء الموت في الساعة التاسعة مساء.

بعد اثنتي عشرة ساعة، عندما أشرقت شمس الشتاء الشاحبة، نُقل كيركغارد إلى مشرحة المستشفى.

بعد الوفاة

لاحظ كيركغارد خلال أحد أحاديثه مع بويسن في المستشفى إن الأطباء لا يفهمون مرضي، وهم الآن يريدون علاجه بالطريقة الطبية المعتادة. ولكنه لم يُعالج بالطريقة الطبية المعتادة تماماً: لم تُشرَّح جثته بعد الوفاة لأنه على ما يُفترض كان يعارض تقطيعه أشلاء. وامتعض عدد من طلبة كلية الطب من قرار كيركغارد، وكانوا يريدون أن يضعوا أيديهم على دماغه وتحدثوا بعاطفة متقدة باسم العلم، ولكن بلا جدوى. كما وجه آخرون اهتمامهم نحو هذا العضو الشاذ من جسمه. وبحسب ما كتب بيتر كريستيان تساله، لعل استخدام الدماغ إلى حد الإجهاد أتلف سحايا المخ متسبباً في شلل الجزء الأسفل من الجسم. وبعد يوم واحد فقط على وفاة كيركغارد، قال باولي لأحد أصدقائه، قيل إنه كان يعاني من رخاوة في الدماغ. هل كان هذا مسؤولاً عن كتاباته، أم إن كتاباته كانت مسؤولة عن ذلك؟

كان سؤال باولي يكاد أن يكون وجيهاً بقدر ما كان الدماغ لامعاً، ولكن بما إن جثة كيركغارد لم تُشرَّح فليست هناك بيانات باثولوجية تساعد في الإجابة عن هذا السؤال. وإن يوميات المستشفى عن كيركغارد مربوطة مع يومياته عن تسعة وستين مريضاً آخر غادروا الردهة أي بطريقة أو أخرى في تشرين الثاني/ نوفمبر 1855. ومما له دلالة رمزية إن يوميات كيركغارد هي آخر اليوميات في الكتاب. وتضمنت الصفحة الأولى من يوميات كيركغارد تشخيصاً أولياً مقترحاً للإصابة بـ الفالج ولكنه حُذف. فإن الفالج شلل يصيب نصف الجسم. وكان التشخيص النهائي هو الشلل – أي العجز التام عن الحركة – ولكن هذا وصف

لعَرَض وليس تشخيصاً سببياً حقيقياً. لذلك أضاف أحد ما بين قوسين تدرن رئوي؟

تشير علامة الاستفهام إلى أنهم كانوا يواجهون مرضاً لا يعرفونه. فهو كان يشبه التدرن الرئوي لكنه مع ذلك شيء آخر، وكان الكادر الطبي في قسم سيغمان ماير ترير أفضل مَنْ يعرف بأنه ليس مرض التدرن الرئوي. وفي عام 1855 كان لديهم ما لا يقل عن ثمانية وعشرين مريضاً بهذا الداء. والأكثر من ذلك إن ترير أنجز أول كتاب تدريسي دنماركي عن استخدام السماعة الطبية - مؤشرات للتعرف على أمراض الرئة والقلب - وبالتالي فإن من المستبعد أن تفلت إصابة نموذجية بالتدرن الرئوي دون أن تلفت الانتباه. كما لم يكن هناك أي شيء خلال المرض يقود إلى الاشتباه بمرض السفلس رغم إن بعض الروايات تحدثت عن سل العمود الفقري، الذي من الجائز أن يكون أحد أعراض السفلس. وطرحت أبحاث طبية حديثة الادعاء القائل إنها حالة مرض عصبي تصاعدي يُسمى الشلل النخاعي الصاعد أو التهاب جذور الأعصاب الصاعد الحاد أو متلازمة غيلن باري ذات الأسباب المجهولة، ولكن يبدو أنّ الآليات التحسسية تقوم بدور ما فيها.

كتب كيركغارد في عام 1846 وفي ساعة الجد ما الذي يعرفه الفيزيولوجي أو الطبيب إذاً؟ حسناً، في كل الأحوال إنهم لم يعرفوا ممَّ مات كيركغارد. وأن يكون مات في لهفة على الأبدية، كما تنبأ هو نفسه في عمله وجهة نظر فإن هذا بالطبع ليس تشخيصاً يمكن الدفاع عنه طبياً لكنه ليس أسوأ تفسير بأي حال.

جثة صغيرة بلا مكان تذهب إليه

طيلة حياة بيتر كريستيان كيركغارد كان عليه دائماً أن يراعي الأمور المرة تلو الأخرى وهكذا لم يكن هو بل صحيفتا فلايِفه بوستن وكيوبنهافنسبوستن هما اللتان أذاعتا نبأ وفاة شقيقه الأصغر بنشر كلمات نعي متحفظة، رقيقة بل تكاد تكون متسامحة للرجل الذي شن حرباً على الكنيسة. ولكن بعد ثلاثة أيام، في يوم الجمعة، 16 تشرين الثاني/ نوفمبر 1855، كان المرء يستطيع أن يقرأ الإعلان التالي في الملحق الصباحي لصحيفة برلينغسكة تيدندة: مساء الأحد، الحادي عشر من هذا الشهر، بعد صراع مع المرض استمر ستة أسابيع، رحل الدكتور سورين آبي كيركغارد عن هذا العالم الدنيوي عن عمر يناهز ثلاثة وأربعين

عاماً، بوفاة هادئة يعلنها هنا بأسى باسمه وبالأصالة عن العائلة، شقيقه / بي. كر. كيركغارد.

وخلال الأسبوع التالي أعقبت ذلك كلمات نعي كبيرة وصغيرة. ونشرت جريدة كيركغارد المفضلة فادريلانديت إشعاراً قصيراً جداً لكنه من جهة أخرى بلا أي نقد عن أعظم كاتب ديني في الدنمارك في حين إن صحيفة داغبلاديت الليبرالية الوطنية نشرت أجمل كلمة نعي قاطبة لم تغفل أن تقول شيئاً عن نواقص كيركغارد ونظرته الأحادية فحسب بل شددت على أهميته الحيوية للعصر والأجيال المقبلة. وكتبت الصحيفة إن كيركغارد سيتبوأ مكانة بارزة في التاريخ الدنماركي، وفي تاريخ الأدب، وفي تاريخ الكنيسة، حين أضافت اسمه إلى سلسلة الأسماء اللامعة التي فقدها البلد في السنوات الأخيرة: بيرتل تورفالدسن وهانز كريستيان أورستيد وآدم أوهلنشلاغر.

الأكثر من ذلك إن أصداء الحدث ترددت في أنحاء البلاد حيث لاقت اهتماماً واسعاً في العديد من صحف المدن الصغيرة. وسرعان ما انتشر الخبر إلى بلدان مجاورة حيث ظهر على أعمدة في صحيفة افتونبلاديت السويدية منذ 16 تشرين الثاني/ نوفمبر، وظهر في صحيفة كريستيانيا بوستن النرويجية في الأسبوع التالي. وكانت وفاة كيركغارد – واحتجاج ابن أُخته هنريك لوند فوق قبره – مادة مناسبة جداً لاستخدامها إيديولوجياً من جانب محرضين مختلفين: صحيفة مورغنبوستن لم تخف اعتقادها بأن من واجب كل مسيحي أن يعمل على قلب البناء [الكنسي] برمته، وبضمنه رجال الدين ذوو الامتيازات، وكلما كان ذلك أسرع كان أفضل. واغتنم أذكياء ينظمون الشعر مناسبة وفاته لكسب شيء من المال ببيع قطع شعرية ذات عناوين مثل مَنْ سيحذو حذو كيركغارد؟ – كلمة ليتوقف عندها مريدوه ورثاء ساعات سورين كيركغارد الأخيرة. وكان ريع هذه القصيدة سيذهب على ما يُفترض إلى زوجين فقيرين لديهما سبعة أطفال صغار، وكان المقطع الأول من مقاطعها الاثني عشر كالآتي:

مثل لاجئ، مشرد،
تخلى عنه الجميع،
أنهى أيامه،
بلا أي فرح،

حب غائب، أمل غائب
في هدفه المحدَّد مسبقاً
وكما أعتقد بكل تأكيد
بوجنتين تبللهما الدموع

ينبغي أن يعطي هذا فكرة عن نبرة القطعة الشعرية ومستواها، ولكن المقطع السابع تمكن مع ذلك، بطريقته الخاصة، من إيصال شيء حقيقي تماماً:

صحيح، شهيد حقاً
من أجل اللحظة التي مرت
من أجل صرخات الغوغاء الساخرة
كي يُسحق الجسد والروح
ولكن الحشد الهادر
هجر ضحيته
حتى قبل
أن يبرد جسده

في 15 تشرين الثاني/ نوفمبر ناقش غولدشمدت موت كيركغارد في مطبوعه الشمال والجنوب، كاتباً ضد الرأي القائل إن إصبع الله هو الذي أوقف كيركغارد في منتصف هجومه على الكنيسة. وذهب غولدشمدت إلى أنه كان بلا شك من أعظم المفكرين الذين أنجبتهم الدنمارك لكنه مات في أوانه لأن آخر نشاطاته بدأت تكسبه على وجه التحديد ذلك النوع من الشعبية الذي ما كان قط لينسجم مع شخصيته. وأخطر جزء من أعماله ضد رجال الدين والكنيسة الرسمية ما هو الآن إلا البداية لأن ما لا يُنكر هو إن ثمة شيئاً من الشهيد في مصيره.

كما كان متوقعاً، نظر غروندتفيغ إلى الأمر نظرة مختلفة تماماً. وألقى موعظة يوم دُفن كيركغارد متحدثاً بجذل عن النبأ السار بأن إحدى قطع الثلج المتدلية من سقف الكنيسة ذابت الآن وسقطت على الأرض. وفي رسالة إلى القس هولتن بعد ذلك بفترة قصيرة كتب غروندتفيغ عن خطيئة أس. كي. في الموت. فمن جهة صوَّر كيركغارد المسيحية الوحيدة الحق على أنها أكثر الأشياء لا إنسانية وأكثر الأشياء استحالة تحت الشمس للكائن البشري، وبهذه الطريقة ساعد كيركغارد على توكيد العالم غير المؤمن في عدم إيمانه. ومن الجهة الأخرى ندد كيركغارد بكل مؤمن يرفض أن ينبذ ربه واسمه كمسيحي بوصفه

كذاباً صلفاً ومنافقاً. وختم غروندتفيغ متعللاً بمنطق تثقيفي غريب بالقول أنا لا أستغرب إنه فوجئ بالموت لأنه طالما إن ضد - المسيح لم يأتِ بعد فإن الذين يعبثون بتحفة [الله] الفنية سيكونون دائماً منكوبين، وبسرعة تماماً مثل المخلّصين المزيفين.

كان كيركغارد خلال السنوات الأخيرة مقيماً في أبرشية كنيسة سيدتنا. ولذلك شعرت عائلته، التي ارتبطت سنوات طويلة بمنيستر، إن من الطبيعي أن يجري تشييع الجنازة في كنيسة سيدتنا. وفي 15 تشرين الثاني/ نوفمبر عُقد مجلس عائلي في منزل هنريك فرديناند لوند حيث ناقشوا المشكلات العملية ذات الصلة بالتشييع وحاولوا إيجاد مخرج من المأزق الذي كان يدركه كل من الجالسين حول الطاولة البيضاوية وهو: إذا أُجري التشييع بأهدأ الطرق الممكنة وأكثرها خصوصية فإن ذلك سيكون إهانة غير مباشرة للمتوفى بالظهور كما لو إنهم يحكمون عليه بالنسيان التاريخي في حين إذا سُمح للتشييع أن يجري بالطريقة المتعارف عليها فإن ذلك قد يُعد استفزازاً. فماذا بحق السماء ينبغي أن يفعلوه بهذه الجثة الضئيلة؟ أخيراً، تمالك بيتر كريستيان نفسه وقرر أن يجري تشييع الجنازة يوم الأحد، 18 تشرين الثاني/ نوفمبر، في الساعة 12: 30 بعد الظهر. وسيلقي كلمة رثاء بنفسه وأراد أن يكون كل شيء طبيعياً قدر الإمكان.

بدأ الناس يتوافدون على الكنيسة في ساعة مبكرة تماماً من الصباح. وبحسب صحيفة برلينغسكة تيدندة فإن كثيرين كانوا هناك، بالتأكيد بقدر ما تتسع له الكنيسة، وتحدثت صحيفة فادريلاندديت عن آلاف امتلأت بهم كل بقعة من كنيسة سيدتنا في حين لاحظت صحيفة مورغنبوستن برصانة إن الكنيسة كانت مكتظة. وكان الصفان الأولان من المقاعد محجوزين لأفراد العائلة. وجلس وراءهم مباشرة راسموس نيلسن الذي في تسرعه تمكن من غلق الباب الصغير المؤدي إلى قاعة المصطبات الخشبية بقوة حتى إنه أُغلق ولم يعد من الممكن فتحه، على نحو رمزي بعض الشيء. وكان هانز كريستيان أندرسن هناك أيضاً، وفي رسالة كتبها أندرسن لاحقاً إلى أوغست بورنونفيل، الذي كان في فيينا، روى إن المشهد في الكنيسة كان فوضى ولا يليق على الإطلاق بمراسم تشييع: كتب بغضب إن السيدات كن رائحات غاديات بقبعاتهن الحمراء والسوداء ورأى كذلك كلباً بكمامة على فمه. وكان التابوت الصغير المزين بالزهور تحيط به مجموعة من الأشخاص ذوي المظهر المريب، من عامة الشارع،

ولكن فجأة شق كردوس من الطلاب الجامعيين طريقهم مخترقين الكنيسة، وطوقوا التابوت.

كان رئيس الشمامسة العجوز «ترايدِه» المسؤول عن ترتيبات التشييع والدفن، غير مرتاح من الأمر كله. وحاول بقوة وجدِّية أن يقنع العائلة بنقل المراسم إلى مستشفى فريدريك أو إلى المعبد الصغير في كنيسة الروح القدس. وكان يدفع طاقيته الصغيرة إلى الوراء وإلى الأمام بشكل محموم على رأسه، وكان وجهه، الهادئ عادة، مشوَّهاً بالتوتر العصبي. ولم يعرف وجهه، كما طاقيته، الاسترخاء إلى أن وقف بيتر كريستيان بجانب التابوت لإلقاء كلمته.

لم يأت بيتر كريستيان بأي رؤوس أقلام بل ببطاقة زيارة صغيرة فقط اقترح فيها، كما كانت العادة في مثل هذه المناسبات، على نفسي شيئاً من العناصر التي يجب إدراجها. ولم يحاول إلا في عام 1881 أن يعيد صوغ رثائه مستنداً في جزء من إعادة الصياغة إلى ملخَّص عدائي بدرجة طفيفة أو أخرق ظهر في إحدى الصحف. وعلى أساس إعادة الصياغة هذه نستطيع أن نستنتج إن بيتر كريستيان امتنع بحكمة عن خوض سجالات مباشرة ضد المتوفى، لكنه اكتفى بالتعبير عن الأسف لأن لا هو ولا أي أحد آخر نجح بالنظرة الواثقة وأحضان المحبة الملطَّفة في استدراج أو حمل المتوفى على أخذ قسط من الراحة الطويلة والهادئة التي كان بأمس الحاجة إليها وجمع شتات نفسه بهدوء بعد الإجهاد المفرط. وكان الشاهد على نبرة بيتر كريستيان غير السجالية في ملخص نشرته صحيفة إقليمية لاحظت، من بين أشياء أخرى، عدم التطرق بالمرة إلى السجال الديني الذي كان على الأرجح مسماراً في نعش المتوفى. ومع ذلك كان هناك ترقب في الجو، وما أن عاد بيتر كريستيان إلى البيت من تشييع الجنازة حتى اتصل به تاجر الكتب المتحمس بإفراط دائماً أي. سي. دي. إي. أف. جي. إيفرسن (ينبغي ألا نخلط بينه وبين أي. بي. سي. دي. إي. أف. غودهوب!) طالباً أن ينشر رثاءه لأن كثيرين - كما قال تاجر الكتب المتزلف - كانوا هنا في متجر بيع الكتب اليوم أعربوا عن هذه الرغبة.

بعد المراسم التي أُقيمت في كنيسة سيدتنا انطلقت عربة الموتى إلى مقبرة أسيستنس. كان الناس مشغولين فلم يلحظ أحد وجود مارتنسن في نافذة مقر سكن الأسقف على الجانب الآخر من الميدان. وأرادوا الخروج إلى المقبرة

التي سرعان ما أصبحت بحراً من البشر. واندفعت أفواج كبيرة وصغيرة فوق القبور ورُقَعها المبوبة الصغيرة من الزهور محاولين الوصول مع ظهور نعش كيركغارد. وبعد أن ألقى «ترايدِه» تراباً على القبر مباشرة تقدم رجل طويل شاحب ملفع بالسواد إلى الأمام من بين الحشد. رفع قبعته ثم نظر حوله، ويبدو أنّه كان يريد أن يتكلم، ولكن هذا كان ضد القواعد فاحتج «ترايدِه». ولكن الرجل لم يرتدع، وهتف في المتجمعين: باسم الله. لحظة أيها السادة، إذا سمحتم لي! وفجأة تعرف ترويَلس فريدريك لوند ابن الخمسة عشر عاماً الذي كان كبيراً بما فيه الكفاية للتمكن من متابعة ما يجري، على الرجل الشاحب بأنه ابن عمه الطبيب هنريك الذي كان عادة في منتهى الود وكتب قبل فترة ليست طويلة رسالة مسلية إلى ترويَلس من باريس أرفقها برسم لجندي من جنود الصفيح. مَنْ هذا، عبارة كان من الممكن سماعها تتردد من نقاط مختلفة في الحشد. رد الشخص المتلفع بالسواد قائلاً أنا لوند، خريج كلية الطب. سماع، سماع!، هتف أحدهم فيما استطاع آخر أن يعطي تأكيدات بأن الرجل جيد حقاً!... دعوه يتكلم!

ثم قال لوند كلمة احتجاجه على الدفن الكنائسي لهذا المحارب ضد الكنيسة الذي جُلب هنا ضد إرادته المعبَّر عنها مرات متكررة، وبذلك يكون قد انتهك بطريقة ما. وإسناداً لصدق دعواه أشار إلى مقالات نشرها المتوفى في صحيفة فادريلانديت وكذلك إلى الأعداد المختلفة من اللحظة. كما اقتبس من الفصل الثالث من رؤيا القديس يوحنا عن الحكم الذي ينتظر أُولئك الذين هم لا باردون ولا ساخنون. وبعد تلاوة قطعة قصيرة بعنوان نحن جميعاً مسيحيون ظهرت في العدد الثاني من اللحظة، سأل لوند المحتشدين: أليس هذا الوصف للوضع صحيحاً؟ أليس هو ما نشهده جميعاً اليوم – وهو إن هذا الرجل المسكين، رغم كل احتجاجاته الشديدة في الفكر والقول والفعل، في الحياة والموت، تدفنه الكنيسة الرسمية بوصفه عضواً حبيباً فيها – أليس هذا طبقاً لكلماته؟ ما كان هذا ليحدث قط في مجتمع يهودي، ولا حتى بين الأتراك والمحمديين: إن فرداً من أفراد مجتمعهم تركه بصورة حاسمة، سيُنظر إليه بعد مماته ومن دون أي نبذ سابق لآرائه، على أنه فرد من أفراد ذلك المجتمع. كان ذلك أمراً محجوزاً لـ الكنيسة الرسمية أن ترتكبه. هل من الجائز أن تكون هذه «كنيسة الله الحق» إذاً؟

عندما انتهت كلمة لوند كان هناك تصفيق متفرق وسط المحتشدين. وكان الناس واقفين ينتظرون أن يروا ما سيحدث تالياً لأن شيئاً لا بد أن يحدث. ولكن لم يحدث شيء. ونزل هنريك لوند، ومشى راسموس نيلسن الذي ربما كان يعتزم قول شيء على القبر مبتعداً، وقد ارتسم على وجهه الكبير تعبير عن الانزعاج. وكان مصدر بعض التسلية عندما نادى رجل مخمور نحيف أحد رفاقه قائلاً، لنذهب إلى البيت إذاً، يا كريشان! وذهبوا، كريشان والآخرون، عادوا إلى بيوتهم. فلا شيء آخر سيحدث في المقبرة ذلك اليوم.

كان ترويَلس فريديك يستطيع أن يتذكر إنه ركض عبر مواقع القبور المُداس عليها، وفي النهاية وصل إلى العربة التي كان والده وبيتر كريستيان يجلسان فيها. ولم يدرك شدة البرد إلا حين كان داخل العربة أخيراً.

الوصية والمزاد ومبشِّر مريض نفسياً

بعد مراسم التشييع والدفن أصدرت الصحف أحكامها، ممتدة من الإدانة المبالغ بها إلى روايات محايدة للأحداث إلى الغباء منقطع النظير. وبالطبع ذُكر بيتر كريستيان أيضاً، لكنه رفض أن يصرح بهذا الشأن. في صراعي الداخلي تجاهلتُ آراء الصحف، كما كتب الرجل المنهَك إلى حد الاستنزاف في يومياته التي توقعت فقرة فيها من كانون الأول/ ديسمبر الظلام المقبل. ولم يكتب سوى اليأس والوحدة.

آخرون كانوا أقل يأساً إلى حد ما، وعرفوا كيف يكبِّرون غياب الروح فيهم إلى عطف فارغ مساعدين بذلك على إثبات صحة ما ذهب إليه المتوفى في تنبؤه بأنه سيُمدح بعد مماته بقدر ما كان محتقراً في حياته. وبدأ تداول قصص غير موثقة إلى هذا الحد أو ذاك. وهكذا أبلغت صحيفة مورغنبوستن قراءها بأنه يُقال إن المتوفى كتب ثروته الطائلة للفقراء على ما يُفترض وإن أُمنيته الأخيرة ألا يرتدي كفناً آخر غير الكتان الذي كان عليه وقت وفاته، زائد شرشف. وعلى ما يُفترض فإن الحُلية الوحيدة التي أخذها معه في نعشه كانت قطعة قماش صدرية من الساتان الأبيض طرَّزت عليها امرأة أزهار نبتة دائمة الخضرة في شكل كتابة منقوشة تقول «الصادق الوحيد» ومن ستوكهولم كتبت فريدريكا بريمر إلى هانز كريستيان أندرسن، مع أس. كيركغارد، سيكون الله متنهياً. هل من الجائز أن يكون عندنا إحساس بالاطمئنان إلى أننا نتبع دعواه وننفذ

وصيته لنا! وأطلع أندرسن في رسالة بتاريخ 24 تشرين الثاني/ نوفمبر 1855، أوغست بورنونفيل على سلوك هنريك لوند المشين فوق القبر: أَعلَن - هذا كان القصد بهذا القدر أو ذاك - إن سورين كيركغارد استقال من مجتمعنا. وفي 8 شباط/ فبراير 1856 أرسل أندرسن إلى هنريته وولف آخر الأخبار عن قضية كيركغارد: بدأ البروفيسور راسموس نيلسن يلقي محاضرات مرتين في الأسبوع عن كيركغارد، الكاتب والإنسان، بحضور كبير جداً. وفجأة أصبح الاهتمام بالمتوفى بلا حدود. وحتى غولدشمدت الذي كان في السابق مشغولاً بالنشاط الساخر والماجن، سحب مخالبه وانتهى به المآل إلى إبداء التفاتات من الحداد تتسم بالتوبة والرقة: كل مَنْ يتحدث بسوء عن أمس. كيركغارد يرتكب خطيئة من النوع الذي كان القدماء يسمونه حراماً nefas. فرغم معايبه كان فيه سمو إنساني معين وكذلك شيء مؤثر تماماً - نعم، بالمعنى الأعمق، شيء مأساوي... وأن أكون في لحظة ما كتبتُ عنه بطريقة عدائية أو أثِرتُ غضبه أو سببتُ له معاناة - فإن هذا يتعدى كل ندم وفوقه. الشيء الوحيد المفقود كان بطاقة تعزية وبعض الزهور الجنائزية من المغترب بي. أيل. مولر.

من المفهوم تماماً إن مارتنسن كان منزعجاً من نجاح كيركغارد بعد وفاته، ومع اقتراب العام من نهايته طلب من غودا أن يكتب قطعة عن الاتجاه الكيركغاردي يجب ألا يوفر فيه الملح السجالي. ولكن غودا لم يكن في الحقيقة يريد أن يفعل ذلك، وبعد ثلاثة أسابيع فقط أصبح مارتنسن غير مكترث تقريباً بالأمر لأن كيركغارد كان يجثم هناك تحت مترين من التراب حيث بدأت الديدان عملها. بحلول منتصف شباط/ فبراير 1856 استطاع الأسقف الهادئ أن يكتب إلى غودا إن هناك شيئاً يستحق التعليق عليه.

كيركغارد لم يقل ما يريد أن يتم بشأن ممتلكاته الدنيوية. وفي اليوم التالي على الجنازة توجه بيتر كريستيان إلى منزل مسز بوريس مع إسرائيل ليفن وتاجر الكتب المستعملة أتش. جي. لينغة لتفقد أثاث المنزل والكتب في بيت المتوفى. وسيتذكر ليفن لاحقاً إن كل شيء تُرك على أفضل ما يُرام من النظام وكأن كيركغارد ذهب بكل بساطة لقضاء بضعة أيام في الريف ولم يكن ميتاً على الإطلاق. هل أعد كيركغارد رحيله ذاته بكل هذه الأناقة؟ لا يمكن استبعاد هذا الاحتمال، ولكن الأرجح إن النظام الذي اتسم به منزله كان ثمرة عمل سكرتير خاص اسمه نوريغارد يمثل محكمة كوبنهاغن لقضايا الإرث والوصايا،

وهنريك لوند الذي زار الشقة خلال الأسبوع السابق لإعداد قائمة بالممتلكات المنزلية العائدة إلى المتوفى. وما وجده لوند ونوريغاد حين دخلا الشقة كان كمية كبيرة من الورق، أغلبها مخطوطات، مركونة في أماكن مختلفة وضعا هذه الكومة من الورق في منضدة الكتابة التي ختمتها المحكمة وكذلك في صندوق ذي أدراج وخزانة.

مع ذلك تعين على بيتر كريستيان، بمناسبة زيارته، أن يبحث طويلاً عن مفتاح المنضدة المقفلة، ولكنه في النهاية وجده، وبعد فترة قصيرة وقف يمسك مظروفين صغيرين مختومين. وكان كلاهما يحملان الكتابة نفسها على الوجه: إلى القس الموقر الدكتور كيركغارد. يُفتح بعد موتي. وكان الاختلاف الوحيد بين المظروفين لون شمع الختم على كل منهما. إذ كان أحدهما أسود والآخر أحمر. وعندما فتح بيتر كريستيان الختم الأسود تمكن من الاطلاع على النص التالي الذي اتضح إنه وصية شقيقه الأصغر: أخي العزيز! وصيتي بالطبع أن ترث مسز ريجينة شليغل بلا شرط ما سأتركه على قلَّتِه. وإذا رفضت هي قبوله فيُعرض عليها بشرط توزيعه على الفقراء. وما أرغب في التعبير عنه هو إن الخطوبة عندي كانت وما زالت ملزِمة كالزواج، ولذلك يجب أن تؤول تركتي إليها تماماً كما لو كنتُ متزوجاً منها. شقيقك أس. كيركغارد. وكانت هذه الرسالة غفلاً من التاريخ رغم إنها ربما كُتبت في وقت واحد مع الرسالة المختوم مظروفها بالشمع الأحمر، التي كانت بتاريخ آب/ أغسطس 1851 وتضمنت النص الآتي: «إن الشخص غير المسمى الذي سيُذكر اسمُه ذات يوم» والذي أُهدي إليه كل نشاطي الكتابي هو خطيبتي السابقة مسز ريجينة شليغل. انتهى النص. وتذكّر ليفن إن بيتر كريستيان بعد قراءة الرسالتين اضطر للجلوس على كرسي بضع دقائق لالتقاط أنفاسه قبل أن يعود إلى وضعه الطبيعي. وكان يأمل بمصالحة، بكلمة أو كلمتين. فالرسالتان رغم كل شيء موجهتان إليه لكنهما لم تتناولا إلا ريجينة التي يبدو أنّ سورين آبي كان يعتبرها زوجته الشرعية ولذلك جعلها وريثه الوحيد. وكان لبيتر كريستيان الآن شرف مشكوك فيه هو إبلاغ حاكم سان كروا إنه متزوج من امرأة متزوجة من رجلين!

كان من المفهوم تماماً أن يتطير بيتر كريستيان من هذه المهمة، ولم يبدأ بالتفكير في كتابة رسالة كانت جاهزة - أخيراً - لإرسالها بالبريد في 23 تشرين الثاني/ نوفمبر إلا بعد مرور عدد من الأيام عندما أمره يوهان كريستيان بصريح

العبارة أن يُبلغ عائلة شليغل برغبة المتوفى في وصيته. وصلت الرسالة إلى سان كروا يوم السنة الجديدة عام 1856، واستخدم الحاكم شليغل، الملتزِم بقواعد اللياقة كديدنه، أول سفينة بريد بخارية مغادرة لإرسال جوابه إلى بيتر كريستيان، بتاريخ 14 كانون الثاني/ يناير. وبعد أن شكره شليغل على التفهم الذي أبداه من لهم علاقة بالأمر، في أننا، لأسباب عديدة، لا نريد أن نكون موضوع نقاش علني، أوضح إن زوجته كان لديها، أولاً، بعض الشك في المدى الذي يتضمن معه إعلان وصية المتوفى آنف الذكر أُمنية أخيرة لأن في هذه الحالة سيكون عليها التزام بتنفيذها بالضرورة. ولكن ريجينة، كما أُبلغ القارئ بأسلوب الزوج البيروقراطي، لم تعد لديها مثل هذه الشكوك ولذلك طلبت أن يتصرف بيتر كريستيان والورثة الآخرون تماماً كما لو إن ما ورد ذكره آنفاً لا وجود له. وهي لا ترغب إلا في استعادة بعض الرسائل وعدة قطع صغيرة موجودة بين متعلقات المتوفى كانت ذات يوم ملكها. ومن الأشياء التي تركها كيركغارد لدى وفاته طَرْد على عنوانها يضم عدداً من كتاباته مجلَّدة بلون فاتح وعلى صفحات خاصة حواشيها مذهَّبة، ولكنها لم ترغب في إرساله إليها. وأشعرت هنريك لوند بهذه المعلومة الأخيرة فيما أبلغ شليغل نفسه مستر هاغ المحامي الذي تولى متابعة الأمر بذلك، بـــــ قرار زوجتي. واختتم شليغل رسالته إلى بيتر كريستيان بعبارة مع كل الاحترام، إلخ.

هنريك لوند أبلغ بيتر كريستيان بهذه التفاصيل المختلفة في 27 شباط/ فبراير مشيراً إلى أن الرسائل المكتوبة من فترة الخطوبة وعدة قطع من الحُلي التي لها علاقة بريجينة أُخرجت وأُرسلت إليها على متن آخر سفينة مغادرة. كما أوضح لوند إن كل شيء آخر سيُباع في المزاد، بما في ذلك الكتب والأثاث وأي شيء آخر موجود باستثناء ملابسه التي كان يرتديها، أي ملابسه الخارجية مثل السِتَر والمعاطف والسراويل، إلخ التي لعل من الأنسب أن تُعطى إلى خادمه وخادمته، وربما إلى ستروفة [كذا] (النجار الذي كان خادمه). وفي حاشية مرفقة بهذه الرسالة قال لوند إن في حوزة شقيقته صوفي عدة خصلات من شعر الخال سورين. وحُفظت خصلتان صغيرتان في أُطر صغيرة: العائلات هنا في البلدة قَبَلت إحدى الخصلات بصورة مشتركة لأنها لا تريد التقليل من قيمتها بمضاعفة عددها. وإذا شاء بيتر كريستيان فإن القسم الباقي رهن إشارتك. ويبدو أنّ بيتر كريستيان أبدى رغبة في تسلم مثل هذا الأثر الخاص من الشَعَر لأن

لوند، في رسالة بتاريخ 10 آذار/ مارس، وضع خصلة من شعر الخال سورين في شكل حزمة. وفي أواخر ذلك الشهر قال التاجر يوهان كريستيان لوند بإبلاغ بيتر كريستيان إنه وُجد إن قبو المتوفى يحوي إمدادات صغيرة من نحو ثلاثين قنينة نبيذ سيرتب أمر إرسالها إلى بيتر كريستيان. والأكثر من ذلك سيتلقى بيتر كريستيان في الشحنة نفسها ذلك الجزء من خزانة ملابس سورين الذي لا يريدون بيعه في مزاد علني لممتلكاته الشخصية المتنوعة من المقرر الآن إقامته في شارع أوسترغاده يومي 2 و3 نيسان/ أبريل.

قائمة ببعض الأثاث ذي النوعية الجيدة ومتعلقات شخصية، هي العبارة التي كُتبت على الغلاف الخارجي لكاتالوغ المزاد الصغير للمساعدة في بيع محتويات بيت المتوفى. ويعتبر الكاتالوغ الذي يضم نحو 300 مادة، شاهداً صامتاً على حياة معيشة. وتبدو المواد المدرجة عشوائية بصورة غريبة، تقريباً كأنها تريد أن تنظِّم نفسها وفق الروح التي خدمتها ذات يوم: سبعة أزواج من الكؤوس ورؤوس غليونات ذات أُطر فضية، وحلقة الخطوبة، وحاوية معدنية ذات غطاء متحرك لجمع الرماد والفتات، وكرة أرضية على مسند، وعلب للكاكاو والقهوة، وسلطانية لتقديم الطعام ذات غطاء، وست ضمات من لفائف التبغ، وأطواق زجاجية لجمع الشمع الذي يذوب، ومنضدة قهوة دائرية ذات سيقان على شكل أعمدة، وسرير من خشب الصنوبر، وكراسٍ من الماهوغاني منجَّدة بشعر الخيل، وحقيبة سفر جلدية، وحوض للاغتسال على حامل، وصناديق ذات أدراج، وعدد لا يُحصى من الستائر المعدنية والنسيجية، والستائر الحاجبة للشمس، وقنينة من ماء الكولونيا، ومسطرة، وآلة لقطع الورق، ومقص، وكرسي ستُول، ومنضدة كتابة، وكرسي كتابة، وكرسي خيزران بمقعد مطرز، وكرسي هزاز مطلي بالورنيش، وكتب موسيقى، وجرس مائدة، وفرشاة ملابس، وتمثال مذهَّب من الجص، ونسر سفينة برونزي، وملقط فحم، ومنفاخ، ووسادة هوائية، وعصي للمشي، وقنديل، ومحرار قمعي، وعلبة قهوة، وسُلَّم نقال، وغطاء لحاف زهري اللون، ولحاف خفيف مع غطاء مخطط، ووسادة كبيرة، ومدفأة أقدام نسيجية مطرزة، ووسائد أريكة أسطوانية الشكل، ومتكأ أريكة أنبوبي الشكل، وجوارب صوفية، ومناديل حريرية، وكرافات سوداء حريرية، وصدريات مع ياقات مثبتة بها، وملابس داخلية صوفية، وروب دو شامبر ذو مربعات، وطاقية صباحية، وشباشب، وقبعة، ودلو من الصفيح،

ومبصقة نحاسية، وحاجز يُطوى ذو جناحين يوضع أمام الموقد، وطاولة مطلية باللون الأصفر، ومغسلة، وتعريشة زهور، وحصالة توفير من الصفيح، ومصباح مدخل، ومقلاة لإعداد الفطائر، وإناء نحاسي لإعداد البودينغ، وفرن لإعداد كعك الوفل، وميزان ذو كفتين مع أثقال، وبرميل ماء، ومعول، ومكواة ملابس مع قضبان تسخين، وكيس يحوي ثلاثة أرطال من الريش. وقال هانز بوشنر إن هذه مجموعة متواضعة من السلع المنزلية ولكنها في المزاد حققت مبلغاً محترماً قدره 1004 ريكسدولار و2 مارك و15 شلن. وابتاع بيتر كريستيان أريكة ماهوغاني بسعر 27 ريكسدولار و3 مارك، وهو سعر غالٍ بعض الشيء، ولكنها - بحسب تأكيدات أعطاها يوهان كريستيان لوند الذي شارك في المزاد نيابة عنه - حُشيت مؤخراً بكمية كبيرة من شعر الخيل الملفوف ونُجِّدت بمادة صوفية، وهي ممتازة للنوم عليها بكل سهولة.

ثم في الأسبوع التالي بيعت كتب كيركغارد في مزاد أُعلن عنه بنشاط غير اعتيادي: في صحيفة أدرسيفسن وحدها نُشرت عشرة إعلانات منذ الأسبوع الأول من آذار/ مارس، بما في ذلك إعلان كبير على الصفحة الأولى في 8 نيسان/ أبريل، اليوم الأول من أيام المزاد الذي تقرر أن يستمر ثلاثة أيام. وأُقيم المزاد في غرف كيركغارد التي أُزيل أثاثها، ولكن الازدحام كان مع ذلك شديداً لأن الحضور كان أكبر بكثير من المتوقع. وذُهل تاجر الكتب لينغة بالمزايدات قائلاً إن كل شيء بيع بأسعار باهظة وخاصة كتاباته التي بيعت بضعف أو ثلاثة أضعاف أسعارها في متاجر الكتب. وحقق بيع الكتب البالغ عددها 2748 كتاباً في مكتبة كيركغارد ريعاً إجماليا قدره 1730 ريكسدولاراً. ومن بين المزايدين أي. بي. آدلر وهانز بوشنر وهنريك لوند وأندريس رودلباخ وكريستيان فينتر والممثل فريدريك لودفيغ هويت وكذلك تاجر الكتب لينغة نفسه. كما حضر أشخاص من المكتبة المَلَكية ابتاعوا نحو خمسين كتاباً لمكتبتهم، كلها تقريباً حُفظت في تجليداتها الأصلية. وبعد أسبوعين على المزاد - في وقت متأخر، كما قد يظن المرء - خصصت صحيفة مورغنبوستن الناطقة باسم حزب الفلاحين صفحتها الأولى كلها تقريباً لإبراز الحدث. وبعد عمود تلو الآخر من الهجوم على رجال الدين قالت الصحيفة: ولكن، الحمد لله، إن المزاد... قدَّم العديد من المؤشرات المهمة والمرحَّب بها إلى أن كيركغارد لم يعش، ولم يكابد سدى بل إن أعماله اخترقت قلوباً كثيرة، وإنه في حياته فتح أعين كثيرين

على الزيف والفساد في العادات الكسولة والتأليه الذاتي لكنيستنا، وكسب الكثير من الأصدقاء الحقيقيين الذين يثمنونه ويثمنون عمله، وسيحفظون ذكراه وينشرونها.

أحد الذين سعوا بكل إصرار إلى نشر ذكرى كيركغارد خلال تلك الأيام موغينس إبراهام سومر Mogens Abraham Sommer. وكان سومر مشعوذاً، كاريزمياً، عظيماً في السرقة الأدبية، وحرباء دينية له أُصول متباينة من الغروندتفيغية وحركة الرسالة الداخلية والمعمدانيين والسبتيين، ودوائر أخرى. وعلى الغرار نفسه في المجال الدنيوي، جرب ابن البحار هذا من منطقة ريبي حظه في قليل من كل شيء، من العمل نجاراً إلى خياط وموظف كتابي وناسخ وطبيب تجانسي مزعوم ومعلم خصوصي متخصص بعلاج النفوس في سجن هادرسليف. حتى اسمه كان مزيفاً لأن شومر اليهودي الذي يعني الحارس الليلي بلغة يولاند، أصبح سومر [بالدنماركية: الصيف] الذي بدا كله وعداً. وكان في أُوْج نشاطه عندما انطلق هجوم كيركغارد على الكنيسة، ولكن الأعداد التسعة من اللحظة حقاً ألهبته. وفي مذكرات سومر الموسومة بتواضع مراحل على طريق الحياة أشار إلى المقالات التي نُشرت في أعداد مختلفة من اللحظة بوصفها من أهم مصادره. ولا يُعرف إن كان عنده اتصال شخصي مع كيركغارد وإلى أي مدى. وكان هو نفسه يزعم إنه بعد أن كتب عدداً من المرات إلى كيركغارد توجه لزيادة الأُستاذ ذات يوم وتمكن من أن يقول للرجل ما أشعرُ به تجاهه. واستمع كيركغارد على ما يُفترض ثم رد: هذا جيد يا صديقي! ما عليك إلا التمسك بالعهد الجديد ولن تقع في خطأ. اذهب مع الله! وهنا، كما روى سومر، سالت الدموع على وجنتيَّ، وقال قلبي آمين! وحذف سومر هذا المشهد المشحون بالعاطفة في الطبعة الثانية من مذكراته، ربما لأنه لم يكن سوى حلم. ورغم إن سومر لم يكن من النوع الذي يصر على الفارق الضئيل بين الحلم والواقع فإنه مع ذلك أراد أن يبدو ذا صدقية.

نظر سومر إلى نفسه على أنه وريث كيركغارد الشرعي، وأعلن الديماغوجي الثرثار ذلك للعالم أجمع خلال رحلاته البرية التي لا تنتهي مجادلاً لصالح تشكيل جماعات صغيرة نقية من مريدي كيركغارد تنعزل عن الدنيا وتقطع مع الكنيسة. ومن خلال الإزعاجات التي يمارسها سومر بصورة فردية وكراساته التي يوزعها بصورة علنية تمكن من مضايقة بيتر كريستيان كيركغارد (الذي في

رأي سومر لم يكن يمثل مسيحية العهد الجديد) إلى حد إن الأسقف اضطر في عام 1866 إلى الرد على انتقادات سومر في منتدى عام في آلبورغ. وكانت رسالة سومر متوافقة تماماً مع الاشتراكية التي احتضنها في أوائل سبعينات القرن التاسع عشر وكان حتى وقت متأخر هو عام 1881، يطرح مطالب بحل البرلمان وفصل الكنيسة عن الدولة وإحالة رجال الدين على التقاعد وفرض ضرائب عالية (هنا كان سابق عصره بحق) على الكحول والتبغ كوسيلة لتحسين الأخلاق العامة. ولدى وفاة رئيس الشمامسة باولي في عام 1865 حاول سومر، مبدياً حماسة اللص المختص بالسرقات الأدبية، أن يكرر أفعال كيركغارد بشأن مينستر. ولكن بما إن سومر لم يكن لديه شيء ضد المتوفى فإنه بدلاً من ذلك هاجم كلمة مارتنسن في ذكرى باولي داعياً أتباعه إلى قراءة الكلمة إذا كانوا يحتاجون إلى حقنة شرجية.

إذ وظف سومر تاجر الكتب لينغة وكيلا له في مزاد متعلقات كيركغارد الشخصية فإنه تمكن من شراء عصا للمشي كان يملكها المتوفى. وخَدَمته كنوع من العصا التي يمشي عليها شيخ حاج في جولاته التبشيرية التي لا تعرف الراحة في أنحاء الدنمارك والنرويج والسويد وألمانيا، وطول الطريق إلى أميركا، حيث كان يعيل نفسه برسم البورتريهات. وبحسب روايته فإنه باع 66 رسماً لصورة كيركغارد الذي بذلك يكون مريض نفسي قدَّمه إلى العالم الجديد. والمرات الوحيدة التي هدأ فيها سومر كانت خلال إقاماته الكثيرة في السجن حيث منحته السلام ووقت الفراغ اللذين يحتاجهما لتدبيج كتبه وكراساته. وعندما حَسَبَ مئات آلاف الأميال التي قطعها في أسفاره - لا تقل عن تسع مرات حول العالم - في خدمة سورين كيركغارد صوَّر نفسه نسخة حديثة من الرسول بولس. ولكن لا سومر ولا ابنه موغينس إبراهام سورين كيركغارد سومر الذي سار على خطى والده، تمكنا من تحقيق أهدافهما، واليوم أصبحا في طي النسيان الذي يستحقانه. سومر نفسه توفّي في عام 1901 رجلاً حاقداً فقيراً ومستهلَكاً.

كانت مهمة سومر من أول الأمثلة (وحتى الآن أفضلها) التي تجعل من الواضح إن حملة كيركغارد لا يمكن أن تتكرر دون الانتهاء إلى سرقة أدبية محرِجة. وهذا جانب آخر كان كيركغارد، في الحقيقة، رجل اللحظة فيه.

الأوراق التي لا يريدها أحد

بعد أسابيع على التشييع ذهب هنريك لوند لإلقاء نظرة على أوراق خاله. وشعر الطبيب الشاب بنداء يدعوه إلى نشر هذا الأثر الأدبي، واستخدم الأشهر اللاحقة للتعرف على الحقائب والصناديق والأكياس والخزانات ذات الأدراج التي كانت مخطوطات ملفوفة ومَحافظ ودفاتر ورسائل وفواتير وأشرطة وقصاصات ورقية متفرقة مخزونة فيها، بانتظار المستقبل. وكان للعمل المرهق بفهرسة المواد تأثير مخفِّف في آنية ما يشعر به لوند من عاطفة متقدة، وفي 27 تشرين الثاني/ نوفمبر 1856، أبلغ بيتر كريستيان إنه يجد الآن من الضروري تنحية مهمة النشر جانباً لأنه عُين في جزيرة سان جون – عبر الماء من جزيرة سان كروا حيث تعيش ريجينة وفريتز شليغل. واقترح إن أميل بويسن ربما يستطيع مواصلة العمل من حيث توقف هو، ولكن بويسن اعتذر، فحُفظت أوراق كيركغارد في منزل عائلة لوند، حيث بقيت حتى عام 1858 عندما أرسلها يوهان كريستيان لوند إلى بيتر كريستيان في آلبورغ. وبحلول عام 1865 كان العديد منها مكسواً بطبقة سميكة من العطن والعفن الفطري، إلخ، كما اكتشف محررها الأول بقلق أتش. بي. بارفود عندما القى نظرة على صناديق الورق المقوى. والمصير اللاحق الذي آلت إليه الأوراق قصة إشكالية بقدر ما كانت دراماتيكية، ولكنها رُويت في مكان آخر [في صور مكتوبة Written Images. انظر البيبلوغرافيا] ولن تُكرَّر هنا.

في عام 1869 عندما رأى النور الجزء الأول من أوراق كيركغارد بعد وفاته، كان هناك كثيرون ما زالوا أحياء شعروا إن الماضي لحق بهم بطريقة غير سارة. فإن مارتنسن وصف نشر الأوراق بأنه عمل تعوزه الحكمة ولا يراعي المتوفى لأن الأوراق تقدم أقوى دليل قاطع يبين كيف أن الطبيعة السقيمة في ذلك الإحساس العميق كانت لها الغَلَبة بصورة متزايدة مع مرور السنين. وانصب اهتمام مارتنسن في مذكراته بالدرجة الرئيسية على التأكد من إن التاريخ سيكون بجانبه، ولم تساوره أي شكوك في أهمية كيركغارد: إذا توقفنا عند مجمل نشاطه وسألنا «ما الذي أُنجز في النهاية بهذه القدرات الغنية، بهذه المواهب المتميزة؟» – فلا بد أن تكون الإجابة بكل تأكيد، ليس الشيء الكثير! والصحيح قطعاً إنه أحدث نوعاً عميقاً ومحموماً من التململ في نفوس كثيرة ولكن

أنصاف الحقائق العديدة والمفارقات المزيفة الكثيرة والطرائف الكاذبة ما كان بمقدورها أن تساعد أي نفس على إيجاد السكينة والسلام... وهو نفسه أيضاً كان على ما يبدو ينظر بصورة متزايدة إلى مهمته على أنها مهمة مَلاك اتهامي. ولكن بما إن مارتنسن كان لا يريد أن يبدو غير إنساني، ناهيكم عن أن يبدو غير مسيحي، فإنه ختم باستحضار تفسير جسدي لنشاطات كيركغارد الاستثنائية الأخيرة: برأيي إن التأثيرات المقلقة الناجمة عن حالته الجسدية يمكن أن تعمل بدرجة ليست قليلة على التخفيف من الحكم على سلوكه. وسيكون من المحال على أي أحد أن يحدد مدى صحته العقلية.

كانت لدى شليغل وزوجته مصلحة بديهية في الاطلاع على ما كتبه كيركغارد في يومياته من فقرات تتناول تاريخهما المشترك، بل إنهما عندما كانا مخطوبين حديثاً جلسا وقت الغسق يقرآن كتابات كيركغارد لأحدهما الآخر بصوت عالٍ. ولذلك عندما صدر الجزء الأول من أوراق ما بعد الوفاة في عام 1869 اشتراه فريتز نزولاً عند مشيئة ريجينة. ولكن الآمال بإحياء أُمسياتهما اللطيفة في القراءة بصوت عالٍ سرعان ما خابت، بل إن ريجينه اغتمت في الحقيقة بسبب يوميات كيركغارد ولذلك لم تكن لديها رغبة في شراء الأجزاء اللاحقة.

كما إن غولدشمدت لم يكن مغتبطاً عندما نُشر في عام 1872 الجزء الذي يتضمن ما كتبه كيركغارد من فقرات في يومياته عن مجلة كورسارن وطاقمها، مقدِّماً إلى الجمهور صورة أحادية للغاية عن النزاع معها. وسرعان ما أصبح غولدشمدت يشعر بالإجحاف من جراء علاقته بمجلة كورسارن كما شعر كيركغارد يومذاك، ولذلك شعر ملزَماً بالإقدام على نوع من عملية فك ارتباط شخصيته بمجلة كورسارن. واتخذ ذلك شكل تبادل واسع للرسائل مع المحرر أتش. بي. بارفود ومع الصحفي أوتو بوركسينيوس الذي تابع القضية في أواخر سبعينات القرن التاسع عشر ناشراً سلسلة من المقالات المكتوبة بمتانة لكنها خلافية جداً صورت كيركغارد على أنه أرقب إلى شخصية قديسية بهالة حول رأسه فيما قُدِّم غولدشمدت على أنه وغد وخبيث. وكما كتب غولدشمدت إلى بوركسينيوس أواخر 1878، أخيراً، وصلتُ إلى لغة الشتم نفسها التي تنسخَها وتعيد طبعها مراراً بمتعة أدبية معينة. وبالنسبة لك فإنها لحقيقة أن أكون تعرضتُ إلى الإساءة بهذه «القوة» وبهذا «العنف». ويبدو أنّك تنسى الحقيقة الماثلة في أني على قيد الحياة، وإن القسوة المتجددة يمكن أن تجرح. ولكن

بوركسينيوس وقراءه لم يكونوا قلقين جداً وبقي غولدشمدت هو الخاسر. إذ كان يستطيع أن يشير إلى حقائق ما شاء له أن يشير دون أن يجديه ذلك نفعاً. وعلى هذه الخلفية من الاهتمام المتزايد بكيركغارد سجل غولدشمدت بعض الانطباعات العابرة والمشتتة عن حامل الماجستير الذي مضى وقت طويل على وفاته، ثم فجأة أخذ يكتب نوعاً من النعي المؤثر حقاً في موضوعيته الرصينة، بلا أي أحقاد: كان ينتمي إلى عالم فكري هائل ومشرق. كان يحمله داخل نفسه. وكان هناك نوع من جبل أوليمبوس في رأسه - آلهة فكر واضحون، مباركون... وحين وقف أمامي بهذا الشكل أدركتُ إنه شخص من النوع الذي على المرء أن يخلي الطريق أمامه وقبعته بيده.

بؤس بيتر كريستيان

بعد كل التكريم بمناسبة تشييع الجنازة، عاد بيتر كريستيان إلى بيدرسبورغ، وكان المرء يأمل بأن الأريكة ذات الغطاء الصوفي التي حُشيت بالكثير من شعر الخيل الملفوف، ستكون في الحقيقة أريكة ممتازة للنوم عليها في أوقات التأزم لأن الأمور كانت تزداد تأزماً أكثر فأكثر. وفي ليلة 10 على 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1856 - يوم وفاة سورين - حلم بشقيقه الأصغر الذي اعترف بأنه مصيب في أمر يتعلق بالدين. بعد ذلك غفا مرة أخرى، ثم حلم - بعد فترة كنتُ خلالها نصف مستيقظ - بأن الأسقف مينستر امتحنني بصرامة شديدة لكنه أصبح بالتدريج أكثر وداً بعض الشيء، وفي النهاية... سمح لي بالوعظ يوم الأحد المقبل. فالتحرر من الخبرات الصادمة ليس بهذه السهولة.

بعد يومين على رؤية بيتر كريستيان هذه الأحلام تسلم رسالة وزير شؤون العبادات سي. سي. هال يبلغه فيها - باقتراح من مارتنسن، من بين آخرين - بأنه عُين للكرسي الأسقفي في آلبورغ. وسافر بيتر كريستيان إلى كوبنهاغن حيث أمضى ليلة 14 على 15 تشرين الثاني/ نوفمبر في بيت زوج شقيقته، التاجر يوهان كريستيان لوند، في الغرفة الحمراء الداكنة نفسها التي قضيت فيها ليالي السهاد بالارتباط مع جنازة سورين قبل عام بالضبط. وكالعادة لم يستطع أن يحسم قراره بشأن الأسقفية. وبحث عن إشارات ورأى إن من أعمال إصبع الحاكمية الإلهية أن يزور مارتنسن بعد أحد عشر شهراً بالضبط على اكتشافه زنبقة في كتاب الصلاة العامة تركها هناك صاحب الكتاب السابق مؤشراً المزمور 75: 3 الذي يتحدث عن تأجيل الأمور.

وفي كنيسة سيدتنا يوم 22 شباط/ فبراير 1857، قام مارتنسن بترسيمه أسقفاً. وفي ذلك المساء أُقيمت وليمة عشاء في مقر سكن الأسقف مارتنسن، وبعد يومين كان دور قس الاعتراف الملكي «ترايدِه» أن يستضيف الأسقف الجديد ليشرب ويأكل على مائدته. وهكذا اجتمع شهود الحقيقة مرة أخرى.

تحت تاريخ 8 آذار/ مارس 1857 تَذْكُر يوميات بيتر كريستيان الآتي: أخيراً وصلتُ إلى آلبورغ في الساعة الخامسة. وكانت اثنتان وثلاثون سنة أخرى من الحياة ما زالت تنتظر الأسقف المعيَّن حديثاً، وهي سنوات ستُقضى في سيبيريا شمال يوتلاند، كما وصفت زوجته هنريته المكان. وخلال السنوات الثلاثين الأخيرة من حياتها الخالية من المسرات ستبقى هي نفسها جالسة نصف مشلولة تحدق في الغرف الصامتة لمقر سكن الأسقف. وأحياناً كانت تصرخ لأن بعضاً من حصى الكلى على ما يُفترض كان يعبث داخل جسدها النحيف الشاحب. ولم تكن لدى الطبيب المحلي فكرة عما يجب أن يفعله، وأخذ يصف لها أدوية مائية عديمة الفائدة، الدواء تلو الآخر. وسمَّتها إيلين بويسن بائسة ورعة محبوبة، لأنها مريضة - ولكنها يجب أن تكون مريضة - إذا أُريد لزوجها أن يكون سعيداً. نعم، هناك حقاً بعض الأشخاص الغرباء - أعتقد أنّه كان يحسد الجميع.

كما تردت الأمور مع ابنهما بول. فبعد أن اجتاز امتحانات القبول في الجامعة سافر إلى كوبنهاغن ونال شهادة في اللاهوت حاصلاً على درجات شرف عالية. لكنه خالط أصدقاء سيئين في مجموعة ضمت مشاهير في الأدب مثل هانز سوفوس فودسكوف Hans Sofus Vodskov وينز بيتر ياكوبسن Jens Peter Jacobsen، كانت راديكاليتهم ونظرتهم الطبيعانية إلى الحياة على نقيض صارخ مع الإيمان الراسخ بالعناية الإلهية الذي اتسم به بيت أسلافه. وعاقر الخمرة والفسق وتراكمت عليه ديون من كل مكان. وكان الوضع رهيباً. رفض أن يصبح قساً لكنه بدلاً من ذلك ترجم عمل لودفيغ فيورباخ جوهر المسيحية، الذي يجادل بأن المسيحية تتألف من وهم واحد عملاق، من سوء فهم عالمي - تاريخي. ومما أثار رعب والديه العجوزين إنه حين عاد إلى مقر سكن الأسقف كان مليئاً بالمرارة والسخرية واللغة البذيئة والطرائف، بحسب تعبير والدته في رسالة إلى بيتر كريستيان. وانفجر الوضع خلال صيف 1872. وتعين على بيتر كريستيان أن يسافر إلى كوبنهاغن، ومع الفيلسوف هارالد هوفدينغ Harald Hoffding رافق ابنه إلى مصح للأمراض العقلية في أورينغة

حيث شخص البروفيسور ينسن إصابته بمرض الخرف المبكر أو مرض الشيزوفرينيا (الفصام). وفي اليوم التالي ذكرت يومياته الطبية الآتي: لبعض الوقت يكون مكتئباً بشدة، قلقاً، شكاكاً، لا يمس الطعام، مشوَّشاً بالكامل، يسأل عن المحكمة التي يريد أن يعترف أمامها، يتحدث عن دفنه حياً. وبعد إحدى زيارات بيتر كريستيان المُقبضة كتب في يومياته إن النتائج تبدو لي محزنة.

بعد فترة قصيرة على إدخال بول المصح تسلم بيتر كريستيان رسالة من هنريك لوند الذي أخبره إنه وضع نفسه تحت رعاية البروفيسور ينسن في مصح الأمراض العقلية نفسه في أورينغة. فكان بيتر كريستيان يستطيع، لفترة من الوقت، أن يقوم برحلة واحدة لزيارة فردين مريضين من منحوسي الطالع الباقين من أفراد عائلة كيركغارد. ومن السهل أن نفهم أسباب الشكاوى التي كتبها بيتر كريستيان في يومياته عن انعدام الشهية والأرق الشديد. ولفترة طويلة تماماً كانت أحلامه أيضاً مزعجة، وقبل يومين على ما كان عيد ميلاد سورين آبي الثامن والخمسين كتب: السفينة في الطرقات، بحارتها مأخوذون، اللصوص يستخدمون العطش في محاولة لإجباري على التعهد بالبقاء صامتاً. وبعد يومين نقرأ: الحلم بمجموعة من الأشخاص المخدرين بالأفيون.

خلال شتاء 1874 أُودِع بول بعهدة بعض الأقارب في ضيعة أنيسيغارد ولكنه عندما أخذ يسمع أصواتاً داخل الجدران عاد إلى مقر سكن الأسقف حيث سمح لنفسه بأن يُعتنى به كما يُعتنى بالطفل. وفي كانون الأول/ ديسمبر 1876 كتب أحد أصدقاء بول من الأيام السابقة الآتي إلى ينز بيتر ياكوبسن: تسلمتُ رسالتين أُخريين من [بول] كيركغارد، إحداهما طولها اثنتا عشرة صفحة. والرسالة الثانية التي طولها أربع صفحات، دليل دامغ على أنه مجنون هذَّاء. فكل دين وكل منظومة فلسفية يؤديان رقصة الـ«كانكان» الأشد يأساً في عقله تعيس الحظ. ولكن بعد عامين تحسنت حالته بما يكفي لأن يكون قادراً على قبول وظيفة معزولة في المكتبة الأبرشية في عليَّة المدرسة الكاتدرائية. وأُمضيت السنوات الخمس وثلاثون من حياته في آلبورغ وراء مصاريع مغلقة في المنزل رقم 4 شارع غرونيغاده حيث كتب أربع مجموعات شعرية صغرى بعناوين مثل ميرلين، أو ابن الشيطان أو دراسات عائلية أو الخطيئة ضد الروح القدس أو البيت المتَّهم. وتشير عناوين هذه القصائد الشيطانية الشبيهة بأغاني الحفلات في قافيتها وإيقاعها، وحدها، إلى موقفها المتمرد على تقليد العائلة،

بل إن هوفدينغ كان يعتقد أنّ سبب مرض بول يوجد في المبادئ، المعادية للحياة نفسها، التي تربى عليها في طفولته. وقبل جيل ساعدت هذه المبادئ على تنمية عبقرية الخال الذي لم ينجح بول قط في تحرير نفسه من ظله. وفي إحدى لحظات صفائه القليلة كتب بول: كان خالي «إما/ أو»، ووالدي «كلاهما - و»، أنا «لا هذا - ولا ذاك». وكان هذا هو الشخص الذي سمّاه خاله الفخور والمتفائل به، حافِظ نَسَب العائلة في عام 1846. ولم يكن لدى بيتر كريستيان سبب للفرح قطعاً عندما أبلغه ابن أُخته كارل لوند باعتزاز في رسالة بتاريخ 2 حزيران/ يونيو 1876 إن بيتر كريستيان أصبح مرة أخرى خالاً - هذه المرة لصبي وليد سيكون اسمه سورين آبي كيركغارد لوند!

قبيل الكرسمس عام 1875، حين كان بيتر كريستيان يعكف على إعداد موعظة، شَعَر فجأة بدوار وسقط على ظهره. ومع ذلك ظل قادراً على أداء عمله والوعظ في مأوى الفقراء والمشردين. ولكن في 3 آذار/ مارس 1876، قبيل أن يتسلم على ما يُفترض مسؤولية قراءات الإنجيل عن قصة عاطفة المسيح، خارت قواه. وكان طريح الفراش طيلة أشهر الربيع يعاني من آلام في جنبي الأيسر، وقرب قلبي، وكذلك في الفتحة العليا لمعدتي وابتلى بوساوس دينية. وفي 23 نيسان/ أبريل من ذلك العام نفسه قدّم استقالته من منصب الأسقف ليس بسبب المرض بل لأنه شَعر إنه ليس جديراً بتبوُّؤ منصب كنسي. وعلى الغرار نفسه في عام 1879 أعاد أوسمته المَلَكية إلى الحكومة، وفي عام 1884 تنازل عن بلوغه القانوني مكتسباً بإرادته الوضع القانوني لطفل. وفي رسالة إلى محكمة قضايا الإرث والتركات في تلك الفترة اقتبس من رسالة يوحنا الأولى، 3: 15 لتفسير سبب شعوره أيضاً بأنه لم يعد قادراً على أخذ التناول. والنص الإنجيلي المقتَبَس هو الآتي: كلُ من يبغض أخاه فهو قاتلُ نفسٍ، وأنتم تعلمون إن كل قاتلِ نفس ليس له حياة أبدية ثابتة فيه.

ذات ليلة من ليالي شباط/ فبراير 1888، هذا المزيج الغريب من القوة الفكرية المتألقة والتَقَوية الخانقة للعامة، الذي كان سمة مميزة من سمات عائلة كيركغارد، أرخى أخيراً قبضته على بيتر كريستيان كيركغارد، الذي كانت روحه منكسرة بالكامل.

اليوم حين تسأل في آلبورغ أين يرقد لا أحد يعرف عم تتحدث.

من جهة أخرى كان شقيقه الأصغر يعرف كيف يؤمِّن لنفسه موقعاً أكثر ديمومة في التاريخ. وعلى ورقة منفصلة، حجم كوارتو، ربما يعود تاريخها إلى أوائل 1846، سجل بعناية خططه حتى أدق التفاصيل لترتيبات رقعة الأرض التي يكون فيها مدفن العائلة وأين توضع شواهد القبور الرخامية البيضاء لاحقاً: العمود الصغير القائم (الذي يحمل النص المتعلق بزوجة الوالد الأولى) يجب أن يُزال. والسياج الصغير وراءه يجب أن يُغلق. ويجب تصليح السياج الصغير ليكون في حالة جيدة. وداخل السياج مباشرة حيث ينتصب العمود الصغير، يجب وضع شاهد حجري محفور مع صليب من الرخام. وتوضع على هذا الشاهد الكلمات التي كانت سابقاً على العمود الصغير. وسيوضع مسنوداً على هذا الشاهد لوح عليه أسماء الوالد والوالدة والآخرين. وبالطبع إن الوالد هو الذي قرر صيغة الكلمات. ثم يُصنع لوح آخر متجانس مع اللوح آنف الذكر، وعليه يُكتب ما مكتوب الآن على الحجر المسطح الكبير (وإن بحروف أصغر، مرتَّبة بحيث يبقى بينها فاصل أكبر) الموجود فوق القبر - يزال الحجر الكبير بأكمله. كما ينبغي أن يستند هذا اللوح على شاهد القبر. ثم يُسوَّى موقع القبر كله ويُزرع بنوع ناعم من العشب المنخفض، ولكن ستكون لكل من الأركان الأربعة رقعة صغيرة من التراب، وفي كل ركن كهذا يجب أن تُزرع أجمة صغيرة من الورود التركية، كما تُسمى على ما أظن، بعض الورود الصغيرة جداً، ذات اللون الأحمر الداكن. وعلى اللوح (اللوح الذي سيُكتَب عليه ما مكتوب على الحجر المسطح الكبير، ولا سيّما أسماء شقيقتي وشقيقي الراحلين) وبذلك سيكون هناك حيز كبير بحيث يمكن وضع اسمي أيضاً هناك:

سورين آبي، ولد في 5 مايو/ أيار 1813، توفي في «____»

ثم سيكون هناك مجال لقصيدة صغيرة يمكن أن تُنقش بحروف صغيرة:

في غضون وقت قصير
سأكون ربحتُ
المعركة كلها
ستكون محسومة فوراً
وحينذاك لي أن أستريح

في قاعات من الورود
وبلا توقف
بلا توقف
أتكلم مع مسيحـــــي أنا

كان هناك اختلاف فظيع بين هذه التعليمات المرتَّبة وظروف الفوضى التي عمت مراسيم الدفن. ولكن ما هو حتى أشد إحراجاً إن نحو عشرين عاماً ستمر قبل أن يبدأ أحد أن يفعل شيئاً بجدية في هذا الشأن. صحيح أن بارفود لم يكتشف قرارات كيركغارد المتعلقة بموقع القبر إلا في عام 1865، ولكن لم يحدث شيء، وفي وقت متأخر هو صيف 1870، أرسل الملازم الأول أوغست وولف الطلب التالي إلى الأسقف كيركغارد: مناسبة كتابتي إليك هي أن أطلب موافقتك على وضع شاهد على قبر شقيقك الراحل. فكلما أقف هناك يؤذيني أن أراه مهملاً هكذا. ذلك يؤلمني بطريقة ما، ولا أستطيع أن أتخيل إن وضع اسم على القبر سيكون سبباً للدعاية بأي شكل، أو لأي تحريض مزعج. ورغم إن الملازم الأول أكد إن شاهد القبر سيكون بعيداً عن المظاهر الاستعراضية – لا يحمل إلا الاسم سورين أي. كيركغارد – فإن بيتر كريستيان رفض الطلب. وبرر رفضه برسالة تقع في عدة صفحات من التعليل السديمي إلى حد لا يمكن اكتناهه. وبعد مرور بعض الوقت كتب وولف مرة أخرى إلى الأسقف موضحاً بلغة دبلوماسية إن وضع حجر تذكاري على القبر في الحقيقة سيُبقي شقيقك في تواريه الناكر للذات بعمق الذي اختاره. كما اقترح وولف إن الصعوبة يمكن أن تُحل بطريقة سهلة ومناسبة ربما بمجرد أن يكون هذا الفرد الواحد منقوشاً على الحجارة، وهي إمكانية توَّقف عندها كيركغارد نفسه في عمله وجهة نظر.

بيتر كريستيان لم يفعل شيئاً، مثلما لم يفعل شيئاً عندما توفيت زوجته الأولى إليسة ماري بويسن. وأوعز الملازم الأول صاحب المبادرة بتعليق لوحة، على حسابه الخاص، تحمل معلومات عن سيرة حياة الدنماركي الشهير على منزل كيركغارد القديم في 2 ميدان نيتورف. وحين علم بيتر كريستيان بذلك اتسمت الملاحظة التي كتبها في يومياته بمرارة ربما تفسر إبهام رسالته إلى وولف: لوحة مثبَّتة على منزلنا القديم – عن سورين.

ولم يكن هناك تحرك إلا بعد أربع سنوات، في عام 1874، عندما بدأت الصحافة اليومية تشكو من إن كيركغارد يرقد الآن مجهول الهوية منذ زهاء

عشرين عاماً، كأنه موزارت آخر. وطلبت بنات وأولاد أخ يوهان كريستيان لوند النشيطون أن يتحرك لوند. وهنا أعلن بيتر كريستيان، كما هو ديدنه، إنه مستعد لتحمل تكاليف صيانة القبر خلال الأعوام الستين المقبلة.

هذه الأيام يأتي ناس من مشارق الدنيا ومغاربها ويضعون أكاليل من الزهور، ولا سيّما في مناسبات الذكرى العشرية لميلاد الماجستير كيركغارد. وهم يحيون ذكراه بوفاء عميق ولكنهم ينبغي أن يتذكروا أيضاً هذه الكلمات التي نطق بها كيركغارد: لماذا، إذاً، لا يستطيع زمن معاصر أن ينسجم مع شهود على الحقيقة - ولكن ما أن يموت المرء حتى يستطيع الجميع أن ينسجموا معه بصورة رائعة؟ هذا لأنه ما دام على قيد الحياة... فإنهم يحسون بلسعة وجوده، وهو يرغمهم على اتخاذ قرارات أصعب. ولكن عندما يكون ميتاً يستطيعون أن يكونوا أصدقاء طيبين ويعجبون به.

عاد مستر ومسز شليغل إلى بلدهما من جزر الهند الغربية في عام 1860. وكانت صحة فريتز دُمرت هناك، ولم يسترد عافيته قط في الحقيقة. توفّي في عام 1896 ودُفن في مقبرة أسيستنس، على بعد مرمى حجرين من منافسه القديم. وعندما غادرت ريجينة شقتها في ميدان الهامبرافي لزيارة قبر زوجها - طالما إنها في الحديقة التذكارية في كل الأحوال - أليس من الجائز إنها مشت، بهدوء ودون أن يلحظها أحد، إلى قبر كيركغارد؟ هذا ما فعلته حين كان الرجلان على قيد الحياة - سارت في طرقها هي. وذاك، الرجل الراقد هناك، هو الذي، رغم كل شيء، قال لها ذات مرة بما إنه ليس هناك في الجنة زواج ولا عطاء في الزواج فإن ثلاثتهم سيكونون معاً في العالم الآخر، فريتز وسورين وريجينة.

مصادر الصور

الخريطة 1: كوبنهاغن، 1844. من Bruce H. Kirmmse, ed., Encounters with Kiergegaard (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1995).

الخريطة 2: زيلاند الشمالية، القرن التاسع عشر. من Bruce H. Kirmmse, ed., Encounters with Kiergegaard (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1995).

الخريطة 3: الدنمارك، القرن التاسع عشر. من Bruce H. Kirmmse, ed., Encounters with Kiergegaard (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1995).

1 – صورة، غفل من التاريخ، متحف مدينة كوبنهاغن.

2 – لوحة للفنان أف. سي. كاميرات، غفل من التاريخ. متحف التاريخ الوطني الدنماركي في فريدريكسبورغ.

3 – لوحة للفنان أف. سي. كاميرات، غفل من التاريخ. متحف التاريخ الوطني الدنماركي في فريدريكسبورغ.

4 – رسم من تنفيذ نيلسن كريستيان كيركغارد، 1838. متحف التاريخ الوطني الدنماركي في فريدريكسبورغ.

5 – صورة فوتوغرافية، حوالي عام 1865. المكتبة الملكية (كوبنهاغن).

6 – قناع الموت، 1838. متحف باكيهوس، فريدريكسبورغ.

7 – رسم للفنان كريستن كوبكه، 1833. المجموعة الطباعية، المتحف الملكي للفنون الجميلة.

8 – صورة فوتوغرافية، حوالي عام 1870. متحف مدينة كوبنهاغن.

9 – صورة فوتوغرافية، غفل من التاريخ. المكتبة الملكية (كوبنهاغن).
10 – صورة فوتوغرافية، حوالي عام 1860. متحف مدينة كوبنهاغن.
11 – رسم من تنفيذ نيلسن كريستيان كيركغارد، حوالي عام 1840. فوتوغراف. المكتبة الملكية (كوبنهاغن).
12 – لوحة للفنان أميل بارينتزين، 1840. متحف مدينة كوبنهاغن.
13 – صورة فوتوغرافية، 1890. متحف مدينة كوبنهاغن.
14 – طباعة حجرية للوحة الفنان ديفيد مونيز، 1844. المكتبة الملكية (كوبنهاغن).
15 – مقطع من لوحة للفنان سي. أي. ينسن، غفل من التاريخ. بيت هانز كريستيان أندرسن، أودينسة.
16 – صورة فوتوغرافية، حوالي عام 1860. متحف مدينة كوبنهاغن.
17 – صورة فوتوغرافية، غفل من التاريخ. المكتبة الملكية (كوبنهاغن).
18 – من جريدة كورسارن، 6 آذار/ مارس 1846.
19 – رسم من تنفيذ ديفيد ياكوبسن، 1840. المكتبة الملكية (كوبنهاغن).
20 – صورة فوتوغرافية، غفل من التاريخ. المكتبة الملكية (كوبنهاغن).
21 – صورة فوتوغرافية، حوالي عام 1860. متحف مدينة كوبنهاغن.
22 – صورة فوتوغرافية، غفل من التاريخ. المكتبة الملكية (كوبنهاغن).
23 – صحيفة برلينغسكة تيدندة، صباح الجمعة، 20 كانون الأول/ ديسمبر 1850.
24 – صورة فوتوغرافية، غفل من التاريخ. المكتبة الملكية (كوبنهاغن).
25 – صورة فوتوغرافية، غفل من التاريخ. المكتبة الملكية (كوبنهاغن).
26 – طباعة حجرية، غفل من التاريخ. المكتبة الملكية (كوبنهاغن).
27 – طباعة حجرية، 1862. المكتبة الملكية (كوبنهاغن).
28 – صورة فوتوغرافية، حوالي عام 1860. المكتبة الملكية (كوبنهاغن).
29 – صورة فوتوغرافية، حوالي عام 1875. المكتبة الملكية (كوبنهاغن).
30 – صحيفة برلينغسكة تيدندة، الخميس، 24 أيار/ مايو 1855.
31 – رسم من تنفيذ أتش. بي. هانسن، 1845. المكتبة الملكية (كوبنهاغن).
32 – صحيفة برلينغسكة تيدندة، صباح الجمعة، 16 تشرين الثاني/ نوفمبر 1855.

المحتويات

توطئة...9
مقدمة للطبعة الإنكليزية........................ 15
مقدمة وشكر من المترجم........................ 17
الجزء الأول 23
1813 – 1834 25
1835 72
1836 88
1837 137
1838 166
1839 191
الجزء الثاني 217
1840 219
1841 242
1842 250
1843 268
1844 328
1845 369
الجزء الثالث 451
1846 453
1847 556
الجزء الرابع 629

1848 631
1849 681
1850 761
1851 791
1852 809
1853 818
الجزء الخامس 855
1854 857
1855 872
مصادر الصور 957